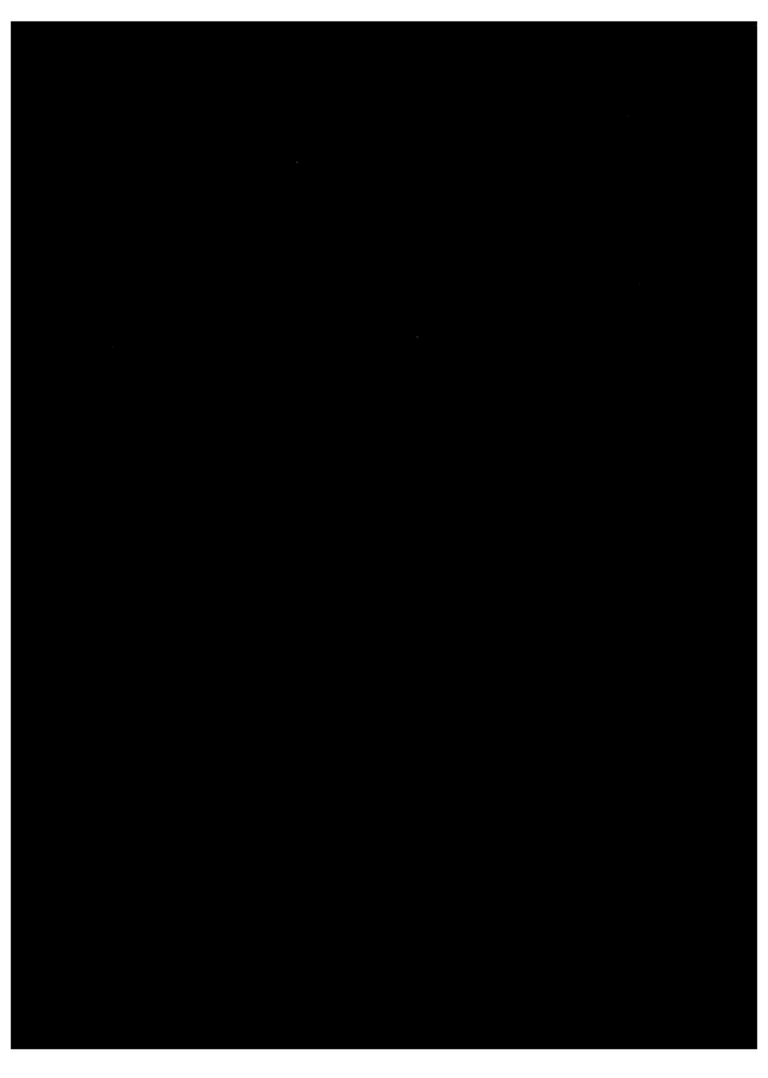
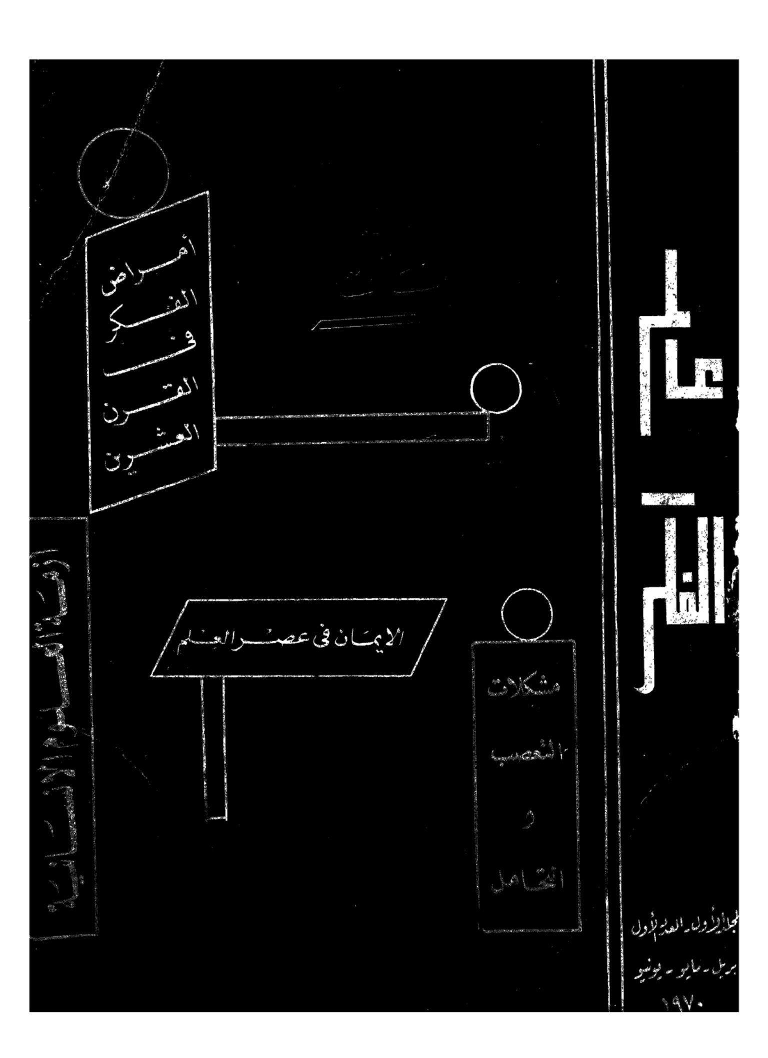



عالم الفكر
أمراض الفكر في القرن العشرين
الايمان في عصر العلم
مشكلات التعصب و التكامل
أزمة العلوم الانسانية
المجلد الأول - العدد الأول
بريل - مايو - يونيو
١٩٧٠

عالم الفكر

رئيس التحرير :
احمد مشاري العدواني

مستشار التحرير :
احمد ابو زيد

مجلة دورية
تصدر
كل ثلاثة اشهر
عن وزارة
الارشاد والانباء
في الكويت

ابريل ـ مايو ـ يونيو
١٩٧٠

●●●

المراسلات باسم :
الوكيل المساعد
للشئون الفنية
وزارة الارشاد والانباء
الكويت
ص . ب ١٩٣

المحتويات

كلمة سعادة وزير الارشاد والانباء ....
الافتتاحية بقلم رئيس التحرير ....

عصر الازمات

تمهيد — مستشار التحرير ٧
امراض الفكر في القرن العشرين — محمد زكي العشماوي ١٣
التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث — حازم الببلاوي ٤٥
مشكلات التعصب والتحامل — سعد عبد الرحمن ٨٣
الايمان بالله في عصر العلم — محمد عبد الهادي ابو ريده ١٣٣
ازمة العلوم الانسانية — احمد ابو زيد ١٩٥

* * *

آفاق المعرفة

وديعه طه النجم — العلاقات بين العلماء في العصر العباسي ٢٣١
ترجمة لصدقي حطاب — برتراند راسل ٢٦٥

* * *

خبرات وتجارب

بول غليونجي — الطبيب الازلي ٢٧٣

* * *

عرض الكتب

سياسات العنف ـ أو الثورة في عالمنا المعاصر ٢٩١
أثر الاسلام على افريقيا ٣٠١
من الكتب الجديدة ٣١٦

كلمة سعادة وزير الإرشاد والأنباء

لقد أرست وزارة الإرشاد والأنباء أول لبنة في مشاريعها الثقافية حين أصدرت منذ أكثر من أحد عشر عاماً العدد الأول من مجلة العربي ، وهي المجلة الغنية عن التعريف .

وكانت الخطوة التالية هي إصدار سلسلة التراث العربي ، والغرض منها هو إحياء التراث ، عرفاناً بالثقافة الأصيلة ، وبرّاً بالآباء ، ورغبة في نشر ما هو جدير بالإحياء .

وخطوة ثالثة خطتها الوزارة في مجال النهوض بالآداب والثقافة العربية ، حين بدأت في أواخر العام الفائت بإصدار سلسلة " من المسرح العالمي " وهي شهرية وتترجم إلى اللغة العربية الفصحى عيون المسرحيات العالمية ، وتقدم للقارئ العربي ثقافة مسرحية شاملة ، بغية إرساء قواعد هذا الفن على أسس متينة ، ولتكون عاملاً مهماً في خلق نهضة مسرحية عربية .

واليوم ، وقد لمسنا الحاجة الماسة إلى المزيد من الجهد والعمل في خدمة الثقافة العربية ، نخطو خطوة أخرى إلى الأمام بإصدار مجلة " عالم الفكر " وهي مجلة تصدر مرة كل ثلاثة أشهر ، وتخدم أغراض الخاصة من المثقفين والمفكرين ، إذ تحوي من الدراسات أعمقها ، ومن الأبحاث والتحليلات لمختلف المواضيع أوسعها شمولاً وأدقها تفصيلاً ، وهي في معالجتها لمختلف مواضيع الفكر والثقافة تنتهج نهجاً فريداً ، وتطل من أبوابها المشرعة على حقول الفكر وآفاقه الواسعة في شتى أنحاء العالم ، قديمه وحديثه ، نستنشق هواء الفكر النقي ، شرقيه وغربيه ، دون قيد أو عائق .

وضمن هذا الإطار وبهذا المفهوم نقدم هذه المجلة .

والله ولي التوفيق ،

جابر العلي السالم

الافتتاحية

باسم الله نبتدىء ، وعليه نتوكل

وبعـد ،

فبمشيئة اللـه تصـدر مجلـة عالم الفكر .. ليكون لها شرف الاسهام فى خدمة الثقافـة العربية ، كما تكون ساحة لقاء لرجال القلم العربي – على اختلاف مناهجهم ومشاربهم – لتوثيق روابط الفكر والروح ، والعمل الجامع فى سبيل القضايا المشتركة .

ونرجو ان تجد الأقلام العربية على صفحات هذه المجلة ما يحبب اليها الكتابة فيهـا ، والتعاون معها ..

هذا، وسوف تحاول هذه المجلة أن تتحرر من كل ما يحول دون إنطلاق الفكر ، أو ينحرف بالنظرة العلمية عن اتجاهها ، لغرض ما .. تحاول أن تتحرر من كل ذلك، لتكون خالصة للمعرفة والحقيقة .. ولتتسع لكل ما تضطرب به مدارس الفكر والأدب والفن ، ولا تضيق بشيء منها وان أسرف بالاغراب .. بل ستجد من يتناولها بروح نزيهة ، ويعرضها بكل ما فيها من جوانب القوة وجوانب الضعف ، كما سيلقى مؤيدوها ومعارضوها نفس التقدير من المجلة ، وتدع للقارىء الواعي مهمة الحكم لها أو عليها ، فليس من شأننا أن نقف موقف الوعاظ فى محاريب الفكر ...

ولسوف نرضي – بقدر الامكان – طائفة من القراء تهوى الدراسات الجـادة ، ذات الطابع العلمي المكين ، وقد لا تتاح لها الفرصة فى مجلة عربية ، تهتم بمختلف شئون المعرفة البشرية على وجه شامل ..

وأملنا ان نحقق ابتداء من هذا العدد ، والأعداد المقبلة ، الخطوات الضرورية التى لا بد منها ، للوصول الى الغاية المنشودة .

وبالطبع ، فحرية المجلة جزء من حرية الكاتب ، لذلك فليس لنا اشتراط على الكاتب الا ما يمليه عليه ضميره، والا ما تتطلبه أصول البحث والدرس ، وما توجبه كرامة القلم . أما ما عدا ذلك فموكول الى عقيدة الكاتب ونظرته ... ان ضمان حرية الكاتب هو أول الطريق لضمان حياد المجلة وتحررها ، وسوف تلتزم بهذا الحياد ، وبهذه الحرية ، لايماننا بأن اسلم طريق للوصول الى الحقيقة ، هو من خلال حوار الأفكار وجدالها .. وان للكلمة الحرة فاعليتها ودورها الواضح البين فى اثراء حياة الانسان ، وفى اضاءة طريقه الى التقدم والازدهار ..

وعلينا الا ننسى اننـا نحن العرب ، امة ورثت رسالة خالدة معجزتها الكلمة ، فبالكلمـة نزلت الينا رسالة السماء ، وتحت راية الكلمة خرجت من جزيرتها تدعو الناس كافة الى دين الله .. وبالكلمة انتصرت ، وبالكلمة سادت ، ولما تضاءل شأن الكلمة وانحط قدرها ، وما عاد لها الأثر الفاعل فى سلوكنا وتصرفاتنا، اشتبهت علينا المسالك ، وتقطعت بنا الاسباب ..

لذلك ، فنأمل ان يكون لهذه المجلة شيء من المشاركة فى التبشير بما تنطوى عليه الكلمة من اشراق ومسئولية والتزام امام ضمير الكاتب ،كما كان لها فى نهار المجد العربي ..

ولا شك أن هنالك عوائق كثيرة تعترض مسيرة التقدم العربي . . انها تركة سوداء تحدرت الينا من عصور سود . . وكورها علينا التخلف سنين طوالا . . حتى ظهرت وكأنها شيء مركوز فى طباعنا لا فكاك منه . . ولكن ، مما لا شك فيه ايضا ان اطلاق الفكر العربى ليتعامل مع الحضارة القائمة بسعة وعمق وحرية ، دون قيود ، وبلا حدود ، هو أحد الشروط الأساسية التى تضع أمتنا على طريق التقدم .

ان الوصاية على الفكر وعلى الانسان أيا كان نوعها ومهما كان الدافع اليها ، اهانة وازدراء للفكر ، وللانسان . . وهي ظواهر مرضية فى حياة الشعوب ، تحمل كل أعراض التأخر .

وأول خطوة للتقدم، وللانتصار على التخلف فى شتى المجالات ، رفع هذه الوصاية عن الفكر وعن الانسان ، وتوفير جو صحي ، تحكمه الحرية والمسئولية .

ولنا فى تاريخ العرب الحضارى قدوة ومثال ، لقد أقبلوا وهم فى ذروة انتصاراتهم على التراث الانساني فأوسعوه فهماً وعلما وهضما ،ثم غربلوه واضافوه الى ما عندهم حتى صار جزءاً أصيلا من التراث العربي المضيء . .

ولم يبخل العرب بالتقدير ، بل والمبالغة بالتقدير احيانا على حكماء فارس والهند واليونان ونسبة كل جليل وعظيم اليهم . .

اذن فالتفاعل مع التراث العالمي عادة عربية أصيلة حين كان للعرب بيان وسلطان .وكانت ارادة الخلق والابداع ، لم تطفأ لها نار . وما تلك الحضارة الاسلامية الزاهرة الا ثمرة ذلك التفاعل . . ولا تزال أكثر نواحي تراثنا اثارة ذكرى ذلك اللقاء العظيم بين العرب وتراث العالم .

فالدعوة الى استيعاب التراث العالمي المعاصر ، والانفتاح على روافده ، والحوار معه ، لاخصاب الحياة العربية ، وتجديد معالمها ، ليست شيئا غريبا على النفس العربية . . انها استئناف تقاليد كريمة سابقة لنا . انما الغرابة هذا الانطواء على الذات ، وهذه العزلة عن روح العصر ، وهذا الاستغراق فى أحلام التاريخ ، ثم المجاهرة بالعداء أو التشكيك تجاه كل تجربة انسانية رائدة . .

الانسان العربي الجديد فى هذا العصر مطالب بمهمات ثقيلة ، لم يعرف لها مثيل فى سابق حياته ، وقل نظيرها فى حياة غيره ، ولا بد للانسان العربي من انجاز هذه المهمات بشجاعة . . اذا شاء أن يحتفظ لنفسه بحق الحياة الحرة . . وتكون له صولة ودولة فى هذه الدنيا ، وهو لن يقدر على ذلك الا اذا أعد نفسه اعدادا حضاريا يتسم بروح العلم . وقرر الاقدام على أروع للفكر ، وللانسان . . وهي ظواهر مرضية في حيافة بينه وبين موكب العصر الظافر .

وبعد ،

فبناء على ايماننا الذى لا حد له بقدرة الانسان العربي على الحركة واحتواء التراث الانساني ، وايماننا بقدرة التراث الانساني على صقل الشخصية العربية وامدادها برصيد لا ينفد من الطلاقة والخبرة والمعرفة، وايمانا منا بقدرة الانسان من حيث هو انسان على التقدم والازدهار فى ظل العلم والحضارة والمدنية . . ايمانا منا بكل هذا نفتح صدر هذه المجلة ، لكل ما يحقق أهداف التقدم العربي .

والله من وراء القصد ،،

احمد العدواني

والعلاقات والدوافع والنظم والقيم الانسانية وما اليها . والواقع أنهم يتعرضون لهذه الامور فى كتاباتهم حتى وان لم يقولوها بصراحة أو لم يذكروها فى تلك الالفاظ والحدود. ويبدو هذا واضحا فى كتابات اثنين من كبار المدافعين عن « علمية » علم الاجتماع والأنثرپولوجيا وهما دوركايم وراد كليف براون.(٥٦) فالدين مثلا لن يمكن فهمه عن طريق معرفة عدد المساجد أو الكنائس أو المعابد فى المجتمع وعدد المترددين عليها فى كل صلاة أو عدد الذين يتقدمون بتظلماتهم لاضرحة الاولياء وانواع التظلمات التي يرفعونها الى هؤلاء الاولياء واذا ما كانت هذه التظلمات والشكاوى تكتب بالحبر او الرصاص كما ظهر فى كتاب حديث عن هذا الموضوع فى مصر . كذلك لن يمكن فهم العائلة كنظام اجتماعى عن طريق دراسة عدد البيوت وعدد طوابقها وعدد الغرف فيها وطريقة بنائها والمواد المستخدمة فى البناء ووسائل التهوية والاضاءة ولا حتى عدد افراد هذه العائلات الذين يعيشون معا تحت سقف واحد أو فى بيوت متفرقة، وما الى ذلك من المعلومات العددية التى لا شك فى اهميتها ولكنها لا تكفى اطلاقا لفهم هذين النظامين الاجتماعيين ، انما الذى يجدى فى فهم النظم هو دراسة الحالات الذهنية المتصلة بها وأثرها فى فئات معينة من الناس فى مواقف معينة بالذات . ويصدق هذا بشكل او باخر على كل العلوم الانسانية . بل ان علماء الاقتصاد انفسهم كثيرا ما يضيقون بحذود وقيود النظريات الاقتصادية الصورية ويثورون عليها ويعطون بعض اهتمامهم لدراسة الدوافع الحقيقية لسلوك الناس فى مواقف اقتصادية معينة وبذلك يدخلون ميدان الفلسفة دون أن يدركوا ذلك، مثلما فعل سمنر Sumrer وفبلن Veblen ونايت F.H. Knight وغيرهم . وربما كان هذا هو السبب فى الاهتمام الزائد الذى يوليه علماء الاجتماع والانثرپولوچيا بالذات لدراسة نسق القيم . اذ مهما بلغت المعلومات التى يحصل عليها السوسيوچيون والانثربولوچيون عن سلوك الناس فى المجتمع من الدقة والتفصيل والكثرة فلن تكون لها اهمية حقيقية الا اذا درست فى ضوء نسق القيم السائد فى ذلك المجتمع ، وذلك على اعتبار ان اختيارات الانسان وتفضيلاته والمعايير التى تتحكم فى عملية الاختيار والمفاضلة هى التى تؤلف فى الحقيقة موضوع العلم الاجتماعى . وهذه المعايير هى قبل كل شيء مستويات خلقية وعقلية ، ومن هذه الناحية فانها تكون اقرب الى مجال الادب والفلسفة منها الى العلوم الطبيعية (٥٧) . وكما يقول جون كيمينى « انه فى الصعب ان تبقى المعانى العاطفية بمعزل عن الفرضيات ، فكل منا يهتم لما تنطوى عليه الافعال من تضمينات اخلاقية . ذلك لانه من الصعب ان يصار الى صياغة النتائج المتوقعة للجهود البشرية فى قالب خلو من الشعور . ونحن ندرك اليوم فى دراستنا لتاريخ قوانين حركات الاجرام السماوية كم كان حظ علماء الفلك عظيما لانه لم يكن يهمهم ما هى مدارات تلك الاجرام طالما كان باستطاعتهم وصفها بدقة .. أما العلوم الاجتماعية فان الصعوبة هى ان الضغط للوصول الى نتائج مرغوبة لا ياتى من خارج نفس العالم بل من داخلها . فهو يود لو يستطيع الاعتقاد بان بعض الأفعال تؤدى الى المرغوب من النتائج »(٥٨) .

---

(٥٦) انظر على الخصوص Durkheim,E , Les Formes Elementaires de la Vie Religieuse, Radcliffe-Brown, A.R , The Andaman Islande rs.

(٥٧) Redfield, op. cit, PP.48-49

(٥٨) كيمينى : المرجع السابق ذكره ، صفحتا ٣٦١ ، ٣٦٢

فى أمريكا ترد الى تأثير الدعايات الشيوعية المغرضة التي تسمم عقول الشباب ، فى الوقت الذى ترد حركات التمرد فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا الى الدعايةالرأسماليةالمسمومة . (راجع فى ذلك:
Bronowski J., "Protest: Past and Present", **The American Scholar**- Autumn, 1969, P. 537.)

ومن السخرية أيضا أن يسهم فى قيام هذه الازمات بنصيب فعال أحد الانجازات الهامة الجبارة فى تاريخ الانسانية ، ونعني بذلك تقدم العلوم الطبيعية والبيولوجية . ولقد أدى التقدم العلمي فى كثير من العصور الى حدوث هزات عنيفة وعميقة فى حياة الانسان حين كشف عن أسرار الكون والمركز الحقيقى الذى يحتله الانسان فيه مثلما حدث حين خرج كوبرنيكوس بنظريته عن النظام الشمسي التي زعزعت ثقة الانسان فى نفسه وفى الكوكب الذى يعيش فوقه ، والذى كان يعتبر نفسه هو مركز كل شيء ؛ ومثلما حدث أيضا حين طلع داروين بنظريته عن أصل الانواع وتبين للانسان انه على الرغم من كونه سيد الخلائق بما يتمتع به من ملكات وقدرات وينفرد به من نسق للقيم الروحية والخلقية والجمالية ، فان مكانه الصحيح ـ من الناحيتين البيولوجية والانثربولوجية على الاقل ـ هو بين الحيوانات ، وبين القردة العليا بالذات . ثم تمر السنون لكي يطلع على الانسان من علماء هذا العصر من يجاهر بامكان التحكم في عملية الخلق ذاتها ، وامكان « صنع » الانسان ذاته في المعامل وفي أنابيب الاختبار . وثمة تجارب كثيرة ومتصلة تجرى الآن فى هذا الميدان فى عدد من دول الغرب . وبصرف النظر عما قد تنتهى اليه هذه التجارب فان دلالتها واضحة .. فلم تعد هناك ميادين مقدسة بحجم العقل البشرى عن اقتحامها في ارتياده آفاق البحث العلمى . واذا كان هذا يعتبر شاهدا ودليلاعلى قوةالعقل البشرى وقدرته على البحث وعلى الابداع فان نتائج بحثه كثيرا ما تؤدى الى زعزعة ثقة الانسان فى نفسه والى شعوره بضآلته وتشكيكه في كثير من مقومات الحياة الانسانية والاجتماعية التى يحياها ،واستسلامه لليأس والقلق اللذين يعتبران من أهم سمات الحياة في العصر الحديث .

ولقد وصل التقدم العلمى في مجال العلوم الطبيعية بالذات الى درجة جعلت الانسان نفسه يقف مبهورا وشبه عاجز أمام صنع عقله الخلاّق . ودخل العالم فى عصر جديد يقوم على تمجيد العقل البشرى وتأليه العلم . الا أنه على الرغم من كل ما قدمه العلم للانسانية من خير فقد جلب عليها كثيرا من الشرور والآلام . وقد لا يكون العيب في العلم كعلم بقدر ما هو في طريقة استخدامه . والواقع أنه يُستخدم فى كثير من الأحيان بطريقة تدل على عدم تقدير المسئولية ، كما هو الحال في صنع الأسلحة الفتاكة بما فيها الاسلحة الكيماوية ان صح هذا التعبير ، وفى صنع أجهزة التجسس التى تستخدمها كثير من اجهزة الحكم في الدول المختلفة للتجسس على حياة الأشخاص ومراقبتهم والايقاع بهم أو التجسس على الدول الاخرى كوسيلة هامة من وسائل الاستعداد للحرب،على نحو ما تفعل على الخصوص وكالة المخابرات المركزية في امريكا التى يبدو أنها طورت أساليب التجسس العلمية الى حد يفوق كل تصور . واذا كان هناك ما يبرر تسخير العلم لكسب الحرب والحاق الهزيمة بالاعداء ، فمن الصعب تبرير تسخيره فيأعمال التجسس وبخاصة على حياة الافراد العاديين في حياتهم الخاصة التى لهم الحق في أن يحيوها كيفما شاءوا، مادام ذلك لا يؤدى الى الاضرار بالغير أو المجتمع . ولقد بلغ من استخدام أجهزة التجسس على حياة الأفراد الخاصة فى امريكا حدا جعلت أحد الكتّاب يطلق على المجتمع الامريكي اسم «المجتمع العارى» ، اذ لم يعد الفرد العادى يشعر بأن له حياة خاصة يخفيها عن الآخرين ويحتفظ بها لنفسه بعيدة عن عيون وآذان الناس ، وانما أصبحت حياته وعلاقاته وتحركاته كلها معروفة ومكشوفة تماما ، مما يجعله يشعر طول الوقت بانه يسير عاريا بين الناس ، وهو شعور مؤلم بغير شك (انظر فى ذلك : كتاب پاكارد (Pakard, V.; **The Naked Society**, Pelican 1966 . والاكثر من ذلك أن العلم

أدى الى ظهور كثير من المشاكل التي لم يكن لها وجود من قبل . بل ان بعض هذه المشاكل ظهرت كنتائج مباشرة لبعض الانجازات العلمية التي كان يراد بها الخير ، والتي حققت كثيرا من الخير بالفعل . فالطب الحديث القائم على اسس علمية سليمة أفلح فى القضاء على كثير جدا من الامراض والاوبئة ، أو على الاقل اكتشف أسبابها ووسائل العلاج والوقاية منها . الا أن ذلك أدى الى ظهور مشاكل لم تكن فى الحسبان ، وهي مشاكل ذات طابع اجتماعي فى الاغلب ، لان التغلب على المرض ترتب عليه هبوط معدلات الوفاة واطالة متوسط فترة الحياة ، مما ادى الى الزيادة الهائلة فى السكان ، بحيث كادت بعض المجتمعات تختنق تماما بسكانها . ونجم عن ذلك انتشار أمراض جديدة متعلقة بازدحام المجتمعات المحلية بسكانها ، بالاضافة الى سوء التغذية وانخفاض مستوى المعيشة ، والفقر وقلة العمل ، وانتشار البطالة والجريمة وامراض الشيخوخة وما الى ذلك . واذا كان العلم قد توصل الى اكتشاف حبوب منع الحمل لضبط النسل والتحكم فيه فان ذلك ارتبط بظهور كثير من الآثار الجانبية التي تعاني منها النساء . واذا كان العلم ساعد على تقدم التكنولوجيا وارتبط ذلك بالتقدم الصناعي وزيادة الانتاج فقد أدى ذلك نفسه الى تلوث الهواء فى المدن الصناعية وانتشار أمراض معينة وهكذا .

ولقد كانت النتيجة المترتبة على هذا كله انتشار موجات غريبة ومتناقضة من السخط والتمرد على كل شيء بما فى ذلك العلم ذاته ، على الرغم من الموجة الجارفة التي تمجد العلم والتفكير العلمي . وهو تمرد ينبع من فقدان الثقة فى كل ما يحيط بالانسان وحياته فى المجتمع بما فى ذلك العلاقات الشخصية والقيم المتوارثة ونظم الحكم والعلم والادب والسياسة والاخلاق والمشتغلين بها على السواء . ولقد كان النجاح الهائل الذى حققته العلوم الطبيعية هو السبب فى تمجيد العلم والعقل والتفكير العلمي الخالص والتمرد على كل ما عداها ، كما كان اخفاق العلم فى أن يسمو بالانسان على نفسه وتسخيره بدلا من ذلك فى الحرب والتدمير والخراب هو السبب فى التمرد عليه نفسه . واحس الانسان ازاء هذا كله بالضياع ، خاصة وأن القيم الروحية والدينية — التي كانت تمده بكثير من القوة والعزم وتزوده بطاقة روحية هائلة تساعده على التغلب على الشدائد والازمات — عانت الشيء الكثير من تقدم العلم وسيطرته على الاذهان . فقد أصبح الايمان بالعلم يمثل العقيدة الكبرى أو حتى الوحيدة عند نسبة كبيرة جدا من الناس فى الغرب ، فضعف سلطان الدين ووصلت موجة الشك فيه وفى فاعليته ووظيفته فى الحياة ذروتها عند الشباب الذين يمثلون على اى حال جيل المتمردين والذين يعانون من هذه الازمات أكثر من غيرهم . ومما له دلالته فى ذلك ظهور أعداد كبيرة من الكتب فى السنوات الاخيرة تعالج شئون الدين فى الغرب . وكثير من هذه الكتب يسخر علانية من الدين والكنيسة أو على الاقل يسخر من الوضع الذى وصل اليه الدين فى العصر الحالي ويرى فى صورته الراهنة مجرد مسخ مشوه ، وأنه احد مخلفات الازمة والعصور السابقة السعيدة ، وأنه بوضعه الراهن أيضا أضعف واعجز من أن يثبت أمام زحف الآلة وزحف العلم وأنه قد انحرف عن الطريق الذى كان يسير فيه وسقط من المكانة السامية التي كان يحتلها بحيث أصبح يقف الآن وحيدا فى عالم غريب عنه تماما (انظر فى ذلك مثلا كتاب : **(Basil Willeh; Religion Today)**

بل اننا نجد رجلا من كبار رجال الكنيسة فى بريطانيا وهو الدكتور جون روبنسون John Robinson — اسقف وولويش السابق — يعترف فى كتاب ظهر له أخيرا بعنوان « الحرية المسيحية فى المجتمع المتهاون **" Christian Freedom in a Permissive Society, S.C.M Press "** ان المسيحية تمر بمرحلة خطيرة تعاني فيها خطر التدهور السريع الذى لا يمكن ايقافه ». ويكرر هذا القول ، وامثاله فى أكثر من موضع فى الكتاب ، بحيث لا يملك احد النقاد فى مجال عرضه لذلك الكتاب نفسه من أن يلاحظ أنه لو صدق كل ما جاء فيه فان الدين يكون قد فقد بذلك

كل سيطرته على مخيلة المجتمع الغربي الحديث ، لدرجة أن نسبة متزايدة من الناس في انجلترا ـ التي يصفها بأنها اصبحت بلادا وثنية ـ ينشدون السلوى والعزاء وقت الازمات والشدائد عند المهرجين وفي موسيقى الجاز الصاخبة اكثر مما ينشدونه عند المسيح وفي الكنيسة . راجع في ذلك مقال

Dennis Potter, " New and Improved Pie in the Sky ", The Times Saturday Review, Feb. 28, 1970.

واذا كان كارل ماركس قال جملته التي يتشدق بها كثير من المتمردين من ان الدين هو افيون الشعوب فان متمردا آخرا معاصرا لنا وهو الدكتور تيموثي ليري Timothy Leary الذى ساعد مساعدة فعالة على انتشار عقار الهلوسة المعروف باسم L.S.D بين طلبة جامعة هارفارد يقول ان المخدرات هي دين القرن الحادى والعشرين وان اى محاولة للتمتع بالتجربة الروحية الدينية بدون تعاطي هذه المخدرات تكون أشبه بمحاولة دراسة الفلك عن استخدام العين المجردة .

والتمرد على الدين ليس الا صورة واحدة من صور التمرد على المجتمع وقيمه ومثله العليا التقليدية التي تنعت بالتزمت والتخلف وعدم مسايرتها لروح العصر ، كما وصف المتمسكون بها بضيق الافق والنفاق وانهم يتصرفون في حياتهم الخاصة بعكس ما توصي به تلك القيم والمثل العليا التي يتظاهرون باتباعها والتمسك بها . واذا كان العلم الذى هو سمة العصر يحرر الفكر من خرافات الميتافيزيقا ومن الغيبيات ويهتك الستر عن الاحداث والوقائع المجهولة فان انسان عصر العلم خليق بأن يتخلص هو نفسه من أوهام الماضي وتقاليده ويتحرر من قيوده وتحريماته ويغزو كل ميادين الحياة التي كان محرما عليه دخولها وان يعبر بصراحة وامام الملأ عما يشعر به وان يتصرف وفق ذلك . وليست حركات الشباب المتمرد وجماعات الهيبيز الا تعبيرا عن هذه النظرة . وكما تقول احدى فتيات الهيبيز الفرنسيات في تعريفها بنفسها وبكتاب لها عن بعض نواحي حياتها : ان عمرها ٢١ سنة ، ومهنتها عضو في احدى جماعات الهيبين ، وديانتها البحث عن الحقيقة خارج المجتمع وفوق المجتمع عن طريق التحدى السافر وبطريقة منهجية منظمة للتحريمات والقيود المفروضة عليها ، وذلك عن طريق اتباع حياة « روحية مسالمة وجمالية من أجل تحقيق السعادة » . وواضح هنا أن كلمة « روحية » تشير الى تعاطي المخدرات ، وكلمة « مسالمة » تعني « سلبية » ؛ اما كلمة جمالية فتعني في الاغلب « جنسية » . بل ان هذا الموقف المتمرد الذى يعبر عن نفسه بالاغراق الجنسي والمخدرات ، والذى قد يتخذ في بعض الاحيان شكل العنف يجد من بين الكتاب ورجال الفن من يدعو اليه بشكل او بآخر كوسيلة للتحرر من القيود التي فرضها المجتمع على أفراده . ويظهر هذا في الطوفان الجارف من الروايات والمسرحيات والافلام التي تدور حول الجنس والعنف لدرجة أن احد النقاد الامريكيين يقرظ احدى الروايات ويرفعها الى أعلى مستوى من الابداع الفني ويدعو لقراءتها لا لشيء الا لانها تتضمن وصفا دقيقا وأمينا للاغراق في ممارسة العادة السرية .

ولم يسلم المثقفون وكبار الكتاب من هجوم المتمردين لموقفهم السلبي الواضح من معالجة قضايا العصر وعيوب المجتمع في امانة وجراة وصراحة ، واعتبروا ذلك الموقف السلبى دليلا آخر على « خيانة المثقفين » الذين يفضلون الركون الى حياة الترف الهادئة الناعمة ، وبخاصة بعد ان حققوا لانفسهم الشهرة وذيوع الصيت، وتركوا حياة الكفاح والدفاع عن القضايا التى يؤمنون بها ، والتي كثيرا ما تتعارض مع وجهات نظر الجهات الرسمية والطبقة الحاكمة . ولقد كان هؤلاء الكبار انفسهم من المتمردين في شبابهم ولكنهم اخفقوا في ان يسايروا حركة التطور

فتخلفوا عن سير الاحداث ، وأصبحوا من دعاة التريث والسلبية والجمود ، وساروا فى ركب المنافقين والمتقربين لاصحاب الجاه والسلطان بعد أن كانوا من الليبراليين .

واخيرا جاءت الثورة على العلم نفسه باعتباره اصل كل ما يعانيه العالم الان من ازمات، وظهرت دعوة غريبة تدعو الى الانصراف عن العلم الطبيعى ، او التوقف عن العمل والانتاج فى مجال العلوم الطبيعية ولو مؤقتا ، وتحويل الاهتمام بدلا من ذلك الى الانسانيات Humanities والعلوم الانسانية Human Sciences خاصة وان تقدم المعرفة البشرية فى الفترة الاخيرة لم يكن متكافئا فى كل الميادين بحيث تخلفت العلوم الانسانية عن اللحاق بالعلوم الطبيعية ،وترتب على ذلك كله ما نجده الان من تمجيد للعلوم الطبيعية ، وميل للسخرية من العلوم الانسانية والانسانيات . بيد ان هذه الدعوة للانصراف عن العلم موقف سلبى ولا شك لانها تعنى التراجع والتقهقر الى الوراء ، ونبذ كل ما حققه العلم للآن والتنكر له . ولكن هذه الدعوة ذاتها تبين عمق الازمة التى يمر بها العالم الان وبخاصة فيما يتعلق بموقفه من العلم . ولذا فقد ظهرت فى الوقت نفسه دعوة اخرى اكثر ايجابية لأنها تعترف بأهمية العلم بل وتشجع على الاستمرار فى البحوث العلمية فى مختلف الميادين مع محاولة الاسترشاد فى الوقت ذاته بحاجات المجتمع الفعلية ، وتوجيه هذه البحوث الى ما فيه خير الانسانية وصالحها ، على اعتبار ان الغاية الاخيرة من العلم هى الارتقاء بالانسانية ذاتها ، وان هدفه بالتالى هدف «انسانى» بحت ، مع بذل مزيد من العناية بالعلوم الانسانية والانسانيات ومحاولة احياء القيم الاخلاقية والدينية واعادة ايمان الانسان فى نفسه وفى انسانيته . وانصار هذا الرأى يرون ان الخطأ فى الحقيقة ليس كامنا فى العلم ذاته ، وانما هو يكمن فى الطريقة التى يستخدم بها العلم وفى تطبيق مناهجه . فالشيء الذى يحتاج العالم اليه ازاء هذه الازمة هو ان يرتفع الانسان بفهمه للطبيعة البشرية الى نفس المستوى الذى وصل اليه العلم . وقد ازداد الشعور الان بأنه لن يكون ثمة جدوى او فائدة فيما تحرزه العلوم الطبيعية والبيولوجية من نجاح وتقدم الا اذا وصلت العلوم التى تدرس الطبيعة الانسانية الى درجة مماثلة او على الاقل مقاربة من ذلك النجاح والتقدم ، فحينئذ فقط يكون للعلوم الطبيعية ذاتها مغزى ومعنى ومبرر لوجودها .

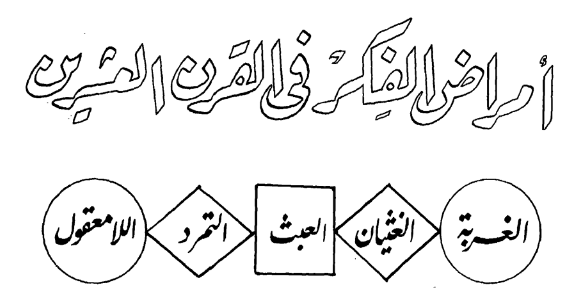
وليس من شك فى أن الاعتراض والاحتجاج والتمرد تعتبر لو أحسن استخدامها من أنجح الوسائل لتغير الاوضاع القائمة فى المجتمع وتحسين ظروف الحياة على العموم . وكثير من الكشوف العلمية والنظريات لم تظهر الا نتيجة لهذا الاعتراض على ماهو قائم على مجالات الدراسات الانسانية والاجتماعية ، بل ان نظريات جليليو وانشتين وغيرهما ليست فى حقيقتها وجوهرها الا نوعا من التمرد على الواقع الذى كان سائدا فى تلك الايام ، وذلك بالتشكك فى طبيعة تلك الاوضاع ومحاولة ايجاد حلول واجابات وتفسيرات لها ومن الطبيعي أن يكون المتمردون من الاجيال الصاعدة وان ينتمى المحافظون الى الاجيال الاكثر تقدما فى السن مع وجود استثناءات من ذلك . واختلاف نظرة الاجيال الى الاوضاع القائمة هو مظهر من مظاهر الازمة الحالية ، وان كان يخلق فى الوقت ذاته وبخاصة فى أمريكا ازمة عنيفة تهدد الاسرة والمجتمع نظرا لما يتميز به ذلك التعارض من عنف واستهتار بالغير من جانب الشباب . و قد تكون هذه الازمات اقوى واشد وضوحا فى الغرب مما هي فى بلادنا . ويرجع ذلك الى حد كبير الى تخلفنا فى ميادين العلم والمعرفة على السواء ، وان كان يمكن ان نجد بعض التفسير لذلك فيما تمر به بلادنا من ازمات من نوع آخر ذات طابع سياسى وحربى على الخصوص مما يمنع من ان تتخذ هذه الازمات التى يمر بها العالم كل تلك الابعاد التى نجدها فى الغرب .

ومما يكن من شىء فقد وجدت هذه الازمات بكل تعقدها وتنوعها وضراوتها مجـالات للتعبير عنها بصور واشكال مختلفـة ، تكشف كلها عن عنصر الثورة على الاوضاع القائمة فى الادب والعلم والسياسة والاخلاق والقيم بل والعلاقات الانسانية . والدراسات الخمس التى يضمها هذا العدد من المجلة تحاول أن تعرض من وجهة نظر كتابها بعض هذه الازمات ، أو على الاصح بعض مظاهرها وان كان الاستاذ الدكتور أبو ريدة آثر ان يوسع من نطاق معالجته للموضـوع بحيث شملت دراسته المعرفة العلمية بوجه عام وليس العلم بمعناه الحديث فحسب ، كما حاول أن يبين نوع الادلة على وجود الله فى الازمنة والفلسفات السابقة قبل ان يتكلم عـن الايمان فى عصر العلم . الا ان هذه الدراسات الخمس تقدم لنا فى مجموعها صورة واضحة عن جانب هام من العصر الذى نعيش فيـه وما يحيط بهـذا العصر من مشكلات .

أحمد أبوزيد

* * *

محمد زكي العشماوي



سميناها أمراض الفكر في القرن العشرين لأنها حالات من انعدام الوزن ينتهي فيهـا تفكير الانسان الى أن الحقيقة الوحيدة في هذا العالم ليست الا الفوضى . وهي حال يتجلى فيها العالم فجأة لصاحبه على حقيقة كريهة ، فلا يرى فيه نظاما ولا معنى ، ولا يجد فيه مبررا لبقائه ، اذ يستحيل على المرء أن يكون متحركا أو عاملا أو حرا أو نافعا أو حتى متقبلا للحياة في عالم غير حقيقي . واذا كان من المحال على المرء ان يقفز وهو ساقط ، فكذلك من المحال على انسان أن يكون حرا في عالم غير حقيقي ، أو قل في عالم مهزوز عديم القيم ، أشبه ما يكون بعالم الأحلام والأوهام منه بعالم الحقيقة .

الدكتور محمد زكى العشماوى استاذ النقد الادبى بجامعة الكويت وجامعة الاسكندرية ، من اهم مؤلفاته : ـ قضايا النقد االادبى (دار الكاتب العربى ١٩٦٧) ودراسات في النقد المسرحى والادب وقيم الحياة المعاصرة (الدار القومية ١٩٦٦) .

ان الحرية آخر الأمر لا ترتكز الا على ما هو حقيقي . انها تفترض حرية الارادة ، والارادة لا تكــون الا بدافع ، والدوافع لا تنهض الا على الايمان ، فلا يقدر أحد على فعل شيء الا وهو يؤمن بأنه فعل ممكن وذو معنى ، والايمان لا يتأتى الا بوجود شيء أو قل بوجود حقيقة ما . ومن ثم فان هذا الاحســاس بانعدام المعنى والنظام من الحياة ، وبعدم توافر الحقيقة فيها سوف يقتلع حريتنا من جذورها اذ لا يمكن لانسان أن يكون حرا في عالم من الأوهام ، أو في عالم غير حقيقي .

واذا انتهى الانسان بتفكيره الى موقف كهذا فلا بد أن ينعدم وزنه ، وتتلاشى الروابط التي تربط بين أجزاء ذاته فتتبعثر هذه الذات وتتفرق ، وعبثا يحاول شتاتها أن يستقيم . من أجل هذا سمينا هذه الحالات الفكرية أمراضــا ، وهي في الحقيقة كذلك مهما دافع عنها أصحابها فزعموا انه لا جدوى من اتهامهم بالمرض ، ذلك لايمانهم بأنهم وحدهم القادرون على رؤية الأمــــور على حقيقتها ، سواء صح ذلك أو لم يصح ، فهم في أحسن الأحوال بل وعلى حد تعبيرهم ، المرضى الوحيدون الذين يدركون أنهم مرضى في حضارة مريضة لا تعي بمرضها ، وهم يرون أن الواجب يقتضيهم أن يجابهوا المرض وجها لوجه ، ففي هذه المجابهــة الحل الوحيد للتخلص من هذا المرض أو الوصول الى النظام الذى يعوزهـــم ويعوز العالم . هذا اذا كان ثمة سبيل الى الايمان بأن لهذا النظام وجودا على الاطلاق .

وهذه المجابهة اذا صحت ، تكون في الحقيقة شيئا ايجابيا جديرا بانتباهنا ودراستنا ، لأنها ــ اذا تحققت ــ ســوف تمثل الجانب الهادف الوحيد في مثل هذه الفلسفة الخطيرة . واذا جاز للمريض أن يجابه مرضه فيسبر أغــوار هذا المرض ، ويتغلغل الى جذوره فيعرف أسبابه ، ويقف على أسراره ، ويلم بما قد يؤدى اليه من نتائج وخيمة فان ذلك قد يمكنه من انقاذ نفسه من الهلاك .

غير أن ثمة عاملا آخر قد يجعل لهذه الاتجاهات العبثية ــ اذا صح لنا أن نسميها كذلك ــ اهمية خاصة تدعونا لتأملها وبحثها ودراستها ، وهو ما قد يكون فيها من خطوة ايجابية تتجه نحو رفض قيم ينبذها انسان لفسادها ، وهذه بدورها تحتاج منه أن يلوذ بنفسه فيفكر ويحلل ويتوغل فى أغماق ذاته بغية اكتشاف الحقيقة . وهذه المحاولة فى ذاتها مفيدة لما فيها من ارتياد جوانب الذات ، ومواجهة الحقيقة من ناحية ، ولما فيها من رغبة مخلصة فى العثور على جواب شاف لعلامات الاستفهام الكثيرة التى تحتاج الى اجابة أو حل من ناحية ثانية . فى هذه الحالة سوف يكون الذى هذا الاتجاه ما يجعله جديرا بالدراسة لأنه سوف لا يشغل نفسه بمشكلة الشر وحدها ، وانما قد يظفر الانسان بدافع آخر كامن وراء أحاسيسه يمكنه من ادراك السر الدفين . وعندئذ قد ينتهى التفكير الى نوع من الهداية تتوهج عندها الحواس جميعا ويصل الانسان الى الاحساس بالانسجام مع الوجود . فليس غريبا أن ينتهي الضلال فى الفكر الانساني بعد أن يطول به التمرد واليأس الى مرفأ يجد عنده الملاذ ، هذا المرفأ قد يكون كشفا صوفيا أو موقفا دينيا .

ومن أجل ذلك كان لا بد لنا أن نلم بهذا الجهد الانساني الضخم الذى قد يبدأ أصحابه بالشكوى من صعوبات الحياة بل قل استحالتها ، وقد يسرفون فى الصراخ من لا معقولياتها ، وقد تمضى عليهم فترة ، تطول أو تقصر ، وهم فاقدو الايمان منهوكو القوى ، عديمو القــدرة على السلوك ، ثم ينتهى بهم المطاف قبل أن تضيع حياتهم سدى فيتحول الانهاك والســأم والغثيــان والتمرد الى تحقيق الوحدة الداخلية والوصول الى شاطىء الأمان .

فاذا أضفنا الى كل ما سبق أن كثيرا مما اتجه اليه البحث عند هؤلاء ، وعلى الأخص فيما

كتبوا من مسرح أو قصص كان يهدف الى كشف الحجب عن البشر الذين يسترون نزعات الفوضى والوحشية واللاعقل القابعة فى أعماق ذواتهم ، يحاولون اخفاءها عن الناس ، ويتخذون لذلك ما استطاعوا من أقنعة تارة باسم الدين ، وطورا باسم الحياة البرجوازية المحترمة . نقول اذا أضفنا الى ما سبق أن فى آداب هؤلاء محاولة للتعرف على انسان العصر الحديث على حقيقته ومحاولة استبطان ذاته ، ثم ادراك النزاع القائم فى نفسه بين ما هو حيوانى صرف وبين ما هو انساني نبيل ، أمكننا أن ندرك ضرورة اهتمام النقاد والباحثين فى منتصف القرن العشرين بأدب هؤلاء ودراسته وبحثه .

بقيت بعد ذلك نقطة أخيرة لعلها أقوى المبررات التى تدفعنا الى العناية بأدب هذه الاتجاهات المعاصرة على الرغم مما قد يبدو فيها من حساسية عبثية أو من عدم ايمان بحقيقة العالم ، وهى أن فى اتجاه المعاصرين فلسفة ثورية تقوم على السخرية من (أدب التنصل)(١) البرجوازى او ادب الكتاب المأجورين حيث تصير أكثر حوادث الوجود ابتذالا فى حياة الانسان على حد قول سارتر ـ بمثابة رموز ، وحيث تفترس الاشياء الخيالية الأمور الواقعية .

وعلى الرغم من أن سارتر لا يعتقد في رسالة لطبقة العمال ، ولا فى أنها تتمتع بفضل على غيرها فى حالتها ، فهى مؤلفة ، أى طبقة العمال فى رأيه ، من رجال عاديين وجائرين ، ويمكن أن يضلوا ، وغالبا ما يخدعون ، فانه لا يتردد مع كل ذلك من القول (بأن مصير الأدب مرتبط بمصير الطبقة العاملة (٢) كما لا يتردد فى الاعلان بأن مهمة الأدب كما يراها هي (تجلية العلاقات بين الوجود والعمل من ثنايا موقفنا التاريخي .) فهل المرء من صنع غيره ؟ أو من صنع نفسه ؟ وما العمل ؟ وما الغاية والوسائل فى مجتمع مبنى على العنف ؟ ان الأعمال الادبية المستوحاة من مثل هذه المهام لا يمكن أن تهدف الى اعجاب الغير ، ولكنها تغضب وتقلق ، وبما أنها ثمرة عذاب وتساؤل . فاذا منحنا فيها النجاح لم تكن صنوف مسلاة ، بل مسائل تستغرق التفكير ، ولا يعرض فيها العالم كى (يُرى) بل كى (يُغير) . ولن يفقد بذلك شيئا ، هذا العالم العتيق البالي البغيض المريض بل سيكون أمره على نقيض ذلك) .

هذا ما يقوله سارتر ، واذا أنت تتبعت ما كتبه عن موقف الكتاب ، وعن تقسيمه لهم الى ثلاثة أجيال عرفت أن الجيل الثالث الذى بدأ عقب هزيمة فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية كان من أهدافه الكشف عن زيف بعض الاتجاهات البرجوازية في الأدب ، ثم بيان ما للأدب من تأثير ايجابي فى توجيه التاريخ وتغييره باعتباره الممثل للضمير الحر فى مجتمع منتج . بل ان سارتر ليختتم هذا الفصل بحقيقة ثورية خطيرة عندما يقرر أن فرصة العالم فى النجاة محصورة فى الأدب .

واذن فهذه الاتجاهات الثورية الجديدة تزعم أن في أعماقها ثورة لا تهدف الى تبصيرنا بالعالم من حولنا فحسب ، بل تريد أن تتجاوز ذلك الى محاولة للتغيير ، واذا صح هذا الزعم فان دراستنا لألوان هذا الفكر سوف لا تكشف عن فهمنا لأشد مشاكل الانسان المعاصر عمقا بل سوف تبرز الى جانب ذلك ما يحاول هؤلاء أن يضيفوه من أبعاد جديدة للتغيير ، ولربط انتاجنا الأدبي بتطور فكرنا المعاصر وقيمه الجديدة .

وجدير بنا الآن بعد هذه المقدمات أن نعرض لأهم ما جاء فى كتابات هؤلاء من فكر ، محاولين

---

(١) ما الادب لسارتر ص ٢٠٨ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٣

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٧

ادراك ما ينطوى عليه من المشاكل الروحية والفكرية لعصرنا الحاضر ، وما يمكن أن تضيفه من جديد حتى تكون على بينة مما يدور في عالمنا من أفكار قد يتأثر بها شبابنا وهم على غير علم بما ينفعهم منها أو ما يضر .

* كولن ويلسون ومشكلة الغريب :

لم يكد يمر صيف عام ١٩١٦ حتى كان اسم كولن ويلسون Colin Wilson على كل لسان يملأ اسماع الأدباء في شتى أنحاء الأرض ولم يكن قد جاوز الكاتب في ذلك الوقت العام الرابع والعشرين من عمره ، ولكن كتابه المشهور (الغريب) أو (اللامنتمى) The Outsider الذى طبع سبع مرات فى الفترة ما بين مايو ويوليه سنة ١٩٥٦ كان قد جعل اسم هذا الكاتب الشاب يحتل ، ما بين عشية وضحاها ، مكانة لا تقل عن مكانة شيوخ فلاسفة العصر وأدبائه .

وليس يعنينا فى قليل أو كثير أن نتوغل فى الحديث عن الضجة الكبيرة التى أثارها هذا الكتاب عند صدوره ، ولا عن تعليقات الصحافة وكبار الكتاب والأدباء وانما الذى يعنينا حقيقة هو ما اثاره الكتاب من مشاكل تتصل بموضوعنا الذى نتحدث فيه ، وهو موضوع الغربة التى يعاني منها مفكرو هذا العصر ، ماكنهها ؟ وما الدوافع التى ساعدت فى ايجادها ثم ما السبيل الى التخلص منها أو تفاديها ؟

ان مشكلة الغربة قديمة فيما يبدو ، فهى وان كانت تأخذ شكل الظاهرة العامة عند البارزين من مفكرى هذا العصر ، وعلى الأخص من ظهر منهم بعد الحرب العالمية الأخيرة ، الا أن الغربة مرض تمتد جذوره الى أبعد من هذه الفترة ، مرض متصل بتصدع الذات أو انشقاقها نتيجة لعدم تواؤمها أو انسجامها مع المجتمع الذى تعيش فيه . واذا كانت المشكلة فى صميمها هى مشكلة الفرد الذى لايتلاءم مع المجتمع ، فلن تكون من هذه الناحية مشكلة جديدة بأى حال ، فان التصدع بين الذات والجماعة ظاهرة لاتتصل بعصر دون آخر . لقد عرفنا هذه الغربة فى أدب الواقعية القديمة التى يمثلها بلزاك وموباسان ، ورأيناها تتجه الى الكشف عن الشرور والآثام الكامنة فى النفس البشرية . ولايخفى على القارىء ماكتبه بلزاك فيماسماه بالكوميديا البشرية ، فقد جمع فيها مايقرب من مائة وخمسين قصة وجعلها فى مجموعات تحمل هذا الاسم الشهير اسم (الكوميديا البشرية) وفيها يصور الكاتب البخل والخسة والدناءة والوصولية والنفاق الى غير ذلك من أمراض اجتماعية وفيها كذلك تصوير لشخصية البطل الفرد المحطم المنعزل عن المجتمع . وقد هاجم جوركى هذا النوع من الأدب فقال :

(ان أهم موضوع يتناوله الأدب الأوربي وادب روسيا فى القرن التاسع عشر هو الفرد ومعارضته للمجتمع والسلطة والطبيعة . وكانت وفرة الأساسات السلبية تحمل الفرد على مقاومة المجتمع ، لأن الفرد كان يشعر بأن المجتمع يسحقه وأن شيئا يحول دون نموه . ولكنه كان يفهم فهما سيئا أنه السبب فى الابتذال والاجرام اللذين يقوم عليهما المجتمع . وكان أدبنا حتى نشوب الثورة يرتكز على الرجل وما يصادفه من حوادث مثيرة تجعله يشعر أنه سجين حياته ، وانه غير نافع للمجتمع .

فكان يبحث عن مكان مريح فلا يجده . فيحز الألم فى نفسه ويتلاشى هذا الرجل اما فى صلح زرى مع مجتمع يبغضه أو في تعاطى المخدرات والانتحار)(١) .

---

(١) مقدمة الشريد وقصص اخرى ـ لمكسيم جورجي

ولقد كان ستيوفسكى من اكثر كتاب روسيا امعانا فى تصوير هذه الحرب من نفسية الأفراد المعزولين أو المرضى أو المعذبين بشعورمريض نتيجة للنفس المظلمة المضطربة التي لاتجد نفسها راضية أو متوائمة مع المجتمع الذى تعيش فيه . فاذا انتقلنا الى ادباء وشعراء الرومانسية وجدناهم أكثر الناس تعبيرا عن معنى الغربة التيهى فى أساسها مشكلة اجتماعية تقوم على شعور الفرد بالانفصام عن مجتمعه . فكلنا يعلم أنالاديب الرومانسى اديب غريب قد بعدت الهوة بين ما يتوقعه ويأمل فيه ويترقبه ، وبين واقعهالمرير الأليم ، فهو من ثم أديب متطلع الى عالم آخر ، عالم من المثال يحقق فيه ولو عن طريقالأحلام والرؤى والخيالات ما لم يحققه في عالم الواقع . بل لعل الأديب الرومانسى هو أكثر الأدباء امعانا فى الشعور بمحن الحياة . والمبالغة فى الاحساس بها مما جعله يهرب من الواقع وينعزل ، لانه لم يستطع أن يجد لذاته صورة فىمجتمعه فيصيبه الأسى والحزن والسأم .

اذن فالغربة بهذا المعنى الاجتماعى غربة قديمة تتصل بعصور اخرى غير عصرنا الحديث ، ولكن هل هذه الغربة التى صورنا من مظاهرها ماصورنا هي ذاتها الغربة التى حددها لنا كولن ويلسون فى كتابه (الغريب ؟) واذا لم تكن ، فما الفرق بين الغربة الرومانسية أو غربة القرن التاسع عشر وغربة القرن العشرين ؟

ان كولن ويلسون لم يتركنا حيارى ازاء هذا السؤال ، فقد اجاب هو بنفسه عليه عندما حدد لنا الفرق بين غربة الرومانسى وغربة الواقعيين المعاصرين . فالفرق عنده بين الغريب الرومانسى والغريب الواقعي الحديث هو أن الأول برغم حيرته وشكه وذهابه كل مذهب فى سبيل العثور على الحقيقة لم يفقد الايمان بها ، وعلى الرغم من التصدع القائم بينه وبين مجتمعه لم ييأس اليأس التام من وجود الحقيقة . فهو وان طال بحثه عنها ، وتردده على بابها ، ومداومة البحث والتنقيب عنها ما يزال يتطلع اليها وكله أمل بما عساه أن يأتي به الغد القريب من نتائج قد تحقق له ما يسعى اليه . ومن ثم فان الغريب الرومانسى لا يجد الحقيقة ولكنه على يقين من وجودها . أما الغريب الواقعى فهو لا يفهم مايعنيه الناس بالحقيقة ، أو قل بتعبير آخر انه انسان عاجز عن الايمان بوجودها . فالعالم فى رأيه مفتقد للحقيقة ، عالم زائف قائم على اللامعقول والفوضى ، وهذان وحدهما فى نظره هما الحقيقة .

واذا كان غرباء الرومانسية يرون من الحكمة أن نتغافل عن بعض مظاهر اللامعقول ، وأن نحاول تحقيق الانسجام والمواءمة مع عالم فى مجموعه يسوده النظام ، فان غرباء الواقعية الجديدة يرون أن من واجبهم مواجهة هذه الحقيقة على فظاعتها وبشاعتها ، لأنهم لا يستطيعون أن يعترفوا بغير الحقيقة ، وما دامت هذه هي الحقيقة فى نظرهم فلا بد من اعلانها والتحدث عنها فى غير مواربة .

هذا هو مجمل التمييز الذى أوضحه كولن ويلسون فى كتابه عن غربة الرومانسيين وغربة الواقعيين المحدثين . ويحاول ويلسون بعد ذلك أن يشرح ظاهرة الغربة ، ويكشف عن مقومات شخصية الغريب ، ويحدد لنا ملامحها فيعرض علينا صورة من صور هذا الغريب مأخوذة من شخصية بطل رواية « الجحيم » للكاتب الفرنسي هنرى باربوس Barbusse وهي رواية ظهرت فى أوائل هذا القرن . وشخصية بطل (الجحيم) هي شخصية تقارب فى مفهومها ومدلولها العام صورة الغريب الذى يعنيه كولن ويلسون .

وتقوم فكرة الرواية على ان رجلا قد ترك الريف الى المدينة . وعمل فى وظيفة فى أحد مصارف باريس . ويسكن حجرة فى أحد فنادق المدينة . وهو رجل متأمل مستبطن لأعماق

الذات ، راغب فى ادراك الحقائق ، وان كان لا يؤمن كثيرا بالفلسفة وحقائقها ولا يعبأ بالدين . على ان الكاتب قد استطاع بطريقة محسوسة أن يضع لنا هذا البطل فى موقف يحدد لنا منه موقفه تجاه العالم ، وذلك عندما يقع فجأة على شعاع من الضوء يراه وقد انبعث اليه من الغرفة المجاورة ، فيقف على سريره ويكتشف أن هذا الضوء قد جاءه من ثقب من أعلى الحائط . فكان هذا الثقب بمثابة النافذة الصغيرة التى يطل منها هذا الرجل على العالم الحقيقي ، فأخذ يقف كل يوم على سريره وينظر من هذا الثقب ويشاهد ما يجرى بداخل الحجرة المجاورة له ، ويظل على هذه الحال يرقب ما يدور فى الحجرة المجاورة كل ليلة حتى مضى على ذلك شهر كامل . واستطاع من خلال هذه المدة أن يشاهد ما يثير غرائزه أحيانا من أوضاع جنسية لامرأة تتجرد من ثيابها ، الى مناظر أخرى تثير فى نفسه ألوانا من العواطف مختلفة ، فيها احيانا الحنان والحب وذلك عندما يقع بصره على رؤية عاشقين يبث كل منهما الغرام لصاحبه ، الى غير ذلك من مشاهد ، على أن الذى يهمنا آخر الأمر أن كل هذا الذى وقع عليه بصره من خلال هذا الثقب هو في الحقيقة مناقض أشد التناقض لما يحدث فى العالم الخارجي . ندرك هذه الحقيقة الأخيرة عندما يلتقى هذا البطل فى آخر روايته بمؤلف يتحدث فى حفل عام عن رواية له ألفها وصادفت نجاحا، ويذكر هذا المؤلف انه قد استطاع بروايته ان يصور الانسان على حقيقته ، وأن يستخرج لنا كوامن النفس الانسانية ، وذلك حينما جعل شخصية من أشخاص روايته تثقب ثقبا فى حائط غرفته لتشاهد منه ما يقع في الغرفة المجاورة ، وبعد أن ينتهى المؤلف من عرض قصته على الحاضرين فى هذا الحفل يعجب الناس بروايته أيما اعجاب . ذلك لأنهم يرون فيها البراعة كل البراعة فى عرض للطبيعة البشرية من وجهة نظر واقعية . غير ان بطل (الجحيم) عندما يسمع تهليل الجمهور واعجابه بقصة هذا الرجل يصيبه النفور ، ويقف موقفا سلبيا ، فلا يبدى اعجابه ولا يشارك الجمهور حماسته ، ولا يرى معه أن فى هذه الرواية اى مظهر لصدق الحياة الانسانية.

فقد سبق له أن خبر بنفسه عن طريق تجربته طبيعة الانسان . وعرفها تمام المعرفة ، وادرك الهوة السحيقة بين ما يخلعه الانسان على نفسه من مظهر خارجي وبين الحقيقة الكامنة فى أعماقه، وأحس أن طبيعة الحياة فى المجتمعات المتحضرة وما تفرضه من سلوك خاص تحجب عن الانسان حقيقته الأصلية ، ويحاول أن يخدع نفسه بالمظاهر السلوكية ، وبالفلسفة أو بالدين مقنعا كل مافى أعماق ذاته من نزعات وحشية ومن فوضى وكأنه كائن راض عاقل متحضر .

من هذه القصة التي كتبها (باربوس) والتى استعان بتحليلها كولن ويلسون يمكننا أن نتصور صورة الغريب عند ويلسون : انها صورة الانسان الذى ادرك للحظة ما أن كل مشاهد الحياة اليومية وأحداثها انما تخفى عن الانسان الحقيقة المرعبة التى هى زيف هذا العالم وفساده، وأن هذا الغريب متى ماوقعت عينه على الحقيقة تغيرت صورة الوجود فى نظره ، فأمسى وقد انشق على ذاته وفقد توازنه ، واذا بهذا العالم يفقد قيمته فى نظره .

يشبه موقف الغريب هذا موقف رجل يجلس فى دار من دور السينما يشاهد عرضا لرواية ما ، تمر أمام عينيه مشاهد الرواية ، الواحد تلو الآخر وهو مشغول بما يرى ، منصرف بوجدانه واحساسه الى ما يدور أمامه من أحداث ، واذا بالعرض يتوقف فجأة لعطل أصاب الجهاز ، واذا المشاهد التى تدور أمام الرجل تتوقف ، واذا الرجل يجد نفسه يواجه الحقيقة مرة واحدة فيدرك أن ما كان يدور حوله ليس الحياة ، بل كان مجرد وهم من الأوهام . عندئذ يبدأ هذا الرجل فى مجابهة الحقيقة المؤلمة : حقيقة ان كل شيء كان خداعا ـ ان مثل هذا الموقف الذى يعانيه هذا الرجل هو بعينه الموقف الذى يعانيه الغريب عندما يكتشف فجأة أن كل ما حوله فى

هذا العالم باطل الأباطيل .من هنا تبدأ مشكة الغريب ويبدأ يتساءل كيف يمكنه أن يقبل الحياة التى قبلها غيره مع علمه بأنها حياة غير حقيقية .

وهنا يتفرع سؤال آخر . ماذا يمكنه أن يصنع بحياة لا معنى لها ولا حقيقة من ورائها ؟ واذا كان هذا هو السؤال الذى يسأله الغريب لنفسه ، فماذا فعل ويلسون فى كتابه للاجابة على هذا السؤال ؟ وكيف تخلص من غربته وهو على هذه الحال من التشاؤم وعدم اليقين ؟ هل رفض الوجود رفضا مطلقا ؟ لكي يجيب ويلسون على هذه الأسئلة بدأ يستعرض جملة أشياء ، فعرض علينا أولا آراء نيتشه فى هذه القضية . فبعد أن كفر نيتشه بالفلسفة القائمة على العقل والعقل وحده ، والتى سادت المذاهب الاوربية فى عصره ، وبعد أن رفض فكرة تأليه العقل ، اشفاقا مما عساه أن يؤدى اليه هذا التأليه من فصل الفكر عن الحياة . بعد أن أنكر نيتشه كل هذا دعا الى فكرة الانسان الأعلى التي تدعو الى ضرورة العمل على خلق ارادة قوية تدفع بالفرد الى حياة أكثر فاعلية ونشاطا وحيوية ، على أن يسخر الانسان فى سبيل ذلك كل طاقاته الجسمية والعقلية والعاطفية . وجاءت فلسفة نيتشه هذه نتيجة للثورة على الفوضى والفساد الذى ينتشر أفقيا فيشمل جميع نواحى الحياة البرجوازية القائمة على سياسة أنصاف الحلول . فانها في أساسها فلسفة تنهض على كفر بالواقع ثم التماس الحل فى تصور ديني لا يقف العقل فيه منفردا، وانما تشاركه عاطفة وارادة تسعيان الى تحقيق حياة أكثر خصوبة وأكثر غنى للانسان .

وبعد أن ينتهى ويلسون من عرض أفكار نيتشه ينتقل الى ما حاوله دستيوفسكى في انقاذ الغريب مما يعانيه حين يرى نفسه وجها لوجه أمام الشر الكامن فى أعماق النفس ، والذى يصيب الانسان برعب هائل حين يراه . لقد عبر دستيوفسكى في قصة (الاخوة كراماتزوف) عن صورة هذا الشر وشغلته فكرة الألم والشقاء التي يعاني منها انسان هذه الأرض . فقد أبرز لنا صورة مرضين هما قسوة الانسان السادية ونقيضها مازوكية المخلوق العفن الفاسد الذى يستمتع بعذابه . وليس خافيا عن دستيوفسكى شغفه بتصوير هذين الجانبين من الالم والعذاب في النفس الانسانية . وكان من أبرز شخوصه الأذلاء المرضى شخصية ايفان كراما تزوف الذى رفض قبول العالم لما فيه من قسوة وألم، وقد حاول ايفان أن يحلل العالم ، وأن ينتهى فى تحليله لهذا العالم الى أن فكرة الألم فكرة مستبدة بهذا الكون ومتغلغلة فى أعماقه ، ومن العسير استئصالها . ومن ثم فهو ألم سرمدى لا ينتهى . على أن دستيوفسكى لا يوافق على هذا التحليل المبنى على العقل وحده ، ولا يعتقد ان الموقف العقلى بقادر — اذا عمل منفردا — على بلوغ الحقيقة وراء هذا العالم . فان رؤية الالم وحده مسألة تعتمد على العقل وينقصها الايمان . ويوافقه ويلسون على هذه النتيجة غير أن ويلسون مع ايمانه بما دعا اليه نيتشه ودستيوفسكى من ضرورة التوفيق بين الفكر والارادة والعاطفة والقوى الجسمية جميعا ، وايجاد الوحدة بين كل هذه العناصر فانه ما يزال يرى أن مشكلة الغريب تنحصر فى افتقاره لهذه الوحدة . ونعود للسؤال من جديد ، ماذا يمكن للغريب أن يفعل اذا كان تفكيره عقليا صرفا ؟ تلك هى المشكلة العويصة التى تجابه الغريب .

على أن تحديد الغريب لمشكلته على هذه الصورة قد مهد السبيل أمامه لحصر ما يحتاج اليه من وسائل الخلاص . انها اذن مشكلة الانسان العاقل الذى فقد ايمانه بالله ولم يجد ما يعوضه عن هذا النقص . انها ازمة العقل المسيطر على انسان فأضعف العقل الصرف مركز الاشعاع العاطفى فى الانسان وهو العقيدة الدينية . من أجل هذا نادى ويلسون بضرورة تنمية ملكة الرؤيا والكشف الصوفى عن طريق الارادة . ذلك ان العقل الحديث يشك فى امكان حدوث هذه الرؤى الا اذا كانت شيئا صادرا عن الارادة . ومن ثم فان الرؤيا عند ويلسون ليست رؤيا القديسين

والأنبياء ، أو ليست هى الرؤيا التى تحدث لانسان كشف عنه الغطاء ، وانما هى الرؤيا التى تخلقها الارادة خلقا . وفى مقدور الارادة اذا قويت أن تصبح عاملا حيويا قادرا على احداث الرؤى . من هنا يتضح لنا كيف استطاع ويلسون أن يلتقط من نيتشه ركنا هاما من أركان فلسفته وهى ضرورة تحول الفرد الى قوة دافعة وارادة خارقة تمكنه من تحقيق ما خفى من امكاناته . ومن ثم يصبح لوجود الفرد معنى أو طعم .

من أجل هذا دعا ويلسون الى تطوير الارادة وتنميتها وبالتالي تطوير ملكة الرؤى وتنشيطها. وهو هنا يتفق مع ما دعا اليه بعض المتصوفة الانجليز ، وما تدعو اليه الفلسفة الهندية . وما انتهى اليه المتصوف اليوناني الحديث جوردجيف . Gurdjieff ويحاول فى نهاية كتابه أن يدرس لنا مجمل أفكار هؤلاء المتصوفة واحدا بعد الآخر وهو فى عرضه لهذه الأفكار يكشف لنا عن السبل التى تمكن الانسان من تنمية ملكة الرؤيا عنده . فليس الانسان بقادر على أن يجلو عن نفسه ما يعتريه من صدأ أو ما يغلف احساسه من سماكة الا اذا ظفر بشيء من السلام النفسي والهدوء الروحي ، فالذى يحجب عن الانسان هذا القدر من الصفاء ليس الا ما يفرق به نفسه من مشاغل ترتبط بالحياة اليومية المادية، ومن أمور تتصل بالسعى للرزق ، وما يتطلبه بقاؤها من الخوض فى غمار الحياة العملية .

ومع ايمان ويلسون بأن هذه الأمور مسائل ضرورية بالنسبة لحياة الانسان على الارض ، الا انه يوافق على ما يدعو اليه وليم بليك وغيره من المتصوفين من ان التأمل الروحى قد يؤلف بين الانسان والوجود . ان مثل هذا التأمل قادر على أن يحرر العقل من سلطان المادة ويجعله ينمو مع ما ينمو حوله من عناصر الطبيعة . وعندئذ سوف يكون لكل شيء معنى روحي ، فالأرض والماء والنور والثمار والأزهار لن تصبح في هذه الحالة مجرد ظاهرات طبيعية يستفيد منها الانسان حتى اذا بطل نفعها بطل التفكير فيها ، ولكنها كما تقول الفلسفة الهندية تصبح أشياء ضرورية فى تحقيق الوحدة بين الانسان والوجود ، بل وفى تحقيق معنى الكمال . فكما أن كل نغمة من نغمات السيمفونية ضرورية لبلوغ كمالها فكذلك كل ظاهرة من هذه الظاهرات الطبيعية ضرورية للوصول الى هذه الوحدة . فقد ادركت الفلسفة الهندية بنظرتها الى الطبيعة أن حقيقة هذا العالم موضوع بالغ الاهمية يدعونا الى أن ننشيء علاقة واعيــة بيننا وبين كل شيء فيه ، والا تكون صلتنا بــه مجرد صلة الاستطلاع العلمى أو المنفعة المادية . واذا كان انسان العصر الحديث أو قل المدنيـة الحديثة يوجه تيار فكر ويركزه نحو حياته الخاصـــة وما تدر عليه من ربـح أو خســـارة ، ويترك ما عدا هذا من مظاهر الحياة فلا يشغل نفســه بشيء منهــا وعلى الأخص هذا الجانب الروحى ، فان مثل هذا جدير بأن يولد بدوره انفصالا غير طبيعى بين الانسان والوجود . (١)

وهكذا ينتهي ويلسون بعد عرضه لأفكار المتصوفة الى أن فكرة الخلاص من محنة الغربـة التي أحسن عرضها فى كتابه انما هى رهينة بتنمية ملكة الرؤى والكشف الصوفية ، وأن وصول الانسان الى لحظات الكشف هذه تحرره **أولا** من التفكير العقلى المجرد الذى اثبت أنه غير قــادر وحده على ادراك أى معنى حقيقى وراء هذا العالم ، وسوف تساعده **ثانيا** على أن تتفتح أمامــه مصادر أخرى لمتع كثيرة فى الحياة ، لم يكن تفكيره المادى الصرف يمكنه من الاستعانة بها . فاذا أضفت الى هذا أن مثل هذه اللحظات الصــوفية سوف تسد حاجة عاطفيــة كـانت تنقص الغريب نتيجة ضعف عقيدته الدينية امكننا أن ندرك الى أى حد كانت أزمة الغريب ازمة فقدان للايمان ، يظل فيها على حال من القلق والتململ والعذاب حتى يظهر شيء يشبع عنده عاطفته الدينية

(١) اقرأ الفصل الذى كتبه طاغور عن الفرد والعالم فى كتاب « سادهانا »

المفقودة ، عندئذ سوف لا تبقى النظرة الى الشر هى الغالبة على تفكير الغريب ، وبالتالى لن يكون الاهتمام بمشكلة الشر ، والبحث الملح عن مبررات هذا الشر هى الشيء الوحيد الذى يملأ على الغريب حياته ، اذ سوف يعود اليه آخر المطاف شيءمن الاطمئنان وشيء من الثقة بان بقية من الخير ما تزال فى العالم .

وبعد فهل ثمة من حقيقة يريد أن يثبتها ويلسون بعد هذا العرض المفصل لمشكلة الغريب ؟ واذا كانت فكرة الخلاص هذه هى نهاية المطاف فما الذى يريد بنا الكاتب أن ندركه فى النهاية؟ هل استطاع الكاتب أن يثبت على حد قوله :(انهمن الممكن استنباط موقف دينى استنباطا منطقيا بحتا من موقف فلسفى ، وأن الايمان ليس شرطا أساسيا من شروط الدين .) (١)

ان كل ما نستطيع أن نحدده من اسس لفكرة الخلاص هذه يمكن تلخيصه فى الآتى :

أولا : أن ويلسون لا يعتقد أن الاعتماد على التفكير العقلى المجرد بقادر على حل مشكلة الغريب ، فان ثمة امكانيات أخرى فى الانسان لابد من استغلالها وتطورها للكشف عن مبررات الشر الذى حاق بالبشرية والذى هو فى الحقيقة سر من أسرار أزمة الغريب الكبرى ، وأن هذه الامكانيات تنحصر فى قدرة الانسان على الاستفادة من قوى ثلاث ذكرها نيتشه وأيدها ويلسون بكل اهتمام هى قوة الارادة وقوة العقل وقوة العاطفة . وان ايجاد الوحدة بين هذه القوى هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق التوازن النفسي أو التكامل النفسي عند الغريب .

ثانيا : أن الغريب الذى ضعفت عنده العقيدة الدينية نتيجة لسيطرة التفكير العقلى الصرف الذى هو ظاهرة عامة فى حياتنا المعاصرة ، بحاجة ماسة الى بديل ليشبع عنده العاطفة الدينية ، ويجد عندها الملاذ الذى يبحث عنه . على أن الموقف الدينى الذى انتهى اليه ويلسون ليس منبثقا — كما أوضحنا سالفا — من ايمانه بالله وباليوم الآخر وبالثواب والعقاب ، وانما هو يعتمد فى المقام الاول على فكرة الخلاص وتحرير الانسان من معتقدات وهمية،وعلى الأخص فكرة الخطيئة الأولى التي تسيطر على الانسان المسيحى والتي تقف حائلا بينه وبين رؤية الحقيقة . واذن فليس أمام ويلسون فيما انتهى اليه من موقف ديني الا الاعتماد على تدريب قوى الانسان حتى ينتهى الى نوع من الرؤى النابع عن الارادة يكشف بعضجوانب الخير فى الوجود ، ومن ثم يحقق له حياة أكثر غنى وأكثر سعادة .

العبث والتمرد واللامعقول عند الوجوديين :

ليس من شك فى اننا نستعرض ونحن نقرأ كتاب الغريب لكولن ويلسون كثيرا من الأفكار والفلسفات والآراء التى نراها شائعة عند الوجوديين منذ ظهر المذهب فى كتابات الفيلسوف الدنماركى كير كجارد الى ما انتهى اليه المذهب عند الكاتب الفرنسي المشهور جان بول سارتر .

ان مشكلة الغريب ذاتها مشكلة وجودية . بل ان الفلسفة الوجودية تبدأ عادة من موقف يشبه موقف الغريب تماما . ذلك أن نقطة البدء عند الوجوديين هى صدمة من الانفعال تهز الانسان فجأة عندما يدرك أن الحياة لا معنى لها .

وعندما يستغرق الانسان هذا الاحساس المفاجيء يشعر بغربته عن هذا العالم . بل أن

(١) راجع عرض ونقد كتاب الغريب ، د . مصطفى بدوى مجلة الآداب عدد ١٩٥٨ مطبعة جامعة الاسكندرية .

كلمة الغربة نفسها اصطلاح عند الوجوديين ، يتردد في كتاباتهم فقد كتب البير كامي (١٩١٣ ـ ١٩٦٠) تحت عنوان (رؤية غربة العالم) يقول :

(لئن كانت الطبيعة مألوفة لدينا ، فذلك لأننا نرسم على سطحها تخطيطات عاداتنا . واننا لسنا في اتصال معها ، بل مع الأفكار والرغبات التى نلقيها عليها . ان في ادراك الطبيعة كشفا لما هو من قماش آخر غير الوعى البشرى . ان العالم برى ، اذ ذاك ، كثيفا وغريبا : درجة أقل ، وتبرز الغرابة : ان يدرك احدنا أن العالم (كثيف) ، ويشعر الى اى حد يبدو حجر ما غريبا ، وبأية قوة تستطيع الطبيعة أو منظر ما أن ينكرانا . ان في أعماق كل جمال يرقد شيء لا انساني . وهذه الروابى ، وعذوبة السماء، وأشكال الاشجار هذه ، هاهى ذى كلها في اللحظة نفسها تفقد المعنى الوهمى الذى كنا نلبسها اياه ، وتصبح منذ الآن أبعد من حبة ضائعة . وهكذا تعود الينا عبر ملايين السنين عداوة العالم البدائية ، ففى لحظة واحدة ، نكف عن أن نفهمه ، لأننا طوال قرون لم نفهم منه الا الوجوه والرسوم التى كنا نكسبه اياها مقدما ، ولان القوى تنقصنا بعد الآن لاستعمال هذه الحيلة .

ان العالم يفلت منا ، فلا ندركه ، لانه يعود كما كان ، وهذه الزينات التى قنعتها العادة تعود كما كانت . انها تبتعد عنا . . . شيء واحد : كثافة العالم هذه وغرابته ذلك هو العبث) (١)

ان انعدام المعنى في الحياة ، والذى يقرره ألبير كامي في هذه السطور السابقة ، منشأه في الحقيقة تلك الغربة التي تحدث عنها كولن ويلسون . بل انهما معا ليعتقدان أن هذا الشعور باللامعنى للحياة هو نقطة البدء التي منها يبدأ الغريب والوجودى مرحلة المجابهة ، مجابهة الواقع الأليم ، التي سوف يقف فيها وجها لوجه أمام حقيقة مرعبة يدرك عندها المرء كما يقول سارتر أنه (محكوم عليه بالحرية) وفى هذه اللحظة يبدأ العمل الذى قد يكون مرا وأليما ، ولكنه الوسيلة الوحيدة لحل مشكلة جديدة لم تكن في الحسبان ، أو بمعنى آخر لم تكن ظاهرة لعين الغريب أو الوجودى . ذلك لأننا كما يقول كامي نرسم على سطح الحياة تخطيطات عاداتنا . وهذا الالتقاء بين الانسان وبين حقيقة ذاته أو حقيقة العالم من حوله هى ما يسميها الوجودى بلحظة خروجه وخروج الأشياء من الغموض . (٢)

اذن فالقرابة وثيقة جدا بين الغربة التى رأيناها عند ويلسون وبين الغربة التى يحسها الوجودى . والفرق بين ويلسون وغيره من أصحاب المذهب الوجودى ليس الا في الدراسة التفصيلية أو التحليلية للمشكلة نفسها ، كما يكمن الفرق كذلك في النتيجة التى ينتهى اليها كل مفكر من هؤلاء . فقد يختلف ما انتهى اليه ألبير كامي مع ما انتهى اليه كولن ويلسون ، وقد يختلف كل منهما مع ما وصل اليه سارتر ، وقد يختلف الجميع عما دعا اليه كيركجارد ابو الوجوديين . ولكن ذلك كله لا ينفى وجود الشبه الكبير في الأسس والأفكار التي قامت عليها اتجاهات هؤلاء جميعا .

ولعل من الدلائل الواضحة على وجود هذه الأسس المشتركة بين هؤلاء المفكرين ان شخصية (الغريب) نفسها كانت موضوعا لقصة كتبها ألبير كامي وصدرت عام ١٩٤٢ أى قبل ظهور كتاب (الغريب) لويلسون بأربعة عشر عاما ، بل من الذى يشك في ان ما جاء في قصة الغريب لالبير

---

(١) كامي والتمرد تاليف روبير دى لوبيه ترجمة د . سهيل ادريس ص ١٢ ، ١٣ ، العبث لكامي ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) الغثيان لسارتر ترجمة سهيل ادريس ص ٢٥

كامى ما هو الا تأكيد وترديد لما جاء فى قصة (الغثيان) لسارتر والتى ظهرت عام ١٩٣٨ . ففى الغثيان ما في الغريب من رغبة فى انكار كل قيمة للحياة ، وفى كل منهما هذا الاحساس بالقلق والنفور والتصدع القائم بين الفرد والمجتمع ، وفى شعور الانسان فجأة بأنه غريب ، وبأنه يشرب نفسه دون أن يكون ظمآن، ومن هنا يأتيه الاحساس بالغثيان . ان (انطون روكنتان) بطل قصة الغثيان يقف على شاطىء البحر يلتقط واحدة من الحصى التى حوله لكى يلقى بها فى البحر ، وعندما ينظر الى الحصاة يتولاه رعب شديد ، فيرمى الحصاة بعيدا ، ويهرب بعيدا ، وبعدها تتتابع عليه التجارب التى من هذا القبيل. وفى تتابع هذه التجارب تعترضه موضوعات غريبة لا يستطيع ازاءها أن يقرر ما اذا كانت هذه الموضوعات ثابتة فى حقيقتها أم متغيرة . فقد كان ينظر الى وجهه فى المرآة ، وفجأة يرى هذا الوجه وكأنه وجه سمكة ويسترسل هذا الرجل فى اكتشافاته يقول :

(اننى استند بكل ثقلى على حافة الخزف ، وأدنى وجهى من المرآة حتى لالمسها وتختفى العينان والانف والفم ، ولا يبقى ما هو بشرى قط. تجعدات سمراء عند كل جانب من انتفاخ الشفتين المحموم ، وتشققات ، جثوات ، ان زغبا حريريا أبيض يركض على منحدرات الخدين الكبيرة ، وشعرتين تخرجان من المنخرين ، انها خارطة جيولوجية بارزة الخطوط .

وبالرغم من كل ذلك فان هذا العالم القمرى مألوف عندى . انا لا أستطيع القول انى (أتعرف) الى تفاصيله ، ولكن مجموعه يعطينى انطباعا لما (سبقت رؤيته) يعود على بالخدر ، فانسل على مهل فى النوم ...

أود ان استعيد السيطرة على نفسى : وان احساسا حيا وحاسما كفيل أن يحررنى . وما أيقظنى فجأة ، هو انى أضعت التوازن ، فاذا بي أجد نفسى راكبا كرسيا وانا ما أزال مصابا بالدوار . هل يبذل سائر الرجال مثل هذه الشقة ليحكموا على وجوههم ؟ يخيل الى انى ارى وجهى كما أحس جسدى ، باحساس عضوى أصم .

واذ ذاك اصابنى (الغثيان) فتداعيت للسقوط على المقعد الصغير . ولم أكن أعرف أين كنت . وكنت ارى الالوان تدور حولى على مهل . وكانت بى رغبة للتقيؤ .. وهكذا منذ ذلك الحين ، لم يتركني الغثيان ، انه يستولى على) (١) .

أليس هذا الاكتشاف المرعب الذى ينتهى اليه انطون روكنتان عند سارتر والذى يتلخص في ادراك رتابة الأشياء وماديتها وبالتالي انكارها والتشكك فى قيمتها ! اليس هذا هو ذاته مانراه في (اسطورة سيزيف) لألبير كامى ، وفي (مشهد يوم الاحد) الذى يصوره مرسو بطل قصة الغريب لكامى ؟

ففى اسطورة سيزيف يلح كامى بصورة خاصة على (رؤية الآلى) ، فان بضعة أسطر شديدة الايجاز فى الايحاء ، تحمل قوة ما كان قد شوهد واحس بصورة شخصية : نهوض ، ترام ، أربع ساعات فى المكتب ، غداء ، ترام ، اربع ساعات عمل ، نوم . الاثنين الثلاثاء الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت على النمط نفسه وهذه الطريقة تسلك بسهولة وراحة معظم الوقت .

---

(١) انظر الغثيان ترجمة سهيل ادريس ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ و سارتر المفكر العقلي الرومانسي تاليف ايريس مودوخ وترجمة شاكر النابلسي ص ١٠ ، ١١ وما بعدهما

وتقابل النمط الخارجي للحياة اليومية آليةحركاتنا ، ان اللامعنى ليس هو فقط خارجنا ، بل هو فى داخلنا : (ان البشر يفرزون اللابشرى . ففى بعض ساعات الصفاء ، يجعل المظهر الآلى لحركاتهم ــ تشخيصهم الايمائى الفارغ من المعنى ــ كل ما يكتنفهم بليدا سخيفا . رجل يتكلم فى التليفون خلف بابزجاجيفلا يسمع صوته ،ولكن يرىتشخيصه الايمائيالذى لا معنى له، فيتساءل المرء لماذا تراه يعيش (كل ذلك معاش براحةوسهولة ، الى اليوم الذى يبعث فيه حسالعبث العرضى الضيق والاضطراب) (١) .

أما في (رواية الغريب) فيصور مرســو البطل مشهد يوم الأحد وما فيه من رتابة وآلية فيقول :

(وهناك كان مشهد يوم الأحد ، ان الناس فى الطريق الى دور السينما : (رويدا رويدا ، اصبحت الطريق خالية بعدهم . واظن ان الافلامكلها قد بـدات آنذاك ولم يبـق فى الشارع الا اصحاب الحوانيت والقطط . كانت السماءصافية ولكن لا تلألؤ فيها .

واخرج بائع التبغ ، على الرصيف المقابل كرسيا اقتعدها وهو يعتمد بذراعيه على ظهرها .

وكانت حافلات الترام غاصة بالركاب مندذدقائق ، خالية تقريبا الآن . وفى المقهى الصغير ، عند بيارو ، الى جانب بائع التبغ ، كان الصبىيكنس النشارة فى القاعة الخالية . لقد كان يوم احد حقا .

وأدرت كرسيَّ ووضعته على غرار بائع التبغ لأني رأيت ذلك أوفر راحة . ودخنت سيجارتين، ودخلت لآخذ قطعة من الشكولاته وعدت لآكلها ازاء النافذة . وبعد ذلك بقليل اربدت الســماء وحسبت أننا سنواجه عاصفة صيفية . ولكنها ما لبثت أن انقشعت . على أن مرور الغيوم خلف فى الشارع مايشبه وعدا بالمطر زاد فى ظلامه ،وظللت وقتا طويلا أنظر الى السماء . . . الخ) (٢)

الست ترىفي هذا العرض لما يجرىلشخصمرسو ، ولما يدور حوله ، ولما يقع تحت حســه نوعا من الوعى الذى قد اتحد بسلسلة الأحداثاليومية الصغيرة ؟ ثم أليس نوعا من الوعى الذى يغمره الاحساس بالعجز والجمود والملل : اكل وشرب ونوم وتدخين ، وأيام تتوالى وكأن كلا منها صحيفة تقرؤها حتى اذا انتهيت منها وطويتهاانتقلت الى صحيفة اخرى تتردد فيهــا نفس الكلمات والحروف والعبارات حتى لكأنك تعيشيوما واحدا متكررا رتيبا . . . وهكذا تمضى حياة مرسو: شيء لا معنــى له . تلك هى الفكــرةالأساسية للقصة كلها ، ان الحياة تجرى عمياء آلية . منسوجة من ترديد أبدى للحركات والأحداث اليومية، والأفكار الصغيرة والأحاسيس الفجة

أليس هذا التصوير الذى نراه لمشهد يوم الأحد في رواية الغريب لكامي وهو ذاته ما نراه في تصوير انطون روكتان بطل رواية الغثيان للحصىالتى يرميها فى البحر وللامح وجهه التى يراها في المرآة ؟ ثم أليس في أسطورة سيزيف من الشعور بالسأم والملل وانعدام المعنى فى الحياة ما فى كل من المشهدين السابقين ؟

هذه الخطوط المشتركة عند المعاصرين من أصحاب المذهب الوجودى قد تشير الى أنالاصول الأولى واحدة ، لكن النتائج من غير شك مختلفة على الاقل في الطريقة التي يجب على كل منهم أن يعيش بها فلسفته .

---

(١) كامي والتمرد ص ١٠ ، ١١

(٢) كامي والتمرد ص ٦٩ ، ٧٠

كلمة وجود

واذا كان لنا أن نتتبع مجمل هذا المذهب وما فيه من تيارات وما يدعو اليه من فلسفات أو أفكار فلا بد لنا من الرجوع الى اصل كلمة وجود لنعرف من اين جاءت وماذا كانت تعنى عند بداية استعمالها . يقول يسبرز وهو أحد اتباع (كير كيجارد) ومن طائفة الوجوديين المؤمنين : (ان كلمة وجود هي أحد مرادفات كلمة واقع بيد انها قد اتخذت وجها جديدا بفضل التوكيد الذى أكده عليها كيركجارد فأصبحت تدل على ما أنا اياه بصورة أساسية فى نظر ذاتى) (١) .

ويقول يسبرز أيضا : (ليست كلمة وجود الا اشارة غايتها ان توجهنى نحو هذا اليقين ، الذى ليس يقينا عقليا ، ولا معرفة موضوعية ، بل نحو هذا الوجود الذى لا يمكن لأى شخص أن يؤكده لذاته ولا لذوات الآخرين) (٢) .

ويتضح من النصين السابقين ان كلمة وجود التي أكد عليها كيركجارد بقوة اكبر من اى فيلسوف آخر ، والذى يمكن لنا ان نعزو اليه فضل اختيارها اختيارا خاصا وتوجيه مدلولها نحو مذهب معين فى التفكير . نقول يتضح لنا من هذين النصين أن كلمة وجود انما تتجه أولا الى (ما انا اياه فى نظر ذاتى) ومن ثم لا يكون الوجود هو كينونة الشيء بالفعل فى هذا العالم فحسب ، وانما هو أن تتولى الذات صيرورة نفسها الى الصورة التي تريد . أو بمعنى آخر أن يتولى الانسان خلق اعماله وتحديد صفاته وماهيته او صورته بنفسه على ضوء مايفعله مدفوعا باختياره الارادى الحر النابع من ذاته والذى لا يفرض عليه من الخارج .

على أن فى الاقتباسين السابقين اشارة مهمة تثير انتباهنا الى ما تتضمنه كلمة وجود بالاضافة الى مالا حظناه . فقد ذكر (يسبرز) في عبارته الأخيرة أن (كلمة وجود اشارة غايتها أن توجه الانسان نحو اليقين الذى ليس يقينا عقليا ، ولا معرفة موضوعية بل نحو هذا الوجود الذى لا يمكن لأى شخص أن يؤكده لذاته بالذات ولا لذوات الآخرين) .

وفي هذه العبارة الأخيرة مضمون آخر غير الذى ذكرناه فى تفسيرنا السابق لكلمة وجود اذ تضيف هذه الكلمات موقفا جديدا هو وصول الانسان الوجودى الى دوائر الايمان العليا .

الوجوديون المؤمنون :

وهذه الاضافة الجديدة تتعلق بالوجوديين المؤمنين الذين من زعمائهم كيركجارد وكارل يسبرز وجبرائيل مارسيل أكثر مما تتعلق بالوجوديين الملحدين الذين من زعمائهم هيدجر وجان بول سارتر وألبير كامى وسيمون دى بوفوار .

ولقد تأثر كير كجارد ويسبرز فى فكرة تحقيق وجود الانسان امام الله بما قاله لوثر في شرحه على (رسالة الى الرومانيين) من اننا نصلى من أجل ذواتنا وأن علاقتنا بالله لا تقوم فى دائرة العقل ، وانما فى رابطة شخصية غير عقلية (٣) .

من هنا أخذ كير كجارد فكرته عن الايمان (اذ أن حقيقة الايمان عندى ليست أمرا يقينيا

---

(١) الفلسفة الوجودية تاليف جان فال ترجمة تيسير شيخ الارض ص ٦٠.
(٢) الفلسفة الوجودية ص ٥٨
(٣) المرجع السابق ص ٥٩

قط ، بل هو فى صراع مع عدم الايمان بصورةدائمة) وهذه الفكرة بالذات سوف تجدها لدى يسبرز ، ان الايمان أمر مقلق ، وفي صراع دائم مع ذاته (١) .

ولقد كان(لوثر)يرى انالشعور بالاثم أو الشعور بالخطيئة هو السبيل الى الايمان او الى الوصول الى ما يسمى بدوائر الايمان العليا . وبمعنى اخرينبغى للانسان ان يمر بعذاب الضمير ، فان عذاب الضمير الناجم عن الشعور بالخطيئة هو الذىيحقق ما يسمى (بالوجود امام الله) فان الانسان يجد نفسه حقا امام الله لاول مرة ، عن طريقشعورة بالهوة التى تفصله عنه بالذات .

هذا ما قاله (لوثر) وما تبعه كير كجارد . ولكى نرتب فكرة الوجود عند كير كجارد ونتتبعها فى تسلسلها الذى سارت فيه نلاحظ أولا أن الوجـــود غير قابل للتحديد ، وأنه يستعصى على المعرفة الموضوعية (فما من شىء يمكن الاعتمادعليه لتفسير وجودى) . وتبعه فى ذلك يسبرز اذ يقول (اننا لا نستطيع أن نتكلم الا عن الوجود الماضي ، أى عن الوجود الذى أصبح موضوعا : فالوجود يتلاشى اذا لاحظناه) (٢) .

وفي هذه النقطة يخالف كير كجارد ما دعا اليه هيجل الفيلسوف الألماني الذى زعم أن الوجود لا يتعارض مع المنطق ، والذى كون فلسفة تفسر الوجود تفسيرا عقليا، فلم يجد كيركجارد فيتفسير هيجل الا فلسفة سطحية ، وهو يرفض أن يصلالى الوجود عن طريق اى مذهب فلسفى ، بل لقد ذهب الى أبعد من هذا عندما قال (انك تلغينى اذا وضـــعتني في أى نظام أو مذهب فلسفى ، فلست رمزا رياضيا وانما انا موجود حي) (٣) .

كذلك هاجم كير كجارد الفكر الديكارتي الذى يعرف النفس عــن طريق النظــر العقلى فليست الذات أو الأنانية عند كير كجارد متجهة نحو ما يمكن أن يعرفه الجميع ، وانما الشاعر بالوجود هو المفكر الذاتى الذى يظل فى علاقــةدائمة مع ذاته بل وفى بلبال حول هذه الذات .

ثانيا : لكى يصل الانسان الى معرفة ذاتهبذاته يحتاج الى ارادة وهوى ، وبمعنى آخــر الانسان الذى لا ينظر الى ذاتــه كمعطى مــنالمعطيات بل كانسان ويجب عليه ان يخلق نفسه بنفسه ، محتاج الى قوتين هامتين هما : الارادةوالهوى . وكلمة الهوى الأخيرة هي التي تتولد عند الانسان الوجودى من رؤيته للتناقض بينالمتناهى والامتناهى ، كما تتولد من عدم اليقين . أو بعبارة أخرى أن الانسان عندما ينظر الى التنا قض بين الذات الصغرى والذات الكبرى سوف يتولد لديه هذا الهوى الذى يجعله دائما فى بحثعن ذاته .

ثالثا : لكى يصل الانسان الوجودى الى مقام الله لا بد أن يمر بتجربة قاسية ، لا بد أن يمر بحالة الشعور بالاثم ، والشعور بالاثم هــو في الحقيقة شعور بأنه أمام الله ، واذن فمن طريق الاثم يدخل في الحياة الدينية وبالتالي يقف أمام الله .

ومن هنا نلاحــظ التشابه بين كيركجارد ونيتشه ، فان فلسفة كل منهما تبدأ من مــوقف الانسان الغريب الذى يحاول اكتشاف نفسه عنطريق خوض تجربة قاسية يجابه فيها غرابــة هذا العالم ، ويستعين فى الخلاص منها بتنمية قوتين هامتين فى الانسان هما الارادة والهوى عند

---

(١) المرجع السابق ص ٦٠

(٢) الفلسفة الوجودية ص ٦٢

(٣) المرجع السابق ص ٦٣

كيركجارد أو الارادة والعاطفة عند نيتشة . على أن كيركجارد كان عميق الدين الى جانب ذلك كله ، وكان يرى أنه من الممكن للانسان أن يعرف (المطلق) أو ان يكون على صلة به بشدة هذا الهوى وهذه الارادة . هذه هى مجمل الفكرة التى تقوم عليها فلسفة الوجوديين المؤمنين وعلى رأسهم كيركجارد .

* الوجوديون الملحدون :

أما الوجوديون الملحدون الذين لا يؤمنون بوجود اله ، والذين من زعمائهم جان بول سارتر ، والبير كامى ، وسيمون دى بوفوار فان فلسفتهم تقوم على نفس الأساس الذى قامت قليه فلسفة كير كجارد . فاذا رجعنا الى القسم الأول من تفسير كلمة الوجود والتي قلنا فيها : ان الوجود ليس كينونة الشيء بالفعل فى هذا العالم فحسب ، وانما هو أن تتولى الذات صيرورة نفسها الى الصورة التي تريد ، أو بمعنى آخر أن يتـولى الانسان خلق أعماله ، وتحديد صفاته وماهيته أو صورته بنفسه ، على ضوء ما يفعله ، مدفوعا باختياره الارادى الحر النابع من ذاته والـذى لا يفرض عليه من الخارج . نقول : اذا رجعنا الى هذا التعريف نجد انه الأساس لفلسفة الوجوديين الملحدين تماما كما كان اساسا لفلسفة كيركجارد ومن تبعه من الوجوديين المؤمنين مع فارق واحد هو أن هذا الأساس لم ينته عند سارتر وكامى كما انتهى عند كيركجارد . فاذا كان الأخير قد انتهى تفكيره الى الوجود (المطلق) أو الى (الذات العليا) أو الى مقام الله ـ فان الاخرين قد خالفاه فى هذه النتيجة : فبينما اتجهت ايجابية سارتر الى (الفعل الملزم) نجد كامى يظل على موقفه من عبثية هذا العالم ، فواجب الانسان الوجودى عنده أن يظل على ما هو عليه من الشعور بالنفور والغثيان والغربة .

على أننا اذا أردنا أن نجمل فلسفة سارتر وكامى كما أجملنا فلسفة كيركجارد عن فكرة الوجود ـ دون أن نلم بالتفصيلات الكثيرة المعقدة التى تتفرع منها والتي كثيرا ما تدفع الباحث الى متاهات قد يصعب عليه اذا خاض فى جزئياتها أن يتمكن من الالمام بأصولها . نقول اذا أردنا تحديد الخطوط الرئيسية لهذه الفلسفة فى غير تشعب ممل فاننا نجملها فيما يأتى : ـ

أولا : ما دام الأصل في الوجود هو أن تعرف نفسك بنفسك ، وما دام الانسان قبل كـل شيء ليس ما كان بل ما يكون عليه بالفعل ، وما دام هو المسئول أولا وأخيرا عن خلق أعماله ، وتحديد صفاته بارادته الحرة المختارة فقد لزم أن ينتزع الانسان نفسه من ماضى القطيـع البشرى كله ، وأن يعيد النظر من جديد فى هذا المجتمع الانسانى وفى قيم العالم الذى يعيش فيه ، وأن يبدأ فى مناقشة واعية مدركة حرة لكيانه وذاته من ناحية ، ولكل ما يحيط به فى هذا العالم من آداب وتقاليد وعقائد وفلسفات مـن ناحية أخرى .

وهذا الانسلاخ الذى يقوم به الانسان الوجودى عن كل ما هو معروف متداول ومسلم به ، سوف يسلمه بطبيعة الحال الى بداية خطيرة . تقوم على الشك فى التراث وفى كل ما يدور حوله من أعمال ومن عقائد ومن تقاليد ومن فكر حتى ينتهي به الأمر الى انكار ذاته ، وانكار العالم ، والوصول الى العدم .

ثانيا : هذا الفراغ وهذا العدم الذى ينتهى اليه الانسان الوجودى سوف يوقفه وجهـا لوجه أمام حرية مرعبة أو كما يقول سارتر سوف يجعله هذا الفراغ يدرك فجأة انه (محكوم عليه

بالحرية) (١) ولا يسعنا الا أن نهنىء سارتر على هذا التعبير الممتاز حقيقــة لأن الموقف ليس موقف حرية مادية . انه موقف الانسان وقد تجرد من كل رابطة أو خيط يصلــه بشىء فهو فى الفراغ بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فليس ثمة شىء يمكن أن يعتمد عليه اللهم الا اختياره الذاتى المحض ، وتصرفه الشخصى أو ما يمكن ان ينبع من ذاته هو ، اذ لا يمكنه أن يندفع فى هذه الحالة بارادته ولن يفرض عليه عندئذ شىء من الخارج .

* الحرية عند الوجوديين :

والصعوبة الحقيقية فى هذه الحرية ليست فى أنها هدمت كل شىء وانكــرت كل شىء وأسلمت الانسان الى التقزز والغثيان والرغبة فى القيء والشعور بالعبث فحســب ، وانمــا الصعوبة الحقيقية هى فى مدى امكان استغلال هذه الحرية في التغلب على هذا الوجود الأحمق الميئوس منه ، وانتشال الانسان من هوة القنوط الى قمة الأمل ، أو من انســان مغلوب على امره ضائع الى انسان قادر على أن يتغلب على نفسه ، بحيث يصبح في نهاية الأمر هو حرية نفسه . أو بمعنى آخر يصبح انسانا يجعل من حريته مبدأ يتحدد علىهديه كل ما يتعلق بسلوكه وسيرته وتاريخه ومواقفه مع الجماعة التى يعيش معها .

(فالانسان الحر ، فى رأى سارتر ، هــو الذى يتحمل مسئوليات نفسه فى الوضــع الذى تلقيه فيه تيارات المصادفات ، وهو الذى يكسب مصيره معنى معينا بتصرف مطلق من ضميره ، نابذا كل ما يزيف الضمير من خرافات ، وعقائد وهمية وسلطان على الفكر) (٢) .

وإذن فايجابية هذه الفلسفة منحصرة ، في هذا الجزء الأخير من القضية ، ونعني به أن تخلق الحرية وجود الانسان ، وان تحقق له من القيم ما يجعلها حرية خلاقة ، والا فانها تنقلب الى معول للهدم ، وتبقى على هذه الحال لا تخرج منها . كما أنها لا ينبغي أن تكون حرية فردية ذاتية لا تهتم بحرية الآخرين ولا تلقى بالا لها . وهذه الناحية الايجابية بالــذات هي الجــديرة بالايضاح ، لأن كثيرا من الهجوم الذى وجهه خصوم الوجوديين لهم ينصب على فكرة الالتزام وفكرة الحرية أكثر من غيرها . فقد ذهب خصوم الوجوديين الى أن هذه الحرية التى يدعون اليها ان هى الا نوع من الحرية المطلقة تنتهى الى الفوضى المدمرة ، والشعور بالفردية المطلقة لا يمكن أن يؤلف مجتمعا ،زاعمين ان الفرد في المجتمع سوف ينقلب فى هذه الحالة الى فرد متنافر مع الفرد ويأبى أن يقبل منه أى فكرة ، ومن ثم يتحول المجتمع الى مجتمع غير متماسك ، ولكن سارتر قد رد على خصومه هؤلاء فقال :

(والذاتية التى نصل اليها ليست ذاتية فردية لأن الانسان ، كما بينا ، يكشف بالكوجيتو : (أفكر اذن أنا موجود) عن ذاته وعن ذات الآخرين أيضا . فنحن نرى ، بعكس فلسفة ديكارت أو فلسفة كانت ، أن الكوجيتو يجعلنا ندرك ذاتنا أمام الانسان الآخر ، ونــدرك أن وجــوده ، بالنسبة الينا ، اكيد كوجودنا نحن .

ان الانسان الذى يدرك ذاته بالكوجيتو ،يكشف أيضا عن وجود الآخرين ويكشف عنــه بمثابة شرط لوجوده الذاتى . انه ليس بشيء اذا لم يعترف به الآخرون كذلك ، (ليس خفيف الظل أو ثقيله أو رديئا او صالحا) واذا رمت حقيقة ما تتعلق بذاتى ، فلا يمكننى الحصول عليها

---

(١) الوجودية فلسفة انسانية ص ٢٥

(٢) المسرح الفرنسي المعاصر ص ١٥٩

الا بواسطة الآخرين ، ليس هذا شرطا لوجـودى فقط ، بل هو أيضا شرط للمعرفة التى اكونها عن ذاتى .

وهكذا يكون اكتشافى لصميمتى فى هذه الشروط اكتشافا للآخر ، من حيث هو حرية موضوعية أمامى ، ومن حيث هو كائن لا يفكر ولا يريد الا بالنسبة الى ، سلبا كان أم ايجابا . أما نتيجة ذلك فهى أننا كشفنا عن عالم ندعوه بعالم الذاتية المتبادلة Inter - Subjectivire وهو عالم يقرر فيه الانسان كينونة الآخرين أيضا (١) .

ويقول سارتر في موضع آخر عن حرية الآخرين : (ان الحرية من حيث هى تعريف للانسان ليست متعلقة بحرية الآخرين، ولكن الالتزام يحتم على بداته أن أختار حريتي وحرية الآخرين في آن واحد ، انه يجعلنى لا أستطيع اعتبار حريتى غاية دون أن أدمج في تلك الغاية حرية الآخرين) (٢) .

ومفهوم هذا الكلام ان ليست الحرية الفردية مطلقة بالمعنى الذى يبيح للفرد أن يفعل ما يحلو له بغض النظر عن اى اعتبار ، ولكنها حرية اختيار واعية بما يجب أن يسلكه الفرد ، بما يمليه عليه كل موقف من المواقف . وعندئذ يكون الوجودى مستقلا فى اختياره اولا وملتزما بكل ما يحيط به من ملابسات موقفه ثانيا . فكأن الحرية هنا لا تتحقق الا بالالتزام ، والا بما يمليه الموقف على المرء من سلوك ازاءه . كأن سلوك الانسان الوجودى مرتبط بادراكه لكل الملابسات المحيطة بـه ومرتبط كذلك بوجود الآخرين . على أن تكون له وحده فى النهاية حرية الفصل والبت فى كل موقف على حده ، فهو الذى يحدد طريقة تصرفه ، وهو الذى يكتشفها لنفسه .

على أن الكلمات السابقة لسارتر تضيف هنا اضافة جوهرية فى مفهوم علاقة الانسان الوجودى (بالآخر) ، وكلمة الآخر هنا تعنى الانسان الذى يعيش الى جانبنا او فى مجتمعنا والذى له علاقة بنا ، ان سارتر عندما حدد العلاقة المعنوية التى تنشأ بين الانسان الوجودى والاخر لم يهمل الاشارة الى أن هذه العلاقة ، على رغم ايجابيتها وفعاليتها ، لا ينبغي لها بحال من الأحوال ان تهبط بنا الى الموضوعية السلبية أو الى انكار حريتنا الفردية أو كبتها أو كتمانها ، وهذا بالضرورة واضح من المبدأ الاساسي لفكرة الاختيار الحر الملتزم التي ترفض الخضوع للاخلاق العامة . فلا وجود عند سارتر للاخلاق العامة التى تستطيع ان تدلك على الواجب لانه على حد قوله لا وجود فى هذا العالم لاشارات قابلة للتأويل ، واذا كان الكاثوليكيون يجيبون بالعكس : ان هنالك اشارات . واذا سلمت معهم بذلك فالذى يعطى هذه الاشارات معناها هو كل واحد منا على هواه (٣) .

ويزيد سارتر المسألة ايضاحا عندما يضرب لنا هذا المثل الطريف فى بيان حرية الاختيار الملتزمة فى غير خضوع للاخلاق العامة يقول :

(سأذكر لكم الآن حالة أحد تلاميذى الذى جاء في الظروف الآتية/ لهذا الشاب أب متخاصم مع زوجته ، ومتعاون مع الأعداء . وكان له اخ قتل فى الهجوم الالمانى سنة ١٩٤٠ . وكان يريد الانتقام له ، مدفوعا بعواطف بدائية نوعـا ما ولكنها عواطف كريمة . وكان هـذا الشاب يعيش وحيدا مع والدته التى كانت تتعزى به عن خيانة زوجها وعن مصيبة ابنها المقتول .

---

(١) الوجودية فلسفة انسانية ص ٤٢

(٢) الوجودية فلسفة انسانية ص ٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١

وكان على هذا الشاب ان يختار وقتئذ احد امرين/فاما أن يلتحق بالقوات الفرنسية الحرة فى انجلترا ، واما أن يبقى بجانب والدته ليساعدها على الحياة .

لقد كان يدرك أن والدته تحيا بوجوده معها ، وان غيابه أو موته سيلقيها في لجة اليأس . وكان يدرك أيضا أن كل عمل يقوم به تجاه والدته له قيمته وصداه . بمعنى انه يساعدها فعلا على الحياة ، ان اية خطوة يقوم بها للذهاب الى القتال قد تذهب سدى وتضيع لأنه قد لا يستطيع الالتحاق بالقوات المحاربة . فانه قد يبقى مثلا سجينا في اسبانيا اذا حاول المرور في أراضيها او موكلا بعمل كتابى بسيط فى الجزائر اذا ما حاول الفرار أولا الى شمال افريقيا . انه أخيرا ، كان أمام نوعين مختلفين من الاعمال احدهما غير مباشر لكنه موجه الى فرد واحد ، وثانيهما موجه الى مجموعة اوسع امتدادا بكثير ، وهى المجموعة القومية ، ولكنه بسبب ذلك عمل معرض للانقطاع والفشل .

كان الشاب فى ذلك الوقت يتردد بين نوعين من الأخلاق : اخلاق التعاطف والتضحية الفردية ، واخلاق أوسع لكنها ذات فاعلية اقل ضمانا من فاعلية الأولى . وكان على ذلك الشاب أن يختار أحد الاثنين . فمن يستطيع اعانته في ذلك ؟ العقيدة المسيحية ؟ كلا . فانها تقول : (كونوا محبين للقريب وضحوا بأنفسكم فى سبيله، اختاروا دائما الطريق الاكثر صعوبة من غيره) . ولكنا نتساءل هنا : اية الطرق هي الأكثر صعوبة من غيرها ؟ ومن تجب محبته كقريب ، الأم أم المقاتل فى الجبهة ؟ واين الفائدة الكبرى ؟ أهى فى المقاتلة مع مجموعة كبيرة وتكون الفائدة عندئذ غامضة ام أنها فى اعانة كائن معين على الحياة وتكون الفائدة عندئذ محددة ؟ ومن يقرر فى كل ذلك بصورة قبلية ؟ لا أحد ولا اية اخلاق مكتوبة .

فالأخلاق الكانتية تقول : لا تعاملوا الآخرين مطلقا بوصفهم وسائل بل غايات . حسنا فانى اذا بقيت بجانب والدتى ، اعاملها من حيث هى غاية لا وسيلة وقد اكون فى هذه الحالة معاملا الذين يقاتلون حولى كما لو كانوا وسيلة . واذا التحقت،من جهة ، بأولئك المقاتلين ، عاملتهم معاملة غاية، وعرضت نفسى فى آن واحد لمعاملة والدتى معاملة وسيلة .

فاذا كانت القيم غامضة ، واذا كانت دائما اكثر اتساعا من الحالة المعينة المشخصة التى ذكرناها فلا يبقى لدينا سوى الالتجاء الى غرائزنا . وهذا ما حاول صنعه ذلك الشاب ، اذ انه كان يقول : المهم في الأساس هو العاطفة ، وما يجب أن اختاره هو الذى يدفعني نحو اتجاه معين . فاذا شعرت بأني أحب والدتي حتى أضحى فى سبيلها بكل ما تبقى من رغبة فى الانتقام والعمل والمغامرة ، بقيت بقربها . اما اذا شعرت بأن حبى لوالدتى ليس بكاف تركتها وذهبت . ولكن كيف يمكننا أن نحدد قيمة عاطفة ما ؟ وما مصدر قيمة عاطفة الشاب نحو والدته ؟ هو بالضبط ، مجرد بقائه لاجلها . فاني أستطيع القول مثلا : احب صديقى لدرجة انى اضحى بمبلغ من المال فى سبيله ، ولكنى لا استطيع القول بذلك الا اذا ضحيت فعلا بالمال.وهكذا فانى اقول: احب والدتي لدرجة أني ابقى بجانبها اذا كنت بقيت فعلا بجانبها ، وهكذا فاني لا أستطيع تعيين قيمة هذه العاطفة الا اذا قمت بالضبط بفعل يؤكدها ويعرفها . ولكنى لما اطلب من هذه العاطفة تبرير فعلى بالذات فانى ارى نفسي واقعا في حلقة مفرغة .

ولعلكم تقولون : ان ذلك الشاب يستشير استاذه على الأقل . ولكنكم اذا استشرتم كاهنا مثلا ، فأنتم تعلمون نوعا ما ، عند اختياركم اياه ، شكل النصيحة التى ستأخذونها منه . وهذا يعني أن اختيار المرشد هو بحد ذاته التزام . والبرهان على ذلك انك لو كنت مسيحيا لقلت :

استشر كاهنا . ولكن من الكهنة من يتعاون مع الألمان . ومنهم من يقاوم المحتلين ، فأيهم تختار ؟ فاذا اختار الشاب كاهنا مقاوما للعدو او آخر متعاونا معه فهو قد قرر نوع النصيحة التى سيأخذها . وهكذا فعندما أتى ذلك الشاب اليّ كان عالما بالجواب المنتظر وهو جواب واحد : أنت حر لتختار ولتبتكر ، فلا أخلاق عامة تستطيع ان تدلك على الواجب لانه لا وجود فى هذا العالم لاشارات قابلة للتأويل . ولكن الكاثوليكيين يجيبون بالعكس : ان هنالك اشارات . واذا سلمت معهم بذلك فالذى يعطى هذه الاشارات معنى هو كل واحد منا على هواه . (١)

ولعل هذا المثل الذى حرصنا على أن نسوقه بكامله يوضح لنا ، بما لا يدع مجالا للشك أن الانسان الحر هو الانسان الذى يتصرف بمحض اختياره فى الوضع والموقف الذى تلقيه فيه تيارات الظروف ، والمصادفات واحداث الحياة وهو فى هذا التصرف يراعى كل الظروف الممكنة وكل الاحتمالات المتوقعة ، ويناقشها بينه وبين نفسه ، واضعا فى الاعتبار علاقته بالآخرين . على أن الذى يحدد القرار النهائي بالنسبة لأى موقف من المواقف هو ما يمليه ضمير الانسان الحر بغض النظر عن أى ضغط يفرض عليه من الخارج . وحتى لو ضغط عليه فهو ملتزم ومختار ومسئول عما يفعل .

والآن ، وقد فرغنا من اجمال الاسس النظرية لفكرة الوجود والحرية والالتزام عند سارتر نجد من المفيد أن نوجه البحث الى بعض ما جاء فى ادب سارتر وفى مسرحة بالذات لنرى الى أى حد برزت هذه الاتجاهات النظرية فى ادبه .

مسرحية الذباب لسارتر :

ظهرت هذه المسرحية عام ١٩٤٣ . وهى من هذا النوع من المسرحيات الذى يتخذ الموضوعات القديمة أساسا لها ، فقد اعتمد سارتر في هذه المسرحية على الأسطورة اليونانية القديمة ، أسطورة الكترا التي عالجها ايسكيلوس ، وصوفوكليس والفيبرى ، وجيرودو عام ١٩٣٧ ، وغير هؤلاء . الا ان سارتر فى تناوله لهذه الأسطورة قد خالف هؤلاء جميعا ، اذ استطاع أن يلتمس من أحداث القصة ووقائع الاسطورة سبيلا الى التعبير عن فلسفته ازاء العمل الحر الملتزم ، وازاء فساد هذا العالم وانحلاله ، كما استطاع ان يلتمس من الأحداث وسيلة لتحرر الانسان من المعتقدات الوهمية المتوارثة ، والتى ترزح على نفوس البشرية كما يرزح ، الكابوس ، والتي لا تفتأ تطلق على الناس أشباحا من الخيال تعوق حريتهم وانطلاقهم .

هذا وقد اختلف تناول سارتر لهذه الأسطورة عن غيره فى اعتماده على مسرح المواقف اكثر من اعتماده على تحليل الشخصيات ، فالابطال فى مثل هذا المسرح شخصيات تقع في مأزق ، وتتوقف حريتها على الموقف الذى تختاره للخروج من هذا المأزق . فالمسرحية فى جملتها حريصة على أن تكشف لنا فى كل شخصية الانسان المبتكر لنفسه بابتكاره للمخرج الذى يختاره للخروج من مصيدة الفئران التي يقع فيها . على أن مثل هذا النوع من المسرح لا تعدم أن تجد فيه شخوصا متميزة بألوان نفسية محددة . ففى المسرحية آدميون واقعيون لهم مشاكلهم ، وعندهم امكانياتهم كما أن لهم التفاتاتهم الدهنية ، وملامحهم النفسية ، غير اننا عندما نقول ان العناية بالموقف كانت السمة البارزة فى مسرحيات سارتر لا نعنى بذلك اغفال ما فى مسرح سارتر من عناصر اخرى هامة منها صراع الأفكار . فليس من شك أنك حين تقرأ سارتر سوف تجد نفسك امام نوع من الدراما

(١) الوجودية فلسفة انسانية ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١

الفنية بالفكر الذى يحتاج منك الى الرجوع الى فلسفات الوجوديين وغيرهم لمعرفة ما تقوم عليه من اسس ، كما ستحتاج كذلك الى تتبع نوع جديد من الصراع بين الوعى الفردى المتحرر وبين طغيان مجتمع بتقاليده البالية الخانعة .

ولكى نحلل مسرحية الذباب لسارتر ونكشف من خلالها كل ما أجملناه من خصائص هذا المسرح الجديد يجدر بنا أن نقف لحظة عند موضوع الاسطورة التي اتخذها الكاتب أساسا لموضوعه وفكره وصراعه الجديد .

تتلخص الأسطورة القديمة فى ان أجاممنون حاكم (أرجوس) كان بطلا وقائدا للحملةاليونانية على طروادة ، ولقد أظهر فى هذه الحملة شجاعة تثير اعجاب معاصريه . على ان آجاممنون قد اضطر رغم شجاعته تلك الى ان يقترف بعض الأخطاء نتيجة لمظاهر ضعف انسانية لا يسلم منها أى بطل من أبطال المآسى . من هذه الاخطاء انه عندما كان فى طريقه لحصار طروادة غضبت الآلهة فأرسلت رياحا هوجاء عوقت من سير الأسطول اليونانى الى طروادة ، فابتهل الى الالهة ان توقف هذه الرياح ، ولكى يكسب رضا الآلهة قدم ابنته (افيجينى) ذبيحة وقربانا ، وتسير افيجينى الى الموت فى شجاعة فيمتلىء صدر كليتمنسترا زوج أجاممنون سخطا على ما أتاه زوجها من عمل فظيع حين ضحى بابنته على هذه الصورة . وعندما يعود أجاممنون من الحرب متوجا بالنصر والفخار يجد زوجته الساخطة عليه تتآمر هى وعشيقها (ايجست) على قتله ويتم لها ما تريد . وكانت لاجاممنون ابنة أخرى تدعى (الكترا) وابن اسمه (اورست) فيقع على الاثنين عبء الانتقام لابيهما من امهما وعشيقها ،ويقتل اورست الأم وعشيقها معا .

هذه هى مجمل الأسطورة التي اعتمد عليها سارتر ، وقد حافظ عليها واستبقاها كما استبقى شخوصها القديمة متخذا من شخصيتيأورست والكترا موقفين متناقضين : موقفالفتى الثرى النبيل المحنك الذى طاف بالبلاد وتعلم مما صادفه فيها من تجارب أدركها من طبائع البشر ، وما اكتشفه من حقائق عن الحياة والوجود ، فهداه هذا كله الى التفكير الحر ، وساعده على ذلك أن رأى نفسه بلا اسرة ولا وطن ولا دين ولا مهنة ، فبدأ بذلك انسانا حرا تمام الحرية فيما يفعل وفيما يلتزم . أما الكترا شقيقته فعلىالرغم مما عانت من تعاسة وشقاء بمصاحبتها لأمها وزوج أمها ، وما لقيت معهما من صنوف الاحتقار والازدراء ، وعلى الرغم مما تحسه دائما من فظاعة الاثم الذى ارتكبته أمها وعشيقها ، ورغبتها الملحة فى الانتقام منها ، وعلى الرغم من انتظارها فى قلق لعودة أخيها ، وما قامت به من دور فى اقناعه بضرورة الأخذ بثأرأبيها ، وتخليصها من وطأة ما تشعر به من مسئولية الانتقام ، علىالرغم من كل ذلك فان شخصية الكترا ظلت طرفا مقابلا بل ومتناقضا لشقيقها . وذلك فى الموقف الذى اتخذته آخر الأمر . ازاء الجريمة التى ارتكبها أخوها أورست عندما قتل أمه وزوجها . فلم تستطع الكترا أن تنجو كما نجا أخوها أورست من أشباح الندم التى لا حقتها فى قسوة ، والتى ورثتها مع ما ورثت من مدينتها الواقعة تحت تأثير الندم منذ مقتل أجاممنون . ذلك الندم الذى يصور الكاتب أشباحه بحشود من الذباب الذى يحط على ما فى القلوب الفاسدة من نتن وعفن . وهكذا تقع الكترا أسيرة لأشباح الندم هذه، وتبقىفى قبضة العقائد والتقاليد لا تستطيعمنها فكاكا ، لأنها مشدودة اليها بقوة العادة ، وتضيع صيحات أورست لأخته هباء . فعبثا يحاول ان يخلصها من الوهم المسيطر على مشاعرها ومن ارتعادها المرعب أمام الجريمة . وانظر الىهذا الصراخ الذىترسله الى جوبيتر طالبةالصفح والغفران ، وتقول مخاطبة أخاها :

(اننى لا اريد أن أسمعك بعد ، انك لا تقدملي الا المصيبة والاشمئزاز ... النجدة !

النجدة ! يا جوبيتر ، يا ملك الآلهة والشر ، يامليكي ، خذني بين ذراعيك احملني ... احمني انني سأتبع شريعتك ، سأكون عبدتك وملكك ،وسأعانق قدميك ، ركبتيك.. احمني من الذباب، من أخي ، من نفسي ، ولا تدعني وحيدة ، انني سأكرس حياتي كلها للتكفير ... انني أتوب ، يا جوبيتر ، أتوب) (١)

أما أورست فانه على النقيض من اخته ،لقد جاء الى مدينة (أرجوس) بعد موت أبيه بخمسة عشر عاما فيجد (ايجست) زوج أمه وقاتل أبيه يتربع على عرش (أرجوس) المدينة التى تركها وعمره ثلاث سنوات ، ولا يكاد يدخل اورست الى هذه المدينة حتى يواجه بشيء فظيع لم يعهده فى أى مدينة مر بها من قبل ، فقد رأى (ايجست) يفرض على أهل (أرجوس) حياة ملؤها الذعر والخوف والندم ، فمنذ اغتيال اجاممنون والمدينة برمتها تصرخ من اجله . وحتى لا تنسى المدينة صراخ احتضار ملكهم أجاممنون فرض عليهم ايجست هذا الصياح ، صياح التكفير عن الذنب فى كل عام ، فقد اختير بقار ذو صوت قوى ليصيح فى ذكرى سنوية فى قاعة القصر الكبرى ، ثم تطلق الموتى من قبورهم فى يوم عيد يخرج فيه الناس جميعا لاستقبال موتاهم الذين يصعدون من الأرض كبخار هائل من الكبريت تطرده الريح ، وينتشرون فى ضباب كثيف عبر الشوارع لتنسل قوافلهم المزدحمة بين الأم والطفل ، بين العاشق وعشيقته ، ثم يقف الأحياء فى رعب هائل يطلبون الصفح من هؤلاء الموتى على ما اقترفت ايديهم من الآثام والخطايا ، ويبدو الحى أمام الميت كأنه فريسة سمينة حيةينقض عليه وينحتها حتى العظم .

كان ذلك كله يتم بتدبير من (ايجست) الذى اراد بذلك ان يمنع سكان ارجوس من التفكير فى جريمة القتل التى ارتكبها ، وأن يحول بينهم وبين فكرة الانتقام منه ، فأخذ يفرق المدينة كلها فى هذا الشعور بالذنب الذى أبرزه سارتر فى صورة حسية رائعة ، حين جعل الأحياء يخرجون على هذه الصورة المزرية يعترفون بأخطائهم ويجدون فى الرعب والعذاب والخوف من الخطيئة لذة يستمرئونها ، وضريبة من الملك تفرض على الشعب فرضا حتى اصبحت تقليدا سنويا وعيدا رسميا للدولة . ولقد أحسن أورست تصوير هذه الحال بكلماته المعبرة الساخرة حين رأى ما رأى من مشاعر الندم المتوغلة الى كل ركن من أركان المدينة فقال :

(حقا ؟ جدران ملطخة بالدم ، وملايين من الذباب ، رائحة مجزرة ، وحرارة حشرات ، وشوارع مقفرة ، ورب ذو وجه مسحوق ، وبقايا مذعورة تضرب صدورها فى جوف بيوتها . وهذا الصراخ ، هذا الصراخ الذى لا يطاق . أهذا ما يروق لجوبيتر ؟) (٢)

ولم يكن أورست حتى هذه اللحظة التى التقى فيها بهذا الجو الغريب عليه قد اكتشف كيانه بعد ، لم تكن بين يديه غير هذه الحرية الهزيلة حرية الخيوط التى تنتزعها الريح من نسيج العنكبوت ، والتى تتطاير على ارتفاع عشرة أقدام من الأرض ، انه على حد تعبيره ، لم يكن يزن أكثر مما يزن الخيط ، ويعيش فى الهواء .. ولكن هذه الحرية الواهية الضعيفة لم تلبث أن تحولت عند أورست بعد أن واجه الحقيقة ،وبعد ان وجد نفسه ملتزما بفعل لا بد من تحقيقه، لم تلبث ان تحولت هذه الحرية الواهية الى عمل واع ، فقد وقع فى مأزق ، ولا بد له أن يحقق حريته عن طريق الآخرين وفى مواجهتهم . فقد ادرك أن العمل الذى لا بد أن يأتيه لكي يحقق لنفسه وجودها ، ولكى يقيم لنفسه كيانا حقيقياهو قتل (ايجست) قاتل ابيه ، فيعقد العزم على

---

(١) مسرحيات سارتر ص ٩٥

(٢) مسرحيات سارتر ص ١٤

ذلك بضمير واع يقظ ، وينفذ ما عقد العزم عليه دون أن ينتابه الخوف أو يسيطر عليه شعور بالندم ، فقد ضرب ضربته وهو على ثقة تامة بقيمة مايفعله ، وهو قد ارتكب جريمته وواجه الاله جوبيتر فى غير تردد أو خوف .

وهكذا يبدو لكل من يقرأ مسرحية الذباب كيف استطاع سارتر فى حدود تحليله للموقفين المتناقضين ، موقف اورست المبتكر النابع من نفس حرة نفضت عن كتفيها كل ما تفرضه العقائد والتقاليد والأوهام من سيطرة على الفرد ، وبين موقف أهل (أرجوس) الذين يرزحون تحت وطأة الندم وينحازون فى غير حرية ولا اختيار الى مافرض عليهم فرضا ، وما يساقون اليه سوقا . اما أورست الذى أفزعه ان يرى ضمائر سكان ارجوس مكبلة بالندم ، فقد حطم هذه القيود ، وأبى أن يصيبه الداء المستشرى بين الناس ، وبنى لنفسه كيانا مستقلا يكشف عن جوهره ، ضاربا عرض الحائط بكل ما كان يوهن من حريته ويضعفها فى الماضي . وانظر الى هذا الحوار بينه وبين (جوبيتر) رب الأرباب :

أورست : أنا لست السيد ، ولا العبد ، ياجوبيتر . اننى حريتى ! فما كدت تخلقنى حتى كففت عن أن اخصك .

الكترا : أستحلفك بأبينا يا أورست ، لاتضف التجديف الى الجريمة .

جوبيتر : اسمعها ، وافقد الأمل فى أن تستردها بحججك : ان هذه اللهجة تبدو جديدة بما فيه الكفاية على سمعها ــ وهى تصدمها بما فيه الكفاية .

أورست : وعلى سمعى أيضا ، يا جوبيتر . وعلى حلقى الذى يهمس بالكلمات ، ولسانى الذى يكونها عندما تمر به : انني اجد مشقة فى فهم نفسى . لقد كنت حتى الأمس اضع غشاوة على عيني ، وسدادة من شمع فى أذنى ، وبالأمس كان عندى عذر ، كنت عذرى بأن أوجد ، لأنك كنت قد خلقتنى فى العالم لأخدم اغراضك ، وكان العالم ــ سمسارة عجوزا ــ تحدثنى عنك بلا انقطاع . ثم تركتنى بعد ذلك .

جوبيتر : أتركك ؟ أنا ؟

أورست : أمس ، كنت قرب الكترا ، وكانت طبيعتك كلها تحيط بى ، كانت الجنية تنشد أغانى (خيرك) وتمحضنى نصائحها . وكان النهار المحرق يرق كما يتفنى النظر ، ليحرضني على الرقة ، ولكى تدعونى السماء الى نسيان الاهانات كانت تعذب وتحلو كأنها الصفح . كان شبابي ، ليطيع اوامرك ، قد نهض امام نظري ، مبتهلا كخطيبة يهم خطيبها بتركها : وكنت أرى شبابى للمرة الاخيرة . ولكن فجأة ، انقضت الحرية على فأرعدت فرائصي ، وقفزت الطبيعة الى خلف ، فلم يكن لى بعد عمر ، وأحسستنى وحيدا كل الوحدة ، وسط عالمى الصغير التافه ، كمن فقد ظله ولم يكن ثمة شيء بعد فى السماء ، لا (خير) ولا (شر) ولا أحد ليصدر اليّ أوامره .

جوبيتر : واذن ؟ أيجب على أن اعجب بالنعجة التي يعزلها الجرب عن القطيع أو بالأبرص الذى هو محبوس فى محجره ؟ تذكر يا أورست : لقد كنت واحدا من قطيعي وكنت ترعى كلأ حقولى وسط نعاجى . وليست حريتك الا جربا يتآكلك ، انها ليست الا منفى .

أورست : حق ما تقول : منفى .

جوبيتر : ليس الشر شديد العمق : فقد بدأ بالأمس فحسب . عد الينا عد : وانظر كم أنت وحيد ، فحتى أختك تتركك . انك ممتقع اللون ، والقلق يوسع عينيك . تؤمل أن تعيش ! هنا أنت ذا متآكل بشر لا بشرى ، أيها الغريب على نفسك ذاتها . عد : فأنا النسيان ، أنا الراحة .

أورست : غريب على نفسى ، أعرف هذا .خارج الطبيعة ، ضد الطبيعة بلا عذر ولا ملجأ الا فى . وكننى لن أعود تحت شريعتك . فأنا محكوم علي بألا تكون لي شريعة أخرى غير شريعتي ، اننى لن أعود الى طبيعتك : ان هناك ألف درب مرسومة فيها تؤدى اليك ، ولكنى لا أستطيع أن أتبع الا دربى . ذلك أنى انسان يا جوبيتر ، وعلى كل انسان أن يخترع دربه ان الطبيعة تشمئز من الانسان ، وأنت ، أنت ، رب الأرباب ، أنت أيضا تشمئز من البشر .

جوبيتر : أنت لا تكذب : فحين يشبهونك ، اكرههم .

أورست : حذار : لقد اعترفت بضعفك . اما انا فلا أكرهك . ما شأنى بك ؟ اننا ننساب أحدنا بمؤازرة غير الآخر ، من غير أن نتماس ، كسفينتين : انك رب ، وأنا حر : فنحن متشابهان فى الوحدة ، وضيقنا متشابه . من ذا الذى قال لك انى لم أبحث عن الندم ، فى أثناء هذه الليلة الطويلة ؟ الندم . النوم ولكنى لا أستطيع بعد أن أعانى الندم . ولا أن أنام . (١)

وواضح من هذا الحوار بين أورست وجوبيتر انه لا يكشف عن موقف أورست وعن اكتشافه لحريته التى حددت وجوده ومصيره فحسب ، وانما يكشف الى جانب ذلك عن فلسفة سارتر التى تسخر من مبدأ الاعتراف بالخطيئة . وما تفرضه على الناس من شعور بالندم ، الذى هو عنده شعور سلبى معوق ومضلل ، فان الاختفاء وراء عقيدة الندم هذه انما هو فى رأيه هروب من مواجهة الحياة ، بل ان مثل هذا الشعور بالخطيئة لهو أوغل فى الشر من الشر نفسه . ذلك لأنه أشبه ما يكون بالدثار السميك الذى يتلف نفوس الناس فلا تستطيع أن تكشف القناع عن حقيقة هذا الوجود الفاضح العديم المعنى ، هذا الموقف السلبي الذى يمنع الناس من مواجهة حرياتهم والتطلع الى كشف الحقيقة ، هو الشر فى نظر أورست وهو كذلك فى رأى سارتر .

وما التحدى السافر الذى أعلنه أورست لجوبيتر رب الأرباب فى نهاية الحوار السالف الذكر الا دليل على انتصار الوعي الحر ، وعلى شعور أورست بأنه استطاع أن يحقق كينونته ووجوده لا عن طريق الآخرين بل بارادته الحرة . فالمرء لا يكون عاجزا الا اذا قبل أن يكون كذلك ... ومن ثم كانت ضرورة الالتزام والقضاء على فكرة الاستسلام أو التبعية من أهم القضايا التي تهدف اليها المسرحية . فان التخلي عن المسئولية هي فى الحقيقة قضاء على وجود الانسان ، من أجل ذلك هاجم سارتر بكل قوته فكرة الاستسلام للخطيئة والشعور بالندم ، بل لقد ذهب الى أبعد من هذا عندما أفهمنا أن الشر كان ينبع من اللامبالاة والسلبية والتخلي عن التبعية والشعور بالمسئولية . فان الشر كله ينبع من جحود الالتزام ، لأن جحود الالتزام بمثابة جحود للوجود .

على أن هناك تساؤلا كثيرا ما يعترض قارىء مسرحية الذباب ، وهو تساؤل يتعلق بالموقف الأخير الذى وقفه أورست عندما رفض أن يجلس على عرش أبيه بعد أن قتل (ايجست) فبأى شىء يفسر هذا الرفض ؟ وهل فى هذا الرفض ما يناقض الموقف الايجابي الذى انتهى اليه

---

(١) مسرحيات سارتر ص ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣

أورست ؟ فاذا فهمنا هذا الرفض على انه تنصل كان فى ذلك تناقض واضح ، فمن أين جاء الالتزام اذا كان أورست سوف يترك سلطان المدينة لغيره من الناس ؟

وعلى الرغم مما أثاره هذا التساؤل من شكوك النقاد والباحثين مما ادى ببعضهم الى اتهام سارتر بالتناقض ، فان من النقاد من استطاع أن يفسر موقف أورست الأخير تفسيرا يساير الاتجاه العام لفلسفة المسرحية ، لا يناقض موقف الالتزام فيها . فان تخلى أورست عن حكم ارجوس بعد انتصاره قد كان رمزا للمقاومة الفرنسية التي قصد اليها سارتر من وراء الموقف الاخير الذى وقفه أورست ، فان موقف المقاومة الفرنسية للهجوم الألماني المغتصب كان بمثابة موقف الجند فى ساحة القتال ، لا يهدفون الى ما وراء الانتصار بقدر ما يهدفون الى الانتصار نفسه . (١)

*** مسرحية الله والشيطان لسارتر :**

واذا انتقلنا الى مسرحية الله والشيطان لسارتر فسنجد أنفسنا أمام أكثر مسرحياته اثارة وصراعا وحركة على الرغم مما تفيض به من فكر، وما تهدف اليه من فلسفة سارتر فى الوجود والحرية ، ونبذ العقائد الدينية ، بل واثبات خطورتها فى تعويق تقدم الانسان وتكبيل حريته. بل ان مسرحية الله والشيطان لتذهب الى أبعد من ذلك عندما تنتهي هذه النهاية الخطيرة التي يلح سارتر فى تأكيدها ، ملتمسا لذلك السبل من تجربة تحاول أن تستمد أساسها من الواقع ، فتنتهي به تلك الحرية الى أن الموجود الوحيد فى هذا العالم هو الانسان وأن ليس فى الكون اله غير الانسان . بل لقد حاول جاهدا بما عرض من تجربة ، وبالدليل ، والبرهان ، أن يقنع نفسه والناس من حوله بالحقيقة التى تقول بأن العدم أو المعدوم هو الانسان ، وان الوجود أو الموجود هو الله غير أن ذلك كله قد باء بالفشل ، واثبتت التجربة التي صورها سارتر فى مسرحيته والأحداث التي أجراها ، والشخوص التي عاشت هذه التجربة أو خاضت معاركها . حاولت أن تثبت أن الناس هم الذين خلقوا الله ، وليس الله هو الذى خلقهم .

وعلى هذا الأساس يضيف سارتر بمسرحيته هذه دليلا آخر على فلسفته الالحادية التي لا تفتأ تنتشر فى كل أعماله ــ واذا كان سارتر قد نجح فى أن يقنعنا بما قدم من عناصر الاثارة ، وما التمس من حيل مسرحية وما حققه من صراع ومن قدرة على تحريك الأحداث ورسم الشخوص ، بتمكنه من فن المسرحية ، فما أظن انه استطاع أن يقنعنا بما انتهى اليه من نتيجة خطيرة تحاول أن تزلزل ايمان الناس فى أقدس مقدساتها . فليس من شك فى أن ايماننا بالله هو الشيء الوحيد القادر على أن يجعل لحياتنا معنى ، وأن يجعل من وجودنا قوة ، وأن يجعلنا نتمسك بالحياة ونعيشها ، ذلك أن الايمان بالله ايمان بالخير والحق والعدل والجمال ، ومن أجل هذه جميعها نعيش الحياة ، ولولا هذا الايمان لانتهى بنا الحال الى ما انتهى اليه الوجوديون من روح العبث والتمرد ، وعندها لن تكون هناك حقيقة غير تدمير الحياة ، بل قد يكون فى هذه النهاية ما يدعو الى الترغيب فى الانتحار . ولماذا نذهب بعيدا وقد قالها البير كامي صراحة :

(فأن يموت المرء بملء ارادته ، يفرض انه اعترف ، ولو غريزيا ، بطابع هذه العادة الذى يوحى بالسخرية ، وبانعدام أى سبب عميق للحياة ، وبالطابع الذى لا معنى له لهذا السعي اليومي،

---

(١) اقرأ هامش صحيفة ٧٢٢ من المدخل الى النقد الأدبي الحديث .

وبعدم جدوى الألم والعذاب . وبالاختصار ، فان الانتحار يعني بكل بساطة الاعتراف بأن الحياة لا تستحق أن تعاش) . (١)

وعلى الرغم من أن ألبير كامي الـذى يعلن عبثية الحياة على هذه الصورة يعود فيقول ان الحياة لا معنى لها ومع ذلك فينبغي أن نعيش ، ولكن على أى وجـه نعيش اذا انعدمت لدينا قيمة الحياة ؟ ذلك هو السؤال الذى وان انتهى الى اجابات متناقضـة يذهب بعضها الى مـا صورناه من ضرورة مجابهة الانسان لكل مواقف الحياة بالفعل الملتزم الحر ، والتجرد من كل فكر متوارث أو قديم أو مفروض على الانسان فرضا ، وتحمل الانسان لمسئولية أعماله ،الا أن ذلك كله على مافيه من ايجابية وحرية غير كاف لأن يجعل الانسان قادرا على أن يعيش الحياة ، ويستمر فى المضي فيها دون أن يصيبه التفسخ والتحلل والانهيار . نحن بحاجة دائما الى الايمان ، وليس من شك فى أن الدين فى جوهره الصحيح عامل ايجابي فعال وقوة دافعة لتحقيق الأمن والسلام والخير للبشرية على الأرض .

واذا كان سارتر قد استطاع أن يفرق بين الظاهر الخداع لبعض المشعوذين المنافقين ممن لا يعرفون من الدين الا قشوره ، والذين تركوا مبادئه العلوية السامية ، وأخفوا نفاقهـم وراء ملابسهم الكهنوتية الفضفاضة ، وطراطيرهم الملونة وذقونهم الكثة ، والصليب المدلى ، والكتاب المقدس الذى لا يبرح يد القس وبين الداعين عن ايمان بمعانى العدل والخير والحق ، فانه للاسف الشديد ، قد جعل الانتصار فى الدين لهذا الجانب السلبي الظاهرى الخداع . بل لقد ذهب الى ابعد من هذا فزعم أن الوسيلة الوحيدة التي تؤثر فى أهل الدنيا جميعا وتنطلي عليهم ، وتخضعهم لسلطانها ليست الا ما فى هذه المظاهر الدينية المسرحية الخداعة من سحر ، وتنتهي المسرحية آخر الأمر بأن المظاهر الخداعة هي وحدهـا الحقيقة ، وما عداها باطل .

وبعد فما موضوع هذه المسرحية وما كنه هـذا الصراع الذى انتهى بالكاتب الى هـذه النتائج ؟

لقد بحث سارتر فى التاريخ ، واستطاع أن يكتشف الحقبة الزمنية الصالحة لموضوعه ، كما استطاع أن يُحسن اختيار أحداث بعينها من التاريخ تصلـح أساسا لعرض الصراع الـذى يريده ، وتمهد السبيل للحقائق التي يهدف اليها .

لقد اختار فترة من تاريخ المانيا فى القرن السادس عشر كان الشعب فيها يعاني من وطأة استغلال قاهرة مستبدة ، ومن حملة ارهاب يقوم بها رجال الدين ، يفرضون فيها على الشعب اتاوات جائرة ، ويبتزون فيها الأموال مـن غيروجه حق ، متوسلين فى ذلك بسلطانهم الديني ، والدين برىء من هذا كله . أدى ذلك الى ثورة طاحنـة ، الهبت حماس الجماهير الشعبيـة تحت قيادة زعيم شعبي هو الخبّاز (ناستي) الذى أراد ان يثأر للشعب المظلوم ، وأن يرد عن مواطنيه البلاء الذى أنزله بهم رجال الدين ، فما كان من الاسقف الذى يمثل حكم الطغاة الجائرين الا أن يعمد الى نوع من الحيلة لكي يقضي على ثورة الشعب هذه ، ولم يتورع فى سبيل اخماد هـذه الثورة من استخدام كل ما يستطيع من وسائل الغدر والخيانة . فلجأ الى مجـرم من كبـار المجرمين المحترفين كان يتزعم عصابة من العصابات المكونة من اللصوص وقطاع الطريق . واستطاع هذا المجرم المسمى (جويتز) أن يكون من هذه العصابات جيشا كبيرا ، يعمل ما وسعه العمل على التخريب والتدمير مستخدما كل وسائـل الشر ، متنقلا بين الولايات الألمانية يعيث فيها

---

(١) كامى والتمرد ص ٩

فسادا . أدرك الأسقف ما فى هذا الرجل من وحشية ، وما لديه من قوة ، وما ينطوى عليه من شر ، وما عرف عنه من امتهان لكل القيم والمبادىء والأخلاق ــ وما اشتهر به من قسوة فى تعذيب الناس . ورأى فيه ضالتــه المنشودة ، وعرف كيف يتحالف معه وكيف يضمه الى جانبه هو وجيش العصابات الـذى تحت يـده ، وكيف يستفيد منه فى تأديب الشعب الثائر وعلى رأسه الخباز (ناستي) .

وكان الى جانب هاتـين الشخصيتـين : شخصية السفاح وقاطـع الطريق (جويتز) وشخصية بطل الشعب وزعيمه الخباز الطيب القلب (ناستي) ، شخصية ثالثة هي شخصية القس الكاثوليكي (هنريك) الذى كان فى أول أمره مواليا لثورة الشعب ضد رجال الدين ، وذلك لما كان يتمتع به من دماثة فى الخلـق ، وما كان يشعـر به مـن فساد رجـال الدين ، ومـا يستخدمونه من وسائل دنيئة لمخادعـة الشعب وابتزاز أمواله . على أن الأسقف الكبير شيـخ الطغاة استطاع آخر الأمر أن يخضع هذا القس الثائر ، وأن يحوله من رجل ثائر ضد المعتدين من رجال الدين الى رجل موال ، وذلك بما استخدمه معه الأسقف من وسائل التهـديد والتعذيب ، وما كان يردده عليه دائما من ضرورة الولاء للعهد الذى أخذه على نفسه ، وللقسم الذى أقسمه ليكون خادما أمينا للكنيسة ، وجنديا مجاهدا من جنودها ، حتى ضعف القس فى النهاية واستسلم للهزيمة ، وخذل الثوار ، وانضم الى اخوانه من رجال الدين .

ثم تبدأ المعركة التي يقف فيها (جويتز) السفاح مع جيشه الكبير ومعه الأسقف فى جانب ، ويقف فيها ناستي زعيم الشعب فى جانب آخر ، وادرك ناستي ما يدبره الأسقف فى الخفـاء ، وعرف أن بين أغنياء الشعب من يحاول الأسقف ضمهم الى جانبه، فيعجل ناستي باغتيال الأسقف . ومن يشايعه من كبار رجال الدين وأصحـاب الجاه والثروة ، وقبل أن يموت الأسقف يسلم مفاتيح المدينة ، مدينة (ورمس) التي تقع فيها أحداث القصة الى القس (هنريك) تلك الشخصية المهزوزة المترددة التى خانت ثورة الشعب .

وعلى الرغم من أن (ناستى) زعيم الشعب قد حقق بعض النجاح بالقضاء على الأسقف وبعض معاونيه من الخونة ، فانه لم يستطيع أن يقاوم جيش العصابات الذى كان يتزعمه السفـاح (جويتز) ، فيحاصر السفاح المدينة ، ويقبض عليها بيد من حديد وينسى تحالفه مع رجـال الدين ، ويستأثر بالسلطة كلها فى يديه ، وفى لحظة واحدة يتملكه هوس الانتصار وجنونه ، فيقرر البطش بالمدينة كلها وعلى رأسهم رجال الدين الذين ابتزوا أموال الشـعب ، ويصرخ صراخا مجنونا بأنه لن يرجع عما اعتزمه من شر ، ولن تستطيع أية قوة أن تمنعه من أعمال التخريب والتدمير والبطش التى عقد العزم على تنفيذها ، زاعما لنفسه أن ليس هناك اله غيره . بل لقد بلغ به الجنون حدا يجعله يستهين بقوة الخالق ، فهو لا يؤمن بوجود ما يسميه الناس الها ، بل لقد ذهب فى تحديه واستخفافه الى حد أنه قال : اذا كان الاله موجودا حقا فليعطني الدليل على ذلك ، وليتفضل فيمنع جويتز مما يريده للمدينة وأهل المدينة من شر ؟ فليرسل الله معجزة أو علامة ينذره فيها بالاقلاع عما يضمره من شر لأهل المدينة . وينتظر جويتز ظهور المعجزة ، أو نزول العلامة ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . وعندئذ يمضي جويتز فى طغيان فكره حين ينتهى الى أنه هو وحده الموجود الحقيقي الذى يفعل مايشاء وقتما يشاء ، فهـو حر كامل الحرية . ويحاول القس (هنريك) الذى تسلم مفاتيح المدينة من الأسقف المقتول يحاول أن يهدده بسـوء المصير ، وبالجحيم وجهنم يصلاها مع العاصين المارقين ، فلا يزيده هذا الا امعانا فى السخريـة والكفر ، فيزعم أن لو كان هناك اله لما وقع فى الدنيا هذا الشر ، ولأوصدت جهنم أبوابها .

وفى هذه الأثناء لا يرى القس (هنريك) الذى وجد نفسه أمام طاغية لا سبيل الى التأثير فيه عن طريق الدين ، لا يرى بدا من التماس وسيلة اخرى لعلها ان تجدى مع هذا الرجل العاتى ، ولم يجد مفرا من أن يلجأ اليه من ناحية يستثير فيها قوته وجبروته ويشككه فيهما ، فعرض عليه القس موقفا جديدا : فاذا كان يزعم لنفسه أنه حر تمام الحرية فى اتخاذ ما يشاء من مواقف ، واذا كان يرى أنه هو وحده الذى يختار الطريق الذى يريد ، وان مصيرهُ بيديه ، فليقدم الدليل على ذلك عمليا ، وبالانتقال من جانب الشر الى جانب الخير اذا كان يزعم أنه قادر على أن يحول سلوكه فى الطريق التى يشاء متى شاء ، وقال له القس :

انني أتحداك يا سيدى القائد ... وانا اتحداك لأبرهن لك على أنك لست من القوة بالقدر الذى تتصور ، أنك لست حرا فى تصرفاتك ، بل أنت مفطور على الشر لا تستطيع منه فكاكا ، وأن الله هو الذى عرف فيك هذا الخبث فكتب عليك الشقاء ، وان كنت تكذبني فهلم .. هلم جرب . هل تستطيع أن تقلع عما انت مجبر عليه من شرور نفسك ؟ هلم .. هلم ... أين قوتك وجبروتك اذن ... هناك مناط القوة ان كنت قويا حقا .. وهنا مجال التجربة ان كنت حرا فى تصرفاتك وجبروتك . اذن أمامك طريق الخير فانتقل اليه ان كنت قويا حقا وان كنت حرا حقا . (١)

ولكى يثبت (جويتز) أنه قادر على قبول هذا التحدى ، وأن هذا القبول نابع من ذاته هو ، وليس من تأثير القس اشترط شيئا واحدا ، وهو ان يرمى زهرتى النرد فاذا كسب وخسرت ارادة الله فلن يقوم بالتجربة ، لأن الله عندئذ يكون قد خسر مرتين ، أما اذا كسبت ارادة الله فيقوم بالتجربة . وحدث أن رمى زهرتى النرد وكسبت ارادة الله هذه المرة ، وقبل جويتز التحدى ، وصمم على أن يخوض التجربة الجديدة ليرى ماذا يحدث لو أنه سلك مع الناس طريق الخير ، واستبدل شيطانه الرجيم بملك رحيم .

ويتم الاتفاق بين القس وجويتز على تنفيذ سياسة الخير الشاملة لمدة لا تقل عن عام كامل ويوم .

ومن الطريف أن ينجح جويتز فيما عقد عليه العزم . فيتحول بمحض ارادته بين عشية وضحاها الى انسان مختلف تماما عما كان عليه ، فيحقق مبادىء الخير والمساواة والعدل . بل لقد غالى فى ذلك الى حد أنه وزع كل ما يملك من عقار أو ثروة على من لم يكونوا يملكون شيئا . ولم يدخر جهدا ولا وسعا فى سبيل البحث عن كافة حاجات الشعب حتى يلبيها كاملة ، بل لقد ذهب الى أبعد من هذا كله ، فتحول الى انسان فاضل ورع تشع الرحمة من سلوكه ووجدانه ومشاعره . يفعل كل ذلك بدافع من ذاته دون أن يلتمس من وراء ذلك مثوبة من الله أو زلفى الى انسان ، وانما هو الباعث الانسانى المحض المدفوع بالحب والخير والمجرد من النفاق والرياء .

وكان من الطبيعي بعد هذا كله أن يحبه الناس ، ويلتفتوا حوله ، ويتمسكوا به بل ويعضوا عليه بالنواجذ ، خشية أن يفلت من أيديهم ، بل اذا أمكنهم أن يخرجوا للدفاع عنه بالعصي والحجارة ، والفئوس لما ترددوا فى ذلك . فالطبيعي أن يكون هذا هو رد الفعل الذى يقابل به أى شعب حاكما مثاليا من هذا النوع . ولكن وبالغرابة ، يقف الشعب منه موقفا على النقيض من هذا كله ، ويلعب رجال الدين مرة أخرى دورا هداما خطيرا ، فيحاولون ماوسعهم الجهد ان يشوهوا كل ما فعل جويتز من اصلاح ، وأن ينشروا فى الناس أن السعادة التى تنادى بها السماء

---

(١) أشهر المذاهب المسرحية ص ٣١٠

ليست هي السعادة التي تتحقق للانسان فى الارض بما يبلغه من ثراء او نعيم ، فان هذه الدنيا يجب أن تكون دار شقاء وآلام وفقر ومسغبة ،الم يقل السيد المسيح بأن ملكوت الله لن يدخله الاغنياء ، فكيف يحول جويتز شعب (ورمس)الى قوم اغنياء ؟ ومن اذن من اهلها من يستحق الدخول الى ملكوت الله ؟

ومن العجيب أن يقنع الشعب بهذه الترهات والأباطيل ويصدقوا ما اشاعه بينهم رجال الدين من حماقات ، ويعلن الناس العصيان على جويتز ،ويجاهرون بالتمرد عليه . يشاركهم فى هذا الزعيم الشعبي ناستي ذلك الذى كان يوما ما يقود ثورة الشعب ضد الظلم والفقر والطغيان . ويبلغ بـه العته أن يذهب الى جويتز يحاول اقناعه بالعدول عن سياسة الخير ، ليتيح للناس أن يعيشـوا حياتهم كما أرادها لهم الله زاخرا بالآلام والمحن ،بل لقد ذهب ناستى الى ابعد من هذا عندما زعم أن الثراء والرخاء اللذين نزل بمدينة (ورمس)نتيجة لسياسة جويتز الجديدة سوف تلفت انتباه البلاد المجاورة لها ، فيدفعهم الطمع والجشـع لاحتلال المدينة وارسال جيوشها لغزوها . ويدور حوار بين جويتز وناستى يحاول فيه جويتز أن يذكر صاحبه بماضيه وثورته على الفقر ، فـلا يجد عنده أذنا صاغية ، والغريب ان تصدق نبوءة ناستى فتزحف الجيوش من خارج مدينة ورمس لتحتلها وتنهب ما فيها وتحيلها اثرا بعد عين .

ومع ذلك يبقى جويتز على موقفه وعهده الذى قطعه على نفسه ، ويستمر فى تنفيـذ سياسته ، ويظل محتفظا بورعه وسلاحه حتى ينتهى أمد المدة التى تم الاتفاق عليها بينه وبين القس هنريك ، ولا يبقى الى جانبه فى محنته هذه غير فتاة كانت تقوم على خدمته وتسعى الى مؤازرته ، لا حبا فيه بل ايمانا منها بالنظام الذى يسلكه من أجل خير البلد .

ثم تدور المناقشة بعد هذا كله بين جويتز وبين القس هنريك الذى طردته الكنيسة وادركته الشيخوخة ، وذهب عنه عقله ، فما كان يتوقع أن تجازيه الكنيسة هذا الجزاء الذى لا يتفق مع ما بذله من محاولات لتحويل هذا السفاح الشرير الى ملاك طاهر . تدور المناقشة بين جويتز وهنريك حول وجود الله العادل الخير ، ولكن عبثا يحاول هنريك اقناع جويتز بهذه الحقيقة ، وتنتهى المناقشة بينهما الى درجة من العنف ،تدفع بالقس الى محاولة قتل جويتز حين يمسك برقبته يريد خنقه ، (عندئذ) ينهض جويتز ويهجم على القس فيفتك به ويحطم رأسه ، ويلقى به على الارض جثة هامدة ، وفى هذه اللحظة التى يفتك فيها جويتز بالقس هنريك ويقتله تكون المدة التى حددها لتجربته قد انتهت . ويرسل جويتز قهقهة عالية تدرك من ورائها ما يعنيه . فهو ينظر الى السماء بعدها وكأنه يريد أن يقول : لقد ظهرت الحقيقة التى لا حد لقوتها ، وهي أن الذى يحدث على الأرض من صنع الانسان والانسان وحده . لقد كان جويتز يطمع أن تثبت له التجربة عكس ذلك فيؤمن بوجود اله وراء هذا كله ، ولكن التجربة خيبت ظنه .

وينتهي المشهد الاخير من المسرحية بأن يخلع جويتز عن نفسه لباس الكهنوت لباس الخداع ، ويعود جويتز الى ما كان عليه من قبل الى سبيل الشر ، لأنه وحده الذى ينجح ، والآن فليقهر الثوار ، وليطرد الغزاة ، وليذق كل هؤلاء الويل والثبور ، وليملأ الدنيا شقاء وجورا ما دام الناس يؤمنون بأن هذا السبيل الوحيد لدخول ملكوت الله .

هذه هي المسرحية بكل احداثها وشخوصها . آثرنا أن نعرضها على القارىء فى أمانة حتى يكون على صلة قريبة بكل أطرافها ، وبتطور شخصياتها ، وسلوك كل شخصية تجاه الاحداث التى تقع لها ، وحتى يتبين القارىء ما يهدف اليه سارتر من وراء هذه الأحداث ، وما يؤمن به من آراء تتصل بالدين ورجاله ،وواضح من عرض سارتر للأحداث أنه يريد أن يقول ان الذى

يجد تأثيره أكثر من غيره فى أهل الدنيا جميعا ويفعل فيهم فعل السحر ليس جوهر الدين ، ولا شيئا يتصل بمبادئه العليا السامية ، وانما هو المظاهر الدينية الزائفة : انها تخلب الناس ، ولكنها مع ذلك تخدعهم ، وتضللهم ، وتباعد بينهم وبين الحرية والخير .

ولعل خير ما نقدمه للقارىء من تعقيب على الفلسفة الوجودية . وأدبها واتجاهاتها ما تركه لنا الدكتور مندور فى كتابه « جولة فى العالم الاشتراكي » من تعليق على هذا الاتجاه حين يقول :

(أما الوجودية فانها تدعو الى التحرر من القيم المتوارثة البالية ، ولقد كان من الطبيعي أن تجد هذه الدعوة استجابة لدى أدبائنا ، وبخاصة الشبان منهم . وان كنا لا نستطيع أن نجارى هذه الدعوة الى نهايتها ، فهناك من القديم ما هو الخير ، بل وضرورة نافعة مثل الدين فى جوهره الصافى السليم . وهذه حقيقة لا يؤيدها رجال الدين والأخلاق وحدهم بل ايدها ولا يزال يؤيدها كبار الفلاسفة والمفكرين الذين ذهبوا فى حرية الفكر الى أبعد الحدود .

نحن اذن لا نجارى ، ولا ينبغى أن نجارى الوجودية الى ذلك الحد الأحمق المدمر حد التنكر للدين والتخلص منه ، ولكننا نستطيع ، بل يجب أن نستفيد من دعوتها الى التحرير من كثير من القيم والمبادىء الفاسدة التى طرأت على الدين والاخلاق ، مثل القدرية والتواكل والتنصل من المسئولية . والقائها على عاتق القدر وارادة الله ، وأن نحكم عقولنا فيما يعرض لنا من مشاكل الحياة ، ونلتمس لها الحلول التى تنبع من ملابساتها ، وأن نتحمل فى الحياة مسئوليتنا الكاملة ، وأن نثق بأنفسنا وبقدرتنا على تحديد مصيرنا وتوجيهه ، على نحو ما فعل الوجوديون أنفسهم عندما ساهموا مساهمة باسلة فى تحرير فرنسا من الغزو الالماني ، مؤمنين بأنهم بهذا العمل انما يحققون لأنفسهم ولمجتمعهم مصلحة حقيقية) . (1)

وقبل أن نختتم هذا المقال يحسن بنا أن نجمل بعض الحقائق التي استطعنا أن نستخلصها من دراستنا لبعض هذه الاتجاهات الفكرية فى القرن العشرين .

ولعل أول ما يلفت الانتباه فيما عرضنا له فى هذا المقال أن كثيرا من المثقفين ورجال الفكر فى هذا العصر الحديث يعانون من أزمة فكرية ونفسية تختلف فى حقيقتها عن الأزمات التي مرت بالحضارة الاوربية فى أزمانها السابقة . وليس من شك فى أن بعض اسباب هذه الازمة يرجع الى طبيعة العصر نفسه ، والى ما مرت به أوروبا من تجارب ، وما عانته من أحداث ، وما خاضت من حروب ، وما حدث لمجتمعاتها من تطور نتيجة للتحول الصناعي ، وسيطرة المادة ، وسيادة التفكير العقلي ، والمبالغة فى تأليه العلم وتقديسه بل وتسخيره أحيانا فى اشعال الحروب ، وخلق جو من التوتر والتنافس المحموم فى سباق للتسلح الذرى وغير الذرى . فكان طبيعيا أن يؤدى ذلك كله الى خلق هذا الشعور بالقلق المبهم المقيم الذى استبد بانسان القرن العشرين ، حتى أصبح مرضا شائعا وطابعا مميزا لانسان هذا العصر ، وكان طبيعيا كذلك أن يصاحب هذا القلق احساس بعبث الحياة وانعدام الدافع ، والمسوغ لبذل الجهد والطموح فى عالم قد يباغته الدمار فى اى لحظة . واذا أضفنا الى كل ما سبق أن طبيعة النظم الاجتماعية الحديثة وما خلفته من وسائل الانتاج والتوزيع ، وما يترتب على ذلك من ضرورة المواءمة بين الانسان وبين هذه النظم قد زاد من شعور الفرد بالعزلة وبالغ فى احساسه بقلة حيلته وضعف شأنه أدركنا سرا آخر من أسرار هذا القلق المسيطر على نفس المثقفين فى عصرنا هذا .

(1) جولة في العالم الاشتراكي ص ٩٩ ، ١٠٠

مع أن عاملا ثالثا يضيفه الدوس هكسلي في جملة هذه العوامل التي خلقت أزمة الانسان المعاصر الا وهو زيادة سكان العالم زيادة مفاجئة ، يقول : (لقد كان سكان القرن الأول الميلادى يقدرون بمائتين وخمسين مليونا ، ثم ضعف هذا العدد فى ستة عشر قرنا ، على حين أن عدد السكان اليوم ــ وهو ثلاثة آلاف مليون نسمة ــ يقدر له أن يضاعف فى أربعين عاما فقط ، وترتب على هذا التفجر البشرى نمو فظيع فى كبريات المدن وكان من نتيجة ذلك أن ملايين من أطفالنا لا يعلمون شيئا عن الطبيعة : لا يعرفون كيف يكون القمح فى حقوله ولا كيف تكون شجرة الفاكهة ، بل ان ملايين لم يروا فى حياتهم بقرة الا فى الصورة .

فما النتائج النفسية لهذا كله ؟ أولا : ــ تضيق دائرة الخبرة بالطبيعة ضيقا شديدا ، ثانيا :ــ يفقد الانسان شعوره بالانتماء فيحس بالضياع لأنه دائما في زحمة المدن بغير روابط عميقة الجذور ، ولهذا فهو يحس بالعزلة رغم تكاثر الناس من حوله . (١)

على أن كل هذه العوامل التي ذكرنا لم تخلق فى الانسان المعاصر التوتر والقلق والغربة والشعور بالعبث وانعدام الجدوى من الحياة فحسب ، بل خلقت الى جانب ذلك كله عند الانسان الحساس شعورا بضعف العقيدة الدينية ، والافتقار الى الايمان بالله ذلك الايمان الذى لا يغني عنه شىء . فان حاجة الانسان الى اشباع عاطفته الدينية أمر لا ينقطع .

من أجل هذا كله ظهر العبث والغثيان والتمرد واللامعقول والشعور بالغربة والاهتمام بمشكلة الشر . والبحث عن مبرراته واسبابه . على اننا نؤمن بأن أزمة الفكر المعاصر هذه لا بد لها ، ان آجلا أو عاجلا ، أن تجد على أيدى المفكرين أنفسهم حلولا ترد المثقفين من ابناء عصرنا الى صوابهم . وتعيد اليهم ثقتهم بالحياة ، وايمانهم بالله وتمسكهم بالخير وحبهم للانسان .

* * *

(١) فلسفة وفن ص ٣٦٨

أهم المراجع

(١) البير كامي

* العبث ترجمة سالم نصار — بيروت

(٢) ايريس مردوخ

* سارتر المفكر العقلي الرومانسى ترجمة شاكر النابلسي ـ دار الفكر القاهرة

(٣) جان بول سارتر

أ) الوجودية فلسفة انسانية ـ ترجمة حنا دميان — بيروت ١٩٥٩

ب) ما الأدب ـ ترجمة الدكتور محمد غنيمي هلال — القاهرة ١٩٦٨

ج) الغثيان ـ ترجمة الدكتور سهيل ادريس — بيروت ١٩٦٢

د) مسرحيات سارتر ـ ترجمة الدكتور سهيل ادريس — بيروت

(٤) جان فال

* الفلسفة الوجودية ـ ترجمة تيسير شيخ الارض — بيروت ١٩٥٨

(٥) دريني خشبة

* أشهر المذاهب المسرحية ـ القاهرة

(٦) روبير دى لوبيه

* كامى والتمرد ـ ترجمة الدكتور سهيل ادريس — بيروت

(٧) د . زكي نجيب محمود

* فلسفة وفن — القاهرة ١٩٦٣

(٨) د . لطفي فام

* المسرح الفرنسي المعاصر — القاهرة ١٩٦٤

(٩) د . محمد غنيمي هلال

* المدخل الى النقد الأدبي الحديث — القاهرة ١٩٦٢

(١٠) د . محمد مصطفى بدوى

* الغريب (عرض ونقد) فصلة من مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد الثاني عشر ١٩٥٨

(١١) د . محمد مندور

* جولة فى العالم الاشتراكي القاهرة ١٩٥٧

(١٢) Colin Wilson
The Outsider London 1956

* * *

حازم الببلاوى

التنظيم السياسى في المجتمع التكنولوجي الحديث

وجهة نظر اقتصادى

تمهيد :

ان موضوع التنظيم السياسي فى المجتمع التكنولوجي الحديث موضوع واسع ومتشعب الاطراف ، ولايمكن الاحاطة به فى مقال واحد او من جانب متخصص فى فرع واحد . وكذلك فان حديثنا فيه هو بالضرورة حديث قاصر ، والامر يستدعي مساهمات أخرى من جانب متخصصين فى فروع اخرى . وهذا المقال ليس فى حقيقته سوى مقدمة ودعوة لمزيد من التأمل فى هذا الموضوع الحيوى .

كثر الحديث هذه الايام عن « المجتمع التكنولوجي الحديث » أو عن « المجتمع الصناعي الحديث » أو عن « مجتمع الاستهلاك » (١) وكلها عبارات تستخدم الآن للدلالة على الاحساس العام بأننا بدأنا ندخل مرحلة جديدة تمتاز عن سابقتها فى كثير او قليل ، وتحتاج فى جميع الاحوال الى مزيد من التأمل والمعرفة .

وقبل أن نبدأ فى محاولة التعريف بهذا المجتمع الجديد وخصائصه ، فاننا ننبه الى أمر هام وهو أن التاريخ مستمر لا انقطاع فيه ، واننا نستطيع ان نجد بذور هذا « المجتمع الحديث » منذ وقت

---

* الدكتور حازم الببلاوى مدرس الاقتصاد السياسى بجامعتي الكويت والاسكندرية له كتب وبحوث علمية منشورة باللغتين العربية والفرنسية .

(١) انظر على سبيل المثال :

J. Kenneth Gabbraith, The New Industrial State, Hamish Hamilton, London 1967;

R. Arron, Dix- Huit Lecons sur la Societe Industrielle, Paris, Idee, 1961

وانظر ايضا ، حازم الببلاوى ، مجتمع الاستهلاك ، على ضوء احداث مايو ١٩٦٨ فى فرنسا ، القاهرة ، ملحق الاهرام الاقتصادى ــ اكتوبر سنة ١٩٦٨ .

طويل . كذلك فانما نتصور أنه «المجتمع الحديث» لا زال يحمل آثارا وبقايا كثيرة من مخلفات الماضي وبدرجات متفاوتة . ولذلك فاذا تحدثنا عن خصائص هذا « المجتمع الحديث » فيجب الا ننسى انه لا توجد صورة نقية لهذا المجتمع وان « الواقع » هو عبارة عن خليط من عناصر كثيرة بعضها متنافر وبعضها متناسق . ولذلك فان ماسنتكلم عنه هو فى الواقع عبارة عن طراز نظرى Type وصورة نقية من « الواقع » ، أو عبارة عن نموذج او تصـــور Concept لهذا المجتمع ، رغم أنه لا يوجد فى الواقع بهذا النقاء . فالمجتمع المعاصر هو خليط من خصائص هــذا المجتمع الجديد، ومن آثار وبقايا صور المجتمعات السابقة، ولا تخفي اهمية هذه الآثار والبقايا فى التأثير على سلوك الافراد والجماعات ، ولو كانت تعبيرا عن أوضاع هي سبيل الانتهاء . وهذا الاسلوب فى تحليل خصائص المجتمع الحديث، رغم ما يتضمنه من تهذيب أو تشويه للواقع، هو الاسلوب الوحيد الذى يسمح لنا بادراك خصائص هذا « المجتمع الحديث » والنتائج التى يمكن ترتيبها عليه . وقد كان هذا الاسلوب ناجحا فى جميع المحاولات التي بذلت لمعرفة تطور الجماعات وخصائصها وقد اتبعه Max Weber ، كما ان تجريد ماركس لا يخرج عن هذا الاسلوب

ونشير اولا الى ان تسمية هذا « المجتمع الحديث» بالمجتمع « التكنولوجي » انما هي اشارة الى الاهمية الكبرى التى تحتلها التكنولوجيا الحديثة وتطورها وأثر ذلك على طبيعـة وخصائص المجتمع الحديث . واذا كان تاريخ الانسان هو فى الواقع تاريخ تطور أدوات الانسان ، او هو تاريخ التكنولوجيا بالمعنى الواسع (١) ، فان التكنولوجيا الحديثة قد اخذت طابعا جديدا تميز بوجه خاص فى سرعة التطور وخطورته واعتماده على العلم والمعرفة والبحث وليس على مجرد التجريب والخبرة .

وهذا المجتمع الحديث يمثل فى الواقع مرحلة جديدة من مراحل الثورة الصناعية . فالسائد هو أن الثورة الصناعية بدأت فى انجلترا ثم فى غرب أوروبا فى النصف الأخـير من القرن الثامن عشر . ولعل الحقيقة أن هذه ليست الثورة الصناعية الاولى ، ولكنها الثورة الثانية . فالثـورة الصناعية الأولى تمت فى القرن السادس عشر فى انجلترا وفى أجزاء كثيرة من أوروبا ، وقد أخذت صورة الثورة الزراعية فى انجلترا بالقضاء على الحقول المفتوحة Open Fields ، وظهور طبقة الكادحين ، وقيام صناعات كثيرة فى جنوب المانيا وفرنسا وفى انجلترا . وهذه الثورة الصناعية الاولى هي التى مهدت للثورة الصناعية الثانية فى القرن الثامن عشر وعصر اكتشاف البخار (٢) . ولعل مجتمع اليوم الحديث يمثل الثورة الصناعية الثالثة ! وهكذا نستطيع أن نلمح ان المجتمع التكنولوجي الحديث انما هو مرحلة من تطور بدأ منذ وقت طويل وان لم تظهر خصائصه على نحو واضح الا فى ايامنا هذه وفى أجزاء بسيطة من المعمورة فى مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية وبدرجة أقل فى أوروبا .

والتطور الذى لحق التكنولوجيا الحديثة من الخطورة والاهمية ، بحيث اننا نستطيع القول بأن طبيعة المجتمع الذى نعيش فيه ، والقيم التى تسيطر على سلوكنا ، والحاجات التى نسعـى

---

(١) انظر على سبيل المثال تاريخ العالم « الطبعة الفرنسية » cf U.N.E.S.C.O. Histoire Universelle de L'Humanite, Vol. I, Prevhistoire, Paris, Robert Laffont, 1968.

(٢) cf NEF, la civilisation industrielle, Paris, Armant Colin, 1954.

لاشباعها .. الخ قد تأثرت بشكل مباشر بهذه الثورة التكنولوجية الحديثة ، ونود أن نشير هنا الى أن الماركسية قد فتحت طريقا خصبا لدراسة تطور المجتمعات بربط هذا التطور بالتطور الذى لحق أدوات الانتاج ولكن الماركسية ذاتهاقد عاقت دون الوصول الى نهاية هذا المنطق ، وكانت من أسباب تأخر الاهتمام بخصائص المجتمع التكنولوجي الحديث ، وذلك لأنها ركزت بوجه خاص على نظام الملكية ، بتأكيدها أن تطور ادوات الانتاج يؤدى الى تطور مقابل فى شكل الملكية :

ملكية خاصة أو ملكية عامة . ولكن هذا ليس الا جانبا فقط من آثار تطور التكنولوجيا . وهناك آثار أخرى على الادارة الاقتصادية بصفة عامة قد لا ترتبط بالملكية القانونية . ومن هنا وقفت الماركسية عند حد التمييز بين الدول الراسمالية والدول الاشتراكية . وسوف نرى أن تطور التكنولوجيا قد أدى الى ظهور نوع من التماثل ان لم يكن من التشابه بين الدول الراسمالية والدول الاشتراكية التى قطعت اشواطا كبيرة فى مجال التقدم التكنولوجي . وهكذا فاننا نعتقد أن دراسة خصائص المجتمع التكنولوجي الحديث تجاوز فكرة الملكية القانونية .

ونود الآن أن نتعرض لأهم خصائص المجتمع الصناعي الحديث أو التكنولوجي الحديث . ونلاحظ أن بعض هذه الخصائص ليست حديثة ، بل أننا نعرفها منذ مدة — على الاقل منذ الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر — والجديد فى الواقع هو فى مدى تأكد هذه الخصائص من ناحية وفى توافرها مجتمعة وليست منفردة من ناحية أخرى .

الحساب الاقتصادى :

لعل أهم ما يميز المجتمع الصناعي عن المجتمعات السابقة هو التغير المستمر ، التغير فى وسائل الانتاج وما يترتب على ذلك من تغير مستمر فى الاذواق وفى الكفاءة الفنية لعناصر الانتاج .. الخ . فالمجتمعات السابقة كان يسودها نوع من الثبات والاستقرار النسبي بحيث ان العادة والروتين كانا ينظمان كل شئون الانتاج والتوزيع . الزراعة والرعى والصيد تكاد تخضع لناموس الطبيعة من حيث الدورة الزراعية ومواسم الصيد بحيث تكاد تتكون مجموعة من العادات الثابتة الموروثة للقيام بهذه النشاطات . وتتأكد هذه العادات وتنتقل من جيل الى آخر دون تغير يذكر ، ويكاد يحكم الفرد فى مثل هذه الظروف مجموعة من ردود الفعل المشروطة . فلا حاجة هناك الى التفكير المستمر لمواجهة احداث جديدة ، وانما لكل حدث طريقة مواجهته ، وهى طريقة اثبتت كفاءتها خلال أجيال متعاقبة . وفى مثل هذه الظروف لا تقوم آية حاجة الى الحساب الاقتصادى والتخطيط والتنبؤ . فالعادات والتقاليد كفيلة بذلك . وليس الحال كذلك فى المجتمع الصناعي .

ان تاريخ الثورة الصناعية كما هو معروف مرتبط بنشأة الرأسمالية ولا يمكن التأريخ لاحدهما دون الآخر . وقد قامت الراسمالية الاولى — المعروفة باسم الرأسمالية التجارية — على انقاض النظام الاقطاعي وظهور أوجه جديدة من النشاطات فى مقدمتها التجارة ثم الصناعة . وقد ارتبط ذلك بعالم جديد تسوده المخاطر وعدم الاستقرار . وعرف المنظم Entrepreneur — وهو عماد النظام الاقتصادى فى ذلك الوقت بانه الشخص الذى يتحمل المخاطر ويقبلها فى سبيل الانتاج وبذلك دخل عنصر التنبؤ والحساب كعنصر اساسي فى الحياة الاقتصادية . وظهرت النظرية الاقتصادية كمحاولة لبيان افضل الطرق للاختيار بين الامكانيات المتاحة ، Problem of Choice . وظهرت فكرة الرشادة الاقتصادية Economic Rationality ومن ذلك كله نجد ان الحساب والتفضيل بين مختلف الامكانيات المتاحة اصبح أمرا ضروريا . فعلمتنا

النظرية الاقتصادية سلوك المستهلك الرشيد وكيف يحاول أن يستخدم دخله المحدود للحصول على أكبر قدر ممكن من الاشباع باختيار السلعالتى تحقق له ذلك وتحديد الكميات المناسبة من كل منها . كذلك على المستهلك أن يختار بين الاستهلاك الحالي وبينالاستهلاك المستقبل(الادخار) مراعيا فى ذلك ــ قدر الامكان ــ تحقيق أكبر قدرمن الاشباع . ونفس الامر نجده عند المنتج ، وربما بشكل أوضح ، فنظرية المشروع تبين لناكيف يستطيع المنتج ان يتخذ قراراته المتعلقة بالانتاج لتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، او اقل خسارة ، هناك اختيار المنتج لوسيلة الانتاج المناسبة ، اذ ان انتاجالسلعة مع تقدم الفن التكنولوجي قد أصبح ممكنا بعدة وسائل . ثم عليه أن يختار الكمية المناسبة التى يمكن ان ينتجها . وهو ايضا يتخذ قرارات متعلقة بالمستقبل فيما يتعلق بالاستثمارات والاختيار بينوجوه الاستثمارات المكنة . وفى كل ذلك نجد ان الحساب الاقتصادى قد اصبح جزءا من حياة المجتمع ، ولم تعد العادةوالتقاليد كافيينللاستمرار فىالانتاج، بل ربما أصبح الخروج على هذه العادات والتقاليد هو ما يكفلالتقدم المستمر . ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف ان كثيرين من الاقتصاديين يعرفون المنظم ودوره فى الحياة الاقتصادية بأنه ذلك الفرد القادر على التجديد والابتكار Innovation (١) فى مجال الانتاج والفن الانتاجي .

وسوف نرى أن هذا الحساب الاقتصادى قداتسع نطاقه بحيثيكاد يشمل الاقتصاد فىمجموعه فى شكل سياسات اقتصادية اجمالية تتدخل بهاالدول لتحقيق أهدافها الاقتصادية ، وفى شكل خطط اقتصادية تضعها بوجه خاص المجتمعاتالصناعية الاشتراكية . وسوف نشير الى أن هناك نوعا من التقارب فى هذا الحساب الاقتصادى الاجمالي .

الثورة الصناعية نشأت كما سبق ان رأينا مع الراسمالية التجارية ، وتطورت مع الرأسمالية الصناعية حتى أوائل القرن العشرين . ومنذ ثورة ١٩١٧ الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتي ونحن نعاصر اتجاها جديدا للمجتمعالصناعي فى الدول الاشتراكية ، ولذلك يمكن القول بأن للحساب الاقتصادى للمجتمعات الصناعية الآن صورتين الآن : الصورة الراسمالية والصورة الاشتراكية . وليس الفرض مما سنعرضه الآن هو اهمال الفروق بين النظامين ، ولكن التركيز بوجه خاص على أوجه الشبه المتعلقةبطبيعة المجتمع الصناعي وبخاصة فيما يتعلقهنا بالحساب الاقتصادى

كانت النظرية السائدة ــ وربما كان الواقع فىالقرن التاسع عشر ــ تعتبر المنافسة الكاملة هي الصورة الطبيعية للمجتمع الصناعي . وقد علمتناجميع كتب مبادىء الاقتصاد ان المنافسة الكاملة تتميز بعدة خصائص تجعل من كل فرد (مستهلكا كان أم منتجا) ذرة فى محيط ، غير قادر على التأثير فى الأثمان السائدة فى السوق ومن ثم فىقرارات غيره من الأفراد . ويحدث التأثير نتيجة لمجموع أفعال هؤلاء الأفراد مجتمعين . ولذلكفان ادارة الاقتصاد القومي تتم, وفقا لما يمكن أن يسمى « باللامركزية الاقتصادية » حيث لا توجدسلطة او فرد قادر على التأثير وحده على الأوضاع الاقتصادية . فالمنافسة الكاملة كما تعرض فىكتب مبادىء الاقتصاد تفترض وجود عدد كبير من المستهلكين وعدد كبير من المنتجين وبحيث انكل مستهلك أو منتج على حدة ليس له أى وزن على السوق فى مجموعه . فاذا قرر المستهلك اوالمنتج زيادة او انقاص استهلاكه او انتاجه فان السوق لن تشعر بهذا الأثر ، وينتج التأثير فقطمن مجموع افعالالمستهلكين والمنتجين . ولذلك

---

(1) F. J. Schumpeter, The Theory of Economic Development, Harvard University Press, 1949.

وصف بعض الاقتصاديين(١)حالة الاقتصاد فى هذهالصورة بأنها تتضمن ذرية 'atomicite للاقتصاد ، بمعنى أنه يتكون من ذرات صغيرة . ويضيفالاقتصاديون عادة بعض الشروط الفنية التي تضمن توافر المنافسة الكاملة وعدم استطاعة اىفرد منفرد التأثير على السوق ، مثل توافر العلم بأحوال السوق ، والتجانس التام للسلعة وعدموجود عقبات أمام الصناعة ـوهي شروط الغرض منها الحيلولة دون تمكن أى فرد من التأثير علىالاقتصاد .

وفى مثلهذه الظروف فان الادارة الاقتصادية للموارد تتم نتيجة لمجموع قرارات الأفراد كما سبقأناشرنا وبذلكتعتبر مظهرا منمظاهر اللامركزية الاقتصادية. فالمستهلكمزودا بمعرفةعن حاجاته الشخصية وترتيب افضلياته ودخله ،ينزل الى السوق ويطلب كميات مختلفة من السلع اذا سادت أثمان مختلفة لها . ومن مجموعطلبات المستهلكين الفردية يتحدد الطلب الكلي . وبالمثل فان كل منتج مزودا بمعرفة عن امكانياتهالفنية وبرغبته فى الحصول على اقصى ربح ممكن ينزل الى السوق ويعرض كميات مختلفة منالسلعة اذا سادت أثمان مختلفة لها . ومن مجموع عرض المنتجين يتكون العرض الكلي ويسود الثمنفى السوق الذى يسوى بين هذا العرض الكلي والطلب الكلى . وهكذا نرى ان ادارة الموارد الاقتصادية وتوزيعها قد تمت دون تدخل ارادة مركزية واعية ، وانما نتيجة لمجموع الارادات الفردية . وقد رأى آدم سميث ان هذا الوضع يحقق المصلحة العامة نتيجة سعى الافراد لتحقيق مصالحهم الفردية الخاصة وكأن هناك يدا خفية Invisible Hand تحقق هذا التوافق .

وقد كان من الطبيعي فى مثل هذه الظروفأن تكون السياسة الاقتصادية المثلى للحكوماتهي الامتناع بقدر الامكان عن التدخل فى الحياة الاقتصادية وترك هذه الأمور للأفراد طالما أن الصالح الخاص قادر على تحقيق المصلحة العامةبأحسن الطرق . ولكن هذه الأوضاع لم تستمر طويلا ذلك أن تطورا هاما قد لحق المجتمعاتالصناعية ، بحيث أصبحت السياسة الاقتصادية للدولة ضرورة لا يمكن التجاوز عنها لتمكين هذهالمجتمعات من استمرار نموها دون عقبات شديدة وبذلك امتد مجال الحساب الاقتصادى منالوحدات الاقتصادية المنفردة الى حساب اجمالي يتضمن الاقتصاد القومي فى مجموعه ، وبحيثتتخذ السياسات الملائمة لتوقعات المستقبل بالنسبة للاقتصاد القومى فى مجموعه. وبطبيعة الاحوال فان هذه الصورة من التدخل الاقتصادى الشامل فى الحياة الاقتصادية تجد أكمل تطبيقلها فى الدول الاشتراكية ، حيث تضع الدولة خطة عامة للاقتصاد القومي . ولكننا سوف نشير الى أن تطورا مقابلا ، وان كانبدرجة اقلطبعا ، قد لحق الدول الصناعية الرأسمالية حيث اصبحالتدخل ضروريا ، وحيث لم تعد سياسة الحرية الاقتصادية مقبولة على اطلاقها .

ان المنافسة الكاملة كما صورتها النظريةالاقتصادية لم تخرج عن حيز هذه النظرية وقاعات البحث فى القرن العشرين ، أما الواقع فقد عرف صورا اخرى للأسواق بعيدة عن هذا الوضع . ولذلك فان نتائج هذه النظرية فى ضرورة الاعتماد على الحرية الاقتصادية لم تعد صالحة تماما . وسوف نتعرض فيما بعد لتطور هذه الأسواق . على أن ما يعنينا الآن هو أن سياسة عدم التدخل قد قبرت تماما مع الثلث الأول

---

(١) أنظر على سبيل المثال

J. Marchal, **Cours D ' Economic Politique,** Librairie de Medicis, 2 em edition, Paris 1957

لهذا القرن . فالأزمة العالمية الشهيرة في الثلاثينيات قد أثبتت عقم السياسات الاقتصادية القائمة على الاعتماد على الأفراد وحدهم دون تدخل الدولة . وجاءت أفكار كينز (١) في ذلك الوقت لتبين أن الاثمان والنفقات تتمتع بشيء كبير من الجمود ، ولذلك فانه لا يمكن الاعتماد على تغيراتها وحدها لاعادة التوازن . وقد نشأت في ذلك الوقت حالة من البطالة الضخمة بشكل لم يسبق له مثيل ، ولم تنجح أية سياسات للاجور للقضاء عليها . وأوضح كينز ان الامر متعلق في الواقع بعدم كفاية الطلب الفعلي في الاقتصاد ، مما ادى الى انخفاض الدخل القومي وتحقيق توازن للاقتصاد عند مستوى منخفض من العمالة ، مما أدى الى ظهور هذه البطالة. ولذلك فان تدخل السلطات العامة بالقيام بسياسات انفاقية ، الغرض منها زيادة القوة الشرائية والطلب الفعلي هو الاجراء الوحيد القادر على زيادة الدخل القومي الى مستوى يسمح بامتصاص هذه البطالة . وبالفعل فان الدول التي استطاعت أن تخفف من حدة البطالة في ذلك الوقت هي الدول التي اتبعت عمدا او بالصدفة سياسة انفاق تدخلية ، الغرض منها زيادة القوة الشرائية في يد الافراد . وقد حدث ذلك في المانيا النازية مع سياسة التسليح والانفاق لشاخت ، كما حدث امر مشابه في الولايات المتحدة الامريكية مع سياسة الانعاش الاقتصادي للرئيس روزفلت .

ومنذ كتابات كينز قبل الحرب العالمية الثانية اتضح أن المجتمع الصناعي قد وصل الى مرحلة تستدعي التدخل المستمر من الدولة في الحياة الاقتصادية بغرض تحقيق الاستقرار الاقتصادي والقضاء على البطالة . وقد ذهب بعض الاقتصاديين (٢) الى القول بأن هناك ركودا طويل المدى لا يمكن التخلص منه دون سياسة اقتصادية تدخلية مستمرة لحماية الطلب الفعلي عند المستوى المطلوب .

وبعد الحرب العالمية الثانية استكملت أفكار كينز من ناحيتين . فمن ناحية ظهرت مشاكل التضخم وارتفاع الاسعار ، ولم يعد تدخل الدولة لازما فقط لتوفير طلب فعلي كاف عند ظهور البطالة ، وانما ظهرت مشاكل زيادة هذا الطلب الفعلي ، وضرورة العمل على ضغطه عند ظهور التضخم . وبذلك وجب تدخل الدولة لتحقيق الاستقرار الاقتصادي دون بطالة ودون تضخم مبالغ فيه .

كذلك ظهرت اهمية السياسة الاقتصادية في المدة المتوسطة والطويلة ، وليس فقط في المدة القصيرة . فلم تعد السياسة الاقتصادية للدولة تقتصر على تحقيق الاستقرار الاقتصادي في المدة القصيرة وانما ظهرت مشاكل النمو الاقتصادي في المدة المتوسطة والطويلة . وقد ارتبط ذلك في أول الامر بمشاكل اعادة تعمير دول أوروبا ، ثم اصبح جزءا من السياسات الاقتصادية العمل على توفير قدر معقول من النمو الاقتصادي . وأصبح من المعتاد بعد ذلك أن نرى خططا اقتصادية في فرنسا وهولندة وانجلترا وغيرها من الدول الصناعية المتقدمة .

وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه الحاجة الى ضرورة التدخل الاقتصادي في المجتمعات الصناعية المتقدمة وضرورة وضع سياسات اقتصادية اجمالية ، نجد أن الدول الصناعية التي تتبع الاسلوب الاشتراكي وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي قد تبنت منذ ١٩٢٩ الخطط الخمسية للاقتصاد القومي . وهذه الخطط تتضمن تحديدا للاهداف التي ينبغي للاقتصاد الوصول اليها

---

(1) CF. J. M. Keynes, **The General Theory of Employment, Interest and Money,** Macmillan, London, 1936,

(2) CF. A. Hansen, **Monetary Theory and Fiscal Policy,** McGraw-Hill, 1949.

وبيان الوسائل الكفيلة بتحقيقها ، وغني عن البيان أن الخطة تعتبر الصورة الاساسية لتطبيق الحساب الاقتصادى الاجمالي على نطاق الدولة .

وبطبيعة الحال ليس من السهل القول بأنالتخطيط الاشتراكي(١) والسياسات الاقتصادية الاجمالية للدول الراسمالية نتيجة لأفكار كينز ومن بعده ــ ليس من السهلالقول بأنهما متشابهان فأوجه الخلاف كثيرة ومتنوعة . ولكن ما أردنا أن نوجه النظر اليه هنا هو أن الحسابالاقتصادى قد اتسع نطاقه فى المجتمعات الصناعية ، ولم يعدقاصرا على الفرد ، وانما جاوز ذلك الى الحساب الاجمالي للاقتصاد فى مجموعه ، وان كانت درجة هذا اتدخل ومداه تختلف بسبب طبيعة النظام الاجمالي اتقائم . وبالرغم من الفروقالضخمة بين النظامين الراسمالي والاشتراكي ، فاننا نلمح الآن اتجاها لتخفيف هذه الفروق ،كما سيتضح عندما نتعرض للعلاقة بين التخطيط والسوق من المجتمعات الصناعية .

أهمية المشروع الصناعي الكبير :

نشأ المشروع الصناعي كوحدة للانتاج معنشأة النظام الراسمالي وتطور معه ، والواقع أن نشأة هذا المشروعلم تظهر فجأة وانما نتيجة لتطور طويل من الصناعات المنزلية الى الصناعات اليدوية ، حتى أخذ شكله الحالي . وقد احدث هذا التطور فى وحدة الانتاج الاساسية آثارا بعيدة على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة . فمن ناحية انفصل العمل عن الأسرة ، مما كان له أبعد الآثار فى طبيعة العلاقات الاجتماعية. كما ادى تركيز عدد هائل من العمال فى مكان واحد وفى ظروف متشابهة الى نشوء الوعيالطبقيبين العمال كما كان له آثار ايضا على ظروف الحياة فى المدن الصناعية المكتظة بالسكان وغير ذلك كثير .

على أن المشروع الصناعي لم يعد مظهرا منمظاهر النظام الراسمالي وحده ، بل جاوز ذلك ليصبح وحدة الانتاج الرئيسية فى ظل المجتمعات الصناعية الحديثة . فاندول التى أخذت بالنظام الاشتراكي ــ وهى تضع نصب أعينهـاتحقيق أكبر معدل للنمو الاقتصادى على ما سنرى ــ قد وجهت أكبر الاهتمام الى الصناعة وبوجه خاص الصناعات الثقيلة ــ حتى كاد البعض يتصور أن اسلوب النمو الاشتراكييختلفعن اسلوب النمو الراسمالي فى الاهتمام الزائد بالصناعات الثقيلة . (وأيا ما كان الأمر فان الخلاف بين تحقيق التنمية عن طريق الصناعاتالثقيلة أو عن طريق الصناعاتالخفيفة لم تعد الآن مشكلةمذهبية بين النظامين الراسمالي والاشتراكي) والصناعات الثقيلة تحتاج أكثر من غيرها الى تراكم راس المال والى التقدم الانتاجي . ولذلك فان اهمية المشروعات الصناعية الكبرىلم تقل فى النظام الاشتراكي عنها فى النظام الراسمالي . ونريد أن نلقي نظرة على طبيعة هذه المشروعات الصناعية والتطور الذى لحقها واثر ذلك على تحديد خصائص المجتمع التكنولوجي الحديث أيا كان نظامه الاقتصادى .

هناك أولا ظاهرة أساسية وهي اتجاه المشروعات الصناعية نحو التركز . وقد تنبأ ماركس فى القرن الماضي بأن طبيعة النظام الرأسمالي تؤدى بالضرورة الى تركز المشروعات الصناعية فى عدد قليل من الاحتكارات الكبرى ، وقد رأى فى ذلك ما يساعد علىزيادة التناقضاتفى هذا النظام. اذ انه يؤدى الى زيادة عدد الطبقة العاملة والىالقضاء على أصحاب الحرف والمشروعات الصغيرة مما سيقوى التناقض الطبقي . كما راى انه من ناحية اخرى فان هذا التركز سيؤدى الى انخفاض معدل الارباح ومن ثم اتجاه النظام الراسمالى الى مرحلة من الركود .

---

(١) انظر ــ احمد جامع، الاقتصاد الاشتراكي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

وقد صحت نبوءة ماركس فيما يتعلق باتجاه النظام الراسمالي الى التركز ، ولكن بقية الآثار لم تتحقق ، أو على الأقل لم تتحقق على النحو الذى ذكره ماركس . كما لوحظ أن الاتجاه نحو التركز فى المشروعات الصناعية الكبرى ليس ظاهرة خاصة بالنظام الراسمالي وحده ، وانما هو ظاهرة عامة فى كافة المجتمعات الصناعية المتقدمة، سواء اكانت اشتراكية ام راسمالية . والواقع ان التنبؤ بأن النظام الراسمالي سوف يتجه بالضرورة الى حالة من الركود Stationary State ينخفض فيها معدل الارباح بحيث لا تقوم أية استثمارات جديدة ولا تحقق اى نوع من التقدم الاقتصادى ــ الواقع أن هذا النوع من التفكير لم يبتدعه ماركس كلية ، وانما كان قاسما مشتركا بين جميع الاقتصاديين الانجليز فى القرن التاسع عشر ، مما ادى الى تسميتهم بالمدرسة التشاؤمية فهؤلاء جميعا كانوا يعتقدون فى صحة آراء مالتس فى السكان ، وخاصة قوله بأن عدد السكان يزيد بنسبة اكبر من زيادة الموارد الزراعية ، وقد كان هؤلاء الاقتصاديون ــ وبوجه خاص ريكاردو الذى اثر فى جميع أجيال الاقتصاديين اللاحقين ــ ضحية المبالغة فى خطورة ظاهرة تناقص الغلة فى الزراعة . فالمجتمع الراسمالي عندهم سيستمر فى النمو مع زيادة تراكم راس المال ، ولكن هذا التراكم لن يستمر الى النهاية نظرا لان ظاهرة تناقص الغلة من شأنها ان تؤدى الى انخفاض معدل الارباح باستمرار وبذلك تصل الى مرحلة الركود التى ينعدم فيها تراكم راس المال لانخفاض معدل الارباح وحيث يحصل الافراد على أجور تكفي لحد الكفاف . وقد اخذ ماركس هذه الصورة مع تعديل فى اسباب الركود كنتيجة لتركز المشروعات وارتباطها بما يسمى بزيادة الكثافة العضوية لراس المال الثابت . فعند ماركس ينقسم راس المال الى متغير وثابت . وراس المال المتغير يقابل، بوجه عام ، ما يخصص لأجور العمال هو وحده القادر على خلق فائض القيمة . وراس المال الثابت هو ما يقابل ، بصفة عامة ، ما يخصص للمواد الاولية والآلات وغير ذلك (وهذا التعريف يقابل تعريف راس المال الثابت والمتداول فى الاصطلاح الحديث) . ويرى ماركس أن هناك اتجاها عاما نحو زيادة نسبة راس المال الثابت الى راس المال المتغير ، ونظرا لأن فائض القيمة ينتج عن راس المال المتغير وحده فان معدل الارباح سيتجه بالضرورة الى الانخفاض مما سيؤدى الى حالة الركود المتقدمة .

والحقيقة أن النبوءات المتشائمة بالنسبة الى تركز المشروعات الصناعية قد اهملت علاقة هذا التركز بزيادة الكفاءة الانتاجية ، وما يستدعيه الفن الانتاجي الحديث من ضرورة تركز المشروعات فى عدد محدود من المشروعات الكبرى . فتركز المشروعات ليس سببه الوحيد طبيعة النظام الراسمالي، وانما هو ضرورة فنية يقتضيها الانتاج فى المجتمع التكنولوجي الحديث وتتطلبها خصائص هذه التكنولوجيا الحديثة .

وأهم ما يميز التكنولوجيا الحديثة هو حاجتها الى مشروعات كبيرة نسبيا واحيانا كبيرة جدا ، وذلك حتى يمكن استنفاد جميع المزايا الفنية . وقد تحدث الاقتصاديون منذ زمن بعيد عما اسموه بمزايا الانتاج الكبير Economies of Scale أو مزايا الحجم الكبير . فزيادة حجم المشروع تؤدى الى زيادة فى الانتاج أكبر من الزيادة النسبية فى عناصر الانتاج المستخدمة ، فمضاعفة حجم المشروع يؤدى الى زيادة فى الانتاج اكبر من الضعف . والسبب فى ذلك هو ان المشروع الكبير يستطيع الافادة من مزايا لا تقبل بذاتها الانقسام ، ومن ثم يحرم منها المشروع الصغير . وهذه المزايا عديدة ، مزايا فى الادارة ، مزايا فى الفن الانتاجي باستخدام نوع من الالات أو من الطاقة الذى لا يقبل التجزئة ، مزايا فى الحصول على أنواع من العمل الماهر ،

امكانيات أكبر فى دراسة حاجات السوق .. الخ. وقد أطالت كتب مبادىء الاقتصاد فى تعداد هذه المزايا وانواعها . على أنه يبدو أن العامل الحاسم فى العصر الحديث بالنسبة للمشروعات الصناعية الكبرى هو « الأبحاث » وهذه الابحاث تتطلب فى العصر الحديث امكانيات مالية ضخمة لا يمكن أن تتوافر للمشروعات الصغيرة . ولذلك يكاد يكون التقدم التكنولوجي الضخم محدودا بالصناعات التى يتركز فيها الانتاج . ولكن تتضح هذه الصورة بشكل أكبر فسوف نشير الى المقصود بعدم القابلية للانقسام والتجزئة وأثر ذلك على مزايا الانتاج الكبير ، ثم نرى مدى امكان تجزئة الابحاث حتى تفيد منها المشروعات الصغيرة .

حققت العلوم الطبيعية تقدما هائلا لادخال فكرة المتناهى فى الصغر infinitesimale وما ترتب عليها من دراسة معدل التغيير الذى يلحق احد المتغيرات نتيجة لتغيير متناه فى الصغر لمتغير آخر . وقد ادت هذه الأفكار بليبنز ونيوتن فى القرن السابع عشر الى اكتشاف قواعد التحليل الرياضي (التفاضل والتكامل) وما ترتب على ذلك من نتائج هامة فى جميع العلوم الطبيعية التى لا تزال تجنى ثمارها حتى الان فى مجال التطبيق . وهذه الفكرة تفترض القابلية للانقسام والتجزئة بما يسمح بأخذ تغيير صغير جدا (متناه فى الصغر حتى يقترب من الصفر) .

هذه الفكرة نفسها عرفها الاقتصاد متأخرا قرنين من الزمان عندما قام ثلاثة من الاقتصاديين منفردين وفى اماكن مختلفة ، بتقديم اساس التحليل الحدي Marginal analysis (كارل منجر فى النمسا ، ليون فالراس فى سويسرا ، ستانلى جيفونز فى انجلترا) حوالى ١٨٧٠ . وتقوم هذه النظرية الحدية على دراسة ماذا يحدث فى أحد المتغيرات اذا حدث تغيير طفيف جدا فى أحد المتغيرات الاخرى (يكاد يقترب من الصفر) . ومن الواضح أن صلة القرابة قوية بين هذا التحليل الحدي فى الاقتصاد والتحليل الرياضي فى العلوم الطبيعية . وقد قدم هذا التحليل الحدي نتائج باهرة فى الاقتصاد الى جانب أنه ساعد على اناقة عرض النظريات الاقتصادية . ولكن هذا التحليل الحدي يفترض أيضا القابلية للتجزئة وللانقسام ، أو بعبارة أكثر فنية يفترض أن دوال الاقتصاد دوال مستمرة Continuous Functions . والحقيقة أن الاقتصاد يعرف كثيرا من الحالات التى لا يصدق فيها ذلك ، وحيث يكون الاصل انقطاع وعدم اتصال هذا الدوال Discontinuity . ولبيان فكرة الاستمرار والانقطاع فى مجال الفن الانتاجي ــ وهو الذى يهمنا هنا ــ بأمثلة توضح هذه التفرقة تشير الى أن النظرية الحدية فى الاقتصاد تفترض أن دوال الفن الانتاجي Production Functions مستمرة . ومعنى ذلك أنه اذا كان هناك فن انتاجي معين لانتاج سلعة معينة وأن هذا الفن الانتاجي يستخدم نسبة معينة من العمل من نوع معين ومن رأس مال من نوع معين ، فانه يمكن دائما افتراض حدوث تغييرات متناهية فى الصغر فى كل من هذا العمل ومن الراسمال . ومعنى ذلك أن هذا العمل وهذا الرأسمال قابل للانقسام والتجزئة الى اى درجة نريد . وعلى ذلك فاذا كان هناك مصنع صغير جدا فانه يستطيع أن يفيد من هذا الفن الانتاجي بحصوله على قدر صغير جدا من هذا العمل وقدر صغير من هذا الراسمال ، ولا خطورة لأننا نفترض القابلية للانقسام .

أما القول بأن دوال الانتاج غير مستمرة ، فمعنى ذلك انه اذا كان هناك فن انتاجي معين لانتاج سلعة معينة ، وان هذا الفن الانتاجي يستخدم نسبة معينة من العمل من نوع معين ومن راس المال من نوع معين ، فانه لا يمكن افتراض تجزئة هذا العمل أو هذا الرأسمال كما نريد ، وانما هناك حدود لامكان احداث هذه التجزئة . فقد تكون الآلة التى تتضمن نوعا معينا من الكفاءة الانتاجية بحجم معين لا يمكن تجزئتها بالحصول على نفس النوع من الآلة بحجم أصغر ، ولعل من ابرز الامثلة على عدم امكان التجزئة : الطاقة الذرية . فمن المعروف أن الطاقة الذرية

تولد طاقة كبيرة جدا ، وحيثما تكون بحاجة الى هذه الطاقة الضخمة فانها تكون أرخص من غيرها من انواع الطاقة الأخرى . ولكن هذه الطاقة الذرية لا تنتج الا بأحجام ضخمة بحيث لا يمكن استخدامها الا فى مشروعات ضخمة جدا . فهي لا تقبل التجزئة . فهذه الطاقة قد تكون أرخص من البترول بالنسبة لمشروعات ضخمة جدا مثل ازالة بعض الجبال وتمهيد الأرض أو انشاء سفينة تدور حول الارض عدة مرات ، ولكن لن يأتى اليوم ــ على الاقل فى حدود المعقول ــ الذى تستخدم فيه هذه الطاقة لاشعال ولاعة للسجائر . والسبب فى ذلك هو أن الطاقة الذرية غير قابلة للتجزئة فى جميع الأحوال .

وهكذا نرى أن عدم القابلية للتجزئة والانقسام هو السبب فى مزايا الانتاج الكبير الذى يتمكن من الافادة من عناصر لا تقبل بطبيعتها التجزئة ومن ثم تحرم منها المشروعات الصغيرة .

وقد سبق أن اشرنا الى أن العناصر التى لا تقبل التجزئة والانقسام كثيرة ، ولكن لعل أهمها فى العصر الحديث هو فى مجال البحث . وهذا السبب هو ما يفسر تفوق المشروعات الكبرى على المشروعات الصغيرة . وهو ايضا يفسر الى حد بعيد المزايا التى تحققها الدول الكبرى بالنسبة للدول الصغيرة بالنظر الى تمتعها بمزايا الانتاج الكبير فى مجال الأبحاث .

لعل اهم ما يميز البحث العلمي فى العصر الحديث ، على ما سنشير اليه ، ان التقدم العلمى لم يعد نتيجة عمل فرد عبقرى بقدر ما هو نتيجة لعمل مجموعة كبيرة من الباحثين فى فروع مختلفة ومتكاملة ، وبحيث يتوافر لهم امكانيات مالية ومعملية ضخمة تمكنهم من اجراء البحوث والتجارب . وهكذا نجد أن البحث هو من أهم المجالات التى تظهر فيها مزايا الانتاج الكبير . فحيثما تتوافر الامكانيات المالية والمعملية يمكن دائما تحقيق نتائج أفضل .

والمشروعات الكبرى فى العصر الحديث لم تعد مجرد وحدات للانتاج ، ولكنها أيضا وحدات للبحث العلمي . وتركز الصناعة يساعد الى حد بعيد على زيادة الامكانيات المخصصة للبحث فى الصناعة . ولذلك نجد أن البحث العلمي لا يقتصر فى الدول الصناعية المتقدمة على الجامعات بل تشارك فيه أيضا الصناعات الكبرى بنصيب كبير . وهذا الامر واضح بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية . كذلك تقدم الصناعات الكبرى المنح المالية والعقود الى الجامعات للقيام بأبحاث مشتركة ، كما قد تقوم بعض هذه الصناعات برعاية مراكز الابحاث وبعض الجامعات كما حدث اخيرا بالنسبة للجامعات الاقليمية الحديثة فى انجلترا . وعلى ذلك فان المشروعات الكبرى تحقق مزايا ضخمة لا تعرفها المشروعات الصغيرة فى مقدمتها الأبحاث .

وهكذا نستطيع ان نفهم لماذا حققت معظم الدول الصناعية الكبرى معدلات كبيرة من النمو فى ظل الصناعات المركزة ، فى حين ان النظرية الاقتصادية كانت تدعي أن المنافسة الكاملة وحدها هي الكفيلة بتحقيق التقدم الاقتصادى ، وان أى مظهر من مظاهر الاحتكار (التركز يأخذ غالبا شكل المنافسة الاحتكارية بين عدد قليل من المشروعات) من شأنه الاضرار بالكفاءة الاقتصادية . ولعل السبب فى هذا الموقف من النظرية الاقتصادية « التقليدية » هو أنها كانت تفترض دائما القابلية المطلقة للانقسام لجميع العناصر ، وأن المنافسة من شأنها تحقيق الانتاج عند اقل تكلفة (التكلفة الحدية تتساوى مع التكلفة المتوسطة وتعادل الثمن(١) . وهذه النظرية تهمل نتائج التقدم الفنى المتحقق عن طريق الابحاث والافادة من مزايا الانتاج الكبير الناجم عن تركز المشروعات الصناعية . (٢)

---

(١) انظر فى ذلك كتب مبادىء الاقتصاد على سبيل المثال ، احمد ابو اسماعيل ، اصول الاقتصاد ، دار النهضة العربية ١٩٦٦ .

(2) Cf. K. Galbraith, **American Copitalism,** Boston, Houghton, 1956

وتركز المشروعات الصناعية ليس ظاهرة قاصرة على الدول الرأسمالية ، بل هو ظاهرة فنية نجدها أيضا فى الدول الاشتراكية الصناعية المتقدمة . لأن ظاهرة عدم الانقسام والتجزئة بالنسبة لكثير من عناصر الانتاج انما هي من الامور الفنيةوالتى ترتبط بطبيعة التقدم التكنولوجي بصرف النظر عن شكل الملكية القانونية لعناصر الانتاج . واذا كان من الممكن فى الدول الاشتراكية تركيز الابحاث فى مؤسسات ومعاهد قومية بحيث تؤدى خدماتها للمشروعات الكبيرة والصغيرة على السواء الا أنه من الواضح أن المشروعات الكبرى ستكون أقدر على الافادة من هذه الابحاث لتنوع مشاكلها ولوجود عناصر عالية الكفاءة فى ادارتها تمكنها من توجيه الابحاث لصالحها وذلك بعكس المشروعات الصغيرة التى ليس لديها المشاكل ولا القدرة الفنية اللازمة للافادة من هذه الابحاث وللتأثير على توجيهها .

كذلك فان جميع أسباب مزايا الانتاج الكبير الاخرى الراجعة الىعدم انقسام العناصرالاخرى كالفن الانتاجي الحديث ، وبعض أنواع الطاقة والادارة العالية ، ودراسة الاسواق .. الخ . تتوافر بصرف النظر عن النظام الاقتصادى ، رأسماليا كان أو اشتراكيا .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن التقدم الفنيوالذى ادى الى تركز الصناعات لم يكن متماثلا فى جميع الصناعات من ناحية ، وأن التركز فىالصناعات الاساسية قد اصطحب من ناحية اخرى ، بمزيد من الارتباط والتبعية بين قطاعات الاقتصاد . وقد ترتب على ذلك ان نشأ نوع من الارتباط والتبعية بين قطاعات الانتاج ، وقد تطورت فكرة الارتباط بين قطاعات الانتاج فى النظرية الاقتصادية .

فقد بدأ منذ نهاية القرن التاسع عشر الاتجاه نحو النظر الى الاقتصاد القومي باعتباره كلا مترابطا لا يمكن فصل أجزائه ودراستها دراسةمنفصلة ، فكل جزء يتوقف على ما يتم فى الاجزاء الاخرى . وقد ظهر ذلك بوجه خاص فى أعمال فالراس فى نظريته فى التوازن الشامل General equilitrium (١) وبمقتضى هذه النظرية فان تحديد التوازن فى سوق سلعة معينة لا يتوقف على ظروف هذه السوق وحدها ، وانما يتوقفأيضا على اثمان جميع السلع الاخرى ، ومن ثم فانه لا يمكن تحديد ثمن التوازن فى كل سوق منفصلة كما تتجه نظرية التوازن الجزئي Partial equilibrium وبعبارة اخرى اذا كان التوازن يتحقق عندما يسود الثمن الذى يسوى بين الكمية المطلوبة والكمية المعروضة منالسلعة، واذا كانتالكمية المطلوبة بدورها تتوقف على الثمن (أى أنها دالة للثمن) وبالمثل يتوقفالكمية المعروضة على الثمن (أى أنها دالة للثمن)، فان التجديد الذى اتى به فالراس هو انه ذكر ان دالة الطلب على السلعة لا تتوقف على ثمن هذه السلعة فقط وانما ايضا على أثمان السلع الاخرى . وبذلك لا تكون بصدد دالتين للعرض والطلب ومتغير واحد هو الثمن للسلعة محل الدراسة ، وانما يكون هناك عدد كبير من المتغيرات بعدد أثمان السلع الاخرى . ومعنى ذلك أننا نكون بصدد نظام كامل للتوازن ينبغي حله مرة واحدة بايجاد حل آني لنظام من المعادلات الآنية Simultaneous equations لطلب وعرض جميع السلع ، وكل منها تتوقف على متغيرات عديدة هي أثمان السلع الأخرى . ويمكن حل هذا النظام دفعة واحدة لأننا نكون بصدد عدد من المعادلات مساو للمتغيرات . وأهمية هذا النوع من التفكير هو أنه بين الترابط بين أجزاء الاقتصاد .

ويستند هذا الترابط فى الاقتصاد الى الترابط فى الطلب فى العرض . فمن ناحية يرتبط

(1) Elements d'Economie Politique Pure, gedition, Paris, 1958.

الطلب على سلعة معينة ليس فقط بثمنها وانما بأثمان السلع الاخرى المنافسة والمكملة لها . وبالمثل فان عرض السلعة لا يتوقف على ثمنها فقط وانما على أثمان عناصر الانتاج الاخرى وبحسب درجة الاحلال بين هذه العناصر .

وقد ظلت فكرة الترابط فى أجزاء الاقتصاد أو تحليل التوازن الشامل مسألة نظرية هامة بين المفكرين ، ولكنها لم تلق العناية الكافية من حيث أثرها على فهم التطور الواقعي وعلى السياسة الاقتصادية حتى أخرج الاقتصادى الامريكي ـ الروسي الاصل ليونتيف دراسته عن جداول المنتج ـ المستخدم للولايات المتحدة الامريكية(1) . وتعتمد دراسة المنتج ـ المستخدم input-output على الترابط بين أجزاء الاقتصاد كما تظهر فى الترابط الفني للانتاج . فالانتاج فى كل صناعة يعتمد على استخدام مواد أولية ونصف مصنوعة منتجة فى صناعات أخرى ، وهكذا تقوم سلسلة من العلاقات المتداخلة بين الصناعات المختلفة قبل ظهور الناتج النهائي فى سوق الاستهلاك والاستثمار والصادرات . وهذا الترابط أو التداخل بين الصناعات المختلفة هو الذى يجعل كل صناعة حلقة فى سلسلة طويلة من العمليات الانتاجية ومن ثم فانه لا يمكن دراسة توازن صناعة واحدة مستقلة عن شروط التوازن فى الاقتصاد الكلي . ومن الواضح أن هذا المظهر من مظاهر الترابط هو تطبيق مباشر لأفكار فالراس فى الترابط من ناحية العرض .

وقد أظهرت دراسات المنتج ـ المستخدم فائدة هامة لمعرفة سلوك الاقتصاد فى الدول المقدمة . فقد كان الغرض من دراسة ليونتيف ابراز أهمية الطلب غير المباشر الناتج عن الترابط الصناعي الى جانب الطلب المباشر الناجم عن السوق النهائية (الاستهلاك ، والاستثمار والصادرات) وظهر أنه فى كثير من الاحوال يكون هذا الطلب غير المباشر من الاهمية بمكان بحيث ان اتخاذ قرارات دون مراعاته بشكل صريح يؤدى الى ظهور اختناقات فى الاقتصاد .

ويتم تكوين جداول المنتج ـ المستخدم عن طريق تقسيم الاقتصاد الى قطاعات للصناعات المختلفة (الزراعة ، الصناعات الاستخراجية ، الصناعات الهندسية ، الصناعات الكهربائية ، النسيج ..) وتختلف درجة التقسيم باختلاف الحاجة الى التفصيل ، وتوضح الجداول بحيث تكون ذات مداخل مزدوجة Double entry بمعنى أن كل صناعة توضع مرة على الصف ، ومرة على العمود . وتقيد مبيعات كل صناعة فى الصف المقابل لها للصناعات المشترية والباقي يباع فى السوق النهائية . وبالمثل فان مشتريات كل صناعة تقيد فى العمود المخصص لها ، وهى تشترى من الصناعات الاخرى ، وبالاضافة الى ما تشتريه من سوق عناصر الانتاج . وهكذا نجد ان لدينا جدولا يبين عمليات البيع والشراء داخل الاقتصاد . وفى هذا الجدول نجد ان الجزء الخاص بمبيعات ومشتريات الصناعات مع بعضها هو الذى يهم فى بيان التداخل الصناعي بين القطاعات المختلفة . ونظرا لأن ليونتيف قد استخدم أسلوب المصفوفات الرياضية للتعبير عن هذه العلاقات ، فان هذا الجزء الاساسي يطلق عليه عادة اسم مصفوفه التداخل الصناعي أو مصفوفة الطلب الوسيط . ويمكن أن نعبر عن ذلك بالجدول الآتي .

---

(1) W. Leontief, **The Structure of American Economy,** 1919-1939. Oxford University Press, New York. 1951.

مصفوفة الطلب الوسيط

المنتج المستخدم	صناعة (١)	صناعة (٢)	صناعة (٣)	صناعة (٤)	صناعة (٥)	السوق النهائية
صناعة (١)	س ١١	س ٢١	س ٣١	س ٤١	س ٥١	ن ١
صناعة (٢)	س ١٢	س ٢٢	س ٣٢	س ٤٢	س ٥٢	ن ٢
صناعة (٣)	س ١٣	س ٢٣	س ٣٣	س ٤٣	س ٥٣	ن ٣
صناعة (٤)	س ١٤	س ٢٤	س ٣٤	س ٤٤	س ٥٤	ن ٤
صناعة (٥)	س ١٥	س ٢٥	س ٣٥	س ٤٥	س ٥٥	ن ٥
سوق عناصر الانتاج	ل ١	ل ٢	ل ٣	ل ٤	ل ٥	

الجدول الوسيط فقط هو الذى يبين مبيعات ومشتريات الصناعات فيما بينها ولذلك فاننا نضع فى كل خانة الحرف س معرقمين صغيرين للاشارة الى أن هذه القيمة قد تم بيعها من القطاع صاحب الرقم الاول الى القطاع صاحب الرقم الثاني ، وعلى ذلك مثلا فان س ٣٢ تعني مبيعات القطاع الثاني الى القطاع الثالث .

أما الجزء الخاص بالسوق النهائية فانـه يبين مبيعات كل قطاع الى السوق النهائية . وكذلك فان الجزء الخاص بسوق عناصر الانتاج فانه يبين مشتريات كل قطـاع مـن عناصر الانتاج .

ومن الواضح انه كلما زاد الترابط الاقتصادى بين قطاعات الاقتصاد زادت المعاملات فى جدول الطلب الوسيط. والملاحظ انه كلما زاد التقدم الاقتصادى زادت المعاملات فى هذا الجزء. وقد حاول بعض الاقتصاديين أن يستخدم هذا الأسلوب لدراسة اقتصاديات الدول المتخلفة ، وكانت النتيجة ان جداول المنتج ــ المستخدم لهــذه الدول كانت تتضمن كثيرا من الخانات الخالية فى ذلك الجزء الأساسي من جدول المنتج ــ المستخدم وهو جدول الطلب الوسيط . (١) ومعنى ذلك أن الترابط الاقتصادى بين الصناعات المختلفة لا زال ضعيفا فى مثل هذه الدول . وعلى ذلك فانه مـع زيادة التقدم والنمـو الاقتصادى فان الترابـط بين القطاعات المختلفة يزداد تأكدا

(1) Peacock, Dosser, **Input-Output in Underdeveloped Countries** Review of Economic Studies, Vol. 25, 1957, P. 21.

وتظهر اهمية هذا الترابط المتزايد بين قطاعات الاقتصاد فى الدول المتقدمة فى ضرورة التنسيق والرقابة على نشاط مختلف القطاعات فلا يمكن تركها دون رقابة ، لما يترتب على سلوكها من آثار بعيدة على مختلف أجزاء الاقتصاد الأخرى . ولعل هذا هو السبب الأساسي فى الأزمة التي وقعت فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٦٢ بين الرئيس كنيدى وبين صناعات الصلب بصدد سياسة الأخيرة حول الأثمان . فبالنظر الى الترابط الاقتصادى الهام والى الآثار غير المباشر ، فان رفع أسعار الصلب لن يقتصر على هذه الصناعة وحدها وانما سوف يؤثر على جميع قطاعات الاقتصاد خلال التأثير فى الطلب غير المباشر بين الصناعات المختلفة . ويظهر ذلك بوجه خاص اذا أخذنا فى الاعتبار المظهر الثاني للترابط الاقتصادى بين الصناعات وهو عدم التماثل Assymetry وظهور صناعات مسيطرة بحسب وضعها الفني فى سوق الانتاج .

الواقع انه رغم أن التطور قد أدى الى مزيد من الترابط والاندماج بين الصناعات المختلفة بحيث أصبحت كل صناعة تعتمد فى انتاجها على عدد متزايد من انتاج الصناعات الأخرى ـ بالرغم من ذلك فان التطور بين الصناعات لم يكن متماثلا . بل ان هناك صناعات تتخذ مركزا أساسيا فى هيكل الانتاج بحيث تكاد تعتمد عليها الصناعات الأخرى بشكل أكثر من غيرها . وهذه الصناعات تحتل فى الواقع مكانة هامة لأنها تتمتع الى حد كبير بسلطة التأثير فى الصناعات الأخرى بالنظر الى هذا التطور الفني . ولعل مثال صناعة الصلب المتقدم يعبر عن هذا الوضع .

وعلى ذلك فان الترابط الاقتصادى الناتج من التداخل الصناعي ليس ترابطا متماثلا بين متساويين ، وانما هو ترابط يتضمن وجود علاقات سيطرة من بعض القطاعات على القطاعات الاخرى(١) (ويظهر ذلك رياضيا من ان مصفوفة الطلب الوسيط وان كانت ليست خالية الا أنه يمكن جعلها مصفوفة منحرفة traingularized بمعنى جعلها Similar لمصفوفة توجد معظم القيم فوقه المنحرف الرئيسي Diagonal وتكون خالية تحته أى بحيث توجد أصفار تحت هذا المنحرف) .

ويترتب على هذا التطور أن الترابط الاقتصادى وان أدى الى مزيد من الاندماج بين قرارات الوحدات الاقتصادية ، الا أنه اظهر فى نفس الوقت وجود وحدات استراتيجية تؤثر قراراتها بشكل أخطر فى الاقتصاد القومي فى مجموعه . ولذلك فان القرارات التى تتخذها هذه الوحدات لا تتعلق فى الواقع بها وحدها وانما تتعلق بالاقتصاد القومي . فقرارات شركة مثل شركة جنرال موتورز لا تتعلق بسياسة أسعار منتجاتها فقط وانما تؤثر فى حجم الانتاج القومي فى مجموعه وفى توزيع الدخول وفى مستوى الأسعار العامة . وقد أثر ذلك الوضع على هيكل الاقتصاد ، فلم نعد فى ظل الصورة التقليدية للسوق وان ظلت الملكية فردية وانما تعلق الأمر فى الواقع باتخاذ قرارات على مستوى الاقتصاد القومي .

أهمية طبقة الفنيين

رأينا أن أهم ما يميز « المجتمع الصناعي الحديث » هو التقدم الفني الكبير فى وسائل الانتاج . فالتقدم الاقتصادى الذى تحققه الدول الصناعية الكبرى لا يرجع الى تراكم رؤوس الأموال بقدر ما يرجع الى التقدم الفني ووضع وسائل جديدة للانتاج ذات كفاءة اكبر واكتشاف مصادر جديدة للطاقة .

---

(1) Cf. F. Perrous, L' Economice du XX em Siecle, P. U. F., Paris, 1961 P. 27

وقد جرت العادة بين الاقتصاديين على اعتبار ان النمو Growth دالة لتراكم راس المال (الاستثمار) . ونجد هذه العادة لدى الاقتصاديين منذ التقليديين : ادم سميث ريكاردو ، كما نجدها عند ماركس . وبالمثل فان الاقتصاديين المحدثين (ما بعد كينز Post Keynesians) قد وضعوا نماذج للنمو الاقتصادى تجعل هذا النمو دالة بشكل ما للاستثمار ومن أشهر هذه النماذج ما يعرف بنموذج هارود دومار — Harrod-Domar (١) نسبة الى الاقتصاديين المشهورين . وفى هذا النموذج نجد أن معدل النمو الاقتصادى يتوقف على نسبة الاستثمار من الدخل القومي — ويرتبطان بما يعرف بمعامل راس المال أو نسبة الناتج اى راس المال أو نسبة الناتج الى راس المال المعروف باسم Capital output ratio وقد أثر هذا النموذج فى الفكر الاقتصادى عامة ، حتى أن الدول النامية وهي بصدد وضع برامج التنمية الاقتصادية قد استعارت هذا الأسلوب لتحديد حاجتها من رأس المال اللازم لتحقيق درجة معينة من معدل التنمية .

ورغم الأهمية الضخمة التي يمثلها تراكم راس المال في احداث النمو ، فان هناك عاملا ربما يكون له السبق فى الوقت الحاضر . فى هذا الصدد . هذا العامل هو التقدم الفني . فأثر التقدم الفني على النمو قد اصبح من الأهمية بحيث لا يمكن اهداره . ولذلك فاننا نجد أن كثيرا من الاقتصاديين المحدثين يوجهون عناية خاصة الى اهمية التقدم الفني فى احداث النمو . فان ما يهم ليس راس المال المادى فقط وانما رأس المال الانساني المتمثل فى العمل الأكثر مهارة ، وبصفة خاصة فى الاختراعات والوسائل الجديدة المستخدمة فى الانتاج(٢) .

وهذه الأهمية الكبرى للتقدم الفني وللرأسمال الانساني فى احداث النمو كان لها أكبر الاثر على العلاقات الاجتماعية مما ادى الى ظهور أهمية الفنيين والمديرين كطبقة اجتماعية بدات تحتل مكانة هامة فى الاقتصاد القومي ، والى زيادة أهمية الجامعات ومراكز الأبحاث وما تباشره من تأثير فى هذا الاقتصاد .

ان التقدم الفني كعنصر من عناصر النمو الاقتصادى يتميز فى الوقت الحاضر عن الاختراعات التي تمت فى الماضي والتي كان من شأنها زيادة الانتاج وتحسين نوعه . فالتقدم الفني فى الوقت الحاضر لم يعد نتيجة عمل فرد عبقرى او نتيجة للصدفة بحيث أن التقدم فى نوع معين يتم بقفزات غير منتظمة انما أصبح التقدم الفني جزءا منظما من أجزاء العملية الانتاجية ، ومرحلة مندمجة تماما فى مراحل الانتاج . وقد أصبحت الاكتشافات نتيجة لعمل منظم ودقيق بحيث يمكن تخطيطه مقدما . فعنصر الفرد العبقرى قد اختفى أو كاد — ولا نكاد نسمع الآن — عن اسم عالم تنسب اليه نتائج التقدم الفني المذهلة التي نراها كل يوم . فأسماء واط وماركوني وبل اسماء نعرف انها كانت وراء الآلة البخارية واللاسلكي والتلفون . وهذه الأسماء هي جزء من

---

(1) cf. E. D. Domar, **Capital Expansion, Rate of Growth and employment** Dconometrica (April 1946) ; R. Harrod, **Towards a Dynamic Economics,** Macmillan, 1948.

(٢) يرى بعض الاقتصاديين انه لا يمكن فصل تراكم رأس المال المادى عن التقدم الفنى ، فالاستثمارات لا تتضمن فقط الاضافة الى الآلات القائمة بآلات جديدة من نفس النوع ، وانما تتضمن الاستثمارات الجديد عادة آلات مختلفة اكثر كفاءة وتتضمن آخر ما وصل اليه التقدم التكنولوجي . ولذلك فانه لا يمكن فصل رأس المال عن التقدم الفنى ، فتراكم رأس المال ينطوى في الواقع على تطبيق فن انتاجي اكثر تقدما . انظر في ذلك على وجه الخصوص .

N. Kaldar, A,

Model of Economic Growth, Economic Journal, December 1957.

الثقافة العامة . ولكن من يعرف الأسماء وراءاختراعات كان لها أكبر الأثر فى حياتنا اليومية ، من منا يعرف من وراء التلفزيون ، من وراءالترانزستور رغم ان هذا الاختراع الاخير يعد فى ذاته ثورة صناعية ، من وراء القمر الصناعي ،سبورتنيك ، ومن وراء برامج أبوللو،وغيرها كثير .

ان البحث وما يترتب عليه من اختراعاتهي من عمل عدد هائل من الباحثين المجهولين . ان الاختراع قد أصبح بطبيعته عمل « مجموعة » Team من الباحثين من تخصصات مختلفة . وهو عمل منظم بحيث انه يمكن مقدما معرفة النتائج التى يمكن الوصول اليها فى فترة معينة اذا خصص لها الاعتمادات اللازمة . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث فى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٦٢ حين كانت متخلفة فى أبحاث الفضاء عن الاتحاد السوفياتي فأعلن رئيسها فى ذلك الوقت (كنيدى) عن برنامج للحاق بالاتحاد السوفياتى فى ميدان الفضاء والهبوط على القمر فى سنة ١٩٧٠ . ولم يكن غريبا على العالمين بطبيعة البحث فى العصر الحديث أن يعلموا بنبأ وصول « ابوللو » الى القمر ١٩٦٩ ، اى فىنفس الموعد المحدد (فى الواقع قبله !) .

واذا كان التقدم الفني فى العصر الحديثقد أصبح جزءا عضويا فى الانتاج ولم يعد عملا عفويا نتيجة للصدفة والحظ ، فان وراءه جيشكبير من الفنيين والباحثين الذين يقومونبالوصول الى حلولجديدة للمشاكل، ويقومون باجراء التجارب .. الخ . هذا الجيش من الفنيين قد أصبح عنصر أساسيا فى الانتاج لا يمكن لدولة حديثة أن تستغني عنه مما أدى الى زيادة اهميتهم . وهذه الابحاث والتجارب تتميز بأمرين ، فهي منناحية قد أصبحت معقدة جدا وتتطلب تخصصات دقيقة تعمل فى تعاون ، وهي من ناحية أخرى باهظة التكاليف ، ولذلك فان الأبحاث على ما سبق انرأينا تعتبر من النشاطاتالتى تظهر فيها بشكلواضح مزايا الانتاج الكبير ، ولذلك فانها تتركز فى مراكز البحوث فى المشروعات الضخمة وفى مراكز البحوث العلمية والجامعات .

كانت الاختراعات فى العصر السابق بسيطةنسبيا ، ولم تكن تستند فى كثير من الاحوال الى معرفة نظرية متعمقة ، ولذلك كانت تتم غالبا فى المصنع ومن العاملين انفسهم نتيجة للتجربة والخبرة . وقد ساعد على ذلك تقسيم العملالى حد بعيد . أما فى العصر الحديث فان الاختراعات والاكتشافات الجديدة تتميز بأن لها أساسات نظرية وتعتمد على الدراسة النظرية المتعمقة، فميدانها المختبر والمعمل وحجرات الدراسة وليس الورشة. والاكتشافاتالجديدة معقدة جدا ولا يمكن لغير المتخصص أن يدركها .

كذلك فان اهم ما يميز التقدم الفني وما يستلزمه من بحثانه باهظ النفقات . فالأبحاث الواجب اجراؤها والآلات والمعداتاللازمةللمختبرات طويلة ومعقدة وغالية . وتمر عادة مراحل طويلة من التجارب قبل وضع الوسيلة الجديدة موضع التنفيذ . ولعل اهم ما يجعل الأبحاث باهظة التكاليف هو انها كصناعة تعتبر ذات كثافة عمل مرتفعة Labour Intensive بمعنى أنها تعتمد على العمل بشكل كبير ، ولكنه عملمن نوع خاص ، هو العمل الفني المتخصص ذو المعرفة المتعمقة ، ولذلك فان اجوره تكون عادة مرتفعة جدا وهذا ما يجعل نفقات البحث عالية . ولعل هذا السبب هو ما يجعل الولايات المتحدة الامريكية على قمة التقدم الفني . فنظرا لغنى

هذه الدولة فهي قادرة على اجتذاب العلماء والفنيين من كافة دول العالم ودفع الاجور الباهظة لهم .

والتطور المتقدم جعل الصناعة فى العصر الحديث معتمدة الى ابعد الحدود على هؤلاء الفنيين بحيث ان نفوذهم ازداد بشكل واضح . ولم يقتصر الامر على مجرد أهمية هؤلاء الفنيين والباحثين لتطوير وسائل الانتاج وتحسين نوعه، وانما جاوز ذلك الى طبيعة العملية الانتاجية ذاتها . فالانتاج يعتمد الآن أكثر فأكثر على رأس المال Capital Intensive والآلة الحديثة ليست مجرد آلة تقوم بما كان يؤديه عشرات ومئات من العمال ، ولكنها آلة دقيقة ومعقدة وتحتاج دائما الى عمل فني مؤهل لتشغيلها والافادة منها وتعديلها دائما . فلم يقتصر التقدم الفني على تعديل نسبة العمل : رأس المال ، ولكنه غير أيضا من طبيعة العمل . فالعمل لم يعد عملا يدويا أو ملاحظة رتيبة وانما هو عمل رقابة ذكية لآلات دقيقة ومعقدة . ولعل أجمل مثال على ذلك هو العقول الألكترونية الحديثة التى تقوم بعمليات ما كان يمكن اجراؤها الا بعدد ضخم جدا من الأفراد وفى وقت طويل . ولكن هذه العقول تتطلب للعمل عليها أفرادا ذوى كفاءة عالية فى الهندسة وتحليل البرامج . ولذلك فالتقدم الفني الحديث قد زاد من نسبة الفنيين والمؤهلين بين العاملين . وبعبارة أخرى فان التقدم الفني قد أدى الى زيادة نسبة ذوى الياقات البيضاء على حساب ذوى الياقات الزرقاء . (١) ولذلك فان الصورة العادية للانتاج فى العصر الحديث لا تتطلب العمل اليدوى غير المؤهل الذى يقوم بالأعمال العضلية أو الاعمال الرتيبة والروتينية بقدر ما يتطلب عمل الفنين الذين يعتمدون على تكوين علمي متين والذين يقومون بوجه خاص بالأعمال الذهنية التى تتطلب اليقظة وسعة الخيال .

وقد ترتب على التطورات المتقدمة أن ظهرت الجامعات ومراكز البحث ومعاهد الدراسة بوجه عام ، كمراكز أساسية وخطيرة فى تطور المجتمع الصناعي الحديث . فالصناعة الحديثة بدأت تعتمد بشكل اساسى على العامل المدرب والمتعلم . ومن ثم فان هذه الصناعة الحديثة تجد مصدر عملها حيث توجد بيئة مناسبة لتوفير هذا العمل المتعلم وليس حيث يوجد العمل الرخيص . ولعل ذلك ما يعبر عن الاختلاف بين توطين الصناعات فى العصر السابق وتوطنها حاليا . فصناعات النسيج التى قامت عليها الثورة الصناعية فى انجلترا كانت تتوطن بصفة خاصة بالقرب من اليد العاملة الزراعية الرخيصة نسبيا . أما الآن فاننا نجد تلازما بين تركز الصناعات وبين مراكز العلم والبحث ، فحيث توجد مراكز علمية متقدمة فان الصناعة تجد فيها ظروفا مناسبة . كذلك فان الصناعات التى نشأت فى أماكن لم تكن معروفة بالاهتمام العلمي والثقافي لأسباب تاريخية ـ فان هذه الصناعات لم تلبث أن تقوم بتمويل انشاء الجامعات ومراكز البحوث . وقد حدث ذلك اخيرا فى انجلترا حيث انشىء العديد من الجامعات الاقليمية التى تعتمد كثيرا على تمويل الصناعات المختلفة لها . وتعتمد الصناعة بوجه خاص على الجامعات ومراكز البحوث ، فهذه تعتبر فى الواقع عصب التقدم الفني

---

1. J. K. Galbraith, Le Novel Etat industriel, (trad.) Edition Gallimard, Paris 1968 P.P. 253 etss.

الحديث . وقد اشار جالبرت الى ان الجامعات ومراكز البحوث فى العصرالحديث تقوم بالنسبة للصناعة بنفس الدور الذى كانت تقوم به البنوك فى القرن الماضي . فالصناعة فى القرن الماضي كانت تحتاج الى التمويل ومن ثم فان البنوك لم‌تلبث أن احتلت مكانة خطيرة من الاقتصاد باعتبارها مراكز لتجميع وسائل التمويل ، مما جعل الكثير من الاقتصاديين يميز فى مراحل الرأسمالية بين الرأسمالية التجارية والراسمالية الصناعية والرأسمالية المالية . وهذه المرحلة الأخيرة انما تعبر عن المرحلة التى زادت فيها اهمية التمويل بالنسبة للتوسع الصناعي ، مما جعل البنوك المتصرف الحقيقي فى النظام‌الراسمالي . والواقع أننا فى العصر الحديث نكاد نلمح تطورا فى طبيعة الانتاج بحيث أصبح التقدم الفني‌والراسمال الانساني هو العامل الحاسم فى‌التوسع وليس فقط التمويل المادى(١) وفى مثل هذه الظروف فان الجامعات ومراكز البحوث تكاد تقوم بدور التمويل لهذا النوع من التقدم الفني . ولذلك فان الارتباط بين الصناعة وبين الجامعة ومراكز البحث قد اصبح حيويا فى الدول المتقدمة .

وقد ترتب على الأوضاع المتقدمة تغييرات هامة فى ادارة المشروعات ، وفى طبيعة الطبقات الاجتماعية ذات التأثير على القرارات الاقتصادية الهامة والدوافع التى تؤثر فى هذه القرارات . وقد أثر ذلك على الفكرة السائدة عن كيفية اصدار القرارات .

هناك تقليد متبع يربط بين شكل الملكية وبين‌مصدر القرار،وقد استقر هذا التقليد بوجه‌خاص مع‌الماركسية. فعندها‌ان‌تطور وسائل‌الانتاج‌وبشكل‌خاص فى طبيعة ملكية عناصر الانتاج. وبذلك فان الرأسمالية‌تعتبر مرحلة‌من‌مراحل‌التطور‌تكون‌الملكية‌الخاصة‌لعناصر الانتاج‌هى‌السائدة،وبذلك تصدر القرارات من الرأسمالي المالك . وتكون الاشتراكية ــ ثم الشيوعية ــ مرحلة أخرى تتحول فيها الملكية الى الدولة ، وبذلك لا تصدر القرارات عن‌الرأسماليين وانما عن الدولة التى تعبر عن صالح الجميع . ومع ذلك فاننا نعتقد أن تطور شكل‌الملكية ليس هو الأثر الوحيد وربما ليس الاكثر أهمية لتطور وسائل الانتاج . فان تطور وسائل الانتاج وما أدى اليه من ظهور « المجتمع الصناعي الحديث » قد أحدث ثورة فى العلاقات الاجتماعية ، وادى الى تغيير خطير فى طبيعة مصدرى القرارات ، وذلك بصرف النظر عن‌الشكل القانوني للملكية . فقد أدى التطور المتقدم الى الاهمية المتزايدة لطبقة المديرين والفنيين فى‌اتخاذ القرارات الاقتصادية الهامة ، ونكاد نلمح تشابها فى هذا الصدد بين الدول الرأسمالية التى‌تحتفظ بالملكية الخاصة وبين الدول الاشتراكية التي أقامت الملكية العامة . هنا وهناك يزداد دور الفنيين والمديرين فى اتخاذ القرارات وفى التأثير فى الظروف المصاحبة لاتخاذ هذه القرارات . ولا يعني ذلك أن التفرقة بين النظم التى تأخذ بالملكية الخاصة وبين النظم التى تأخذ بالملكية العامة قد زالت‌فيما يتعلق‌بالدول‌الصناعية المتقدمة. فذلك ليس صحيحا . ففي الدول الراسمالية يحتل الراسماليون مكانة هامة من الحياة الاقتصادية والسياسية وفى الدول الاشتراكية‌ـ يحتل رجال الحزب مكانة هامة من الحياة الاقتصادية والسياسية . ويختلف أولئك عن هؤلاء فى كثير او قليل من ناحية البواعث والقيم الاجتماعية التى يمثلونها ، مما يجعل النظام الرأسمالي مختلفا عن النظام الاشتراكي . ولكن ذلك لا يمنع من انه فى كلا النظامين هناك اتجاه قوى‌تحت ضغط التطورات التى لحقت بالصناعة

---

(١) هناك بطبيعة الاحوال بين الامرين ، ولكننا نريد ان نركز على اهمية عنصر الخبرة وللعلم الانسانى .

الحديثة نتيجة للتقدم الفني الى أن طائفة المديرين والفنيين بدأت تسيطر تدريجيا على معظم القرارات الهامة وتؤثر فى صدورها .

وقد كان من اوائل من وجه النظر الى هذا التطور الأمريكي برنهام في كتابه عن «ثورة المديرين» The Manegerial Revolution وقد كان برنهام ماركسيا من الجناح اليساري المتطرف الذى ينادى بضرورة الثورة الدائمة في العالم أجمع ، وينتمي بذلك الى الجناح التروتسكي من الحركة الشيوعية في الفترة ما بين الحربين . وقد واجه برنهام ــ شأنه في ذلك شأن الكثيرين من المثقفين اليساريين في الغرب ــ أزمة ضمير شديدة في الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية عندما عقدت المانيا النازية معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتي . فالمانيا النازية في ذلك الوقت كانت تمثل أسوأ صور الفاشية اليمينية التي تهدد الحركات الثورية اليسارية . كذلك فان الاتحاد السوفياتي رغم ان الجناح التروتسكي كان ينظر اليه بكثير من التحفظات وخاصة فيما يتعلق بدكتاتورية الفرد والتخلي عن الثورة العالمية ــ قد ظل رغم ذلك في نظر جميع المثقفين اليساريين كسبا ضخما للحركات الثورية مرشدا لها . ولذلك فان معاهدة ١٩٣٨ كانت بمثابة صدمة لهؤلاء ، لأنها كشفت عن عقل الدولة Raisond' Etat الذى يدير مصالح دولة الاتحاد السوفياتي قبل الاعتبارات المذهبية والخلقية . وفي ظل هذا الجو النفسي أخرج برنهام كتابه في « ثورة المديرين » لتفسير ما تم وفقا للنهج الماركسي . ولذلك فانه يرى أيضا أن « الصراع بين الطبقات » هو الذى يحكم التاريخ ، ولكنه يرى أن نتيجة صراع العمال مع الراسماليين لا تنتهي في صالح الطبقة العاملة وانما في صالح فئة جديدة تفيد من هذا الصراع وهذه هي فئة المديرين ، وبصفة عامة جميع الفنيين . وليس في هذا ، في نظر برنهام ، ما يزعج ، ففي النظرية الماركسية ما يؤكد ذلك . ففي ظل النظام الاقطاعي كان الصراع الطبقي متمثلا بين طبقة الاقطاعيين وطبقة مهضومة هي فلاحو الأرض . وهذا الصراع يحل لصالح طبقة جديدة هي « البورجوازية » ، وبناء على ذلك فقد وجد برنهام مخرجا ، في نظره ، للتناقض الشديد بين « تحالف » دولة « يسارية » مثل الاتحاد السوفياتي مع دولة « فاشية » مثل المانيا النازية ، فعنده أنه في كل من الدولتين سيطرت طبقة المديرين والفنيين على الحكم ومن ثم فانه من السهل ان يتقاربا . وقد تعرضت افكار برنهام لانتقادات كثيرة وخاصة أن كتابه قد ظهر في أثناء الحرب العالمية الثانية وفي فترة كانت فيها المانيا النازية تحقق انتصارات عسكرية فى أغلب الميادين ، مما طبع الكتاب بالتشاؤم الشديد وبكثير من التنبؤات التي ثبت عدم صحتها فيما بعد .

وبالرغم من الانتقادات التى وجهت الى أفكار برنهام والافكار التى ثبت عدم صحتها ، فان شيئا منها ظل محلا للاهتمام ، وهو بيان دور الفنيين فى الحياة الاقتصادية وتأثيرهم المتزايد فى المجتمعات الحديثة . ومنذ ذلك وقد تعددت الدراسات التي تشير الى خطورة تطور المجتمعات الصناعية ودور الفنيين المتزايد فيها ، ومن أهم من تحدث في ذلك R. Aron في فرنسا ، K. Galbraith في الولايات المتحدة الامريكية ، وغيرهم كثير . وقد سبق أن أشرنا الى الاهمية المتزايدة التى يحتلها التقدم الفني والعلمي فى الانتاج فى العصر الحديث ، وقد ترتب على ذلك تغيير جوهرى فى شخصية مصدر القرارات الاقتصادية . فالادارة الاقتصادية لم تعد عملا سهلا يستطيع المالك ، أى مالك ، لراس المال ، أن يقوم بها ، وانما أصبحت الادارة عملا معقدا يقتضي فهما فنيا متخصصا فى مجالات متشابكة ، وتقتضي اتخاذ قرارات من بين عديد من الاختيارات التى تتضمن عديدا من المتغيرات مما لا يسهل القيام به . ولذلك فانه بصرف النظر عن الملكية القانونية لأدوات الانتاج وهل لا تزال فى أيدى رأسمالية ، أم أنها نقلت بالتأميم الى الدولة ، فان

اصدار القرار الحقيقي قد انتقل الىأيدى الفنيين والمديرين المؤهلين للقيام بهذه الاعمال . وحتى فى الاحوال التى تظل فيها الادارة القانونية فى يد المالك، فان السلطة الحقيقية قد انتقلت الى الفنيين الذين يحضرون البيانات والاختيارات الممكنة أمام مصدر القرار وبحيث لا يكون أمامه سوى التوقيع أو التصديق على قرارات معدة له سلفا. فالادارة الاقتصادية فى المجتمع الحديث تتعلق بوحدات انتاجية كبيرة كما سبق أن أشرنا . وهذه الوحدات مترابطة فى الاقتصاد القومي بحيث ان ما تتخذه من قرارات يؤثر فيما عداها من وحدات فضلا عن أن الاختيارات المتاحة لها فعلا محدودة بالقرارات التى تتخذها الوحدات الأخرى . وفى مثل هذه الظروف فان اتخاذ القرار ليس سوى الخطوة الاخيرة وربما الاقل أهمية فى الحياة الاقتصادية . وقبل ذلك وأهم منه نوع البيانات التى يجمعها الفنيون لدراسة الامكانيات الفنية المتاحة للمشروعات والاختيارات الممكنة من بين الأساليب الفنية المختلفة ، كذلك الدراسات الاقتصادية المتعلقة بالسوق والاحتمالات المتعلقة به ، والآثار المترتبة على اتخاذ القرار على مستقبل أى قرار اقتصادى منها . وهي بيانات يقوم على اعدادها بطبيعة الاحوال الفنيون . ولا يستطيع مصدر القرار أيا كان استقلاله أن يتجاهل هذه البيانات ويصدر قراره بناء على اعتقاده الشخصي . ولذلك فان مصدر القرار لا يكون له فى كثير من الأحوال سوى اتخاذ القرار المناسب وفقا لما اعده له الفنيون من بيانات .

وهكذا نرى أن الفنيين والمديرين قد زادوا من قبضتهم على الحياة الاقتصادية . وسواء أقاموا باتخاذ القرارات الاقتصادية بأنفسهم أم كان يقوم بها ظاهريا غيرهم ، ما داموا فى جميع الاحوال مسيطرين على جميع العناصر اللازمة لاتخاذ القرارات. كذلك تقوم بين الفنيين والمديريين العاملين بالصناعة وبين الفنيين والباحثين والعلماء فى الجامعات ومراكز البحوث رابطة انتماء قوية . فهؤلاء الفنيون يدينون بمراكزهم الى المعرفة وليس الى الثروة ، وعلاقات الاخذ والرد مستمرة بين مراكز الأبحاث والصناعة والانتقال بين العاملين من الميادين مستمر . فالأستاذ فى الجامعة يقوم بالابحاث لصالح الصناعة وقد يعمل مستشارا لصناعة معينة . والفنيون فى الصناعة يحتاجون دائما الى متابعة آخر التطورات العلمية كما انه ليس من النادر أن ينتقل أحدهم من ناحية الى أخرى . وهكذا نجد أن طبقة الفنيين بدات تكون انتماء مستقلا وبحيث تكاد تمثل طبقة اجتماعية متميزة فى سلوكها وفى دوافعها . وهذه الطبقة تستند فى قوتها ونفوذها على المعرفة أولا وليس على الثروة كما هو الحال بالنسبة لطبقة الرأسماليين فى الفترات السابقة ، وليس على السلطة والقهر كما هو الحال فى بعض المجتمعات الشمولية المتخلفة من ناحية التطور الفني والتكنولوجي. وما نشاهده من سيطرة هذه الطبقة لا يقتصر على الدول الرأسمالية المتقدمة بل اننا نجد نفس الظاهرة فى الدول الاشتراكية المتقدمة فنيا أيضا. وهذه الطبقة تجد عداء شديدا من جانب رجال الحزب الذين يريدون ادارة المشروعات الاقتصادية وفقا للاراء الايديولوجية المستقرة ، وبصرف النظر عن التطورات الفنية ، ولذلك فان نزعات التطور في الدول الاشتراكية قد جاءت من جانب الفنيين فى المشروعات وفى الجامعات ، فى حين أن المعارضة قد خرجت بصفة خاصة من بين رجال الحزب . وهؤلاء الأخيرون يمثلون فى الواقع دور الرأسمالي فى المجتمع الاشتراكي . فرجال الحزب يعتقدون أنهم بوصفهم طليعة الحزب الثورى ممثلون للقوى العاملة ، وبناء على ذلك يكون لهم سلطة اصدار القرارات . ومن الواضح أن هذه السلطة لا تستند الى المعرفة الفنية بقدر ما تستند الى السلطة السياسية ولذلك ما لبث أن ظهر التناقض بين طبيعة المجتمع الحديث وما

بقتضيه من معرفة فنية متزايدة في القرارات وبين النظام السياسي الذى يجعل السلطة فى يد رجال الحزب . وهنا أيضا بدأ دور الفنيين يتزايد رغم معارضة دوائر الحزب . وقد ظهر ذلك فى أزمة تشكيوسلوفاكيا فى صيف ١٩٦٨ حيث كانت المطالب الاقتصادية وتحرير المشروعات من أهم دوافع هذه الحركة . كذلك نستطيع أن نمثل ذلك بالجدل الذى ثار حـول مشكلة الأثمار في الاتحاد السوفييتي(١) . فوفقا للتحليل الماركسي تتوقف قيمة السلعة على كمية العمل الاجتماعي اللازم لانتاج السلعة ، واذا كانت الدول الرأسمالية تضيف الى قيمة السلعة مقابل «فائض القيمة» فقد كان من الواجب الغاء هذا الجزء بعد الغاء الملكية الخاصة لأموال الانتاج ، وهو ما لم يحدث حيث ان اعتبارات حسن استخدام رأس المال ـ وهو عنصر نادر ـ تقتضي تحمل جزء من النفقة بناء على استخدامه . وهـذا هو ما سار عليه المخططون بالرغم من أن التعاليم النظرية تقضي بأن راس المال ليس عنصرا منتجا من عناصر الانتاج . كذلك فان ما ساعد على عدم العناية بما كتبه كانتوروفيتش فى الفترة السابقة على الحرب ، والذى يعتبر فى الواقع أول من وضع مشكلة البرامج الخطية Linear Programming ساعد على ذلك أن عرضه لمشكلة الأثمان تفيد أنه يدخل فى تكوين الاثمان كافة عناصر الانتاج بما فيها رأس المال ، فضلا عن أنه يشير الى أن الثمن يتحدد وفقا للنفقة الحدية وهي اشارة الى نفس الأفكار السائدة فى الفكر البورجوازى ، ولذلك فان أفكار كانتو روفيتش قد ظلت مجهولة حتى ظهرت اهمية البرامج الخطية وبحـوث العلميات بعد الحرب فأعيد النظر فيها . والسبب فى اهمالها انما يرجع الى انها تخالف النظـرة الايديولوجية الرسمية للقيمة . وأيا ما كان الامر فان طبقة الفنيين قد بدأ يتزايد دورها فى هذه الدول الاشتراكية وبدأت أساليب ادارة المشروعات تتقارب مع الأساليب المتبعة فى الدول الرأسمالية . وليس مرد ذلك الى « برجزة »الدول الاشتراكية كما يحلو للبعض قوله . وانما مرده الى التقارب فى الأوضاع الفنية وما يقتضيه ذلك من ضرورة الاخذ بأساليب فنية متشابهة .

واذا كان الفنيون فى كل مجتمع يتأثرون بالقيم السائدة فيه ، الا أن ذلك لا يمنع من انهم يتميزون بدوافع وسلوك مختلفين عن الدوافع التى تحرك الرأسماليين مثلا . فالفنيون فى اتخاذهم للقرارات الاقتصادية فى ادارة المشروعات لا يسعون الى تحقيق أقصى الأرباح بأية وسيلة وانمـا غايتهم ، غالبا ، تقتصر على العمل على استمرار المشروع ونجاحه . والنجاح لا يقدر بالضرورة بالارباح بقدر ما يقدر بالانجازات الفنية والقدرة على الزيادة المستمرة للانتاج . فاذا كانت زيادة الارباح تقتضي في أحوال معينة (بعض صور الاحتكارات) تضييق الانتاج فان ارأسمالي لا يتردد فى اتخاذ هذه السياسة ، أما حيث تكون السيطرة للفنيين فان ما يعنيهم فى الدرجـة الأولى هو توسع الانتاج ولو على حساب الارباح قليلا . وفى نهاية الامر فانهم لا يملكون عناصر الانتاج حتى يصيبهم هذا الجشع المتعلق بزيادة الارباح ، ومن ثم فانهم يكونون فى وضع يسمح لهم باتخاذ قرارات قد لا يترتب عليها أفضل وضع من حيث الأرباح . وليس معنى ذلك انهم لا يهتمون بالارباح ، فذلك ليس بصحيح ، اذ أن نجاح المشروع وقدرته على التوسع انما ترتبط بما يحققه من أرباح . ولكن نظرتهم الى الأرباح ليست قاصرة على الأرباح فى ذاتها وبصرف النظر عما يترتب عليها ، وانما اهتمامهم بالدرجة الأولى الى استمرار المشروع وتقدمه الفني واتساعه باستمرار . ولذلك فليس غريبا أن نجد أن نمو المشروع (١) بل والنمو بصفة عامة هو

1. cf. H. Denis et M· Lavigne, **Le Probleme des Prixen Union Sovietique**, edition Cujas, Paris, 1965.

2. cf. E. T. Penrose, **The Theory of the Growth of the Firm**, Oxford, Blackwell, New York : Wiley 1960.

الهدف الذى يشغل بال المشروعات الاقتصادية ،وبصرف النظر عن النظام السياسي والاجتماعي. ففي الدول الاشتراكية كما فى الدول الرأسمالية يعتبر النمو غاية ينبغي العمل على توفيرها . وهذا ما يجعلنا نتعرض لظاهرة تزايد الانتـاج المستمر وبكل الطرق . وهو ما أشار اليـه جالبرت بأنه مجتمع الوفرة فى كتابه The Affluent Society والذى أطلق عليه أيضا « مجتمع الاستهلاك » (٢) ، وخاصة بعد ثورات الطلبة فى فرنسا وفى ألمانيا وفى الولايات المتحدة الأمريكية .

مجتمع الاستهلاك :

الغاية النهائية من النشاط الانتاجي فى كل مجتمع هو الاستهـلاك ، ولا يختلف المجتمـع الحديث فى ذلك عن اى مجتمع سابق الا فى الأهمية الزائدة التى بدأت تحتلها ضرورة العمل على زيادة الاسـتهلاك ، والقدرة الهائلة التى توفرت لهذا المجتمع للعمل على تحقيق هذه الزيادة باستمرار وبمعدلات متزايدة دائما . وقد سبق أن أشرنا الى أن التقدم الفني الهائل المتاح الآن لاستخدامه في اساليب الانتاج قد وفـر القدرة المستمرة على زيادة الانتاج والانتاجية مما زاد من فرص الاستهلاك . كذلك سبق أن أشرنا الى أن سيطرة الفنيين على قرارات الانتاج قد ساعدت على النظر الى النمو أى زيادة الانتاج فى ذاتها وما يرتبط بها من ضرورة زيادة التصريف باعتبارها من الاهداف الرئيسـية التى يتوخاها مصدرو هذه القرارات . وقد نجم عن ذلك أن الاستهلاك فى المجتمع الحديث قد زاد بشكل لم يكن معروفا فيما سبق ، كما نجمت عنه مجموعة مـن القيم والقواعد اتي تنظم حياة المجتمع فى ضوء زيادة الاسـتهلاك . اذ اعتبرت زيادة الاسـتهلاك ذاتها قيمة اجتماعية كبرى ومحورا لكثير من أجزاء النشاط الاقتصادى . فزيادة الاستهلاك فى ذاتها وبصرف النظر عن الحاجات التى يشبعها هذا الاستهلاك المتزايد قد أصبحت من قواعـد الانتاج فى العصر الحديث فالاستهلاك لا يتزايد لاشباع حاجات قائمة ، بقدر ما تخلـق حاجات جديدة للتمكين من زيادة الاستهلاك وقد كان لهذه الظاهرة آثار بعيدة على الاقتصاد كما أنها نتائج خطيرة على السلوك الاجتماعي بدأت تظهر فى الفترة الأخيرة .

الواقع أن مظاهر مجتمع الاستهلاك لا زالت حديثة . كما أنها لا زالت بعيدة عن أن تكون عامة سواء من حيث الدول أو حتى بالنسبة للدولة الواحدة . فبالنسبة للدول الصناعية لا يمكن الحديث باطمئنان عن وجود مجتمع الاستهلاك بالصورة التى تتحدث عنها الا فى شكل اتجاه عام ، ولا تكاد توجد دولة تتركز فيها خصائص هذا المجتمع الا فى الولايات المتحدة الامريكية . وحتى بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية فهذا المجتمع لا زال بعيدا عن أن يكون شاملا . ذلك أن التقدم المتحقق فى العالم حتى الآن قد أخذ صورة النمو غير المتوازن Unbalanced Growth بمعنى أن هناك دائما قطاعات أسبق من غيرها فى استيعاب التقدم وفى تحقيق النمو ، كما أن هناك مناطق جغرافية أقدر على تحقيق التقدم من غيرها . وهذا النمو غير المتوازن نجده على مستوى العالم فى مجموعه ــ مما أدى الى وجود الدول النامية والمتخلفة ــ كما نجده على مستوى الدولة الواحدة ــ مما أدى الى وجود الأماكن والقطاعات المتخلفة . و على ذلك فعند حديثنا عن خصائص مجتمـع الاستهلاك لا ينبغي أن يفهم من ذلك أن هذا المجتمع قد تحقق بالفعل وانما هو مجرد اتجاه عام بدأت تظهر خطوطه الرئيسية ، ولكن جزر الفقر موجودة دائما وهي تثير الكثير من المشاكل على ما سنرى .

واذا كانت خصائص مجتمع الاستهلاك لا زالت حديثة فان بوادرها قد ظهرت على النظرية

---

(٢) انظر لنا ، مجتمع الاستهلاك ، سابق الاشارة اليه .

الاقتصادية منذ فترة ، وهذا هو فى الواقع مغزى التطور الذى لحقها منذ التقليديون وكينز . وبدون التعرض الى جوانب كيفية توزيع الدخل التى تثير فى الواقع خلافات مذهبية ، فان جوهر النظرية التقليدية فى الاقتصاد والتى ورثناها منذ آدم سميث وريكادو ، هو أن الطلب الكلي فى الواقع يستوعب دائما العرض الكلي . فكل ما ينتج من السلع نجد له طلبا فى السوق ، واذا كان من الممكن حدوث بعض الاختلالات الجزئية فى الاقتصاد كأن يكون عرض سلعة معينة أكبر أو أقل من الطلب عليها فان ذلك لا يمكن الا ان يكون حالة استثنائية جزئية لا بد أن تعادلها اختلالات جزئية أخرى . والمهم فى كل ذلك هو أن مجموع الطلب الكلي فى الاقتصاد لا يمكن أن يقل عن مجموع العرض أو الانتاج الكلي . ولذلك فان الاقتصاد بطبيعته يتوازن عند مستوى التشغيل الشامل . وتفسير ذلك ان الاقتصاد بعيد عن اشباع جميع الحاجات ، ولذلك فان الحاجة موجودة باستمرار لزيادة الانتاج وفرص الربح من الاستثمارات الجديدة مكفولة بالنظر الى أن هناك دائما قدرة على زيادة الانتاج وزيادة الاستهلاك . فرص الاستثمارات تكون عادة كبيرة ، ولكن نظرا لأن الاقتصاد فقير فانه لا يمكن القيام بكل هذه الاستثمارات . ويتم القيام فقط بالاستثمارات فى الحدود التى يمكن فيها ضغط الاستهلاك . وعلى ذلك فكل جزء يمكن ادخاره من الناتج القومي سيطلب بالضرورة للاستثمار لان فرص الاستثمار كبيرة لوجود فرص الربح من الانتاج فى المستقبل واشباع الحاجات الناقصة . وعلى ذلك فان التقليديين وجهوا أنظارهم الى الادخار ، فهذا هو القرار الهام ، وهو الذى سيحدد مقدار الاستثمار . فكل ما يدخر سيستثمر حتما لأن الطلب على الاستثمار كبير جدا . ولذلك لم تقم صعوبة عند التقليديين لتقرير ضرورة تحقيق التوازن فى الاقتصاد ، العرض الكلي يتساوى دائما مع الطلب الكلي . فالعرض الكلي يتكون من عرض سلع الاستهلاك وعرض الادخار ، والطلب الكلي يتكون من الطلب على الاستهلاك والطلب على الاستثمار . ونظرا لأن الطلب على الاستثمار يكون كبيرا جدا بالنسبة لعرض الادخار فانه لا يمكن أن تقوم حالة يزيد فيها العرض الكلي عن الطلب الكلي .

واذا انتقلنا الى تحليل كينز Keynes (١) نجد أن التجديد الذى اتى به هو انه أوضح أن الطلب على الاستثمار قد لا يكون من الكبر بحيث يستوعب كل المدخرات . ولذلك فليس من المقبول الاهتمام فقط بالادخار باعتبار أن الاستثمار سيتحقق دائما ، بل لعل العكس هو الصحيح ، فنظرا لنقص فرص الربح فان الطلب على الاستثمار قد يكون محدودا ، ومن ثم وجب أن يتعدل الادخار وفقا لهذا الطلب المحدود . ورأى كينز أن تعديلات الادخار وفقا للطلب على الاستثمار تتم بتغيرات مستوى الدخل القومي والعمالة ، مما قد يجعل وجود بطالة امرا متفقا مع التوازن الاقتصادى . وهذا هو فى الواقع جوهر الثورة التى أحدثها كينز فى النظرية الاقتصادية فى **كتابه** الشهير « النظرية العامة » . ومن الواضح أن امكان نقص الاستثمار عن المدخرات انما يرجع الى نقص فرص الربح من الاستثمارات الجديدة . وهذا يشير فى الواقع الى أن زيادة الاستهلاك فى المستقبل لم تعد متوافرة كما كان الأمر قبل ذلك بقرن من الزمان . وهذا تغيير هام وهو مقدمة لبيان أن الاستهلاك قد بدأ يفرض نوعا من المشاكل ، فنحن لسنا فى مرحلة الفقر الشديد وحيث كل زيادة فى الاستهلاك ستصرف حتما ، ولكننا بدنا ندخل مرحلة امكان نقص الطلب الفعلي عن توفير العمالة الشاملة ، ولذلك فان السياسة التي نصح بها كثيرة هي ضرورة العمل على زيادة الطلب . على انه لا ينبغى أن تعطى نظرية كينز أكثر من دلالتها الحقيقية . فليس معنى ذلك أن العالم قد عرف مجتمع الاستهلاك في الثلاثينات . ولكن ما نود أن نشير اليه هو أنه بدأت تظهر مشاكل

---

1. cf. N. Kaldar, **A Model of Economic Growth,** Economic Journal December, 1957, Reprinted in **Essays on Economic Stability and Growth,** London, 1960, P. 295.

الطلب الكلي ولم تعد أمرا تلقائيا كما كانت عند بداية الثورة الصناعية وفي ظل مستويات الاستهلاك المخفضة . ومما ساعد على ظهور أزمة الطلب الكلي فى الثلاثينيات سوء توزيع الدخول . فأصحاب الدخول المنخفضة لم يكن من الممكن زيادة استهلاكهم نظرا لانخفاض دخولهم ، وأصحاب الدخول المرتفعة لم يكن من السهل زيادة استهلاكهم نظرا لانخفاض مرونة الاستهلاك لديهم . وفى هذا الجانب يتفق تحليل كينز مع تحليل ماركس للأزمات الاقتصادية فى ظل النظام الرأسمالي .

واذا كانت نظرية كينز قد مهدت السبيل نحو ضرورة الاخذ بسياسات التدخل لزيادة الطلب الفعلي فان آثارها لم تظهر بشكل واضح الا فى السنوات الاخيرة فى المجتمعات المتقدمة جدا ، وفى هذه المجتمعات يبدو فى كثير من الأحوال أن النظام الاقتصادى منها يسير على عكس مقتضيات الرشادة الاقتصادية . وحقيقة الأمر أن اختلاف الظروف يستدعي اختلافا فى النظرية السائدة وفى قواعد السلوك . وهذا ما دعا جالبرت الى القول بأن « مجتمع الوفرة » (١) يختلف بالضرورة عن « مجتمع الندرة » الذى ظهرت فيه تعاليم النظرية الاقتصادية على أيدى آدم سميث وخصوصا ريكاردو . والأمثلة على هذا الاختلاف كثيرة . ان المتأمل فى الاقتصاديات المتقدمة وبوجه خاص فى الاقتصاد الامريكي يجد غرابة فى الدور الذى يحتله الاعلام من هذا الاقتصاد . فالنفقات التى تنفق على الدعاية بصورها المتعددة والتطور الذى نجم عن ذلك فى وسائل الاعلام المختلفة يقتطع جزءا هاما ومتزايدا من الناتج القومي . وليس من السهل الاقتناع بأن هذه النفقات يقصد بها فقط اعلام لجمهور المستهلكين بوجود السلعة ومزاياها ومن ثم تحقق خدمة اقتصادية ، اذ الواقع أن كثرة هذه الدعايات وتكرارها والاصرار عليها لا يمكن أن يكون الفرض الوحيد منه هو الاعلام ، ولذلك فقد ذهب عدد من الاقتصاديين الى القول بأن نفقات الدعاية والاعلام في جزء كبير منها تعتبر ضياعا Waste على الاقتصاد لا تتحقق من ورائه أية منفعة اقتصادية ، وأن هذه الموارد كان من الاجدر توجيهها نحو استخدامات أكثر فائدة . وهذا النظر أمره معقول ومقبول فى « اقتصاد الندرة » الذى تعودنا عليه . ففى ظل هذا الاقتصاد حيث يحكمنا أساسا قانون الندرة ، يترتب على مجاوزة الاعلام للحدود المعقولة فى توفير العلم للمستهلكين اقتطاع جزء من الموارد واستخدامها فيما لا يعود بفائدة مباشرة على المستهلكين . ولكن الامر يكون مختلفا عن ذلك فيما نسميه « باقتصاديات الوفرة . فقد سبق أن أشرنا الى أن الانتاج فى هذه الدول قد زاد زيادة كبيرة مما أدى الى اشباع الحاجات الاساسية للافراد ، أو كاد . ومع ذلك فان استمرار زيادة الانتاج تتطلب فى الواقع زيادة الاستهلاك وهو أمر لم يعد من السهل تحقيقه نظرا لأن الحاجات الاساسية قد تم اشباعها . ولذلك فان جزء هاما من الموارد الاقتصادية انما يتجه نحو تنمية عادات الاستهلاك وخلق عادات جديدة للاستهلاك حتى يستمر الانتاج فى التوسع المستمر . فالحاجات التى تشبع الآن لم تعد قاصرة على الحاجات البيولوجية الاولية ، وانما هي حاجات نفسية واجتماعية وثقافية تخلقها البيئة التى يعيش فيها الفرد . ومن ثم فان نفقات الدعاية والاعلام لم تعد مجرد وسيلة لتوفير العلم لدى المستهلكين بوجود السلعة وبخصائصها ، وانما اعتبرت بشكل خاص وسيلة للتأثير على ارادة المستهلكين وأذواقهم بخلق حاجات جديدة لديهم لم يكونوا ليشعروا بها فيما لو لم تنفق هذه المصاريف . ولذلك فانه فى ظل مجتمع الاستهلاك يصبح الاعلام جزءا عضويا من جهاز الانتاج وبدونه لا يستطيع هذا الجهاز الاستمرار فى النمو .

وقد ترتب على ما تقدم تغيير فى القيم الاجتماعية السائدة . فالاستهلاك اصبح فى ذاته قيمة اجتماعية كبرى ، ويقاس مركز الفرد الاجتماعي بقدر ما يستهلكه من السلع والخدمات ومدى قدرته على التغيير المستمر . ومن هنا نجد أن من خصائص الاذواق فى العصر الحديث

---

(١) انظر مؤلفه ، The Affluent Society سابق الاشارة اليه

التغيير المستمر ، « المودة » دائما في تغيير حتى يشعر الفرد بحاجته المستمرة الى التغيير فى استهلاكه مما يؤدى الى الاستهلاك المستمر . ونستطيع أن نعطي مثالا لذلك . فالمجتمع الأمريكي كان ولا يزال متقدما على المجتمعات الاوروبية فى كثير من خصائص مجتمع الاستهلاك . وقد كانت السيارات من سلع الاستهلاك الجارى فى الولايات المتحدة الامريكية التى تعتمد عليها عدة صناعات أساسية . ولذلك فقد كان من الواجب ادخال عادة تغيير السيارة كل فترة . ولذلك نجد ان أشكال السيارات الامريكية تتغير دائما كل فترة حتى يضطر الفرد الى اقتناء سيارة جديدة. ولم يكن الامر كذلك فى أوروبا حيث ان صناعة السيارات لم تكن بهذه القدرة ولذلك فان السيارة فى أوروبا كانت سلعة معمرة تقتنى لكي تعيش سنوات عديدة قبل استبدالها لتلف فيها . والآن نلاحظ أن صناعة السيارات فى أوروبا قد تقدمت واصبحت السيارة من سلع الاستهلاك الجارى وكان لا بد من زيادة الاستهلاك . واذا بنا نرى السيارات الاوروبية التى أنتجت لعشرات السنوات بنفس الشكل قد بدأت تميل الى ادخال تعديلات فى شكلها الخارجي بحيث انها تسير الآن فى نفس الاتجاه الأمريكي .

ونلاحظ أن استقرار عادة الاستهلاك كقيمة جتماعية تفسر سلوك الأفراد في المجتمع الحديث هي ظاهرة جديدة . فاذا كان الاستهلاك ونوعه وتنوعه يحدد فى العصر الحديث ــ الى حد ما ــ مكانة العائلة الاجتماعية ، فان ذلك لم يكن كذلك دائما . ففي القديم كان المركز الاجتماعي يتحدد بحسب النسب ، فالانتماء الى عائلات الأشراف والنبلاء هو الذى يحدد المركز الاجتماعي للفرد وبصرف النظر عن مقدار استهلاكه وبذخه بل انه من مدعاة السخرية أم يحاول الفرد أن يجارى النبلاء فى حياتهم وأن يحاول أن يستمد مركزه الاجتماعي من زيادة انفاقه الاستهلاكي ، ومن هنا نستطيع أن نفهم الكوميديا الساخرة « لموليير Le Bourgeois Gentilhomme » عن ذلك التاجر الذى حاول أن يتشبه بالنبلاء لمجرد زيادة انفاقه الاستهلاكي .

كذلك نجد أنه مما ساعد على قيام الرأسمالية الناشئة سيادة الافكار البيوريتانية Puritan التى صاحبت الاصلاح الديني فى أوروبا ، والتى كانت تدعو الى الحرص والاعتدال فى الحياة مع ما يترتب على ذلك من تضييق الاستهلاك وتقدير عادة الادخار . وقد كان عدد كبير من المهاجرين الى أمريكا من هذه الطوائف الدينية . ونحن نعرف أنه فى المراحل الأولى تكون الحاجة الى الادخار كبيرة لمواجهة حاجات الاستثمار المتزايدة . ولم يدخل الاستهلاك فى مجال القيم الاجتماعية الا متأخرا . ولعله من الطريف أن أول من أشار الى أهمية هذا « الاستهلاك التفاخرى » : Conspicuous consumption هو الاقتصادى الأمريكي فبلن Veblen فى كتابه The Leisure Class وهو بذلك يشير الى أن بذور هذا المجتمع الجديد قد ظهرت أيضا فى الولايات المتحدة الامريكية منذ نهاية القرن الماضي . ولم ينظر الى أثر الاستهلاك كقيمة اجتماعية في النظرية الاقتصادية الا مؤخرا عندما كتب دونزنبرى (١) عن « أثر التقليد » Demonstration effect ، وبين أن استهلاك الفرد لا يتوقف على ذوقه وما يريده هو بقدر ما يتأثر بما يستهلكه الآخرون . وبذلك ادخل فكرة التداخل بين أذواق المستهلكين فى تحديد ذوق المستهلك Interaction of utilities . ومعنى ذلك أن الاستهلاك أصبح قيمة اجتماعية. فالفرد لا يستهلك ما يريده فحسب ، وانما يستهلك ما يجد جيرانه وزملاءه يستهلكونه . ومن هنا نفهم الدور الذى يقوم به الاعلان فى العصر الحديث .

---

1. cf. J. Duesnberry, **Income, Saving and the Theory of Consumer Behaviour**, Cambridge, Mass. 1949.

واذا كان الاستهلاك يزيد باستمرار ويتنوع ، فان مقتضيات الانتاج بأقل نفقة تستدعى في نفس الوقت ايجاد نوع من النمطية في الاستهلاك Standardization فقد سبق أن أشرنا الى المزايا العديدة التى يحققها الانتاج الكبير ، ولذلك فان المشروعات فى سعيها نحو زيادة الانتاج وما يستتبعه من زيادة فى الاستهلاك انما تحاول أن يتم ذلك بشكل نمطي بقدر الامكان حتى تنخفض نفقة الانتاج . ولذلك فان أهم ما نلاحظه في الوقت الحاضر هو اتجاه الاستهلاك الى الطبقات الوسطى وليس الى الطبقات العليا . ففي الماضي كان الحديث عن الأذواق والمودة قاصرا على طبقة محددة من ذوى الدخل المرتفع ، أما الآن فان المنتجات الحديثة تتجه عادة الى المستهلك العادى والذى يكون الغالبية الكبرى من المستهلكين ، وهؤلاء يشترون عادة ما يقدم لهم دون نظرة نقدية . فهم بطبيعتهم من مقدرى الاستهلاك النمطي . ولذلك فان الاستهلاك الترفي في العصر الحديث ليس قاصرا على الطبقات العليا وانما هو من أهم خصائص الطبقة الوسطى وما دونها . بل لعل الطبقات العليا قد بدأت تميل نحو التعفف عن هذا الاستهلاك النمطي .

واذا كان مجتمع الاستهلاك قد ادى الى الزيادة المستمرة في استهلاك الطبقات المحرومة نوعا، الا انه لم يخل من انتقادات عنيفة مردها الى نظرته المادية الى الاستهلاك وعدم وجود مثل خلقية وثقافية الغرض منها تنمية الفرد وقدراته . فهذا المجتمع يخلق من الفرد اداة للاستهلاك دون أن يجعل منه انسانا حقيقيا . وهذه الانتقادات وغيرها سوف نتعرض لها فيما بعد ولكننا نشير الآن الى أمر هام ، وهو هل يترك هذا النظام الاقتصادى لقوى السوق وحدها أم لا بد من اخضاعه لخطة . وبعبارة أخرى هل التنظيم الرأسمالي أو الاشتراكي هو الاقدر على مواجهة حاجات هذا المجتمع ؟ أم أن الحقيقة أن السوق والخطة ليسا متعارضين كما يبدو للوهلة الاولى ، وأن الحاجة هي اليهما معا ؟ وهذا ما سيساعد على فهم مدى الاختلاف بين النظم الحديثة .

السوق والخطة

أشرنا فيما تقدم الى أهم خصائص « المجتمع الصناعي الجديد » وما أدى اليه من تقارب بين النظم الاقتصادية المتقدمة والتي ظهرت فيها هذه الخصائص بشكل واضح . كما تعرضنا الى التطور الذى لحق الاشخاص الذين يتخذون القرارات الاقتصادية ، ووجدنا أن هناك اتجاها متزايدا نحو تركيز سلطة اتخاذ القرارات الاقتصادية فى أيدى المديرين والفنيين ، وأشرنا الى ما ترتب على ذلك من انفصال بين الملكية القانونية وبين الادارة الاقتصادية . ومن شأن ما تقدم تأكيد الانطباع بأن تقاربا يتم الآن بين الدول الصناعية المتقدمة الرأسمالية ، والدول الصناعية المتقدمة الاشتراكية . على أن هذا الانطباع لا ينبغي أن يخرج عن كونه اتجاها عاما وليس حقيقة قائمة فى جميع الدول الصناعية بنفس الدرجة . فلا زالت الملكية الخاصة تلعب دورا هاما فى القرارات الاقتصادية فى الدول الرأسمالية ، كما أن سلطة الحزب السياسي (الشيوعي) باعتباره طليعة القوى العاملة لا زالت كبيرة جدا فى الدول الاشتراكية . وبالرغم من هذه الفروق فان الاتجاه العام السابق الاشارة اليه حقيقة لا يمكن انكارها .

ونود الآن أن نتساءل ، الا تختلف الادارة الاقتصادية باختلاف النظام الاقتصادى ؟ الا تتغير طبيعة هذه الادارة بحسب ما اذا كان نظام السوق أو نظام التخطيط هو السائد ؟ الواقع أن هذا هو التساؤل الأساسي الآن ، الى أى حد يتعارض نظام السوق مع نظام التخطيط والى أى حد يتكاملان ؟

الفكرة السائدة هي أن النظام الرأسمالي يقوم على أساس السوق ، فى حين أن النظام الاشتراكي يقوم على أساس التخطيط . هذا ما نود أن نتعرض له الآن لنرى كيف أدى التطور الحالي للمجتمع الصناعي الحديث الى التكامل بين النظامين .

قد يبدو من وجهة نظرية بحتة أن النظامين متعارضان تماما ، فنظام السوق هو الأخذ بنظام اللامركزية الاقتصادية Economic decentralisation فى حين أن نظام التخطيط هو تطبيق لفكرة المركزية الاقتصادية Economic Centralisation

يقوم نظام السوق من الناحية النظرية ، على ما يعرف بسيادة المستهلك : Consumer sovereignity فالمستهلكون يقومون بتوزيع دخولهم من العمل والملكية أو من أيهما على السلع والخدمات المختلفة بحسب أذواقهم وبما يحقق لكل منهم أكبر اشباع ممكن وفقا لسلم ترتيب أفضلياته . ويعتبر كل مستهلك مستقلا فى قراره بتوزيع دخله على السلع والخدمات دون أن يقوم أى تنسيق مسبق(1) بين قراره وقرار غيره من المستهلكين . ولا نقصد بذلك أن المستهلك الفرد لا يتأثر باستهلاك الآخرين فقد سبق أن تعرضنا الى أهمية «أثر التقليد» ولكن ما نقصده هو أن المستهلك فى قراره لا يعني بقرارات غيره من حيث أثرها على التوازن العام . فكل ما يريده هو أن يحقق أقصى اشباع ممكن له حسب ذوقه من دخله المحدود . ولا يستطيع اى مستهلك بفعله المنفرد أن يؤثر فى الأثمان المعروضة ، فى محيط من المستهلكين وسواء زاد الكمية التي يشتريها أم نقص منها فان أثره على الطلب الكلي لا قيمة له . ولكن التأثير فى ثمن السلعة يحدث نتيجة لمجموع أفعال المستهلكين كما تظهر فى الطلب الكلي .

وكذلك فان الانتاج يتم فى ظل نظام السوق من جانب المنتجين الذين يواجهون بأثمان معينة لعناصر الانتاج وأثمان السلع ، ولا يستطيع أيهم أن يغير بفعله المنفرد من هذه الأثمان وانما عليه فقط أن يقوم بالتأليف بين عناصر الانتاج بما يسمح له بتخفيض النفقات الى أقل قدر وينتج الكمية التى تحقق له أقصى ربح . والأصل هنا فى نظام السوق (وهو ما يطلق عليه سوق المنافسة الكاملة) أن كل منتج ذرة فى هذه السوق ، ولا يقوم أى تنسيق مسبق بينه وبين غيره من المنتجين . ويحدث التأثير فى الكمية المعروضة نتيجة لمجموع أفعال المنتجين كما تظهر فى العرض الكلى . ويتم التوازن عندما يتساوى الطلب الكلى مع العرض الكلى لكل سلعة ، مع ما يترتب على ذلك من تغيرات فى الأثمان . وعلى ذلك نجد أن التوازن يتحقق فى الاقتصاد بالفعل Ex Post (2) نتيجة لتغيرات الأثمان التى تحقق المساواة بين العرض والطلب . والذى يهمنا من الصورة النظرية المتقدمة هو أن القرارات الاقتصادية تصدر من عدد كبير من الوحدات الاقتصادية التى تسعى لتحقيق مصلحة لها ، ودون أن يقوم تنسيق مسبق بينها ، كما أنه ليس لقرار أى من هذه الوحدات منفردا أى تأثير على الأثمان Price taker ومن ثم على الكميات المطلوبة أو المعروضة وانما يتم التأثير نتيجة لمجموع قرارات المستهلكين والمنتجين . ولذلك فهذا النظام يتميز بعدم وجود سلطة عليا تفرض تحقيق التوازن بين الطلب والعرض ، وانما يتحقق هذا التوازن نتيجة لهذه القرارات التى تصدر من الوحدات الأولية التى لا تملك الا التأثير فى طلبها وعرضها ، ولذلك نقول بأن نظام السوق يعتبر مظهرا من مظاهر اللامركزية فى الادارة الاقتصادية حيث تباشر الوحدات نشاطها مدفوعة بمصلحتها الخاصة ، وهذا ما كان وراء فكرة آدم سميث عن اليد الخفية التى تحقق الانسجام بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة ، ذلك أنه يترتب على التوازن

---

(1) انظر فى تفصيل ذلك مؤلفنا ، دروس فى النظرية النقدية ، المكتب المصرى الحديث ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٢ — ٤٥ ، وانظر ايضا ، احمد جامع ، الاقتصاد الاشتراكي ، سابق الاشارة اليه ص ٥١٧ — ٥٤٥ .

(2) تستخدم الاصطلاحات ex post,ex ante فى الاقتصاد للتعبير عن « السابق » « واللاحق » جريا وراء استخدام السويديين وبصفة خاصة ميردال لهذم الاصطلاحات اللاتينية للتعبير عن الحساب السابق والحساب اللاحق . انظر له :
G. Myrdal, L'Equilibre Monetaire, (trad) edition Genin, Paris, 1950.

استخدام الموارد المتاحة فى الاقتصاد وانتاج السلع التى يريدها المستهلك وهو المقصود بأن هذا النظام يخضع لسيادة المستهلك .

وقد يمكن أن ننقد هذه النظرة الى سيادة المستهلك بأن ما يظهر في السوق ليس رغبات المستهلك في ذاته ، ولكن المستهلك المزود بقوة شرائية ، بمعنى ان الأصوات Votes التي يعبر بها عن رغبات المستهلكين انما هي أصوات موزونة أو مرجحة Weighted بحسب دخل كل منهم . فصاحب الدخل الكبير سيكون له اثر أكبر على الأثمان من صاحب الدخل الصغير . وهذا هو النقد الاساسي الموجه الى النظام الرأسمالي ، وواضح أن النقد لا يتعلق بالاعتماد على نظام السوق وانما على كيفية توزيع الدخول . فهذه الدخول موزعة بحسب العمل والملكية ، ومن الممكن ان تناقش في مدى مشروعية دخل الملكية . ولكن هذه مسألة اخرى ، وهي على اى الاحوال الأساس الذى تستند اليه معظم النظم المعارضة للنظام الراسمالى .

ويكاد يعتبر نظام التخطيط عكس نظام السوق مفهوما على النحو المتقدم . فالتخطيط يعتمد على مركزية القرارات الاقتصادية سواء من حيث تحديد السلع والخدمات الواجب اشباعها أو من حيث اتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الاشباع ، وبذلك تحل قرارات سلطة مركزية محل قرارات وحدات المستهلكين والمنتجين اللامركزية . فالمشكلة الاقتصادية واحدة في جميع المجتمعات ولكن الاختلاف يقتصر على وسائل حل هذه المشكلة . هناك دائما موارد محدودة ، صالحة لاستخدامات متنوعة وفقا للفن الانتاجي المتاح ، وحاجات عديدة ، وتكمن المشكلة في اختيار الحاجات الأولى بالاشباع وفي اختيار انسب الطرق لانتاج السلع والخدمات التي تشبع هذه الحاجات . ويعتمد نظام السوق على قرارات وحدات لا مركزية لتحقيق هذا الاختيار ، المستهلك بالنسبة للحاجات والمنتج بالنسبة لطرق الانتاج . أما فى ظل نظام التخطيط فان هذا الاختيار يتم على مستوى مركزى حث تتولى سلطة عليا (ايا كان اسمها لجنة التخطيط المركزية أو أية سلطة سياسة شعبية) تحديد الحاجات واجبة الاشباع والسلع والخدمات اللازمة لذلك ، وتفرض هذه الحاجات والسلع على المستهلكين وعلى المنتجين ، فأولئك لا يجدون سوى هذه السلع والخدمات ، وهؤلاء عليهم انتاج هذه السلع والخدمات . ولذلك يقال بأن نظام التخطيط هو نظام كمي بالمقابلة الى نظام السوق الذى هو نظام « قيمي » . والسبب فى ذلك هو أن التخطيط ينحصر في نهاية الأمر في تحديد الكميات التي تنتج كل سلعة وخدمة وتفرض هذه الكميات على المستهلكين والمنتجين على السواء . ولذلك فان مدى توفيق هيئات التخطيط المركزية ينحصر في القيام باختيار الاهداف المناسبة التى ينبغي تحقيقها ، ومن ثم السلع والخدمات الواجب انتاجها ، وكذلك في تحقيق الانسجام والتناسق بين هذه الأهداف المختلفة وبينها وبين الوسائل المتاحة للانتاج من موارد وفن انتاجي . وتقوم الفكرة الأساسية في ذلك على أنه في كثير من الأحوال لا يمكن الارتكان الى رغبات الأفراد التي ينقصها العلم ويغلب عليها قصر النظر ، ومن ثم فانه يمكن أن تكون أهداف الخطة أكثر اتفاقا مع مصلحة الأفراد والمصلحة العامة مما لو تركت الأمور للأفراد وحدهم وتركهم تحت تأثير الجهل والدعايات . وليس معنى قيام سلطة مركزية بتحديد أهداف الانتاج أنها لا تراعي رغبات هؤلاء وتفرض عليهم سلعا وخدمات لا يريدونها أصلا .

فرغبات الافراد تدخل ولا شك فى اعتبار سلطات التخطيط المركزية ولكنها لا تعتبر المبرر الوحيد للانتاج كما في ظل نظام السوق ، بل تدخل هناك اعتبارات أخرى من تقرير المصلحة العامة ، مما قد يغفل عنه الأفراد . كذلك فان سلطات التخطيط المركزية لا تقتصر على وضع قائمة بالأهداف الواجب تحقيقها وانما ينبغي ان تراعي أن يتحقق التناسق بين هذه الأهداف وبعضها وبينها وبين الوسائل المتاحة لها . وبعبارة أخرى ينبغي أن تضمن الخطة التوازن في الاقتصاد ، فلا يكفي تقدير ضرورة انتاج كمية كذا من هذه السلعة دون التأكد من توافر القدرة على ذلك .

وبذلك فان الخطة تضمن تحقيق التوازن مسبقا بين الطلب والعرض وفي هذا تختلف الخطـة عن السوق فالتوازن في الخطة هو توازن ســـابق ex ante ويتحقق التوازن اللاحق Ex post وفق تقديرات الخطة اذا كانت الخطة سليمة ، ولا يتحقق التوازن اللاحق وتظهر اختلالات اذا لم يكن التخطيط سليما او طرات عوامل لم يكن من السهل توقعها .

ولا يعني القول بأن التخطيط يتضمن توزيعاكميا للموارد أن الاثمان لا تستخدم ، فالواقع انه نظرا للتنــوع الشـديد بين عناصر الانتاج المستخدمة وبين السلع والخدمات المنتجة لا بد من استخدام وسيلة واحدة للقياس ، وهي بالضرورة النقـود ، مما يؤدى الى ان تظهر الكميات الاقتصادية في شكل قيم . بالاضافة الى انه في جميع الدول الاشتراكية وفي الظروف العاديـة لا توزع الدخول بشكل عيني وانما في شكل نقدى ، والمســتهلك يوزع هذا الدخل النقدى على السلع الموجودة بالسوق . ولكن هذه الاثمان والقيم التى تظهر فى السوق ليس لها أكثر من دور محاسبي بحت بالنسبة لسلطات التخطيط ودور توزيعي بالنسبة للمستهلكين ، ولكن ليس لهذه الاثمان أى تأثـير على القرارات الاقتصادية المتعلقة بالانتاج ، على الأقل ليس بشكل مباشر . فارتفاع أثمان سلعة نتيجة لزيادة الطلب عليها وظهور سوق سوداء او اختفاؤها كلية من السوق لا يؤدى الى زيادة عرض هذه السلعة لان الانتاج مرتبط بالخطة وليس برغبات الأفراد كما تظهر في السوق . على أن ذلـك لا يمنع ســـلطات التخطيط من أن تأخذ هذه المؤثرات في الاعتبار عند وضع الخطة الجديدة أو عند تعديل الخطة القائمة .

وخلاصة القول ان التخطيط ، في الاصل ، نظام يقوم على قرارات تصدر من سلطة مركزيه وبحيث تراعي تحقيق التوازن مسبقا بين الطلب والعرض في الاقتصاد (١) .

مما تقدم قد يبدو ان نظامي السـوق والتخطيط على طرفي نقيض ، ولكن الواقـع أن تطور المجتمع الصناعي الحديث قد جعل منهما أمرين متكاملين بحيث نلحظ من ناحية مزيدا من التدخل والتخطيط في الدول الرأســمالية ، ونلحظ من ناحية أخرى مزيدا من الحريـة وترك المجال للسوق في الدول الاشتراكية .وهكذا يكاد يبدو التنظيم الحالي للمجتمع الصناعي الحديث كمزيج من القرارات المركزية والقرارات اللامركزية وان كان ذلـك بدرجات متفاوتة بين الدول المختلفة .

سبق أن شرنا الى أن النظام الرأسمالي قد تطور تحت ضغط حاجات المجتمع الجديد وأن المنافسة الكاملة لم تعد سوى حالة استثنائية من حالات السوق . فالأصل هو المشروعات الصناعية الكبرى والتي تؤثر بقرارها المنفرد في الأثمان ، ومن ثم في الكميات المعروضـــة والمطلوبـة . ومن الواضح أن قرارات هذه المشروعات الكبرى لا يمكن اعتبارها مظهرا من مظاهر اللامركزية وانما على العكس هي صورة للمركزية التي تباشرها هذه المؤسسات الصناعية الكبرى . ومن هنا نفهم المقصود عادة من القول بوجود مراكز قوى خفية فى الدول الرأسمالية . كذلك سبق أن اشرنا الى أن التطور الذى لحق النظام الرأسمالي نتيجة لزيادة الاستهلاك قد جعل التدخل لحفظ مســتوى الطلب الفعلي أمرا ضروريا ، وهذا هو ما قامت به نظرية كينز على ما سبق أن أشرنا اليه وبالمثل فان تدخل الحكومات الغربية لم يقتصر على توفيرمعـــــدل معقـــول مـن الطلب الفعلـــي اذا

---

(١) ثار خلاف نظرى فيما مضى حول امكان الوصول الى تحقيق الكفاءة الاقتصادية فيظل النظام الاشتراكي حيث شكك فى ذلك بعض الاقتصادين ، ولكن هذه القدرة على تحقيق الكفاءة أصبحت أمرا مستقرا من الناحية النظرية وخاصة بعـد كتابات أوسكار لانجر ، راجع فى ذلك مقالنا ، النظرية الاقتصادية وكفاءة الانتاج فى ظل النظام الاشتراكي ، الاهرام الاقتصادى ، ١٥ فبراير ١٩٦٦ .

كانت ظـروف الكساد سائدة كما كان الحال فى الثلاثينيات وانما امتد تدخل الحكومات بالسياسة الاقتصادية الى غرض تحقيق النمو الاقتصادى بالاضافة الى بعض الأهداف الاجتماعية الأخرى مثل التعليم والصحة وغيرها . ولذلك فاننا نجد أن هناك اتجاها متزايدا فى الدول الراسمالية الى الاخذ بأسلوب أو بآخر من التخطيط . ونجد ذلك واضحا فى فرنسا وفى الدول الاسكندنافية وفى هولنده ، كما نجده فى انجلترا وبدرجة أقل فى الولايات المتحدة الأمريكية .

كذلك فان نظام التخطيط وان كان معادلا تماما لنظام الأثمان من حيث امكانية الوصول الى تحقيق الكفاءة الاقتصادية (١) الا أن تطور المجتمع الصناعي يجعله غير كاف لمواجهة حاجات هذا المجتمع المتقدم . ذلك أن نقطة البداية التي يعتمد عليها نظام التخطيط هي امكان توافر **العلم الكامل** لدى سلطات التخطيط المركزية بما يجعلها فى وضع أفضل من الوحدات اللامركزية عند اتخاذ القرارات ، وبذلك تستطيع تلك السلطات ان تتجنب الكثير من الضياع والفقد ، نتيجة عدم وجود تنسيق مسبق بين القرارات . وهذا العلم ينبغي أن ينصرف الى عناصر القرار الاقتصادى وهي :

١ ـ ترتيب أفضليات الحاجات فى الجماعة .
٢ ـ الموارد المتاحة للمجتمع .
٣ ـ الفن الانتاجي المتاح .

وهذه الأمور يسهل توافر العلم الكامل بها ، أو على الأقل قدر كاف من العلم بها اذا كان المجتمع فى أول مراحل التنمية (أو قامت ظروف استثنائية مثل الحروب) حيث لا تقوم خلافات كبيرة من حيث الأهداف : التنمية السريعة عن طريق التصنيع . كذلك بالنظر الى قلة الموارد وضعف الفن الانتاجي المتاح فى أول مراحل التنمية فان الاختيارات التي تعرض بالفعل تكون محدودة مما يمكن معه لسلطات التخطيط المركزية الاحاطة بها واتخاذ قراراتها على أساس معقول .

ولكن الأمر يكون غير ذلك اذا تقدمت الدولة وعرفت خصائص المجتمع الصناعي الحديث . فهنا يكاد يكون العلم التام أمرا مستحيلا ، ومن ثم فان قرارات التخطيط المركزى لا بد أن تكون قاصرة . كذلك فان محاولة توفير المعلومات لن تؤدى الا الى زيادة أجهزة جمع المعلومات وتحليلها والرقابة عليها مما يؤدى الى ازدياد النفقات وعرقلة سرعة القرارات . وقد لاحظ أحد الاقتصاديين الروس أن استمرار معدل الزيادة الحالي فى العاملين فى جمع المعلومات وتحليلها والرقابة عليها بما يرتبط بأجهزة التخطيط والمتابعة والاحصاءات والحسابات .. سيؤدى بالاتحاد السوفياتي الى استخدام أكثر من ثلثي قوته العاملة فى هذه الأجهزة قبل نهاية القرن .

ولذلك فانه من الضرورى ، ولاعتبار **عملي بحت** ، الالتجاء الى نوع من أسلوب الادارة اللامركزية فى الدول الاشتراكية المتقدمة . ولذلك فقد ظهرت فى الدول الاشتراكية المتقدمة صناعيا دعوات للاصلاح الاقتصادى وللأخذ بصور من أساليب السوق فى تحديد أذواق المستهلكين ونوع السلع والخدمات التي تنتج ، وترك المشروعات تنتج وفقا للأسلوب الذى يناسبها لتخفيض

---

(١) انظر فى التقابل التام بين نظام التخطيط الشامل ونظام الاثمان فى المنافسة الكاملة وباستخدام الاساليب الرياضية فى البرامج الخطية Linear Programming **وحيث يكون احد النظامين البرنامج الاولى** Primary Program **والثاني البرنامج المقابل** dual program

T. C. Koopmans, **Three Essays on the State of Economic Science**, New York, Mc Grow Hill, 1957, PP. 40 et seq.

نفقة الانتاج، ومن ثم ترك بعض الحرية لها فى تحديد الفن الانتاجي المناسب . وهذا فى الواقع هو المدلول الحقيقي للدعوة الى الأخذ بفكرة الربح فى المشروعات فى الدول الاشتراكية. فليس المقصود هو العودة الى نظام الملكية الخاصة للدول الراسمالية ، وانما الفرض أن يكون توجيه الانتاج ، على الأقل فى جزء منه ، وفقا للقرارات اللامركزية كما تظهر فى السوق من جانب المستهلكين والمنتجين . وبذلك يعتبر معيار الربح مظهرا لفكرة السوق اللامركزية .

وهكذا نستطيع أن نلمح تقاربا بين النظامين ، وأن السوق والخطة ليسا متعارضين كما قد يبدو للوهلة الأولى وانما هما أسلوبان متكاملان . الخطة تبين الاختيارات الأساسية للمجتمع المستقبل والسوق تقوم بالتنفيذ اليومي وتحقيق الاجراءات اليومية والتفصيلية اللازمة لتنفيذ هذه الخطة (١) . وهذه الخطة ضرورية فى كل مجتمع حديث ، فقد سبق أن أشرنا الى أن الحساب الاقتصادى هو من أهم خصائص هذا المجتمع . والخطة لا تعدو أن تكون تطبيقا لهذا المبدأ على الاقتصاد فى مجموعه . ولكن هذه الخطة ينبغي أن تكون اجمالية وقيمية وليست تفصيلية وكمية ، وأن تقتصر على السياسات العامة . وفى نفس الوقت يقوم السوق بالتنفيذ اليومي لهذه الخطة الاجمالية .

وفى جميع الأحوال وسواء عند اتخاذ القرارات الاقتصادية المركزية المتعلقة بالخطة الاجمالية أو القرارات الاقتصادية اللامركزية المتعلقة بمتابعة السوق فان المشاكل المطروحة تجعل دور الفنيين فيهما كبيرا على النحو الذى تعرضنا له فيما سبق .

عناصر القلق ـ الطلبة والمثقفون

قد يبدو مما تقدم أن المجتمع الصناعي الحديث ، وقد خلص الانسان من عبء حاجاته الضرورية وفتح آفاقا بعيدة للانتاج ومن ثم للاستهلاك قد حقق أخيرا حلم الانسان فى الحياة : حياة هادئة هادفة . ولكن الحقيقة غير ذلك تماما فان هذا المجتمع وقد تمكن من القضاء على نوع خطير من المشاكل التي صادفت الانسان ـ ربما الأصح القول وقد بدأ فى القضاء عليها ـ وهي مشاكل الندرة فى توفير الاشباع للحاجات الضرورية ، فانه نفسه قد بدأ يواجه نوعا جديدا من المشاكل ، وهذا النوع الجديد من المشاكل لم يعد تغلب عليه الصفة الاقتصادية بقدر ما يغلب عليه الطابع النفسي والثقافي . فلم يعد التساؤل الرئيسي كيف يمكن توفير الاشباع الأساسي للحاجات الضرورية لوجود الانسان وانما أصبح التساؤل عن نوعية هذا الوجود والهدف منه ، ولم يقتصر التساؤل عن مستوى المعيشة وانما جاوز ذلك الى نوع المعيشة (٢) . ولا تقتصر مشاكل هذا المجتمع الجديد على تغيير فى نوعها وفى التساؤلات المطروحة، وانما ترتب على ذلك بالضرورة تغيير فى أشخاص المتسائلين والثائرين . فحيث كانت المشاكل المطروحة بالدرجة الأولى مشاكل اقتصادية وتوفير الحاجات الضرورية للافراد ، كان من الطبيعي أن تصدر صيحات التغيير والتمرد من الفئات المهضومة اقتصاديا أو المتحدثين باسمهم مثل العمال . أما الآن وحيث تغيرت المشاكل واصبحت ذات طبيعة ثقافية ونفسية بالدرجة الأولى فان مصدر القلق والتمرد قد انتقل من نقابات العمال الى الشباب بصفة عامة والطلبة والمثقفين بصفة خاصة . وهذا ما أدى الى ظهور شعارات جديدة

---

١) انظر في هذا الموضوع مشروع الخطة الخامسة الفرنسية

Projet du Rappart sur les Principales Options du V Plan. Commissariat general du Plan d'Equipment et de Productivite, Paris, September, 1964.

(٢) لعل من أوائل من اشاروا الى اهمية التفرقة بين مستوى المعيشة Niveau de vie ونوع المعيشة genre de vie هو الكاتب الفرنسي J. Fourastie انظر كتابه : **Le Grand Espoir du XX Siecle, P.U.F. Paris,** 1958.

مثل « ثورة الشباب » « والثورة الثقافية » وغير ذلك (١) . ونود الآن أن نتعرض لهذه المظاهر بشيء من التفصيل .

سبق أن أشرنا الى ان « المجتمع الصناعي الحديث » بقدرته الفنية الهائلة يعمل على زيادة الانتاج باستمرار ومن ثم خلق عادات جديدة للاستهلاك للافراد . وهذا المجتمع فى سعيه المستمر لزيادة الانتاج والاستهلاك لا يستهدف سوى مزيد من الانتاج ومزيد من الاستهلاك . فهو جرى محموم دون ما أى هدف ظاهر . ولعل من الأمثلة التي تعبر رمزيا عن طبيعة هذا المجتمع هو ما نراه فى هذا العصر الحديث من « حب السرعة » ولذلك يسمى عصر السرعة ، فالشباب يقبل على ركوب السيارات السريعة ويقودها بسرعة جنونية ، وتتافس الشركات فى اخراج نماذج من سيارات أكثر سرعة ، الكل يريد ان يجرى بسرعة ، ويريد أن يسبق . ولكن لماذا ؟؟ أن يسبق ماذا هذه اسئلة لا اجابة عنها ، فالمهم هو مزيد من السرعة ، وهذا هو شأن مجتمع الاستهلاك ، مزيد من سلع الاستهلاك ، ولكن أى سلع ، ولماذا ؟ فهذا أمر لم يطرحه مجتمع الاستهلاك . وقد بدأ يعاني منـه .

وقد سبق أن اشرنا الى ان المجتمع الصناعي الحديث فى سعيه لمزيد من الانتاج والاستهلاك يستخدم المواد الضخمة وبامكانيات كبيرة للتأثير فى أذواق المستهلكين وتوجيههم نحو الاستهلاك أكثر وأكثر . وبذلك فان هـذا المجتمـع بامكانياته الضخمة يصل على قصر دور الفرد على مجـرد وحدة لاستهلاك ما يقدم له فى السوق ، دون أن تكون لارادة هذا الفرد أى دور يذكر . وفى اختيار السلع والخدمات التي تطرح فى السوق فان ما يراعى هو مدى قدرة الفن الانتاجي على المزيد مـن الانتاج دون أية اشارة الى أثر هذه السلع والخدمات على تنمية قدرات الفرد وامكانياته الثقافية والانسانية بما يعود عليه بنفع حقيقي . ولذلك فان مشكلة حرية الفرد هي جوهر المشاكل الجديدة لمجتمع الاستهلاك . فحرية الفرد هي فى تنمية امكانياته وقدراته الذاتية والتي تمكنه من الابداع والابتكار والمساهمة فى حياة المجموع مساهمة ذاتية يشعر فيهـا بدوره العطائي وهو متحـرر من كافة القيود ، وسواء أكانت قيودا قانونية أم قيودا اقتصادية . ولم يكن من حق الفرد دائما المساهمة فى أمور الجماعة التي ينتمي اليها ، بل كان هذا الحق قاصرا على فئة معينة من الأشراف والنبـلاء . وقـد حققـت الثـورة الديمقـراطيـة حـق الفـرد ، كـل فـرد ، فـي المسـاهمـة فى امـــور الجمـاعـــة التـي ينتمـي اليهـا دون أى عـائـق قـانـونـي ، كذلـك فان الحاجـة الاقتصـادية تعـوق الفرد دون الاسـهام الحقيقي فى أمور جماعتـه رغـم تقرير هذا الحق قانونا له . ولذلك فان حريـة الفرد تظل نظرية ما لم يتوافر له القدر الضروري اللازم لحفظ مستوى معيشة معقول وقدر معقول من العلم والمعرفة . ولعل الثورة الاشتراكية قد قامت لتوفير هذه الحرية الاقتصـادية لطبقـة العمال . ولكن ذلك لا يكفي اذ لا بد مـن توفير الظروف النفسية والثقافية الضرورية لابـداع الفرد . ولذلك فقد كان من الشعارات الطريفة التي رفعت أثناء ثورة الطلبة فى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ والتي كتبت على جدران السـوربون : « الثورة البرجوازية ثورة قانونيـة ، والثـورة البروليتارية ثورة اقتصادية اما ثورتنا فهي ثورة ثقافية نفسية » (٢) . وقد سبق ان اشرنا الى ان المجتمع الصناعي الحديث يؤكد على ضرورة نمطية الاستهلاك ومـن ثم تأكيـد الذوق الجمـاعي للاستهلاك دون أية مراعاة لتنمية الأذواق الفردية

---

(١) انظر فى تحليل ثورة الطلبة فى فرنسا ، كتابنا عن مجتمع الاستهلاك ، سابق الاشارة اليه .

(٢) استخدم الطلبة فى فرنسا فى أثناء ثورة مايو ١٩٦٨ طريقة جديدة فى الاعلام وهي كتابة الشعارات على جـدران الكليات والمعاهد وذلك تشبها بصحف الحائط التى ظهـرت فى الصين مع ظهور أول صحيفة ثم اعيدت فى أثناء الثورة الثقافية اخيرا . وقد جمعت هذه الشعارات فى كتيبات صغيرة تحتوى على ما كتب فى ذلك الوقت ، انظر
Les Murs ont La Parole, mai 68, editeur Tchon, France Paris, 1968

ومن ثم الابداع . وقد عبر أحد الفلاسفةالمعاصرين « ماركوز » ومن أكثرهم تفهما لمشاكل العصر ـ عبر عن الانسان المعاصر بأنه « الانسانذو البعد الواحد » وذلك فى كتابه بهذا الاسم : One dimensional Man (١)

ويرى ماركوز أن الانسان فى علاقته بالمجتمع الذىيعيش فيه : يمكن دائما أن يميز بين بعدين لهذه العلاقة : البعد الأول هو الاندماج والتلاؤم ،والبعد الثاني هو المنازعة والرفض . وفى كل المجتمعات نجد أن الفرد يحتفظ فى علاقته بالمجتمع الذىيعيش فيه بهذين البعدين : الاندماج من ناحية ، والمنازعة من ناحية أخرى . فكل حضارة تطبعأفرادها بنوع من التشابه،ولكنهم أيضا مختلفون. وهذا التشابه والاختلاف هو الذى يحفظ للفرد توازنه داخل المجتمع الذى يعيش فيه . ويرى ماركوز أن مجتمع الاستهلاك خلافا لغيره من المجتمعات السابقة يتجه نحو الغاء جانب المنازعة أكثر فأكثر ، ومن هنا نجد أنفسنا فى ظل حضارةتميل الى غلبة بعد الاندماج على حساب بعد المنازعة ، أن الانسان ذا البعد الواحد هو صورةالانسان الحديث . فمجتمع الاستهلاك عن طريق قدرته الفائقة علىزيادة انتاج سلع الاستهلاك ومنثم رفع المستوى المادى لأفراده ، يتجه فى الواقع الى الغاء جانب المنازعة لتصبح شكلية فقط . ومع ذلك فالقدرة الهائلة التي يتمتع بها المجتمع الصناعي الحديث لم تخلق مجتمعا ذا وجه أكثر انسانية بل لعل العكس هو الصحيح . ولننظر حولنا .

بالرغم من مظاهر الثراء التي تتمتع بها الدول الصناعية المتقدمة وفى مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية لا زالت هناك جزر للفقر تعيش وسطها . ويكفي النظر الى مشكلة الزنوج والأقليات فى الولايات المتحدة الأمريكية لمعرفة الىأى حد يتعايش مجتمع الوفرة مع مجتمع الندرة. والأمر ليس متعلقا فقط بسوء توزيع الثروة والدخول وانما هو أخطر من ذلك بكثير . فنحن نعرف أن النمو بطبيعته ليس متوازنا سواء من ناحية القطاعات المختلفة أو من ناحية التوزيع الجغرافي . فهناك دائما قطاعات أقدر على تحقيقمعدلات من النمو أكثر من غيرها ، ونفس الشيء بالنسبة للمناطق الجغرافية المختلفة . وتقوم السياسات الاقتصادية المختلفة بالعمل على تخفيف هذا التفاوت .

ولكن مشكلة الزنوج والأقليات فى الولايات المتحدة الأمريكية ليست مجرد مشكلة نمو غير متوازن ، فهي مشكلة حضارية ، حيث لا يتوافر لهؤلاء القدر اللازم من الرعاية الثقافيةوالاجتماعية التي تسمح لهم بالانتماء حقيقة الى المجتمع الذىيعيشون فيه ، ومن ثم يسايرون التقدم القائم فيه . فوجودهم فى هذا المجتمع انما هو وجود مادى دون أى انتماء حقيقي . ومن ثم فان هذا التقدم المادى الرهيب لم يستطع أن يوفر لهؤلاء الفرصة المناسبة لتنمية قدراتهم الذهنية وغيرها للمشاركة الحقيقيةفى المجتمع الذى يعيشون فيه.

وليس الأمر متعلقا فقط بهذه الأقليات العنصرية بل ان الفرد العادى لا يستطيع الادعاء بأنه أكثر حرية فى هذا المجتمع الحديث. فالصورة التيأخذها التقدم المادى فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلا تقتصر على المزيد من الحصول على السلع الاستهلاكية المشكوك فى منفعتها الحقيقية، فى حين أن حاجات أساسية للفرد لا زالت بعيدة عن متناوله . فالخدمات الأساسية لا زالت فى الولايات المتحدة الأمريكية خدمات غالية نسبيا بالمقارنة الى اهميتها : الخدمات الصحية والتعليم الجامعي والعالي تستنفد جزءا باهظا من ميزانية الفرد بالرغم من حيوية هذه الخدمات لتنمية قدرات الفرد ذاته . ورغم الأهمية الهائلة التي يحتلها العلم والبحث

---

(١) الفيلسوف ماركوز ونحن نشير الى الترجمة الفرنسية
H. Marcuse, **L'Homme Uni dimensionnel**, edition de miniut, Paris, 1968.

العلمي على ما سبق أن أشرنا اليه ، فان النظرة اليه تنحصر في اعتباره وسيلة لتمكين المجتمع من استخدام فنيين أكثر لمزيد من الانتاج . أما المعرفة باعتبارها حاجة انسانية ، وضرورة فردية لاثراء شخصية الفرد وتنمية ملكاته وذوقه في التمتع بالحياة وفي الاسهام فيها ـ فهو أمر غير وارد في منطق المجتمع الصناعي الحديث بالشكل الذي تحدثنا عنه . ومن هنا نستطيع ان نفهم أن التسهيلات التي تعطى في الجامعات ومراكز البحوث من منح دراسية واعانات وتمويل ، تقتصر غالبا على ما تظهر نتائجه من السوق في شكل انتاج أو ترغيب أكثر للأفراد على مزيد من الاستهلاك . وهذا ما يظهر الاختلال وعدم التناسب في ميزانيات الفروع العلمية ذات الارتباط المباشر بالسوق والفروع العلمية البعيدة نسبيا عن اقتصاد الانتاج والاستهلاك . وقد انعكس هذا الاختلال على الفرد الحديث ، فهو ماديا عنصر متقدم جدا ويستطيع أن يدير وأن يحرك قوى رهيبة وبكفاءة كبيرة ، ولكنه انسانيا واخلاقيا لازال عنصرا متخلفا ، وتحركه نفس النوازع والرغبات التي نجدها عند القبائل البدائية ، فالتقدم الذي حققه الانسان في الميدان المادي أكبر بكثير مما حققه في الميدان الأخلاقي . فلم يحدث أي تغير يذكر في وعي الفرد وفي دوافعه . وليس من الغريب أن تظهر في هذا المجتمع مشاكل خطيرة مثل الجريمة . وهي ليست جريمة لأسباب اقتصادية ، وانما هي أشبه بالجريمة في ذاتها : الجريمة المطلقة . وان ما يهز المجتمع الأمريكي حاليا هو انتشار هذا النوع من الجرائم التي تعبر عن الاختلال الحقيقي في ما بين التقدم المادي وبين تقدم الوعي الانساني وهو ما لم تضف اليه حضارة الاستهلاك شيئا يذكر .

كذلك فانه من المخجل في هذا العصر الذي بلغ فيه التقدم العلمي والفني الى هذا المدى البعيد من السيطرة على القوى الطبيعية ، ومن القدرة على زيادة الانتاج وترشيده ـ أن نرى أكثر من ثلثي العالم يعيشون في بؤس وعلى حافة الهلاك جوعا . ومن الأسباب التي ساعدت على ذلك ما تقتطعه ميزانيات التسليح . وفي الواقع فان النمو الهائل لصناعات التسليح يعبر بشكل كبير عن منطق « المجتمع الصناعي » ، فليس حقيقيا ولا مقنعا الآن أن التسليح في هذه الدول يتم لابعاد خطر الحرب وضمان السلام . وليس حقيقيا ولا مقنعا أيضا أن هذه الميزانيات الضخمة للتسليح انما تحمي مصالح الدول . ولكن صناعات التسليح من الصناعات الرائدة في التقدم التكنولوجي . والتوسع في هذه الصناعات انما هو انصياع طبيعي لمنطق المجتمع الصناعي : مزيد من الانتاج ومزيد من الاستهلاك . فأكثر الصناعات التي عرفت نموا هائلا سواء من ناحية حجم الانتاج أو من ناحية الاكتشافات والأخذ بأساليب جديدة في الانتاج كانت هي الصناعات المرتبطة بالتسليح . ويصدق ذلك على الولايات المتحدة الأمريكية كما يصدق على الاتحاد السوفياتي . ولذلك فان سباق التسلح ليس أمرا متعلقا فقط بالسياسة الدولية والتوازن الدولي بين القوى بل انه أمر داخلي في طبيعة المجتمع الصناعي ذاته ولذلك فان الكاتب الأمريكي Mills يخشى من طبقة الفنيين لسيطرة ما يسميه بالميتافيزيقا العسكرية Military metaphysics (١) على تفكيرهم بما لهذه الصناعات من تقدم تكنولوجي هائل ومن ثم جاذبية خاصة على هؤلاء الفنيين المرضى بزيادة الانتاج ، أي انتاج ! ومن الطبيعي أن يترتب على هذا السلوك مشاكل ضخمة تهز الضمير الانساني . فتظهر حرب فيتنام ويحارب الشباب الأمريكي حربا لا يعرف هدفا لها ، وتدخل قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا لحماية الحلف ، ضد من ؟

وهكذا نجد أن المجتمع الصناعي الحديث قد طرح تساؤلات عديدة وظهر وكأنه غير كاف وغير قادر على تحقيق حرية الفرد . ومن هنا ظهرت عناصر جديدة للقلق والاضطراب في هذه

1. C. Wright Mills, **The Causes of World War Three,** Simon & Schuster, 1958 PP. 37-50.

المجتمعات . وقد كان الشباب والجامعات بوجه خاص مصدر هذه الحركات الجديدة . ولذلك علينا أن نتساءل لماذا الشباب ولماذا الجامعات والمثقفون ؟

توافرت للشباب فى العصر الحديث عدة ظروف جعلته أكثر قدرة على التأثير على أمور المجتمع الذى يعيش فيه ، وسيظهر أثر ذلك بشكل أوضح فى السنوات القادمة . فالتقدم فى العلوم وفى المواصلات مكنت الشاب فى سن مبكرة من تحصيل قدر كبير جدا من المعلومات المنوعة والتى ما كان يستطيع اكتسابها فى الماضى الا فى فترات أطول من ذلك بكثير . وبالمثل فان مجتمع الرخاء قد رفع عن كاهل الشاب الاحساس بالمسئولية من ناحية الحصول على دخل فى المستقبل، فالانتاج فى توسع مستمر وظروف الكسب موجودة دائما، وبذلك أتيح للشباب فرصة أكبر للتأمل والتفكير فى المشاكل العامة وعدم الاقتصار على مشاكله الخاصة . ولعل أهم ما ساعد الشباب على بلورة دورهم فى تغيير المجتمعات التى يعيشون فيها هو فشل تجربة الكبار والناضجين فى توفير مجتمعات مقبولة . فالشباب دائما أكثر خيالا وأكثر اقداما ، ولكن تنقصه الخبرة ، والخبرة لا تكتسب الا بالسن . ولكن ماذا فعلت الخبرة والتجربة ؟؟ كما يقول توفيق الحكيم فى حوار مع ابنه عن تلاقي الاجيال عن كيفية نقد الشباب لتوقير الآباء « جاءت الحروب والكوارث والمجاعات وفتحت أبواب جهنم الارضية على صورة رهيبة ، وكان الشباب هو الحطب والوقود وأدرك أن كل ذلك وقع بتوجيه الجيل السابق . هنا بدأ يتساءل : وأين قيمة الخبرة اذن ؟ ان الشيوخ لا يستفيدون من أخطائهم عبر التاريخ » (١).

واذا كنا قد رأينا أن سمة المجتمع الجديد هو « الانسان ذو البعد الواحد » فان الشباب وبوجه خاص الطلبة يحتلون مركزا خاصا فى هذا المجتمع . فاذا كان الاتجاه الغالب فى هذا المجتمع هو نحو مزيد من الاندماج والغاء جانب المنازعة والرفض الا أن الطلبة بحكم تكوينهم الثقافي وبحكم المثالية التى تحكم سلكهم ، يكونون بعيدين بعض الشيء عن هذا الاتجاه الغالب .

ولذلك نجد الطلبة فى جميع دول العالم يمثلون فئة مستقلة تكاد تقوم للمجتمع بوظيفة الضمير والحساب ، وهو أمر أصبح مستحيلا عند الطوائف الأخرى بالنظر الى المسئوليات التى يتحملونها ، وبالنظر الى الكسب المادى المستمر الذى يحققونه فى ظل هذا المجتمع . وبعبارة أخرى فان مجتمع الطلبة لا زال يمثل عنصر الطهارة ، وربما يمكن أن نقول العذرية فى وسط مجتمع فقد عذريته واستراح الى جانب الكسب المادى والاندماج على حساب المنازعة والرفض . فالواقع أن الطلبة يوجدون خارج حلقة الانتاج بالمعنى الضيق . ومن الواضح أن هذا النوع من الحياة يحفظ لهم استقلالهم فى مواجهة المجتمع ويمكنهم أكثر من غيرهم من مناقشة المبادىء التى يقوم عليها . ولذلك نجد الطلبة أكثر من غيرهم قدرة على الاحتفاظ بمسافة معينة من مجتمع الاستهلاك مما يمكنهم من مناقشة هذا المجتمع ، فهم غرباء عنه ، ولذلك فهم أكثر الطبقات ثورية . واذا كان ماركس قد حدثنا عن ثورية طبقة البروليتاريا ، فينبغي أن نتذكر الأصل الذى جاء منه هذا الاصطلاح ، فهو يعني عند الرومان الاجانب عن المدينة والذين لا يتمتعون تبعا لذلك بحق الملكية . وقد رأى ماركس أن العمال يعتبرون فى الواقع خارجين عن المجتمع الرأسمالي لأنهم لا يتمتعون بحق الملكية . ولنا أن نتساءل اليوم عما اذا كانت هناك حاجة الى العودة الى المعنى الأصلي للبروليتاريا فهم الاجانب عن المدنية ولو تمتعوا بحق الملكية . فالطلبة فى الجامعات وهم أبناء الطبقات المستريحة هم أكثر العناصر ثورية فى المجتمعات المتقدمة ، فهم الغرباء عن هذا المجتمع .

والواقع انه مما ساعد على الدور الذى يلعبه الطلبة هو نشوء الوعي الجماعي بينهم . فقد نشأ

---

(١) مقال لتوفيق الحكيم عن تلاقي الاجيال نشر فى جريدة الاهرام فى ٦٩/١٢/١٩ . القاهرة

وعي طلابي يجمع بينهم ، ومما ساعد على دخولهم المسرح السياسي كما فعلت طبقة العمال عندما دخلت المسرح السياسي فى القرن الماضي . وقد كانت الفكرة السائدة هي أن وجود الطلبة مع بعضهم البعض وجود عرضي ، كما يوجد عدد من الركاب فى سيارة أتوبيس مثلا ، فلا يمكن أن نتحدث عن وعي جماعي بينهم ومن ثم عن عمل جماعي . ولكن الأحداث بينت وجود رابطة قوية بين الطلاب وأكدت نشوء الوعي الطلابي . وهذا ما أظهرته أحداث الطلبة فى مختلف دول العالم . ولم ينجح الطلبة فى تكوين وعي جماعي وتحقيق التضامن فيما بينهم فحسب ، وانما وصلوا أو كادوا الى ما لم تصل اليه حركة العمال بعد ، وهو « الدولية » أو « الأممية » . فالتضامن بين الطلبة حركة مثالية تستهدف خير الانسان وتجاوز الحدود الاقليمية وساعد على ذلك ما سوف نشير اليه من دور الثقافة الحالية باعتبارها ثقافة عالمية تؤكد وحدة الفكر والمشاعر . ومن ثم فان الطلبة قد جاوزوا فى كثير من الدول المشاكل الاقليمية الضيقة وظهرت حركات تضامن مع شعوب وقارات أخرى . وليست حركات التضامن مع شعب فلسطين أو فيتنام الا مظهرا من هذه الحركات . وغني عن البيان أن مصدرها الاساسي هو جمهور الطلبة . فالتضامن بين الطلبة حقيقي ، وهو يجاوز فى كثير من الاحوال الحدود السياسية : «يا طلبة العالم اتحدوا» .

ومنازعة المجتمع الجديد لا تأتي فقط من جانب الطلبة والشباب ، ولكن يساهم فيها جمهور المثقفين والجامعة بوجه خاص . واذا كنا قد رأينا أن المجتمع الجديد يقوم فى الواقع على أعناق الفنيين وتغلب عليه قيم هؤلاء ، الا أنهم من ناحية أخرى وبخاصة ذلك النوع ذو الثقافة المتنوعة والخيال الواسع هم أنفسهم الذين سيقومون بمناقشة قيم هذا المجتمع . وقد سبق أن أشرنا الى الأهمية المتزايدة التى تمثلها الجامعة ومراكز البحوث فى المجتمع الجديد . ولكن الجامعة ليست فقط مجرد مكان لتطوير وسائل جديدة للانتاج ، الجامعة لا زالت تقوم على المعرفة والعلم فى سبيل اسعاد الانسان والرقي به . ولعل الميزة الاساسية التى مكنت الجامعة من القيام بالبحث والتقدم العلمي هو تلك القدرة على النقد والمحاولة المستمرة لمجاوزة الحاضر . فليس فى العلم مسلمات : كل شيء قابل للنقاش ، وحقيقة اليوم لم تكن معروفة بالأمس بل وربما كان الاعتقاد سائدا بعكسها ، بل وحقيقة اليوم قد تصبح غدا نظرية قاصرة أو غير صحيحة . ولذلك فان أهم كسب حققه العلم والبحث العلمي هو تلك القدرة المستمرة على الرفض والنقد ، فليس هناك ما يرتفع على المناقشة . وبهذه العقلية الجدلية فان الجامعة التى ساهمت أكبر المساهمة فى تدعيم المجتمع الصناعي الجديد ستكون أحد المراكز الاساسية لمناقشة الكثير من المبادى والقيم التى نشأت عنها والتى أثرت على حرية الفرد .

كذلك فان الاختلال الواضح بين التقدم فى الميدان التكنولوجي وبين الركود أو التقدم البطيء فى ميدان القيم والوعي كان له أثره على الجامعة ومراكز البحوث . فقد أدى تزايد الاهتمام بالدراسات والبحوث ذات التطبيقات الصناعية أن ظهر مدى النقص فى الدراسات والابحاث الانسانية والكلاسيكية مثل الآداب والفنون والكثير من العلوم الانسانية . هذا النقص والقصور بدأ يثير مخاوف المثقفين والعلماء انفسهم . ومن هنا بدأت تظهر فى الجامعات اتجاهات لمقاومة هذا التركيز على الميادين «العلمية» ومحاولة ايجاد نوع من التوازن بينها وبين الميادين الفنية والكلاسيكية من أجل خلق انسان أكثر تكافؤا وتوازنا من حيث المستوى المادى والمعنوى فى نفس الوقت . وساعد على ذلك أن الكثيرين من العلماء فى الميادين ذات التطبيقات الصناعية المتقدمة بدأوا يشعرون أنفسهم بعدم جدوى هذا النوع من التقدم المادى اذا لم يكن مصحوبا بتقدم مماثل فى ميدان الوعي والفكر الانساني . ولذلك فان ظاهرة تحول العلميين الى الدراسات الانسانية ليست بالقليلة في الوقت الحالى . فكثير من علماء الطبيعة والرياضة وغيرهم نجدهم يتحولون الى الاهتمام بالدراسات الانسانية والفلسفية مثل علم الاجتماع والفلسفة وغير ذلك .

والتنظيم السياسي ؟

قد يبدو غريبا فى مقال عن « التنظيم السياسي فى المجتمع التكنولوجي الحديث » أن يتأخر الحديث عن هذا التنظيم السياسي حتى قارب البحث نهايته . ولكن هذه الغرابة تزول اذا أدركنا انه ليس من الممكن الحديث عن شكل التنظيم السياسي على نحو مفصل ، فذلك امر سيظل بالضرورة مختلفا من دولة الى أخرى . فالاتحاد السوفياتي يقترب من المجتمع التكنولوجي الحديث ونظامه السياسي يعتمد على نظام الحزب الواحد ، فى حين أن الولايات المتحدة الامريكية دخلت هذا المجتمع ونظامها السياسي يعتمد على حرية الاحزاب وشكل من اشكال الديمقراطية النيابية . وهذا النوع من الخلافات والفروق سيظل قائما لانه يتوقف على عدد هائل من الاعتبارات التاريخية والنفسية لكل شعب من الشعوب .

ولذلك فاننا اذا تحدثنا عن التنظيم السياسي فى المجتمع التكنولوجي الحديث انما سنشير الى نوع من التماثل فى المشاكل التى ستعرض والتى سيتعين على السلطة السياسية أن تواجهها فى جميع الاحيان . وكذلك سنشير الى التماثل فى الحلول التى تقدم لهذه المشاكل . اما ما عدا ذلك فان النظم السياسية للدول ستظل متفاوتة ما ظل الانقسام بينها الى دول سياسية مستقلة .

اذا كان علم السياسة هو العلم الذى يدرس « السلطة » فان المجتمع التكنولوجي الحديث من شأنه أن يحدث بعض التغييرات فى أشخاص القائمين على السلطة وفى مدى هذه السلطة ، وفى نوع المشاكل التى تتعين مواجهتها . وفي هذا فقط يتم التلاقي بين الحقائق الاقتصادية فى ظهور المجتمع الصناعي الحديث وبين الحقائق السياسية فى كيفية مباشرة السلطة . (١)

ولعل أول ملاحظة على التنظيم السياسي فى المجتمع التكنولوجي الحديث هو زيادة اهمية عنصر الفنيين فى أشخاص القائمين على مباشرة السلطة . وقد سبق أن أوضحنا دور هؤلاء بتفصيل . وأيا ما كان الشكل الخارجي للقائمين على السلطة ، حزب واحد حاكم كما فى الدول الاشتراكية أو أحزاب متعددة وحكومة نيابية ـ فان سيطرة الفنيين الحقيقية على قرارات السلطة لا بد أن تتزايد . ولذلك نجد أن أهمية المجالس الاستشارية : مثل المجالس الاقتصادية والمجالس الفنية المتخصصة ستتضح بالضرورة . وسواء وجدت هذه المجالس الى جانب المجالس النيابية فى الدول الديمقراطية أو الى جانب الحزب الواحد فى الحكومات الشيوعية . وبالمثل فان الأجهزة الفنية الموجودة الى جانب مراكز السلطة ستزيد اهميتها ودورها .

وفى كتاب حديث لروجيه جارودى :

Le Grand Tournant du Socialisme (٢) يرى هذا الكاتب الماركسي الفرنسي أن الاتحاد السوفياتي تديره مجموعة بيروقراطية عسكرية لا تختلف فى جوهرها عن المجموعة الصناعية العسكرية التى تدير الولايات المتحدة الأمريكية. وأهمية هذه الملاحظة القائمة على التشابه فى أشخاص القائمين على السلطة فى الدولة الحديثة سواء فى دولة اشتراكية أو فى دولة راسمالية ـ لا تكمن فى جدية الملاحظة ذاتها ، ولكن فى صدورها من روجيه جارودى ، وهو يعد أكبر المفكرين الشيوعيين الفرنسيين وعضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي . وهو أمر له دلالته ، حيث ان اغلب الماركسيين يرفضون فكرة التماثل بين تطور المجتمعات الحديثة الاشتراكية والمجتمعات الحديثة الراسمالية ويرون أن كل محاولة للتقريب انما تقصد صرف الجهود عن مقاومة النظام الراسمالي .

---

(١) انظر فى العلاقة بين الاقتصاد والسياسة
B. Chenot, Organisation Economique de l'Etat, Daloz, France, 1965, PP. 1-21.

(2) Roger Gataudy, **Le Grand Tournant du Socialisme,** Collection Idees, Gallimard, Paris, 1970.

كذلك فان من أهم المشاكل الأساسية التى ينبغي على المجتمع الجديد مواجهتها مشكلة الحرية . ولا نقصد بذلك مجرد الحرية السياسية القائمة على مشاركة جميع المواطنين فى اختيار حكامهم عن طريق الانتخابات والاحزاب كما فى الدول الغربية ، أو عن طريق العمل داخل الحزب الواحد كما فى الدول الاشتراكية . وان كانت الظروف قد تدعو الى قيام هذه المشاكل وخاصة فيما يتعلق بالدول الاشتراكية . وربما يكون التطور الذى حدث فى تشكوسلوفاكيا والمعروف بحركة يناير ١٩٦٨ وربيع هذه السنة الذى لم يستطع الاستمرار طويلا نظرا الى تدخل قوات حلف وارسو – ربما تكون مقدمة لتطورات مماثلة فى الاتحاد السوفياتي وفى الدول الاشتراكية الاخرى . (ولعل ما أدى الى فشل هذه الحركة هو أنها ظهرت في تشكوسلوفاكيا باعتبارها أكثر تقدما من الناحية الصناعية ، ولكنها تمثل مرحلة متقدمة بالنسبة للمعسكر الاشتراكي فى مجموعه ولذلك فقد وقفت أمامها قوى ذلك المعسكر) . ولكن ذلك لا يمنع من ظهور اتجاهات مماثلة متى بلغ المعسكر الاشتراكي فى مجموعه وبخاصة الاتحاد السوفياتي تلك الدرجة من التطور .

كذلك لا نقصد بمشكلة الحرية فى المجتمع الصناعي الجديد مجرد الحرية الاقتصادية القائمة على ضرورة توفير ضروريات الحياة الاساسية لجميع الافراد حتى لا تظل حرياتهم السياسية مجرد حقوق نظرية مجردة من كل مضمون حقيقي فالمجتمع الصناعي الحديث يتمكن فى الواقع بصفة عامة واستثناء بعض جيوب الفقر – من توفير هذه الحريات الاقتصادية .

ولكن مشكلة الحرية التى ستعرض أمام المجتمع الصناعى الجديد ستتضمن حرية الفرد من تسلط المؤسسات ووسائل التكنولوجيا الحديثة على العناصر المكونة لارادته . ومن المحتمل أن يكون حق الفرد في الاعلام – بما يتضمنه من ضرورة توفير اعلام موضوعي وأمين على قدر الامكان . والضمانات التى تكفل تحقيق ارادة الفرد خالصة من كل تأثير اعلامى موجه من أهم المشاكل التى تثيرها مناقشات الحرية .

ويرتبط بتطور مشكلة الحرية على النحو المتقدم تغيير فى طبيعة المنازعين والمعارضين للسلطة . فهؤلاء ليسوا من عناصر البرجوازية التى تطالب بالحرية السياسية والاطاحة بامتيازات الاقطاع السياسية كما حدث عندما قامت الثورة الفرنسية . كما أنهم ليسوا من عناصر الطبقة العاملة التى تطالب بالحرية الاقتصادية والغاء امتيازات البرجوازية الاقتصادية كما حاولت الثورات الاشتراكية . ولكنهم سيكونون غالبا من عناصر الشباب والمثقفين الراغبين فى توفير حرية الفرد النفسية والثقافية .

واخيرا فان التنظيم السياسي سيتأثر بالضرورة بما يؤدى اليه تطور المجتمعات الصناعية من تغيير فى مفهوم الدولة السياسي ذاته . فالاستقلال السياسي وسيادة الدولة كانا تعبيرا عن أوضاع العلاقات الاقتصادية الدولية . وقد أدى تطور المجتمع الصناعي الحديث الى تغيير فى شكل العلاقات الدولية مماثل للتغيير الذى تم داخل الدولة، والى مزيد من الترابط مع وجود مراكز أكثر فاعلية فى التأثير على الاوضاع الاقتصادية العالمية ، وقد ادى ذلك الى وجود اقتصاد عالمي وليس مجرد علاقات اقتصادية بين الدول . ومن ثم فان التنسيق والتعاون الدولي يعتبر السمة الاساسية للعلاقات بين الدول ، وما زالت فكرة السيادة تتقلص باستمرار . ومع استقرار الاقتصاد العالمي الدولي ، فان التنظيمات السياسية فى الدول المختلفة ستزداد تقاربا من ناحية ، وتحررا فى مواجهة الافراد من ناحية أخرى .

وكما ذكرنا فى مقدمة هذا المقال – ان موضوع التنظيم السياسي فى المجتمع التكنولوجي الحديث ، موضوع واسع جدا ومتشعب بدرجة يصعب معها الاحاطة به من جانب متخصص واحد . وقد لا تكون وجهة نظر اقتصادى فى هذا الموضوع عبثا كاملا !

سعد عبد الرحمن

عملية التطبيع الاجتماعي وأزمات التكامل والتعصب في مجتمعاتنا المعاصرة

تقديم :

خلق الانسان ليصبح أحسن ما فيه . وذلك لا يكون الا عن طريق التطور والنمو والوصول بالموهبة والقدرة والامكانية الى قمتها والى أقصى سعتها حتى يتحقق للانسان الوجود والاستمرار .

والانسان أثناء هذا النمو وهذا التطور انما فهم الكثير عما يحيط به من ظواهر وماديات حيث سعى ليفلسف الوجود كله بما فيه من محسوسات ومعنويات ومجردات ففهم أو كاد يفهم علل هذه الظواهر بأنواعها وانماطها .

ووقف الانسان طويلا أمام نفسه وفكر مليا قبل ان يطرق باب هذا المحتوى المجهول، ويحاول في هذا الأفق ما حاوله ناجحا في الآفاق الاخرى ، تلك التي إتصلت بما هو خارج عن النفس الانسانية . وظل كذلك الى أن وافته الشجاعة بعد حين ليدرس نفسه دراسة علمية موضوعية .

ولأن تكون اى دراسة علمية يجب أن تكون ذات منهج ومحتوى : المنهج العلمي الموضوعي الذي يؤمن بالتجريب والقياس وما يترتب على ذلك من قدرة على التنبؤ . والمحتوى الذي يمكن أن توجد علاقة منطقية قانونية بين عناصره ومكوناته ، بل انه يجب أن تخضع عناصر ومكونات هذا المحتوى لنظام متناسق متكامل يلفت نظر الدارس الى وحدته وكيانه ، اى أنه يجب أن يتميز محتوى كل دراسة عن محتوى اى دراسة اخرى ، والأساس في هذا التمايز هو الوحدة المنسجمة المتناسقة .

وكانت هذه هي مشكلة الانسان الاولى عندما أراد — أو اريد به — أن يقتحم مجاهل نفسه ويعلل لسلوكه الظاهر ويفلسف ما خفي منه .

---

* دكتور سعد عبد الرحمن مدرس علم النفس الاجتماعي بجامعة الكويت . قام باجراء بحوث وتجارب كثيرة حول حركية الزعامة بين المراهقين وعلاقة اختياراتهم الاجتماعية بخصائصهم الشخصية وعملية الادراك الاجتماعي .

من مؤلفاته : « اسس القياس النفسي الاجتماعي » .

ولقد كان ذلك التتابع فى المعرفة والبحث والتعليل ــ أى حين بدأ الانسان بالماديات خارجه ثم اتجه الى نفسه ــ هو أهم الأركان ان لم يكن هو الركن الوحيد فى بناء معرفة منطقية ذات منهج ومحتوى تختص بسلوك الانسان والنفس الانسانية .

لقد أدرك الانسان من هذا التتابع أن مشكلاته الاساسية تتعلق بمهومين سبق الاشارة اليهما هما الوجود والاستمرار .

فمن دراسته للماديات سواء فى علوم الطبيعة و البيولوجيا وصل الى مرحلة من التأكد تكاد تقترب من اليقين أنه اذا اعتبر نفسه كائنا حيا على نمط مادى محدود فسوف يكون من غير الممكن أن يوجد نفسه على هذه الصورة او ان يتحكم فى وجوده وسوف يكون من غير الممكن أيضا أن يضمن استمرار ذاته على تلك الصورة البيولوجية .

وفى نفس الوقت أدرك الانسان انه ليس من غير الممكن أن يوجد نفسه على صورة غير مادية وذلك اذا نظر الى نفسه من الجانب الآخر ، جانب المعنويات والقيم وخصائص النفس والشخصية ، وأدرك كذلك انه ليس من غير الممكن أن يضمن استمرار ذاته أو بمعنى أدق خصائصه على نفس تلك الصورة .

ولتوضيح ما سبق فانه من غير الممكن أن يوجد الانسان خلقا له من الخصائص الانثروبولوجية ما يميزه ، لأن ذلك فى قدرة الخالق جل وعلا ، كما انه ليس فى امكانه أيضا أن يضمن استمرار الكائن الحى فى حياته الى الدرجة التى يرغبها ويرتضيها ، لأن ذلك أيضا فى قدرة من يمتلك الحياة والموت .

ولكن من الناحية الاخرى حاول الانسان ــ ونجح الى حد يجب تقديره ــ فى ايجاد النفس ذات الخصائص والقيم والمعايير المحددة فأوجد الذات المتسلطة، والذات المتعصبة، والذات المنفعلة، الى غير ذلك من الخصائص المتمثلة فى كل ذات على حدة ، والتى تغلب على تكوينها . وأمكن للانسان أيضا أن يضمن استمرار هذه القيم والمعايير والخصائص ، وذلك عن طريق نقلها من جيل الى آخر ، وتلقينها للأبناء عن طريق الآباء وبذلك اطمأن الى استمرار ذاته من الناحية غير البيولوجية ، أى من ناحية المعنويات والقيم وخصائص النفس والشخصية .

وللتلخيص فان الانسان لم يتغلب على مشكلتى الوجود والاستمرار من الناحية البيولوجية ، فى حين أن أمل الانسان فى ذلك بالنسبة للنواحى المعنوية أمل أمكن أن يتحقق معظمه . فما انتقال القيم والأديان والمعايير من الأجيال السابقة الى أجيالنا هذه الا دليل على نجاحه فى ذلك .

وبذلك فانه لا بد أن تكون هناك عملية عن طريقها أمكن للانسان أن ينجح ولو جزئيا فى حل مشكلات الوجود والاستمرار من الناحية المعنوية ، وهي نفسها تلك العملية التى عن طريقها يمكن للفرد أن ينمو ويتطور وتنضج مواهبه وامكانياته وقدراته حتى يصبح أحسن ما فيه . وهى نفسها تلك العملية التى نسميها التطبيع الاجتماعى او التنشئة الاجتماعية .

والدراسة التى نحن بصددها الآن سوف تناقش عملية التطبيع الاجتماعى من نواحيها المتعددة بطريقة يغلب عليها التشريح والتحليل ، حتى نرد هذه العملية الى مكوناتها الأولية .

وكما هى الحال فى كثير المركبات فاننا نجدها ككل فى حالة من الانسجام والتناسق ولو أن

فيها بعض العناصر المتناقضة بل ان هذا التناقض فى كثير من الاحيان يكون اساسا للتناسق والانسجام .

فاذا كانت عملية التطبيع الاجتماعى قد اسهمت بما يجب أن تسهم به فى الحفاظ على تقاليد المجتمعات الانسانية وقيمها ومعاييرها مثل اسهامها فى نقل وتلقين هذه التقاليد ، فان هـذه العملية قد أسهمت أيضا بما يمكن أن تسهم به فى ازالة بل وتدمير كثير من القيم والمعايير فى مجتمعات انسانية اخرى .

وبالتالى فان عملية التشريح والتحليل سوف تعرض هذه الجوانب وتلك ، وسوف تعلل ايضا لماذا استمرت هذه الجماعة الانسانية واندثرت الاخرى دون أن يعلم من جاء من بعدها عنها شيئا .

كما أنها ــ أى عملية التشريح والتحليل ــ ســوف توضـح علاقــة عناصر عمليــة التطبيع الاجتماعي بعضها ببعض ومدى فعالية أو خمول هذه العناصر او تأثيرية كل منها .

ومن اهم المكونات أو العناصر التى ســوف نتعرض لها فى شيء من التفصيل اكثر مــن غيرهــا ، تلك المجموعة مــن الانمــاط السلوكية والخصائص النفسية التى نطلـق عليهــا اسـم التحامل والتعصب .

فمما لا شك فيه أن لنا العذر فى أن نبرز هذه الانماط السلوكية بالذات ، ونعطيها مكــان الصدارة عند تحليل عملية التطبيع او التنشئة الاجتماعية ، وذلــك لأن موجــات التغيير التى تلاحقت على العالم حتى يومنا هذا ، ولأن انشطة المجتمعات سواء فى داخلها ، أى بين افرادها ، أو خارجها أى بينها وبين مجتمعات اخرى ، ولان أزمات العالم سواء فى أوسطه او ادناه أو اقصاه. .. كل ذلك يخضع بصورة أو بأخرى لتلك الخصائص النفسية التى نسميها التعصب والتحامل .

ولا نذهب بعيدا عندما نقول ان مناقشة عملية التطبيع الاجتماعى هى فى حقيقة الأمــــر مناقشة عملية تنشئة الانسان وترويضه وتعويده وتطبيعه حتى يصبح ذا كيان مستقل فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بغض النظر عن نوعية هــذا المجتمع خيرا كان أم شريرا ، وبغض النظر عن درجته من ناحية البساطة أو التعقيد من حيث هو الأسرة أو أبناء الجــوار أو المجتمع الواســع العريض .

ففى مجتمع الفضيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه فى نسيج هذا المجتمع بعد أن يروض ويعود ويطبع ، وبالتالى يتقن مهارات بعينها تعتبر هى اساس التعامل والتواصل فى هذا المجتمع .

وفى مجتمع الرذيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه فى نسيج هذا المجتمع بعد أن يمر بنفس المراحل السابقة ويتقن مهارات بعينها تميز هذا المجتمع عن غيره .

وفى أثناء هذا التدريب والتلقين والتعويد يكون الفرد مفهومه عن ذاته كما يكون مفهومه عن ذات الآخرين وشخصياتهم كمــا يكتسب المعايير التى يحكم بها على الأحداث والاشياء ففى هذه المرحلة ــ مرحلة التدريب ــ يبحث الفرد دائما عن اجابة لسؤال حائر يلح عليه بين الحين والحين : من أنا ومن أكون ؟ ومن هم الآخرون ومن يكونوان ؟ وهو ينتظر دائما ان يعطى الاجابة أو يحصل عليها وفى كلتا الحالتين لا يتم ذلك الا فى اطار عملية التدريب والتلقين والتعويد .

ومن هنا يمكن ان نقول ان العملية الأم ، وهى عملية التطبيع الاجتماعي سوف تعطي الفرد الفرصة لأن يكون ضميره الاجتماعي ووحداته التي هى القيم ، والتى سوف تساعده فى الحكم على الأشياء والاحداث اما عدلا منصفا او متحيزامتحاملا لا ينظر لمثل هذه الأحداث الا من وجهة نظر خاصة غالبا ما تكون ذاتيه .

ومن هنا ايضا قد تبدو العلاقة طبيعية ومنطقية بين عمليةالتطبيع والانشاء ، وبين سلوك التحامل والتعصب وبمعنى آخر بين السبب والنتيجة .

قد لا يكون ذلك انصافا لأجيال سبقت حرصت أن تلقن أجيالنا الحاضرة مقومات وقيمـا كانت تعض عليها بالنواجذ وترى فيها طريق الخلاص لابنائها بل اعتبرتها وسيلتهم الى الاستمرار والخلود .

ولكن قليل من هو منصف عادل من وجهةنظر اطراف القضية اذا اتخذ الطريقه الموضوعيه للمناقشة والتقييم .

ونحن فى هذا المقام لا نسخر من جيل سبق، ولا نقلل من شأن عقيدة مهما كانت ، ولا نحاول ان نهدم قيما وتقاليد ، ولكننا سوف ننهج المنحى العلمى المجرد فى دراسة عملية التطبيع وعلاقتها بسلوك التعصب والتحامل ، ونترك للقارىء ان ينتقي ما يشاء من العلاقات والروابط بين ما نعرضه من دراسة ، وبين ما تمر به المجتمعات الانسانية من محن وازمات مع تعدد أجناسها وألوانها ، ونحن فى الهزيع الاخير من القرن العشرين .

وقد يكون فى هذا اجهاد للقارىء بلا مبرر حتى يبحث عن وجهة نظر الكاتب بين سـطور هذه الدراسة ، ولكننا لن نذهب الى هذا الحد من التعقيد او الحياديه المطلقة الأمر الذى يجافيه المنطق العلمى الى حد ما ، بل سوف تتلون هذه الدراسة من حين لآخر بلون يفرض نفسه من خلال البحوث التجريبية والآراء الموضوعية التي اقتنع بها الكاتب الى حد الاعتناق .

ومن خلال تتبعنا لهذه البحوث والآراء سوف تتبلور لدينا فكرة تكاد تكون كاملة ومتناسبة مع المستوى العام لهذه الدراسة ككل . وينتهي بنا المطاف الى أن نفهم بصورة موضوعية مكونات عملية التطبيع الاجتماعى وعلاقتها الطبيعية بأنماط عديدة من السلوك منها ما هو محمود ومنها ما هو غير ذلك .

تعريف : *

يقول بارسونز (١) أحد علماء الاجتماع ان ميلاد جيل جديد من الأطفال يعنى موجة أخرى من الغزو البربرى ، وهو لا يقصد بكلمة (بربرية) ما هو مفهوم عن حياة العصور الحجرية حيث عاش الناس على الصيد والقنص ، ولكنه يقصد ما هو متعارف عليه من ان البربرية تعنى الحياة غير الاجتماعية وغير المتحضرة .

وبناء على ذلك فان الطفل عند ولادته هو كائن بيولوجي مفلس حضارة وثقافة ، فليس لديه أدنى مفهوم عن العالم الذى هو قادم اليه ، وليس لديه اللغة التي عن طريقها يتواصل مع غيره،

---

(1) Brown, R., **Social Psychology,** Coll. Mc. Millan, 1965, P. 193.

*** نتعرض هنا لتعريف عملية التطبيع الاجتماعي من الناحية العامة ونترك تعريف التحامل والتعصب الى أن يأتى فى مكانه الطبيعي فى سياق هذه الدراسة .**

وليست لديه المعايير والمعنويات والخلقيات التي يتطلبها المجتمع الذى فتح له ذراعيه ليتلقاه . وعلى الطفل أن يتعلم كل ذلك ويتقنه ويجيده عن طريق عملية واحدة متكاملة هى عملية التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية .

فكأن عملية التطبيع من وجهة النظر هـذه هي عملية تحويل الكائن البيولوجي الى كائن اجتماعي له من المناشط ما يدل على ذاته ووجوده .

ويقول تشايلد (١) ان ما نقله الينا السلف عن أهل اسبرطه القديمة ونظامهم فى تربية ابنائهم لأن يكونوا من المحاربين أولى البأس والقوه ، وان ما نظهره اليوم من اهتمام وقلق بخصوص تربية أبنائنا وتنشئتهم ليكونوا أعضاء نافعين صالحين فى المجتمع فان هذا وذاك دلالة واضحه على أهمية عملية تربية الطفل من وجهة النظر هذه او تلك .

ومعنى هذا أن عملية التطبيع الاجتماعي هي عملية تحويل الطفل الى كائن بالغ يقوم بدوره خير قيام فى المجتمع الذى يضمه ويحتويه .

ويقول سيكورد وباكمان (٢) ان عمليـة التطبيع الاجتماعى هى تلك العملية التي عن طريقها يمكن للفرد أن يعدل من سلوكه حتى يتوافق مع ما يتوقعه منه أعضاء الجماعه التي ينتمى اليها . وبذلك لاتكون عملية التطبيع هى فقط العمليه التى فيها يكتسب الطفل الصغير مهاراته البدنية والاجتماعية ، بل هى ايضا العملية التي فيها يعدل البالغ من سلوكه وتصرفاته حتى يصل الى الدرجه التى يرضى بها الجماعه التى هو عضو فيها .

ومن ذلك فاننا نرى أن عملية التنشئه أو التطبيع انما هى فى رأى من استعرضنا آراءهم وهى تمثل الآراء الغالبة الواضحة ــ انما هي عملية تكوين عادة وغرس مهارة وتعديل سلوك، وذلك من اجل ارضاء الجماعة والحفاظ على نظم وتقاليد ومهارات وخصائص قائمة فيها. وليس ذلك غريبا أو مغالى فيه ، اذ انه من الضرورى ــ كما سبق ان أشرنا ــ ان يحافظ الانسان على استمراره بهذه الصورة غير البيولوجية .

ونحن من جانبنا لا نريـد ان نختلف مـع محصلة هذه الآراء ، فهى ولاشك اطار معقول يمكن ان يحيط بكثير من مفاهيم عملية التطبيع الاجتماعى ، ولكن لا بأس من أن نعرض رأيا فى هذا الميدان : وهو فى الحقيقة مجموعة تساؤلات اكثر منه مجموعة منطوقات ، فمن المعروف أن الراى أو النظرية يعتمد دائما على مثل هـذه الأسس .

فمن الحقائق التى يكون احتمال الخلاف الحقيقي فيها طفيفا أن شخصية الفرد وخصائصه تنمو وتتشكل وتتطور من خلال عملية احتكاكه وتعامله وتفاعله مع عناصر بيئته الخارجية بما فى هذه البيئة الخارجية من عناصر مادية غير بشرية ، وعناصر بشرية هى الافراد الآخرون الذين يشتركون مع هذا الفرد فى عضوية المجتمع .

وعندما نسمى هذه العملية ــ عملية الاحتكاك والتعامل والتفاعل ــ عملية التطبيع الاجتماعى لا نكون قد اختلفنا كثيرا مع الآراء السابقة وخاصة من ناحية المضمون وما بين السطور .

---

(1) Child, L.I., in **Handbook of Social Psychology,** Ed. G. Lindzey, 1954, P. 655.

(2) Secord, P. and Backman, C., **Social Psychology,** Mc. Graw-Hill 1964, P. 523.

ومن هذه الحقائق أيضا أن هذه العملية تبدأ من حين ان يطلق الطفل صيحته الاولى مستقبلا حياة من نوع جديد حافلة بمن فيها وما فيها ، ثم تستمر هذه العملية معه فى اثناء نموه وتطوره واكتسابه المهارة والقدرة حتى يصل الى المرحلة التى فيها يمكنه أن يسلك ويفكر بل ويشعر ويصدر احكامه وقراراته كما يفعل الآخرون من اعضاء الجماعة التى ينتمى اليها ، وبذلك يصبح الطفل فردا بالغا ، له من الخصائص والمميزات السلوكية ما يشبه خصائص ومميزات أفراد أسرته وأصدقائه فى الجوار وأعضاء المؤسسة الاجتماعية التي تضمه أيا كانت ثم أعضاء المجتمع الكبير.

ومن هذه الحقائق أيضا أن معدل السرعة التى تتم بها هذه العملية غير ثابت ، ويتغير بتغير فترات حياة الفرد والمواقف التى تمر به فى كل فترة من هذه الفترات . فنجد أن هذا المعدل يزداد فى المراحل الأولى من حياة الطفل ، حيث يكون نهما لامتصاص وتمثيل الخبرة والمعرفة، وحيث يكون فى طور اختلافه الى المدرسة أو أى مؤسسة تربوية أخرى ليتدرب على الخبرات والمهارات الأساسية التى تتطلبها حياة الجماعة .

ويقل معدل سرعة عملية التطبيع الاجتماعى كلما نما الطفل ونضج وتكون لديه رصيد كاف من الخبرة والمهارة لأن يكون ذا نشاط فعال ومؤثر فى شبكة العلاقات الاجتماعية التى تميز جماعته دون الجماعات الاخرى .

كما نجد ايضا ان هذا المعدل يزداد مرة أخرى عندما ينضم الفرد الى جماعة جديدة تختلف عن جماعته الاصلية من ناحية العادات والقيم والتقاليد ، ويصبح لزاما عليه أن يتدرب على ما هو جديد ، فيرتفع بذلك معدل سرعة التطبيع أو التنشئة ، ويمكن توضيح هذه الحقيقة اذا ــ لاحظنا معدل اكتساب الطفل للخبرة والمعرفة وهو عضو فى جماعة الاسرة منذ ولادته حتى بلوغه سن الخامسة أو السادسة ، حيث نلاحظ زيادة دائمة فى معدل سرعة الاكتساب أو التدريب ، ثم يلى ذلك فترة من الثبات يليها انحدار او قلة فى هذا المعدل . وعندما يترك الطفل الاسرة الى جماعة أطفال المدرسة يزداد معدل اكتساب الخبرة والمعرفة من جديد .

بناء على الحقائق السالفة والتى لا تخرج كثيرا عن الاطار العام لعملية التطبيع الاجتماعى يمكن أن نستخلص رأيا يقول بأن هذه العمليه تعتمد على عدة متغيرات تتصل ببعضها البعض وهذه المتغيرات يمكن أن تصنف فى صنفين أساسين هما : متغيرات الفرد كانسان له خصائصه وصفاته التى تحدد كيانه والتى تميزه عن غيره من الافراد ، والصنف الثانى هو متغيرات البيئة الخارجية بما فيها من عناصر ساكنة ومتحركة ، بشرية وغير بشرية وغير ذلك ايضا .

ومعنى ذلك أنه اذا كانت عملية التطبيع الاجتماعى تعتمد على هذين النوعين من المتغيرات وأن هذه المتغيرات ــ وخاصة المتعلق منها بالفرد الانسان ــ ذات طبيعة تختلف من فرد الى آخر فانه يصبح من الضرورى أن نتحفظ عندما نتصور عملية التطبيع الاجتماعى كما وصفتها الآراء السابقة على أنها عملية تكوين واعداد أفراد يشتركون مع بقية أعضا الجماعة فى كثير من الخصائص والصفات ، أو بمعنى اكثر تطرفا هى عملية تكوين الابناء الذين يشبهون الآباء .

ولذلك فاننا نرى أن عملية التطبيع الاجتماعى ــ اعتمادا على الحقائق السابقة ــ يجب ان تعترف بأولئك الذين يخرجون عن سمت الجماعة ونواميسها ، ويبتدعون من الفكر أو السلوك ما قد يقلب حياة الجماعة رأسا على عقب ، ويحدث فيها من التغييرات الجذرية ما قد يعيد تشكيل تركيبها وبنائها الاجتماعى . كما يجب أن تاخذ فى حسابها مقومات هذه الثورة والتغييرات الجذرية

التى يراد أحداثها فى الجماعة بنفس القدر الذى تأخذه فى حسابها بخصوص حرص المجتمعات على أن تورث حضارتها وعناصر ثقافتها ومقوماتها كاملة من جيل حالى الى جيل لاحق .

ونحن فى هذا لا ناتي بالمبتدع الجديد ، وانما نشير الى تلك الاحداث الكبار التى امتلأ بها تاريخ الحضارة الانسانية ، فمحمد رسول اللهنشأ فى جاهلية الجزيرة حيث الحت عليه حضارة ذلك العصر بكل عناصرها ومقوماتها ،ولكنه افلح ونجح ــ وما أبعد المدى فى ذلك ــ فى أن يحـدث التغيير واعادة البناء فى تكوين هذه الامة بحضارتها وثقافتها . ولأن عملية التطبيع الاجتماعى فى جزيرة العرب فى ذلك الوقت لم تكن لتأخذ فىحسابها مثل هذه الثورة العارمة ، او التغيير العميق ، ولذلك كان الصراع داميا وعنيفا بين حضارة وثقافة لا تقبل التغيير أو تتوقع حدوثه ، وبين مبادىء جديدة غازية تهدف الى التهام تلك الحضارة السابقة بمقوماتها وعناصرها . ومثل ذلك ايضا مع فارق فى النوع ما حدث قبيل واثناء عصر النهضة الصناعية فى أوروبا واكتشاف وتشغيل الآلة وما ترتب عليها من آثار حضارية وثقافية ،وكذلك ما يجتاح مجتمعاتنا المعاصرة من موجات العنف والصراع فى اى صورة كانت .

فلو ان عملية التنشئة الاجتماعية فى اى مجتمع او جماعة ،وفى اى عصر من العصور اخذت فى حسابها واعتبارها ما يمكن أن يحدث فيها منتعديل وتغيير ــ سواء ما هو متوقع او ما هـو غير متوقع ــ لأمكن لهذه الجماعات والمجتمعات ان تتفادىموجاتالعنف وازماتالصراع والاقتتال الفكرى والثقافي التى تجتاحها من حين الى حين . ولو أن هذا مجال غير المجال الذى نحن فيه الا انه لانتردد فى ان نشير ولو من بعيد الى حـركات الشباب التى ميزت السنوات القليلة الماضية ، والتى انتشرت فى العالم بسرعة لا بأس بها ، والتى كان مبعثها فى كل بلد رعيل من الشـباب المثقف الذى يمر بمرحلة تعليمية من نوع خاص، اى شباب يمارس المجتمع فيـه عمليـة التطبيع الاجتماعى بصورة رسمية ومشروعة داخل مـؤسساته التربوية .

هذه الحركات انما تدل دلالة واضحة ومقبولة على ان نظم هذه العملية وطقوسهـا لا تتـم بالطريقة التى تأخذ فى اعتبارها وحسابها ما يهدف اليه هؤلاء الشباب من تغيير وتبديل . والدليل على ما نقول أن الشعار الذى رفعته هذه الحركات فى كثير من البلاد كان (ممنوع المنع) وعلى قصر هذا التعبير الا انه يوضح مدى ضجر هؤلاء الشباب بتلك النظم والطقوس بل ربما بأهـداف وفلسفة العمليه ككل .

ونحن فى هذا المقام لا نريد أن نتحيز الى ناحية دون أخرى فنرجح الثورة على ما هو قائـم أو ما هو قائم على الثورة ، ولكنها كلمة حق يجبان تقال ، وهى ان عملية التطبيع الاجتماعى فى مجتمعاتنا العالمية بأسسها وفلسفتها وأساليبها ونظمها وطقوسها فى حاجة الى اعادة نظر واعادة تقييم وكان يجب أن يتم ذلك منذ بدايةعهد التكنولوجيا الحديثة ، عندما امكن للجيل الحالى ان يجنى ثمار العلم المتقدم دون أن يعيش فترة ماقبل ذلك ، وعندما أمكن لهذا الجيل أيضا أن ينظر بعين المستقبل الى ما تعجز عنه أعين من يقوم علىتنشئته وتطبيعه اجتماعيا وحضاريا .

تحليل :

نحن نهدف فى هذه الدراسة الى تحديد وتحليل مقومات وعناصر عملية مـن العمليـات الاجتماعية الاساسية ، ثم الى تحميل هذه العناصر والمقومات والعملية ككل مسئولية النواتـج والآثار التى تترتب عليها والتى تعطينا الفرصة فىأثناء المناقشةوالحوار الىأن نرد الشىء الىاصله.

العملية هى عملية التطبيع والتنشئة ، والعناصر والمقومات هى كل ما يتعلق بالانسان الفرد وكل ما يتعلق ببيئته الخارجية ، والآثار والنواتج كثيرة ومتعددة ، منها ما نعنى به الآن ، وهى ازمات التحامل والتعصب التى تميز عالمنا المعاصر حتى على المستوى الشرعى والقانوني وليس على المستوى الفردى والجماعى فقط .

ومدخلنا الى عملية التحليل هذه هو أن نحدد فى بادىء الامر العنصرين الاساسيين فى عملية التطبيع ، وهما الفرد الانسان ومقومات البيئة الخارجية التى يعيش فيها هذا الفرد .

الفرد الانسان هو العنصر النشط الفعال الذى يحمل مقومات حضارة الجماعة ـ بصورة أو بأخرى ـ من جيل الى جيل وهو فى هذا المنحى يقوم بدوره الاساسى فى حمل أمانة التراث الانسانى .

وهذا الفرد له من الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية ما يمكنه ويعطيه الفرصة ـ الى درجة معينة ـ للقيام بهذا الدور الاساسى فى عملية استمرار حضارة مجتمعه وثقافته .

وهذه الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية انما تمر بطبيعة الحال بمراحل مختلفة من النضوج والنمو ، فهى تحت الظروف العادية ـ اى دون وجود أى عوائق أو موانع خارجة عن نطاق قدرة الفرد ـ تنمو وتتطور الى ان تصل الى درجة من التكامل النسبى أو المرحلى ، بحيث يصبح الفرد قادرا على أن يتفاعل مع مقومات وعناصر البيئة الخارجية بما فيها من ماديات ومعنويات يمكن لخصائصه أن تمتد اليها وتحتويها : اى ما يدخل ضمن مجال ادراكه الحسى من سمعي وبصرى وما الى ذلك .

والفرد فى هذا التفاعل انما يستعين بخصائصه هذه كلها أو بعضها حيث يقيم نتيجة هذا التفاعل بمدى احساسه بالرضا والاكتفاء النفسى المترتب على اشباع حاجاته ومتطلباته من عناصر البيئة الخارجية ، وهو فى هذه المرحلة من المراحل الكيفية لتفاعله مع البيئة انما يخضع كل شىء لمبدأ الاشباع وعدمه .

وتستمر هذه الخصائص الجسمية والنفسية والعقلية فى التطور والنمو ، وذلك نتيجة احتكاك وتفاعل مع المواقف الاصيلة المتجددة فى حياة الفرد اليومية ، حتى تصل هذه الخصائص الى درجة أعلى من التكامل النسبى والمرحلى ، فيصبح الفرد أكثر قدرة على تفهم عناصر البيئة ومقومات المواقف وأبعادها وحركيتها ، فيستطيع فى هذه الحالة أن يحدد طبيعة وحجم كل مثير أو منبه من المثيرات والمنبهات الاجتماعية المختلفة .

كما يستطيع أيضا ان ينتقى ويختار النوع المحدد من الاستجابة التى تناسب هذا المثير أو ذلك .

وبمعنى آخر فانه يمكن أن نقول ان تفاعل الفرد مع بيئته فى هذه المرحلة الكيفية الثانية من مراحل تعامله معها أصبح أعقد من ان يهدف الى مستوى اشباع الحاجة والمطلب فقط ، بل تعداه الى مستوى احداث نوع من التوازن والتوافق بين الفرد الانسان وعناصر هذه البيئة ـ وذلك عن طريق فهم وتحديد طبيعة وحجم المثير الاجتماعى ، وكذلك عن طريق انتقاء الاستجابة المناسبة لكل مثير أو منبه .

وفى هذا لا نحتاج الى كثير من الاستنتاج والاستنباط عندما نقول ان توازن وتوافق الفرد مع بيئته انما يعتمد على مدى قدرته فى فهم واحتواء عناصرها ومقوماتها .

وكلما ازداد الاحتكاك والتفاعل بين خصائص الفرد الجسمية والعقلية والنفسية من ناحية وبين المواقف التى تملأ مسيرة حياته من ناحية أخرى ، تطورت هذه الخصائص ونمت وبلغت درجةارقى من النضوج النسبى والتكامل المرحلى،وبالتالى فان تعامل الفرد مع عناصر ومقومات بيئته أصبح لا يهدف فقط الى اشباع الحاجة والمطلب ، ولا الى احداث التوافق والاتزان بين ذاته وبين هذه العناصر والمقومات ، بل تعدى هذا المستوى وذلك الى مستوى ثالث هو مستوى قدرته على التحكم فى هذه العناصر والمقومات ، واخضاعها الى التغيير والابدال والتطوير ، فقد أصبح للفرد قدر من البصيرة يسمح له بجانب هذه القدرة على التغيير بأن يتنبأ فى كثير من الاحيان بدقة وصحة بما يمكن أن يحدث لهذه العناصر والمقومات .

وتأتى بعد ذلك مرحلةرابعة تكون فيها خصائص الفرد قد نمت ونضجت وأصبحت على درجة عالية من التكامل والتناسق ، بحيث يمكنه أن يفلسف عناصر البيئة ، فيبحث فى أصولها . ويربط ما بين منشئها واهدافها ، وفى أثناء ذلك يقوم الفرد على تحويل هذه البيئة من واقع محسوس ملموس الى مدرك مجرد ورمز محدد يمكن نقله وتناقله فى سهولة ويسر ولا يقف الفرد كذلك عند مستوى تجريد وترميز عناصر البيئة ، بل يتعدى ذلك مستخدما خصائصه الناضجة المتكاملة الى تنظيم هذه المدركات والمجردات والرموز مبرزا ما بينها من علاقات وروابط وتشابه أو تناقض مضمنا هذا التنظيم التعليل والسببية ، وبذلك يكون الفرد قدرا من الخبرة والمعرفة تكون هى وحدة حضارة هذه الجماعة .

نرى مما سبق أن نمو الانسان نموا عضليا ونفسيا وعقليا انما يتيح لعملية التطبيع الاجتماعى أن تتم بصورة طبيعية لا قهر فيها ولا مغالاة (١)

فالطفل فى المراحل الأولى من حياته انما يتدرب عن طريق الأم على أن يتعامل مع عناصر بيئته الخارجية التعامل الذى يسمح له به نضوجه العضلي والعقلى والنفسى ، فيقوم على اشباع حاجاته على أى مستوى من مستويات البيولوجية أو النفسية .

وهو فى هذا لا يستطيع اتمام عملية الاشباع هذه ، كما لا يستطيع أن يستقبل التلقين من أمه الا اذا كانت خصائصه : جسمية وعقلية ونفسية ، على درجة مناسبة من التكامل والنضوج .

فقدرة الطفل على ابتلاع الطعام الصلب او على ضبط عملية الاخراج مثلا لا يمكن لها ان تتحقق مهما قامت الام بتدريب الطفل وتلقينه الا اذا كان على مستوى مناسب من النضج والتكامل ليزاول مثل هذه المهارات .

وعندما تتكرر المواقف فى حياة الطفل وتزداد خبراته ومهاراته فى تناول المقومات التى تشبع حاجاته ومتطلباته فانه تبرز مواقف جديدة أصيلة تتحدى هذه المهارات والخبرات ، فيشعر الطفل بالتوتر وعدم الاتزان والاستقرار ويخرج الامر عن كونه مجرد أشباع الحاجة والاحساس

---

(١) القصد بالقهر والمغالاة ما يمكن ملاحظته فى عملية التنشئة الاجهادية لاطفال فى مجتمع اللصوص والنشالين او اطفال اعمال السيرك وما الى ذلك حيث تجهد وتستنزف قدررات هؤلاء الاطفال عن طريق القهر والمغالاة في عملية التنشئة .

بالرضا والاكتفاء النفسى الى كونه صراع مع هذا التحدى ومحاولة للتغلب عليه ، وذلك من أجل احـداث التوافق والاتزان بين ذات الطفل وبين تلك المواقف او العناصر او المثيرت او المنبهات التى تسبب له القلق والتوتر .

وهنا يساعده مستوى النضوج والخبرة اذ انه فى أثناء صراعه مع هذه المواقف والمثيرات يمكنه أن يستكشف طبيعة كل موقف وكل مثير ،ثم يحدد حجمه ، ثم ينتقى من واقع خبرتـــه السابقة استجابة مناسبة ليقدمها لمثل هذا الموقف أو المثير . فاذا نجح فى ازالة التوتر واعادة الاتزان وتكرر هذا النجاح حدث ما يمكن ان نسميه تعزيز الاستجابة .

وهكذا تتكرر عملية الاستكشاف ثم النجاح ثم التعزيز ، وبناء على ذلك يتكون لدى الطفل القدرة والبصيرة لايجاد العلاقات بين عناصر المواقف بعضها ببعض ، وتصبح لديه الرغبة فى فهم تكوين واثر كل عنصر فيبدأ فى عملية التحكم والتغيير والابدال ليصل الى ذلك .. ومن خلال هذه الخبرات تتكون لدى الطفل المفاهيم والمدركات والتعميمات ، وذلك عن طريق مقارنة المواقف المتشابهة العناصر والمكونات ، وبذلك تبرز المجردات والرموز مثل الصدق والكذب والشجاعة والخوف وما الى ذلك ..

وعندها يصبح عنصرا نشطا وفعالا فى نقل وتناقل خبرة الجماعة كما سبق أن قدمنا فى بداية هذه الفقرات .

تكلمنا فيما سبق عن الفرد الانسان كأحد العنصرين الاساسيين فى تحليل عمليـــة التطبيع الاجتماعى ، ويبقى الآن أن نناقش الشق الثـــانى وهو عناصر ومقومات البيئة الخارجية .

فان هذه العناصر والمقومات هى الوسط الذى تتكون فيه الخبرة والمعرفة ثم تنتقل مـــن خلاله . وهذه العناصر ليست استاتية جامدة ولكنها ذات طبيعة حركية متغيرة ، فهى تتعدل من آن الى آخر ، وتختلف تبعا للظروف التي تؤثر عليها . وهذه العناصر تمثل كل ما يحيط بالفرد الانسان من مواقف ، سواء كانت هذه المواقف مادية مثل الطعام والشراب والملبس والمسكن ووسائل الانتقال المختلفة ، أو كانت هذه المواقف (أو المثيرات) بشرية اى الآخرون من بنى البشر ، أو كانت هذه المواقف او المثيرات معنوية بمعنى ما هو متعارف عليه مـــن قيـــم وعادات وتقاليـــد واتجاهات ومفاهيم وما الى ذلك مما يكون البناء او التنظيم المعنوى للجماعة .

وفى حقيقة الامر نحن لا نستطيع ان نضع حدودا فاصلة بين كل نوع من الانواع السابقة من ناحية الاثر والوظيفة ، فالكتاب الذى تقراه الآن والذى يتضمن الخبرة والمعرفة ، هو عنصر مادى فى تكوينه وطباعته بينما يحمل العناصر المعنوية من قيم واتجاهات فى مناقشته وحواره ، ثم انك سوف تتأثر ولا شك بالعنصر البشرى الذى قام بتحرير هذا الكتاب أو تأليفه ، والامثلة كثيرة فى هذه الناحية .

ويتضح من هـــذا أن هنـــاك تفاعلا دائمـــا ومستمرا بين قطاعات البيئة الخارجية بعضها البعض ، ثم هناك تفاعل بين هذه القطاعات ككل متكامل من جهة وبين الفرد الانسان من جهة اخـــرى .

وهذا يفسر ما قصدنا اليه من أن عناصر البيئة أو المواقف التى تحيط بالفرد الانسان هى ذات طبيعة حركية متغيرة تتعدل من حين الى حين .

ويمكن أن نلخص دور عناصر البيئة الخارجيـة وأثرها فى عمليـة التطبيـع الاجتماعى فى ناحيتين : ـ

أولاهما : دور عناصر البيئة فى التأثير على الفرد الانسان ، وذلك من نواحى النمو والنضوج وتعديل السلوك .

والثانية : دور عناصر البيئة فى التأثير على الخبرة والمعرفة حيث يكون ذلك من ناحية التكوين والتعديل والنقل .

البيئة والفرد الانسان : ـ

فاما من ناحية تأثير عناصر البيئة على الفرد وخاصةمن ناحية النمو فانهذا واضح ملموس. فالنمو العضلى مثلا انما يكون نتيجة لاثر عناصر الطعام والشراب التى يتناولها الفرد ثم تعرضـه للتدريبات العضلية المقصـودة وغير المقصودة . فالنمو العضلى للطفل لا يكون عن طريق زيادة وزنه فقط ، ولكن ايضا بمهارته العضلية فى فتحنافذة او اغلاقها مثلا : المهارة التى كانت لا توجد لو لم توجد تلك النافذة كعنصر من عناصر البيئة .

واما من ناحية النمو العاطفى والنفس للفرد فيمكنان نلاحظ ذلك عند اتصال الطفل بجماعات جديدة وانفصاله عن جماعات أخرى مثل انفصالهعن جماعة الأسرة الى جماعة المدرسة فهو فى هذه الحالة يتعرض لمثيرات ومنبهاتبيئية جديدةغالبا ما تكون بشرية ومعنوية ، فتنمـو بذلـك خصائصه ومميزاته عن طريق استجابته لهذه المثيرات والمنبهات .

وهنا نريد أن نوضح شيئا قد يكون ليس مألوفا للقارىء ، وهو أننا نسمى كل موقف مـن المواقف التى تتحدى الكائن الحى مثيرا او منبها ،وقد يتكون الموقف أو المثير من عدة مثيرات بسيطة ذات علاقة ببعضها البعض . كما أننا نسمى سلوك الفرد وتصرفه فى هذه المواقف استجابة لهذه المثيرات والمنبهات . وقد قصدنا بهذا التوضيح ان نحدد معنى كلمة المثير والاستجابة .

ومن عناصر البيئة الخارجية ايضا ما يساعد على نمو الطفل نفسيا وعاطفيا عن طريق الاثابة والعقاب ، حيث تعزز وتقوى الرابطة بين المثير والاستجابة او تضعف وتتلاشى وبذلك تتكون العادة او تختفى .

واما من ناحية تأثير عناصر البيئة الخارجية على مستوى نضج الفرد فهذا امر له اهميته وخطره . ويحسن قبل استعراضه في ايجاز ان نحدد معنى مستوى النضج : اذ انه عبارة عن مدى « مناسبة» امكانيات الفرد العضلية والعقليةوالنفسية لمستوى الموقف او المثير ، واما ما يحدد هذا المدى او هذه المناسبة فهو المعايير والقيم التى تسود الجماعة .

فعندما يقوم الفرد بسلوك معين فى موقفمعين ، ويكون هذا السلوك غير متفق مع ما هو سائد من قيم ومعايير ، فان الجماعة تحكم بأن هذا الفرد دون مستوى النضوج .

وللتوضيحفاننا نعود ونقولان عملية النضجهى تلك الحالة التى يمكن قياسها بمدى التوافق الذى يحدثه الفرد مع مقومات البيئة ، والـذى يتحقق عن طريق اختيار الاستجابة المناسبة للمثير المناسب .

وبذلك فان عناصر البيئة الخارجية لا بد ان تسهم فى أن يصل الفرد الى مستوى النضج

المناسب ، وذلك عن طريق تقديمها للفرد انماطا ونماذج عديدة ومختلفة من المواقف والمثيرات منذ بداية تعارفه عليها ــ اى الانسان والبيئة ــ الى أن يفترقا ولو ظاهريا ، وهو فى أثناء ذلك يتدرب ولو تلقائيا ــ على اختيار الاستجابة المناسبة فى الموقف المناسب .

وفى حقيقة الامر نستطيع أن نقول ان الفرد يستفيد من هذا التدريب بصورة نسبية حتى يكتمل نضوجه وذلك عن طريق عمليات فرعية أو مصاحبة هى :

أ ــ عملية الممارسة : ــ

اى عملية تكوين الخبرة واستخدامها فى المواقف المتشابهة من ناحية الشكل أو الموضوع حيث ان الخبرة تتكون عن طريق التفاعل الحر المباشر بين الفرد وعناصر البيئة وتعطيه الفرصة لان يكون التعميمات والمفاهيم من خلال مراحل تكوينها التى تبدأ بالمحسوس وتنتهى بالتجريد .

ب ــ عملية التقييم : ــ

وهى تلك العملية التى يقوم بها الفرد بعد كل تفاعل مع عناصر البيئة سواء اكان هذا التفاعل بسيطا أم معقدا ، حتى يمكنه أن يقارن بين ما حققه فعلا وبين ما كان يتوقعه من نتيجة ونجاح .

ومعنى ذلك ان عملية التقييم هذه تتضمن كذلك اعادة النظر فى اسلوب تفاعل الانسان مع عناصر بيئته حتى يتمكن من تعديل انماط سلوكه .

جـ ــ عملية اصدار الحكم أو القرار :

وهى تترتب فى حقيقة الامر على العمليتين السابقتين ، اذ انه بعد ان يمارس الفرد الخبرة ويزاولها ، وبعد أن يقيم هذه الممارسة والمران ، فانه يصدر قراره ليحدد اتجاهه نحو هذا العنصر او ذاك .

وللتلخيص فاننا قصدنا ان نقول ان نضوج الفرد يتم تحت تأثير عناصر البيئة الخارجية فى عمليات ثلاث ، هى الممارسة والمران ثم التقييم ثم اصدار الحكم أو القرار .

ونعود اخيرا الى تأثير عناصر البيئة على الفرد من ناحية تعديل السلوك ، وعملية تعديل السلوك هذه لا نقصد بها مجرد عملية التكيف السلوكى على المستوى البسيط، ولكننا نقصد ذلك المستوى العميق من السلوك الملزم الذى تقره معايير الجماعة وقيمها بصورة جذرية يحتاج تغييرها وابدالها الى جهد من نوع خاص . كما فى حالة الدين والعقيدة واللغة ، ففى كل بيئة من البيئات تتكون اطارات عامة تناسب اهداف الجماعة وتركيبها ونواميسها واصول الحياة فيها ، وعلى كل فرد أن يلتزم بهذا الاطار حتى لا يتعرض لما تبذله الجماعة ــ كشخصية معنوية ــ من ضغوط وجهود لتحافظ على هذه الاطارات والقيم . وما اقسى تلك الضغوط التى تبذلها الجماعة لتمنع أيا من أفرادها ولتقمعه اذا حاول الخروج عن سمتها وقيمها . وهى فى ذلك تبذل اقصى الضغوط وأعلاها لتؤكد حياتها واستمرارها . وبناء على ذلك فانه يمكن أن نستنبط أن من عوامل اندثار الجماعات واندحار ثقافاتها وحضاراتها ضعف وعدم فاعلية هذه الضغوط .

وهنا نرى لزاما علينا أن نوضح شيئا وهو اننا لا نؤيد أو ننكر اهمية هذه الضغوط ولكننا نستطيع أن نقول ان هذه الضغوط قد تكون عقابية اى ذلك النوع من العقوبات والجزاءات الاجتماعية التى تفرضها الجماعة على بعض اعضائها ، وقد تكون تشجيعية ، اى تلك الاثابات

والمكافآت التى تمنحها الجماعة للبعض الآخر . وقد تكون هذه الضغوط ذات لون اقناعى اكثر منه عقابيا أو تشجيعيا .

وفى كل بيئة من البيئات ـ ايضا توضع معايير محددة وواضحة تكاد ترتفع الى مرتبة التقديس لتفرق بين السلوك السوى والسلوك الشاذ ، فكلما كان متفقا مع هذه الاحكام والمعايير اعتبرته الجماعة سلوكا سويا ومقبولا ، وسمحت بنقله واستمراره ، وكل ما كان غير ذلك حاربته الجماعة لتمنعه وتقمعه وتوقف نموه واستمراره .

ووسيلة الجماعة فى هذه الحالة او تلك ـ كما سبق أن قدمنا هى الضغوط الاجتماعية العالية التى تبذلها لتسوس أعضاءها ، والتى يكون الهدف منها الحفاظ على كيان الجماعة ، وكذلك فانه فى اثناء اجراء هذه الضغوط والجهود فان الفرد تتكون لديه مجموعة من القيم والمعايير والاتجاهات والمعتقدات تكون هى الاساس فى تكوين ضميره الاجتماعى .

وهذه القيم والمعايير والاتجاهات والمعتقدات التى تتكون دائما فى مواقف الخبرة والمفاضلة والاختيار تستقر وتتبلور لتصبح الوحدات العيارية للضمير الاجتماعي عند الفرد .

والضمير الاجتماعى ـ حتى يكون واضحا لدينا ـ هو ذلك الجهاز النفسى الاجتماعى الذى يساعد الفرد على اتخاذ حكم أو قرار فى المواقف المختلفة التى تمر بها حياته اليومية .

والضمير الاجتماعى لا ينشأ ولا يتكون فى الفراغ ، ولكنه ـ كما سبق أن أسلفنا ـ يتكون عند تفاعل الفرد مع البيئة بكل عناصرها ومصادرها بما فيها من ضغوط وجهود وما الى ذلك .

وعندما تتطور هذه المصادر والعناصر او تتغير ، فان القيم تتطور تبعا لذلك فى معظم الاحوال ، وبالتالى يتغير الضمير الاجتماعى للفرد ، فانه كما نعلم هناك اثر واضح للعناصر الاقتصادية فى البيئة على القيم الاجتماعية وهى التى تكون الضمير الاجتماعى .

فلا بد اذن أن نتوقع ويتوقع معنا القارىء أن هناك احتمالا كبيرا ان تختلف صورة القيم الاجتماعية والضمير الاجتماعي بين أفراد الجماعة فى حالة الرخاء عنها فى حالة الضيق والشدة .

وكذلك الحالة عندما تنتشر بعض الأوبئة النفسية الاجتماعية التى تسبب ضغوطا عالية تنتج عنها قيم ومعايير ، فعلى سبيل المثال عندما انتشرت موجة (الخنافس) فى المجتمع اللندنى كان لها أثر واضح ـ بما كونته من قيم ومعايير ـ على الصورة العامة للقيم الاجتماعية والضمير الاجتماعى فى هذا المجتمع وغيرتها عما سبقها .

يبقى بعد ذلك أن نشير الى ما هو اهم واحرى بنا أن نقرره دون تردد ، وهو أنه فى هذه الفترات والمراحل من موجات التغيير والابدال والتأثير فى صورة القيم السائدة كما أنه أيضا فى مراحل بذل الضغوط العالية للحفاظ على كيان الجماعة تنبت بذور التحامل والتعصب واتخاذ الاتجاهات المضادة التى تحدد سلوك الفرد تجاه الآخرين .

وفى تيار الحياة التي يعيشها الفرد داخل الجماعة كثيرا ـ ان لم يكن دائما ـ ما يتعرض لمثل هذه الموجات من التغيير والضغوط .

ولا نريد أن نسترسل فى هذا المقام فنناقش اهم اجزاء هذه الدراسة ، لاننا نريد ان نفرد له

مكانا خاصا يتناسب مع أهمية موضوع التحامل والتعصب فى النسيج الثقافى والحضارى لمجتمعاتنا العالمية المعاصرة .

البيئة والتأثير على الخبرة : ــ

ينحصر أثر عناصر البيئة على الخبرة فى اى جماعة من الجماعات فى نواح ثلاثة سبق الاشارة اليها ومناقشة معظمها ، وهذه النواحى هى تكوين الخبرة ، ثم تعديلها وتهذيبها، ثم نقلها وتناقلها فأما من ناحية تكوين الخبرة فقد سبق معالجة هذه النقطة عندما اخذنا فى اعتبارنا علاقة الفرد بعناصر البيئة الخارجية والمستويات المختلفة لتفاعله معها ، حيث يبدأ بمستوى الاشباع وعدم الاشباع ، وينتهى بمستوى التجريد والرمز ، أو بمعنى آخر حيث تتحول الخبرة من المستوى المحسوس الى مستوى الرمز والمدرك والمفهوم .

وكذلك موضوع تعديل الخبرة ، فقد نال قسطه من المناقشة عندما تعرضنا لتطور عناصر البيئة وتغيرها وتفاعلها ، حيث تمد الفرد دائما فى اثناء هذا التطور والتغير والتفاعل بالجديد من المعطيات والمعلومات ، فيتمكن من تعديل خبراته . كما أن هذه البيئة بما تظهره من اثابة ومكافأة ، أو من قمع وعقاب ، تؤدى دورها الهام فى تعديل خبرة الفرد واعادة تشكيلها وتهذيبها وفقا لما تتطلبه هذه البيئة .

وأما عن دور البيئة فى نقل الخبرة فهذا يتم على خطوات ذات علاقة منطقية ببعضها البعض ، واولى هذه الخطوات او المراحل هى أن تسمح هذه البيئة أولا تسمح بنقل هذه الانماط والنماذج من الخبرات البشرية ، ونحن لا نغالى اذا قلنا ان البيئة بكل عناصرها ومقوماتها تقف موقفا كله حذر وحيطة من كل نموذج او نمط من خبرة الفرد ، وهى غالبا ما تكون ناقدة وخاصة تجاه الخبرات الجديدة فلا ينقل منها الا ما هو أصيل حتى يمكنه مصارعة نقد البيئة والتغلب عليها .

والمرحلة التى تلى موافقة البيئة وسماحها بنقل خبرة من الخبرات هى مرحلة الترميز والتجريد والعمومية ، حيث تقوم البيئة ــ كشخصية معنوية باعطاء الخبرة نوعا من الرموز والمفاهيم يختلف عما سبق أن أعطاه اياها الفرد ، فاننا كما أسلفنا نجد أن الفرد يجرد خبرته فى آخر مراحل اكتسابه لها ولكن هذا الرمز والتجريد قد يكون خاصا ومحليا ، ولكن عندما تقوم البيئة بترميز الخبرة فانها تحولها الى مستوى امكانية النقل والانتقال من بيئة الى اخرى ومن جيل الى آخر .

وبعد ذلك يتكون محتوى المعرفة من هذه الخبرات المجردة والرموز والعموميات ، ويصبح من واجب البيئة أن تنشىء مؤسساتها التربوية لتلقين ابنائها وبناتها هذا المحتوى من المعرفة تلقينا مقصودا ، وبذلك قامت المدرسة ودور العلم والعبادة .

ولم يفت البيئة بطبيعة الحال أن تنصب من نفسها رقيبا وناقدا ومشرفا بالنسبة لهذه المؤسسات .

ومناقشة دور هذه المؤسسات التربوية المقصودة فى عملية نقل الخبرة والمعرفة امر يخرج بنا عن الحدود الطبيعية لهذه الدراسة .

ولكن هناك من المؤسسات أو بمعنى ادق من الانظمة والتجمعات الاجتماعية ما يقوم بدور

مماثل ، ولكن قد لا تكون عملياتها مقصودة كسابقتها ، فالاسرة والمجتمع المحلي يلعب كل منهما دورا له خطره فى تنشئة الفرد وتطبيعه وتكوين شخصيته بما فيها من خصائص ومميزات .

ويهمنا فى هذا المجال أن ندرس أثر كل من الاسرة والمجتمع المحلى على شخصية الفرد الانسان فالشخصية هى الكل المتكامل الذى يمكن عن طريقه تفسير وتعليل السلوك البشرى بما فى ذلك النمط العلمى الموضوعى أو أنماط التحامل والتحيز والتعصب .

وشخصية الفرد كذلك هى محصلة العوامل المتفاعلة والعوامل المساعدة فى كل موقف من المواقف التى يعيشها الفرد . ومعنى ذلك أن دراسة أثر كل من هاتين الناحيتين (الاسرة والمجتمع المحلى) لها من الاهمية ما يمكن تلخيصه فيما يلى : ــ

اولا : انه طالما ان المشاكل التى تدخل فى نطاق علم النفس الاجتماعى تجرى دراستها وتحليلها عن طريق فهم الضغوط الاجتماعية والنفسية التى تؤثر على الشخصية الانسانية فانه يصبح من الممكن تحديد مستويات الانضباط والتكيف والنمو والتعلم عندما نعلم الظروف والملابسات التى تكونت فيها الشخصية الانسانية ونمت وتطورت وكونت مجموعة ثابتة من الاستجابات وردود الافعال بالنسبة للمواقف المعينة .

ثانيا : لا يمكن لنا أن ننكر ان عملية نمو الشخصية وتطورها ــ فى حد ذاتها ــ هى عملية تفاعل بيئية تتم بين الكائن الحي وبين عناصر البيئة الخارجية ، ومعنى ذلك أن عملية نمو الشخصية وتطورها لا يتسنى لها أن تحدث فى غياب هذه العناصر مادية كانت أم بشرية .

ونعود الآن الى دراسة ما قصدنا اليه وقدمنا له : ــ

١ ــ الأسرة وشخصية الفرد :

مما لا شك فيه أن مناقشة العلاقة بين الأسرة (كمؤسسة اجتماعية) وبين شخصية الفرد وخاصه من الناحية الوصفية او التحليلية هو امر بمثابة مناقشة البديهيات التى لا تحتاج الى دليل او برهان : لانه من الضرورى والمنطقى ــ عادة ــ أن تتأثر شخصية الطفل بصورة او بأخرى بالأسرة التى ينشأ فيها ويدرج بين أعضائها السنوات الأولى من حياته .

ولكن المناقشة التى سوف نتعرض لها فى الفقرات التالية سوف تأخذ فى اعتبارها تحليل اهم العوامل التى تدخل فى عملية الاحتكاك بين الطفل وأعضاء الاسرة ، لأن ذلك يمثل المراحل الاساسية الاولى فى عملية التطبيع الاجتماعى ، اذ ان هــذه العوامل كانت ولا شك محور دراسات عديدة وواضحة فى ميدان علم النفس الاجتماعى بصورة عامة وميدان التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعى على وجه الخصوص .

ويمكن لنا أن نقول ان معظم الدراسات التى أجريت فى هذا الميدان كانت جميعها تهتم بالعوامل التى تتصل بالعلاقة بين الآباء والابناء وخاصة من الناحية السيكولوجية ، وكذلك بالتغير السريع الذى يطرأ على سلوك الطفل واستجابته لعملية التطبيع نتيجة نموه العصبى والعضلى والنضج الفسيولوجى بصورة عامة . وكذلك فانه من الناحية التقليدية يمكن أن نقول ان المشكلة هى أثر ودور كل من الوراثة والبيئة فى تنشئة الطفل وتطبيعه اجتماعيا .

ومعظم الدراسات الحديثة أعطى معالجة هذه المواضيع اهمية بعد أن أعاد صياغة هذه المسائل

ـ مسائل الوراثة والبيئة ـ على اساس انها علاقة قائمة بين العوامل الوراثية وأطوار النمو من جهة ، وبين العوامل الاجتماعية والبيئية من جهة أخرى .

ومن الدراسات الشيقة والتى تستحق ان نشير اليها فى هذا المجال دراسة قامت بها مجموعات من الباحثين فى علم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع من جامعات كورنال وهرافرد وبيل بالولايات المتحدة الامريكية(١) .

وقد تركزت هذه الدراسة حول الاختلافات والفروق فى الظروف الاجتماعية المحيطة بمجموعات من الاسر ، وخاصة من ناحية الضغوط التى تبذلها كل اسرة من أجل تنشئة اطفالها وتطبيعهم ، ثم تباين هذه الضغوط من ناحية المصدر الذى تنبع منه والهدف الذى يرمى اليه ، والطريقة التي يمارس بها .

وقد كان ميدان هذه الدراسة ستة مجتمعات محلية مختلفة فى شمال الهند واوكيناوا والمكسيك وأفريقيا والفلبين وشمال شرق الولايات المتحدة (٢) . وقد قام الباحثون باجراء عديد من المقابلات الشخصية المطولة مع مجموعات كبيرة من الامهات والاطفال فى كل بيئة من البيئات الستة المشار اليها . وكان هدف هذه المقابلات الشخصية هو اكتشاف وسائل التلقين والتدريب الذى تمارسه كل اسرة فى تطبيع اطفالها وكذلك الضغوط التي تبذلها من أجل ذلك سواء كان مصدر هذه الضغوط الأم أو أى عضو آخر من اعضاء الأسرة .

وقد استخدم الباحثون بعد ذلك الطرق الاحصائية المناسبة لتحليل محتوى هذه المقابلات الشخصية ، وخاصة طريقة التحليل العاملي(٣) وكانت النتائج التى توصلت اليها هذه الدراسة تؤكد أن الاسر تختلف عن بعضها البعض فى عديد من النواحى التى لها اثر واضح فى عملية التطبيع الاجتماعى .

ويمكن تلخيص هذه النواحى فيما يلى : ـ

١ ـ متطلبات المسئولية الشخصية والاجتماعية التى تفرض على النشء وما يتوقعه منهم الكبار وخاصة الآباء استجابة لانواع هذه المسئوليات .

فنحن كما نعلم هناك فى كل مجتمع انواع من المسئوليات الشخصية والمسئوليات الاجتماعية وكل أسرة تهتم ولا شك بتدريب ابنائها على مزاولة هذه المسئوليات وتحمل ما تفرضه الظروف عليهم . وقد وجد أن كل أسرة تختلف عن الاخرى فى هذه الناحية اختلافا واضحا فبعض الاسر وخاصة فى المجتمعات المحلية التى تعتمد على التعامل المباشر مع عناصر البيئة فى كسب القوت (مثل الزراعة او الصناعة اليدوية او ما الى ذلك) تحرص على تدريب اطفالها على انواع من المسئوليات الاجتماعية لا تهتم بها غالبا الاسرة فى المجتمع الصناعى المتحضر ، والعكس صحيح ايضا .

٢ ـ الجو العاطفى والانفعالى الذى يحيط بالطفل ، مثل حنان الأم ورعاية الاب والتشجيع .

---

(1) Lambert, W.W. and Lambert, W.E.. **Social Psychology,** Foundations of Modern Psychology Series, PP. 7-27.

(2) Whiting, B. (Ed.), **Six Cultures, Studies of child** Rearing, N.Y. 1963.

٣ ـ طريقة رياضية تعتمد على فكرة العلاقة بين معاملات الارتباط بين العوامل المختلفة موضع الدراسة .

او غير ذلك مثل الكبت او الاحباط والعقوبات وخاصة العقاب البدنى . فكل اسرة تختلف عن الاخرى فى كمية العطف او القمع الذى يتعرض لهاطفالها وربما اعتمد ذلك على ثقافة الابوين ومدى فهمهم لخصائص نمو الاطفال وتطورهم ، كما يعتمد ذلك ايضا على حجم الاسرة وعدد الاطفال . فالطفل الذى ينشأ وحيدا او مع طفل آخر (اخ او اخت) يختلف عن الطفل الذى ينشأ بين عدد كبير من الاخوة.فى كمية ونوعية الحنان والرعاية والكبت والاحباط والعقاب . وبصورة عامة فانه يمكن أن نربط بين حجم الاسرة وبين المجتمعات المحلية المختلفة ، فحجم الأسرة فى بعض المناطق فى افريقيا يختلف عن حجم الاسرة فى الولايات المتحدة .

٣ ــ درجة ضبط وتهذيب عدوانية الطفل تجاه اقرانه واترابه سواء داخل الاسرة كالاخوة والاقارب او خارج الاسرة كأطفال الجوار والمجتمع المحلى .

وعملية الضبط والتهذيب هذه ترتبط بنماذج الثقافة فى المجتمع المحلى الذى تنتمى اليــه الاسرة . فالاسرة التى تتوقع من اطفالها ان يكونوا من المحاربين او المصارعين او من ذوى العمل الخشن العنيف مع عناصر البيئة والطبيعة ــ كأعمال الصيد فى البحر والغابات ــ تختلف فى درجة ضبط وتهذيب عدوانية اطفالها عن الاسرة التى تتوقع من اطفالها ان ينشئوا ليزاولوا أعمالا لا تتطلب تلك الجسارة والخشونة والعنف والعدوانية ، ومرة اخرى فانه لا بديل لنــا غير ان نربط بين المجتمع المحلى فى افريقيا او الهند او الفلبين او امريكا ، وبين اهداف الاسرة وآمالها فى اطفالها وابنائها .

٤ ــ درجة ضبط وتهذيب عدوانية الطفل تجاه الابوين وعصيانه لاوامرهما. وهذه نقطة تتعلق بسابقتيها ، اذ ان العلاقة السيكولوجية بين الابوين من ناحية وبين اطفالهما من ناحية أخرى ، تتأثر بطبيعة وخصائص المجتمع المحلى بوجه عام ، وهدف الاسرة كنظام اجتماعى داخل نطــاق هذا المجتمع . فقد تكون هناك بعض الاسر تتصف بالتسامح ، واخــرى تتصف بالقمع فى معاملــة ابنائها ، وهم اى الابناء فى كلتا الحالتين يتصفون بالعدوانية والعصيان تجاه الوالدين . ولذلك فان هذا المتغير من الصعب وصفه وتحديده الا فى ضوء ظروف كل اسرة على حدة .

٥ ــ درجة العناية والرعاية التى تبذلها الام فى تربية اطفالها الرضع . وهذه تختلف مــن أسرة الى أخرى ومن مجتمع الى آخر ، متأثرة فى ذلك بما هو سائد فى المجتمع من تقاليد وعادات وطقوس ، وخاصة اذا ارتبطت هذه الرعاية والعناية بالرضيع بنوعه ذكرا كان أو أنثى .

فبعض الاسر تبذل من الرعاية بالرضيع الذكر ما يختلف تماما عما تبذله من رعاية وعناية بالرضيع الانثى ، فاذا كان ذلك الاتجاه سائدا فى بعض المجتمعات فانه لا يكون كذلك فى مجتمعات اخرى ، او بمعنى آخر لا نلاحظ هذا الاختلاف فى معدل العناية بالجنسين .

٦ ــ درجة العناية والرعاية التى تبذلها الام فى تربية الاطفال الكبار . وهذه ايضا تختلف من اسرة الى اسرة ومن مجتمع الى آخر ، وهى ليست متعلقة تماما بالنقطة السابقة كما يبدو ذلك من الوهلة الاولى ، اذ ان النظرة الى الطفل ــ فى بعض المجتمعات والاسر ــ تختلف باختلاف اطوار نموه وقدرته على الاشتراك فى حياة الكبار ــ مثل كسب العيش ــ ذكرا كان او انثى .

٧ ــ درجة الثبات الانفعالى والاتزان العاطفى للام . وهذه وان كانت تختلف من ام الى اخرى ، كصورة من صور الفروق الفردية بين بنى الانسان ، الا انه فى حقيقة الامر يمكن ان نقول إن كمية هذا الثبات والاتزان عموما تتأثر بما هو سائد فى المجتمع المحلى من عادات وتقاليد مكتسبة او موروثة .

وقد ظهر من نتائج هذه الدراسة أيضا ان العوامل السبعة السابقة تتعلق بالاختلاف بين الامهات اكثر من تعلقها بالاختلاف بين البيئات .

وكذلك فانه يمكن القول بأن وسيلة البحثفي هذه الدراسة والنتائج التى تمخضت عنها رغم اعتراف القائمين بها بأنها تمهيدية ــ ساعدت علىامكانية وضع دلائل ومؤشرات بحثية تفيد فى مقارنة القومات الحضارية فى بيئات مختلفة . كما اعطت الفرصة ايضا لتعديل المفهوم النظرى عن التباين والاختلاف بين الاسر والمجتمعات المحليةعندما نحاول تحديد عملية التطبيع الاجتماعي على انها عملية تربوية ذات تأثير على نمو الشخصية الانسانية وتطويرها .

٢ ــ المجتمع المحلى وشخصية الفرد : ــ

ونحن هنا ــ ايضا ــ لسنا فى حاجة الى القدرة على المناقشة والحوار ، او تقديم الادلة والبراهين ، لندلل على مدى تأثر شخصية الطفلبالآخرين من اعضاء المجتمع المحلى حيث بدأ أولى خطوات حياته خارج الاسرة ودرج ليلتقى بأقرانه واترابه من بنى جيرته ومجتمعه الصغير : فتعلم من هؤلاء وهؤلاء اسماء الاشياء والاحداث وخواصها ومزاياها كما تعلم أيضا الوظائف والادوار الاجتماعية التى تختص بها عناصر بيئته ومقوماتها ونوعية وحجم الاستجابة التى يتحتم عليه أن يقدمها لكل مثير من مثيرات البيئة .

ومن خلال هذا الاحتكاك الأول بالمجتمع المحلى قد يرتبط الطفل ارتباطا وثيقا بجماعة من الجماعات الصغيرة المتميزة داخل مجتمعه المحلى،فيكتسب منهم من القيم والمعايير والاتجاهات النفسية ما يجعله متشابها معهم عند معالجتهللمواقف وحكمه على الأشياء والاحداث ، بل يذهب الى أبعد من هذا فيتعاطف معهم فى العادة والحاجة .

وعندما يخرج الطفل من مجتمعه المحلي الى ذلك المجتمع العريض ، متعديا فى ذلك الحدود الضيقة التى الفها واطمأناليها ، فانه يحمل معه ذلك القدر مما اكتسبه من قيم وعادات ، والذى يكون سلوكه ونماذج تعامله مع الآخرين .

والفرد انما يكون هذه الأنماط والنماذجنتيجة الخبرة والاحتكاك بعناصر البيئة ، ومن هذه العناصر ما يكون لينا هينا سهلا ، فيتفاعلمعه الفرد على مدى طويل من الزمن ، فيتأثر به ويؤثر فيه ، ومنها ما يكون عنيفا شديدا وعرا بحيث لا يستمر التفاعل بينه وبين الفرد الا لفترة قصيرة حيث يتم التأثير المطلوب .

وبطبيعة الحال لا بد ان نعترف بأن المجتمعالمحلى هو الذى يقدم للفرد من المواقف والمثيرات ما يعطيه الفرصة على أن يتدرب على تقديم الاستجابات المناسبة لكل موقف ومثير من هذه المواقف والمثيرات .

ونحن فى هذا الصدد نعرض دراسة من الدراسات الهامة والتى عنيت بعلاقة المجتمعات المحلية بعملية التطبيع الاجتماعى وانعكاسها علىشخصية الفرد .

فقد قامباركر وآخرون (١) فىسنة ١٩٥٤ بدراسة تهدف الى تصنيف المواقف والمثيرات التى تقدمها بيئة المجتمعات المحلية للأفراد ، وكذلك تعديد هذه المثيرات ومقارنة البيئاتتبعا ذلك .

(1) Barker, R. G. and Wright, H.F., **Midwest and its children**, Evanston Ill, Row, Peterson and Co. 1954.

وفى احدى مراحل هذه الدراسة قام الباحثون بمقارنة بلدة أمريكية بأخـرى انجليزية ، حيث كان تعداد البلدة الامريكية ٧١٥ فردا ، وعدد أنواع المواقف والمثيرات التى تقدمها بيـئة هذه البلدة لهؤلاء الافراد ٥٧٩ نوعا ، وحيث كان تعداد البلدة الانجليزية ١٣٠٠ فرد ، وعـدد أنواع المواقف والمثيرات هو ٤٩٤ نوعا (مع مـلاحظة مدى تشابه أنواع المثيرات والمواقف فى كل من البلدين ما أمكن ذلك .) .

وبناء على ذلك فانه تكون نسبة تعرض الفرد الواحد فى بلدة ميد وست الامريكية لأنـواع مختلفة من المواقف والمثيرات هى ١٨ر١ ، فى حين أن هذه النسبة تكون ٥٥ر. فى حالة الفرد فى بلدة بوريدال الانجليزية .

ويقول الباحثون ان اختلاف هذه النسبة ربما يعطى بعض التفسير لاختلاف طريقة الفـرد الامريكي فى حياته عن طريقة الفرد الانجليزى .

ففي البلدة الامريكية نجد أن الطفل فى المتوسط يواجه ٨ر٤ من مواقف المسئولية الاجتماعية فى مجتمعه المحلى ، بينما نجد الطفل الانجليزى يواجه ٧ر٢ من هذه المواقف فقط .

ونجد كذلك أن المراهق الامريكى — فى نفس البلدة — يتعرض الى ٦ر١٦ من نفس هذه المواقف ، بينما يقابل المراهق الانجليزى ٧ر٤ من هذه المواقف فقط ، ويستمر هذا التباين والاختلاف بين أفراد البلدة الانجليزية والبلدة الأمريكية حتى فى مراحل الرجولة المبكرة وما بعدها ، ويمكن أن نتبنى تفسير الباحثين لهذه النتائج فى اتجاهين :—

اولهما : أن هناك فى الحياة الأمريكية من المواقف والمثيرات المتنوعة ما هو أكثر من نظيرتها فى الحياة الانجليزية ، وأن لهذا الفرق تأثيرا واضحا على عملية التطبيع الاجتماعى .

وهذا هو عامل عناصر البيئة الخارجية الذى يتدخل وبصورة مؤثرة فى هذه العملية ، والذى سبق ان ناقشناه فيما تقدم من فقرات .

وثانيهما : أن الطفل الأمريكى يجد مـن تشجيع الوالدين وتدريبهم اياه أكثر مما يلاقيه الطفل الانجليزى من أبويه .

فنجد أن الطفل الأول (أى الامريكى) يقدم على معالجة المواقف والدخول فيها والتعامل مع عناصرها ، بينما لا يجد الطفل الآخر مثل هذه الفرصـة .

ففى البلدة الامريكية يجد الطفل ٥٢٪ من مواقف مجتمعه المحلى مفتوحة أمامه ويمكنـه الدخول اليها والتفاعل مع عناصرها ، بينما لا يجد الطفل فى البلدة الانجليزية سوى ٢٣٪ فقط من هذه المواقف .

وبهذا يتسنى لنا أن نسأل سؤالا يترتب على نتائج هذه الدراسة وهو هل اطفال البلدة الامريكية أكثر قدرة على المشاركة فى أنماط الحياة الاجتماعية المختلفة ومواقفها اشتراكا ناضجا وفعالا ؟ وهل هم أكثر نشاطا وفاعليـة واجتماعية وامتلاء بالامل فى المستقبل ؟ .

أو بمعنى آخر ، هل هو موضوع الكم أو الكيف الذى أخذته فى اعتبارها دراسة باركـر ومعاونوه . ؟.

هذه الأسئلة لم تجب عليها هذه الدراسة اجابة كافية شافية ، ولكنها اهتمت فقط بايجاد هذه النسب والاحصاءات ، ثم فسرت على أساسها ولهذا فنحن فى انتظار ما توضحه دراسات مقبلة تأخذ فى اعتبارها عددا أكثر من المتغيرات،وتكون أكثر عمقا واشمل اتساعا من الناحية الميدانية .

يخيل الى انه أصبح من المفيد الآن أن نلخص ما سبق مناقشته فنقول اننا استعرضنا أثر الأسرة والمجتمع المحلى فى عملية التطبيع الاجتماعى وخاصة من ناحية بناء واكمال الشخصية الانسانية .

يترتب على هذه الملاحظة سؤال أجابت عليه دراسة ذات صبغة خاصة سوف نستعرضها فيها بعد . وهذا السؤال هل يمكن ان يكون لعملية التطبيع أو بمعنى ادق اعادة التطبيع دور فى تدمير الشخصية الانسانية ؟.

هذا السؤال كان محور الدراسة التى قام بها شاين ثم نشرها فى سنة ١٩٥٦ (١) . وادجار شاين اخصائى فى علم النفس الاجتماعى قام باجراء عدد كبير من المقابلات الشخصية المطولة مع اسرى الحرب الامريكيين بعد اطلاق سراحهم وعودتهم من الصين الشيوعية ، وكان هؤلاء الأسرى قد تعرضوا الى ما سمى فى ذلك الوقت بعمليات غسيل المخ ...

يقول شاين ان الشيوعيين لم يحاولوا فقط محو حصيلة عملية التطبيع الاجتماعي لدى الجندى الامريكى ،بل حاولوا اعادة تطبيعه عن طريق تلقينه مبادئهم وعقائدهم وتدريبه عليها . ومما هو معروف أن الاهتمام الاكبر عند الشيوعيين هو غرس المبادىء السياسية التى يؤمنون بها فى صدور الآخرين . وكما يعتقد شاين فان الصينيين قد فشلوا فى تحقيق هذا الهدف الرئيسى ، ولكنهم نجحوا فى أمور فرعية أخرى دعته الى امداد دراسته .

فعملية محو حصيلة التطبيع أو التنشئة تعنى العودة بالفرد أو الرجوع به الى النقطة التى يمكننا أن نغير فيها سماته وخصائصه الأساسية ، وهذه العملية ـ عملية المحو ـ فى حد ذاتها تحتاج الى اخضاع الفرد الى أنواع خاصة من الضغوط الاجتماعية ذات الجهد العالى (٢) . والى اخضاع هذه الضغوط أيضا الى امكانية التحكم فيها بالزيادة أو النقص أو الابدال أو التغيير .

فأول ما عمدت اليه السلطات الشيوعية الصينية هو ابعاد الضباط الأسرى عن جنودهم ، وبذلك تركت الجندى دون أن يتلقى أية اوامر من رئيس ، وتركت الضابط دون أن يعطى أية أوامر لمرءوس ، وبذلك تغير الروتين اليومى لحياة الجندية التي تعود عليه كل منهما ـ الجندى وضابطه ـ . واستمر ذلك لمدة ليست قصيرة أعطيت فيها الحرية للجنود لأن تكون لديهم الفرصة لان يميلوا الى عدم الانصياع للاوامر والتصرف بشىء من التلقائية ، وفى نفس الوقت تعرض الضباط لعوامل عديدة تساعد على اخراجهم عن احساسهم بالجندية والضبط والانتظام . وبعد ذلك قام الشيوعيون باعادة توزيع الجنود مع ملاحظة تحطيم السرايا والفصائل وعدم الجمع بين المعارف أو الاصدقاء من الجنود فى تنظيم واحد .

كذلك تعمدت السلطة الصينية أن تجمع معا أعضاء الاقليات مثل الزنوج أو اليهود حتى

---

(1) Schein, E.H. **Psychiatry,** 1956, 149-172.

(٢) الضغط الاجتماعي ذو الجهد العالى هو ذلك الضغط الاعلامي الذى يخلق للفرد من المواقف ما يجعله يستجيب لها على مستوى المفاضلة بين احتمالين لا ثالث لهما بصورة قهرية .

تكون الفرصة سانحة لان يتصاعد الاحساس الكامن بالظلم والاضطهاد بين هؤلاء ، الامر الذى كانوا يعانون منه فى مجتمعاتهم الاصلية .

وبناء على هذا التوزيع الجديد كان من المتوقع أن تنشأ بعض الروابط والصداقات بين الافراد ، ولكن كانت هناك خطة دائمة لتحطيم مثل هذا البناء الاجتماعى المؤقت . فقد كان هناك تشجيع ودفع واغراء لبعض الجنود لأن يقوموا بملاحظة زملائهم والاخبار عنهم حتى فى بعض الامور البسيطة والتى قد لا تقدم أو تؤخر . وبعد ذلك يكافأ هؤلاء علنا وأمام بقية الجنود مع علمهم بسبب هذا التمييز وهذه المكافأة .

وبناء على ذلك أصبحت مهمة الشيوعيين سهلة ــ وخاصة بعد تكرار مثل هذه المواقف ــ مواقف مكافأة الوشاة ــ فاذا لوحظ نمو أى صداقة أو تعارف بين جماعة من الجنود كوفىء بعضهم على نفس النمط بطريقة تثير الشك والاقاويل حول اخلاصهم لزملائهم الجنود . وبالتالى يتحطم هذا البناء عندما يشك كل جندى فى زميله ويعامله معاملة الحيطة والحذر .

وقد كان من المتوقع بعد ذلك أن ينزع كل جندى أو ضابط الى اعتزال زملائه ورفاقه فى السلاح . وبذلك يدخل الرجل طائعا مختارا ــ من الوجهة الظاهرية فقط ــ الى متاهات الوحدة والانزواء . الامر الذى كانت تهدف اليه السلطات الصينية الشيوعية .

وهذه الوحدة كانت تعنى تعطيل حواس الرجال عن مزاولة عملها الطبيعى ، وبذلك يرتفع مستوى الكبت والخوف والاحباط عندهم ، ويصبحون فى مسيس الحاجة الى من يتحدث اليهم ويتحدثون اليه .

وفى هذه المرحلة بدأ الشيوعون يتحدثون الى الرجال حديثا بارعا ذكيا . يعتمد على ادق اسس ومبادىء عمليتى الدعاية والتأثير ، وكان الهدف من مثل هذه الاحاديث هو اظهار الجانب السيىء للحياة الامريكية بما فيها من علاقات اجتماعية واقتصادية ، وكذلك اظهار الجانب الحسن فى نماذج الحياة الاجتماعية والاقتصادية على الطريقة الماركسية .

ولم يكن مجرد الاستماع كافيا سواء بالنسبة للشيوعيين الذين يهدفون الى تحويل الأسرى تحويلا عقائديا كاملا أو بالنسبة للرجال فى الاسر والوحدة الذين كاد الملل أن يتسرب مرة اخرى الى نفوسهم . وبذلك عمد الشيوعيون الى تدريب أسراهم تدريبا من نوع خاص .

الخطوة الاولى فى هذا التدريب كانت ترمى الى تكوين عادة الاعتراف بالاخطاء البسيطة ، مثل العصيان العادى لقوانين معسكر الاعتقال ، وكان الجندى يكافأ بسخاء بعد كل اعتراف بهذه الأخطاء البسيطة . والهدف البعيد من هذه الخطوة هو تكوين عادة اعلان الاخطاء ــ سواء فى العمل أو العقيدة ــ أمام بقية الناس ، وبذلك قد يصل الجندى أو الضابط الى المرحلة التى يناقش فيها عقيدته السياسية أمام الآخرين معترفا بما فيها من نقائص وعيوب .

والخطوة الثانية من هذا التدريب الخاص اعتمدت على فكرة التقمص والتقليد الذى تبدأ مراحله بأن يشعر الرجال فى الأسر وهم يعانون من الكبت والاحباط بأنهم كانوا من الممكن أن يستمتعوا بما يستمتع به الشيوعيون فى هذه الظروف داخل معسكر الاعتقال .

وبناء على ذلك فان تطلعات بعض الرجال من الأسرى وجدت صداها عند الشيوعيين حيث استجابوا لهذه الرغبات ، ولكن بشروط ضمنيه وغير واضحة أو صريحة ، وهى أن من يستمتع

بهذه المزايا لا بد أن يسلك ويتصرف ويفكر على نفس الصورة التي يسلك ويتصرف ويفكر بهـا أصحابها الاصليون وهم الشيوعيون .

ولا بد أن نشير هنا الى أن الامور لم تكن بهذا التسلسل الهادىء ، ولكن اكتنفها فى كثير مــن الاحيان بعض العنف والارغام والتهديد .

كما لا بد أن نشير أيضا الى أن هذه العملية ـ عملية محو حصيلة التطبيع الاجتماعى أو غسيل المخ كما تسمى أحيانا ـ لم تثمر الا مع عــدد قليل من هؤلاء الأسرى .

وهكذا استعرضنا فيما سبق كيف يمكن أن يكون لعملية التطبيع دور معاكس أو مضاد فى بناء الشخصية الانسانية وتكاملها ، فانه مما لا شك فيه كان هدف العملية ـ التى سبق وصفها ـ هو تحطيم الشخصية الامريكية لدى الجندى واعطائه او الباسه الشخصية الماركسية .

نعود الى حديثنا السابق عــن الاسرة والمجتمع المحلى وتأثيرها على الشخصية الانسانية، فقد عالجنا هذا الجزء من الدراسة على أن هناك سبيلين أو طريقين تتم عملية التطبيع الاجتماعى من خلالهما ، الطريق الأول هو المؤسســات الرسمية والقانونية التى هى وظيفتها الحفاظ على حضارة وثقافة الجماعة ونقلها من جيل لآخــر ،ومثال ذلك المدرسة أو الجامعة أو أماكن الدين والعبادة كالمسجد او الكنيسة . وهــذا لم نتعرض له بالمناقشة حتى لا نخرج بدراستنا هذه عن حدودها الطبيعية .

والطريق الثانى هو الانظمة الاجتماعية والتجمعات التى تقوم بعملية التطبيــع الاجتماعى بطريقة غير مقصودة وهي الأسرة والمجتمع المحلي وهذه أيضا وظيفتها وكيانها تعتمد على استمرار حضارة الجماعة وتطويرها . ونحن فى هذه الناحية تعرضنا للمناقشة التفصيليــة لأثر الاسرة والمجتمع المحلى على الشخصية الانسانية ، ولكن يبقى بعد ذلك أن نناقش أهم نواتج عملية التطبيع الاجتماعى التى تتم عن هذا الطريق غير المقصود . ويمكن تلخيصها فيما يلى : ـ

(أ) الطاعة الاجتماعية :

الطاعة الاجتماعية هى ظاهرة انصياع الفرد لما هو سائد فى المجتمع من قيم ومعايير وقوانين اجتماعية ، أو بتفسير آخر هى استجابة الفرد لمثيرات البيئة على نمط لا يختلف عما يقدمــه الآخرون أعضاء نفس المجتمع من استجابات لهذه المثيرات .

ولعله من المفيد فى هذه المجال أن نناقش الظروف التى تجعل الطفل طيعا مستجيبا لما حوله من عناصر البيئة على الصورة التى أشرنا اليها .ونحن لن نذهب بعيدا عندما ندرس هذه الظروف داخل الاسرة والمجتمع المحلي ، لأنه كما سبق أن أشرنا أن أسلوب التطبيق الاجتماعي غير المقصود يعطى بعض النواتج أو الظواهر منها الطاعة الاجتماعية .

وهناك كثير من الدراسات حول هذا الموضوع وخاصة تلك التى أجراها معهد فلز Fels بولاية أوهايو فى أمريكا (١) .

وقد اختصت هذه الدراسة بامكانية التنبؤ بسلوك الطفل وتصرفاته ، وموقفــه مــن قيم

(1) Crandall, S., Orleans, A. Preston and Rabson, **child development,** 1958, 29, 429-444.

ومعايير المجتمع الخارجي ، اعتمادا على دراسة أنواع الضغوط التى يتعرض لها الطفل داخل الاسرة خلال السنوات الاولى من حياته .

وقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أن مفهوم الطاعة الاجتماعية وأنماط السلوك المرتبطة به تبدا فى صورة باهتة غير واضحة فى تصور الطفل ومتسع مدركاته ، ولكنها تزداد بعد ذلك وضوحا ودقة عندما يبدأ الطفل فى ممارسة الحياة خارج الاسرة وبالتالي يتعرض لضغوط خارجية من نوع جديد ، أى غير تلك التى تعودها من الأبوين والاخوة والاقارب .

ومن هنا نستطيع ان نقول انه من الصعوبه بمكان أن تكون لدينا القدرة على أن نتنبا بطاعة الطفل أو عصيانه لقيم المجتمع ومعايره عندما يترك الاسرة وينضم الى جماعة المدرسة ، وذلك اعتمادا على ما تعرض له من ضغوط داخل الاسرة .

ولكنه — فى الناحية الأخرى — يمكن لنا أن نتنبأ بموقف الطفل أو عصيانا بالنسبة لهذه القيم والمعايير عندما ينضم الى جماعة المدرسة الثانوية او المتوسطة ، وذلك اعتمادا على دراسة أنواع الضغوط التى تعرض لها فى المدرسة الابتدائية .

وقد أوضحت نتائج هذه الدراسة أثر المكافاة والثناء أو الردع والعقاب بالنسبة للطاعة الاجتماعية ، فقد ظهر أن المكافأة تقود الى الطاعة أكثر مما يقود اليها الردع أو العقوبة .

وللنمو والنضج أثر كبير فى هذا فان الاطفال عندما يكبرون تصبح انماط سلوكهم أكثر ثباتا وتناسقا : فالطفل بين سنه الثالثة والخامسة تبدو طاعته الاجتماعية واضحة ، وذلك بالنسبة لمعايير الكبار فقط ، سواء أكانوا هم الآباء أم المعلمين أم المشرفين فى دور الحضانة مثلا . ولكن الحال ليست كذلك مع أقرانهم وأترابهم فى نفس السن ، فهم فى عصيان وتمرد يوضح ويفسر لنا علاقات الطفل بأقرانه فى هذه السن .

ولكن قد يحدث ونلاحظ ان بعض الأطفال فى هذه السن يشذون عن القاعدة فتظهر طاعتهم وولاؤهم الاجتماعي لمجتمع أقرانهم وأترابهم ، ولكن فى حقيقة الامر يكون ذلك ناتجا عن اعتماد هؤلاء الاطفال على غيرهم ، وخاصة فيما يحتاجون اليه من امور تتطلب المجهود العضلى أو الجسمانى الذى لا يستطيعونه .

وعندما يقترب الطفل من سن السادسة ويتعداها نجده طيعا مواليا لقيم ومعايير كلا النوعين سواء مجتمع الكبار كالآباء والمعلمين ، او مجتمع أقرانه وأترابه من ذوى السن الواحدة .

وقد ظهر أيضا من نتائج هذه الدراسة التىنحن بصدد استعراضها الآن أن تكيف الطفل وانضباطه لقيم ومعايير الكبار أو أقرانه وأترابهمن نفس السن وذلك خلال مراحل نموه الأولى هو عامل هام وضرورى فى قدرة الفرد وامكانياته فيما بعد للتكيف والانضباط بالنسبة لأبعاد المجتمع الكبير الذى يتصل به .

فالاطفال الذين يجيدون التكيف لتلك المعايير بين سن الثالثةوالخامسة نجدهم فىسن الثامنة وقد تميزوا بالاعتماد على النفس والاستقلالية فىالتفكير والسلوك . كما نجد أيضا فرقا واضحا وملموسا بين هؤلاء الاطفال وبين الاطفال الآخرين الذين لم يتدربوا على اجادة التكيف لتلك القيم والمعايير فى هذه السن .ويكون هذا الفرق واضحا فى مجال العدوانية والتسلط والسيطرة ، حيث يبدو ذلك فى سلوك هؤلاء الأطفال الآخرين .

ولذلك فانه يمكن أن نقول أنه بالنسبة للطاعة الاجتماعية نجد الطفل بعد سن الثامنةوخاصة بعد أن يتعرض لضغوط الاسرة والمجتمع المحلىقد وصل الى قدر معقول فى هذه الناحية يمكن التنبؤ على أساسه بموقف الطفل مستقبلا من حيث كونه طيعا لينا أو عاصيا متمردا على قيم المجتمع ونظمه ومعاييره .

ويجب الا ننسى اطلاقا أن الطاعة الاجتماعية هــذه تنتج من سلسلة عمليات من عمليات التعلم واكتساب المهارة والخبرة . فالطفل يكتسب هذا النمط من السلوك أو ذلك نتيجة تفاعله مع أبويه فى الاسرة وأبناء جيرته فى الجوار ، فيتعلم عادات الطاعة والاذعان لمعايير المجتمع وقيمة ، وقد يكون ذلك نتيجة للتقليد والمحاكاة أو اجراءات الاثابة والعقاب .

ب ــ العدوانية :

لعلنا اقتربنا الآن من الهدف الذى نريده عندما بدأنا بمناقشة الطاعة الاجتماعية ثم أتينا الى العدوانية ، لان هذا هو السبيل المنطقى لان نربط بين عملية التطبيع الاجتماعى ــ وخاصة غير المقصودة ــ وبين سلوك التعصب والتحامل الذى يجمع بين أطرافه هاتين الخاصتين : خاصــة الطاعة حيث ينــزل الفــرد على قيــم مجتمعه فيتعصب له ، وخاصة العدوانية حيث يتكون لدى الفرد القدر الكافى من العدوانية تجاه مجتمع آخر فيتحامل عليه ، ونحن من واجبنا ــ كمــا سبق أن قدمت ــ أن ندرس هذا الامر بصورة تحليلية تشريحية . تساعدنا على فهم هذه العملية وادراك أبعادها .

العدوانية هي كل تمرد على ما هو قائم فى النسيج الحضارى العام للجماعة . سواء كان هدف العدوانية بشرا أو قيمة أو معيارا او تقليدا .

والعدوانية بهذا المعنى تقل كلما زادت الطاعة الاجتماعية عند الفرد بحيث انه نستطيــع القول بأن هناك علاقة شبه قانونيــة بين هذين المتغيرين (١) . وبالتالي فانه قد يكون فى الامكان ضبط عدوانية الفرد عن طريق تنظيم طاعته الاجتماعية وما يتعلق بها من انماط سلوكية .

وتطور خاصة العدوانية ونموها أعقد شكلا وموضوعا من تطور خاصة الطاعة الاجتماعيــة ونموها ، وربما يرجع ذلك الى طبيعة كل من الخاصتين أو ربما يرجع ذلك ايضا الى القدر من العلم والمعرفة الذى نلم به عن كل منهما .

واذا أردنا أن نناقش العدوانية بشىء من الدقة والتحديد فانه يصبح لزاما علينا أن نرسم نموذجا تفصيليا للهيكل الحضارى للمجتمع الذى تبدو فيه هذه الظاهرة وتتضح حتى يمكننا أن نميز بخطوط واضحة فاصلة بين السلوك العدواني والسلوك غير العدواني .

كذلك فانه من المبادىء الأساسية لمثل هذه المناقشة ان نحــدد كل رابطة او علاقــة بين العدوانية وبين المتغيرات الاخرى ذات العلاقة المنطقية بها مثل الاحبــاط والشعور بالفشــل والخيبة .

فمما هو معلوم أن كل سلوك عدواني لا بد أن يسبقه نوع من الاحباط والاحساس بالفشل

---

(١) العلاقة القانونية بين الاشياء هي تلك العلاقة التى يحكمها قانون وبناء عليه يمكن استنتاج احد الشيئين بمعلومية الشيء الآخر .

وعدم التوفيق ولكن هذا لا يقودنا الى أن نقول العكس أى أن كل احباط وفشل لا بد أن يتبعه سلوك عدواني .

ولكن — حتى على جميع الاحتمالات — اذا اخذنا بهذا المبدأ : مبدأ الاحباط والعدوانية فان الصورة تكون غير كاملة وغير مقنعة وغير قادرة على تفسير وشمول كل الحالات التي تظهر فيها العدوانية بصورها المختلفة ففي كثير من الأحيان تؤدى المكافـأة الزائدة أو التدليل المفـرط الى عدوانية على الأفراد والقيم والمعايير بنفس القدر الذى يسببه الفشل والاحباط .

ثم أن هناك أمرا آخر وهو أنه فى كثير من الأحيان يصدر عن فرد تعرض لاحباط بسيط قدر أكبر من العدوانية التي يمكن أن تصدر عن فرد آخر تعرض لاحباط أشد .

وهنا نستطيع أن نقول ان أهمية العدوانية كظاهرة من ظواهر عملية التطبيع الاجتماعى يمكن أن نستدل عليها من ناحيتين هما : —

١ — الدراسات والبحوث التى تهتم بها كل المجتمعـات لضبط عدوانيـة افرادها والتحكم فيها ، وذلك بالبحث عن الاسباب التى تؤدى الى هذا النـوع مـن السلوك ومحاولـة علاجها أو تفاديها . ومن امثلة تلك الدراسات هذه التى تهتم بجناح الاطفال او جرائم الكبار او تلك التى تهتم بالقوانين الوضعية وتطبيقها وقيمتها العلاجية وما الى ذلك .

وهذه الدراسات بجميع أنواعها هى سبيل المجتمعات الى المحافظـة على قيمهـا ومعاييرها ونظمها القائمة والتى يجب على الأفراد ان يذعنوا لها .

٢ — ما تبذله الجماعات من محاولات من اجل امتصاص العدوانية التى تتوقعها من الافراد مثل تشجيع وتبنى الرياضات المختلفة او أنواع النشاطات الاخرى التى تمتص الطاقة العدوانية .

وقد تقوم المجتمعات بحيل أخرى مثل : انشاء الرموز والدلالات،ثم توجيه عدوانية افرادها الى مثل هذه الرموز ، ومن أمثلة ذلك رموز الشر والرذيلة والارواح الشريرة وغير ذلك .

وهناك منافذ عديدة تخرج عن طريقها الميول الى العدوانية ، ففى المواقف التى تتبع الاحباط أو الفشل على سبيل المثال قد تحدث عملية ازاحة أو استبدال ، فالطفل الـذى يكـون هدف عدوانيته احد الوالدين يصفع اخاه الاصغر صفعة فرضت عليه طاعته الاجتماعية ألا يزاولها مع من هو اكبر منه سنا وخاصة احد الوالدين .

وقد تكون الاستجابة العدائية رقيقة مخففة،ففى مثل هذا الموقف يكتفى الطفل بجملة ساخرة او ملاحظة لاذعة ، او ان يصمت ويدور فى خلده ما يتمنى أن يفعله فى مثل هذه الظروف .

وقد تكون الاستجابة اسقاطية ، فلا يعترف الفـرد بعدوانيتـه ، ولكنـه يرمى الآخرين بالعدوانية ، وبذلك يمهد لنفسه الطريق ليقوم بعمل عدوانى هو دفاعى من جهة نظره .

وعملية التطبيع الاجتماعى تأخذ فى حسابها بطريقة ضمنية خاصة العدوانية عند الافراد ، وبذلك فهناك دراسات وبحوث عديدة اجريت حول اعلاء(١) العدوانيـة أو تعـديل الاتجاهـات العدوانية عند الاطفال .

---

(١) كلمة الاعلاء (Sublimation) تستخدم كثيرا فى علم النفس مثل اعلاء الغريزة الجنسية ، واصل التسامى او الاعلاء فى العلوم الطبيعية هو انتقال المادة من الحالة الصلبة الى الحالة الغازية مباشرة دون المرور بحالـة السيولة . والمقصود بالنسبة لغريزة الجنس مثلا هو أن ينتقل الفرد من مرحلة الاحساس بالحاح الغريزة الى مرحلة الاتزان معها والتحكم فيها دون أن يمر بمرحلة أشباعها .

وكان السؤال دائما هو « كيف يلتقط الطفل فى اثناء نموه وتطوره او بمعنى آخر فى اثناء عملية تطبيعه اجتماعيا انمـاط واساليب السلوك العدائي من هؤلاء الذين يحيطون به ويحتك بهم من خلال مواقف حياته اليومية ؟ . »

ومن الدراسات الواضحة فى هذه الناحية الدراسة التى قام بها سيرز ومعاونوه(١) ، وقـد أوضحت هذه الدراسة أن الطفل فى سن السادسة ، والذى يميل بشدة الى السلوك العدائي انما تربى فى بيئة منزلية او محلية تتسامح بالنسبة لهذا النمط من السلوك ، ولكنها – اى البيئة – فى نفس الوقت تعاقب الطفل العدوانى – اذا عاقبته – عقابا صارما شديدا لا رحمة فيه .

كما وجد الباحث ايضا أن الاطفال الأقل ميلا الى العدوانية انما نشئوا فى بيئات لا تتسامح مع اى نمط من انماط السلوك العدائي ، ولكنها – اى البيئة – لا تقابل هذا السلوك – فى حالة حدوثه – بالعقاب الشديد المؤلم .

وقد تابع سيرز(٢) . دراسته على نفس المجموعة من الأطفال حتى بداية سن المراهقة حيث قام بقياس العدوانية عندهم آخذا فى اعتباره انواعها المختلفة مثل العدوانية ضد المجتمع والعدوانية المخففة والعدوانية ضد الذات وعدوانية الاسقاط وغير ذلك .

ووجد الباحث ان المراهقين الذين يميلون الى العدوانية ضد المجتمع انما يسلكون بصورة تشبه السلوك العدائى لاطفال سن السادسة عندما يضغط عليهم الآباء لمنعهم من مزاولة هـذا السلوك .

كما وجد ايضا ان تدليل الآباء لأبنائهم عند بداية مرحلة المراهقة قد يكون أحد العوامل الهامة فى تكوين السلوك العدائي عند الشباب . كما وجد الباحث ايضا ان الردع والعقوبة فى هذه الفترة – بداية المراهقة – تمنع تكوين العدوانية الاجتماعية .

وعندما نحاول ان نفسر ذلك على اساس نظرى فاننا نقول ان الفرد الذى تكون لديه الميول العدائية وفى نفس الوقت يخشى العقاب الـذى يترتب على سلوكه العدوانى يتولـد عنـده ما يسمى بضغط الصراع الذى لا يتمكن الطفل من الاستجابة له فى سن السادسة استجابة مناسبة فتبدو عدوانيته بصورة مبالغ فيها ، بينما فى بداية مرحلة المراهقة يتمكن الطفل من أن يتكيف مع هذا الضغط الصراعي فيستجيب له الاستجابة المناسبة .

وأما بالنسبة للعدوانية المخففة فان الامر يختلف ، فهى تبدو واضحة بين الشباب فى بداية مرحلة المراهقة ، وخاصة بين هؤلاء الذين نشئوا فى بيئة تتسامح بالنسبة للسلوك العدائي ، ولكنها شديدة العقاب – اذا عاقبت – بالنسبة للطفل الذى يرتكب سلوكا عدائيا .

واخيرا نحب أن نعلق بان العدوانية ليست سلوكا بسيطا ، ولكنهـا كل مركب يحتـاج الى دراسات اعمق واوسع من تلك التى قام بها سيرز .

---

(1) Sears, R, and Others, **Patterns of child Rearing**, 1957.

(2) Sears, R, **J. Abn. Soc. Psychol.** 1961, 63, 466-495.

ج ـ التقليد والمحاكاة :

نحن الآن نقترب من غرض هذه الدراسة ،وهو ربط السبب بالنتيجة ، أو بمعنى آخر ربط عمليــة التطبيع والتنشئة بسلــوك التحامل والتعصب،فقد سبق أن أشرنا بان الطاعة الاجتماعية والعدوانية سوف يهيئان الفرد لمثل هذا السلوك وخاصة اذا توافر لهما عنصر التقليد والمحاكاة كطرف ثالث يشجع الفرد على طاعة قيم مجتمعهفيتعصب له، كما يشجعه ايضا علىعدوانيته تجاه مجتمعات أو جماعات اخرى فيتحامل عليها .

فالتقليد من العمليات النفسية الاجتماعيةالهامة ، حتى انه فى وقت ما أجمع المتخصصون فى علم النفس على انه يمكن عن طريقها تفسير وتعليل معظم انــواع وانماط السلوك الاجتماعى للافراد بشرا كانوا أو غير ذلك ، وكانت الفكـرة وراء ذلك هى أن التقليد والمحاكاة جزء مــن الطبيعة البشرية والنفس الانسانية ، او بمعنىآخر هو ميل غريزى موروث عن الآباء والاجداد .

ولكن هذا الرأى أصبح مردودا عليه ، فهناك بعض الناس يتقنون التقليد والمحاكاة بدقــة ومهارة ، فى حين أن الكثيرين لا يمكنهم ذلك . كما أن الاطفال يقلدون احسن من الكبار .

كما أن هناك البعض يميل دائما أن يفعلعكس ما يفعله الآخرون .

لهذا نستطيع ان نقول ان الاساس الغريزى لعملية التقليد غير قائم : وهذا ما يمكن ان نستخلصه ايضا من الدراسة التي قام بها ميلر ودولارد(١) : فقد قامت هذه الدراسة على اساس أن التقليد يمكن تفسيره فى اطار عملية التعلم الاجتماعى ، فمن التجارب التى اجراها الباحثان على الفئران البيضاء ــ ثم الاطفال ــ يمكن ان نقول ان التقليد عادة يمكن اكتسابها وتعزيزها ، وخاصة اذا كوفىء الفأر او الطفل مكافأة مناسبةبعد تقليده للآخرين ، كما انه يمكن ابطالها ومحوها عند اجزاء الردع او العقاب بعد عملية التقليد ، ولكن هناك نقطة تستحق التوضيح ، وهى ان هناك فرقا واضحا بين الفئران والاطفال : ففى الحالةالاولى يكون التقليد ارتباطا عصبيا اكثر منــــه استبصارا وتعلما اجتماعيا ، فى حين يكون العكسفى حالة الاطفال ، لانه فى هذه الحالة تتم عمليــة تلقين وتفسير مصاحبة لعملية التقليد ، او بمعنىآخر يحدث تبرير لعمليةالتقليد فى حالةالانسان. وهذا حقيقة ما يحدث فى عملية التطبيع عندما ترمى الام الى تدريب ابنتها على تقليدها ، فهى ــ اى الام ــ تحرص على تبرير هدف التقليد والمحاكاة . وقد يكون ذلك السبب الرئيسى فى أن التقليد يتحول بعد ذلك الى عادة ثابتة راسخة .

وربما يكون مفيدا فى مجال الحديث عن التقليد كعملية نفسية اجتماعية أن نستعرض فى ايجاز مالها من صلة وعلاقة بعملية اخرى مشابهة من ناحية المظهر ، وهى عملية التقمص (أو التوحد) وهى عبارة عن تلك العملية التى عن طريقها يقوم الفرد بوصف نفسه ونـوع ســلوكه وشخصيته ، بناء على مفهومه عن صورة ذات فرد يحبهويعجب بهــوذلك كما يقترح سيموندر(٢) . ومن هذا التعريف يمكن أن نستنتج أن التقليد فىعملية التطبيع الاجتماعى قد يكون نتيجة عملية التقمص هذه ، ولكننا قد نرفض هذا التعريف منالاساس حيث يرى جيمس (٣) . ان كثيرا مــن

(1) Miller, N., and Dollard J. **Social Learning and Imitation** N. Haven, 1941.

(2) Tagiuri, R, and Petrullo, L., **Person Perception and Inter-personal** Behaviour, Stan. Uni. Press 1958.

(3) James, H.E.O., **Lectures in Social Psychology,** London Uni., 1961.

اليهود فى معسكرات الاعتقال النازية قد تقمصوا شخصيات حراسهم من الالمان ولم يكن بين هؤلاء وهؤلاء اى رابطة من الاعجاب والحب واذا كانت هناك رابطة فهي تلك التي تقوم على الخــوف والرهبة وتوقع الاعدام بين لحظة واخرى . ولذلك فان جيمس يجرح رأى سيموندز بالنسبة الى التقمص ، فيرى ان الحب والاعجاب قد يساوى الخوف والرهبة فى هذه الناحية .

وللتلخيص فاننا نقول ان سلوك الفرد سواء أكان علميا موضوعيا ام متحاملا متحيزا متعصبا فانما يتحدد بثلاث متغيرات هى :

أ ــ طاعة الفرد واذعانه للقيم الاجتماعية التى تسود شبكة العلاقات فى الجماعة التى ينتمى اليها وبالتالي يتطبع فيها اجتماعيا وحضاريا .

ب ــ درجة العدوانية التى تختلط مع الدوافع الاجتماعية للفرد وتدفعه الى اتخاذ قراراته على نحو معين فى مواقف الحياة اليومية .

ج ــ درجة استجابته واجادته تقليد سلوك الآخرين من ابناء مجتمعه .

وهذه المتغيرات الثلاث هى بلا شك اهم نتاج عملية التطبيع الاجتماعى غير المقصودة والتى تتم فى الأسرة كنظام اجتماعى وفى المجتمع المحلى كتجمع يرتبط افراده بعلاقات من نوع خاص وثابت .

وهذه المتغيرات الثلاث ايضا هى التى تكاد تميز الاسرة والمجتمع المحلى عن غيرهما مــن الانظمة والتجمعات والمؤسسات الاجتماعية الاخرى .

د ــ التحامل والتعصب :

هذا النوع من السلوك الاجتماعى من أهم أنماط السلوك التى تتكون عن طريق التنشئة غير المقصودة على الصورة التي اسلفناها فى السطور السابقة .

فالطاعة الاجتماعية او الاذعان الاجتماعى والعدوانية والتقليد والمحاكاة لهــا دور واضــح وملموس فى تكوين طبيعة هذا النوع من السلوك .

وقبل ان نناقش طبيعة هذا السلوك ومقوماته ربما كان من الافضل ان نجيب على سؤال سوف يقفز بلا شك الى ذهن القارىء ، كما يلح دائما على الكثيرين ممن يقراون شيئا عن التحامل والتعصب . وهذا السؤال هو « هل هذا النمط من السلوك غريزى موروث او مكتسب من ظروف البيئة الخارجية ؟ وبمعنى آخر هل يولد الطفل الابيض فى أمريكا او فى جنوب افريقيا وفى دمه كراهية الزنوج والتحامل عليهم ؟ ولنذهب ابعد من هذا ونقول هل يولد القط ولديه ما لديــه من كراهية للفأر وميل غريزى لافتراسه ؟ ام ان الامر يختلف وتلعب ظروف وعناصر البيئة الخارجية الدور الرئيسى فى تكوين هذا النمط من السلوك المتحيز المتحامل : ــ

هناك تجربة طريفة توضح علاقة الفأر بالقط ، وهى تلك العلاقة الابدية الازلية ، والتى يضرب بها المثل ، فى العداوة والكراهية وليست فى التحامل والتحيز فقط .

هذه التجربة اجراها (كو) Kuo (١) حيث استخدم حوالي ستين قطة صغيرة حديثة الولادة فقسمها الى مجموعتين متساويتين من ناحية العدد . المجموعة الاولى اطعمت منذ البداية اللحم

(1) Kuo, Z.Y., "The Genesis of the cat's Response to the Rat', J. Comp. Psychol 1930, 11, 1-30.

واللبن والسمك المخلوط بالارز ، وربيت على هذا النوع من الطعام . والمجموعة الثانية (نباتية) اى اطعمت اللبن والخضروات منذ البداية ولم تتذوق اللحم على الاطلاق .

ثم عاد وقسم القطط جميعها الى ثلاثة اقسام ، ربى كل قسم منها تحت ظروف تختلف عن القسم الاخر . فالقسم الاول (ونصف العدد نباتى والنصف الاخر من أكلة اللحوم) عاش فى عزلة تامة عن القطط او الفئران اى ان كل قطة عاشت بمفردها فقط منعزلة بذلك عن اى نوع من الانشطة التي تؤثر على علاقتها بالفأر فضلا عن انها لم تر فأرا على الاطلاق .

والقسم الثانى (مثل القسم الاول ايضا من حيث الطعام) عاشت كل قطة صغيرة مع أمها فترة كافية لترى الام وهى تقتل الفئران وتلتهمهم .

والقسم الثالث ـ تربى بعد ولادته بحوالي اسبوع مع الفئران فى قفص واحد دون أن يرى قططا اخرى .

ثم قام (كو) بعد فترة من الزمن باختبار العلاقة بين القطة والفأر فوجد أنها يمكن تلخيصها فى الجدول التالى : ـ

ظروف تربية القطة	عدد القطط فى كل مجموعة	عدد القطط التى قتلت الفئران	النسبة المئوية
١ ـ انعزالية كاملة	٢٠	٩	٤٥٪
٢ ـ رأت أمها وهى تفترس الفئران	٢١	١٨	٨٦٪
٣ ـ عاشت معا مع الفئران	١٨	٣	١٧٪

ربما أمكن أن نستنتج من هذا الجدول (١) أن ظروف التنشئة والتطبيع تلعب الدور الاساسى فى تكوين الاحساس بالكراهية والمقت ، وليس كما يمكن ان يتصور البعض انها غريزة طبيعية .

وبجانب هذا هناك القصة المشهورة ـ وهى من فولكور علم النفس الاجتماعى ـ قصة توم وامه وصاحبه .. فقد عاد توم متأخرا ذات يوم فسألته أمه : أين كنت يا توم ؟ فقال : كنت ألعب مع جو الذى يسكن فى الشارع المجاور . فعادت الام لتقول : ابن من جو هذا يا توم ؟ .. فرد توم : انه ابن سائق الشاحنة التى تقف دائما بالقرب من ناصية الطريق ، واخيرا سألته الام .. هل هو ملون (أى زنجى) ؟ .. فتردد توم فترة ثم أجاب : اننى لم انتبه جيدا الى هذا يا أماه ولكننى غدا عندما التقى به سوف أرى ذلك .

ومهما كان مقدار الصحة فى هذه القصة فانها تشير الى ان اتجاه التحامل عند هذا الطفل ليس موروثا ، وليس مختلطا بدمه ، ولكنه امر لم يكن لينتبه اليه هذا الطفل توم لو لم تشر اليه أمه وتؤكده .

---

(١) يتضح من الجدول انه فى حالة التربية الانعزالية لم يكن الاتجاه واضحا حيث تساوت النسبة تقريبا بين القطط القاتلة للفئران وغير القاتلة . بينما نجد فى حالة« التطبيع على القتل »(٢) تزيد نسبة القطط القاتلة بوضوح ظاهر والعكس صحيح فى حالة « التطبيع على المعاشر والتآلف » .

فالانسان او الحيوان لم يخلق متعصبا ، ولم يخلق متحاملا ، ولكنه كون هذا السلوك وهذه الخصائص اكتسابا من البيئة التى قامت على تنشئته وتطبيعه اجتماعيا .

ولكن ما هو التحامل والتعصب ؟ وما هيطبيعة واصل هذا النوع من السلوك الاجتماعى ؟ .. يقول باكمان(١) ان نوعية العلاقات السائدةبين جماعتين تخلق نوعا من الاتجاهات النفسية تكون مسئولة عن احداث تحامل وتعصب احدى هاتين الجماعتين ضد الاخرى . فالعلاقات الاجتماعيةوالاقتصاديةوالحضارية التينشأت بينالبيض والزنوج فى الولايات المتحدة أو بين الألمان واليهود فى أوروبا هي التي أوجدت الاتجاهات النفسية عند البيض وعند الالمان من جهة وعند اليهود والزنوج من جهة أخرى .. وكانت هذهالاتجاهات هي المسئولة الاولى والاخيرة عن تكوين سلوك التحامل والتعصب عندكلا الجانبين ، وبمعنى آخر فان تركيب العلاقة ايا كان نوعها وعناصرها يولد مجموعة شبه ثابتةمن الاحكام والقيم والاتجاهات التي تنشأ عن خبرة التعامل والاحتكاك ، وهذه المجموعة الشبهالثابتة تكون مسئولة عن تلوين حكم احدى الجماعتين على الاخرى .

فالرجل الابيض فى أمريكا أو فى جنوب افريقيا له علاقة من نوع خاص بالرجل الاسود ، هى علاقة صاحب السلطة والسيطرة بالخاضع المستسلم الذى لا حول له ولا قوة، وبطبيعة الحال فان دور الرجل الابيض هو أن يأمر ودور الرجل الاسود ان ينفذ ، وبالتالي سوف تكون الفرصة سانحة امام الامر الناهى ان يصف العبد المنفذ بالكسل وعدم القدرة على تحمل المسئولية والغباء ونقص القدرات الابتكارية ، كما انه سوف تكون الفرصة ايضا سانحة امام العبيد لان يصفوا السادة بالعجرفة والفطرسة والقسوة ونقص الاخلاقيات والقيم وعدم التسامح وغلظة القلب .

ويتم توارث هذه الصفات فى كل من الناحيتين عند السادة وعند العبيد . وذلك عنطريق ما سبق وصفه وتسميته بعملية التطبيع الاجتماعى ، حتى تتبلور هذه الصفات والنعوت وتكون اتجاها حادا نسميه هنا بالاتجاه العنصرى هو خلفية سلوك التحامل والتعصب .

وصورة اخرى تؤكد ما ذهبنا اليه فى تأصيل التحامل والتعصب وارجاعه الى نوعية العلاقات القائمة بين جماعتين هى صورة من التاريخ ، حيث نرى كيف بدأ التحامل على اليهود أو بمعنى أصح كيف تكونت الاتجاهات العنصرية عند بعض الشعوب تجاه الجاليات اليهودية التي رفضت ان تمتص داخل النسيج العام للمجتمعاتالتي تعيش فيها وأصرت علىكونها الجاليةالمختارة المتميزة ، فكما يقول سيمون وينجر(٢) : لقد كاناليهود أغنياء يسيطرون على القدرات الاقتصادية لبعضالمجتمعات وكانت الوظيفةالرئيسيةلليهودىفى اى مجتمع هى وظيفة المرابى الذى يقرض ماله بأضعاف مضاعفة من الربا ، ففى القرن العاشر والحادى عشر تكونت المجتمعات المدنية ـ بعد الاقطاع والعبودية ـ وعليه فأصبحت الحالة ملحةفى طلب راس المال سواء للتجارة او الانشاء والتعمير . وهنا نشط اليهود فى عمليات الربا والاقراض ، وخاصة عندما امرت الكنيسة . وهى السلطة القوية آنذاك ـ رعاياها من المسيحيين بعدم اقراض اموالهم بالربا ، ولكن لا مانع من ان يقترضوا بالربا من اليهود ، وهنا امكن لليهود ان يتحكموا فى المجتمع الاوروبي اقتصاديا ، سواء بمنع الاقراض او برفع سعر الفائدة .

---

(1) Back man, C., **Origins of Prejudice and Discrimination** 1964.

(2) Simpson, G., and Yinger J., **Racial and cultural Minorities**, N.Y. Harper, 1958.

وهكذا تكونت لليهود صفات اصحاب راس المال المستغلين النهازين للفرص . وتأصلت هذه الصفات حتى اصبحت « اتجاهات عنصرية » عند طوائف عديدة من بنى الانسان ضد اليهود ، جعلتهم يتحاملون عليهم ويتعصبون ضدهم . وفى الناحية الاخرى تكونت لدى اليهود اتجاهات عنصرية مضادة تحمل فى ثناياها النعوت المعاكسة للطوائف والشعوب الاخرى من غير اليهود مثل السذاجة والغباء والبعد عن الواقعية وهكذا(١) .

وليس من المستبعد ان تكون الاساليب اليهودية هذه قديمة قدم هذا الشعب ، وليست وليدة ظروف القرن العاشر والحادى عشر كما يقول (سيمبسون وينجر) بل ربما عادت الى ما قبل ذلك بآلاف السنين ، حيث ان التاريخ يحدثنا دائما عن مثل هذه الازمات التى احدثها اليهود فى مجتمعات شتى ، وعن ظروف التحامل والاضطهاد التى تعرضوا لها فى كل مكان على الكرة الارضية الا فى مكان واحد فقط عاشوا فيه ولم يعانوا من قلق او اضطهاد ـ بل قاموا هم فيه بدور المضطهد الظالم ـ وهذا المكان هو رقعة الدول العربية(٢) .

وصورة اخيرة تؤكد ارجاع سلوك التحامل والتعصب فى اصله الى نوع العلاقات السائدة بين جماعتين تتحامل كل منهما على الاخرى وتتعصب ضدها ، وهى صورة من التاريخ الحديث . فقد نشر سينها واوباد هيايا ١٩٦٠(٣) دراسة حول الاتجاهات العنصرية للشباب الهندى نحو الصين قبل وفى اثناء النزاع الهندى الصينى المسلح حول الحدود المشتركة بينهما ، ومن نتائج هذه الدراسة ان اتجاهات الشباب الهندى نحو اهل الصين فى فبراير ١٩٥٩ اى قبل النزاع المسلح كانت توضح ان اهل الصين مسالمون وتقدميون ، وامناء ووطنيون وشجعان ومتحضرون ونشطاء .

بينما كانت اتجاهات نفس هؤلاء الشباب نحو اهل الصين فى ديسمبر من نفس السنة ، اى خلال هذا التوتر ، كانت توضح ان اهل الصين عدوانيون وغشاشون وانانيون ومصاصو دماء وقساة واغبياء .

واضح مما سبق ان اصل التحامل يرجع الى نوعية العلاقة القائمة بين الفئتين المتحاملتين كل منهما على الاخرى والمتعصبتين كل منها ضد الثانية .

ومن هنا نريد ان نخلص الى تعريف وتحديد لمعنى التحامل ، حتى يمكن ان نسترسل فى المناقشة التحليلية لمحتويات هذا النوع من السلوك .

فالتحامل والتعصب نتاج اتجاه عنصرى غالبا ما يكون سالبا (او مضادا) وينحو بالفرد الى ان يتخذ قراراته مصحوبة بشحنة انفعالية غير عادية اى اعلى واكثر من ذلك الانفعال الذى يصاحب الاتجاه النفسى العادى . والاتجاه العنصرى هو ما يتكون نتيجة خبرة العنصر الذى قد يكون ـ اى هذا العنصر ـ الدين والعقيدة او المميزات المورفولوجية (مثل اللون) التى ترجع الى

---

(١) يمكن الرجوع فى هذا الى بروتوكولات حكماء صهيون .

(٢) فارس جلوب « اسرائيل خلقت لتبقى ؟؟؟ » اتحاد طلبة جامعة لندن ١٩٦٢ (مناظرة عامة)

(3) Sinha, A, and Upadhya ya, O., "Stereotypes of Male and Female Students", J. Soc. Psychol 1960.

الاصل او القومية او اللغة والتقاليد الحضارية . وبناء على ذلك يمكن ان نحلل محتويات اتجاهات التحامل والتعصب الى ثلاثة مكونات رئيسية هى :

أ ـ **المكونات المعرفية** ، وهي عبارة عن المدركات ، اى ما يدركه الانسان حسيا أو معنويا وهذا يترتب على حصيلة خبرته السابقة . ثم **المعتقدات** ، اى مجموعة مفاهيمه المتبلورة والتي ثبتت بصورة او بأخرى فى المحتوى النفسى والعقلى للفرد . ثم **التوقعات** ، اى ما يمكن للفرد أن يتنبأ به بالنسبة للاخرين او يتوقع حدوثه منهم . هذه المدركات والمعتقدات والتوقعات هى الاساس المعرفى للاتجاه العنصرى المتكون عند احدى الجماعات ضد جماعة اخرى .

ولنا ان نتصور فى هذه الناحية نوع التفكير (العنصرى) الذى يبنى على هذه الابعاد الثلاثة : فمن البداية الاولى نجد ان هذا التفكير من النوع النمطى او القالبى(١) (Stereotype.......) الذى قد يتضمن بعض الاوصاف والميزات الخاصة بالجماعة المتحامل عليها ، فمثلا قد تسود فكرة تتصل بالصفات الظاهرة فقط مثل « جميع اليهود لهم انوف طويلة » او « جميع الزنوج قبيحو الخلقة » . او قد تتصل الفكرة بالنواحي الشخصية والعقلية مثل « الزنوج أغبياء » « اليهود عباقرة » « الالمان علماء موهوبون » « والايطاليون انفعاليون » « والأتراك أقذار » .. وهكذا ..

وقد يتعدى هذا التفكير النمطى مستوى الاوصاف والميزات الى مستوى العقيدة والفكرة التى تعتنقها الجماعة المتحامل عليها ، والمتعصب ضدها(٢) فقد يكون المكون المعرفي للتحامل فكرة سائدة مثل « العقيدة اليهودية تستحل دم الاخرين من غير اليهود » أو أن « الكاثوليك يخلصون للكنيسة أولا ثم للدولة ثانيا » أو أن « الاسلام انتشر بحد السيف » وهكذا ..

ولهذا السبب فاننا نجد أن معظم البحوث والدراسات التى دارت حول المكونات المعرفية للتحامل والتعصب قد تركزت بصورة او بأخرى على ما يمكن تسميته بالمعتقدات العنصرية التى هى فى حقيقة الامر مجموعة المفاهيم النمطية والافكار القالبية التى تعتنقها جماعة ما ضد جماعة اخرى ، ومن الدراسات الرائدة فى هذه الناحية التى قام بها كاتس وبرالى(٣) على مائة من طلبة جامعة برنستون حيث طلب الباحثان من هذه المجموعة من الطلبة ان يختاروا الصفات والميزات التى تناسب كل مجموعة من المجموعات البشرية التالية : الامريكيين ـ الصينيين ـ الانجليز ـ الالمان ـ الايرلنديين ـ الايطاليين ـ اليابانيين ـ اليهود ـ الزنوج ـ الاتراك .

ومما يلفت النظر فى هذه الدراسة الاتفاق شبه الكامل بين اراء المائة طالب بالنسبة لاوصاف هذه المجموعات البشرية العشرة رغم انهم ـ اى الطلبة ـ لم تسبق لهم خبرة الاحتكاك المباشر بمعظم هذه الجماعات .

---

(١) التفكير النمطى أو القالبي هو ذلك النوع من التفكير الذى ينقله الفرد عن زعيم أو قائد أو عضو آخر فى جماعته يمثل سلطة من نوع ما دون التعمق والتمعن فى أصول ومقومات هذه الطريقة فى التفكير

(2) Chein, I., "Some considerations in combating Intergroup Prejudice," **J. educ. Social,** 1946,. 19.

(3) Katz, D., and Braly, K., " Racial Stereotypes ", **J. abn. Soc. Psychol.,** 1933, 28.

وقد كانت نتائج هذه الدراسة كما يلى : ـ(١)

الألمان	:	ذوو عقلية علمية ـ مجدون ـ غير عاطفيين
اليهود	:	متميزون ـ مرتزقة ـ مجدون
الزنوج	:	خرافيون ـ كسالى ـ يميلون الى المرح
الايطاليون	:	فنانون ـ مندفعون ـ ذوو عاطفة
الانجليز	:	ذوو روح رياضية ـ اذكياء ـ تقليديون
الأمريكان	:	مجدون ـ اذكياء ـ ماديون
الايرلنديون	:	مشاكسون ـ سريعو الانفعال ـ حاضرو البديهة
الصينيون	:	خرافيون ـ ماكرون ـ محافظون
اليابانيون	:	أذكياء ـ مجدون ـ تقدميون
الأتراك	:	قساة ـ متدينون جدا ـ لا يوثق بهم .

وواضح من هذه النتائج وخاصة من اتفاق آراء مائة طالب حول هذه الصفات بصورة تكاد تكون شبه كاملة رغم عدم احتكاكهم الفعلي بمعظم هذه الجماعات ـ واضح من ذلك ان الفكرة النمطية المنقولة هى اساس المكون المعرفى لاتجاه هؤلاء الطلاب ضد او مع هذه الجماعات . وبطبيعة الحال فان هذه الاتجاهات هى خلفية التحامل والتعصب .

ومن التجارب الطريفة الاخرى فى هذا الميدان تلك التى نشرها داديشا(٢) فى ١٩٤٢ وفيها يوضح كيف يتكون سلوك التحامل تدريجيا حيث درس اتجاه طلاب الجامعة فى بعض المدن الامريكية نحو الالمان فى ١٩٣٦ ، ثم فى ابريل ١٩٤٠ ، ثم فى سبتمبر ١٩٤٠ ، حيث اوضحت هذه الدراسة تطور الفكرة النمطية من القالب الموجب الى القالب السالب متأثرة فى ذلك بظروف الحرب العالمية الثانية .

وايضا نذكر تجربة سيجو(٣) التى بدأتها فى ١٩٤١ ، وانتهت بها فى ١٩٤٥ ، وذلك على خمس مجموعات متتالية من طالبات احدى الجامعات الامريكية ، وقد قامت الباحثة بقياس الفكر النمطى عند كل مجموعة تجاه الزنوج واليابانيين والامريكان والالمان .. وقد وجدت الباحثة ان نمطية التفكير عند هؤلاء الطالبات تغيرت بصورة واضحة وخاصة بالنسبة لليابانيين قبل وبعد كارثة بيرل هاربر الشهيرة .

ب ـ المكونات الانفعالية والعاطفية :

اذا كنا قد تعرضنا فيما سبق للمكونات المعرفية للتحامل على انها المدركات والمعتقدات والتوقعات فاننا نرى ان المعرفة والمعتقد فى خلفية التحامل والتعصب ليست اهم على الاطلاق من الانفعال والعاطفة ، لان هذه الاخيرة هى الشحنة التى تصحب رد فعل الفرد المتحامل المتعصب ،

---

(١) أعاد هذه الدراسة جيلبرت فى سنة ١٩٥١ م (اى بعد ١٨ سنة) على طلاب نفس الجامعة (برنستون) ومن الطريف انه وجد ان الفكرة النمطية لم تتغير على الاطلاق بالنسبة لهذه المجموعات الا فى حالة الالمان واليابانيين

(2) Dudycha, G., „ The Attitudes of college students — **J. Soc. Psychol** 1942, 15.

(3) Seago, Dî, „ Stereotypes before Pearl Harbor and after **J. Psychol** 23, 1947.

وهي ايضا ذلك اللون الذى بناء على درجة كثافته وشدته نسمى هـذا السلوك او ذاك تعصبا او غير تعصب . ولذلك فان معظم الدراسات والبحـوث التى اجريت حـول المكونات العاطفيـة والانفعالية كانت تهتم ما تهتم اكثر بعمق وكمية الانفعال الذى يصاحب اتجاه الفرد نحو موضوع او شيء معين . فعلى سبيل المثال يروى دويتش وكولينز(١) ما كتبته سيدة بيضاء سكنت فى حى مختلط من البيض والزنوج :

« انهم دائما (تقصد الزنوج) سكارى معربدون ويتبعون النساء ليلا . »

« بعضهم تبعنى ذات ليلة عندما كنت فى طريقى الى العودة . »

« اننى لن اخـرج اطلاقا .. بعد غروب الشمس .. »

فالتحليل المبدئي لهذه العبارات يوضح ان العاطفة والانفعال فيها هو الاحساس بالخوف والكراهية . وهذا أمر متوقع ، لانه ربما كان تحامل الرجل الابيض على الزنوج حالة كونـه لم يختلط بهم يختلف تماما من ناحية المحتوى العاطفى والانفعالى بالذات عن تحامله عليهم عندما يمارس بالفعل خبرة الاحتكاك المباشر بهم . فقد كان الراى السائد بين المشتغلين بالعلوم الانسانية وخاصة علم النفس الاجتماعى أن من الاساليب التى يمكن ان نستخدمها لتهذيب سلوك التحامل والتعصب هو ان نتيح الفرصة امام المجموعتين المتحاملتين كل منهما على الاخرى للتفاعل الحر المباشر حيث يؤدى ذلك الى ازالةاسباب التعصب . ولكن هناك احتمال قائم بل وايدته كثير مـن الدراسات التى نشرت اخيرا لمجموعة من الدارسين فى هذا الحقل(٢) وهو انه فى حالة اختلاط هذه المجموعات العنصرية قد تنشأ اتجاهات التحامل والتعصب ان لم تكن موجودة اصلا ، وفى حالة سابق وجودها فانها ربمـا تزيد وتتجسد وخاصة فى العاطفة والانفعال حيث ان هذه الناحية هى حصيلة ونتاج الافراد عند تكوين الخبرات العاطفيـة والانفعاليـة مثل الخـوف والكراهية والاحتقار والحب والتقدير والاحترام وما الى ذلك من خبرات انفعالية تمثل المحتوى العاطفى فى سلوك التحامل والتعصب .

جـ ـ المكونات النزوعية :

بعد المعرفة والعاطفة يأتي دور النزوع والسلوك الفعلى للتعبير عن هذه العاطفة وهـــذه المعرفة ، فعندما يكون لدى الفرد رصيد من المعرفة (العنصرية) وتتوفر عنده الشحنة الانفعالية العالية فلا يبقى سوى النزوع العملى ممثلا فى الكيفية والطريقة التى يجب أن يعامل بها اعضاء الجماعة التى يتحامل عليها ويتعصب ضدها ، ومن هنا تبارى الكثير من العلماء والدارسين فى تقدير وقياس هذه المكونات النزوعية فى اتجاهات التحامل والتعصب . وكان اهم ما نشر فى هذا الميدان دراسة بوجاردس (٣) حيث تتلخص فى ان يسأل الفرد عما يفعله بأعضاء الجماعة الاخرى على النحو التالى : ـ

١ ـ الزواج المتبادل بين الجماعتين (جماعة الفرد والجماعة الاخرى) .

٢ ـ اتخاذهم اصدقاء مقربين

---

(1) Deutsch, M , and Collins, M , **Interracial Housing** ...., uni. Minnesota Press, 1951.

(2) James, H.E.O. and others, a series of Unpub. theses, London Uni. 1959-1964.

(3) Bogardus, E.S., " Measuring Social Distance ", **J. app. Social**, 1925 b, 9.

٣ ـ السكنى بجوارهم فى نفس الشارع
٤ ـ الاشتراك معا فى نفس العمل والوظيفة
٥ ـ منحهم حق المواطنة فى نفس البلد (امريكا) .
٦ ـ منحهم فرصة الزيارة فقط للبلاد
٧ ـ يمنعون من دخول البلاد .

وعندما طبق بوجاردس (١) هذا النوع من المقاييس على ١٧٢٥ من المواطنين الامريكيين الذين ولدوا فعلا فى الولايات المتحدة . وجد النتائج التاليـة وذلك بالنسبة الى عـدد مـن الجماعات العنصرية :

	الانجليز	الألمان	اليهود	الزنوج
١ ـ الزواج	٩٤٪	٥٤٪	٨ ٪	١ ٪
٢ ـ الصداقة	٩٧٪	٦٧٪	٢٢٪	٩ ٪
٣ ـ السكنى	٩٧٪	٧٩٪	٢٦٪	١٢٪
٤ ـ الاشتراك فى العمل	٩٥٪	٨٣٪	٤٠٪	٣٩٪
٥ ـ حق المواطنة	٩٦٪	٨٧٪	٥٤٪	٥٧٪

ولتوضيح هذه النتائج يمكن أن نقول أن ٩٤٪ من أفراد العينة وافقـوا على الزواج المتبادل بينهم وبين الانجليز ، ٩٧٪ وافقوا على صداقتهم ، ٩٧٪ رحبوا بالسكن فى جوارهم ، ٩٥٪ وافقوا على الاشتراك معهم فى العمل ، كما أن ٩٦٪ وافقوا على منحهم حق المواطنة . وعلى هذا المنوال يمكن توضيح بقية النتائج فى حالة الالمان واليهود والزنوج .

ومما يجدر ذكره ان بوجاردس نفسه أعاد تجربته هذه مرة أخـرى بعد عشرين سنـة كاملة (٢) حيث طبق مقياسه السابق على ١٩٥٠ فردا من المواطنين الامريكيين الذين ولدوا فى الولايات المتحدة الامريكية ، ومن الطريف انه لم يجد تغيرا يذكر فى النتائج التي حصل عليها سابقا .

وبعد أن استعرضنا المكونات الثلاثة الاساسية لاتجاهات التحامل والتعصب وخاصة الاخير منها ـ اى المكون النزوعى ـ يجب أن يقفز امامنا السؤال التالى :

« هل ما يقدمه الفرد كتابة كنوع من الاستجابة لمقياس بوجاردس على سبيل المثال هو ما يقوم بادائه عمليا اذا مارس الموقف فعلا ؟ .. او بمعنى آخر هل كل هؤلاء الذين وافقوا كتابة على التزواج من الزنوج يقدمون فعلا على هذه الخطوة ؟ ..

هناك كثير من التجارب الطريفة تجيب على هذا السؤال ومن اقدمها واسبقها الدراسة التي قام بها لابير فى سنة ١٩٣٤ (٣) حيث صحب رجلا وزوجته من الصين فى رحلة قطع فيها الولايات المتحدة

(1) Bogardus, E.S., **Immigration and Race Attitudes,** Boston : Heath, 1928.

(2) Bogardus, E.S., " changes in Racial Distances," **Int. J. opin.,** 1947.

(3) La Piere, R., " Attitudes vs. Actions ", **Soc. Forces,** 1934, 13.

وتوقف الزوجان الصينيان فى هذه الرحلة عند ٦٦ فندقا و ١٨٤ مطعما ولكنهما لم يعاملا كملونين (اى لم يقبلا بالفندق أو المطعم) الا مرة واحدة فقط .

وبعد نهاية الرحلة ارسل لابير عن طريق البريد استفتاء خاصا لاصحاب هذه الفنادق والمطاعم المائتين والخمسين يسألهم فيه عما اذا كان يمكنهم قبول الصينيين للاقامة او تناول الطعام عندهم .

وقد قام بالرد على هذا الاستفتاء ١٢٨ فندقا ومطعما . رفض ٩٣٪ منها قبول الصينيين للنوم او لتناول الطعام .

وتجربة أخرى قام بها كتنر وويلكنز (١) فى سنة ١٩٥٢ فقد قامت سيدتان امريكيتان (من البيض) وسيدة امريكية زنجية بزيارة ١١ مطعما باحدى المناطق الشمالية الشرقية بأمريكا . وفى كل مرة كان يحسن استقبال السيدات الثلاثة ويقدم لهن الطعام دون ادنى تأخير . وبعد اسبوعين من زيارة كل مطعم كان يقوم الباحثان بارسال خطاب الى صاحب المطعم يطلبون فيه حجز المطعم لحفل أو مناسبة اجتماعية ، وكانا يوضحان فى الخطاب كذلك ان الحفل خليط من البيض والزنوج . ولكن لم يتلق الباحثان اى رد حتى بعد مضى سبعة عشر يوما من ارسال الخطابات ؛ وبناء على ذلك اتصل الباحثان تليفونيا بأصحاب هذه المطاعم ، حيث تلقوا رفضها جميعا ما عدا قلة وافقت على استقبال الحفل بصورة مبدئية وبتحفظات خاصة .

واذا كان لنا أن نعلق على هاتين الدراستين فلا بد ان نقول انهما تؤيدان الى ما نذهب اليه ضمنا وهو وجود فرق واضح بين التحامل فى صورته اللفظية وبينه فى صورته العملية او الادائية .

ولكن الذى يلفت النظر بصورة حقيقية هوانه من المعتاد أن يكتب الانسان الاستجابة الحسنة والمقبولة اجتماعيا أى التى ترضى عنها معايير الجماعة ولكنه قد يسلك سلوكا يختلف عن ما قدمه كتابة . وفى مثالنا هذا نجد ما يؤكد ذلك . فنجد أن أصحاب المطاعم والفنادق يقبلون الملونين فى حالة وجودهم وجها لوجه ولكنهم يرفضونهم فى حالة استجابتهم لعبارات الاستفتاء اللفظية .

وبالتالى فانه أمامنا احتمال من اثنين : فاما ان يكون التفاعل الحر المباشر (اى وجها لوجه) بين الملونين واصحاب الفنادق يغير من حدة تحاملهم وتعصبهم فيسمحون لهم باستخدام فنادقهم أو مطاعمهم . وفى هذا يمكن ان نسأل ماذا يحدث عند ما يلتقى الجنديان وجها لوجه فى ميدان القتال دون سابق معرفة ودون ما ثأر او جريرة ومطلوب أن يقتل احدهما الآخر ؟ هل نظرة كل منهما فى وجه الاخر تغير من سلوكه التحاملى التعصبى الى سلوك من نوع اخر . . . ام ماذا ؟.

والاحتمال الثانى هو ان يكون الفرد الامريكى بخبرته وانفعاله وعاطفته لا مانع عنده من ان يشارك الزنجى حياته فى شتى صورها ولكن المعايير والقيم التي انشأها مجتمع البيض اصبح عبدا لها بحيث لا يمكن للامريكى الابيض ان يخرج عن سمت هذه القيم فيرميه المجتمع بالشذوذ وعدم السواء . وبالتالي فان الاستجابة اللفظية للفرد الامريكى تختلف بوضوح عن استجابته العملية أو الادائية . وهنا لا نتردد اذا صح هذا الاحتمال فى ادانة المجتمع الامريكي بقيمه التي فرضت على اعضائه سلوكا لفظيا يختلف عن سلوكهم الادائى بالنسبة الى جماعة الزنوج .

(1) Kutner, B., and others, "Verbal attitudes and Overt Behaviour, **J. Abn. Soc. Psychol.**, 1952, 47.

وقد يطول الحوار فى هذا فنقول ان البيض انفسهم هم الذين انشأوا هذه القيم ثم اعتنقوها وعملوا بها ، ولكن ليس كل البيض بل هم الآباء والاجداد الذين ورثوا هذه القيم لأبنائهم والزموهم أن يلتزموا بها . وبقى ان نسأل انفسنا : كم من الصحة والصدق فى هذا الحوار .... ؟

ولنناقش الآن بعض ما كتبه بيتجرو (١) فى كتابه عن شخصية الزنجي الامريكي . فقد تجيب هذه المناقشة عن كثير من الاسئلة التي تقفز أمامنا بين الحين والحين يقول الكاتب ان الدور الاجتماعي للفرد الزنجي يبدأ بكونه حائزا على ذلك اللون الأسود الذى يميزه عن بقية الافراد الآخرين فى نفس المجتمع . ويعلق (بالدوين) على ذلك بقوله ان ذلك اللون هو جزء من الثمن الذى يدفعه ذلك الرجل الملون ضمانا لبقائه فى المجتمع الامريكي . لأن ذلك اللون أعطاه مكانة اجتماعية معينة لو انه أراد التخلص منها لوجد نفسه دون مأوى فى لحظات .

ونحن ــ من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي ــ لا نتردد فى أن نقول ان مثل هذا الدور الاجتماعي يؤدى بالرجل الملون الى حالة من الانفصام الاجتماعي والنفسي حيث يشعر بالعزلة والانفصال عن مجتمعه ثم بالعزلة والانفصال عن ذاته ونفسه . ونقول كذلك ان حواجز اللون والعنصر هي المسئولة الاولى والاخيرة عن ذلك . فالرجل الابيض والرجل الاسود يمكن أن يفهم كل منهما الآخر ويتعايشا معا دون تحامل أو تعصب فى حالة خروجهم من حواجز أو قوالب اللون والعنصر، لأنه فى وجود هذه الحواجز لا يمكن لاى منهما أن يدرك المعانى الانسانية والمشاعر البشرية الموجودة فيما وراء هذه الفشاوات العنصرية . ولا نريد أن نكرر ما دابنا على توضيحه من خلال سطور وفقرات هذه الدراسة ، وهو ان عملية التطبيع الاجتماعي بجميع مقوماتها وعناصرها ومؤسساتها هي صاحبة المسئولية فى خلق وتكوين وانشاء هذه الحواجز والقوالب . فمن طريق عملية التطبيع اكتسب الطفل الامريكي الابيض اتجاها من نوع خاص ، ومن درجة خاصة نحو الطفل الامريكي الاسود . بدأت عملية التطبيع بقصة السادة والعبيد وأفريقيا السوداء وجلد الزنوج وصبرهم وقدرتهم على العمل الشاق ، ثم ذكاء الرجل الابيض وقدرته على أحداث المعجزات بحسن تفكيره وتدبيره .

ولا أريد أن أقول ان هذه الاشياء قد تضمنتها بالضرورة قصص الام لأطفالها فى أمريكا أو فى جنوب أفريقيا ، لأنه ينقصنى الدليل والبرهان على هذا القول والزعم .

ولكن لننظر الى وسائل الاعلام فى امريكا أو فى جنوب أفريقيا كما يقول لوجان (٢) فاننا سوف نجد أن الموديلات او عارضات الازياء أو الرجال فى الاعلانات التجارية من البيض ــ أى صورة الرجل الابيض ــ كما أن أبطال القصص التى تتداولها الايدى من الرجال البيض ، بينما نجد أن دور الرجل الملون سواء فى افلام السينما أو القصص هو دور الرجل الغبي أو الساذج ــ على احسن الفروض ــ أو الذى يقوم بعمل من الاعمال البسيطة التى لا تحتاج الى مهارة ذهنية مثل أعمال التنظيف أو الخدمة العامة فى الفنادق والمطاعم ، أو اذا أريد بالملون خيرا ظهر فى هذه القصص فى أدوار التسلية والفكاهة .

ووسائل الاعلام هذه تخاطب النوعين الابيض والاسود ، فيتكون بناء على ذلك احساس السمو والعظمة عند الطفل الابيض ، كما يتكون احساس النقص والانسحاب عند الطفل الاسود ، واذا أمكن للطفل الابيض أن يعيش فى سلام مع نفسه عندما يشعر أنه أعلى وأعظم من الطفل

---

(1) Pettigrew, T., **A profile of the Negro American**, 1964, Van Nostrand.

(2) Logan, R., **The Negro in American Life and Thought.**, Nadir, N.Y. 1954.

الاسود ، وعند ما يعامله المجتمع معاملة تقوم علىهذا الاساس ، فان الطفل الملون لا يستطيع ذلك اى لا يمكنه أن يعيش فى سلام مع نفسه ، لأنه ــ وان أحس بالنقص والقلة بالنسبة للطفل الابيض ــ الا أنه غير مقتنع بذلك .

ولهذا فان الطفل الملون محق فى أن يسأل نفسه دائما ... من أنا ؟ ... ومن أكون . ؟ ولماذا اكون هكذا .. ؟ وهذه أسئلة لها خطرها بالنسبة لطفل أو مراهق يحاول أن يؤكد وجوده وشخصيته . وتتجلى أخطر هذه الازمات عندما يبلغ الطفل الملون سن المدرسة ويجد الابوان كثيرا من الحرج والقلق فى اخبار طفلهما ما معنىأنه ملون ، وأن لونه القاتم سوف يجعله مختلفا عن بقية اقرانه وأترابه من البيض . وقد سأل أحد الآباء : أيهما أفضل ؟ هل نخبر طفلنا بالحقيقة أو نحجبها عنه أطول مدة ممكنة ، ونتركه ليتلمسالحقيقة بمفرده عن طريق ما يقابله فى مجتمع البيض من صدمات وازمات . وقد أجرى العديد من الدراسات حول اجابة هذا السؤال الذى يؤرق الآباء والامهات فى مجتمعات الولايات المتحدة الامريكية وجنوب أفريقيا ، وهى المجتمعات العنصرية التى تزاول التمييز فى شيء من الرسمية والوضوح .

فتقول جودمان (١) ان الحساسية العنصرية تبدأ عند الاطفال عند نهاية السنة الثالثة ثم تزداد بشدة ووضوح . وقد وجدت الباحثة أنأهم ما يستلفت النظر أن الاطفال الملونين ــ فى مدارس الحضانة ــ يفضلون ان يكون لونهم ابيض . كما انهم يفضلون اللعب (بالعرائس) البيضاء، ويتخذون أصدقاءهم من الاطفال البيض. كما أنهم لا يشعرون بالحواجز العنصرية بنفس السرعة التى يشعر بها الاطفال البيض . وغالبا ما يتقمصون شخصيات أبطال من غير الملونين.

وتقول الباحثة ان هذه دلائل « كراهية الذات » وهي تخف تدريجيا كلما نما الطفل واقترب من السن التى يدرك فيها انه ملون ، وعليه أن يقوم بهذا الدور الاجتماعي . وان كانت هناك ــ حتى عند البالغين والراشدين من الملونين ــ بعض المخلفات والبقايا من هذه الاحساسات والمشاعر ــ (الاحساس بكراهية الذات) .

وكان أيضا من نتائج هذه الدراسة ودراسات أخرى أن تعاليم الآباء لأطفالهم قبل ذهابهم الى المدرسة لا تغنى شيئا ولا تحل محل الخبرات الحادة التى تتكون لدى الاطفال من ازمات التفاعل بينهم وبين البيض .

هذا بالنسبة للاطفال ــ أما بالنسبة للمراهقين من الملونين فتأتى مشكلة الجنس فى المكان الاول ، وتصبح حادة وملحة ، وخاصة فى المجتمعات المختلطة بين البيض والزنوج ، ففى بعض المناطق المتسامحة مثل الشمال فى الولايات المتحدة قد يكون للطفل الملون عدد من الاصدقاء البيض يدعى الى منازلهم وحفلاتهم ، ولكنه بمجرد أنيبلغ بداية مرحلة المراهقه توصد فى وجهه جميع أبواب البيض فلا يدعى الى منازلهم أو حفلاتهم ،وذلك مصدره خوف الآباء البيض أن يحدث نوع من العلاقة قد يؤدى الى زواج فتى ملون من فتاة بيضاء .

ثم تتراكم المشاكل على المراهق الملون وخاصة عندما يتعامل مع معلميه فى المدرسة وزملائه وأصدقائه فى الجوار ممن هم على صلة بعالم البيض ، فيتأكد لديه انخفاض قيمته الاجتماعية وانه لا يمكن ان يكون فى يوم ما صاحب مكانة منالدرجة الاولى . وهذا الاحساس لا بد أن يؤدى بذلك الفتى اليافع من أبناء الملونين الى أزمات عاطفية وانفعالية حادة تؤثر على سلوكه فى ذلك

(1) Goodman, M., **Race Awarness in young children,** Addison-Wesley, 1952.

المجتمع الذى بدأ علاقته معه بالرفض والازدراء . ولنفرض جدلا أن هذا الفتى الملون قد تغلب على هذه الازمات المرحلية وتعداها بصورة او بأخرى ، فان هذا لا يعني نهاية مشاكله فى مجتمع البيض ، فانه سوف يلتقى مرة أخرى بالتمييزالعنصرى عندما يقدم على طلب العمل أو الوظيفة التى اصبح مؤهلا لها ودرب منأجلها ، فسوف تكون الافضلية دائما للرجل الابيض (١) وقد يحرمه التمييز والتفريق العنصرى من أن يسكنفى المكان الذى يحبه وتهفو اليه نفسه . وهكذا لا تنتهي مشاكل الرجل الملون بل تزيد وتتعقد كلما طال به الامد والاجل .

ويقول كاتز وبنيامين (٢) ان آذان الزنوج فى أمريكا لم تسمع من البيض المتعصبين ــ وما اكثرهم ــ سوى نغمات التفوق والعظمة والسيادة التى تميز الرجل الابيض عن الرجل الملون حتى أن كثيرا من الملونين قبلوا هذه الحقيقة وآمنوا بها حتى انه ــ كما يقول الباحثان ــ اذا قدم الدليل التجريبي للرجل الملون على أن ذكاءه وقدراته لا تقل على الاطلاق عن ذكاء وقدرات الرجل الابيض تردد كثيرا فى فهم مضمون هذا الدليل ، بل انه يرفض كثيرا أن يقبله (وذلك فى صورة شعورية او لا شعورية) .

واذا دققنا النظر فيما قاله كاتز وزميلهنجد أن الفكرة التي سيطرت على الرجل الملون بخصوص ذكائه وقدراته انما نبعت من البيئةالبشرية المحيطة به ، حيث لقن أياها من خلال عملية التطبيع والتنشئة غير المقصودة .

وهناك رد فعل متوقع لهذا ــ سواء علىمستوى الشعور والارادة ، أو على مستوى اللاشعور ــ وهو أن يحس ذلك الرجل الملون بأن هذه البيئة تكرهه وتتحامل عليه دون ما سبب او جريرة ، او كما يعبر عنه أحد الزنوج فى أحد الاستفتاءات التى أجرتها مجلة النيوز ويك فى ١٩٦٣ ــ « اننى أشعر بالحزن والقلق لأنني أعاقب طيلة حياتى على ذنب لم اقترفه ، فأنا لم أختر ذلك اللون الذى يسبب لي المتاعب والمشاكل . »

ويحدثنا التاريخايضا عن تحاملالبيئةالبشرية على الملونين سواء فى الولايات المتحدة الامريكية او فى جنوب افريقيا أو « مجتمعات اللعنة » كما تسميها حركات تحرر الزنوج فى كلا المجتمعين

فالعبودية والرق كان لهما أثر عميق فىشخصية الرجل الملون ورثها جيلا بعد جيل رغم انفه وفوق ارادته ، فلم يعترف نظام الرق فى امريكا وجنوب افريقيا بالعبد كانسان على الاطلاق : اى جرده من بشريته وانسانيته على جميع المستويات البيولوجية والمعنوية (٣) وهذا غير ما حدث فى أسبانيا والبرتغال حيث كانت لهاتين الدولتينخبرة القرون فى أعمال الرق من قبل اكتشاف العالم الجديد ، ولذلك تطورت فيهما الامور حتىأصبح للعبيد بعض الحقوق المحددة وان كانت محدودة .

واما بالنسبة لبريطانيا التى لم يكن لها خبرة أسبانيا والبرتغال فان نظامها فى الرق الذى

(1) Hollander, E., and Hunt, R., **Current perspectives in Social Psychology**, Oxford, 1967, 157.

(2) Katz, I., and Benjamin, L., "**Effects of White Authoritarianism** in Biracial Work groups," **J. Abn. Soc. Psychol.**, 61, 1960.

(3) Elkins, S, **Slavery** Uni of Chicago Press 1959.

انتقل الى جنوب افريقيا وروديسيا ثم تبنته امريكا فى مستعمراتها لم يعترف بالعبد أو الرقيق الا كقطعة من ممتلكات سيده حتى من الناحيةالشرعية والقانونية .

ويعقب ماكسيليلاند (١) على ذلك بقوله انالرق والعبودية فى اى صورة وعلى اى صورة تقتل عند الرجل الملون الحاجة الى المعرفة والتحصيل والابداع فبعد انتزاع « العبد » من بيئته الاصلية فى افريقيا يوضع تحت ظروف مغايرة تماما ، حيث يكافأ بالاطعام او الايواء اذا أظهر سلوك الطاعة والخضوع والخنوع ، والعكس اذا ظهر منه سلوك المبادأة او التصرف الاستقلالى .

ولم يكن ذلك هو النتيجة الوحيدة للرق واثره فى شخصية الرجل الملون ، فهناك ما هو ابعد من ذلك ، فأصحاب العبيد من السادة كانوا يدفعون بهم الى صالة المزاد وخاصة الذكور منهم ــ دون مراعاة لأى علاقة من أى نوع نشأت بين عبدذكر وأمة من الاناث فلم يعترفوا ــ اى السادة ــ بزاوج العبيد ــ وينبنى على هذا أن يباع الابفى المزاد ، وينشأ الطفل المولود بين يدى أمه فقط، وبالتالي يلتصق بها ذكرا كان أو انثى ، وبذلكتتأثر شخصيته بشخصية الام وسلوكها ، وهذا أمر له خطره على شخصية الطفل الذكر .

وقد نزعم أن مثل هذه الآثار قد تختفي بنمو الطفل واحتكاكه بغير الأم من أعضاء المجتمع الخارجي ، ولكن للأسف لا نستطيع أن ندعم هذاالزعم ونقويه لأن ظـروف الفقر والاملاق التي يعاني منها الملونون فىأمريكا وفيجنوبأفريقيامتضافرة مع ظروف الهجرة والانتقال من مكان الى آخر دعمت ارتباط الطفل الملون والتصاقه بأمه ، ومنثم تأثرت شخصيته ببعض الخصائص الأنثوية التي تؤدى فى كثير من الأحوال الى الخضوع والانسحاب ، فهناك كثير من الدراسات تؤكد أهمية وجود الأب فى تطبيع وتنشئة الاطفال الذكور اجتماعيا (٢ ، ٣) فبعض الأمهـات اللاتي يربين أطفالهن فى غير وجود الآباء يبالغن فى الرعاية والعناية بهؤلاء الأطفال وخاصة الذكور منهم, وتصل هذه العناية والرعاية الى حد التدليل البالغ الذى يتلف شخصية الطفل ويجعله دائما معتمدا على غيره .

ويمكن أيضا تدعيم هذه الفكرة ــ فكرة التصاق الطفل الملون بأمه بأن نقـول أن الرجل الملون ــ وخاصة منغير ذوى المهارة ــ لا يمكنه أن يجد العمل الثابت بنفس السهولة التي تجده بها الانثى من الملونين وخاصة كخادمة أو مربية أو عاملة نظافة فى البيوت الخاصة ، ولذلك فان الأسرة تعتمد غالبا وربما بصورة شبه دائمة على دخل الأم من عملها ، فتتجسد بذلك صـورة الأم كمصدر للرزق والعيش فى المحتوى النفسي لأطفالها ، بينما لا يكون الحال كذلك بالنسبة للأب الذى يفقد عمله من حين لآخر .

ويتدخل عامل الهجرة والانتقال ليضيفالجديد الى هذه الصورة ويمعن فى فصل الأب عن بنيه بغرض العمل أو كسب القوت وتقوم الأم على تربيتهم تحت ظروف من الحياة غير طبيعية فينشأون على النمط والشكل الذى سبـق أنتعرضنا له بالوصف والتعليق .

---

(1) McClelland, D.C. **The Achieving Society,** Van Nostrand, 1961.

(2) Bandura, A., and Walters, R., **Adolescent Aggression,** N.Y. Ronald, 1959.

(3) Mussen, P., and Distler, L., "Masculanity.......," **J. Abn. Soc.** 1959.

ولنا هنا تعليق اخير قد يكون ذا أهمية خاصة لما سميناه سابقا « بمجتمعات اللعنة » وهو جملة كتبها هنرى مايرز (١) نستعيرها بنصها :

" A nation established in the name of equality must keep the faith or lose its best excuse for being."

نستطيع أن نقول الآن اننا قد تعرضنا فى شىء من التحليل لسلوك التحامل والتعصب من ناحية ما يكمن فى خلفيته من اتجاهات ومعتقدات عنصرية كما اننا اشرنا أيضا على هذا النحو الى أصل هذه الاتجاهات والمعتقدات ونشأتها وتطورها ويبقى أمامنا الآن أن نناقش أمرين كلاهما على جانب كبير من الأهمية أولهما الظروف والعوامل التي تساعد على بقاء واستمرار التحامل والتعصب بين جماعتين عنصريتين وثانيهما العوامل التي يمكن أن تساعد على تخفيف وتقليل حدة التوتر الناجم عن الاتجاهات والمعتقدات العنصرية .

فأما عن الأمر الأول وهو عوامل الابقاء والاذكاء فيمكن أن نصنفها على الوجه التالي :

أ ـ عوامل تتعلق بالتركيب الاجتماعي لكل جماعة عنصرية على حدة .

ب ـ عوامل تتعلق بالعمليات النفسية الفردية .

جـ ـ عوامل تتعلق بالمقومات الحضارية الخاصة بكل جماعة

أ ـ **عوامل التركيب الاجتماعي** : وهذه يمكن تحليلها على الصورة التالية : ـ

١ ـ الاذعان لمعيار التحامل والتعصب :

نريد أن نوضح شيئا فى بدء المناقشة وهو ان هناك ما يسمى بالجماعة الداخلية وما يسمى بالجماعة الخارجية ، فالأمريكي الأبيض يعتبر جماعة البيض جماعة داخلية بالنسبة اليه بينما يعتبر جماعة السود أو الملونين جماعة خارجية والعكس صحيح بالنسبة للامريكي الملون فالجماعة الداخلية بالنسبة اليه هي جماعة السود ، وأماجماعة البيض فهي الجماعة الخارجية .

والاذعان لمعيار التعصب والتحامل الذى ينشأ فى الجماعة الداخلية تجاه الجماعةالخارجية هو أول نواتج الطاعة الاجتماعية التي سبق الاشارة اليها كناتج أيضا من نواتج عملية التنشئة والتطبيع الاجتماعي .

فعندما يتكون الاتجاه العنصرى والعقيدة العنصرية وتتوفر الشحنة الانفعالية العالية لانتاج سلوك التحامل فانه يصبح من الضرورى أن يتكون معيار خاص تكون وظيفته المحافظة على هذا المستوى من التحامل والتعصب .

وهذا المعيار الخاص لا يكون ـ فى جميع الأحوال ـ صريحا واضحا ولكنه دائما ما يختفي وراء عديد من القيم والمعايير الأخرى التي تنتشر فى الجماعة .

ومن الدراسات التي اجراها بيتجرو (٢) فى جنوب افريقيا حول مسألة المعيار الخاص

(1) Myers, H.A., **Are Men Equal, the Meaning of American Democracy,** Great Seal, N.Y. 1963 P. 153.

(2) Pettigrew, T.F. " Personality and Socio cultural factors in Intergroup attitudes, **J. Conflict Resolut.** 1958, 2.

بالمحافظة على مستوى التحامل والتعصب ضد السود ظهرت نتائج تؤيدنا فيما نذهب اليه من وجود هذا المعيار الخاص ووجوده مختلطا بغيره أو مختفيا وراء المعايير الأخرى . فقد عين الباحث درجة تعصب البيض فى جنوب افريقيا ضد السود مستخدما فى ذلك مقياسا خاصا بالاتجاهات العنصرية ثم قسمهم (اى البيض) الى فئتين فئة شديدة التعصب والتحامل ضد الأفريقيين السود وفئة قليلة التعصب والتحامل . ثم عاد الباحث وعين درجة اذعان هؤلاء البيض ، وكانوا جميعا من طلبة الجامعة ـ للمعايير الاجتماعية ، مستخدما فى ذلك مقياسا خاصا بالطاعة الاجتماعية وقسمهم مرة أخرى الى فئتين : فئة شديدة الطاعة والاذعان للمعايير الاجتماعية ، وفئة قليلة الاذعان ، ومما يلفت النظر ان الباحث وجد أن الفئة شديدة التعصب تكاد تكون هي بنفسها الفئة شديدة الاذعان للمعايير الاجتماعية .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية ربما كان الأمر أوضح من ذلك وخاصة اذا تكلمنا عما يترتب على هذه الطاعة وهذا الاذعان من اثابة أو عقاب ،حيث يتمثل ذلك فى نتائج الانتخابات الأمريكية وخاصة فى الجنوب عند نجاح من يذكي نار التعصب والتحامل ضد السود ، ويؤكد استمرار التمييز العنصرى وفشل من يحاول ان يستجيب لنداء خاص فى نفسه بأن الانسان هو الانسان مهما اختلف اللون أو الجنس أو اللغة أو ما هو غير ذلك .

وواضح من ذلك أن عملية الاثابة والمكافأة عند الاذعان لهذا المعيار والعقاب عند الخروج عليه انما سوف تعزز سلوك التحامل والتعصب عند أفراد الجماعة الداخلية ضد افراد الجماعة الخارجية .

٢ ـ انماط التفاعل الاجتماعي :

مما لا شك فيه أن أنماط السلوك والتفاعل بين الجماعات سوف تعزز موقف التحامل والتعصب ، وخاصة اذا كان الاتجاه العنصرى قد سبق وتكون وتدعم ، وهنا تقوم كل جماعة أو كل فرد بتفسير انماط سلوك الجماعة الأخرى أو الفرد الآخر فى ضوء هذا الاتجاه العنصرى أو العقيدة العنصرية ، فعلى سبيل المثال اذا ارتكب احد الملونين فى جنوب أفريقيا جريمة من الجرائم الاجتماعية فاننا نجد أن درجة التماسك والتعاطف بين البيض قد ارتفعت ردا على هذا النمط من السلوك ، وبالتالي فان هذا سوف يؤدى بالضرورة الى الاحتفاظ بمستوى تحامل البيض على الملونين كأحد ردود الفعل التي تحمي حدود جماعة البيض وقياسا على ذلك فان اى سلوك من جانب الملونين سوف تفسره جماعة البيض على انه نمط خارج عن نواميس المجتمع وبالتالي فهو ذنب وجريرة تستوجب الوقوف فى وجهه ومما نعته . وربما نكون أيضا محقين عندما نسوق عكس هذه الصورة ، اى اذا كان الرجل الأبيض هو الذى ارتكب ذلك الخطأ ونصبت جماعة الملونين من نفسها حكما عليه وعلى ما يقدمه من تصرف وسلوك .

٣ ـ تعضيد الزعامات لمفاهيم التحامل والتعصب:

سوف يظهر زعيم أو أكثر فى كل جماعة . ومن هؤلاء من يعتمد على مواقف الأزمات ليؤكد وجوده وقيادته وليرفع درجة تماسك أفراد الجماعة من حوله . ومن المبادىء الأساسية فى علم ديناميات الجماعة أن درجة التماسك الداخلي لأى جماعة من الجماعات ترتفع وتبلغ درجتها القصوى عند ظهور عدو خارجي يهدد كيانها ووجودها ، فقد يكون أعضاء الأسرة الواحدة فى شغل شاغل عن بعضهم البعض ولكنهم يتعاطفون ويتماسكون فى حالة مرض أحدهم بصورة تهدد بكارثة أو فجيعة .

ولهذا السبب فان الزعيم سوف يحرص الحرص كله على أن يجسم الخطــر الخارجــي ويجسده ويبرز صورته واضحة جلية فى المتسع النفسي الاجتماعي للأفراد حتى يلتفوا من حوله وفى حالتنا هذه ـ حالة الجماعات الداخلية والخارجية ـ ليس هناك خطر أشد وأعتى على البيض يعادل خطر الملونين ، ولا على الملونين يعادل خطر البيض . وبذلك فان الزعيم سوف يؤكد جميع مفاهيم التحامل والتعصب من أجل بقائه وبقاء نفوذه وسلطته .

٤ ـ تعضيد البيئة لمفاهيم التحامل والتعصب :

كثير من مقومات البيئة الخارجية يساعد على استمرار التحامــل والتعصب ويحفــظ مستوى ثابتا من التوتر والقلق تتميز به شبكة العلاقات بين الجماعتين الداخلية والخارجية ، وأول هذه المقومات هي وسائل التواصل المنتشرة والمتداولة مثل القصــة والسينما والراديــو والتلفزيون والاعلان والأغاني والأمثال الشعبية المتداولة والصحافة والفكاهات وما الى ذلك .

ولا اعتقد أنني فى حاجة الى كثير من الشرح والتوضيح فى هذا المجال ، فجماعات الأقلية ـ مثل الزنوج فى امريكا ـ يظهرون دائما فى هذه الوسائل فى أدوار حقيرة غير ذات أهميــة أو تأثير وذلك كما سبق أن أسلفنا .

وربما كان من الطريف أن نسوق مثالا من الامثلة الشعبية الدارجة فى أمريكا يدل على الفرد الذى تتجمع فيه جميع الخصال السيئة أو بمعنى آخر شخص لا فائدة فيه ولا نفع ـ يقول المثال (زنجي يهودى وأعور) A negro, a jew and one eyed Jack.

وأطرف من ذلك الفكاهة التي يرويها الأمريكيون عــن طالب ملون أراد الرئيس الراحــل ايزنهاور أن يكرمه فدعاه الى تناول الشاى معه فى البيت الأبيض ،فذهب الطالب الملون واشترى كتابا يشرح أصول التعامل مع كبار الشخصيات من الناس ثم حفظه عن ظهر قلب . والتقى الطالب الملون بالرئيس حيث قدم له الشاى بنفسه فنهض الطالب واقفا وانحنى فى أدب وقال « شكرا لك يا سيدى أو يا سيدتي حسب ما تقتضيه الظروف » .

وهكذا فان القصة المقروءة أو المثل الشعبي الدارج أو الفكاهة المتداولة بجانب كل وسائل الاعلام والاعلان سوف تساعد ولا شك علي استمرار اتجاهات التحامــل والتعصب وعلى حفــظ المستوى المطلوب من التوتر والقلق .

ب ـ عوامل تتعلق بالعمليات النفسية الفردية :

وهذه يمكن توضيحها وتحليلها على النحو التالى : ـ

١ ـ الشعور بالاحباط :

لقد كان فرويد أول من ناقش فى شيء من التفصيل العلاقة بين احساس الفرد بالاحباط اى احساسه بأنه لم يستطع تحقيق أهدافه واشباع حاجاته وبين لجوء الفرد الى نوع خاص من السلوك العدائي ، وقد أيد هذا الرأى عديد من الدراسات التى تلت فرويد ومدرسته ، فيقــول دولارد وآخرون (١) ان العنصر الذى يسبب الاحباط غالبا ما يكون غير مناسب لأن يمثل هدف

(1) Dollard, and others, **Frustration and aggression,** New Haven, 1939.

الكراهية والعدوانية ، وذلك لأنه غالبا ما يكون سلطة او قوة تفوق امكانيات الفرد الذى يحس بالاحباط ، وبالتالي فانه ـ اى هـذا الفـرد ـ يبحث عن كبش فـداء يسلط عليه عدوانيتـه وكراهيته ، وغالبا ما يكون هذا الأخير ضعيفا مسالما .

فعلى سبيل المثال اذا تقدم رجلان احـدهما ابيض والآخر ملون لوظيفة واحدة ، وأخذ الحكَمُ بأسباب العدل والموضوعية وفضل أحدهما على الآخر معتمدا فى ذلك على الكفاءة فقط ، فان الرجل الآخر ـ وقد احس بالاحباط لايسلطعدوانيته وكراهيته على الحكم حيث انه قـوة وسلطة بالنسبة اليه ، ولكنه سوف يتجه الى الفرد الآخر متحاملا عليه .

وربما أمكننا أن نوضح اكثر من هذا اذا أخذنا فى اعتبارنا المستوى العام ، وحاولنا أن نفسر ما قاله فارس جلوب فى مناظرته العامة فى لنـدن ـ وقد سبق الاشارة الى ذلك من أن اليهود أضطهدوا فى جميع المجتمعات تقريبا ما عـدا المجتمعات العربية ، حيث يمثلون هم الآن دور المضطهد الظالم ، فقد كان لعمليات القمع الشديدة التي عانى منها اليهود فى المانيا النازية او فى دول شرق أوروبا ، أو حتىفيدول الغربدور واضح فى تكوين شعور عام بالاحباط تكونلدىاليهود نتيجـة عدم تمكنهم من تحقيق ماربهم وأهـدافهم ، ومما لا شك فيه أن هذه المجتمعات كانت هى السلطة والقوة بالنسبة لليهود ، فلم يستطيعوا أن يسلطوا عليها كراهيتهم وعدوانيتهم ، وبحثوا عن كبش فداء فوجدوه فى شعب طيب مسالم غير عدوانى .

ونقول أخيرا انه اذا كان الاحباط يسبب العدوانية فان السلوك العدائى الناتج سوف يحفظ للتحامل استمراره وثباته ، وتفسير ذلك أنه طـالما أن السبب الاساسى فى الاحباط لم يتمكن الفرد من ازالته فان الكراهية والتحامل سوف يعيشـان دائما من خلال بحث الفرد الدائم عـن كبش الفداء .

٢ ـ الحاجات الشخصية :

قد يكون من الحاجات الشخصية للفرد والملحة عليه ان يصل الى درجة اجتماعية أعلى من تلك التى يشغلها ، ولا يمكنه أن يحقق هذه الحاجة ويشبعها الا اذا اتخذ من سلوك التحامل نمطا مميزا لسلوكه وتصرفه . فعلى سبيل المثال نجد أن بعض الناس الذين يريدون أن يرتقوا الى طبقة اجتماعية أعلى ابرزوا تحاملهم وتحيزهم ضد طبقةالخدم أو العمال البسطاء ، وفى ذهنهم تصـور واحد هو أنهم لن يكونوا سادة الا اذا تحاملوا علىالعبيـد .

وقد يكون من الحاجات الشخصية الملحة أيضا حاجة الفرد للامن والطمأنينه ، الامر الذى لا يتحقق الا اذا لفظ ورفض الاختلاط بأعضاء الجماعة الخارجية ، محافظا بذلك على حدود آمنة مطمئنة بينه وبينهم ، وذلك عن طريق التعصب والتحامل .

٣ ـ الدين والمذهب :

وهذا أمر يجب ان ننظر اليه على أنه مكون نفسى شخصى وعلى هذا الاساس ظهر اتجاهان رئيسيان فى دراسة علاقة الدين والمذهب بموضوع التحامل والتعصب ، أولهما : يرى أن الدين يمحو فروق اللون والعنصر ، وأنه اى الدين يأتي فى المرتبة الاولى من حيث التمييز بين البشر ،

وقد تزعم هذا الاتجاه روكيش وآخرون (١) حيث قاموا باجراء دراسة على مجموعة من البيض فى الولايات المتحدة فسألوا الافراد من اى الانواع التاليه يختارون أصدقاءهم : ـ

١ ـ شخص أبيض متدين
٢ ـ شخص زنجى متدين
١ ـ شخص أبيض متدين
٢ ـ شخص أبيض ملحد

ومن هذه الدراسة خرج الباحثون بأن الدين أهم من اللون .

والاتجاه الثانى يرى العكس أى أن اللون والعنصر أولا ثم الدين والمذهب ثانيا ، أو بمعنى آخر كما يقول أحد البيض المتدينين « هؤلاء السود أصبحوا على ديننا لأننا أفضل منهم »وتزعم هذا الاتجاه ترياندس (٢) حيث انتقد دراسة روكيش وقال انها لا صلة لها بموضوع التعصب والتحامل ، بل تدور حول الصداقة والاختيار ،وبذلك استخدم وسائل أخرى لقياس التحامل والتعصب ، فوجد ان اللون والعنصر يأتيان فى المركز الاول بالنسبةللتمييز بينالافراد يلىذلك الدين والمذهب .

وهناكدليل آخر يؤيد ترياندس فيما ذهباليه ، وهو ما وصفه بتيجرو (٣) عن تجربته فى جنوب الولايات المتحدة عندما قارن بين ستة ابعاد اجتماعية مختلفة ، حيث وجد أن : النساء أكثر تعصبا من الرجال ـ والمتدينين أكثر تعصبا منغير المتدينيين ـ وذوى الطموح أكثر تعصبا من القانعين ـ وأعضاء الحزب الديمو قراطىأو الجمهورىأكثر تعصبا منالمستقلين ـ والشبابأكثر تعصبا من الشيوخ ـ وغير المثقفين أكثر تعصبا من المثقفين .

ج ـ عوامل تتعلق بالمقومات الحضارية لكل جماعة :

وهذه العوامل تتركز غالبا فى القيم الحضارية السائدة فى الجماعة ، حيث يتحول الاتجاه العنصرى شيئا فشيئا ناحية الثبات والاستقرار ، فيصبح جزءا من الايديولوجية الحضارية للجماعة التى هى عبارة عن الكل المتكامل من الأفكار والاتجاهات والمعتقدات والقيم وهذه الأيديولوجية فى هذه المجتمعات ـ مجتمعات التمييز العنصرى ـ تذكى لهبالتعصبوالتحامل، اذ ربما قال الجيل الحالى « هذا ما وجدنا عليه آباءنا » فلم يكن لهم سبيل الى التغيير أو التبديل ، لأن هذه هى فكرة الجماعة التى اتخذت صفة التقديس والاحترام . ومرة أخرى لا نريد أن نكرر الاتهام لعملية التطبيع والتنشئة اذ انه واضح ثابت ، فهي المسئولة أصلا وأساسا عن تكوين هذه الايديولوجية واحاطتها بالحدود الفاصلةالمقدسة.

والامر الثاني الذى لا بد من مناقشته أيضا هو العوامل والاسباب التى يمكن أن نأخذ بها لتخفيف حدة التحامل والتعصب .

ولنبدأ هذه المناقشة فنقول انه طالما أن المسئولية الكبرى فى هذا المجال تتعلق بالعملية الاساسية فى انشاء البشر وتعليمهم وتثقيفهم وتحضيرهم ـ أى عملية التطبيع الاجتماعي ـ فانه يمكننا أن نقول بلا تردد ان السبيل الوحيد لازالة وتعطيل الاتجاهات والعقائد العنصرية وما

(1) Rokeach, M, **The Open and closed Mind,** N.Y. basic books 1960.

(2) Triandis, E.P., "a note on Rokeach's Theory of prejudice," **J. Abn. Soc. Psychol** 1961, 62.

(3) Pettigrew T.F., "Personality and Socio cultural Factors", **J. Conflict Resolut** 1958.

يترتب عليها من تحامل وتعصب هو عملية تطبيعاجتماعي صحيحة سليمة يقوم بها ويشرف عليها أفراد أصحاء أسوياء اجتماعيا ونفسيا ، ومن المبادىء الهامة والاساسية لعملية التطبيع الاجتماعي الصحيحة هو أن تؤمن اولا أنها أى عملية التطبيع ليست بسيطة ، ولكنها معقدة ومتعددة الجوانب والزوايا ، وبالتالي فاننا لن نستطيع أن نقترح حلا وحيدا أو نموذجا محددا لما يجب أن تكون عليه عملية التطبيع ، ولكنه لا بد أن نقول انه اذا أريد حل صحيح لمشاكل هذه العملية فلا بد أن تعالج جميع الجوانب والاخطاء فى وقت واحد ، حتى يمكننا أن نتوقع تغييرا يمكن تقديره والاحساس به ، فعلى سبيل المثال يجب ان تعالج اخطاء القوانين العنصرية فى الولايات المتحدة الامريكية او فى جنوب افريقيا فى نفس الوقت الذى تتعدل فيه خطة وسائل الاعلام ومحتواها ومناهج التعليم وفلسفته وأسسه ،وبالتالى فانه يصبح من المتوقع فى هذه الحالة ــ وفى هذه الحالة فقط ــ أن نلحظ تغييرا فى العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العنصرية كما يجب أيضا أن نكون واقعيين فى احداث هذه التغييرات المنهجية او تلك التى تتعلق بالمحتويات ، فلا يكون مرجعنا فى التفكير هو المثالية الكاملة حيث نتصور أن تذوب جميع الاجناس والجماعات العنصرية فى جماعة واحدة بلا حدود أو فواصل من الناحية المادية ، ولكن من الاجدى أن تهتم أصول عملية التطبيع الاجتماعى سواءعن طريق وسائلها المقصودة أو غير المقصودة بتوضيح معنى الجنس والعنصر توضيحا علميا موضوعيا دقيقا ، مع ابراز الظروف والملابسات التاريخية التى أحاطت وتحيط بكل جماعة عنصرية ، وهذا يعنى اذابة الحدود والفواصل العنصرية بصورة معنوية عندما تأتى العقيدة التى يمكن أن تعتنقها جميع الاجناس والعناصر فى المكان الأول .

ومن المبادىء الهامة والاساسية أيضا لعملية التطبيع الاجتماعى الصحيحة أن تقوم على فكرة الانتشار والاتساع ، وليس على المحلية الضيقة التى تكون عند الطفل ، ومن ثم الفرد البالغ نوعا من الذهن المغلق والفكر الجامد فلا يصبح من الممكن تغيير اتجاهه او اقناعه بفكرة جديدة .

وتحقيقا لهذا المبدأ ــ يجب أن تعتنى عملية التطبع فى أى جماعة من الجماعات ليس بحضارتها النوعية فقط ، بل تمتد الى حضارات الجماعات الاخرى وخاصة التى تقترب منها ماديا أو معنويا وليكن هذا الاهتمام موضوعيا منصفا ، فلا يكون اهتمام البيض بحضارة الزنوج مبنيا على ابراز دور الخرافة والبدائية فى حياتهم أو معنى مثلث التجارة فقط (نقل العبيد من أفريقيا) . بل يجب أن تهتم أيضا بفضل العبودية عن اللون وأن تبرز امكانية القدرة والابداع عند جميع الاجناس والالوان .

وتحقيقا لهذا المبدأ ايضا يجب أن تهتم عملية التطبيع بفرص اللقاء وتبادل الخبرة بين أعضاء الجماعات العنصرية ، وذلك تحت الظروف الملائمة والتى تتيح تكوين الاتجاهات الموجبة عند كلا الجانبين ، فلا يكون هناك لقاء بين مجموعة من المثقفين من البيض ومجموعة من المزارعين السود، فانه وأن توفر لدى الفرد المثقف أن يفهم المزارع بظروف حياته وامكاناته فان المزارع الاسود سوف لا يفهم المثقف الابيض من أى ناحية من نواحيه .

كما يجب أن تهتم عملية التطبيع أيضا بنشر المعلومات الصحيحة وغير المشوهة أو الموجهة توجيها سلبيا خاصا عن الجماعات العنصرية الاخرى حتى تتاح الفرصة لاعضاء الجماعة لتكوين المعرفة الصادقة عن اعضاء تلك الجماعات وعن عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم .

ومن المبادىء الهامة والأساسية الاخرى لعملية التطبيع الاجتماعي الصحيحة انها عملية ليست قصيرة الأمد أى انها لا تأخذ في حسابها الحاضر فقط بل يجب أن تنظر دائما بعين التنبؤ الى المستقبل اذ انها عملية دائمة ومستمرة ومتصلة الحلقات .

وتحقيقا لهذا المبدأ يجب ان تهتم عملية التطبيع بمستقبل الطفل بقدر اهتمامها بحاضره فتعده للغد من ناحية الفكر والاتجاه والقيمة والمعتقد ، وبذلك تبنى له طريق الاتصال بالحضارات الأخرى ليتفهم أسسها ومبادئها ويتعرف على قوانين تطورها ونموها وهو فى ذلك ناقد علمي موضوعي . وربما كانت هذه هي أهم النقاط جميعا ، فان تكوين الاتجاه العلمي الموضوعي هو بمثابة تحصين ضد تكوين اتجاهات التحامل والتعصب . وتكوين الاتجاه العلمي لا يحتاج الى تفهم النظرية والمبدأ بقدر ما يحتاج الى الممارسة والمران .

وتحقيقا لهذا المبدأ ايضا يجب الا تتوقع الجماعات العائد السريع من أبنائها كمكافأة لها على تطبيعهم وتنشئتهم اجتماعيا وحضاريا ، بل يجب أن تعطيهم الفرصة للاشتراك في حضارات وثقافات أخرى . وتحقيقا لهذا المبدأ ايضا يجب أن تعمل عملية التطبيع الاجتماعي على ابراز الأهداف الانشائية الأصيلة التي تسمو فوق كل جماعة عنصرية بحدودها الضيقة ، وذلك من أجل تدريب أفراد كل جماعة لأن يكونوا أعضاء بصورة أو بأخرى في مجتمعات أوسع واشمل مما يعيشون فيه حاليا وبذلك تكون أي عملية التطبيع قد أكدت دوامها واستمرارها واتصال حلقاتها .

ويبدو بذلك أن الأمر شاق وعسير ، وان الطريق صعب وطويل ولكن لا بد أن يكون هناك امل في التغيير ، فان رحلة الألف ميل تبدأ دائما بخطوة واحدة .

خاتمة وتعليق :

لقد ادخرت بعض نقاط المناقشة الى هذه الخاتمة حتى اشعر وانا بصدد الانتهاء من هذه الدراسة كما لو كنت مقبلا عليها من جديد .

فقد وضح من تيار المناقشة السابقة وخاصة في تحليل العلاقة بين عملية التطبيع الاجتماعي وبين سلوك التحامل والتعصب أن معظم مجتمعاتنا العالمية المعاصرة تعاني من هذه الأزمات ، سواء بصورة مفتوحة واضحة ، كما هو الحال في جنوب أفريقيا وروديسيا والولايات المتحدة الأمريكية وما بقي للبرتغال من مستعمرات . أو بصورة مغطاة ولكن لها رائحة تفوح كما هو الحال في بعض المجتمعات الغربية الأخرى مثل المجتمع الانجليزى أو المجتمع الألماني .

وقد يتبادر الى الذهن أن عنايتنا في هذه الدراسة قد اقتصرت على التحامل والتعصب ضد السود أو غيرهم من الأقليات الأخرى في أمريكا وجنوب أفريقيا ، ولكن في حقيقة الأمر هناك صور كثيرة أخرى من التحامل والتعصب كنت اود ان اعالجها بالمنهج العلمي الذى اعتقد أنني التزمت به خلال المناقشة والتحليل ، ولكن ما كتب عن هذه الصور من التحامل والتعصب لا يعطينا الفرصة لذلك ، فمعظمه انطباعات شخصية او ملاحظات عابرة لا تتوافر فيها العلمية الموضوعية .

ومن اهم هذه الصور : التحامل والتعصب بين الروس والأمريكان وخاصة في السنوات العشرين الأخيرة (أى بعد الحرب العالمية الثانية) وما كتب في هذا مجرد انطباعات شخصية أو ملاحظات لبعض الرحالة الأمريكيين في روسيا أو الروس في أمريكا . ولو أنه معلوم ولا شك ان ما بين النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي قد يؤدى الى التحامل والتعصب .

وكذلك المسلمون في روسيا كأقلية عنصرية فلم يكتب عنهم الا القليل وحتى هذا القليل كتب من وجهة نظر غير محايدة (١) .

---

(1) Wheeler, G., **Racial Problems in Soviet Muslim Asia,** Oxf. Uni. 1967.

وكذلك العرب في اسرائيل كمواطنين من الدرجة الثانية ، فلم تتوافر لدينا المعلومات العلمية الموضوعية عنهم حتى يمكن ابراز هذا الموضوع الذى هو على جانب كبير من الأهمية .

ونعود فنسأل في هذه الخاتمة « هل يمكن لنا أن نعترف بفشل عملية التطبيع الاجتماعي على الصعيد العالمي ؟ حيث أن نواتجها كما نرى ونشعر ونحس وخاصة منذ بداية عصر التكنولوجيا الحديث أصبحت تؤكد ذلك .

وهل هناك طريق لاصلاح ما أفسدته أيدى أجيال سابقة لهذه الأجيال الناشئة ، أو بمعني آخر اكثر دقة وصراحة هل من سبيل لاصلاح ما أفسدته ايدينا نحن ؟؟ ..

لقد سبق أن أشرنا الى ذلك في سطور سابقة وخاصة عندما حاولنا أن نناقش العوامل التي من شأنها ان تخفف حدة التحامل والتعصب ويمكن أن نعود اليها مرة أخرى عندما تؤكد اهمية تدريب هذه الأجيال الناشئة على الطريقة العلمية الموضوعية في التفكير وفي اتخاذ القرارات وفي فهم وقبول الآخرين . ان الطريقة العلمية هي التي سوف تكون عند الفرد اتجاها علميا وقيمة علمية تمكنه من الحكم على الأشياء حكما موضوعيا مجردا بعيدا عن الهوى والذاتية ، وربما كان المثال الذى اريد أن أسوقه هنا قاسيا بعض الشيء وهو قصة يرويها ويتندر بها الملونون في أمريكا ، فقد حدث في يوم أن تقاتل البيض والزنوج في احدى الولايات ، وجرح من الجانبين عدد كبير ، منهم من نقل الى المستشفى وكان بحاجة ماسة الى عملية نقل الدم . وكان الجريح أبيض ولم تتفق فصيلة دمه الا مع فصيلة دم ممرض زنجي ، فأمر الطبيب وهو أبيض بنقل الدم لانقاذ الجريح ، ولكن الممرضة المشرفة على ذلك ـ وهي من البيض أيضا ـ احتالت حتى كسرت الزجاجة التي أعطاها من دمه متبرعا ذلك الممرض الزنجي ، وتركت الجريح يموت ، وتكتمل القصة عندما تقول الممرضة عند حسابها « انني لم أستطع أن أرى دم هؤلاء الأشقياء يختلط بدم السادة من البيض ... » .

وواضح أن الطبيب أبيض ، ولكنه يتمتع بالاتجاه العلمي والقيمة العلمية ، وواضح أيضا أن الممرضة من البيض ، ولكنها اتخذت قرارا بعيدا عن الموضوعية كل البعد متأثرة في ذلك بالذاتية والهوى .

وفوق الطريقة العلمية في التفكير تأتي العقيدة التي يمكن أن تعتنقها جميع الألوان والأجناس البشرية ويشعرون جميعا في ظلها بالانتماء الى الأصل الواحد والجذور الواحدة فالاسلام والمسيحية ، وهما من ابرز الديانات التي ملأت العالم حبا وطمأنينة ، قاما على التسامح وتقبل الآخرين مهما كانت ألوانهم وأجناسهم ، بل وأديانهم أيضا ، فالكل الى الله والى الله يعود ..

فهل نحن في حاجة الى مسيح آخر أو محمد آخر حتى تنتهي أزمات التعصب والتحامل التي تشعل نار الخوف والقلق والفزع في شعوب بأكملها من حين لآخر ؟ ..

اعتقد ان المسيح ومحمدا هما ما تركاه من تراث وتعاليم ..

ولا أجد خيرا من هذه القصة الطريفة لأختتم بها هذه الدراسة وهي قصة ذلك العبد الأسود الذى كان يعمل في بناء كنيسة حتى أرهقه التعب والنصب فلجأ الى داخل المبنى ونام ، وهنا ايقظه السيد الأبيض فى غلظة وقسوة قائلا له ... « أيها الغبي ألا تخجل من نفسك كيف تنام فى مكان يوجد فيه الرب ؟ ... » .

فقال العبد : « دلنى يا سيدى على مكان لا يوجد فيه الرب وانا انام فيه » .

من المراجع

1. Backman, C , " Origins of Prejudice and Discrimination," in **Social psychology,** 1964
2. Barker, R G , and Wright, H F , **Midwest and its children,** Evanston III, Row, Peterson & Co , 1954
3. Bogardus, E S , " Measuring Social Distance ", **J. App. Social,** 1925 b, 9
4. Bogardus, E S , **Immigration and Race Attitudes,** Boston Heath, 1928
5. Bogardus, E S , " Changes in Racial Distances," **Int. opin. attitude Res.,** 1947, 1, No 4
6. Brown R , **Social Psychology,** Col McMill 1965, P 193
7. Chein, I , " Some considerations in combating intergroup prejudice," **J. educ. Sociol.,** 1946, 19
8. Child, L I , in **Hand book of Social Psychol.** Ed G Lindzey, P 655, 1954
9. Crandall, S , Orleans, A , Preston & Rabson, **Child Develop** 1958, 29, 429-444
10. Deutsch, M , and Collins, M , **Interracial housing** , Uni Minnesota, 1951
11. Dollard, J and others, **Frustration and Aggression,** N Haven 1939
12. Dudycha, G , „ The attitudes of college students toward War and the Germans " **J. Soc. Psychol.,** 1942, 15
13. Elkins, S , **Slavery.,** Uni of Chicago Press, 1959
14. Goodman, M , **Race awareness in young children,** Addison-Wesley, 1952
15. Hollander, E , and Hunt, R , **Current perspective in Social Psychology,** Oxford, 1967, 151-157
16. James, H E O , **Lectures in Social Psychol.,** 1961, London Uni.
17. Jame, H E O , and others, **A Series of Unpub. theses,** London Uni Ins of Educ 1959— 1964
18. Katz, D , and Braly, K , " Racial Stereotypes of 100 college Students ", **J. Abn. Soc. Psychol.,** 1933, 28
19. Katz, I , and Benjamin L, „ Effects of White Authoritarianism in Biracial Work Groups," **J. Aln. Soc. Psychol** 1960, 61
20. Kuo, Z Y , " The Genesis of the Cat's Response to the Rat ", **J. Comp. psychol.** 1930, 11, 1-30
21. Kutner, B , and others, " Verbal attitudes and Govert Behaviour " , **J. Abn. Soc. psychol.,** 1952, 47
22. Lambert, W W , and Lambert, W E , **Social Psychology,** Foundations of Modern Psychology series, PP 7-27
23. La Piere, R , " Attitudes US Actions ", **Soc. Forces,** 13, 1934
24. Logan, R , **The Negro in American Life and Thought,** Nadir, N Y 1954
25. McClelland, D C , **The Achieving Society,** V N 1961

26. Miller, N., and Dollard J., **Social Learning and Imitation.** N. Haven, 1941.

27. Mussen, P., and Distler L., „ Masculanity Identification and Father-son Relationships "‹ **J. Abn. Soc. Psychol** 59, 1959.

28. Myers, H. A., **Are Men Equal, The Meaning of Amar democracy,** Great Seal, N.Y. 1963, P. 153.

29. Pettigrew, T. F., " Personality and Socio cultural Factors in Intergroup attitudes ", **J. Conflict. Resolut.** 1958, 2, 29-42.

30. Pettigrew, T. F., **A profile of the Negro American,** V. Nostrand 1964.

31. Rokeach, M., **The Open and Closed Mind,** N.Y. basicbooks, 1960.

32. Schein, E. H., **Psychiatry,** 1956, 149-172.

33. Seago, D., " Stereotypes before Pearl Harbor and after ", **J. Psychol.** 23, 1947.

34. Sears, R., and others, **Patterns of child Rearing,** Evanston III, Row, Peterson, 1957.

35. Sears, R., in **J. Abn. Soc. Psychol.** 1961, 63, 466-495.

36. Secord, P., and Backman C., **Social Psychol.** McGraw Hill, 1964.

37. Simpson, G. and Yinger, J., **Racial and Cultural Minorities,** N.Y. Harper, 1958.

38. Sinha, A., and Upadhyaya, O., " Stereotypes of male and female students,,,,,,,,,,, ", **J. Soc. Psychol.** 1960.

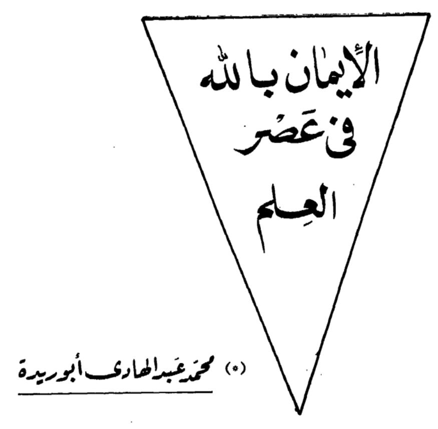
39. Tagiuiri, R., and Petrullo, L., **Person perception and Interpersonal Behaviour,** Stanford Uniè Press, 1958.

40. Triandis, E. P., " à Note on Rokeach's Theory of prejudice ", **J. Abn. Soc. psychol.** 1961, 62.

41. Wheeler, G., **Racial Problems in Soviet Muslim Asia,** Oxford Uni. Press, 1967.

42. Whiting, B., **Six Cultures, Studies of Child Rearing,** N.Y. 1963.

* * *



تمهيد :

كل من نظر في أشياء هذا العالم ولاحظ مايجرى فيه من حدوث وتغير وزوال ، سواء كان الناظر انسانا بدائيا يتبع ميلا فطريا للعقل البشرى أو مفكرا مثقفا يتبع طريقة التفكير العلمي والفلسفي ، خطر له أن يكون وراء ما يشاهده من حدوث وتغير وزوال قوى فاعلة مدبرة، وكان ذلك بمقتضى مبدأ في العقل البشرى هو مبدأ العلة الكافية Principle of Sufficient Reason (1)

والعقل البشرى ، في تفسيره للاشياء ، لم يقف عند تعليل الظاهرات والاحداث الجزئية ، كل منها على حدته ، ولا هو اكتفى بالرجوع الى المؤثرات القريبة المباشرة ، بل هو ، بفضل ترقيه في التفسير وبسبب ملاحظة الارتباط بين الاحداث والظاهرات ، توصل الى ضرورة وجود علة واحدة يرجع الى فعلها أو تأثيرها كل شيء .

*** الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة استاذ الفلسفة الاسلامية ، ورئيس قسم الفلسفة والاجتماع بجامعة الكويت، كان وكيلا لكلية الآداب بجامعة عين شمس . له عدة كتب مؤلفة ومترجمة فى الفلسفة الاسلامية .**

(١) اذا راى الانسان شيئا او حادثا فانه بفطرته يسأل عن سببه ويبحث عن حقيقته ، وكل العلم قام على هذا الاساس . وقد اعتبر ليبنتز Leibnitz الفيلسوف الالمانى (ت١٧١٦) القول بالعلية Causality مبدأ فكريا رئيسيا ، ووضع صيغته على هذا النحو : « لا واقع يمكن ان يكون حقا او موجودا ، ولا حكم يمكن ان يكون حقا ، الا وتكون هناك علة كافية لكونه كذلك لا على خلافه ، وان كانت العلل فى الغالب لا يمكن ان تكون معروفة لنا » (Monadologie 32)

ومع أن هذا المبدأ يشير الى العوامل الموجودة فى العالم الواقع تحت حواسنا ، فانه مبدأ صادر عن العقل ، وكل مبادىء الفكر من شانها ان تنطبق على شيء ما ، حتى على العقل نفسه ، ومع ذلك فهى عقلية . والعقل يتجاوز الحس ويحكم عليه ، لان هذه هى مهمة العقل .

ومع ان آراء المفكرين في كلامهم عن علة الاشياء قد تنوعت ، فان الغالبية الساحقة منهم رأوا انها علة غير مادية (١) وغير مشابهة لما نراه في هذا العالم ، وأنها علة عاقلة ، واضافوا لها من صفات الكمال بحسب ما تخيلوا ، على تفاوت حظوظهم من سمو في التفكير ومن توفيق في اصابة الحق ، ومقدرة على التعبير عنه .

ورأت غالبية المفكرين أيضـــا ان علة العالم ، الى جانب كونها المصدر الذى يفسر ظهور الموجودات هي أيضا رمز القيم ومصدرها . هي حق وخير ، واليها يرجع كل حق وخير . واليها يستند نظام الاخلاق في هذه الحياة .

وأطلقت على تلك العلة عبارات كثيرة ، كما سنرى ، وسميت بالاسم الذى يقابل كلمة الاله ، في اللغة العربية .

وهكذا أصبح القول بوجود الاله هو التفسير الكامل لهذا العالم ، والعماد الذى تقوم عليه القيم الخلقية ، واستقرت في القلوب طمأنينـــة نشأت عن ثقة الانسان بنظام العالم ونظام الحياة ، وعن شعوره بما يرضى حاجات روحة ويحقق آماله ، وصار مفهوم الألوهية محور كل تفكـــير فلسفى والفكرة العليا في العقل البشرى .

وكان الوصول الى هذه الفكرة ثمرة لمحاولات العقل الباحث عن الحقيقة ، وهذا ادى الى ما سمى « علم الربوبية الطبيعي » Natural Theology أو « علم الربوبية الفلسفي » Philosophical Theology ، أى الذى تكون عند الانسان المعتمد على ماله مـــن ملكات النظر ، والذى صارت له صورةواضحة على يد فلاسفة اليونان(٢)، وذلك في مقابل تصورات أخرى للألوهية ، خصوصا علم الربوبية المبنى على الوحى الالهى والبحث فيه .

وبقدر ما تنوعت آراء الفلاسفة وأهل الأديان فيما يتصل بالاله وعلاقته بهذا العالم ،تنوعت في بيان الأدلة على وجوده. وبعض ذلك كان راجعا الى تنوع وجهات النظر في طبيعة هذا العالـــم نفســـه .

والناظر في ذلك كله يتبين مقدار ما بذله العقل البشرى من جهد في محاولة معرفة الحقيقة، ومقدار عظم هذه الحقيقة ،سواء فيما يتعلق بمصدر العالم أو بالعالم نفسه .

ولا عجب أن يتحير العقل البشرى ، الذى تقيده قيود كثـــيرة ، في تصـــوره للكائن الذى لا يشبه شيئا معروفا له ، وأن تقصر ملكاته عن الاحاطة بكنهه ، بل بكنه ما صدر عنه من أشياء لا نعرف حدودها ونكاد لا نعرف شيئا عن حقيقتها .

---

(١) ان الماديين الذين يزعمون انه لا موجود الا المادة التى نشاهدها قليلون جدا بين المفكرين ، وهم فى الحقيقة ، ليسوا اصحاب مذهب فى تفسير الكون ، بل اصحاب رأى فى طبيعة الوجود ، وهو رأى سطحى تعسفى وغير نقدى ، لان المادة كما نراها لا تفسر شيئا ، وليست علة حقيقية لشىء . وهذا سيتبين من كلامنا فيما يلى . والمذهب المادى « لم يخرج قط فيلسوفا من الطراز الاول » (راجع ماكتبه A E Taylor فى E.R.E دائرة معارف الدين والاخلاق ، مجلد ١٢ صـ ٢٦٢ ، ع ١ .

(٢) كان التدين سابقا على التفلسف ، وقبل ظهور الفلاسفة اليونان كانت هناك ديانات منزلة معروفة واخرى غير منزلة . ولا شك فى ان فلاسفة اليونان عرفوا ذلك وانطبعت عقولهم بالكثير منه خصوصا افلاطون ، لكن اليونان كانوا بوجه عام ، فى تصورهم للالوهية وكلامهم عنها ، يعتمدون على الملكات الفكرية الطبيعية .

والمهم أن البحث في الاله أجل موضوعات النظر واعضلها ، وأنه لم يَخْلُ مذهب فلسفي أو علمي من تناوله بالبحث . وكانت محاولات اثبات وجود الاله أكبر ما شغل علماء الأديان ، ومن أهم ما تعرض له الفلاسفة والعلماء على السواء .

ومرجع ذلك الى الاهمية الكبرى للموضوع في ذاته والى ما يترتب على الاعتراف بوجود الاله ، أو الانكار له ، من نتائج نظرية وعملية تتوقف عليها قيمة كل شيء .

ومع أن الأمم ذات الحضارة الفكرية بوجه عام ، وجميع أهل التفكير العميق المتزن ، متفقون على القول بصانع قادر حكيم ، صدرت عنه الأشياء ، وهو يدبرها على مقتضى الحكمة ، فان الأمر لم يَخْلُ من أفراد ينكرون وجود هذا الخالق ، ويجدون من ينخدع بأقوالهم . وهم في الاغلب من غير المحققين في العلم بهذا العالم ، أو من الناكصين عن الاستجابة لما يطلبه العقل من تفسير نهائي وصحيح وشامل للكون والحياة ، أو من المخالفين للحق على علم به ، أو الذين لا يريدون أن يسيروا في تفكيرهم وحياتهم بحسب ما تقضى به المعرفة بالاله وحكمته ، أو المتظاهرين بكياسة زائفة ، أو المغلوبين على أمرهم ، أو نحو ذلك من ظروف الالحاد واسبابه التي لا حصر لها .

ونظرا لأن الاستدلال على وجود الاله الحق ، سواء تفكر الانسان في الكون أو رجع الى التفكير في نفسه ، اشبه بالاستدلال المباشر الذى لا يدفع أساسه أو نتيجته الا مكابر معاند لحكم العقل ، فانه يمكن الشك في اخلاص المنكرين لوجود الله فيما يقولونه ، كأنهم يجحدون بشيء يؤمنون به في قرارة نفوسهم .

ولكن لما كان الكلام فى اثبات وجود الله ، فى الحقيقة ، تفسيرا للعالم وسنداً للقيم ، فان الموضوع يصبح بالضرورة نظرية علمية فلسفية من الطراز الاول ، ويتجلى ذلك من كلام العلماء المحدثين عن وجود الله .

ولما كان الايمان بالاله الحق هو أساس العقيدة في الأديان المنزلة فان المفكرين المؤمنين سلكوا في اثباتهم لوجوده طريق العلم والفلسفة . ومما سهل ذلك في بعض الأديان ، وهو الاسلام ، انه بنى الايمان بوجود الله على أساس النظر العقلى في الكون والانسان .

وعلى هذا فان ذكر الأدلة على وجود الله ، سواء جاءت على لسان العلماء والفلاسفة أو المؤمنين العلماء المتفلسفين ، هو ذكر الأدلة التي صدرت عن العقل الانسانى من وحى تفكيره في مشكلة هذا العالم والوجود بوجه عام .

وهذا لا يتعارض مع استنارة العقول بالهدى الذى جاء من عند الله وكان للعقل ميزانا وحافظا من الزلل في الحق الذى هو مصدر كل حق .

ومن الطبيعى لمن يتناول المشكلة ان يراعى الترتيب التاريخي ، فيبتدىء بالمفهوم الفلسفي للالوهية والأدلة الفلسفية عليها ، لأن ظهور هذه الادلة كان سابقا على ظهور أدلة المتفلسفين من علماء الديانات المنزلة من النصارى والمسلمين (١) .

---

(١) مع ان اليهودية اقدم من الفلسفة فانه لم يظهر بين اليهود تفلسف الا بعد ظهور الفلسفة اليونانية بقرون كثيرة ، وكان ذلك على يد فيلون الاسكندرى (٣٠ ق.م ـ ٥٠م) . لكننا لا نجد عنده نظرا عقليا وتفسيرا علميا فلسفيا لهذا العالم ، ولا ادلة نظرية لاثبات وجود الله ، بل نجد عنده تاويلا رمزيا للتوراة ونزعات روحية صوفية ، فيها عناصر افلاطونية مع دفاع عن الدين . اما فلاسفة اليهود الكبار من اول نشوء التفكير الفلسفي بين اليهود الى ظهور موسى بن ميمون (ت ١٢٠٤م) فانهم نبغوا فى ظل الحضارة العربية الاسلامية ، وهم ينتمون من الناحية الفلسفية الى التيارات الكبرى فى التفلسف بين المسلمين .

أن بدايات « علم الربوبية الطبيعي (أو الفلسفي) » ، وكذلك ظهور الأدلة النظرية لاثبات الاله تعالى ، كانت عند فلاسفة اليونان (١) ، وان كانت فكرة الالوهية قد كانت معروفة من قبل ، خصوصا عند المنتسبين للديانات المنزلة .

واول ما نجد ذلك عند سقراط (ت ٣٩٩ق . م) الذى تدل محاورات أفلاطون على ايمانه باله حكيم كان يشعر بأنه ، بطريقته بالتفكير وبأسلوب حياته ، يستجيب لنداء منه ، كما تدل روايات على انه كان يستدل على وجوده مستندا الى ما في هذا العالم من نظام واحكام ، فهو في تاريخ الفلسفة في الغرب أول ممثل لوجهة نظر تليولوجية أى غائية (Teleological Conception) فيمايتعلق بالكون والانسان .

فاذا نظرنا في مصنفات أفلاطون ، خصوصا « الجمهورية » و « القوانين » وبعض محاوراته مثل : Theaetetos, Timaeos, Euthyphron, Phaedros, Politicos, Phaedon وجدنا محاولات جدية ذات صبغة فلسفية ـ دينية لبيان فكرة الألوهية واقامة الادلة علىوجود الله ، ووجدنا بيانا لخيرية الاله التى ينبنى عليها نظام الأخلاق، ولقبول هذا العالم باعتبار أنه خير ، لصدوره عن اله خيِّر ، وذكراً لافكار مثل : ان الاله هو « الراعى » وان البشر «غنمه» ، وان نفوس الاخيار في يديه ، وهى تصير اليه بعد الموت . . .

ومن ادلة أفلاطون على وجود اله ، الدليلُ الموجود في الكتاب العاشر من « القوانين » ، وهو مبنى على ظاهرة الحركة ، خصوصا الحركة الدائرية المنتظمة التي تتجلى في حركات الاجرام السماوية والتى لا يمكن ، بحسب تصور افلاطون ، أن تكون صادرة الا عن نفس لها حركة ذاتية بها تحرك تلك الاجرام . واذن فهناك نفوس هى علل فاعلة ، ولما كان فعلها يجرى على نظام فهى علل عاقلة . وافلاطون يطلق في كلامه عنها لفظ Theoi (Gods = آلهة) ، لكنه كان في ذلك ، كما يرى بعض العلماء (٢) يعبر عما يناسب التصور الشعبي عند اليونان . اما هو فكان يرى ، كما يدل كلامه في محاورة طيماوس ، أن الاله واحد ، بدليل ان العالم واحد وانه منظم .

وقد يمكن الاستدلال على ذلك بما يقوله أفلاطون عن مثال الجمال ومثال الخير في كلامه عن عالم المثل المفارق لهذا العالم المحسوس .

فمثال الجمال فوق كل وصف ، وهو ازلي أبدى ، ومصدر كل الجمال المتفرق في الأشياء ، وهو منتهى ما يمكن أن تنزع اليه الارادة الانسانية (٣) .

ومثال الخير في قمة عالم المثل ، فوق كل وصف ، وهو منتهى ما يمكن تعقله : « هو الذى يعطى موضوعات المعرفة حقيقتها ويعطى الذوات العارفة القدرة على المعرفة . يجب عليك أن تعتبره علة المعرفة وعلة الحقيقة ، من حيث ان هذه يمكن أن تعرف . ومهما بلغ جمال المعرفة

---

(١) كان تفكير اليونان اساس تطور الفكر الفلسفي الاوروبى . والفكر الفلسفى والدينى فى الاسلام له علاقة وثيقة بالفكر اليوناني من حيث القبول والنقد والرفض والتصحيح والاكمال . ولذلك نهتم هنا بالفكر اليوناني. اما الفكر الديني والفلسفى عند امم الشرق القديم والشرق الاقصى ، فانه ، الى جانب ما فيه من غموض وما يعوزه من العنصر العلمي العقلي ، لم يكن له كبير شان بالنسبة للفكر الديني عند الاسلاميين او للفكر الديني عند الاوروبيين .

(٢) مثل تيلور Taylor فى ERE مادة Theism ، مجلد ١٢ ص ٢٦٣ ع ١ .

(٣) المادبة ٢١٠، ـ ٢١٢

وجمال الحقيقة فان الخير أجمل من ذلك بكثير . وكما أن الضياء وقوة الابصار شبيهان بالشمس، لكنهما ليسا الشمس ذاتها ، فكذلك المعرفة والحقيقة شبيهان بالخير ، لكنهما (لا الواحدة ولا الاخرى) ليسا ذات الخير .... وكما أن الشمس المحسوسة تجعل للأشياء صفة أن ترى ، وليس ذلك وحسب ، بل هي أيضا واهبة الصيرورة والنماء والغذاء من غير أن تكون هي حادثة ، فكذلك الخير يجعل لموضوعات المعرفة صفة أن تعرف ، وليس هذا وحسب ، بل هو يعطيها الوجود والحقيقة ، على حين انه هو فوق الوجود شرفا وقوة .... اعلم أن الخير والشمس ملكان : أحدهما على عالم المعقولات ، والآخر على عالم المحسوسات » (١) .

وافلاطون يصف مثال الجمال بانه خير ، ومثال الخير بأنه جميل ، ويصف صانع العالم بأنه خير جميل . ويؤخذ من جملة كلامه، كما يستنتج بعض العلماء ، أن مثال الخير عنده هو الاله وانه اله واحد .

لكن افلاطون لا يفرق بين الاله وبين النفوس والمثل من حيث الماهية والحقيقة ، ولا يفرد الاله بالأزلية ، بدليل انه يقول بأزلية عالم المثل ، وبوجود ما يشبه مادة أزلية ، سماها : « القابل » (dekhomenon) اى القابل لتأثير المثل ، وهي أساس تشكل هذا العالم ، ويقول بنموذج سابق بحسبه صنعت السموات والأرض .

وهو اذا كان في محاورة طيماوس يتكلم عما يسميه « الصانع » (Demiurgos) فان هذا الصانع ليس مبدعا بالمعنى الحقيقي ، وانما هو يصنع من شيء موجود — ويؤخذ من كلام افلاطون أن هناك مبادىء كثيرة تشترك في صنع العالم . وهذا كله يشوب التوحيد عند افلاطون ، ويجعل امر الاله في تفكيره ملتبسا غامضا . ثم ان تصور هذا العالم كائنا حيا له نفس كلية بواسطتها يؤثر عالم المثل في عالمنا لا يستند الى أساس علمي .

مهما كان الأمر فان أفلاطون يقول بوجود اله حكيم يعلم الخير . وفعله مشابه له ، فهو الذى ينظم كل شيء ويعنى بالعالم . ويقول بعالم غير مادى فوق عالمنا ، منه جاءت النفس الانسانية واليه تصير بعد الموت في حياة أخرى خالدة . وهذا كله يكون وجهة نظر دينية اخذ أفلاطون عناصرها من مصادر شتى لا داعي للكلام فيها . وكل تصوره للاله والكون ، رغم ما فيه من نزعات عقلية وروحانية ، مشوب بعناصر القصة والأسطورة .

لكن المهم انه حاول اثبات وجود صانع مدبر ، مستندا في ذلك الى النظر في العالم ، وجمع في برهانه ، كما لاحظ تيلور(٢) ، بين الدليل المبنى على ما نشاهده في الأشياء من حدوث وتغير يدل على استنادها الى مؤثر وبين الدليل المبنى على ملاحظة الارتباط والغائية في نظام الكون .

فدليله ليس من النوع الاستنباطى المبنى على الأوليات ، « هو ليس أوليا a priori ، بل هو دليل مبنى على التجربة (argumentum a posteriori) يسير من صفة معلول معلوم الى صفة علته . فوجود عالم من أشياء متغيرة ، وكون مايجرى في عالم التغير هذا يبدى على نحو متزايد شيئا يكشفه لنا النظر العلمي ، وهو خضوعه لقوانين يدركها العقل ، كل ذلك يعتبر حقائق نعرفها بالتجربة ، والدليل لا ينهض بدون هذه المقدمات التجريبية » .

---

(١) الجمهورية ، ص ٥٠٦ — ٥٠٩ ، حسب نشرة بكر .

(٢) E R E ، م ١٢ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

اما دليل أفلاطـون المبني على نظريته في المثل ، وملخصه أن تفاوت هذه الأشياء المحسوسة في صفاتها يدل على أن صفاتها ليست ذاتية بل هي ناشئة عن مشاركتها في شيء تكون له الصفات ذاتية وكاملة ، وهو عالم المثل الذى رباطه مثال الخير ، فهو يستند الى ملاحظة صحيحة ، لكن أفلاطون لم يحسن الاستنتاج منها (١) .

اما ارسطو فقد استدل على وجود الاله ، كما استدل استاذه ، مبتدئا من النظر في العالم وما فيه من تغير وحركة .

هو يقول من جهة ان هذا العالم مسرح للتغير والصيرورة ، والتغير عبارة عن ان شيئا « بالقوة » ، اى في حالة « الامكان » ، يخرج الى حالة « الفعل » ، اى « الوجود المتحقق » . وهذا لا يكون الا بشرط وجود شيء يكون « بالفعل » . ولما كان التسلسل ، اعني رجوع الشيء الى ما قبله وهكذا الى ما لا نهاية له في الماضي(infinite regress — regressus in infinitum) ، مستحيلا ، فانه يتحتم الانتهاء الى شيء موجود بالفعل دائما ، وهو العلة الأولى .

ومن جهة أخرى هنـاك الحركة الدائرية المنتظمة التي نشاهدها في نظام الافلاك . وأرسطو يردها الى فعل النفس ، لكنه يرى انها ليست مجرد حركة ذاتية بل هي حركة عن « شوق » (appetition — orexis) نحو شيء تدركه النفس ، وبذلك تكـون النفس عقلا (نوس nous) . وهذه الحركة وان كانت في رأى أرسطو أزلية أبدية ، فانها لا بد أن ترجع الى « محرك أول غير متحرك » (Unmoved Mover) .

وارسطو يقول « بمحركات أول » بقدر عدد الأفلاك كما تصورها ، لكن هناك فلكا محيطا بها جميعا ، وهو فلك النجوم الثابتة أو « فلك الثوابت » ، كما عبر العرب . وهو يحرك كل ما فيه : فهو المحرك الأول غير المتحرك بالمعنى الحقيقي المطلق . وأرسطو يسميه الاله (٢) ، وهو واحد أزلي أبدى لا يتغير . والعالم كائن حي واحد يتحرك من الأزل الى الأبد حركة عشق للمحرك الأول وتشبه به .

ويضيف ارسطو للاله صفات كثيرة ، بعضها لا يخرج له من أسس نظرته ، وبعضها استحسان منه بلا دليل .

فهو مثلا يبنى على فكرة أن المحرك الأول غير متحرك ، وأنه ثابت لا يتغير ، فكرة انه لا يعلم الا ذاته ولا يعقل غير ذاته ، فلا يعلم أحوال الأشياء لأنها متغيرة . فحياته عبارة عن تعقل دائم لذاته أو هي كما يعبر أرسطو « تعقل لكونه عاقلا » (noesis noesios) . وقد فهم أرسطو من العلم العلم الكسبى الانفعالى الذى ينشأ عن التأثر بالمعلوم ، ولم يصل تفكيره الى العلم الفعلي الذاتي الذى توجد الأشياء طبقا له ، وهو علم واحد يحيط بها في جميع احوالها .

وهو يصف الاله بانه متلذذ لذة « بسيطة » وانه مبتهج سعيد (٣) . ولا يضيف اليه صـفة القدرة أو الارادة .

---

(١) انظر ادلة وجود الله عند المطهر بن طاهر المقدسى فيما يلى .

(٢) Metaphysics ، ١٠٧٢اس ١٩ ـ ١٠٧٣بس١٧ . Physics ٢٥٨ ب س ١٠ فما بعده

(٣) الاخلاق الى نيقوما خوس ١١٥٢ ـ ١١٥٤

فالاله عنده « عقل مفارق للمادة » أو « صورة خالصة » (١) . ولما كان أرسطو يقول بهيولى أولى ازلية « وبصور » أزلية أيضا وبأن المادة تحركت من نفسها عن شوق الى المحرك الأول ونزوع نحو الوجود الكامل، فان الاله عنده لا يمكن أن يكون خالقا لشيء ، وهو لما كان لا يعلم الأشياء فانه لا يمكن أن يكون له في العالم تدبير ولا عناية .

ويؤخذ من كلام لأرسطو (٢) أن المحرك الأول موضع تقديس وعبادة ، لكن كيف يتسنى ذلك ، وهو لا يعلم من أمر الانسان شيئا ، هذا الانسان الذى تصدر أفعاله عن عقل وضمير وقدرة واختيار فلا بد له من اله يعلم نواياه ويقدرها ويجازيه عليها .

الحق أنه يخيل للانسان أن أرسطو تصور شخصا روحانيا كاملا ورفعه الى مرتبة الألوهية (٣) ، لكنه جرده من الصفات آلتي تجب للاله الحق كالقدرة والارادة والعلم ... الخ . وكان قصده بذلك أن ينزه الاله عن العلم بالأشياء التي دونه او بالاشياء المتغيرة ، فجعله جاهلا بكل شيء .

فاذا كان أفلاطون ، نظرا لقوله باله يعنى بالعالم وبالانسان ، قد يعتبر مؤسسا المذهب في التأليه يتضمن هذه المعاني وهو ما سمى Philosophical Thesim ، فان تلميذه أرسطو ، نظراً لقوله باله هو مجرد علة ، ولا شأن له بالعالم وما فيه ، يعتبر مؤسسا لمذهب في التأليه يشتمل على هذه الأفكار ، وهو ما سمى Philosophical Deism

على أن تصور كل من أفلاطون وأرسطو للاله لا يعدو القول بأنه موجود او علة مؤثرة على نحو ما ، وهما لا يُفردان الاله بمميز خاص به ، لا من حيث الماهية والحقيقة ولا من حيث الوجود الأزلي الأبدى الذى يليق بالموجود المنزه عن مشابهة غيره من الموجودات . وتصورهما للاله لا يفسر هذا العالم تفسيرا كاملا ، لا من حيث احداثه واظهاره الى الوجود ولا من حيث تعليل ما فيه من صنع بديع ونظام محكم ، ولا من حيث الغاية من ظهوره ، وخصوصا ظهور الانسان .

ومن تصورات الألوهية التي يمكن أن تذكر عن العصر القديم تصور الفلاسفة الرواقيين(٤) Stoics ، لأن له صبغة خاصة .

عند الرواقيين ان العالم كل كبير منظم مرتبط الاجزاء ، وهو كائن حى كبير خاضع لقوانين، فيه غائية شاملة وحتمية أو ضرورة (ananke) شاملة أيضا ، فلا محل فيه لما يسمى الصدفة . وهناك أيضا قدر لا مفر منه heimarmene

---

(١) المقصود بالصورة الموجود اللامادى .

(٢) Ethica Eudemea ، ١٢٤٩ ب س ٢٠

(٣) يقول تيلور ان تصور ارسطو للاله هو « ما يتمنى ارسطو أن يكونه لو ان ظروف الحياة الانسانية تسمح بذلك ، وهو أن يكون مجرد مفكر علمى متعزل فى نفسه ولا صلة له بالطبيعة »

(٤) مؤسس المدرسة الرواقية زينون Zenon (بين ٣٤٠و٢٦٨ قم تقريبا) ، وكان تلميذه وخليفته هو كليانتيس Cleanthes صاحب الانشودة المشهورة فى التوحيد والموجهة الى زيوس ، وخلفه كريسيبوس Chrysippos الذى كان مؤلفا كبيرا وقد عاشت المدرسة الرواقية الى ما بعد الميلاد بقرون .

وعلة هذا العـالم عقـل logos كلى ،هو الاله ، وهو سار immanent في الكون ، كالبذرة التي تتفتح وتصير شجرة logos spermaticos ، وهذا العقل الكلي يشمل جملة القوى البذرية logoi spermaticoi التي تتفرع منه ، ولكل منها خاصة تجعل للمادة التي تسرى فيها كيفية معينة .

وكل شيء مظهر للاله ، وفيه المبدأ الالهى والعقلى ، والاله ليس مجرد القـوة التى تبعث الحياة بل هو عقل الكل logos toû pantos ، هو العناية الشاملة ، وهو حكيم كامل ، وهو أساس القانـون الطبيعي الذى يأمر بالخير وينهى عن الشر ، هو يثيب ويعاقب ، هو كائن حى سعيد ..... الخ .

ويعرف الرواقيون الاله بأنه « نار صانعة تسير بنظام نحو تكوين العالم محتوية في ذاتها على كل القوى البذرية التى بحسبها تظهر الأشياء على نظام الضرورة » (١).

لكن الرواقيين يقولون ان كل موجود لا بد أن يكون ماديا جسمانيا ، ويؤيدون رأيهم هذا بأن يزعموا أن ما ليس ماديا لا يمكن أن يفعل ولا أن ينفعل . وعلى هذا لا بد أن يكون المبدأ الالهى في نظرهم ذا طبيعة مادية ، وان كانت بالضرورة طبيعة مادية لطيفة اذا قورنت بالطبيعة المادية الكثيفة .

ان مذهب الرواقيين عبارة عن قول بوحدة وجود يسرى فيها المبدأ الالهى Pantheism فالاله ليس منفصلا عن العالم المادى ، كما هو منفصل عنه في مذهب أرسطو أو أفلاطون ، بل نسبة الاله الى العالم المادى كنسبة القوة الى مظهرها ، أو كنسبة الفاعل الى محل فعله ، أو كنسبة الروح الى الجسد ، لكن من غير فصل بين الطرفين . فالعالم اذا نظرنا اليه من جهة القـوة الفاعلة الثابتة فهو الاله واذا نظرنا اليه من جهة القوة المنفعلة الثابتة فهو المادة .

فها هنا مثال من تصور الالوهية ومن الواضح أنه تفسير للكون رغم ذكر اسم الاله أو المبدأ الالهى . ويخيل للمتفكر في مثل هذه التصورات أن الاله قوة ما مؤثرة في الاشياء .

نعم أن الاله بحسب التصور الصحيح ، موجود قادر فعال ، لكنه لا يدخل في تركيب العالم ولا يتقيد به ولا ينحصر فيه ، وما ذلك الا لأن العالم أثر وفعل ، فله فاعل . لكن الفاعل أكبر من فعله ومغاير له من كل وجه ، ولولا ذلك لما كان فاعلا له . وكل زعم بأن المبدأ الفعال في الكون متفرق فيه وأنه أجزاء سارية في الأشياء ، زعم لا يرتفع الى مرتبة التفكير الفلسفي ، لانه يفضي الى استحالة تفسير العالم تفسيرا حقيقيا . هذا الى ما فيه من خلط بين العلة والمعلول أو بين الفاعل وفعله .

واذا لاحظنا أن الرواقيين يتصورون أن العالم كائن حى له عقل وجسد ، وأن كل شيء في العالم ممثل للكل ، وأن الاله أشبه بوعاء شامل لآلهة مثله ، أو بوعاء كل شيء يخرج منه ويرجع اليه ، استطعنا أن نقطع بأن تصور هؤلاء الفلاسـفة للعالم وموجده لا يتجاوز القياس على ما نشاهده من أحوال الانسان ، ولا يتجاوز التصور الحسى .

والحق أن الرواقيين كانوا يتصورون الكون عالما كبيرا Macrocosm وذلك في مقابل الانسان الذى هو العالم الصغير Microcosm . ونفس الانسان تشبه في ماهيتها العقل الكلى وجسده يشبه جسم الكون .

---

(١) A. Schwegler : Geschichte der Philosophie, Reclam, 171

أما دليل الرواقيين على وجود الله فهوليس دليلا من النوع الذى تقدم ذكره . وهو يمكن ان يفهم في ضوء نظرتهم الى الافكار والآراء السائدة بين الناس .

فمن هذه الآراء ما يكون خاصا بأفراد أو بجماعات معينة ، فهي نتيجة لظروف فردية أو ثقافية أو اجتماعية خاصة .

ومنها مـا يكون ذائعـا مشتركا بين الناس على اختلاف البيئات والظروف والأحوال ، كأن العقول السليمة أجمعت عليها . وهذا الذيوع يدل على أنها صادقة .

هذه هى نظرية « اجماع الامم » Consensus Gentium التي بنى عليها الرواقيون دليلهم على وجود الله .

فبما أن جميع الأمم تؤمن بوجـود آلهة أو اله يدبّر الكون ويعنى بالانســـان ، فلا بد أن يكون هذا الايمان صحيحا لأن العقـول انتهت اليه .

ومن الواضح أن هذا ليس دليلا بالمعنى الدقيق ، وان كان يشير الى اقتناع أصيل في نفس الانســـان بوجود خالق مدبّر وهو ربما كان ناشئا عن تفكير باطن مبهم وغير مفصل .

• • •

ومن تصورات الالوهية ذلك التصور الذى نشأ عند أصحاب الافلاطونية المحدثة (Neoplatonism) التى يرجع تأسيسها الى أفلوطين (ت٢٧٠م)

الاله في هذه الفلسفة هو المبدأ الاول المتعالى عن ملابســـة المادة ، الســـابق لكل شـــيء ، والذى صدر عنه كل شيء ، وهو فوق كل المفهومات حتى مفهوم الوجود والخير والجوهر .

وعلاقته بالعالم هي أنه علة للعالم لا بمعنى أنه سابق على العالم بالزمان ، بل بمعنى أن العالم صدور أو فيض(Emanation) أقل كمالاً من المبدأ وأن معنى صدور الاشياء عن الاله ، أو «الواحد» أو « الأول » كما يعبرون ، هو أنهـا تستند في وجودها اليه ، وان كانت مظاهر متدرجة للكمال الذى لا يزال يتناقص كلما نزلنا في المراتب .

والاشياء تفيض عن الاول لأنه خير ، واول المراتب عقل nous وتفيض عن العقل نفس ، والاجسـام التى نشاهدها في العالــم هى صور Images أو مظاهر Appearancesأو ظلال للنفس، وأخيرا تأتى المادة الاولى prote hyle التى هـى« ظل الظل » .

وهذه الاشياء الصادرة عن الأول ترجع نحوه بالتأمل وتنزع الى الاتحاد به لأنه خير . فالنفس تعرف ذاتها بتأملها للعقل ، والعقل يعرف ذاته بتأمله للاول .

وهكذا تكون الموجودات كلها وحدة تصدر عن الواحد وتستند اليه وتتأمله ، والأول هو الشامل لها .

هذا تصـور للكون وعلته ، ولا شـك أنه تفسير للكون لا يستند الى مبادىء عقليـة يستنبط منها ، ولا هو نتيجة لنظر علمى في هذا العالم . ويمكن القـول انه خيال فلسفي جاء نتيجة لنزعات صوفية . ولا توجد مقدمة عقلية أو حسية واحدة يمكن أن تستند اليها قضية واحدة مما يقوله القوم .

وان كل كلام عن الاله وعن أدلة وجوده يجب أن يبدأ من النظر في هذا العالم الماثل امامنا ، في ضوء الحس والعقل . وكل بداية أخرى ، مثل الاستدلال من المفهومـات أو المعـانى الذهنية ، فانه يمكن اثارة الاشكالات عليها ، كما سنرى .

● ● ●

كان للفكر اليونانى ، ممثلا في المذاهب التى تقدم ذكرها ، تأثيره وصداه في الآراء التى ظهرت بعد ذلك .

وكان ظهور المسيحية واختلاط عناصر من الفلسـفة بتصـورات علماء العقائد والمفكرين المسيحيين مجالا لظهور آراء في الالوهية ، لا نعرض لها هنا ، ولمحاولات للبرهنة على وجود الله .

وأول كلام له وزن فيما يتعلق باثبات وجود الله هو ما نجده عند القديس أوغسـطين St Augustin (ت ٤٣٠ م) .

وهو يستدل على وجود الله من النظر في هذا العالم المحسـوس الذى يدل تغيره على أنه مخلوق ، ويدل نظامه البديع على أنه مصنوع (١) .

غير أن أوغسطين يذكر الى جانب هذا الاستدلال المستند الى الحس والعقل دليلا يصدر فيه عن نزعات أفلاطونية ـ أفلوطينية . وهو يبنى دليله على يقيننا بالقضايا البديهية الرياضية والمنطقية وبالقضايا التى يوجبها العقل والضمير ، مثل وجوب طلب الحكمة والامتثال للفضائل من العدل والشجاعة والعفة .

ويقول ان هذه القضايا يقينية في ذاتها ، وهى ليست من صنع عقلنا ، لانها قانون ثابت لا يتغير يحكم عقلنا ويعلو عليه ، فلا بد أن تكون تلك القضايا موجودة في شيء يكون هو الحق المطلق ، وهو الاله .

وقد يكون هناك وجه لما يذهب اليه أوغسطين من أنه ، اذا كانت هناك حقائق وقيم متنوعة ، فلا بد أن تشير هذه الحقائق والقيم الى حق مطلق يكون هو المعيار الثابت لكل الحقائق والقيم وهو الاله (٢) .

لكن هذا الدليل غير محكم وهو لا يؤدى الى مفهوم واضح وكامل للالوهية ، وخصوصا ان أوغسطين سار مع تصورات خيالية مثل قوله : ان مُثُلَ الأشياء ونماذجها التي قال بها أفلاطون

---

(١) للقديس اوغسطين كلمات فى ذلك ، ذكرها يوسف كرم فى كتابه « تاريخ الفلسفة الاوروبية فى العصر الوسيط » القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ ص ٣٣ .

(٢) Messer (A.) : Geschichte der Philosophie, I, p. 114 — 115, Leipzig, 1930

موجودة فى العقل الالهى ، واعتبرها نماذج معقولة يخلق الاله الأشياء على مثالها وطاقات روحانية نورانية تشرق فى النفس الانسانيــة وتساعــدها على ادراك أصول الماهيات والحقائق .

على أن أوغسطين يرىأن ذات الاله لا يمكن ادراكها بالمفهومات الانسانية ، فهو « يعرف بانه لا يعرف » . وهو قد خلق الأشياء عن لاشيء بفعل ارادى حر . ومعنى هذا انه يرفض ما ذهب اليه أفلاطون وأرسطومن وجود هيولى قديمة الى جانب علة العالم ويرفض القول بالصدور Emanation على ما هو معروف في الافلاطونية المحدثة Neoplatonism

●●●

على يد القديس آنسلم Anselm رئيس أســاقفة كنتربرى (ت ١١٠٩ م) ، والذى كان معاصرا للغزالى (ت ٥٠٥ هـ ــ ١١١١ م) نجد تحولا في طريقة اثبات وجود الاله .

فمع انه في كتابه الذى عنوانهMonologionيحاول اثبات وجود الاله مستندا الى فكــرة افلاطونية هى القول بتفاوت الاشياء في الوجود والخير والكمال وبأن الاشياء المتفاوتة في الكمال تستمد وجودها من مشاركتها في مبدأ واحد هو أعلى منها ،وهو الاله ، فانه يريد اثبات وجود الاله على أساس استنباطي . وفكرة الألوهية هنا هي التى يقدمها لنا الوحى .

فهو فىكتابهبعنوان Proslogion (١)يشير الى أن « الجاهــل يقول فى قلبه : ليس اله » (٢) ويبين أن هذا الجاهل الذى ينكر وجود الاله قد لا يعقل المقصود من هذه الكلمة ، ولذلك يوضحها انسلم بأنها تدل على « الشيء الذى لا يمكن تصور شيء أعظم منه » (quo maius cogitari nequit)

فان كان الجاهل المنكر لوجود الاله لا يعقل معنى الالوهية ، فهو لا بد يدرك معنى « الشيء الذى لا يمكن تصور شيء أعظم منه » . فاذا كان يدرك هذا المعنى ، فانه لا يمكن ان ينكر وجود الاله . والدليل الذى يقدمه آنسلم يسير على هذا النحو :

نحن نتصور ونعقل وجود كائن لا يمكن تصور ما هو أعظم منه . لكن هذا الكائن لا يمكن ان يكون في الذهن in intellectu فقط ، لانه ان كان كذلك فنحن نستطيع أن نتصوره موجودا في الحقيقة in re ، أى خارج الذهن . وهو فيهذه الحالة يكون أعظم .

واذن ، فلو كان الكائن الذى لا أعظم منه موجودا في الذهن فقط فكأننا نقول : ما لا يُتصور أعظم منه يمكن أن يُتصور أعظم منه ، وهذا تناقض .

وعلى هذا فالكائن الذى لا أعظم منه لا بد أن يكون موجودا في الذهن كمفهوم وخارج الذهن كشيء حقيقي موجود بالفعل .

- هذه هي صورة الدليل المسمى : « الدليل الانطولوجــي » أو « الدليــل الوجــــودى » (Ontological Argument) الذى صار مشهورا منذ أيام آنسلم, والذى يقوم على :

---

(١) Proslogion seu Alloquium de Dei existentia ، ف ٢ ، ٣

(٢) مزمور ١/١٤

١ ــ تحديد تعريف للألوهية ، وهـــو تعريف مبهم، بصرف النظر عن تشكك بعض العلماء(١) فى أن يكون له معنى ، لانه يشبه قول القائل مثلا :« عدد لا يمكن أن يتصور عدد أكبر منه » . فهل مثل هذا العدد موجود فى الذهن ؟ كذلك الحال بالنسبة لمفهوم الشيء الذى لا يمكن تصور ما هو أعظم منه .

٢ ــ القول بأن الوجود الذهنى وجود ما ،لكنه أدنى من الوجود المتعين خارج الذهن .

٣ ــ امكان الاستدلال من الوجود الذهني على الوجود الخارجي أو من تصور شيء على وجوده بالفعل ، وهذا ما كان موضع اعتراض منذ ايام آنسلم نفسه .

فقد نقده مفكر معاصر له هو جاونيلـــون Gaunilon (٢) على أساس أن تصور الشيء أو القضية لا يدل على أن الشيء موجود بالفعل أو على أن الحكم الذى تتضمنه القضية حكـم صحيح ، وعلى أساس أن الاستدلال من الوجود الذهني ، وهو وجود متصوَّر ، على الوجود بالفعل ، وهو وجود متحقق ، غير جائز ، كما أنه لا يجوز مثلا الاستدلال من تصـــور جزيرة سعيدة فى وسط المحيط مملوءة بالثروات على وجودها بالفعل .

وقد حاول جاونيلون أن يضع تعريفـا آخر لمفهوم الاله ، وهو أنه : الكائن الذى هو أكبر من كل ما يمكن تصوره ، ويجد أنه حتى هذا التعريف لا ينتج شيئا الا اذا أثبتنا أولا أن مقابلـه موجود بالفعل ، فأما استنتاج واقع من فرض فهو غير جائز .

وقد وضع دانس سكوتوس John Duns Scotus المفكر الانجليزي (ت ١٣٠٨) (٣) صيغة أخرى لتعريف الاله ، وهي أنه : « الشيء الذى يمكن تصوره بدون تناقض ، لكن لا يمكن تصور ما هو أعظم منه الا مع الوقوع فى التناقض » .

لكن هذا كله لا يقدم الاستدلال فى شيء .

على أن آنسلم رد على جاونيلون بأن الانتقال من الوجود الذهنى الى الوجود الحقيقي لا يجوز الا فيما يتعلق بالكائن الذى لا يمكن أن يكون هناك اعظم منه . فتصور جزيرة سعيدة لا يتضمن ضرورة داخلية لوجودها ، على حين أن فكرة الالوهية لها وحدها خاصة أننا لا يمكن أن نتصور أن مدلولها غير موجود .

لكن هذا الرد غير مقنع ، لانه لا يمكن الانتهاء الى انه يستحيل تصور أن الاله غير موجود الا على أساس آخر مثل أن يقوم الدليل العقلي على وجوده بالاستناد الى النظر فى هذا العالم أو نحو ذلك .

وظل « الدليل الوجودى » موضع خلاف بين الفلاسفة ، فمنهم من قبله ومنهم من رفضه .

فقد رفضه أكبر علماء العقائد فى العصور الوسطـى ، وهو القـديس توماس الأكوينـي Thomas Acquinas (ت ١٢٧٤) ، معتبرا انه سفسطة .

---

(١) مثل تيلور Taylor فى E.R.E. مجلد ص ٢٦٨ ع٢

(٢) فى رسالة له بعنوان Liber pro insipiente = كتاب للدفاع عن الجاهل

(٣) راجع E.R.B. ، مجلد ١٢ص ٢٧٠ ع١

وكان توماس يرى ، كما رأى متكلمو الاسلام قبله (١) بوجه عام ، أن المعرفة بالله ليست بديهية ، أو « ضرورية » كما يقولون ، يقصدون أن العقل لا يمكنه انكارها .

وهو يقول اننا فى هذه الحياة ، لا ندرك الحقيقة الالهية . ويرد على آنسلم بأن يذكر أنه ليس من الواضح أمام عقلنا ذلك « الشيء الذى لا يتصور ما هو أعظم منه » وأن كل ما يمكن أن نستنتجه من هذه العبارة هو أنه لا تناقض فى تصور ما تدل عليه .

والمهم أن توماس يرفض الأدلة الأولية أو البديهية a priori أو : القبلية ، كما يعبر بعض المحدثين ، يقصدون أنها لا تعتمد على « التجربة » ، بمعنى الاستدلال من شيء ندركه بحواسنا .

وهو يذكر (٢) خمس طرق لاثبات وجود الله ، على أساس التجربة .

١ ــ طريق الاستدلال بالحركة Motion المشاهدة فى هذا العالم . واستدلاله لا يخرج عن استدلال أرسطو الذى تقدم ذكره .

٢ ــ طريق الاستدلال بالعلة الفاعلة Efficient Cause

فنحن نلاحظ فيما حولنا عللا فاعلة ، لكنا لا نلاحظ أن شيئا منها يحدث ذاته ، بل له علة . ولا يمكن الارتقاء في سلسلة العلل الفاعلة الى ما لا نهاية بل لا بد من الانتهاء الى علة أولى والا فانه لا يوجد شيء ، لأن كل علة فاعلة سابقة هي علة لما يليها ، فلا بد من الانتهاء الى علة فاعلة لا علة لها ، وهي الاله .

٣ ــ طريق الاستدلال بمفهوم الممكن والواجب :

نحن نرى أشياء تحدث وتزول ، فهي يجوز أن تكون موجودة ، ويجوز الا تكون موجودة ، ولا يمكن أن تكون موجودة دائما .

فلو كان كل شيء موجود يمكن أن لا يكون ، لكان هناك وقت فيه لم يكن شيء موجودا . ولو كان هذا صحيحا لما كان هناك شيء الآن ، لأن ماليس موجودا لا يصير موجودا الا بفعل شيء موجود .

وعلى هذا لا تكون الأشياء كلها مجرد «ممكنات » ، بل لا بد أن يكون بينها شيء « واجب » . وهذا الواجب اما أن يكون وجوده راجعا الى غيره أو لا يكون .

فان كان راجعا الى غيره فان هذا لا يمكن أن يتسلسل ، بل لا بد من الانتهاء الى واجب بذاته Per se ، وجوده لا يرجع الى غيره ، وهو علة كل ما عداه ، وهو الاله .

٤ ــ طريق الاستدلال من ملاحظة تفاوت الأشياء فى صفات الحق والخير والشرف ونحوها . فهذا التفاوت معناه أن الأشياء تتفاوت فى قربها من شيء له هذه الصفات على أعظم ما تكون .

واذن فهناك شيء هو الأعظم حقا وخيرا وشرفا والأعظم وجودا Maxime ens ، لأن الاعظم من حيث هو حق هو الأعظم من حيث هو موجود .

---

(١) هو قد عرف مذاهبهم وتأثر بها من وجوه شتى ــ راجع بحثا قيما للمستشرق والراهب الاسباني آسين بلاثيوس Asin Palacios, Un aspecto inexplorado de los origines de la teologia escolastica, Bibliothèque Thomiste, II, 1930

(٢) فى كتابة Summa theologica ، القسم الاول المسالة الثانية ، فقرة ٣ .

وهنا يشير توماس الى قول أرسطو فى الكتاب الثاني من « ما بعد الطبيعة » (٩٣٣ ب ٢٧ ــ ٣٠) .

« ان ما هو حق على الوجه الأعظم هو علة الحق فى الأشياء الأخرى التي هي حق ..... ويكون للشيء من الوجود بقدر ما يكون له من الحق »

ثم يقول :

« ان ما يوصف فى جنس من أجناس الأشياء بأن له صفة على أعظم ما تكون هو علة كل الأشياء التي من ذلك الجنس ..... واذن يوجد موجود هو بالنسبة لكل الأشياء علة وجودها وخيرها وكمالها ، وهو الذى نسميه الاله » .

٥ ــ طريق الاستدلال من « تدبير الأشياء » (ex gubernatione rerum) ، أى من ملاحظة أن الأشياء الجمادية التي لا عقل لها تعمل متمشية مع غاية ، بدليل أنها تعمل على نحو واحد ، بحيث تحقق ما هو أحسن . ومن هذا ينتج أنها تحقق غايتها ، لا على سبيل المصادفة بل على سبيل القصد . لكن الكائنات التي لا تعقل انما تحقق غاية اذا كان لها مدبّر عاقل (١) .

واذن ، يوجد موجود عاقل رتب الأشياء الطبيعية نحو غاية ، وهذا هو الذى نسميه الاله .

ونلاحظ أن من ادلة توماس ما يرجع الى ارسطو أو افلاطون ، ومنها ما يقوم على تعليل الحدوث الظاهر فى الطبيعة ، سواء من حيث ضرورة وجود علة فاعلة أولى او واجب وجود . وأدلته بوجه عام كما لاحظ تيلور بحق (٢) ، تستند الى مبدأ العلية ومبدأ استحالة التسلسل فى العلل وضرورة الانتهاء الى علة أولى ، وهما مبدآن يؤيدهما العقل .

لكن بعض استدلاله لا يقوم على ضرورة عقلية ، مثل قوله بأن « ما يوصف فى جنس من أجناس الأشياء بأن له صفة على أعظم ما تكون هو علة كل الأشياء التي من هذا الجنس ... الخ »

فالنتيجة لا تلزم عن المقدمة ، لأنه يجوز أن تكون تلك الأشياء كلها معلولة بعلة خارجة عن الجنس ومخالفة لكل ما فيه . وهذا موجود فى عالم المادة وعالم الحياة ، فالأشياء تتفاوت فى صفاتها ، وبعضها له من الصفة المشتركة أعظم نصيب ، ولكنها كلها معلولة .

والاله الحق ليس مجرد كائن يشارك الموجودات فى صفة ، ثم كل ما فى الأمر انه أعظمها حظا من تلك الصفة ، بل ان ذاته مخالفة للأشياء ، وصفاته مخالفة لصفات الأشياء ، رغم الاشتراك في التسمية ، والا فانه لا يمكن أن يكون موجدا لها .

● ● ●

ثم جاء أبو الفلسفة الحديثة فى ناحيتها النظرية ، وهو الفيلسوف الفرنسي ديكارت René Descartes (ت ١٦٥٠ م) بأدلته لاثبات وجود الله .

ومن هذه الادلة ما يرتبط بالتراث السابق ، مثل الدليل المزدوج الذى يستند الى وجود فكرة فى عقلنا عن كائن لا نهاية لكماله ، وهو الاله . وهذه الفكرة يستنتجها ديكارت استنتاجا منطقيا من ادراكه لنفسه أنه كائن محدود غير كامل .

---

(١) يشبه هذا الدليل ابن رشد ــ راجع ما يلى ص ١٦٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٤٢٧٠ .

وهو بعد ان يقول ان مفهوم « اللامتناهي » Infini في ذهننا ليس مجرد نفى Négation لمفهـــــوم« المتناهى » Fini ، بل هو متقدم فى الذهن على « المتناهى » ــ يقول :

« كيف كان يمكن أن يتسنى لى أن اشك او ارغب فى شيء ، اعنى أن ينقصنى شيء وأن أكون غير كامل ، لو لم يكن فى عقلى فكرة عن كائن اكمل مني، بالقياس اليه أعرف نقائص طبيعتي ! » (١)

ويؤكد ديكارت أن فكرة الكائن الذى لانهاية لكماله لا ترجع فى وجودها اليه ، لأنه غير كامل وهي ليست مكتسبة من الأشياء التي يعرفها ، لأنها كلها محدودة وغير كاملة ، ولا هى مصنوعة بتوهم الكمالات التى يعرفها وتكبيرها ، لأن ذلك لا يعطينا فكرة اللامتناهى ، فلا يمكن أن يكون مصدرها الا الكائن الكامل ذاته .

وعلى هذا الاساس يضع ديكارت لاثبات وجود الله دليلا يمكن اجماله على هذا النحو :

فى عقلى فكرة عن كائن كامل لا نهاية لكماله ، وبما انى لا يمكن ان اكون أنا الذى أوجدتها فى عقلى ، ولا هى ترجع الى الأشياء ، ولا هى من وضع قوة التخيل ، فانه لا يمكن أن يكون الذى اوجدها الا الكائن الكامل الذى أوجدنى . يقول ديكارت (٢) .

« لا شك أنه لا ينبغي استغراب أن يكون الا له ، اذ خلقني ، وضع في عقلي هذه الفكرة لتكون « ماركة » (طابع) (Marque) الصانع على ما صنع . وليس من الضروري أن يكون هذا الطابع مغايرا للصنع ذاته : بل انه بمقتضى أن الله خلقنى فمن المقبول جدا انه خلقني بوجه ما على صورته وشبهه واني أدرك هذه المشابهة (التي تتضمن فكرة الألوهية) بنفس الملكة التى ادرك بها ذاتى . . . وكل قوة الدليل الذى اصطنعه هنا لاثبات وجو د الله تتلخص في أنى أدرك انه يستحيل أن تكون طبيعتي ما هى عليه ، اي أن تكون في عقلي فكرة و جود اله ، لو لم يكن الاله موجودا حقيقة ، هذا الاله ذاته الذى فكرته في عقلي ، اعني الذى له كل هذه الكمالات العالية التى يستطيع عقلنا أن تكون لديه فكرة عنها ، لكن من غير أن يحيط بهــا جميعا » .

ويحدد ديكارت مفهوم الاله بأنه « جوهر لانهاية له ، ازلى ابدى ، لا يتغير ، قائم بذاته عليم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، هو الذى خلقنى وخلق الأشياء الموجودة كلها » (١) .

وهو يقول أن فكرة الاله ، او الكائن الــذى لا نهاية لكماله ، واضحة متميزة ، أوضح من فكرة الجوهر Substance بل هى أوضح فكرة فى ذهنــه وفيهــا مــن الحقيقة الموضــوعيــة realité objective أكثر مما في اية فكرة اخرى .

ويستطيع الانسان أن يلاحظ عند ديكــارت في « تأملاته » نزعة صوفية نحو التأمل الباطن . وكلامه عن ادراكه لذاته وادراكه لتفكيره ولما في عقله من أفكار ، وكلامه خصوصا عن فكرة الالوهية وانه يدركها ادراكا فريدا، وقوله انها مقرونة بالفطرة ذاتها ، يؤكد هذه النزعة الصوفية ويدعو الى ربطها ليس فقط بالنزعات الصوفية التى عرفها في الافلاطونية المحدثة أو نحوها بل بنزعات صوفية أخرى لا شك أنه عرفها في أثناء عزلته في هولنده .

وهناك شبه بين كلامه عن فكرة الألوهية المطبوعة في عقله وبين آراء مفكرين اسلاميين قالوا بأن المعرفة بالله فطرية في كل روح انسانية ، لكن بين الرايين فرقا كما سيتبين فيما يلى .

---

(١) Meditationes de prima philosophia باريس ١٩٦٧ (Vrin) . ص ٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠ ــ ٤٥

مهما يكن من شيء فان ديكارت يبني على فكرة الكائن الكامل التي يجدها في عقله دليله الآخر لاثبات وجود الله ، وهو صورة من « البدليل الانطولوجي » المعروف منذ ايام القديس آنسلم . ودليل ديكارت هذا موجود في أكثر من كتاب من كتبه (٢) .

ويمكن تلخيصه بمنتهى الاختصار على هذا النحو :

الاله ، كما نتعقل مفهومه ، كامل من كل وجه .

وبما أن الوجود بالفعل كمال

فالاله الكامل لا بد أن يكون موجودا بالفعل .

ويجد ديكارت أن فكرة الاله الكامل تتضمن وجوده بالفعل ، كما أن فكرة المثلث المستقيم الاضلاع تتضمن أن مجموع زواياه يساوى قائمتين .

ويفرق ديكارت بين استنباط وجود الكائن الكامل بالفعل من مفهومه في عقلنا وبين استنباط وجود شيء نتخيله من مجرد تخيلنا له بأن فكرة الكائن الكامل تتضمن منطقيا ضرورة الوجود على حين أن أفكارنا المتخيلة لا تتضمن سوى امكان الوجود (٣) .

ويبدو كأنما المعرفة بوجود الله أو حكمنا بأنه موجود ، في نظر ديكارت ، عبارة عن قضية تحليلية ،أعنى أننا عندما نحلل مفهوم الألوهية ، وهو يتضمن عنده كل صفات الكمال ، فاننا نعرف أنه لا بد أن يكون موجودا .

والحقيقة انه لو كان مفهوم الألوهية مرادفا لمفهوم الوجود باطلاق معناه لكان القول : الاله موجود ، قضية تحليلية يخرج محمولها من تحليل موضوعها ، ولا يستطيع أحد عند ذلك أن يقول ان الوجود غير موجود .

لكن مفهوم الألوهية ، من حيث الذات والصفات ، أكثر من مفهوم مجرد الوجود .

ويمكن أن يوجه على دليل ديكارت ما وجه على دليل آنسلم من اعتراضات .
ويمكن أيضا اثارة اشكالات أخرى :

فيقول ديكارت مثلا انه بادراكه لذاته كجوهر يجد أساسا لادراك جوهر لا نهاية له ، لا يعتريه تبدل ولا تغير ، قادر على كل شيء عليم بكل شيء .... لكنه يقول ان عقله محدود . فكيف يمكنه ادراك الجوهر الذى لا نهاية له ؟ .

وأيضا يمكن للانسان أن يقبل أن تكون فكرة « اللامتناهى » أو فكرة « الكائن الكامل » ، في ذهننا مقابلا منطقيا لادراكنا لتناهى ذاتنا أو تناهى الأشياء أو لكوننا غير كاملين . لكن هذا التقابل المنطقى لا يعطينا فكرة « اللامتناهى » ولا يعطينا مفهوم « الاله الكامل » ، كما يتحدث عنه ديكارت ، الا اذا كنا قد أخذناه من مصدر آخر كالتراث الدينى . وهل يمكن أن يدعى عقل محدود أنه يدرك اللامتناهى ادراكا حقيقيا ؟؟

ولا يمكن على أى حال دحض اعتراض من يقول ان المقابل المنطقي : « اللامتناهى » ، الذى يتكلم عنه ديكارت ، هو من صنع الخيال .

---

(٢) فى التاملات ، التامل الخامس ص ٦٤ فما بعدها وفى كتاب Principes de la Philosophie ، فقرة ١٤ (باختصار) .

(٣) فى عقل ديكارت ان ماهية الاله Essence هى عين وجوده Existence (التاملات ص ٦٦) وهذا من أسس دليله . أما بالنسبة لما سوى الاله فالماهية غير الوجود .

على أنه يمكن القبول ان الذي أوجدنا وجعلنا كائنات محدودة غير كاملة أراد بذلك ان يدلنا على وجوده استدلالا ، لأن المحدود أو غير الكامل لا يمكن ان يوجد ذاته ، فلا بد له بحكم العقل من موجد مخالف له .

ان هذا التفكير موجود عند ديكارت ، وهو من ادلته على وجود الله الى جانب ادلة اخرى مثل : ان مجرد بقائنا في الوجود يدل على وجود الله . وذلك ان وجودنا يدخل في الزمان ، والزمان أجزاء منفصلة ، بعضها مستقل عن بعض، ووجودنا في اية لحظة لا يقتضي وجودنا في اللحظة التالية ، فلا بد من أن الذي أوجدنا ، وأوجد الأشياء ، يحفظ وجودنا ووجودها . وهكذا يدل مجرد استمرارنا في الوجود على وجود الله (١) .

• • •

ان ادلة وجود الله عند ديكارت تسير في تيار الأدلة النظرية الاستنباطية ، وربما كانت عسيرة الفهم أو القبول بسبب اعتمادها على مفهومات مجردة يمكن اثارة الاشكالات حولها بانها خيالية من جهة كما يمكن من جهة أخرى التشكك في سلامة الاستنتاج منها .

وعلى يد الفيلسوف الانجليزي جون لوك John Locke (ت ١٧٠٤) تأخذ المشكلة صورة أقرب الى التفكير الطبيعي البعيد عن التعقيد ، فهو في الكتاب الرابع من كتابه الكبير : « بحث عن العقل الانساني » (An Essay Concerning Human Understanding) يعقد فصلا (العاشر من الكتاب الرابع) عنوانه «معرفتنا بوجود الله » . وهو فصل طريف يبتدئه بما يدل على روح فلسفته وطريقته في التفكير ، يقول لوك :

« انه وان كان لم يعطنا أفكارا فطرية Innate ideas عن ذاته ، ولم يطبع حروفا أصلية في عقولنا نستطيع بها أن نقرأ وجوده ، فانه بما أودعه في عقولنا من ملكات لم يجعل ذاته بلا شيء يشهد له ، لأن لنا الاحساس والادراك والعقل ، فلا نحتاج الى برهان واضح على وجوده ما دمنا نحمل ذاتنا معنا ، ولا نحن نستطيع ان نشكو من جهلنا في هذه النقطة الكبرى ، لانه هيأ لنا من كثرة الوسائل لمعرفته بقدر ما يلزم للغاية من وجودنا ولحرصنا الكبير على سعادتنا .

لكن هذا وان كان أوضح حق يهتدي اليه العقل ، وكان وضوحه (ان لم أكن مخطئا) يمثل اليقين الرياضي ، فانه يحتاج الى تفكير وانتباه ، ويقتضي من العقل أن يسير على أساس من الاستنتاج السليم من بعض معرفتنا الحدسية ، والا فانا في هذه المسألة نكون جاهلين وغير متيقنين على مثل ما نحن عليه في مسائل أخرى هي في حد ذاتها قابلة للبرهنة الواضحة .

ولذلك فاننا لكي نبين اننا قادرون على أن نعرف ، أي أن نتأكد ، أنه يوجد اله ، ونبين كيف نتوصل الى هذا اليقين ، فاني ارى اننا لا نحتاج لأن نذهب أبعد من أنفسنا ومن تلك المعرفة اليقينية بوجودنا » .

يبني لوك على هذا الأساس ، أعني المعرفة اليقينية عند الانسان بوجود ذاته وبأنه شيء موجود بالفعل ، ويقول ان من يشك في ذلك فهو لا يستحق أن نتكلم معه ولندعه « يتمتع بما يحبه من السعادة بأنه لا شيء الى أن يقنعه الجوع ، أو ألم آخر بعكس ذلك »

فالانسان يقطع بأنه شيء موجود بالفعل Real Being ، وهو يعلم بيقين حدسي Intuitive certainty أن العدم لا يمكن أن يصدر عنه موجود فعلي ، « واذن يقوم الدليل البين على أنه كان هناك شيء من الازل ، لأن ما ليس أزليا فله بداية ، وما له بداية لا بد أن يحدث بفعل شيء آخر »

---

(١) Principes de la Philosophie ، فقرة ٢١

ثم يستنتج لوك على نحو منطقى ، أن ذلك الكائن الأزلى لا بد أن يكون تام القدرة والعلم، ومصدر كل قدرة وعلم في الموجودات الحادثة ، لانه من غير المقبول فى العقل ان يكون فى الانسان احساس وادراك وعلم ويكون صادرا عن شيءليس له هذه الصفات كالمادة مثلا .

واذن فلا بد أن يكون هناك اله .

ويلخص لوك رأيه قائلا :

« واذن فمن النظر فى انفسنا وفيما ندركهفى تكوننا على نحو لا يتطرق اليه الشك ، يؤدى بنا عقلنا الى معرفة هذه الحقيقة الاكيدة الواضحة ، وهى أنه يوجد كائن أزلى تام القدرة والعلم،انكان أى انسان يحب أن يسميه « الاله » فله ذلك ، لأن الامر بيّن . ومن هذا الفكرة ، اذا نظر الانسان فيها على الوجه الصحيح ، يمكن استنتاج كل تلك الصفات الأخرى التي يجب أن نصف بها هذا الكائن الازلى » .

ويرى لوك ، بناء على دليله المتقدم ، أن المعرفة بوجود اللهاكثر يقينا من المعرفة بأى شيءخارج ميدان ادراك حواسنا ، بل انها اكثر يقينا من معرفتنا بأى شيء خارج ذاتنا ، بشرط أن نحسن استعمال عقولنا .

وهو ينقد دليل اثبات وجود الله ، المبنىعلى فكرة الكائن الكامل . وهو يقصد ديكارت بلا شك ، فيمن يقصد ، لكنه لا يذكر اسم احد يمثلهذا الدليل . وهو بعد أن يشير الى تنوع أمزجة المفكرين ونزعاتهم فى تفكيرهم واختيار الأدلة لاثبات الشيء الواحد يقول فيما يتعلق بالاساس الذى يقوم عليه « الدليل الانطولوجي » :

« انه ليس من السداد عند محاولة اثبات هذا الحق واسكات منكرى وجود الله أن يجعل أحد كل الاهمية فى مسألة خطيرة كهذه لذلك الأساس وحده : فيعتبر ان كون بعض الناس عندهم في اذهانهم فكرة اله (لأنه من البين أن بعضهم ليس عنده فكرة اله ، وعند بعضهم ما هو أسوأ من عدموجود فكرةوعند معظمهم أفكار مختلفة كل الاختلاف) هو الدليل الوحيد على وجود اله. وهم من فرط حبهم لذلك المخترع الأثير لديهم يلفون ،أوهم على الاقل يحاولون أن يجرحوا ، كل الأدلة الأخرى ، وينهوننا عن الاصغاء لتلك البراهين قائلين انها ضعيفة أو زائفة ، وهى التى يقدمها لعقلنا وجودنا والاجزاء المحسوسة فى العالم على نحو واضح وملزم ، بحيث انى اعتقد انه يستحيل ان يدفعها انسان مفكر . فانى أرى أن القول « بأن الأمور الالهية التي لا ندركها ترى بوضوح من خلق العالم وهى مدركة من طريق الاشياء المخلوقة ،حتى قدرته والوهيته الأزلية » لهو قول حق مؤكد وواضح بمقدار ما يكون أى حق يقال » .

ويؤكد لوك بعض آرائه مرة أخرى،وهو يحرص على تأكيد وجود شيء أزلى وانه قادر حكيم غير مادى ، ويدقق فى دحض المذهب المادى دحضا يقوم على المنطق ، وكلامه مثال جيد على النقد الفلسفي للمادية .

• • •

على يد ليبنتز Leibnitz (ت ١٧١٦)لا نجد فيما يتعلق بالاستدلال النظرى الاستنباطى والدليل الأنطولوجى اكثر من تعقيد وتدقيق وتحليل لا تفيد فى شيء .

فهو يربط بين القول بأن « الاله موجود » وبين مسألة التمييز بين ما يسميه « حقائق العقل » Truths of Reason–Verités de Raison التىهي قضاياتحليليةتعرف صحتهاباستخراجمفهوممحمولهامن

تحليل موضوعها في ضوء مبدأ التناقض وما يسميه « حقائق الواقع » Verités de Fait Truths of Fact التي هي قضايا تركيبية تعرف بالرجوع الى الواقع فى ضوء مبدأ العلة الكافية ، لكنها لكي تأخذ صورة حقائق العقل تحتاج الى خطوات تحليل لا تنتهي ولا يحيط بها الا الاله الذى يعلم كل شيء ، والذى يعلم الأشياء كلها لا بعلم استدلالى كعلمنا .

ومن الوضح أن هذا ليس برهانا بأى معنى، وفيه شيء من روح النزعة الافلاطونية .

وليبنتز يقبل الدليل الأنطولوجى عند آنسلم وديكارت على أساس أن القول بوجود اله ينتهى آخر الأمر الى أن يكون من حقائق العقل التى يوصل الى صدقها بالتحليل لمفهومها، وأن كل ما تحتاج اليه القضية هو أن يكون مفهوم الاله خاليا من التناقض ، لأن قولنا الاله هو « الكائن الأعلى تحققا فى الوجود Most Real Being = Ens Realissimum أو « الكائن الأكمل » Ens Perfectissimum بريء من التناقض ، لأننا لا نضيف للاله فى هذه الحالة سوى محمولات (صفات) لا تناقض بينها .

لكن هذا لا يقدم الدليل الانطولوجى خطوة واحدة .

على ان من الأدلة على وجود الله عند ليبنتز :

(١) لا بد من موجود بذاته Ens a se ، والا لما أمكن خروج الممكنات الى حيز الوجود الفعلي الذى نشاهده .

(٢) الدليل الكوني أو الكوسمولوجى Cosmological Argument ، وهو يتلخص في الاستدلال من وجود العالم على وجود الله .

(٣) الدليل المستند الى ما يسميه ليبنتز «الحقائق الأزلية» Verités Eternelles ، فهي لا تتقيد بزمان أو مكان ، ولا ترتبط بموجودات حادثة ، فلا بد أن تكون في عقل أزلي أبدى هو الاله .

(٤) الدليل المبنى على تصوره لنظام الوجود، وهو مذهب : المونادولوجيا Monadology,45 الذى يتلخص فى القول بأن العالم مؤلف من وحدات روحية منفردة منفصل بعضها عن بعض ، فبما أنها منفصلة ، لكن بينها اتساقا وانسجاما، فلا بد لها من منظم خالق قادر حكيم .

وهذا الدليل وان كان من الناحية الصورية مقبولا ، فانه يقوم على مقدمات لا يقدم عليها ليبنتز برهانا كافيا .

وربما يكون هناك تناقض ، كما لاحظ البعض (١) ، بين قول ليبنتز بأن كل « موناد » يحوى فى ذاته بذور صفاته وتطور أحواله وبين القول بعلة للمونادات خارجة عنها . لكن ليبنتز يقول بأن عالم المونادات مخلوق « ضربة واحدة »، وهو فى هذا يشبه الدريين من اهل السنة، تماما .

وهكذا لا نجد عند ليبنتز ، فيما عدا الدليل الكونى ، ادلة مقنعة ، بل ادلة مرتبكة فى تراث سابق أو قائمة على تصور للعالم يحتاج الى دليل .

ويكفى لبيان نوع تصور ليبنتز للمشكلة قوله عن الاله مثلا :

هو الوحدة الأولى والجوهر البسيط الأول ، وكل المونادات « المخلوقة او المشتقة هى

---

(١) تيلور فى المرجع المتقدم

مخلوقات ، وتنشأ من لحظة الى أخرى بواسطة اشعاع مستمر كالبرق يصدر عن الاله . وهذه الاشعاعات تصير لها حدود بسبب قابلية المخلوقات التى من جوهرها أن تكون محدودة .

وقوله عن المادة :

كل قطعة من المادة تشبه حديقة مملوءة نباتات أو حوضا مملوءا أسماكا ، لكن كل غصن أو عضو حديقة أو حوض . .

ومن الواضح أن في كلامه عن الاله والعالم خيالا كثيرا ، فلا يصح أن يستسهل أحد الكلام عن الاله الحق بمفهومات وتصورات مما نعرف . واذا كنا لا نزال فى بداية المعرفة بعالم المادة فاننا لا يصح أن نسترسل فى الكلام عنها مع خيالنا الى هذا الحد .

● ● ●

ثم جاء الفيلسوف الانجليزى ديفيد هيوم David Hume (ت ١٧٧٦) بنزعته الفلسفية وما فيها من روح النقد ومحاولة التمحيص الذى لا يصل الى الشك بمعناه الحقيقى . وهو قد تبين الصعوبات التى تعترض النزعة العقلية الروحانية كما نجدها عند ديكارت واصحاب الميتافيزيقى العقلية ، لكنه من جهة أخرى لم يطمئن اطمئنانا كاملا للمذهب الحسي ـ المادى . وهو يقبل على أساس عملي أو عاطفى بعض ما ينكره نظريا بسبب عدم وجود المعرفة الواضحة أو الأدلة الكافية .

وفيما يتعلق بالموضوع الذى نحن بصدده نجده قد وضع المشكلة فى كتابه : « محاورات حول الديانة الطبيعية » Dialogues Concerning Natural Religion

وتدل الافكار التى تصدر عن الاشخاص الذين يتناقشون على أن أحدهم ، وهو كليانتيس Cleanthes متفلسف يمثل « علم الربوبية الطبيعى الفلسفى » ، والثانى ، وهو ديميا Demea يمثل المتشدد فى الايمان بالوحى مع نزعة صوفية ومع قبول الادلة النظرية البديهية ، والثالث ، وهو فيلو Philo متشكك غير جاد .

والذى يحكي المحاورة شخص مؤمن بوجود اله

وتوضع المشكلة على هذا النحو الجدي :

« أى حق هو من الوضوح بقدر وضوح القول بوجود اله ؟؟ . . . . وأى حق هو من الأهمية مثل هذا الحق الذى هو عماد كل آمالنا ، وأوثق اساس للاخلاق ، واثبت دعامة للمجتمع ، والمبدأ الوحيد الذى ينبغى الا يغيب لحظة عن مجال أفكارنا وتأملاتنا ؟ لكن عند معالجة هذا الحق الواضح العظيم الشأن اى مشاكل غامضة تعرض فيما يتعلق بطبيعة ذلك الوجود الالهى وبصفاته وبمجارى ارادته (lDecrees) وخطة عنايته P an of Providence ! »

وكلام المتحاورين يحتاج الى طول نظر والى تحليل دقيق . والمهم ان المحاورات تدور حول الأمور التى تشير اليها هذه العبارات التى تضع المشكلة كلها .

لكن أهم ما فيها أنها تذكر أنواع الأدلة التي ظهرت لاثبات وجود الله عند فلاسفة اليونان ومن جاء بعدهم من مفكري القرون الوسطى الأوروبية ، وتشير الى ما يمكن أن يوجه الى بعضها من اعتراضات ، والى عدم كفاية بعضها فى اثبات المقصود . وهى تدل أيضا على الارتباك الناشىء من التصورات غير الصحيحة فيما يتعلق بالاله (مثل تصوره بحسب المعايير الانسانية) أو بعلاقته بالعالم (كالقول بأنه سار فى العالم) أو فيما يتعلق بالعالم (مثل تصوره كائنا حيا) وعلى الارتباك الناشىء من أوهام المذهب المادى : فلماذا لا يكون الوجود الحقيقي هو هذا العالم المادى ، أو من الآراء الفاسدة فيما يتعلق بالانسان وانه كائن شقي بائس ـ وهذا رأى مصدره الجهل برسالة الانسان ، أو من الحل السطحى لمشكلة الشر المزعوم فى هذا العالم .... وهكذا .

والنقد الموجه للادلة على وجود الله ينصب على الأدلة النظرية الاستنباطية ، وعلى الأدلة المستندة الى النظر فى العالم ، جميعا . وهذا النقد يرجع بطبيعة الحال الى روح الشك الناقد عند هيوم . لكن تلك الأدلة كما كان السابقون قد وضعوها لم يتم احكامها ، ولذلك كانت موضع النقد .

ولا ضرورة للدخول فى تفاصيل هذا النقد، لأن بعضه تبين مما سبق وبعضه سيرد فيما يلى من كلام كنت عن الأدلة التقليدية .

وجه كنت Immanuel Kant (ت ١٨٠٤) في كتابه « نقد العقل الخالص Critique of Pure Reason نقدا لأدلة وجود الله جمع خلاصة الاعتراضات التى وجهت اليها ، وأضاف اعتراضات جديدة، لكن فى نقده مبالغة حقيقية ترتبط بجملة فلسفته النقدية وموقفه من امكان المعرفة الميتافيزيقية .

والناظر فى آراء كنت فى هذا الباب يتبين بسهولة أنه يريد ان يهدم ما يسمى علم الربوبية الطبيعي Natural Theology اى المعتمد على العقل الانساني وملكاته ومفهوماته .

على أن كنت ، فى كتبه السابقة على المرحلة النقدية (١) من فلسفته كان يثبت وجود الاله على أساس مبدأ العلية ، والقول بأن خروج الوجود الممكن الى حيز الوجود لا بد ان يسبقه وجود موجود واجب ، والا لما حدثت الممكنات أصلا ، وهذا الوجود الواجب يجب أن يكون واحدا ، عاقلا، مطلقا ، أزليا ، لا يتغير . فالاله الواحد هو المبدأ الواجب المطلق الذى تستند اليه جميع الممكنات .

وكان يثبت وجود الاله على اساس مذهب ليبنتز في القول بجواهر روحانية منفردة : فبما أنها منفصلة ، لكنها تؤلف نظاما فيه انسجام ، فلا بد لها من علة واجبة خارجية عنها (٢) .

وكان يرفض « الدليل الانطولوجى » عند ديكارت ، لأن هذا الدليل يقوم على اعتبار أن الوجود صفة ، وهو فى نظر كنت ليس كذلك ، وانما وجود الشىء هو الشىء نفسه .

على أن كنت كان ينقد الأدلة الاخرى على وجود الله ، ويشير الى أنها لا تثبت وجود الاله الحق ، ومنها الدليل الكونى والدليل الغائي .

---

(١) مثل كتابه بعنوان : « الاساس الوحيد الممكن لاثبات وجود الله »
The only possible foundation for the demonstration of the existence of God.

(٢) هذا في كتابه « صورة ومبادىء عالم الحس والعقل » The form and the principles of the sensible and intelligible world.

لكن كنت في كتابه «نقد العقل الخالص»(١) ، وبعد حوالي عشر سنين لم ينشر فيها شيئا ،أظهر هذا الكتاب وفيه نقد جميع الأدلة على وجود اللهنقدا منظما ، فهو يعرض الدليل ثم يبين انه زائف أو غير كاف . وهو بعد أن يتكلم عن الأدلة التى استخدمها العقل النظرى لاثباتوجود موجود أعلى يقرر أن هناك ثلاثة طرق لاثبات وجود الاله على أسس العقل النظرى ، ويقول ان هذه الطرق :

اما ان تبدأ من تجربة محددة وادراك التكوين الخاص لعالم الحس وترتقى بحسب مبدأ العلية الى وجود علة عليا منفصلة عن العالم .

واما أن تبدأ من تجربة غير محددة اى من وجود تجريبى ما .

واما أن تبدأ من مفهومات مستقلة تماما عن كل تجربة .

ويرى أن الأدلة بحسب هذا الترتيب هى :

١ ــ الدليل الفيزيقى ــ الدينى The Physico — theological Proof

٢ ــ الدليل الكوسمولوجى . The Cosmological Proof

٣ ــ الدليل الأنطولوجى . The Ontological Proof

ويزعم انه لا توجد ، ولا يمكن أن توجد ، أدلة غيرها .

وكل اهتمامه يتركز حول اثبات أن العقل النظرى لا يستطيع ، بقوته الخاصة وحدها ، ان يحلق فوق عالم الحس .

اما فيما يتعلق بالدليل الأنطولوجي فان نقده له هنا تفصيل لنقده السابق، مع انكار أن يكون الوجود بالفعل صفة أو محمولا للشيء والقول بأنوجود الشيء هو ادراكنا لوجوده او لصفة له ادراكا مباشرا وتأكيدنا لذلك ، فقولنا مثلا : الاله موجود ، هو ادراك لوجود ذاته وصفاته وتأكيد ذلك .

ويذهب كنت الى أن أساس الدليل الانطولوجى ، وهو القول بكائن كامل او واجب يستحيل ان لا يكون موجودا ، ليس ملزما للعقل ، لأن العقل يستطيع أن يفترض عدم وجود مفهوم فى الذهن ، وبالتالى عدم الاستنباط منه . وهذا ينطبق حتى فى ميدان الرياضيات ،فالغاء مفهوم المثلث فى الذهن يسمح بالغاء كل أحكام المثلث .

ويقرر كنت أن استنتاج وجود الشيء من مفهومه تحصيل حاصل تعس Miserable Tautology وأنه لا يرضى العقل السليم ولا يثبت أمام الفحص الفلسفى .

أما الدليل الكوسمولوجي فهو في راى كنت لا يقوم على الاستنتاج من مفهوم ، بل على الاستنتاج من وجود شيء واقع على وجود شيءواجب لا بد ان يكون موجودا ، وهو يسمى بحسب عبارة ليبنتز Leibnitz الاستدلال من امكان العالم Argumentum a Contingentia Mundi

وصورته هكذا : اذا كان هناك شيء موجود ، وليكن « انا » ، فلا بد من وجود موجود واجب الوجود .

بعبارة أخرى : الممكن الوجود لا بد له من علة ، وبما انه لا يمكن التسلسل فى العلل فلا بد من الانتهاء الى علة أولى هى واجب الوجود ، أو الكائن الذى له كمال التحقق Ens realissimum وهو يسمى الدليل الكوسمولوجى ، لأن موضوعه هو العالم (Cosmos) باعتباره شيئا موجودا ، دون نظر الى مميزاته كالنظام او الغائية او نحو ذلك ، ولهذا فهو يتميز عن الدليل الفيزيقي الديني الذى سيأتى الكلام عنه .

---

(١) The Critique of Pure Reason بحسب نشرة : The Great Books of the World مجلد ٤٢ ص ١٧٧ فما بعدها .

ونظرا لأن تحديد مفهوم واجب الوجود وصفاته لا يتيسر الا من طريق الاستنتاج من مفهومه ، لأن التجربة لا تعلمنا شيئا عن ذلك ، فان كنت يرى فى الدليل الكونى صورة أخرى للدليل الانطولوجى .

هذا الى أن كنت يرى فى مبدأ العلية، أو القول بأن كل ممكن لا بد له من علة ، انه مقصور على حوادث هذا العالم وليس له انطباق وراء ذلك ،وهو لا يدعونا الى البحث عن علة للعالم .

ويذهب كنت فى نقده لهذا الدليل الى حد القول بأن استنتاج ضرورة علة أولى من استحالة التسلسل فى العلل لا يبرره العقل فى عالم التجربة فضلا عما وراءه .

ولا حاجة للمضي فى ذكر اعتراضات كنتعلى هذا الدليل ويكفي أن نلاحظ ما فى نقده من مبالغة تصادم العقل والواقع معا .

وهو مع أنه يعترف بأن الدليل الكوسمولوجى يقوم على القول بأن وجود اى شىء يقتضى استنتاج واجب الوجود ، وأن هذا الاستنتاجطبيعى ، فانه يزعم أنه يمكن تصور عدم وجود هذا الواجب ، فان التصور مقياس لصحة الآراء ، بل هو يذهب الى أن مفهوم الوجوب (Necessity) والامكان (Contingency) مبدآن ذاتيان فى العقل (Subjective Principles of Reason) وليسا موضوعيين (١) ، بل ان مفهوم « الموجود الاعلى » Supreme Being فى نظره ، مجرد « مبدأ تنظيم » Regulative Principle

والمبالغة واضحة فى كلام كنت ، لكن الدليل الذى ينقدة نظرى ومجرد الى حد كبير ، ولا شك ان وضعهعلىهذهالصورة مأخوذ عن ليبنتز ،وهو قد أخذه عن مفكرى العصور الوسطى ، وهم اخذوه عن الفارابي وابن سينا ووضعوه على صورة معينة .

أما الدليل الفيزيقي — الدينى الذى يمكنأنيسمى أيضا الدليل الغائي Teleological Proof فان كنت يقف منه موقفا آخر . يقول كنت :

« ان العالم المحيط بنا يفتح أمام بصرنا منظرا هو منالروعة فىالنظام والتنوع والجمال والملاءمة لغايات الى حد أننا ، سواء مضينا فى ملاحظاتنا للانهائية الفضاء فى اتجاه أو للاقسام التى لا حدود لها فى اتجاه آخر ، سواء نظرنا للعالم فى أعظم مظاهره أو فى أصغرها ، حتى بعد أن نكون قد بلغنا أعلى ذروة فى العلم يمكن أن تصل اليها عقولنا القاصرة ، فاننا نجدنا أمام عجائب تفوق كل تصور ، وأمامها تفقد اللغة قدرتها على التعبير ولا تفى به بل يعجز الفكر عن الادراك ، وينحل تصورنا للكل الى دهشة نفقد معها القدرة على التعبير ، وتكون أفصح عبارة لنا أن نكف عن الكلام .

فنحن نلاحظ اينما نظرنا حولنا سلسلة منالاسباب والمسببات ، من الوسائل والغايات ، من الموت والميلاد . ولما كان لا شىء قد دخل مننفسه فى الحال التى نجده عليها ، فانه لا بد لنا دائما من الرجوع الى شىء آخر ، هو بدورهيبعث أيضا على التماس علة له ... وهكذا فان العالم لا بد أن يغرق فى بحر اللاشىء ، الا اذا سلمنا بأنه الى جانب السلسلة التى لا نهاية لها من الممكنات يوجد شىء هو أول وقائم بذاته ،شىء هو الذى ، باعتباره علة عالم الظاهرات هذا، يضمن بقاء عالم الظاهرات ويحفظه .

---

(١) نقد العقل الخالص ، ص ١٨٦ .

هذا المبدأ الاعلى ، أى عظم ينبغي أن نضيف اليه ؟ اننا نجهل محتوى العالم ، ونحن لا نستطيع تقدير عظمه بالقياس الى مجال الامكان . لكن هذا المبدأ الاعلى ، نظرا لأنه ضرورة يقتضيها العقل الانساني المشترك ، فما الذى يمنعنا أن نضيف اليه من الكمال ما يجعله فوق كل ما هو ممكن ، وهذا ما نستطيع أن نفعله بسهولة ، وان كان ذلك بمساعدة الاطار الضعيف لمفهوم مجرد ، بأن نمثل لانفسنا هذا الموجود حائزا كل كمال ممكن » .

ويرى كنت « أن هذا الدليل يستحق دائما أن يذكر بالاحترام ، وأنه أقدم الأدلة واوضحها وأكثرها اتفاقا مع العقل الانساني . وهو يبعث الحياة فى دراسة الطبيعة ، لأنه يستمد وجوده من ذلك المصدر ، ويستمد منه قوة متجددة دائما . فهو يتبين أغراضا وغايات فى ميدان ما كانت ملاحظتنا تستطيع أن تكتشفها من نفسها ، ويوسع معرفتنا بالطبيعة ، بأن يوجه انتباهنا الى وحدة يوجد مبدؤها خارج الطبيعة . ثم ان المعرفة بالطبيعة يصبح لها تأثير في هذه الفكرة ، أعنى علة الطبيعة ، وبذلك يرتفع اعتقادنا بوجود الاله الصانع للعالم الى مرتبة اقتناع لايمكن مقاومته(١) »

ان كنت يقدر هذا الدليل ولا يرى جدوى من محاولة تجريح سلطانه او التشكيك فيه ، لان الشك يتبدد بمجرد أن يلقى الانسان نظرة على عجائب الطبيعة وعظمة الكون .

لكنه يلخصه على النحو الاتى :

١ ـ فى الطبيعة نظام
٢ ـ هذا النظام فى الاشياء ليس من ذاتها
٣ ـ اذن لا بد من منظم عاقل .
٤ ـ هذا المنظم واحد على اساس وحدة الطبيعة وترابط اجزائها .

ثم يقول : ان الطبيعة اذن كالعمل الفنى ، واستدلالنا على مصدرها كالاستدلال من الاثر الفني على مصدره . ولا يصح ان نذهب الى نوع آخر من الاستدلال، لأن العقل لا يفي بكل ما يطلبه اذا صار من علّيّة يعرفها الى مبادىء للتفسير لايعرفها ولا يمكنه ان يبرهن عليها (٢) .

فالدليل لا يثبت الا حدوث الصورة التى عليها العالم ووجود صانع ، ولا يثبت حدوث المادة التى صنع منها العالم . ولما كان الدليل يقوم اساسا على الاستدلال من اشياء هى فى ذاتها محدودة ، فانه لا يثبت اكثر من وجود صانع قدرته مقيدة بقابلية المادة ولا يثبت وجود خالق للعالم بالمعنى الحقيقى .

هذا الى اننا ، فى رأى كنت لا نعرف كل العالم ولا مدى دلالته على القدرة المطلقة ولا مدى دلالة النظام والحكمة فى العالم على الحكمة العليا ، ولا دلالة وحدة العالم على وحدانية موجده .

والدليل اذا كان يدل على أن صانع العالم يتصف بالجلال والقدرة والحكمة فانه لا يدل على ما للاله من كمالات مطلقة لا نهاية لها ولا يبعث فينا اكثر من الاجلال والتعظيم والثناء .

ويرى كنت اننا فى هذا الدليل نبدأ بملاحظة نظام الطبيعة ونستنتج انها ممكنة الوجود ثم نستنتج وجود الموجود الواجب وبذلك نعود الى الدليل الكوسمولوجى الذى هو صورة مقنعة للدليل الانطولوجى .

---

(١) نقد العقل الخالص ، ص ١٨٧ ع٢

(٢) المصدر نفسه

واذن فلا بد من اكمال الدليل الفيزيقى ـالدينى بالدليل الوجودى . وعند ذلك يتهيأ ، من الناحية النظرية وعلى اساس مفهومات العقل النظرى ، الدليل الوحيد الممكن لاثبات وجود الاله وذلك بشرط ان يكون من الممكن اثبات قضية منطريق تجاوز حدود الاستخدام التجريبى للعقل .

ومن الواضح ان كنت مسرف كل الاسراف في نقده . لانه اذا قام الدليل القطعى على ان هذا العالم ممكن الوجود فان العقل يقضي بضرورة وجود موجود واجب مخالف للممكنات في ذاته وصفاته ، وبمجرد هذا الاستنتاج يقضى العقل بأن ذاته وصفاته وكمالاته مطلقة ولا ندرك كنهها بعقلنا المحدود ، بحيث يدل العالم على اله حق واجب الوجود ، فوق كل تصوراتنا ومفهوماتنا النسبية .

ومن جهة اخرى فان هذا العالم مهما كان من العظمة ومهما صدر من امثاله عن الاله منذ الازل ، ومهما يصدر عنه الى الابد ، فان ذلك كله لا يصلح مقياسا للقدرة المطلقة التى لانهاية لها والتي لا ينضب لها معين .

ان كنت على حق فى قوله ان العالم لا يدل على الالة الحق دلالة كافية . فالحق ان العالم محدود ، ولكن اكمال الدليل لا يكون من طريق الدليل الوجودى ، بل من طريق الاستدلال من النظر في العالم ، لكن مع التنزيه للاله ومع الادراك الكامل لمفهوم الوجود الواجب .

وكنت على حق فى قوله ان الدليل أثبت وجود الصانع ولم يثبت حدوث المادة .

وكل النقائص التى يبينها كنت فى هذا الدليل الذى يقدره تقديرا خاصا قد تلافتها أدلة مفكرى الاسلام لاثبات وجود الله . خصوصا أدلة المتكلمين من المعتزلة والاشاعرة .

لقد كان غرض كنت من نقده لادلة وجود الله أن يهدم « علم الربوبية الفلسفى او الطبيعى » ، الذى يعتمد على العقل النظرى .

والانسان يستطيع ان يقبل كلام كنت فى ان النزعة النقدية عند هيوم هى التى أيقظته من سبات مذهب الجزم الميتافيزيقى . لكن نقد هيوم لا يخرج من ألفلسفة التجريبية الانجليزية ، وليس له فيها مقدمات كافية . ولذلك يربط بعض العلماء بين نزعته النقدية وبين آراء للغزالى، كما فعل العلامة الاسبانى ميجل آسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios

والسؤال الآن هو : هل عرف كنت آراء الغزالى ، على الاقل من الترجمة اللاتينية لكتاب « تهافت تهافت الفلاسفة » لابن رشد او من مؤلفات مفكرى العصور الوسطى الكثيرين الذين رددوا آراء الغزالى فى التهافت ؟

يوجد بين موقف الغزالى من الميتافيزيقى العقلية ، سواء فيما يتعلق بالعالم أو النفس او الاله ، وموقف كنت شبه واضح . والذى يصبر على قراءة كتاب « تهافت الفلاسفة » للغزالى وكتاب « نقد العقل الخالص » لكنت ، يلاحظ فى مواضع كثيرة شبها فى بعض الافكار وفى الروح

---

(١) مثلا فى كتابه La Espiritualidad de Algazel مجلد ١ ص ٤٨ ـ ٤٩ ، مدريد ١٩٣٤ .

وخصوصا في محاولة هدم علم الربوبية الفلسفي وعلم الوجود العقلي وفي نقائض العقل(١)، مما يجعل الدراسة المقارنة لآراء حجة الاسلام وآراء فيلسوف الالمان، من أشيق الدراسات واعظمها شأنا .

على ان كنت، وان كان ينقد الادلة العقلية النظرية على وجود الله، فانه يؤمن بوجود الله، ويحاول ان يثبت وجوده من طريق آخر، هو طريق العقل العملى او العقل الخلقى .

ان العقل يدرك الخير ويقضى باحترام قانون الواجب الذى هو الفضيلة والخير الاعظم فى نظر كنت . لكن مع ان الفضيلة فى ذاتها خير اعظم، فانها ليست الخير التام الكامل بالنسبة للانسان فى حياته هذه، لان الانسان الواقع، ان كان يطمح الى الفضيلة، فانه ايضا يطلب السعادة بطبعه وما فيه من احساس انسانى، فلا بد ان يكون الخير التام له مشتملا على السعادة بقدر ما هناك من فضيلة . لكن الواقع والتجربة فى هذه الحياة لا يدلان على ذلك .

وكنت هنا يخالف الفلاسفة القدماء الذين اعتبروا ان السعادة والفضيلة مرتبطتان . هو يخالف الرواقيين الذين كانوا يقولون ان الحكيم هو الفاضل السعيد، وان شعور الانسان الحكيم بفضيلته سعادة . ويخالف الابيقوريين الذين كانوا يرون فى اللذة الخالصة سعادة . ويقول كنت انه لا طلب السعادة يزيد فى الفضيلة، ولا الفضيلة تجلب السعادة . والسبب فى ذلك هو ان عالم الحس الذى نعيش فيه ليس فيه اتفاق بين ما هو حسى وما هو عقلى، وليس بين الفضيلة والسعادة اقتران علة بمعلول . ومع ذلك فان الانسان يريد هذا الاقتران، ويريد ان يكون مع الفضيلة سعيدا، لكنه ليس هو الذى وضع نظام الطبيعة ولا يمكنه ان يسيطر عليه .

فبما ان الانسان يجب عليه أن يمتثل لقانون الواجب والفضيلة، ولا تتحقق له السعادة، فلا بد للانسان من ان يؤمن بوجود اله حكيم خير هو الذى وضع نظام الاشياء ونظام الاخلاق، يعلم نوايانا الطيبة ويجازينا عليها، ويكون هو الضامن لتحقق السعادة مع الفضيلة .

ولما كانت الارادة الخيرة لا تستطيع في هذه الحياة ان تحقق كل ما يطلبه القانون الخلقى، وكانت لا تزال تريد ذلك، فان الموت لا يمكن ان يكون نهاية حياة الانسان، ولا بد ان تكون الروح خالدة لكى تستطيع مواصلة طموحها والاقتراب من غايتها . وهذا يكون بطبيعة الحال فى حياة اخرى .

هذا هو دليل كنت لاثبات وجود الله بناء على حاجات العقل العملى او حاجة النظام الخلقى، وذلك بعد ما زعمه من انه لا يمكن على اسس العقل النظرى اثبات وجود الاله الحق .

ومن العجيب ان كنت صاحب « قانون الواجب » و « الامر المطلق » يرى ان هذا الايمان القائم على الاعتبارات العملية والخلقية ايمان اختيارى، وانه، رغم عدم الزامه، يقوّى بواعث الخير . ومع « انه فى احيان كثيرة قد يتزعزع، حتى عند الاخيار، فانه لا ينقلب ابدا الى الحاد » .

انتهت الى كنت تجربة فلسفية كبيرة تشتمل على آراء شتى فى الالوهية والادلة على وجود الله . وقد نقدها نقدا ثائرا لا يشبه فى الروح وفى بعض التفاصيل الا نقد الغزالى للفلسفة فى كتابه « تهافت الفلاسفة » .

وقد ادى نقد كنت الى شيء من التشكك فى مقدرة العقل النظرى عند البعض، لكنه لم يؤد الى زلزلة الثقة بالعقل، واستمر المفكرون يصوغون الادلة على وجود الله، لكن مع ميل عند البعض الى نزعات وحدة الوجود .

---

(١) لاحظ بعض العلماء شبها بين آراء الغزالي وكنت فى موضوعات جزئية مثل مسالة الزمان والمكان راجع كتاب (.Obermann (J بعنوان : Der Philosophische u. Religiose Subjectivismus Ghazalis, Leipzig, 1921, S. 112 ff.

كان مجيء الاسلام بكتابه الحكيم نقطة تحول فى تاريخ الدين المنزل والتفكير الدينى والعلمى والفلسفي على السواء

فقد جاء فيما يتعلق بالالوهية بالمفهوم الواضح الكامل للاله ، بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة .

وجاء يبنى الايمان على نظر العقل وثمرة المعرفة ، وجعل موضوعات العقائد مسائل بحث وموضوع دليل وبرهان .

ورسم منهجا فى المعرفة ، كما رسم الطريق للمعرفة بوجود الله وما له من صفات الكمال .

والذى يعنينا هنا بنوع خاص هو ان القرآن يعظم امر العلم والحكمة ، ويأمر بالنظر فى آيات هذا الكون الظاهرة ويشوق الانسان الى معرفة اسراره الخفية وينبهه الى ان الله جعل له الحواس والعقل فيجب عليه ان يستعملها .

وهو اذ يتكلم عن الاله وصفاته وافعاله وتدبيره لهذا العالم يبين ان الطريق الى معرفة ذلك هو النظر فى هذا العالم ، وهو يتكلم عن العالم وما فيه من وجوه كثيرة،وكلامه يشتمل على جميع الظاهرات التى تبحثها العلوم الكونية والانسانية ، هذا الى ان القرآن تكلم عن هذا العالم فى قضايا، هى احكام عامة يهتدى بها الباحث ، ونبه الى جوانب رئيسية لكى يجعلها الباحث موضع البحث الحسى والعقلى .

والمقصود من كلام القرآن عن العالم وتنبيههالى آياته هو ان يستدل الانسان على وجود الاله تعالى من النظر فى العالم وان يعرف طبائع الاشياء وخواصها وقوانينها لكى يستخدمها ، لانها كما يقرر القرآن مسخرة للانسان .

والقرآن يدور حول فكـرة الحق والعلم الصحيح فى كل شيء .

وهو يعيب اهل التقليد الذين لا يستعملون عقولهم فى قبول الحق المخالف لما نشأوا عليه ، ويؤكد مفهوم العلم الحق الذى لا تشوبه الشكوك والظنون ، وينهى عن اتباع الظن والهوى فى الحكم على الاشياء ويطالب بالبرهان كما يقدم البرهان على ما يقرره من قضايا .

وهو يذكر ما عند الانسان من الحواس والعقل ، ويعتبرها نعما كبرى ، ويقرر مسئولية الانسان عنها .

والمعرفة الانسانية ، بحسب القرآن ، ثمرة الحس والعقل معا ، ويخص القرآن بالذكر من بين الحواس ، السمع والبصر ، ويكثر من ذكر البصر والامر بالنظر للاشياء .

وهو لا يزال عند كلامه عن آيات الكون ينبهالى ان فيها آيات ، اى علامات دالة ، لمن يستعمل حواسه وعقله ولمن يتفكر ويريد ان يعلم ويوقن بالحقائق عن علم بها .

وهو يعتبر ان مقاصد آياته ومعانيها انما تتجلى للعلماء ، وان العلماء هم احق الناس بأن يدركوا ضرورة وجود الاله الحق وان يعظموه ويخشوه(١) .

---

(١) لاحاجة لذكر شواهد على ما تقدم ، ومن السهل ، على من يريد ، ان يتصفح القرآن ويستخرج الشواهد

واذا كان القرآن يشير فى بعض آياته الى أن المعرفة بالله مغروزة فى الفطرة الاصلية ، اعنى فطرة الروح الانسانية على حالتها الاولى ، قبل ان تظهر فى هذا العالم وتستخدم فيه هذا المركب البديع الذى هو البدن وما له من حواس ظاهرة وباطنة ومن جوارح ، فانه يوجه عقل الانسان الى الطريق لمعرفة الله بأن ينبهه الى النظر فى العالم وفى نفسه .

« وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون » (س ٥١ ــ الذاريات ، ٢٠ ــ ٢١)
« ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » (س ٤٥ ــ الجاثية ، ٣ ــ ٤)

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أوَلمْ يكف بربك انه على كل شيء شهيد » (س ٤١ ــ فصلت ، ٥٣)

« أفى الله شك فاطر السموات والأرض » (س ١٤ ــ ابراهيم ، ١٠)

فالقرآن يجعل نقطة البداية لمعرفة الله ما يشاهده الانسان فى الكون وفى نفسه ، وتدل آيات كثيرة فى القرآن على ان المقصود مما يشاهده الانسان فى نفسه هو نشأته وتقلبه فى مراحل الخلقة وبنيته واعضاؤه وجوارحه الى جانب ما يدركه الانسان فى حياته الباطنة : حياة الفكر وحياة النفس ، بالمعنى الواسع لهاتين الكلمتين .

فالقرآن لا يجعل اساس النظر المؤدى الى معرفة الله مفهومات مجردة ، ولا معانى ذهنية ، ولا قضايا نظرية جدلية ، وهو حتى عندما يريد ان يجادل لا يجعل موضوع الجدال خارجا عن نطاق المشاهد الذى يدركه الانسان مباشرة .

وهذه هى البداية الطبيعية التى يجب ان يعتمد عليها الانسان فى هذا العالم ، وهى البداية العلمية ــ الفلسفية التى يشترك فى فهمها الجميع ، وهى لا تتعارض مع طريق آخر للمعرفة بالله ، سنشير اليه فيما يلى(١) وهو يتميز عن الطريق النظرى المجرد الذى كان موضع خلاف بين المفكرين ويتسم بانه ادراك حقيقى لشيء واقعى وان كان فى اعماق الروح الانسانية .

واذا اردنا مثالا على طريقة القرآن فى الارشاد الى معرفة الله فلنذكر الآيات الآتية :

« والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم * ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » (س ٢ ــ البقرة ، ١٦٣ ــ ١٦٤) .

نلاحظ ان الآية قد وضعت القضية اولا ، وهى وجود الاله الواحد ، ثم نبهت الى الطريق للمعرفة به وان هذا الطريق لمن يستعمل عقله .

« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون * يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون * ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم

(١) ما يلى ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .

أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون * وله من فى السموات والارض كل له قانتون * وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو اهون عليه ، وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم * ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله ، وما لهم من ناصرين * فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون * » (س ٣٠ ـ الروم ، ١٧ ـ ٣٠) .

فى هذه الآيات نجد وضع القضية وهى : معرفة الله وتعظيمه ، ثم يأتى الكلام عن تدبيره للاشياء وعن آيات الكون ، ثم تأتى الاشارة الى الذين ظلموا انفسهم باتباعهم طريق الهوى ، اى الميل الذى لا يستند الى علم او عقل ، ولم يسلكوا طريق العلم المؤدى الى المعرفة بالله ، ثم يأتى التوجيه الى الدين الحق مع الاشارة الى ان الدين القائم على العلم يطابق الفطـرة الانسانية ، اى الفطـرة الاولى الاصلية والفطرة الحاليـة التى تتلخص فى العلم والعقل واستعمالهما الاستعمال الصحيح .

« أولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون * وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون * وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون » (س ٢١ ـ الانبياء ، ٣٠ ـ ٣٣) .

هذه الآية تتعلق بموقف الذين ينكرون وجود الله ، وهي تنبههم الى نظام السموات والارض، وتطالبهم بأن يفسروا هذا النظام بحسب قوانين العقل الذى يقضى بأن الشيء الحادث والواقع والموجود على نحو معين لا بد ان تكون له علة كافية .

« الم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة. ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » (س ٣١ ـ لقمان ، ٢٠) .

هذه الآية تنبه الى القوانين الطبيعية التى يخضع لها نظام العالم ، والى ان هذه القوانين فى مجراها تحقق مصالح الانسان وتشير الى ان الجاحدين بوجود الله لا يستندون فى ذلك الى سند من علم بالامر أو منهج أو حجة علميـة محققة مدونة .

هذه الآيات انما نذكرها لكى يتبين ان نقطة البداية لاثبات وجود الله هى النظر فى هذا العالم ، كما أن نقطة البـداية للـرد على الجاحـدين هى النظر فى هذا العالم ايضا .

ولا بد من هذا التنبيه لأن القرآن انفرد بين الكتب المنزلة ، على صورتها التي وصلت الينا ، بهذه الطريقة فى المعرفة بالله ، وجعل مسألة اثبات وجود الله مسألة بحث علمى فى ضوء العقل والحس . ويؤخذ من آيات كثيرة فى القرآن ان الايمان بالله ثمرة العلم وان الجحود بوجوده سببه الجهل .

وعلى اساس من آيات القرآن امكن للعلماء ان يستخلصوا ادلة على وجود الله ، ولا يزال المجال مفتوحا امام المفكر .

فعلى اساس من جملة آيات القرآن التى تتكلم عن العالم وتنبه الى اياته وعجائبه واسراره استخلص مفكرو الاسلام ، خصوصا علماء الكلام والمشتغلين بالعلوم الطبيعية والكونية بوجه عام دليلا على وجود الله هو المسمى : « دليل التدبير » او « دليل الاتقان » او « دليل الاحكام » وهو يتلخص فى الاستدلال من النظر فى نظام العالم علىوجود صانع قادر حكيم طبقا لمبدأ عقلى هو مبدأ العلية الذى يقضى ، كما تقدم القول ، بأن كل حادث وكل شيء يقع على نحو ما لا بد له من علة كافية .

وهذا الدليل بقى على صورته الاجمالية الى ان جاء ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ ــ ١١٩٨ م) فنظر فى آيات القرآن نظرا فلسفيا تحليليا ، وميز بين دليلين يمكن اخذهما من آيات القرآن :

الاول دليل الاختراع ، ومعنى الاختراع هو الايجاد والاحداث . والمقصود منه فى نظر ابن رشد هو اختراع جواهر الاشياء واختراع الحياة فى المادة . ويقوم هذا الدليل فى نظره على نوع من الدلالة التى يدركها الانسان بالحس والعقل ادراكا مباشرا .

فمثلا فيما يتعلق بعالم الكائنات الحية نحننلاحظ حدوث النبات والحيوان ، وهذا يدل بحكم الضرورة العقلية على ان للحياة علة .

وفيما يتعلق بنظام السموات نحن نلاحظ ان الاجرام السماوية تلتزم فىسيرها حركات معينة تؤدى الى تحقيق غايات ، وخصوصا فيما يتعلق بالارض وما عليها .

معنى هذا ان الاجرام السماوية مسخرة مقهورة. والعقل يقضى بأن المسخر مخترع مخلوق بالضرورة .

والدليل الثانى سماه ابن شد دليل العناية ، وهذه العناية محورها الانسان خاصة . فنحن نلاحظ ان جميع نظام العالم من الشمس والقمر والليل والنهار ، وكل ما على ظهر الارض ، ملائم للحياة الانسانية ، بل ان تركيب الانسان نفسه ملائم لحياته على الارض. هذا شيء نلاحظه بالحس، والعقل يقضى بأن تكون هذه الملاءمة ناشئة عن فعل صانع مدبر حكيم قصد ذلك واراده .

ويلاحظ ابن رشد ان من آيات القرآن ما يتضمن التنبيه على دليل الاختراع ، ومنها ما يتضمن التنبيه على دليل العناية ، ومنها ما يتضمن التنبيه على الدليلين معا(١) .

واذا اردنا مثالا آخر يبين لنا كيف اخذ المفكرون الاسلاميون من بعض آيات القرآن ادلة نظرية علمية ــ منطقية فى بنائها ، فلنذكر استدلال الاشعرى(٢) فى كتابه « اللمع » ، اى الادلة اللامعة ، على وجود الله . فهو عندما يجيب عن سؤال من يسأل عن الدليل على ان للخلق صانعا مدبرا ، يستند الى آيات القرآن التى تتكلم عن الانسان وتطوره فى مراحل الخلقة ، قبل ولادته وبعدها .

يقول الاشعرى :

الانسان الذى نراه فى حال كمال نموه البدني ، قد تطور من مبادىء بسيطة ــ ونلاحظ ان هذه مقدمة حسية .

---

(١) راجع التفصيل فى كتاب ابن رشد : « الكشف عن مناهج الادلة »

(٢) هو ابو على الحسن بن اسماعيل الاشعرى ، المتوفى حوالى ٣٢٤ هـ

ولكن الانسان يعلم انه ليس هو الذى ينقل نفسه من طور الى طور ، لانه حتى وهو فى حال كمال قوته لا يستطيع ان يخلق لنفسه حاسة او جارحة . وهذا يدل على انه ، عندما كان فى بداية امره ، اعجز عن ان يخلق لنفسه ذلك .

وايضا يعلم الانسان انه ليس هو الذى ينقل نفسه من حال الشباب الى حال الكبر والهرم ، بدليل انه لا يستطيع ان يرد نفسه الى الشباب ـ ونلاحظ ان هذه المقدمات تستند الى الحس والاستدلال الواضح .

واذن فبما ان الانسان ليس هو الذى يطور نفسه ، وبما انه محمول رغم انفه على التطور ، فانه ليس هو الذى اوجد نفسه ، ولا بد له من موجد هو الذى اوجده وهو الذى يدبر امره وينقله من طور الى طور .

بعد هذا يثبت الاشعرى ضرورة وجود علة كافية لكل شيء حادث ويقرر ان من يجحد ذلك يصادم قوانين العقل .

ويثبت الاشعرى ان صانع العالم لا يمكن ان يكون جسما ، كما يثبت صفات الكمال التى للاله الحق وهى صفات الخلق والتدبير .

ومع ان دليل الاشعرى يدور حول ظاهرة واحدة هى ظاهرة الانسان ، فان الفكرة التى يقوم عليها تشمل كل شيء حادث يسير بحسب قوانين ، وعالمنا كله كذلك .

والى جانب الآيات التى اخذ منها المتكلمون « دليل الاتقان » توجد فى القرآن آيات ، هى فى ذاتها ، اشبه بالادلة المنطقية لاثبات وجود الله .

ففى القرآن مثلا هذه الآيات القصيرة الموجهة الى منكرى وجود الله .

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والارض ، بل لا يوقنون » الى قوله تعالى « أم لهم اله غير الله ، سبحان الله عما يشركون » (س ٥٢ ـ الطور ، ٣٥ ـ ٣٦ ، ٤٣) .

والمتأمل لهذه الآيات القصيرة يتبين له أنها تتضمن بيان الاحتمالات الممكنة ، بحسب العقل ، فيما يتعلق بتعليل هذه الاشياء الحادثة التى نراها : ما هى العلة الحقيقية لوجودها ؟ وتذكر الاحتمالات على صورة الاستفهام المقصود منه تأكيد النقيض :

هل الاشياء الحادثة حدثت من غير علة ؟ هذا شيء يرفضه العقل .

هل هى احدثت نفسها ؟ هذا ايضا يرفضه العقل لما فيه من تناقض .

ولو فرضنا ان بعض الكائنات يؤثر فى وجود بعضها ، فمن الذى اوجد نظام الكون فى جملته من السموات والارض ! ؟

واذن فلا بد من علة لهذا النظام الكونى كله ، وهى الاله الخالق الحق .

والى جانب ما تقدم يوجد دليل آخر سماه العلماء « طريق ابراهيم » ، وهو يسمى فى القرآن « حجة » ، وهو يؤخذ من الآيات التي تبين لنا موقف ابراهيم (ع) من قومه الذين كانوا يقدسون الاصنام ومناقشته لهم وتفكره فى نظام الكون واهتداءه من تغير احوال الاشياء الى انها حادثة لا بد لها من محدث مخالف لها لا يتغير (وهذه الآيات هى : س ٦ ـ الانعام ، ٧٤ ـ ٨٣) .

وفى القرآن آيات تتكلم عن شعور الانسان عندما تحيط به الاخطار المهلكة ، وانه فى اوقات الشدة يلجأ الى موجد الكون الذى بيده قوى الطبيعة . وهذا الشعور فى حقيقته ناشيء عن

معرفة ضمنية وعميقة فى نفس الانسان بأن له خالقا هو خالق العالم ومدبره. لكن هذا الشعور الذى تغمره عوامل التقليد او الانكار او الشك او المكابرة والعناد او الغرور ، يتجلى فى وقت الشدة . فهنا يتجلى ما فى الفطرة وما فى اعماق تفكير الانسان . وقد أقام بعض العلماء دليلا على وجود الله يستند الى هذا الشعور ، كما فعل المطهر بن طاهر المقدسى (ت حوالى ٣٤٠ هـ) فى كتابه : « البدء والتاريخ » ، فهو يقول :

« من الدليل على اثبات البارىء سبحانه ولـه النفوس وفـزع القلوب اليـه ، اذا حزبت الحوادث ، اضطرارا . اذ لا يوجد مضطر وقد عضته نائبة ولدغته ناكبة يفزع الى حجر او شجر أو مدر أو شيء من الخلائق الا اليه ، ويدعوه بما هو معروف عنده من اسم او صفة ــ هذا مشاهد عيانا ــ كما تفزع النفس عند المكاره المخوفة الى طلب المهرب والنجاة ، وكما يفزع الطفل الى ثدى أمه ضرورة وخلقة . كذلك الله فى معرفة خلقه اياه ، الا ان اثر الدلالة فى الخلق عليه اعظم من اثر ميل الطبع الى ما يلائمه وازوراره عما ينافره .

ولا يمكن الملحد المنكر ، وان غلا وتعمق فى الالحاد ، الامتناع فى معرفة الله واجراء ذكـــره واسمه على لسانه ، شاء ام ابى ، فى حال عمده ونسيانه ، لان قلبه ولسانه على ذلك خلق ، كما أن طبعه على الميل الى المحبوب والازورار عن المكروه جبل » .

على اننا نجد فى القرآن ، الى جانب هذا كله ، آيات كثيرة توجه الانسان الى الايمان بالاله الحق من طريق الترهيب والترغيب ، اى من طريق التأثير النفسي ، مع الاستعانة بما يهز الخيال وبالامثال التى تعبر عن حقائق وبروح الموعظة الحسنة ، من امثلة ذلك هذه الآيات :

« يا أيها الناس اتقو ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب اللـه شديد » الى قوله تعالى « حنفاء للـه غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق (س ٢٢ ــ الحج ، ١ ــ ٢ ، ٣١) .

« والـذين كفـروا اعمالهم كسراب بقيعـة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * او كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » (س ٢٤ ــ النور ، ٣٩ ــ ٤٠) .

« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغة ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » (س ١٣ الرعد ، ١٤) .

« مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون ممـا كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد » (س ١٤ ــ ابراهيم ، ١٨) .

« وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى ، قال : يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * ومالى لا اعبد الذى فطرنى واليه ترجعون * أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون * انى اذا لفى ضلال مبين * انى آمنت بربكم فاسمعون * قيل ادخل الجنة ، قال : يا ليت قومى يعلمون * بما غفـر لـى ربى وجعلنى مـن المكرمين » (س ٣٦ يس ، ٢٠ ــ ٢٧) .

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه : اتقتلون رجلا ان يقول : ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله

لا يهدى من هو مسرف كذاب * يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض ، فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا » (س ٤٠ غافر ، ٢٨ ـ ٢٩) .

ونلاحظ ان هذه الآيات الاخيرة تجمع بين روح الموعظة وبين التفكير المنطقى على صورة طبيعية بسيطة ، وتنجو نحو الاقناع والتوجيه للسامع او القارىء من طريق دعوته الى الموازنة .

واذن ففى القرآن انواع من الادلة على وجود الله ، منها ما هو ذو طابع علمى فلسفى ، ومنها ما له طابع نظرى منطقى ، ومنها ادلة اقناعية متنوعة تكفى لاقناع الانسان على اساس سيكولوجى . وكلها جميعا لا تقطع الصلة بين الفكر والواقع .

والقرآن يفترض ان فكرة الالوهية موجودة فى اذهان من يخاطبهم،وهو يريد ان يقيم الدليل على وجود الله وعلى وحدانيته وتنزهه عن صفات الكائنات الحادثة المتغيرة التي نشاهدها ،وعن كل المفهومات والتصورات الانسانية .

« ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » (س ٤٢ ـ الشورى ، ١١) .

« لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير » (س ٦ ـ الانعام ، ١٠٣) .

على ان القرآن اذ يبين الطريق لمعرفة الله بالاستدلال على وجوده من النظر فى العالم ويصفه بكل صفات الكمال اللائقة بالاله الحق ، يشير الى أن كنه ذات اللـه تعالى لا يدرك . وهو لذلك لا يتكلم عن « ماهية » الله اى عن حقيقة ذاته ولا عن « هويته » ، اى من هو ، حتى مع وجود المناسبة الداعية الى ذلك ، وانما يتكلم عن افعاله وانه الخالق المدبر ، وتـدل على ذلك الآيات المتضمنة للمناقشة بين موسى عليه السلام وبين فرعون ، فى موضعين من القرآن :

« قال فرعون : وما رب العالمين * قال : رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين * قال لمن حوله : الا تستمعون * قال : ربكم ورب آبائكم الاولين * قال : ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون * قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون » (س ٢٦ ـ الشعراء ، ٢٣ ـ ٢٨) .

« قال : فمن ربكما يا موسى * قال : ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال : فما بال القرون الاولى * قال : علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى * الـذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى * كلوا وارعوا انعامكم ، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » (س ٢٠ طه ، ٤٩ ـ ٥٤) .

على أساس هذه الآيات يستدل المفكرون المسلمون على أن ذات الله تعالى لا تدرك ، أعني أن العقل لا يحيط بكنه ذاته وان كان يقطع بأنه موجود ، بالأدلة التي لا يمكن انكارها .

وأيضا استنتج مفكرو الاسلام أن ذات الله لا يمكن أن تعرف التعريف المنطقى ، لأنه فريد في وجوده ، فلا يدخل في المفهومات العادية ، ولأن التعريف المنطقى يتألف من الجنس القريب والفصل ، وهو تعالى لا يدخل في جنس ولا نوع .

وعلى أساس الآيات المتقدمة أيضا قـام البحث بين مفكرى الاسلام : هل لله « ماهية » بالمعنى الذى يطلق على الأشياء الحادثة التى يميز البعض فيها بين « ماهية » أو حقيقة يدركها العقل كالانسانية وبين وجود متعين بمميزات ومشخصات فردية مثـل أفراد الانسان وهو مـا يسمى « الهوية » ؟ وذهب الجميع الى أن الله تعالى لايمكن أن تكون له ماهية ينضاف اليها الوجود كما فى الممكنات المتكثرة ، وان له حقيقة مخصوصة لايعلمها الا هو .

ومن الطبيعى أن العقل الحادث المحـدود لا يحيط بكنه المطلق الذى لا نهاية له .

ولذلك فان القرآن عندما يتكلم عن الله فانه يذكر صفاته ويشير الى افعاله ، وايات القرآن في ذلك غنية عن الاشارة (انظر مثلا س٢ ـ البقرة ٢٥٥ ،آية الكرسى ،س ٥٩ ـ الحشر الآيات الاخيرة ، س ١٠ ـ يونس ٣، س ٧ ـ الأعراف ٥٤ ، س ١٣ ـ الرعد ٢ . س ٣٠ ـ الروم ٤٠، ٤٨، ٥٤) وقد يتكلم القرآن عن صفات الله على صورة التشبيه والرمز (س ٢٤ ـ النور ٣٥) .

مهما يكن من شيء فان القرآن يعتبر أن ما فيه من ارشاد الى المعرفة بوجود الله وبكماله ومن تنبيه الى هذا الكون وعجائبه كاف في بعث الايمان بالله والخشية له :

« لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (س ٥٩ ـ الحشر ، ٢١)

على انه اذا كان القرآن من جهة يرشد المتفكر الى الطريق المؤدى الى الايمان بوجود الله ايمانا استدلاليا يقوم على النظر العلمي والفلسفي فى هذا العالم ، فانه من جهة اخرى يشير الى أن أساس الايمان بالله ، أعنى المعرفة بانه موجود وانه خالق الأشياء ،موجود فىالفطرة الانسانية. ففى القرآن هذه الآية :

« فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (س ٣٠ ـ الروم ٣٠)

وفي الحديث الصحيح ما يدل على ان كل مولود يولد على فطرة الايمان بالله الحق ، ثم يتدين بدين والديه .

وفي القرآن ايضا ما يدل على أن الايمان بالله الى جانب انه معرفة أصلية فهو عهد وميثاق أخذه الله على الارواح الآدمية كلها في عالمها ،قبل أن تظهر متلبسة بالأبدان في هذه الدنيا .

« واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون» (س ٧ ـ الاعراف ١٧٢ ـ ١٧٤)

ومعرفة الروح بوجود الله وبأنه هو الخالق لها ، تلك المعرفة الاصلية في عالم الارواح ، ليست معرفة استدلالية ، بل هى معرفة ضرورية أو تجربة روحية ، فيها تدرك الروح وجود ذاتها وتدرك أن الله هو مصدر وجودها .

وعلى أساس القرآن قام البحث حول المعرفة بالله ، وهل هي فى هذه الدنيا استدلالية أو هى ضرورية بديهية مغروزة في الفطرة .

وقد ذهب البعض الى أن كل عقل فيه المعرفة بالله ، ولكنها مغمورة أو لا يستطيع الانسان أن يعبر عنها ، او هى مغمورة بتأثير عوامل كثيرة.

وذهب البعض الى أن المعرفة بالله استدلاليه ، وانها نتيجة للنظر العقلي فى العالم . والأولون هم في الغالب من الصوفية الذين يعرفون بطبيعة الحال طريق النظر العقلى ويسلكونها ، والى جانب ذلك يسلكون طريق التصفية الروحية ليدركوا المعرفة بالله في أرواحهم ادراكا ذوقيا ويدركوا تدبير الله فى كل شيء .

والآخرون هم أصحاب النظر والاستدلال ،و هم جماعة المتكلمين والفلاسفة بوجه عام ، وكل المؤمنين المشتغلين بالعلوم الطبيعية والكونية .

على انه لا تناقض بين الطريقين ، لأن النظر والاستدلال لا يعارضان طريق التصفية ، وهما يؤيدان من طريق البرهان ما تثمره التصفية من معرفة ذوقية ، وان كانت هذه المعرفة أشبه بحياة حقيقة بالله وفى الله .

والصوفية يرون أن المعرفة بالله الموجودة فى النفس من عهد : « ألست بربكم » كالخط المكتوب على لوح وقع عليه غبار ، ثم أزيل ، فعندذلك يظهر الخط (١) . ويرد ذكر هذا العهد مع الله فى أشعارهم ، مثل شعر ابن الفارض وشعرسعدى الشيرازى وغيرهما .

والصوفية المحققون فى حضور دائم بين يدى الله ، حتى قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه ، وقال الآخر : ما رأيت شيئا الاورأيت الله قبله (٢)

● ● ●

ادلة مفكرى الاسلام على وجود الله كثيرة وهى متنوعة بحسب مدارسهم الكبرى ، من متكلمين وفلاسفة .

فأما المتكلمون من معتزلة وأشاعرة فانهم جميعا يعتبرون أن أول واجب على الانسان هو أن ينظر بعقله ليعرف الدليل على وجود الله ويعتبرون ان حجة العقل هى الأساس للدين كله لان المعرفة بالدين المنزل وأنه حق وأن الانبياء الدين جاءوا به صادقون ، كل ذلك يقوم على العقل وهم يرون أيضا أن الفاعل لا يمكن أن يعرف الا بما يصدر عنه من افعال دالة عليه . وعلى هذا الاساس يؤكدون مبدأ العلية أى أن الحادث لا بد له من علة ، وانه يدل على علته بحسب ضرورة العقل .

وبناء على هذا كله فان دليل المتكلمين الرئيسي لاثبات وجود الله هو « دليل الحدوث » ، اى انه يستند الى النظر في هذا العالم واثبات حدوث ما فيه من أجسام ، ثم اثبات وجود محدث له ، بمقتضى ضرورة عقلية لا شك فيها .

واذا نحن نظرنا فى كتب متكلمي المعتزلة ، فى مرحلة نضج علم الكلام عندهم (٣) وجدنا ان الدليل الذى يفضلونه يسير على الترتيب الآتي :

١ ــ هم يثبتون أن فىالاجسام« معاني » ، أى أشياء ندركها،هى الاجتماعوالافتراق والحركة والسكون ، وهم يسمون هذه الامور الاربعة : «الاكوان » ، يقصدون أنها الاحوال الرئيسية التي يكون عليها وجود الاجسام .

٢ ــ ويثبتون أن تلك المعانى حادثة .

٣ ــ وأن الاجسام لا تنفك عن هذه الأكوان ولا تسبقها .

٤ ــ يبينون انه بما أن الاجسام لا تخلو منالاكوان ولا تسبقها فلا بد أن تكون حادثة مثلها .

---

(١) « فوائح الجمال وفواتح الجلال » لنجم الدين الكبرى ، ط القاهرة ص ١١ (تحقيق فريتز ماير)

(٢) هم يرون أن الله تعرف لعامة الناس بصنعه ، والى خاصتهم بكلامه ، والى الانبياء بنفسه (راجع التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ، القاهرة ١٩٦٠، ص ٦٣ ــ ٦٦)

(٣) راجع مثلا كتاب « شرح الاصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ، القاهرة ١٩٦٥ (مكتبة وهبة)

وفي بيان كل مقدمة من هذه المقدمات التى يسمونها : الدعاوى الاربع ، يردون على الاعتراضات التى توجه اليها ، مستندين في ذلك الى العقل . ويخصون بالرد مذاهب الفلاسفة المخالفة للحق .

واذا نظرنا فى كتب الأشاعرة وجدنا الترتيب التالي :

بعد أن يعرفوا مفهوم « العالم » وانه كل ما سوى الله تعالى وصفاته وانه مؤلف من جواهر وأعراض ، اى من ذوات وصفات لها ، وأن الجسم يتألف من جواهر يقولون :

١ ــ توجد أعراض

٢ ــ الاعراض حادثة

٣ ــ الجواهر يستحيل أن تكون بلا اعراض

٤ ــ يستحيل أن تكون هناك حوادث لا أول لها ، بمعنى انه يستحيل أن يكون قبل كل عرض عرض في الماضى الى ما لا نهاية .

٥ ــ الجواهر لا تسبق الحوادث التى تعرض فيها

٦ ــ اذن الجواهر حادثة ، لأن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث .

وبعد أن يثبت المتكلمون وجود المحدث يقيمون الدليل على انه لا يمكن ان يكون جسما ، وانه لا بد أن يكون واحدا ، بدليل ثبات نظام العالم وتناسق اجزائه .

وهم يثبتون لله الصفات ، لا بحسب ما يتخيلون ، بل على اساس النظر والاستدلال من وجود العالم وأحواله :

مجرد وجود العالم يدل على القدرة ، وهم يبدءون باثبات هذه الصفة لان العالم نتيجة لها . ووجود العالم على نحو معين ، ووجود الاشياء ، كل بحسب أحواله الخاصة به ، يدل على أن الاله مريد وانه فعال لما يريد .

ووجود الاحكام والاتساق في نظام الاشياء يدل على ان الله عالم حكيم .
والارادة والعلم والحكمة تدل على أن الاله حى . . وهكذا الاستدلال على بقية الصفات .
والمتكلمون في اثباتهم لوجود الله يؤكدون التنزية الكامل لذاته عن مشابهة الكائنات الحادثة ، ويردون على المذاهب المادية وعلى القائلين بالطبيعة وفعلها ردودا تستند الى النقد لمفهوم الطبيعة وكل استدلالهم يقوم على العقل والواقع الذى يشاهده الانسان في الكون أو في نفسه .

ولا نجد عندهم تصورات خيالية كما عند فلاسفة اليونان ولا مشكلات مصطنعة من قبيل القول بأن كون العالم محدودا يثير مشكلة عدم دلالته على القدرة المطلقة والعلم والحكمة التى لا نهاية لها . وهم بحكم قولهم بحدوث العالم يقولون بأنه محدود متناه ، ولكنهم يقولون ان ما يمكن أن يصدر عن الله لا نهاية له ولا حدود ، ولكنه يظل دائما شيئا حادثا متناهيا ، وان كانت قدرة الله صالحة لايجاد ما لا نهاية له .

وهذا ناشيء عن تمييزهم الواضح بين الفاعل الحق أى الخالق القادر المبدع ، وبين الاشياء المخلوقة المحدودة .

---

(٢) راجع كتاب « الارشاد » لامام الحرمين الجوينى ، القاهرة : تحقيق المرحوم الاستاذ محمد يوسف موسى .

على أن بعض المتكلمين انفرد بأدلة على وجود الله اختص بها

فيذكر لابراهيم بن سيار النظام ، المتكلم المعتزلى الذى نبغ في النصف الاول من القرن الثالث للهجرة دليل على وجود الله يمكن تلخيصه فيما يلي :

الاشياء في هذا العالم مختلفة متضادة بطبيعتها ؛ لكنها مجتمعة ومقهورة على خلاف طبيعتها . ولما كان الضدان لا يجتمعان من ذات انفسهما فان اجتماعهما يدل على فعل لهما على خلاف طبيعتهما ، والخاضع لقهر غيره ضعيف حادث محتاج الى محدث .

وللاشعرى دليل على وجود الله تقدم ذكره (ص ١٦٢ ـ ١٦٣) وهو يستند الى تغير احوال الاشياء تغيرا خارجا عن قدرتها وارادتها مما يدل على صانع لها يدبر أمرها .

وعند المطهر بن طاهر المقدسي (١) الذى نبغ فى النصف الأول من القرن الرابع للهجرة اجمال لكثير من الأدلة على وجود الله ، وأهمها :

١ ـ الدليل الذى يمكن أن نسميه « دليل الاضطرار » أو « دليل الافتقار » ، وقد تقدم ذكره (ص ١٦٣ ـ ١٦٤) وهو يتلخص فى التجاء الانسان فى أوقات الشدة الى موجد نظام الكون ، ايمانا بذلك فى قرارة نفسه .

٢ ـ الدليل المستند الى اجماع الامم على وجود صانع مدبر ، على نحو ما لاحظنا عند الرواقيين (٢) .

٣ ـ الدليل الغائى ، مع مزجه بالدليل الكونى ، وصورته هكذا :

« ومن الدليل على اثبات البارىء سبحانه هذا العالم بما فيه من عجيب النظم وبديع التركيب ومحكم الصنع ولطيف التدبير والاتساق والاتقان ، فلا يخلو من ثلاثة أوجه :

اما أنه لم يزل كما هو ،

واما انه لم يكن ، فكان بنفسه ،

واما أنه كوّنه مكوّن ، هو غيره ،

فلما استحال أن يكون قديما لم يزل ، لمقارنة الحوادث اياه وأن (ما) لم يخل من الحوادث فحادث مثلها ،

واستحال أن يكوّن الشيء نفسه ، لاستحالة الكائن أن يُبقي نفسه ـ فكيف يجوز توهم المعدوم أن يتركب فيصير عالما ،

لم يبق غير الوجه الثالث وهو أنه كوّنه مكوّن هو غيره ، غير معدوم ولا محدث ، وهو البارىء جل جلاله .... »

٤ ـ الدليل المستند الى تفاوت المخلوقات في درجاتها . فلو كانت الاشياء راجعة الى ما يسمى الطبيعة لاستوت احوالها وتكافأت أسبابها ولم تتفاوت ،

فلما وجدناها على خلاف ذلك فلا بد لها من مدبّر ، وهو الله .

٥ ـ الدليل الغائى المستند الى الاتقان والدقة والنظام في كل شيء ، مما يدل على تدبير قادر حكيم ،

---

(١) فى كتابه البدء والتاريخ ج ١ ، بيروت (مكتبة خياط) ، ص ٥٦ فما بعدها .

(٢) ص ١٤١ مما تقدم .

ويرد المقدسي على القائلين بأن هذا العالم في نظامه وتركيبه يرجع الى فعل الطبيعة ، على النحو الآتي :

« فان زعم أن تركيب هذا العالم على هذا النظم والتركيب من فعل الطبائع ، فالطبائع اذن أحياء قادرة حكيمة عالمة . ولم يبق بيننا من الخلاف الا تحويل الاسم وتغيير الصفة .

وان انكر حياة الطبيعة وحكمتها وقدرتها ، فكيف يجوز وجود فعل محكم متقن من غير حكيم حي قادر .... !

ولا محيص للملحد من حجج الله وآياته ، فكيف وهو حجة بنفسه ولغيره ... »

وهناك اشارات عند المقدسي الى أدلة اخرى اقناعية مثل :

مجرد اثارة السؤال : هل الاله موجود ؟ يدل على وجوده .

وكذلك شك الشاكين في وجوده له نفس الدلالة

وايضا وجود الخير والشر والثواب والعقاب يقضي بضرورة وجود الاله ....

● ● ●

والمتكلمون يهتمون باثبات مبدأ العلة على أساس مستمد من الواقع والتجربة ومن طبيعة العقل . وهم ايضا يهتمون باقامة الدليل على انفراد الله تعالى بالازلية ويبينون أن القول بقدم المادة مستحيل ، لانها تتغير ، ويعتريها الانفعال والاعتماد ، سواء كانت ميتة أو حية . وهذا يناقض مفهوم الازلية والقدم .

وجميع المشتغلين بالعلوم الطبيعية والكونية والانسانية من علماء الاسلام لا يغفلون في كتبهم عن الاشارة المستمرة لوجود الله وتدبيره للعالم وآيات صنعه الظاهرة في نظام العالم ونظام العقل واحوال النفس ، بحيث يمكن القول ان طائفة كبيرة جدا من مفكري الاسلام تقيم الادلة على وجود الله على أساس علمي مستمد من صميم الواقع .

وقد اكتسبت العلوم الطبيعية عند الاسلاميين بواعث كثيرة من تنبيه القرآن للكون وآياته ، وهنا تصدق كلمات كنت في قوله ان الدليل الفيزيقي الديني يمد البحث الطبيعي ببواعث وغايات. وكما أن العلم المتزايد بالصنع يؤدي الى تزايد العلم بالصانع فان العلم بوجود صانع لا نهاية لقدرته وعلمه وحكمته يمد الباحث في الكون بروح تساعده على اكتشاف متزايد لاسرار الكون .

● ● ●

ولفلاسفة الاسلام أدلتهم على وجود الله . ولا بد من التمييز بينهم ، نظرا لتنوع طرقهم في اقامة هذه الأدلة .

فالكندي ، مؤسس الفلسفة الاسلامية ، يمثل اتجاها مستقلا . ولو نظرنا في كتبه لوجدنا أدلة على وجود الله تقوم على مقدمات واضحة : اما من البديهيات الرياضية والمنطقية ، واما من النظر في الواقع الكوني . وأهم أدلته على وجود الله :

١ ـ الدليل الذي نستطيع أن نسميه : « دليل التناهي » ، لأنه يقوم على اثبات تناهي هذا العالم من حيث امتداده المكاني ، ومن حيث مدة زمانه ، ومن حيث حركته .

والكندي يربط بين الجسم والزمان والحركة ، كما فعل أرسطو ، لكن على حين قال ارسطو بأزلية هذه الأشياء بلا دليل كاف ، فان الكندي أقام الدليل على تناهيها ، وبذلك أثبت بدايتها وحدوثها ، أي حدوث العالم وضرورة محدثله . ودليله يستند الى فكرة مقبولة منذ أيام ارسطو وهي : أن كل ما يحدث ويخرج الى حيز الوجود متتابعا على هيئة وحدات أو أجزاء ، لا بد أن يكون متناهيا من أوله ومن آخره ، والا أدى خلاف ذلك الى التناقض .

فنحن لو فرضنا أن امتداد هذا العالم في المكان أو مدة وجوده في الزمان أو حركته وحركة

ما فيه ، شيء لا نهاية له ، ثم نظرنا من نقطة ما ،فان الامتداد المكاني او الزماني يكون بلا نهاية بحسب الفرض . فلو أننا نظرنا من نقطة اخرى تكون مع النقطة الاولى على خط مستقيم وتبعد عنها ، لكان عندنا أيضا ، بحسب الفرض شيء لا نهاية له . لكن ذلك يؤدى الى تفاوت اللامتناهى أو الى أن يكون الجزء مثل الكل . والتفاوت يدل على التناهى ، والقول بأن الجزء مثل الكل تناقض .

ومن جهة اخرى فان انتهاء الحوادث الى حادث يصل الينا ، شيئا كان أو زمانا ، يقتضى أن يكون ما سبقه من حوادث واشياء جاء هو فى الترتيب بعدها ، شيئا متناهيا .

واذا ثبت تناهى الزمان والحركة من جهة البداية فى الماضى ثبت حدوث العالم ووجود محدث له (١) .

٢ ــ الدليل الذى يستند الى ما نشاهده فىالأشياء منأنها تعتريها وتتوالى عليها أحوال التغير من وحدة وكثرة وتركيب وانحلال ، فتتابع هذه الأحوال يدل على أنها ليست للاشياء بحكم طبيعتها ، فلا بد أن تكون راجعة لعلة خارجةعنها .

٣ ــ الدليل المنطقي التحليلى وهو يتلخصفى أن الشىء الحادث لا يمكن أن يكون علة لحدوث ذاته لما فى ذلك من تناقض ، لأنه لكى يحدث ذاتهلا بد أن يكون موجودا ، وبما أنه لم يكن موجودا ، فانه يستحيل أن يحدث ذاته .

٤ ــ وعند الكندى الدليل الغائي على صورة واضحة تجمع بين الاعتماد على الحس وعلى العقل ، يقول الكندى :

« ان فى الظاهرات للحواس ، أظهر الله لكالخفيات ! لأوضح الدلالة على تدبير مدبر اول ، أعنى مدبرا لكل مدبر ، وفاعلا لكل فاعل ، ومكونا لكل مكون ، وأولا لكل أول ، وعلة لكل علة ، لمن كانت حواسه الآلية(٢) موصولة بأضواء عقله ، وكان المزكى عنده ، فى كل أمر شجر بينه وبين نفسه ، العقل ...... فان فى نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعضه فى بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض واتقان هيئته على الأمر الاصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل ثابت ، وزوال كل زائل ، لأعظم دلالة على أتقن تدبير ــ ومع كل تدبير مدبِّر ــ وعلى أحكم حكمة ــ ومع كل حكمة حكيم ــ لأن هذه جميعا من المضاف ... » (٣)

والكندى يتكلم فى رسائله عن الاحكام والنظام فى هذا العالم ويرى أن ما فيه من الدقة والاتقان يفوق ما نجده فى الصنائع الدقيقة ، لكن لا يدرك جمال الكون فى جملته الا أصحاب « العيون العقلية الصافية » ، وأهل المرتبة العالية فى العلمبهيئة العالم وبنظام الطبيعة . (٤)

والكندى يثبت الوحدانية لله ، كما يثبتتنزيهه عن جميع المفهومات التى تصدق على الاشياء التى نعرفها ويسميه : « الواحد الحق » أو « الانية الحق » . وليس معنى ذلك أنه يتصور أن الاله مجرد كائن غير مادى مفارق لعالم الحس،كما هو الحال عند فلاسفة اليونان بوجه عام ، بل الاله عنده ذات حقيقية ، وهو ، الى جانب تنزيههله عن التصورات الانسانية ، يصفه بكل الصفات التى لابد منها للخلق والتدبير : من القدرة والعلموالحكمة والرحمة وكمال العناية بالمخلوقات والتدبير لكل شىء بما يصلح أمره .

---

(١) راجع تفصيل هذا الدليل وغيره من أدلة الكندى فى نشرتنا لرسائله الفلسفية ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٠ ص ٧٠ فما بعدها .

(٢) أى اعضاء الحس عنده ، اى انه يحس ويفكر فيما يدركه بحواسه .

(٣) رسائل الكندى الفلسفية ، ج ١ ص ٢١٤ ــ ٢١٥

(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٧

عند الفارابي نجد اساسا جديدا وطريقة جديدة لاثبات وجود الله . كان الفارابي فيلسوفا ميتافيزيقيا مثالي النزعة . وهو وان كان يسلم بدلالة هذا الصنع البديع المتجلى فى نظام الكون على وجود صانع حكيم ، فانه لا يفضل سلوك هذا الطريق، ويؤثر طريق التأمل لمفهوم الوجود وتحليل هذا المفهوم . يقول الفارابي :

« لك أن تلحظ عالم الخلق فترى فيه أمارات الصنعة (١) . ولك أن تعرض عنه وتلحظ عالم الوجود المحض (٢) ، وتعلم أنه لا بد من وجود بالذات ، وتعلم كيف ينبغى أن يكون عليه الموجود بالذات . فان اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد (٣)، وان اعتبرت عالم الوجود المحض فأنت نازل ، تعرف بالنزول أن ليس هذا ذاك (٤) وتعرف بالصعود أن هذا هذا (٥) ـ «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق (٦) ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد (٧) » .

« فص : اذا عرفت أولا الحق ، عرفت الحق وعرفت ما ليس بحق ، وان عرفت الباطل أولا ، عرفت الباطل ولم تعرف الحق على ما هو حقه ، فانظر الى الحق ، فانك لا تحب الآفلين ، بل توجه بوجهك الى وجه من لا يبقى الا وجهه(٨) »

وتفصيل الطريق التى يؤثرها الفارابي تتجلى فى قوله : الموجودات على ضربين :

احدها اذا اعتبرنا ذاته لم يجب وجوده ، وهو يسمى ممكن الوجود .

والثاني اذا اعتبرنا ذاته وجب وجوده ، وهو يسمى واجب الوجود .

فاذا فرضنا ان ممكن الوجود غير موجود لم يلزم عن ذلك محال ، فاذا وجد فلا غنى لوجوده عن علة . ولا يجوز أن تمر العلل بلا نهاية ، بل لا بد أن تنتهى الى شىء واجب الوجود هو الموجود الأول .

هذا الدليل يمكن أن نسميه « دليل الامكان » .

وعند الفارابي دليل آخر يقوم على التمييز بين حقيقة الاشياء أو ماهيتها (مثل الانسانية بالنسبة لافراد الانسان) وبين وجودها المتشخص المشار اليه او هويتها (مثل أفراد الانسان) . فبما أن للممكنات « ماهية » « وهوية » ، وليست الاولى داخلة فى الثانية ولا الثانية فى الاولى، ولا احداهما تقتضى الأخرى، فانهما اذا اجتمعتا فلا بد لهما من مبدأ مغاير لهما ماهيته عين هويته .

ومع أن الفارابي يعترف بأن مفهومات « الوجود » و « الوجوب » و « الامكان » ، مفهومات عقلية أولية ، فانه يمكن اثارة الاشكالات حولها ، كما يمكن اثارة الاشكال حول عدم كفاية « دليل الامكان » فى اثبات وجود الاله الحق . ولو قال قائل ان هذا العالم واجب الوجود ، ووجوده من

---

(١) وتستدل بها على وجود الصانع

(٢) فترى أنه اما أن يكون وجودا بالذات يعنى وجوداواجبا لذاته واما أن يكون ممكنا وجوده من غيره .

(٣) من المعلول الى العله .

(٤) اى تستطيع ان تفرق بين الواجب والممكن .

(٥) اى ربما لم تتخلص من التصورات المتعلقة بالأشياء فلم تنزه ذات الواجب عن ذوات الممكنات .

(٦) هذا هو الطريق الاول الذى يسلكه الحكماء الطبيعيون الذين يستدلون بالخلق على الخالق .

(٧) هذا هو طريق الحكماء الالهيين الذين يستدلون بالخالق على الخلق ، اى يعرفونه أولا ثم ينظرون الى المخلوقات .

(٨) فصوص الحكم للفارابى .

ذاته ، فانه لا يمكن ابطال دعواه الا باثبات حدوث العالم وأنه معلول بالمعنى الحقيقي . وهـذا الاعتراض قد وجهه المتكلمون المتفلسفون ، مثل فخر الدين الرازى (١) ، على دليل الفلاسفة .

ولا يخرج دليل ابن سينا على وجود الله ، كما نجد هذا الدليل فى كتاب « الاشارات » ، عما يقوله الفارابى ، وان كان كلام ابن سينا أكثر تفصيلا وأحسن أسلوبا من كلام الفارابى .

والمهم أن الفلاسفة الميتافيزيقيين يبنون دليلهم على الاستنباط من مفهوم الوجود وانهم يستنبطون صفات واجب الوجود استنباطا نظريا وينزهونه عن صفات الكائنات الحادثه .

ودليلهم على اثبات الواجب يتضمن اثبات أن الجملة المؤلفة من ممكنات لا بد أن تكون معلولة لعلة خارجة عنها ، وبذلك لا يتوجه على دليلهم الاعتراض الذى اثاره كنت فيما تقدم ، حيث أثار اشكال دعوى أن تكون الجملة المؤلفة من ممكنات شيئا واجبا بذاته ، على خلاف حكم الممكن الجزئي .

ويمكن تلخيص الكلام فى طريقة الفلاسفة والمتكلمين على النحو الآتي :

« طريق اثبات الواجب عند الحكماء : أنه لا شك فى وجود موجود : فان كان واجبا فهو المرام ، وان كان ممكنا ، فلا بد له من علة بها ترجح وجوده فننقل الكلام اليـه . فامـا أن يلزم الـدور أو التسلسل ، وهو محال ، أو ينتهي الى الواجب وهو المطلوب .

وعند المتكلمين : انه قد ثبت حدوث العـالم ، أو : لا شك فى وجود حادث ، وكل حادث فبالضرورة له محدث : فاما أن يدور أو يتسلسل ، وهو محال ، واما أن ينتهى الى قديم لا يفتقر الى سبب اصلا ، وهو المراد بالواجب .

وكلا الطريقين مبنى على امتناع وجود الممكن او الحادث بلا موجد وعلى استحالـة الـدور أو التسلسل » .

• • •

ان موضوع هذه الدراسة هو الايمان بالله فى عصر العلم . والمقصود ، بطبيعة الحال ، هـو العلم بمعناه الحديث .

لكن المعرفة العلمية بوجه عام بدأت منذ زمان بعيد ، خصوصا على يد اليونان ، وارتقت ارتقاء كبيرا على يد العرب ، وعاش مفكرو العصور الوسطى الاوروبية على التراث اليوناني كمـا عرضه العرب وأصلحوه ، سواء فى الناحية النظرية أو العملية التطبيقية .

ثم ظهرت الحركة العلمية الحديثة فى أوروبا مع عصر النهضة ، وازدهرت على يد فلاسـفة علماء ، الى أن تميز العلم بمنهجة وبتحديد موضوع اهتمامه ، خصوصا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين .

وكل الادلة التى تقدم ذكرها لاثبات وجـود الله هى فى عصر العلم بمعناه الواسع ، وان كان بعضها له صبغة نظرية مجردة ، وبعضها الآخر يتكلم عن الطبيعة والاستدلال منها كلاما لا يستند الى علم كاف بالطبيعة .

وتتميز المرحلة الحاضرة للمعرفة العلمية بمميزات كثيرة جدا من الناحية الحسية التجريبية ومن الناحية النظرية على السواء .

---

(١) فى مؤلفاته مثل : « المطالب العالية » و « نهاية العقول » ، وهما لا يزالان مخطوطين .

(٢) شرح المقصد الخامس والسادس من كتاب المقاصد للتفتازانى ، مخطوط باريس رقم ١٢٦٥ ورقة ٣ ب

وكثير من المفهومات والتصورات والاحكام العلمية المأثورة عن القدماء ، بل التى كانت مقبولة عند العلماء فى العصور الحديثة ، تغيرت تماما وحلت محلها مفهومات وأحكام أخرى .

والمعرفة بالكون ازدادت زيادة كبيرة ، سواء فيما يتعلق بالاشياء التى لا نهاية لها فى الكبر او التي لا نهاية لصغرها . ومع ذلك فان العالم الكبير يشعر بضآلة ما وصل اليه من معرفة ، بل هو اليوم اقوى شعورا بذلك منه فى أى وقت مضى. وانتهى عصر الغرور بالمعرفة العلمية السطحية وبالنظريات والآراء العلمية التى سيطرت على العقول فترة طويلة وكانت نتيجة لتسرع ولمعرفة سطحية ولأمزجة غير متزنة ، مثل التصورات المادية فى تعليل ظهور الأشياء والتصورات الميكانيكية فى تفسير ظاهرات الحياة وتطورها والفكر ونشاطه، وانتهى ذلك الغرور بفضل ازدياد المعرفة العلمية اتساعا وعمقا على نحو يبشر باستمرار لا ينقطع ويفتح مجالات للمعرفة وتطبيقاتها لا تقف عند حد. والآن يقف العلماء أمام هذا العالم فى نوع من الغبطة العقلية بسبب ماتوصلوا اليه من معرفة بالعالم جديرة بأن تؤتي صاحبها لذة لا مثيل لها، وفى نوع من الاتزان والتريث فى الحكم على الاشياء وخصوصا فى نوع من الثقة المستنيرة بالانسان وبنظام عالمه وبمركزه فى عالمه ، وان كانت هذه الثقة لا تزال تحتاج الى سند لروح الانسان أكثر مما تمنحه اياه استنتاجاته السليمة من ملاحظاته للطبيعة وشعوره بمركزه فيها .

وقد بعثت المعرفة العلمية فى عقول المشتغلين بالعلم حدوسا وافكارا كثيرة تتجاوز معطيات التجربة بكثير ، وبعثت فى قلوبهم أنواعا من الاحاسيس والاحوال النفسية تحركت منذ ازمنة بعيدة فى قلوب المتأملين لنظام العالم وأحكامه ودقة صنعه وجماله، فوقفوا منه موقف التقديس العاطفي الشعرى ، لكنها فى نفوس العلماء المحدثين ، بفضل ما انكشف أمام عقولهم من آفاق المعرفة العلمية، تأخذ صبغة أخرى تجمع الى العاطفة عنصرا عقليا منطقيا .

ويخطىء من يتصور أن العالم بالمعنى الحديث مجرد انسان يستعمل ملكات الملاحظة والتفكير فى دراسة موضوعية للاشياء ، دون أن يكون له موقف فكرى منها ، ودون أن يتطلع عقله الى معرفة أعمق بكثير من الأسرار التى لا تزال الملاحظة تميط عنها اللثام .

ان العالم الحديث انسان يعيش فى حضارة وثقافة ، وهو فى تعامل معها ، لأنه وليدها ، وهو فى كثير من الاحيان يعود الى الأفكار الدينية أو الفلسفية ويراجعها فى الجو الذى يعيش فيه ، ويكوّن له رأيا فى قيمتها الحقيقية ، ويدرك علاقتها واهميتها لحياته .

ولا يكون الانسان بعيدا عن الصواب اذا قرر أن الكثيرين جدا من العلماء يعودون الى وجهات النظر الدينية بعد فترة ابتعاد عنها ، وأن العلم يدعو الى الايمان بالخالق القادر الحكيم . ويبين السند والاساس للرسالة الخاصة للانسان .

على أنه لما كانت الاديان المنزلة لم تفهم الفهم الكامل بسبب اشتمالها على أعضل موضوعات المعرفة ، وهى : حقيقة هذا الكون ، وحقيقة الانسان ، ومصدر وجودهما ، وبسبب قصور المعرفة الانسانية عن حل هذه المعضلات حلا صحيحا ، فان بعض العلماء يصبحون بينهم وبين أنفسهم فلاسفة ولاهوتيين ، بل صوفية ، ويثيرون من الاسئلة الجوهرية فيما يتعلق بالعالم والاله والانسان ما يحتاج الى توضيح، لكن لما كان الاشتغال بذلك ليس من صميم بحثهم فان كثيرا من العلم الذى وصلوا اليه، ويفيد فى توضيح المشكلات، يظل خاصا بهم ، الا اذا استفاد منه أصحاب الميادين الاخرى فى اثبات ما يعنيهم . والعلماء فى العادة لا يتكلمون فى هذه الميادين خصوصا ميدان

الايمان الا عند الضرورة : اذا سئلوا عن ذلك(١)أو انكر متفلسف أو عالم (٢) وجود الله أو زعم أن العلم يتنافى مع القول بوجود اله ، فعند ذلك يتكلمون فى الموضوع من حيث هم علماء مؤمنون لا من حيث هم علماء عقائد متخصصون .

وقد كان لا بد قبل الكلام عن الايمان فىعصر العلم من بيان نوع الادلة على وجود الله ، لكي تتبين اسسها ومقدار قوة السند الذىتستند اليه ، سواء من المعرفة بنظام العالم او بنظام الفكر ، ويتبين مدى ما بلغته المحاولة الانسانية فى سيرها نحو المعرفة بالحقيقة الكبرى التى هى مصدر كل حق وكل حقيقة .

ولا يمكن ادراك أهمية العلم الحديث فىاثبات وجود الله الا اذا عرفنا :

أولا : سبب الالحاد فى العصر الحديث خاصة

ثانيا : نظرة العلم الحديث للعالم وكيفية دراسته للاشياء وتفسيره لها .

وقد كان هناك الحاد وملحدون دائما ، لم يخل منهم عصر ، ومعظم الحادهم نتيجة للهوى او الجهل أو الى مزاج شخصى غير متزن انحرف بصاحبه عن الحكم السليم . وبعض المحدين يتعمد لأمر أو آخر ، محاربة الايمان بوجود اله .

اما فى العصور الحديثة فان الالحاد يرجع ــ بالاضافة الى ما تقدم ، الى مذاهب فلسفية زائفة فى تفسير الكون يقبلها العاجزون عن الاستقلال فى التفكير ، أو الذين يبغون من وراء اتباعها تحقيق اغراض شخصية .

من هذه المذاهب المذهب المادى الذى صار يمثله فى العصور الحديثة افراد كثيرون من المشتغلين بالعلوم الطبيعية . وهم كثيرون خصوصا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر منذ أيام الطبيب الفرنسي لامتيرى La Mettrie (ت ١٧٥١) فى كتابه الذى سماه : « الانسان الآلة » (L'Homme Machine) الى أيام عالم الأحياء الألماني ارنست هيكل Ernest Haeckel (ت ١٩١٩) الذى دافع عن نظرية التطور وزعم أن المادة هي الموجود الوحيد ، وان الحياة نشأت من المادة على نحو غير مقصود . وفيما بين هذين الرجلين ظهر كثيرون جاءوا بتأكيدات يدل تطرفها على عدم صحتها ، من قبيل ذلك ما زعمه البارون فون هولباخ P.H.D. von Holbach (ت١٧٨٩) من أنه لا يوجد سوى المادة والحركة والعلّيّة ، وما ادعاه ج . كابانيس G. Cabanis من أن الدماغ (المخ) يهضم الانطباعات التي تأتي من الحواس وانه يفرز الأفكار على نحو ما ، وما ذهب اليه

---

(١) مثل الكتاب الذى نشره John Clover Monsma بعنوان :
The Evidence of God in an expanding Universe, G.P. Putman's Sons, 1958, New York
وذلك بعد ان سأل ثلاثين عالما من مختلف التخصصات فى العلوم الكونية والطبيعية والرياضية عن رأيهم فى وجود الله . وقد اجاب كل منهم مستندا الى ملاحظات ونتائج من ميدان تخصصه وكلهم يؤمنون بوجود الله ايمانا علميا. وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية الاستاذ : د. دمرداش سرحان ، ونشرته مؤسسة فرانكلين،القاهرة،بعنوان الله يتجلى فى عصر العلم .

(٢) مثل الكتاب الذى الفه العالم Cressy Morrison بعنوان Man does not stand alone (الانسان لا يقف وحده ، اى : الاله موجود وهو خالق الكون والانسان) ردا على كتاب Julian Huxley بعنوان : Man stands alone = الانسان يقف وحده = لا يوجد اله . وقد ترجم الاستاذ محمود صالح الفلكى الكتاب الاول بعنوان : العلم يدعو الى الايمان ، نشره فى القاهرة منذ ١٩٥٢ ــ مؤسسة فرانكلين .

الفسيولوجي الهولندى . مولشوت J Moleschott (ت ١٨٩٣) من أنه بدون فوسفور لا يكون هناك تفكير ، وما قاله ل . بوخنر L. Buechner من أن المادة هي الأساس الأول لكل الموجودات ، وان فى المادة كل قوى الطبيعة وكل القوى الروحية .... ونحو ذلك من تأكيدات مطلقة لا يقبلها العقل العلمي الحديث .

وكان من أسباب هذه الفلسفة المادية مالوحظ من ان الصور الكبرى للوجود الذى نعرفه، وهي : المادة والحياة والفكر ، توجد فى عالمنا هذا متداخلة ومرتبطة . ولغير سبب ظاهر أو دليل مقنع رد الماديون الحياة والفكر الى المادة ونشاطها، وساعد على ذلك دعوى مأثورة عن قدماء اليونان لم يتناولها الباحثون بالنقد ، وهي القول بأن المادة أزلية، فقبلها البعض وحاولوا تأييدها بتجارب كيماوية تدل على أن وزن المادة فى مركب نخضعه للتحليل والتصعيد لا يتغير ، فذهبوا الى أن المادة لا تفنى ولا تستحدث . وتمسك البعض بمثل هذه التجربة التي لا يصح أن تتخذ دليلا على أكثر مما فيها ، الى أن جاء العلم الحديث فغير مفهوم المادة واثبت تبعا لذلك حدوثها وامكان فنائها .

وكان من أسباب الالحاد نظريات التطور التي كانت نتيجة لملاحظات جديرة بالتقدير ، لكنها لم تفسر نشأة الحياة ولا تطورها تفسيرا يقنع العقل المستقصي ولا هي نظرت للحياة ضمن محاولة لتفسير العالم . فالبعض انخدع بهذه النظرية وتشكك فى وجود الله مع ان هذه النظرية، حتى على فرض صحتها ، لا يمكن أن تدل على أنه لا يوجد اله ، وان كانت قد تتعارض مع الفهم الحرفي لبعض النصوص الدينية التي يمكن تأويلها لداع عقلي قطعي ، وهذا غير متوافر فى نظريات التطور .

ثم أن كثيرا من العقول انخدع بمذاهب فلسفية أخرى هي مزيج من دعاوى يكذبها الواقع مثل المذهب الارادى (Voluntarism) الذى مثله شوبنهور A. Schopenhauer (ت ١٨٦٠) أو مزيج من الخيال الفلسفي والأسلوب الأدبي كالمذهب الحيوى (Vitalism) الذى مثله برجسون H. Bergson (ت ١٩٤٠) ، وكلها مذاهب تكلم أصحابها عن الكون والحياة من غير أن يكونوا علماء متخصصين فيما تكلموا فيه .

وكان للنظريات المثالية المتطرفة دورها فى ابعاد بعض العقول عن الطريق السليم للمعرفة بوجود الله ، وهو النظر فى هذا العالم .

ان طريقة العلم الحديث فى دراسة هذا العالم تعتمد على الحس والعقل ،دون شرود الخيال . واذا كان العلماء يستعينون بالخيال فهو ما يسمى « الخيال العلمي » الذى يخدم تفسير الظاهرات ويتقيد بالواقع .

فالحواس تنطبع بمؤثرات من أشياء فى هذا العالم ، وتؤدى هذه الانطباعات الى العقل ، والعقل يتناولها بقوالبه ومقولاته فينظمها من جهة ويحاول التفسير من جهة أخرى . وهو فى تفسيره يتقيد بالواقع ولا يخرج عنه الا بخطوة منطقية ، باحثا عن علة قريبة أو علاقة ثابتة مطردة بين الظاهرات ، أو منتهيا الى حكم منطقي يبنيه على مبدأ العليّة ، وعلى ما يقضي به العقل فى حدود الاستنباط الذى يكاد يكون دائما استنباطا مباشرا .

والطريق الأول للمعرفة بوجود الله عند العلماء المحدثين هو المتفق مع الروح العلمية الحديثة .

هم يبدءون من دراسة الواقع دراسة دقيقةتشمل كل جوانبه .

فهم يدرسون طبيعة الأشياء ووظيفتها ، من ذرات المادة فى عالم الطبيعة ، وكرات الدم فى الانساني ، الى الارض وما عليها ، والشمس وما يدور حولها .

ويدرسون الانتظام والتوافق ، لا فى داخل الشيء الجزئي وحسب ، بل فى جملة النظام كله.

ويلاحظون الترابط والغائية والوحدة .

وهم فى تفسيرهم للأشياء لا يقبلون المفهومات غير الواضحة ، مثل مفهوم الصدفة ، ولا التفسيرات غير الكافية ، مثل التفسير الميكانيكي للغائية الظاهرة فى الطبيعة أو التفسير التطورى أو نحوها .

وادلتهم على آرائهم تستند من حيث المبدأ الى الواقع وملاحظته ، ولا تستند الى الجدل الا عند تحليل المشكلة ، أو عند تلخيص نتيجة الاستدلال على صورة قياس منطقي بسيط واضح .

على أن هذا لا يمنع من أن بعضهم يحاول أن يتجاوز الحدود الضيقة للاهتمام العلمي الحديث الى شيء من روح التفلسف ، لكن باعتبار أن « كل انسان ، حتى أولئك الذين يشتغلون بالعلوم الطبيعية لديه ميل أو نزعة نحو التفلسف » (١) .

ولما كانت الطريقة العلمية تقتضي العرض المحدد للاراء والتعبير عنها بأبسط عبارة ممكنة ، فانه يتحتم علينا مراعاة ذلك فى بيان رأى العلم والعلماء اليوم فى النقط الرئيسية المتصلة بالايمان بالله وباقامة الدليل على وجوده .

وأول ما ينبغي أن نشير اليه هو التجربة الدينية عند العلماء . ونحن قد ذكرنا أنهم يعيشون في تراث ثقافي ــ روحي يحملونه في أرواحهم ، لأنهم يتلقونه في التنشئة الروحية والفكرية . ومنهم من يؤكد هذا العامل ويضم اليه عامل الخبرة والأحاسيس الداخلية العميقة التي لا تصل الى أعماقها المجادلات الفكرية ، ويعتبرون أن تجاهل هذه المعرفة الكامنة في النفس ينافي روح العلم ، لأن العلم بطبيعته لا يتجاهل أى واقع .

لكن معوّل العالم الحديث سواء في تقوية ايمان جاء من التراث الروحي وفي توضيحه أو في الوصول الى ايمان لم يكن موجودا ، هو على نظر العلم .

والايمان بوجود الله يقوم على اسس كبرى أهمها :

١ ــ اثبات أن هذا العالم حادث في الزمان .

٢ ــ أن حدوثه لا يمكن أن يرجع الى الصدفة ولا الى المادة ولا الى شيء محدود ، بل الى خالق قادر حكيم مخالف للأشياء ولا نهاية لكماله وقدرته وعلمه وحكمته . وهذان المبدآن موجودان في كل ايمان وفي كل بيان لأدلة الايمان .

وبعد هذا يأتي ذكر الأدلة على وجود هذا الخالق من النظر في العالم ، ويكون الكلام في تصور الألوهية على أساس الاستدلال العلمي .

---

(١) راجع كتاب : الله يتجلى فى عصر العلم ، نشر جون كلوفر مونسما ــ القاهرة (دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبي)

ففيما يتعلق باقامة الدليل على حدوث هذا العالم في الزمان لا بد ، قبل ذكر أدلة العلم الحديث ، من اشارة الى طريقة القدماء .

لم يكن عند فلاسفة اليونان قول بالحدوث المطلق لأشياء هذا العالم ، كما تقدم القول ، وذلك لأنهم كانوا يقولون بأزلية المادة وتأثير علة العالم فيها أو تأثرها من تلقاء نفسها بعلة العالم . ولم تظهر أدلة الحدوث المطلق لهذا العالم الا على يد مفكرى الاديان المنزلة ، لاعتقادهم بالخالق المبدع بالمعنى الحقيقي الكامل . وقد رأينا ــ مثلا ــ دليل الكندى على حدوث العالم ، وهو يقوم على اثبات تناهى الزمان الماضي ودليل المتكلمين الاسلاميين ، وهو يقوم على اثبات أن الأجسام محل للحوادث ، وهي الأعراض ، فلا بد أن تكون حادثة كالأعراض نفسها .

أما العلم الحديث فهو يثبت حدوث العالم في الزمان على اسس واقعية :

فمثلا يمكن تقدير عمر العالم على أساس وجود عناصر مشعة . فلو كان العالم ازليا ــ اى مضى على وجوده زمان لا نهاية له لكان الاشعاع قد انتهى منذ زمان لا نهاية له .

وأيضا تدل قوانين الديناميكا الحرارية على أن هذا العالم حادث ، لأن الثابت ان الأشياء الحارة تفقد حرارتها تدريجيا وتسير نحو حالة حرارة منخفضة لا تسمح بوجود طاقة ولا حياة . فلو كان العالم أزليا لانتهى مع مرور الزمان الذى لا بداية له الى الخمود التام .

واذا كان هذا هو الواقع الذى تشهد له التجربة فانه لا يصح اثارة اعتراضات تعسفية وتخيلات تنقص ما يؤخذ من الواقع على نحو واضح .

واذن ، فلهذا العالم بداية ، وله عمر ومدة محددة يقدرها العلماء على نحو تقريبي (حوالي خمسة بلايين من السنين) ، وهو لا بد أن يزول بعد تحقق الحكمة التي اقتضت وجوده .

ان الانسان لا يملك نفسه أمام ما يقرره العلم ، من وجود قوانين وحكمة في هذا العالم وانه محدود الوجود الزماني ، من تذكر ما ورد في القرآن من ان هذا العالم وكل ما فيه ظهر بحسب الحكمة وله مدة محددة ، مثل قوله تعالى ، مشيرا الى المعرضين عن البحث الهادى الى معرفة الله :

« أولم يتفكروا فى انفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى ، وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » (س ٣٠ ــ الروم ، ٨ . وقارن س ٤٦ ــ الأحقاف ، ٣)

فاذا ثبت أن هذا العالم لم يكن ثم كان ، فان العقل يقضى بأن له مبدعا ، ولا بد لمن يؤمن بالعلم أن ينتهى الى هذه النتيجة .

ومعنى ذلك ان المادة ، على صورتها التي نراها ، شيء حادث .

وأن القول بوجود خالق مبدع هو التفسير العقلى الواضح لحدوث الأشياء وطبائعها وقوانينها

لكن البعض يقول بما يسمى الصدفة أو الاحتمال . وهذا ما لا يمكن أن يسلم به العلم ، والا انهار من أساسه .

ان معنى الصدفة هو وقوع حادث من غير علة محددة مطردة تسبب حدوثه ، مثل أن نأخذ عددا من أشياء متشابهة ونجعل لها أرقاما مسلسلة ، ثم نضعها فى كيس مثلا ، ونخلطها

تماما ، ثم نحاول أن نخرجها بحيث يكون خروجهابحسب الأرقام المسلسلة . ففى كل مرة يخرج شيء على غير قاعدة . وفرصة خروجها جميعـــابحسب ترتيبها ـ اذا كان عددها ١٠ مثـــلا ـ هى واحد الى ١٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ .

فاذا نظرنا الى تركيب العالم من أشياء لا نهاية لها ووجدنا ترتيبه ونظامه على هذا النحوالرائع فاننا لا يمكن أن نتصور ابدا أن يكون وجوده نتيجة الصدفة ، بل لا بد ان يرجع هذا النظـام البديع الهائل المحكم الى خالق لا نهاية لقدرته .

على انه يمكن اثارة اشكال ، وهو : أن لا تناهى الزمان قد يسمح بصور من التنظيم تتم مصادفة ،لأن التجربـة السابقـة مثـلا تـدلعلى أنه لابد أن يقع بعض الترتيب بالصدفـة . وهـذا الاعتراض وان كان افتراضيا مصـدره الخيـال فانه وهم باطل . وبطلانه يتجلى من ان الصدفة لا تقع الا فى مجال موجود ، اى فى داخل نظام قائم بالفعل،فالسؤال هو: ما مصدر هذا النظام الموجود الذى تقع فيه الصدفة ؟ فلا بد من مصدر لكل شيء . والقول بالصدفة يدل على التهرب من حكم الواقع والعقل ، هذا الى ما هو معروف من أن قبول فكرة الصدفة يـدل على الجهل بعلل الحوادث .

والعلماء يهتمون بابراز ما يلاحظونه مـن النظام الدقيق فى الكون ويؤكدون أن الكون ليس فيه فوضى ابدا ، بحيث لا يصبح للقول بالصدفة اى مجال عند العالم الحقيقى .

واذن فان أساس تصور العلم لهذا العالم هو مبدأ العلية ، اى تأكيد ضرورة وجود علة كافية لكل ما يحدث فى العالم وللعالم فى جملته . ومن غير القول بوجود العلية ، على صورة تأثير شيء فى شيء ورجوع النظام كله الى مؤثر واحد ، لا يمكن العلم ولا التفسير العلمى للاشياء .

واذا بطلت الصدفة فان النظر فى هذا العالم يؤدى الى ابطال المذهب المادى الذى يزعم أن المادة هى المبدأ الاول وأصل كل شيء فى هـذاالعالم .

والعلم يلاحظ ان المادة بحسب مفهومها المستمد من ملاحظة طبيعتها ، شيء سلبى الا اذا تدخلنا فى امره . وهى وان كانت تنطوى على طاقة فهى ليست سوى طاقة ميكانيكية . هذا الى ان الصورة التى تبدو عليها المادة فى الحس ليستسوى حالة لشيء وراءها ، هو اقرب أنيكونشيئا معنويا . وكيف تكون المادة بوصفها المستمد من ملاحظتها علـة لظاهرات الحيـاة أو الاحساس والادراك أو الفكر وكل ما يترتب على هذه كلها منوظائف ويرتبط بهـا مـن أحوال ؟ لا دليل على المذهب المادى الا مجرد الادعاء الذى يخالفه الواقع الحسى والتصور العقلى ، لان نشاط المادة ، على فرض قبول مفهومها العادى ، لا يعدو ظاهرة الحركة الميكانيكية. والوظائف الحسية والفكرية نشاط من نوع آخر يحتاج الى علة مغايرة للمادة .

ولما كان العلم قد اثبت بالتجربة أن المادة تتبدد وتزول وتسير الى الفناء فعلى اساس أى دليل يمكن اعطاء المادة دورا أكثر من الانفعال أو من الانطواء على طاقة يمكن استخدامها ! ؟

واذا بطل القول بالصدفة وبالتفسير المادى فانه لا يصبح هناك أى مجال للتصور الميكانيكي للعالم ولا للتفسير الميكانيكي حتى لاحوال المادة نفسها ، لان كل القوانين الطبيعية المتعلقة بالمادة لا تصدق الا على الاشياء الكبيرة ، أما الاشياء اللامتناهية فى الصغر فاننا لا نعرف عنها الا قليلا ، هذا منجهةومنجهةاخرى فانخضوععالمالمادة لقوانين يمكن ادراكها وتعقلها يدل على شيء وراءها مغاير لها فى حكمه ، من حيث طبيعته وفاعليته .

على أنه لا بد من التنبيه الى مصدر الخطأ فيالتصور الميكانيكى للعالم . ففي عالمنا هذا الذى لم يقم الدليل على أنه العالم الوحيد الموجود ، تتداخل صور للوجود : المادة والحياة والفكر . ومظهر الحدوث والفعل فى هذا النوع من العالم مظهر ميكانيكى ، لكن المبدأ المؤثر فيه ليس ميكانيكيا . وهذا شيء يسهل ادراكه بأيسر نظر : سواء تأملنا نشاط المادة أو وظائف الحياة ، أو مظاهر الحياة الفكرية . فلا توجد علة واحدة مرئية بين العلل التى لا تحصى والتي تؤثر فى المادة ومظهرها الميكانيكى . ومن ينظر الى النبات أو الحيوان أو الانسان المفكر ويلاحظ المظهر الميكانيكي للوظائف ويقف عنده ، كيف يستطيع أن يتكلم عما نسميه الحياة أو الفكر ان لم يقل بشيء غير ميكانيكي ومظهر فعله فى هذا العالم ميكانيكي .

ومن التصورات التي أثبت العلم الحديث عدم كفايتها فى تفسير نشأة الحياة وتطورها نظريات التطور ، وهو يميل الى اعتبار أن التطور نتيجة وليس سببا ، فهو يحتاج الى تفسير .

وينبغي تصور العلم الحديث للالوهية على الاساس الاستدلالي الذى يستند اليه العلماء .

وأول ما يمكن أن يقوله العلم عن الاله انه ليس ماديا ، وهذه هى النتيجة المنطقية التى تنتج من بطلان المذهب المادى فى تفسير العالم . وهو اذا كان ليس ماديا فانه لا يمكن أن يعرف بالطرق المادية . لان لكل شيء طريقة ، بها يعرف وجوده .

ولما كان هذا العالم قد صدر عن الاله على هذا النظام المحكم فانه لا بد أن يكون قادرا عالما حكيما . وهذا يلزم عن بطلان المادية من جهة ومن جهة اخرى عن حكم عقلنا بأن الوجود والنظام والغائية فى الصنع لا يمكن أن تصدر الا عن صانع له هذه الصفات وله كمال التدبير والعناية بالمخلوقات .

واذن فالاله عند العالم فاعل حقيقى ، وهو لا بد ان يكون ذاتا نتعقلها بصفات تحدد مفهومها فى أذهاننا ، وهو ليس فكرة مجردة ، أو مجرد كائن غير مادى منعزل عن العالم، كما تصوره أرسطو مثلا ، بل هو فاعل حق ، خالق مدبر منزه عن كل تصوراتنا ، وعن مشابهة هذه الاشياء التي نعرفها

والمشتغلون بالعلم ، الذين ينزعون النزعة الفلسفية نحو التعليل الكافى والشامل ، يشعرون بالتقاء مفهوم الالوهية كما تتوصل اليه عقولهم مع مفهوم الالوهية الذى جاءت به الكتب المنزلة .

والحق أن العالم الحق يقف منالدين ومن الكتب المنزلة موقفا علميا يتسم بالتأني فى الحكم . فهو ينظر الى الأمور الجوهرية فى هذه الكتب ، و لا يرى أن من شأنه البحث فى التفاصيل . وأهم ما يعجبه هو ما تضمنته هذه الكتب من فكرة الألوهية الصحيحة التي هي القول بخالق قادر مخالف للأشياء ، وذلك ما يؤدى اليه النظر العلميفى هذا العالم .

واذا راىالعالم فىظاهر النصوص الدينية ما يخالف معطيات العلم فانه يفضل الانتظار حتى تنكشف له معرفة جديدة ، فلعلها تأتي متفقة مع فهم ما للدين . والعالم بحكم مهمته التى يعيش لها مضطر الى أن يثير مشكلة الايمان بمعناه العام الواسع وبمعناه الخاص .

فهناك الايمان بمعنى تصديقالمختصين فيما اختصوا به وأصحاب التجارب من العلماء فيما جربوه . والحق أن كثيرا من معارفنا وتصرفاتنا مبنى على ما أخذناه عن الغير ممن نثق فيهم ، لأنه لا يمكن لأحد أن يحصل بنفسه كل المعارف ولا أن يقوم بنفسه بكل التجارب .

وهناك الايمان العلمي بوجود طبائع للأشياء وتأثير لبعضها فى بعض ، وبوجود قوانين تعبر عن نظام مطرد وعليه لا تتخلف ، لكن العالم ، نظرا لقوله بحدوث هذا العالم واستناده فى وجوده وبقاء نظامه الى خالق حقيقي ، فانه بعيد عن الظن بأن قوانين الطبيعة « واجبة » (Necessary)

بل هي قوانين « ممكنة » (Contingent) ، لأنها تتوقف على القدرة والارادة المبدعة المدبـرة للأشياء .

وهناك الايمان بالالة باعتبار أن هذا الايمان يرضى أولا العقل العلمي الذى يطمح الى تفسير الكون ، لأنه تفسير طبيعى وبسيط وكاف ، ثم هو يرضى حاجة عميقة فى روح الانسان الى سند متين مطلق يبعث فى نفسه الثقة بالحياة ، وينير له معنى هذا العالم، ويؤدى الى السكينة والطمأنينة، هذا الى أن الايمان بوجود الله يزيد المعرفة بالكون ، كما أنه يقوى ويرسخ بازدياد هذه المعرفة ، وقد لاحظ كنت هذه العلاقة بين النظر فى العالم وبين الايمان ، كما تقدم القول .

واقل ما يمكن ان يكون للايمان بوجود الاله الحق بالنسبة للعالم هو أنه فرض كبير يساعده على فهم العالم وما فيه ، ويبعث فيه الطموح نحو مزيد من العلم بأسرار عالم صـدر عن القـدرة الحكيمة التى لا نهاية لها ونحو مزيد من امكان استخدام هذا العلم لمصلحة الانسـان . ومـن العسير حقا على اى عالم أن يشتغل بالعلـوم الطبيعية بحثا عن أسرار الطبيعة وقوانينها ، وهو لا يؤمن بأن وراء هذه الطبيعة تدبيرا حكيما لخـالق قادر . وهو لا بد له من الايمان بخالق مدبـر أو بقوة ما تصـدر عنها الاشـياء بقوانينها ، ولابد من الاعتراف بأن هذه القوة حكيمة عاقلة ، والا ناقض العالم نفسه أو نقض أساس معارفه .

ان الانسـان ليس محتاجا الى أن يذهب الى رأى ديكارت فى ضرورة اقامة العلم الطبيعي على الثقة بوجود اله كامل قادر حكيم ، قدرته التى لا نهاية لها ضمان ثابت للنظام الكوني ، وكماله وخيريته ضمان للثقة فى الوسائل التى منحنا اياها لتحصيل المعرفه ، لكن للانسان الحق فى أن يسأل عن كرامة العقل الباحث فى الكون ، وكيف وعلى اى أساس من المنطق يبحث عن طبائع وأسرار وقوانين فى الكون مع تجاهل واع لما وراء هذه الاغراض العلمية العالية ! ؟

ان الايمان عند العلماء ايمان هو أقرب الى الانسياق العقلى ، وهو ايمان « بسـيط » بمعنى أنه « خالص » من شوائب التعقيد وأثارة المشكلات العقيمة التى لا ترقى بمفهوم الالوهية ، ومن صفات العالم الحق أنه لا يتكلم فيما لا يعرف . وكما أنه لا يدرس المحسوسات بالتحليل العقلى فانه لا يدرس المعنويات بالمنهج الحسى . ولذلك فان العلم الحديث أقرب الى تنزيـه الاله عن التصورات العادية وعـن الالفاظ التي نستخدمها فى الكلام عن أشياء هذا العالم .

فاذا أردنا أن نحدد نوع استدلال العلماء على وجود الله وجدنا ذلـك واضحا وتلقائيا كالمعرفة العلمية الواضحة .

ولا شك اننا يجب أن نفرق من أول الامر بين المفكر المنصف النزيه فى حكمه فى هذا الموضوع وبين المتحيز المائل عما يقضى به دليل الحس والعقل .

والعلماء لا يعتبرون أن من عملهم اثبات وجود الله ، ولا حتى البحث عن العلل الاولـى للاشياء ولا البحث فى القيم والغايات . ولذلك فان كلامهم فى الالوهية يكون بحسـب المناسبـة الداعية الى ذلك كما تقدم القول (١) الا أن العقل لا بد أن يثير السؤال عن مصدر هذا العالم . وهنا يكون الطريق العلمى واضحا لكل انسان ، لانه طريق النظر فى الواقع : الكون والانسـان نفسه .

---

(١) ص ١٧٥ مما تقدم .

ومن شأن العلماء ان ينظروا للاشياء نظرا مباشرا ، فلا يبدءون بمفهومات ذهنية مجردة ، ولا بظاهرة جزئية ولا حتى بالنظر للعالم من حيث هو مجرد ظاهرة معلولة، بل هم يلاحظون الواقع الكونى من خلال ما كشفه العلم من دقة واحكام فى الاشياء وارتباط وانسجام بينها وغائية ظاهرة فيها . وهم حتى عندما يوجهون الانتباه الى ظاهرة كبيرة يدرسونها فى سياقها ، ويتبينون وظيفتها أو دورتها . وعلى هذا الاساس يبنون استدلالهم المباشر طبقا لمبدأ العلية الذى يؤمنون به ايمانا عمليا يشهد له الواقع ويقره العقل . وهم لا يثيرون شكوكا حول هذا المبدأ ، ولا يتكلفون الزعم بأنهم لا يرون شيئا يسرى من العلة فى المعلول ، كما يقول هيوم ، ولا هم يدعون أن مبدأ العلية لا انطباق له الا على عالم الحس ، كما يقول كنت ، لان هذه اشكالات متكلفة .

واذن فدليل العلم الحديث على وجود الاله هو الدليل الغائى Teleological Proof القائم على مبدأ العلية Principle of Causality ولا نكاد نجد دليلا غيره ، رغم تنوع مقدماته بحسب المجال الذى ترجع اليه .

والحق ان نظر العلم ، فى أى ميدان من ميادين التخصص العلمي التي لا تقع تحت الحصر ، يكشف للباحث عن تنظيم بديع وعن دورات للظاهرات وقوانين دقيقة تحكمها ، بحيث يمكن وضع الدليل الغائي على صور شتى تجمعها النظرة التي توصل اليها العلم ، وهى : أن العالم فى جملته وحدة متناسقة ، طبيعتها واحدة وقوانينها شاملة .

ونحن نعلم ان البحث العلمى اظهر لنا أن مادة الاجرام العليا ليست مادة مغايرة لمادة الارض، هى ليست « طبيعة خاصة » ، كما زعم اليونان وسار على أثرهم من جاء بعدهم الى ان جاء عصر نقد المعرفة عند العلماء الاسلاميين والعلماء الاوروبيين فى العصور الحديثة من بعدهم .

فمادة العالم واحدة والقوانين التي تحكم جزءا تحكم الجزء الآخر ، وهذه الوحدة تدل على تدبير واحد ومدبر واحد .

ولا يصح أن نثير اعتراضات من النوع الذى أثاره كنت واعتبره قادحا فى الاستدلال على وجود الله ، وهو قوله : انا لا نعلم كل العالم . ومع اننا لا نعرف كل العالم فاننا نقطع أن هذا الذى نشاهده شيء موحد النظام ، فاذا كان هناك عالم من نوع آخر ، وهذا جائز عقلا وحاصل بالفعل ، فان دلالته ، بحسب أحواله ، على موجده ، هى دلالة عالمنا ، لان وجه الدلالة لا يختلف فيما نراه من حوادث وظاهرات عنه فيما لا نراه منها .

ولا شك أن العلم ، اذ يهتم بدراسة العالم لكى يصل الى القوانين ، فان من الطبيعي أن يسأل نفسه عنها : ما مصدرها ؟ لان موقف العلم لا ينتهى عند الملاحظة بل هو يقتضى التفسير .

مهما يكن من شيء فان العقل العلمي ، حتى عندما يفسر الاشياء ، لا يقنع بتفسير جزئي او تفسير يبين علة قريبة ، بل هو يطمح الى التفسير الكلى الشامل ، والدليل على ذلك هو النظريات والفروض الكبرى المتعلقة بهذا العالم عند العلماء فيما يتعلق بنشأته وكيانه ومصيره وطبيعة قوانينه .

ومع أن المعطيات العلمية واحدة فان التفسير العلمى يتنوع ويختلف ، ومن هنا كان اختلاف العلماء كما اختلف الفلاسفة : بين مادى ينظر الى العالم على انه مادة ميتة وحركة ، ويفسر العالم وظاهراته تفسيرا ميكانيكيا ، وقائل بمبدأ حيوى سار في كل شيء فهو يفسر العالم في ضوء هذا المعنى ، وقائل بالصدفة والاتفاق في تعليل ظهور العالم وتشكل ما فيه ، وقائل بأن العالم يرجع الى عقل قادر مبدع مستقل عن الكون ، وناكص عن التعليل الشامل الكامل الذى

ينظر للعالم على انه جملة حوادث ، وان كل شيء عبارةعن سلسلة حوادث لا هدف لها ولا غاية (١). وهكذا

لأجل ذلك لابد للعالم الذى يقتنع بوجهة نظر أن يجادل عنها ، وهذا ما يفعله العلماء المؤمنون بوجود الله أحيانا . فقد يسير الواحد على الطريقة المنطقية المعروفة المسماة طريقة الفحص والتحليل أو « طريق السبر والتقسيم »، كما يسميها العرب ، فيبين وجوه الاحتمالات الممكنة لحل مشكلة ثم يفند الباطل منها ليتبين ما هو حق .

وهذه طريقة أحد العلماء في مشكلة انكار الخالق ، فهو يضعها على هذا النحو :

« كثيرا ما يقال أن هذا الكون المادى لا يحتاج الى خالق . ولكننا اذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف نفسر وجوده ونشأته ؟ هناك أربعة احتمالات للاجابة على هذا السؤال :

فاما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وهو ما يتعارض مع القضية التى سلمنا بها حول وجوده

واما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم

واما ان يكون أبديا ليس لنشأته بداية .

واما أن يكون له خالق »

ثم يبين أن الاحتمال الاول ، الى جانب تناقضه مع الفرض ، يؤدى الى أن العالم وهم لا حقيقة له ، وهو يخالف الواقع ، فلا يصح أن نعتد به .

وأن الرأى الثانى مستحيل ، لانه لا يتصور أن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة ظهر من العدم بلا علة .

وأن الرأى الثالث باطل على أساس قوانين الديناميكا الحرارية الذى تقدم ذكره .

وينتهى الى صحة الاحتمال الاخير وانه « لا بد لأصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوى ليس لقدرته حدود . ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه (٢)»

ثم هو يبين في ضوء نتائج العلم ومكتشفاته التناسق والغائية التى تتجلى مثلا في ملاءمة الارض للحياة الإنسانية بكل جوانبها المادية والفكرية والروحية ، وذلك بفضل وضعها بالنسبة للشمس وحجمها وحركتها ، ووظيفة الغلاف الجوى الذى حولها .

ويثبت أن نظريات المصادفة والاحتمال لا يمكن أن تؤدى الى تفسير شيء من هذا لأن الفرصة لتكوين جزيء بروتوني واحد من العناصر التى يتألف منها لا تتهيأ الا بنسبة : ١ : (١٠) ١٦٠ (واحد بالنسبة الى رقم ١٠ مضروبا فى نفسه مائة وستين مرة) . وهذا لا يتيسر الا في عالم تتهيأ فيه مادة

---

(١) هذا هو راى الفيلسوف الانجليزي برتراند راسل Bertrand Russel الذى توفى هذا العام (١٩٧٠) وقوله : ان العالم وما فيه عبارة عن سلسلة حوادث قول صحيح ، لكن هذا يدل على ان له محدثا . وراسل ينكر الغاية والهدف دون ان يقوم اى دليل : مع ان دليلهما واضح لكل انسان ، وهو الواقع الذى لا يمكن أن ينكره احد .

(٢) مونسما ، ص ٧ – ٨ .

اكثر مما يسع عالمنا بما لا يقاس . فكيف بامكان تكوين النظام الماثل في كل شيء والتنسيق الهائل بين اجزاء هذا العالم ! ؟ ان هذا يحتاج الى عقل لا نهائي (١) .

هذا مثال من طريقة عالم من علماء الفيزياء الحيوية في تفسير نشأة العالم . ومع أن طريقته المنطقية التحليلية تشبه من حيث الروح طريقة «المقدسي» ، فانها تقوم على نتائج نظر علمي .

وعالم آخر من علماء الكيميـاء والرياضـة يشير الى خضوع أجزاء المادة لقوانين محددة لا يمكن أن تكون راجعة الى الصدفة مثل : التشابه بين خواص العناصر الموجودة في كل قسم من اقسام الترتيب الدورى لها حسب وزنها الذرى ، ومثل القوانين التى تحكم تركيب الذرة ،على اختلاف العناصر ، ثم يقول ، ناقدا المذهب المادى:

« فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قدأوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ، أو أنها هي التي أوجدتهذا النظام وتلكالقوانين، ثم فرضتهعلىنفسها؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبيا . بل ان المادة عندما تتحول الى طاقة أو تتحول الطاقة الى مادة ، فان كل ذلك يتم طبقا لقوانين معينة ،والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة المعروفة التي وجدت قبلها » .

وهو يشير الى ما دلت عليه الكيمياء من « أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فان المادة ليست أبدية ومعنى ذلك أنها ليست ازلية ، اذ ان لها بداية » ، ثم يقول :

« فاذا كان هذا العالم المادى عاجزا عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها ، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادى . وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لا بد أن يكون متصفا بالعقل والحكمة . الا ان العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادى كما في ممارسة الطب والعلاج السيكولوجى دون أن يكون هنالك ارادة ، ولا بد لمن يتصف بالارادة أن يكون موجودا وجودا ذاتيا . وعلى ذلك فان النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما عليمـا قادرا على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن يكون هـذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته في كل مكان . وعلى ذلك فانه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون وموجهه (٣) .

ان طابع هذا الكلام ، وان كان يشبه استدلال المتكلمين الاسلاميين على وجود الله وعلـى صفاته ، فانه ، كالكلام السابق، نتيجة لمقدمات علمية . وطريقة العلماء فى الكلام عن العالم سهلة ميسرة لمن يعرف اصطلاحهم العلمى ، لأن منهجهم هو في الغالب المنهج المنطقى الرياضى ، وان قراءة عرضهم لرأى بقصد اثباته او دحضه تشوق العقل السليم .

وعالم ثالث ، هو مهندس متخصص في تصميم ما يسمى : « العقول الالكترونية »، يشير في اثباته لوجود الله الى الخبرة النفسية والتجربة الشخصية ، ثم يصرح بأن عمله في تصميم الاجهزة سنين كثيرة جعله يقدر التصميم والابداع أينما وجد ، ثم يقول :

---

(١) نفس المصدر ص ١١ ـ ١٢ .
(٢) راجع كلامه فى ما تقدم .
(٣) مونسما ص ٢٦ : ٢٧ .

« وعلى ذلك فانه مما لا يتفق مع العقل والمنطق أن يكون ذلك التصميم البديع للعالم من حولنا الا من ابداع أعظم لا نهاية لتدبيره وابداعه وعبقريته. حقيقة ان هذه طريقة قديمة من طرق الاستدلال على وجود الله ، ولكن العلوم الحديثة قد جعلتها اشد بيانا واقوى حجة منها في أى وقت مضى .

ان المهندس يتعلم كيف يمجد النظام ، وكيف يقدر الصعاب التى تصاحب التصميم عندما يحاول المصمم أن يجمع بين القوى والمواد والقوانين الطبيعية في تحقيق هدف معين . انه يقدر الابداع بسبب ما يواجهه من الصعاب والمشكلات عندما يحاول أن يضع تصميما جديدا .

لقد اشتغلت منذ سنوات عديدة بتصميم مخ الكترونى يستطيع أن يحل بسرعة بعض المعادلات المعقدة المتعلقة بنظرية « الشد في اتجاهين » . ولقد حققنا هدفنا باستخدام مئات من الانابيب المفرغة والأدوات الكهربية والميكانيكية والدوائر المعقدة ووضعها داخل صندوق بلغ حجمه ثلاثة أضعاف حجم أكبر « بيانو » . ولا تزال الجمعية الاستشارية العلمية في لانجلى فيد تستخدم هذا المخ الألكتروني حتى الآن . وبعد اشتغالى باختراع هذا الجهاز سنة أو سنتين ، وبعد أن واجهت كثيرا من المشكلات التى تطلبها تصميمه ووصلت الى حلها ، صار من المستحيلات بالنسبة الى أن يتصور عقلى أن مثل هذا الجهاز يمكن عمله بأية طريقة أخرى غير استخدام العقل والذكاء والتصميم .

وليس العالم من حولنا الا مجموعة هائلة من التصميم والابداع والتنظيم . وبرغم استقلال بعضها عن بعض ، فانها متشابكة متداخلة ، وكل منها أكثر تعقيدا في كل ذرة من ذرات تركيبها من ذلك المخ الالكترونى الذى صنعته . فاذا كان هذا الجهاز يحتاج الى تصميم أفلا يحتاج ذلك الجهاز الفسيولوجى الكيمى البيولوجي الذى هو جسمي ، والذى ليس بدوره الا ذرة بسيطة من ذرات هذا الكون اللانهائي في اتساعة وابداعه ، الى مبدع يبدعه ؟؟

ان التصميم أو النظام أو الترتيب أو سمها ما شئت ، لا يمكن أن تنشأ الا بطريقتين :

طريق المصادفة ،

أو طريق الابداع والتصميم .

وكلما كان النظام اكثر تعقيدا ، بعد احتمال نشأته عن طريق المصادفة، ونحن فى خضم هذا النظام اللانهائى لا نستطيع الا أن نسلم بوجود الله .

أما النقطة الثانية التى أريد أن اشير اليها في هذا المقام ، فهى أن مصمم هذا الكون لا يمكن أن يكون ماديا . واننى اعتقد أن الله لطيف غير مادى . واننى أسلم بوجود اللاماديات ، لاننى بوصفى من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة الى وجود سبب أول غير مادى .

ان فلسفتى تسمح بوجود غير المادى ، لانه بحكم تعريفه لا يمكن ادراكه بالحواس الطبيعية . فمن الحماقة اذن أن انكر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول اليه . وفوق ذلك فان الفيزياء الحديثة قد علمتنى أن الطبيعة اعجز من أن تنظم نفسها او تسيطر على نفسها .

وقد أدرك سير اسحاق نيوتن ان نظام هذا الكون يتجه نحو الانحلال ، وانه يقترب من مرحلة تتساوى فيها درجة حرارة سائر مكوناته ، ووصل من ذلك الى انه لا بد ان يكون لهذا الكون بداية ، كما أنه لا بد أن يكون قد وضع تبعا لتصميم معين ونظام مرسوم . وأيدت دراسة

الحرارة هذه الآراء وساعدتنا على التمييز بين الطاقة الميسورة والطاقة غير الميسورة . وقد وجد أنه عند حدوث أى تغيرات حرارية فان جزءا معينا من الطاقة الميسورة يتحول الى الطاقة غير الميسورة ، وانه لا سبيل الى أن يسير هـذا التحول في الطبيعة بطريقة عكسية ، وهذا هو القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية .

وقد اهتم بولتزمان بتمحيص هذه الظاهرة ، واستخدم فى دراستها عبقريته ومقدرته الرياضية ، حتى اثبت أن فقدان الطاقة الميسورة الذى يشير اليه القانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ليس الا حالة خاصة من ظاهرة عامة تشير الى أن كل تحول أو تغير طبيعي يصحبه تحلل او نقص فى النظام الكوني . وفى حالة الحرارة يعتبر تحول الطاقة من الصورة الميسورة الى الصورة غير الميسورة فقدانا او نقصافى التنظيم الجزيئي ، أو بعبارة اخرى : تفتتا وانحلالا للبناء . ومعنى ذلك بطريقة أخرى أن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها ، لأن كل تحول طبيعي لا بد أن يؤدى الى نوع من أنواع ضياع النظام أو تصدع البناء العام . وفي بعض الحالات قد يسير النظام من البسيط الى المركب ، ولكن ذلك لا يتم الا على حساب تصدع اكبر للتنظيم والترتيب في مكان آخر .

ان هذا الكون ليس الا كتلة هائلة تخضع لنظام معين ، ولا بد له اذن من مسبب أول لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا المسبب الاول غيرمادى في طبيعته (١) » .

ان ذكر هذا النص كاملا يغنى عن تحليله ،و المهم أن نلاحظ طريقة بيان الراى والبرهنة عليه ، وهى طريقة مميزةللروح العلمية الحديثةمن حيث نقطة البداية في الاستدلال والسير فيه الى نتيجته .

● ● ●

نحن نعرف أن ديكارت استدل على وجود الله من تفكيره في نفسه ، وادراكه وجود ذاته في عملية تفكيره ، واعتبر ادراكه لذاته كعقل أو كجوهر مفكر حقيقة أولية واضحة متميزة ، ولم يزل يفكر حتى اكتشف في عقله فكرة كائن كامل وجعلها أساسا للدليل الأنطولوجي فى اثبات وجود الله ، وهو الدليل الذى نقده مفكرون كثيرون كما تقدم القول .

وها هو عالم متخصص فى الرياضيات يصف لنا الأساس الذى يقوم عليه ايمانه بوجود اله :

« هل هناك اله ؟ سؤال ينطوى على الفكر أو القدرة على التفكير ، وانا لا أستطيع أن أفكر في هذه القدرة دون أن أسلم بموجد لها .

فأنا لست جهازا آليًا ، وتفكيرى يذهب الى ابعد مما يمكن أن يذهب اليه عقل من العقول الآلية ، فالعقل الآلي الحديث وظيفته تطبيق قاعدة معينة أو ايجاد علاقة معينة تبعا لأصول محددة مرسومة . أما عملية التفكير فتختلف عن ذلك اختلافا بينا ، فهى تستطيع أن تتقيدبالقواعد

(١) المصدر نفسه ص ٩٠ ــ ٩٣ .

كما تستطيع أن تتفافلها . ان التفكير يتضمن استخدام المنطق والقدرة على الحكم ، كما يتضمن تذوق الجمال والاستمتاع بالموسيقى وتقدير الفكاهات والطرائف .

ان المنطق يستطيع ان يقرر صحة احد البراهين أو خطأها ، ولكن الفكر هـــو الذى يبدأ المناقشة في أمر هذه البراهين ويوجهها ، وهو الذى يستطيع أن يخترع النظريات الرياضـــية الجديدة ويقيم الدليل على صحتها ،والفكر يتضمن القدرة على تحليل النفس ونقدها . ومن الممكن تصميم آلة تلعب الشطرنج ولكن هذه الآلة لن تسعد بما تحققه من النجــاح ،أو تشمت في خسارة اللاعب الآخر أو تحزن على ما وقعت فيه من الأخطاء .

فالفكر يتضمن أكثر مما تستطيع الآلة والقواعد الآلية أن تحققه . وانني أعتبر أن تفسير السلوك الانسانى تفسيرا آليا لا يستند الى أساس سليم ، لأنني أستطيع أن أفكر .

وأنا أعتقد ايضا بوجود الله بسبب ما زودنى به من الانفعالات ، ولكن هل أضعفت حجتي بهذا القول ؟ هل اعترفت بأن ايمانى لا يقوم على المنطق وأنني أومن لأنني أخشى الا أكون مؤمنا ؟ كلا فطبيعتنا الانفعالية دليل على حكمة الله وتدبيره ، والا فكيف تكون حياة الانسان بغير هــذه الانفعالات ؟ وكم يمكن أن يعمر الانسان على سطح الأرض بغير الدافع الجنســي وما يتصل به من الانفعالات ؟ ولماذا تنخفض نسبة وفيات الأطفال عندما يزداد حب آبائهم لهم ؟

انني اعتقد بوجود الله لأنه وهبني التمييز الاخلاقى، فالجنس البشرى لديه احساس فطرى بما هو خطأ وما هو صواب . وكما يقول لويس فى كتابــه : « قضية المسيحية » : « قــد تختلف أفكارنا ومع ذلك فاننا جميعا ندافع عن حقوقنا وننشد العدل » .

ان اعتقادى فى الله يقوم ايضا على حرية الارادة وذكائها ــ الارادة الانسانية التى وصفت بأنها العملية الشعورية الكاملة التى تقود الانسان الى اتخاذ قرار معين ، الارادة التى هى احدى الاقسام الكبرى التى يقسم علماء النفس قوى العقل اليها (القوتان الاخـــريان همـــا : الادراك والشعور ،فأنا عندما أرغب أو أريد شيئا معينا يتخذ عقلي قرارا به ، وارادتي هي التي تنفذه .

ويختلف الانسان فى جميع هذه الصفات والمزايا عن سائر الكائنات الأرضـــية الأخرى فهو خليفة الخالق على الارض ، ولعل هذا هو عين ما يعنيه القديس بولس بقوله : « ان للانسان نشأة مقدسة » .

ويتفق ما وصلت اليه العلوم حول وجود الله مع ما جاء في الكتب السماوية من أن الانسان يحصل على العلم بطريقين : البصر والبصيرة . أما البصر فهو ما نتعلمه فى حياتنا وما نكتسبه عن طريق حواسنا من الخبرة بأمور الحياة . وأما البصيرة فهى ذلك النور الذى يفرغه الله فى قلوبنا فيكشف لنا ما لا نعلم . وكذلك الحال فيما يتصل بالايمان بوجود الله ، اذ لا بد أن يقوم اولا على البصر وملاحظة ظواهر كتلك التي أشرنا اليها سابقا ، ثم نلتجيء بعد ذلك الى الله لكى يكمل ايماننا ويدعمه .

ان رجال العلوم يعتمدون على التجربة ، وأنا مقتنع بوجود الله اعتقادا يســتند الى أدلة

تجريبية ، ولكنها تجارب شخصية صرف . ومع ذلك فهي اقوى لدئ من كل دليل ، وأشد اقناعا لى من أي برهان رياضي . لقد لمست هذا الدليل في نفسي منذ اثنتين وثلاثين سنة عندما كنت بحجرتى فى القسم الداخلى بجامعة كورنل ،يوم جاءنى البرهان واغدق الله على قلبي نـور الايمان . لقد أصبح الله لدى أكبر من كل ما سو اه ، حتى أننى ارضى أن افقد كل شيء في هذا الوجود ، ولا أرتد الى حالتي السابقة .

لقد كان هو سبحانه صاحب الفضل فى هذا البرهان ، فهو الذى أنزله على قلبي وجعلني اعتقد في وجوده » .

من السهل أن نتبينهنا نزعة صوفية . .تقوم على تأمل الذات والاستدلال مما يدركه الانسان في نفسه من الأحوال الداخلية ، وصاحب هذا الكلام يذكر نوعا من النور الذى يفيض من الاله على قلب الانسان والذى يتحدث عنه الصوفية . ومن الشيق أن يقارن الانسان بين كلام هذا العالم وما يحدثنا عنه الغزالى من نور اليقين الذى قذفه الله فى صدره فأخرجه به من حيرة الشك وظلامه .

فهذا العالم المفكر يجمع بين الادراك الذاتىوالاستدلال منه وبين نزعة تصوف ، لكنه لا يبين تجربته الصوفية الكشفية . وكلامه يدل على أن الانسان لا يستطيع أن يتخلص من دلالة نفسه على مبدأ وجودها ولا من نزعات التصوف .

واذا كان العلم يؤدى الى كشف الوحدة فىنظام العالم من نواحٍ شتى فانه يؤدى بالضرورة الى وحدانية الخالق المدبّر ، فبدلا من اثبات وحدانية الاله من طريق منطقى تحليلى يتلخص فىابطال التعدد على اساس أنه يبطل ذاته أو يؤدى الى المحال أو الى فساد النظام العالم ، وهذا ما نجده عند متكلمى الاسلام(1)، نجد عند العلماء دليلا علىالوحدانية يخرج من دلالة وحـدة الصنع على وحدانية الصانع .

وكان بعض المفكرين السابقين ، مثل ابن رشد ، يقولون أيضا بوحدة العالم ودلالتها على وحدة صانعه ، لكنهم بنوا ذلك على ملاحظة الغائية في العالم . أما العلم الحديث فهو يثبت وحدة المادة الكونية ووحدة القوانين التى تحكم العالم ، وخضوع كل الأشياء لقوانين منسقة تدل على قدرة واحدة مسيطرة وحكمة شاملة .

كان هذا الكون دائما موضوع تأمل الانسان . وكان يتأمله بعقله الباحث عن حقيقة الأشياء وقوانينها ، وبخياله الفني والشعرى . وكانت الدلالة المستمدة من العالم دلالة اجمالية . وقال البعض في تفسيره الكون أقوالا لا سند لها ، حتىجاء العلم الحديث فتناوله بالدراسة على المنهج العلمى . وكمـا كان ذلك سـببا فى الاستفادة الخصبة من تطبيق المعرفة فانه ايضا فتح المجال لدلالات لا تحصى ، وخصوصا الدلالة القاطعة علىوجود الخالق القادر الحكيم .

---

(1) هذا هو « دليل التمانع » أو « دليل الممانعة » الذى استخرجه المتكلمون من قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ، ووضعوه على صورة تحليلية مشهورة موجودة فى كتب علم الكلام . وتتلخص فى انه لو كان هناك الهان مثلا ، مع افتراض قدرة كل منهما وفعله لما يريده ، وتعلقت ارادة احدهما وقدرته بفعل شيء على نحو معين وتعلقت قدرة الاخر وارادته بفعل ذلك الشيء على نحو آخر ، لنشا عن ذلك ما يبطل الوهية احدهما أو كليهما او انحلال النظام الكونى ، فلا بد ان يكون الاله الخالق المدبر واحدا .

واذا كان العلم الطبيعي الذي كان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لا يزال ناشئا قد اغتر بمكتشفاته القليلة ، فارتفعت أصوات فردية بالالحاد ، فان العلم الحديث يقترب من الايمان بالله اقترابا حقيقيا . ولا يمكن غير ذلك ، لان الايمان بالله هو التفسير الوحيد الصحيح للعالم وما فيه .

ونظرا لأن بعض المشتغلين بالعلم وبعض الذين – لسبب أو آخر – يعادون الاديان يدعون أن العلم ونتائجه تعارض الايمان بالاله الخالق القادر الحكيم ، فانه قد ظهرت في القرن الحالي كتب لا تحصى لاثبات وجوده ، وكتبها قوم ينتمون الى كل طائفة من طوائف المفكرين والمشتغلين بالعلم ، ومن احسنها وأيسرها فهما وأقواها حجة واشدها اقتناعا كتب المشتغلين بالعلم بمعناه الحديث . وبعض الكتب تشتمل على اراء متخصصين من جميع فروع العلم ، وتدل آراؤهم على روح جديدة في النظرة للعالم ، وهي انه نظام حكيم عقلي يدل على خالق حكيم . ويحس القارىء لهذه الكتب بمدى الشعور بالاعجاب والروعة أمام عظمة الكون ونظامه المحكم البديع ، وهو شعور متميز عن التقديس العاطفي للكون كما تجلى عند مفكرين متفلسفين ذوي نزعة صوفية شعرية ، لأنه اعجاب عقلي .

واذا كان البعض يرى أن هناك روحا من الايمان تسري في العلماء وتزداد قوة كل يوم فان التحدث الى هؤلاء العلماء وقراءة كلامهم يدلان دلالة لا شك فيها على رغبة نزيهة في تقوية الايمان بالله ، باعتبار أنه قضية علمية ، هي اساس لقضية أكبر شأنا ، وهي قضية الايمان .

ومن جهة أخرى نلاحظ ان كثيراً من المؤمنين يحاولون التعرف الى العلم ونتائجه ، وأن كثيرا من العلماء المؤمنين يلبون حاجة النفس الانسانية الى أفق أوسع من افق الحياة العادية وشئونها المادية ، فيكتبون في اثبات وجود الله ، كل منهم بحسب تخصصه .

ومع أن الالحاد أو التشكك في حقائق الايمان لا يزال موجودا عند قوم مغرضين أو غير جادين في طلب الوضوح في تفكيرهم وحياتهم فان الحادهم لا ينطلي الا على جاهل بالعلم . ومن الملحدين من يكون مغلوبا على امره فيجهر بخلاف ما يؤمن به في قرارة نفسه .

واذا كان العلم بما كشفه من اسرار الطبيعة يثبّت دعائم الايمان فان تأمل الانسان لنفسه في ظاهر امره وبواطن نفسه يهديه الى مصدر وجوده ووجود الأشياء .

فان كان البعض ، لسبب أو آخر باخلاص او بغير اخلاص ، يجحد بما يرشده اليه عقله عند تأمل هذا الكون فان الانسان في العادة لا يُمكنه أن يجحد ما يصل اليه من النظر في نفسه ، حتى لو لم يكن معه الا نفسه .

يقول أحد علماء الاسلام ، وهو النهريبندي من علماء القرن الرابع الهجري :

ولــو حلّ أقطارَ السموات عاقلٌ	أو احتلّ في اقصــى بلادٍ تباعدُ
ولم يَرَ مخلوقا يدلُ على هدىً	ولم يأته وحيٌ من الله قاصــد
ولم ير الا نفســه كان خلقُهــا	دليــلا علــى بارٍ لــه لا يعانــد
دليــلا على ابداعهــا واختراعهــا	منيراً على مرّ الدهور يشاهد (١)

(١) البدء والتاريخ للمقدسي ، ص ٧٧ .

وهذا الكلام الاجمالي يشير الى نقطة بداية مؤكدة يمكن منها التفكير المؤدى الى معرفة الله.

واذا كان يجوز الجدال حول حقيقة المفهومات والتصورات المجردة وامكان اتخاذها أساسا للاستدلال ، فانه لا يجوز حول ادراك الانسان لذاته وادراكه لهذا العالم الذي يقع فى متناول حواسه ويتمثل فى وعيه على نحو مباشر .

والآن لا بد من السؤال :

الى اى مدى يسير بنا العلم في طريق الايمان ؟ وهل ما نصل اليه من طريق العلم يكفى عقولنا ويرضى حاجة ارواحنا ؟ وما هو محتوى ما يمكن أن نسميه التدين العلمى وما مدى كفايته وارضائه لحاجات روح الانسان ؟ .

قلنا ان العلم لا يتكلم الا بقدر ما يدرك من الوقائع ، وبقدر ما يستنتج منها فى ضوء المنطق العلمى ، والعلماء ، فى العادة ، لا يتكلمون خارج دائرة تخصصهم . لكن للدين أهمية بالنسبة لكل انسان لانه يمس أصل الانسان ومصيره ومعنى حياته وغايتها ، وله شأنه فى تنظيم حياة الانسان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين غيره ، هذا الى أنه يتكلم عن موضوعات هي أصول كبرى لوجهة نظر خطيرة فى الكون والحياة ومصدرها .

فلا شك انه من الخير ان يساهم العلم بنصيبه فى توضيح هذه الاصول الكبرى وتثبيتها، وخصوصا انه يدرس الشيء الوحيد الذى يمكن ان يكون موضوع المعرفة ومصدرها ، والذي يحوى فى ذاته من الاسرار والاعماق ما قد يعين على درك اسرار واعماق ابعد .

لكن العلم مهما مضى فى طريقه فانه مقيد بحدود موضوعه وامكان الاستنتاج منه وبحدود العقل الطبيعى وقيمة مفهوماته وتصوراته .

ولا شك فى انه اذا كان هذا العالم بما فيه الانسان ، اعنى جملة نظام الكون وجملة نظام النفس والعقل ، مظهرا تجلت فيه قدرة الخالق المبدع ، وظهرت فيه آيات علمه وحكمته ، فانه يحمل الدلالة المتنوعة على خالقه . لكن العالم مخلوق حادث ، محدود فى وجوده وصفاته ، على حين ان خالقه ازلى ابدى لا نهاية لوجوده ولا لكماله .

فالعالم ان دل على الخالق فان دلالته رمزية صرفة ، هى مجرد اشارة لشيء مطلق مختلف تماما ، هى دلالة فعل على فاعل ، فشتان ما بينهما !؟

وإذن فان استنتاجات العلم فيما يتعلق بالاله وصفاته لها قيمة كبيرة ، لانها دلالة عقلية ، لكن يجب علينا ان نعتبر ما يوصلنا اليه العلم مجرد علامة او امارة . ومن اطرف اسرار هذه اللغة العربية ان الكون الذى نشاهده ، هو وجملة نظام الخلق ما نراه منه وما لا نراه ، يسمى بكلمة : « عالم » التى معناها : « العلامة الكبيرة » .

فاذا كنا مثلا نعرف من النظر فى هذا العالم ، وفى حدود الاستنتاج الدقيق ، ان موجد العالم ليس ماديا ، وانه قادر حكيم ، مبدع ، مريد ، حى .. الى غير ذلك من الصفات ، فان ما نراه لا يكفى فى ان يدل على ان صفات المبدع لا نهاية لها الا بخطوة عقلية جديدة هى : ان الشيء

الحادث لا بد ان يرجع آخر الامر الى فاعل حق موجود بذاته ، كما تقدم القول اكثر من مرة . ثم ان ما نراه لا يدل على كل صفات المبدع ، لان العلة اكمل من معلولها ، لا من جهة ان صفاتها اعظم من صفات المعلول بما لا يقاس وحسب ، بل ايضا من جهة ان لها من الصفات الذاتية ما لا يظهر فى المعلول ، ولا يمكن أن يظهر .

واذن فلا بد من اكمال المعرفة العلمية بكمال الاله وجلاله ، وهذا الاكمال لا يصح ان يؤخذ من تصورات عقلنا المحدود ، ولا من تخيل كمال او استحسان صفات نضيفها اليه ، لان هذا كله تصورات شخصية نسبية . بل يجب علينا التماس المعرفة بالاله من الاله نفسه ، بأن يعرفنا بنفسه بذاته وصفاته ، ويكشف لنا من اسرار ارادته وحكمته ما لا نصل اليه ، وذلك يكون بتعليم منه يأتى الينا ونحاول ان نفهمه فهما صحيحا .

ومهما كان الامر فان على من يطمح الى المعرفة العليا بالاله ان يحاول تحطيم حجاب الحس والعالم الحسى والوصول الى المعرفة المباشرة بالاله ، وهى تجربة خاصة او معرفة ذوقية بقدر ما تتسع لها طاقة العقل ، لانه لا يعرف الاله حق المعرفة الا الاله نفسه .

ثم اذا آمنا من طريق الاستدلال العلمى بوجود الاله الخالق ، فكيف نعرف الحكمة من صدور هذا الخلق عنه ، والعوالم التى خلقها غير عالمنا ، وانواع الموجودات التى نحتل مكاننا بينهـا ، وحكمته من خلق الانسان والمعنى الذى اراده من وضع الانسان على هذا الكوكب ، وما هو القانون والمثل الاعلى الذى يجب ان يحكم حياة الانسان ، وما سر وجود العقل مع القدرة والاختيـار فى الانسان وصلاحية ذلك لفعل الخير والشر ، وماذا يفعل الانسان بحياته وماذا يكون موقفه ازاء خالقه ، وما مدى مسئوليته عن هذا كله ، وما مصيره بعد هذه الحيـاة ، هل الروح خالدة ؟ وهل من حياة اخرى للروح ؟ واى نوع من الحياة هى ؟

كل هذه اسئلة لا يمكن تفاديها ، لانها انسانية ، وهي مجال المشكلات والحاجات والأزمات الانسانية ، وقد عبرت الانسانية عن الحاجة اليها تعبيرا نظريا وعمليا . لكن العلم لا يجيب عنها ، وليس له وسيلة لذلك ، ولا العقل له وسيلة لذلك .

انه يمكن ، ولا شك ، بعد الوصول الى الايمان العلمى بوجود الاله الخالق القادر الحكيم ، ان نستنتج على نحو منطقى دقيق دقة الاستنتاج الرياضى بعض الآراء ، لكن ذلك يبقى شيئا كليا عاما ، ولا نستطيع ان نعرف المحتوى او التفاصيل .

فمثلا : اذا قام الدليل العلمى القطعى على وجود خالق حكيم لهذا العالم ، فانه ينتج لنا منطقيا أنه لا يخلق عبثا ولا باطلا ، وانه لا يخلق العالم ثم يترك تدبيره ، ولا يخلق الانسان العاقل الذى يتوثب عقله الى المعرفة الا ويعطيه علما فوق ما يصل اليه بوسائله العادية ، فيحدثه عن عوالم وموجودات لا يعلمها . وهو لا يتركه بلا تعليم يبين له الحكمة من وجوده والواجبات عليه فى حياته نحو ربه ونحو نفسه ونحو غيره ، ويجيب له عن أسئلته عن الحياة وما بعدها .. وهكذا .

لكن هذا كله ، وان كان استنتاجا صحيحا ، فانه لا يعيّن لنا شيئا .

ولا يمكن مهما تكلف الانسان أن يصل فى هذه الامور الى تحديد ، وهذا من ادلة الحاجة الى التعليم الالهى وافتقار الخلق اليه ، لا لان عقولهمفى ذاتها عاجزة عن الحكم على الامور ، بل لانها ليس من شأنها التحديد بين الجائزات ، ولانها رغم ادراكها للقيم ليس منشأنها ايجاب الواجبات. لان العقل وسيلة للمعرفة والادراك ، وليس مشرعا فى امور تتجاوز ميدانه .

فلا بد من اكمال المعرفة العلمية التى يتوصل اليها العقل من النظر فى نفسه وفى الكون بمعرفة تأتي من مصدر الكون والعقل فتساعد العقل على رؤية العالم فى ضوء جديد . وفى هذا فائدة للعلم وللدين وللانسان .

وكما لا غنى لعالم الدين عن معرفة الثمرات الكبرى للعلوم الكونية والطبيعية والانسانية ، لانه يؤمن بخالق الكون والانسان ، فكذلك لا غنىلعالم الكونيات وعالم الطبيعة عن الاستنارة بهدى الدين ، لانه من طريقالعلم يؤمن بالله قادر حكيم .

ان العلم يؤمن بمبدأ العلية وبعلة للعالم ، وهو يؤمن بما لا يرى ولا تدركه الحواس القاصرة، ويؤمن بأن هذا العالم تصميم عقلى يدخل فى اطارات عقلنا ، فليس فى العالم ولا فى العقل ما يمنع العالم من قبول الدين المنزل .

لانه ، لما كان الدين المنزل من عند خالق العالم والانسان ، وكان موجها للانسان المزود بالعقل والحواس ، وهو فى هذا العالم ، فانه يتحتم من حيث المبدأ ان يكون هناك اتفاق بين حقائق الدين وبين ما يصل اليه العقل من علم ، بشرط ان يكون الدين المنزل على حالة صحته الاصلية ، وان نفهمه فهما صحيحا ، وان يكون العلم الذى نصلاليه صحيحا ، وان نعرف حكم العقل الصحيح وحدود احكامه .

وهذا امر جدى عظيم الاهمية ، حقيق بأن يعنى به الانسان المفكر . ولا خوف من النتيجة، فقد دلت التجربة على نجاح المحاولة فى الاديان المنزلة كلها ، على نحو مرض ، اذا صرفنا النظر عن المتطرفين فى جانب او آخر ممن لا يعتد برأيهم . واذا نظرنا فى الاسلام مثلا وجدنا ان « المتكلمين » اقاموا مذاهبهم على اساس العقل ، وان الفلاسفة من ايام الكندى الى ايام ابن رشد اكدوا اتفاق الدين والفلسفة .

فالكندى(١) يقول : ان كل ما جاء به الدين الاسلامى يمكن ان يفهم « بالمقاييس العقلية » التى لا يرفضها الا جاهل ، وابن رشد يقول : انه لما كان الدين حقا فانه لا يمكنانيناقض العلمالبرهانى، لان الحق لا يضاد الحق بل هو يوافقه ويشهد له(٢) .

ولما كان الاسلام دين عقل وعلم ، وكان القرآن قد تكلم عن العالم ونظامه ، وامر بالنظر فيه بالحس والعقل ، للاستدلال على وجود الله ، فان العالم المسلم جدير بأن يؤمن بالعلم كما يؤمن بالدين ، فيطلب العلم بالكون لانه سبيل المعرفة بالله .

---

(١) راجع رسائله الفلسفية ، ج ١ القاهرة ، ١٩٥٠ خصوصا رسالته فى « الابانة عن سجود الجرم الاقصى وطاعته لله عز وجل » ورسالته « فى كمية كتب ارسطو »

(٢) فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، لابن رشد

ومنذ اتصال الاسلام بالعلوم والفلسفات اقبل المسلمون على طلبهـا وتناولوها بالدراسـة والنقد وانشأوا علومهم وفلسفتهم . وقد واجهوا ثمرات العلوم والفلسفات اكثر من مرة ، فى العصر العباسى الاول وفى القرن التاسع عشر ، ونجحوا فى تمثل العلوم والفلسفات ، وفى تثبيت الايمان ــ الذى هو علم يقوم على العلم ــ بفضل تجديد المعرفة . وهم اليوم يواجهون المهمة نفسها .

وقد ظهرت فى الفترة الأخيرة كتب كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين وفيها نظروا للعلم الحديث وثمراته فى ضوء آيات القرآن التى تتكلم عن العالم وعجائبه وظاهراته واسرارها ، لكنها لا تزال محاولات متفرقة .

وقد ظهرت فى عشرات السنين القليلة الماضية كتابات كثيرة لعلماء ومفكرين مسلمين حاولوا فيها فهم آيات القرآن التى تتكلم عن الكون وآياته فى ضوء نتائج العلم ، او هم حاولوا تفسيرها تفسيرا علميا . لكن ذلك كان محاولات متفرقة . فما اجدر العلماء المسلمين ان يجتهدوا فى العلم وان يدرسوا ما فى القرآن من اشارات كونية ، وان يستفيدوا مما اشتمل عليه من تنبيهات واحكام كلية تتعلق بالكون ، وان يتأملوا دقائق المعانى الكامنة فى آياته وكلماته . وان هذه دراسة تشوق العقل وتفتح امامه آفاقا عليه ان يدرسها دراسة تعمق وتمحيص .

ان القرآن ، كما يقول عن نفسه « ذكر حكيم » و « علم » و « حكمة » ، فهو ينبه الحس والعقل ويوجههما الى آيات الكون فى ضوء احكام وقضايا كلية او شاملة .

وليس الفرض من ذلك مجرد تثبيت الايمان بالله ، وهو اعلى معرفة علمية فلسفية ، بل ايضا الاستمتاع بلذة العلم والبحث العلمي .

ولا يصح الظن بأن العلماء الفربيين العاكفين على البحث فى العلوم بعيدون عن منابع الفكـر الدينى او الفلسفى القديم والحديث ، كلا ، انهم يعرفون تاريخ علومهم ، ويلمون بنصوص الدين وآراء علمائه ، ويزاولون عملهم العلمى فى جو من ثقافة متكاملة . واذا كان منهم معرضون عن ذلك فانهم ، وان كانوا يصلون فى العلم الى ما يصل اليه غيرهم ــ لان وسائل المعرفة العلمية مطيعة لمن يريد استعمالها ويجد فى الوصول اليها ــ فانهم تنقصهم روح البهجة الناشئة عن ادراك ما فى الكون من آيات الدقة والروعة الدالة على الخلاق العظيم .

واذا كان دليل العلم قد اثبت وجود الاله القادر الحكيم، فانه بذلك يضع العالم امام مسئولية كبرى ، فيما يتعلق بواجبه نحو هذا الاله وحكمته من وجود الانسان ، وفيما يتعلق بواجبه نحـو ما يترتب على استعمال نتائج البحث العلمى . فهى قد تستعمل لخير الانسان او لالحاق الضرر به ، ومن هنا يجب على العالم الحديث ان يهتم بالنتائج التى تترتب على استعمال المعرفة العلمية اهتمامه بالبحث العلمى نفسه .

ومن هنا يصبح الايمان بالاله باعثا على معرفة حكمته وعلى احترامها ، فيكون العلم مؤيدا للايمان وعاملا على كمال الانسان وسعادته .

كان العلم الحديث سببا فى زعزعة الايمان احيانا ، وذلك يرجع الى انه لم يكن علما صحيحا ولا كافيا ، واليوم اصبح العلم داعيا الى الايمان ، وذلك بفضل ازدياده وصحته .

قال لورد كيلفن ، احد علماء الطبيعة البارزين :

« اذا فكرت تفكيرا عميقا فان العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد بوجود الله » .

وكان الفيلسوف الانجليزى فرانسيس بيكون يقول :

« ان قليلا من الفلسفة يقرب الانسان من الالحاد،اما التعمق فىالفلسفة فانه يرده الى الدين » .

والله يقول فى القرآن الكريم بعد تنبيهه الى بعض آيات الكون :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » (س ٣٥ ــ فاطر ، ٢٨) .

وهو يقول مؤكدا انتصار العلم بالله والايمان به ، بعد اكتمال المعرفة الانسانية :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ، اولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد » (س ٤١ ــ فصلت ، ٥٣) » .

* * *

---

(١) فيما عدا المصادر المذكورة فى مواضعها اعتمدت ، فى نقط لم تتيسر مراجعها ، على المقالة الممتازة التي كتبها تيلور فى دائرة معارف الدين والاخلاق عن الايمان بالله Theism وقد اشرت الى دائرة المعارف هذه بالحروف E.R.E. (Encyclopaedia of Religion and Ethics)

أحمد أبو زيد

أزمة العلوم الإنسانية

فى الاجتماع السنوى الذى عقدته الجمعية الامريكية لعلم الاجتماع American Sociological Society فى مدينة شيكاغو عام ١٩٥٨ ، القى العالم الامريكى الشهير تولكوت پارسونز Talcott Parsons محاضرة بعنوان « علم الاجتماع كمهنة Sociology as a Profession » أثارت كثيرا من الجدل والمناقشات حول ماهية ذلك العلم وميدانه ومناهجه ونظرة المشتغلين بـه الى انفسهم ، وهل يعتبرون انفسهم حرفيين ومهنيين يلتزمون بأصول المهنة فى كل خطوة يخطونها ؛ وما هى تلـك الاصول والقواعد ؛ وما اثر ذلك الالتزام على مستقبل علم الاجتماع نفسه ونوع المشاكل التى يجب عليهم دراستها والتعمق فيها . وقد ادى هذا كله الى انقسام العلماء الى فئتين ، ترى احداهما وجوب توفر العالم على دراسة مشاكل محددة بالذات للتعرف على كل دقائقها وتفاصيلها بما يتفق مع مستلزمات التخصص المهنى الدقيق حتى وان كان ذلك على حساب النظرة العامة الشاملة الى الحياة الاجتماعية ككل ، او الى الخصائص الاساسية التى تميز المجتمع الذى يدرس الباحث تلك المشكلة او المشاكل المحددة فيه ؛ بينما ترى الفئة الثانية انه على الرغم من اهمية التخصص الدقيق والدراسة التفصيلية لمشاكل جزئية محددة فان المبالغة فى ذلك الاتجاه تؤدى فى آخر الامر الى تحديد مجال علم الاجتماع وتضييق افق الباحث نفسه ، وعزله عن التيارات والاحداث العالمية

(*) دكتور احمد ابو زيد ، استاذ الأنثربولوچيا الاجتماعية بجامعة الكويت (بالاعارة من جامعة الاسكندرية) . عمل خبيرا لشئون الجماعات القبلية بمنظمة العمل الدولية بجنيف ، كما قام بأبحاث حقلية بين الجماعات البدوية فى معظم الدول العربية .

من مؤلفاته : « البناء الاجتماعي : مدخل لدراسة المجتمع » ، وقد ظهر منه للآن جزءان عن « المفهومات » و « الأنساق » ويزاوج في كتاباته بين الأنثربولوچيا وعلم الاجتماع .

نتيجة للتركيز على مشكلة واحدة محدودة بحدود الزمان والمكان ، وهو الامر الذى يتعارض مع ماهية علم الاجتماع باعتباره احد العلوم الانسانية التى تهدف قبل كل شيء الى دراسة الانسان فى ذاته. وحسم الخلاف احد اساتذة جامعة شيكاغو حين ذكر زملاءه بالتقاليد القديمة التى كانت سائدة بين علماء الاجتماع الاوائل الذين كانوا يجمعون بين اتساع الثقافة وشمول النظرة ، وانه يعتقد بناء على ذلك ان علماء الاجتماع هم من اصحاب الثقافة الواسعة المتنوعة ، وليسوا من اصحاب النظرة الضيقة المتزمتة وان « هذه الجمعية » ، اى «الجمعية الامريكية لعلم الاجتماع» **هى فى المحل الاول جمعية علماء مثقفين وليست جمعية حرفيين ومهنيين . ومن الطريف ان الرأى استقر بعد الاجتماع على تغيير اسم الجمعية ، فاصبحت « الرابطة الامريكية لعلم الاجتماع** American Sociological Association **وقد علق بعض الظرفاء على ذلك بان تغيير اسم الجمعية كان خير ما تمخض عنه ذلك الاجتماع السنوى ، اذ لو كانت الجمعية تمسكت باسمها القديم وقبلت فى الوقت نفسه الدعوة الى اعتبار علم الاجتماع حرفة او مهنة لصدق على الجمعية وعلى العلماء الاسم الذى تشير اليه الحروف الاولى من اسم الجمعية ذاتها وهو** A.S.S. **، اى (جحش)**

ومع ما فى هذه الملاحظة الاخيرة من طرافة وقسوة ، فان لتلك المناقشات مغزاها العميق ، ليس فقط بالنسبة لعلم الاجتماع ، بل وايضا لكل لعلوم الانسانية ، لأنها تكاد تلخص حقيقة الازمة الراهنة التى تواجهها هذه العلوم ، والتى تتمثل بوجه خاص فى اختلاف الآراء حول طبيعتها ، ودقة المناهج واساليب البحث التى تتبعها ، ونوع الالتزامات التى يجب ان تلتزم بها ازاء الانسان والمجتمع ، والعلاقات المختلفة التى تقوم بين فروعها ومدى الاعتماد المتبادل الذى يمكن ان يقوم بين هذه الفروع والتخصصات وما الى ذلك . وعلى الرغم من ان معظم هذه المشكلات قديم ودارت حوله مناقشات طويلة منذ اواخر القرن الماضى ، وبخاصة فيما يتعلق بعلم الاجتماع ، ثم تجددت هذه المناقشات بعد الحرب العالمية الاولى وبخاصة فيما يتعلق بالانثربولوجيا ، فان الظروف الحالية التى يمر بها المجتمع الانسانى والتقدم الملحوظ الذى حققته العلوم الطبيعية والبيولوجية، وتخلف العلوم الانسانية فى الوقت ذاته وعدم قدرتها على اللحاق بتلك العلوم ، ابرزت اهمية هذه المشكلات بشكل غير عادى . ومن الخطأ ان نعتقد أن الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية والسياسية وغيرها من المشكلات الانسانية احدث عهدا بكثير من الاهتمام بالظواهر الكونية او الفيزيائية . بل ان العلوم الانسانية وبالذات علم الاجتماع او علم المجتمع ، كانت فى بعض فترات التاريخ تبدو اكثر تقدما من علم الطبيعة (الفيزياء) كما هو الحال مثلا فى ايام اليونان وبخاصة ايام افلاطون . ولكن بمجيء جليليو Galileo ونيوتن Newton احرزت العلوم الطبيعية من النجاح ما لم يكن مرتقبا ، وتفوقت كثيرا على غيرها من العلوم . ومنذ عهد باستير Pasteur ، نظير جليليو فى علم الحياة، احرزت العلوم البيولوجية نجاحا يكاد يعادل ما احرزته العلوم الطبيعية . ولكن العلوم الاجتماعية لا يبدو للآن أنها وجدت من يحقق لها ماحققه جليليو للعلوم الطبيعية(١) . ومن هنا كان لا بد للمشتغلين بالعلوم الانسانية من أن يتعرفوا على أسباب ذلك التخلف الذى تعانى منه العلوم الانسانية من ناحية ،والطريقة المثلى للخروج من ذلك التخلف الذى يكاد يشبه الجمود ، ومن هنا

(١) بوبر ، كارل : عقم المذهب التاريخي ، دراسة فى مناهج العلوم الاجتماعية ــ ترجمة الدكتور عبد الحميد صبره ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٥٩ ، صفحة ٩ . .

ايضا كان لا بد لهم من الاهتمام بالمسائل المنهجيةوبخاصــة المناهج التجريبية المتبعــة فى العلــوم الطبيعية بالذات . وهذه ايضا حركة قديمة ترجع الى أيام جون ستيوارت ميل : J. S. mill الذى اراد « اصلاح » علمالاجتماع بالاستعانة بالمناهج التجريبيــة مثلما فعــل ڤونت Wundt فى محاولته « اصلاح » علم النفس . ومع أن هذه المناهج حققت كثيرا من النجــاح فى علمالنفــس فهناك كثير من الشك فى مدى ما حققته من نجاحفى العلوم الانسانية .

ولقد ترتب على سرعة التقدم العلمى والتكنولوجىفى السنوات الأخيرة مع تخلف العلوم الانسانية ان زاد التشكك فى قيمة وجدوى هذه العلوم ، علىالأقل فى حالتها الراهنة . وساعد على ذلك ماظهر من انعزال كثير من المشتغلين بهذه العلوم عن الأحداث الهامة فى مجتمعاتهم وعجزهم عن ملاحقة التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والايديولوجية التى يمر بها العالم الآن . وانعكس ذلك واضحا فى موقف كثير من الحكومات من كلا الفئتين من العلوم ومدى اهتمامها بها ، وهــو اهتمام يمكن ان نقيسه بحجم الاتفاق على كلمنهما . وقد تكفى بعض الامثلة القليلة لتوضيح ذلك : فالمعروف مثلا ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية انفقت على تدعيم البحــوث العلميــة والهندسية فىعام ١٩٦٦ ما يزيد على خمسة عشر بليون دولار ، وهو مبلغ ضخم ، ولكنه يرتفع الى ما يقرب منالعشرينبليوندولار اذااخذنافى الاعتبار المساعدات الاخرى الثانوية وغير المباشرة التى بذلت فى هذا المضمار . ويزيد هذا المبلغ زيادة هائلة ليس فقط عن كل ما تكلفه المجهود العلمىخلال الحرب العالمية الثانية ، بل انه يزيد ايضا على كلميزانية الحكومة الفيدرالية فى السنة السابقــة مباشرة على الهجوم على بيرل هاربور(٢) . وقد ارتفع حجم الانفاق اكثر من هذا بكثير بعد عــام ١٩٦٦ نتيجة لتشعب البحوث العلمية والهنــدسية وتعقدها وامتدادها الى ميادين جديدة بعد ان دخل العلم مرحلة غزو الفضاء . وبعد ان كان البحث العلمى فىامريكا يكاد ينحصر فىالجامعات ومعاهد البحث العلمى وبعض الشركات الصناعيةالكبرى نزلت الادارات الحكومية المختلفة الى هذا الميدان بقوة عارمة وميزانيات ضخمة واعداد كبيرة جدا من العلماء المتخصصين الاكفاء ، وهو امر جديد لم يكن لامريكا سابق عهد به . وليس المهمهنا هو ضخامة الانفاق على العلوم الطبيعية فى ذاتها . فهناك بغير شك ما يبرر ذلك الانفاق او بعضه على الاقل . وانما المزعج حقا هو ذلك التقتير المقابل فى الانفاق على العلوم الانسانية وعدم الاهتمام اهتماما كافيا بتدعيم البحوث فى هذه المجالات على الرغم مما يرتبط فى الاغلب بالتقدم العلمى والتكنولوجى من ظهور كثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تحتــاج الى حلول سريعة حاسمة ، وما يتطلبه هذا كله من ضرورة دراسة الاوضاع الجديدة وفهم منطقالعلم والتكنولوجيا وآثارهما فىالحياة الانسانية . وليس من شك فى ان هذا كله خليق بأن يلقى اعباء جديدة على المشتغلين بالعلوم الانسانية والعلوم الطبيعية على السواء،حيث يتعين على كل من الطرفين محاولة فهم الطرف الآخر والتعرف على ميادين ابحاثه واهتماماته والعمل على تعديل نظرته فى ضوء ذلك الفهم الجديد ، على اساس انه لا بد من تصحيح التوازن بين العلوم الطبيعية والانسانية أو تضييق الهوة التى تفصل بينهما بقدر الامكان . والشيء الغريب هو انه على الرغم من الشعور المتزايد بخطورة الموقف الناجم عناختلال

Nelson, W.R. (ed); The Politics of Science, Oxford University Press, N.Y. 1968, P.V.

التوازن ورجحان كفة العلوم الطبيعية الى الحد الذى يهدد مستقبل المجتمع البشرى بأسره ، فان الخطوات الايجابية التى اتخذت للآن قليلة وغير فعالة . ففى انجلترا – مثلا – وهذا مثال آخر له مغزاه وان لم يكن مثالا صارخا كأمريكا ، نجد ان مجموع ما ينفق على العلوم الاجتماعية اقل من جزء من ألف جزء مما ينفق على العلوم الطبيعية ، وان هذه النسبة الضئيلة تزداد تضاؤلا لو اخذنا فى الاعتبار ما تنفقه الصناعة ايضا من اموال على البحث العلمى والتكنولوچى(٣) .

وقد يرجع بعض هذا التخلف الذى تعانيه العلوم الانسانية الى قلة الانفاق على البحوث ، وان كان يمكن فى الوقت ذاته تفسير الانصراف عن تدعيم هذه البحوث ذاتها الى قلة العائد الملموس منها ، والى اخفاق المشتغلين انفسهم بهذه العلوم فى تدعيم مركزهم واقناع الحكومات والمجتمع بجدوى ابحاثهم التى كثيرا ما يشوبها الجدل والافتراضات الفضفاضة والتعميمات التى لا تستند الى اساس متين من الواقع . وربما كان هذا من بين الاسباب التى دفعت پارسونز الى القيام بدعوته المتطرفة التى اشرنا اليها ، والى الاهتمام الزائد باتباع المناهج التجريبية ومحاولة محاكاة العلوم الطبيعية فى اساليبها ، عسى ان يؤدى ذلك الى احراز التقدم المأمول . ومن الصعب ان نناقش هنا بالتفصيل ازمة العلوم الانسانية المختلفة ، ولذا سنقتصر فى معظم الاحوال على الاشارة الى اثنين فقط من هذه العلوم ، وهما علم الاجتماع والانثربولوچيا ، او كما يسميان احيانا ، علم المجتمع وعلم الانسان ، كمثالين يوضحان الوضع القائم فى المجموعة كلها . فالمشاكل على اية حال واحدة او متشابهة الى حد كبير .

ولكن مهما يكن من امر تخلف العلوم الانسانية ، فليس ثمة شك فى انها خليقة بأن تلعب دورا هاما فى حياة الانسان المعاصر وانسان المستقبل ، بل وقادرة على الاضطلاع بهذا الدور بشكل لم يتيسر لها من قبل ، وان تساعد على حل كثير من المشكلات والازمات التى نجمت عن التقدم التكنولوچى الحديث . والمعروف ان علم الاجتماع بالذات ظهر كنوع من الاستجابة للأزمة التى كان يمر بها المجتمع الاوروبى خلال المرحلة الديناميكية التى ترتبت على ظهور الثورة الصناعية

---

(٣) Eysenck, H.J.: **Sense and Nonsenss in Psychology**, Pelican 1966, P. 12.

ويذكر آيزنك كمثال للتقتير فى الانفاق على الدراسات الانسانية ما يحدث فى مجال علم النفس باعتباره احد العلوم الانسانية المتقدمة ، ويقارن فى ذلك بين ما تتكلفه مثلا اختبارات قياس ذكاء الأطفال للتعرف على قدراتهم وميولهم ، مما يساعد على وضع خطة علمية سليمة لتوجيههم منذ صغرهم فى الحياة وبين ما ينفق على بعض الأمور الأخرى التي قد لا تكون لها كل هذه الأهمية فى حياة الانسان . ومع أن اختبارات ذكاء اطفال المدارس بين سن السادسة والحادية عشرة لا يكلف الواحد منها سوى تسعة بنسات وان الأمر يحتاج الى تطبيق خمسة اختبارات على فترات متباعدة ، بحيث تقل تكاليف الاختبارات كلها عن اربعة شلنات وهو مبلغ زهيد جدا ولا يمكن قياسه بما ينفقه أى شخص عادى على اصلاح اداة يلحقها التلف من الأدوات التي يستخدمها فى حياته اليومية ، فان هناك صعوبة بالغة فى توفير المال اللازم لتطبيق هذه الاختبارات على كل تلاميذ المدارس فى تلك السن على الرغم من الفائدة الكبرى التي سوف تعود على الفرد نفسه وعلى المجتمع ككل ، وعلى الرغم من ان ذلك قد يوفر على المجتمع كله وعلى الفرد ذاته كثيرا من المتاعب وخيبة الأمل والمجهود الضائع التي قد تحدث فى المستقبل اذا لم تطبق هذه الاختبارات وامثالها . انظر فى ذلك صفحات ١٣ – ١٧ من كتاب آيزنك السابق ذكره .

والثورات السياسيةوالظروف التى احاطت بعصر التنوير وحروب الاستقلال والثورات فى امريكا واوروبا والغزوات والحروب النابليونية . وكان الغرض من قيامه كحركة جديدة هو ايجاد وسائل وطرق واساليب يمكن بها تحليل العلاقات الاجتماعية المتشابكة المعقدة وتقريبها الى الاذهان . وهذا معناه ان علم الاجتماع نما وترعرع فى عالم سريع التغير نسبيا كان يبدو حينذاك على انه ينحرف بسرعة فائقة عن الاوضاع الراسخة الموروثة ، كما كان الانسان نفسه يبدو فيه ضائعا لا يعرف اين يسير ، كما كان يشعر بأنه اصبح عاجزا تماما امام نتائج أعماله وافعاله التى لم يكن يقدر نتائجها حق التقدير . لقد كان علم الاجتماع بذلك بمثابة المطلب العقلى لنوع جديد من العلماء يختلفون كل الاختلاف عمن سبقهم من الكتاب الذين لم يدخروا وسعا ــ رغم امكانياتهم المتواضعة ــ فى فهم الانسان والمجتمع(٤) . ولقد كان العلماء الاوائل يرون فى علم المجتمع ــ حسب قول فريدريش بوخولتز Friedrich Buchholz ــ نوعا من الدراسة الفذة الفريدة التى لم تكن العصور السالفة تحلم بامكان قيامها ، كما كانوا يرون فى المشتغلين بذلك العلم الجديد طرازا خاصا من المفكرين يركزون كل اهتمامهم ويحصرون كل اهدافهم فى محاولة تقريب العلم من حالة المجتمع واوضاعه ، وبالتالى يعملون على تكييف ذلك العلم الجديد للمجتمع . ومع ذلك فلم يحاولوا ان يطلقوا عليه اسما معينا . والمعروف ان الذى سمى علم الاجتماع بذلك الاسم هو اوجيست كونت Auguste Comte الذى كان يخضع ذلك العلم للقول الفرنسى المأثور : Savoir pour prevoir, prevoir pour pouvoir اى انه كان يعتبر الغاية الاخيرة من علم الاجتماع هى التنبؤ او التكهن ، وان الغاية من التنبؤ هى التحكم والتوجيه والارادة . وبالتالى فان علم الاجتماع كان من ضمن اهدافه التغلب على الجموح الاعمى والنتائج غير المرئية وغير المقصودة التى قد تترتب على افعال الانسان(٥) . وهذا هو بالضبط ما يبدو عليه الوضع الآن مع كثير من الفوارق فى الدرجة بطبيعة الحال . فالعالم يمر فى الوقت الحاضر بسلسلة طويلة من التغيرات العنيفة السريعة المتلاحقة ، وقد زعزعت هذه التغيرات ثقة الانسان وايمانه فى كثير من القيم الموروثة ، وجعلته يشعر بالضياع والضآلة ازاء التقدم العلمى والتكنولوچى الهائل ، ولم يعد يدرى تماما الى اين المصير . وكان لا بد للانسان ازاء ذلك من ان يرجع الى نفسه مرة اخرى يبحث فيها وفى المجتمع الذى ينتمى اليه ، وفى العلاقات الانسانية والقيم الاجتماعية والروحية ، وكذلك فى الظروف الراهنة التى تحيط به عن موطىء قدميه ، ويحاول ان يستشف منها شيئا عن حاضره ومستقبله . ولكنه يصطدم فى اثناء بحثه بالوضع المؤلم الذى انحدرت اليه العلوم الانسانية التى كان يمكن ان يسترشد بها، بالاضافة الى حالة التشكك وعدم اليقين التى تسيطر على المشتغلين بهذه العلوم ذاتها فيما يتعلق بتحديد الهدف منها ومناهجها والدور الذى تقوم به فى الحياة بعد ان فقدت ، على ما يبدو ، كثيرا من مقوماتها الاصلية القديمة . وهذا يصدق على علم الاجتماع فى المحل الاول . ولكنه يصدق ايضا على الانثربولوچيا . ولقد دفع ذلك كله كثيرا من المشتغلين بالعلوم الانسانية وبخاصة الشباب منهم الى ان يختبروا بعقل ناقد وضع

---

(٤) Gerth, H. and Landau, S.; "The Relevance of History to the Sociological Ethos" in Stein M. and Vidich, A. (eds) : **Sociology on Trial**, Prentice - Hall, N.J. 1963, P. 26.

(٥) نفس المرجع والصفحة .

هذه العلوم فى الوقت الحاضر بقصد التعرف على سر الازمة التى تمر بهـا ، وعناصر تلك الازمـة وطريقة الخروج منها .

ــ ١ ــ

وازمة العلوم الانسانية هي فى اساسها ازمة كيان ، ان صحت هذه التسمية ، نشأت مـن الرغبة فى اثبات وجود هذه العلوم وتحديد مكانها بين بقية العلوم والمعارف تحديدا واضحا نهائيا ومعترفا به من الجميع ، اى من المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبيولوچية من ناحية ، والمشتغلين بالعلوم الانسانية ذاتها من الناحية الاخرى ، على الرغم مما قد يبدو فى هذا القول الاخير من غرابة . فليس هناك حتى الآن اتفاق تام بين المتخصصين فى العلوم الانسانية انفسهم على تحديد هـذه العلوم(٦) والاعتراف بمجالات تخصصها ومدى التعاون الذى يمكن ان يقوم بينها ، بل والاكثر من ذلك الاعتراف ببعضها بعضا . وهـذا الموقف التشككى فى اهمية بعض التخصصات من جانب المشتغلين بتخصصات اخرى ضمن دائرة العلوم الانسانية ذاتها موقف قديم . فأوجيست كونت فى تصنيفه للعلوم الذى وضعه فى كتابه الشهير «دروس فى الفلسفة الوضعية **Cours de Philosophie Positive** يرتب العلوم ترتيبا تصاعديا من البسيط الى المعقد ، مبتدئا بالرياضيات التى يعتبرها ابسط العلوم ، لانها هى الاساس الاول الذى تعتمد عليه كل العلوم الاخرى ، دون ان تستند هى الى اى علوم اخرى ابسط منها ، ومنتهيا بعلم الاجتماع الذى يعتبره اكثر العلوم تعقيدا . الا انه يسقط علم النفس من هذا التصنيف ، لانه ليس علما خليقا بالذكر . وقد اتخذ دوركايم Durkheim ايضا موقفا معاديا من علم النفس وان لم يصل الى حد الانكار التام له، ولكنه كان يرفض الاستعانة به فى فهم ودراسة وتحليل الظواهر الاجتماعية ويحذر من الوقوع فى التأويلات السيكولوچية لتلك الظواهر ، وان كانت كتاباته هو نفسه لم تخل من مصطلحات علم النفس(٧) . وقد نجد دليلا واضحا على مدى تخبط العلماء فى هذا الصدد لو قارنا موقف دوركايم باعتبـاره عالم اجتمـاع ، بموقف

---

(٦) يطلق اصطلاح (العلوم الانسانية) فى العادة على الانثربولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصـاد والسياسة ، وقد يدخل فى دائرتها ايضا التاريخ وفى بعض الاحيان الادارة العامة . وتختلف العلوم الانسانية عما يعرف عادة باسم الانسانيات Humanities التي تضـم الأدب والفلسفة والفن وما اليها .. وسوف نعود لذلك فيما بعد .

(٧) ربما كان افضل مثل لذلــك هــو كتابه عن « الانتحار ، دراســة فى علـم الاجتماع Le Suicide; Etude de Sociologie ، اذ على الرغم من انه يحاول فى الفصول الأولى ان يدحض الفكرة السائدة لدى كثير من الكتاب من أن الانتحار مشكلة تتعلق بالفرد من حيث هو فرد وأنه لا يمكن لذلك تفسيرها فى ضــوء علم النفس وبالاشارة الى الحالات النفسية التي يمر بها الفرد فانه لا يلبث أن يفرق بين ثلاثة أنواع من الانتحار يسميها النمط الأناني الذى ينشأ من انعدام تكامل الفرد فى المجتمع ، والنمط الايثارى الذى ينشأ من رغبـة الفرد فى التضحية بحيـاته خضوعا لبعض الأوامر والتقاليـد ، ثم الانتحـار الناشيء عـن الانحراف عـن المعايير الثابتـة أو الخـروج عليهـا . ولا يكـاد تحليل دوركايم للانتحـار يختلف عما قد يكتبـه الآن احد علماء الانثربولوجيا السيكولوجية من امثال هالويل Hallowell . انظــر فى ذلــك كتابنا عن « البناء الاجتماعي : مدخل لدراســة المجتمع » ، الجزء الأول ، المفهومات .. الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٨ ، صفحات ٨٠ ــ ٨٥ .

مالينوفسكى Malinowski ــ باعتباره من علماء الأنثربولوجيا ــ ازاء علم النفس والتاريخ باعتبارهما علمين من العلوم الانسانية .

فبينما يرفض دوركايم علم النفس على ما رأينا وينادى بأهمية التاريخ فى فهم الظواهر الاجتماعية يقف مالينوفسكى موقفا مناقضا لذلك تماما . فهو يرفض التاريخ ولا يعترف بـه كوسيلة او اداة فى فهم المجتمع ، ولكنه يستعين ــ فى بعض دراساته على الاقل ــ بعلم النفس لفهم بعض الظواهر الاجتماعية ، بل انه كان يأخذ على المدرسة الفرنسية اغراقها فى توكيد الجانب الاجتماعى من الطبيعة البشرية على حساب التغايرات الفردية وحاول ، على هذا الاساس ، ان يعدل نظرية دوركايم عن طريق الاستعانة بالنظريات السيكولوجية عند باڤلوڤ Pavlov وڤونت وكذلك الاستعانة بالتحليل النفسى(٨) .

وظهر هذا الاتجاه واضحا بوجه خاص فى دراساته للدين والسحر حيث حاول تفسيرهما ــ مع غيره من العلماء من أمثال ماريت Marett ولوى Lowie ورادين Radin ــ على اساس المشاعر والحالات الانفعالية كالكراهية والجشع والحب والخوف والرهبة وما الى ذلك . ثم نجد من الناحية الثالثة ايفانز بريتشارد E.E. Evans-Pritchard وهو تلميذ مباشر لمالينوفسكى يقف موقفا معاديا تماما لعلم النفس على عكس أستاذه ، ويرى أن التأويلات التى تعتمد على علم النفس يداخلها كثير من الخلط وعدم الترابط ، كما ان فيها كثيرا من اللغو والهراء (٩) .

ويبدو ان التشكك في أهمية العلوم الانسانية ــ او بعضها على الاقل ــ يتعدى دائرة المشتغلين بهذه العلوم أنفسهم الى غيرهم من المفكرين والعلماء ، كما يبدو أن موجة الشك تبلغ ذروتها بالنسبة لعلم النفس بالذات الذى أثير حوله كثير من السخرية والتهكم اللاذعين وبخاصة فيما يتعلق بمناهجه وطرق البحث فيه ، وهى مناهج وطرق تهدف الى توكيد الناحية « العلمية »

---

(٨) يظهر هذا الاتجاه بوضوح فى كتابات مالينوفسكي الأولى حيث حاول تفسير الكبت والصراع اللذين يظهران فى العائلة الأوروبية نتيجة لوطأة الحضارة الحديثة بالاستعانة بالتحليل النفسي وكتابات فرويد ومدرسته ، كما يظهر أيضا فى كتابه عن « الجنس والكبت فى المجتمع الهمجي Sex and Redression in Savage Society » وان كان عارض فيه التفسيرات الفرويدية وبيّن عدم انطباقها على المجتمعات البدائية وبخاصة المجتمعات الأمومية Matrilineal . وعلى اى حال فقد نبذ مالينوفسكي فى كتاباته المتاخرة هذه الاتجاهات وبخاصة نظريات التحليل النفسي التي يصفها بانها نظريات فاحشة مسرفة ، وان حججها واهنة غامضة كما أنها تستخدم ألفاظا ومصطلحات معقدة . انظر فى ذلك الجزء الأول من كتابنا عن « البناء الاجتماعي » ــ المرجع السابق ذكره صفحتي ١٠١ ــ ١٠٢ .

(٩) انظر ترجمتنا لكتاب : ايفانز بريتشارد : الأنثربولوجيا الاجتماعية ، منشاة المعارف ، الاسكندرية ، (الطبعة الأولى ١٩٥٨) صفحة ٧٥ . ويأسف ايفانز بريتشارد حين يرى أن « المصير الذى لاقاه العلماء السابقون لم يردع الأنثربولوجيين المحدثين ــ وبخاصة فى أمريكا ــ عن محاولة صياغة النتائج التي وصلوا اليها فى ذلك الخليط من علم النفس السلوكي والتحليل النفسي ، وهو ما يطلق عليه اسم سيكولوجيا الشخصية أو سيكولوجيا الدوافع والاتجاهات (صفحتا ٧٥ ــ ٧٦) وهو يرى ، على العموم ، أن كلا من علم النفس والأنثربولوجيا يدرس نوعا خاصا به من الظواهر وأن ما يدرسه احدهما لا يمكن فهمه على أساس النتائج التي توصل اليها الآخر . وحتى يدرسان نفس الافعال فى السلوك الواقعي فانهما يدرسان تلك الأفعال على مستويات مختلفة من التجريد . (صفحة ٧٦) .

فيه وتقريبه من العلوم الطبيعية . وكثيرا ما تعرض لهذه السخرية أساطين علم النفس والتحليل النفسى من امثال بافلوف وفرويد . ولقد كان بافلوف بالذات موضعا لسخرية برناردشو في روايته « زنجية تبحث عن الله The Black Girl in Search of God » حيث يسخر شو من تجارب بافلوف المشهورة حول الافعال العكسية الشرطيـة . وبصرف النظر عن مدى جدية برناردشو فى نقده وتهكمه وعن مدى فهمه لتجارب بافلوف ، فالمهم هنا هو عنصر التشكيك وما يلقيه من ظلال قاتمة على هذا العلم فى اذهان الكثيرين من الناس ـ بل والاذكياء منهم ـ الذين قد يخطئون ادراك الغرض من اجراء التجارب العلمية . فعلى الرغم من ان بافلوف يعتبر من اعظم علماء النفس فان شو يظهره على انه امير العلم الزائف ، وان كل ما فعله فى العلم هو انه اضاع خمسة وعشرين عاما من عمره فى اجراء تجارب غريبة على الكلاب لجمع المعلومات التي يقيم عليها نظريته البيولوچية حول اذا ما كان اللعاب يسيل من فم الكلاب حين تتعرض لبعض المنبهات والمثيرات مثل رؤية الطعام أو شم رائحته وسماع بعض الكلمات أو الاصوات فى أثناء ذلك ، وكمية ذلك اللعاب مقدرة بعدد القطرات التى تتساقط من الفم ، وانه بذل كثيرا من الجهد والوقت في فتح أدمغة عدد لا يحصى من الكلاب وعمل ثقوب وفتحات فى افكاكها وخدودها لكى يسيل اللعاب منها بدلا من ان يسيل من طرف اللسان وهكذا .. وتسأل الفتاة الزنجية البسيطة بافلوف « لماذا لم تسألنى أنا ؟ لقد كان بوسعى أن أجيبك على ذلك في خمس وعشرين ثانية دون أن تضطر الى تعذيب كل هذه الكلاب المسكينة » ويستنكر بافلوف السؤال وينعى على الفتاة جهلها وقصر عقلها ، فقد كان يعرف تلك الحقيقة عن سيل اللعاب طيلة الوقت ، ولكنه لم يكن برهن عليها تجريبيا في المعمل وبذلك لم تكن هذه الحقيقة معروفة على المستوى العلمى من قبل . « لقد وصلتنى كنوع من التخمين الفج ولكننى أوصلتها للاخرين كحقيقة علمية (١٠)

ونفس تسمية « العلوم الانسانية » بهذا الاسم يثير كثيرا من الجدل والبلبلة نظرا لانه يجمع بين مجالين مختلفين تماما من مجالات المعرفة ، سواء من حيث الموضوع او المنهج او أساليب الدراسة ويشبه احد كبار علماء الانثربولوچيا المعاصرين ، وهو الاستاذ روبرت ردفيلد Robert Redfield الوضع في أمريكا ، على الاقل ، بمأدبة ضخمة تضم مختلف المعارف والتخصصات ، وقد جلست العلوم الاجتماعية أو الانسانية والى يمينها العلوم الطبيعية والبيولوچية والى يسارها الانسانيات ، وفى الوسط تماما يجلس علم الاجتماع وعلم السياسة اللذان لا يكادان يدخلان فى اية علاقة رسمية مع جيرانهما على كلا الجانبين ، بينما يظهر علم النفس الى اليمين بالقرب من العلوم الطبيعية والبيولوچية وان كان يبدو رغم ذلك غير واثق تماما مما اذا كان يتعين عليه أن يقوى علاقاته وصلاته بالبيولوچيا أو بالعلم الاجتماعى ، بينما تعمل الجغرافيا جهدها للتقريب بين بعض الدراسات الاخرى التى تهتم بالجنس البشرى من ناحية والارض من ناحية أخرى . أما الانثربولوچيا فانها تجد نفسها في موقف غريب وفريد . فهى ترسل مندوبين عنها يمثلونها في « مجلس البحوث للعلوم الاجتماعية Social Science Research Council » كما ان لها مقعدا محجوزا بين علماء

---

(١٠) Eysenck, op. cit., PP. 231-232

البيولوجيا والفلك فى « مجلس البحوث القومي National Research Council» بالاضـافة الـى تمتعها بعضوية « المجلس الامريكي للجمعيات الثقافية »American Council of Learned Societies حيث تشارك فى أعمال المشتغلين بالفنون والآداب.

وأيا ما يكون نظام توزيع المقاعد وترتيب الجلوس فانه لا يساعد على تبادل الحديث والراى بين هذه العلوم . فالعلماء الاجتماعيون على العموم يديرون ظهورهم للمشتغلين بالانسانيات الذين يجلسون الى يسارهم ، مثلما يدير العلماء الطبيعيون على العموم ظهورهم للاجتماعيين . وتوزيع المقاعد بهذه الطريقة يعبر فى الحقيقة عن مواقف واتجاهات معينة تعكس نوعا من تفاضل المكانة والمنزلة بين مختلف التخصصـات ، وبالتالى ترتيب هذه التخصصات فى مراتب عليا أو دنيا بالنسبة لبعضها بعضا . فبعض التخصصات يعتبر « اصعب » من البعض الآخـر وبالتالي افضـل منها وأعلى مركزا . وقد يكون المقصود بذلك صعوبة بعض هذه العلـوم او التخصصات على الفهـم وكذلك اعتمادها على الرياضيات ، وهذا هو السبب فى تميز علم الاقتصاد على بقية العلوم الانسانية . ولكن كثيرا ما تكون « الصعوبة » مرتبطة فى أذهان الناس بنفس طبيعة العلم ومجاله والموضوعات التي يبحث فيها . وهذا هو السبب فى اعتبار العلوم الطبيعية والبيولوجية اصعب من غيرها . ومن هذه الناحية بالذات ، وعلى هذا الاساس ، تعتبر الانسانيات ، كالادب والفنون « اسـهل » الدراسات والتخصصات ، بينما تعتبر الانثربولوجيا « أصعب » وبالتالى ، أعلى مركزا ومكانة من علم الاجتماع نظرا لأن لها ـ أو لبعض فـروعها على الاقل ـ صلة بالبيولوجيا ، وهكذا . والمهم هنا هو أن « العلماء » والمتخصصين فى دراسة « الكائنات البشرية فى ذاتها » لا يشعرون على العموم بانتمائهم الى فئـة « العلماء » بالمعنى الدقيق الضيق للكلمة ، وانه لا يدخل من بين المشتغلين بالعلوم الانسانية فى تلك الفئة سوى علماء الانثربولوجيا ، وربما كان ذلك ـ حسب تعبير ردفيلد اللاذع : « لان لهم صلة بدراسة الجماجم » (١١) .

ولقد ترتب على ذلك الموقف الوسـط الذى تقفـه العلوم الانسـانية بين العـلم الطبيعي والانسانيات أن وجدت نفسها فى شبه عزلة عن كلا الفئتين من المعارف والتخصصـات . وأدى هذا نفسه الى تخبط المشتغلين بهذه العلوم فى اختيار الطريق التي يسلكونها وان كان ثمة ميل قوى واضح للارتباط بالعلوم الطبيعية واتباع طريقها . ورغم طول المناقشات والجدل فلا تزال المشكلة قائمة ، وهى مشكلة تتعلق بالمناهج فى المحل الاول وتثير كثيرا من الخلاف والشـقاق وبخاصـة بين الاجتماع والانثربولوجيا . وسوف نعرض هنـا لجانب من تلك الخلافات والجهود التى بذلت ـ ولا تزال تبذل ـ لحل المشكلة لكى نتبين الى أى حد أفلحت هذه الجهود فى حلها أو فى زيادتها تعقيدا .

ـ ٢ ـ

وجزء كبير من مسئولية قيـام هذه الأزمة يقع على عاتق العلوم الانسانية ذاتها لترددها فى

---

(١١) Redfield, R., « Social Science Among the Humanities», in Id: **Human Nature and the Study of Society**, Chicago 1962, Vol. I, PP. 42-44.

تحديد مجالات تخصصاتها بدقة واتباع مناهج خاصة محددة فى الدراسات والابحاث التى تقوم بها، ثم فى تحمسها آخر الامر لطرق البحث الخاصة بالعلوم الطبيعية ومبالغتها فى تطبيق هذه المناهج والطرق على الظواهر التى تقوم هى بدراستها ، اعتقادا منها ان ذلك سوف يرتفع بها الى المستوى الرفيع من الدقة والتقدم الذى أحرزته العلوم الطبيعة والبيولوجية . ومع ان هذا الاتجاه ساعد بالفعل على تحقيق نتائج طيبة فى بعض المجالات وبخاصة فيما يتعلق بامكان قياس بعض الظواهر الاجتماعية والنفسية على ما سنرى فيما بعد،فانه ادى من الناحية الاخرى الى ابتعاد العلوم الانسانية عن موضوعها الاساسى ، وهو فهم الانسان والمجتمع فهما يجمع بين الدقة والعمق والشمول . وبقول آخر،فان جزءا من الازمة الحالية ناشىء من محاولة تلك العلوم الاقتراب من العلوم الطبيعية والتشبه بها ، او على الاصح الطريقة التى تسلكها فى ذلك. وتظهر هذه المحاولة للتشبه فى ابسط مظاهرها فى اصرار « العلوم » الانسانية على ان تطلق صفة « العلم » على نفسها وموضوعات تخصصها على ما نجده فى « علم » الاجتماع او السوسيولوچيا ، و « علم » الانسان أو الانثربولوچيا و « علم » النفس و « علم » الاقتصاد . بل ان الناس لم يعودوا يتكلمون عن السياسة او فلسفة السياسة وانما عن « علم » السياسة،او «العلم» السياسى Political Science فالتشبه بالعلم واضح اذن . وليس المقصود بذلك هو دراسة الظواهر الانسانية المختلفة دراسة موضوعية منزهة عن الميول والاهواء والتحيزات ــ وان كانت هناك اعتراضات على امكان تحقيق هذه الموضوعية او حتى جدواها ــ وانما المقصود هو التمسك الشديد بتطبيق اساليب وطرق البحث المتبعة فى العلوم الطبيعية على ما ذكرنا . وقد ارتبط هذا كله بطبيعة الحال بالاتجاه نحو التخصص الضيق ، تمشيا مع مقتضيات العلم الحديث وما يؤدى اليه هذا التخصص الضيق من تفتيت لموضوعات الدراسة بحيث ينتهى العالم الى ان يعرف اكثر واكثر عن اشياء اقل فأقل . وليس ثمة ما يعيب التخصص الدقيق ما دام يؤدى الى البحث العميق . فكل ما حققته العلوم الطبيعية والبيولوچية من تقدم يرجع الى التخصص الضيق . ولكن التخصص الضيق فى العلوم الانسانية ادى الى انحصارها فى دراسة موضوعات جزئية وابتعادها عما هو « انسانى » وانفصالها عن احداث العالم والحياة ، وهو ما يؤخذ الآن بشدة عليها وعلى المتخصصين فيها .

ويختلف هذا الموقف اختلافا كبيرا عن تصور العلماء الاوائل لمجال ورسالة العلوم الانسانية بعامة وعلم الاجتماع بخاصة . وربما كان سبب ذلك هو اختلاف الظروف والاوضاع التى لابست نشأة علم الاجتماع عن الظروف التى يعمل فيها العلماء الحاليون . والواقع ان الرعيل الاول من علماء الاجتماع لم يكونوا «اكاديميين» بالمعنى الشائع الآن للكلمة ، بل ان الكثيرين منهم كانوا غرباء تماما عن الحياة الاكاديمية الضيقة ولا ينتمون اليها . ويعتبر بوخولتز Buchholz وكونث نفسه وهربرت سپنسر Herbert Spencer من افضل الامثلة لذلك النوع من العلماء . لقد كان بوخولتز صحفيا حرا وناقدا ، وكان كارل ماركس ، الذى يطلق عليه « اليهودى غير المتهود » اقتصاديا وفيلسوفا وعالم اجتماع ومؤرخا ومصلحا اجتماعيا ومفكرا ثوريا . بل ان بعض العلماء الاوائل الذين اشتغلوا فعلا بالتدريس مثل فرديناند تونيز F. Tonnies وماكس ڤيبر Max Weber وزيمل Simmel ودوركايم وغيرهم كانوا بطبيعة تكوينهم العقلى والثقافى الواسع غرباء ، نسبيا ، على الحياة الاكاديمية الضيقة ، ولم يكونوا يحتملون فكرة « الاستاذ » او « المعلم » بالمعنى الضيق

للكلمة الـذى يحصر صاحبه فى حـدود تخصصه بحيث يغرق فيـه تمامـا . وعلى الرغم من كل الاضافات التى اضافوها لعلم الاجتماع فانهم لم يحصروا انفسهم فى ذلك الفرع وحده من فروع المعرفة ، بل ان معظم الفضل فى اسهامهم المتنوع العميق فى علم الاجتماع يرجع الى تلك النظرة الواسعة المتعمقة(١٢) . كذلك كان الحال بالنسبة لعلماء الأنثر بولوجيا الأوائل ، اذ كان سير هنرى مين Sir Henry Maine وماكلينان Mac Lenan وباخوفن Bachofen ولـويس مورجـان Lewis Morgan يشتغلون بالمحاماة ، وكان فوستيل دوكولانج Fustel de Coulanges مؤرخا للعصور الكلاسيكية الوسطى ، وكان تايلور E. Tylor من المهتمين بدراسة اللغات الاجنبية ، وكان وليام روبرتسون سميث W. Robertson Smith راعيا فى الكنيسة الاسكتلندية ومتخصصا فى دراسات العهد القديم كما كان سير جيمس فريزر Sir James Frazer متخصصا فى الآداب الكلاسيكية ، وهكذا(١٣) . ومن هنا جاءت نظرتهم الى الظواهر الاجتماعية والانسانية التى يدرسونها نظرة شاملة واسعة تتعدى فى العادة حدود المجتمع المحلى الضيق الـذى يعيشون فيـه ، وتحاول الاحاطة بقدر الامكان بالانسانية ككل وان كان ذلك لا يخلو من مثالب .

والظاهر ان ذلك كان هو الطابع الغالب على معظم العلـوم الانسانية . فلقـد كان المؤرخـون يهتمون فى المحل الاول بالتاريخ العالمى ككل اكثر من اهتمامهم بالتاريخ القومى، ويظهر هذا واضحا فى كتابات آدم سميث وهيجل وماركس وبوركهارت Purkhardt ورانكه Ranke ، ولا زلنا نجد رواسب ومخلفات هذا الاتجاه فى كتابات توينبى Toynbee . ولقد كان لورد أكتون Lord Acton يطلب من تلاميذه من طلبة التاريخ ان يدرسوا « المشكلات التاريخيـة » التـى هـى فى صميمهـا « مشكلات انسانية » ولا يقتصروا على دراسة العصور التاريخية التى كان يعتبرها دراسة ضيقة محدودة الافق ، كما كان كولنجوود Collingwood يوصى تلاميـذه فى علـم الآثار بأن يدرسـوا المشكلات لا الأماكن الأثرية (١٤) . وليس من شك فى انه كان للاوضاع العامة السائدة ، حينذاك، دخل كبير فى اتخاذ ذلك الموقف . فالتغيرات السريعة الهائلة نسبيا والتطورات المتلاحقة التى صاحبت تحول المجتمع الاوروبي فى عصر الانقلاب الصناعى على ما رأينا كانت تتطلب من المشتغلين بالعلوم الانسانية ان يحيطوا بكل هذه التغيرات واسبابها ، وان ينظروا الى العالم المتغير نظرة شاملة لا تتوافر الا لمن يقف ــ ولو جزئيا ــ خارج اسوار الحياة الأكاديمية العالية الضيقة المحكمة ، وهو ما كان يتوافر بالفعل فى هؤلاء العلماء .

ويعتبر علماء الاجتماع الأميركيون وعلماء الأنثربولوجيا البريطانيون مسئولين فى المحل الأول عن ذلك الاتجاه نحو التخصص الضيق ، وبالتالى نحو النظرة الضيقة فى اثنين من اهـم العلوم الانسانية . وساعد على ذلك ظهور النزعـة الوظيفية فى التفسير الاجتماعى بعد أن انحسرت موجة التأويلات التطورية التى كانت تسود فى القرن التاسـع عشر نتيجة لما وجهه العلماء المحدثون لتلك

---

(١٢) Gerth & Landau; op. cit., PP. 26-27

(١٣) ايفانز بريتشارد : الأنثربولجيا الاجتماعيـة ، المرجع السابق ذكره ، صفحتا ١١٠ ــ ١١١ .

(١٤) ايفانز بريتشارد : المرجع السابق ذكره صفحة ١٣٠ .

التأويلات من انتقادات وطعون . فلقد بدات الولايات المتحدة الامريكية بعد الحرب العالمية الاولى تحتل مكانة مرموقة فى المجتمع العالمى وتفرض نفسها وثقافتها على العالم بأسره ، بحيث يمكن القول مع جيرت ولاندو انه بدأ عصر جديد فى تاريخ العالم هو عصر الولايات المتحدة (١٥) الذى يتميز بالسيطرة الأمريكية ليس فقط فى الميدان الاقتصادى أو السياسى ، بل وايضا فى مختلف ميادين العلم . وقد دخل علم الاجتماع الأمريكي بالذات مرحلة جديدة لها خصائصها واتجاهاتها المميزة التى تتعارض تمام التعارض مع الاتجاهات القديمة . فبينما كان العلماء الاوائل يهتمون بدراسة الابنية العالمية اخذ العلماء الأمريكيون يركزون اهتماماتهم على دراسة المجتمعات المحلية ، او المشاكل الجزئية المحددة ، وظهر بذلك ما يعرف على العموم باسم علم الاجتماع البيئى الذى يهتم بدراسة الوسط أو المجتمع المحلى ، وذلك على يد روبرت بارك Robert Park فى شيكاغو منذ العشرينيات من هذا القرن . وازاء هذا الاتجاه الامبريقى الجديد بدأ علم الاجتماع بصورته القديمة التى كانت مألوفة فى القرن التاسع عشر والتى يمثلها علماء من امثال كونت وسبنسر ودوركايم يختفى بالتدريج واعتبرت نظرياته مجرد نظرات ميتافيزيقية على احسن الفروض . ثم اخذ الاتجاه نحو التخصص الضيق يزداد وضوحا ، ولم يعد السوسيولوچى بذلك مجرد متخصص فى علم الاجتماع فحسب ، ولكنه اصبح متخصصا فى فرع محدد بالذات مثل سوسيولوچيا العائلة ، او سوسيولوچيا الرأى العام ، او سوسيولوچيا المعرفة او العلاقات السلالية ، وما الى ذلك . ولم تعد الاولوية فى الدراسات والبحوث الاجتماعية الحديثة تعطى لاختيار المشكلة التى يراد بحثها او لنوع المعلومات التى يراد جمعها ، وانما اصبحت الاولوية تعطى لطرق واساليب البحث التى يمكن استخدامها او الاستعانة بها فى جمع المعلومات وترتيبها وتبويبها وتحليلها . واختفى بذلك الى حد كبير ما كان رايت ميلز Wright Mills يسميه بالمخيلة الاجتماعية Sociological Imagination واصبحت تلك (المخيلة) تعتبر مسألة غير عملية وغير علمية على السواء ، كما اختلفت النظرة الى الكثيرين من العلماء الامركيين الأفذاذ الذين اسهموا اسهاما له قيمته ووزنه فى التفكير الاجتماعى النظرى فى أمريكا ذاتها من أمثال بيتيريم سوروكين Pitirim Sorokin فأصبح العلماء الامبريقيون يعتبرونهم متخلفين وتقليديين ويصفون آراءهم بأنها آراء عتيقة وبالية، كما كادت اسماء كونت وسبنسر ودوركايم وغيرهم من علماء الاجتماع الكلاسيكيين تتوارى وتسقط فى زوايا النسيان والاهمال ، ولم يعد يرجع الى كتاباتهم سوى قلة ضئيلة من المتخصصين المتعمقين، ولاسباب تاريخية فقط فى الاغلب(١٦) .

ولقد شاركت الأنثربولوچيا الاجتماعية فى بريطانيا مشاركة فعالة فى تعميق هذا الاتجاه ودفعه الى الامام . ولقد فرضت طبيعة الدراسات الانثربولوچية ذاتها ذلك الاتجاه على العلماء والباحثين . فحين ظهرت الانثربولوچيا الحديثة كعلم متميز وجهت كل اهتمامها الى دراسة الأشكال البسيطة من التجمعات الانسانية التى اصطلح على تسميتها بالمجتمعات البدائية ، وهى بحكم الواقع جماعات صغيرة ومنعزلة بعضها عن البعض الآخر الى حد كبير ، وبذلك لم يكن ثمة بد امام الأنثربولوچيين

---

(١٥) Gerth & Landau, op. cit., p.29

(١٦) Ibid, pp. 29-30

من قصر جهودهم فى الوقت الواحد على دراسةمجتمع واحد من هذهالمجتمعات الصغيرة المنعزلة بكل ما فيه من احداث ونظم وقيم وما يطرأ عليه من تغيرات وتطورات سريعة متلاحقة،وكانتطبيعة المنهج الأنثربولوجىتضطر الباحث الى الاقامة فترة طويلة من الزمن فى الجماعة التى يدرسها حتى يتسنى له جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات الدقيقة التفصيلية ، ويحيط بكل مظاهر الحياة ويتعرف على العلاقات الاجتماعية المتشابكة التىتؤلف نسيج البناء الاجتماعى هناك . وحتى بعد أن اتسع مجال البحوث الأنثربولوجية وامتد الىالمجتمعات الاكثر تقدما وتعقدا ظلالأنثربولوجيون مخلصين الى حد كبير لطريقة البحث التقليدية ، ولذا فانهم يحرصون علىاختيار الجماعات الصغيرة المحدودة كي يتمكنوا من دراستها دراسة تفصيليةمركزة . وعلى ذلك فان الجهود الضخمة التى كانت تبذل فى القرن التاسع عشر للوصول الى نظريات عامة تصدق على المجتمع الانسانى بأسره وفى مختلف صوره اخذت تقل وتتضاءل وتختفى بالتدريج ، لتحل محلها دراسات وبحوث اقل طموحا واقل اعتمادا على التفكير النظرى البحت . كان علماء القرن التاسع عشر يهتمون ببحث المسائل العامة الواسعة مثل المعنى الاجتماعىللدين . اما العلماء المحدثون -او المعتدلون منهم على اى حال - فانهم يفضلون دراسة الموضوعات الاكثر تحديدا مثل الدور الذى تلعبه عبادة الاسلاف فى النسق الاجتماعى الذى يقوم على نظام البدنات المنقسمة فى بعض المجتمعات الافريقية. ولم يعد الأنثربولوجى الحديث يحاول رسم صورة عريضة شاملة لتطور فكرةالمسئوليةمثلا او تطور الدولة عند الجنس البشرى كله،وبدا يقنع بفحصمشكلاتمعينة بالذات وملاحظتها بطريقة مباشرة، كأن يدرس مثلا العداوة او مركز الرئيس فى احد النظم السياسية بالذات ، وذلك بالاشارة الى المجتمعات التى تؤثر فيها العداوة او الرياسة تأثيرا واضحا فى بقية النشاط الاجتماعى . كذلك لا يحاول الباحث الأنثربولوجى المعاصر أن يزج بنفسه فى المناقشات النظرية العامة مثلالبحث فيما اذا كانت المجتمعات البدائية تنزعنحو الشيوعية او الفردية ويتجه بدلا من ذلك الى دراسة كل انواع الحقوق الجماعية الفردية او الخاصة المتعلقة مثلا بملكية الارض او الماشية او غيرها فى مجتمع معين بالذات ، وذلك لكى يحدد نوع العلاقات القائمة بين كل هذه الحقوق من ناحية وعلاقتها كلها بالانساق الاجتماعية التى تتأثر بها مثل نسق القرابة والنسق السياسى والنسق الشعائرى وما اليها من ناحية اخرى(١٧) . يضاف الى ذلك عامل آخر حاسم كان له اثره فى اتجاه الأنثربولوجيا هذه الوجهة « العلمية » أو الامبريقية الجديدة ، واعنى به نوعية علماء الأنثربولوجيا فى بداية القرن العشرين وطبيعةتخصصاتهم الاصلية ، فاذا كان العلماء الاوائل من امثال مورجان وماكلينان وفريزر وروبرتسون سميث قد تخصصوا فى الاصل فى الدراسات الانسانية والانسانيات ، كالقانون والفلسفة واللغات الكلاسيكية على ما راينا ، فان الكتاب الذين خلفوا من بعدهم كانوا فى الاغلب من العلماء الطبيعيين . فقد كان هادون Haddon مثلا عالما فى الحيوانات البحرية ، وسلجمان Seligman متخصصا فىعلم الأمراض (الباثولوجيا) ،واليوت سميث G. Elliot Smith من علماء التشريح ، وبالفور Balfour من علماء الحيوان ، ومالينوفسكى وبواز Boas من علماء الفيزياء ، وهكذا . وكان لهذا اثره بغير شك فى الاتجاه نحو

---

(١٧) ايفانز بريتشارد : المرجع السابق ذكره ، صفحة١٣٦

الدراسات الحقلية التى تعتبر الآن الخاصـة المميزة للدراسات الانثربولوجية (١٨) . ولقد ادى هذا الاتجاه الأمبريقى خدمات جليلة للعلم . فقد ساعد مساعدة فعالة على تطوير وتهذيب ادوات البحث العلمى ، مما أدى فى النهاية الى تحقيق درجة عالية جدا من الدقة والضبط فى النتائج . كما ساعد على امتداد اهتمام العلماء والباحثين الى أنماط من الحياة الاجتماعية لم يكن يخطر ببال العلماء السابقين دراستها ، مثل دراسة المناطق السكنية المتخلفة فى المدن الحديثة او عصابات اللصوص ومحترفى الجريمة أو مدمنى المخدرات والثأر او مجتمعات المقاهى والنـوادى الليلية ، وما الى ذلك من الجماعات الصغيرة المحدودة أو المشكلات الاجتماعية المحدودة . الا أن المبالغة فى هذا الاتجاه الأمبريقى ـ أو على الاصح الاقتصار عليه ـ كانت له بعض النتائج الضارة التى تتمثل بوجه خاص فى تقسيم المجتمع الى قطاعات متمايزة للتمكن من القيام بالدراسات المركزة ، وفصل هذه القطاعات عن المجتمع القومى ، فضلا عن المجتمع الانسانى ، وكان لهذا اثـره فى انصراف العلوم الانسانية ، تدريجيا ، عن رؤية المجتمع والانسان فى عمومهما كما ذكرنا من قبل .

وليس المقصود بذلك هو الاعلاء من شأن الدراسات العامة الشاملة أو اعطاءها من الاهمية والتقدير اكثر مما تستحق . فلقد كان لهذه الدراسات التحليلية الشاملة عيوب كثيرة واضحة ، وبخاصة في القرن التاسع عشر حين لجأ كثير من العلماء التطوريين الى افتراض حدوث امور لـم تحدث بالفعل فى تاريخ الانسانية (١٩) . ولكن مهما يكن من شأن هذه العيوب فانه يبقى لهؤلاء العلماء التحليليين الاوائل الفضل في محاولة رؤية الامور في علاقاتها المتبادلة وعلى مستوى المجتمـع الانسانى كله واقامة دراساتهم ضمن بناء اجتماعى ديناميكى دائم التغير . فلقد كان كل منهم يرى العصر الذى يعيش فيه عصر أزمات وانتقال وتحول وتغير وانه يحتاج بذلك الى الالمام بكل مـا يحدث فيه ، ليس فقط على الصعيد المحلى او القومى بل على الصعيد العالمي ككل . وبذلك كان ماركس مثلا ينظر الى عصره على انه عصر انتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، وكان سبنسر من قبله يراه عصر صراع بين المجتمع الصناعى المسالم الذى يسير حسب القانون الطبيعى والمجتمع الحربى الديكتاتورى الذى يقوم على الطغيان والاستبداد ، وهكذا . وهـذه ناحيـة تفتقر اليهـا النظرة المحدثة فى معظم الاحوال ، على الرغم من ان العصر الـذى نعيش فيـه هو ايضا عصر أزمات

---

(١٨) المرجع السابق ، صفحة ١١١ .

(١٩) من أفضل الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها هنا ، ذلك النظام العقلي النظري البحت الذى اقامه لويس مورجان ليصور به تطور العلاقات الجنسية ، أو على الأصح تطـور الزواج . وتتلخص نظرية مورجان فى ان المجتمع كان يتألف فى البداية من زمرة اجتماعية بسيطة تعيش فى حالة بدائية لا تحكمها ضوابط او قوانين أو قواعد خلقية ، وبذلك كان أفرادها يحيون حياة اباحية وتحرر دون أن تكون هناك اية ضوابط تتحكم فى علاقاتهم الجنسية . ويسمى مورجان هذه المرحلة بمرحلة الاباحية الجنسية . ولم تلبث هذه الحالة أن خضعت لكثير من التنظيم بحيث نشأ عنها اشكال القرابة المختلفة فى مراحل تالية من التاريخ . وكان اول شكل فى رايه هو العائلة الدموية التي تقوم على زواج الاخوة والأخوات ، ثم تلاها ما يسميه بزواج الجماعة حيث كان الزواج يتم بين جماعة من الاخوة وعدد من النساء لا يشترط أن يكن اخوات ، أو على العكس من ذلك بين جماعة من الأخـوات وعدد من الرجال الذين لا يشترط فيهم ان يكونوا اخوة . ومن هذا الشكل ظهر شكلان جديدان هما تعدد الزوجات بالنسـبة للرجل الواحد أو تعدد الأزواج للمراة الواحدة قبل ان يظهر آخر شكل من أشكال العائلة وأكثرها رقيا فى الوقت نفسه ، وهو الذى يقوم على زواج الرجل من امراة واحدة فى الوقت الواحد . وليس هناك ما يدل اطلاقا على أن نظام الزواج مر فعلا بهذه المراحل ، كما انه لا يوجد ما يشير الى ان المجتمع الانساني عرف بالفعل زواج الجماعة .

وتغير وتحول ليس لها مثيل فى كل تاريخ الانسانية . وقيل من العلماء المعاصرين هم الذين يحاولون أن ينظروا الى عالمنا المعاصر من خلال الصراع القائم بين المثل والقيم المختلفة أو الصراع بين الانسانية والآلة التى هى احدى منجزات الانسان نفسه . وليس من شك في ان المسئول الاول عن التغير الواضح في النظرة الى موضوع علم الاجتماع وغيره من العلوم الانسانية هو الميل الشديد الى التخصص الدقيق الضيق الذى ارتبط باعتبار هذه العلوم مهنا أو حرفا واعتبار المشتغلين بها « مهنيين » أو « حرفيين » أكثر منهم مجرد مثقفين متعددى الجوانب فى ثقافتهم ونظرتهم الى الحياة والمجتمع والانسان (٢٠) . ويبدو ذلك واضحا بين علماء الأنثربولوچيا بوجه خاص . فالغالبية العظمى من بين هؤلاء العلماء يرتبط اسمهم ليس بنظريات معينة أو حتى بدراسة مشاكل انسانية عامة وانما بدراسة مجتمع محلى واحد صغير ، كما هو الحال ، مثلا ، بالنسبة لمالينوفسكى الذى يرتبط اسمه بجزر التروبرياند Trobriand Islands التى وقف عليها كل حياته وجهوده . ولم يعط صفة الشمول والعمومية لكتاباته الا بعض علماء الاجتماع الفرنسيين من ذوى النظرة الواسعة والقدرة على صياغة النظريات والوصول الى أحكام عامة كلية من تحليل المعلومات الاثنوجرافية التى جمعها مالينوفسكى ومقارنتها بغيرها من المعلومات الاثنوجرافية التى جمعها غيره من علماء الأنثربولوچيا من شتى المجتمعات . وهذا وحده هو الذى اعطى كتابات مالينوفسكى معنى ومغزى تعدت بهما الحدود المحلية الضيقة التى كانت تنحصر فيها . وما يصدق على مالينوفسكى يصدق على غيره من علماء الأنثربولوچيا الى حد كبير (٢١) .

واسنا نتوقع ، بطبيعة الحال ، من العلماء المحدثين أن يخرجو علينا الآن بدراسات عامة واسعة وشاملة تشبه كتابات فريزر أو تايلور التى تملا في العادة مجلدات عديدة كما هو الحال في كتاب فريزر « الغصن الذهبى » الذى يقع في اثنى عشر مجلدا . فلقد تغيرت الظروف التى يعمل فيها العلماء كما تغيرت طريقة التأليف العلمى عما كانت عليه في القرن التاسع عشر . ولكن الذى يؤخذ على « العلماء » المحدثين هو ابتعادهم الى حد كبير عن الانشغال بدراسة الاوضاع والحركات والنظم الاجتماعية المعاصرة والتغلغل فى معرفة اصولها واسبابها ونتائجها وتفضيلهم على ذلك الانحصار في مشكلاتهم الجزئية الضيقة . ولقد لاحظ جيرث و لاندو (٢٢) في ذلك أن مجلة علم الاجتماع الامريكية American Journal of Sociology رغم كل الازمات والشدائد التى مرت بالعالم قبل الحرب العالمية الثانية ورغم اقتراب العالم من تلك الحرب بسرعة هائلة ومخيفة لم تنشر مقالا واحدا عن الحزب النازى الا فى عام ١٩٤٠ ، اى بعد ان كانت الحرب قد نشبت بالفعل ، وأنه خلال الفترة الطويلة بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٤٧ لم يظهر فى تلك المجلة ذاتها - رغم عصريتها واهميتها بالنسبة لعلم الاجتماع سوى مقالين اثنين عن (الاشتراكية القومية)، وان فهرس المجلة التحليلى خلال خمسين سنة

---

(٢٠) Gouldner, A.W.; «Anti-Minotaur: The Myth af a Value-Free Sociology» in Stein & Vidich, op. cit, p. 45.

(٢١) انظر مقالنا عن (الطريقة الأنثربولوجية لدراسة المجتمع) ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر ، ١٩٥٦ صفحات ٨٥ - ١٠٠ .

(٢٢) Gerth & Landau, op. cit , p 31

كاملة لم يرد فيه ذكر كارل ماركس والماركسية سوى ثلاث مرات فقط بينما لا توجد فيه أية اشارة على الاطلاق الى لينين واللينينية . ولا يزال كثير من علماء الاجتماع فى امريكا بوجه خاص يغضون الطرف عن الازمات الطاحنة التى يمر بها العالم الآن والتى تتمثل بالنسبة لأمريكا نفسها فى التفرقة العنصرية وحرب فيتنام والظلم الاجتماعى الذى تتعرض له بعض فئات الشعب وانتشار الجريمة وما الى ذلك ، ويركزون اهتمامهم على نفس المشاكل التى كانوا يهتمون بدراستها من قبل ، أو يدرسون موضوعات غريبة وبعيدة عن المألوف ليجذبوا الأنظار اليهم، بينما يغفلون دراسة بعض الظواهر الهامة مثل الثورة الثقافية في الصين التى تؤثر في حياة ما لا يقل عن ستمائة مليون نسمة والتى يعتبرها كثير من المفكرين أكبر حركة جماهيرية فى تاريخ الجنس البشرى (٢٣) والمسئول الأول عن ذلك هو ـ كما ذكرنا من قبل ـ الرغبة الجامحة في محاكاة العلوم الطبيعية فى نظرتها الى موضوعات تخصصها وطريقتها في معالجة هذه الموضوعات واتباع نفس المناهج والطرق وما تطلبه هذا كله من التخصص الضيق الدقيق .

ـ ٣ ـ

ولقد كان من الطبيعى أن تمتد هذه الثورة الى كثير من النواحى التى تعتبر مسلمات اولية فى العلم والتى اقتبستها العلوم الانسانية بالضرورة حين اختارت لنفسها ان تسلك طريق العلوم الطبيعة والبيولوجية وتطبق مناهجها وتلتزم بنظرتها الى موضوعاتها . ولعل اهم ما يميز والدارسين بحيث يعتبر الحديث فى موضوعية البحوث تها للظواهر التى تعنى بها . وقد نادى العلماء الاوائل في مختلف العلوم الانسانية بالتزام الموضوعية فى دراستهم أيضا للظواهر الانسانية ، وظهرت هذه الدعوة واضحة في كتابات علماء الاجتماع الاوائل ، وتلقفتها منهم الاجيال التالية من البحاث والدارسين بحيث يعتبر الحديث فى موضوعية البحوث من اول الدروس التى يتلقاها طالب الاجتماع او الانثربولوجيا، باعتبارها شرطا اساسيا فى البحث « العلمى » الدقيق . ولقد كان اميل دوركايم ، شيخ الاجتماعيين الفرنسيين ، من أهم واكبر الدعاة بضرورة التمسك بالموضوعية العلمية لتحقيق « علمية » علم الاجتماع ، وظهر ذلك واضحا في بداية كتابه الهام عن « قواعد المنهج في علم الاجتماع» حيث تنص القاعدة الاولى على ضرورة اعتبار الظواهر الاجتماعية كمالو كانت اشياء . والمقصود بهذه الشيئية هو ـ على العكس مما كان يعتقد الكثيرون من أعداء وناقدى دوركايم ـ أن تعالج تلك الظواهر الاجتماعية بنفس الروح ونفس النظرة ونفس الاسلوب التى يعالج بها الباحث الفيزيائي او الكيميائى أو البيولوجى الظواهر التى يدرسها كل منهم في معمله . والمبدأ الهام الذى يحكم الموضوعية ويضمنها هو السعى فى طلب الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة .. وان يقول العالم الحق ولا شيء غير الحق، على حد تعبير بوبر Popper (٢٤) . وهذا معناه أن الباحث لا بد ان يكون بعيدا عن التحيز وأن يتنزه عن الميول والمصالح الخاصة أو حتى الميول والمصالح السائدة في فترة تاريخية معينة ، سواء أكانت هذه ميولا سياسية أو اقتصادية أو طبقية . ومن هنا كانت القاعدة

---

(٢٣) نفس المرجع والصفحة .

(٢٤) بوبر ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٦ .

الثانية من قواعد المنهج عند دوركايم تنص على ضرورة التخلص من كل الآراء والافكار والاهواء السابقة ونبذها . وهذا معناه في آخر الامر « ضرورة اجتناب كل وجهة انتخابية » (٢٥) ، وبالتالى الامتناع عن الوقوف موقفا نقديا او ابداء وجهة نظر معينة وعدم اصدار اية أحكام تقييمية فوظيفة العالم الاجتماعى او الانثربولوجى ـ كممثالين للمشتغلين بالعلوم الانسانية ـ هى الملاحظة والوصف والتحليل والتفسير فحسب . ولقد وجدت هذه الدعوة لتحرير العلوم الانسانية من الاحكام التقييمية صدى هائلا عند الغالبية العظمى من المشتغلين بهذه العلوم ، واتخذت الدعوة ـ على ما يقول جولدنر ـ شكل وصية اخرى تكاد تضاف الى « الوصايا العشر » وتقول «لا تصدر حكما تقييميا »، وهى وصية تمتلىء بها الآن كل الكتب المدرسية (٢٦) .

وتثير هذه الدعوة كثيرا من شكوك العلماء الشبان الآن مثلما أثارت من قبل كثيرا من المناقشات والجدل بين علماء الجيل السابق . ولكن الشكوك الحالية تتخذ شكل الازمة نظرا لحدة المناقشة وطبيعة الموضوعات التى تتعرض لها ، وهى موضوعات فيها كثير من الحساسية وتمس الحكومات وكثيرا من الهيئات الرسمية في الدول المختلفة ، كما توجه كثيرا من التهم للمشتغلين بالعلوم الانسانية . ويتساءل العلماء الثائرون عما يقصده أصحاب تلك الدعوى بالضبط من ضرورة تحرر العلوم الانسانية بعامة والعلوم الاجتماعية بخاصة من عنصر التقييم . فهل المقصود بذلك هو ان يتجنب الباحث اصدار اى حكم تقييمى على المشاكل الاجتماعية التى تعترض حياة المجتمع والتى يقوم الباحث نفسه بدراستها ؟ او هل المقصود هو تجنب التعرض بالدراسة اصلا لهذه المشاكل حتى لا يتعرض الباحث لاخضاعها للنظرة الناقدة الفاحصة واحتمال اتخاذه موقفا معينا منها وبالتالى احتمال الحكم عليها ؟ او هل المقصود هو ضرورة الترفع عن المقتضيات الاخلاقية للعلوم الانسانية وبذلك يكتفى الباحث بسرد الوقائع بأمانة مع الامتناع تماما عن استخلاص اية مبادىء من تلك الوقائع ؟ ليس هناك راى موحد ومتفق عليه من جميع العلماء حول هذه المسألة .

وهناك أسباب منهجية ، ولا شك ، وراء هذه الدعوى . ولكن على الرغم من اعتراف العلماء المعارضين بوجاهة هذه الاسباب فانهم لايغفلون مع ذلك الدوافع الاخرى الخاصة التى تكمن وراء هذه الدعوى، والظروف التى أحاطت بالعلماء الذين تبنوها ودعوا لها . وافضل مثل ذلك هو ماكس ڤيبر Max Weber باعتباره أحد كبا العلماء الذين تركوا اثرا واضحا في تاريخ الفكر الاجتماعى الحديث، كما أنه يتلقى الآن كثيرا من الطعنات التى يوجهها بعض العلماء الشبان الثائرين لانصار الموضوعية العلمية في العلوم الانسانية والمنادين بامكان التنزه عن اصدار الاحكام التقييمية في تلك العلوم . فلم تكن دعوى ماكس ڤيبر بامكان التخلص من الاحكام التقييمية ناشئة فقط من رغبته في تطبيق قواعد المنهج تطبيقا دقيقا على علم الاجتماع ، وانما كان يرى الى جانب ذلك أن هذه النظرة ترتفع بالعلوم الانسانية وبخاصة علم الاجتماع عن أن تكون أداة في خدمة السلطات الحكومية

---

(٢٥) نفس المرجع ، صفحة ١٨١ .

(٢٦) Gouldner, op. cit., p. 35.

(٢٧) Ibid, pp. 36-37

والاحزاب السياسية وتساعد الجامعة بالتالى على الاحتفاظ باستقلالها وتماسكها وابعاد أى تدخل خارجى في شئونها العلمية . فلقد كان واضحا له أن الاساتذة الذين يخرجون عن الموقف « المحايد » الذى يجب أن يتمسك به العالم في دراسته للمشكلات الانسانية والذين يعبرون فى اثناء دروسهم ومحاضراتهم عن آراء خاصة تعكس نظرة تقييمية ووجهة نظر شخصية ازاء هذه المشكلات يجذبون الى محاضراتهم أعدادا من التلاميذ أكبر مما تجذب محاضرات الأساتذة « المحايدين » أو «الموضوعيين» . وكان التعبير عن الآراء الشخصية في الجامعات الالمانية يتخذ وسيلة للتنافس بين الاساتذة وبالتالى تحقيق المكاسب الشخصية وبخاصة المكاسب السياسية ، ولذلك كان ڤيبر يرى في التمسك بالموضوعية الخالصة وسيلة للقضاء على ذلك الاتجاه الخطير الذى كان يهدد الجامعة والحياة العلمية السليمة . يضاف الى ذلك أن التعبير عن الآراء الشخصية في مشكلات المجتمع والانسان أمام الطلاب قد تكون له نتائج خطيرة على تفكيرهم ، اذ قد يتخذ شكل ما يعرف الآن باسم عملية « غسل المخ » ، خاصة وأن الطلاب في المراحل الاولى من حياتهم الجامعية لا يكونون على درجة من العلم والثقافة والقدرة على فحص الآراء وتحليلها بطريقة نقدية ، وبذلك يتقبلون ما يلقيه عليهم اساتذتهم كقضايا مسلم بها ، وفي ذلك خطورة بالغة على التفكير الشخصى وبالتالى على حرية التفكير اذ يخرج الطلاب نسخة مكررة من استاذهم . والأغلب ان ڤيبر كان في هذا كله يحارب التعبير عن القيم السياسية بالذات وليس القيم الجمالية أو الدينية ، او هو على الاقل لم يعارض بنفس العنف والقوة مناقشة شئون الفن والدين والتعبير عن الرأى فيها بصراحة . فلقد كان همه الاول هو الابتعاد بالجامعة عن الخصومات السياسية التى كانت ناشبة في المانيا على أيامه ، واعتقد أن الجامعة حين تنأى بنفسها عن مثل تلك المعارك تستطيع أن تؤدى رسالتها على أكمل وجه كما يستطيع اساتذتها ان ينصرفوا بكل جهودهم الى العمل الاكاديمى الخالص الذى يجب أن يقفوا حياتهم عليه وحده . يضاف الى ذلك أن مناقشة الشئون السياسية تخضع دائما ـ فى نظر ڤيبر ـ لكثير من القيود والمؤثرات والضغوط ، وبذلك لا يمكن أن تكون حرة بالمعنى الصحيح للكلمة ، ولذا فقد يكون من الخير الامتناع عن مناقشتها أصلا . « فالكبت الذاتى » القائم على امتناع الشخص من تلقاء نفسه عن مناقشته هذه الأمور هو افضل طريقة لتجنب التعرض للقمع الخارجى . الا أن العلماء الشبان ينعون على ڤيبر هذه السلبية ويرون أن شأنه في هذا الموقف شأن من يرى أن الانتحار هو أفضل وسيلة لتجنب التعرض لخطر القتل ، وان النتيجة المحتومة لهذه السلبية هى ابعاد الجامعة تماما عن احدى وظائفها الاساسية ، وهى محاولة اكتشاف الاهداف الرئيسية للحياة الانسانية عن طريق حرية المناقشة والجدل (٢٨)

والواقع أن هناك من الشواهد ما يبرر موقف التشكك الذى يقفه العلماء الشبان الآن من مسألة موضوعية البحث فى العلوم الانسانية . ذلك أن الحكومات كثيرا ما تتدخل فى توجيه البحوث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتحدد موضوعات معينة بالذات تعطيها أولوية مطلقة ، وتطالب العلماء بدراستها قبل غيرها من المشاكل التى قد تكون اقرب الى ميول هؤلاء العلماء ،

(٢٨) Gouldner, op. cit, pp. 38- 41

كما أن تمويل معظم الدراسات والبحوث فى الوقت الحاضر يأتى من مصادر حكومية أو شبه رسمية على العموم . واعتماد العلماء فى هذه المجالات على الهيئات الرسمية يفرض بلا شك قيودا معينة على آراء الباحثين والعلماء فى المشكلات التى يدرسونها . وكثير من العلماء والباحثين فى مختلف الدول هم فى الحقيقة مجرد « موظفين » فى الادارات الحكومية ، يقتصر نشاطهم العلمي على دراسة المسائل التى تعينها لهم الدولة أو الادارة الحكومية التى ينتمون اليها . وثمة فارق كبير بغير شك بين أن تسهم الحكومات والشركات فى الانفاق على البحوث التى يقوم بها العلماء حسب رغباتهم الشخصية وبدون تدخل من تلك الحكومات والشركات من ناحية ، وأن تقوم هيئة معينة بتحديد مشكلة معينة وتختار لدراستها باحثين معينين تقوم بالانفاق عليهم فى أثناء مدة البحث والدراسة . فمعظم الدراسات والبحوث التى تدخل فى هذه الفئة الاخيرة انما تجرى لخدمة أغراض معينة ، ولذا فهي تخضع فى كل خطوة من خطواتها لتدخل تلك السلطات ورقابتها وتوجيهها مما قد يؤثر فى النتائج التى تصل اليها . بل ان الكثير من هذه الدراسات الاجتماعية والأنثربولوجية والسياسية والاقتصادية يتم بتوجيه ادارات المخابرات فى الدول المختلفة . والمثل الذى يفرض نفسه هنا بقوة هو وكالة المخابرات المركزية (C.I.A.) فى أمريكا التى تنفق اموالا طائلة على ذلك ، وتسخر أعدادا كبيرة من العلماء المتخصصين فى مختلف فروع العلوم الانسانية — وغيرها — للقيام بدراسات معينة ليس فى أمريكا وحدها بل وأيضا فى كل بلاد العالم . وقد ثارت شبهات كثيرة حول علاقة بعض الجامعات الامريكية الكبرى مثل جامعة كولومبيا ومعاهد البحوث والدراسات العليا بتلك الوكالة ، وكان ذلك من أهم الاسباب التى أدت الى ثورة الطلاب فى تلك الجامعات احتجاجا على تسخير العلوم الانسانية فى خدمة أهداف «غير انسانية» .

ومن الانصاف أن نذكر أن استعانة الحكومات بالمشتغلين بالعلوم الانسانية لتحقيق أهداف معينة ظهر بشكل واضح وعلى نطاق واسع خلال الحرب العالمية الثانية ، حين عمل بعض العلماء الانثربولوجيين وعلماء التاريخ بالذات فى المخابرات العسكرية للدول المتحاربة ، وتولى بعضهم بالفعل شئون الحكم والادارة فى المناطق التى تم فتحها ، وقاموا بعدد من الدراسات فى أثناء ذلك (٢٩) . وقد لا يكون هناك غبار فى استعانة الدولة بخبرة علمائها فى المجهود الحربي لكسب

---

(٢٩) من أهم الأمثلة على ذلك مشاركة العالم الأنثربولوجي البريطاني ايفانز بريتشارد فى حروب شمال افريقيا وتوليه منصب الحاكم العسكرى فى برقة لبعض الوقت ثم تأليفه كتابه المشهور عن السنوسيين فى برقة تحت اسم The Sanusi of Cyrenaica

كذلك اهتم عدد من علماء الأنثربولوجيا فى أمريكا لاسباب تتعلق بالدعاية والحرب بدراسة شعوب الأعداء والحلفاء على السواء ، واستعانوا فى ذلك بخبرتهم الطويلة فى دراسة المجتمعات البدائية والبسيطة ، وكذلك بخبرتهم فى تركيب الثقافات الزائلة المتداعية والتي على وشك الاندثار ، ثم ابرازها كوحدة متكاملة من المعلومات المبعثرة التي كانوا يحصلون عليها من الشيوخ الأحياء فى تلك المجتمعات . وقد قاموا بتطبيق ذلك المنهج نفسه على الشعوب المشتركة فى الحرب وبخاصة على اليابان بقصد تركيب ثقافتهم وفهم مزاجهم وطابعهم الخاص او ما يعرف عموما باسم « الخلق القومي » أو « الطابع القومي » عندهم . وقد اعتمدوا فى ذلك على الكتابات والمعلومات التي كانت فى متناول أيديهم نظرا لاستحالة القيام بدراسات حقلية مباشرة فى اثناء الحرب . وقد عرفت هذه الدراسات منذ ذلك الحين باسم « دراسة الثقافة عن بعد » . وقد اشترك فى تلك الدراسات بعض كبار العلماء هناك من امثال كلاكون Cluckhohn ومارجريت ميد Margaret Mead وجورر Gorer ومترو Metraax .

انظر فى ذلك الجزء الأول من كتابنا : البناء الاجتماعي ، المرجع السابق ذكره ، صفحتي ٢٣١ ، ٢٣٢ .

المعركة ، ولكن الامر لم يلبث أن خرج عن ذلك النطاق الى مجال استخدامهم في عمليات التجسس من أجل فرض السيطرة والنفوذ على البلاد الاخرى في زمن السلم ، وهو وضع يعتبره العلماء والمتمردون الثائرون منافيا للاخلاق . والاكثر من ذلك هو أن بعض العلوم الانسانية ، وبخاصة الأنثربولوجيا ، استعين بها في توطيد أركان الاستعمار على ما كان يحدث في المستعمرات البريطانية في افريقيا . فقد كانت الحكومات الاستعمارية تستعين بمن تسميهم بالأنثربولوجيين الحكوميين ، لاجراء دراسات خاصة بين القبائل والشعوب الخاضعة لحكمها ، وجمع معلومات حول موضوعات معينة بالذات ، لكي تسترشد بها في سياستها وادارتها لتلك المجتمعات بطريقة لا تتعارض مع القيم والنظم التقليدية السائدة هناك ، وبذلك كانت الحكومات الاستعمارية تتمكن بمعونة هؤلاء الأنثربولوجيين الحكوميين من تفادي كل ما من شأنه اثارة تلك الشعوب ، فلا تطالب بحريتها واستقلالها ، ويعتبر ذلك العمل ايضا في نظر العلماء الثائرين المتمردين منافيا الاخلاق . صحيح انه في بعض الأحيان كان يسمح لهؤلاء الانثربولوجيين الحكوميين بالقيام بالدراسات التي يرغبون هم انفسهم في اجرائها والتي تتلاءم مع ميولهم او تجيب على بعض الاسئلة العلمية التي تدور في أذهانهم ، وكذلك فحص بعض النظم التي لا تهم الحكومات بشكل مباشر مثل النظام الديني أو القرابي أو الآداب والفنون الشعبية والاساطير وما الى ذلك ، ولكن هذا كان يعتبر في العادة عملا جانبيا يقومون به حين يفرغون من عملهم الاساسي . ومما له دلالته في هذا الصدد ان نجد عالما مثل ايفانز بريتشارد الذي بدأ حياته في خدمة حكومة السودان أيام الحكم الثنائي كأنثربولوجي حكومي يقول بعد أن انتهت هذه الفترة من حياته العاملة وانصرف الى البحث الاكاديمي انه لكي « لا تضار المثل والقيم العلمية ينبغي على الأنثربولوجيين الابتعاد على العموم عن مسائل السياسية والحكم . بل انني أذهب في ذلك الى حد القول بأن الاعتماد ـ حتى في البحث الخالص عن الحقائق ـ على تعضيد الحكومات ومؤازرتها فيه شيء من الخطر على الانثربولوجيا ، كما قد يؤدي الى الصراع والتنازع بين وجهة نظر الأنثربولوجي ورأي الحكومة في مكونات البحث الأنثربولوجي . فقد يكون للأنثربولوجي شغف خاص ببعض مشكلات الدين البدائي ويود لو يقف عليها جانبا كبيرا من عنايته ، بينما تفضل الحكومة ـ والحكومات على العموم لا تهتم كثيرا بالدين ـ لو يوجه تلك الجهود لدراسة المشكلات الناجمة عن هجرة الايدي العاملة مثلا ، او قد تريد الحكومة منه أن يقصر دراسته على نظام ملكية الارض فقط عند شعب من الشعوب ، بينما يرى هو أن من الصعب فهم هذا النظام الا بدراسة كل الحياة الاجتماعية هناك . ومن الطبيعي أن ينصرف اهتمام الأنثربولوجي الى الموضوعات الانثربولوجية بغض النظر عما اذا كانت لها ـ أو لم يكن لها ـ أهمية عملية على الاطلاق ، كذلك من الطبيعي أن تكون حكومات المستعمرات مهتمة بالمشاكل العملية بغض النظر عن قيمتها النظرية . وقد نشأت صعوبات واشكالات كثيرة حول هذه المسألة » (٣٠) . ومن شأن هذا كله ان يلقي ظلالا كثيفة على ادعاء الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الانسانية بأنهم يتوخون الموضوعية في دراساتهم وبحوثهم ، في الوقت الذي يقومون فيه في الواقع بأبحاث موجهة ومغرضة ومتحيزة ، وتهدف الى تحقيق أهداف معينة ، حددتها لهم هيئات لا تتصل بالعلم ولا بموضوعية البحث من قريب أو بعيد . ولذا كان الكثيرون من العلماء المتمردين يرون في

---

(٣٠) ايفانز بريتشارد : المرجع السابق ذكره ، صفحتا ١٧٢ ، ١٧٣ .

دعوى الموضوعية العلمية فى العلوم الانسانية نوعا من النفاق العلمي الذى يجب فضحه وكشف النقاب عنه .

وليس فى هذا كله انكار لقيمة الموضوعية فى ذاتها أو لأهميتها فى البحوث العلمية اذا كان المقصود بها هو تسجيل كل الحقائق والوقائع المتصلة بموضوع الدراسة . والموضوعية بهذا المعنى لا تمنع من ابداء الرأى الشخصي فى تلك الحقائق والوقائع بعد أن يتم تسجيلها بكل دقة وأمانة ، فضلا عن أنها لا تتعارض بحال مع دراسة الاحداث الكبرى التى تؤثر فى حياة المجتمع والانسان والعالم . أما أن يمتنع العلماء عن ابداء رأيهم الصريح فى أمور حياتهم ومجتمعهم فتلك هي السلبية فى أبشع صورها ، لأنها تتصف بالانزواء والانكماش والجبن عن مواجهة الواقع ونقده وتحديه ان احتاج الامر لذلك ، وبذلك تصبح الموضوعية مرادفة لخيانة الرسالة والتراخي عن تحقيق الهدف الحقيقي للعلوم الانسانية ، وهو محاولة فهم الانسان والمجتمع من كل الجوانب وفى مختلف الابعاد والاعماق (٣١) .

وعلى أية حال فاذا كان البحث العلمي يعاني الكثير من النقص اذا لم يتمسك الباحث بالموضوعية العلمية فى دراسته للوقائع والحقائق وتحليلها فان الاضرار المترتبة على الموقف السلبي أو الموقف الحيادى المطلق كثيرة وخطيرة فى تقدير أعداء ذلك الاتجاه ، خاصة أن المبالغة فى تحاشى نقد ما يحدث فى المجتمع وتقويمه قد يودى فى آخر الامر بالمجتمع كله . وللعلوم الانسانية فى ذلك عظة وعبرة بما حدث فى العلوم الطبيعية ذاتها . فقبل الحرب العالمية الثانية كان الرأى السائد فى العلوم الطبيعية ينادى بضرورة التمسك بالموضوعية العلمية المطلقة مع عدم التقيد بالقيم الانسانية على اعتبار أن العلم لا ينبغي له أن يخضع لأية أحكام تقويمية . وظل الحال كذلك حتى القيت القنبلة الذرية على هيروشيما فبدأ العلماء يراجعون أنفسهم ولم يعد الكثيرون منهم واثقين من صحة هذا الرأى . وهذا نفسه ينطبق على العلوم الانسانية . فلو اقتصر اهتمام علماء الاجتماع والأنثربولوجيا وغيرهم على تحسين أساليب البحث ومناهجه وتطويرها بقصد التوصل الى نتائج اكثر دقة دون ابداء اهتمام مماثل بتنمية المسئولية الاخلاقية لدى العلماء والباحثين فقد ينشأ جيل لا يهتم بالاخلاقيات ولا بالانسانية ككل . واذا كان للعلم – على ما يقول جولدنر – فى ذلك – تطبيقاته البناءة والهدامة على ما يتمثل بوضوح فى تفتيت الذرة فان هذا لا يبرر اغفال الفوارق بين الناحيتين أو تجاهلها ، خاصة أن تبين هذه الفوارق لا تتعارض مع معايير الموضوعية

---

(٣١) Stein & Vidich (eds), in op. cit., pp. 1-2

ويلاحظ جولدنر فى مقالته التي سبقت الاشارة اليها والتي عالج فيها ما يسميه بعلم الاجتماع الخالى من القيم ان الجرى وراء دعوى الموضوعية والتحرر من الأحكام التقويمية هو اول علاقة من علامات الخبل والشيخوخة المهنية ، كما انه آخر ومضة فى المطالب الشابة الجريئة Goulpner, op.cit.p.35 **بالاضافة الى انه يؤدى الى خلق نوع من التبلد الخلقي عند هؤلاء العلماء ، ويساعد على تحقيق الأطماع والمكاسب الخاصة عن طريق التخفي وراء ستار الموضوعية العلمية . والملاحظ مثلا أن بعض علماء الاجتماع الأمريكيين قاموا بدراسات وأبحاث من شانها ان تساعد على زيادة انتشار التدخين وترويج تجارة السجاير بالتالي رغم ما يعرفونه عن العلاقة بين التدخين والسرطان** Ibid, p. 42.

العلمية ، وكل ما يعنيه هو التخلص من تلك اللامبالاة الاخلاقية التى تصبغ سلوك الكثيرين من المشتغلين بالعلوم الانسانية الآن (٣٢) .

ـ ٤ ـ

ولقد سبق أن أشرنا الى أن الازمة التىتمر بها العلوم الانسانية الآن نشأت فى الاصل من الرغبة الجامحة فى استخدام مناهج وطرق وأساليب العلوم الطبيعية وتطبيقها بحذافيرها فى دراسة الظواهر الانسانية والاجتماعية ، على أملأن يساعد ذلك على الوصول الى نفس الدرجة من الدقة التى بلغتها العلوم الطبيعية والبيولوچية . والدعوة الى اتباع المناهج العلمية فىالعلوم الانسانية قديمة ، وقد ظهرت بوضوح عند أوجيست كونت ثم عند ميل . وهناك بلا شك كثير من النواحي المشتركة بين هاتين الفئتين من العلوم ، وهى تتمثل بأبسط صورها فى الاعتماد على الملاحظة والتحليل . بل ان الدعوة لا ستخدام المناهج الكمية والطرق الاحصائية قديمة ايضـا ، وترجع ـ فيما يتعلق بالأنثروبولوچيا على الأقل ـالى تايلور . انما الجديد فى الأمر هو تسـليم الغالبية من المشتغلين بالعلوم الانسانية الآن يقول لورد كلفن Lord Kelvin ان المعرفة التى لا يمكن قياسها هي معرفة هزيلة وغير مقنعة (٣٣) . وسيطر الفكرة القائلة بأن نجاح العلوم الانسانية وتقدمها واداءها لمهمتها على الوجه الاكمل رهن بقدرتها على استخدام مناهج العلوم الطبيعية وطرق البحث فيها وبخاصة استخدامالقياس والاحصائيات والاستبيانات والجـداول وما اليها . ولقد أصبح كثير من علماء الاجتماع بالذات، وبخاصة فى أمريكا ،يرون انفسهم اقرب الى علماء الفيزياء والكيمياء ويتصرفون فى دراساتهم على هذا الاسـاس ، بغض النظر عن راى الفيزيائيين والكيميائيين انفسهم فى ذلك . كماظهرت نزعة قوية للمقارنة بين العلوم الطبيعيـة والعلوم الانسانية كانت كلها فى الاغلب تنتهي الىاقرار أن الفارق بينهما هو فارق فى الدرجة فقط ، ويتمثل على الخصوص فى اختلاف كل منهما فىصياغة المشكلات وحل تلك المشكلات . ومهما يكن من شيء فهناك فى الواقع عنصر مشترك بينمناهج هاتين الفئتين من العلوم كما ذكرنا ، ويرجع ذلك الى أن العلوم الانسانية فرع من فروع المعرفة التى تحـاول الجمـع بين الجانب النظرى والجانب التجريبي ولو الى حد محدود . والمقصود بالجانب النظرى هنا هو الميل الى تفسـير الحوادث والتنبؤ بها عن طريق النظريات او القوانين الكلية التى تحاول تلك العلوم اكتشافها ، بينما نقصد بالجانب التجريبي أن لتلك العلوم سندا من التجربة ، بمعنى أن الحوادث التى تفسرها وتتنبأ بها هي وقائع يمكن مشاهدتها ،كما أن المشاهدة أو بالاحرى الملاحظة هي الاساس الذى تعتمد عليه تلك العلوم فى قبولها او رفضها لأية نظرية من النظريات . واذا كانت العلـوم الانسانية تحاول الوصول الى نفس النجاح الذى حققته العلوم الطبيعية فان ذلك لن يتم على

---

(٣٢) Ibid, p. 52

(٣٣) Redfield, op. cit. qp. 44- 45.

الوجه الأكمل الا اذا تمكنت من الوصول الى مثل التنبؤات أو التكهنات الدقيقة التى تصل اليها العلوم الطبيعية ، والمحك فى ذلك هو أن تؤيـد التجربة تلك التنبؤات أو التكهنات (٣٤) .

وليس هنا مجال الدخول فى مناقشة مناهج العلوم الطبيعية والانسانية بالتفصيل ، فقد عولجت هذه المسائل بكثرة فى الكتب المدرسية التى تهتم بوجه خاص بتبيين خصائص العلم والمنهج العلمي . ولكن يمكن القول مع سكينر Skinner ان العلم ــ بعامة ــ مجموعة من المواقف التى تتمثل فى الاتجاه نحو دراسة الاشياء ، وليس ما يقوله الآخرون عن تلك الاشياء . ولذا فهو يرفض الركون الى ما هو وارد فى الكتب ويهتم بدلا من ذلك بدراسة الواقع ذاته ، كما أنه لا يقبل اى رأى أو قول ــ مهما كان شائعا ــ اذا تعارض مع ملاحظة الواقع والطبيعة . فالعلم هو تقبل الحقائق والوقائع حتى وان تعارضت مع الرغبات والاهواء الذاتية ، وهو بذلك يتطلب درجة عالية من الامانة العقلية . ومع أن العلماء ليسوا أكثر أمانة من غيرهم من البشر فان العلم وممارسته يعطيان أولوية خاصة لتلك الامانة كما يقول بردجمان Bridgman ، فالامانة العقلية اذن هي وسيلة التقدم فى العلم ، وهذا هو السبب فى أن كل الأحكام تخضع للتجارب العديدة المتكررة ، وهذا ايضا هو ما يخلق الجو العلمي الذى يفترض توافر الدقة ، كما يساعد هو نفسه على الوصول الى تلك الدقة المطلوبة . ولكن بالاضافة الى كون العلم مجموعة من المواقف والاتجاهات فانه بحث عن النظام أو االترتيب والاطراد ، وعن العلاقات الممكن وجودها بين الاحداث والظواهر فى الطبيعة . ويبدأ العلم فى العادة بملاحظة حالات فردية يصل منها الى التعميم أو الى القانون العلمي الكلي . ومع أن الانسان يكتشف مثل هذه العلاقات فى خبراته اليومية فان العلم يكتشفها بطريقة أكثر دقة ومنهجية ، ويعبر عنها ايضا فى أسلوب دقيق محكم (٣٥) . وهذا هو الفارق الهائل بين نظرة الزنجية ونظرة بافلوف الى سيل اللعاب من فم الكلب .

والوصول الى القوانين العلمية عمل طويل شاق ، ويحتاج الى تضافر كثير من القوى خلال فترة طويلة من الزمن . فهو ليس من عمل الفرد ، كما أنه لا يتوقف على اكتشاف فرد واحد ، وانما على المعلومات التي توفرها أجيال متتالية من العلماء . ولذا فان الخاصية الأساسية للعلم هي تراكم هذه المعارف والمعلومات . وبقول آخر ، فان العلم ينتمي الى ذلك النوع من المعرفة الذى يعرف باسم المعرفة التراكمية Cumulative . وتخضع هذه المعرفة التراكمية ــ أو العلم ــ لنوع من المحكات تساعد جميع المشتغلين بها على الحكم عليها بالصدق أو الكذب ، وذلك على العكس من المعرفة اللاتراكمية ، كالأدب ، فهي لا تخضع لمثل هذه المحكات ، ولا يمكن أن تؤدى الى اتفاق عام . ومن هنا كان الحكم عليها بأنها غير مفيدة بل وأن من الخطأ تسميتها « معرفة »

---

(٣٤) كارل بوبر ، المرجع السابق ذكره ، صفحتا ٤٩ ــ ٥٠ .

(٣٥) Skinner, B.F; **Science and Human Behavior**, The Free Press, N.Y. 1953, pp. 13- 14.

على الاطلاق ، اذ ليس لها معنى بل ـ وهذا هو المهم فى نظر المعترضين على هذه التسمية ـ ليس لها أى أثر حقيقي فى السلوك البشرى . (٣٦)

ولقد خطت العلوم الانسانية خطوات كبيرة حقا فى سبيل تطبيق المنهج العلمي فى ميادين دراساتها الخاصة . وكثير من هذه العلوم ـ وبخاصة علم النفس وعلم الاجتماع ، والى حد ما الأنثربولوجيا ـ تستعين بالقياس الى جانب الملاحظة . وقد أدت الملاحظة الدقيقة فى كثير من الأحيان الى اكتشاف نوع من النظام أو الاطراد بين الظواهر التي تهتم بها هذه العلوم ، مما ساعد على اصدار بعض التكهنات او التنبؤات حول السلوك الانساني . والواقع انه لولا اكتشاف هذه الاطرادات لما أمكن معالجة كثير من الشئون التي تعرض لحياة الانسان والمجتمع . وتهدف المناهج العلمية بأساليبها الرياضية والمنطقية والتجريبية الى توضيح هذه الاطرادات وابرازها ، وهذا نفسه هو ما يحاول الكثيرون من علماء الأنثربولوجيا وعلم النفس الاجتماعي تحقيقه من خلال دراساتهم الحقلية ، وما يهدف اليه أيضا علماء النفس من استخدام الطرق التجريبية التي تمارس فى العيادات والمختبرات ، والتي تخضع لكثير من الضبط والتحكم (٣٧) . ومن هنا كان الحاح الكثيرين من المتخصصين فى العلوم الانسانية فى ضرورة الاستعانة بالمناهج والطرق الرياضية والتجريبية للكشف عن تلك الاطرادات والتعبير عنها ، على أساس أن هذه المناهج

---

(٣٦) تتمثل المعرفة التراكمية بأفضل صورها فى العلوم الطبيعية . فمنذ البدايات الأولى لدراسة الفلك والطبيعة مثلا منذ آلاف السنين فى شرق البحر الأبيض المتوسط بدأت معلوماتنا عنهما تتراكم وتتزايد كي تتحول الى علم الفلك والفيزياء الحديثين . وقد استمرت عملية التراكم طيلة هذه القرون رغم ما كانت تتعرض له احيانا من ركود ، كما ان كثيرا من الأفكار القديمة احتفظت بصدقها للآن ، وان كان البعض الآخر ظهر كذبه وعدم دقته فاسقط من الاعتبار . وكانت النتيجة من هذا كله هو ظهور علم متماسك محدود ومتمايز وله نظرياته المقبولة من الجميع . واذا كان ثمة اختلافات بين العلماء فى بعض مجالات العلم فان هذه الاختلافات لا تتعلق بالأسس أو بماهية العلم ذاته وانما تدور حول المسائل الفرعية والجديدة . وهذا لا ينفي امكان قيام ما يمكن اعتباره « ثورات » فى العلم تعدل من بعض هذه الأسس . وفى هذه النواحي بالذات تختلف المعرفة التراكمية عن المعرفة اللاتراكمية والتي يعتبر الأدب خير مثال لها . فعلى الرغم من ان الأدباء كانوا منذ القديم يكتبون حول أمور معينة مثل الحق والخير والجمال والانسانية وما اليها ، وهي الموضوعات ذاتها التي لا يزال الأدباء المعاصرون يكتبون عنها ، فليس ثمة ما يدل على حدوث اى تغيير خلال القرون الطويلة الماضية نتيجة لتراكم هذه الكتابات والخبرات ، كما حدث فى العلم . وبينما يعرف عالم الفلك او الفيزياء الآن من فرع تخصصه أضعاف ما كان علماء اليونان يعرفون ، فلا يزال الأدباء ـ على ما يظهر ـ فى نفس الموقف الذى كان ادباء اليونان يجدون أنفسهم فيه . ويقول برينتون C. Brinton فى ذلك انه لو بعث احد الأدباء اليونانيين مثل أرسطو فان أو أحد الفلاسفة مثل افلاطون لما وجد صعوبة كبيرة فى متابعة ما يقال الآن فى الأدب او الفلسفة ، اما لو بعث أرخميدس فسوف يحتاج الى سنين طويلة جدا حتى يستطيع فهم مبادىء الفيزياء او الرياضيات الحديثة . وبينما يستطيع أرسطو فان آن يتابع بسهولة ما يكتبه جورج برناردشو مثلا ، ويستطيع افلاطون أن يتابع بسهولة ايضا ما يكتبه فيلسوف مثل جون ديوى ، فلن يكون من السهل على أرخميدس أن يفهم كتابات بوهر Bohr او اينشتين . انظر فى ذلك على العموم :

Brinton, C. ;The Shaping of Modern Thought, Prentice- Hall, Spectrum Books. N.J. 1963, PP. 9- 12

(٣٧) Skinner, op. cit.; P. 16

والطرق ملك « للعلم » فى ذاته ، ولا يمكن أن تكون وقفا على علم دون آخر ، وانه يحق للعلوم الانسانية بناء على ذلك أن تستعين بها ما دام ذلك يؤدى الى تحقيق درجة أكبر من الدقة والضبط .

ومع التسليم بهذا كله، فان السؤال المهم الذى يتردد فى الأذهان ولم يجد اجابة نهائية حتى الآن هو : الى أى حد يمكن استخدام مناهج العلوم الطبيعية وطرقها وأساليبها فى العلوم الانسانية، وبالتالي الى أى حد يمكن اعتبار العلوم الانسانيةعلوما طبيعية ؟ هناك صعوبات كثيرة تقف حائلا بين هاتين الفئتين من العلوم رغم كل ما يبدو من تقارب وتشابه بينهما ، ويكفي للتدليل على ذلك ضرب بعض الأمثلة من مناهج العلوم الطبيعية ومدى انطباقها على العلوم الانسانية دون ان ندخل مع ذلك فى تفاصيل كثيرة لا داعي لها .

وأول هذه الأمثلة ــ وهو فى الوقت ذاته يمثل أولى الصعوبات ــ هو التجريب أو اجراء التجارب المعملية كعنصر متميز عن الملاحظة التيتستعين بها العلوم الطبيعية والانسانية على السواء . ويعتبر منهج التجربة المنهج الأساسي فى العلوم الطبيعية ، وهو يعتمد على عزل الظواهر الطبيعية صناعيا ، والتحكم فيها بقصد التوصل الى تحقيق الظروف المتماثلة المرة تلو المرة ، وما يترتب على هذه الظروف من نتائج ثم تكوين النظريات . ومن المسلم به أن العالم الفيزيائي يتميز على العالم الاجتماعي أو الأنثرپولوچي مثلا باستخدام الوسائل العملية وأجهزة القياس والملاحظة الدقيقة ، ويستعين بها فى اخضاع الظواهر التي يدرسها للمراقبة والملاحظة الدقيقتين . ومع أن هناك معامل ومختبرات لبعض العلوم الانسانية فى كثير من الجامعات ومراكز البحوث فانه من الصعب اجراء التجارب فيها بالمعنى المفهوممن كلمة « تجربة » . والواقع أن هناك كثيرا من الاعتراضات على امكان القيام بمثل هذه التجارب ، ومعظم هذه الاعتراضات ذات طابع نظرى أو منطقي . فمنهج التجربة يعتمد ــ كما يقول كارل پوپر ــ على الفكرة القائلة بأن الأمور المتماثلة تحدث فى الظروف المتماثلة ، وهو أمر يصعبتحقيقه فى العلوم الانسانية . وحتى لو أمكن تطبيقه فلن تكون له فائدة كبرى ، بل انه قد يكون عديم الفائدة تماما ، لأن الظروف المتماثلة لا يمكن أن تتحقق الا فى حدود الفترة التاريخية الواحدة ، ولذا فلن يكون لأى تجربة نجريها الا دلالة محدودة جدا . يضاف الى ذلك أن عزل الظواهر الاجتماعية صناعيا من شأنه أن يستبعد العوامل التي لها الاهمية العظمى فى العلوم الانسانية . « فنحن لن نجد ابدا فىروبنسون كروسو وفى نظامه الاقتصادى الفردى المنعزل نموذجا مفيداللنظام الاقتصادى الذى لا تنشأ مشكلاته الا عن التأثير المتبادلبينالافراد والجماعات . » (٣٨)بل ان ثمة استحالة كاملة فى اجراء التجارب المفيدة فى بعض العلوم الانسانية مثل علم الاجتماع . وتتمثل هذه الاستحالة فى أن التجارب الاجتماعية الواسعة النطاق ــ مثل توزيع الملكيات الكبيرة ــ لا يمكن اعتبارها تجارب بالمعنى الفيزيقى أو الدقيق للكلمة ، « اذ ليس الغرض منها العملعلى تقدم المعرفة من حيث هى كذلك ، بل يقصد بها تحقيق النصر السياسي . وهذه التجارب لاتجرى فى المعمل بمعزل عن العالم الخارجي ، بل

---

(٣٨) كارل بوبر : المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٩ .

الأحرى أن نقول ان اجراءها يغير الظروف الاجتماعية نفسها ، وليس من الممكن تكرارها في ظروف مماثلة ، من حيث ان الظروف تغيرت نتيجة لاجرائها في المرة الاولى (٣٩) ، وذلك كله بالاضافة الى امكان تحكم العالم الطبيعي في اختيار الظروف التي يجرى فيها تجاربه وتغيير هذه الظروف كيفما شاء ، وهو الأمر الذي لا يتيسر للعالم الاجتماعي أو الأنثربولوجي . صحيح أنه أجرى عدد من التجارب في ميدان علم النفس وبخاصة علم النفس الصناعي وفي ميدان علم الاجتماع الصناعي ، وكان لبعض هذه التجارب دلالة عميقة مثل تجارب « مصانع هوثورن Hawthorne Works » المشهورة ، كما أجريت بعض التجارب التي تتسم بالجرأة لقياس بعض الاستجابات في أثناء العملية الجنسية على أشخاص من كلا الجنسين تقدموا من تلقاء أنفسهم ومارسوا العملية الجنسية تحت عدسات التصوير وعيون الملاحظين وتعتبر فتحا جديدا في الدراسات التجريبية على البشر (٤٠)، الا ان هذا كله لا يمكن أن يقارن بالتجارب الدقيقة المتكررة التى تجرى في معامل الفيزياء والكيمياء تحت ظروف تكاد تكون مثالية ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للتجارب التي قد يود العالم الاجتماعي أو الأنثربولوجي اجراءها فتقف دونها كثير من العقبات والصعوبات الفنية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية . فلقد أثارت تجارب ماسترز W. H. Masters وجونسون V. E. Johnson لقياس الاستجابة الجنسية عند البشر رد فعل عنيف بين رجال الكنيسة والمتدينين عموما في أمريكا والغرب ، ولولا أنها أجريت سرا وفي الخفاء لمدة احدى عشرة سنة لما قدر لها ان تتم (٤١) . ولذا فان كثيرا « من التجارب التي نرغب في اجرائها الى أقصى حد سوف تبقى في عالم الأحلام زمانا طويلا ، وذلك رغم أن هذه التجارب هي من النوع الجزئي وليس من النوع اليوتوبي . ولا مفر للعالم الاجتماعي من أن يعتمد في عمله أكثر مما ينبغي على التجارب التي يجريها في ذهنه ، وكذلك على التشريعات السياسية التي تصدر في ظروف وبطريقة ينقصها الكثير مما نرغب فيه من وجهة النظر العلمية (٤٢) . بل ان ثمة كثيرا من الشك يخالج

---

(٣٩) نفس المرجع والصفحة .

(٤٠) Masters, W.H., & Johnson, V.E.; **Human Sexual Response,** Iittle Brown & Co., Boston 1966.

ولقد أجريت هذه التجارب ـ التي تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ دراسة العلاقات الجنسية ـ على ٣٨٢ امرأة و ٣١٢ رجلا تطوعوا في الغالب للقيام بالعملية الجنسية تحت شروط معملية حددها القائمان بالبحث (وليام ماسترز والسيدة فرجينيا جونسون) . وتقع الغالبية العظمى من الأشخاص الذين أجريت عليهم التجارب من كلا الجنسين بين سن العشرين والخمسين وان كان هناك عدد قليل من النساء تراوحت أعمارهن بين الحادية والخمسين والثمانين (٢٤ امرأة) وعدد محدود أيضا من الرجال بين سن الحادية والخمسين والتسعين (٣٩ رجلا) . وبالاضافة الى المعلومات الكثيرة التى توصل اليها الباحثان ـ عن طريق الملاحظة والقياس، ليس عن طريق السؤال كما كان يحدث في كل الدراسات التي سبقت هذه التجارب ـ عن التغيرات الفيزيقية التى تحدث في الجسم اثناء الاستثارة الجنسية مثل سرعة ضربات القلب والنفس وتصبب العرق والتغيرات التي تطرأ على الأعضاء التناسلية ، فقد امكن لهما أيضا تسجيل الكثير من الملاحظات عن انماط السلوك والعادات الجنسية والنظرة الى الجنس عند مختلف الأعمار ودرجات التعليم وما الى ذلك .

(٤١) أنظر في ذلك .

Brecher, R&E.; **An Analysis of Human Sexual Response,** Andre Deutsch, London 1967.

(٤٢) كارل بوبر : المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٢٢.

المرء فى مدى دقة ودلالة هذه التجارب ، وفيما اذا كان هؤلاء الاشخاص يتصرفون بطريقة طبيعية حين يتم عزلهم فى حجرات خاصة للاحظة سلوكهم وقياسه ، وبخاصة حين تكون المسألة متعلقة بالسلوك الجنسي وممارسة العملية الجنسية . ولذا فكثيرا ما يوصف العلماء الذين يقومون بمثل هذه التجارب أنهم يبحثون بتجاربهم عن قوانين لا تنطبق في الحقيقة الا على تلك الحجرات المعزولة (٤٣) .

وهذا ينقلنا الى المثال الثاني: اذا كان أحد أهداف الملاحظة والتجريب فى العلوم الطبيعية هو الوصول الى القوانين الكلية المضبوطة، فالى أى حد أمكن تحقيق ذلك فى العلوم الانسانية ؟ الواقع أننا اذا استثنينا علم الاقتصاد فان الحصيلة من هذه «القوانين» فى بقية العلوم الانسانية تبدو ضئيلة للغاية . بل ان ما يسمى « قوانين » فيها ــ أو فى بعضها على الاقل مثل علم الاجتماع والانثربولوجيا ــ لا يخلو من العيوب وأوجه النقص . والمعروف أن نجاح التعميمات فى العلوم الطبيعية يرجع الى اطراد الأحداث الطبيعية ، وهو الأمر الذى لا يتوافر دائما فى أحداث الحياة وشئون المجتمع وأحوال الأفراد ، ولذا فان كثيرا من الاحكام العامة الكلية التي أطلقها بعض السوسيولوچيين أو الأنثربولوچيين ليست فى حقيقة الأمر الا أقوالا بديهية لا ترقى الى مستوى القوانين ، ولا تلبث عموميتها أن تنهار امام الفحص الدقيق . وبالاضافة الى ما تتمتع به القوانين فى العلوم الطبيعية من الصدق فانها تتميز عادة بالوضوح والايجاز والخلو من اللبس والغموض ، كما أنه يمكن التعبير عنها فى الأغلب فى صيغ رياضية دقيقة ومحكمة ، وذلك على العكس تماما من الأحكام الكلية التي نصادفها فى العلوم الانسانية ، فهي تصاغ فى العادة فى قالب من الكلمات الطنانة ، ويداخلها كثير من الغموض، كما يحوطها الكثير من التحفظات (٤٤) . وعلى ذلك فان الدعوى بأن الأنساق الاجتماعية مثلا أنساق طبيعية تجد كثيرا من المقاومة ليس فقط من جانب العلماء الشبان الثائرين الذين خلقوا بثورتهم الأزمة الحالية التي تمر بها العلوم الانسانية ــ أو جزءا من هذه الأزمة على الأقل ــ بل وأيضا من عدد من كبار العلماء « المحافظين » . فايڤانز پريتشارد يصف هذه الدعوى بأنها « الوضعية النظرية فى أسوأ صورها » ، ويرى أن من حقه أن يطالب الذين يقررون ان غاية الانثرپولوچيا وبالتالى العلوم الانسانية هي الوصول الى قوانين اجتماعية تشبه القوانين التي يصوغها العلماء الطبيعيون أن يقدموا لنا أمثلة من هذه القوانين الاجتماعية . « ولكن لم يظهر للآن اى شيء يشبه ولو من بعيد قوانين العلوم الطبيعية ، وكل ما أمكن الوصول اليه هو بعض الاحكام الحتمية أو الغائية أو العملية . وقد أتت كل التعميمات التى حاول بعض العلماء اطلاقها غامضة مبهمة فضفاضة مما يقلل من قيمتها واهميتها ، هذا على فرض صدقها . والحق أن هذه التعميمات ليست سوى مجرد تكرار للمعاني الجزئية وابراز الاشياء العادية المألوفة فى صور أخرى وعلى مستوى استدلالي ساذج بسيط . » (٤٥) ولقد دارت على صفحات مجلة Man منذ سنوات مناقشات طويلة تجمع بين العنف والطرافة حول امكان وصول الأنثرپولوچيا الاجتماعية بالذات الى قوانين عامة تشبه قوانين العلم

(٤٣) كيميني ، جون ، الفيلسوف والعلم ــ ترجمة الدكتور أمين الشريف ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين ، بيروت ١٩٦٥ : صفحة ٣٥٧ ، بوير ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٨ .

(٤٤) المرجع السابق ، صفحة ٣٥٢

(٤٥) ايڤانز پريتشارد ، المرجع السابق ذكره صفحة ٩١

الطبيعي فى صدقها وعموميتها . ولقد تزعم الانثروبولوجي البولندى أندرييسكي Andrzejewski الدفاع عن الدعوى القائلة بامكان صياغة التعميمات أو القوانين الصادقة ، بل وذهب الى أن هناك قوانين بالفعل من هذا النوع ، وضرب لذلك بعض الامثلة ، مثل ارتباط انتشار نظام تعدد الزوجات بالتفاوت الاقتصادى الشديد فى المجتمعات البدائية ، وأن الحروب تؤدى الى ظهور الحكم الانفرادى ، وأن الزيادة الكبيرة فى عدد السكان تؤدى الى الحرب . ويرى أندرييسكي أن ثمة أمثلة أخرى يمكن ذكرها للتدليل على وجود القوانين الاجتماعية ، وان كان العلماء مع ذلك لم يصوغوا حتى الآن الا عددا قليلا نسبيا من هذه القوانين ،وذلك نظرا لحداثه العلوم الاجتماعية (علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بالذات) . ويلاحظ أندرييسكي أن الناس كانوا دائما يقفون موقفا عدائيا من كل العلوم فى أول عهدها ، ولو صدقت المزاعم التي كانت تنكر امكان الوصول الى قوانين فى العلوم الطبيعية لما كانت هناك الآن علوم الفيزياء والكيمياء والحياة « البيولوجيا » وغيرها . ولكن أحد الانثربولوجيين البريطانيين وهو لورد راجلان Lord Raglan تصدى للرد على أندرييسكي على صفحات المجلة ذاتها ، وحاول أن يفند ما ذهب اليه عن طريق التشكيك فى أن القضايا التى ذكرها تؤلف قوانين مطلقة . وبين راجلان مثلا انه ليس ثمة تفاوت اقتصادى عند قبائل أستراليا ، ومع ذلك فهم يعرفون نظام تعدد الزوجات ، وأن قبائل الماساى Masai فى شرق أفريقيا من أشد الشعوب حبا فى الحرب ومع ذلك فالحكم ديمقراطي ، ولم يظهر فيها ديكتاتور واحد ، واخيرا فان بلاد البنغال متخمة بالسكان ، ومع ذلك فانهم من اشد الشعوب حبا فى السلام (٤٦) . وعلى أية حال فان قيام مثل هذه المناقشات حول موضوع لم يعد محل بحث على الاطلاق فى العلوم الطبيعية منذ زمن طويل يدل دلالة واضحة على مدى اختلاف وجهات النظر بين المشتغلين بالعلوم الانسانية ، كما يدعو الى التشكك فيما اذا لم تكن كل الجهود التي يبذلها هؤلاء العلماء للكشف عن مثل هذه القوانين هي جهود ضائعة وغير مثمرة وأن كل ما سوف تؤدى اليه هو « اثارة بعض مناقشات جوفاء عن المناهج . » (٤٧)

والمثال الثالث والاخير هو محاولة العلوم الانسانية استخدام المناهج الرياضية والكمية فى وصف وتفسير الظواهر التي تدرسها . وقد أفلح علم الاقتصاد فى ذلك الى حد كبير كما صادف علم النفس وعلم الاجتماع بعض النجاح ، وامتدت المحاولات أخيرا الى الأنثربولوجيا التى اخذت تنحو بسرعة منذ الاربعينيات نحو المناهج الكمية، وتحاول أن تصوغ الوقائع الاجتماعية فى حدود وألفاظ كمية مثلما يفعل علماء الاجتماع المحدثون ، خاصة بعد أن ظهر عدد متزايد من العلماء الذين يزاوجون فى دراساتهم بين المناهج السوسيولوجية والأنثربولوجية،ويمزجون بين الوصف الكيفي البحث والتحليل الكمي ، على أساس أن هناك من الحقائق عن الانسان والمجتمع مالا يمكن فهمه فهما دقيقا الا عن طريق الاحصاء والاستعانة بالمناهج الرياضية . فالسلوك الانساني فى مظاهره الجماعية يمدنا بنوعين أو فئتين من المعلومات أو الحقائق : حقائق لها دلالات كمية

---

(٤٦) انظر فى ذلك مجلة Man, May 1951 and October 1951.

كذلك راجع الحاشية التي اضفناها فى آخر صفحة ٩٢ من كتاب ايفانز بريتشارد السابق ذكره .

(٤٧) ايفانز بريتشارد ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٩٣

تشير الى الحجم والمقدار ، وحقائــق ذات دلالات كيفية تحتاج الى مجرد الوصف والتفسير . (٤٨)
والسائد عند الكثيرين من علماء الأنثربولوجيا الآن هو أن تطور العلم سوف يؤدى بالتدريج الى اخضاع المعلومات التى تعالج الان فى حدود والفاظ كيفية للتفسيرات والتحليلات الكمية أو العددية ، وأنه اذا كانت دراسة البناء الاجتماعي فى المرحلة الحالية من مراحل تطور العلم الاجتماعي بعامة والأنثربولوجيا بخاصة تحتم وصف الثقافة السائدة فى المجتمع فان ذلك سوف يختفي بتقدم الدراسات الكمية لهذه الحقائق (٤٩) ، وأنه لابد من استخدام القياس فى مجال الأنثربولوجيا الاجتماعية بنفس الطريقة التي يستخدم بها فى الدراســات السوسيولوجيــة الحديثــة واعطاء العناصر غير المتغيرة فى الحياة الاجتماعية قيما عددية حتى يمكن اضفاء بعض الدقة العلمية علــى الدراسات الكيفية . ويذكر ليفي ستروس ــ الذى يعتبر من اشد الدعــاة لاستخــدام المناهج الرياضية فى الدراسات الاجتماعية حماسا ــ فى مقال هــام له بعنوان « الرياضيــات والانســان Les Mathematiques et L'homme» . أن الشيء المؤكد هو أن الشبان الذين سوف يتخصصون فى العلوم الاجتماعية لا بد أن تكون لهم ثقافة أساسية متينة فى الرياضيات حتى لا يُطردوا مــن الميدان العلمي . (٥٠)

ولقد استشهدت هنا بما يحدث فى الأنثربولوجيا بالذات نظرا لحــداثتها كعلم اذا قيست بالعلوم الانسانية الاخرى من ناحية ولان منهجها ــ بحكم الظروف التي تجرى فيها الدراســات الحقلية فى المجتمعات البدائية والمتخلفة التــي يصعب الحصول فيها على معلومات عددية ــ هو منهج كيفي وصفي الى حد كبير . ولكن الملاحظ على العموم هو أنه على الرغم من قوة الدعــوة لاستخدام المناهج الرياضية فليس هناك من بين العلماء المعاصرين فى الأنثربولوجيا على الاقل من يرى أن هذه المناهج تكفي بذاتها لفهم الحياة الاجتماعية ، وان كانت تساعد على دراستها بطريقة

---

(٤٨) يتمثل النوع الاول من الحقائق ــ كما يراه الانثربولوجيون مثلا ــ فى مقدار مهر العروس واتساع نطاق القرابة وعمق البدنات مقدار بعدد الاجيال التى تفصل بين المؤسس الاول للبدنة او العائلة الكبيرة والاعضاء الاحياء من افراد تلك البدنة او العائلة ، ومدى اتباع ومراعاة احدى القواعد القانونية او التعاليم الخلقية وما الى ذلك من العلاقات الاجتماعية التى تحتاج الى القيام ببعض الاحصائيات ، على الرغم من أن الوسيلة لتحقيق ذلك قد لاتكون ميسورة فى كل الاحوال . اما الحقائق ذات الدلالات الكيفية فتتمثل فى الالتزام بدفع المهر تبعا لخطوات ومراسيم وطقوس محددة ، والاعتقاد فى السحر والشعوذة ، والشعائر الدينية وما الى ذلك ــ انظر فى ذلك الجزء الاول (المفهومات) من كتابنا عن « البناء الاجتماعى » ــ المرجع السابق ذكره ، صفحة ٥٥ .

(٤٩) Fortes, M.; « Time and Social Structure: An Ashante Case Study » in Id (ed): **Social Structure; Studies Presented to Radcliffe- Brown.** O.U.P. 1949, PP.95- 68.

(٥٠) Levi- Strauss, C.; « On Social Structure » in Kroeber (ed); **Anthropology To day,** Chicago U.P. 1960, PP. 524- 53; G.urvitch, G., « Le Concepte de Structure Sociale », **Cahiers Internationaux de Sociolgie,** XIX, 1955.

انظر ايضا الجزء الاول (المفهومات) من كتابنا عن البناء الاجتماعى ــ المرجع السابق ذكره صفحات ٥٤ ــ ٦٣ حيث يوجد عرض اكثر تفصيلا لهذا الاتجاه مع الاشارة الى اهم الاختلافات بين التحليل الكيفى والتحليل الكمى لاحدى الظواهر الاجتماعية هى ظاهرة الطلاق فى المجتمعات الافريقية .

اكثر دقة من السرد الوصفي الخالص . وفورتيس نفسه ، الذى أشرنا الى مقاله القيم الذى يدعو فيه الى انتحال المناهج الرياضية فى دراسة المجتمعات البدائية ، والذى يعتبر من اشد المتحمسين للتحليلات الكمية للظواهر الاجتماعية يقول فى نهاية مقاله الذى يدرس فيه بعض الظواهر عند قبائل الأشانتى « لقد حاولت أن أبين فى هذا المقال أن التحليل الاحصائي الاولي أمر لازم لتوضيح بعض مشكلات البناء الاجتماعي الذى يمر بعملية تفاضل اجتماعي . فمن الواضح أن استخدام مصطلحات وعبارات مثل « الزواج والاقامة عند أهل الزوج » ، أو « عند أهل الزوجة » ، لن يفيد فى مثل هذا المقام شيئا ،بينما استخدام المعلومات العددية تساعدنا على أن نرى تنظيم الحياة العائلية عند الأشانتي هو نتيجة لتفاعل وتداخل عدد من العوامل المحددة تحديدا لا يخلو من الدقة والتي تعمل فى وقت معين بالذات أو على مدى فترة محددة من الزمن .» (٥١) وهذا يعني أن استخدام العمليات الاحصائية الاولية تساعد فقط على ازالة ما يحيط ببعض المصطلحات الكيفية من غموض ولبس . ولم تفلح كل المحاولات التي بذلت حتى الآن ، في علم الاجتماع والانثربولوجيا بالذات في الوصول الى صياغة قوانين اجتماعية فى الفاظ وحدود كمية مثلما أفلحت العلوم الطبيعية حيث يعتبر الوصف الكمي للكيفيات الفيزيقية شرطا أساسيا لصياغة القوانين العلمية فى قالب رياضي محكم . ولو نظرنا مثلا الى صيغة مثل « يزداد الميل نحو التوسع الاستعمارى بازدياد شدة التصنيع » لتبين لنا على الفور ، كما يقول كارل بوبر ، اننا لا نملك طريقة لقياس الميل نحو التوسع أو لقياس شدة التصنيع . (٥٢) ومما قد تكون له دلالته فى هذا الصدد أن كبار علماء الرياضيات أنفسهم تجاهلوا تطبيقاتها على العلوم الانسانية نظرا لصعوبة هذه التطبيقات . (٥٣)

— ٥ —

والاختلافات المنهجية بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية أوسع واشمل بكثير مما ذكرنا (٥٤) ، ولكننا نكتفي بهذا القدر لأنه ليس من أهدافنا هنا أن نكتب بحثا فى المناهج بقدر ما نهدف الى ابراز أهم عناصر الازمة التي تمر بها العلوم الانسانية الآن ، مع العلم بأن جذور المشكلة قديمة وأن معظمها يدور حول المناهج . ومع التسليم بأنه ليس ثمة ما يضير العلوم الانسانية فى استعانتها بمناهج العلوم الطبيعية وأساليبها فى البحث اذا كان ذلك يساعدها على

---

(٥١) Fortes, op. cit., P. 83.

(٥٢) كارل بوبر ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٣٦

(٥٣) كيمينى ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٣٥٩

(٥٤) يمكن القارىء أن يجد عرضا ممتازا لأوجه الشبه والاختلاف بين مناهج العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية فى كتاب كارل بوبر «علم المذهب التاريخى »الذى سبقت الاشارة اليه فى أكثر من موضع ، فالكتاب ـ كما يقول المترجم ـ « دراسة منسقة فى مناهج العلوم الاجتماعية من حيث مقارنتها بمناهج العلوم الطبيعية ، فيصحح المؤلف كثيرا من الاخطاء الشائعة عن المناهج ويتناول موضوعات هامة ، كالتمييز بين التنبؤ والنبوؤة والتفسير التاريخى والنزعة الكلية ووحدة المنهج العلمى » .

الوصول الى نتائج أكثر دقة مما تصل اليه بالفعل عـــن طريق الملاحظـة البحتـة او الملاحظــة بالمشاركة، فان المعارضين لذلك الاتجاه ــ أو المعتدلين منهم على الاصح ــ يرون ضرورة تعديـــل هذه المناهج بما يتلاءم مع طبيعة العلوم الانسانية ذاتها وطبيعة الموضوعات التي تهتم بدراستها، وهي موضوعات تصل في آخر الأمر ــ بشكل أو بآخر ــ بالطبيعة الانسانية ذاتها . والشيء المميز لمعظم هذه العلوم هو أن موضوع دراستهـــا ــ أى الطبيعة الانسانية ــ يؤلف فى الوقت ذاته جزءا من المنهج، وانه بناء على ذلك يتعين على الباحث فى هذه العلـــوم أن يستخـــدم « انسانيتـــه » فى محاولته فهم النظم الاجتماعية وانماط السلوك المختلفة والحوافز والدوافع الكامنة وراء هـــذا السلوك ، وهو الأمر الذى لا نجده فى العلوم الطبيعيـــة . فليس هنـــاك تعاطف بين الباحث الفيزيائي مثلا والذرات أو بين الباحث البيولوجي وذباب الفاكهة وهكذا . فهنـــاك نوع مـــن الحوار اذن بين الباحث وموضوع بحثه فى العلوم الانسانية ، وهو حوار ضرورى لفهم المشكلة فهما حقيقيا عميقا ، بينما لا تعترف العلوم الطبيعية بوجود مثل هذا الحوار ، وذلك لانها تلتقى بموضوعات بحثها على أنها أشياء وليس كأشخاص كما يحدث فى العلوم الانسانية أو بعضها على الاقل . وواضح أن هذا القول الاخير يتعارض تعارضا تاما مع ما يقوله دوركايم فى قاعدته الاولى المشهورة من قواعد المنهج فى علم الاجتماع من ضرورة اعتبار الظواهر الاجتماعية كما لو كانت اشياء حتى تتوافر الموضوعية العلمية فى الدراسة . والواقع أن كثيريـــن مـــن المشتغلين بالعلوم الانسانية انتبهوا منذ زمن طـــويل الى ضرورة اهتمام الباحث الاجتماعي والانثربولوجي بوجه خاص بهذه المشاركة الوجدانية أو التعاطف واعتبارها جزءا من عملهما بعكس ما يقول دوركايم تماما . وقد أطلق كولي Cooly منذ زمن غير قريب على هذه العملية اسم الاستبطان التعاطفي Sympathetic introspection واعتبرها جزءا من منهج الدراسة على الرغم من أنها تثير كثيرا مـــن الصعوبات أمام الباحث الذى يجد نفسه بذلك موزعا بين متطلبات الموضوعية العلمية وبين التعاطف مع الاشخاص الذين يدرس حياتهم وسلوكهم وافكارهم وقيمهم . وقد عاد هذا الاتجاه الـى الظهور من جديد فى السنوات الاخيرة على أيدى عدد كبير من العلماء الشبان الذين يريدون أن يعيدوا الى العلوم الانسانية « انسانيتها » . ونجد كثيرا من ملامح هـذا الاتجاه واضحـة علـى الخصوص فى كتابات بعض الأنثربولوجيين الذين خرجـوا على النمط المألـــوف فى الدراســـات الانثربولوجية التقليدية التي كانت تتمسك بحرفية المناهج المتبعة فى العلوم الطبيعية (٥٥) .

والرأى الذى يسود الآن عند هؤلاء الكتاب هو أنه مهما تظاهر المشتغلون بالعلوم الانسانية بأنهم يسيرون فى نفس الطريق الذى سلكته العلوم الطبيعية وأنهم يطبقون فى دراساتهم وبحوثـهم مبادىء الموضوعية العلمية التي تحتم عليهم اعتبار الظواهر الاجتماعية والانسانية على العموم كما لو كانت اشياء فانهم لا يستطيعون التخلص من حقيقة هامة وهي أنهم يعنون أصلا بالحالات الذهنية وأنهم يكونون أقرب الى موضوعات تخصصهم حين يتكلمون عن المشاعر والعواطف والافكار والمثل

---

(٥٥) من اهم هؤلاء العلماء اوسكار لويس Oscar Lewis الذى يعتمد الآن اعتمـادا متزايـدا فى دراسـته للمجتمعات البسيطة على دراسة الحالات وتاريخ حياة اشخاص معينين كما ترد على السنتهم هم انفسهم . ويظهر هذا على الخصوص فى كتابين من اهم كتبه هما Five Families و La Vida ، وكذلك الانثربولوجى البريطانى الشـاب جوليان بت ريفرز Julian Pitt-Rivers الذى يعطى فى كتاباته اهمية بالغة لتحليل القيم الاجتماعية كما يظهر فى دراسته لاحدى القرى الاسبانية فى كتاب له بعنوان The People of the Sierra

والعلاقات والدوافع والنظم والقيم الانسانية وما اليها . والواقع أنهم يتعرضون لهذه الامور فى كتاباتهم حتى وان لم يقولوها بصراحة أو لم يذكروها فى تلك الالفاظ والحدود. ويبدو هذا واضحا فى كتابات اثنين من كبار المدافعين عن « علمية » علم الاجتماع والأنثربولوجيا وهما دوركايم وراد كليفبراون.(٥٦) فالدين مثلا لن يمكن فهمه عن طريق معرفة عدد المساجد او الكنائس أو المعابد فى المجتمع وعدد المترددين عليها فى كل صلاة أو عدد الدين يتقدمون بتظلماتهم لاضرحة الاولياء وانواع التظلمات التي يرفعونها الى هؤلاء الاولياءواذا ما كانت هذه التظلمات والشكاوى تكتب بالحبر او الرصاص كما ظهر فى كتاب حديث عنهذا الموضوع فى مصر . كذلك لن يمكن فهم العائلة كنظام اجتماعىعن طريق دراسة عدد البيوت وعدد طوابقها وعدد الغرف فيها وطريقة بنائها والمواد المستخدمة فى البناء ووسائل التهوية والاضاءة ولا حتى عدد افراد هذه العلائلات الذين يعيشون معا تحتسقف واحد أو فى بيوت متفرقة،وما الىذلك من المعلومات العددية التى لا شك فى اهميتها ولكنها لا تكفى اطلاقا لفهم هذين النظامين الاجتماعيين ، انما الذى يجدى فى فهم النظم هو دراسة الحالات الذهنية المتصلة بها وأثرها فى فئاتمعينة من الناس فى مواقف معينة بالذات . ويصدق هذا بشكل او باخر على كل العلوم الانسانية . بلان علماء الاقتصاد انفسهم كثيرا ما يضيقون بحدود وقيود النظريات الاقتصادية الصوريةويثورون عليها ويعطونبعض اهتمامهم لدراسةالدوافع الحقيقية لسلوك الناس فى مواقف اقتصاديةمعينةوبذلك يدخلون ميدان الفلسفة دون أن يدركوا ذلك،مثلما فعل سمنر Sumrer وفبلن Veblen ونايت F.H. Knight وغيرهم . وربما كان هذا هو السبب فى الاهتمام الزائد الذى يوليه علماءالاجتماع والانثربولوچيا بالذات لدراسة نسق القيم . اذ مهما بلغت المعلومات التى يحصل عليهاالسوسيوچيونوالانثربولوچيون عنسلوكالناسفى المجتمع من الدقة والتفصيل والكثرة فلن تكون لهااهمية حقيقية الا اذا درست فى ضوء نسق القيم السائد فى ذلك المجتمع ، وذلك على اعتبار ان اختيارات الانسان وتفضيلاته والمعايير التى تتحكم فى عملية الاختيار والمفاضلة هى التى تؤلف فى الحقيقة موضوع العلم الاجتماعى . وهذه المعايير هى قبل كل شىء مستويات خلقية وعقلية ، ومنهذه الناحية فانها تكون اقرب الى مجال الادب والفلسفة منها الى العلوم الطبيعية (٥٧) . وكمايقولجون كيمينى « انهفى الصعبان تبقى المعانى العاطفية بمعزل عن الفرضيات ، فكل منا يهتم لماتنطوى عليه الافعال من تضمينات اخلاقية . ذلك لانه من الصعب ان يصار الى صياغة النتائج المتوقعة للجهود البشرية فى قالب خلو من الشعور . ونحنندرك اليومفى دراستنا لتاريخ قوانين حركاتالاجرام السماوية كم كان حظ علماء الفلك عظيما لانه لم يكن يهمهم ما هى مدارات تلك الاجرامطالما كان باستطاعتهم وصفها بدقة .. أما العلوم الاجتماعية فان الصعوبة هى ان الضغط للوصولالى نتائج مرغوبة لا ياتى من خارج نفس العالم بل من داخلها . فهو يود لو يستطيع الاعتقاد بان بعضالأفعالتؤدىالى المرغوبمن النتائج »(٥٨) .

---

(٥٦) انظر على الخصوص Durkheim,E , Les Formes Elementaires de la Vie Religieuse, Radcliffe-Brown, A.R , The Andaman Islande rs.

(٥٧) Redfield, op. cit, PP.48-49

(٥٨) كيمينى : المرجع السابق ذكره ، صفحتا ٣٦١ ، ٣٦٢

وهذه أمور تشير الى ان ثمة علاقة قوية بين العلوم الانسانية والانسانيات وتردنا الى ما ذكره ردفيلد عن تصويره للوضع القائم الآن بانه اشبه بالمأدبة التى تجمع بين مختلف المعارف والتى تجلس فيها العلوم الانسانية بين العلوم الطبيعية من جهة والانسانيات من جهة اخرى . فجزء كبير من المعلومات والحقائق والوقائع والافكار التى تتردد فى الكتابات الاجتماعية والانثربولوجية وغيرها نصادفها فى كتابات الفلاسفة والادباء ، بل ان الاعمال الفنية ذاتها تعبر فى كثير من الاحيان عن الاهتمامات والاتجاهات السياسية والدينية والاقتصادية والقيم الاجتماعية وكلها امور تدخل فى نطاق العلوم الانسانية . وليس المهم — كما يقول ردفيلد ان يقال ان الفلاسفة يستمدون اراءهم وافكارهم ومعلوماتهم من الكتب بينما يستمدها الاجتماعيون والانثربولوجيون من واقع الحياة ، انما المهم هو ان الاثنين يهتمان بالحالات الذهنية وانساق القيم عند البشر . صحيح أن هناك اختلافات بين الانسانيات والعلوم الانسانية ، وهى تتركز فى الاغلب فى أن الانسانيات تهتم بوجه خاص بابداعات المخيلة الخالقة التى تصدر عن الافراد نتيجة لمجهودهم الخاص الواعى ، بينما تهتم العلوم الانسانية بالنظم التى تظهر تلقائيا خلال الزمن والتي لا يرتبط وجودها وبقاؤها بالفرد من حيث هو فرد ، وصحيح أيضا أن الفلاسفة يعطون من الاهتمام والانتباه للمذاهب الفكرية مالا نجده عند معظم المشتغلين بالعلوم الانسانية وهكذا ، ولكن الخط الفاصل بين الانسانيات والعلوم الانسانية ليس قاطعا تماما . فهناك من بين علماء الانثربولوجيا مثلا من يهتم اهتماما بالغا بالمعايير الجمالية عند البدائيين — مثلما فعلت روث بنزل Ruth Bunzel بدراساتها للانماط الجمالية عند صانعي الفخار عند هنود البويبلو ، وما فعل بول بوهانان Paul Bohnnan فى دراساته للفن الافريقى — ومنهم من يهتم بدراسة الفلسفة البدائية مثل بول رادين Paul Radin الذى أعطى كثيرا من الاهتمام لانماط التفكير عند بعض قبائل الهنود الحمر وفكرتهم عن الكون ومركز الانسان فيه ، وضمن كثيرا من النتائج التي وصل اليها فى كتابه عن « الرجل البدائي كفيلسوف » «Primitive Man as Philosopher» . . . وهناك ايضا من علماء الاجتماع وبخاصة من الفرنسيين من يعالج فى كتاباته مشاكل الفلسفة من زاوية سوسيولوجية مثل جورج جيرفتش G. Gurvitch والواقع ان كتابات علماء الاجتماع الفرنسيين اقرب فى طابعها العام الى الكتابات الفلسفية المجردة منها الى الكتابات السوسيولوجية التى تصدر عن علماء الاجتماع الأمريكيين أو البريطانيين (٥٩) كما أن هناك من علماء الاقتصاد ايضا من يكتبون بطريقة اقرب الى كتابات الفلاسفة كما هو الحال فى كتابات هارولد أينيس Harold Innis وهكذا . ولكننا نجد من الناحية الاخرى ان علم النفس وهو احد العلوم الانسانية — الى حد ما على الاقل — يعطى الاولوية فى دراسته للفرد كفرد بعكس الحال فى بقية العلوم الانسانية الاخرى التى تهتم فى المحل الاول بالناحية الجماعية فى حياة الانسان وبذلك يكون اقرب فى هذه الناحية بالذات الى الانسانيات . وهذا كله علاوة على الاتجاهات الحديثة فى الانثربولوجيا التى اخذت تعنى عناية فائقة بدراسة الشخصية وعلاقتها بالثقافة بحيث

---

(٥٩) اهتم كثير من علماء الاجتماع الفرنسيين بتبيين المسائل المشتركة بين الفلسفة وعلم الاجتماع . ومن الكتب الهامة فى ذلك كتاب دوركايم عن « الفلسفة وعلم الاجتماع Philosophie et Sociologie » رغم صغر حجمه وقد ترجم حديثا الى العربية بعنوان « فلسفة واجتماع » . كذلك يمكن للقارىء ان يجد عرضا وافيا وعميقا لبعض هذه المسائل المشتركة فى الكتاب القيم الذى اصدره الدكتور قبارى محمد اسماعيل عن « علم الاجتماع والفلسفة » (الدار القومية للطباعة والنشر — الاسكندرية) وهو يقع فى ثلاثة اجزاء عالج فيها مسائل المنطق والمعرفة والاخلاق .

اصبحت مدرسة الثقافة والشخصية Culture and Personalitx من اقوى وأهم المدارس الانثربولوجية الآن (٦٠) .

فهناك اذن ارض مشتركة بين العلوم الانسانية والانسانيات ، وان كان هناك فى الوقت نفسه ميل واضح للتغاضى عن وجودها واغفال شأنها جريا وراء التشبه بالعلوم الطبيعية ، أو على الأصح نتيجة للتشبث بما يسميه هايك Hayek بالنزعة التعالمية Scientism (٦١) . وهو اتجاه فيه كثير من الخطر على العلوم الانسانية لانه يقوم على التقليد الاعمى لمنهج العلم ولغته ،مع اغفال طبيعة العلوم الانسانية ذاتها ومتطلباتها. والاحساس بهذا الخطر هو من اكبر الدوافع التى تحفز العلماء الشبان الان الى اعادة النظرفى موقف العلوم الانسانية وعلم الاجتماع بالذات وصلتها بالعلوم الطبيعية من ناحية والانسانيات من ناحية اخرى ، كما انه هو السبب المباشر فى محاولة التقريب بين العلوم الانسانية والانسانيات بعد انطال انفصالهما وافتراقهما ولقد انتبه كثير من العلماء البريطانيين فجاة ـ كمن يصحو من النوم بغتة ـالى أن العلوم الانسانية والانسانيات تفرعت من اصل واحد يرجع الىدراسة الثقافة الكلاسيكية ،وتنبه كثيرمن العلماء فى المانيا فجأة ايضا الى ان العلوم الانسانية والانسانيات تنتميان الى شىء واحد يطلقون عليه كلمة Geisteswissenshaften وانه خليق بهم لذلك ان يكتشفوا من جديد تلك العلاقات التى طال اغفالها او تجاهلها . وكان السؤال التقليدى الذى يواجههم هنا ايضا هو ما الشيء المشترك بين العلوم الانسانية والانسانيات ؟ ثم ما الذى تستطيعالعلوم الانسانيةانتأخذه منالانسانيات فى المرحلة الراهنة من تطورها وبعد ان ارتبطت بالعلوم الطبيعية ارتباطا قويا لا سبيل الى انكاره ؟

والجواب على هذا السؤال يبدو سهلا فى نظر بعض العلماء الذين تعرضوا لهذه المشكلة . فهم يرون بكل بساطة ان الشيء المشترك بينهما هو « الانسانية » ذاتها . وكما يقول ردفيلد فى ذلك : ان الانسانية تعتبر عاملا مشتركا بينالذين « ينظرون » الى الانسان كما يظهر فى الكتابات الادبية والاعمال الفنية « اى المشتغلينبالانسانيات » والذين « يدرسون » الانسان كما يتبدى فى النظم الاجتماعية والانماط السلوكية الظاهرة امامهم . فالانسانية هى الموضوع المركزى الذى تدور حوله اهتمامات المشتغلين بالعلوم الانسانية والانسانيات على السواء(٦٢) . ولو أعيد توزيع الدراسات الأكاديمية من جديد حسب موضوعاتها وليس تبعا للمناهج التى تستخدمها فى الدراسة والبحث لوضعت العلوم الانسانية مع الانسانيات فىمجموعة واحدةمتميزة عنبقية المعارف والعلوم الاخرى ، لانه مهما قيلمن ان العلوم البيولوجية ، مثلا تدرس الانسان فان « انسانية » الانسان ليست هي موضوع اهتمام هذه العلوم البيولوجية فضلا عن العلوم الطبيعية،بينما هى

---

(٦٠) .Redifeld; op- cit., PP. 50-51

(٦١) اورد هايك آراءه عما يسميه بالنزعة التعالمية فى مقال طويل ظهر فى اول الامر على ثلاث دفعات فى مجلة Economica (المجموعة الجديدة فى الاعداد ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦) ثم جمع الاجزاء الثلاثة معا ونشرها فى كتاب بعنوان « النزعة التعالية ودراسة المجتمع « Hayek, F A Von; Scientism and the Study of Society »

(٦٢) وحتى فى الحالات التى تعالج فيها العلوم الانسانية موضوعات تبدو بعيدة تماما عن مجالات اهتماماتالانسانية مثل الدراسات الديموجرافية التى تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على المناهج الاحصائية بحيث يبدو البشر كما لو كانوا مجرد اعداد وارقام فان مشكلات هؤلاء البشر تفرض نفسها بشكل او بآخر على الباحثين ، ولا بد من ان تؤخذ هذه المشكلات فى الاعتبار على اساس ان ذلك يساعد على فهم اساليب وطرق الحياة والسلوك .

الموضوع الاساسى للعلوم الانسانية(٦٣) . وهذه اقوال غامضة وغير محددة ، لان كل ما تعنيه فى الواقع هو ان المشتغلين بالعلوم الانسانية يمكنهم ان يجدوا فى فنون وآداب وفلسفات العالم مصادر غنية لدراسة الانسان والمجتمع وان الاستعانة بها تؤدى الى فهم اعمق وافضل للمشكلات التى يعالجها هؤلاء العلماء(٦٤) . وهذا يصدق ايضا على موقف الادباء والفلاسفة ورجال الفن من العلوم الانسانية وضرورة العمل على استيعاب نظرتها الى الانسان والمجتمع والاستعانة بالنتائج التى تصل اليها هذه العلوم فى كتاباتهم واعمالهم الادبية او الفلسفية او الفنية .

ومهما يكن من شيء ، فالواضح ان العلوم الانسانية – ربما باستثناء الاقتصاد – لا تزال تتخبط حتى الآن بين الفلسفات التقليدية التى تدور حول الطبيعة الانسانية والرغبة فى قيام علم طبيعى للسلوك البشرى تحت اسماء مختلفة . فعلى الرغم من كل ما بذل فى سبيل تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على العلوم الانسانية فان هذا الاتجاه يلقى الكثير من المعارضة ، ليس فقط نتيجة للصعوبات التى يلاقيها العلماء فى تطبيق هذه المناهج فى دراسة الظواهر الاجتماعية والانسانية ، بل وايضا كرد فعل للنتائج التى ترتبت على المغالاة فى محاولة تطبيق هذه المناهج واغفال طبيعة هذه الظواهر . وقد اخذ الاتجاه الذى سيطر على الدراسات السوسيولوجية بالذات منذ اوجست كونت – والذى بمقتضاه كان ينظر الى علم الاجتماع على أنه علم طبيعي – فى الانحسار . وهذا هو ما يحدث ايضا فيما يتعلق بالنظرة التى سادت ردحا طويلا من الزمن فى الابحاث الانثربولوجية والتى كانت تعتبر النسق الاجتماعى نسقا طبيعيا . فالعلوم الانسانية لم تسقط تماما الفلسفة التقليدية عن الطبيعة الانسانية كما انها لم تتقبل تماما وجهة النظر العلمية . ولا يزال الاتجاهان يعيشان جنبا الى جنب ويصارع احدهما الآخر(٦٥) . وليس هذا مجرد اختلاف اكاديمى ، اذ يترتب عليه فى الواقع نتائج عملية هائلة تتصل بموقف الانسان من الحياة ذاتها . انه بقول آخر اختلاف يتصل بمسألة الحرية الانسانية من ناحية او خضوع الفرد لعوامل خارجية تتحكم فيه وفى سلوكه ، كما انه يتصل بالنظم السياسية ونظم الحكم ذاتها . ومن هنا نجد ان الازمة الراهنة التى تمر بها العلوم الانسانية الآن والتى تبدو فى ظاهرها ازمة خاصة بالمناهج لها فى حقيقة الامر ابعاد ايديولوجية ، كما انها متأثرة الى حد كبير بالازمة الناشبة بين نظم الحكم المختلفة ، نظرا لما لهذه النظم من صلة وثيقة بطبيعة السلوك الانسانى . وسوف يظل هذا الاختلاف على المناهج وعلى طبيعة العلوم الانسانية ومدى ارتباطها بالعلوم الطبيعية والانسانية قائما ومحتدما طالما كان هناك خلاف فى الرأى حول طبيعة السلوك الانسانى نفسه . ولكن هذا موضوع آخر جدير بدراسة مستقلة .

---

(٦٣) Redfield, op cit , P.47 . وقد ذهبت روث بنديكت Ruth Benedict الى ان طبيعة المشكلات التى يصفها المشتغلون بالانسانيات والادباء منهم بصفة خاصة قريبة فى تفاصيلها الى موضوعات الانثربولوجيا ، بل انها تذهب فى ذلك الى حد القول بأن الادب اقرب من بقية العلوم الانسانية الى الانثربولوجيا فى هذا الصدد ، وبناء على ذلك فان الانثربولوجيا اقرب الى الانسانيات منها الى الاجتماع او علم النفس او الاقتصاد ، على الرغم من انها كلها تندرج تحت مقولة العلوم الانسانية . انظر فى ذلك مقالها عن الانثربولوجيا والانسانيات Anthropology and the Humanities, **American Authropologist.** Dec. 1948; P. 585.

وربما كان السبب فى ذلك هو ان الانثربولوجى يعتبر « الانسان » وبخاصة فى المجتمع المحلى الصغيرة هو موضوع الانثربولوجيا . ويساعد المنهج الذى يتبعه الانثربولوجيون فى ابحاثهم على ذلك التقارب ، فهو منهج يعتمد على الملاحظة المباشرة وعلى المشاركة فى نشاط المجتمع ليجمع اكبر قدر ممكن من المعلومات والحقائق والوقائع عن الناس فى شتى نواحى حياتهم مما يؤدى الى قيام علاقات قوية بين الباحث وموضوع بحثه وهم سكان ذلك المجتمع .

(٦٤) الواقع ان هذا يحدث فعلا فى بعض الدراسات السوسيولوجية والانثربولوجية وبخاصة تلك التى يقوم بها باحثون اجانب فى بعض المجتمعات ذات الثقافة العريقة ، كتلك الدراسات التى يقوم بها المستشرقون بوجه خاص وبعض الانثربولوجيين البريطانيين فى الصين والهند ، اذ يحتاج الامر منهم الى دراسة ثقافة ذلك المجتمع بما فيها اللغة والادب والفن وما اليها للوصول الى فهم اعمق للنظم الاجتماعية السائدة فى تلك المجتمعات .

Brecher, R. & E., **An Analysis of Human Sexual Respone,** Andre Deutsch, London, 1967.

Brinton, C. ; **The Shaping of Modern Thought,** Prentice-Hall, N. J. ; 1963.

Eysenck, H. J. ; **Sense and Nonsense in Psychology,** Pelican, 1966.

Fortes, M., (ed) **Soc'al Structure**, Oxford U. P. 1949.

Kroeber, A. (ed) ; **Authropology Today,** Chicago U.P. 1960.

Masters, W. H. & Johnson, V. E. ; **Human Sexual Response,** Little-Brown & Co., Boston 1966.

Nelson, W. R. (ed) ; **The Politics of Science,** Oxford University Press, N. Y. 1968.

Redfield, R. ; **Human Nature and the Study of Society,** Chicago University Press, 1962.

Skinner, B. F. ; **Science and Human Behavior,** The Free Press, N.Y. 1953.

Stein M. and Vidich, A. I. (eds) ; **Sociology on Trial,** Prentice-Hall, N. J. 1963.

العلاقات بين العلماء في العصر العباسي دراسة عن القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة

وديعة طه النجم

تمهيـد :

لقد طالما خطر لي وأنا انظر في كتب ابى عثمان الجاحظ ، وفي تلك المحاورات والمناقشات التى ينقلها أو يختلقها قلمه البـارع ، عن المتكلمين والنحويين والمؤدبين واصحاب الحلقات والرواة.. الخ، جملة من التساؤلات التى لا ارتاب فى ان كل باحث يجيلها في ذهنه وهو يعيش مع أبى عثمان في حربه وسلمه مع اصحاب الفرق والادباء والكتاب في مجالسهم وحلقاتهم وبيوتهم ، لاسيما أن عصره عصر نشط فيه التاليف واحتدم فيه الجدل بين أصحاب المذاهب في شتى اتجاهاتهم . ولـم يكـن الجاحظ في نقله لهذه الصور الحية عـن الواقع الا فاتحا لطريق سلكها من بعده جملة من الكتاب فى تسجيل النشاط العلمى لعلماء عصرهم وكان من ابرزهم في القرن الرابع الهجرى أبـو حيان التوحيدى الذى كان هـو نفسه ناسخا ووراقا كما كان عالما جليلا .

ومما يضاعف أهمية هذه المادة التى ينقلها كل من هذين الكاتبين انهما كانا متصلين اتصالا حيا وشخصيا بأكثر ما كان يدور في عصريهما من تلك النشاطات ، وهما شاهدا عيان لما يرويان ان لم يكونا من ذوى المشاركة الفعلية فيها . ومن هنا

* الدكتورة وديعة طه النجم استاذة الأدب العربي بجامعة الكويت . كانت استاذة مساعدة للأدب العربي بجامعة بغداد . لها بحوث منشورة فى المجلات العلمية فى العراق وسـوريا ومن أهم مؤلفاتهـا : الجاحظ والحـاضرة العباسية (١٩٦٥) .

تثير كتاباتهما جملة من المسائل في ذهن القارىء ، أبرزها :

ترى كيف كان العلماء يعيشون في عصرنشاط العلم والثقافة ؟ كيف كانت منزلتهم في مجتمعهم وكيف كانت علاقاتهم بعضهـم ببعض وبأولئك الذين اتصلوا بهم خارج دائرتهم ؟ وما هي العوامل التى تتحكم في مناقشاتهم ومناظراتهم وتنافسهم الشخصي ؟ وما هي الامور التى تعمل في الخفاء متحكمة في تلك الآراء المنبثة في كتبهم ؟ .

وكان علي ، للاجابة على بعض هذه التساؤلات أن ابحث عما خلف الظاهر من علاقات خفية بين العلماء ، علاقات قد تخرج من حد المجاملة الى المصارحة ، ومن حد المصارحة الى المناقشة ، ومن حد المناقشة الى المهاترة . فما هي المواقف التي يتخذها العلماء ـ بصفتهم الفردية أو الطبقية تجاه هذه العوامل ؟ .

وأخيرا وجدت الأمر يستحق الوقوف عنـده ، ومحاولة الكتابة فيه مستعينة عليه بدراسة شيء عن حياة العلماء ومحاولة استكنـاه الدوافـع الحقيقية للمواقف التي يتخذونها . وقد كشف البحث عن حقائق طريفة تتصل بالنشاط العلمي عند المسلمين في عصر التكوين العلمي ، هو كل من القرن الثاني والثالث والرابع للهجرة .

والفضل ـ أوله وآخره ـ لمن نبه على هذه العلاقات أولا بأول حينما خصها بالذكر اجمالا وتفصيلا في اكثر ما كتب وألف ... ذلك هو أبو عثمان الجاحظ .

فاذا وفقت للصواب فيما اذهب اليه في بحثي هذا ، فذلك لانه أنار لي الطريق ، واذا اخطأني الحظ فلاني لم اعرف كيف أهتدي به .

ومن ظن انه يتقن كل شيء فقد خذله عقله وخانته بصيرته (وينبغي لاهله ان يداووه) ـ كما يقول أبو عثمان ـ .

من هم العلماء الذين نعنى بهم في دراستنا هذه؟

ان العصر الذى ندرسه هو الذى يملى علينا تحديد مفهوم هذه الطبقة ، اذ يجب أن نحترز من المفاهيم الحديثة التى نحملها في اذهاننـا . فالعصر الذى ندرسه هو عصر نشاط العلـوم الاسلامية في جميع مظاهرها النظرية والعملية . ولعل أهم ما يميز هذا النشاط العلمي تشعبه واتسـاع نطاقه وان كان ينطلق مبدئيا في أدواره الاولى من الدراسات الدينية فالعلوم العقليـة واللغوية والفقهية تتفرع من دراسات القرآن، وما تلبث أن يتسع نطاقها وتتعقد شعبها فيتضح فيها التخصص بمرور الزمن . فعلم الكلام ينشأ عن مشكلات ومسائل تتصـل بالدين أول الامـر ، والدراسات اللغوية تنشأ متصلة بالقرآن ، والفقه والتشريع ينبع من القرآن ، وهكذا شأن كل نشاط علمي أو غير علمي يقوم في مجتمع يرتبط فيه الدين بحياة الناس بأوثق الروابط ..

فالعلماء في هذا البحث هم المتكلمون والفقهاء والنحويون واللغـويون ونقلـة الادب ودارسوه والمؤرخون .. بغض النظر عما ينظرون فيه أو يختصون به دون سواه .. لـكنني اخـرجت الشعراء من جملة العلماء الا اذا كانت للشاعر عناية علمية خاصة دون الشعر .

فالعالم بمفهومه العام ـ هو من يبحث عـن الحقيقة ـ أية حقيقة بوسيلة مـن الوسائـل الموضوعية . وهذا وحده كاف لكي يبعد الشعراء عن دائرة العلماء . لكن هذا التعريف لا يخرج الأدباء ومؤرخي الادب واللغويين . فهؤلاء جميعا على اختلاف مناهجهم ووسائلهم ـ يتفقون في صفة واحدة هي انهم يطلبون الحقيقة الموضوعية.

فما هي الصفات التي يجب ان تتوافر في العالم ـ كما يرتئيها هذا العصر الذى نحن بصدده ؟ وما هي الصفات المكونة للشخصية العلمية ؟ .

قد يصعب علينا ان نحكم على الشخصيـة العلمية ، وان نرسم حدودها في عصر لم تستكمل فيه المناهج العلمية نظامها ، بل كانت لا تزال تمر في دور تكونها . ولذلك سأحاول تتبع الصفات التى يفضلها هذا العصر عن طريق استقرائها من أخبار الشخصيات العلمية نفسها . فقد تمادح العلماء وتذامـوا وتفاضلوا وتعايبـوا واختلفت الاحكام في شخصياتهم كما اختلفوا هم انفسـهم فيما بينهم ، نتيجة تشعب المذاهب وتفرق الناس بينها . ولن ندخل في مناقشة ما ذهب اليـه اصحاب المذاهب في العيب على خصومهم ، لكن الخصومة نفسها قد تقودنا الى ما كان يلتزم به من خلق علمي .

فهذا ابن قتيبة الدينوري (من علماء القرن الثالث الهجري) في خصومته مع الجاحظ يأخذ عليه جملة أمور . ولسنا في معرض مناقشة مدى صدق ابن قتيبة أو كذبه على الجاحظ ، لان ابن قتيبة يذهب مذهبا مخالفا لمذهب المعتزلة الذي عرف به الجاحظ . لكن يهمنا ممـا يعرضه ابن قتيبة الصورة التي يراها للشخصية العلمية ، وهي في رأيه منتفية عن الجاحظ بأسباب أهمها .

أن الجاحظ ـ وهو من المتكلمين ـ كان مـن « أحسنهم للحجة استثارة وأشدهم تلطفا لتعظيم الصغير حتى يعظم ،وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه .

لعل هذه الالتفاتة من ابن قتيبة ـ وهي التفاتة طريفة ـ تذكرنا بمـا وصف به السفسطائيون اليونانيون الذين كان الجاحظ يتمتع بقسط وافر من قابلياتهم على اقامة الحجة ونقضها في نفس واحد .

ونستنتج مما يذهب اليه ابن قتيبة أن وضوح المذهب ، دون التلاعب بالحجة لاقامـة الشيء ونقيضه ، صفة علمية يجب أن يلتزم العالم بها . فكيف ينظر الجاحظ نفسه الى هذه الصفة هل يوجهها توجيها آخر ، هل يعللها او يبررها ..

يأتينا الجواب على هذا في أول كتاب الحيوان الذي ألفه الجاحظ وهو واع أن هناك من سيعيب عليه طريقته في عرض الحجج المتناقضة ،فينظر الى الموضوع من وجه آخر . وبعد أن يعـدد جملةمن العيوب التي أخذت على مؤلفاته ورسائله ويرد عليها ، يمضي قائلا :

« وعبتني برسائلي الهاشميات واحتجاجي فيها واستقصائي معانيها وتصويري لها في أحسن صورة واظهاري لها في اتم حلية . وزعمت أني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الى حد الزيدية، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حد السرف والافراط فيه . وزعمت ان مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة وأن مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالية ، وزعمت ان في أصل القضية والذي جرت عليه العادة أن كـل كبـير فأوله صغير ، وأن كل كثير فانما هو قليل جمع الى قليل » (٢) ويبدو أن عائبه لم يكتف بذلك بل نسبه الى كل مذهب كتب فيه أو بحثه ، على تناقض الاتهام ، ولذلك قال الجـاحظ : «وعبت معارضتي الزيدية وتفضيلي الاعتزال على كـل نحلة ... » وهذا مناقض القول الاول(زعمتأني قد خرجت بذلك من حـد المعتزلة الى حـد الزيدية) .ويرد الجاحظ على عائبه قائلا «وأنت تسمعني أقـول في أول كتابي قالت العثمانيـة والضرارية كمـا سمعتني أقول قالت الرافضة والزيدية ، فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول العثمانية ، فهلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة ، وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية » (٣) فالجاحظ ـ في ظن نفسه ـ يعرض حجج المذاهب المختلفة عرضا تقريريـا دون أن يكون تعبيرا عن وجهة نظره هو . فهو يتجرد للموضوع من ميوله واتجاهاته ، وهذا ما نسميه في عصرنا بالموضوعية ، وهي صفة مهمة من صفات العالم . ولكن يبدو أن هذه الصفـة العلمية لم تتضح معالمها بعد في القـرن الثالث الهجري ولذلك لقي الجاحظ بسببها هجومـا عنيفا . وما دمنا في معرض الحديث عن الجاحظ ، فقد وجهت اليه مطاعن أخرى تتصل بالطريقـة العلمية ، أهمها ـ في نظري ـ انه سلخ معاني كتاب الحيوان من كتاب الحيوان لارسطوطاليس وهذا الاتهام الخطير ـ بغض النظر عن مـدى صحته ـ يحمل دليلا على أن الكـاتب في اي موضوع من الموضوعات عليه أن يشير بصراحة الى من سبقه في الكتابة في موضوعه ، وأن مـن تمام الشخصية العلمية نسبة العلم الى مصادره . وفي هذا المعنى يقول الاصمعي « من حق مـن يقبسك علما أن ترويه عنه » (٥)

ثم يترجع صدى هذه القولة بعد قرون عند السيوطي فيفرد بابا في (آداب اللغوي) ويجعل بين فصوله فصلا بعنوان (عزو العلم الى قائله)، يقول فيه ومن بركة العلم وشكره عزوه الى قائله ويأتي بأمثلة على ذلك .

ومن الجدير بالذكر هنا ، ان الموضوعات التي كتب فيها المؤلفون المسلمون ربما انتقلت مـن جيل الى جيل ، واعيد التأليف فيها اكثر من

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧١ ـ ٧٣ .
(٢) الحيوان ج ١ ، ص ٧ ـ ١٢ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) الفرق بين الفرق ، ص ١٦٣ .
(٥) معجم الأدباء ، ج ١ ص ٨١ .
(٦) المزهـر ج ٢ ص ٣١٩ .

مرة ؟ بل ربما اطلق على مؤلفات تطرق موضوعات معينة العناوين نفسها أيضا . لكن الامانة العلمية تقضي بالاعتراف بفضل المتقدم على المتأخر مهما كانت منزلة المتقدم ، ما دام قد سبق الى هذا الموضوع والى التسمية . ومن طريف ما وجده كاتب من كتاب القرن الرابع الهجري في هذا الصدد – هو المحسن التنوخي – حينما عزم على تأليف كتابه (الفرج بعد الشدة) أن كتابا آخرين قد سبقوه الى التاليف في هذا الموضوع ، والى استعمال العنوان نفسه ، لكنهم تجاهلوا فضل السابق عليهم ، والتنوخي لا يدري كيف حدث مثل هذا الامر ، عمدا أو سهوا ، يقول : وقرات ايضا كتابا للقاضي أبي الحسين عمر بن القاضي أبي عمرو محمد بن يوسف القاضي رحمهم الله في مقدار خمسين ورقة قد سماه – كتاب الفرج بعد الشدة – اودعه اكثر ما رواه المدائني وجمعه واضاف اليه أخبارا أخر اكثرها حسنة وفيها ما هو غير مماثل عندي لما عناه ولا مشاكل لما نحاه ، وأتى في أثنائها بأبيات شعر يسيرة ، من معادن لامثالها جمة كثيرة ، ولم يلم بما اورده ابن ابي الدنيا ولا اعلم تعمد ذلك أم لم يقف على الكتاب ووجدت أبا بكر بن ابي الدنيا والقاضي أبا الحسين لم يذكرا للمدائني كتابا في هذا المعنى فان لم يكونا عرفا هذا فهو طريف ، وان كانا تعمدا ترك ذكره تثقيفا لكتابيهما وتغطية على كتاب الرجل فهو أطرف . (٧)

ووجه الطرافة فيما يقوله التنوخي أن ما فعله هذان المؤلفان لا يستقيم مع المعايير العلمية والامانة التي يجب أن يتصف بها العالم . لكن يبدو ان المآخذ التي رآها المتأخرون على المتقدمين من العلماء المسلمين كانت نتيجة لتوصل المتأخرين الى مرحلة من النضوج العلمي بحيث اتضحت لديهم قواعد المنهج وتحددت اصوله وصار تطبيقها التزاما ، على حين كانت متفاوتة الاثر وغير ملزمة في الطور الاول من تكونها . فمناهج المتقدمين تتفاوت بين الدقة المتناهية والاهمال التام في تطبيق القواعد التي تعينت حدودها عند المتأخرين فلا يصح أن تؤخذ دائما مقياسا للامانة العلمية أو عدمها .. ومع ذلك وضع المتأخرون قواعد نظرية حاولوا تطبيقها على أمثلة من العلماء المتقدمين بعد ان تعارف عليها المتأخرون . وقد شرحها السيوطي مفصلا في (المزهر) . (٨) .

ومع ذلك هناك شبه اتفاق – عبر العصور – حول صفات معينة للشخصية العلمية أو لمن يحمل العلم . فمن اهم صفات العالم ، فضلا عن التثبت ودقة النظر والتعمق وصفاء الفكر وحسن الاستنباط ... الخ الخ ، أن يعرف اين يضع علمه وكيف يفيد منه . فبعض العلماء قد ينقصه حسن التصرف لذلك فهو رغم غزارة علمه لا يدري كيف يقدم مادته العلمية ، فينفرط عقد علمه بسبب ضعف سلكه . وممن عيب عليه هذا ، ابو عبيدة معمر بن المثنى الرواية المعروف . فقد قيل عن مجلسه انك اذا اتيت مجلسه اشتريت الدر في سوق البعر ، أي انه رغم سعة علمه لا يعرف اسلوبا مناسبا يقدمه به . وقد قيل ان علمه بالكتب على سعته كان نظريا ، ولم يعتن بالجانب التطبيقي لهذا العلم . وقد روت اكثر المصادر عنه وعن الاصمعي نادرة تروى بلسان الاصمعي – وهو خصم ابي عبيدة ومنافسه الشديد في علمه – . يقول الاصمعي :

حضرت انا وابو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال ، كم كتابك في الخيل ، فقلت مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال ، خمسون مجلدا. فقال له ، قم الى هذا الفرس وامسك عضوا عضوا منه وسمه . فقال ، لست بيطارا ، وانما هذا شيء أخذته عن العرب . فقال ، قم يا أصمعي وافعل ذلك . فقمت وامسكت ناصيته وجعلت اذكر عضوا عضوا واضع يدي عليه وأنشد ما قالته العرب الى أن بلغت حافره . فقال ، خذه فأخذت الفرس ، فكنت اذا اردت ان اغيظه ركبته وأتيته .. (٩)

وليس بمستبعد ان تكون العصبية ضد أبي عبيدة هي التي أثارت هذا الاختلاق من مكانته وحفزت عليه ، ولعل شيوع المناظرات بين الخصوم كان من حوافز هذا الوضع على سذاجة الرواية المارة الذكر . الا ان دلالتها أهم لدينا من مدى

---

(٧) الفرج بعد الشدة ص ٧ .

(٨) المزهر ، ج ٢ ص ٣٠٢ – ٣٣٨ . وانظر البحث الطريف الذي كتبه فرانتز روزنتال عن : مناهج العلماء المسلمين – ترجمة انيس فريحة – بيروت – ١٩٦١ .

(٩) بغية الوعاة ج ٢ ص ١١٣ ، وباختلاف قليل في الألفاظ : انباه الرواة ج ٢ ص ٢٠٢ .

صحتها . وهي أن هناك تفاضلا في دوائر العلماء بين المعرفة المجردة من التطبيق والمعرفة التطبيقية التى ترتبط بالحياة العملية . وأن هناك ادراكا للطريقة التى تستحصل فيها المعارف وتقدم . وقد عيب على بعض العلماء اعتزالهم الناس وبعدهم بعلمهم عن الحياة . وللجاحظ ملاحظة طريفة في مدى ما يبلغه اعجاب العالم بما يكون منه فيؤدى ذلك الاعجاب الى الاعتزاز بكل ما يصدر عنه فيستحسن من نفسه ما قد يقبح في عين غيره . وكأن الجاحظ عالم نفساني في أصالة ملاحظته اذ يقول : واعلم أن العاقل أن لم يكن بالمتتبع فكثيرا ما يعتريه ما يعتريه من ولده أن يحسن في عينه المقبح فى عين غيره . فليعلم ان لفظه أقرب نسبا منه من ابنه ، وحركته أمس به رحما من ولده ، لان حركته شيء احدثه من نفسه وبذاته ومن عين جوهره فصلت ومن نفسه كانت ... ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته ... (١٠)

والجاحظ يقرن الحرص على العلم بالحرص على المال، بل قد يبلغ حرص الانسان على العلم مبلغا أشد وأقوى من حرصه على المال، « لانه سعي لا لحاجة وايضاع لا لبغية . (١١) .

وحين نتقدم في الزمن الى القرن الرابع الهجرى نجد معالم الشخصية العلمية تتضح في اذهان الفلاسفة، أو المهتمين بالعلوم أو المباحث النظرية. ومن طريف الصفات التى يرتئيها علماء هذا العصر للعالم تلك الصفات التجريدية التى توصل اليها اخوان الصفاء عن طريق محاولتهم التوفيق بين الاديان والفلسفات ولذلك فالعالم عندهم تجتمع فيه صفات روحانية وعقلية تجعله في مرتبة الانبياء فأهم ما يشترط توافره في العالم ، خصال سبع هي :

السؤال والصمت ، ثم الاستماع ثم التفكر ثم العمل به ثم طلب الصدق من نفسه ثم كثرة الذكر انه من نعم الله ، ثم ترك الاعجاب بما يحسنه . والعلم عندهم يكسب صاحبه عشر خصال محمودة : اولها الشرف وان كان دنيا والعز وان كان مهينا ، والغنى وان كان فقيرا والقوة وان كان ضعيفا والنبل وان كان حقيرا والقرب وان كان بعيدا ، والقدر وان كان ناقصا والجود وان كان بخيلا والحياء وان كان صلفا ، والمهابة وان كان وضيعا والسلامة وان كان سقيما ومع ذلك فللعلماء آفات وعيوب واخلاق ردية يحتاج الى تجنبها ، منها : الكبر والعجب والافتخار .. ومنها كثرة الخلاف والمنازعة فيه وطلب الرياسة به والتعصب والعداوة والبغضاء فيما بينهم (١٢)

هذا ما يرتئيه اخوان الصفاء في العلم والعلماء — نظريا — فكيف كان الشأن في واقع هذا العصر؟ وهل كان رأيهم منسجما مع ظروف العلماء أو كان رد فعل لها ؟ .

لعل الجواب على هذه المسائل يأتينا بلسان رجل خبر العلماء وجلس في مجالسهم وشارك في نشاطهم ، بل لقد قيل انه كان متصلا بجماعة أخوان الصفا ، ذلك هو أبو حيان التوحيدى . فلا عجب أن نجد صدى لاقوالهم فى كتاباته وان يحاول تطبيق مفاهيمهم العقلية التجريدية على الشخصيات العلمية في عصره . فماذا نجد ؟ .

لقد سأله الوزير البويهي مرارا أن يصف له (عصابة العلماء) — كما يسميهم — أو يصنف له أخلاق العلماء الذين كان أبو حيان على صلة بهم . وقد جالس أبو حيان هذا الوزير فترة من الزمن ، وكتب يصف مجالسته له في كتاب (الامتاع والمؤانسة) . فيعرض أبو حيان مجموعة من علماء عصره ، فقهائهم ومتكلميهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم . فنجد نماذج من الشخصيات العلمية تمثل لنا نظرات هذا العصر الى العلم والعلماء :

يقول أبو حيان في وصف أبي عبد الله الحسين ابن علي ، وهو فقيه ومتكلم انتهت اليه رياسة علم الكلام في هذا العصر . وله كتب في الفقه وفي الكلام ، « كان الرجل ملتهب الخاطر واسع أطراف الكلام ، مع غثاثة اللفظ . وكان يرجع الى قوة عجيبة في التدريس ، وطول نفس في الاملاء ، مع ضيق صدر عند لقاء الخصم ومعاركة القرن ، بعيد العهد بالمصاع والدفاع والوقاع ،

---

(١٠) الحيوان ج ١ ص ٨٩ .

(١١) رسالة في كتمان السر ، رسائل الجاحظ ج ١ ص ٥٦ .

(١٢) الرسالة التاسعة من رسائل اخوان الصفا مجلد ١ ، ص ٣٤٧ — ٤٨ .

وكان سبب هذا الجبن والخور قلة الضراوة على هذه الاحوال ، ولقد خزي في مشاهد عظيمة . وأما يقينه فكان ضعيفاءوأما سيرته فكانت واقفة على حب الرياسة وبذل المال والجاه اذا حضرا، مع تعصب شديد لمن قدمه واحبه وانحاء مفرط على من عاداه ... » (١٣) .

ثم يقول في ابن المعلم ، وهو من رؤساء الشيعة الامامية في الفقه والكلام والآثار « وأما ابن المعلم فحسن اللسان والجدل ، صبور على الخصم ، كثير الحيلة ظنين السرّ ، جميل العلانية (١٤) . وأما ابن خيران فشيخ لا يعدو الفقه وفيه سلامة. وأما الداركى فقد اتخذ الشهادة مكسبة وهو يأكل الدنيا بالدين ... وهو اليوم قارون ، وقد علت رتبته في الكلام حتى لا مزيد عليها ، الا أنه مع ذلك نغل الباطن خبيث الخبء قليل اليقين ... » (١٥) .

وينصب نقد ابي حيان على أولئك الذين يظهرون غير ما يبطنون ، ويجعلون العلم طريقا للكسب والمنفعة الفردية . ولا يتورع أبو حيان عن ذكر عيوب الشيوخ الذين يجلهم ويأخذ من علمهم، فقد سأله الوزير ذاتمرة عن أبي سليمان السجستاني المنطقي ، وهو أشبه بأستاذ لأبي حيان ، فقال أبو حيان يصفه : « أما شيخنا ابو سليمان فانه أدقهم نظرا وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الفرر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنة ناشئة عن العجمة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجراة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز .. » (١٦) .

أما مسكويه ، المؤرخ المعروف ، وهو من أصحاب أبي حيان أيضا ، « ففقير بين أغنياء وعيي بين أبيناء ، لأنه شاد ــ كما يقول أبو حيان ــ ، وانا أعطيته في هذه الأيام (صفو الشرح لايساغوجي) و (قاطيغورياس) من تصنيف صديقنا بالرى ... وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ ولكنّه محس في هذا الوقت للحسرة التي لحقته فيما فاته من قبل .. » (١٧) . والسبب في هذا ان مسكويه على ما يبدو لنا من قول أبي حيان لم يحسن اختيار ما يناسبه من العلوم ، ولم ينتهز فرصة نشاط العمر وفراغ البال للتفرغ لها ، « هذا مع تقطيع الوقت فى حاجاته الضرورية والشهوية والعمر قصير والساعات طائرة .. » . وقد كان مسكويه خازن كتب ابن العميد ، فتهيأت له فرص الاطلاع لكنه لم يعرف كيف يستغلها ، لذلك يقول فيه أبو حيان ، « ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيميائي الرازي ، مملوك الهمة في طلبه والحرص على أصابته مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان .. » (١٧) .

ولعل التوحيدى يعرّض هنا بمسكويه لحرصه على المال ، اذ شاع بين المسلمين في هذه العصور ان طلب الكيمياء يتصل بأسرار صناعة الذهب ويسمى عندهم بعلم الصنعة . وقد انكر بعض فلاسفة المسلمين المعروفين كابن سينا والكندى هذا العلم وردوا على المشتغلين به (١٨) . ومما يؤيد هذا المعنى الذى يوحي به كلام التوحيدى ما يقوله هو أيضا عن مسكويه في موضع آخر : « ولقد قطن العامرى (١٩) الرىّ خمس سنين جمعة (٢٠) ودرس وأملى وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سدّ ، ولقد تجرع على هذا التواني الصاب والعلقم ومضغ بفمه حنظل الندامة في نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله . وبعد فهو ذكي حسن الشعر نقي اللفظ وان بقي فمساه يتوسط هذا الحديث . وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء ،

---

(١٣) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٤٠ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٤١ .
(١٥) المصدر نفسه ، ص ١٤١ ــ ٤٢ .
(١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٣ .
(١٧) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٥ .
(٧١) انظر : كشف الظنون مجلد ٢ ص ١٥٢٦ .
(١٩) فيلسوف من المتبحرين بالفلسفة اليونانية ، اتصل بابن العميد ، وتوفى سنة ٣٨٠ هـ ــ .
(٢٠) اي مجموعة .

وانفاق زمانه وكدّ بدنه وقلبه في خدمة السلطان واحتراقه في البخل بالدانق والقيراط والكسرة والخرقة ، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان وايثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل ، وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بلي به ، والبلاء المعصوب بناصية من غلب عليه .. » (٢١) .

فمسكويه اضاع عمره في طلب أمر لا طائل من ورائه للعقل والمعرفة ، وأولع به بوازع من الحرص والشح . ولقد لامه أبو حيان على حسده لأولئك الذين كانوا ينالون عطاء السلطان اذ كان مسكويه يرى أن هذا المال قد ضاع فيمن لا يستحقه . فيرد عليه ابو حيان قائلا « أيها الشيخ أسألك عن شيء واحد واصدق فانه لا مدب للكذب بيني وبينك ، ولا هبوب لريح التمويه علينا ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء واضعافه واضعاف أضعافه أكنت تتخيله في نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال ... فاعلم أن الذي بدد مالك وردد مقالك انما هو الحسد وشيء آخر من جنسه ، فأنت تدعي الحكمة وتتكلم في الأخلاق وتزيف منها الزائف وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك ، واطلع على سرك وشرك .. » (٢٢) .

ومع ذلك فقد خلف لنا مسكويه آثارا جليلة ، منها كتابه المشهور في التاريخ (تجارب الأمم) كما كان حاذقا في فلسفة الأخلاق وله كتاب في (تهذيب الأخلاق) ، وقد كتب مع أبي حيان التوحيدي كتبا هي أشبه بالمحاورات بينهما ، فضلا عن وصية خلفها يعاهد فيها الله على رياضة النفس ومجاهدتها في مطامحها وأن « يعف ويشجع ويحكم ، .. وعلامة حكمته : أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة » (٢٣) . وتبدو روح الزهد واضحة في الوصية . ونفهم أن مسكويه عاش أواخر أيامه في ضنك من العيش اذ يقول عنه ياقوت انه « لم يخل من نوائب الدهر » .

لقد كان هذا هو شأن العالم حينما تحكمت في حياته ظروف لم تكن كلها مما يمكن التحكم فيه . ولم تكن حياة أبي حيان نفسه بأقل اسى وشقاء ، ولقد أصابهما من ريب الزمان ما أصابهما . ولقد شقي أبو حيان بعلمه فانتهى باحراق كتبه تشبها بعلماء من الجيل الأول سابقين عليه — كما يقول — وبدلا من أن ينال الحظوة والمنزلة بعلمه ، كان هذا العلم مجلبة للتعاسة والشؤم، عرف بهما أبو حيان في حياته .

هذا قد يقودنا الى السؤال التالي :

ما هي منزلة العلماء ماديا وأدبيا في العصر الذي نتحدث عنه ، ما هي وسائل كسبهم ؟ كيف كانت منزلتهم في المجتمع ؟ وما هي علاقتهم بالخلافة العباسية ... ؟ .

تتأرجح منزلة العلماء في المجتمع الاسلامي الذي ندرسه بين الاجلال لهم والازراء بهم . ويتحكم في هذه المنزلة أمور ، منها ما يتصل بشخصياتهم ، ومنها ما يتصل بمنزلة علمهم وخلقهم ، أو بمقدار ما لهم من الشهرة أو الخمول .

ولعل أبرز ظاهرة في هذا العصر الذي ندرسه أننا لا نكاد نجد علما مقصورا على جماعة دون غيرهم ، فالعلم مشاع لمن يطلبه ، بغض النظر عن العمر أو الأصل أو الطبقة أو الحرفة ، وان كان العلم وحده لا يكفي لكي يرفع من صاحبه في السلم الاجتماعي ، أو يجعله مقربا عند الخليفة ، كما سنرى في الأمثلة . فالكسائي يطلب النحو متأخرا ويرتحل ، في طلبه ، من الكوفة الى البصرة ويجلس في حلقة الخليل بن أحمد (٢٤) . وسيبويه كان في أول أمره يطلب الحديث ويأخذه على حماد ابن سلمة ، حتى يعرّض به حماد ذات يوم ، لأنه لحن ، فيعزم على دراسة النحو ، « فمضى ولزم مجلس الأخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين » (٢٥) .. والزجاج قصة طريفة في بدء اهتمامه بالنحو ، يقصها هو علينا ، يقول :

« .. كنت اخرط الزجاج ، فاشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلمه ، وكان لا يعلّم مجانا ولا

---

(٢١) الامتاع والمؤانسة ج ١ ص ٣٦ ، كذلك يذكر الكيمياء قائلا ، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر ، ص ١٤٢ .

(٢٢) مثالب الوزيرين ص ١٨ .

(٢٣) معجم الادباء ، ج ٥ ص ١٩ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ج ١٣ ص ١٦٨ .

(٢٥) مجالس العلماء ص ١٥٤ — ٥٥ المجلس ٦٩ .

يعلّم بأجرة الا على قدرها . فقال لي ، اي شيء صناعتك ؟ قلت ، أخرط الزجاج وكسبي في كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف ، وأريد أن تبالغ في تعليمي وأنا أعطيك كل يوم درهما وأشرط لك أن أعطيك اياه ابدا الى ان يفرق الموت بيننا ، استغنيت أو احتجت اليه (٢٦) .

وهذا يشير الى انعدام الطبقية العلمية ـ ان صح أن نسميها كذلك ـ ، فليس العلم وقفا على جماعة معينة بل يناله كل من يرغب أو يظهر قابلية معينة فيه ، بغضّ النظر عن حرفته أو مرحلة عمره أو حتى دينه . وقد شاعت في المجتمع الاسلامي علوم معينة كان يتقنها النصارى دون غيرهم ، كالطب والترجمة .

ويتفاوت علماء هذا العصر في طبيعة كسبهم ، وأكثرهم كانوا يمارسون مهنة أو حرفة من الحرف التي يمارسها الناس في حياتهم المدنية . ولم تقف المادة حائلا بين العالم وبين ممارسة نشاطه العلمي . لكن العامة لا تزال في شك من أمر هذه الحقيقة ، فقد شاع عن أهل بغداد من أمثالهم السائرة قولهم (جهلٌ يعولني خير من علم أعوله) وقولهم (كف بخت خير من كرّ علم) . (٢٧) . ولعل ايمان الناس بالبخت دون المجتمع العباسي لهزات جسيمة لم يعد الناس يأمنون فيها على شيء . أما حملة العلم فقد خبر المتصلون بالخلافة منهم ظروفا ومصائر لا يمكن دائما التكهن ، تتأرجح بهم بين رفعة وذلة . روى عن الأصمعي ـ في هذا الصدد ـ خبر طريف يقول فيه :

« كنت في البصرة أطلب العلم وأنا مقلّ ، وكان على بابنا بقّال ، اذا خرجت بكرة يقول لي : الى أين فأقول : الى فلان المحدّث واذا عدت المساء يقول لي : من أين ؟ فأقول : من عند فلان الأخباري واللغوي . فيقول يا هذا اقبل وصيتي : انت شاب فلا تضيع نفسك واطلب معاشا يعود عليك نفعه وأعطني جميع ما عندك من الكتب أطرحها في هذا الدن واصب عليها من الماء للعشرة أربعة وانبذه وانظر ما يكون منه . والله لو طلبت مني بجميع ما لديك من الكتب جوزة ما أعطيتك . . . » (٢٨) .

لكن أكثر العلماء الذين كانت لهم حلقات أو مجالس علمية ، كانوا الى جانب ذلك يمارسون نشاطا تجاريا أو حرفة يكسبون منها عيشهم . قيل عن ثعلب ، وهو من أشهر نحاة الكوفة ، انه بعد موته « خلف احدى وعشرين ألف درهم وألفي دينار ودكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار ، وضاع له قبل أحمد الصيرفي الف دينار . وكان يتجر له بها . » (٢٩) .

ولعل في هذا دلالة على أن العلم لم يكن دائما طريقا للكسب ، وانما يصبح كذلك بين طبقة المعلمين والمؤدبين ، لا سيما أولئك الذين يتصلون بالخليفة ، وان كان يعرّض بهؤلاء أنهم يبيعون علمهم أو يأخذون على العلم أجرا . روى عن أبي العيناء ـ وهو اديب بصرى فصيح اللسان يعد من الظرفاء ـ انه حضر مجلس المتوكل فأراد المتوكل أن يعبث به ، فاتهمه بلسان ابن سعدان بأنه رافضي . فاندفع ابو العيناء متهجما على ابن سعدان فقال : « ومن ابن سعدان ، والله ما يفرق بين الامام والمأموم ، والتابع والمتبوع . انما ذاك حامل درة ومعلم صبية ، وآخذ على كتاب الله أجرة . فقال : لا تفعل لأنه مؤدب المؤيد ، فيقول أبو العيناء ، يا أمير المؤمنين ، انه لم يؤدبه حسبة وانما أدبه بأجرة ، فاذا أعطيته حقه فقد قضيت ذمامه » (٣٠) .

اننا لا نستطيع أن نرسم صورة ثابتة لطبيعة العلاقة القائمة بين العلماء والسلطان ، لأنها تتفاوت وتتحكم فيها ظروف قد لا تتصل بالمقاييس العلمية أبدا . لكننا نحس أن بعض العلماء قد أدرك هذا الجانب من التقدير فأنف أن يتقرب بعلمه من ذوى السلطان أو أن تكون منزلته قائمة على غير ما يراه العلماء . روى عن أبي العباس ثعلب قال : « قال لي محمد بن عيسى بحضرة محمد بن عبد الملك ، نحن نقدمك لتقدمه الأمير . فقلت ، يا شيخ ، اني لم أتعلم

---

(٢٦) معجم الأدباء ، ج ١ ص ١٣٠ .
(٢٧) المقدسي ، نقلا عن الثعالبي ، اللطائف والظرائف ص ٢١ .
(٢٨) الفرج بعد الشدة ص ٢٢١ .
(٢٩) معجم الأدباء ، ج ٥ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٣٠) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٥٣ .

العلـم لتقدمني الأمراء وانما تعلمته لتقدمني العلماء » (٣١) . وهذا شبيه بمعنى أبيات ينسب قولها الى عليّ بن عبد العزيز الجرجاني القاضي ، جاء فيها :

ولم أقض حق العلـم ان كان كلما
بدا طمـع صـيرته لي سـلما
ولم أبتذل في خدمـة العلم مهجتي
لأخدم من لاقيـت لكن لأخدمـا
أأشقى به غرسا وأجنيـه ذلـة
اذن فابتياع الجهل قد كان احـزما
ولو أن أهل العلم صـانوه صـانهم
ولو عظموه في النفـوس تعظما (٣٢)

ومن هؤلاء العلماء من كان يأنف أن يأخـذ جائزة من الخليفة أو سواه وكان يعيش في أمس الحاجة المادية . روى عن ابراهيم بن أسحاق الحربى ــ وهو محدث وعالم درس على احمد ابن حنبل ، وقد عاش فى خلافة المعتضد (وتوفي سنة ٢٨٥ هـ) ــ . أن المعتضد أرسـل اليه بعشرة آلاف درهم وسأله أن يفرقها بمعرفته ، فرد المال قائلا للرسول الذى جاء به ، عافاك الله ، هذا مال لم نشغل انفسنـا بجمعه فـلا نشغلها بتفرقته . قل لأمير المؤمنين أن تركتنا والا تحولنا من جوارك (٣٣) . وقد قيل عـن الخليل بن أحمد أنه لم ير افضل منه « فى التلطف عن الكسب بالعلم ، كان الناس يأكلون بعلمه وهو في خصّ له . وخرج الى مكة والناس يقولون فى الحرمين قال الخليل وذكر الخليل ، ورجع الى البصرة ولم يعلم بمكانه » (٣٤) . وقد ذكر عنه أبو حيان خبرا مع والي البصرة سليمان بن عليّ يؤكد صفة الترفع عن قبول المال على العلم من الوالي (٣٥)

لكن العلماء يتفاوتون في طبيعة نظرتهم الى الكسب بالعلم ، فمنهم من ظل يعلم بأجرة على علو شأنه ، وقد مر بنا حديث المبرّد مع الزجاج . وللزجاج نفسه قصة طريفة تظهر جانبا من منزلة العلماء وعلاقتهم بعصرهم وبالخلافة او بـذوى الشأن . فقد كان الزجاج مقربا من القاسم بن عبيد الله قبل ان يصبح وزيرا للمعتضد . فطلب اليه الزجاج ان يعده أنه اذا ما اصبح وزيرا أن يمنحه عشرين الف دينار . فلما ولى هذا الوزارة بعد أبيه ذكره الزجاج بوعده ، فلم يدر كـيف يحتال له على المال خوفا من أن ينكشف الامـر للمعتضد . فولاه عملا ليس من اختصاص نحوي أو مؤدب القيام به . اذ قال له القاسم (اجلس للناس وخذ رقاعهم في الحوائج الكبار واستجعل عليها ولا تمتنع عن مسألتي شيئا تخاطب فيه ، صحيحا كان أو محالا الى أن يحصل لك مـال النذر) ، ففعل ذلك وكان ربما راجع الوزير في الامر فيقول له هذا انك غبنت وكان يجب أن تأخذ من القـوم أكثر فيذهب (ويماكسـهم) فيزيدونه حتى يبلغ الحد الذى رسمه له الوزير (٣٦) .

ويذهب التطرف باخرين الا يقبل فلسا واحدا على علمه . وقد رويت النادرة التالية عن ابراهيم الحربى ــ وقد مر ذكره قبل قليل ــ : حدث أبو بكر الشافعي قال قال ابراهيم الحربي ، ما أخذت على علم قط إجرا الا مرة واحدة ، فانني وقفت على بقال فوزنت له قيراطا الا فلسا فسألني عن مسألة فأجبته فقال للغلام : اعط بقيراط ولا تنقصه شيئا فزادنى فلسا . (٣٧) هذا رغـم ان مجموعا ضخما من الرواة قـد اخـذوا عنه ودرسوا عليه ، منهم موسى بن هرون الحافظ ، وابو بكر الانبارى النحوى وابو عمر الزاهد، وخلق كثير غيرهم ــ كما يقول ياقوت (٣٨) . فلـو كان ابراهيم يأخذ اجرا على علمه لغني بهؤلاء لكنه كان يعيش فى حاجة وفقر شديدين ، وقد كان يملك ما لا يقل عن اثنى عشر الف جزء من لغة وغريب كتبها بخطه ، ولم يجرؤ على بيع واحد منها في حياته بل كان يضن بها رغم حاجة اهله الى قوت يومهم .

ومن العلماء الذين ذاقوا طعم الضنك عـالم فيلسوف شغل نفسه بالفلسفة اليونانية ، وكان مقدما عند ابى الفتح ابن العميد ، هو أبوسليمان السجستاني المنطقي ، وقد مرّ ذكره على لسان

---

(٣١) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١١٣ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ج ١٤ ص ١٧ ــ ١٨ .
(٣٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١١٢ .
(٣٤) محاضرات الأدباء ، ج ١ ص ٣٤ .
(٣٥) مثالب الوزيرين ، ص ١٤٨ ــ ٥٠ .
(٣٦) معجم الأدباء ، ج ١ ص ١٣٢ .
(٣٧) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١١٩ .
(٣٨) المصدر نفسه ، ص ١١٣ .

ابي حيان التوحيدى سابقا. فقد مرت بابي سليمان هذا ايام كان لا يجد فيها رغيفا يأكله ، فلما سمع بحاله وزير صمصام الدولة ارسل اليه مبلغا من المال بواسطة أبي حيان نفسه، فنسمع التوحيدى يخاطب الوزير قائلا « والله ايها الوزير ، ما أعرف ببغداد ــ وهي الرقعة الفسيحة الجامعة والعرصة العريضة الغاصة ــ انسانا أشكر لك وأحسن ثناء عليك ، واذهب في طريق العبودية معك ، منه . . » (٣٩) ثم يقول له « فلما وصل اليه ذلك الرسم ــ وهو مائة دينار ــ وحاجته ماسة الى رغيف وحوله وقوته قد عجزا عن اجرة مسكنه وعن وجه غدائه وعشائه ، عاش » (٣٩) .

لكن هذه الحال لم تكن هى السائدة ، لان الخلفاء والوزراء كانوا يضمون تحت ظلهم جماعة من العلماء يحيون بهم مجالسهم ، فضلا عن المؤدبين الذين استدعوا لتأديب أولادهم . وهم يختارون من جلة العلماء ، بعد أن تعقد لهم مجالس هى أشبه بامتحان عام ليختار منهم أحسنهم تصرفا في علمه . قيل « لما اراد المتوكل أن يأمر باتخاذ المؤدبين للمنتصر والمعتز جعل ذلك الى ايتاخ ، فأمر ايتاخ كاتبه أن يتولى ذلك، فبعث الى الطوال والاحمر وابن قادم واحمد بن عبيد ابن ناصح وغيرهم من الادباء ، فأحضرهم مجلسه ، فجاء احمد بن عبيد فقعد في آخر الناس ، فقال له من قرب ، لو ارتفعت ؟ فقال ، حيث انتهى بي المجلس . فلما اجتمعوا قال لهم الكاتب ، لو تذاكرتم وقفنا على موضعكم من العلم فاخترنا . . . (٤٠) .

الا أن علم الرجل لم يكن دائما هو المقياس الاول في تقدير شخصيته وفي رفعة منزلته عند الخليفة . وقد روى بهذه المناسبة خبر طريف عن الفراء ، اذ طلب لتأديب المعتصم ، فلزمه نحوا من شهرين ، ثم ما لبث أن جاء رجل يقال له أبو اياد فطلب القعود معه ، فسئل لينظر ما مقداره في العربية فقيل له ، كيف تقول يا زيد اقبل ؟فقال يا زيدُ اقبل . قيل فما هذه الضمة ؟ فقال الواو التي في قوله وأقبل . يقول الفرّاء فارتضى واقعد مع المعتصم فاستغنى ، وازلت انا . . . وكان يعجب بهذا ويتعجب منه ويقول : الدنيا لا تأتي على استحقاق (٤١)

وقد كان على هؤلاء العلماء ان يحسنوا التصرف في مجلس الخليفة ، وان يتمتعوا ببديهة حاضرة ليمتعوا بأحاديثهم واخبارهم وأن يكون لهم ــ فضلا عن العلم ــ معرفة بحسن المجالسة فقد أثر عن الاصمعي قوله (وصلت بالعلم ونلت بالملح) لان ما يتطلبه مجلس الخلافة هو غير ما يتطلبه المجلس العلمى القائم على العلم وحده . ويبدو أن العالم يجب ان يراعى آدابا خاصة في حضرة الخليفه ، ومن سها عن هذه الحقيقة لم يجد رضى عند الخليفة على علمه وفضله .

حكي عن الكسائي انه قامت بينه وبين اليزيدى مناقشة فى حضرة الرشيد ، على بيت من الشعر . فلم يحسن الكسائي الجواب ، وتحمس اليزيدى « فضرب بقلنسوته الارض ، وقال انا أبو محمد ، الشعر صواب . . . » مبينا الوجه الصحيح من الاجابة . فقال له يحيى بن خالد ، اتكتنى بحضرة أمير المؤمنين ، وتكشف عن رأسك ؟ . والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحب الينا من صوابك مع سوء فعلك . فقال « لذة الغلبة أنستنى من هذا ما أحسن . . . » (٤٢) .

ومن العلماء ، على سعة علمه وقدره في المجالس والحلقات العلمية ، من لم ينل حظوة عند أصحاب السلطان ، لا لقلة علمه لكن لسهوه عن قواعد المجاملة التي ياخذ بها الخلفاء أو الوزراء مجالسهم . ولعل هذا كان من أهم الاسباب التي نكدت عيش أبي حيان عند الصاحب بن عباد . فقد كان الصاحب ــ وهو من وزراء البويهيين ــ على عنايته بالعلم والعلماء ، مولعا بالمديح والثناء، يحبّ أن يقال له ذلك في وجهه . فلما قصده أبو حيان أراد ان يعيش في ظله كاديب وعالم له سعة فى العلم . لكن ابا حيان لم يعرف طبيعة الصاحب من هذه الجهة ، فلم يجامله بل كان صريحا معه صراحة أغضبته وأثارت حفيظته عليه ، فحاول بكل ما يستطيع ان يقلل من شان أبي حيان وان يظهر احتقاره له . وكان من نتائج تلك العلاقة تلك الرسالة الغاضبة التي كتبها أبو حيان فيه وفى ابن العميد ، وكان قد قصده هو ايضا ولم يفلح عنده . (٤٣)

ولم ينعم أبو حيان بالسعادة الا فترة وجيزة

(٣٩) الامتاع والمؤانسة ، ج ١ ص ٢٩ ، ص ٣١ .

(٤٠) مجالس العلماء ، ص ٦١ ، مجلس ٢٧ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(٤٢) معجم الادباء ، ج ١٣ ص ١٧٨ .

(٤٣) هي رسالة (مثالب الوزيرين) .

من حياته ، يتردد صداها فى كتاب (الامتاع والمؤانسة) الذى كتبه مسجلا فيه الليالي التي نادم فيها ابن سعدان وزير صمصام الدولة فى بغداد ، بعد عودته من الصاحب وابن العميد . ويبدو أن تجربته مع الصاحب وابن العميد قد علّمته كيف يدارى مجالس الوزراء هذه . ولذلك فاول ما يقوم به ابو حيان — فى الليلة الاولى من اجتماعه بالوزير ، هو أن يستأذنه باستعمال كاف الخطاب ، لكي يحس بشيء من الحرية فى المخاطبة ولا تصدّ نفسه عن الحديث بتكلف الكناية والألقاب . يقول حاكيا خطابه للوزير وطلبه ذلك اليه :

« كل شيء أريد أن أجاب اليه يكون ناصرى على ما يراد مني ، فاني ان منعته نكلت ، وان نكلت قلّ افصاحي عما أطالب به وخفت الكساد وقد طمعت بالنفاق ، وانقلبت بالخيبة وقد عقدت خنصرى على المسألة . فقال حرس الله روحه ، قل ، عافاك الله ، ما بدا لك ، فأنت مجاب اليه ما دمت . قلت ، يؤذن لى فى كاف المخاطبة وتاء المواجهة ، حتى أتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض واركب جدد القول من غير تقية ولا تحاش ولا محاباة ولا انحياش . قال : لك ذلك وأنت المأذون فيه ، وكذلك غيرك وما فى كاف المخاطبة وتاء المواجهة ؟ ان الله تعالى — على علو شأنه وبسطة ملكه وقدرته على جميع خلقه — يواجه بالتاء والكاف . ولو كان فى الكناية بالهاء رفعة وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدما فيه .. » (٤٤)

لكن هذا من الشاذ على المألوف . فالوزراء فى هذا العصر يطلبون طريقة معينة فى المجالسة وتقديم الطاعة ، ويبدو أن أبا حيان نفسه لم يصدق أذنيه حين سمع هذا الكلام ، ولذا نسمعه يخاطب الوزير قائلا : « أيها الوزير ، قد خالطت العلماء وخدمت الكبراء وتصفحت أحوال الناس فى أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم ، فما سمعت هذا المعنى من أحد على هذه السياقة الحسنة والحجة الشافية ..(٤٥)

ومع ذلك يبدو أن قوة الشخصية قد تفرض نفسها على هذه العلاقات أحيانا ، وعماد ذلك — فى هذا العصر الذى ندرسه — حسن التخلص وحضور البديهة . فما يتطلبه مجلس الخليفة أو الوزير قد لا يكون العلم الخالص أو التعمق فى النظر ، بقدر ما يتطلب النادرة وحضور الجواب والقابلية على التخلص — بالحق أو بالباطل — . وكتب الادب القديم تحفل بأمثلة لامتحان العلماء من قبل الخلفاء ، لكن النجاح فى هذه المواقف لا يقوم على مقدار العلم أو التعمق فيه ، بل قد يقوم على حسن مداراة المسؤول ومزاج السائل .

فهذا ابو عثمان الجاحظ معتزلي صاحب مذهب فى الاعتزال يدافع عنه ويكتب فى تفضيله ، يظن من ينظر فى علاقته القوية بالمعتزلة انه قد تورط معهم كما تورطوا فى تقربهم من الخلافة العباسية، ودخولهم المعترك السياسي . فقد تمتعت فرقة المعتزلة بمنزلة ليس بعدها منزلة فى خلافة كل من المأمون والمعتصم والواثق ، الذين جعلوا الاعتزال مذهبا رسميا للخلافة بدلا من السنة التى جرت عليها الخلافة . وبموت الواثق وتولى المتوكل الخلافة ، تجابه المعتزلة محنتها السياسية ، اذ ما لبث المتوكل أن ضرب على أيديهم ، وأعاد الخلافة الى السنة . وحينما يلقى القبض على محمد بن عبد الملك الزيات وزير الواثق وممثل المعتزلة فى البلاط العباسي ، ثم يقتل فى التنور الذى كان يقتل هو فيه خصومه ، يهرب الجاحظ ويختبيء ، وحينما يسأل عن ذلك ، يجيب قائلا : (خفت أن أكون ثاني اثنين اذ هما فى التنور) (٤٦)

يقول الجاحظ هذا وهو فى موقف لا أظن أن أحدا يجرؤ فيه على النادرة والسخرية ، وحياته تتعرض لخطر حاسم . ولكننا ما نلبث حتى نجد أبا عثمان فى مجلس أحمد بن أبي دؤاد الايادى — خصم الزيات — ، يحاوره ويداريه ويحاول أن يتخلص من حرج الموقف بنادرة وحسن تخلص وبديهة عرف بها الجاحظ فى كل مجال . ولا تمضي فترة حتى نسمع به يكتب رسائل باسم الخلافة ، ويطلب اليه الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، أن يعجل بانجاز رسالته (فى الردّ على النصارى) لينال مشاهرته ، بل يعده بالدفع مقدما ان هو فعل ، يقول الفتح فى كتابة الى الجاحظ : « ان أمير المؤمنين — أى المتوكل — يجد بك ، ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك فى نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه

---

(٤٤) الامتاع والمؤانسة ، ج ١ ص ٢٠ — ٢١ .

(٤٥) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٤٦) معجم الادباء ، ج ١٦ ص ٧٦ .

ولفصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول بـه ومتوفر عليه . وقد كان ألقى الي من هذا عنوانه فزدتك فى نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك ، فاعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى ، وافرغ منه وعجل به الي ، وكن من جدا به على نفسه ، تنال مشاهرتك ، وقد استطلقته لما مضى ، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة . وهذا مما لم تحتكم به نفسك ، وقد قرات رسالتك فى بصيرة غنام . ولولا اني أزيد فى مخيلتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها ، والسلام .. (٤٧)

ولا نتهم أبا عثمان بالنفاق والمداراة .. لماذا ؟ .

ان الجاحظ من الكتاب القلائل الذين جعلوا علمهم وأدبهم فى خدمة الناس جميعا ، وفى تصوير دقائق الاشياء وحقائق العلاقات فى عصر خفيت علينا كثير من أموره ، لتقلبها وتناقضها . فبقي أبو عثمان مخلصا لقلمه رغم كل شيء فلم يقفه على خدمة فرد معين أو على خدمة فكرة واحدة ظل يدور فى دائرتها مغمض العينين . فالجاحظ كتب للخاصة والعامة ، للمتمرن والمتمرس للعالم والمتعلم .. الخ ، وان عطفه على عامة الناس ليثير الاعجاب . ومن هنا شاعت كتبه وقرأها العامة وتداولوها ، وهي كتب قدم أكثرها الجاحظ هدية الى وزير أو كاتب ، ونال عليها جوائز عظيمة من الخلفاء أحيانا ، وقد يلفت النظر أنه لا يقدمها الى الخليفة نفسه ! . وليس غريبا أن يعجب الخليفة بفضل الجاحظ وعلمه ، لكن العجب حقا هو أن المتوكل نفسه يعجب بعلم الجاحظ ومعرفته ، والاخبار التى بين أيدينا لا تؤيد اعجاب المتوكل بالعلم والعلماء . ولقد سخر بهم فى مجلسه وتندر على بعضهم . ولقد قرب بعض العلماء ورفعهم الى درجة مريبة من الابهة ، ثم ما لبث أن أوقع بهم بصورة مفاجئة . وان قصته مع الطبيب بختيشوع بن جرائيل تقف مثلا بارزا على جدة مزاجه وسرعة انقلابه . فقد كان بختيشوع طبيبا سريانيا حاذقا ، منذ خلافة الواثق . لكن بعض أصحاب الواثق المقربين منه ، أوقعوا به فنكبه وقبض أملاكه ونفاه الى جنديسابور . فلما ولي المتوكل قرّبه واغدق عليه الاموال فبلغ مبلغا عظيما حتى « كان يضاهي المتوكل فى اللباس والفرش » (٤٨) . وكان المتوكل يتبسط معه دون تحرج . وفى ذات يوم قال المتوكل له ، ادعني . فقام بختيشوع باضافة المتوكل فى داره « وأظهر من التجمل والثروة وانفق فى الاضافة ما اعجب المتوكل والحاضرين . واستكثر المتوكل لبختيشوع ما رآه من نعمته وكمال مروءته .. وحقد عليه ونكبه بعد أيام يسيرة » (٤٩) .

ولقد كان فى حاشية المتوكل شخصيات عرفت بالكيد والايقاع بكل « من ذكر بالتقدم فى معرفة» . ولقد كان محمد وأحمد ، ابنا موسى بن شاكر مقدمين عند المتوكل حتى لقد « دبرا على الكندى (الفيلسوف المعروف) حتى ضربه المتوكل ووجها الى داره فأخذا كتبه بأسرها وأفرداها فى خزانة سميت الكندية .. » (٥٠)

ولعل جزءا كبيرا من اللوم واقع على المتقرب من الخليفة ، لأن العالم يدرك بعقله كيف يقف عند حد في علاقته بالناس ، ولذلك وصف بعض هؤلاء العلماء الذين لم يدركوا هذه الحقيقة بأن علمهم اكثر من عقلهم . فهذا أحمد بن محمد السرخسي يعده القفطي احد فلاسفة الاسلام له تصانيف جليلة في علمه . وكان تلميذا ليعقوب بن اسحاق الكندي ، وكان متفننا فى علوم القدماء والعرب . كان مؤدبا للمعتضد ورفعه المعتضد الى رتبة المنادمة ، ولم يكتف بذلك حتى بدأ يفضي اليه بأسراره ويستشيره في أمور مملكته . وكان هذا بالتالي سببا لقتل المعتضد له . فقد أثار تقربه من الخليفة حفيظة وزيره القاسم بن عبيد الله وكان الخليفة قد أفضى اليه بسر يتصل بالقاسم ، فاحتال هذا عليه حتى أدخل أسمه خلسة في قائمة جماعة حكم عليهم أن يقتلوا . ووقع المعتضد بقتله دون علمه . (٥١) ولقد وصف القاسم بن عبيد الله هذا بأنه من (دهاة العالم) ، وهو الذى قتل ابن الرومي بالسم (٥٢) .

---

(٤٧) المصدر نفسه ، ص ٩٩ .

(٤٨) عيون الأنباء ص ٢٠١ .

(٤٩) تاريخ الحكماء ، ص ١٠٣ .

(٥٠) عيون الأنباء ، ص ٢٨٦ .

(٥١) تاريخ الحكماء ، ص ٧٧ ــ ٧٨ .

(٥٢) الفخري ، ص ٢٥٧ .

لكن من الطريف أن نجد كاتبا من هؤلاء المقربين عند الخليفة يتأسى على زمان ضاعت فيه مفاهيم الحق ، لانه غلب خصمه عندالخليفة بالباطل المزوق بحسن اللفظ ، لا لأن الحق كان معه ، ذاك هو ابراهيم بن العباس الصولى ، وكان المتوكل قد ولاه ديوان الضياع ، فرفع أحمد بن المدبر شكوى عليه الى المتوكل يتهم فيها كاتبه باختلال الادارة وتضييع المال . فلما سأل المتوكل ابراهيم في ذلك بادره ابراهيم ببيتين من شعره يتقرب فيهما من المتوكل ، فاستحسنهما المتوكل وخلع عليه ولم يستمع الى قول ابن المدبر فيه . لكن ابراهيم احس بالغم وبتأنيب الضمير ، وحينما يسأل عن ذلك ، يقول يا بنى ، الحق اولى بمثلي وأشبه ، اني لم ادفع احمد بحجة ، ولا كذب في شيء مما ذكر ولا انا ممن يعشره في الخراج ، كماانه لا يعشرنى في البلاغة ، وانما فلجت برطازة ومخرقة ، افلا أبكى ، فضلا عن أن اغتم من زمان يدفع ذلك كله ؟ .. (٥٣) لكن هذه ، فى ظني ، من الاخبار الطريفة النادرة!.

* * *

تعد العلاقات الشخصية بين العلماء فيالقرون الهجرية الثانى والثالث والرابع من اكبر المظاهر حيوية ، ومن ادلها على نشاط الحركة العلمية فى العصر العباسى . ولم تقم العلاقات بين العلماء على نمط واحد ، بل تعددت مظاهرها ، فمنها علاقات تعليمية بين عالم ومتعلم ، وعلاقات مذهبية ، وعلاقات انسجام وتنافر يعبر عنها في حلقات المساجد ومجالس البيوت وفي الاسواق عند المناظرة أو الجدل او تبادل الراى . ولقد تطور كل مظهر من مظاهر هذه العلاقات حتى أصبحت تحكمه شروط وآداب كان على جميع الاطراف أن تخضع لها . وتعد العلاقات التعليمية من أوائل مظاهر نشاط الحركة العلمية في المجتمع الاسلامى ، كما يعد العصر العباسى من العصور المهمة في تطور الحركة العلمية ، وبالتالى تطور العلاقات التي تربط بين العلماء من جميع الاطراف .

تمتاز العصور العباسية بظاهرة مهمة كان لها شأنها فى الحياة الادبية والعلمية ، وكان لها شأنها في نشاط حركة التأليف وفي انتشار الكتاب بنطاق لا حدود له . واعنى بهذه الظاهرة نضوج الكتابة وشيوع أدواتها ورخصها ، بحيث تهيأت لكل المهتمين بتعلمها ، واصبح من الممكن لاى مؤلف ان يتصل بقرائه عن قرب وان يوجه اليهم كتاباته ويعنى بمختلف مستوياتهم العقلية ، وان يجعل كتبه ، اذا شاء واسطة للتعليم . والكتابة — وان لم تكن معدومة في العصور السابقة — كانت أدواتها من الكلفة بحيث لم تتهيأ لجميع الناس بيسر . فقد كان استعمال البردى هو الشائع وهو غالي الثمن ، ولذلك كان يقتصد في استخدامه حتى في الدواوين الادارية . (٥٤) فقد قيل عن عمر بن عبد العزيز — الخليفة الاموى — انه كان يأمر كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير ، فكانت كتبه انما هي شبر أو نحوه . (٥٥) ويبدو أن البردى كان هو الشائع في دواوين الخلافة ، حتى في خلافة المنصور . (٥٦) وربما استعمل فى غرض التأليف فى نطاق محدود ، لاسيما في الكتب التي ألفت للخليفة نفسه ، كما يستدل من قطعة باقية من كتاب (تاريخ الخلفاء) الذى ألفه ابن اسحاق للخليفة المنصور . (٥٧) . ثم أخذ المسلمون صناعة الورق من الصين عن طريق سمرقند ، وقد كانت بداية ذلك

---

(٥٣) معجم الأدباء ، جـ ١ ص ١٧٩ ، ص ١٩٥ — ٩٦ .

(٥٤) راجع فى هذا مقالة المستشرق (جب) بعنوان — خواطر فى الأدب العربي ، بدء التاليف النثرى — ، باللغة العربية فى كتابه Studies on The Civilisation of Islam (1962)

وقد ضمنّها صلاح الدين المنجد فى (المنتقى من دراسات المستشرقين — ١٩٥٧) .

(٥٥) الوزراء والكتاب ، ص ٥٣ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ .

(٥٧) القطعة نشرتها المستشرقة N. Abbot فى شيكاغو — ١٩٥٧ .

في السنة الاولى أو الثانية من حكم العباسيين ، ثم انتقلت صناعته الى العراق في زمن البرامكة ، والظاهر أن جعفراً البرمكي قد استبدل استعمال الرقوق بالورق في دواوين الحكومة » (٥٨) .

لقد أصبحت الكتب في هذا العصر وسيلة من وسائل التعليم ، ولعل الباحث يتوقع أن تنوب الكتابة مناب الحفظ كوسيلة للتعليم ، وذلك لكثرة انتشارها وسهولتها في هذا العصر ، لكن الحال لم تكن كذلك . ولذلك يختلف كتاب هذا العصر في المفاضلة بين (الكتابة) و (السماع) المباشر او الاتصال بالشخصية العلمية مباشرة ، أو الحفظ كوسيلة لأخذ العلم ونشره . فقد شاع القول من جهة على السن بعض العلماء ان الكتابة أكثر وثوقا لأجل المحافظة على العلم ، وان الحفظ وحده ربما اضاع على المتعلم علمه . وقد قال بعضهم في هذا الصدد : « كنت عند بعض العلماء ، فكنت أكتب عنه بعضا وأدع بعضا ، فقال لي ، اكتب كل ما تسمع ، فان أخس ما تسمع خير من مكانه أبيض .

وقال الخليل بن احمد : تكثر من العلم لتعرف وتقلل منه لتحفظ .. « (٥٩) ومع ذلك فالعلماء لا يتفقون على شيء فى هذا الامر ، وهم، فوق ذلك يرون أن الكتب وحدها لا تحيى الموتى ،ويقصدون بذلك أن الانسان الذى ليس له أدنى قبول لتلقي المعرفة ، لن ينفعه كتاب ولا علم . ويبدو أن الكتاب عندهم لا يغني عن السماع والاتصال الشخصي . فالمعروف مثلا أن كتب الجاحظ قد شاعت وانتشرت فى حياته حتى بلغت المغرب ، وقد ادخلها الى الاندلس أولئك الذين أخذوا عنه ، وينص على كتابين دخلا الأندلس في حياته، هما البيان والتبيين ــ وأسلوبه التعليمي واضح ــ، ورسالة التربيع والتدوير . فأثارت كتبه فضول المتعلمين هناك ، فقصده تلاميذ من المغرب ليتصلوا به عن قرب وليسمعوا منه بعد أن بلغت شهرته الآفاق . وقد قال عنه احد هؤلاء : « كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان» (٦٠) وهكذا قصده هؤلاء التلاميذ . لكن الطريف فى هذا الصدد ، أن الجاحظ ، على علو منزلته ، وبلوغه سن الشيخوخة ، وعلى شهرته فى المشرق والمغرب ، كان لا يزال عند مجيء هؤلاء المغاربة يعلم الصبيان الصفار . وهو أمر غريب حقا بعد ان ارتفع الجاحظ الى منزلة من الخلافة بحيث كان ناصحا لأولاد المعتصم ، وطلب ليكون مؤدبا لاولاد المتوكل فاعتذر . . . وهو ، فضلا عن ذلك ، أول من يصنف المعلمين الى صنفين . معلمي الصبيان ، والمؤدبين . ويعد الصنف الثاني أرفع منزلة فى العلم والمجتمع ، وقد هزىء من الصنف الاول وكتب فيهم حكايات لاذعة ، ومع ذلك كله ، يظل هو يمارس تعليم الصبيان الى فترة متأخرة من حياته . ولعل هذا من أوجه الغرابة فى طبيعة التعليم فى المجتمع الاسلامي . فرغم الاحتقار الذى تلقاه المهنة ، نجدها مع ذلك من اكثر المهن شيوعا، وقد مارسها العلماء اكثر من أية مهنة أخرى .

فالكتاب اذن ، مهما بلغ فضله فى الانتشار فى الآفاق ، لا يعوض عن اللقاء الشخصي والاتصال المباشر بالعالم . على أن بين علماء هذا العصر من كان يعتمد اعتمادا كليا على السماع والحفظ دون الكتابة ، وقد اشتهر من هؤلاء النحوي الكوفى أحمد بن يحيى ، ثعلب ، حتى لقد كان يتخذ حفظه وسيلة ومنهجا فى حلقاته ولا يعتمد على شيء مكتوب قط . قيل عنه : « وأبو العباس لا يمس كتابا اتكالا على حفظه وثقة بصفاء ذهنه» . ويقابله فى الطرف الثاني أبو سعيد السكرى الذى كان « كثير الكتب جدا ، فكتب بيده ما لم يكتبه أحد ، فكانا فى الطرفين لأن أبا سعيد كان غير مفارق للكتاب عند ملاقاة الرجال .. » (٦١) ، هذا وهما متعاصران .

---

(٥٨) محاضرات فى تاريخ العرب والاسلام ص ٣٦ .

(٥٩) كتاب الحيوان ، ، ج ١ ص ٥٨ .

(٦٠) معجم الأدباء ، ج ١٦ ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .

(٦١) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١٠٧ .

ومع ذلك نفهم من أخبار ثعلب انه ربما أخذ عن شيوخ لم يعاصرهم بل استعان على ذلك بكتبهم ، وبما أخذه عنهم تلاميذهم ، فقد قيل عنه انه كان يروى عن أبي نجدة كتب أبي زيد وعن الأثرم كتب أبي عبيدة ، وعن أبي نصر كتب الاصمعي ، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه . (٦٢) فمن الواضح انه لم يعاصر أحدا من هؤلاء العلماء الذين درس كتبهم بل قراها على تلاميذهم . لكنه يميل الى حفظ ما يأخذه ، وكان يقوم بالاملاء على تلاميذه من حافظته .

وهناك اكثر من دليل على أن هذه الكتب التي تسمى (كتبا) هي في الواقع أشبه بـ (مذكرات) يأخذها التلميذ عن أستاذه ، فهي ليست كتبا مؤلفة بالمعنى الذى نفهمه ، اى أن المؤلف قام بكتابتها وتنظيمها ، بل هي محاضرات المجالس التعليمية وأمالي الشيخ على تلاميذه ، ولا بد أن ثعلبا قد درس هذه المذكرات على تلاميذ الشيوخ . ولقد كان لاستعمال الكتابة كوسيلة من وسائل التعليم نتائج مهمة على طبيعة انتشار العلم ، حتى لقد خشي بعض العلماء أن تشيع كتبهم وتقرأ فيستغنى بها عنهم ، فكانوا يتعمدون وضعها موضعا صعبا لتبقى الحاجة معها اليهم ، سئل الأخفش في ذلك ، يقول الجاحظ : « قلت لأبي الحسن الاخفش ، (٦٣) أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ . قال ، أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الموضع الذى تدعوني اليه ، قلّت حاجتهم اليّ فيها . وانما كانت غايتي المنالة ، فأنا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا . وانما قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت » . (٦٤) فالأخفش اذن يخشى أن يقبل الناس على كتبه وتنتفي الحاجة اليه . لكن كتبه على صعوبتها قد وضعت لغاية تعليمية . وللاخفش قصة مع المازني والجرمي في أمر كتاب سيبويه . فالمعروف أن الكتاب لم يأخذه أحد عن سيبويه غير الاخفش . فخشي المازني والجرمي ان يدعي الاخفش الكتاب لنفسه ، فأخذاه واشاعاه بين الناس رواية عن الاخفش . (٦٥)

لقد كان للعلاقة بين الشيخ والتلميذ أثر على طبيعة حركة التأليف في هذه العصور ، لأن اكثر ما شاع من كتب الشيوخ كان في الحقيقة ما كتبه التلاميذ من مذكرات أخذوها عن الشيخ ، فيشيع الكتاب برواية التلاميذ . فهذا كتاب الكامل للمبرد وصل الينا برواية الاخفش الاصغر ، (٦٦) تلميذ المبرد . ولا يكتفي التلميذ برواية الكتاب عن استاذه نصا دون أن يتدخل فيه ، بل يقوم بتنظيمه والتعليق عليه وادخال آرائه مميزة عن اراء شيخه بقوله (قال ابو الحسن الاخفش) . ولا يكتفي بالتعليق بل قد يقوم بموازنة بين الروايات التي اخذها عن المبرد في غير هذا الكتاب فيقول مثلا ، (حدثنا المبرد في غير الكامل) ، (٦٧) والطريف أن الاخفش قد أخذ أيضا عن ثعلب ، امام مدرسة الكوفيين في عصره وخصم المبرد البصرى المذهب . ويقوم الاخفش بتصحيح روايات استاذه المبرد في

---

(٦٢) معجم الأدباء ، جـ ٥ ص ١١٩ .

(٦٣) ابو الحسن الأخفش هذا هو سعيد بن مسعدة ، مولى بني مجاشع بن دارم ــ وكان من نحويي البصرة ، ويعرف بالاخفش الاوسط ، توفي في سنة ٢٢١ هـ وقيل ٢١٥ (انظر بروكلمن : (تاريخ الأدب العربي) الترجمة العربية ــ جـ ٢ ص ١٥١ ــ ٥٢ .

(٦٤) كتاب الحيوان ، جـ ١ ص ٩١ ــ ٩٢ .

(٦٥) نزهة الالباء في طبقات الادباء ص ٩١ ــ ٩٢ .

(٦٦) هو علي بن سليمان المعروف بالأخفش الأصغر وهو من نحويي بغداد ، توفي سنة ٣١٥ هـ .

(٦٧) الكامل للمبرد ، جـ ١ ص ١٣٨ .

الكامل بروايات اخذها عن ثعلب أو عن الكوفيين عامة . (٦٨)

وقد تبلغ الثقة بين الشيخ والتلميذ مبلغا يجعل الشيخ يقدم لتلميذه كتابه بخطه دون أن يمليه عليه أو يسمعه التلميذ عنه كاملا . قيل عن ابراهيم بن أحمد الطبرى انه قرأ قصيدة شبل بن عروة الضبعي على أبي عمر الزاهد ثم تناولها من عبد الله بن جعفر بن درستويه ، لكنه لم يتمها قراءة عليه ، فقال له ابن درستويه : « قد دفعت اليك كتابي بخطي من يدى الى يدك ، وقد أجزت لك القصيدة فاروها عني ، فان هذا ينوب عن السماع والقراءة ... » (٦٩) . لكن التلميذ اذا اشاع علم استاذه كان من حق الاستاذ عليه أن ينسب اليه ما اخذه عنه ، وهذا من آداب العلم التي اصطلح عليها المسلمون .

ومن الطريف فى هذه العلاقات التعليمية أن عالمين من العلماء فى منزلة واحدة قد يأخذ أحدهما عن الآخر فى العلم الذى اختص به وتفرد للعمل له ، فيفيد أحدهما من الآخر فى موضوعه . قيل عن الرياشي والمازني ، وهما من علماء النحو فى القرن الثالث للهجرة ، ان الرياشي قرأ على المازني النحو وقرأ عليه المازني اللغة ، وكان المازني يقول : « قرأ الرياشي عليَّ كتاب سيبويه فاستفدت منه أكثر مما استفاد مني ، يعني أنه أفادني لغته وشعره ، وأفاده هو النحو » (٧٠)

وليست العلاقة بين العالم والمتعلم قائمة على التعليمية المجردة من عواطف الالفة والمحبة والتعاطف ، فقد يتفقد الشيخ تلميذه ويعينه فى معاشه ، وكذلك يفعل المتعلمون فيما بينهم . حكي عن ابراهيم بن سعيد بن الطيب ، وهو (من عبيد السبي ، وكان ضريرا) ، أنه قدم واسط وأراد أن يتعلم القرآن ، فجلس الى حلقة أحد الشيوخ « فكان معاشه من أهل الحلقة » ثم أصعد الى بغداد فصحب أبا سعيد السيرافى ـ العالم اللغوى المعروف فى القرن الرابع ـ وقرأ عليه شرح كتاب سيبويه ، وسمع منه كتب اللغة والدواوين . وقد عده ياقوت بين الادباء الذين ترجم لهم . (٧١)

وهذا أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة صحبه «على فقر شديد ، وكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش فيعود الى منزله الى فقر شديد ، وكانت أمه تحتال فيما يقتاته يوما بيوم » . حتى كان ذات يوم فلم يجد ما يأكله ، فبات جائعا وتأخر من غد عن المجلس حتى احتال فيما أكلوه . فلما جاء الى أبي حنيفة ، سأله عن سبب تأخره فصدقه ، فقال ، الا عرفتني فكنت أمدك ولا يجب أن تفتم» (٧٢) وللجاحظ قصة فى أول حياته شبيهة بقصة أبي يوسف حتى فى تفاصيلها . فالرابطة التي تربط بين العلماء أشد من رابطة الدم والقربى ، هي رابطة العلم والمقاساة فى سبيله .

* * *

لقد كان انتشار التعليم ونشاط الحركة العلمية ، منذ القرن الهجرى الثاني ، سببا من أسباب تعدد المذاهب والمدارس العلمية والاتجاهات العقلية . وعلى حين كانت الاختلافات المذهبية فى العصور الاسلامية الأولى تتخذ مجرى المجاهرة العنيفة التي تقوم على السيف ، وعلى المجاهرة اللسانية التي تعتمد على الخطابة والبلاغة العربية الأصيلة التي أساسها التأثير المباشر فى النفوس وفى كسب الأعوان ، تتخذ هذه الخلافات فى العصر العباسى

---

(٦٨) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٠ ، ج ٣ ص ٥٠ .

(٦٩) معجم الأدباء ، ج ١ ص ١١٠ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ج ١٢ ص ٤٤ .

(٧١) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٧٢) الفرج بعد الشدة ، ص ٢١٨ .

سبلا جديدة ، اهمها الالتجاء الى المحاجات العقلية القائمة على اسس من المنطق أصبحت واضحة فى مناهج المسلمين بعد اتصالهم بأصول الفلسفة الارسطوطالية خاصة . ولم تعد الخطابة بمفهومها العربي القديم وسيلة مهمة فى حياة الناس ، لا سيما بعد أن أصبح بالامكان اتخاذ الكتابة وسيلة لنشر المحاجات والمسائل واجوبتها. وهنا تلعب العلاقات بين العلماء دورا مهما فى توجيه الحركة العقلية ، فكلما زاد الاحتكاك بين العقليات المتباينة والمذاهب المختلفة ، زادت حدة الشرارات المنبعثة عن هذا الاحتكاك ، وبذلك اندفعت الحركة العلمية قدما الى الأمام .

ولعل من أهم آثار هذه المحاجات العلنية فى الحركة العلمية أننا بدأنا نلحظ فى هذا العصر حرص العلماء وزيادة توقيهم فى البحث والنظر وفى التعبير عن آرائهم خوفا من الزلل ، لأن مناوئيهم يقفون لهم دائما بالمرصاد . ونحن نعلم أن الخطأ المكتوب أصعب على التصحيح من خطأ شفوى يسمع ولا يدون . ولذا ، فزيادة التوقي تتضاعف فى الآراء المدونة والآراء التي يترقبها الخصوم ليتلقفوها بالنقد والتمحيص . ولعل الجاحظ خير من عبّر عن هذا الامر بقوله :

« وينبغي لمن كتب كتابا ألا يكتبه الا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالامور ، وكلهم متفرغ له ... » (٧٣)

فاذا اتخذ المؤلف هذه الحيطة ، راجع نفسه فيما يقوله أو يكتبه ولم يصدر رأيا فطيرا . واظن أن الذى دفع الجاحظ الى هذا القول خبرته الشخصية وتعرضه لكثير من المحاجات والتحديات عن كتبه التي أذاعها فى الناس ، فهو ينظر الى الامر نظرة خبير ونظرة عالم نفسي ، مستشهدا بقول الشاعر :

أن الحديث تغرُّ القوم خلوته
حتى يلج بهم عي واكثار

ومتمثلا بقولهم (كل مُجر في الخلاء يسرُّ) ذلك أن الذى يجرى فرسه منفردة يعجب بها لعدم وجود خيل يقيس سرعتها بها ، وكذلك الامر فيمن (خلا بعلمه عند فقد خصومه ، واهل المنزلة من أهل صناعته) — كما يقول — (٧٤) .

ثم نرى الجاحظ يتهم نفسه قبل أن يتهمه خصومه ، فيعتذر عن كتابه بملاحظة جاحظية اصلية ، يقول : « وانا أعوذ بالله أن أغرّ نفسي عند غيبة خصمي وتصفح العلماء لكلامي فاني أعلم ان فتنة اللسان والعلم أشد من فتنة النساء والحرص على المال ... » (٧٥) ويغلب على ظني ان هذا لا يكون الا فى عالم شغل بالعلم عن كل ما عداه ! .

فالرقابة العلمية اذن — وهي رقابة الخصوم — خير وازع ضد الغرور ، تفرض نفسها على العالم فى هذا العصر الذى نشطت فيه الحركة العلمية مصحوبة بخصومات ومعاندات وتحديات . ولعل هذه الرقابة أشد على الكاتب من أية رقابة أخرى.

يروى الجاحظ — وهو خير من يمثل المتكلمين فى هذا العصر — والمتكلمون من أوائل من عني بالجدل العقلي ، قصة جدلية طريفة جرت لبعض المتكلمين فى مجلس الخليفة المأمون ، تصور مدى أهمية المجابهة بين العلماء واهمية هذه الرقابة التي أسميها (رقابة علمية) . يقول الجاحظ :

« قال لي بشر المرّيسي : عرض كتابي على المأمون فى تحليل النبيذ ، وبحضرته محمد بن العباس الطوسي ، فانبرى للطعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه ، واسهب فى ذلك وخطب، واكثر واطنب ، فقلق المأمون واحتدم وهاج واضطرم

---

(٧٣) كتاب الحيوان ، ج ١ ص ٨٨ .

(٧٤) المصدر نفسه .

(٧٥) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٠٧ .

لاستحقار الطوسي وخلاء المجلس له . وكان يحب أن يزعه وازع يكفه بحجة تسكته ، فلما لم ير أحدا بحضرته يذب عن كتابي ، قال متمثلا :

يا لك من قبرة بمعمر
خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقري ما شئت ان تنقري

فما كان الا ريث فراغه من التمثل بهذه الابيات، حتى استؤذن لي فدخلت عليه . فقال يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول فى النبيذ ؟ . قلت حل طلق يا أمير المؤمنين . فقال ،فما تقول فيما أسكر كثيرة ؟. قلت ، لعن الله قليله اذا لم يسكر الا كثيره . ثم قال ، ان محمدا يخالفك . فأقبلت على ابن أبي العباس ، فقلت له ، ما تقول فيما قال أمير المؤمنين ؟. قال ، لا خلاف بيني وبينك؟ كلاما يوهم به أهل المجلس ، حبا للتسلم مني والتخلص من مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنمت ذلك منه وقلت له،فما لي لا أرى أثر قواه فى عقلك؟. فضحك المأمون، فلما رأيت ضحكه أطنبت فى معاني تحليل النبيذ ، وابن أبي العباس ساكت لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقا لا يسكت . فلما رأى المأمون سكوته عند حضوري مع كثرة كلامه فى ثلب كتابي وعيبه ــ كان ــ قبل دخولي ، قال متمثلا :

مالك لا تنبح ياكلب الدوم
قد كنت نباحا فما لك اليوم

ثم نظر الي فقال ، ان الكتب عقول قوم وراءها عندهم حجج لها ، فما ينبغي أن يقضي على كتاب الا اذا كان له دافع عنه ، وخصم يبين عما فيه ، فان أبناء النعم وأولاد الاسد محسودون . . »(٧٦) فالمختلي بحججه ليس كالعارض عقله على خصومه، لأن من يلزم الحيطة من الخصم ، يكون أشد توقيا ودقة .

وتعد القدرة على المناظرة والمحاجة صفة لازمة للعالم الذى يتمتع بالقابليات العلمية . وذلك أن العالم الذى اعتاد أن يسلم له بالامر دون نقاش أو سؤال أو تشكيك فيما يقوله ، يثق من نفسه بأمور لا تستحق أن يوثق بها ، فيضل عن الحقيقة ويضل . ولعل المتكلمين من أوائل العلماء الذين التفتوا الى هذه الحقيقة ، فعنوا بالجدل عناية ما بعدها عناية ، وامتاز فيهم جماعة بالقدرة على استغلال آلة الجدل العلمي ، المنطق . ولقد قيل عن النظام ، انه كان من أقدر المعتزلة على الجدل. يروى عنه انه جرت بينه وبين أبي شمر أحد أئمة القدرية المرجئة ، مناقشة فى دار أيوب بن جعفر بن سليمان العباسي ، وهو من الموالين لابي شمر.

« وكان أبو شمر ، اذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه حتى كأن كلامه انما يخرج من صدع صخرة . . »(٧٧). لكن النظام اضطره بالحجة حتى «حرك يديه وحل حبوته وحبا اليه حتى اخذ بيديه . وفى ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر الى قول ابراهيم النظام . ويعلق الجاحظ على هذا قائلا :

« وكان الذى غر أبا شمر وموه له هذا الراى ان أصحابه كانوا يستمعون منه ويسلمون له ويميلون اليه ، ويقبلون كل ما يورده عليهم ويثبته عندهم . فلما طال عليه توقيرهم له ، وترك مجاذبتهم اياه ، وخفت مؤونة الكلام نسي حال منازعة الاكفاء ومجاذبة الخصوم » (٧٧)

فالتحدى الذى يجابهه العالم خير حافز له على مراجعة ما يأخذ به ويسلم له . والشك عند المتكلمين أول ما يبدأ به للتوصل الى اليقين . ولعل أكثر العلماء تعرضا للتحديات والخصومات ، أولئك الذين كانت لهم وجهة نظر معينة أو كانوا ينتمون الى مذهب من المذاهب العقلية أو الفقهية أو العلمية .. الخ ، التي شاعت فى هذا العصر وانقسم العلماء بينها الى اتجاهات شتى ، ومدارس ينتمون اليها ، كما انقسم الناس متأثرين بهم ومتعصبين لطرف أو لآخر.

---

(٧٦) كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣٤٢ ــ ٤٤ .

(٧٧) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٩١ ــ ٩٢ .

ولعل اشهر خلافات فى تاريخ الحركة الفكرية الاسلامية لهـذا العصر ، تلـك الخـلافات التى نشبت بين الكوفة والبصرة بجميع اتجاهاتهما العقلية والسياسية واللغوية .. الخ فالكوفـة عرفت بميل علمائها فى الفقه الى التاويل وفيها نشأت مدرسة الراى وكانت ميولها السياسية علوية ، فاتخذتها الدعوة العباسية مركزا فى أول نشاطها ، حين كانت الدعوة العباسية علويـة الميل ، فلعبت الكوفة دورا ايجابيا مهما منذ قيام الخلافة العباسية ، ولقد كانت عاصمة الخلافة عند أول قيامها . ثم اصبحت مركزا مهما لنشاط فرق الشيعة المختلفة، واتجه الفقه فيها ودراسة اللغة والنحو اتجاها له طابعه المميز . أما البصرة فقد كانت العوامل المؤثرة فى تكوينها ذات طابع مخالف . فهى عثمانية فى ميولها السياسيـة الاولى . وقد احتضنت فى أول قيام الدولـة العباسية، حركات وثورات مناوئة للحكم العباسى وقد لعب المعتزلة ــ وهم المتكلمون الاوائل الذين هضموا الفلسفة الأرسطوطالية ، وطعموا بهـا العقيدة الاسلامية ــ دورا رئيسا فى الحيـاة البصرية . وقد تأثرت العلوم العربية بهذهالحركة الجدلية ، وكان للمنطق اليونانى أثر فى نحـو البصريين .

فالخلاف بين الكوفة والبصرة خلاف منهجى قائم على طبيعة (التناول) للموضوعات المختلفة. ويعزو الاستاذ طه الحاجرى هذا الخلاف الى عناصر البيئة القديمة المكونة لكل من ــ هاتين المدينتين ، ويقول :

والواقع أن البصرة والكوفة ما كان لهما أن يلتقيا ، اذ كانت كل منهما تمثل واحدا مـن هذين الطابعين المتقابلين بمعنى أنـه كان اغلب عليها واقوى أثرا فيها . فالبصرة تمثل الطابـع العقلى ، والكوفة تمثل الطابع الباطنى السرى . فعلى قدر ما بين هذين الطابعين من خلاف كان الامر بينهما فى شتى نواحى الحياة العقلية ، فذلك تأويل هذه الخصومة العنيفة الدائبة المتصلة بين البلدين ..

فلم يكن الامر للصدفة حين كانت البصرة مهد الاعتزال وبلد المعتزلة ، فى حين كانت الكوفة مهد التشيع وبلد الرافضة . وبين الاعتزال والتشيع ما بين الطابع العقلى والطابع الباطنى أو ما بين العقلية اليونانية والعقلية الكدانية .

ولم يكن الامر للصدفة أيضا حين كانت نشأة النحو فى البصرة على ذلك الاسلوب التنظيمى الدقيق ، فمرجع هذا أيضا لذلك الطابع العقلى الارسططالى الذى غلب على البصرة فوجهها الى ذلك النحو من الاستقراء والتصنيف والتنظيم واستخراج قوانين اللغة من خلال ذلك . ثم لم يقتصر الامر على ذلك بل لقد ظهر أثر هذا الطابع واضحا قويا على أبحاث النحو منذ نشأته ، فهو أول امره متأثر بالروح الكلامية خاضع لاساليب الفلسفة اليونانية ...(٧٨)

لكننا ما نكاد نسمع بمجابهةبين الكوفة والبصرة طيلة الفترة التى كانتا فيها قائمتين وحدهما ، حتى تنشأ بغداد وتحتل مركزها الاول فى الحركة العلميـة ، فتنشـط المجابهـة وتشتد المنافسة بين علماء البلدين . ولن تكون بعيدين عنالصواب اذا قلنا ان بغداد بعد انشائهـا وعمارتها قـد أصبحت مركزا تجتذب اليها علماء الطرفين ، فأتاحت بذلك فرصة لم تكن لتتاح لعلماء الكوفة والبصرة أن يلتقوا وان يتواجهوا مواجهة حيوية فكان ذلك من أهم الدوافع للحركـة العلمية ، وازدهارها . ولو لم تكن بغداد قد جمعت بـين هؤلاء العلماء من جميع الاطراف لما كان هناك مجال للتمييز أو التوفيق بين البلدين ، ولقـد سعى علماؤهما الى مدينة السلام .

والعلماء عندى يشكلون الجانب الحى مـن الحركة العلمية ، فمواجهاتهم تكشف لنا عـن جوانب طريفة للموضوعية العلميـة أو العصبية التى قد تجنى على الطرفين . فالتحديات التى كان نحويو الكوفة والبصرة يتبادلونها أصبحت مضرب المثل فى الحركة العلمية لهـذا العصر . وتتخذ هذه التحديات أشكالا مختلفة ، علميـة

---

(٧٨) الجاحظ حياته وآثاره ص ٣٦ .

أو شخصية . فقد يبعث أحد الجانبين بمسألة من المسائل بواسطة أحد تلاميذه الى خصمه ، يتحداه فيها ويسأله عنها ليختبر علمه ولتعرف منزلته عندالناس . وكانكل جانبمن المتخاصمين يخشى أن ينحاز تلاميذه الى حلقة خصمه ، لا سيما ان تلاميذ الشيخ كانوا أشباه دعاة له ومؤيدين لمذهبه ودافعين عنه أمام خصومه . فهو لا يريد أن يفقدهم . فهذا الكسائي ، وهو عالم جليل بين نحاة الكوفة وقرائها ، رقى بعلمه حتى بلغ بلاط الرشيد ، ولم يكن مؤدبا لاولاده فحسب بل ارتفع الى مرتبة الجلساء . كان يحيط نفسه بمجموعة من التلاميذ كانوا أشبه بدرع يتقى به الضربات الاولى لخصمه . ويبدو أنه لم يكن يواجه خصومه منفردا ، بل نجده في المناظرات العلنية يقدم تلاميذه لمناوشة الخصم أولا ، وما يلبث أن يحضر الى المجلس بهيبته ووقاره ،ليقول كلمة الفصل ، كما يظهر في مناظرته لسيبويه . ولقد كان التلاميذ فضلا عن ذلك أشبه بحلقة وصل بين مجالس العلماء ، لهم حرية التنقل بينها ولهم الحرية في التوفيق بين المذاهب التي يأخذونها عن شيوخهم ؛ كما أن لهم حريةالمفاضلة يحكى عن ثعلب أن ختنه ــ وهو زوج ابنته ــ كان يخرج من منزله وهو جالس على باب داره فيتخطى أصحابه ويمضي ومعه دفتره ومحبرته فيقرا على أبي العباس المبرد كتاب سيبويه ، فيعاتبه أحمد بن يحيى على ذلك ويقول له ، اذا رآك الناس تمضي الى هذا الرجل تقرأ عليه يقولون ماذا ؟ . ولم يكن يلتفت الى قوله .. (٧٩) . وسئل مرة ، كيف صار محمد بن يزيد المبرد أعلم بكتاب سيبويه من أحمد بن يحيى ، أي ثعلب . فقال ، لان محمد بن يزيد قرأه على العلماء وأحمد بن يحيى قرأه على نفسه ..

ولقد رويت عن المبرد وثعلب منافرات كثيرة اختلف الناس فيها وفي تفضيل أحدهما على صاحبه ، وانحاز المؤلفون الى أحدهما دون الاخر حسب ميولهم الى البصريين أو الكوفيين . فالمبرد بصري درس كتاب سيبويه ، أما أحمد بن يحيى فكوفي المذهب . وقد أتيحت الفرصة لهذين العالمين أن يتصلا ويتواجها مواجهات شخصية بعد مجيء كل منهما الى بغداد . وكانت لكل منهما حلقته في المسجد ، وان كان بعض تلاميذهما مشتركا بينهما .

وقد يتعصب اتباع عالم من العلماء تعصبا شديدا له حتى يغضبوا له أن يواجه خصمه أو يذهب اليه بنفسه ، خشية أن يقول الناس عنه انه اتصل به أو تتلمذ عليه .. روى ابن الانباري قال : « سمعت أبا العباس ، يعني ثعلبا ، يقول ، عزمت على المضي الى المازني لاناظره ، فأنكر ذلك عليَّ أصحابنا وقالوا : مثلك لا يصلح أن يمضي الى بصري ، فيقال غدا انه تلميذه ، فكرهت الخلاف عليهم » (٨٠) . وقد ذكر ابن الانباري هذا الخبر في بعض مصنفاته ليفخر بثعلب ، لكن العلماء المسلمين قالوا : « أراد ابن الانباري أن يرفع من ثعلب ، فوضع منه . » ، وكان متعصبا للكوفيين . ومعنى هذا أنهم وجدوا هذا الموقف من العصبية المسيئة الى العالم ،اذ لم يجد العلماء في هذا العصر غضاضة حتى في الاخذ عن خصومهم والتعلم منهم . فهذا الكسائي ، رغم مواقفه الصريحة من نحويي البصرة ، انحدر الى البصرة فلقي الخليل بن أحمد وجلس في حلقته وأخذ عنه . (٨١) ولا أظن هذا القول من باب الوضع على العلماء أو الانحياز للبصريين ، لان أخذ الكسائي عن علماء البصرة لم يقلل من منزلته. بل زاد من شأنه عند الكوفيين والبصريين معا . لكن هذا الامر ، مضافا اليه شدة المنافسة التي زادت حدة في الجيل التالي ، وفخر الكوفيين على البصريين وتقربهم من الخلافة في بغداد ، هو الذي جعل الجاحظ ــ وهو بصري منشأ وتكوينا

---

(٧٩) معجم الادباء ، ج ١ ص ١٢٠ ــ ٢١ .

(٨٠) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ١١٥ .

(٨١) المصدر نفسه ، ج ١٣ ص ١٦٩ .

ومذهبا ـ يفخر على الكوفيين قائلا : « وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان وسيبويه الذى اعتمدتم على كتبه وجدتم فضله .. » (٨٢)

ولا يعاب العالـم اذا اعترف بغلبـة خصمـه ورجحان رأيه ، لا سيما اذا كانت هذه المناقشات طريقا قويما للوصول الى الحقيقة ، لا وسـيلة للمعاندة أو اثارة العواطف . وما دامت هـذه المناقشات تدور فى دائرة العلماء ، فـلا خشية منها . لكن أكبر ما كان يخشاه العلماء هو أن تغلب روح العامة على الروح العلمية فتوجـه هـذه الاختلافات وجهة خطرة على الحياة العلمية وعلى المجالس العلمية . ونفهم مما يتردد على السن بعض العلماء أن خشيتهم ليست بسبب العلماء المخالفين لهم فى الرأى ، بل من أن تشتبك العامة فى النزاع . وهذا اكبر ما كان يخشاه المعتزلة فى نزاعهم مع احمد بن حنبل فى أحداث المحنة ، وقد انحازت اليه العامة بصورة صريحة حتى هاجموا سجنه وحاولوا اخراجه بالقوة ، فأفلت زمـام الامر من يد المعتزلة ولم يكديستتب لهـم بعـد ذلك . (٨٣)

والعامة تحكم بالظاهر وتحكـم بعواطفها دون الالتزام بمنهج علمي ، ولذلك فقد يتوقى العلماء من تدخل هؤلاء فى مناقشاتهم ، لا سيما تلك التى كانت تجرى على مسمع من العامة فى المساجد . قيل حين جاء سيبويه من البصرة الـى مدينـة السلام ، أتى حلقة الكسائي وفيها غلمانه الفراء وهشام ونحوهما . فقال الفراء للكسائي : « لا تكلمه ودعنا واياه فان العامة لا تعرف ما يجـرى بينكما ، وتغليبها بالظاهر ، فدعنا واياه .. » (٨٤) . ولعل ما كان يخشاه الفراء هنا هو أن يشتبك الكسائي مع سيبويه فى المسجد ــ وهـو محل عام يرده الناس بجميع طبقاتهم ــ وقدعرف الكسائي بفضله ومنزلته فى بغداد ، فاذا ناظره سيبويه ، وهو الشاب الناشيء الذى يتعرض لشيخ مكين المنزلة ، على مشهد مـن النـاس ، فالعامة قد تنحاز بدافع الحماس العاطفـي الـى سيبويه بغض النظر عن قيمة الحجج التى يوردها الطرفان . ولذلك خشي تلاميذ الكسائي عاقبة هذا التعرض فعرضوا انفسهم للمناقشـة دون شيخهم .

ومن جهة أخرى، حاول بعض العلماء أن يستغل هذه العاطفة وهذا الحماس الذى تصدر عنه العامه فى حكمها ، فأثارها ثم غلب خصمه بالحـق أو بالباطل ، وهو واع أن الحجة ليست الى جانبه ، والعامة يعجبون بنمط من الكلام الفصيح يصيب أسماعهم دون الالتفات الـى دقائـق المعاني أو التعمق فيها . ولقد كان هذا الخلق فى العامة من العوامل التى أعانت القصّاص فى المساجد الاسلامية على أن يتحفوهم بأنواع مـن الملاهـي والاحاديث المتعة والمفعمة بالمبالغات ، بحجة الوعظ الديني والتفسير القرآني ، فكان العامة ينجذبون اليهم دون الالتفات الى مدى الانسجام المنطقي فى هذه الاحاديث .

وللأصمعي حكاية مع سيبويه عن مناظرة جرت بينهما فى المسجد علنا ، سندع الاصمعي يحدثنا بها ، وفيها من الدلائل على هذه الامور ما فيها . يقول الاصمعي :

« .. انه عرض علي شيء من الابيات التـى وضعها سيبويه فى كتابه ، ففسرتها على خلاف ما فسره ، فبلغ ذلك سيبويه فبلغني أنه قال ، لا ناظرته الا فى المسجد الجامع . فصليت يوما فى الجامع ثم خرجت فتلقاني فى المسجد فقال لي : اجلس يا أبا سعيد ، ما الذى أنكرت من بيت كذا وكذا ؟ ولم فسرت على خلاف ما يجب ؟ . فقلت له ، ما فسرت الا على ما يجب ، والذى فسرتـه

---

(٨٢) المصدر نفسه ، جـ ١٦ ص ١٢٢ .

(٨٣) من احداث المحنة ، راجع :

W. M. Patton, **Ahmad b. Hanbal and al-Mihna,** (Brill – 1897)

(٨٤) تاريخ بغداد ، جـ ١٢ ص ١٩٧ .

أنت ووضعته خطأ ، تسألني وأجيب . ورفعت صوتي فسمع العامة فصاحتي ونظروا الى لكنته فقالوا : لو غلب الاصمعي سيبويه ، فسرّني ذلك؛ فقال لى ، اذا علمت أنت يا أصمعي ما نزل بـك مني ، لم التفت الى قول هؤلاء . ونفض يده فى وجهي ومضى . ثم قال الاصمعي ، يا بني فوالله لقد نزل بي منه شيء وددت أني لم أتكلم فى شيء من العلم . » (٨٥)

لقد كان العلماء المسلمون يتعرضون لامتحانات قاسية تعرض فيها معارفهم للاختبار بصـور مختلفة . ولا اقصد بهذا تلك المقابلات التى كان يجريها الخلفاء لجملة من العلماء ليختاروا منهم مؤدبين لاولادهم ، فهى كثيرة وترد فى كتب تاريخ الادب ، وقد كاد كل عالم ان يتعرض لها لاسيما النحاة .

ان الطريف من هذه الامتحانات هى تلك التى يقوم بها العلماء بعضهم لبعض فى المجالس العلنية بسبب تلك المنافسة على المنزلة العلمية ، وليس هناك مؤسسة مسؤولة عن منح القاب علمية او منح رتب معينة ، ولذلك يترك الامر للنتائج التى تترتب على هذه المناظرات او التحديات التـى يتبادلها العلماء . وقد كان لبعض المناظرات أثر عظيم فى تقرير مصير العلماء ـ كما سيتبين لنا بعـد .

ان نباهة عالم من العلماء في اى علم تعرّضه لهذه التحديات العلنية ،ويحرص العالم هو ايضا على ان يحافظ على اسمه ومنزلته ، اذ ليس هناك منزلة يوصـل اليها ويوقف عندها ، فتؤخذ بالتسليم له . اذ لا يزال العالم معرضا للامتحان حتى أخر رمق من حياته ، حتى وان بلغ اعلى مرتبة في العلم والمعرفة . فهذا ابو على القالى يعد من ائمة اللغة والادب ، وكان احفظ اهل زمانه ، حتى انه حين استدعى من المشرق الى الاندلس وجلس للتدريس هناك ، أملى كتابه (الامالى) كله من حفظه . (٨٦) ومع نباهته وعلو شأنه يعرّض يوما للامتحان ، اذ نراه يخطىء فى اقامة وزن بيت من الشعر كان قد رواه مستشهدا به فى بعض مذكراته مع الادباء ، فأنشد بيت عبدة بن الطبيب .

ثمت قمنا الى جرد مسومة
اعرافهن لأيدينا مناديـل

فأنشد عجز البيت على هذه الصورة : (أعرافها لأيدينا مناديل) .

فأنكرها ابن رفاعة الالبيرى ، فاستعاد البيت مرتين، وأنشده أبوعلى علىهذه الصورة،فلوىابن رفاعة عنه منصرفا وقال : مع هذا يوفد على امير المؤمنين وتتجشم الرحلة العظيمة ، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس ، لا يغلط الصبيان فيـه . والله لاتبعتـه خطـوة . وانصرف عن الجماعة .... (٨٧)

وهذا المبرد ، من اشهر علماء البصرة فىالنحو، واوثقهم فى نحو سيبويه ، يطلب من قبل عيسى بن ماهان ، فيرد عليه من العراق وقد ذاع صيته فيها ، بعد ان اتصل بالخليفة المتوكل ويسأله عيسى بن ماهان ، ذات مرة ، عن معنى (الشاة المجثمة) ، فيقول ، هى الشاة القليلة اللبن ، مثل اللجنة ويسأله عن شاهد ، فيأتى بقول راجز :

لم يبق من آل الجعيد نسمه
الا عنيـز لجبـة مجثّمه

ثم يدخـل على اثره ابو حنيفـة الدينورى فيسأله عن المعنى فيقول في الشـاة المجثمة ، هى التى جثمت على ركبتها ونحرت من قفاها فقيل له ، كيف تقول وهذا شيخ العراق ابـو

---

(٨٥) معجم الادباء ، ج ١٦ ص ١٢٥ .

(٨٦) ذكر القالي ذلك نصا فى مقدمة كتابه ، الامالي ج ١ ص ٣ .

(٨٧) نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤٩ ، عن مقدمة الامالي بقلم الاصمعي .

العباس المبرد يقول هى مثل اللجبة وهى قليلة اللبن ، وانشد البيت . فقال ابو حنيفة ، ايمان البيعة تلزم ابا حنيفة ان كان الا لساعته هذه . هذا التفسير وان كان البيت الا لساعته هذه . فقال ابو العباس المبرد ، صدق الشيخ أبو حنيفة انفت ان ارد عليك من العراق وذكرى ما قد شاع فأول ما تسألنى عنه لا أعرفه (٨٨) . فهذه المواقف شديدة على العلماء .

ونسمع أن المعنيّ بالأدب من الامراء والقواد كان اذا دخل بلدا قام بجمع علمائه فى مناظرات علنية ومجالس تنظم لهذا القصد ، لكى يختار منهم صفوة يتخذهم نصحاء وحاشية ، ولكى يفاخر بهم بقية الحاكمين . فهذا ابو الفتح ابن العميد حين دخل بغداد عقد مجالس مختلفة للفقهاء يوما ، وللادباء يوما وللمتكلمين يوما ، وللمتفلسفين يوما وفرق أموالا خطيرة وتفقد ابا سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وغيرهما وعرض عليهما المسير معه الى الرى .. (٨٩) . ولعل هدفه من ذلك ان يباهى بهولاء الصاحب بن عباد وغيره من خصومه الوزراء والامراء البويهيين الذين جمعوا حولهم حاشية من العلماء .

وحين تعرض للصاحب بن عباد حاجة لطبيب من الاطباء ، يكتب الى عضد الدولة فى بغداد ان يلتمس له طبيبا . وبعد السؤال والمشاورات ، ينصح أن يبعث بأبي عيسى جبرائيل لا لعلمه بالطب فحسب ، بل لانه متكلم جيد الحجة عالم باللغة الفارسية ، وكأنه يختار عالما للمناظرة والاحتجاج لا للعلم بالطب فقط . فلما وصل الى الرى لقيه الصاحب وانزله احسن منزل ، حتى اذا مضت على اقامته مدة اسبوع اعد له يوما عنده اهل العلم بأصناف العلوم ورتب لمناظرته انسانا من اهل الرى . فيسأله هؤلاء فى مسائل تتصل بالطب فيشرحها لهم شرحا وافيا ، ويعلل تعليلات لم يكونوا قد سمعوا بها . وبعد ان يجتاز هذا الامتحان العلني ، يحل من الصاحب محلا رفيعا فيخلع عليه ، ثم يبدأ باستشارته ، ويطلب اليه ان يؤلف له كتابا في الامراض التي تعرض من الراس الى القدم ، ثم يمنحه عليه — بعد اتمامه — الف دينار فكان جبرائيل كثيرا ما يفخر قائلا صنفت مائتي ورقة اخذت عنها الف دينار (٩٠)

وما دامت هذه المناظرات تقوم مقام امتحان تقرر مصير العالم نتائجه ، فلا عجب ان تعقد عليها اهمية عظيمة ، وتقوم بتنظيم وعلم سابق ويعين لها تاريخ معلوم . فهى اشبه بمناقشات الرسائل الجامعية التى تقيمها بعض الجامعات فى عصرنا هذا . لكنها غير مقصورة على المبتدئين في اول درب البحث العلمي ، بل تعرض لها كبار الشخصيات العلميـة الذين قطعوا من الدرب شوطا طويلا . ولقد اشتهرت مناظرات فى تاريخ الحياة العلمية الاسلامية ، كان لها شأنها فى توجيه الحياة هذه . وتشترك هذه المناظرات بجملة سمات ، بشهرتها وبتنظيمها وبنتائجها الحاسمة . واسبق هذه المناظرات زمنا ، المناظرة بين سيبويه والكسائى .

تتفق المصادر الاسلامية على أمور تتصل بهذه المناظرة وتختلف فى أمور ، تبعا لميل المؤلفين نحو البصريين أو الكوفيين .

فسيبويه النحوى البصرى ، نشأ وتثقف فى البصرة ، واتقن النحو وهو شاب وكانت له حلقة فى شتى المعارف الادبية وهو فى مقتبل العمر . (٩١) ولم يكن قد اتصل ببغداد أو بالخلافة قبل هذه المناظرة . أما الكسائي ، وهو من قرّاء الكوفة وشيوخها فى النحو ، فقد كان قبل المناظرة مؤدبا في بلاط الرشيد لولديه الامين والمأمون ، وقد صحب الرشيد حتى موته .

---

(٨٨) انباه الرواة ، ج ١ ص ٤١ .

(٨٩) مثالب الوزيرين ، ص ٢٧٠ — ٧٢ .

(٩٠) عيون الأنباء ، ص ٢١١ .

(٩١) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٩٧ .

فلماذا تــرى تقوم مناظرة بــين عالمين بهاتين المنزلتين ، هل الغاية منها أن تقرر منزلة البصرة من الكوفة فى النحو ؟ . هل تكمن وراءها مطامح شخصية ترنو الى الشهرة والنباهة ؟ .

تقول بعض المصادر ان سيبويه قصد يحيى بن خالد البرمكي ، وزير الرشيد ، فقال لــه : « جئت لتجمع بيني وبين الكسائي » . وتختلف الروايات فى رد يحيى البرمكي على سيبويــه ، فينقل ياقوت عن جماعة من نحويي الكوفــة والبصرة بينهم المبرد وثعلب أن يحيى رد عليــه قائلا : «لا تفعل فانه شيخ مدينة السلام وقارئها، ومؤدب ولد امير المؤمنين ، وكل من فى المصر له ومعه » (٩٢) . ويفهم من كلام يحيى البرمكي أن هناك محاذير من التعرض لشيخ فى منزلة كمنزلة الكسائي ، ليس عند الخليفة وحده بل عند أهل بغداد ، اذ أن « كل من فى المصر له ومعه » . وفى هذا مجازفة تكفي لمنع شاب قدم بغداد وحده وليس لــه فيهــا مؤيدون . لكن البغدادى ينقل روايته عن رواة الكوفة وحدهم ، فيأتي فيها رد يحيى بصورة مختلفــة ، اذ يقول لسيبويــه : « الكسائي عندنا رجل عالم لا يمتنع عن مناظرة احد ، وأنا اتقدم اليه فى الحضور » (٩٣) . والفرق بين الجوابين أوضح من أن يدل عليه .

على أن بعض المؤرخين المتأخرين يذهب الى أن يحيى البرمكي هو الذى أراد أن يجمع بينهمــا لانهما اماما الكوفة والبصرة فى زمانــه . فجمع بينهما قصدا . (٩٤)

وأخيرا يعين يــوم للمناظرة بعد أن يستأذن الخليفة فى ذلك ويدعى كلا الطرفين . ويبدو أن سيبويه لم يكن فى صحبته احد من أصحابه أو من مؤيدى مذهبه ، « فلما كان ذلك اليوم ، غدا سيبويه وحده الى دار الرشيد » (٩٥) . وكان الكسائي قد أحاط تلاميذه علما فحضر منهم جماعة قبل حضور شيخهم ، كان منهم الفراء والاحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان .. (٩٦) . ولقد ســاعد هؤلاء التلاميذ على توهين قــوى خصمهم اذ بدأوا بمناظرته والقاء المسائل عليه ، قبل حضور شيخهم الكسائي . ولم يقف الامر عند حد المناقشة بل تعداه الى التعريض والاثارة، اذ كلما أجاب سيبويه بجواب ، قال له الاحمر « أخطأت يا بصرى » ، على مسمع من المجلس كله ، فغضب سيبويه وقال « هذا سوء أدب » ، وامتنع عن المناظرة حتى يحضر الكسائي . وأخيرا يحضر الكسائي ،وكأنه يدخل حلبة للمصارعة بعد أن وهنت شوكة خصمه ، وتبدأ المناظرة بينهما . ويختلفان فى المسألة النحوية المشهورة ، ثم تقوم قضية ، اذ من سيحكم بين الطرفين وهما عالمــا مصريهما . ويقال انهما رجعا الى بعض الاعراب الذين يوثق بفصاحتهم ، فيحكم هؤلاء بما يراه الكسائي ويردون قول سيبويه . وهنــا نسمع اتهامات البصريين توجَّه الى الكوفيين . فقــد ذهب أصحاب سيبويه الى أن « الاعراب الذين شهدوا للكسائي من أعراب الحطمية الذين كان الكسائي يقوم بهم ويأخذ عنهم » (٩٧) . وقد قيل أكثر من ذلك فى وصف نتيجة المناظرة ، يقول ياقوت « وتعصبوا عليه وجعلوا للعرب جعلا حتى وافقوه على خــلافه .. » (٩٨) . بينما يــرد الكوفيون علــى رواياتهم بقولهم « فقــال بعض

---

(٩٢) معجم الادباء ، جـ ١٦ ص ١١٨ ــ ٢١ .

(٩٣) تاريخ بغداد ، جـ ١٢ ص ١٠٤ .

(٩٤) انباه الرواة ، جـ ٢ ص ٣٤٨ .

(٩٥) معجم الادباء ، جـ ١٦ ص ١١٨ .

(٩٦) المصدر نفسه . لكن البغدادى لا يذكر من تــلاميذ الكسائي الذين حضروا غير الفراء والاحمر .

(٩٧) معجم الادباء ، جـ ١٦ ص ١٢١ .

(٩٨) المصدر نفسه ، ص ١١٦ .

الجهال ان الكسائي واطأ الاعراب من الليل حتى تكلموا بالذى أراده . وهذا قول لا يعرج عليه لان مثل هذا لا يخفى على الخليفة واالوزير وأهـل بغداد اجمعين » (٩٩) . فالكوفيون فخورون بشيخهم ، بل لقد ذهب بعضهم الى أن بدرة المال التي دفعت الى سيبويه لم تكن من يحيى البرمكي بل كانت من الكسائي نفسه ، أو بايعاز منه ، وكأنه أشفق على سيبويه بعد ما لحقه من خزى الخيبة والفشل .

لقد كان لهذه المناظرة أثر ظل يذكره الرواة حتى عصرنا هذا . ولعل من أهم آثارها عندنا ، ما أصاب سيبويه نفسه من خيبة وألم ، حتى لقد خرج وصرف وجهه تلقاء فارس ، وأقام هناك حتى مات غما بالذرب ، ولم يلبث الا يسيرا ولم يعد الى البصرة . ولهذا القول ، عندى ، احتمالان هما : اما أن المناظرة كانت من الاهمية فى حياة العالم بحيث انها توشك أن تقرر مجرى حياته ، لا العلمية فحسب بل حتى مصيره . أو أن الرواة المؤيدين للبصريين قد زادوا فى وصف أثر المناظرة في سيبويه نفسه فجعلوها سببا في موته غما وهو لا يزال فى مرحلة مبكرة من حياته ، اذ تذهب هذه الروايات الى انه مات ولم يبلغ الاربعين من العمر . (١٠٠) وانا ارجح الاحتمال الاول ، وذلك لاهمية هذه المناظرات العامـة فى الحيـاة العلمية ، ودليلنا على ذلك أمثلة أخرى من هذه المناظرات التي سجلتها لنا كتب تاريخ الادب من كل عصر .

ففي القرن الرابع الهجرى تجرى مناظرة لا تقل أهمية عن هذه المناظرة ، وهي شبيهة بها من جهات كثيرة ، ومختلفة عنها فى أمور اخرى . تلك هي المناظرة بين بديع الزمان الهمذاني وأبي بكر الخوارزمي التي كان لها شأن عظيم فى حياة هذين الرجلين .

فأبو بكر الخوارزمي يعد من أشهر أدباء القرن الرابع الهجرى ، طلب الادب وقام بنشره وكان له أتباع . وقد تقلب فى البلاد بين العراق والشام وفارس ، واتصل برجال عصره ، فلقي سـيف الدولة الحمداني وخدمه ، ثم مضى الى بخارى فنيسابور فسجستان . وقد كان مفضلا عند الصاحب بن عباد ، حتى لقد جعل له الصاحب رسما يصل اليه كل سنة ، وهو مقيم بنيسابور (١٠١) وقيل عنه انه « كان يتعصب لآل بويه تعصبا شديدا » ، ولعل هذا كان من الاسباب التى جعلته يتعرض لظروف قاسية فى حياته ، وهيأت هذه الظروف جوا من التألب عليـه ، ساعد عليه اعلان الخوارزمي عن رأيه فى سياسة بعض القواد ، اذ كان « يفض من سلطان خراسان ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه » ــ كمـا يقول الثعالبي ــ (١٠٢) . الى أن كانت أيام تـاش الحاجب ورجع منخراسان الىنيسابور منهزما . فشمت به وجعل يقول ، قبحا له وللوزير أبي الحسن العتبي ! ، فأمر هذا بمصادرة أموالـه وقطع لسانه . وقبض عليه فعلا واخذت أمواله ، الا أنه استطاع أن يهرب الى الصاحب فىجرجان . وحدث أن قتل العتبي وقام مقامه ابو الحسين المزني ، وكان من أشد الناس حبا للخوارزمي ، فاستدعاه وأعاد اليه ما أخذ منه فارتفع شأنـه عند ولاة نيسابور . وان كان بعض وجوه نيسابور ظلوا مستوحشين منه . (١٠٢)

أمـا بديع الزمـان ، فقد كـان حين لقائـه للخوارزمي ، أديبا شابا لم يتجاوز الخامسـة والثلاثين من العمر ، يطلب الشهرة وقد استقرت أصولها عند الخوارزمي ، ويطلب التقرب مـن حكام عرفهم الخوارزمي وكان ذا منزلة رفيعـة عندهم .

فما هو الطريق نحو الشهرة والمنزلة ، ولـم

---

(٩٩) تاريخ بغداد ، ج ١٢ ص ١٠٤ (رقم الترجمـة ــ ٦٥٤٤) .

(١٠٠) معجم الأدباء ، ج ١٦ ص ١١٥ .

(١٠١) يتيمة الدهر ، ج ٤ ص ٢٠٤ ــ ٢٠٨ .

(١٠٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ ــ ٩

لا يتحدى اديبا وشيخا معروفا ، ولم لا يكون هذا التحدي على مشهد من علماء عصره ؟؟ . انها فرصة اذا خسرها لم يخسر الا جولة ، وهو لا يزال شابا في أول الدرب .

ان أول مناورة يقوم بها البديع في هذه السبيل هي انه حالما وصل الى نيسابور ، وقد عاد اليها الخوارزمي واستقر بها ، كتب اليه كتابا بالتعظيم والتبجيل في المخاطبة يطلب فيه لقاءه . وبعد أن يلتقي به أول مرة ، يكتب بديع الزمان كتابا آخر اليه يعاتبه فيه على سوء لقائه . (١٠٣) ويعتذر الخوارزمي اليه ويتكاتبان بالقاب التعظيم والمخاطبة ، بـ (الشيخ سيدي) و (الاستاذ سيدي) ، التي على المبالغة فيها ، لا تعني شيئا خاصا ، لانها سمة من سمات التأدب التي عرف بها العصر ، وهي مألوفة في المخاطبات الفارسية بصورة خاصة . وقد أثبت ياقوت رسائلهما بهذا الشأن . (١٠٤)

ولا يكتفي البديع بذلك بل يسعى الى لقاء الخوارزمي في مجلس عام . ويبدو ان هناك اتجاها في نيسابور كان يسعى لتحدي منزلة الخوارزمي ، يقول ابو الحسن بن أبي القاسم البيهقي « وأعان البديع الهمذاني قوم من وجوه نيسابور كانوا مستوحشين من أبي بكر ، فجمع السيد نقيب السيادة في نيسابور ابو علي بينهما وأراده (أي أبا بكر الخوارزمي) على الزيارة ، وداره بأعلى ملقاباذ فترفع ، فبعث اليه السيد مركوبه .. » (١٠٥)

وهكذا يضطر الخوارزمي الى لقاء هذا الاديب الشاب في ظروف لم تكن صالحة تماما ، كما كانت للكسائي عند لقائه سيبويه . ويحضر الخوارزمي تحيط به جماعة من تلاميذه ، لكنه بدلا من تقديم بعض تلامذته للحلبة أولا ـ كما فعل الكسائي ـ يتقدم اليه بنفسه . وكأنه قرين له أو مساو لمنزلته . وهذا يكفي اعترافا ضمنيا لاقراره له بالمنزلة المعادلة له ، وهو الاديب الشيخ الذي أقر الرؤساء له بالمنزلة . لكن يبدو أنه لم يكن للخوارزمي بد من ذلك .

وتستمر المناظرة بينهما اكثر من يوم . فبعد اللقاء الاول تدوم المناظرة حتى وقت متأخر من الليل ، حتى بات القوم في مجلسهم وقد غلب عليهم النعاس ، ثم أصبحوا فتفرقوا .

ويقوم البديع بمناورة أخرى محاولا اعداد الظرف للجولة التالية ، وقد وثق من نفسه بعد أن وجد الجو ملائما له . فيزور أبا بكر ويعتذر اليه عما بدر منه في مناقشته الاولى فيتصافيان.

ويبدو ان الجو تهيأ فعلا لبديع الزمان عند أهل نيسابور ، اذ كان « بعض الرؤساء مستوحشا من الخوارزمي وهيأ مجمعا في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير » (١٠٦) ، وكان ذلك للمرة الثانية ، وحضره جماعة من العلماء . وقبل بدء المناظرة يلقي بديع الزمان قصيدة في مدح آل البيت ، متقربا بها من شيوخ المجلس .

وتبدأ المناظرة بينهما في مسائل أدبية وشعرية ولغوية . ولو صدّقنا ما تنقله الروايات من وصف لهذه المناظرة ، لرأينا مدى غلبة صلف الشباب واندفاعه على بديع الزمان ، وقد وجد الاسماع تنحاز اليه . وأذكر مثلا على ذلك هذا الجزء من المناظرة :

ينشد بديع الزمان البيتين التاليين :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق ... واخرس فان أخاك حي يرزق
يا أحمقا وكفاك تلك فضيحة ... جربت نار معرتي هل تحرق

---

(١٠٣) معجم الأدباء ، جـ ١ ص ١٨٦ ـ ٨٧ .

(١٠٤) المصدر نفسه ، جـ ١ ص ١٦٧ ، ص ١٨٨ ـ ١٩٦ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، جـ ١ ص ١٧٣ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، جـ ١ ص ١٧٩ .

والتعريض بأبي بكر الخـوارزمي ، فى هذيـن البيتين لا يحتاج الى الدلالة عليه والاشارة اليه. ومع ذلك ، تقول الرواية ، ان الخوارزمي قال : « يا أحمقـــا ، لا يجوز فانــه لا ينصرف » . فيجيبه البديع : « لا نزال نصفعك حتى ينصرف وتنصرف معه » (١٠٧)

ولو صح هذا الامر فانه خروج ظاهر على أدب المناظرة ، لا سيما اذا كان يصدر من مناظر شاب نحو شيخ كبير السن . ولا أدرى كيف يسكت اهل المجلس على سوء الادب هذا ، وبخاصة اذا علمنا ان المناظرات كانت تلتـزم بآداب معينـة مرسومة كان على الطرفين أن يراعياها. الا ان يكون هناك تواطؤ على احراج الخوارزمي . أما آداب المناظرة ، فسأعرض لها فيما بعد ، وهي ان دلت على شيء فانما تدل على نضوج العلم والعنايـة به ، حتى اذا بلغنا القرن الرابع للهجرة، رسخت كثير من عاداته وأصبحت قواعد يلتزم بها .

ولا يكتفي البديع بهذا حتى يهزأ بالخوارزمي على مسمع الناس وفى مشهد منهم ، اذ يقال انه قام وقبل رأس الخوارزمي ويده وقال « اشهدوا أن القبلة له . قال ذلك على سبيل الاستهزاء » (١٠٨) .

لقد كان لهذه المناظرة آثار بعيدة فى حيـــاة هذين الرجلين ، فالمؤرخــون يذهبون الى أن نجم بديع الزمان قد تألق على أثر ذلك ، وقـد خلا له الجو ، وخاصة بعد موت الخـــوارزمي الذى قيل عنه انه « عاد الى بيته وانخـــزل انخزالا شديدا وانكسف باله وانخفض طرفه ، ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره ، وذلك في شوال ســـنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة .. » (١٠٩) . وكان مولده فى سنة ٣٢٣ هـ .

هذا هو شأن هذه المناظرات فى الحيـــاة العلمية لهذه العصور . ولا يقل شـــأنها عـــن مناقشات الرسائل العلمية فى عصرنا ، بل لقـد كان اثرها ابعد واسبر غورا ، لانها شملت ذوى المكنة والتمرس فى العلم ولم يسلم منها الشيوخ ، ولم يكن اثرها بأقل شأنا فى تقرير مصيرهم عنـد معاصريهم .

لقد شملت هذه المناظرات أصحاب العلـوم والمناهـج المختلفـة ، ولم تقتصر على المختصين بعلم واحد . ولقد شهد القرن الرابع الهجـرى اصنافا من هذه المناظرات كان لها من الصيت ما جعلها تفرض نفسهـا على المؤلفين فرضـــا ، فنقلت بدقة أكبر لانها دونت أثناء جريانها .

ولعل من أشهر مناظرات هذا القــــرن ، تلـك المناظرة التي قامت بين شيخين ، لكل منهما ــ فى علمه الذى اختص به ــ منزلة لا تقل عـــن منزلة صاحبه . وقد زاد من قيمة هذه المناظرة أن آراء هذين الشيخين تمثل اتجاهين بارزين فى هذا العصر . وقبل الحديث عن هذا الامر لا بد من عرض شيء يتصل بهما .

الشيخان هما : الحسن بن عبد الله أبو سعيد السيرافى ، العالم النحوى المعروف . قال عنه ابن الانبارى، « انه كان من أكابر الفضلاء وأفاضل الادباء ، زاهدا لا نظير له في علم العربية . وكان أبوه مجوسيا . وصنف تصانيف كثيرة أكبرها (شرح كتاب سيبويه) ولم يشرح كتاب سيبويه احد أحسن منه . ولو لم يكن له غيره لكفـــاه فضـــلا ... » (١١٠) . وكـــان مـــن اعلم الناس بنحو البصريين . وقد فضله أبو حيان التوحيدى على كثير من نحويي عصره لانه اجمع لشمل العلم وانظم لمذاهب العرب وادخل في كل باب واخرج من كل طريق وألزم للجادة

(١٠٧) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٦ .

(١٠٨) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٨٢ .

(١٠٩) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٨٠ ــ ويتيمة الدهر ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

(١١٠) نزهة الالباء ، ص ٢١١ ــ ١٢ .

الوسطى في الدين والخلق ، واروى في الحديث واقضى فيالاحكام وافقه في الفتوى واحضر بركة على المختلفة واظهر أثرا في المقتبسة . (١١١) .

أما الطرف الآخر في المناظرة فهو متى بن يونس القنائى ، وهو من العلماء النصارى ، وصفه القفطى بأنه عالم بالمنطق شارح له ، مكثر وطيء الكلام قصده التعليم والتفهيم ، وعلى كتبه وشروحه اعتماد أهل هذا الشأن فى عصره ومصره (١١٢) . وقال عنه ابن النديم انه من أهل دير قنى ممن نشأ في اسكول مرماري . . واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره . (١١٣) ويبدو ان شروحه في المنطق يعوّل عليها الناس في القراءة . وقد نقل عن السريانية وشرح كتب المنطق اليوناني . (١١٤)

فالمناظرة اذن بين نحوى ومنطقي . أما موضوع المناظرة فهو المفاضلة بين النحو والمنطق . وليس هناك من شك في أن محاورة كهذه قد جرت فعلا . (١١٥) فهى فضلا عن وصولها الينا بدقة ، لان الوارقين أحضروا محابرهموالواحهم وكتبوها عندما كانت تجرى ، (١١٦) وفي هذا من الدليل ما فيه على ما يعلقه العلماء من الاهمية على هذه المناظرات . أقول ، فضلا عن ذلك ، ليس بغريب أن تقوم مفاضلة بين النحو والمنطق بين شيخين من شيوخهما ، لانها تعبر عن الدفاع عن منهجين مختلفين من مناهج الفكر في هذا العصر . كل منهج يتخذ آلة معينةللتوصل الى الحقيقة التى يطلبها ، وبالتالى ينظر الى الحقيقة من الوجهة التى توصله اليها وسيلته .

فاللغويون (وآلتهم النحو) يرون جانبا من الحقيقة يختلف عما يراه الفلاسفة (وآلتهم المنطق) منها . والمفاضلة تجرى بين هاتين الآلتين .

ورب سائل يسأل : ما هي المناسبة بين النحو والمنطق حتى يقوم شيخان من شيوخ هذا العصر ليتناظرا فيهما ؟ . ولعل الاجابة على هذا السؤال تكمن في طبيعة النشاط العلمى لهذا العصر وظروفه المحيطة به .

يمتاز القرن الرابع الهجرى بنشاط ملحوظ فى العلوم العقلية وباتجاه المشتغلين بهذه العلوم الى الافادة من الفلسفة اليونانية بنطاق واسع تأسست على اثره قواعد الفلسفة الاسلامية مستقلة شيئا فشيئا عن الدراسات الدينية والعلوم الشرعية والنقلية . ولقد كان أكثر القائمين بهذا النشاط الفلسفي ذوى ثقافة يونانية أو اطلاع على العلوم اليونانية بواسطة السريانية . ولقد أدى هذا النشاط الى ضرورة التمييز بين منهج العلوم العقلية ـ وعلى رأسها الفلسفة ـ ومنهج العلوم النقلية ـ وعلى رأسها الشريعة ـ ثم التفسير واللغة ، وهو منهج يختلف فيالسبيل التى يسلكها الى الحقيقة . ولقد عيب علىبعض متكلمى هذا العصر خلطهم بين المنهجين ، اذ تناولوا الشريعة والفلسفة بمنهج واحد ، فلم يأتوا بشيء . ولعل ما قام به اخوان الصفا للتوفيق بين العلوم المختلفة والفلسفات والاديان والعقائد يقف مثالا بارزا على هذا الخلطالمقصود بين مناهج متعددة المجالات . ولعل خير من عبر عن هذا التمييز بين منهجى الشريعة والفلسفة ، أبو سليمان السجستانى المنطقى ، وقد مر بنا

---

(١١١) الامتاع والمؤانسة ، جـ ١ ص ١٢٩ .

(١١٢) تاريخ الحكماء ، ص ٣٢٣ .

(١١٣) الفهرست ، ص ٣٨٢ .

(١١٤) تاريخ الحكماء ، ص ٣٢٣ .

(١١٥) انظر المقالة التي كتبها المستشرق Margolio.th مناقشا مدى صحتها التاريخية فى :

Journal of the Royal Asiaitc Society. (1905) PP. 79-91

(١١٦) الامتاع والمؤانسة ، جـ ١ ص ١٢٨ .

ذكره في أول هـذا البحث ، وهـو ممـن عني بالفلسفة وعاش في معمعة هذا القرن . وقـد كان ابو سليمان نفسه تلميذا لمتّى بن يونس ، قرأ عليه وتصدر لافادة هذا الشأن وقصده الرؤساء والاجلاء . وكان أبو حيان — كما رأينا سابقا — أحد المتصلين المعتصمين به . (١١٧) ولقدعرض ابو حيان عليه جملة من رسائل اخوان الصفا كان قد وجدها مبثوثة في سوق الوراقين — كما يقول — ، فحملها الى شيخه ليعرف رايه فيها . فنظر فيها أياما وأعادها اليه . وكان أول نقـد يوجهه السجستاني الى هذه الرسائل قوله :

« تعبوا وما أغنوا ونصبوا وما أجدوا وحاموا وما وردوا وغنوا وما طربوا ، ونسجو فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع،ظنوا انهم يمكنهم ان يدسوا الفلسفةالتي هي علم النجوم والافلاك والمجسطي والمقادير وآثار الطبيعة والموسيقى التي هي معرفة النغم والايقاعات والنقرات والاوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الاقوال بالاضافات والكميات والكيفيات — في الشريعة ، وان يضموا الشريعة الى الفلسفة .

وهذا مرام دونه حدد وقد توفر على هـذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدّ انيابا واحضر اسبابا وأعظم اقدارا وأرفع أخطارا وأوسع قوى واوثق عرا ، فلم يتم لهم ما ارادوه ، ولا بلغوا منه مـا أمّلوه وحصـلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات فاضحة والقاب موحشة ، وعواقب مخزية وأوزار مثقلة .. » (١١٨) فالفرق بين الشريعة والفلسفة فرق جوهري في المنهج الذي تسلكه كل منهما في الوصول الى الحقيقة . ومن هنا قام علماء هذا القرن بالمناقشة والمفاضلة بين هذين الاتجاهين في كل مناسبة . ولقد جرت تحديات بهذا المعنى بين أصحاب الشريعة وأصحاب الفلسفة في سوق الوراقين التي كانت اشبه بمنتدى يجتمع فيه العلماء في هذا القرن للاطلاع على ما ينسخ مـن كتب في دكاكين الوراقين . كانوا يلتقون فيهـا فيلقى بعضهم على بعض مسائل يختبرون فيهـا علمهم وقابلياتهم على المناظرة . ومن هذا المعين الزاخر استقى ابو حيان التوحيدي مادة كتبه ، فجاءت مفعمة بتلك المناظرات التي كانت تدور في كل مناسبة بين اصحاب المذاهب المختلفة .

ومن اقرب هذه المناظرات الى الموضوع الذي نحن فيه ، تلك المناظرة التي تدور بين المقدسي (وهو ابو سليمان محمد بن معشر البيستي)، والحريري (غلام ابن طرارة ، في المفاضـلة بين الشريعة والفلسفة . وقد اثبتها ابو حيان في الامتاع . (١١٩)

أما مناظرة السيرافي ومتى بن يونس ، فهي على أهميتها لم تقرر شيئا في مصير النحـو أو المنطق . ولعل أول ما يلفت النظر في هذه المناظرة انها مرتجلة لم تهيأ بسابق موعد ، ولم يتبـع المتناظران منهجا مرسوما، ولذلك قد تبدو المسائل فيها مرتبكة وغير واضحة العلاقة .

جرت المناظرة في مجلس الوزير ابن الفرات ، وزير المقتدر . وكان ذلك سنة ٣٢٦ هـ .

وقد حضر المجلس جمع من جلة العلماء . ويبتدر ابن الفرات أصحاب المجلس قائلا : الا ينتدب منكم انسان لمناظرة متى في حديث المنطق ، فانه يقول ، لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين ، الا بما حويناه من المنطق وملكناه من القيام به واستفدناه من واضعه على مراتبه وحدوده ، فأطلعنا من جهة اسمه على حقائقه ... فأحجم القوم واطرقوا . (١٢٠)

---

(١١٧) تاريخ الحكماء ، ص ٢٨٢ .

(١١٨) الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ص ٦ .

(١١٩) الامتاع والمؤانسة ، ج ٢ ص ١١ — ١٨ .

(١٢٠) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٠٨ .

ويبدو أن متّى بن يونس كان مستبدا بهـذا العلم وقد اثار حفيظة من حوله بكبريائه . ومع ذلك يتهيب العلماء من مجابهته في هذا المقام . فيعنفهم ابن الفرات على احجامهم وتغامزهم وترامزهم ، وهو يعدهم في العلم (بحارا) – كما يقول – . فيجيبه السيرافي قائلا :

اعذر ايها الوزير فأن العلم المصون في الصدر غير العلم المعروض في هذا المجلس على الاسماع المصيخة والعيون المحدقة والعقول الحادة والالباب الناقدة ، لان هذا يستصحب الهيبة ، والهيبة مكسرة ، ويجتلب الحياء ، والحياء مغلبة . وليس البراز في معركة خاصة كالمصاع في بقعة عامة (١٢١)

لكن السيرافي ما يلبث حتى يقدم ، مترددا أول الامر ، ثم واثقا من نفسه بعد قليل . ويبدو أن تحيز المجلس له كان من الدوافع التى نشطته فأدهش الحاضرين بتدفقه بكلام ما كان يظن أنه قادر عليه . وقد نقل علي بن عيسى الرمانى أحد العلماء الذين حضروا المجلس ، وصفا لما انفض عليه المجلس ، يقول فيه : وتقوض المجلس وأهله يتعجبون من جاش أبى سعيد الثابت ، ولسانه المتصرف ووجهه المتهلل وفوائده المتتابعة (١٢٢) . ويسأل ابو حيان علي بن عيسى قائلا : اما كان ابو علي الفسوى (وهو من أئمة النحو في هذا العصر أيضا) ، حاضر المجلس ؟ . قال ، لا ، كان غائبا ، وحدث بما كان ، فكان يكتم الحسد لابى سعيد على ما فاز به من هذا الخبر المشهور والثناء (١٢٣) .

والسبب فى هـذا التحاسد ان أبا علي كان هو الآخر ممن انصب على النحو ، وكانت بينه وبين ابى سعيد السيرافي منافسة في هذا العلم . وقد قام أبو علي بشرح كتاب سيبويه هو كذلك ، لكنه – على ما يقول ابو حيان – متئقد بالغيظ على ابى سعيد وبالحسد له ، كيف تم له تفسير كتاب سيبويه من أوله الى آخره ، بغريبه وامثاله وشواهده وأبياته (١٢٤) . ولقد بلغت المنافسة بينهما حدا حتى أن أبا علي اشترى شرح أبى سعيد للكتاب الا أن اصحابه ابوا الاقرار بذلك وزعموا انه اراد النقض عليه واظهار الخطأ فيه . ولعل هذه المناقشة بين هذين العالمين قد اثارت معاصريهما ودفعت أحد امراء هذا العصر الى التفكير فى الجمع بينهما فى مناظرة عامة أيضا ، فلم يقض له ذلك – كما يقول ابو حيان – لان أبا سعيد مات فى رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة . (١٢٤)

فالمناظرات في هذا العصر امتحانات علنية منظمة ، ونتائجها تنتشر في الدوائر العلمية فتثير اهتمام جميع العلماء ممن حضر أو لم يحضر المجلس . ويبدو من اخبار أبى سعيد السيرافي التى ينقلها أبو حيان ، وهو تلميذه في النحو ، أن الشيخ قد تعرض لهذه المواقف مرات غير هذه . ويبدو أنه لم يكن موفقا فيها جميعا . فقد جوبه بمسألة في مجلس أبى الفتح ابن العميد ذات مرة ، وقد تحداه العامرى ، وهو أحد فلاسفة هذا العصر ، مر بنا ذكره سابقا ، وفاجأه بسؤال لم يكن يجول في وهمه . لكن أبا سعيد تخلص من الجواب ببلاغة لسانية لا قيمة لها في الميزان العلمى او الفلسفى لهذا لعصر . ويبدو ان ابن العميد نفسه قد التفت الى حرج موقف السيرافى ، فأدار دفة الحديث نحو وجهة أخرى . وفيما يلي الخبر عن أبي حيان لما فيه من طرافة فى وصف هذه المواقف ، يقول :

انعقد المجلس في جمادى الآخرة سنة اربع وستين وثلاثمائة ، وغص بأهله . فرأيت العامرى

---

(١٢١) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .

(١٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

(١٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

(١٢٤) المصدر نفسه ، جـ ١ ص ١٣١ .

وقد انتدب فسأل ابا سعيد السيرافي ، فقال ، ما طبيعة الباء من (بسم الله الرحمن الرحيم) ؟ فعجب الناس من هذه المطالبة ، ونزل بأبي سعيد ما كاد يشده به . فأنطقه الله بالسحر الحلال ، وذاك انه قال ، ما احسن ما ادبنا به بعض الموفقين من المتقدمين فانه قال :

واذا خطبت على الرجال فلا تكن
خطل الكلام تقوله مختالا
واعلم بأن من السكوت لبابة
ومن التكلف ما يكون محالا

والله يا شيخ ، لعينك اكبر من فرارك ، ولمرآك أوفى من دخلتك ، ولمنشورك أبين من مطويك . فما هذا الذى طوعت له نفسك ،وسدد عليه رايك . انى اظن ان السلامة بالسكوت تعافك ، والغنيمة بالقول ترغب عنك . والله المستعان . » وهنا يتدخل ابن العميد ويظهر اعجابا بالسيرافي فينشد ابياتا من الشعر ثم يقول : هاتوا حديثا آخر فقد يئسنا من هذا . ثم اقبل على ابن فارس معلمه فقال ، يئسنا من كلام اصحابك في الفرضة والشط . ثم يقول أبو حيان فلما خرجنا قلت لابى سعيد السيرافي ، ايها الشيخ ، رايت ما كان من هذا الرجل الخطير عندنا ، الكبير في انفسنا . فقال ، ما دهيت قط بمثل ما دهيت به اليوم . ولقد جرت بيني وبين أبي بشر متى صاحب شرح كتب المنطق سنة عشرين وثلاثمائة في مجلس أبى الفتح جعفر بن الفرات ، ملحة كانت هذه أشوس وأشرس منها (١٢٥) . وكأن العامرى اخذ بثأر المناطقة من النحويين . وبهذه المناسبة يحدث السيرافي أبا حيان بتفاصيل مناظرته مع متّى (بزوبرها) ، كما يقول التوحيدى ، رغم مرور اكثر من اربعين عاما عليها ــ كما جاء في تاريخ السيرافي لها . ومن الجدير بالذكر أن السيرافي الآن قد جاوز الثمانين من العمر . فهو ، على منزلته العلمية العالية ، لا يزال يعرض لهذه الامتحانات العلنية.

لقد اصبحت المناظرات ذات شأن في القرن الرابع ، تخضع لنظام واضح المعالم ، لا يقل في درجة نضوجه ، عن نظام (المناقشات الاكاديمية) التى تعرف في الجامعات اليوم بـ (Seminars) ولست اقصد الى المبالغة فيما اذهب اليه ، فقد اجتذب انتباهى في وصف هذه المناظرات ، وبخاصة في القرن الرابع ، أنها منظمة تنظيما تخضع فيه لقواعد وآداب معينة لا بد انها قد تطورت عبر العصور حتى وصلت الى صورتها الناضجة هذه . ولا شك أن العلماء قد توصلوا الى هذه القواعد العامة نتيجة لخبراتهم التى مروا بها في المناظرات المختلفة فمجالس العصور الاولى بسيطة ومباشرة ، وهي في الاغلب ، لا تقوم بسابق تنظيم ، فكانت تجرى في حلقات المساجد والمجالس العامة عرضا . حتى تنبه الى اهميتها بعض الخلفاء ، فأصبحت تعقد بسابق علم . ولعل المأمون من اوائل الخلفاء العباسيين الذين عنوا بالجدل وبأقامة مجالس خاصة لهذا الغرض. وربما شارك هو نفسه في ادارتها وتوجيهها . وما تلبث هذه التحديات أن تنتقل من (المنافرة) العاطفية المرتجلة التى تقوم على أسس أخرى ، الى (المناظرة) التى تقتضى التخصص العلمى والتعمق في هذا التخصص ، والتعرف على جميع دقائقه . لان النتائج المترتبة عليها أصبحت عامة ولم تعد فردية ، وأصبحت تعبيرا عن المدارس الفكرية والعلمية وعن المنافسة الشديدة بين مناهجها المختلفة . ولقد كان للمعتزلة الفضل الاول في العصر العباسي في احلال الجدل هذا المكان الاول في مجالسهم . وقد ادرك المتجادلون بخبرتهم أن هناك قواعد يجب أن تخضع لها الاطراف المتجادلة ، اذا كانوا يطلبون الحقيقة ، وهي مطلب العالم ، لا الاثارة العاطفية التى هى اولى بالعامة . ونسمع من آداب المناظرة قولهم: قيل لا يميل الى الجلبه واللجاج الا من عجز عن الغلبة بالحجاج.

---

(١٢٥) مثالب الوزيرين ، ص ٢٧١ ــ ٧٣ وسبق عن الامتاع والمؤانسة جـ ١ ص ١٠٨ انها كانت في سنة ٣٢٦ هـ .

وقال المأمون لهاشمي حضر مجلسه فناظره وشغب :

لا ترفعن صوتك يا عبد الصمد
ان الصواب في الاسد لا الأشد (١٢٦)

وقيل « اجتمع متكلمان فقال أحدهما ، هل لك في المناظرة ؟ . فقال ، على شرائط : أن لا تغضب ، ولا تعجب ، ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيرى وانا اكلمك ، ولا تجعل الدعوى دليلا ، ولا تجوز لنفسك تأويل آية على مذهبك الا جوزت الى تأويل مثلها على مذهبي ، وعلى ان تؤثر التصادق ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلا منا يبني مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته .. » (١٢٧) .

ويبدو من مناظرات القرن الرابع أنها لم تكن تعقد بتعيين مسبق فحسب ، بل هي منظمة تنظيما دقيقا ، لا سيما اذا كانت المناظرة بين مجموعة من العلماء ، لا بين شخصين فقط . حينذاك نجد عالما يترأس المجلس ويقوم بترتيب الكلام ، ويعطي المتناظرين الفرص المناسبة للسؤال والرد . وهو أشبه بما يعرف عندنا اليوم برئيس الجلسة (chairman) :

ذكر أبو حيان مجلسا شهده في عصر عز الدولة في بغداد ، وكان يرأس الجلسة أبو الوفاء المهندس . يقول أبو حيان : « ولقد رأيت أبا عبد الله البصرى في مجلس عز الدولة سنة ستين (يعني وثلاثمائة) ، في شهر رمضان . والجماعة هنا أبو حامد المروروذى ، وأبو بكر الرازى ، وعلي بن عيسى ، وابن نبهان ، وابن كعب الأنصارى ، والأبهرى ، وابن طرارة ، وأبو الجيش شيخ الشيعة ، وابن معروف ، وابن أبي شيبان ، وابن قريعة ، وناس كثير . وهو في ايوان فسيح في صدره من حضروا من أجله . **وأبو الوفاء المهندس نقيب المجلس ومرتب القوم** » (١٢٨) . ويبدو من كلام أبي حيان أن رئيس الجلسة كان منحازا الى أحد الأطراف المتناظرة ، اذ كان مع أبي عبد الله البصرى الذى تحداه القوم بجملة مسائل ، لانه كان قد كفرهم وادعى مذهبا معينا . فلما وجد أبو الوفاء أن أبا عبد الله البصرى قد ارتبك ولم يعد قادرا على الجواب ، تدخل ليعفيه من الاجابة ، محتجا بأنه مريض ويخشى عليه الانتكاس ، يقول :

« ثم قام علي بن عيسى الشيخ الصالح وقال : هذا مجلس يبتهى بحضوره لشرفه ويفتخر بالكلام فيه لكثرة من يعرف وينصف . والمغالطة فيه مأمونة ، وليس في كل أوان يتفق هذا الجمع . وبيننا وبين هذا الشيخ ـ يعني أبا عبد الله ـ مسألة من أجلها ومن أجل نظائرها قد استجاز تكفيرنا وتفسيقنا والتشنيع علينا ، وتنفير المقتبسين منا . وهأنذا قد ابتدأت سائلا ، فلينصر مذهبه كيف شاء ، وانما هو دين يجب أن نبحث عنه من العارفين . فقال عز الدولة : كلام منصف ، ما اسمع بأسا ولا ارى ظنة تحت بذلك على الجواب . فاصفر أبو عبد الله وقلق ، وفطن أبو الوفاء ، وكان ضلعه معه وصفوه له ، فحال بينه وبين الامير وقال ، الشيخ عليل ، وانما حضر للخدمة ، وبعض غلمانه ينوب عنه ، ولا ينبغي أن يتعب فيحمي جسمه ، ويخاف نكسه ويصير ما قصد من قضاء حقه في التجمل بحضوره سببا للتألم » (١٢٩) .

ويمضي أبو حيان في نقل اجزاء اخرى من هذا المجلس . ومن الواضح انه يعي أهمية هذه المجالس ، فلا يكتفي بنقلها في كتبه ، بل نجده يعني عناية خاصة بتأريخها بالسنة والشهر ، بل واليوم ان امكنه ذلك . ومن الطريف أنه ، مع

---

(١٢٦) **محاضرات الادباء** ، (باوت ـ ١٩٦١) ، جـ ١ ص ٧٧ .
(١٢٧) **المصدر نفسه** ، ص ٧٨ .
(١٢٨) **مثالب الوزيرين** ، ص ١٣٧ ـ ٣٨ .
(١٢٩) **المصدر نفسه** ، ص ١٣٨ .

جملة من الوراقين ، ربما أحضروا أوراقهم ومحابرهم فيقومون بنقل الحديث متناوبين . فقد روى ذات مرة حديثا مفصلا للصاحب بن عباد عن أبي حامد المروروذى . فيسأله الصاحب كيف استطاع أن يحفظه ، فيجيبه قائلا « كنا جماعة نتعاون على ذلك ويرسم في الواح » (١٣٠) . ولذلك تأتي كتب ابي حيان ، أحيانا كثيرة ، أشبه بمحاضر لهذه المجالس . فقد كان كتاب المقابسات تدوينا لما كان يدور في مجلس ابي سليمان السجستاني من محاورات بينه وبين فلاسفة عصره ، وهي محاورات لا تقل اهمية في طبيعة الموضوعات التي تطرقها ، عن محاورات افلاطون . لكن مما يؤسف له أن ابا حيان ، على اهتمامه بهذه المناظرات ، قد اعتذر احيانا عن نقلها كاملة ، لأنه شغل بموضوعات اخرى ، أشدها عليه تلك الخصومة بينه وبين الصاحب وابن العميد التى اضاعت كثيرا من طاقاته العلمية، وفوتت علينا أمورا أكثر طرافة واهمية في هذا المجال . فقد اعتذر عن نقل المناظرة مع أبي عبد الله ، مارة الذكر ، قائلا : « ولولا أن هذه الرسالة (يعني مثالب الوزيرين) لا تحمل المسألة والجواب ، بما فيها من فنون القول ، لأتيت بالمجلس على وجهه » (١٣١) .

وهكذا نشأت الحركة العلمية في العصور العباسية ، وتطورت وسط معمعةمن الخصومات العلميـة التي لم تخل أحيانا من الاندفاعات العاطفية التي لا تخلو منها الحياة الانسانية . ولذلك فهي ، بصورها المختلفة ، انسانيةفي هيكلها وطبعها ، دفعت رغم كل شيء بالحركة العلمية الى الأمام . رحمهم الله جميعا .

* * *

(١٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ .

(١٣١) المصدر نفسه ، ص ١٤٠ .

١ ـ ابن أبي أصيبعة (موفق الدين احمد بن القاسم) ـ عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء (دار الحياة ـ بيروت ـ ١٩٦٥) .

٢ ـ اخوان الصفا ـ رسائل (بيروت ـ ١٩٥٧) .

٣ ـ الأنباري (كمال الدين عبد الرحمن بن محمد) ـ نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء (مطبعة المعارف ـ بغداد ـ ١٩٥٩) .

٤ ـ بروكلمن (كارل) ـ تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجّار ، (دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦١) .

٥ ـ البغدادي (احمد بن علي) ـ تاريخ بغداد (مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ١٩٣١) .

٦ ـ البغدادي (عبد القادر بن طاهر) ـ الفرق بين الفرق (القاهرة ـ ١٩١٠) .

٧ ـ التوحيدي (أبو حيان) ـ الامتاع والمؤانسة (لجنة التاليف ـ القاهرة ١٩٥٣) تحقيق احمد أمين وسيد صقر .

٨ ـ التوحيدي (أبو حيان) ـ مثالب الوزيرين (تحقيق ابراهيم كيلاني ـ دمشق ـ ١٩٦١) .

٩ ـ التنوخي (المحسن بن علي) ـ الفرج بعد الشدّة (بغداد ـ ١٩٥٥) .

١٠ ـ الثعالبي (عبد الملك بن محمد) ـ اللطائف والظرائف ، ترتيب المقدسي عن مؤلفين للثعالبي هما اللطائف والظرائف واليواقيت في بعض المواقيت ـ (القاهرة ـ ١٩٠٠) .

١١ ـ الثعالبي (عبد الملك بن محمد) ـ يتيمة الدهر (مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ ٥٨/١٩٥٦) .

١٢ ـ الجاحظ (عمرو بن بحر) ـ البيان والتبيين (لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ٤٩/١٩٤٨ ـ تحقيق عبد السلام هرون) .

١٣ ـ الجاحظ (عمرو بن بحر) ـ الحيوان ـ (ط . البابي الحلبي الثانية ـ القاهرة ـ تحقيق عبد السلام هرون) .

١٤ ـ الجاحظ (عمرو بن بحر) ـ رسائل الجاحظ (القاهرة ـ ١٩٦٤ ـ تحقيق عبد السلام هرون) .

١٥ ـ الجهشياري (محمد بن عبدوس) ـ الوزراء والكتّاب (ط . البابي الحلبي ـ ١٩٣٨) تحقيق مصطفى السقا وآخرين .

١٦ ـ الحاجري (طه) ـ الجاحظ حياته وآثاره (دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦١) .

١٧ ـ حاجي خليفة ـ كشف الظنون (طهران ـ ١٩٤٧) .

١٨ ـ الراغب الأصفهاني ـ محاضرات الأدباء (بيروت ـ ١٩٦١) .

١٩ ـ روزنتال (فرانتز) ـ مناهج العلماء المسلمين ، ترجمة أنيس فريحة ، (بيروت ـ ١٩٦١) .

٢٠ ـ الزجاجي (عبد الرحمن بن اسحاق) ـ مجالس العلماء (التراث العربي ـ الكويت ـ ١٩٦٢ ـ تحقيق عبد السلام هرون) .

٢١ ـ السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) ـ بغية الوعاة (القاهرة ـ ٦٥/١٩٦٤) .

٢٢ ـ السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر) ـ المزهر (ط ـ البابي الحلبي ـ سنة ؟) .

٢٣ ـ ابن الطقطقا (محمد بن علي) ـ الفخري في الآداب السلطانية (صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٦) .

٢٤ ـ الطيباوي (عبد اللطيف) ـ محاضرات في تاريخ العرب والاسلام (بيروت ـ ١٩٦٣) .

٢٥ ـ القالي (اسماعيل بن القاسم) ـ الامالي (المكتب التجاري ـ بيروت ـ عن طبعة دار الكتب المصرية) .

٢٦ ـ ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم) ـ تاويل مختلف الحديث (القاهرة ـ ١٣٢٦ هـ) .

٢٧ ـ القفطي (علي بن يوسف) ـ انباه الرواة على أنباه النحاة (القاهرة ـ ٥٢/١٩٥٠) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

٢٨ ـ القفطي (علي بن يوسف) ـ تاريخ الحكماء (ليبزك ـ ١٩٠٣) .

٢٩ ـ المبرد (محمد بن يزيد) الكامل في الأدب (مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٥٦) .

٣٠ ـ ابن النديم (محمد بن اسحاق) ـ الفهرست (القاهرة ـ سنة ؟) .

٣١ ـ ياقوت الحموي ـ معجم الأدباء (القاهرة ـ ٣٨/١٩٣٦) .

٣٢ ـ Patton (W.M.), Ahmad b. Hanbal and al-Mihna, (Brill-1897)

المقالات

١ ـ مقالة بعنوان (خواطر في الأدب العربي) من كتاب :

1. Gibb (H.R.A.), Studies on the Civilization of Islam, Routledge and Kegan Paul, 1962.

2. Margoliouth, Journal of the Royal Asiatic Society, 1905.

برتراند راسل

الفيلسوف الذي سعى الى الارتباط بمشاكل العصر (*)

ترجمة : صدقي حطاب

في ليلة الاثنين الثاني من فبراير (شباط) ١٩٧٠ مات ايرل رسل (عضو الجمعية الملكية والحائز على وسام الاستحقاق) في منزله في بلاس بنرين في مقاطعة ميرونث ، وقد بلغ من العمر السابعة والتسعين .

تقوم أحقية برتراند رسل في أن يذكره التاريخ على أساس وطيد ألا وهو مؤلفاته في المنطق الرياضي والرمزي ، وفي الفلسفة ، تلك المؤلفات التي جعلت تأثيره شاملا وعميقا . ان قصة المنطق الرمزي وفلسفة الرياضة في القرن العشرين هي قصة توسع البناء الشامخ الذي وضع أسسه رسل وفريجيه Frege . لقد جرت أعمال رئيسية في تجديد البناء ، ولكنها كانت أعمالا من الداخل . ففي الفلسفة العامة عندما نفكر في مور G.E. MOORE ولودفج فتجنشتاين LUDWIG WITTGENSTEIN باعتبارهما مشكلي الفكر في النصف الأول من هذا القرن ، فاننا نكون حينئذ نفكر في رجال أثر فيهم رسل وأثروا فيه . ولم يترك رسل مريدين وحواريين وانما هناك بدلا من ذلك عشرات من الفلاسفة الذين دفعتهم الاسئلة ، التي كان رسل أول من سألها ، الى البحث والاستقصاء . ولم يكتف رسل بأن يجمع بين صلابة المتطرف وصدق الفنان وانما كان يجمع الى جانب هذا كله شعورا حيا بالمضحكات . فاذا كانت هناك من سخافات منطقية مختفية ضمن تركيباته المجردة ، فانه يعرضها بلا رحمة وهو مبتهج بذلك . ولقد أصبحت التناقضات التي لم يكن يتستر عليها تؤلف معضلات الفلسفة .

لقد تمثلت في رسل جميع صفات آل رسل ونزواتهم . كان يعبر عن رأيه دون أن يأبه بالنقد الذي قد يلقاه من الزعماء أو من أصحاب المعتقدات ، أو بالقانون الذي ألقى به في غياهب السجن مرتين . لقد ظل طوال حياته حلية ومكسبا لأنواع مختلفة من القضايا العامة ، ومعظمها لم تكن تحظى بعطف شعبي . وكانت آخر هذه القضايا ــ وأخطرها شأنا عنده ــ قضية نزع السلاح الذري من جانب واحد . كان رسل قد وصل في منتصف الثمانينات عندما ألقى بنفسه في خضم هذه القضية بحماس لا يخبو ، وقد استحوذ عليه شعوره بمسئوليته في ايقاظ زملائه على الخطر المحيط بهم . كما سيطرت عليه جسامة الشر الذي يمكن أن تعود به هذه الأسلحة . وفي حدة استنكاره ، ومع

(*) نشرت في نعي رسل في صحيفة التايمز عدد ٤ فبراير ١٩٧٠ بعنوان

"Earl Russel, O.M; F.R.S.; Philosopher who sought involvement with Problems of the Age".

النشاط المؤثر لقواه التي اخذت تضعف أخذ مكان التقدير الرزين للوسائل السياسية للخلاص من هذا المصير يبهت شيئا فشيئا أمام ناظريه .

لقد كان رسل هو رجل الفكر في القرن العشرين الذي حل مشكلة الاتصال ، ولعله سبق الآخرين في انجلترا الى ذلك . فقد وجد رسل طريقه للاتصال بالعامة واستغلها حتى النهاية ولا سيما ــ وبشكل متعمد ــ في أخريات حياته . لم يكن هناك شيء جديد في هذه الطريقة . فالأمر لا يتجاوز التعبير عن افكار واضحة بأسلوب واضح. ولكن ما اقل الفلاسفة أو الفنانين ممن عاصروه الذين استطاعوا ان يحققوا نصف ما حقق !

ويعادل هذا في الأهمية قدرته لا على استخدام اصطلاحات لغوية مفهومة لعامة الرجال والنساء ، وانما أيضا قدرته على استخدام اشارات مفهومة للعامة ، لأنها من صميم تجاربهم . فصاحبنا من الخاصة في نسبه ، وفي تألقه الفكري ، وفي عاداته العقلية ، وفي سلوكه ، ومع ذلك كان يخاطب العامة بيسر ، كما كانوا يصغون اليه بيسر . والسر في ذلك نجده في التناقض الظاهري ، وهو أنه مع هذا كله كان يشترك معهم في أسلاف من العامة . لقد كان فكره انجليزيا صميما .

ولد برتراند آرثر وليم رسل (الايرل الثالث في آل رسل) في رافينز كروفت Ravenscroft بالقرب من تنتيرن Tintern في مقاطعة مونمث Monmouthshire في ١٨ مايو ١٨٧٢ . وكان الابن الثاني للفايكاونت أمبرلي Amberley ، وحفيد لورد جون رسل الذي اصبح في نهاية حياته السياسية ايرل رسل . وامه كاترين ابنة اللورد ستانلي الألدرلي الثاني Lord Stanley of Alderley . وقد كان برتراند يشبه آل رسل كما كان اخوه الأكبر ، الايرل الثاني ، يشبه آل ستانلي . فقد وجدت عبقرية آل رسل تعبيرا عنها في مظهره وفي صفاته الفنية وفي تعدد مجالات تفكيره . ورسل أول من يعترف بأن جانبا كبيرا من حياته قد جددته السنوات الأولى من حياته ، اذ لم يقصد بها أن تخرج مواطنا تقليديا. لقد تحول والده ــ قبل ولادة برتراند ــ من الايمان المستقيم الى اللا أدرية . وماتت أمه وعمره سنتان ، ومات والده وعمره ثلاث سنوات ، فكفلته جدته « التي كانت متزمتة وصارمة في مقاييسها الأخلاقية » ، كما وصفها ، وقد أبقت على وجود توحيد غامض في قصر بمبروك . وكان أبوه قدأوصى بأن ينشأ ولداه تنشئة لا أدرية ، وعين وصيين حرّي التفكير عليهما ، ولكن المحكمة لم تأخذ بالوصية ، وعينت قاضي القضاة وصيا على الطفلين .

ظل برتراند رسل يعيش في البيت (حياة لم تكن سعيدة جدا) حتى ذهب الى كيمبردج وتعلم في البيت على يد مربيات ومعلمين خصوصيين . وقد كانت كيمبردج هي أول انطلاق له الى العالم الخارجي . كانت ــ كما وصفها ــ « عالما جديدا لا حد لبهجته » ، عامرا بالأصدقاء من أمثال لويس ديكنسون ودكتور تريفيليان وماكتا جارت وجورج ادوارد مور . وقد افتتن بماكتا جارت ومور . وأصبح بفعل تأثير ماكتا جارت من تلاميذ هيجل أو بعبارة أدق من تلاميذ برادلي ، ولكن مور ــ الذي كان أثره على ذلك الجيل كله في جامعة كيمبردج عميقا وموفقا ــ أبطل سحر هيجل .

التحق رسل بكلية ترينيتي كدارس في عام ١٨٩٠ وكان ترتيبه السابع في درجة البكالوريوس فئة أولى في الرياضيات في عام ١٨٩٣ . ويمكن تفسير تدني تقديره نسبيا الى انه لم يكن يهتم بالرياضيات لذاتها ، وانما كان يهتم بها باعتبارها مثلا لمعرفة معينة ، لقد كان اهتمامه فلسفيا . وحصل في العام التالي على درجة البكالوريوس فئة أولى في العلوم الأخلاقية بامتياز فذ . فلما

ترك كيمبردج امضى بضعة شهور كملحق شرفي في السفارة البريطانية في باريس ، وبعد ذلك ارتحل الى برلين فدرس المسائل الاجتماعية والاقتصادية ، وقد جاءت ثمرة هذه الدراسة مبكرة في عام ١٨٩٦ حين القى في مدرسة الاقتصاد في لندن ست محاضرات عن ديمقراطية المانيا الاجتماعية . ولكنه ترك العمل السياسي الذى بدا وكأنه قد ورثه .

انتخب في عام ١٨٩٥ محاضرا في كلية ترينيتي Trinity College ، وفي عام ١٨٩٦ حاضر في امريكا عن الهندسة المغايرة لهندسة اقليدس . ونشر (مقالا حول أسس الهندسة)وقاده تحصيله في الرياضيات والفلسفة الى دراسة المفكر الذى كان افضل مثل على الجمع بينهما . فنشر في عام ١٩٠٠ كتابه الممتاز (عرض نقدى لفلسفة لايبنتس) (٢) وهو أول أعماله الكبرى . ورفع في هذا الكتاب من قدر فكر لا يبنتس Leibniz كثيرا ، واكثر مما كان يلاقي من تقدير في ذلك الحين ــ ولم يتحول عن هذا التقدير أبدا ، فقد وصف لا يبنتس في كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) History of Western Philosophy بأنه « احد رجال الفكر الأفذاذ في كل الأزمان » . ولا شك أن حكم رسل قد بني على اعترافه بلايبنتس « كرائد في المنطق الرياضي ، أدرك أهميته عندما لم يدركها أحد غيره » . وهذا هو الميدان الذى انجز فيه رسل أكثر أعماله ثورة ، وقد شابه لايبنتس تماما في نظرته وفي انجازاته .

وفي عام ١٩٠٠ لفت رسل الأنظار ، في مؤتمر للرياضيات في باريس ، الى مؤلفات بيانو Peano، كما لفتها في عام ١٩٠٣ الى مؤلفات فريجيه Frege . وفي ذلك الحين كان لهما أوثق التأثير على فكره . وبفضل هذه الاكتشافات ، وبفضل لايبنتس ، أعطى العالم في عام ١٩٠٣ كتابه (أصول الرياضيات Principles of Mathematics) الذى كان الغرض منه « أولا بيان أن جميع الرياضيات تنبع من المنطق الرمزى، وثانيا كشف أصول المنطق الرمزى نفسه ما أمكن ذلك » . وقد قصد بكتاب (أصول الرياضيات) ان يكون الجزء الأول الذى يتلوه جزء ثان يشتمل على عرض استنباطي للنتائج . ولكن هذه المهمة نفذت في كتاب مستقل الفه بالتعاون مع الفرد نورث وايتهد . وبدءا في تأليف كتاب (أسس الرياضيات Principia Mathematica) في عام ١٩٠٠ وأتماه بعد عشر سنوات في ثلاثة أجزاء نشرت على التوالي في الأعوام ١٩١٠ و ١٩١٢ ، ١٩١٣ . واعيد نشر الكتاب مع مقدمة جديدة في عام ١٩٢٥ ، وفي السنوات التالية . وقدمت الجمعية الملكية التى انضم اليها رسل في عام ١٩٠٨ منحة لنشر الكتاب من أموال الحكومة. وكتب رسل فيما بعد ما يلي عن تأليف هذا الكتاب : « ان فكرى لم يشف تماما من الاجهاد أبدا . ولا شك انني منذ ذلك الحين اقل قدرة على تناول التجريدات الصعبة كما كنت أتناولها من قبل » .

ان كتاب (أسس الرياضيات) من الكتب الفاصلة في تاريخ الرياضيات والمنطق معا . فقد تحقق في هذا الكتاب ــ بصورة اوفى وأفضل مما تحقق في أى كتاب سابق ــ تحويل الرياضيات الى فرع من فروع المنطق . وقد برزت في أثناء عملية التحويل في أيد ماهرة رمزية جديدة ذات قوة منطقية كبيرة . ولقد كان أدوم ما قدمه رسل للفكر الفلسفي وأثبت سمة من سمات جميع كتاباته الفلسفية هو استخدامه لهذه القوة .

---

1 — An Essay on the Foundations of Geometry.

2 — A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz

وقد سمى هو نفسه هذا الاسهام « الذرية المنطقية » Logical Atomism ، وهو تعبير يوفي مهارته ونفاذ بصيرته فى التحليل المنطقي حقهما ـ فى محاولته حل الأفكار المعقدة الى عناصر ان لم تكن بسيطة فانه لا يمكن دحضها .

ان تفصيلات انجازات رسل التى تجعل المرء يتحدث دون ادنى مبالغة ـ بالنسبة للفكر البريطاني على الأقل ـ عن فلسفة ما قبل رسل وعن فلسفة ما بعد رسل ، هي موضوع اهتمام طالب الفلسفة . ولكن حتى رجل الشارع يستطيع أن يفهم قيمة تحرير التحليل المنطقي من طغيان النحو العادى والاعراب . لقد كان تقويم رسل المتواضع الذى قوم به فى المرحلة المتأخرة من حياته انجازاته على النحو التالي « ان نفع تركيب الجمل الفلسفي بالنسبة للمشاكل التقليدية عظيم جدا » .

واحسن ما يوضح هذه النقطة تلخيص لأهم ما اكتشف رسل وهو نظرية الوصف التى طورها فى مقالته « حول الدلالة » التى نشرها فى مجلة Mind فى عام ١٩٠٥ . ان عبارات مثل عبارة « رئيس الولايات المتحدة الحالي » قد سببت كثيرا من الازعاج الذى لا نفع منه للفلاسفة الذين حاولوا ان يجدوا معنى الوجود . » فلنفرض أننى قلت « ان الجبل الذهبي غير موجود » ولنفرض انك سألت « ما هو الجبل الذهبي ؟ » فانه يبدو انني قلت « انه الجبل الذهبي » فانني أكون حينئذ أعزو اليه نوعا من الوجود » . فالفرق فى العبارتين « الجبل الذهبي غير موجود » و «المربع الدائرى غير موجود » فى الالفاظ وحدها . ان كلا من « الجبل الذهبي » و « المربع الدائرى » تدل على شيء يختلف عن الآخر بالرغم من انهما غير موجودين . وهذه هي المشكلة التى حاول رسل أن يجابهها بنظرية الوصف . فبموجب هذه النظرية تفسر جملة « سكوت S.ott هو مؤلف رواية (ويفرلي) » على انها تقول « هناك كائن ما هو س بحيث ان عبارة » ص كتب رواية ويفرلي » صحيحة اذا كان س هو ص وغير موجود « تعني » ليس هناك كائن ما هو س بحيث ان « ص ذهبي وجبلي » صحيحة عندما تكون س هي ص ، وليس غير ذلك . » وهكذا فان « الوجود » لا يمكن ان يكون غير تأكيد للأوصاف . ولعل رسل لم يكن يبالغ حين تحدث عن هذه النظرية فوصفها بأنها عملت على«انقشاع الفي سنة من الاضطراب الذهني حول «الوجود» بادئة بمحاورة Theaetetus لافلاطون » .

وقد استخدم رسل خلال خمسين عاما من التأليف الفلسفي قوة هذا الأسلوب المنطقي الهدامة فى فحص المشاكل التقليدية والفلسفات التقليدية، وسواء اكانت استنتاجاته مقبولة أم غير مقبولة فان مجرد استعمال الأسلوب كان مصدرا للتوضيح والتنوير ولا سيما فى تحليله للعلاقات وللفئات والاستمرار واللانهاية والصور اللغوية . واخلد إعمال رسل العظيمة مده المستمر للشك المنهجي الى كل ميدان من ميادين البحث الفلسفي . ان ما يميز تجريبية رسل التحليلية الحديثة ـ كما يقول هو نفسه ـ عن تجريبية لوك وباركلى وهيوم هو وحدة الرياضيات وتطوير أسلوب منطقي قوى . لقد كانت المعرفة التجريبية والمعرفة الاستنباطية هما النوعين الوحيدين من المعرفة اللذين كان رسل على استعداد للاعتراف بهما . لقد كان يبحث عن اجابات على مسائل الفلسفة التى كان لها « صفة العلم اكثر من صفة الفلسفة » . وقد اعترف بأنه قد توجد هناك مسائل لا يستطيع العلم والفكر أن يجد أجوبة لها ، ولكنه رفض أن يعترف بأن هناك طريقة اخرى ، حدسية أو غير ذلك ، يمكن أن تعطى أجوبة .

ولعل تجريبية رسل هي أصوب ما فى تطفلاته على الفلسفة السياسية ، وهي تطفلات شاذة ،

ولكنها لطيفة فى الاغلب . فلم يكن رسل فيلسوفا سياسيا . ولكن رجلاً وُلِد وفى عروقه دماء آل رسل قد لا يستطيع أن لا يحمل روح لوك Lock. كتب فى عام ١٩٤٧ فى كتابه الفلسفة والسياسة Philosophy and Politics يقول : ان الفلسفة الوحيدة التي تقدم تبريرا نظريا للديمقراطية ، والتي تتفق مع الديمقراطية فى مزاجها العقلي هي التجريبية . لقد بيَّن لوك الذى يمكن اعتباره مؤسس التجريبية مدى الترابط الوثيق بين هذا وبين آرائه حول الحرية والتسامح . ومن هنا مضى رسل يقول : « ان جوهر النظرة الليبرالية لا يكمن فى نوع الآراء المتبناة وانما فى طريقة تبنيها، فهي تتبنى بشكل تجريبي بدلا من أن تتبنى بشكل جازم » . غير انه لا يمكن القول بأن رسل قد التزم بهذا المبدأ فى جميع تصريحاته وخطبه العامة .

رشح رسل نفسه فى عام ١٩٠٧ للبرلمان عن منطقة ويمبلدون مطالبا بحق المرأة فى الانتخاب ولكنه فشل . ولكن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ هي التي هيأت متنفسا لدافع لم يشبع عنده هو دافع الخير . فقد انخرط بدون تردد وباخلاص فى حملة السلام . وقد جعلته النتائج السيئة مركز عاصفة وطنية ، ولا نستطيع أن نثبتها هنا الا مجملة . أكد رسل فى صحيفة التايمز أنه مؤلف نشرة عن (رابطة عدم التجنيد) ومن ثم حكم عليه مقر رئيس بلدية لندن بغرامة قدرها مائة جنيه ، وأبعد بطريقة تعسفية ووضيعة عن التدريس فى كلية ترينتي . وصودرت مكتبته هناك لتسديد الغرامة . وكان من المفروض أن يذهب فى خريف عام ١٩١٦ الى جامعة هارفارد ليحاضر فيها ، ولكن المسئولين فى هارفارد أفهموا أن الحكومة البريطانية لا ترى أن من المصلحة العامة اصدار جواز سفر له يمكنه من مغادرة البلاد .

ومنع فى سبتمبر من ذلك العام من دخول اية منطقة محظورة ، كما أن كتيب العدل ابان الحرب Justice in Wartime الذى أصدره فيما بعد، وشبه فيه تحارب الأمم بعراك الكلاب تستفز رائحة فريق منها الفريق الآخر ، جلب له سخطا عظيما . وأخيرا حكم عليه فى فبراير (شباط) من عام ١٩١٨ فى محكمة شرطة العاصمة فى لندن بالسجن ستة اشهر لأنه علق فى نشرة رابطة عدم التجنيد على الجيش الأمريكي تعليقات « قصد بها — ومن المحتمل أن تؤدى الى — اساءة العلاقات بين حكومة جلالته وبين الولايات المتحدة » . وعندما استؤنف الحكم حول القاضي السجن من الدرجة المتوسطة الشدة الى الخفيفة. وكتب فى أثناء فترة سجنه كتابه (مقدمة للفلسفة الرياضية) Introduction to Mathematical Philosphy. وبعد الحرب أرخى لعقله العنان ، فجال فى جميع الدراسات الانسانية تقريبا . زار روسيا فى عام ١٩٢٠ مع وفد من حزب العمال البريطاني فلم يعجب « بدكتاتورية البلشفيين العسكرية » . وأعلن على الفور تحذيره الأول من حقيقة البلشفية — فى كتابه (التطبيق والنظرية فى البلشفية) The Practice and Theory of Bolshevism — وظل ينتقد الشيوعية السوفيتية حتى فى أثناء حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ، عندما وصلت شعبية رسل الى ذروتها . وجاءت بعض محاضراته التي القاها فى لندن على صورة كتاب (تحليل العقل) (١) نشر فى عام ١٩٢١ . وذهب فى أثناء عام ١٩٢٠ الى الصين لمدة قصيرة كأستاذ للفلسفة فى جامعة بكين . ومن ثمرات هذه الزيارة كتابه « مشكلة الصين » (٢) الذى كان مشجبا علق عليه عداءه للحضارة الغربية واليابانية . وعندما رجع من الصين رشح نفسه فى منطقة شيلسي عن حزب العمال فى عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ ولكنه فشل . وقد كتب بالتعاون مع زوجته الثانية كتابه « مستقبل الحضارة الصناعية » (٣)

---

1 — The Analysis of the Mind

2 — The Problem of China

3 — The prospects of Industrial Civilization

بين كتابيه « الذرات » (١) (١٩٢٣) و « الف باء النسبية » (٢) ١٩٢٥ ، وهما كتابان يمتـازان بالشرح الجميل الواضح .

وقد أدى اهتمامهما (هو وزوجته) بالتربية الى اقامة مدرسة فى عام ١٩٢٧ بالقرب من بيترز فيلد ، ومنح الأطفال فيها قدرا كبيرا من الحرية ، ونقلت زوجته المدرسة فى عام ١٩٣٤ الى مقاطعة هيرتفورد . وكتب حول هذا الموضوع كتابين هما (فى التربية) (٣) عام ١٩٢٥ ، و « التربية والنظام الاجتماعي » (٤) عام ١٩٣٢ ، وفى هذين الكتابين اسراف فى الحديث عـن الاتجاهات الحديثـة . وظهر بين هذين الكتابين كتاب « تحليل المادة » (٥) وهـو استعراض رائـع للفيزياء الحديثة مـع استنباطات ميتافيزيقية اكثر عرضة للجدل . وتلته كتب أخرى هي : « الموجز فى الفلسفة » (٦) و « مقـالات فى الشـك » (٧) و « الـزواج والأخـلاق » (٨) و « اكتسـاب السـعادة » (٩) .

ونشر فى عام ١٩٣٤ أهم أعماله خارج ميداني المنطق والفلسفـة ، وهـو كتـاب « الحريـة والتنظيم » (١٠) وقد تتبع فيه الأسباب الرئيسية للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا وأمريكا خلال القرن التاسع عشر . وقد غطى هذا الكتاب كتابه الضخم « تاريخ الفلسفة الغربية » حين حاول أن يرى الافكار من خلال اطار العصر الذى ولد هذه الأفكار . ولكنه يختلف فى تأليفه عن الكتاب الثاني ، فالتركيب فيه أكثر من التحليل ، ويضم شيئا من كتاباته المضيئة .

وبالرغم من ان نجاح قوة حمقى كالهتلرية هز كثيرا من نزعاته العقليـة ـ كما هز الكثيرين ـ وجعله يهجر دعوته الى السلام ، وبالرغم من أنه حاول(ولكنه فشل) أن يحلل طبيعة (القوة) (١١) فى كتاب مشهـور ، كان يفتقـر الى التجهيـز السياسي الذى يمكنه من تحقيق وصف شاف لمشكلة القرن العشرين السياسية . ويظهر هذا فى محاضراته التي ألقاها فى عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ فى برنامج محاضرات ريث The Reith Lectures وهي بعنوان (السلطة والفرد) . فقد أخطأ فى اختيار الموضوع الذى تحدث فيه ، ولكنـه لم يشك فى قدرته على ربط الأفكار المعقدة بتجارب الناس العاديين اليومية .

واصبح رسل فى السنوات الأخيرة عرضة لأن يغدو شخصية شعبية ومحترمة بل ومبجلة . فقد منح فى عـام ١٩٥٠ جائزة نوبل فى الأدب ، وكان قد منح قبل ذلك بعام وسام الاستحقاق ، وفى عام ١٩٥٣ انتخب مشاركا شرفيا فى معهـد نيويورك الوطني للفنون والآداب ، وهو الذى كان قد حكم عليه من قبل بعدم اللياقة لشغل الكرسي الجامعي فى احدى الجامعات الأمريكية ، وقد كان

---

1 — The A.B.C. of Atoms
2 — The A.B.C. of Relativity
3 — On Education
4 — Education and the Social Order.
5 — The Analysis of matter
6 — An Outline of Philosophy
7 — Sceptical Essays
8 — Marriage and Morals.
9 — The Conquest of Happiness.
10 — Freedom and Organisation.
11 — Authority and the Individual.

يمكن أن تكون شيخوخته صافية كشيخوخة فيلسوف عاقل وحكيم أليف ، مكرم ، يصغي اليه بود واحترام ، ويعطي بين الحين والآخر التعليق الساخر والحاد بما يبقي على أسطورة الثائر حية .

ولكنه اختار سبيلا غير هذا ، فلا زالت تتردد في الذاكرة أصداء كلمة أذاعها في عام ١٩٥٤ بعد انفجار القنبلة الهايدروجينية الأولى ، حين ارتفع صوته النحيل الرتيب يملؤه زخم محايد لبني « تذكروا انسانيتكم وانسوا ما دون ذلك . فاذا استطعتم أن تفعلوا ذلك ، فان الطريق امامكم مفتوح الى الجنة الجديدة ، فان لم تستطيعوا فليس امامكم سوى الموت الشامل » . وهو تحذير ظل يكرره بصوت حاد ومرتفع حتى وافته المنية .

لقد ساعد في ولادة حملة نزع السلاح النووي في فبراير عام ١٩٥٨ وأصبح رئيسها ، وحاول قبل هذا وبعده حشد آراء العلماء لتأييد وجهات نظره . وفي سبتمبر من عام ١٩٦٠ ضاق ذرعا بأسلوب حملة نزع السلاح النووي المتقيد بالقانون ، ووجد أن رئيسها كولينز Canon Collins شخصا « من المستحيل العمل معه » فانشق عنها مؤلفا لجنة المائة « للعصيان المدني ضد الحرب النووية » . وقد أثبت العصيان أنه من النوع المنظم ، واستمر رسل ـ الذي كان قد أدرك الثامنة والثمانين حينئذ ـ يطوف بالبلاد طولا وعرضا داعيا للحملة ، ويصدر البيانات العاجلة للصحف ، وينظم المظاهرات العامة بقدر ما كانت صحته تسمح له . ودأب على ارسال برقيات التحذير لزعماء العالم ، ولا سيما في عنفوان الأزمة الكوبية في اكتوبر عام ١٩٦٢ .

ومرة أخرى ادى به تحديه للسلطة الى السجن في سبتمبر عام ١٩٦١ فقد استدعى ومعه بعض أعضاء لجنة المائة الى المحكمة لتحريضهم الجمهور على خرق السلام بدعوتهم الى مظاهرة بالجلوس في ميدان البرلمان . ولما رفض أن يتعهد بأن يكون حسن السلوك حكم عليه بالسجن لمدة شهرين ، وخفض القضاة المدة الى سبعة أيام على أثر احتجاج محامي رسل . وقضى مدة الحكم في سجن بريكستون الذي عرفه قبل ثلاثة واربعين عاما .

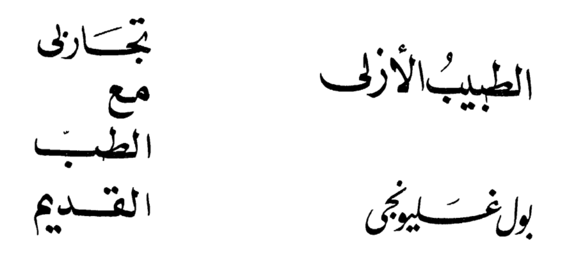
وفي مطلع عام ١٩٦٣ استقال رسل من رياسة لجنة المائة ، ومن الأسباب التي أوردها في تبرير هذه الاستقالة أنه أصبح مشغولا بعمل من نوع آخر وان كان موجها الى نفس الغاية . وفي أواخر ذلك العام أعلن عن اقامة مؤسستين هما مؤسسة برتراند رسل للسلام ، ومؤسسة الأطلسي للسلام ، ويهدفان الى تنمية المقاومة الدولية لتهديد الحرب النووية ، وازدادت عزلته في السنوات الأخيرة من حياته ، حيث كان يعيش في بلاس بنرين في بيته الريفي في شمال ويلز ، وظل أمين سره السيد رالف شومان يصرّف معاملات رسل مع العالم الخارجي فترة من الزمن بينما أخذت مشروعاته العامة التي ربط اسمه بها تزداد غرابة ، كمحكمته الدولية لجرائم الحرب التي قضاتها من رجال الفكر المشهورين الذين حاكموا الولايات المتحدة غيابيا على التهم الناشئة عن سياستها في فيتنام ، وبعد أن واجهت المحكمة بعض الصعوبات بخصوص مكان عقدها ، عقدت جلستها الأولى في ستوكهولم ، وأصدرت قرارها بالاجماع بتجريم الولايات المتحدة .

ولقد كان نشاط رسل مثيرا للجدل ، وملهما لفريق من الناس ورآه الفريق الآخر مضحكا أو موجها في غير وجهته الصحيحة . وقد حجب هذا النشاط في السنوات الأخيرة من حياة رسل انجازات عمره المديد الخارقة : أثره على الفلسفة. وشيء آخر على الجمهور أن يتذكره جيدا وهو عبقريته في تبسيط أوابد الأفكار وصعابها . وقد امتلك ناصية أسلوب جعله في مصاف باركلي

وهيوم اللذين حليا الأدب والفلسفة . وسواء اكتب بالرموز أم بالألفاظ فانه كان بارعا فى كليهما وسلسا فى كليهما . ويحسده كل من يحاول الكتابة لطباقه المحكم ، ولثقته الزائدة بنفسه الرائعة ، ولقسوته المهذبة فى محاورته، ولتناقضاته الباهرة ، ولذكائه ومرحه . وعند ما يكتب رسل ويتدخل فى العاطفة ، ويتقمص الثائر الفيلسوف، فان كتابته يجب ان توضع فى مصاف اشرف ما كتب فى اللغة الانجليزية . وكان أيضا فارسا من فرسان المذياع ، وقد ألقى بعد الحرب عدة سلسلات من الأحاديث الاذاعية التي لا تنسى . ان الصور الموجزة التي رسمها لأعلام معاصريه تمتاز بالوضوح والبراعة ، وشيء من السخرية وشيء من العطف ، وهي تذكرنا بحيوية صور (اسكتشات) جون أوبرى البارعة . وقد نشر رسل فى عام ١٩٦٧ الجزء الأول من سيرته وهو يشمل الفترة الواقعة ما بين ١٨٧٢ ــ ١٩١٤ ، ثم أعقبه بجزئين آخرين .

تزوج رسل أربع مرات . وكانت زوجته الأولى أليس ويتال بيرسول . وقد انحل هذا الزواج فى عام ١٩٢١ ، فتزوج فى نفس هذا العام دورا وينيفرد . وانحل هذا الزواج فى عام ١٩٣٥ . وتزوج فى عام ١٩٣٦ باتريشيا هيلن ، وانحل هذا الزواج فى عام ١٩٥٢ وتزوج فى نفس هذا العام اديث فينش من نيويورك . وقد رزق رسل من زوجته الثانية طفلين هما جون كونراد فايكاونت امبرلي ، وليدى كاترين جين رسل ، ومن زوجته الثالثة طفلا هو الشريف كونراد سيباستيان روبرت رسل . ويخلف رسل فى اللقب فايكاونت امبرلي الذى ولد فى عام ١٩٢١ وتزوج فى عام ١٩٤٦ من سوزان دوينفان التي أنجبت له بنتين وانحل زواجهما فى عام ١٩٥٥ .

* * *



لقد شاهدت هواية تاريخ الطب وهى تنمووتتأصل في قلب صديق في سنى ، عرفته منذ طفولته ، ثم احببته وصادقته ، ولازمني ولازمته وكأنى هـو ، والهوايات تنشـأ دون وعى من تهواه ، كأنها تنبت اتفاقا على شكل نزوة حين او تسلية فينة او واجب مفروض ، وقد تكون بيضة الديك ولا تعاد ، او يكثر تكرارها ، وهى تغرس في هدوء جذورها في اعماق المرء وتواصل مدها الى كل ميدان من ميادين فكره الى ان تحتله تماما ، لوقوعها في تربة معدة ، تتغذى منها وتغذوها ، كما يتغذى النبات من الارض ويغنيها .

بدأت قصة صديقى بآلة تصوير اهديت اليه ، اولع بها فامست لعبة فراغه ، ثم ما لبث ان شغلت جل باله وفتحت له ، كسمسمة على بابا ، عالم الفنون التصويرية والتشكيلية ، اذ اخـذ ينقل التماثيل والنقوش ، ويستفسر معانيهـا وتواريخها ، ومن ثم عنى بتاريخ الادب وسيرة الفن ، وعن طريقها بالتاريخ عامة . ثم شاهد هواياته تنمو وتتفرع ويشتبك بعضهـا ببعض كالاشجار الاستوائية التى تدمج فروعها حتى تجعل منها كتلا صلبة متماسكة تسدل ظلها على الغابات ، فغاص فى سحر الفن وفى فن السحر ، وهو في كل هذا يتفقد العنصر الانسانى فيها ، فانحدر الى علوم الانسان ووجد ــ آخر مطافه ــ الطب ، الذى يدمج الجسد والروح والشخص والبيئة في صورة متكاملة للانسان ، أقوم سبيل الى المثل التي اشادبها ترانس (1) والتى اتخذ منها شعارا : « انى من البشر وما من شىء بشرى غريب عنى » . فصهر كل ما احبه فى معدن لمع كالمرآة فى ذهنه وعكس شعاعا سفرت في ضوئه اعماق لم يسبق له رؤيتها ، وقد استمده من النظرة التاريخية التى تنير اليوم بشعلة الامس .

كنت ذات يوم فى صحبته نطلع حسب عادتنا على بعض النصوص القديمة ونتجادل في معانيها ، الى ان اعيانا التعب ، واحرقت عيوننا ابخرة اللفائف المحترقة ، واطبقت جفوننا . وعندما فتحناها رأينا موجات السحب المتصاعدة من هرم اللفائف المتراكمة ترسم سيمـاء شخص قعـد فى مواجهتنا فى هدوء وكأنه ينتظر منا بدء الحديث . لم ندر كيف دخل ولا من اين اتى ، شكله متموج وهندامه متغير تبعا لنزوات الابخرة ، تعلو رأسه قلنسوة فرعونية تارة وعمامة عربية تارة او قبعة

---

* الاستاذ الدكتور بول غليونجي اخصائى الغدد الصم بوزارة الصحة العامة بمستشفى الصباح . كان استاذا بكلية الطب بجامعة عين شمس .

Homo sum : humani nihil a me alienuç puto

1 ــ من كلام ترانس : شاعر لاتيني ولد بقرطاجنة (نحو ۱۹۰ ــ ۱٥۹ ق.م.) ، الف تمثيليات على طراز الكتاب الأغريق ، وصل ست منها الينا ، وقد ورد النص المذكور فى احداها وعنوانها : « الرجل الذى عاقب نفسه » .

الفرنجة تارة اخرى ، واوضح مافي وجههابتسامة دمثة تنم علىرقة وطيبة فى مزيج من السخريةالتى لا تخلو من العطف والحنو .

سأله صديقى : « من أنت ؟ »

فأجاب : « متى ؟ »

قلت : « انما يسألك عن اسمك ، وقد اقتحمت داره ، فكيف تجيبه : متى ؟ »

اجاب بهدوء : « انى الطبيب الازلى الخالد ، وان كنت اليوم فلانا والغد علانا ، فان روحى هى روح الطب وقلبى وذهنى لا يتبدلان . اليس عصركم هو الذى اضاف بعدا رابعا الى ابعادنا الثلاثة ثم فسره بأنه الزمن ؟ اتكتمل اية قضية ان لم يذكر سيرها الزمنى ؟اذا سألتنى عن لون السماء حق لى سؤالك : اتطلب لونها في الصباح أم في المساء ؟ واذا استفهمتنى ارتفاع البحر اجبتك : « متى » ؟ أعند المد أم الجزر ؟ لقد حملت اسماء شتى فى أزمنة مختلفة(٢) . كنت ، منذ خمسين قرنا ، طبيب الأسنان (حسي ـ رع) زميل (امحتب) الذى الهه الفرس والاغريق ، ثم كنت « ايروى » طبيب العيون والامعاء والشرج وحاكم العقارب ، والفت فنا في الطب عندما كنت (نتجر حتب) ، واتهمت عندما كنت (ايروى) فى مؤامرة لقلب رمسيس الثالث (٣) ، واعدت بناء مدرسة سايس بأمر سيدى (دارا) بعد أن دمر قمبيز معابد مصر ومدارسها عندما عاد من حملته الفاشلة في الجنوب وشاهد الاحتفال بعيد الحصاد فظن الشعب يبتهج لهزيمته (٤) .

ـ كنت اذن(أدجاحور سنت)القد اعجبنى تمثالك فى متحف الفاتيكان وقرات وصف رحلتك المنقوش عليه ، ولكن لقد ذكرت انك كنت اخصائيا فى الاسنان ، ثم فى امراض العيون والبطن وهذا قبل اليوم بأربعة الاف سنة ويزيد ، فهل بادر الاطباء يتخصصون منذ ذلك الوقت السحيق ، ونحن نعد التخصص تقدما حديثا ؟ ثم ما معنى لقب (حاكم العقارب) ؟

ضحك وقال : «اننا،لعجزنا ازاء لسع العقارب ولدغ الثعابين كنا نلجأ الى الصلوات والدعاءات، وقد مارست هذا اللون من الطب اللاهوتى الى جانب الطب التجريبى ، ومن هنا جاء لقبى هذا ، اما سبب التخصص المبكر فهو أن سر وحدة الجسم الآدمى ، المبنية على اتصال اجزائه بوساطة الدم السائر في الاوعية والقوى الجارية في الاعصاب ، كان خفيا عنا بعد ، فقسمنا الجسم ، تبعا لشكله الخارجي ، الى رأس وبطن وقدم وعين واسنان وما اليها ، ولا يخفى عليكم انهذه الصورة المتأصلة في أذهاننا ، وان كانت اقرب الى التعاريف اللفظية منها الى الحقائق التشريحية ، تنكشف بوضوح تام في خلال الاضطرابات النفسية غير العضوية التى تصيب بالشلل او فقدان الحس أشطرا من الجسم تابعة لهذا التوزيع، وقد راق هذا التقسيم البديهى فى عيون اولائك الاغريق من المتأخرين الذين توهموا وجود روابط بين الكواكب والاطراف تسيطر، بحكمها الاولى على الثانية، وهى فكرة سادت عالم الطب حتى عهد النهضة وبعده ، وما زال الكثيرون منكم آخذين بها ، كما انها شاعت بين طبقات الشعب غير المثقفة ، التى استبدلت بالافلاك القديسين والاولياء ، فأسندت الى هؤلاء شبه تخصص، ينفرد بموجبه كل منهم بمرض يشفيه(٥)

قلت في اعجاب :

انك جمعت فى صورة واحدة مظاهر تبدو ، أول وهلة ، مستقلة ، اذ انى لم أتصور قط وجود أية علاقة بين الشلل الهسترى وتخصص الاطباء في باكورة التاريخ فقد افهمتنى في لحظة حقيقة فاتتنى سنين ، وما دمت كريما هذا الكرم بمعلوماتك هل لى ان اسأل عن تاريخ وصول التخصص الى اوجه ، وهل كان له الشأن نفسه فى البلاد الاخرى ؟

ـ عزيزى ، ان تاريخ التخصص وازى خط سير النظريات الفسيولوجية ، لان الطب ما هو الا ثمرة من ثمار عصر، يتغذى منه ويتلوبه، يختلف بدو المرض في عينه عند كل منعطف يسلكه ، لقد

---

٢ ـ فى (تاريخ) هردوت ٤٦ (٢ و ١٢٣) أن المصريين آمنوا بتناسخ الارواح وان كانت هذه العقيدة لا تبدو جلية فى دينهم ، وقد آمن بها بعض الاغريق امثال فثاغورس وانبادقليس وذكرها افلاطون .

٣ ـ Papyr. jurid. de Turin (de Buck, A., 1937., J. Eg. Archaeol. 23, 152).

٤ ـ انظر تفصيل سيرة هؤلاء الاطباء وغيرهم من اطباء مصر الفرعونية فى : « الحضارة الطبية فى مصر الفرعونية » . تاليف بول غليونجي وزينب الدواخلي ، طبع دار المعارف بالقاهرة ، سنة ١٩٦٥ الباب الأول .

٥ ـ Early specialization in Ancient Egyptian Medicine and its possible relation to an archetypal image of the human organism, Med. Hist., 1969, XIII, 4, p. 383.

حسبت القرون الوسطى المجذومين من الملعونين ونبذتهم من بين ذويهم ،ولم ير انسان عهدالنهضة حرجا من العدوى التناسلية ، وتلون الدرن فى العصر الرومانتيكي بلون شاعرى انيق ، فى صدر عصر الصناعة عدت الامراض الصناعية اتاوة العمل الطبيعية .

علقت على هذا :

واكل شعب ما هو جدير به من الطب .

قال :

اجل ، ولا يفيده الا ما يوائمه اذ ان فننا ينبع منأذهاننا وعقائدنا وأوهامنا وكلماأسماه فلاسفة الالمان نظرتنا الكونية Weltanschauung كافراز منها ولذا فان التخصص العضوى لم يدم طويلا ، وقد زال تماما عندما انتشرت النظريات الجديدة التى صورت الجسم في صورة وحدة متماسكةوبالتالى لم يحظ عند اطباء الاغريق بالمكانة التى وصل اليها عند المصريين ، لان طبهم ــ كما اعتدناتعريفه ــ هو انتاج القرن السادس ق . م . ، اي عهد ابقراط ، الذى تلا ذروة الطب المصرى بعشرة قرون ، والذى دمج في غضونه فلاسفة الاغريق ــ لشغفهم باقامة النظريات التعقليــة ــ افكار (فثاغورس)بشأن الارقام وبخاصة قداسة الرقم ٤ الذى عزى اليه الكمال ، فىنظريات (انبادقليس) التى تصورت العالم مؤلفا من اربعة اركان هى الماء والهواء والنار والتراب ، مرتبطة بأربعخواص هى الرطوبة واليبسوالبرودة والسخونة ،وعينوا لكلعنصر وافتعلوا له اربعة اخلاط خمنوا الجسم مكونا منها ،هى الدم والبلغم والصفراء والسوداء وربطوها بالاركان الاربعة والخواص الاربعوادعوا ان نسبها تحدد الصحة او المرض . فلم يكن في هذا النظــام المتماسك مجــال لتقسيم الجســم تقسيما قد نسميه « اقليميا » . ومع ذلك فان الشعب الاغريقى ــ تبعا لتصور كامن في ذهن كل انسان ــ كان يقدم القرابين لاله الطب اسقلابيوس على شكل الجزء المريض مــن الجسم غير مبال بنظريات فلاسفته .

وما دمنا نتحدث عن تأثير العقائد فى الطب فان البابليين ــ بدافعمنعقائدهم ــ آمنوا «ببلقنة»(٦) الجسم ووزعوا أجزاءه على آلهة مختلفة ، فكان السحرة يتلون مثل هذه التعويذة (٧) :

هاجم (الاشاكو) الراس

هاجم (النمتارو) الحيــاة

هاجم (الأتوكو) قفا العنق

هاجم (الــو) الشرير ــ الصدر

هاجم (جالــو) الشرير ــ اليد

هاجم (أكيمو) الشرير ــ البطن

هاجم الاله الشرير (القدم)

ومن أساطير (شومر) التي تنم على مثل هذا التفكير أن الالهة (ننهرساج) بعــد أن أوقعت المرض على ثمانية أجزاء من جسم زوجها (انكى) لعقابه على أكله ثمانية نباتات أنجبتها له زوجته (أوتو) الهة النبات وابنة حفيدتــه ، أرادت ابراءه بايعاز من الثعلب فخلقت له ثمانية آلهة ، واحدا لكل جزء مريض .

ــ هل تميز لنا بــين طب المصريين والاغريق والبابليين ؟

ــ يمكن القول اجمالا وبكلمات قليلة ، ان طب المصريين كان خبرة ، وطب الاغريق مرانة فلسفية، وطب بابل سحرا وشعوذة ، وكان يُحَكّمُ على الطبيب فى مصر بأمانته فى تطبيق التعاليم المسلم بها ، وفى اليونــان بســلامة منطقه أو بمهارتــه السفسطية ، وفى بابل بدرايته بالطوالع والفؤول ، وانما تميز هذا الاخير بالقسوة فى العقاب ، آخذا بمبدأ المثل بالمثل ، المصرح به رسميا فى قانون حامورابى (٨)

قال صديقي ــ ما نزال نشاهد اليوم ، بــين أطبائنا ، أمثلة من كل من هــذه النماذج وكأن التاريخ يعيد نفسه دوريا .

قلت ــ بل انه يجرى جريا حلزونيا بين قطبين يتراوح بينهما وانما على مستويات متباعدة ، وهذان القطبان يمثلان نظريتين مختلفتين ، ترجح الاولى أولية المزاج فى احداث الامراض ، والثانية أولية البيئة ، أو بتعبير آخر : أهمية التربــة

---

٦ ــ بلقنة : لفظة مستحدثة اطلقت على تقســيم الدول الكبرى لمنطقة البلقان الى دويلات مستقلة .

٧ ــ انظر : Contenau, G., 1938, La Médecine en Assyrie et en Babylonie, Maloine, Paris.

٨ ــ حامورابي : ملك من ملوك بابل (١٨٤٨ ــ ١٨٠٦ ق.م.)مؤسس المملكة البابلية ، شرع قانونا يعد أقدم قانــون معروف ، موجود منه نسخة منحوتة على الحجر فى متحفاللوفر بباريس ، يحدد مسئوليات الأطباء وعقابهم اذا مــا أخفقوا فى العلاج .

والبذرة . فأين كان موضعكم من هذين القطبين ؟

قال : اننا تصورنا ـ أول عهدنا بالطب ـ أن المرض يأتي نتيجة لعوامل دخيلة ، قد تكون أرواحا أو حشرات أو ديدانا أو ما اليها ، تقتحم هذه العناصر الجسم وتدخل اوعيته وتسرى فيها، فتحدث اما عوارض عامة كالحمى والاعياء ، واما ظواهر انبثاثية كالخراريج والقرح والأورام(٩ر١٠) ثم ان اغريق مدرسة قنيدوس (١١) اقتبسوا منا هذه الفكرة ، وهى الآخذة بالعناصر المرضية السارية فى الجسم ، وحولها بعدهم أساتذة مدرسة قو (١٢) ، التى نبغ فيها أبقراط ، الى عناصر طبيعية ، فدمجوها فى صلب نظرياتهم الرباعية التي أسلفنا ذكرها ، وعرفوا (المزاج) بأنه تابع لنسبة الأخلاط الأربعة فى الجسم ، وأولوه المنزلة الأولى فى اعداد الجسم لهذا المرض أو ذاك ، وبهذا انتقل مركز الثقل من البذرة الى التربة .

تابع صديقى الحديث فقال ـ وقد دارت اللولبة وجاء أمثال بيشا (Bichat) و (لاينيك) Laennec(١٣) فقارنوا الأعراض بالأحشاء، وفرشوف Virchow (١٤) الذى اعتمد على المجهر النظرى فأنشأ علم الباثالوجيا الخلوية ، فأهملت الأخلاط السائلة ، واتجه النظر الى الأنسجة الصلبة ، ثم جاء باستور Pasteur (١٥) الذى كشف عن الجراثيم ، فأعيد العامل الدخيل الى منزلته الأولى واستبدل بأرواحكم وديدانكم وحشراتكم، ونظر الى المرض على أنه من فعل الجراثيم على الأنسجة .

---

٩ ـ Ghalioungui, P., 1963, Magic and Medical Science in Ancient Egypt, Hodder & Stoughton, London.

١٠ ـ Ghalioungui, P., 1968, La notion de maladie dans les textes égyptiens et ses rapports avec la théorie humorale, Bull. Inst. Fr. Archeol. Or., le Caire, LXVI, p. 37.

١١ ـ قنيدوس : مدينة على الشاطىء الأسيوى المقابل لقو ، نشأت بها مدرسة نافست مدرسة قو المعاصرة لها ، وانجبت افطاحل أمثال الفلكي اودكسوس (٤٠٩ ـ ٣٥٦ ق.م.)الذى حدد أيام السنة بأنها ٣٦٥ يوما وربع يوم والمعمارى ستراتو الذى شيد منارة الاسكندرية ، وبعض العلماء الذين جنحوا فيما بعد الى الاسكندرية ، وقد تميزت بنظريات كان لها ، سابقا ، شأن كبير فى التفكير الطبي المصرى القديم ،وربما ورثتها عنه ، فحواها أن اجتياز الهضم حدوده الاعتيادية ينتج عنه ظهور مواد غير طبيعية تسرى فى الجسم وتسبب المرض .

١٢ ـ قو : جزيرة صغيرة تجاه شاطىء آسيا الصغرى ، حل بها شعب دورى الأصل ، نزح اليها من (ابدورس) بالبلوبونيز ، حيث عبادة أسقلبيوس رب الطب عند الاغريق وشيد معبدا لهذا الاله كان يزوره المرضى للاستشفاء ، وقد كشف فيها عن معابد يتراوح تاريخها بين القرنين السادس والثاني ق.م.

١٣ ـ لاينيك René Laennec (١٧٨١ ـ ١٨٢٦) طبيب فرنسي ، من أوائل الذين دأبوا على تشريح من يموت من المرضى ، ومقارنة احشائهم بمظاهر مرضهم ، ابتكر طريق الفحص بوساطة السمع ، وكان يضع ـ أول الأمر ـ اذنه على الجسم مباشرة ، الا أنه خجل يوما ما من وضع اذنه على صدر سيدة شابة تمتاز بشيء من البدانة ، فتذكر لعبة يلعبها الأولاد وحذا حذوهم، فلف قرطاسا على شكل اسطوانة فارغة ، استعملها لتوصيل الصوت من الصدر الى اذنه ، ومن ثم اخترع أول مسماع (سماعة) وكان على شكل أسطوانة من الخشب ، وتمكن بهذه الآلة من وصف كل العلامات السمعية المعروفة الى اليوم .

١٤ ـ فرشو Rudolph Virchow (١٨٢١ ـ ١٩٠٢) عالم ألماني اهتم بالسياسة الاجتماعية وابتكر علم باثولوجيا الخلايا بدأ به على تفحص الأنسجة المريضة بالمجهر .

١٥ ـ باستور (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) Louis Pasteur : كيميائي فرنسي من أشهر العلماء ، له فى ميادين التخمير والكيمياء المجسمة Stereochemistry بحوث ثورية ، يدين له العالم ،مع أنه لم يكن طبيبا ، بالكشف عن الجراثيم وعن دورها فى الأمراض المعدية ، انتقذت زراعة العنب وتربية الخراف فى فرنسا من الافلاس ، ببحوثه فى امراض الكروم والجمرة الخبيثة وابتكر علاج الكلب بحقن أقدار متزايدة من الفيروس بعد ترويضه فى الجلسرين مددا متزايدة لتخفيف وطأته ، وقد عمل أول من شفى من هذا المرض الفتاك بقية عمره حارسا بالمعهد الذى أطلق عليه اسم باستور بباريس ، اعترافا بجميله ، واستشهد دفاعا عنه فى خلال الحرب العالمية الثانية .

قلت :

لم يمض زمن طويل قبل أن يقدَّر البعث للسوائل المرضية فى صورة مجددة ، على أيدى أمثال فيدال Widal (١٦) الذين دأبوا على تحليل السوائل تحليلا كيماويا فحلت البولينا والسكر والكولسترول محل السوداء والصفراء والبلغم ...

تمهل محادثنا ونظر الينا نظرة غامضة وقال :

ولكنكم ما تزالون فى حيرة شديدة ، أفى قدرتكم تعريف المرض ، أى مرض من تلك الأمراض التى تكثر مشاهدتها ؟ كيف تعرِّفون مرض التيفود الذى يسببه بشلوس ابرس Ebers هل هو مجرد اقتحام هذا المكروب للجسم ؟

ـ كلا ، فانالجرثومة قد تؤم الجسم وتأوىفيه سنين طويلة دون حدوث مرض ظاهر ، كما فعلت فى (مارى التيفويدية Typhoid Mary) تلك الطاهية الأميريكية التى تسببت فى ما لا يقل عن ثلاث وخمسين حالة تيفود أعقبت الوفاة ثلاث منها ، دون أن تصاب بأى أذى .

ـ أهو الحمى التيفويدية ؟

ـ كلا، فان حميات مماثلة قد تصاحب اصابات بجراثيم أخرى،كما أن جرثومة ابرسقد تصحبها حالات تختلف عنها كل الاختلاف كالخراريج أو التهاب السمحاق أو أنواع من الروماتزم أو التهاب حويصلة الصفراء .

قال صديقي : عدنا اذن الى أهمية التربة أو المزاج ، الذى يكيف استجابة الجسم الى أى غزو أو اعتداء ، وهذا يرجع ما ذهب اليه كرتشمر Kretschm r (١٧) وأمثاله ممن بوَّبوا طبائع الانسان حسب شكله ونسب مقاييسه ، وقد ثبتت صحة استنتاجهم الى حد بعيد .

تحدانا محادثنا :

أتعد هذا جديدا ؟ لقد سبقكم الاغريقوالرومان فى هذا الحقل وبوَّبوا أيضا الأشكال ، وربطوا بين كل منالشكلوالطابعوالمزاجوالاحشاء والامراض، وبين الأجرام المهيمنة وقت الولادة . وها أنتم ما زلتم تنعتون المعتوهين بالقمريين Lunatic وتقولون عن كئيبى المزاج انهم زحليُّون وعن محبى السلطة وسريعى الغضب انهم أسديُّون .

اعترض صديقي وكأنه فى حلم :

ان حاسة الشعراء أصدق من تحقيق العلماء ، لقد قال شيكسبير : « ليس العيب فى فلكك وانما العيب فيك » وكأنه تنبأ بجزيئات نوايا الخلايا التى نسميها (الجينة Genes) وهى الحاملة منذ لحظة تكوين الأجنة للصفات الوراثية، بفضل مراكز قوى تحويها ، تحدد كل مميزات الجسم ، كلون العينين أو طول الذراعين،بوساطة خمائر تسيطر على التفاعلات الكيماوية ، وقد يكون الكشف عنها ملتقى حاملى لواء الكيمياء بمعضدى فكرة النسيج ، واندماج النظريات الخلوية فى النظريات الكيماوية ونهاية اللولبة التي حيرت الطب منذ نشأته بانطباق قطبيها .

ضحك محاورنا ضحكة كاتمة :

أراكم تعيرون ماضينا أهمية لم يتبادر الى أذهاننا اعارته مثلها ، وقد راقبت جهودكم المضنية دون تفهم دوافعها ، أتتطلعون حقا الى حقائق تاريخية ثابتة ؟

أجابه صديقي :

أيها الزائر الجليل ، ان على المؤرخ ، اذا ارتفع الى المستوى الذى يؤهله الى هذه التسمية ، أن يستخدم كل الوسائل الممكنة للحصول على بغيته، والا يكتفى بجمع الأحداث ومعرفة تواريخها والاطلاع على النصوص والروايات والتنقيب عن المبانى المندثرة والبقايا البشرية الهالكة وما اليها ، وانما عليه امتحان حصيلته فى أضواء مختلفة ، كالخبير الذى يسلط على الرسوم الاشعاعات السينية والبنفسجية وتحت الحمراء قبل البت

---

١٦ ـ فيدال Fernand Widal (١٨٦٢ ـ ١٩٢٩) طبيبفرنسي كان بالغ الأثر فى اتجاهات الطب الحديثة ، عنى بأمراض الكلى وبالحميات ، وهو أول من أعار تحليل الدم ماهو جدير به من الاهمية ، وكان أول من وصف ارتفاع نسبة البولينا فى الدم نتيجة لأمراض الكلى ، وابتدع تشخيص حمىالتيفود بقياس تلازم الجراثيم فى مصل المرضى .

١٧ ـ كرتشمر Ernest Kretschmer (١٨٨٨ ـ) :طبيب نفساني الماني ، لفت نظره وجود ارتباط وثيق بين شكل الجسم او نِسَب اجزائه وبين ما يعانيه مرضاه مناضطرابات نفسية ، وقسّم الاشكال الى فئات يخص كلا منها لون من المرض ، ثم توسع دريبر George Draper فى هذا الاتجاه وربط بين الشكل والأمراض الجسمانية ، وتلاهما الكثيرون فى هذا الاتجاه

فى أصالتها ، أما الأضواء التى يجب علينا اعدادها لنسلطها على قضايانا ، فهى تلك التى نستمدها من مميزات الحقبة التى نحن فى صددها ، أى من الجو الذى سادها ، وهو يشمل العقائد الدينية والاوضاع الاجتماعية والاطارات السياسية والمناخ الأقليمى وبشكل عام فلسفة العصر وبيئته.

قال :

أستحملون فى أنفسكم موسوعات مصنفة من العلم باللغات القديمة وعلم الأديان وتفسير النقوش والرسوم والانتاج الفنى والبقايا البشرية والمنزلية والقصص والروايات ، مع ما فى كل هذه الأبواب من صعوبات ومعوقات تحول دون اجتيازها ؟ انه لم يغب عنى ـ على سبيل المثال ـ قسط الاجتهاد فى نقل علمائكم النصوص الهروغليفية أو المسمارية الى اللغات الحديثة ، كيف يدعون الاحاطة بمدلولات النصوص وهم قلما يتفقون عليها ، لقد ترجم أبل Ebbell نبذة : « نزيف من قلفة ختان » (١٨) وأخرى : « علاج سقوط الرحم » (١٩) فى حين أن جرابو Grapow ترجمهما : « نزف بسبب شوكة سنط » وعلاج لرفع ثديى المرأة ؟ (٢١) (٢٠) انى عندما نقلت فى القرن الخامس عشر ق.م نسخة من المؤلف الذى أطلقتم عليه « بردية أدوين سميث » (٢٢) لأطلع عليها تلاميذى اضطررت الى حشوها بهوامش تفسر العبارات القديمة التي كانت أهملت ونسيت معانيها بعد أن مضى على وضعها خمسة عشر قرنا .

مددت يدى الى خزانة الكتب وأخذت منها نسخة من هذه البردية :

أجل انك علقت على الحالة السابعة : « أن حبل الفك هو مجموعة الأوتار التى تربط طرف الفك، وعلبة الرأس هى متوسط قمتها بالقرب من المخ ، وقد شبهت بالعلبة » ، وعلى الحالة الرابعة : « ان عبارة : اربطه فى مرساه » يعني بها : دعه يلزم نظام حياته السابق دون وصف أى دواء » « وكأنى بأمبرواز بارى Ambroise Paré (٢٣) يصرح بعدك بثلاثة آلاف سنة : « انى ضمدته والله أبراه » ، فاذا كنت تقمصت أيضا (بارى) قل لى ، بالله ، هل صحيح ما قاله كاتب عنك ، انك اذ دعيت لعلاج هنرى الثالث ملك فرنسا من الجرح البليغ الذى أصاب عينه فى أثناء مبارزة ، قست عمق الجرح واختبرت خطورته بادخال عصا فى عين مجرم حكم عليه بالموت ، فى موضع جرح الملك وفى اتجاهه وعمقه (٢٤) ؟

حول مجرى الحديث واستطرد قائلا :

وما أكثر ما اخطأتم فهمى ! ان الالفاظ، كالاحياء، لها تاريخ طبيعى ، تولد وتنمو وتتطور ، وقد تفنى وتزول ، ولكنكم تأخذونها على آخر معانيها . فما أكثر ما وقعتم فى الحيرة ! خذ مثلا وصف الاغريق لحبة (زيا Zea) وهى تعنى اليوم الذرة ، وكانت عندهم الحنطة ، وأنتم تعلمون أن الذرة لم تصل الى بلادنا الا عند عودة بحارة كولومبوس من القارة الاميريكية ، وكم من لفظة استعملت مجازا أخذتموها على لفظيتها . هل من المعقول أن ندهك (سن الحمار) أو رأسه (٢٥) فى دهان أو نشربه فى شراب كما ادعى المترجمون المتمسكون بحرفية الكلام ، بينما سن الحمار وما اليها من التسميات الوصفية كانت أسماء نباتات؟ ما بالكم لو أن كاتبا من القرن الثلاثين الميلادى ادعى انكم تأكلون (عين الجمل) أو تستعملون النباتات التي أسماها الخيال الشعبى نشاشة الذباب Silene rubella أو دم الاخوين Dracaena cinnabari

---

١٨ ـ Ebbell, G., The Ebers papyrus, 1937, Levin & Munksgaard, Copenhagen, No. 808.

١٩ ـ Ebbell, ditto, No. 732.

٢٠ ـ Grapow, H., Grundr. d. Med. d. Alten Aeg. Akademie Verlag, Berlin, IV, 1, 285.

٢١ ـ Grapow, ditto, IV, 1, p. 213.

٢٢ ـ Edwin Smith papyrus, ed. by Breasted, The Chicago University Press, Chicago, 1930.

٢٣ ـ بارى Ambroise Paré : (حوالى ١٥١٠ ـ ١٥٩٠) جراح فرنسي لازم هنرى الثاني ، وشارل التاسع ، وهنرى الثالث من ملوك فرنسا ، صاحب الجيوش فى خلال حروب المائة سنة واستبدل بطريقة الكى القديمة ربط الشرايين لوقف النزف ، وله تصنيف وافر .

٢٤ ـ Histoires d'Amour de l'Histoire de France, II, p. 292, par Guy Breton, Ed. Noir & Blanc, Paris.

٢٥ ـ P. Ebers 18, No. 770.

أو لسان الفرس Daphne alexandreia أو غيرها من تلك التي أطلقتهم عليها أسماء تشبيهية ؟ هل في استطاعة قارىء عادي قراءة (قانون) ابن سينا أو (الحاوى) للرازى دون الرجوع الى أمهات اللغة والمعاجم المتخصصة ؟ اننا ، نحن العرب ، نعنى بالخوخ نوعا من الفاكهة فى لبنان ونوعا آخر فى مصر ، ان كلام العرب من السعة بحيث لا يحيط به الا نبى (٢٦) — حسب قول الفقهاء — وقد علق عليهم ابن فارس بقوله « هذا كلام حرى أن يكون صحيحا ، وما بلغنا أن أحدا ممن مضى ادعى حفظ اللغة كلها » ، أضف الى الصعوبات اللفظية الاصطلاحات اللغوية التى تختص بها كل لغة كسنن العرب فى مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، وحذف أداة النفى ، كقولهم « والله أفعل ذاك » تريد « لا أفعل » ، وذكر الواحد والمراد الجمع ، والعكس ، والفرق بين ضدين بحركة ، كقولهم : « يَخفر اذا نقض من أخفر ، ويَخفر اذا أجار من خفر ، واستعمال اللفظة لشيئين متضادين كقولهم الجون للاسود والابيض ، والرجاء للرغبة والخوف ، والجلل للشىء الصغير والكبير ، وأمثالها ملأت كتب الالفاز ، ثم انكم تفسرون الالفاظ بما لا علاقة له بأصلها ، كزعمكم أن اسم منطقة « السيف » مقتبس من لفظة CIF (٢٧) وهى مختصر عبارة يستعملها موردو البضائع الموانىء ، بينما السيف اسم فصيح لساحل البحر . .

— صدقت والله ، لقد ورد عليّ مثل لهذه الصعوبات فى ترجمة انجليزية لكتاب : « الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » الذى وضعه موفق الدين عبد اللطيف البغدادى نحو سنة ١٢٠٠ م ، فقد ورد فى المقال عن فيضان النيل وأثره على أرض مصر أنه « يأتيها طين أسود علك فيه دسومة كثيرة يسمى الابليز » ويبدو أن المترجمين ظنوا الابليز هو الابريز فترجموه الذهب الحر (٢٨) فى حين أن الابليز هو طمى النيل ، ثم ان الاعتماد على التراجم والاقتباسات دون الرجوع الى الاصول يخلد أخطاء المترجمين والملقين ، وافضل مثال لهذا ما لحق بنظريات عملاق الطب القديم ، الفاضل جالينوس ، منذ أن نشرها فى القرن الاول الميلادى ، فقد عرضها حنين بن اسحاق فى العهد العباسي على شكل ، ثم ترجمهما ليناكر Linacre ترجمة مباشرة من أصولها اليونانية على شكل آخر ، واتضح من اخر تحقيق أجراه سيجل Siegel أن جالينوس اتهم ظلما بالوقوع فى عدة أخطاء ، فقد نسب اليه القول بأن حركة الدم فى الأوعية تتم على شكل مد وجزر ، وهذا ما لم يجىء فى كتاباته (٢٩) ، وقامت حملات عنيفة ضده آخذة عليه فرضه وجود مسام خفية فى حاجز القلب ينفذ عبرها الدم ، وكل ما قاله فى هذا الصدد أن هذه المسام تكوّن ممرا اضافيا لفائض الدم ، وهو عندما فرض وجود مسام غير مرئية لم يشط أبعد من هارفى Harve اذ فرض وجود وصلات بين الشرايين والأوردة لم يكن له الى رؤيتها سبيل قبل اختراع ليونهوك Leeuwenhoeke (٣٠) المجهر النظرى ، ثم ان صعوبات اللغة ليست العوائق الوحيدة التى يجابهها المؤرخون ، فانى كثيرا ما اعترضت على تفسير علماء الآثار لبعض البقايا التي كان أحرى بهم استرشاد المختصين فيها ، وقد درجت بعض الحكومات على تشكيل لجان تضم اختصاصات مختلفة على شكل (طواقم) من الباحثين ، لتعرض عليهم كل ما يتوسم فيه علاقة بفنهم ، ودعنى اذكر على سبيل المثال لما قد يقع فيه المؤرخون وصف دارسي Daressy عالم الآثار الفرنسي لنقش بمقبرة مريروكا بسقارة ، يمثل صاغة يصوغون قلادات من الذهب ، ويتميزون بقصر أطرافهم السفلى بالنسبة الى طول جذوعهم . استغرب دارسى هذا الشذوذ لخبرته بمهارة

---

٢٦ — المزهر فى علوم اللغة وانواعها : تاليف عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة جزء ١ ، ص ٦٤ (ب) ص ٣٨١٠ .

٢٧ — لفظة CIF مختصرة عبارة Cost Insurance Freight ومعناها ثمن وتامين وشحن .

٢٨ — موفق الدين عبد اللطيف البغدادى، الافادة والاعتبار .. أنظر ص ٢٣ من :
The Eastern key, Zand, K.H., Videan, J.A., and Videan, 1, E., 1965 G. Allen, London.

٢٩ — Siegel, R., Galen's system of Physiology and Medicine, 1968 Krager, Basel.

٣٠ — ليونهوك Anton van Leeuwenhoek (١٦٣٢ — ١٧٢٣) اشهر من عنى بعلم المجهر ، وكان يحفر عدساته بنفسه ، فصنع آلات كانت ، مع عيوبها الآلية ، اجود صنع عصره ، وتمكن من تكبير الاشياء ٢٧٠ مرة ، وتعتد المتاحف اليوم بما بقى من صنعه .

فنانى هذا العهد ، فجنح الى أنهم قصدوا تمثيل الصاغة راكعين ، ولكنهم تسرعوا فرسموا المائدة التي يعملون عليها قبل رسم أطرافهم ، فشغلت المجال المعد للاطراف ، ولم يجدوا مفرا من وضع الاطراف منبسطة فى ارتفاع كان مخصصا لها وهى منثنية ، ومن هنا قصرها النسبى . غير أنه فاته ـ وكيف لا ــ ان الدراعين تميزا بالقصر نفسه لأن أولئك الصاغة كانوا من الاقزام المصابين بعاهة (الاكوندروبلازيا) التي تمتاز بقصر الاطراف لتوقف نموها فى سن مبكرة .

اصبت يابنى وتشخيصك للعاهة سليم ، كانت الاقزام تكلف بصياغة الحلي وبحفظ الأمتعة والكنوز ، لسهولة العثور عليهم اذا ما فروا بها .

اعترض صديقي :

« ان عكس هذا الخطأ أكثر خطورة » ، واتجه نحوى : « وقد وقعت أنت فيه . فقد يفسر الاطباء تفسيرا طبيا ظاهرة ذات مدلول رمزى ، انك اسندت مياعة شكل الفرعون اخناتون الى خلل فى غدده (٣١) ، كما ظنه ما سبيرو من قبلك امرأة ، والحقيقة أنه أراد تجسيم عقيدته ، وهى ان الهه (أتون) هو الخالق الاوحد ، لم يشاركه فى الخلق غيره ، فهو أبو الكون وأمه معا ، جمع فى نفسه خصب الذكور والاناث ، فكان لابد عليه ـ وهو صورة الاله المتجسدة ــ من تمثيل نفسه على شكل لاجنسي . »

قلت :

هذا رأى فئة من علماء الآثار ولكننا ، معشر الاطباء ، لن نصدقهم حتى يتم الكشف عن موميائه .

اختفت ابتسامة الزائر وغشت الكآبة وجهه :

لن يحدث هذا أبدا . ان سيدى أخناتون كان أول من نادى بالتوحيد ، وكان مصدر ايمان بنى اسرائيل ، وناهض عبادة الآلهة التى تسمونها أصناما وكان أقواهم آمون ، وقد انتهك موميائه وأسفاه كهنة هذا الاله انتقاما منه ، واعدموها لئلا يسمحوا له بالتمتع بحياته الثانية ، ولهذا السبب ، ولهتكهم أغلب آثار عاصمته (تل العمارنة) (٣٢) لن يتاح لكم الوصول الى الحقائق كاملة أبدا .

وهنا سألته فى فضول وقلة لياقة :

وما الذى دعاكم الى تحنيط الموتى ؟

اجابني غاضبا :

انى مندهش لجهالتك ، فضلا عن حماقتك . انما حنطنا موتانا لايماننا باستمرار حياتنا بعد الموت فى البيوت التى شيدناها لاستئناف عيشتنا على نمطها الاول ، وهى التىأسميتموها انتم مدافن وكنا نحن نطلق عليها « دور الخلود » . لم نوسوس قط بفكرة الموت ــ كزعم بعضكم ــ ، وانما عنينا بالمدافن لوسوستنا بالحياة ، ولشغفنا بها ، ومن ثم اهتمامنا بحفظ أجساد أهلنا سليمة، لتقف أمام الاله صحيحة ، ولنستمتع بملذات الحياة كاملة ونستنشق صبا الشمال ليلا ، ونتلذذ بحرارة الشمس نهارا ، ونستطعم ألوان الأطعمة المنقوشة على الجدران ، وننعم بحب الزوجات والاولاد الى الابد .

أجبت :

ــ أن لكل عادة غريبة سببا معقولا ، لقد وصل اهتمامكم هذا الى استبدال اطراف صناعية بالاطراف المنزوعة ، والى تركيب الجبائر على الاذرع الميتة اذا كسرها (الحانوتية) ، وكنا نجهل الدافع الى سلوككم الذى ، اقل ما يقال عنه ، انه يبدو غريبا . ولكن الادهى فى هذا أن هذه العادة ، التي كانت طقسا دينيا بحتا ، أفاد منها الطب فوائد غير منتظرة ، فان لف الجثث بالاربطة بطرق فى غاية الفن درب فئة من الناس تخصصوا فى الأربطة ، فعاونوا الاطباء فى تجبير الكسور والخلوع عند الأحياء كما كانوا يفعلون بالاموات ، وقد ذكر هذا فى بردية أدوين سميث ؟

عدت ففتحت البردية وقرات :

« ان الفطاء الذى يستعمله الطبيب هو رباط

---

٣١ ـ Ghalioungui, P., 1947. Ann. Serv. Ant. Eg., XLVII, p. 29

٣٢ ـ تل العمارنة (خوت تاتن ، اى افق قرص الشمس) العاصمة التي شيدها امنحتب الرابع ليبتعد عن نفوذ كهنة آمون بمدينة (طيبة) ، عندما اتخذ اسم اخن ـ اتن ليتجرد من اسمه الأول الشامل لاسم الاله آمون ، تقع هذه المدينة فى متوسط الطريق بين القاهرة واسوان ، واسمها العربي نحت من اسمى قرية (التل) وقبيلة (بنى عمران) القاطنة حاليا بها ، وقد هدمها لاحقو اخناتون بعد موته لشدة كرههم للعبادة الجديدة ، ويدل ما تبقى منها على تقدم كبير فى الفن وعلى ظهور نزعة طبيعية فى الرسم اثرت على الفن المصرى طيلة من الزمن .

موجود بين أيدى المحنطين » ،والى هذا فان اعتياد فتح الرؤوس والبطون أرشد الى مواضع الأحشاء وأشكالها ، وأسهم فى رفع الحظر عن تشريح الموتى فى عهد البطالمة .

قال :

أجل لم تقم السلطات الاسكندرية صعوبات عندما قمنا مع زميلي هيروفلس (٣٣) وايرازستراتوس (٣٤) باجراء الصفات التشريحية والتجارب على الاعصاب والعضلات التي مكنتنا من تصحيح أخطاء الذين كانوا يحرقون موتاهم أو يحجمون عن تشريحهم ظنا منهم أنه انتهاك لتعاليم الدين ، كما أن مقابلة اصابات الأحشاء بالأعراض المرضية رجحت كفة القائلين بأن المرض مبنى على أسس عضوية .

قلت :

وفيما يخصنا ، فاننا ندين لعادة التحنيط بمعلوماتنا عن حالتكم الصحية ،لأن البقايا البشرية تفشى بأمانة أسرار الحضارات المنصرمة ، لو أنها لا تتعرض للتلف ، ولذا فان معرفتنا لأمراض الماضي تكاد تقتصر على أمراض العظام والكسور وما استعمل فى سبيل علاجها من أربطة وجبائر ، ومع ذلك فان تشخيصها ليس بالأمر السهل بعد أن نخر فيها الدهر ، وهو يثير مناقشات حادة بين اخصائى العلم الذى أطلق عليه أخيرا (باليوباثولوجى) palaeopathology أى علم أمراض الاحاثة والآثار ، حيث نراهم يتجادلون فى مؤتمراتهم حول سبب تكاثف العظام التي كشف عنها فى هذه الجبانة أو تلك . أهو الزهرى أو الجذام أو التهاب غير نوعى أو ورم ؟ وحول تاريخ أول ما وصل الزهرى الى قارتنا ، أوفد عليها هدية من أمريكا بوساطة بحارة كولومبوس، أم كان متوطنا عندنا من قبل ؟ أما فيما يخص عهدكم ، فاننا أكثر دراية بحالتكم الصحية لحفظكم الأنسجة الرخوة فى حال تسمح بتفحصها على أدق وجه ، وليس بالمجهر النظرى فحسب ، وانما بالمجهر الألكترونى الذى وقفنا على أدق دخائل الخلايا ، كالميتوخوندريا mitochondria وقد أظهر (روفر) Ruffer (٣٥) فيها بفضل احتفاظ الأنسجة بهذه الحال الجيدة ، بويضات البلهارسيا ، وآثار تصلب الشرايين ، فضلا عن أمراض أخرى ، وعرفنا أن رمسيس الخامس توفى عقب مرض الجدرى ، وأن الملكة نفرتارى والفراعنة أمنوفس الثالث وسيتى الأول ورمسيس الثانى كانوا صلعا ، والحق يقال أننا عرفنا بفضلكم عن حالة الفراعنة الصحية مالا نعرفه عن ملوك القرن الحالي . وما دمنا فى ذكر عادات نستغربها ان لم نجد حوافز معقولة لها ، فاسمح لى أن أستفسر عن أمر عادة أخرى تدهشنا ،وهى الزواج من الأخوة والأخوات .

أعاد آخر حديثى الغضب الى محيا محادثى بعد أن كان أزاله اعترافى بفضل التحنيط علينا .

ــ انك ما تزال تحكم علينا بمنطق النصف الثاني من القرن العشرين ، أعلم أيها الشاب الغرير أن نساءنا كن يتمتعن فى مجتمعنا بمركز أرفع مما تتمتع به نساؤكم فى أكثر بلادكم حضارة وتقدما ،

---

٣٣ ــ هيروفيلس (حوالي ٣٠٠ ق.م.) : عالم اسكندرى ،هوى التشريح ووصف أجزاء عديدة من الجسم ،منها الاثنى عشر والمخيخ والنخاع الشوكي والأوعية اللمفاوية ، وفرق بين الاعصاب والأوعية ، وادرك أن الاعصاب تنقل الحس وتدفع الى الحركة ، وكان أول من عدّ النبض مستعينا بساعة مائية ،وقد يكون اقتبس هذا الابتكار من تعاليم مصرية قديمة ، حيث ان عدّ النبض مذكور فى برديات ادوين سميث وابرز وبرلين ،وان هناك نماذج معروفة من الساعات المائية ترجع الى عصر تحتمس الثالث ، كما أنه حاول حل مشكلة الدورة الدموية،داناها أكثر من غيره .

٣٤ ــ ايرازستراتس (٣١٠ ــ ٢٥٠ ق.م.) : من تلاميذ مدرسة قنيدوس المنافسة لمدرسة قوس الأبقراطية ، وكان مشرحا دؤوبا ، لم تقل معلوماته فى راى بعض المعاصرين عن معلومات فيزاليوس فى القرن السادس عشر م . استند ــ على ما يبدو أول مرة فى التاريخ ــ الى التجربة والعلوم التجريبية لتعليل الظواهر الجسدية ، منها فيزياء الفراغ وفكرة نفور الطبيعة من الخواء التي اتخذ منها اساسا لفسيولوجيا جديدة . فقال ان اتساع الصدر فى أثناء الشهيق يمتص الهواء داخل الرئة ، وبالمثل ان انبساط القلب يجتذب الهواء من الرئة ، وذهب الى أن الشرايين لها خاصية انبساط ذاتية تجتذب بموجبها الهواء (او النفس) من القلب الأيسر ، حيث ان الدم ، فى رايه ، محصور فى الأوردة والقلب الايمن ، أما النزف فان سببه اندفاع الدم من الأوردة الى الشرايين بدافع الفراغ الناتج فى الشرايين عند فتحها وخروج الهواء منها ، فاستنتج وجود صلات متطرفة بين الأوردة والشرايين يجتازها الدم وانما فى حالات مرضية فقط .

٣٥ ــ Ruffer, M.A., 1921 : The Palaeopathology of Ancient Egypt, Chicago University Press, Chicago.

انهن كن يشاركننا تسالينا ومشغولياتنا ، ويصاحبننا فى رحلات القنص وصيد الأسماك وفى الولائم والاستقبالات الرسمية، وكان لبعضهن شأن خطير فى ادارة دفة الدولة ، منهن (حاتشبسوت) (٣٦) التى جمعت بين قوة الرجال ودهاء النساء ورشاقتهن ، وانتزعت الصولجان من يدى تحتمس الثالث واستولت على الحكم ، والملكة نيتوكريس (٣٧) التي حكمت مصر وانتقمت لأخيها شر انتقام ، والملكة(تيبي)التى سيطرت على ابنها اخناتون والتي بلغ ولع زوجها بهـا ـ وهو المترف المزواج امنوفيس الثالث ـ الى حد حفر بركة واسعة خصصها لنزهاتها المائية والى توزيع جعران نقش عليه هذا الحادث لحفظ ذكراه ،وكل سيدات الاسرة الطيبية اللائى لعبن دورا فذا فى الاحداث الهامة التى انتهت بتحرير مصر من حكم الهكسوس ، ولعل الملكة التي نالت أعظم صيت هى (عح ـ حتب) زوج (سقننرع) بطل الحملة التي طردت المغتصبين ، والتي ورد على شاهدها بمعبد كرنك انها هى التي ضمت صفوف عسكر مصر وأخمدت الثورة . وكانت الوراثة ـ أحيانا كثيرة ـ تؤول عن طريق النساء ، لأن الأم عدت وصلة السلالة وواهبة الحياة ، اذ كانت عقيدة أسلافنا ـ باديء ذى بدء ـ أن الذكر ماهو الا مبدأ منبّه لانقسام البويضة ونموها ، وقد جهل بعض البدائيين علاقة العملية الجنسية بالحمل جهلا تاما وانصرفوا الى أن المرأة قد تلقح من الهواء أو الجن أو أرواح الأجداد . .

أضفت :

أو من شظية شجرة جسدت شخصا كما روى فى قصة الأخوين (٣٨) ومازال بعض القبائل المتخلفة تؤمن بمثل هذه العقائد ، وتحجب الصبيات من ملقحات مزعومة كالأرواح والرياح والاعاصير والحيوانات البرية .

استطرد :

ومعذلك فقد بكرنا الى دور الذكور فى التكاثر حتى أن بعض أميراتنا كالاميرة (ادوت) كانت تلقب بـ (ابنة الملك التى من جسده) (٣٩) وانما ، لما للكهنة المحافظين من نفوذ ، تحجرت تقاليدنا ، واصبح الزواج من الأخوات محبوبا لهدفه الى أمرين : أولهما الاحتفاظ بالارث من الوقوع فى أيد غريبة ، وثانيهما ضمان انحدار السلالة من أصلها الالهى ، اذ أن الاله كان أصل الأسرة المالكة ومصدرها للحقة فى الملك، ونتيجة لهذه الاعتبارات قيد حق الجلوس على العرش بالزواج من أميرة منحدرة من أصل ملكى عن طريق الملكات ، لا عن طريق الاماء أو الأميرات الغريبة التي كان القصر الملكي مكتظا بها ، وهذا حتى يتحقق فى الاولاد النسب الى الاله . فكان لزاما على فرعون ، وان كان ابن الملك ـ الزواج من أخت أنجبتها الملكة الكبيرة وكانت تسمى الزوجة الكبرى ، والى هذا فان الصبيان والصبيات كانوا يربون تربية منفصلة فلم تنشأ بينهم مشاعر الأخوة التي استنكرتم من أجلها هذا النوع من الصلات .

---

٣٦ ـ حتشبسوت (١٥١٦ ـ ١٤٨١ ق.م.) : نرى على تماثيلها سيماء الحزم وقوة الشكيمة ، كانت ابنة تحتمس الأول وولية العرش ، تزوجت اخاها تحتمس الثاني وانجبت منه ابنتين ، احداهما زوج تحتمس الثالث ابن زوجها من محظية . رعلت فى سن مبكرة ، وتسلمت زمام الحكم بحزم وقوة ، وأحبت السلم ووصلت بالبلاد الى أعلى رفاهية . وقد ابتنت معبدا فريدا فى (دير البحرى) ، قيمته التاريخية ليست فى ابتكار طراز معمارى جديد فحسب ، وانما فى تمثيلها على جدرانه على شكل ملك ، وتلقيبها بلقب (الملك)والشمس الانثى .

٣٧ ـ نيتوكريس . روى هردوت (٢ و ١٠٠) ان امرأة تدعى نيتوكريس حكمت مصر ، وأهلكت الكثيرين من المصريين انتقاما لغدرهم باخيها خلال حكمه ، وقد أولوها الملك بعد قتله ، فقد ابتنت قاعة واسعة تحت الأرض ودعت الى وليمة عددا كبيرا منهم وبخاصة أولئك الذين علمت انهم كانوا من المتآمرين على قتل اخيها ، واطلقت عليهم فى اثناء الوليمة ماء النهر من قناة خفية ، وبعد ان قامت بفعلتها هذه القت بنفسها فى غرفة مليئة بالرماد حتى لا تعاقب ، مما يعزز هذه الرواية ـ وان كان دخلها شيء من الخيال وقبس من اسطورة أوزيرس وايزيس ـ أن مصر كانت فى هذا العهد ساحة صراع وفتن ومؤامرات بين الطامعين فى العرش ، وأن مانيثو (Manetho) المؤرخ السمنودى ذكر (نيتوكريس) ووصفها بانها كانت انبل وأحب نساء عصرها .

٣٨ ـ قصة الاخوين ، انظر :

Lefebvre, G., Romans et Contes, Adrien- Maisonneuve, Paris, 1949.

٣٩ ـ Macramallah, R., 1935, Le Mastaba d'Idout, Fouilles de Saqqara, Public. Serv. Ant. p. 23.

قلت : ان مثل هذه العادات ما يزال ساريا فى بعض أنحاء العالم دون أن ندرك دوافعها التي بينتها لنا بالعـودة الى الماضي ، فان أحـداث الحضارة ليست مظاهر عابرة تنشأ فى مكان مـا أو زمان ما ، ثم تنقطع وتفنى ، وانما هي سلسلة، تطبع كل حلقة منها أثرا عميقا فى الحلقة التالية ، وهذا الأثر يبـدو على صعيديـن ، الفـردى والجماعى ، فيحق لنا اذن دراسـة هـذه الآثار لتعيننا على تحرى بعض نواحي التفكير الانساني، فالمرء يولد شـيخا كَهَلَ بتاريخ اسلافه ، ويتبع فى تكوينه الخطوات التي مروا بها ، وقد يتوقف نموه عند حد يماثل مرحلة من هذه المراحل أو ينتكص اليها ، ومن ثم تبدو عليه علامات عدم الوئام الاجتماعي التى تتراوح حسب مرحلة تخلفه بين الشذوذ المقبول والاضطراب الذهنى الكامل أو الجنون ، وكلما تقدمت حضارتنا زاد عدد الذين لايقدرون على اللحاق بها ، ومن هنا الازدياد فى عدد المستشفيات التي تعالج فيها الاضطرابات النفسية . وقد تسنى لعلماء تحليل النفس أمثال فرويد Freud و يونـج Young تفسير عمليات الذهن الباطن باعتباره عودة الى تفكير الانسان البدائى ، وهذا بتطبيق المشـاهدات الفولكلورية على مشاهدات تتناول سلوك المرضى الموسوسين أو تفكير الاطفال أو بعض مظاهر التفكير اللاوعيي كالأحلام الأوهام ، وبالعكس فقد أمكنهم تفهم عمليات الذهن البدائى بمقارنتهـا بهـا فى الاطفال والشواذ ، ولذا فان العالم بعلوم الانسان (الأنتروبولوجيا) قد يكون أقـدر على تفسـير النصوص القديمة أو العادات الغابرة من زميله عالم اللغات .

واذا اعتبرنا الطب وجدنا وسائل التشخيص والعلاج القديمة ما تزال تمارس فى قرانا وبـين الشعوب التي لم تهد الى العلم بعد ، ودعني أضرب مثلين من طرائق مذكورة فى بردية أبرس ، وتسلسل استعمالها دون انقطاع من القرن الخامس عشر ق.م. الى الطب الشعبى اليوم عن طريق الاغريق والقرون الوسطى الأوروبية والعرب ، هى تشخيص الحمل وجنس الجنين بملاحظة فعل بول الحامل فى بعض النباتـات ، وهـو ما يزال يمـارس فى الأناضول (٤٠ و ٤١) ، وعلاج بعض أمراض النساء بوساطة دم الحيض الذى شاهدنا استعماله بين بدو شبه جزيرة سيناء (٤٢) وما يزال جاريا فى بعض القرى الاوروبية ، بل ان مثل هذه العقائد والعادات ما يزال فاشيا فى فئة ممن يدعون ثقافة فائقة ولكنهم يضعون العجب والمعجزات فوق العلم المحقق .

على أن المنهج (الفولكلورى) يسهل على مـن انغمس فى حياة الشعب موضوع دراسته منـذ طفولته ، بينمـا يعسر على المستشرقين بحكم (أوروبيتهم) التي تبعدهم عنه وقد تؤدى بهم الى التخبط وارتكاب أخطاء جسيمة فى تأويـل مسائل غابت عنهم وان كانت عندنا بديهية . خذ مثلا ما ورد من عالمين تناولا موضوعا واحدا ، هو ترجمة ابن النفيس . فان مايرهوف Meyerhoff (٤٣) المستشرق الالماني الذى أمضـى قسطـا طويلا من حياته بمصر ، تشكك فى تسمية هـذا العالم (أبو الحسن) لأنه لم يتزوج البتة ولـم ينجب ابنـا يسمى (الحسن) ، وكاد الكاتب الاسباني كوريزى دل أجوا C riese del Agua (٤٤) ينفـى حقيقـة تاريخيتـه ويؤكـد انـه شخص خيـالى لأن اسـمه ورد فى بعض المخطوطات (على) ، وفى الأخرى (ابو الحسن) ، وسبب تعثرهم جهلهم عادة الكنى التي لم تكـن لشعب الا للعرب .

سألنى محدثى :

أفدنى عن هذه العادة ؟

---

٤٠ – Ghalioungui, P., Ammar, E. & Khalil, Sh., 1963 : On an ancient method of diagnosing pregnancy and determining faetal sex, Med. History, Vol. 7., No. 3, 241.

٤١ – Kawancigil, T.R., Sur les traces d'Hippocrate en Qnatolie, XVII Cong. Int. d'Histoire de la Médecine, Athens, 1960, p. 79.

٤٢ – Ghalioungui, P., 1966 : On the persistance of the use of catamenial blood in folk medicine, Bull. Inst. d'Eg., in the press.

٤٣ – Meyerhof, M., 1935 : Quellen u. Studen z. Geschicht. d. Naturwiss. u. d. Medizin, Band 4.

٤٤ – Curiese del Agua, A., 1967, Gac. med. Espan,. Nos. 491 : 273 ; 492 : 311 ; 493 : 365.

اجبته :

ان الذى دعا العرب الى الكنى هو الاجلال عن التصريح بالاسم باستعمال الكنية ، وهذه السنة وهى من مفاخرهم ، لم يخصوا بها الا ذوى الشرف من قومهم ــ وقل من مشاهير الاسلام من ليست له كنية .

تمتم صديقى :

اكنيــه حــين اناديــه لاكرمـــه
ولا القيــه والســـوءة اللقب(٤٥)

قهقــه زائرنـــا مـــن عبـــر القـــرون وقـــال :

الا ترى انك تؤكد شكوكي بالتصريح بصعوبة لغتكم ؟ فاين تجدون اذن المصفاة التى تفصل بين العصف والحبوب فى اقوال اولئك الذين تسميهم مؤرخين وما هم الا رواة يبتغون ــ اولا وآخرا ــ أسر مستمعيهم بعجائب يزعمون أنهم شاهدوها . أتصدق تلك القصة الساذجة التى رواهـــا هردوت عن سيدى فرعون اذ زعـــم ان العمـــى اصاب مولاى عقابا على تجاسرة على النيل اذ سخط عليه وقذف رمحا وسط دواماته لافراطي فيضانه الذى غمر الزروع ، ثم ان وحيا جاءه بعد مضى عشر سنوات ، بانه سوف يسترد بصره اذا غسل عينيه ببول امراة لم تجتمع الا بزوجهـــا فقط ، فجرب بول امراته ثم ، على التوالى ،بول كثيرات من السيدات ، ولما عاد اليه بصره احرق جميع النساء اللاتى جربهن حاشا تلك التى ابصر بعد الاغتسال ببولها فقد اتخذها زوجا له(٤٦) ؟

ــ ان هذه القصة تمثل حقا ما لا سبيل للعقل الى تصديقه ، وهناك رواية اخرى من رواياته كذبتها القرائن وهى ان بابل لم تعرف مهنة الطب وأن المرضى كانوا يعرضون بها في قارعة الطريق على المارة لعل احداً من هؤلاء يوصى بعلاج شاف (٤٦ ب) ، مع أن المؤكد ان الاطباء كونوا بها مهنة موضوعة تحت رعاية الدولة ومنقسمة الى طوائف عدة وقد كشف عن اختام بعضهم تذكر أسماءهم، فكيف جاءت تلك الروايات على لسان« هردوت » وقد مجده المؤرخون ولقبوه (أبا التاريخ) ؟

ــ يابنى ،لاينجو احد مهما اشتدت شخصيته من تأثيرات التيارات السياسية والمصالح العنصرية ولم يخلص « هردوت » من الدعاية السيئة التى نشرها بنو اسرائيل حول سيرة مولاى .

ــ هذا رأى استاذنا الدكتور احمد بدوى (٤٦ ج) الذى رجح ان سيدك كان فرعون « الخروج»

فأشار الشيخ الى رف من ارفف المكتبة وقال: أرى عندك كتاب « هردوت يتحدث عن مصر » الذى صدره هذا العالم بمقدمة ثمينة ، دعنى افتحه واتلو عليك ما كتبه عنه بعد ان اغدق عليه الاطراء ووصفه بأنه « ملأ الدنيا وشغل الناس » تناولت الكتاب معجبا بعلم الشيخ وسعة اطلاعه ولأوفر تعبه قرات ما يلي :

« ما أكثر ما خدع المؤرخون بين ايدى التراجمة كما يخدع السائحون اليوم وما أكثر ما ظهرت بساطة « هردوت » حين صدق ما جاء منهم ... ومن المحقق ان « هردوت » قد خدع فيما سمع من روايات الادلاء والتراجمة ... ليس مـــن السهل علينا ان نمضى في تصديق « هردوت » دون أن نتصور حوائل من الشك لا مناص مـــن الوقوف عندها »

وان كانت أمانة أحمد بدوى العلمية أملت عليه التشكك في انصاف حكمه اذ اضاف: « الله يشهد ان الشك لم يثر في نفسى بالنسبة لهردوت وحـــده ولكن بالنسبة للكثيرين غيره ، وقد يكون سبب ذلك هو طول النظر فى تاريخ وطنى الطويل ، وما عانى اسلافنا وعانينا نحن من غدر المستعمرين قديما وحديثا » .

وهنا تدخل صديقى وقال :

وما رأيكم في سترابو Strato الذى يعد ثبتا من اثبات الجغرافيا التاريخية والذى ، بعد ان صرح بأن سنة الختان نشأت في مصر ، زعم ان بنى أسرائيل اخذوا عن المصريين عادتى ختان الصبيان وخفض البنات ، مع علمنا علم اليقين بأن اليهـــود لم يخفضوا بناتهم البتة (٤٧) ؟

لم يجبـــه عن سؤاله وكأن الحديث فى الامور الدينية جرم عليه ، فأسرعت ، لرفع حرجه :

---

٤٥ ــ الزمخشرى فى « ربيع الابرار » ذكره السيوطى (٢٦)ص ٣٤٤ .

٤٦ ــ تاريخ هردوت ، انظر « هردوت يتحدث عن مصر » ،تاليف محمد صقر خفاجه وشرح أحمد بدوى ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٦ : ٢ ، ١١١ ، (ب) ١ ، ١٩٧ ، (ج) ص٢٣ و ٢٦ (د) ٢ر١٤١ .

٤٧ ــ The Geography of Strabo, Loeb Class. Lib., Heinemann, Harvard, XVII, 5.

ان حذرنا من القدامى لا يقل عنه ممن هم اقل منهم قدما ، كيف نوفق بين اجلال الدهر لابن سينا وبين رأى البغدادى فيه اذ صرح ــ تبعا لابن ابى أصيبعه ــ بأنه كلما امعن في كتب القدامى ازداد فيها رغبة وفى كتب ابن سينا زهادة ... وان اقوى من اضله ابن سينا بكتابه في الصنعة الذى تم بها فلسفته التى لا تزداد بالتمــام الا نقصا (٤٨) .

تكاثفت الغيوم المتصاعدة من اللفائف واطبقت على الشيخ ستارا أخفاه عنا لحظة ، ثم اسفرت عن خطوط اخذت ترسم وجها نحيفــا وعينين ثاقبتين ، وعمامة مقلمة ضخمة .

انه قال عنى هذا الكلام وانما اوتى بالمثل ،وقد اشرت في حياة اخرى الى حدة لسانه في (طبقات الاطباء)وان كنت قد توخيت الخفة والرقة اللتين تليقان بعالم كان صديق جــدى وأستاذ والدى وعمى .

اجبته في لهفة :

قل لى ، افادك الله ، ان كنت تجسدت في ابن أبى اصيبعة فما سبب اغفالك ابن النفيس فى مصنفك الثمين الذى لاغنى عنه فى معرفة أطباء الاسلام؟ احقيقى ما رواه مايرهوف من ان وتيرة وقعت بينكما فأردت الانتقام منه بعدم ذكر اسمه ،وعدم ذكر اسماء الاعداء كان من سنن كهنة المصريين وملوكهم اذا ما أرادوا محو ذكرى اعدائهم .

عادت اليه سيماؤه الفرعونية لحظة وقال :

ان الكلام لم يكن في نظرنا اداة اجتماعية وانما قوة كونية تملك القدرة على الخلق ، وكنا نؤمن بأن الكلمة هى الشىء وبأن الاسم هو الشخص ، وان محوه يبيد صاحبه فيمنعه من استئناف حياته في قبره ، وهذا هو ما فعله كهنة آمون بأخناتون ،وتحتمس الثالث بحتشبسوت ، ولكن ما أسرع استنتاجاتكم وما احمقهــا ، بل انى ذكرته واعطيته حقه من المدح والتقدير ،وكيف لا افعل وقد عرفته معرفة جيدة وزاملته فى دمشق ثم فى القاهرة قبل ان اغادر ارض مصر قاصدا صفد ونشأت بيننا اواصر صداقة وطيدة ، الا ان ما قلته عن القرشى ــ كما كنا نسميه أحيانا ــ جاء ضمن جزء من مذكراتى لم يرد على مولر Muller ناشر اول طبعة لمؤلفى ، وقد وفــق البــاحث السورى يوسف العش الى الكشف في المكتبة الظاهرية بدمشق عن الاشتات الناقصة مــن الطبعة الاولى والى نشرها فبرأنى من هذه الفرية . (٤٩) .

وما أن انتهى من هذا الكلام حتى رأيناه يكبر في نظرنا ، واذا بالرازى يجلس تلقاءنا ويشكو في مرارة : « اعتاد منتحلو لقب المؤرخين ، فى سذاجة وقد يكون فى سوء نية ، نقل اغــرب الروايات المختلفة ، لقد حكى ابن خلكان ، مقتبسا مــن ابن جلجل ، انى كنت صنفت للمنصور كتابــا فى اثبات صناعة الكيمياء (٥٠) فأعجبه وحيانى بألف دينار ، وطلب الى ان اخرج ما ذكرته فى الكتاب الى الفعل ، واحضر لى كل ما احتاجه من آلات وعقاقير وما يليق بالصناعة كاملا ، ثم اننى عجزت عن انجاز زعمى وان المنصور قــال لى : ما اعتقدت ان حكيما يرضى بتخليد الكذب في كتب ينسبها الى الحكمة ويشغل بها قلوب الناس ، وحمل السوط على رأسى وامر بأن اضرب بالكتاب على رأسى حتى يتقطع ، وكــان ذلك الضرب السبب المزعوم في نزول الماء في عينى وفقدانى البصر »

افاق صديقى من تأملات انغمس فيها كالغريق وقال :

---

٤٨ ــ ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٧ ، الجزء الرابع .

٤٩ ــ يوسف العش ، مخطــوطات دار الكتب الظاهــرية ،التاريخ وملحقاته ، مطبوعات المجمع العلمى السورى بدمشق ١٩٤٧ ، ص ٣٠٦ .

٥٠ ــ ابن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان ، الجزء الثاني .

علمتنى الايام رد أية رواية لاتسندها القرائن والبراهين ، حتى اذا زعم راويها أنه عاينها بنفسه . لقد كنت اعمل ــ منذ ثمان وثلاثين سنة ــ بقرية متاخمة للقناطر الخيرية بقرب القاهرة ، اتوجه اليها صباحا واعود منها مساء ، وحدث أن منطاد « جراف زبلين » زار القاهرة خلال طوافه الاعلامى وهبط بمكان معد له بالصحراء لمدة ساعات معدودة ، وغداة هذا اليوم ذهبت الى القرية واجتمعت فيها كعادتى بالاعيان ، منهم العمدة وشيخ التجار ورئيس الكتبة وانصت في اعجاب لايفوقه الا تعجبى وذهولى ، الى رواية المنطاد ، وقد اصبحت على السنتهم أسطورة ، وفحواها أن اهل القرية شاهدوا المنطاد وهو يحوم فوقهم ، ثم وهو يطوف على سطح النيل ، ويثب من فوق القناطر لمتابعة رحلته النهرية ، واكدوا انهم رأوه يقلع من فوق سطح النهر الى السماء ، ثم يهبط على اليابسة ليعود الى القاهرة على الطريق الزراعية ، فساورتنى عندئذ فكرة مقلقة ، وهى أن مثل هذه الشهادة من قبل أعيان القرية وسلطاتها كانت فى العصور المنصرمة تدوّن فى السجلات الرسمية وتبلغ للسلطات المركزية وتدخل صلب التاريخ . اما ان الخيال الجماعى يصل الى هذا الصعيد من الابداع في الابتكار بعد وقوع الحادث بساعات ، فهذا ما يشفع لهردوت وابن خلكان وغيرهما اذ نقلوا نوادر حكيت بعد حدوثها بقرون

قلت :

أهى سذاجة منهم حقا ؟ ام هل هناك دوافع اخرى تحفز الرواة الى افتعال قصصهم ؟ لقد عرفنا حافزا منها وهو التشهير السياسى ، وآخر هو الرغبة في جذب اعجاب الجماهير ، ولكن هناك ما هو اخطر وهو الانانية وانتحال أقوال الغير للاعتداد بالنفس ، وابرز بطل في هذا المضمار كان قسطنطين الافريقى الذى رحل من شمال افريقيا الى جنوب ايطاليا محملابمؤلفات العرب والاغريق ، وترجمها الى اللاتينية دون ذكر أصولها ، فاكتسب شهرة اغتصبها من غيره وعُدَّ زمنا طويلا جهبذا من عمالقة الطب (٥١)

اعترض محادثنا :

لا تنس ان الامانة العلمية لم تكن من مميزات هذه العصور ولا من متطلبات التصنيف ، ولا أن الفضل لقسطنطين فى بعث الطب فى سالرنو بجنوب ايطاليا وفي زرع بذرة نشرت طلعها الى سائر ايطاليا والى مونبليى في فرنسا ، فانتجت الزاد الذى غذا النهضة الطبية الاوروبية ، والغريب ان عدم التقيد بذكر المراجع استغل استغلالا عكسيا ، فان الكثيرين من الكتاب دأبوا على اسناد اقوالهم الشخصية الى مشاهير الاسلاف لدعم نظرياتهم او للتمويه بسعة ثقافتهم ، كما تنحلون اليوم اسماء جحا او أبى نواس أو (ج . ب . شو) G. B. Shaw في نكاتكم لاثارة ضحك مستمعيكم .

اضفت :

أن هذا اللون الفردى من الانانية لا يكاديحسب له حساب اذا قورن بما هو أدهى وأمر ، وهو نوع من الاعتداد الطائفى او العنصرى الذى يتخاطف لقَم الشهرة ليغذو بها صيت مواطنيه مهما كانت تفاهتهم ، فيحرف التاريخ بطرق علمية مزيفة . وقد اخذت هذه الظاهرة تبرز حديثا على شكل يشير الى حملة دعائية منظمة دخلتها حوافز نبتت من الحال السياسية الراهنة وهى شبيهة بتلك التى ادت منذ ثلاثين قرنا الى ابتكار رواية عمى فرعون ، وقد استهدفت هذه الهجمات أخيرا الطب الاسلامى فادعى بعضهم ان ألمع صفحاته كانت من انتاج غير العرب .

---

٥١ ــ قسطنطين الافريقي (١٠١٥ ــ ١٠٨٧ م) طبيب من قرطاجنة ألم الماما تاما باللغات الشرقية . وطاف بمصر وسوريا والعراق والهند والحبشة ، وأحاط فيها بعلومها ، ثم فرّ الى سالرنو هربا من تهمة السحر ، واتخذ بها محلا مرموقا بين الأساتذة والممارسين ، واصبح أمين دوق أبوليا ، وانتهى بالرهبنة فى دير جبل كاسينو ، ويعد قسطنطين رائد الطب العربي فى اوروبا ، فقد ترجم مؤلفات أبقراط وجالينوس والمجوسى وغيرهم ، ويؤخذ عليه انه انتحل الفضل فى وضع كتبه دون ذكر الذين انتفع بسابق علمهم ، ونسبها لنفسه ، وكان لمؤلفاته نفوذ دام طيلة من الزمن فى اوروبا .

قاطعني صديقي :
أن لهذا النوع من التاريخ الملتزم ، او الموجه ـ على نمط الادب الملتزم والموجه ـ دوافع قوية معروفة ، ولكن ما بالكم في انكار بعض العرب ـ وهم عرب اما بحكم اصلهم او بحكم دينهم أو لغتهم او حضارتهم أو بيئتهم ـ أمثال ابن سينا والرازي ومحاولتهم النيل من الطب الاسلامي .

قال محاورنا وقد ازدادت عمامته وضوحا وبهاء :

لهم ذريعة يتحججون بها فى نكران مآثر الطب الاسلامي ، وهي ان هذا الطب لم يكن اسلاميا اذا عني بهذه التسمية أننا ، كلنا ، كنا ندين بالاسلام ، ولم يكن عربيا اذا قصد بهذا أننا كلنا كنا من ابناء شبه جزيرة العرب ، وما أوهى هذه الحجة فان ازدهار العلوم والفنون خارج شبه جزيرة العرب وعلى أيد غير عربية في صدر الاسلام لم يحدث الا بفضل هذا الدين الالهي الذي أبرّ الكفاءات المقيمة وكشف العيون المطموسة وجمع فى ارضه الطيبة وتحت رعايته المتنورة ورود كل الاجناس وزهور كل الاديان ، لما فيه من السماح الذي حرر البشر من الحبال الازلية التي كبلت الفكر من قبلة . الم يأمر الامبراطور قسطنطين بقصر دراسة مؤلفات ارسطو على أبوابها الاولى وتحريم ما يلي (الصور البلاغية) ؟ الم نهرب من الاسكندرية ومن اثينا لتضييق الخناق علينا ؟ ثم الم يهيء لنا بنو أمية ومن بعدهم العباسيون الجو الملائم للانتاج ؟ هل فرق الخلفاء بين اطبائهم المسلمين والنصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وقد سمح النبي عليه الصلاة والسلام باستشارة الاطباء ولو من غير المسلمين ، اذ يروى أنه لما مرض سعد بن ابي وقاص في حجة الوداع عاده النبي وقال له « اني لارجو ان يشفيك الله حتى يضر بك قوم وينتفع آخرون » ، ثم قال للحارث بن كلدة « عالج سعدا مما به » والحارث على غير دين الاسلام ، ان هؤلاء المضللين المغالطين يتناسون حقيقة اكيدة وهي أننا ، لولا الاسلام ، ما استطعنا صقل أزهى حضارة شاهدها العالم .

أطبق علينا سكون كثيف هنيهة ، ثم اشرق وجهه عن ابتسامة فضول ، وبعد تردد قصير تشجع فقال بسرعة وفي نفس واحد :

أراكم تمضون الليالي في دراسة ماضي مهنتنا وتقفون عليها قدرا وفيرا من جهودكم ، هل لى ان استفهمكم الفائدة التى تتوقعونها منها ، وهى اصبحت ضياع وقت ومشغلة عقيمة بعد التقدم الذي احرزه فننا في القرن الماضي ـ وقد قيل ان عدد العلميين فى خلال خمسين سنة مضت فاق عددهم منذ بدء التاريخ ، لقد كان هدفنا من قراءة المؤلفات القديمة البحث عن اصول العلم ، لاعتقادنا انه أوتى اسلافنا كاملا ثم تناقص، اما أنتم فما هو عذركم فى نفض غبار المكتبات ؟ أفيدوني ، أفادكم الله ، هل تجدون في التاريخ متعة مرضية مردها العود الى طفولتكم للتهرب من اعباء سنيكم الرشيدة ؟ أم هي اناقة ذهنية تبهرون بها غيركم ؟ او اعتداد بالماضي لتعويض فراغ الحاضر كشأن (أولاد الذوات) الذين لا مفخرة لهم الا في ذكر أجدادهم ؟ ما هي حجتكم في جعلها علما مستقلا ذا نظم ومناهج ومؤلفات ومؤتمرات خاصة ؟ هل تتوقعون العثور على معلومات جديدة ، أم تبتغون منها التعالى على الاسلاف ؟

تعجبت من طول هذه المداعاة وشهدتها وقلت :
أيها الاستاذ الجليل حاشى أن أهزأ بما وصلتم اليه من المعرفة واتعالى عليكم ،ليس دور المؤرخ الحكم على صواب النظريات العلمية او خطئها ، وحسبه ان يضعها بين ما سبقها وما لحق بها ، ليحدد دورها فى تكوين الفكر البشرى،وليتعرف على ماضيه وبالتالي على نفسه كما نصحه سقوط على ماضيه وبالتالي على نفسه كما نصحه سقراط عندما قال لاحد مريديه : « اعرف نفسك » .

لاحرج عليكم ان كنتم اقمتم نظريات اخطأها الزمن ، وما النظريات سوى محاولات ، لا معدى من افتراضها ، لضم حصيلة المعلومات المجمعة في صورة موحدة ، على أن يقام البرهان لها أو ضدها بمحك الاختبار ، أما

فائدتها فهى أنها تكوّن قاعدة لفروض جديدة تستحث الباحث الى ابتداع مزيد من التجارب للبرهان عليها ، فاذا ظهرت المتناقضات وجب اهمالها وتشييد بناء جديد يوفق بين كل المعطيات ، وهكذا تثير حلقة لا تنطبق الا بالوصول الى الحقيقة ، اذا قدر للانسان يوما أن يعثر عليها .

وهنا اعترضنى صديقى وقال : ومع ذلك فكم من نظرية مجانبة للحقيقة ادت الى كشوف جديدة وقامت بخدمات جليلة . ان حضارتنا وكل انجازاتنا قد بنتها فروض ادركنا اليوم ادراك اليقين بطلانها ، وقد أرغمنا على اهمالها التقدم ذاته الذى هى خلفته وما اشك في ان ابهر نظرياتنا التى نتباهى بها ، سيرغمنا ما ستخلفه من التقدم على وضعها في رف مهملات التاريخ ، وقد محونا من أذهاننا حتى تلك التأملات التى ارسخنا عليها تصورنا لاركان الكون ، فقد اجبرتنا نظرية الكم quantum التى تقسم شتى مظاهر الطاقة الى اقدار محددة لا تقبل التجزئة ، الى استبدال صورة جديدة بتلك التى كانت ترسم الكون على شكل متصل قابل لتقسيم لا نهاية له ، وشتتت الفيزيناء الحديثة الذرة ـ التى عددناها غير قابلة للقسمة او للتحويل وبنينا عليها الكيمياء التقليدية ، كما اتاحت تحويل المعادن الذى لم يكن بأذهاننا الى قبوله سبيل في ظل النظريات القديمة ، وأنكر العلم الحديث وجود الجوهر الذى سماه الفيزيائيون (أثير) ، وهو قوام ميكانيكا الامواج التى وصلت بعلوم الضوء والاشعاع الى ما وصلت اليه ، فبرر موقفه السابق بالتصريح بأن الموجات المزعومة انما كانت أنسب تصوير للمعادلات الحسابية التى تحكم اغلب خواص الطاقة دون غيرها .

ثم ليس الغرض من جهودنا الوقوف على معلومات جديدة وان كنا نجد أحيانا في كنف الماضي افكارا تبدو طريفة لانها وقعت فترة فى طى النسيان .

اما اذا كنا اسمينا هوايتنا (تاريخ الاخطاء) فاننا لم نطلق عليها هذه التسمية لنسخر منها وانما لتأكيد قيمتها التعليمية ، فقد قال النبى ، عليه الصلاة والسلام: « السعيد من اتعظ بغيره » والطب ، شأنه شأن سائر العلوم المعتمدة على الخبرة ، حرى بأن يتخذ من هذا الحديث الشريف شعارا ونبراسا .

قال :

وما الطب في عرفك ؟

ـ أن الطب ملتقى يتقابل عنده انسانان كل منهما ثمرة عصره ، وهما الطبيب والعليل ، وقد خضعت العلاقات التى ربطت بينهما لموضع كل منهما من القوى الدينية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة له ، وتاريخ هذه العلاقات هو تاريخ الطب ، وانا عندما نتحدث عن العليل نعنيه على شكليه الفردى والجماعى ، وفي كلا الحالتين تتيح معرفة ماضيه استقراء مستقبله والتخطيط له ، اذا وضعت احداثه الماضية موضع الاحداثيات الرياضية التى تجيز معرفة بعضها التكهن بالمجهول منها ، ورسم مخطط بيانى كامل لها .

اما حرمان الطالب من ادراك حظ النظريات المتقلب ، فانه لا يخفى على احد ما في مثل هذا التصرف من الاجحاف بحقه وبحق العلم ، اذ ان تلقين العلم على أنه حقيقة ثابته يجمد الذهن ويغلق أبواب التقدم .

واذا انتقلنا من الفرد الى الجماعة فان الحاجة الى الخبرات المكتنزة أمسّ وألزم ، وبخاصة حين نستهدف ازالة مرض متوطن او الوقاية من وباء أو التكهن بسيره .

قال محادثنا وقد تموجت ملامحه واستقرت في شكل ضابط روسى :

لو ان قائد جيوشنا الكونت الكسى اندريفتش اركشييف Alexei Andreivitch Araktchejev وزير دفاع القيصر اسكندر لمس هذه الحقيقة عند ظهور الكوليرا على حدود روسيا والهند ، لتجنب القول : « انه لأيُسر للجمال ان تنفذ من سم الخياط من أن تخترق الكوليرا صفوفنا » وجنب بلاده هذا الوباء ؛ ولو أن مولاى القيصر نقولا ادركها لتريث قبل أن يدفع بجيوشه من بلاده الموبوءة نحو اوروبا لاخماد الثورات المندلعة بها ، ورحم مئات الآلاف من موت اليم ، من

بينهم قائدان من كبار قواده ، المارشال ديبتش والامير قسطنطين اللذان ، بسبب اصابتهما اطلق الجيش على الكوليرا (مرض المارشالات) (٥٢) .

طمس بعينيه وكأنه استعراض شريط ذكرياته: « لقد حولت الامراض مجرى التاريخ بدفع اقوى من احكام المشرعين وبطش الاباطرة ،وهذا ما يجب درجه ليس في مناهج كليات الطب فحسب ، وانما في دراسات كليات الاقتصاد والكليات الحربية،لقد شاهدت بعينيَّ هزيمة (سنحريب) ملك أشور فى القرن الثامن ق . م . عندما انقضت علينا الفئران ونحن معسكرون على منافذ مصر ، وقرضت الجعب والأقواس وحمائل الدروع فولينا الأدبار وسقط منا الكثيرون (٤٦ د) ، وصاحبت جند (سبارتا) عندما فككنا ، رغم انوفنا ، حصار أثينا خوفا من العدوى بالطاعون الذى فتك بها (٥٣) ، وقد أهلك الأسقربوط الأساطيل وحال دون كشف القارات المجهولة قرونا عديدة ، وفشل اول مشروع فتح قناة باناما بسبب تفشي الحمى بين العاملين به ، وفتكت الالتهابات المعوية بجيوش الحلفاء في جاليبولى ابان الحرب العالمية الأولى ، وكنت أجهل وأنا أعاود جورج الثالث ملك انجلترا ، أن شذوذه السياسي ، وقيل جنونه ، الذى أدّى الى ضياع مستعمراته واستقلال الولايات المتحدة ، نتج عن (كروموزوم) مرضي ورثه من آبائه بسبب ما تطلقون عليه اليوم اسم (بورفيريا) Porphyria (٥٤) ولو أن الملوك والساسة وهبوا نكهة من الحاسة التاريخية لأحجموا عن الزواج من الاقارب وحالوا بهذا دون انحلال سلالاتهم وضياع امبراطورياتهم وهو أمر غيّر معالم العالم وأسهم ، دون شك ، في دفع العالم نحو الديمقراطية .

قال صديقي ساخراً :

لم تنقص هذه الحاسة المستعمرين الذين تغلبوا على قاطنى امريكا الأصليين بتوزيع ثياب مرضاهم المصابين بالجدرى عليهم ، فأهلكوهم بسلاح أفتك من الرماح والمدافع .

صمتنا هنيهة غائصين في أفكارنا ثم رفع محادثنا السكون الذى خيم على الغرفة المعبأة بالدخان :

يا بنيَّ من أهل فنى ، انكم تقفون موقفا « يطيب فيه النظر الى الغد كما يطيب فيه النظر الى الأمس ، فلا يفرد فيه الفخر بالآباء دون الأمل فى الأبناء (٥٥) » انى أشيد بجولاتكم فى ماض أشعل شعلة ضئيلة حولتموها الى نور متلألىء وهاج ، وأثنى بوفائكم لأجيال من الأطباء تناقلوا عبئا كنتم عليه أقدر منهم ، الا أنه اذا خفّت ناحية منه ، تثاقلت نواحيه الأخرى ، ان المرض لن يزول ولن ينتهي ولن يغلب ، وانما كالعدو الماهر ، ينتقل من حصن الى آخر ، اذا زنقتموه في جحر ، شنَّ عليكم هجماته من جحر آخر ، فان كنتم تغلبتم على الأمراض المعدية التي كانت تفتك بنا ، فقد خلقت لكم أمراض الشيخوخة والسرطان مشاكل علاجية واجتماعية أخطر شأنا واعقد حلا . لقد كهّلت قطان أكثر البلاد حضارة ، وحمّلت الدول أعباء لن تقدر عليها في المستقبل ، فعليكم الآن ، فضلا عن المرض ، دراسة الانسان بأكمله على أنه جزء من بيئته، فقد قال فرشوف ان انتشار الأوبئة مظهر من مظاهر عدم التواؤم الاجتماعي والثقافي وخلل في توازنها . وهو الذى أفصح برايه بان الطب علم اجتماعي ولن يتم الا بالتغلب على عناصر ثقافية سلبية طالما أخرت المشروعات الصحية ، لا تنسوا المعارضات الشديدة من قبل

٥٢ ـ Winkle, St., 1969, Die gelben Hefte, 17, p. 868 : Die Cholera mit ihren vielfaltigen kultur-historischen Wechselbeziehungen.

٥٣ ـ تاريخ توسيديد : ٢ ، ٥٧ .

٥٤ ـ Macalpine, I., Hunter, R., 1968, Porphria, a royal malady.

٥٥ ـ عباس محمود العقاد ، أثر العرب فى الحضارة الاوروبية، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ٧ .

أصحاب الاملاك على مشاريع صرف الفضلات ومن قبل أصحاب الصناعات على اجراءات منع تلوث الهواء والمياه لانها تتعارض مع حقوق الملكيه الخاصة ، وقد اصبحت هذه المشاكل على رأس قائمة المسائل التي تستوجب حلولا جذرية .

فاذا أردتم الاتعاظ بالماضي وجب عليكم التذرع بقدر كبير من الصبر والمثابرة . لقد أصبح البحث عن تاريخنا عملا معقدا جعل من كل متحف معهد بحوث يحوى طبقا من التحف وأطباقا من المختبرات ، وتعددت وسائل البحث واقتبست لها كل الطرائق المستحدثة فضلا عن الفنون المعهودة ، انكم لن تكتفوا بالتصوير الشمسي بل عليكم إضافة الاشعاعات السينية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية . لا يكفي أن تعرفوا أنواع الأخشاب بل عليكم مقابلة سعة خطوط نموها بجداول معروفة dendrochronology وعليكم تقويم المعادن النادرة في الخزف والزجاج لمعرفة مصادرها ، وتحديد المحاور المغنطيسية في الأفران التي (طبخت) فيها لمقارنتها بانحرافات محور الأرض المغنطى على مر القرون ، وقياس اشعاع كاربون ١٤ ، وما الى هذه الطرائق التي ما يبرح الانسان يبتكرها ، على الا تنسوا العنصر البشرى فيها ، فان العلم اذا فصل عن الأدب امسى آليا غاشما ، كما أن الأدب اذا سحب منه قوامه العلمي كان دوى طبل أجوف .. لا تنقضي سنة واحدة دون اعادة فتح ملفات قضايا كان يحسب أمرها منهيا ، .. انها هواية ، اذا استخدمت استخداما نفعيا ، لارساء قواعد تنطلقون منها الى مستقبل أفضل ، واذا وضعت التذكر في خدمة الآمال البشرية ، انها هواية جديرة بكل احترام وبكامل العناية ، ... انها دراسة لا نهاية لها ..

وما أن تلفظ بهذه الكلمات الأخيرة حتى سمعنا دوى زجاج ينكسر ، ولفحتنا ريح هبت فجأة من النوافذ ، وغمرتنا أوراق متطايرة ، واذا بعيني تنفتح على سحب ذائبة ، حاملة معها وجها محبوبا ، مخلفة وراءها ابتسامة عطف ، ابتسامة بدون وجه ، كالموجات التي سحب من تحتها الفيزيائيون قوامها الاثيرى .



عرض الكتب

سياسات العنف أو الثورة في عالمنا المعاصر

عرض وتحليل : دكتور اسماعيل صبرى مقلد

من أهم الظواهر السياسية التى تميز عالمنا المعاصر انبثاق الثورات على نطاق وبمعدلات فاقت كل تصور . وطبيعى أن هذه الثورات تتمايز من حيث دوافعها ، وملابساتها ، وبيئاتها ، والاطار التاريخى الذى يحيط بكل واحدة منها ، وكذلك من حيث التراكيب الاجتماعية والسياسية والنفسية والايديولوجية للزعامات التى تهيمن عليها وتقود ناصيتها ، فضلا عن الاختلاف فى الاهداف والغايات التى تحاول كل ثورة بلوغها . ومن هنا ظهر الى حيز الوجود الكثير من التحليلات التى تحاول التعمق فى دراسة هذه الظاهرة من مختلف ابعادها وجوانبها .

والكتاب الذى نحن بصدد عرضه هو احد هذه الدراسات المتخصصة فى موضوع الثورة . وهو يحاول تشريح ظاهرة الثورة فى المجتمعات السياسية وان كان لا يدعى لنفسه انه بصدد تطوير نظرية يمكن من خلالها تحليل هذه الظاهرة تحليلا نهائيا وشاملا ، اذ ان ذلك كما يقول المؤلفان ليس فى مقدورهما ، ولكنه بدلا من ذلك يقدم عرضا مختصرا ومركزا للتحليلات النظرية التى كتبت عن اسباب هذه الظاهرة وعوامل نموها ، والى جانب ذلك يعرض لعدد من الثورات التى حدثت فى منطقتي الشرق الاوسط وامريكا اللاتينية على اساس من الدراسة المقارنة .

ومنذ البداية يحاول المؤلفان أن يضعا تعريفا مقبولا لظاهرة الثورة ، على الرغم من انهما اقرا بصعوبة التوصل الى مثل هذا التعريف ، نظرا لتفاوت الاتجاهات من هذه الظاهرة . فبينما ينظر البعض الى الثورة على انها تغيير غير شرعى لنظام الحكم ، يعتقد البعض الآخر ان مفهوم الثورة

لا ينصرف الا الى التغييرات الاجتماعية العميقة الجذور ، والتى تجد تعبيرا لها فى اجراء تحويرات فى الهيكل السياسى العام للمجتمع ، واحيانا ما تؤدى هذه التحويرات فى النهاية الى بلورة ايديولوجية معينة ، أو رفع شعارات معينة، ولكن الثورة تبقى بعد ذلك كله عملية تغيير اجتماعى فى الاساس .

وقبل ان يختار المؤلفان تعريفا مقبولا لهما ، يستعرضان نماذج مختلفة من التعريفات التى قيلت فى هذا الشأن . **فسيجموند نيومان وهانا أريندت** ينظران الى التغيير الاجتماعى على أنه ركيزة أساسية من ركائز الثورات الحديثة . وفى راى نيومان أن الثورة هى بمثابة تغيير جذرى وشامل ، ليس فقط فى نمط التنظيم السياسى القائم ، وانما فى الهيكل الاجتماعى ، وفى نموذج الملكية الاقتصادية المسيطر . وهو بذلك لا يركز على معيار الحرية كأساس ترتكز عليه الثورة .

ويعرف **شالمرز جونسون** الثورة بأنها « قبول العنف كأداة لا معدى عنها فى احداث التغيير المطلوب » ، ويعرفها **همفريز** ، بأنها « وسيلة غير قانونية لاحلال حكومة بأخرى » أما **فليكس جروس** فهو يميز بين شكلين من اشكال التغيير بالقوة فى نظم الحكم : الاول وهو عبارة عن نقل السلطة السياسية من مجموعة حاكمة الى اخرى ، وهذا يشكل انقلابا ، والشكل الثاني هو اجراء تغييرات اجتماعية جذرية بواسطة القوى التى تنبثق من أسفل هذا النظام ، وهذا ما يمكن تسميته بالثورة الاجتماعية. وفى رأى **جروس** أن الثورات السياسة تكون فى بعض الاحيان ثورات اجتماعية . أما الثورات الاجتماعية فهى دائما ثورات سياسية .

أما **جيمس روزينو** فهو يميز بين ثلاثة أنواع من الثورات : الثورات التى تظهر بسبب صراعات شخصية حول التوزيع القائم للادوار داخل النظام السياسى ، وهذه الثورات تقنع باحداث تغيير فى هذه الحدود ولا تتعداها الى احداث تغييرات اساسية فى هيكل المجتمع . وامريكا اللاتينية هى أبرز الامثلة لهذا النوع من الثورات . ثم هناك النوع الثانى من الثورات التى تحدث بسبب الرغبة فى تغيير الترتيبات القائمة للسلطة السياسية ، والكيفية التى تشغل بها المراكز والادوار داخل الهيكل السياسى العام ، وهى ـ مثل النوع السابق ـ حين تقوم بهذا التغيير لا تتعداه الى تغيير هذا الهيكل على اى نحو جذرى . والثورات ضد السلطة الاستعمارية أو الثورات التى تستهدف احلال بعض الانظمة الأوتوقراطية بأنظمة اكثر ديمقراطية هى من بين النماذج البارزة لهذا النوع من الثورات . وأخيرا يبقى النوع الثالث من الثورات وهى التى تحدث لا بسبب تغيير الادوار الشخصية ، او ترتيبات السلطة السياسية ، وانما لتغيير المجتمع نفسه ، ومن هذا النوع : الثورات الشيوعية والثورات التى تطالب بتحديد الملكية .. الخ .

ويعرف **ديل يودر** الثورة الحقيقية بأنها هى التى تحدث تغييرا جوهريا فى الاتجاهات والقيم الاجتماعية التى يرتبط بوجودها استمرار المؤسسات التى يرتكز عليها النظام التقليدى .

وهناك تعريفات اخرى كثيرة يوردها المؤلفان لكتاب ومحللين سياسيين مثل **ركس هوبسر** ، **وجود فرى التون، ووليام ستوكس**، وهى لا تخرج فى مضمونها عن التعريفات السابقة .

وينتهى المؤلفان الى القول بأن التعريف الذى يقبلانه للثورة لا يعتبر جديدا بالمقاييس السابقة ولذا فانهما يخلصان الى ان تعريف **بيتر كالفرت**، للثورات بأنها «التدخل بالقوة اما لتغيير الحكومات القائمة أو تغيير المؤسسات التى يستند عليها وجود هذه الحكومات » ، يعتبر تعريفا مقبولا وكافيا من وجهة نظرهما .

وفى فصل اخر يتحدث المؤلفان عن العنف كأحد جوانب الثورة فيقولان ان كثيرا من الثورات تقترن باستخدام العنف ، ويرجع ذلك الى كون ان التغييرات التى تحدث تتم بوسائل غير قانونية ، وفى هذه الحالات يبدو العنف ضروريا لمواجهة المقاومة التى تظهرها الحكومات التى يستهدفها التغيير الثورى .

والعنف كأحد أدوات القوة السياسية يمكن

ان ينبثق من أحد المصادر التالية : فهو قد ينشأ لأسباب ذاتية او تلقائية يولدها تيار الأحداث التى تحيط بعملية التغيير ، كما قد ينشأ العنف نتيجة تقوض الاجهزة التى تقوم على تنفيذ القانـــون وفرضه ، فانهيارها يعنى اطلاق تيار العنف دون ضوابط تردعه او تستطيع تجميده وايقافه . وفى حالات اخرى يكون العنف نتيجة تدبير سابق . بمعنى انه يشكل الاداة الرئيسية التى يرتكـــز عليها احداث التغيير المطلوب .

ويقترن بتنوع مصادر العنف اختلاف مماثل فى كثافة هذا العنف ، ومدى استمراره ، والكيفية التى يستخدم بها ، وكل هذه أمور تنتج اساسا بسبب الاختـــلاف فى التجارب التاريخيـــة وفى مستـــويات النمو السياسى والاقتصادى والثقافى للبيئات التى يحدث فيها هذا العنف .

وفى هذه النقطة ينتقل المؤلفان الى التمييز بين الانقلاب Coup D'Etat ، والثورة Revolution فبالنسبة للانقلاب هو عملية احلال لمجموعة حاكمة بمجموعة اخرى ، ويتم ذلك اما بالاستخدام الفعلى للعنف او التهديد باستخدامه ، وغالبا ما يتم هذا بشكل غير متوقع اطلاقا . ومن أمثلة الانقلابات غير العنيفة ، الانقلابات العسكرية فى امريكـــا اللاتينية ، والانقلاب التركى فى عام ١٩٦٠ ، وانقلاب ايوب خان فى الباكستان عام ١٩٥٨ ، والانقـــلاب العسكرى الذى حدث فى غانا فى عام ١٩٦٦ .. الخ . اما عن الانقلابات العنيفة فمن امثلتها : انقلاب السلال فى اليمن فى عام ١٩٦٢ ، والانقلابات التى حدثت فى العراق فى عامى ١٩٥٨ ، ١٩٦٣ ، والانقلاب الذى حدث فى نيجيريا فى عام ١٩٦٦ . وهناك انقلابات تتم بطريقة غير عنيفة ، ولكـــن استخدام العنف يظهر فى مرحلة لاحقة علـــى وقوعها ، مثلما حدث بعد انقلاب موسولينى فى ايطاليا عام ١٩٢٢ ، وانقلاب أتاتورك فى تركيـــا عام ١٩٢٣ ، وانقلاب شيانج كاى شيك فى الصين عام ١٩٢٧ ، وانقلاب اندونيسيا عام ١٩٦٥ .

والانقلاب هو الاستيلاء على مراكز السلطـــة السياسية فى الدولة وادوات القسر التى ترتكز عليها ، وليس ضروريا أن يؤدى الانقلاب الـــى حدوث ثورة اجتماعيـــة ، وانما تتركـــز جهود القائمين بالانقلابات على محاولة اضفاء طابع من الشرعية على عملية استيلائهم على السلطة ، كما قد يلجئون الى استخدام اساليب الترويج الدعائي وترديد ادعاءات الثورية ، وافتعال بعض الشعارات او اجراء بعض التغييرات السياسية الشكلية ، ويكون الهدف من وراء ذلك كله هو دعم وجودهم فى مراكز السلطة التى استولوا عليها .

أما الثورات فهى التى يعتمد قيامها واستمرارها ومقدرتهـــا علـــى تحقيـــق غاياتهـــا السياسيـــة والاجتماعية بمدى التأييد الذى تمنحه الجماهير لها ، وبدون هذا التأييد الجماهيرى ، تفقـــــد الثورة اهم ركائزها .

ونحن نقبل هذا المعيار للتفرقة بين الثورة والانقلاب ، ففى رأينـــا ان الـــذى يميـــز هاتين الظاهرتين عن بعضهما هو عمق التحول الاجتماعى الذى تستهدفه عملية التغيير فى مراكز السلطة ، وكذلك طبيعة الاطـــار الايديولوجى الـــذى يتـــم التغيير فى داخله . فاذا كان التحول عميقا ، وكانت الايديولوجية التى تحكمه ذات ابعاد ومضامين تستجيب للاحتياجات العامة للتغيير كما تعبـــر عنها الغالبية العظمى فى المجتمع ، أمكننا أن نسمى ذلك ثورة . أما اذا كان التغيير شكليا ، وكان نقل السلطة يتم اساسا لحساب فئة طامعة فى الحكم ، او كانت الايديولوجية التى يروج لها فارغة من اى محتوى اجتماعى حقيقى ، فان هذا الوضع لا يمكن وصفه الا انه مجرد انقلاب لا اكثر .

وبعـــد هـــذا التمييـــز بين موضوعى الثـــورة والانقلاب ، يحاول المؤلفان أن يقدما تحليلا لاسباب الثورات وكذا لظروف البيئات التى تنشأ فيها . وهما يؤكدان فى بداية تحليلهما أن الثورات لا تظهر بطريقة عفوية ، وانما تنبثق من صميم الاستجابات وردود الفعل الانسانية تجاه الاوضاع المتغيرة للبيئة بمفهومها السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى .. الخ . ولا تقتصر ابعاد البيئات التى تحدث فيها الثورات على النواحى الداخلية بـــل تتعداها الى الظروف الدولية التى تؤثر على نحو او آخر فى تطور هذه الظواهر الثورية .

وبالنسبة لاسباب الثورات فان حصرها كما يقول المؤلفان عملية صعبة ، نظرا للتعقيد الشديد الذى تتصف به ظاهرة الثورة ، وان كان هناك بعض الدارسين ممن حاولوا أن يحددوا هذه الاسباب، فمنهم مثلا من يميز بين العوامل البعيدة المدى التى تزيد من درجة السخط وعدم الاستجابة للاوضاع القائمة ، والعوامل المباشرة اى التى تعجل باحداث هذا التغيير . او بمعنى آخر هناك أسباب اساسية وأسباب ثانوية . ويجيء فى مقدمة هذه الاسباب الاساسية ــ كما يقول شالمرز جونسون ــ اختلال توازن النظام الاجتماعى بشكل حاد مع عدم اتخاذ اجراءات تصحح هذا الاختلال او تخفف من حدته ، وبذا يصبح استمراره امرا متعذرا ، ومن هنا تظهر الثورة ، كأداة لاستبدال هذا النظام بآخر اكثر توازنا واكثر استجابة وارضاء للاحتياجات الاجتماعية المتغيرة . اما الاسباب الثانوية فهى الملابسات التى تسرع بوقوع الثورة واصدق ما يمكن ان يقال عنها هى انها عوامل تفجير .

ونفس هذه التفرقة يقرها **هارى ايكشتين** الذى قسم اسباب الثورة الى نوعين : الاسباب الاساسية او الحقيقية التى تخلق ارادة التغيير وتبرز الحاجة الملحة اليه ، والاسباب التى تؤدى الى نشوب الثورة تحت تأثير ظرف من الظروف .

وبوجه عام يحاول المؤلفان تعليل أسباب الثورات فيما يلي : هناك اولا السيطرة الأجنبية، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية ، فهي تؤدى الى تغذية الاحساس بالتبعية وخلق التصميم على ضرورة انهاء هذه الرابطة غير المتكافئة التى تقوم على اساس الاستغلال غير العادل لدولة من الدول . ومن امثلة ذلك معظم الثورات المعادية للاستعمار التي حدثت فى آسيا وأفريقيا ، أو الثورات التي حدثت ضد التسلط الشيوعي فى المجر وبولندا عام ١٩٥٦ . أما المصدر الثاني فهو الظروف الاقتصادية وهى الموضوع الذى تركزت حوله تحليلات كارل ماركس الذى ربط الثورة الاجتماعية بالعوامل المادية والاقتصادية . وكذلك هناك عدد من المفكرين الذين يغلبون أهمية هذا العامل فى تغذية الثورات ومنهم **ألكسيس وتوكفيل وجودفرى التون ، وكرين برنتون ،وجيمس دافيز ،وارثرلويس** الذى يقول ان قيام فئات اجتماعية واقتصادية جديدة ، لا سيما فى الدول حديثة العهد بالاستقلال ، والتغير الذى يحدث فى الأنماط التقليدية للدخل ، وعدم توازن النمو الاقتصادى ، والتفاوت فى توزيع الثروة ، كل هذا يؤدى الى القلاقل والثورات . وباختصار يمكن القول بأن كل هؤلاء الكتاب والمحللين يتفقون فى أن اتجاه الجماهير من واقعها الاقتصادى وظروف حياتها المادية ، هو من أهم العوامل التي تقع بسببها الثورات . والمصدر الآخر للثورة يكمن فى النزاعات والصراعات السياسية الداخلية التي كثيرا ما تظهر بسبب انفصال النظام السياسى عن قاعدته الاجتماعية المتغيرة . وفى حالات أخرى تحدث الثورة بسبب ضعف النظام السياسى وعدم قدرته على مواجهة تحديات المشاكل التي تظهر فى الدولة . ويكون هذا الضعف من الحوافز القوية التى تدفع الى محاولة تغيير هذا النظام والاستيلاء على السلطة السياسية .

وفى مكان آخر يتحدث المؤلفان عن مراحل الثورة وهما يشاركان **جودفرى التون** اعتقاده بأنه لايمكن تحديد نقطة البدء فى نمو اى ثورة من الثورات ، لأن للثورات جذورا تمتد الى الماضي الذى قد يصبح من المتعذر التعرف على اطاره الزمني الحقيقي . ونفس هذا الراى أكده **كرين برنتون** الذى ذهب بالأمر الى حد أن قال « ان المراحل المبدئية للثورة لا يمكن تحديدها حتى بواسطة الثوار أنفسهم » ، على انه فى حالات كثيرة تكون البداية المعروفة للثورة من الثورات هى وقوع انقلاب، ثم يتبع ذلك تطور هذا الانقلاب الى ثورة اجتماعية . وفى حالات أخرى تجيء الثورة نتيجة حدوث بعض الاضطرابات العنيفة ومنها تبرز الزعامات التي تقود هذه الثورات ، ومن أمثلة ذلك : الثورة المكسيكية فى عام ١٩١٠ ، وثورة بوليفيا فى عام ١٩٥٢ .

واذا تجاوزنا هذه المرحلة المبدئية للثورة الى المرحلة التي تليها ، فانها المرحلة التي يطلق عليها المؤلفان « مرحلة العنف الثورى » ، اذ أن حدوث الثورة يستتبعه تدمير النظام القديم ، واستبعاد المجموعة الحاكمة التى كانت تقوده وتوجهه ،

وهذه المجموعة لا تستسلم بسهولة للثورة ، وانما تلجأ الى اسلوب المقاومة باستخدام العنف المضاد، وهذه المقاومة التي يبديها القديم ازاء الجديد هي التي تخلع على هذه المرحلة طابع العنف .

وفى هذه المرحلة التالية على وقوع الثورة مباشرة تحدث اشياء اخرى كثيرة منها تدمير الولاءات والارتباطات الايديولوجية والسياسية لنظام الذى تغير ، واستبدالها بولاءات سياسية وايديولوجيه جديدة ، كذلك يتم الترويج لقيم معينة مضادة لقيم النظام المنهار ، ووضع دستور جديد يكون بمثابة وعد بالتغييرات الكبرى التي ستنفذها الثورة .

وعلى العموم فان هذه المرحلة هي مرحلة اختلال عنيف بين ما تحاول الثورة القضاء عليه ، وبين ما تحاول ان تستحدثه وتدفع به الى الوجود ، أو بمعنى آخر ، فان طبيعة هذه المرحلة هي انها عملية هدم وبناء ، هدم للقديم وبناء للجديد .

وتعقب ذلك مرحلة اخرى ، هى مرحلة ما بعد استقرار الثورة وتخلصها من كل مراكز المقاومة القديمة ، وهذه المرحلة تتركز فى محاولة تثبيت كيان الثورة ، وايديولوجيتها ، وقيمها ، ومؤسساتها ، وتوفير الاستقرار الضرورى لاحداث التغييرات التي بسببها قامت الثورة .

ثم ينتقل المؤلفان بعد ذلك الى مناقشة نقطة حيوية اخرى تتعلق بخصائص القادة الثوريين ، وكذلك خصائص التابعين الذين ينتظمهم اطار الثورة . وهما يطرحان تساؤلا مبدئيا عما اذا كان هناك حقيقة ما يمكن أن نسميه بالنموذج الثورى فى القيادات . وللاجابة على هذا التساؤل يلجآن أولا الى استعراض بعض مما كتب فى هذا الخصوص . **فكرين برنتون** مثلا يقول ان هناك بعضا من الثوار الذين لا يختلف سلوكهم عن سلوك المجرمين فى المجتمعات المستقرة ، وان لم يكن هذا النموذج هو المسيطر بالضرورة على سلوك القيادات الثورية . وتستند نظرية **كرين برنتون** على أن معظم هؤلاء الثوار ينحدرون من أصول اجتماعية غير راقية . اما **جودسبيد** فهو يعتقد أن القادة الثوريين يختلفون عن الأفراد العاديين فى أنهم يجمعون بين قوة التصميم وعدم المرونة أو العناد فى التعبير عن آرائهم السياسية ، هذا بالاضافة الى طبيعتهم العاطفية غير العادية ، واقتناعهم المطلق بصحة القضايا التي يدافعون عنها ويروجون لها .

وهناك مفكر آخر مثل **أريك هوفر** الذى امكنه أن يحصر خصائل القيادة الثورية فى حوالي اثنتي عشرة خصله ، وان كان قد اعتبر أربعا منها خصالا أساسية وهي : (١) الجرأة التي تصل الى حد التهور ، (٢) القدرة على اجتذاب واستقطاب ولاء مجموعة من الأفراد المتحمسين ، (٣) القدرة على توحيد الاتباع وضم الصفوف وراء هذا القيادات ، (٤) التعصب فى الاعتقاد بأنها — اى هذه القيادات — هي وحدها التي تملك الحقيقة وانه ليست هناك حقيقة اخرى بجانبها .

ومن بين الصفات الأخرى التي حددها **هوفر** للقائد الثورى : الارادة الحديدية ، والاعتقاد بأنه الانسان الذى اختارته الأقدار لهذه المهمة الثورية، وجاذبية الشخصية Charisma التي تمكنه من فرض الطاعة العمياء على تابعيه ، والقدرة على تفهم واستيعاب الطبيعة الانسانية . ويستبعد هوفر من هذه الصفات القيادية : الذكاء الخارق، والأصالة ، ونبل الشخصية ، وهو يرى انها ليست مقومات ضرورية للقيادات الثورية ، لأن هذه الصفات تتضاءل وتفقد تأثيرها بجانب صفات اخرى : مثل الصلف ، والنزعة المتمردة على العالم القائم، والاستهانة بآراء الآخرين أو حتى احتقارها . وهتلر وموسوليني يعطيان مثلا واضحا على ذلك .

اما المؤلفان فانهما يخلصان من ذلك كله الى القول بأن هناك عدة خصائص تجمع بين القادة الثوريين ، ومنها ان هؤلاء القادة يجب أن يكونوا على قدر معين من التعليم وليس ضروريا أن يكونوا مثقفين Intellectuals كما يجب أن يكونوا قادرين على خلق ايديولوجية تعبر عن أفكارهم وتترجم سخطهم على الواقع الذى يسعون الى استبداله .

وحول خصائص التابعين ، يقول المؤلفان ، ان الثورات الاجتماعية تتميز بعدم وجود فوارق أساسية فى صفات القادة والتابعين ، بعكس الحال مع الانقلابات التي تظهر فيها هذه الفوارق والاختلافات فالثورة الاجتماعية تجىء تعبيرا عن أوضاع معينة ينفعل بها القادة والتابعون على حد سواء ، بعكس الانقلابات التى تجىء تعبيرا عن أوضاع تشعر بها أقلية مغامرة ، ومن ثم يكون هناك مجال لظهور اختلافات فى هذه الخصائص والصفات .

وبجانب هذه الملاحظة التي يبديها المؤلفان حول خصائص التابعين فى كل من حالتي الثورة

والانقلاب ، فان هناك كتابا آخرين ممن تصدوا لهذه النقطة بالتحليل . ومنهم **أريك هوفر** الذى اجمل عدة خصائص رأى ضرورة توافرها فى التابعين الذين يقفون وراء القيادات الثورية ومنها: قوة الشعور بالخيبة والمرارة من جراء استمرار نظام معين . وتوافر الرغبة الأكيدة فى تدمير هذا النظام واستئصال جذوره، هذا الى جانب صفات أخرى مثل الخضوع والطاعة والاستعداد الكامل لتنفيذ ما يطلب منهم من مهام وتكليفات . وهناك ايضا **هوبز بوم** الذى يرى ضرورة وجود نزعة مثالية خياليه فى هؤلاء التابعين ، لأنه بدونها لا يمكن ان تحدث ثورات كبرى ، ويضرب مثلا لذلك بالثورتين الفرنسية فى عام ١٧٨٩ ، والروسية فى عام ١٩١٧ .

وبوجه عام ، ينظر المؤلفان الى فئات الفلاحين على أنها أقل فئات المجتمع ثورية ، وذلك لكونها بعيدة عن التأثر بالايديولوجيات التي تغذى الرغبة فى التغيير الاجتماعي ، بعكس الفئات العمالية التي تقطن المدن ، فهي بحكم تنظيمها وانفتاحها على الأفكار والايديولوجيات المختلفة ،تكون هدفا سهلا للدعايات الثورية ، وتربة خصبة لنمو الثورة وازدهارها .

وهذا الاعتقاد من جانب **لايدن وشميت** يلتقي مع تحليلات النظرية الماركسية التي ترى فى العمال أو طبقة البروليتاريا ركيزة الثورة وعمودها الفقرى ، وذلك بسبب قوة احساسهم بالظلم والاستغلال الواقع عليهم من طبقة البورجوازيين المتملكين لأدوات الانتاج من جهة ،وبسبب قدراتهم التنظيمية العالية والمكتسبة من واقع دورهم الخاص فى العملية الانتاجية من جهة أخرى ، ولكن اذا أخذنا بهذا المعيار الماركسي فى التفرقة بين العناصر الثورية ، والعناصر غير الثورية فان ذلك يعني تجميد احتمالات الثورة الاجتماعية فى المجتمعات الزراعية أو غير الصناعية ، على الرغم من أنه قد تكون هناك مصادر للاستغلال الاجتماعي لا تقل فى ضراوتها عن الاستغلال الذى عناه ماركس، الأمر الذى يجعل من الاحساس بضرورة التغيير أمرا ملحا . والأمر الأكثر واقعية وموضوعيه ، من وجهة نظرنا هو أن ينظر الى المشكلة برمتها من زاوية الظروف الذاتية لكل مجتمع ، وما اذا كانت الأنظمة السياسية والاجتماعية السائدة تستجيب أولا تستجيب للاحتياجات الاجتماعية العامة .

وفى فصل آخر من الكتاب يتحدث المؤلفان عن الايديولوجية الثورية ، فيذكران أنه لا يمكن أن تكون هناك ثورة بدون دليل أو تبرير نظرى وايديولوجي يلازمها ، حتى يعطيها مضمونا يحدد اتجاهها من قضية التغيير التى تطرحها على المجتمع . وهذه هي الحقيقة التي أشار اليها لينين حين قال انه ليس هناك عمل ثورى بدون نظرية ثورية .

ووظيفة الايديولوجية ، كما يحللها المؤلفان ،هي تبرير العنف الذى يصاحب قيام الثورة ، كما انها الأداة التي تستخدم فى تبرير عملية التدمير للنظام القديم ، وتحديد معالم التغيير الذى سيتم بعد نقل السلطة السياسية من مراكزها القديمة الى مراكزها الجديدة .

ورغم هذه الاهمية لدور الايديولوجية فى الثورة فان مضمون هذه الايدلوجيات الثورية يتفاوت تفاوتا كبيرا من ثورة الى أخرى . فالثورة البولشفية ارتكزت على ايديولوجية ذات أبعاد وافتراضات نظرية كثيرة متشابكة ، بينما استندت الثورة الامريكية على وثيقة نظرية واحدة هي اعلان الاستقلال ، وكذلك الثورة الفرنسية التي اقترنت باعلان حقوق الانسان ، والثورة المصرية التي اقترنت بكتاب فلسفة الثورة .. وهكذا . وفى رأى المؤلفين ان الثورتين الفرنسية والروسية هما من أبرز الثورات التي تولدت عنها ايديولوجيات ولم تكن احداثهما العاصفة الا نتاج تراكمات ايدلوجية على مدى سنوات طويلة سابقة على وقوعهما .

ويتناول الكتاب بالتحليل عناصر أبرز الايديولوجيات الثورية التي شهدتها المجتمعات الانسانية المعاصرة ،وهي الايديولوجية الماركسية، والايديولوجيات القومية ،والايديولوجيات الثورية العارضة أو التي ليس لها مضمون محدد أو محتوى متكامل ، وانما تستحدث على نحو يستطيع ان يبرر ما حدث وهى ما يطلق عليه Make – Shift Idea – Logy وهذا النوع الأخير من الايديولوجيات ــ كما يؤكد المؤلفان ــ هو النتاج العملي لجو الفوضى والاضطراب الذى تخلقه بعض الثورات بحسب ظروفها والبيئات التي تنشأ فيها ، وعلى ذلك فهى تختلف من وقت الى وقت ، ومن شعب الى شعب .

والجزء الاخير من الكتاب هو بمثابة دراسة تطبيقية مقارنة لعدد من الثورات التي حدثت فى بعض أجزاء من العالم ، هي على التحديد امريكا

اللاتينية ، والشرق الاوسط ، وهذه الثورات هي الثورة المكسيكية في عام ١٩١٠ ، والثورة الكوبية في عام ١٩٥٩ والثورة التركية في عام ١٩٢٣ ، والثورة المصرية في عام ١٩٥٢ . وربما كان اختيار هذا النطاق الجغرافي بالذات راجعا الى خبرة المؤلفين به أكثر من غيره ، حيث ان أحدهما وهو الدكتور كارل لايدن هو أستاذ علم الحكومات بمركز دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة تكساس وهو صاحب خبرة طويلة ومتعمقة بأحوال منطقة الشرق الأوسط ، أما الدكتور كارل شميت فهو أستاذ علم الحكومات بنفس الجامعة، وهو خبير في الشئون السياسية لامريكا اللاتينية، وله فيها عدة مؤلفات أهمها :الشيوعية في المكسيك، وديناميكات السياسة والحكم في أمريكا اللاتينية.

وقد اتبع المؤلفان في اجراء هذه الدراسة المقارنة نهجا منظما Systematic اى انهما حاولا دراسة كل ثورة من خلال المقاييس النظرية التي اسهبا في عرضها وتحليلها في الجزء الاول من هذا الكتاب ، وهي على وجه التحديد :

١) ظاهرة القوة والعنف وما اذا كانت تدخل ضمن خصائص اى من هذه الثورات ، أى هل تم الالتجاء الى العنف أو أن الثورة قد حدثت بطريقة سلمية ؟

٢) الأسباب التي أدت الى نشوء كل واحدة من هذه الثورات .

٣) مراحل التطور المختلفة التي قطعتها كل ثورة ، والخصائص والمسئوليات التي اقترنت بكل مرحلة .

٤) طبيعة القيادات ومجموعات التابعين الذين ينتظمهم الاطار الثوري .

٥) ايديولوجية الثورة .

وقد انتهت هذه الدراسة المقارنة الى اعطاء بعض النتائج الحيوية حول كل واحدة من هذه الثورات بطريقة تحدد معالمها العامة في النهاية .

فبالنسبة للثورة المكسيكية في عام ١٩١٠ كانت من أكثر هذه الثورات عنفا ، ويرجع ذلك الى ان ظاهرة العنف المتطرف كانت الطابع المميز للسياسة المكسيكية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، وكان النظام الداخلي يرتكز في الأساس على عنصر الكبت السياسي . ولذا فانه لم يكن هناك ثمة مفر من استخدام العنف للاطاحة بدكتاتورية **دياز** القائمة في المكسيك آنذاك .

وهذه الثورة المكسيكية العظيمة التي تزعمها **فرانشيسكو ماديرو** اطلقت القوى الاجتماعية من عقالها بشكل اتاح اعادة تصميم الهيكل الاجتماعي وما يرتبط به من أوضاع وعلاقات على نحو جد مختلف .

أما شخصيه ماديرو ، الذى لم يكن قد تجاوز حينذاك الحادية والثلاثين من عمره ، فلم تكن من الطراز الثوري بالمعنى الصحيح وان كانت قيمته قد تركزت في انه استطاع ان يظهر كشخصية قوميه ، وكرمز يمكن أن يجمع حوله الشعب الساخط على الأوضاع التي خلقتها الدكتاتوريات الجائرة في المكسيك وبدون هذه المعاني التي كانت ترمز اليها شخصية ماديرو ، كان من الممكن لدكتاتورية دياز أن تجهز على بوادر الثورة التي بدأت تنتشر في أجزاء متفرقة من الدولة .

وثورة المكسيك هذه لم تكن لها ايديولوجية ثوريه تحدد طابعها العام من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، كما لم تعلن عن أى برنامج ثوري ذى أبعاد ومضامين دولية ، كما حدث مع بعض الثورات وبالاخص الثورتين الفرنسية والروسية. وربما كان ذلك راجعا الى كونها ثورة محلية تمت في ظروف مكسيكية خالصة، وكانت موجهة بالدرجة الأولى الى تغيير واقع الشعب المكسيكي نفسه .

وقد استطاعت هذه الثورة خلال مراحل تطورها المختلفة أن تقلل من استخدامات العنف الى الحد الأدنى الضروري الذى يستوجبه أمن الثورة ويهيىء لها القدرة على الاستمرار . وقد امكن تجنب الاسراف في استخدام العنف ، رغم أن الثورة كانت قد بدأت تنفذ سلسلة من برامج الاصلاح الاجتماعي الجذري . والذى جعل تجنب العنف المتطرف أمرا ممكنا هو طبيعة العناصر التي هيمنت على قيادة الثورة ، فقد كانت كلها عناصر معتدلة ، استطاعت أن تبعد الفئات المتطرفة عن التأثير في اتجاهاتها وأساليبها .وطيلة هذه المراحل التي قطعها تطور الثورة المكسيكية أمكنها أن تبلور عددا من الأفكار التي استخدمت كأداة لتوجيه الحكم . وقد استقرت هذه الافكار واكتسبت من القوة والاحترام ما جعلها موضع القبول التام حتى من قبل الزعامات الحاكمة حاليا .

وبالنسبة للثورة التركية التي قادها مصطفى كمال أتاتورك في عام ١٩٢٣ فانها لم تكن ثورة

مبنية على العنف كما حدث في غيرها من الثورات. أما عن الاسباب التي قادت اليها فهي ترجع الى حالة السخط التي عمت تركيا عدة أجيال ، وان كان الذي حركها واسرع بها هو هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وتحلل امبراطوريتها وانهيارها ، والاستيلاء على ممتلكاتها ، واحتلال جانب هام من الاراضي التركية نفسها بواسطة الدول الاجنبية، وهي أمور نتج عنها أن أصيبت مؤسساتها السياسية بما يشبه الشلل التام .

ويرجع نجاح اتاتورك في قيادة هذه الثورة الى كونه البطل العسكري الحقيقي الذي برز من الحرب ضد الغزو والاحتلال الأجنبي لتركيا ، وهو الذي استطاع أن يجسد ارادة المقاومة في وقت كان كل ما فيه يدعو الى قبول الهزيمة والاستسلام للامر الواقع ، وهذه الحقيقة هي التي ادت الى تركيز جانب هائل من الولاء السياسي للشعب التركي في اتاتورك ، كما أنها هي التي أدت الى الابقاء عليه في مركز السلطة والقيادة دون منازع .

وبعد نجاح ثورة اتاتورك اخذ يحولها من الطابع الوطني البحت الى النواحي السياسية والثقافية ، وهو لم يكن معنيا بالأمور الاقتصادية بقدر ما كان معنيا بنقل تركيا الى دائرة الحضارة والثقافة الغربية ، ومحو كل أثر لثقافتها الشرقية التي اعتقد أنها كانت السبب المباشر وراء تخلفها وما ألم بها من هزائم ونكبات .

وقد أدى ذلك باتاتورك الى تنفيذ العديد من البرامج التي كانت لها أصداء واسعة داخل تركيا وخارجها .

أما عن ايديولوجية ثورة اتاتورك فانها تبلورت على شكل عدد من الحجج والأفكار التي استخدمت في تبرير التغييرات التي استحدثتها الثورة ، وعموما يمكن تحديد عناصر الايديولوجية الكمالية في ستة عناصر متميزة هي :

١ ـ التمسك بالمبدأ الجمهوري .

٢ ـ القومية .

٣ ـ الشعبية Populism ، بمعنى تدمير الامتيازات الاجتماعية والتركيز على معيار الكفاية الفردية ومبدأ الفرص المتكافئة للجميع دون ما تمييز .

٤ ـ تركيز السلطة الاقتصادية وسلطة التخطيط الاقتصادي في يد الدولة Etaism

٥ ـ الفصل الكامل للدين عن الدولة Secularism

٦ ـ الثورية أي أن الثورة مستمرة وأنها لم تكن لتنتهي بمجرد حدوثها ، بل انها ظاهرة تتطور مع الوقت .

واذا ما تعمقنا في تحليل التأثيرات وردود الفعل التي تسببت عنها هذه الثورة في خارج تركيا ، فان هذه التأثيرات ، في رأي المؤلفين ، كانت أوضح وأقوى ما تكون في ايران وأفغانستان . ففي ايران قام رضا خان بانقلاب في عام ١٩٢١ ، ثم اعلن نفسه شاها لايران في عام ١٩٢٥ ، وقد اقتبس رضا شاه كثيرا من أفكار أتاتورك ومبادئه ،وكذلك فعل نفس الشيء أمان الله ملك أفغانستان .

بعد ذلك ينتقل المؤلفان الى تحليل الثورة المصرية في عام ١٩٥٢ ، فيقولان ان هذه الثورة تمت دون عنف ودون اراقة دماء . ويرجع ذلك في رأيهما الى أن الطابع الغالب على تاريخ السياسة في مصر ، هو طابع المسالمة وعدم العنف .

وفيما يتعلق بالاسباب التي ادت الى تفجير هذه الثورة فمنها : مظاهر الخلل والانهيار شبه الكامل التي أصابت أجهزة الحكم قبل الثورة ، وفقدان النظام القديم كل مقدرة حقيقية على مجابهة المشكلات الحيوية المرتبطة بواقع الحياة المصرية ، فالملك السابق فاروق لم يكن عنده أدنى شعور بالمسئولية ، كما أن السواد الأعظم من الشعب كان يحيا حياة الشظف والتخلف ، بالاضافة الى أن الاحتلال الأجنبي كان جاثما على صدر مصر ، ثم هناك المرارة القاسية التي خلفتها الهزيمة القاسية في حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ ، والتي جرحت كبرياء الجيش وأوجدت فيه شعورا بالذلة والمهانة .

ويقول المؤلفان انه ما من عامل كان له أكبر الأثر في التعجيل بوقوع هذه الثورة مثل الفساد الذى كان ضاربا أطنابه في صفوف الجيش ، وبخاصة على مستوى القيادات ، وقد ولد هذا الفساد سلسلة من ردود الفعل النفسية العنيفة في أوساط صغار الضباط الذين كانوا ينتمون بطبيعة تكوينهم الاجتماعي الى الطبقات المتوسطة ، وبدا هذا أوضح ما يكون بعد عام ١٩٤٨ ، أي في أعقاب الهزيمة في حرب فلسطين . وقد شهدت هذه

الفترة نوبة متزايدة من العنف السياسي الذي وصل أقصاه مع حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ ، ودلت الفترة التي اعقبت هذا الحريق مليئة بالاضطراب وعدم الاستقرار السياسي والتغيير المستمر فى الحكومات ، وقد انتهت فى يوليو ١٩٥٢ بوقوع الثورة .

وبالنسبة للايديولوجية الثورية وعناصرها الرئيسيه ، فانه وكما يقول المؤلفان ، لم يكن للقائمين بالثورة فى ذلك الوقت فكرة واضحة عن ماهية الثوره الاجتماعية ، وانما كانت الفترة التي تلت قيام الثورة ولمدة عامين تقريبا ، متركزة على النواحي السياسية الداخلية التي انتهت ببروز جمال عبد الناصر كزعيم لمصر .

على أن الثورة بدأت تطور لها ايديولوجية فيما بعد ، وهي الايديولوجية التي أصبحت تعرف بالاشتراكية العربية التي قامت على تأميم الصناعات ورؤوس الاموال، وتنفيذ برامج الاصلاح الزراعي ، والأخذ بمبدأ مركزية التخطيط الاقتصادى ، وأصدق وصف لهذه الايديولوجية الميثاق الوطني الذى وضع فى عام ١٩٦٢ والذى أوضح أن هناك مبادىء ستة قامت بسببها ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، وهذه المبادىء هي :

١ — القضاء على الاستعمار وأعوانه من الخونة المصريين .

٢ — القضاء على الاقطاع .

٣ — انهاء سيطرة راس المال على الحكم .

٤ — اقامة العدالة الاجتماعية

٥ — اقامة جيش وطني قوى

٦ — اقامة الديمقراطية السليمة .

وقد أوضح الميثاق الوطني أن هناك عدة اوضاع هيأت الطريق نحو تنفيذ مبادىء الثورة هذه ، وفى مقدمتها :

أ — وجود ارادة التغيير الثورى التي ترفض اى قيد يحد من حرية الجماهير .

ب — وجود طليعة ثورية أمكنها أن تصل الى السلطة ، وتستخدمها لا لخدمة المصالح الأنانية لطبقة معينة ، وانما لخدمة الشعب كله على اختلاف فئاته .

ج — وجود عقل مفتوح لكل التجارب الانسانية يأخذ منها ويعطيها دون ما تعصب أو تحيز .

د — ايمان لا يتزعزع بالله ورسله وكتبه المقدسة التي نزلت لتهدى الانسان الى الحق والعدل .

ثم يتعرض المؤلفان للمحن التي صادفتها الثورة المصريه ، فيقولان ان هذه الثورة قد مرت بعدد من المحن والازمات ، وان كان أبرزها تدخل مصر العسكرى فى اليمن الذى خلق لها العديد من المشاكل ، ثم هزيمة مصر مرتين امام اسرائيل فى خلال عشر سنوات .

وينتهي المؤلفان من تحليلهما الى القول بأن هذه الثورة كانت اهم ثورة وقعت فى تاريخ العرب الحديث ، ويرجع ذلك الى عمق التاثيرات التي خلقتها لا فى الشرق الأوسط فحسب ، وانما

فى اجزاء ومناطق أخرى من العالم ، وان كانت الهزيمة التي حدثت لمصر سنة ١٩٦٧ قد حدت من هذا التاثير وأضعفته الى حد كبير .

ومن الثورة المصرية ينتقل المؤلفان الى تحليل الثورة الكوبية فى عام ١٩٥٩ فيقولان انها انبثقت من صميم الأوضاع المنهارة التي وجدت فى كوبا قبل الثورة ، ومنها : سيطرة الشعور بخيبة الامل، والقلق والتوترات الاجتماعيه ، والفوضى الاقتصاديه ، وشعور المثقفين بالعزلة .. الخ . وقد ظهر فيدل كاسترو ليمهد الطريق أمام التغيير الثورى الشامل ، واهم ما يميزه كقائد ثورة هو أنه رجل قول وعمل فى الوقت نفسه ، فهو الذى استطاع أن يدبر ويخطط للثورة التي اقتلعت دكتاتورية باتيستا من جذورها ، كما أنه هو الذى وضع الاساس لما سيكون عليه حال كوبا بعد تدمير النظام القديم ونجاح الثورة .

وثورة كاسترو فى كوبا أمكنها ان توفر ايديولوجية ثوريه وبرامج وشعارات تستطيع أن تبرر التغيير الثورى الذى كانت بصدد احداثه ، كما أنها بذلك وضعت المقاييس التي يمكن بواسطتها ترشيد كل ما تلجأ اليه الثورة من سلوك وافعال . ومن خصائص الثورة الكوبية أنها لم تلتزم بقوالب وصيغ ايديولوجية متزمته ، وانما حاولت أن تحور فيها بما يضيف الى التجارب والايديولوجيات الثورية عناصر مستمدة من واقع التجربة الكوبية نفسها .

ويضيف المؤلفان انه لم يحدث فى تاريخ أى من الثورات الحديثة فى العالم أن بدا لقائد واحد مثل هذا التاثير الذى يمارسه كاسترو على ثورة كوبا ،

وبدون قيادة وزعامة كاسترو ، فربما لم تكن الثورة الاجتماعية لتحدث في كوبا بالشكل الذى حدثت به ، وكان أقصى مـا يمكن عمله هو انهاء دكتاتورية باتيستا ، والعودة بالأوضاع السياسية والاقتصادية الى ما كانت عليـه قبل وصـول باتيستا الى الحكم ، وهي أوضاع لم تكن لتفيد منها أولا وقبـل كل شيء الا الطبقات العليـا والوسطى في المجتمع الكوبي .

والى كاسترو ورفاقه القليلين ، يرجع الفضل في تعبئة قوى الجماهير وراء الثورة بعد أن تحقق النصر على النظام القديم ، معتمدين في ذلك على البرامج الراديكالية في الاصلاح الاجتماعي التي قامـوا بتنفيذها مستجيبين في ذلك لحاجـات الجماهير ومطالبهـا الملحـة ، ولكن في اطـار الايديولوجية ، وبالأساليب التي اعتقدوا انهـا أكثر مقدرة على أرضاء هذه المطالب الجماهيرية من غيرها .

ومن الخصائص الأخرى التي تنفرد بها الثورة الكوبية الى جانب مرونتها الايديولوجية ، هو أن المجموعة القائدة أو الحاكمة استطاعت أن تبقى على نفسها في الحكم لفترة تزيد على عشر سنوات تقريبا دون تغيير أو تطهير في صفوفها ، كما حدث مع غيرها من الثورات التي كانت تلتهم قادتها وزعماءها الاصليين ، وانما التغيير الذى حدث هو في القيادات على المستويات الأقل .

ويخلص المؤلفان الى القول بأنه مهما حدث في كوبا فان ثمة حقيقة مؤكدة وهي أن كوبا لن ترجع بحال الى ما كانت عليه في عام ١٩٥٩ حين انفجرت فيها هذه الثورة التي أحدثت دويا هائلا ليس في كوبا أو في أمريكا اللاتينية فقط ، وانما في المعمورة بأسرها .

والفصل الاخير في هـذا الكتاب يخصصـه المؤلفان للحديث عن مستقبـل الثورة ، وهمـا يتساءلان في مقدمة هذا الفصل : هل انحسر المد الثورى اليوم عما كان عليه طيلة القرنين الماضيين؟ أم ان ظهور الدول الحديثة العهد بالاستقـلال يؤدى الى الاتسـاع المستمر في نطاق الثورة ؟ وهل تؤدى ثورة الاتصالات الهائلة في العالم اليوم الى توليد ضغوط نفسية وسياسية واجتماعية تدفع بعض بلدان العالم في اتجاه الثـورة ، أم أن تأثير ثورة الاتصالات لم يصل بعد الى هذا المدى ؟

ويجيب المؤلفان على هذه التساؤلات بقولهما اننا نعيش في حقبة ثورية جديدة ، فالمجتمعات المفككة اجتماعيا وسياسيا كانت باستمرار التربة الخصبة لنمو الثورات ، وهي ستظل هكـذا . كذلك فان المشكلات الداخلية والخارجية التي تعاني منها البلاد التي استقلت حديثا تضغط على كثير منها في اتجاه الثورة .

ويضيف المؤلفان الى ذلك قولهما بأنه على الرغم من أن الثلث الأخير من القرن العشرين يبدو مليئا بالثورات ، الا ان هذه الثورات ستختلف مـن منطقة الى أخرى ، فاحتمال هـذه الثورات في أوروبا الغربية وأمريكا الشماليـة واستراليـا والاتحاد السوفيتي أقل منه في مناطق أخرى مثل أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا والشرق الأوسط وذلك بسبب سوء الاحوال الاقتصادية ، وضعف الهياكل السياسية والاجتماعية التي تجعل من الثورة في هذه المناطق الأخيرة الحل الذى يستطيع أن يحسم هذه التناقضات . ومعنى هذا كله هو أننا مقبلون ، ولا ريب ، على عصر جديد يشهد العالم فيه اندلاع الثورات ، بمعدل وعلى نطاق لم يحدث قط من قبل في تاريخ المجتمعات الانسانية .

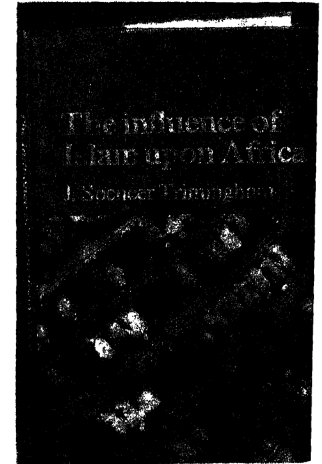
هذا باختصار اهم ما ورد في الكتاب من أفكار ، واذا كان لنا من ثمة ملاحظات على هذا الكتاب سواء من ناحية المادة التي اشتمـل عليهـا ، أو منهاجه في التحليل ، أمكننا أن نقول ان الكتاب لم يوف هذه الظاهرة حقها من البحث والتحليل ، وينطبق ذلك على كل مـن الجوانب النظريـة والتطبيقية التي تعرض لها هذا المؤلف .

وأغلب الظن أن الكتاب وضع لاعطاء فكرة عامة عن موضوع الثورة ودورها في المجتمعات الحديثة ، ولم يحاول التعمق في دراسة مختلف جوانبهـا الفلسفية والايديولوجية والانسانية والسيكلوجية والاجتماعية والسياسية ، على نحو يجلو كل غوامض هذه الظاهرة المعقدة . ومن ناحية أخرى ، فان الثورات التي اختيرت للتحليل تمثل عينة محدودة ومتحيزة من الثورات التى وقعت في القـرن العشرين ، وقد تجاهلت ثورات هامة حفرت لها أخدودا عميقا في مجرى التطور الانساني ، ومن أمثلتها الثورة البولشفية في عام ١٩١٧ ، والثورة الصينية في عام ١٩٤٩ .. الخ .

ورغم هذه الهنات ونقاط الضعف ، استطاع الكتاب بما احتواه من جهد علمى قيم ان يلقي بعض الضـوء على واحدة من اخطر الظواهر التي ظلت تؤثر في تطور المجتمعات الانسانية على مر الأزمان ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين .

أثر الاسلام على أفريقيا

عرض وتحليل : الدكتور ابو الوفا التفتازانى



١ ـ مؤلف هذا الكتاب هو الدكتور ترمنجهام رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الاسلامية فى جامعة جلاسجو بانجلترا سابقا . وهو يعمل حاليا أستاذا زائرا فى الجامعة الامريكية فى بيروت وقد صدر هذا الكتاب فى « سلسلة التراث العربى » باشراف الاستاذ نقولا زيادة بجامعة بيروت الامريكية .

ويعد ترمنجهام من أكبر الرواد الاوائل الذين تخصصوا فى دراسات الاسلام فى افريقيا ، ومن دراساته فى هذا الميدان : «الاسلام فى السودان» ، لندن ١٩٤٩ ، « الاسلام فى أثيوبيا » ، لندن ١٩٥٢ ، « الاسلام فى غرب افريقيا » ، لندن ١٩٦٢ ، « الاسلام فى شرق افريقيا » لندن ١٩٦٤ .

ويذكر ترمنجهام نفسه أن تلك الدراسات كانت تتناول أقاليم معينة ، أما دراسته الجديدة التي نحن بصددها فهي محاولة لنظرة كلية شاملة على الاسلام فى افريقيا من ناحية آثاره الحضارية والثقافية والمدنية على الافريقيين .

وقبل ان نتناول أبرز الاتجاهات والافكـــــار الواردة فى الكتاب بالمناقشة والتقييم والنقد ، لا بد لنا من القاء نظرة اجمالية على مضمونه ، تحدد للقارىء الخطوط العامة له والمنهج الذى اتبعه المؤلف فيه ، فهذا مما يسهل على القارىء بعــد ذلك فهم مناقشتنا لبعض جزئيـــات الكتاب أو قضاياه الكلية وذلك حين يضعها فى اطارها فى العام الذى لا تفهم فهما صحيحا بدونه ، وفيما يلي هذه النظرة الاجمالية :

٢ ـ يشمل كتاب ترمنجهام(١) مقدمة وخمسة فصول :

فالمقدمة تتناول افريقيا من حيث علاقاتهـــا بحضـــارة ومدنيـــة العالم الاسلامي (٢) المتاخـم لها . وفى رأيه ان العالم الاسلامي مع كونه قد احتوى شعوبا مختلفة فى مناطق متباعدة يصعب الاتصال بينها ، كان يشكل فيما مضى وحــدة لم يعد لها وجود الآن . والاسلام حضارة دينية حيث ان الدين هو أساس وجودها وتوحدها ، وجميع نظمه وأخلاقياته وشريعتــه وعلومـــه وفنونه هي تعبير عن روحه ، وبهذا تميزت هذه الحضارة عن غيرها من الحضارات . على أن هذه الحضارة لم تكن ذات نموذج واحد ، فكان هناك مثلا الانقسام العميق بين السنة والشيعة ، وكانت هناك أيضـا اختلافـات كبيرة بالنســبة لمستويات المدنية ، فقد كان ثمة تباين بين البدو والفلاحين وسكان المدن،كما كانت هناك اختلافات اقليمية . وقد انعكس هذا كله على حضـــارة الاسلام فى افريقيا،فقد تأثر الافريقيون بمستويات اســـلام الحضارية عـلى اختلافهـــا ، ولـم تكن منطقة جنوب الصحراء (الحزام الافريقي) بمعزل عن العالم الاسلامي الاوسع ، فهي متاخمة له وتربطها به صلات . ويقرر ترمنجهام أن مدنية الاســلام فى افريقيا ظلت بدائية Primitive وحتى لا يسىء الافريقيون فهم هـــــذا التعبير يضرب لهم مثلا بحضارة اليونان القديمة ، فبينما كانت هذه الحضارة متقدمة جدا كانت مدنيــة أصحابها بالنسبة لها بدائية ، وعلى العكس من ذلك كان الرومان . ان اعتناق الافريقيـــــين للاسلام احدث تغيـــيرا طفيفا فى قدرتهـــم على السيطرة على احـــــــوال وجودهم (المادية) لان صلتهم بمدنيات الشعوب الاسلامية الاخـرى كانت سطحية . ولكن اعتناق الاسلام ، من ناحية اخرى ، أدى بمرور الزمن الى تغير حضـــــارى (ثقافى) عميق ، الا انه كما يقول ترمنجهام ليس بالعمق الذى كان يحدث لو أن الافريقيين تلقوا التأثير الكامل للحضارة الاسلامية . لقد كان من الممكن ـ نظريا ـ أن ينفتحوا على كل مصادر هذه الحضارة ، ولكن لم يكن فى استطاعتهم ذلك ، كما كانت هناك عوائق من العقلية الافريقية وبنيـــة المجتمع الافريقي ذاته تقف حائلا بينهم وبـــين المصادر التي أتيحت لهم أحيانا .

وفى افريقيا أربع مناطق حضـــارية كبيرة : المصرية والمغربية ، على شاطىء البحـر الابيض المتوسط ، وهما فى نطاق حضارة العالم الاسلامي

---

(١) الناشر : لونجمانز ـ مكتبة لبنان . لندن ـ بيروت ١٩٦٨

(٢) يشير ترمنجهام هنا انه يستخدم الاصطلاحين : civilisation المدنية و culture الحضارة بمعناها عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، فالمدنية هي ما كان متعلقا بالمدينة ، وهى ذلك الجانب من الحضارة الذى يتمثل أساسا فيما يتخذه الانسان من وسائل للسيطرة على ما حوله ، فهى اذن الصورة الخارجية او المادية للحضارة . اما الحضارة فهى ما كان معنيا بحياة الانسان ذاته وبالطريقة التي يعيشها بها وهما وجهان لا ينفصلان وبينهما علاقـة متبادلة من حيث التغيير .

والسوداء (Negro) والحامية (Hamitic) (١) فى جنوب الصحراء الافريقية ، وهما على هامش تلك الحضارة . ولم يكن المسلمون قديما يعرفون عن هذه المنطقة الواقعة جنوب الصحراء أكثر من أنها المنطقة المجهولة التي يأتي منها العبيد والذهب ! لقد كانت الصحراء حاجزا طبيعيا وحضاريا فى نفس الوقت . وفى رأى ترمنجهام أن الفارق الاكبر بين المنطقتين الشمالية والجنوبية يعود الى أن الاولى (مصر والمغرب) قد دخلت فى الاسلام منذ وقت مبكر فوجدت فيها حضارة اسلامية متكاملة ، وكانت هذه الحضارة المتكاملة مصدرا رئيسيا للتيارات الاسلامية الوافدة الى السود والحاميين (وان كانت هناك ايضا تيارات أخرى اسلامية وافدة الى افريقيا من جزيرة العرب) ولكنها لم تفد الى افريقيا قبل القرن الحادى عشر الميلادى . ولم يسيطر الاسلام تماما على منطقة جنوب الصحراء الا منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومنذ ذلك الحين الى اليوم نجد أن هذه المناطق الواقعة جنوب الصحراء ما زالت فى مرحلة انتقالية أو موقف انتقالي ، لقد كسب الاسلام معتنقين كثيرين له ابان حكم الاستعمار أيضا ، وهذا يعني أن الافريقيين لازالوا فى كل مستويات التحول أو التكامل الاسلامي .

وكل حضارة من تلك الحضارات الاربع الفرعية تختلف عن الاخرى من حيث الدرجة التي تمثلت بها الاسلام وصاغته ، ومن حيث نوع الحضارة الكائنة فى منطقتها قبل دخول الاسلام اليها . **فالحضارة الفرعية الافريقية السوداء الاسلامية** (Negro-African Islamic Subculture) **متميزة عن الحضارتين المغربية والنيلية الاثيوبية، والمصرية أكثر اختلافا من هاتين عنهما ، فهي تنتمي كلية الى الاسلام العربي،وان كانت سماتها المميزة لها تظهر عند الفلاحين فى نظمهم . ان نتيجة التغير الحضارى فى افريقيا كانت دائما** مزيجا من عناصر افريقية وعناصر اسلامية ، وهذه الاخيرة هي التي تشكل النظرة الحضارية العامة للحياة .

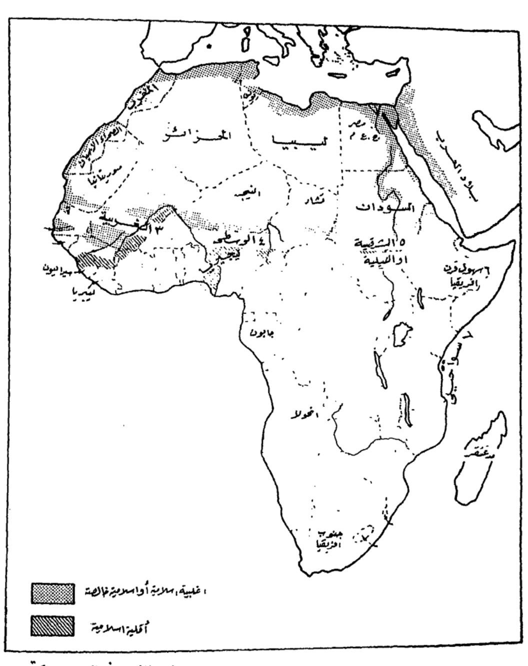
ان الافريقيين لم يقبلوا الحضارة الاسلامية ككل ، فان الذى أثر فيهم هو الاسلام من حيث هو حضارة تشريعية Legal أما قيمه العقائدية والفلسفية والادبية والفنية فانها لم تنفذ اليهم ، انهم لم يرفضوها ، ولكنها لم توضع أمامهم أبدا ! لقد دخل الاسلام الى غرب افريقيا من المغرب ، والى شرقها من حضرموت وهما من أقل مناطق العالم العربي تطورا .

ومن السمات المميزة للحضارة الاسلامية فى راى ترمنجهام أنها قائمة على أساس حضارة المدن Urban Civilisation ، وافريقيا ليس فيها نسبيا الا عدد قليل من المدن ، وحيث لا توجد مدن كما هو الشأن بالنسبة للبانتو Bantu والقبائل النيلية ، كان الاسلام لا يجد طريقه الى السكان ، لقد ازدهر الاسلام فى افريقيا حيث كان ثمة أساس لمدنية المدينة جنبا الى جنب مع وجود العلاقات التجارية التي كانت تصدر عن المدنية أساسا .

٣ – ويفصل المؤلف بعد ذلك ، فى الفصل الاول ، الكلام عن مناطق الحضارة فى افريقيا ويقسم المنطقتين الواقعتين جنوب الصحراء الى

---

(١) يشير ترمنجهام الى أن تفرقته بين الاسلام الاسود Negro Islam والاسلام الحامي Hamitic Islam لا تتضمن اى تفرقة عنصرية ، وانما هى راجعة عنده الى الاختلاف بين نمطين من العقلية الافريقية ومن الحضارة والنظرة الى الحياة ، ومن ردود الفعل بازاء الاسلام وتمثل حضارته ، فالاسلام واحد ، والاختلاف هو فى فهمه والتعبير عنه .



مناطق الثقافة الاسلامية

مناطق أخرى فرعية ، فيبلـــغ عدد المناطـــق الحضارية فى رايه سبعا (١) بيانها على النحـو التالي :

١ ــ مصر : وحضارتها أساسا هي الحضارة الاسلامية ، مع حضارة نيلية تظهر نفسها فى قرى الفلاحين .

٢ ــ المغرب : حضارة افريقية تنتمي الى البحر الابيض المتوسط ، ولكن مع أسس من حضارة البربر الاقليمية .

٣ ــ السودان الغربي : الاسلام الاسود .

٤ ــ السودان الاوسط : الاسلام الاسود .

٥ ــ السودان النيلي أو الشرقي : الاســـلام الحامي ــ الاسود .

٦ ــ المنطقة الحامية الشمالية الشرقية (فى أرتيريا ــ أثيوبيا ــ الصومال) : اسلام البدو فى القرن الافريقي الشرقي .

٧ ــ الساحل الشرقي الافريقي : الاســـلام السواحلي .

ودراسة ترمنجهام لهذه المناطق الحضارية هي دراسة لتاريخها وخصائصها وما يمكن أن يكون بينها من تأثير متبادل . وتقسيمه لها على ذلك النحو يستند الى خلفية متعلقة بالنواحـــــي السكانية والجغرافية والاتنولوجية والحضارية ، والى كيفية تقبلها للاسلام ومدى تأثيره فيها . وهذا الفصل من الكتاب ــ وان كان يغلب عليه الطابع التاريخي ــ تضمن معلومات هامة تتعلق بالاتجاهات الدينيه والمذهبية والحركات الدينية التى سيطرت على بعض تلك المناطق ، كحركات الطرق الصوفية وحركات الجهاد الاســـلامي والمهدية ، ونوع الحكومات التي قامت فيها قبل الاستعمار الاوربى ، واثر الاستعمار فيها ، وما الى ذلك من التفصيلات التاريخية والحضارية المتعلقة بها .

وينتقل ترمنجهام فى الفصل الثانى الى دراسة عملية التغير الدينى والحضارى فى كل منطقـــة من المناطق الحضارية السبـــع ، بادئا بالكـــلام عن انتشار الاسلام واستيعابه فى تلك المناطق ، وادوار ذلك ، والعوامل المؤثرة فيه ، ومراحل تحول الفرد الى الاسلام ، ونتائج اعتناق الاسلام وعمق التغيير الذى احدثه فى الديانه الافريقية والمجتمع الافريقي ، ونظـــم الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

ومراحل انتشار الاسلام فى افريقيا اربع : ــ

١ ــ فتح شمال افريقيا (٦٣٨ ــ ١٠٥٠م)

٢ ــ انتشار الاسلام فى الحزام الافريقى (١٠٥٠ ــ ١٧٥٠م)

٣ ــ فترة الحكومات الدينيه Theocracies او الدول التى تجعـــل الاسلام دين الدولـــة (١٧٥٠ ــ ١٩٠١م)

٤ ــ فترة الاستعمار الى اليوم الحاضر .

وكان الاسلام حين يدخل الى منطقة مامـــن المناطق الحضارية يتفاعل مع حضارتها السابقة ويسيطر على العقائد والعبادات والنظم الاجتماعية والسياســـــية بمقادير متفاوته ، وهـــــو يلخص سير عمليات التغير فى المعادلة التالية : ــ

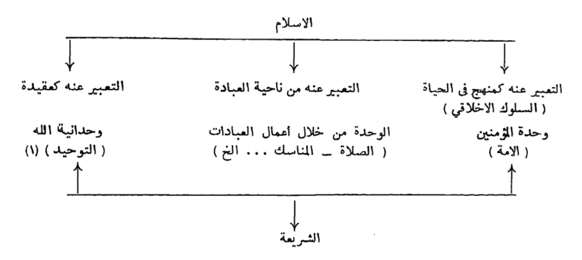
---

(١) انظر أيضا بحثا لترمنجهام عـن مراحل انتشـار الاسلام ومناطق الحضارة الاسلامية فى افريقيا القى فى الحلقة الدراسية العالمية الخامسة لافريقيا بجامعة احمد وبلو ، زاريا ، يناير ١٩٦٤ ، ونشر بكتاب « الاسلام فى افريقيـا الاستوائية » Islam in Tropical Africa ، لندن ١٩٦٦ ، من ص ١٢٧ الى ص ١٣٩ .

الاسلام الحضارة الافريقية = تفاعل = مركب اخير .

ان هذا الفصل من الكتاب يظهرنا على عمق معرفة ترمنجهام بالديانة الافريقيةالمحلية الوثنية Paganism والاعتقادات الافريقية كالايمان البدائي بالأرواح animism وطقوس الاتصال بأرواح الاسلاف Kinship ritual ، والسحر والكهانة (Magic and divinition) وغير ذلك ، ودقة رصده للتفاعلات التى حدثت بينها وبين الاسلام .

٥ – اما الفصل الثالث من الكتاب ،فهو دراسة علمية دقيقة للحياة الدينية للمسلمين الافريقيين ويبدؤه ترمنجهام بدراسة عن الاسلام فى ذاته ، مبيناً ما فيه من وحدة المعتقد والعبادة والنظم اوتكامله ، وان الممارسة العملية لاحكامه اهم فى تثبيت دعائمه من المعتقدات النظرية . وشريعة الاسلام فى رأى ترمنجهام – وان كانت لها مجالات مختلفة فى التعبير عن احكام الاسلام – ذات وظيفة واحدة متكاملة ،وهو يوضح مجالات هذهالشريعة بالرسم البياني التالى :



ويتناول ترمنجهام فى هذا الفصل ايضا نوع تعليم رجال الدين فى افريقيا ، وعبادات الاسلام العملية على اختلافها كالصلاة والزكاة والحج والجهاد ، ودور هذه العبادات عند الافريقيين ، فالحج مثلا كان من العوامل الهامة فى ربطهم بغيرهم من المسلمين فى العالم الاسلامى ، وكذلك الجهاد كان له دور هام فى افريقيا فقد كان شعارا لبعض الحركات الدينية الافريقية ، ومن مظاهر الاسلام فىافريقيا أيضا الاخذ بنظام التقويم الهجرى لاهميته بالنسبة للعبادات وغيرها من الاحتفالات

(١) يوضح هذا الرسم البيانى أن الاسلام عقيدة وشريعة وأخلاق ، فالعقيدة هى التوحيد وما يستتبعه من العقائد الايمانية الاخرى ، والشريعة بالمعنى الخاص (الفقة) تشمل أحكام العبادات والمعاملات وما اليها ، والاخلاق تشمل كل ما ينتظم علاقة الفرد بربه وبنفسه وبمجتمعه وباسرته ، فللاخلاق وظيفتان : فردية واجتماعية ، فالاسلام اذن دين متكامل يغطى جميع نشاطات الفرد ومختلف نواحى المجتمع ، ومجالاته الثلاث التى يشير اليها ترمنجهام هى الشريعة بالمعنى العام . ومن الغريب ان يفهم الاوربيون الاسلام على هذا النحو – ومنهم ترمنجهام – ثم يقولون بامكانية اخذ المسلمين بعلمانية الغرب التي تفصل الدين عن الدولة ، أو تعزله عن النشاط السياسي والاجتماعى وتحصره فقط فى نطاق العقيدة وجانب من الشريعة هو العبادات ، فالعلمانية تسقط اعتبار الدين منهجا فى الحياة يشكلها وفق قيمة ومبادئة .

الدينية . وفى الفصل أيضا حديث مستفيض عن الاخلاق الاسلامية الفردية والاجتماعية التى اتخذت الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى لها ، ويشير المؤلف الى ان الاخلاق الاجتماعية فى الاسلام كانت تهدف دائما الى ايجاد صلابة تماسك الامة .

ومن المعلومات الهامة الطريفة التى تضمنها هذا الفصل توزع المذاهب الفقهية الاسلامية فى مناطق افريقيا . فالمذهب المالكى يسود اسلام الحاميين والسود والمغرب وصعيد مصر ،والمذهب الشافعى يسود معظم مصر وشرق افريقيا بما فى ذلك أثيوبيا والصومال ،والمذهب الحنبلى جاء الى افريقيا بعد الحركة الوهابية . أما المذهب الاباضى (أحد مذاهب الخوارج) فيوجد فقط فى مجموعات صغيرة فى الجزائر وزنزبار ، ويوجد المذهب الحنفى فى مصوع وأجزاء من اريتيريا وفى أجزاء داخل الحبشة ، ويوجد ايضا فى مدينة هرر (وهو أثر من اثار العثمانيين لما كانوا فى مصر) ، ويوجد المذهب المالكى أيضا فى داخل أريتريا ، جاءها من السودان النيلى ، كما يوجد المذهب الشافعى ايضا فى أجزاء من أريتريا .

ولما كانت الطرق الصوفية عاملا مهما فى نشر الاسلام فى افريقيا (الى جانب انتشاره عن طريق التجار المسلمين) ، فقد خصص ترمنجهام جانبا من هذا الفصل للكلام عن هذه الطرق من ناحية معتقداتها ورياضاتها العملية وأثرها فى حضارة الافريقيين (وان كان قد تناول شيئا من تاريخها فى فصول الكتاب الاخرى ، خصوصا عندما تحدث فى الفصل الاول عن سيادة الطرق فى المغرب ، واعتبار التصوف طابعا لحضارته) ، وهى دراسة لم تحظ الى الان بعناية تذكر من جانب الباحثين فى افريقيا أو فى غيرها ، ومعظم ما كتب عن الحركة الصوفية ودورها الفعال فى افريقيا بالذات مكتوب بلغات أجنبية .

ويرى ترمنجهام أن تقديس الاولياء (Saint Cult) والطرق الصوفية لم يكن لهما أثر كبير على الافريقيين السود ، فلم يكن لديهم من هذه الطرق الا القادرية والتيجانية ، على حين كان يوجد منها لدى الحاميين المئات . ولم تنتشر الطرق بين الافريقيين السود الا فى القرن التاسع عشر ، وبشكل محدود ، بظهور حركة الاحياء الدينى على يد اثنين من أقطاب التصوف هما أحمد التيجانى (١٧٣٧ – ١٨١٥) ، وأحمد بن ادريس (١٧٦٠ – ١٨٣٧) ، وهما مغربيان ، وقد انتشرت الطريقة التيجانية فى افريقيا ، ليس فقط فى اتجاه الجنوب عبر الصحراء الى السودان الغربى وانما انتشرت ايضا فى السودان النيلى بين الافريقيين الغربيين المقيمين هناك ، وفى الوقت نفسه اخترقت قبائل الجالا الاثيوبية ، ومنذ سنة ١٩٢٠ نجد انها نمت نموا كبيرا فى غرب افريقيا ، وأصبح لها منذ سنة ١٩٥٠ شعبية خاصة فى وسط السودان . وفى شمال نيجيريا أصبح هناك تنافس بين اتباعها وأتباع الطريقة القادرية . أما أثر النهضة الادريسية فقد جاء من جزيرة العرب حيث عاش أحمد بن ادريس ووضع تعاليمه ، فامتد اثرها الى الصحراء الشرقية ، وشرق السودان ، والمنطقة الشمالية الشرقية ، خصوصا الصومال . وقد تحقق انتشار الطرق فى هذه الاماكن بفضل تلاميذ أحمد بن ادريس ، ومنهم على الاخص محمد بن على السنوسى (١٧٨٧ – ١٨٥٩) ومحمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ – ١٨٥٣) وابراهيم الرشيدى (المتوفى سنة ١٨٧٤) وقد أصبح لكل من هؤلاء التلاميذ طريقته الخاصة ، وقد أصبح للسنوسية نفوذ قوى على ليبيا ووحدتها الدينية ، ومنها انتشرت جنوبا الى تشاد . وتفرعت عن الرشيدية طريقة اخرى هى الصالحية (سنة ١٨٨٧) انتشرت فى الصومال . ومع ذلك ظل للطريقة القادرية نفوذ فى كثير من المناطق الافريقية ،

وعلى الرغم من أن الميرغنية قد أصبح لها نفوذ سياسى فى السودان الشرقى ، الا أن القادرية منتشرة فى الحقيقة فى افريقيا الاسلامية كلها . ان أثر الطرق الصوفية فى افريقيا ـ على حد تعبير ـ ترمنجهام كان قويا سواء على السطح أو فى الاعماق ، لقد استطاعت أن تدخل افرادا فى البعد العميق للاسلام ، الذى يتجاوز الفهم الفقهى الظاهرى الى الفهم الاخلاقى الروحى العميق له . لقد كانت هناك عناصر صوفية وراء حركات الجهاد كما هو الشأن فى حركة الحاج عمر فى غرب افريقيا ، وحركة محمد احمد المهدى فى السودان النيلى . ولم يكن الانتماء للطرق حائلا بين اتباعها وبين المشاركة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية كما هو ظاهر عند الافريقيين السود فى أخذهم بنظام الطرق .

وثمة موضوع آخر غير موضوع الطرق الصوفية يحظى باهتمام المؤلف فى هذا الفصل ، وأعنى به تاريخ حركات المهدية فى افريقيا ونوع الاعتقادات الكائنة وراءها ، وهو يركز على حركة المهدى فى السودان تركيزا خاصا . ثم يتعرض بعد ذلك لما يمكن أن يكون موجودا من أثر للفرق الاسلامية فى افريقيا ، فيتحدث عن الشيعة (ومنهم فى رأيه الاسماعيلية اتباع آغاخان) مبينا أنها لم تحظ فى افريقيا بانتشار ما . اما مذهب الخوارج ، وهو فى الطرف المضاد للشيعة من ناحية العقائد فأثره ضعيف فى زنزبار التي يوجد فيها بعض الاباضية من الخوارج ، ويشير الى فرقة جديدة هي فرقة القاديانية التى أسسها ميرزا غلام أحمد المتوفى سنة ١٩٠٨ ، ويتعرض لتاريخ دخولها الى افريقيا الغربية سنة ١٩٢١ ، والى شرق افريقيا سنة ١٩٣٤ ، ولكن مسلمي افريقيا وقفوا فى وجهها باعتبارها فرقة منحرفة تختلف عقائدها عن عقائد الاسلام ، وقد أثار القاديانيون خلافا وجدلا شديدا حول الترجمات التى قاموا بها للقرآن باللغات الافريقية ، ولهذا فهي لم تحظ بانتشار يذكر .

وبالجملة فان المذهب الذى ساد افريقيا عقائديا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ولم يكن لمذاهب الفرق الاسلامية الاخرى من أثر يذكر على الاسلام فى افريقيا قديما وحديثا .

(٥) ويبين ترمنجهام بعد هذا فى الفصل الرابع من الكتاب أثر الاسلام على الحياة الاجتماعية ، ويحدد الطريق الذى أمكن بواسطته تغيير المجتمعات الافريقية . ان مجتمعات افريقيا بطبيعتها مجتمعات اقليمية ، ولكنها بعد اعتناق الاسلام ، وهو دين ذو صبغة عالمية ، استطاعت أن تخلق موقفا جديدا ونظرة جديدة الى الحياة والمجتمع والعلاقات الاجتماعية فى نطاق عالمية الاسلام (Islamic Univer.alism) . ولكن ماذا كانت وسائل تحقيق ذلك ؟ انها عبادات الاسلام وطبيعة تكوين مجتمعه ونظمه . على أن التغير الاجتماعي قد اختلف مساره عند الافريقيين السود عن مساره عند الافريقيين الحاميين ، وكلما كان التغير الاجتماعى يسير جنبا الى جنب مع التعريب (Arabization) فانه لم يكن يلقى مقاومة كما كان الشأن فى المغرب والسودان النيلي ، حيث ساد نظام المجتمع الاسلامى العربي والعادات العربية ، على أن بعض القبائل احتفظت بصور مجتمعها الخاص وعاداته ، منهم بدو قبائل البجة فى منطقة جبال البحر الاحمر ، ومنهم النوبيون الجنوبيون ، والبربر فى جبال مراكش ، وبدو الحاميين فى الشمال الشرقى مثل عفّار والصوماليين .

وكان النموذج الاسلامى الاجتماعى (The Islamic Social pattern) متمثلا فى المدينة، ففي المدن كان الاسلام يحقق غرس صوره الاجتماعية بشكل اظهر كما هو واضح فى مدن

غرب ووسط السودان مثـل تمبكتو ، وجن ، وسوكوتو ، ومايدوجورى ، فهي مدن لا تختلف عن مدن افريقيا المعربة ، كأم درمان عند التقاء النيلين ، أو فاس أو مراكش أو القيروان ، ولكن ثنائية المجتمع تصبح ظاهرة لو تحركنا خـارج المدن السودانية المذكورة الى القرى المجـاورة لمزارعي سونجهاى ، بوظو ، هوسا ، أوكانورى ، ولكن من ناحية أخرى فان قرى النيل السودانى لا تختلف عن أم درمان فى مجتمعها .

ويتتبع ترمنجهام أثر التغـير الاجتماعـى فى مجال الاسرة ونظام الزواج ، ومدى أثر الاسـلام فى نظـام الاسرة الافريقيـة المنتسبة الـى الام (Matrilineal) ، وأثره على طبقات المجتمع، ونظام المدينة والتجارة والاقتصاد ، والمحرمات (Taboo) ، والدولة والنظام التشريعى ، مبينا مستويات هذا الاثر على اختلافها .

ومن النقاط الهامة التي تعرض لها دور العرب واللغة العربية فى المجتمع الافريقي ، وفى رأيه ان انتشار الاسلام جنبا الى جنب مع اللغة العربيـة كان أفعل تأثيرا فى المجتمعات ، ففهم الاسلام عن مصادره الاولى العربية شيء هام بالنسبة للتغيير، لقد أثرت اللغة العربية فى اللغات الافريقية بالالفاظ اللغوية ذات المعاني المجردة. على أن تأثير العلمانية الغربية قد امتد الى مجال اللغة العربية ، وأوجد عند الافريقيين رغبة فى كتابة لغاتهم بالحـروف اللاتينية ، التى يرى المؤلف ــ ونحن نختلف معه فى رأيه ــ أنها أكثر ملاءمة للكتابة من الحـروف العربية بالنسبة للغات الافريقية ، وعلى الجملة فان دور العرب فى افريقيا من الاتساع بحيث لا يمكن توفية الكلام عنه فى هذا الكتاب كما يقـول المؤلف .

(٦) ونأتى بعد هذا كله مع المؤلف الى الفصل الخامس والاخير من كتابه ، وهو فى رأينا أهـم فصول الكتاب ، بل ان القارىء له ليشعـر أن جميع الفصول السابقة عليه هي بمثابة التمهيد له . ان موضوع هذا الفصل هو حاضر افريقيا الاسلامية ، وعنوانه « الافريقي المسلم فى عصر من عصور التغير » . ويعنـى ترمنجهـام بعصر التغير الفترة الزمنية التي تمتد من الاستعمـار الاوروبي فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر الى العصر الحاضر . وهي الفترة التى استهدف الافريقيون فيها ويستهدفون لضغوط قوى جديدة اما دينية متمثلة فى المسيحية ، أو علمانية متمثلة فى الفكر الغربي ، ونظم الحكم والحياة السياسية والاجتماعية . هذه القوى الجديدة تعتبر ظاهرة مضادة فى التغير ، ويجب وضعها فى الحسبان حين ندرس تغير المجتمعات الاسلامية الافريقيـة المعاصرة ، فهي حاليا فى فترة تغير ديناميكية . ومهما تكن التبريرات التى يبرر بهـا ترمنجهام انتشار الاسلام بشكل موسع فى عهد الاسـتعمار فاننا نرى أن هذا الانتشار كان ولا يزال ــ فى المحل الاول ــ بمثابة رد فعل مضاد للتحدى الغربـي الدينى والحضارى . لقد حاول الاستعمار بشتى الوسائل اضعاف الاسلام والحد من انتشـاره ، ولكنه لم ينجح فى ذلك . ان الاستعمار ــ باعتراف ترمنجهام نفسه ــ كان يعمد الى عزل المناطـق الاسلامية عن غيرها فى بعض الاحيان ، ويكفـي أن نذكر مثلا واحدا ذكره ترمنجهام هو عـزل الاستعمار الانجليزى جنوب السودان عن شماله (فى الفترة من ١٨٩٨ ــ ١٩٥٦) بحجة تـرك الجنوب ليتطور فى خطوطه الخاصة ! وقد أدى هذا الى عـدم انتشار الاسـلام وحضارته بـين مجتمعات الوثنيين فى الجنوب (ص ١٠٥) لقـد حمى الاسـلام ــ على حـد تعبـير ترمنجهام ــ المسلمين من تأثير المدنية العلمانية التى اعتبرها الافريقيون مسيحية ! (ص ١٠٧) ، ومن ناحية أخرى اتخذ المستعمرون سياسة عزل الاسلام عن واقع المجتمع ، فيقول ترمنجهام ما نصه :

« وأكثر من هذا ، فانه كان من سياسة الحكومات الاستعمارية ابقاء المسلمين فى عزلة . فكان رد فعلهم (رد فعل المسلمين) الانسحاب كدفاع عن الذات » (ص ١٠٧) ، ولنا أن نتساءل : هل انسحب المسلمون من الميدان فعلا ؟ الاجابة على هذا السؤال هي بالنفي ، والا فكيف نفسر انتشار الاسلام ابان حكم الاستعمار مع حرص المستعمرين على عزله بعيدا عن المجتمع ؟ بل كيف نفسر انتشاره فى العصر الحاضر ــ كما يذكر ترمنجهام نفسه ــ فى غينيا وسيراليون ومالي وأجزاء من نيجيريا وشمال الكاميرون وشرق افريقيا (ص ١٠٦) ؟ . ان هذه المسألة كانت تحتاج من ترمنجهام نظرة أكثر موضوعية ، فانتشار الاسلام فى أى مكان وفى أى عصر قد يفسر بأسباب أخرى من بينها وضوح مبادئه وقابلية العقل الانسانى للاقتناع بها .

ويرى ترمنجهام وجود ثلاثة أنواع من الحضارات فى افريقيا الآن : فهناك المناطق الحامية التى رسخ الاسلام فيها ، والحزام الافريقى ، وخط رفيع على الساحل الشرقى ؛ والاسلام فيها هو اسلام العصر الوسيط بطابعه الشرعى ، وهو يحكم نظرتها للامور ، وان كان في هذه المناطق مشاركة في الحضارة الاوروبية بدرجات متفاوته ؛ وهناك مناطق أخرى دخل اليها الاسلام في المائة السنة الاخيرة مع التأثيرات الغربية المصاحبة للاستعمار ، ومسلمو هذه المناطق متأثرون بالعلمانية بدرجات متفاوتة ، والاسلام فيها لا يمتد الى جميع مظاهر الحياة ، وهناك بعد هذا وذاك مناطق في أساسها الوثنية مع وجود نفوذ مسيحى وعلمانى ، والاسلام فيها ضعيف . فهناك بحسب هذه المناطق اذن ثلاث حضارات : الحضارة الاسلامية الافريقية ، والحضارة المحلية الافريقية ، والحضارة الغربية العلمانية ، التى قد يتشابك بعضها مع البعض الآخر في مجتمع واحد بدرجات متفاوتة (ص ١١١) . أما في العالم العربى فلا يوجد فيه الا حضارتان هما الاسلامية والغربية العلمانية .

ويعطينا ترمنجهام صورة أخرى لاثر حضارة الغرب بالنسبة لنظم الحكم المعاصرة فى افريقيا فمعظم الدول الافريقية قد استقل في الفترة من ١٩٥٦ ــ ١٩٦٢ ، ولكنها اتجهت فى نظام الحكم الى الاخذ بفكرة القومية العلمانية Secular Nationalism لقد وقف رجال الدين موقفا سلبيا تجاه هذا التحول . على انه حيث توجد أغلبية مسلمة يكون ثمة نفوذ للاسلام كما هو الحال في موريتانيا والسنغال ونيجيريا الشمالية والنيجر والسودان والساحل الشرقي (الصومال) ولكنه فى غير هذه المناطق معدوم الاثر . اما الشمال الافريقي فهو متجه بأمانيه الى الشرق الاوسط وليس الى افريقيا . ويظهرنا ترمنجهام على أمر بالغ الاهمية ، وهو أن الحكام الجدد فى الدول الافريقية الآن قد ورثوا عن الاستعمار غالبا عدم الاكتراث بالاديان التي تمارسها شعوبهم ، وهم يتطلعون الى السلطة الكاملة ، ويرتابون فى كل قوة أخرى كالاسلام أو المسيحية يمكن أن تواجههم ، وهم لهذا يضعون القيود على نشاط المنظمات الدينية ، ويحلونها اذا اقتضى الامر ، ولا يظهرون احتراما للقادة الدينيين ، وبالجملة فهم يرون أن قوتهم تستمد من القومية ، ولكنهم فى نفس الوقت حذرون تجاه الدين الذى يمثل في رأيهم قوة تنتمى الى الماضي الذى لا رجعة له ، ويرغبون في عزله عن السياسة تماما (ص ١١٤) وهناك الى جانب هذا شيوع علمانية التعليم ، وتناقص عدد مدارس تعليم القرآن بالتدريج ، وضعف الطرق الصوفية ، والنقطة الهامة في نظر ترمنجهام أن الاسلام لا يقوى على صرخة يستجمع بها قواه ! (ص ١١٥) ، وبالجملة فان الصورة التي يرسمها ترمنجهام للاسلام هي صورة قاتمة للغاية لعلك

تتبينها من قوله : « ان الاسلام يفقد قيمه السابقة واعتباره كمدنية ، ويبدو انه يقود الى غير مكان ! ان الاسلام بالنسبة للرجال الجدد بما فيهم المسلمون ، اصبح شيئا مرتبطا بكل الامور التي تقيد وتؤخر ، ومن بينها التعليم التقليدى واللغة العربية وطريقة كتابتها فى افريقيا غير الناطقة بالعربية ، وفي نفس الوقت يتباطأ انتشاره ، ويضمحل نفوذه . ان هذه التغيرات مرتبطة بالجو العام المتغير في افريقيا ! » (ص ١٠٦) .

ويقرر ترمنجهام فى ختام كتابه وجود اسلام افريقي جديد (Neo-African Islam) فى بعض اماكن افريقيا ، يمثله أفراد اعتنقت مجتمعاتهم الاسلام خلال المائة عام الاخيرة في نفس الوقت مع دخول الاستعمار بمايحمله من حضارة مسيحية وعلمانية اليها ، وقد تأثروا في نظرتهم العامة بهذه الحضارة الجديدة ، وقد أوجد أولئك الافراد ، ومنهم اناس عاديون وفلاحون وسكان مدن ، نظرة عامة مكونة من عناصر اسلامية وأخرى غربية ، وتوجد هذه النظرة العامة بين ولوف في السنغال ويوروبا فى غرب نيجيريا ، كما توجد فى غينيا وسيراليون وأماكن أخرى من المناطق الفرنسية السابقة . ان الذين اعتنقوا هذه النظرة لم يعتنقوا النظرة المحافظة للمسلمين التقليديين بسبب موقفهم المتأثر بالحضارات الثلاث الموجودة الآن في افريقيا ورغبتهم فى الملاءمة بينها .

٧ ــ تلك هي أهم النتائج التي توصل اليها ترمنجهام في كتابه عن أثر الاسلام على افريقيا ، وهي في الحقيقة ثمرة دراسات علمية عميقة متأنية أنفق فيها سنوات طويلة من عمره ، وتدل على علميه فى التفكير ، واتخاذ منهج دقيق فى التحليل والموازنة والتركيب . ومن الواضح من خلال هذا الكتاب أن المؤلف قد تهيأت له ثقافة عميقة ذات مكونات متعددة ، فهو حين يعالج موضوع الاسلام في افريقيا نجده يستفيد الى أبعد مدى من معرفته بعلوم شتى كالتاريخ والحضارة والفلسفة والاجتماع والانثربولوجيا والاتنولوجيا وغيرها في تفسير التطور الحضارى له ، ومدى الاثر الذى تركه على شعوبه الافريقية . وليس من شك في اننا في العالمين العربي والاسلامي في اشد الحاجة الى مثل هذه الدراسات الجادة من الناحية الاكاديمية ، والصريحة في نفس الوقت في اطلاع المسلمين على أخطائهم وواقعهم المؤلم ، فهي تفتح أمامهم آفاقا جديدة لفهم ما يجرى في مجتمعاتهم المعاصرة فهما علميا بما تقدمه اليهم من قوانين التغير الاجتماعي التي تحكم تطور المجتمعات ، وتدفعهم الى اعادة النظر فى أوضاعهم وتطويرها نحو ما هو افضل . ونحن نأمل ان تتجه الجامعات العربية والاسلامية الى التوسع في دراسة المجتمعات الاسلامية المعاصرة على هذا النحو العلمي المتكامل ، ولا تكتفي بالتركيز على دراسات التراث الاسلامي في مجالاته الفلسفية والتاريخية والحضارية والتشريعية ، ولا بد في رأينا من أن يرتبط التراث بقضايا العصر .

ومع ذلك نحن نختلف مع ترمنجهام حول عديد من النتائج والقضايا والافكار التي يوردها في كتابه نكتفي هنا بأن نتحدث عن أهمها :

فمن ذلك تصوره لوضع المراة في المجتمع الاسلامي حيث يقول : « ومن الاصوب أن يقال ان الرجال داخلون في الاسلام بشكل اعمق على حين أن مشاركة النساء فيه هامشية ، لأن الاسلام يهيىء للنساء مجالا ضئيلا للقيام بالشعائر » (ص ٤٦ ــ ٤٧) . وهذا غير صحيح لأن الاسلام يساوى بين الرجل والمراة في التكليف الشرعي[١]

---

١ ــ قارن : آل عمران : ١٩٠ ــ ١٩٥ ، ويقول الرسول (ص) : « النساء شقائق الرجال » .

فهي مكلفة بجميع العقائد والعبادات والمعاملات والاخلاق . وللمرأة ـ كما هو معلوم من الاسلام ـ أن تحضر للصلاة في المسجد ، وكانت تخرج مع المسلمين في الغزوات على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد تفضل المرأة الرجل في مجال التقوى والعبادة والعلم . يقول ابن حزم مبينا مساواة المرأة للرجل في التكليف الشرعي : « ان الخطاب من الله تعالى عموم للرجال والنساء ، لا يجوز أن يخص به الرجال دون النساء ، فيكون من فعل ذلك مفتريا على الله . وبيقين يدرى كل مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الى النساء كما بعث الى الرجال (١) » . ويرى بعض علماء اصول الفقه أن قول الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضي الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » (الاحزاب : ٣٦) دليل على أن المرأة والرجل سواء بالنسبة للاحكام الشرعية واعتقاد وجوب المأمور به او ندبه ، وفعله على ما هو عليه ، ان كان واجبا فواجب ، وان كان ندبا فندب (٢) . لقد ساوى الاسلام بين المرأة والرجل في العمل بالأحكام الدينية والجزاء عليها ، وأعطاها الى جانب ذلك جميع حقوقها الانسانية ، وانصراف بعض المسلمين في افريقيا أو في غيرها عن العمل بأحكام الاسلام في هذا الصدد لا ينهض دليلا على الاسلام ذاته ، بعبارة أخرى لا يجوز أن تؤخذ مبادىء الاسلام او تفهم على ضوء واقع المسلمين لوجود التفاوت بينهما الآن .

ومن ذلك أيضا ما يتعلق بكلام لترمنجهام عن الطرق الصوفية فى افريقيا : فهو يرى عند كلامه عن المغرب باعتباره منطقة من مناطق الحضارة الاسلامية السبع ، أن انتشار الطرق الصوفية فيه منذ القرن الخامس عشر الميلادى بصورة شعبية هو الذى أعطى الاسلام المغربي طابعا خاصا مميزا (ص ٨) . ونحن نختلف معه فى هذا التخصيص ، لان انتشار الطرق الصوفية انتشارا شعبيا لم يكن خاصية انفرد بها المغرب وحده ، بل كان نظام الطرق موجودا فى مصر ايضا ، وله أثره العميق فى الحياة الدينية فيها منذ القرن الثالث عشر الميلادى وما بعده . بل ان الحركة الصوفية كانت نشيطة جدا فى أقطار أخرى اسلامية غير المغرب ومصر ، ففي العراق مثلا ظهر قطبان صوفيان كبيران من أصحاب الطرق هما عبد القادر الجيلاني مؤسس القادرية ، وأحمد الرفاعي مؤسس الرفاعية . وكانت هناك هجرات صوفية ـ اذا صح هذا التعبير ـ تأتي الى مصر من المغرب كهجرة الشاذلي واتباعه الى مصر (٣) ، وكان لمدرستهم الصوفية فيها أثر لا يقل عن أثرها فى المغرب ان لم يكن أزيد . هذا كله فضلا عن الاثر العميق الذى تركه أقطاب آخرون كأحمد البدوى وابراهيم الدسوقي فى مصر (وهما معاصران للشاذلي تقريبا) مما لا يزال موجودا الى اليوم فى المجتمع المصرى . ولا يخفى على ترمنجهام أيضا أن التصوف ابان حكم العثمانيين لمصر منذ القرن السادس عشر قد انتشر فيها انتشارا شعبيا واسعا بحيث يمكن القول بأنه كان طابعا عاما للحياة المصرية ، بل ان الازهر وهو المركز العلمي الاسلامي الاكبر كان مطبوعا فى ذلك العصر بالطابع الصوفى وكان يفد اليه الكثيرون من أبناء افريقيا ، فيتأثرون بما كان سائدا فيه من العلوم بما فيها علم التصوف ، وكان كثير من شيوخه الكبار يعدون فى نفس

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، القاهرة ١٣٢١ ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

(٢) الآمدى : الاحكام فى أصول الاحكام ، القاهرة ١٩١٤ = ١٣٣٢ هـ ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .

(٣) انظر كتابنا : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٥٥ ـ ٥٦ .

الوقت من أقطاب التصوف كالدردير والحفنى والشرقاوى وغيرهم . (١) فلا يصح اذن أن نغفل ما يمكن أن يسمى «ترابط الحركة الصوفية» فى عالم اسلامي موحد ، والمؤلف نفسه يشير الى بعض مظاهرها فى افريقيا . فقد كانت الطرق الصوفية فى حركة مستمرة تنتقل أحيانا من المغرب الى المشرق ، كالطريقة الشاذلية ، التي استقرت فى مصر ومنها وجدت طريقا الى الشام والجزيرة العربية بل والى الملايو ، وأحيانا أخرى كانت تنتقل من المشرق الى المغرب ، كالطريقة القادرية التي نشأت بالعراق ثم سرعان ما امتد انتشارها الى الشمال الافريقي ومنه عبرت الصحراء الى مناطق عديدة فى افريقيا أشار اليها المؤلف ، فكان دورها فى افريقيا أكبر بكثير من دورها فى الشرق العربي . يضاف الى ذلك أن طرقا صوفية عديدة جاءت من الجزيرة العربية الى افريقيا ،وكان لها فيها أثر أعمق بكثير من أثرها فى المناطق التي نشأت فيها كالطريقة السمانية (المنسوبة الى محمد السمان أحد شيوخ الخلوتية وهو مدفون فى المدينة المنورة) ، والطريقة الادريسية التي أسسها أحمد بن ادريس وتفرعت عنها الميرغنية فى السودان ، والسنوسية فى ليبيا. وهذا كله يدعونا الى القول بأن تقسيم ترمنجهام لمناطق الحضارة الاسلامية فى افريقيا ، يعد اعتباريا لا حقيقيا ، على الاقل بالنسبة لدور الحركات الصوفية فى افريقيا .

وثمة نقطة أخرى يغفلها المؤلف وهي الاثر المتبادل بين الطرق الصوفية فى مصر والسودان ففي العصر الحاضر مثلا نجد طرقا صوفية مصرية لها فروع فى السودان كالاحمدية والبرهامية ، ونجد فى نفس الوقت طرقا سودانية لها فروع فى مصر كالادريسية والميرغنية . وهذه نقطة تحتاج الى مزيد من البحث العلمي ولم يكتب عنها — فيما نعلم — شيء الى الآن .

وهناك بعد ذلك موضوع آخر نحب أن نناقشه مع ترمنجهام وهو مدى أثر الحضارة الاوروبية العلمانية على الحضارة الاسلامية فى افريقيا ، وقد لاحظنا انه يضخم هذا الاثر الى الحد الذى يجعله يقول « انها (أى النظرة الغربية العلمانية) أقوى من الاسلام على التغيير » (ص ١٠٩) . وهو يفرق بين نوعين من الاسلام فى افريقيا اسلام تقليدى (Traditional) واسلام معاصر (Sacular) وهو يستخدم مصطلحين مختلفين كل واحد منهما له مضمونه الخاص فى هذا الصدد . فهناك العلمانية (Secularism) والعلمنة (Secularization) وهو يميل الى القول بأن ما يجرى فى افريقيا الآن هو علمنة وليس علمانية ، لأن العلمانية ايديولوجية او موقف تجاه الحياة يرفض القيم الروحية والنظرة الدينية تماما . أما العلمنة فهي التغير الذى يسير من حضارة دينية الى حضارة معلمنة كل مجالات الحياة فيها يستقل بعضها عن البعض الآخر ، والعلمنة فى رأيه أمر لا يمكن تجنبه هنا وهناك فى العالم . انها تحدد وتضيق المجالات التي يستوعب فيها الاسلام حياة معتنقية ، فنظرتها تختلف عن نظرة المسلم التقليدى ، فبالنسبة لهذا المسلم كل ما هو روحي لا يمكن فصله عن وجوه الحياة الأخرى . ان العلمنة تشطر الحياة الى أجزاء ، ويصبح الاسلام معها عاملا واحدا بين عوامل متعددة فى المجتمع . والعلمنة فى رأى ترمنجهام لا تؤدى بالضرورة الى العلمانية ، وكل ما فى الامر انها تفتح الطريق أمام موقف معلمن تجاه الحياة .ونحن نجد فى افريقيا أولئك الذين يكون الاسلام بالنسبة لهم قوة روحية واخلاقية

---

(١) انظر فى تفصيل هذا بحثا لنا عنوانه : الطرق الصوفية فى مصر ، نشر بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٦٣ ، (ظهرت المجلة فى ١٩٦٨) .

ولكن لا علاقة لها بالحياة ، مع احتفاظهم بالولاء للاسلام باعتباره الوسط الحضارى الذى ينتمون اليه. وشأن الحضارة الاسلامية فى ذلك شأن الحضارة الغربية ايضا فهما قد فصلتا بالتدريج عن جذورهما الدينية . ان مستقبل الاسلام يتوقف على تلفيق صيغة جديدة للعلاقة بين الدين والحياة مختلفة عن اى شيء آخر عرف فى الماضي (ص ١٢٥) . ونحن لا نقر ترمنجهام على هذا الكلام خصوصا انه يعترف فى مواضع كثيرة من كتابه بتكامل الاسلام . ان الاسلام التقليدى فى رأينا هو الاسلام الكامل ، اما الاسلام المعلمن (الجديد) الذى ينحصر فى نطاق بعض العقائد الضعيفة والممارسة الشكلية لعبادات الدين ، فهو اسلام ناقص لا فائدة منه ، وقد يخرج معتنقيه عن الاسلام بالمرة ، فكل نواحي النشاط الاجتماعي أو الحضارى أو المدني أو السياسي فى المجتمع الاسلامي هي من الاسلام بدليل قول ترمنجهام نفسه : « حينما تواجه الاسلام كحضارة فان أى تغير (مهما كان مجاله) هو ديني » (ص ١٢١ ـ ١٢٢) .

فالاخذ ببعض جوانب الاسلام دون البعض الاخر ـ من وجهة النظر الاسلامية ـ لا يجوز بل لا يمكن.

ويعجبنى وضع ترمنجهام للمشكلة التى يواجهها الاسلام فى العصر الحاضر قائلا ان المشكلة التى يواجهها المسلمون هى : كيف يمكنهم الاحتفاظ بقيمهم المستمدة من تراثهم وايجاد التكامل بينها وبين القيم الجديدة ص (١٢١) فاذا نجح المسلمون فى هذا الميدان وضعوا حدا للصراع القائم . وفى رأينا أن الصعوبات التي يواجهها الاسلام الان فى افريقيا بل وفى اى مكان اخر هى صعوبات مرحلية والاسلام بطبيعته دين صراع ، دخل منذ يومه الاول فى صراعات عقائدية وخرج منها ظافرا ، وكانت الاخطار العقائدية محدقة به من كل جانب فى العصر العباسى ولكنه تغلب عليها وتجاوزها ، وكذلك كان شأنه فى جميع العصور التالية ، وكان دائما يؤكد اصالته وقدرته على البقاء والتغيير فى المجتمع . لقد ظن خصوم الاسلام انه اذا لم تهزم الاسلام القوى العسكرية فلتهزمه المبادىء والافكار المضادة له ! ان العصر الذى نعيش فيه هو عصر الصراع الايديولوجى العنيف الذى لم يشهد له تاريخ الانسانية مثيلا ، ونجاح الاسلام فى هذا الصراع ليس فى ايجاد صيغة جديدة للربط بين الدين والحياة كما يقول ترمنجهام ، بل فى قدرته على احتواء ايديولوجيات العصر المتحدية له ، وهو قادر على ذلك لو كان المسلمون فى العصر الحاضر على قدر كبير من الوعى بما يدور حولهم ويراد بهم وليس هذا هو موقف الاسلام وحده فى عصر سادت فيه الفلسفات المادية وشاع الانحلال الخلقى فى كثير من مجتمعاته ، بل هو موقف الاديان جميعا .

ونعود مرة اخرى الى موضوع العلمانية فنقول انها تتعارض مع الاسلام وان اتفقت مع المسيحية (الى حد ما) على اعتبار ان المسيحية لم تكن فى اصولها الاولى تشتمل على انظمة سياسية للدولة وانما كانت دينا ينظم علاقة الفرد بربه ، ويقوم على اساس مبادىء اخلاقية معروفة كالمحبة والرحمة والتسامح وما الى ذلك . اما ما يوجد الان فى العالم المسيحي من نظم للحكم ، او نظم اجتماعية اخرى ، فهو وضعى ، فالعلمانية حين تفصل الدين عن الدولة لا تشكل خطرا على المسيحية . ولا كذلك الاسلام فان اصوله المنزلة (القرآن والسنة) تضمنت قواعد تشريعية متعلقة بأصول الحكم والاقتصاد والحرب والعلاقات الدولية وما الى ذلك. والاسلام يستند الى سلطة الدولة اساسا ، فاذا عزلته الدولة عن الواقع الاجتماعى ، ضعف شأنه واصبح مهددا بالزوال . ان مفهوم كلمة « دين » فى الغرب غير مفهومها فى الاسلام والخلط بينهما غير جائز .

ولا يصح ان يقال ـ من وجهة النظر الاسلامية البحته ـ دولة دينية ودولة علمانية ، بل يقال : دولة اسلامية ، لان الدولة فى الاسلام تجمع بين ما هو دينى وما هو زمنى او مدنى . وثمة ملاحظة جديرة هنا بالاعتبار وهى ان مايصلح فى مجتمعات الغرب لا يكون صالحا بالضرورة لمجتمعات العالم العربى او الاسلامى ، فالمجتمع الاوروبى ليس نموذجا لكل مجتمع بشرى ، والانسان الاوروبى ليس بالضرورة مثالا لكل انسان ، وقد تتجاوز البشرية حضارة الغرب الى نوع آخر من الحضارة .

بقيت ملاحظة اخيرة وهى ان ترمنجهام ركز على أثر الحضارة الغربية وحدها فى افريقيا ، ولم يتعرض لاثر ايديولوجيات اخرى ذات طابع مختلف فى السنوات القليلة الماضية على المجتمعات الافريقية . فقد اخذت كثير من الدول الافريقية بالنظام الاشتراكى ، وتشهد افريقيا الان تحولات اشتراكية ذات دلالة هامه . فما هو موقف الاسلام من مثل هذه التحولات ؟ هذا مما لم يحاول المؤلف ان يذكره او يجيب عليه . كذلك لم يتعرض المؤلف للتكتل الافريقى الذى تمثله منظمة الوحدة الافريقيه التى اعلن ميثاقها سنة ١٩٦٣ ، وماذا يمكن ان يكون له من الاثر .

وبعد : فانه مع هذه الملاحظات التى مرت بك عن كتاب ترمنجهام ، فان هذا الكتاب يظل فى رأينا من ادق وامتع ما كتب عن الاسلام فى افريقيا . وهو جدير بأن ينقل الى اللغة العربية ، فهو يحتوى على حقائق علمية عن تاريخ الاسلام وواقعه المعاصر فى افريقيا ، ويجب على كل مثقف عربى او مسلم ان يقف عليها ويعى دلالاتها .

الدكتور

ابو الوفا التفتازانى

* * *

من الكتب الجديدة

كتب وصلت لادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

Chorley, R. J. ; (ed) : **Water, Earth and Man : A Synthesis of Hydrology, Geomorphology and Socio-Economic Geography,** Methuen, London 1969.

Crowther, J. G. ; **Scientific Types,** The Cresset Press, London 1968.

Devons, S. (ed) : **Biology and the Physical Sciences,** Columbia U.P., N.Y. 1969.

Ebling, F. J. ; (ed) : **Biology and Ethics,** Academic Press, London, 1969.

Fisher, P. & Bender, A. ; **The Value of Food,** Oxford U.P., London 1970.

Foulkes, S. H. & Prince, G. S. (ed) : **Psychiatry in a Changing Society,** Tavistock, London 1969.

Gittings, J. ; **Survey of the Sino-Soviet Dispnte,** Oxford U.P. ; London 1968.

Goffman, E. ; **The Presentation of Self in Everyday Life ;** Allen Lane, The Penguin Press, London 1969.

Harre, R. ; (ed) : **Scientific Thouȹht** 1900-1960, **Clarendon Press, Oxford** 1969.

Hayter, A. ; **Opium and the Roma tic Imagination.,** Faber and Faber, London 1968.

Kermode, F. ; **Continuities ;** Routledge & Kegan Paul, London 1968.

Nakayama, S. ; **A History of Japanese Astronomy : Chinese Background and Western Impact,** Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1969.

O'Neil, W. M. ; Fact and Theory : **An Aspect of the Philosophy of Science,** Sydney U.P. ; 1969.

Rescher, N. ; (ed) : **Studies in the Philosophy of Science,** Blackwell, Oxford 1969.

* * *

فى الاعداد التالية من المجلة :

العدد الثانى ــ المجلد الاول

يوليو ــ اغسطس ــ سبتمبر ١٩٧٠

قسم خاص عن عالمنا المتغير

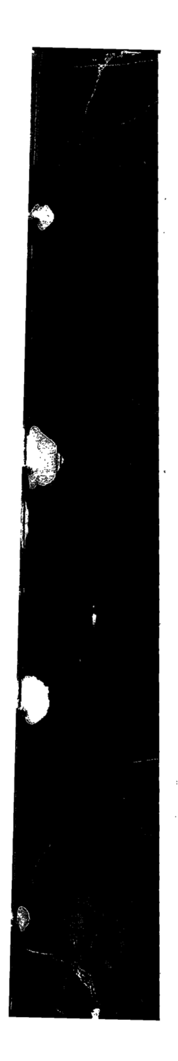
الالكترونيات ــ وتقارب الثقافات	للدكتور محمود رياض
خصائص حضارة العصر	للدكتور نور الدين حاطوم
العقول الالكترونية	للدكتور صلاح طلبة
مستقبل التغذية فى العالم	للدكتور حسن طه نجم
التربية فى عالمنا المتغير	للدكتور محمد ناصر
البنائية والوجودية	ديفيد ميكائيل ليفين

غير الابواب الثابتة

العدد الثالث ــ المجلد الاول

اكتوبر ــ نوفمبر ــ ديسمبر

الانسان والكون



الخليج العربي	٤ ريالات	سوريا	٢٠٠٠ قرش
السعودية	٤ ريالات	ج • ع • م	٢٠ قرشا
البحرين	٢٠٠ فلس	السودان	٢٠ قرشا
اليمن	٧ شلنات	ليبيا	٣٠ قرشا
العراق	٢٥٠ فلسا	تونس	٤٠٠ مليم
لبنان	٢٠٠ قرش	الجزائر	٤٠٠ مليم
الاردن	٢٠٠ فلس	المغرب	٤ دراهم

مطبعة حكومة الكويت



المجلد الأول - العدد الثاني - يوليه - اغسطس - سبتمبر ١٩٧٠

عالمنا المتغير

- العقول الالكترونية
- مستقبل التغذية
- التربية والتعليم
- الالكترونيات وتقارب الثقافات
- الفكر والحضارة



رئيس التحرير : أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير : دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الارشاد والانباء فى الكويت ● يوليو – اغسطس – سبتمبر ١٩٧٠
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية ● وزارة الارشاد والانباء – الكويت ص . ب ١٩٣

المحتويات

عالمنا المتغير

تمهيد ... بقلم مستشار التحرير ... ٣

الفكر والحضارة :

(١) الثورة الفكرية المعاصرة فى الغرب ... دكتور عبد الرحمن بدوى ... ١١
(٢) خصائص حضارة العصر ... دكتور نور الدين حاطوم ... ٢٣
الالكترونيات وتقارب الثقافات ... دكتور محمود رياض ... ٣٧
العقول الالكترونية ... دكتور صلاح الدين طلبة ... ٥١
مستقبل التغذية فى العالم ... دكتور حسن طه النجم ... ٩٣
التربية فى عالمنا المتغير ... دكتور محمد ناصر ... ١٣١

★ ★ ★

آفاق المعرفة

دكتور على حافظ ... العقل الافريقى ... ١٥٥
شاكر مصطفى ... الأدب المهجرى الآخر ... ٢٠٣
على ادهم ... الفوضوية ... ٢١٩

★ ★ ★

تجارب وخبرات

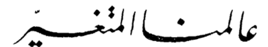
دكتورة سميرة الزيادى ... تجاربى مع الحشرات ... ٢٤١

★ ★ ★

عرض الكتب

نظرة الى قلبى ... ٢٥٩
لا فيدا او الحياة ... ٢٦٧
ازمة جنك ... ٢٧٥

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم





فى كتاب حديث بعنوان « العفريت فى الآلة The Ghost in the Machine (١) يقص الكاتب الشهير آرثر كيسلر Arthur Koestler قصة خرافية عن تاجر بأحد الأسواق الشرقية القديمة لم يكن يجيد الحساب مما كان يغرى به عملاءه ويشجعهم على غشه وخديعته ، وذلك على عكس المألوف فى الأسواق الشرقية حيث يتوقع من التاجر ان يغش عملاءه ويخدعهم . وضاق الرجل بحاله فابتهل الى الله أن ينعم عليه باحدى آلات العد البسيطة التى يستخدمها الأطفال فى أول عهدهم بتعلم الحساب والتي تتألف من بعض حبات الخرز المنظومة فى عدد من الأسلاك أو القضبان الحديدية الرفيعة للاستعانة بها فى عمليات الجمع . وحمل تلك الرغبة الى السماء عفريت خبيث ولكنه أرسلها الى غير القسم المختص . وفى صباح اليوم التالى ذهب التاجر ليفتح حانوته الصغير فاذا به أمام محل تجارى ضخم يتألف من عدد من الطوابق من البناء الحديدى ومزود بأحدث الأجهزة الحاسبة الالكترونية بما فيها آخر جهاز كمبيوتر أخرجته شركة آى . بي . ام I.B.M. . ودخل التاجر فى دوامة حسابية من نوع آخر . فقد حار أمام كل هذه الآلات والأجهزة الدقيقة المعقدة ، واخذ يعمل أصابعه فى مفاتيحها كيفما اتفق دون جدوى . وارتبكت أعماله التجارية اكثر من ذى قبل ، واستبد به الغضب فأخذ يضرب الجهاز بعنف بيديه ، ولكنه لاحظ أثناء ذلك أنه حين يدق على مفتاح معين بالذات عدة مرات يبرز له رقم يختلف باختلاف عدد الدقات . وشيئا فشيئا بدأ سر العدد البسيط يتكشف له ، واستطاع بذلك أن يستخدم ذلك «العقل» الالكتروني

---

(١) صدر عام ١٩٦٧ ويعتبر الحلقة الثالثة المكملة لكتابين سابقين عليه وقد احدثا ضجة حين ظهرا لاول مرة وهما كتاب The Sleepwalkers وكتاب The Act of Creation وفيهما يعالج كيسلر الكشف العلمي والالهام الفنى اللذين يتمثل فيهما مجد الانسان وعظمته – بينما ينتهى الكتاب الحالي « العفريت في الآلة » بالتعرض لمشكلة الدوافع الداخلية التى تدفع الانسان الى تدمير نفسه ، وهذا – فى نظر كيسلر – هو قدر الانسان ومصيره .

الحديث فى تسيير أمـوره البسيطة المتواضعة التي لم تكن تتعدى عمليات الجمع . ومرت آلاف السنين وتتابعت الأجيال وتوارث أبناؤه وأحفاده وأحفاد أحفاده ذلك الجهاز العجيب ، وأمكنهم خلال تلك الآلاف الطويلة من السنين أن يصلوا الى بعض العمليات الأكثر تقدما والتى لم تتعد ـ على اية حال ـ عمليات الضرب البسيطة. ولم يدرك التاجر او احفاده ان هذه الآلة التى قنعوا منها بتلك العمليات الحسابية الساذجة هي نفس الجهاز الذى يحسب بكل دقة دوران الأفلاك وحركة الأجرام لسنوات عديدة مقبلة ، كما أنه هو نفس الجهاز الذى يساعد الانسان الآن على غزو الفضاء وسوف يساعده على هتك الكثير من أسرار الكون.

وبصرف النظر عما قد تشير اليه القصة ـ وما قد نستخلصه منها لأنفسنا ـ من تخلف الشرق عن الغرب فى هذه الفنون والعلوم ـ وهو أمر لا جدال فيه ـ فان للقصة مغزى أبعد وأعمق من هذا بكثير . والمغزى الحقيقي الذى يهدف اليه كيسلر بلا ريب هو أن الانسان كان يحمل دائما ومنذ نشأته الاولى عقلا قادرا على التفكير وعلى الوصول الى أشد العمليات تعقدا وأكثرها دقة وعمقا ، ولكنه عاش مع ذلك آلاف السنين دون ان يدرك قيمة ذلك العقل الذى يحمله فلم يستخدمه بذلك الا فى أبسط الامور ، شأنه فى ذلك شأن التاجر الشرقي الساذج وذريته الذين لم يدركوا قيمة « العقل » الالكتروني . فلقد كان انسان كرومانيون Cro — Magnon الذى ظهر منذ حوالي خمسين الف الى مائة الف سنة مضت والذى انحدرت منه السلالات الأوروبية البيضاء الحديثة يحمل فى جمجمته مخا يقارب فى الحجم والشكل مخ الانسان الحديث أو الانسان العاقل Homo Sapiens ، ولكنه ظل مع ذلك يعيش فى الكهوف ولم يفلح فى أن يتعدى حدود حضارة العصر الحجرى Stone Age . وبعد عشرات الآلاف من السنين من التطور البطيء المضني استطاع الانسان ان يكتشف عقله بكل قدراته وطاقاته الهائلة . ولكنه ما ان توصل الى ذلك السر الذى ظل حبيسا لعشرات القرون حتى تغير كل شيء . فلقد تغيرت نظرة الانسان الى نفسه والى العالم الذى يحيط به والى العلاقة التي تربطه بذلك العالم . ولقد اتخذ من عقله وتفكيره وسيلة وأداة للكشف عن أسرار الكون وتغيير وجه الحضارة ووجه الحياة ذاتها .

وليس من شك فى أن المجتمع الانساني كان دائم التغير وأن الحياة الانسانية هي عملية تغير طويل مستمر . ولقد أغرم الكتاب ـ وبخاصة علماء الاجتماع والانثربولوجيا ـ بمحاولة رسم وتحديد المراحل التي مر بها الجنس البشرى منذ ظهوره ومنذ نشأة المجتمع الانساني حتى الآن ، وساد هذا الاتجاه بوجه خاص فى القرن التاسع عشر ، وظهرت بذلك نظريات عديدة ننظر اليها الآن بكثير من الاشفاق والحذر لعدم استنادها الى معلومات كافية ، وان كانت فى الوقت ذاته تستحق كل تقدير نظرا للظروف الصعبة القاسية التي كانت تحيط بالتفكير العلمي حينذاك . وعلى الرغم من تعدد واختلاف هذه النظريات فى كثير من التفاصيل فانها تجمع كلها على أن المجتمع كان فى معظم فترات تاريخه يتقدم ويتطور من حالة التخلف والوحشية الى حالة الحضارة الحديثة وما يرتبط بذلك من نضوج فى قوى الانسان العاقلة وتخلص تفكيره من أوهام الأساطير والخرافات والغيبيات والميتافيزيقا وتقدمه بالتالي نحو آفاق العلم الوضعي الذى لا تحده أية حدود. وهذا معناه أن التغيرات التي طرات على الجنس البشرى وعلى المجتمع الانساني فى عمومه لم تكن مجرد تغيرات فى التكوين الفيزيقي للانسان أو فى العادات أو المظاهر السلوكية أو حتى فى مظاهر

ســوف تسيطر عليه العلــوم البحتة والعلــوم الطبيعية بالذات ، وأن التغيرات الواسعة الهائلة والسريعة فى مجال العلوم لابد من أن تستتبع تغيرات هامة فى حياة الانسان ونظم المجتمع وبقية المعارف الانسانية الأخرى . وأرجو ألا يؤخــذ هذا القول على انه اجحاف بحق الانسانيات أو انه هجوم عليها وتشكيك فى أهميتها وضرورتها للانسان والمجتمع على السواء . انما لابد من أن ندرك مدى وطأة العلم الحديث والتفكير العلمي الدقيق على الانسانيات والعلوم الانسانية وأن نتوقع اشتداد هذه الوطأة . واننا نجد من الآن بعض الاتجاهات التى تدعو لاخضــاع الشــعر للسيبرانية Cybernatics التي تعتبر مــن أكثر مراحل استخدام الرياضيات تطوراً وتقدماً ، كما نجد كثيراً من المحاولات الجادة التي يقوم بها بعض العلمــاء – وليس الأدبــاء او المشــتغلين بالانسانية – للتعرف على العلاقــة بين العلــوم والانسانيات ومستقبل الانسانيات وشكلها تحت تأثير العلم الحديث ، على ما فعل مثلا سير پيتر مدور Sir Peter Medawer فى محاضرة شهيره له عــن « العلم والأدب » ، وكما عالــج المشكلة كذلك منذ سنين اللورد سنو P.C. Snow فى محاضرة شهيرة أيضا عما أسماه « الثقافتين The Two Cultures » ، وهي محاضرة القاها اصلا فى جامعة كمبردج وأثارت كثيرا من الجدل والمناقشة ثم تحولت الى كتاب لا يقل شهرة عن المحاضرة الأصلية (٤) .

ولقد حاول « سنو » أن يبين الانفصــال الخطير بين « الثقافة التقليدية » أو « الانسانية » كما يسميها و « الثقافة العلمية الحديثة » مما أدى الى استقطاب المجتمع الغربي فى مجموعتين متعارضتين تماماً لدرجة انه لم يعد ثمة أى حوار بينهما . ففي جانب يقف « المثقفون » ويعنى بهم جميع المتعلمين باستثناء « العلماء » والمهندسين الذين يؤلفون فئة متمايزة لها ثقافة مشــتركة تتمثل فى موقف موحَّد من العالم وفى استجابتهم لأحداثه بطريقة معينة وهي – فى رأى سنو – استجابة ذات طابع ايجابي ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للمثقفين الذين يتسم موقفهم بالسلبية وبالخلو من صفات « الثقافة العلمية » . فالثقافة التقليدية فى رأيه ليست فقط ثقافة « لا علمية » والا لكان الأمر يهون ، بل انها ايضا – وهذا هو الخطير فى الأمر – تقف موقفا عدائيا مــن العلم وهو موقف مؤسف بغير شك . ولم يتردد سنو فى أن يرى أن العلاج الوحيد لذلك ، وهو عــلاج يحمل فى طياته تضييق الهوة بين موقفى الانسان المتعارضين من الحياة كما ذكرنا ، هو فى تحويل الثقافة التقليدية الى ثقافة علمية ، ووسيلة ذلك هي التعليم بحيث يتعرض الدارسون فى كل فرع لتأثيرات الفرع الآخر ، ولكن – وهذا هو المهم حقاً – على أساس أن يصطبغ التعليم فى الوقت ذاته بصبغة علمية قوية ، ويُعطَى الطالب مزيداً من العناية والاهتمام للتدريب فى ميادين العلم(٥) . فالعصــر الحالي – الذى ســوف يمتــد الــى المستقبل – هو عصر العلم قبل كل شيء . ولقد وجدت هذه الدعوة صــدى قوياً فى كثير من الجامعات الحديثة بوجــه خاص بحيث ربطت هذه الجامعات نفسها بالصناعة والتكنولوجيا ، لدرجة انه منذ أسابيع قليلة فقط ظهر أن مجلس ادارة

---

(٤) ظهر الكتاب بعنوان : Snow, P.C., **The Two Cultures, and a Second Look,** New American Library, N.Y. 1964.

(٥) Nelson, W.R., "Science: A Means or an End ?" in Id (ed): **The Politics of Science,** Oxford University Press, N.Y. 1968, P. 478.

جامعة واروبك فى بريطانيا يتألف كله ـ باستثناء شخص واحد ـ من رجال الصناعة مما أثار الطلاب وادى الى قيام أعنف معارضة يتزعمها الآن الناقد الشهير ليفيس R.F. Leavis من جامعة كمبردج .

ومهما يكن من تعارض وجهات النظر فالذى لاشك فيه هو ان العلم يعتبر عنصراً هاماً وخطيراً فى حياة المجتمع الانساني المعاصر وان اهميته وخطورته سوف تزدادان بمرور الزمن ، كما ان تتابع الاكتشافات فى كل فروع العلوم الطبيعية والحيوية أصبح يشد الأذهان الى العلم بشكل لم يكن مألوفا من قبل ، خاصة وان تقدم وسائل الاتصال والثقافة والتعليم وتنوعها ساعدا مساعدة فعالة على نشر العلوم فى كل انحاء العالم وتقريبها الى الأفهام ، ويستوى فى ذلك التعريف بالمعلومات او المادة العلمية ذاتها أو المنهج أوالتطبيقات المرتبطة بها أو النتائج المترتبة عليها . وكل هذا يضع الانسان فى المجتمع المعاصر فى موقف فريد ازاء العلم والتعليم والتربية . ويتمثل هذا الموقف الفريد فى التغيرات الحديثة التي بدات تطرأ على التعليم ووسائله المختلفة ، بحيث أصبح التعليم ذاته يعتبر ـ حسب تعبير رودنيك (صفحة ٢٠٥) أحد المشروعات الكبرى فى هذه المرحلة الحضارية الثالثة التى بدأنا ندخل فيها . وليس من شك فى ان التعليم سوف يعطى اهتماما متزايدا بالمستقبل ومشاكله المرتقبة بعد أن كان معظمه موجها للماضي أو الحاضر على أكثر تقدير . وهذا معناه أن كثيرا من الموضوعات التي تظهر الآن فى مناهج المدارس والجامعات سوف تختفي ويظهر بدلا منها موضوعات وتخصصات أخرى جديدة نتيجة لتقدم العلم وتغير الظروف العامة التي يمر بها المجتمع الانساني ، كما أن تدريس العلوم سوف يحتل مكانا بارزا فى اى خطة دراسية بالاضافة الى محاولة المزاوجة بين العلوم الطبيعية والانسانيات . وكل هذا من شأنه أن يؤدى فى آخر الأمر الى تغيير النظرة الى الحياة وموقف الانسان منها بحيث تصطبغ حياة الفرد وتصرفاته وعلاقاته بذلك الطابع العلمي المتميز بالدقة القاطعة . وحينئذ سوف يصبح العلم حضارة بقدر ما هو أداة للحياة ولتغيير تلك الحياة .

احمد أبو زيد

* * *

الفكر والحضارة

١ ـ وجهة نظر فيلسوف
الثورة الفكرية المعاصرة في الغرب

عبد الرحمن بدوى *

(أبرز الاحداث فى السنوات الخمس الاخيرة فى اوروبا وامريكا هو التمرد :)

تمرد المجتمع الناشىء فى أحضان التطور المدني الهائل ، على هذا المجتمع الذى نصفه بأنه « مجتمع الاستهلاك » .

وتمرد الابناء على الآباء ، فى محاولة لاستقلال الشباب عن الشيوخ أياً من كانوا : آباء بالدم ، أو بالروح .

وتمرد الأدنى على الأعلى فى كل نظام يقوم على الترتيب : فى السياسة ، والاقتصاد ، والدين .

وتمرد البداوة والفطرة والفريزة على الحضارة والآلة ، والتعقيل ، والنمطية .

وتمرد اللاوعي على العقل المنطقي المجرد ، والحلم على الواقع .

وما حركات الشباب فى الجامعات الامريكية على اختلافها ، والشباب الفرنسي فى احداث مايو ١٩٦٨ المشهورة ، والشباب الايطالي باحداثه الدامية المتواصلة من شتاء سنة ١٩٦٨ حتى اليوم ، ونظائر هذه الحركات كلها فى سائر بلدان اوروبا وامريكا ، وما تمرد الطبقات الدنيا من الاكليروس المسيحي على سلطات الكهنوت العليا وعلى رأسها سلطة البابا .. الا مظاهر لحركة التمرد العامة هاتيك .

لقد أرادت هذه الحركات كلها ان تطلق الرغبات المكبوتة والغرائز المقهورة ، والنوازع المُصَّعدة او المتسامى بها او المصروفة عن تيارها ومجراها الاصيل ، تطلقها من حيث ترقد

---

* الدكتور عبد الرحمن بدوى استاذ ورئيس قسم الفلسفة بجامعة عين شمس ج.ع.م ويعمل الآن أستاذا بالاعارة بالجامعة الليبية ، له كتب ودراسات عديدة باللغة العربية والفرنسية والالمانية كما أسهم فى تعريف القارىء العربى بالوجودية .

فى كهوف اللاشعور تحت وطأة صمامات جبارةمن الوان التحريمات التي تكدست وتصلبت على مضي الازمنة تحت تأثير قواعد السلوكالاجتماعيوتقويمات الاخلاق وأوامر الاديانونواهيها وذرائع السلطة الطاغية ومبرراتها .

وكانت الحملة على الآلية والآلة أول ارهاصبهذا التمرد : لقد قصد الانسان من صنع الآلة الى ان يحرر نفسه من عبودية العمل ، وانيسخرها لتأدية وتحقيق مآربه وحاجاته ومتطلباته ، واذا بالآلة تصبح كالعفريت الذىخرج من القمقم ولم يعد فى وسع الساحر ان يعيده اليه بعد ان استحضره وسخره فى قضاءبعض اعماله ، فنشأ عن التقدم الصناعي الهائل تلك الظاهرة التي كثيراً ما يتردد اسمها اليوموهي « تجريد الانسان من انسانيته » dés humanisation de L'homme وتسمى أحياناأخرى باسم « الاستلاب » aliénation اى استلاب شخصية العامل بالنسبة الى ناتج عمله ،ومن هنا لم يعد للانسان فى هذا المجتمع الصناعي العالي الآلية الا بُعْدٌ واحد ، على حد تعبيرهربرت مركوزه Marcuse فى كتابه المشهور : « الانسان الأحاديّ البُعْد » L'Homme unidimensionel ، هذا الكتاب الذى أصبح بمثابة انجيل لحركات الشباب التي اتينا علىذكرها منذ قليل .

ثم ان مجتمع الاستهلاك يجعلنا نلهث دائماوراء كل مبتكر فى التقدم الصناعي : بالامس لم نكن نعرف السيارة ولا الثلاجة ولا الغسالة ولادوات الاذاعة والتسجيل ، فاذا بنا اليوم ليس فقط نعد هذه الاشياء كلها من الضرورات الأوليةللانسان ، بل وايضا نحرص كل الحرص على ان نقتني احدث انواعها ونماذجها ، والدعاية التيتلجأ اليها شركات الانتاج لتصريف منتجاتها تكاد تدفع الناس دفعا الى اطّراح النماذج الأقدمواتخاذ الاحدث ، وزاد فى تقوية هذه الدعاية وسائل الاعلان الجذابة بالملصقات وفى الاذاعةوالاذاعة المرئية (التلفزيون) ، ثم التنافس بين الناس لاسباب عدة منها التباهي على الآخرين ،فصار الناس فيما يشبه الحمّى يلسعهم جلاد التقدم الصناعي الهائل الذى يلهب ظهورهمبسياط لاذاعة باستمرار .

وهكذا انقلب الهدف من المدنية ، حتى آلتالحال الى النحو الذى وصفه سيوران (١) فقال : « ان المدنية تعلمنا كيف نتعلق بالاشياء ، مع انواجبها هو ان تلقننا فن التخلي عن الاشياء ، لانه لن توجد حرية ولا « حياة حقيقية » بدون تعلمالتخلي وعدم الامتلاك ، اني استولى على شيء ، واحسب نفسي سيدا له ، والواقع اني عبد له ،كما اني عبد ايضا للآلة التي اصنعها واديرها » .

وينتج عن ذلك ان ينتقص الانسان من قدرنفسه ، لانه سيقيسها بالنسبة الى هذه الآلات ، فيحط من قدر نفسه بقدر تقديره لكفاءة الآلة ودقتها وكمالها ، كما يلاحظ جونتر اندرز فى كتابه « الانسان المتقادم » (٢)

لقد كان الانسان صانعا ، فصار بالتقدمالصناعي الهائل ، صانعا مصنوعا معا : اذ تَصْنَع مفهومَه عند الناس وفى نظر نفسه روابطه مع الآلات ومنتجيها ومصانعها وكيفية استفادته منها ومقدار ما يتهيأ له الحصول عليه منها ، ثم ما هودور الانسان فى ادارة هذه الآلات؟ انه دور يتضاءل باستمرار ، وكلماقل دوره كان التقدم فى الصناعةاعظم ، اليس المثل الأعلىفى المصانع الآن هو تحقيق اكبر قدر من الآلية automation ان لـميكن الآلية التامة ؟ ولا يقتصر هذا على الصناعة

---

(١) فى مقال له بـ « المجلة الفرنسية الجديدة » Nouvelle Revue Française عدد يوليو ١٩٦١ .

(٢) راجع فى ذلك كتابنا « دراسات فى الفلسفة الوجودية »ص ٢٠٨ ــ ص ٢٠٩ ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٦

بالمعنى المحدد ،بل والزراعة ، بل والتجارة والنقودوالاثمان ، والتقدم الرائع للالكترونيات على وشك ان يحدث بدوره ثورة هائلة فى الآلية لا نستطيع الآن ان نتنبأ بمداها ونتائجها البعيدة ، نظرا « للمعجزات » التي تحدثها الاجهزة الالكترونية الآن ، ولكي تعرف الى اى مدى صار الانسان مستعبدا للآلة وغريبا aliéné عن الانتاج ،قارن حال العامل اليوم فى مصنع تسوده آخر صرخة فى الآلية automation ، وبين حال العامل صاحب الحرفة artisan فى القرون الماضية ، بل فى اوائل هذا القرن العشرين ، ان ثم هوة سحيقة بينهما ، ولا تطور هناك ولا اتصال ، بل طفرة هائلة .

ويبدو لي ان الانسان ،وقد يئس من التحرر من سلطان الآلة والآلية ، راى نفسه مضطرا الى التنفيس عن نفسه بواسطة الوان من التمرد على السلطات التي اتينا على ذكرها فى اول هذا المقال ، وتعلق هذا التنفيس بامر واحد ذى مظاهر متنوعة حتى الآن ، الا وهو : الايروس Eros (غريزة الجنس وما يرتبط بها) ، اى انه تعلق بأمر بيولوجي عريق حرصت المجتمعات الانسانية منذ عهد سحيق على احاطته بهالة من الأسرار والوان التحريم وانواع القيود والحرمات tabous ، ولعب فرويد وحواريوه من اصحاب تهاويل التحليل النفسي برموزه وطقوسه وتأويلاته التي تشبه السحر القديم والكهنوتية العتيقة ،ورطاناته الجوفاء ذات التهويل ــ نقول ان هؤلاء لعبوا دوراً كبيراً فى توجيه النفوس نحو هذا الهدف ، وتركيز معظم الاهتمام عليه . ووجد ذلك فى النفوس هوى فأقبلت عليه فى اندفاع مبهور الانفاس ، خصوصا وقد ربط هؤلاء بين الايروس وبين علاقات انسانية عديدة لايبدو ان لها بـه ارتباطا ، مثل علاقات الابناء بالآباء والامهات ، وعلاقات السلطات العليا الرئيسة مع السلطات الادنى المرؤوسة ، الخ .. واستعانوا على ذلك بجهاز من الرموز والتأويل الرمزى المفرط فى الغلو ، جهاز فاق بآلاف المرات اجهزة التأويل الباطن التي برع فيها الباطنية من بين المذاهب الاسلامية (٣) . ووجد عامة الناس فى هذه التفسيرات حلولا او مبررات سهلة ممتعة ،فاستندوا اليها فى تصرفاتهم وتبريراتهم .

لقد ذهب مركوزه Marcuse (٤) وهو الشيخ اليَفن الذى عقد له اليوم لواء هذه الحركات رغم انه قد جاوز السبعين ــ الى ان تحرير المجتمع لن يتم الا بتحرير هذا « الايروس » Eros وتحقيق كل نوازعه دون حدود ولا قيود . وزعم بعد ذلك ان هذا التحرير بواسطة «الايروس» هو فى الوقت نفسه تحرير للخيال . ذلك ان ديكارت وكنت Kant ومن سار فى اثرهما رأوا فى الخيال انه العقل بوصفه متوجها نحو الجسم ،وانه الرابطة بين المحسوس والمعقول ،فافاد مركوزه من هذه الفكرة من أجل تشخيص وعلاج مجتمعه المتحرر هذا ، فقال ان الحساسية ينبغي ان تنقاد للخيال بدلا من انقيادها لسيطرة العقل «الزائفة» ،اذ سيتولى الخيال التوسط بين الملكات العقلية والحاجات الحسية . و « بالايروس » يحقق الانسان اخيرا وجودا مستريحا يشيع فيه السلام (une existence pacifiée)

وهذا التحرير الكلي للانسان لا تستطيع تحقيقه الطبقة العاملة ، لانها صارت مندمجة فى الرأسمالية ، شيئا فشيئا ،بل سيقوم به الثائرون الجدد وهم كل المضطهدين فى العالم وكل المحرومين

---

(٣) راجع نشرتنا لكتاب الغزالي : « فضائح الباطنية »

(٤) راجع احاديثه مع فرانسوبرو

Francois Perroux interrage Marcuse ... qui repond, Aubier éditeur, Paris 1969.

وراجع عنه مقالا فى جريدة « لوموند » بتاريخ ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٩ بقلم جان لاكروا Jean Lacroix.

والمهانين والمستضعفين فى الارض ثم التلاميذ الذين ينحدرون من الطبقات الوسطى ــ هكذا يرى مركوزه !

ومن عجب ان بعض هؤلاء ــ وهم بعض الطلاب فى ايطاليا فى عام ١٩٦٨ ــ دعوا شيخهم هذا الى لقاء ، فكان المهزوم فيه هو مركوزه نفسه ، لقد ضجوا وصاحوا فيه حتى منعوه من التفوه بكلمة ! وهكذا كان أول ضحايا دعوته ..!

وكان من مظاهر هذه الدعوة الى التحرر بواسطة « الايروس » الاتجاه نحو التجرد البدني او العري : وقد بدأ خفيفا فى المسارح الاستعراضية ثم اصبح رقما ضروريا فيما عرف باسم الاستربتيز . (Striptease) اى خلع العارضة « الفنانة » لملابسها الداخلية قطعة فقطعة فى محاولة تثير الاغراء حتى تصير كما كانت امها حواء قبل الخطيئة الاولى ، ولكن فى الظلام .. واذا به اليوم يخطو الخطوة النهائية فى مسارح برودواى فى نيويورك ، اذ صار ثم روايات مسرحية يكون فيها الممثلون والممثلات عرايا تماما لا يستر اجسامهم اى شيء اطلاقا ، ومن الامثلة على ذلك روايات : « الايروس اللذيذ » و « السيد الشاب دانتى واخيراً « أى كلكتا » O'calcutta التي بلغت القمة فى التعرى والفجور معا ، ولا يهدف اصحاب هذه الروايات لمجرد الاثارة الجنسية ، بل وراء ذلك هدف سياسي هو رفض المجتمع ، ورفض المدنية الصناعية الآلية ، والرغبة فى التحرر من ارهاق مجتمع الاستهلاك ، والا فان التعرى فى ذاته امر تعود الناس عليه فى الأقاليم الاستوائية فى افريقيا وآسيا واستراليا وامريكا الوسطى ، ولا يرتبط بأى معنى من معاني التمرد او الأباء او الرفض ، وكل شيء انما يقاس بالبيئة التي يجرى فيها ، ولكن الذين يلجأون الى هذا التعرى فى مسارح برودواى انما يقصدون ان يكون ذلك مجرد وسيلة للاعلان عن سخطهم على المجتمع الصناعي ، أو مجتمع الاستهلاك ، فالقصد اذن هو مجرد اثارة الانتباه الى أمد ما بوسيلة من الوسائل الخارجة عن المألوف .

وثم ظاهرة اخرى لسنا ندرى هل نربطها بهذه الدعوة الى التحرر بواسطة « الايروس » او بأمر أخطر منها وهو التحرر من السلطة المنظمة hiêrarchie ، ونعني بها الثورة العارمة التي شبت فى الكنيسة بعامة ، والكنيسة الكاثوليكية بخاصة منذ خمس سنوات ولا تزيد مع الايام الا عنفا ، وكان الاكليروس الهولندى الكاثوليكي هو الطليعة الجسور لهذه الحركة ، والجانب الذى يربطها بدعوة التحرر بواسطة « الايروس » هو ان مطالبها الرئيسية السماح لرجال الدين بالزواج ، والا يقتصر ذلك على المراتب الدنيا (الشماس والقسيس) بل يمتد الى الاسقف والمطران ، ومن يدرى ربما البابا كذلك !! وقد عقد الاكليروس الهولندى فى شهر يناير سنة ١٩٧٠ مجمعاً رعوياً كان من اهم مقرراته السماح للقسيس بالزواج (وهو امر محتمل فقط ، ولكنه مكروه ، فى الكنائس الشرقية) ، ثم التقليل من شأن السلطة البابوية والاسقفية ، ورفض كثير من الحقوق التي يدعيها البابا لنفسه فيما يتعلق بسلطته فى الفتوى والتشريع واصدار القرارات الملزمة لرجال الدين .

واتخذت هذه الثورة طابعاً لاهوتياً اوضح عند القساوسة الالمان ، والمانيا منذ عهد باور (Bauer) ومدرسة توبنجن ويوهان فريدرش أشتراوس عريقة التقاليد فى نقد النصوص المسيحية المقدسة ، وفى انكار كثير من العقائد التي تعد أساسية فى الكاثوليكية بل والمسيحية بعامة ، ولكنها بلغت درجة خطيرة جداً فى السنوات الخمس الماضية حتى كادت ان تأتي على كل مقدسات الكنيسة العقائدية والكتابية !

وعبثا ضاعت المحاولة الجبارة التى قام بهاكارل بارت Karl Barth لوضع ما عرف باسم « لاهوت الازمة » او « اللاهوت الديالكتيكي » لقداصدر فى سنة ١٩١٩ شرحا على رسالة القديس بولس الى أهل روما ، كان له ضجيج هائـل فىالاوساط البروتستنتية الالمانية ، وأثار مجادلات عنيفة بقيت أصداؤها تتردد حتى عهدقريب جدا،لقد أراد بارت ان ينقذ المسيحيـة من الوضـع الذى اوصلها اليه اشلير ماخر(Schleiermacher)بدعواه الى« دين العاطفة » . لهذا قرر أولاوجوب المحافظة على الفـارق اللامتناهى بين المخلـوق والخالق ، بين العبد والرب ، فقال انه ليس ثم بين الانسان والله انتقال ديالكتيكى ، بل طفـرةكيفية ، على حد تعبير كيركجور ابى الوجودية الذى تأثر به بارت كثيرا ، ان الفرد فى حضرةالله وحيد ، خاطىء ، فى علاقة سلب ، ومقولة الخطيئة هى التى تميز فردانيته ، ولا يمكن ملءالهوة التى بين الانسان وبين الله الا باللطف الالهى، واللطف امر خارق ، معجزة ، وليس فعلاً مـنافعال المعرفة ، والسلب ينطوى على الايجاب ، والوجود فى نفس الوقت مرض قاتل وهو حياة :فسلبية الخطيئة .. اذا انكرهـا اللطف الالهى ارتفع الانسان الى الايجاب المُنَجّي . ان الله هوالله ، والانسان هو الانسـان ، والانسان ليس هو الله ، اى انه انسان بقدر ما هـو ليس اللـه ،فوجود الله هو لا وجود الانسان ، ووجود الانسان هو لا ــ وجود الله ، وعلو الله مطلق ، أصيل ،لا يحتمل اى مقارنة بينه وبين الانسان ، واذن فبارت قريب الشبه من تصور المعتزلة المسلمين لله وصفاته .

ولهذا هاجم بارت كل دعـوة الى تقـريبالمسافة بين العبد والرب ، وبالجملة كل محاولات الصوفية للأنس والقرب والوصلوسائر المقامات فى الطريق الى الله ، وحتى اعمال العبد لا قيمةلها عند الرب .. فانها امام الله ليست صالحة ولاطالحة ، بل الله هو الذى يعطيها الأسماء والأحكام حسب ما يريد ، ووفقا لتدبيراته التى لا ينفذ الى سرها أحد ، وفى هذا يختلف تمام الاختلاف عن المعتزلة المسلمين ، ويقترب من ابن حنبل والاشاعرة واهل السنة بعامة ، اعنى القائلين بالتفويض التام، وقد بالغ كارل بارت فى هذا التفويض الى درجة ان قال ان حكم الله «يمكن ان يكون تفسيق (القديس) فرنشسكو الأسيزى وتبرير او المغفرة لتشيزارى بورجيا (الفاسق الاكبر عند الناس) ؟ ويمكنه ان يحول كل « نعم » انساني الى « لا » ، وكل « لا »الى « نعم » . ويستوى لديه ان ندخل الجنـة أو ندخل النار .. والقديسون وهم يناضلون فى سبيل الله يناضلون ضد الله .. والرجل المتدين هو خاطىء بما هو كذلك ، والدين هو موته امام الله ، والايمان يأتى من الله نفسـه .. ان الانسان يعرف الله لان الله يعرفه ، ولن يبحث عن الله ان لم يكن قد وجده من قبل ، فالايمان اذن هبة كونية،منحة مِنْ لَدُن الله،فَضْلٌ الهى محض».

ولكن لا هوت بارت عفى عليه قبل وفـاةبارت منذ عامين ، اذن امتد الهجوم الى دعائم الايمان الدينى المسيحى نفسـه، وراح رجال الدين هم أنفسهم يتساءلون عن مدى الصدق التاريخى فى الاحداث الكبرى فى نشأة المسيحية ، والصدق العقلى للعقائد الرئيسية ، حتى عصفوا بعقائد اساسية مثل : التجسيد ، والحَمْل بلا دَنَس ،والقيامة ، الخ ..

وفى الولايات المتحدة الامريكية قامت حركةمناظرة اتسعت وتجاسرت بحيث تجاوزت احيانا المدى الذى وصلـت اليه ثورة رجـال الدين فى هولنده والمانيا .

وحتى فى أشد البلاد محافظةفى امور العقائدالدينية المسيحية عنـد رجـال الدين ، اعنى فى ايطاليا وفى فرنسا ، قامت حركات ، صحيح انهـاليست بعنف ما حدث فى هولنده او المانيا ، ولكنها على كل حال هزت السلطات الكنسية العليا ودعتها الى العود على نفسها لتغيير مواقفها ، والتكيف مع الحركات السائدة فى العالم .

وهذا يقودنا الى الحديث عن التمرد على السلطة : سلطة الأب بالنسبة الى الولد ، وسلطة الدولة بالنسبة الى الفرد ، وسلطة الدول الكبرى ازاء الدول الصغرى ، وسلطة الاستاذ بالنسبة الى الطالب ، وسلطة رب العمل بازاء العامل .

والجديد فى هذه الألوان من التمرد هو تمرد الابناء على الآباء : سواء كانوا آباءهم بالدم ، او آباءهم بالروح (اى أساتذتهم) .

وكلنا يعلم ما جرى من احداث عنيفة فى مختلف حرمات الجامعات فى امريكا واوروبا واليابان ، حيث جاوز الامر احيانا كل معيار ، وصار الهجران هو الاساس ، والانتظام هو الشاذ والنادر ، وتجلى ذلك الاضطراب خصوصا فى سنتى ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨ ، ولكن الموجة انحسرت فى النصف الثاني من العام الماضى حتى أوشك المد ان ينحسر كله بعد ان يئس اصحابه من امكان تحقيق شيء ايجابي ملموس ، وبعد ان ملوا هم أنفسهم من عبث ما انساقوا فيه دون اهداف واضحة ولا اغراض مقصودة ، لكن الهزة التى اصابت التعليم العالى من هذا الاضطراب فى تلك البلاد لاتزال جروحها لما تندمل ، بل ربما احتاج الامر الى وقت طويل قبل ان تزول آثاره المدمرة ، على ان هذه الحركات كان مقضياً عليها بالاخفاق منذ البداية ، لسبب واضح جدا وهو ان الطلاب ليسوا عناصر انتاج وليس لهم بالتالى استقلال اقتصادى ، بل هم عيال على الآباء ، لا يستطيعون ان يعيشوا بانفسهم ، ولا بد للولد الضال ان يعود الى بيت الوالدين ان آجلا او عاجلا ، بل هو أضعف ــ اقتصاديا ــ من ان يبقى بعيداً عنه اكثر من أيام معدودات !

وتمردهم على آبائهم بالروح ــ اعنى اساتذتهم ــ هو الآخر لا بد منقض بعد وقت قصير وان كانت الحاجة ها هنا أقل الحاحا ، وذلك لافتقارهم الى التحليل العقلى الكافى ، والى التجربة فى أمور هي بطبعها معقدة مثل امور العلم ، اذ لايكفى المرء ان يلوك بعض الشعارات ، وان يرطن باسماء ماو ، وتشي جيفارا ، وكاسترو ، لان هؤلاء رجال افعال ، ولا يمكن الاستغناء بهم عن رجال الفكر والعلم والاقتصاد ، وتجربة جامعة فنسين Vincennes المخفقة اخفاقا شنيعا اصدق دليل على ذلك ! وحتى اشد الاساتذة «الطلائعيين» حماسة لانشائها قد اصيبوا بخيبة أمل مروعة ، كما اعترفوا لى فى العام الماضى فى باريس . . كان الاستاذ يبدأ المحاضرة فى الأدب الفرنسى مثلاً فى القرن السابع عشر ، فيصيح بعض « الاشداء » : دعنا من راسين وموليير وكورنى ، اولئك المتعفنين ، واشرح لنا قصائد ماو تسيه تونج !! فيستجيب الاستاذ ويقرأ هذه القصائد فى ساعة او ساعتين ــ ثم يقول للطلاب : وماذا بعد هذا ؟ والعام طويل ؟! وكذلك الحال فى دروس الفلسفة والتاريخ ، وسائر المواد ، وسرعان ما ادرك الطلاب انفسهم عقم هذا الذى نادوا به ، واذعنوا ــ متبرمين طبعاً ــ للمحاضرات تتخذ مجراها الطبيعي المعتاد ، وتمرد الطلاب على ما يسمى باسم « المحاضرات التى تلقى من أعلى المنصة » Cours Magistrau وطالبوا بالمناقشات يجريها الاساتذة والطلاب على سواء ، فأفسح الاساتذة للطلاب المجال ونزلوا لهم عن « عروشهم » ــ فماذا كانت النتيجة ؟ أُرتِجَ على الطلاب بعد دقائق لقلة بضاعتهم ان لم يكن انعدامها فى المادة موضوع الدرس ، فلم يكن ثم غير واحد من اثنين : اما التوقف ، او ان يعود الاستاذ الى المحاضرة « مِنْ » « عَلِ » كما كان ، وطبعا انتهى الأمر الى الرضوخ الى الوضع الشاذ ، اعنى المعتاد !

على أن ثم جانباً آخر فى تمرد هؤلاء الشباب على الآباء ، وهو جانب انطلاق الغرائز المكبوتة وعلى رأسها الغريزة الجنسية ، مما يكوّن مظهراً من مظاهر حركة التحرير عن طريق « الايروس » التى تحدثنا عنها من قبل ، ولا داعى للعود اليها . وانما نشير فقط الى انه فيما يتعلق بالشباب

ارتبطت هذه الحركة احياناً بظاهرتين خطيرتين اكثر شيوعا فى الشباب وهما : تعاطى المخدرات، وارتكاب الجرائم الدامية، واستقراء اسباب هاتين الظاهرتين مما يخرج عن نطاق هذا المقال .

ولقد اثيرت بمناسبة تمرد الشباب هذا وحركة التحرر بواسطة « الايروس » مشكلة ما اصبح يطلق عليه اسم « مجتمع الترخص » Permissive Society ، نعتاً للمجتمع الامريكى والاوروبى الحالى ، ويعنون به المجتمع الذى يرخص لابنائه بكل شيء ، ويزيل عنهم كل الوان القيود والحرمات وعوامل الكبت التى فرضت على المجتمع منذ آلاف السنين ، وراح البعض يستدل من قيام « مجتمع الترخص » هذا على مصير الحضارة الاوروبية ، ويقارنها بما وقع للحضارات الكبرى فى فترات انحلالها من اقبال على « الايروس » واكتفاء بالخبز والالعاب panem et circenses واقبال على الشهوات العنيفة والمخدرات والتهاويل والمخاريق ، بدلاً من المذاهب العقلية والافكار المنطقية ، وانجاز الاعمال البطولية التى تعتمد على التقشف والفداء ، فاثيرت من جديد المشكلة التي اثارها اشبنجلر Spengler فى سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢٢ فى كتابه « انحلال الغرب »(٥) .

وأيدت التيارات الجديدة والاحداث الجديدة دعوى اشبنجلر . فالوجودية ترى الوجود أسيان، يكتنفه العدم من كل نواحيه ، وترى فى الانسان موجودا منسلّما الى ذاته ، محصورا — وهو الحر الاكبر — فى نطاق مواقف حدية تأخذ بتلابيب حريته ، مترنحاً بين الامكانات المتجاذبة المتعارضة التى لا مناص له من الاختيار الحر بينها ، محاطا باللامعقول فى افعاله وحركاته ، مهجن الذات بالادوات فى عالم من الادوات ، والوضعية الجديدة ترد كل معرفة الى شكلية لغوية ، فتفرغ المضمون من مداوله، وترده الى مجرد شكل لفظى؛ ومن هنا وجدنا طوفانا من الابحاث اللسانية واللغوية يكتسح العالم فى السنوات الخمس الاخيرة، خصوصا بتأثير البنياوية structuralisme الضاربة اطنابها فى الدراسات اللغوية فى فرنسا وامريكا بخاصة .

اما الاحداث الجديدة فاهمها القنبلة الذرية التى احدثت ثورة هائلة فى ادوات تدمير الانسان لنفسه ، مما اطلق صيحات الفلاسفة والمفكرين من كل اتجاه : من كارل يسبرز ، الوجودى(٦) حتى برترندرسل الواقعى المحدث(٧) وحتى اللاهوتيين المسيحيين مثل هـ . تيليكة H. Thielicke (٨) ، وبيكارد M. Picard (٩)، واخيرا د. دوبارل D. Dubarle (١٠) . وكل هذه الابحاث تدل على مدى الرعب الذى انتاب الانسان مما ينتظره بواسطة آلات الدمار الشامل التى اخترعها ليقضى بها على نفسه بنفسه . ولم يعد الامر مجرد تشاؤم هام به اشبنجلر ، أو مزاج سوداوى انتاب بعض النفوس المريضة فاشاحت بوجهها عن الحياة وانكفأت على الموت تستعذب التأمل فيه ، مثلما اخذ على هيدجر فى اهتمامه بالموت، وكما اوضحناه تفصيلاً فى رسالتنا «مشكلة الموت » (بالفرنسية ، القاهرة سنة ١٩٦٥) .

---

(٥) ولقد عرضنا لذلك تفصيلا فى كتابنا « اشبنجلر »(الطبعة الاولى سنة ١٩٤١ ، القاهرة) .

(٦) فى كتابه « القنبلة الذرية ومستقبل الانسان ، منشن ،سنة ١٩٥٨ ، وقد حللناه تفصيلا (راجع مجلة « حوار » العدد الاول .

(٧) فى بحثه بعنوان « الحس العام والحرب النووية ، »(نيويورك ، سنة ١٩٥٩)

(٨) فى كتابه «القنبلة الذرية كمسالة عن الاخلاق المسيحية»(توبنجن ، سنة ١٩٥٨) .

(٩) فى مقال بعنوان «تذرية الشخصية » (اى جعلها مثل الذرة — مقال فى مجلة Universitas سنة ١٩٥٨ ص ٣٦٧ — ٣٧٠) .

(١٠) فى كتابه بعنوان « الحضارة والذرة » (باريس ، سنة ١٩٦٢) .

ويتلوها في الأهمية تقدم المواصلات الجوية واللاسلكية بحيث صار العالم وحدة واحدة لا يحدث حادث فى اى ركن منعزل من اركانه حتى يحس به سائر العالم ويتخذ منه موقفا ، فما من انقلاب يحدث فى دولـة حتى تعلم به سـائر الدول فى الحال ،وتتخذ بازائه موقفا مستمدا من اعتبارات خاصة بها ، وما من تقدم علمي يجرى فى بلد حتى يشاركه فى الاستفـادة منه سـائر الـدول ، مهما احيط بالسرية التامة المزعومة ، وما من اضطهـاد يقع على شعب او حزب او جماعة او فرد حتى يشارك فيه الجميع ، ومن هنا صـارت المسئوليـة على مستوى الكرة الارضية ، ولم يعد فى استطاعة احـد ان يقف ذلك الموقف الذى وقفه صـاحب الفندق فى رواية « هرمن ودوروتيه » لجيته وهو عدم الاكتراث للحروب التى تجرى خارج حـدود الوطن ، ثم ان المسئولية لم تعد مسئولية حكومات ، بل امتدت فشملت الشعوب نفسها ، وفى التحليل الرائع الذى كتبه كارل يسبرز Jaspers عن « مسئولية الالمان » عن الحرب العالميـة الثانية وما سبقها من مقدمات كشف عن هذه المسئولية التى على عامة الشعب ازاء ما يصدر عن زعمائه من قرارات وافعال .

فمن رأى يسبرز(١١)ان هـذه المسئوليـة قائمة، لايشفع فى تخفيفها ان يقال ان الكل مذنبون لان الشرّ كامنٌ فى نفـوس النـاس جميعـا .« انه سيكون تهرباً واعتذاراً زائفا من جانبنا نحن الالمان اذا شئنا ان نخفف من مسئوليتنا بان نحيل الى حال الانسان بوجه عام ، فمثل هذه الفكرة لا تجعل ذنبنا اخف ، بل هى تزيد من تعميقه ،ومشكلـة الخطيئة الاصليـة ينبغى ان نستغلهـا للتهرب من مسئوليتنا الالمانية » .

ثم انه صار من العسير جداً ، ان لم يكن من المستحيل ، اخفـاء الحقـائق عن الناس ، فقـد اقتحمت الوسائل اللاسلكية كل الجدران والعوازل ودخلت الى اعمق المخادع ، وتطوع باذاعة الحقائق كثيرون ، بحيث عادت عبارة الاسرار وهماً من الاوهام ، كل ما هنالك ان افشاءها قد يأخذ بعض الوقت ، ولكنه من المحتوم عليها ان تفشى فى امد قصير بحيث تحدث كل آثارها ، خصوصا وان استخدام الاقمار الصناعية،وطائرات الاستكشاف الدائمة الدوران ، كل ذلك قد جعل ان لا حرمة لشيء اليوم !

على ان لهذا الأمر وجهه العكسي : صحيح انه قضى على السرية والانفـراد بالمستضعفين ، ولكنه فى الوقت نفسه اعطى لمن يملكه ويتقنه اداة لا يمكن اى فرد ولا جماعة الدفاع عن نفسه بازائها ، والا فماذا يفعل فرد او جماعة محدودة امام اجهزة اعلام هائلة التنظيم ترهقه كل يـوم بتوجيهات فى خط معلوم !؟ ثم ان ملكية هذه الاجهزة لا ينهض بها الا الحكومات القوية او جماعات الضغط الكبرى ـ وامام هؤلاء واولئك ما أشد اعزلية الفرد ؟!

★ ★ ★

ومن الخير هنا ان نعرض بعض مواقف المفكرين المعاصرين من مشكلة الصناعة الفنيـة (التكنيك) .

ونعرض بوجه خاص لما يقوله نيقولا ابنيانو« المولود فى يوليو سنة ١٩٠١ ، وهو استاذ فى

---

(١١) راجع «مسألة الذنب» ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ من الترجمة الفرنسية

Karl Jaspers : **Die** Schuldfrage, tr. franc., Paris, 1948.

كلية الاداب بجامعة تورينو فى شمالى ايطاليا »يرى ابنيانو فى بحث له عن « مفارقات الصناعة الفنية »(١٢) ان التعارض بين الانسان والتكنيك هو الموضوع المفضل عند اصحاب النزعات الى التنبؤ وتحديد مصير العالم فى العصر الحاضر . فمؤولو أشهر التشخيصات لما يسمى بالازمة الحالية ، والمتنبئون بالانحلال وبموت المدنية الميكانيكية الغربية ، والمدافعون عن الروحية الخالصة — كلهم متفقون على عد الآلة هي ألد اعداء الانسان واعتبارها السبب المباشر او غير المباشر لانحلاله الروحى — فالعالم الذى تسوده الماكينة عالم بلا روح ، مشيع للانحطاط ، وللموت ، هو عالم فيه اتخذ الكم نهائياً مكانة الكيف ، وفيه توقير قيم الروح قد استبدل به توقير قيم الآلات والمنافع .

«ان التقدم التكنيكى وفر للانسان اليسر والسهولة ، لكنه صرفه عن اعتبار الحياة الروحية ، وبهذا سلبه الميزة الحقيقية الوحيدة التى يمكنه ان يستخلصها من اليسر والسهولة .. الا وهى ان يستطيع تكريس نفسه لتربية ذاته على نحو افضل ، ذلك ان الآلة تدخِل فى العمل نظاماً رتيباً ينعكس أثره الضار على حياة العامل باسرها ، مما يدفعه الى البحث عن وسائل منحطة للتهرب ، ان التكنيك قد بدد العمل الى اشتات من العمليات الرتيبة التى تتكرر كما هى باستمرار ، وتولد الملال والارهاق ..

« والتكنيك قد سلب العامل لذة رؤية العمل الذى قام به وقد تم على يديه ، وسلب عمله الحرية والمبادأة اللتين ينعم بهما صاحب الحرفة artisan والفلاح ، ولهذا يبدو ان التكنيك ينحل الى انكار للشخصية الانسانية والفردانية ، وهو يقتضى عملا من نمط واحد ، يكفى للوفاء به تنظيم سلبى لا يهيىء السبيل الى النمو وتوكيد الذات الفردية ، والتكنيك يشيع الانحطاط : لان الاعمال التى يقتضيها هى بحيث يمكن ان يحل محله فيها غيره على سواء . وبهذا يفقد العمل كل طابع شخصى .

« ومن الناحية الفنية ايضا يبدو التكنيك على انه من فعل عقل يدعى لنفسه القدرة على تقدير كل شيء وترتيبه مقدما وعلى نحو تجريدى ، ويرد الحياة ، وليس فقط العمل ، الى رتوب يستبعد كل جدٍ وكل مفاجأة ، ويستبدل بتلقائية الحياة الفعلَ الرتيب للجهاز الآلى ، واخيرا فان التكنيك يوجه الانسان نحو كل ما هو كم ، وكتلة ، وامتداد ، وبهذا يربطه بتخارج المادة ، ويركز فى هذا التخارج extériorité كل طاقاته ، مانعا اياه من التأمل فى ذاته ومن الاستجابة الى دعوة اوغسطين الى التأمل فى داخل الذات ، ولهذا السبب فانه بالتوجيه الذى يطبع به الحياة الانسانية فانه مضاد مباشرةً للمبدأ الذى تقوم عليه الروحية ، التى هى طبيعة الانسان الحقة » .

فبماذا يشير المُشخصون لهذه الحالة ؟ اما العودة الى الطبيعة ، مفهومةً بمعنى العودة الى الزراعة الحرة والحرف الصغيرة — فأمر خيالى وهمى ، خصوصا ونحن نعلم ان التنظيم

---

(١٢) N. Abbagnano : (IL Paradosso della Tecnica), in **Filosofia, Religione, Scienza,** **PP.** 147-156. Torino, 1967.

الصناعي الحديث انما هو منبثق من الحرف الصغيرة ، كما ان مثل هذه العودة تجعل الحياة على مستوى الجماهير الاجتماعية مستحيلة أوتردها الى مستوى في غاية الانحطاط .

لكن الحجج التي يدلي بها المدافعون عن التكنيك ضعيفة هي الأخرى ، أو على الأقل لا تحل المشكلة التي نحن بصددها وهي مشكلة العلاقة بين التكنيك والانسان بوصفه عقلاً ، اذ لا شك في ان التكنيك يقلل من التعب المادي عند العامل ، وانه شرط لا غنى عنه للرفاهية الاجتماعية ، وانه ينظم العمل ويخضعه لضوابط ثابتة ـ كل هذه مزايا لا يماري فيها انسان ، لكنها لا تتعلق بالمشكلة الاصلية وهي كيف ينهض الانسان بنفسه عقلياً ؟ ان التكنيك يضع الانسان في مخرجة وأمام مفارقة paradoxe : ذلك ان الانسان اخترع الآلات للوفاء بحاجاته ، لكن يبدو أن هذه الآلات امسكت بتلابيب هذا الانسان ، وتمردت عليه وصارت سيدة بعد ان كانت عبدة ، واداة اخضاع بعد أن قصد منها ان تكون أداة تحقيق لسيطرته على المادة . لقد كانت الآلة وسيلة ، فصارت غاية ، ولما صارت غاية اخفت او أبطلت الغاية الحقيقية التي كان عليها ان تخدمها ، وهكذا وقع الانسان في دور فاسد .

فما الحل ؟ لا يريد ابنيانو ان ينساق وراء الدعاوى المريضة الى اطراح التكنيك ، بل يتخذ موقفاً ايجابياً قوياً ، فيرى ان العلاقة بين الانسان والتكنيك (الآلة) لا يمكن ان تحل لصالح الانسان اذا استنكر الانسان التكنيك . فلو أهمل الانسان البحث عن أدواتية الاشياء ، والانتفاع بالآلات في تحصيل الحاجات ، فانه بهذا لا يلغي علاقته مع العالم ، بل يسيء فهم هذه العلاقة ، ويصير عبداً لها لانه صار عاجزاً عن اشباع حاجاته ، حتى ابسطها . « ولهذا فان الموقف الوحيد البديل لهذا هو ان يقبل وان يحقق ـ الى اقصى مدى ـ علاقته مع العالم ، وان يدفع بشجاعة الى الامام ، بقدر المستطاع ، البحث العلمي والتنظيم التكنيكي لعمله ، ولربما كانت كل الشرور المشار اليهما ناشئة ، لا عن التكنيك ، بل عن عدم او قلة القبول التكنيك ، ولهذا فان الدواء الوحيد الفعال يقوم في القبول الجذري الواضح التام لكل ما هو تكنيك بما هو عليه وبما ينبغي ان يكون عليه ، وفي هذه الحال ، لن يتم اصلاح التكنيك الا بالتكنيك نفسه ، وعدم انسانية التكنيك ناشيء فقط من كونه ليس بعد تكنيكاً بدرجة كافية ، وانه لم يتحقق بعد بوصفه كذلك ، وهذا التحقيق الناقص ناشيء بدوره عن جبن الانسان وهربه امام التكنيك ، وعن الخوف الذي ينتاب الانسان في مواجهته » .

ويتضح هذا من التأمل في الاعتراضات الموجهة على التكنيك ، انه يؤخذ عليه انه يشتت العمل الى اجزاء صغيرة مما يتولد عنه الملال والرتوب والاماتة للمبادأة الشخصية ، لكن الواقع ان هذه مرحلة ناقصة للتنظيم التكنيكي للعمل ، وكلما نما التكنيك وتطور واكتمل ، اي كلما صار تكنيكا حقا ، تصير مهمات العمل اشد تعقيداً وصعوبة ، والماكينة المعقدة تتطلب عقلاً واعياً يقظاً نشيطاً للتحكم والادارة والضبط والمبادأة ، وعدد الفنيين والعمال المؤهلين المتخصصين يتزايد في المصانع المجهزة تكنيكياً ، واستعمال اليد لا يزول ولكنه يصير خارج التكنيك ، والتكنيك يستغل كل المواهب ويمكن من الافادة منها وبهذا ييسر لكل انسان ان يتولى من الاعمال ما هو ميسر له ، ويشجع على التنويع والتفاضل في الاعمال وفي الناس العاملين على السواء ، وبهذا يتحقق نظام ترتيبي من المهمات والوظائف يوكل التوجيه فيها والادارة الى العقل والارادة القوية ، وهذا التنوع والتفاضل

فى المهام يستبعدان الانحطاط والآلية والرتوب ،والتعقيد المتواصل الذى يحدثه التكنيك من شأنه ان يقضى على الملال ، وفضلا عن ذلك فان التكنيك مزود بمرونة وقدرة على التكيف هائلتين : فكل تغيير فى احوال الانتاج ، وكل تقدم فى الآلات ،يحدد تشكيلا جديدا للتنظيم التكنيكى بأسره ، وكل هذا يَنْبعد التحجر والرتوب والملال .

كذلك يقيم التكنيك علاقة تضامن من فعلية بين العاملين ، لان تقسيم العمل يفترض وحدة الجهود وتضامنها ، ومن هنا فان من شأن التكنيك ان يساعد على ادراك المرء انه لا يستطيع ان يستقل بنفسه عن الآخرين ،ويجعله على وعى تام بمسئوليته قِبَل الآخرين .

لكن لا بد — حتى يتحقق هذا — الا يُنْظَر الى التكنيك على انه امر عقلى خالص ، لان القول او توكيد الطابع العقلى او المجرد النظرى للتكنيك معناه ان ينظر الى ما هو مرحلة انتقالية موقتة ناقصة على انه مرحلة كاملة ونهائية ، ومعناه الا ينظر فى التكنيك الا الى الماكينة .. الماكينة البسيطة التى ترد فيها وظيفة الانسان الى مجرد محرك لرافعة او ضاغط على زر ..

لكن التكنيك ليس هو الماكينة ، بل الابتكار والاستكمال الواعى لماكينات يتزايد تعقيدها وتحتاج الى مزيد من المبادأة الفردية والتضامن بين المهام ، والتكنيك يولج الماكينة فى شمول التنظيم الانسانى ، الذى لا يمكن الهيمنة عليه او تنميته الا على اساس موقف انسانى حقا ، وبالتالى روحى . « ان التكنيك يقتضى كشرط اولى واساسى له : فهم التكنيك ، وفَهْمُ التكنيك هو الانسان فى موقفه الاساسى » .

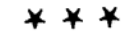
وهذا الفهم والقبول للتكنيك يفترض تحقق شروط : اولها ان يتخلى الانسان عن الدعوى الوهمية التى تزعم ان الانسان يمكن أن يتحقق ،بوصفه روحية ، بغض النظر عن كل علاقة مع العالم ، او بالانطواء على ذاته داخل الشعور . « ان الروحية الحقة فعالة ، ومحققة ، ولهذا فانها لا تزدرى العالم ولا تخارجه ، بل تنفتح عليه ،وتتعرفه وتعترف به بوصفه طرفا فى علاقة جوهرية بالنسبة اليه وانه انما يتحقق حقا فى اطار هذه العلاقة . ولا شيء أشد مضادة للانسانية الحقة للانسان من التعارض بين الخارج والداخل ،الظاهر والباطن ،ولا شيء اكثر بطلانا من المخرجة التى تضع الانسان فى مواجهة هذا التعارض . ان الانسان جزء من العالم ، ولا يمكن ان يتجاهل طبيعته المتناهية هذه دون ان يخدع نفسه بوهم اللامتناهى الزائف » (ص ١٥٤) .

وبهذا الدفاع الحار عن التكنيك ، ودوره فى تمكين الانسان من تحقيق ذاته ، لان الانسان موجود — فى العالم — بالضرورة يختم ابنيانو بحثه الممتع هذا ، والذى فيه يعبر خير تعبير عن موقف الوجوديين من مشكلة العلاقة بين الانسان والتكنيك ، فالوجودية كما نعلم تقوم على تحقيق الممكنات ، وعلى ضرورة تقرير ان الانسان — فى العالم — ، وان هذا العالم عالم ادوات ، فمن الطبيعى اذن ان نتحمس للدفاع عن التكنيك ،لانه كفيل بتحقيق هذا كله على أيسر نحو ، وان لم يكن كافياً ، ان التكنيك شرط اساسى لتحقيق الذات الوجودية الحقة ، ولكنه شرط فحسب .

هذا عن مشكلة العلاقة بين الانسان والآلة :

وأما عما دعا اليه « كوزه » من التحرير بواسطة الايروس فقد رأى برو Perroux فى كتابه المذكور آنفا « انه وان صح التشخيص الذى وضعه مركوزه ، فان النتيجة غير ما يهدف اليه : انه يهدف الى الثورة ، ولكن دعوته لن تؤدى فى الواقع الا الى التخريب ، ذلك ان اساس فكـرة مركوزه اساس واه ، لان فكرة «الحياة المشبعة» و « الوجود الناعم بالسلام » هى فكرة تتنافى مع طبيعة الانسان ، فالايروس غليان غامض لقوى معقدة ، لا يمكن ان تشبه بخلق الجمال . والانسان الشهوانى الحسى انسان مبتور ، وتاريخ الانسانية كله يدلنا على ان الانسان سعى دائما الى الحكم على الايروس ووضع الضوابط « واخضاعه للقول العقلى » . والانسان صراع داخلى وتمزق مستمر بين سيدين صارمين هما «الايروس» و«اللوغوس» او « الشهوة » و « العقل » . وآفة تفكير مركوزه انه يفترض نوعا من البراءة الاولية فى اصـل الانسان ، بالعود اليها ينحل الاشكال ، وهـذا تفكير لاهوتى ، رغم انف مركوزه ، ومهما ادعى الفصاحة الذهنية ، ولن تكون نجاة الانسان بالعودة الى البداية ، بل بالسعى قدما نحو تفاضل أوفر ، وذلك بالعلاء على نفسـه باستمرار ، وتجاوز المراحل ، وبالجملة : بالسعى الى الانسـان الاعلى الذى دعا اليه نيتشه .

وهكذا نرى ان الطريق الـذى ينبغى ان يسعى فيه الانسان هو ذلك الذى رسمه نيتشه وسلكه الوجوديون .



الفكر والحضارة

٢ـ وجهة نظر مؤرخ

خصائص حضارة العصر

نور الدين محمد حاطوم *

حضارة عصرنا الحاضر سليلة عصور عريقةفى القدم ، وثمرة جهود بشرية متضافرة ومتصلة عبر الأجيال ، وحصيلة انتاج آخذ بالتقدم يوما عن يوم . واذا كان هنالك من نعت تنعت به فهى أنها حضارة عالمية لا تعرف لها موطنا خاصا ، أوبيئة معينة .

لقد جرت بعض أقلام الغرب على وصف الحضارة الحديثة بالحضارة الأوروبية وبخاصة حضارة أوربة الغربية ، ولكن هذه الحضارة مالبثت أن امتدت عبر المحيط الأطلسى ونمت فى أمريكا . وهذا ما دعا آخرين الى تسميتهابالحضارة الغربية ، لأن أوربة وأمريكا من حضارة واحدة ، وذلك تمييزا لها عن الحضارات الشرقيةلأنها تختلف عنها كليا . ولكننا اذا حللنا هذه الحضارة نفسها وجدناها تنحل الىعناصر مختلفةكثيرة ، ولا ترجع الى الحضارة الاغريقية ـ الرومانية وحدها ، لأن هذه الحضارة الأخيرةنفسها ليست وليدة بيئتها فحسب ، بل انها تتألف من عناصر حضارات شرقية سبقتها بأزمان بعيدة .

واذا كان الاعتزاز بهذه الحضارة يدفع بعضالكتاب الغربيين الى القول بأن هذه الحضارة من صنع الانسان الأبيض الذىأنشاها ونماها ونشرهافى أرجاء كوكبنا الأرضى أداء لرسالته التى حملها وحده دون غيره ، فان هذا القول يجب أن نعتبرهمقبولا فى القرن التاسع عشر ، عندما كانت أوربة تتيه بتقدمها وازدهارها الحضارى ، وسبقهاالتقنى الحديث، والى ما هنالك من عوامل تجمعت وساعدت الدول الغربية الكبرى على استعمار القارتين القديمتين : آسيا وافريقية .

وفى الربع الثانى من القرن العشرين اخذتنغمة الانسان الآرى مبدع الحضارة تقرع الأسماع وتعلو ، وبخاصة فى عهد هتلر ، الذى تبنى آراء ونظريات بعض **العرقيين** ، وأحل الانسان الآرى مكانا عليا ، ووصف عرقه بالتفوق وابداعالحضارة ، وغيره بالتخلف والركود .

---

*الدكتور نور الدين محمد حاطوم ، استاذ التاريخ الحديثفى جامعة الكويت ورئيس قسم التاريخ بجامعة دمشق . كان عميدا لكلية الآداب بجامعة دمشق . له مؤلفات كثيرة فىالتاريخ الحديث وتاريخ الحركات القومية . يقوم الآن بنشر الموسوعة التاريخية الحديثة .

ولو بحثنا عن الأسباب التى دعت الى هذه المزاعم ونشرها لوجدناها ترجع الى الغرور الذى تملك بعض المفكرين بعد أن رأوا حكوماتهم تفتح البلاد وتستعمر أهلها وتسخرهم لخدمتها بما يصدرون اليها من مواد أولية وسلع غذائية ،وبما يستوردون منها من منتجات مصنوعة ، وافكار ، وعادات وتقاليد وفلسفات .

ان نظرة فاحصة الى هذه الادعاءات تدلنا بوضوح على تجاهلها الحقيقة التى يجب أن تقال بحق وصدق : وهى انه ما من انسان او عرق معين اختص بابداع الحضارة دون غيره ، بعد أن أثبتت التحاليل المخبرية فساد النظرية العرقية،ونقاوة الجنس ، ودلت الأبحاث العلمية على أن بني البشر كانوا على اتصال وثيق ، مهما كانت طرق المواصلات بطيئة ، منذ أقدم العصور ، واختلطوا بعضهم ببعض ، وأعطى كل واحد منهم الآخر وأخذ عنه ، وان الحضارة ليست حكرة خاصة ، بل هي من ابداع البشر جميعا قديما وحديثا والى الأبد . فهى اذن حضارة عالمية ، ومن حق الجنس البشرى كله ان يفخر بها ، لأنها حضارته ، ومن خلقه ، لا فرق فى ذلك بين انسان أبيض وانسان ملون ، أو بين عرق وآخر(1) .أما أن تكون هذه الحضارة قد نمت وتطورت وتقدمت فى بعض البيئات أكثر من غيرها فذلك أمر آخر ، ومرهون بشروط وظروف عديدة ساعدت على هذا النمو والتطور والانتشار .

ولا ننكر ، بعد ، أن هنالك حضارات سادت فى أقاليم معينة ثم بادت ، وتميز هذه الأقاليم عن غيرها ، كحضارة بلاد ما بين النهرين .والحضارة المصرية القديمة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود اتصال حضارى قديم ومستديم بين البشر واغناء بعضهم بتجارب بعض . ولكن الحضارة الحديثة تمتاز عن غيرها بأنها عصارة تلك الحضارات التى سبقتها وآلت اليها ، وأنها لا تريد فى عصرنا أن تكون مقصورة على بلد بذاته أو قارة بعينها ، بل أن تعم العالم أجمع بابداعها ومنجزاتها ، وكلما تقدمت طرق المواصلات وتسارعت وجدت سبيلا الى الانتشار ، ولم تبق جزءاً من أجزاء كوكبنا الأرضي الا نفذت اليه بوسيلة أو بأخرى ، حتى انها صعدت الى القمر بغية اتخاذه رأس جسر لانطلاق جديد نحو العوالم الأخرى. وقد لا يكون هذا اليوم عنا ببعيد ، حتى وكان طموح هذه الحضارة لا يقف عند حد ، فلا تلبث أن تحقق كسبا حتى تتبعه بآخر ، لتحقق ذاتها فى عالم الأفلاك واطار الكون .

وهذه الحضارة مطبوعة بطابع التقدم العلمي الحثيث والسريع ، مع ما يلازمه من تقدم فى التكنولوجيا . وهذا النمو العظيم والمتوازى لكليهما معا يعطى انسان النصف الثانى من القرن العشرين الايضاح الشامل الذى ينتظره من التأمل فى الكون والمادة والحياة مع ما يشارك ذلك من فلسفة لفهم هذا الوجود . ومن الملاحظ ان التقدم فى ميدان العلوم الرياضية يعتبر حادثا اساسيا ، لأن تأثيرها أصبح واضحا وقطعيا فى مختلف مجالات الفكر البشرى . لقد كثرت النظريات وتعددت بتقدم المعرفة ، واخذت كل قضية مطروحة أو محلولة تولد بذاتها قضايا كثيرة وأسئلة عديدة ، ولم يعد الواحد منا يأمل ، حيث يعمل ، الا فى معرفة عميقة فى جزء من أجزاء المعرفة . ولكن الرياضيات تجاوزت ميدانها الخاص واستمرت فى تطورها الصاعد منذ آخر القرن التاسع عشر حتى أصبحت لغة مجردة ولغة التعبير عند العلوم الأخرى .

وهذا التقدم العلمي يطمح اليوم ، كما كان يطمح من قبل ، ولكن بشكل افضل ، الى فهم الكون وفهم اسرار وجوده . وفى هذا الميدان تلتقى فروع المعرفة ، وان بدت ظاهرا متباعدة :

---

(1) راجع « لقاء الحضارات » ، للمؤلف فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية الجزء الاول للعام ١٩٦٩ .

فالرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم الحياةوالطب والجغرافيا وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) ، والراديو الفلكى (علم ملاحظةالكون) والملاحة عبر الكواكب تنتهى كلها الىمفهوم مقبول غالبا لكون لا ينتهى فى الزمان والمكان . ولأول مرة تحققت مكاسب عظيمة ودقيقة فى معرفة مركبات الكون من نجوم ونظام كوكبى .

وفى قضية تركيب المادة بذلت جهود لمعرفةالمركبات النهائية لها ، واثارت البحوث فى هذا الحقل قضايا هامة وصعبة كقضية الصلة بينبنية الذرة وبنية الكون ، وقضية مبدأ التقيد بقانون العلة والمعلول ،التىيقول بها الأمير الفرنسىلوى دوبروى الحائز لجائزة نوبل ١٩٢٩ ، وعدم التقيد للفيزيائي الألماني فرنر هايزنبرغ الحائزلجائزة نوبل أيضا عام ١٩٣٢ . وكلا هذينالعالمين يأمل الوصول الى الهدف الأساسى لجميعالأبحاثالقائمة حاليا وهو نظرية الساحة الموحدة ، أى معادلة المادة التى بحث بها آينشتاين وتوضيحجميع القوانين الفيزيائية . وبتعبير آخر ، ان ظواهر النجوم تتضح بالفيزياء النووية ، وانالنظرية العامة للكون ترتبط ارتباطا وثيقا بنظرية النواة الذرية(١) .

وفى معرفة الحياة تم الوصول فى علم الحياة(البيولوجيا) الى اكتشافين هامين : الأول ، هو اكتشاف المضادات للحيويات (انتيبايوتيك) . فقد سبق هذا الاكتشاف الحرب العالمية الثانية بعشرة أعوام عندما رأى الطبيب البريطانى السيرالكسندر فليمنغ ، الحائز لجائزة نوبل عام ١٩٤٥، أن وجود العفن على سطح الزرع الجرثومى يقاومنمو هذا الأخير . وفى ١٩٣٩ قامت فئة من باحثي اكسفورد بدراسة منظمة لهذا التأثير وعزلتالبنسيلين ، وفتحت بذلك الطريق لاكتشاف مضادات اخرى للحيويات ، فى وقت بدأت فيهالمعالجة بمركبات السولفاميد تفقد نفاذها بظهور سلالة جرثومية مقاومة لها .

والاكتشاف الثانى ، كان على الصعيدالنظرى ، وفى مضمار علم حياة الخلية : ففى عام ١٩٤٥ ظهرت النتائج الجزئية الأولى التىحصلعليها بواسطة الفحص بالجاهرة الألكترونية وتشريح الخلايا والكائنات الحية الصغيرة تحتالجاهرة وكيمياء الخلية،وأظهرت مقارنةالتجارب قيمة الحوامض النووية والدور الذى تلعبه فىحياة الخلية ، لأن هذه العناصر تعتبر مسؤولة عنالنشاطينالمميزين للمادة الحية وهما : **التمثيل**أى القدرة على صنع مادة مماثلة تماما لمادتها الخاصة ، **والتكاثر** اى الاستعداد لبناء خلاياحية . وهذه الأبحاث ما زالت نظرية ، ولكن من الممكن القول بانها ستنتقل فى المستقبل القريبمن نطاق النظر الى نطاق التطبيق وتدخل فىعلم الوراثة ودراسة الأورام الخبيثة (السرطان) .

ولعبت الكيمياء دورها الحديث ، فقد استطاعت بامكاناتها التركيبية الجديدة أن تشكل اجساما عديدة لا تقف عند حصر ، وحققت ما حلمبه السيميائيون فى العصور الوسطى ، وجهزت بمنتجاتها وسائل الانتاج لجميع الفاعليات البشريةودخلت فى مختلف درجات حياتنا اليومية وفى صناعة المنسوجات كمقو ، وفى اعداد الأصبغةوالالوان والصناعات التحضيرية والتجهيز بالمواد الأولية والضرورية للزراعة وفىميدانالمستحضرات الصيدلانية والغذائية والمنشطات الجسدية . وليس بعيدا فى المستقبل أن يستغنى انسانالعصرالحاضر عن المآكل والأطعمة بشكلها الطبيعى المعروف والمكلف والمضيعة للوقت ، ويكتفى ببضعحبيبات تغذيه وتدفع عنه الم الجوع ، وتغنيه عن

---

(١) راجع : Marcel Pacaut et Paul Boujau, le Monade Contemporaine, P. 19, Arm — and Colin, Paris 1964.

المطابخ والطهو وما اليها من أدوات الطعام ،وتجعل منه انسانا نحيلا وأكثر روحانية ، وأقل تعرضا للأمراض ، وأعظم مناعة .

وهكذا يبدو أن التقدم العلمي الصاعق صفة مميزة لحضارتنا الحديثة . أما أن يقال ان العلماء يستطيعون أن يجيبوا عن كل شيء اليوم أو في مستقبل قريب أو بعيد ، فتلك قضية خاطئة ، ولا يمكن طرحها على العلماء لأنها تنفرهم ،وهم أعلم من غيرهم في الحقل العلمي وملابساته . ولكن المهم هو أن الدراسات العلمية المختلفة التي حققت مكاسبها أصبحت تؤلف عدة كبرى واجهزة عظيمة في فتح المجهول ، وان العلماء يؤلفون اليوم جبهة سلمية في معركة العلم تلتقي فيها أنواع الدراسات وتتعاون معا في تقدمه(١) .

وصفة أخرى لحضارتنا الحديثة : هي انها مطبوعة أيضا بطابع التقنية ، وهذه نتيجة من نتائج الثورة الصناعية الدائمة والمتطورة . وقد عرف تاريخ البشرية ثورات صناعية ثلاثا : كانت الأولى عندما اخترع الانسان القديم الأداة وسخرها لأغراضه وحاجاته اليومية الطارئة . ولكن هذه الأداة كانت بطيئة الانتاج ، ولا تؤمن كل ما يطلب منها ، لأن التقنية تعوزها ، وهذا الفقر في التقنية كان عاملا من جملة العوامل التي دفعت الى الرق لاستغلال الحقول والمناجم في أمريكا عقب الاكتشافات الجغرافية الكبرى ، هذا فضلا عن أن الرقيق لا يحسن استخدام الآلة،وأكثر من ذلك انه غير قادر على العناية بها وصيانتها (٢) . ومهما يكن فان هذه الأداة المستعملة على بساطتها كانت في حينها تعتبر تقدما محسوسا وكسبا صناعيا وتقنيا .

وبدأت الثورة الثانية منذ استخدم الانسان الآلة البخارية والفرن العالي في أواخر القرن الثامن عشر، ونشأت عن هذا الاختراع علاقات اقتصادية واجتماعية ، وتعينت هذه العلاقات تبعا للتقنيات التي نشأت عن هذه الثورة . ولا مرية في أن ادخال الفحم الحجري والآلة البخارية والحديد والنقل بالبواخر والخطوط الحديدية قد قلب العلاقات الاجتماعية ، وولد المجتمعات الصناعية وساعد على تحرير الرق ، لأن تقدم التقنية دعا الى الاستغناء عنه وتحريره ، ولقد كانت انكلترا الرائدة في هذا الميدان ، وهي أولى الدول التي ارتقت عندما التقنية قبل غيرها (٣) .

غير أن تسارع التقدم التقني زاد في التناقضات وتعارض المصالح والمقاومة بين طبقة المنتجين وطبقة العمال في مجتمع منتجين ، اي في اقتصاد مجتمع يعمل قبل كل شيء للتجهيز وصنع وسائل الانتاج . وقد ظهر التناقض جليا ايضا بين التقدم التقني والعمل،لأن العلاقات الاجتماعية أخذت شكلا جديدا وهو التضاد بين أقلية منتجة واكثرية مستهلكة .

ولم تكن هذه الثورة الصناعية ممكنة لولا تقدم الحركة العلمية وتطبيق العلم في ميدان التقنيات التي نشأ عنها نمو صناعات جديدة كاستخراج المناجم والصناعة المعدنية والحديدية التي تنتج العتاد الصناعي والأشغال العامة والأجهزة الرافعة والصناعة الكيماوية وتجديد الصناعات التقليدية وتجنيد الأيدي العاملة في الصناعة ووسائل النقل الحديثة .

ونشأ عن هذا التطور حادثان عظيمان وهما : أولا ، التزايد السريع في انتاج العتاد ووسائل

---

(١) راجع مجلة « Realités » عدد حزيران ١٩٦٢ .

(٢) راجع : Henri Van lier, le Nouvel Age, p. 17 Casterman, 1962

(٣) راجع : Otto de Habsbourg, Bientôt l,an 2000' Hachette paris 1969

الانتقال والمواصلات بشكل جديد يختلف تماماعن الوسائل المعروفة التقليدية . ثانيا : تشكيل الطبقة العاملة وقد بدأ شأنها يعظم يوما بعد يوم . ولقد أدخل الحادث الأول تمييزا واضحا لا سابق له بين البلاد والناس ، بين من يصنعون ويملكون وسائل الانتاج الجديدة والمواصلات ، وأدوات التدمير ، وبين من لا يملكون هذه الوسائل ويتعرضون الى الخضوع لقانون الأولين .

ووضع الحادث الثانى تصنيفا جغرافيا واجتماعيا للسكان : فقد كانت الصناعة الناشئة فى القرن التاسع عشر تتركز جغرافيا فى مناطق المناجم التى تجهزها بالطاقة أو بالفلزات المعدنية ، وفى مراكز عقد المواصلات وفى مناطق النفوس ، وفى النصف الثاني من ذلك القرن أصبحت المدينة نتاج النمو الصناعى أو التصنيع .

وساعدت الأبحاث التى قامت فى هذا السبيل على تخفيض سعر الكلفة وحث الاستهلاك المتزايد ، وتخفيض زمن العمل وعدد العمال المستخدمين لتحقيق انتاج معين ، وادخال الكم والكيف فى مراحل تحضير الانتاج ، وفى طبيعة اليد العاملة المستخدمة، وفى تحقيق آلات ميكانيكية جديدة تعمل للانتاج ، والاقلال من تعقيد الجهود والحركات المبذولة بتقسيم متزايد للعمل وتحديده وتسلسله وتوقيته .

والثورة الصناعية الثالثة بدأت منذ تعاقبت التحويلات الصناعية وظهرت مصادر جديدة للطاقة ومواد أولية جديدة وفهارس كبرى للمنتجات الصناعية ، لأن الآلة لم تعد مساعدا بسيطا للانسان ، بل أخذت تنوب عنه ، وفى الحالات النهائية تتجاوزه بتحقيق عمليات لا يستطيع القيام بها فى مضمار الميكانيكية والعقل الألكترونى وفتح الفضاء وخرق حجاب الصوت وغير ذلك مما يأتينا به المستقبل القريب والبعيد من مفاجآت تتعدى نطاقنا الخاص فى التحقيق والانجاز والعمل ، مما زاد فى عدد المنتجات الصناعية دون انقطاع ،وفى عدد القطع الداخلة فى بناء الآلة أو الجهاز المستعملين وفى تعقيدهما أيضا .

ويظهر الدور الحالى بخاصة متميزاً بتحول أساسى فى العلاقات بين الانسان والآلة . واذا كان حقا أن العامل يخشى دوما أن ترده الآلة الى البطالة فان العلاقة بين هذا الانسان والآلة آخذة اليوم فى التغيير . لقد قللت الآلة ، فى القرن التاسع عشر ، العمل المقبول لتحقيق انتاج معين بتبسيط عمل الانسان وزيادة قوته ، ولكنها بقيت له مساعدة ، ولولا وجوده لظلت دون حراك ودون نفاذ . أما اليوم فان مراحل بكاملها من الانتاج أو الحركات أصبحت الآلة تقوم بها وحدها ، وغدت رقابة العمليات الصناعية أو غيرها من عمل الأجهزة ، ولا يتدخل الانسان الا من بعيد ليوجه العمليات فى تسيير المراحل الميكانيكية الضرورية ، وهو يعلم عن بعد ، بواسطة وسائل الاتصال التى تقع تحت يده ، الحوادث الطارئة ليصحح الخلل ، كما يظهر ذلك فى تسيير الأقمار الصناعية ،والسفن الكونية والأجهزة المستعملة فى صنع الخطوط الحديدية والصناعة الميكانيكية ، وفى أعمال المكاتب تحت اسم أصبح معروفا وهو الآلية الأوتوماتيكية .

وعلى هذا النحو أصبحت الآلة نفسها معملا لصنع القطع وتركيبها لصنع أجهزة جديدة . وأخذت الأجهزة الألكترونية تساعد على القيام بسرعة فائقة جدا بعمليات وتصنيفات وحسابات لو جرت فى أحسن الشروط لاحتاجت الى عدد عظيم من العمال خلال ساعات أو أسابيع . كما فتحت العقول الألكترونية أمام الصناعيين والتجار وأصحاب البنوك وشركات التأمين والطالبين النصح والارشاد والضاربين الاستخارة فى قضايا الزواج والمتنبئين بنجاح الحروب والراجمين بالغيب ، آفاقا جديدة واسعة لا تقف عند حد أو قيد .

وهكذا نرى أن بعضا من حاضرنا أخــذيتحرك بفاعليات وتسلسل حركات آلية لم تحذف الانسان ، ولكنها على أقل تقدير ، قللت تدخله وردته الى حده الأدنى ، وبعثت فى فكرنا عالما جديدا ومستقبلا قريبا أو بعيدا بكل ما يسر أويضر .

وربما يكون من السابق لأوانه أن نفكر بأن جميع الأعمال البشرية ، يمكن أن تكون فى وقت قصير آلية ، لأن بعض قطاعات النشاط قلما تكون على استعداد لآلية مربحة ومفيدة اذا كانت الحصيلة الانتاجية فيها تنمو بسرعة قليلة جدا ، لا سيما أن الآلية الحديثة تتطلب كالبحث الذرى مستوى تقنيا عاليا واحتياطيا ماليا عظيما ، وهذا ما يجعلها امتيازاً من امتيازات الشركات الصناعية الكبرى والقوية جدا ، لأن هذه الشركات تستطيع بما لديها من امكانيات متعذرة على غيرها أن تتجه نحو قطاعات نشاط جديد فى حقل الانتــاج والاستهلاك والخدمات . وقد يقول بعضهم ان هذا الأمر يمكن أن يناط براسمالية جديدة ، بينما يرى آخرون أنه يتعلق بالانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، عند شعب تحرر من أشكــال العمل القديمة ولديه من الوقت الجاهز ما يستطيع التصرف به .

ومهما يكن فان الجغرافيا تميز بين البلاد التى يمكن أن تؤدى فيها الآلية ، بعد فترة مــن الزمن ، الى تغييرات عديدة فى مواطن الانتاج والاستهلاك ، وبين البلاد التى لا يمكن أن تشبهها ، ولو من بعيد ، وتجد نفسها مضطرة الى البحث عن شكل من أشكال التعاون والمبادلات مع البلاد التى تسلحت بالأجهزة الميكانيكية والآلية ، هذا فضلا عن أنه يمكن النظر الى هذه القضية من وجه آخر : وهو أن نتساءل ما هو وضع البلاد الغاصة بالأيدى العاملة العاطلة عن العمل التى يتضاعف سكانها فى فترة جيل واحد اذا دخلتها الآلة أو اضطرت لادخالها ؟ لا شك أن البون يصبح شاسعا بينها وبين البلاد الممكننة القليلة السكــان نسبيا . وعالم اليوم يزداد اختلافا وتباينا أكثر من أى وقت مضى مع ما فيه من ظواهر تدل على تقارب البشر ووحدتهم .

واذا قلنا ان حضارتنا اليوم تتصف بتقدم العلم وتقدم التقنية فيجب أن نتصور أن لا فاصل يحجز بين العلم والتقنية ، بل هما يعيشان عيشا مشتركا وكل تقدم يصيب أحدهما ينال منــه الآخر وينعكس عليه ، ولا يمكن تعيين الحدود بين العلوم والتقنيات . ونمو هذه الأخيرة يفرض على العلم القيام بأبحاث واكتشافات ، كما أن تقدم العلم يدعو الى تقدم التقنية . وهكذا يتمم أحدهما الآخر ولا ينفصل عنه . ولنذكر على سبيل المثال أن الصواريخ التى وضحت وحسنت قد أصبحت الآن من أفضل وسـائل اكتشاف الفضاء ومعرفة الكون ، وأن المؤسسة القومية للملاحة عبر الفضاء الأميركية جعلت مهمتها العمل على تقــدم علم وتكنولوجيا الفضــاء ، وارسال اميركيين الى القمر ، وان ما يقارب نصف المليون من الرجال مسخرون للنفوذ الى أسرار الكــون وتعريف ظروف نظامنا الشمسى ، وأن كل هذه الأجهزة جميعها تقتضى تعاونا وثيقا وواعيا بين العقل والآلــة ، وأن العلــم والتقنيــة المتلازمين يسيطران على العالم ويلعبــان فى تطــوره دورا أساسيا ، وأن الامكانيات التي تتيحانها لانسان النصف الثانى من القرن العشرين والقرن الحادى والعشرين تبدو بغير حدود وتنمى عنده العاطفة بضرورة القيام بجهــد مستمر وشــاق ومكلف وأحيانــا مخيب ، ولكن هذا لن يفت فى عضــد العلماء ، لأن الحياة عندهم علم ومعرفة وتفكير .

وقد أدى تقــدم العلم والتقنية وتعاونهما الوثيق للانسان المعاصر خدمات جلى فى حياته اليومية . فتقدم الطب ومنه المعالجة وصناعة الأدوية والعمليات التى تجرى فى أحسن الشروط والوعى الصحى وتنظيم توزيع الأغذية ، ان كل ذلك قد ساعد ولا شك على تخفيض نسبة الوفيات وزيادة السكان : فالمجاعات والأوبئة والأمراض التى اعتبرت زمنا طويلا من غضب الآلهــة أو

ظاهرات من ظواهر القضاء والقدر زالت اليوم من سطح كوكبنا الأرضى أو على الاقل ، لم تعد كما كانت عليه بشكلها المخيف والمبيد والمزمن .

ولكن البشرية ما زالت تشعر بتناقض عظيم بين رغبتها الدائمة فى تحسين ظروفها المعاشية وبين التزايد المتسارع فى عدد السكان الذين يجب اشباعهم ، لأن الانسان حين يأتى الى هذا الوجود، يأتى خالي الوفاض مستهلكا ، وليس بالامكان دوما اعطاؤه الطرق والوسائل التى يصبح بواسطتها منتجا ليؤمن التوازن بين الانتاج والاستهلاك ،أضف الى ذلك أن الحاجات والرغبات الجديدة والمتجددة باستمرار قد ازدادت بنسب عظيمة فى العقود الأخيرة من هذا العصر، حتى ان اشباعها لم يتحقق الا للعدد القليل من الناس ممن توافرت فى بلادهم شروط التقدم الصناعى ، أو ممن تهيأت لهم الأسباب التى مكنتهم من ارضاء رغباتهم .

أما الأكثرية العظمى من الناس فان تكاثرها العددى أصبح عائقا ومانعا يحول دون الوصول الى الحياة المتقدمة ، ولا يجود الا بالنزر اليسير، وما ذلك الا لأن الفائض المتزايد للسكان يقف أمام كل امـل يرفع المستوى الاقتصادى والاجتماعى ويجعل بلوغ الرفاه العام أمراً صعب المنال .

وقد ترتب على هذا الفائض ازدياد التناقض بين البلاد المتقدمة حضاريا التى تريد أن يكون ازدياد عدد سكانها عاملَ غِنىً لها لأنه يساعدها على تسارع حركة الانتاج والاستهلاك ، وينوع دورة الانتاج ، وبين البلاد المتخلفة التى تظهـر عقيما اقتصاديا واجتماعيا بسبب طغيان السكان.

لقد تزايد سـكان الأرض بشكل سلسلة هندسية : ففى أول هذا القرن كان رقم السكان ١٥٠٠ مليون نسمة . وفى حوالى العام ١٩٥٠ تجاوز الرقم المليارين ونصف المليار ، مع تزايد يقارب المائة مليون فى العام، أي بما يربو على مائتى ألف نسمة فى اليوم .

وتشير التنبؤات الى أن رقم السكان سيكون سبعة مليارات فى العام ٢٠٠٠ أى بعد ٣٠ عاما . واذا مددنا منحنى الأعوام حتى ٢٣٠٠ ، فهـذا التمديد معناه الغد فى عمر العصور الجيولوجية ، ولكنه يعتبر كافيا للوصول الى رقم للسكان لا يجد فيه الانسان موطئا لقدميه على سطح الأرض .

وقد رأى المؤرخون ان رقم السـكان فى العالم فى بداية التقويم الميلادى ارتفع الى ٢٥٠ مليون نسمة ، وأن عـدة آلاف من السـنين مضت حتى انتقل من ١٠٠ مليون أو ١٢٠ مليوناً الى هذا الرقم ٢٥٠ مليوناً .

ولكننا اليوم نرى تزايد السـكان يتـم فى سنوات قليلة ، وليس هذا التزايد واحداً فى جميع القارات : فقد تضاعف سكان أوروبا بمن فيهم سكان القسم الآسيوى من الاتحاد السوفياتى فى قرن واحد من ١٨٦٠ الى ١٩٦٠ ، كما تضاعف سكان آسيا فى الـ ٦٠ سنة الأخيرة ، ومثل ذلك سكان أفريقيا فى الوقت نفسه . وتضاعف سكان أمريكا الشمالية فى ٤٠ عاما ، وسكان أمريكا اللاتينية فى ٣٠ عاما . هذا مع العلم ان انطلاق التسارع لا يوضع فى تاريخ واحد بالنسبة لجميع البلاد .

وهذه الزيادة الرهيبة المخيفة فى عـددالسكان تدعـو الى التشاؤم خوفا مـن حدوث المجاعات بسبب قلة الأغذية ، غير أن آراء رجال العلم فى موضوع المجاعات وزيادة السكان ليست مجمعة ، فضلا عن أن هذه الناحية لم تدرس دراسة جدية بعد ، ولم تعتمد بعد على احصاءات وثيقة ، لا سيما أن التقارير الادارية التى تتناول السكان كثيرا ما تشوبها المبالغة والابهام ، وتدخل

فى هــذا الحقــل كثير مــن الاعتبارات الدينيــةوالاقتصادية والسياسية ، ويرى بعضهم اباحة استعمال الموانع وآخرون عدم معاكسة الطبيعة ،ويتساءل الاقتصاديون اليابانيون المتازون ما اذا كان تنظيم الولادات والتخطيط العائلى ، بغيــةارضاء رغبات المستهلكين المباشرة ، يمكن أن يحول أو أن يبطىء التقدم العلمى والاقتصادى ، وهــم يرون أن زيادة النفوس قد تشحذ الهمم فى البحث لايجاد الأغذية الكفيلة بسد الحاجات ، وتساعدبالتالى على التقدم العلمى ، وما زالت هذه القضية بين أخذ ورد .

وحضارتنا الحديثة مطبوعة أيضا بطابــع السرعة المتسارعة : لقد كان الانسان القديم يريد الوصول الى غايته دون أن يسأل عن الزمــن ،اما انسان اليوم فيسأل الوصول الى لبانته فى أقرب وقت وبأسرع سرعة ،ويحاسب نفسه على الدقيقة المهدورة سدى ، لقد أصبحت المواصلات آنية ، وتنقــل الأشــخاص بالكيلومترات الساعيــة ،والطائرات التجارية تجوب الفضاء بسرعة تفــوق سرعة الصوت ، والتوصيات عليها قائمة على قدم وساق ، والذهاب من أوروبا الى أمريكا نزهــة يوميــة ، ورجــال السياسة والأعمال والخبراء والمهندسون والأطبــاء ينتقلون بسهولــة وسرعة لا تتصور بين قارة وقارة،وبيسر أكثر من انتقالهم بين اقليم وآخر فى بلادهم . لقد انعدمت المسافات أو أصــبحت فى حكم العــدم ، وغــدا العالــم بلدا واحدا ، وبالرغم من ذلك فان تحديد العلاقات بين البشر وانتقالهم ليس متعلقا بتدخل المسافة الزمنية، بل بتدخل السلطات والادارة والتأشيرات والمسافة السعرية .

حقا لقد أصبح الاتصال سهلا بين جميع أمم العالم ، رغم التمييز بينها ، وتغيرت أساليب الحياة بفضل هذا الاتصال السهل القريب البعيد،ولكن هذا لم يمنع من وجود التناقض : واذا كان بعض الناس يفكرون ويعملون على صعيد الناقة والبعير ، أو على صعيد الكيلومتر ، فان أكثــر الناس فى العالم المتمدين يفكرون ويعملون ويتعاملون اليوم على المقياس القارى والعالمى ، وعلى صعيد الشمول واللحظات : فمن الممكن لأسطول جوى أن ينتقل من نقطة على سطح الأرض ويفنى حياة الملايين من البشر ، ويجعل البلاد خرابا يبابا ،والديار بلاقع ، فى أقل من بضع ساعات،ويعود الى قواعده سالما آمنا . وتستطيع الطائرة فى الوقت نفسه أن تنقل الأمراض والأوبئة من مسافات بعيدة لولا الوقاية والحجر الصحي .

واذا كانت هذه السرعة تتجاوز المسافات الطوال ، كالمحيطات ، والبوادى ، والجبال ، غــير مبالية بعقبة ، فان سرعة العلاقات المحلية والاقليمية ما زالت تشكو البطء : فمشاكل المواصلات بين المدن لم تحل بعد ، ولا يبعد أن تكون بين الأحياء فى المدينة الواحدة ، وقد تعزلنا العوامل المناخية كالثلج والمطر والفيضان عن أقرب قرانا الى مدينتنا ، ونبقى على اتصال مع العالم بالراديو والتلفزيون ، وهكــذا يصــل الترانزستور ابن البادية وهو على ظهر راحلته يقطع البيداء على أنغام الموسيقى العالمية وخطب الزعماء السياسيين واحاديث المدينة ويطرب ويعجب ممــا يدرك ولا يدرك ، ولكنه على كل حال يثقف نفسه بهذا الجهاز وطوله لا يتجاوز طول الكف ، وليس ببعيد على البدوى أن يثقف نفسه بعد أيام معدودات بتلفزيون له نفس الابعاد والحجم ويجمع بين الصوت والصورة وبين لذة السماع ومتعة المشاهدة ،وسيستغنى ابن المدينة عن جريدته اليومية فلا يهتم بها بعد أن اتته متأخرة عن سماع الأخبار بالراديو ورؤيتها على الشاشة ، وسنخاطب عن قرب من نريد ونرى صورته أمامنا على الجهــاز الذى نخابره به ، وهو بيننا حاضر غائب . وهكذا وصل الملاحون الثلاثة على ظهر ابولو ١١ و ١٢ الى القمر فى خمسة أيام أو أقل ، كما نقطع البحر المتوسط على متن الباخرة فى خمسة أيام وبضع ساعات .

ولكن هذه السرعة المادية ، مهما بلغت ، ابعد من أن تصل أو تواكب السرعة النفسية فى لغة العاطفة والحب ، لأن هــذه لا تعرف حداً لقوتها عندما نبغى الوصول الى ما نريد ، حيث تقول : « وغــدى فى هواك يســبق أمسى » . ومثلهذه السرعة لم يتوصل اليها فرسانالفضاء الخارجى ، غير أننا فى متعة الحب الصافى نستمهلالزمان ونرجو دوام الليل ، ونقــول للشمس : « تعالى تعالى بعد سنة مش قبل سنة » .

ومن هذا التناقض فى العلاقات البشرية علىمقياس كوكبنا الأرضى نستخلص فكرتين :

الأولى ــ هى الشعــور بالمشاركة مع بنىالبشر مع ما فى هــذه المشاركة مــن مخاطرات والتزامات : فما من أحد يستطيع اليوم أن يكونغير مُبالٍ بالحوادثالجارية ، مهما كانت بعيدة ، والتى يمكن أن تتسلسل بسرعة فائقة وتكــونمفعمة بالنتائج التى تعم الكرة الأرضية جمعاء : ان القضية الفلسطينية وحرب فيتنام تشغلانبأبعادهما المتصاعدة وجدان العالم بأسره .

والثانية ــ هى اتســاع نطــاق القضــايا الاقتصادية والسياسية على المقياس العــالمى ، بينما تضيق فكرة الجوار وتفرض انشاء نظــمللتنسيق والتوحيد بين البشر ، مثل عصبة الأمم فى فترة ما بين الحربين،ومنظمة الأمم المتحدة بعدالحرب العالمية الثانية ، والى ما هنالك منمنظمات دولية فى حقل الغذاء والعمل والصحة والتعليموالعلم والثقافةوالتربية والمساعدة الفنيةوالتعمير والتنمية والاعلام والمعرفة العميقة لكل ما يتعلقبحياة حاضر العالم ومستقبله ، وقد نجحت هذه المنظمات قليلا وأخفقت كثيراً ، وما زالت تتعثر فى سيرها ، رغم الجهود المبذولة لتقويتها .

ولكن الهوة ما زالت سحيقة أمام هـــذهالمحاولات الكثيرة فى تعميم المواقف وشمول النظم، ولعل انقسام العالمالى كتلتين : الكتلة الرأسماليةبزعامة الولايات المتحدة ، والكتلــة الاشتراكية برياسة الاتحاد السوفياتى ، ليس الا الشكــلالأساسى والوحيد فى الاختلاف والتنوع .

وتبدو قضية التخلف شائكة فى حضـــارةاليوم ، لأن البلاد التى تتصف بهذا الوصف بحكم ظروفها التاريخية وجدت خارجة عن حركاتالتصنيع الكبرى التى اقامت الاقتصاد الصناعى وطورت المجتمعات ، وما زالت رغم نموها الحديثمحافظة على بنائها الاجتماعى العتيق ، ورازحة تحت وطأة طفرات ديموغرافية مذهلة تحــاولحلها فلا تجد لها حلولا جذرية .

ومهما يكن امر هذه البلاد المتخلفة فــانالتطور السياسى ، فى ظروفه الخاصة والعامة ، أدى الى استقلالها وخلاصها من نير الاستعمارالذى اثقل عليها وكان من جملة عوامل تأخرها فترة غير قصيرة من الزمن ، وهى الآن تعانى أزمةالنمو التى تنتاب عادة البلاد الحديثة الاستقلال . واذا كانت مصادر ضعف الحكم فيها ناشئة عــنعــدم التجربة وقلة الخبــرة والجهل بالقضــايا الاقتصادية والسياسية مع ما يصحب ذلك منالفساد وأنانية الزعماء ووحدانية الحزب الحاكم والشدة المذهبية والصرامة العقائدية التى تذهبالى درجة التطرف وتخوين الغير ، فيجب أن نعترف أن هذه الحالات رغم أخطارها الجدية ،ليست نوعية وخاصة خطيرة واشارات حمراء تحول دون التقدم الى الأمام ، وأن وعي الشعور النامى والمتكامل كفيل مع الزمن ، بازالة الابهام ودفع الأخطار واحلال الرشاد محل الضلال .

واذا استقلت هذه البلاد سياسيا ، فاستقلالها ما زال سريع العطب ، ومحفوفا بالمكاره من كل نوع ، لأن الخلاص من الاستعمار سياسيا لايعني الخلاص منه اقتصــاديا ، وهــي مضطرة بحكم ظروفها الموضوعية الى مد يدها الى عدوهابالأمس فىسبيل المعونة الفنية والتنميةالاقتصادية

والتطور الاجتماعى ، أو الى التعامل مع بلاد لم تذقها مرارة الاستعمار ، أو للحوار مع البلاد الاشتراكية فى جو الصداقة والسلام والتفاهم والاحترام المتبادل والمساعدات غير المشروطة .

وما من شك فى أن الحوار الاقتصادى ضرورى للبلاد الراقية كما هو ضرورى للبلاد المتخلفة . واذا كانت هذه الأخيرة تنتظر من الحوار الحصول على الوسائل المخففة لوطأة التخلف ، ان لم تستطع ازالته ، فان الأولى ، أى البلاد الراقية ترى فى البلاد المتخلفة متمما لاقتصادها يمتص منها ، طوعا أو كرها ، زيادة الخبراء والفنيين ووسائل التجهيزات الحديثة ، كما تمتص منه بالضرورة احتياطياتها من المحاصيل الخام أو تقاسمه رزقه الطبيعي الفوقى والتحتى بين تبادل الخبرات والمنافع والحفاظ ــ فى هذا التعاون المبنى على المصالح المتبادلة ــ على الصيغ القانونية والحقوقية التى تنجو من طغيان الاستعمار الحديث أو من مخلفات الاستعمار القديم . وفى مضمار هذا التعاون يقوم التنافس بين العملاقين ، بين الاقتصاد الراسمالى والاقتصاد الاشتراكي ، ، فى الاهتمام والبحث ، قبل كل شيء ، عن البلاد ذات القيمة الستراتيجية والاقتصادية ، ويلبس التدخل السياسى تحت رداء الاقتصاد والثقافة الوانا عميقة أو زاهية تختلف حسب درجة الاغراء وقوة المقاومة .

ولا يخلو هذا التعاون الوثيق أحيانا من أخطار ، وله مناقبه بالقدر الذى يساعد على النمو والتقدم وتحقيق المكاسب والأخذ بأسباب الرقي ، وله مثالبه بالقدر الذى تكون فيه المساعدات مشروطة ظاهرا أو مستترة ، لأنها تضع المتخلف ــ شاء او لم يشأ ، عن وعي أو عن غير وعي ــ تحت رحمة المتقدم الراقى ، وتجعله يأتمر بأمره ويعمل بايحائه ولو كان مستقلا سليما معافى ، ولعل الدول الكبرى العملاقة ، على ما فيها من حول وقوة ، لا تظهر قيمتها الا بقدر ما يدور فى فلكها من دول صغرى .

ولكن هذا التقدم ، الذى تحققه البلاد المتخلفة والسائرة فى ركب الحضارة الحديثة لا يعدو عن ان يكون صغيرا وقليلا اذا ما قيس بالنسبة الى التقدم بخطا الجبابرة الذى تحققه البلاد المجهزة صناعيا وتقنيا والعريقة بحضارتها . وهذا ما يدعو فعلا الى اليأس ، رغم قوة الايمان ، حتى كأن نوعا من جبرية تفرض على البلاد المتخلفة لتبقى حيث هي ولو حاولت الرقي والتقدم . وبالرغم من هذا الوضع الذى يدعو فى بعض الأحوال الى القنوط ، فلا مبرر للبقاء على التخلف المقيم ، ولا بد من السعى حثيثا فى طريق النهوض والرقى .

وآخر ما نصف به حضارتنا الحديثة هو انها تعانى اليوم أزمة(1) : ان عصرنا الذى نعيش فيه تركيبى يضم عناصر مختلفة وغير متجانسة من ركام الحضارة وافانينها فى الخلق والابداع ، انه عصر الكثرة والوفرة والتناقض والاختلاف والتنوع فى كل شيء : فى انماط الحياة ومستواها ، وفى الأفكار والعقائد والمذاهب ، وفى شتى انواع التطور من قديم وحديث ، وكلها تجتمع على صعيد واحد ، وفى البلد الواحد ، وحتى فى البلاد المتقدمة اكثر من غيرها .

واليوم ــ وقد بلغت الحضارة ما بلغت ــ يثور الانسان الواعى على هذه الحضارة وعلى ما خلفت من طرق ومناهج وقيم ومذاهب وتقنية ، ويحاول أن يقيمها ويقدمها ، ويجعل ما كان بالأمس منها عقيدة راسخة وحقيقة مقبولة . ومعطيات مسلما بها ، موضع شك وتساؤل ، ولا غرو اذا وجدنا حضارة العصر تعانى أزمة بل أزمات ، وابرز هذه الأزمات ثلاث :

---

(1) راجع : Robert Aron, L, Histoire Contemporaine 1945, P. 386, La Rousse, Paris 1969

الأزمة العقلية ، والأزمة القومية ، والأزمة الاشتراكية .

لقد حاولت الحضارة الحديثة ، بما فيها من علم وتقنية ، وبعد تلمسات عديدة فى مختلف الميادين ، أن تجعل من العقل رائدا لتسير على هداه فلا تضل السبيل ، وتوصلت الى الطريقة التي تجعل الانسان سيد الطبيعة ومالكا لها . وقد هيأت له هذه الطريقة جميع الأسباب التى « عقلنت » وجوده وسهلت ظاهرا عليه سيطرته على العالم وسلوك حياته ، ولكنها فى الوقت ذاته أفقدته أو تحاول أن تفقده أسباب حياته وحريته ، لقد أوجدت هذه الطريقة تكنوقراطيين يؤخذون بالميكانيكيات الاقتصادية دون اعتبار كاف للعوامل البشرية ، وعقولا مجردة ومتحجرة يتحمل سيطرتها ويصبر عليها . وقد بلغت هذه القوى كامل سلطاتها فى الدول الديكتاتورية ، وتحاول أن تتسلل الى الأنظمة الديمقراطية عن طريق الخطط ووضع المناهج وجميع التدخلات التى لا مبرر لها للدولة ، والحاق القيم الانسانية والروحية بهؤلاء التكنوقراطيين والبوروقراطيين المتحكمين . من هنا تخرج صرخة الضمير الواعى على العقلانية المستبدة التى تريد أن تسير الانسان حسب هواها وتحرمه لذة العيش كما يتصور ويريد ، وهكذا ينادى الثائرون اليوم : « العالم ليس عقلا »

والأزمة القومية تتجلى فى أن الحركات القومية التى قامت فى العالم أدت فى النهاية الى تشكيل دول قومية حذت حذو بسمارك وكافور وهتلر وموسولينى وستالين . وعلى ما يبدو أن التعصب للقومية دفع الى التقوقع فى الاطار الاقليمى ، ولكن هذا الوضع دعا الى التساؤل وطرح القضيتين الآتيتين :

أولا : هل البلاد المحصورة فى داخل حدودها ولا تقوم بأى تحديد لسيادة بعضها حيال الأخرى تتوصل الى تأمين سلام العالم ؟

ثانيا : هل الحكومات المركزية الخاضعة لتفوق الدولة ، ولو كانت شعبية ، تتوصل الى تأمين الحريات وانقاذ الديمقراطية ؟

ان التساؤل في مثل هذه القضايا دعا الى الخروج على القومية والانتقال الى مرحلة جديدة وهى مرحلة الفوقمية (الفوق قومية) وذلك بوجوب تصعيد الحدود القومية وجمع الأمم التي تؤلفها فى منظومة قادرة على توكيد وجودها وقوتها امام الكتلتين الكبيرتين ، وهذا ما ظهر فى محاولات التنظيم الأوروبى فى اعقاب الحرب العالمية الثانية ، **كما فى المنظمة الأوربية للتعاون الاقتصادى** التى تشكلت فى ١٦ نيسان ١٩٤٨ وتضم ١٦ دولة ، وفى منظمة **المجلس الأوروبى** ، الذى جعل مركزه مدينة ستراسبورغ وضم ١٥ عضوا وهدفه تحقيق اتحاد أوثق وتشجيع تشكيل رأى عام أوروبى ، وفى « المنظمة الأوروبية للفحم والفولاذ » التى اختارت مدينة اللوكسمبورغ لتكون مقرا للسلطة العليا لهذه المنظمة ، وفى « الأسرة الاقتصادية الأوروبية » أو « السوق المشتركة » وفى « الأسرة الأوروبية للطاقة الذرية » أو « اليورانيوم » وفى « الرابطة الأوروبية للمبادلة الحرة » ، وكلها كوات تطل على عالم يتجاوز حدود القومية ويتطلع الى اتحاد أعم وأوسع .

والأزمة الاشتراكية نشأت من الافراط فى تطبيق القواعد العقلانية على الحياة السياسية والاجتماعية ، لأن التجربة الانسانية اظهرت عيوبها وانقسامها على نفسها فى الخلاف القائم اليوم بين الاتحاد السوفياتى والصين ، بين نظام يريد أن يتحلل من قيوده ، ونظام ما زال فى حداثة سنه وعز صرامته ، وهذه الأزمة الاشتراكية توضح لنا الثغرة التى حدثت فى قلب العالم الشيوعي

وتعقيد العلاقات التى يريد شدها مع العالم الغربى ، كما توضح أيضـا تطورها نحو تحقيق مغنم من الحرية ما زال محدودا وضعيفا .

ومهما يكن من امر هذه الحضارة فيجب الانكر أنها حققت منذ مطلع هذا القرن رقما عظيما وأعمالا باهرة ، وآخر ما حققت نصران مبينان ،هما تطعيم القلب والوصول الى القمر ، ولن يكون هذان النصران الوحيدين والآخيرين . وقد كانت هذه المغامرات الفائقة ، قبل سنوات قليلة فى حيز الأحلام والخيال ، أما اليوم فقد فتحت آفاقا لاتحد فى تقوية الأعضاء المتضررة أو البالية المتوهنة ، وفى المواصلات الحرة عبر الكواكب بفضل العلم الحديث والتقنية الحديثة المتجددين دون انقطاع . وان اختراع العقل الالكترونى يؤكدلنا عن يقين بأن تسارع التقدم ،وهو صفة مميزة لحضارة العصر ، أبعد ما يكون عن بلوغ حدوده القصوى ، لأن البحث العلمى الدائب المستمر ، بما لديه من عقول بشرية وادمغة الكترونية ساعد على القفز فوق الحسابات العادية المملة ، وسار بالانسان ، خلال جيل ، الى الأمام فى معرفة الكون والعالم مما لم تعرفه البشرية منذ آلاف السنين . ولعلنا نتساءل بعد هذا عن المفاجآت العديدة التى ننتظرها فى العام ٢٠٠٠ (١).

لقد بلغ المجتمع البشرى فى الشعوب الطليعية النمو مستوى الرفاه والأمن والوفرة ، ونعمت الأكثرية الساحقة فى هذه الشعوب بما لم تنعم به فى عصر سابق ، ولا شك فى أن مجتمعات بشرية أخرى ما زالت تعتبر محرومة ، ولكن ما نجده تحت تصرفها وفى متناول يدها من نعم الحضارة الحديثة وخيراتها يفوق أضعافا مضاعفة ما كان ينعم به الأمراء الاقطاعيون فى العصور الوسطى ، والبورجوازيون فى القرن الفائت . واذا قارنا تحسين شروط الحياة فى عصرنا الحالى بزيادة متوسط عمر الانسان وقبلنا أن التقدم يتفاوت حسب البلاد وحسب الشعوب فاننا نقبل أيضا أن التقدم حاصل فى كل مكان بل وفى المناطق المحرومة ، وان هذا التقدم قد تسارع كثيرا فى مختلف الميادين لمزيد من النعيم والسعادة وطول العمر والفراغ وتحدى الطبيعة والموت ، وفى سبيل مساواة أعظم وتوزيع للخيرات أشمل . وأصبح معروفا بالبداهة أن هدف هذه المجتمعات الحديثة ليس الوصول الى الحد الأدنى من الحياة ، بل بلوغ المزيد والمزيد المتسارع دوما وأبدا ، ويتساوى فى هذا السباق العالم الراسمالى والعالم الاشتراكى ، وما دام الأمر كذلك فهل هذا السباق ينتهى الى لقاء بنى البشر على صعيد واحد تذوب فيه العقائدية ويصبح بنو البشر اقل تعصبا لمذاهبهم ، وهى فى حقيقتها وسائل لبلوغ المنى ،ولا تناحر بعد اليوم !؟

ولكن هذه الحضارة على ما قدمت وأحرزت ، ما زالت موضع شك ، ويعتقد بعضهم بافلاسها وعدم قدرتها على منح الانسان الكرامة والشرف . ولا شك فى أن هذه الضجة القائمة حول حضارة العصر لم تلق صداها لولا أنها عبرت بنفسها عن القلق الذى يخامر النفوس . لأن هذا القلق ناشىء عن التقدم نفسه ، رغم سرعته المتزايدة ، وبسبب هذه السرعة نفسها . والانسان المعاصر يشعر بتبعيته لانتاج الخبرات المادية واستهلاكها ،ويرى نفسه خاضعا لعدة هيئات فنية ومكتبية تؤمن وتنظم انتاج هذه الخبرات واستهلاكها ، ولذا يتملكه القلق والتبرم عندما يرى نفسه مكبلا بهذه القيود والعوائق ، ورغم ان التقدم العلمى والتقنى والاقتصادى حل العظيم من مشاكله ويحاول أن يحلها بشكل أسرع ، فان هذا التقدم نفسه يخلق للانسان مشاكل جديدة ويضعه أمام صعوبات وتحديات لا يمكنه التنبؤ بها . وهو فى كل يوم أمام تغيرات أوسع وأكبر تعقيدا ، فلا يكاد يستقر حتى تتدخل تغيرات أخرى تعترض سبيله فيحاول التكيف معها أيضا . وهكذا يظهر تأخره

---

(١) راجع : Hermann Khana et Anthony J-Wiener, L,An 2000 Robert Loffont Paris 1968

عن تقدمه ، وهذا التأخر آخذ بالتزايد . ومن الأخطار الجديدة الناشئة عن تسارع التقدم قضية استئناس الذرة والنتائج الخطيرة التي تترتب عليها في الحال والاستقبال على مصير البشرية والأرض .

وهناك قضايا اخرى أساسية لا تتعلق بظاهرة خاصة بنتائج التقدم ، بل بقانون التقدم نفسه ، كزيادة عدد السكان وضرورة اطعامهم واقامتهم بعد أن أشارت التنبؤات الى ان عدد سكان العالم سيصبح ٧ مليارات في العام الفين أي بعد ٣٠ عاما . وهذه المدة كافية للوصول الى رقم لا يبقى فيه على سطح الكوكب موطىء لقدم انسان ، وقد يقال ان الارض اذا استغلت استغلالا عقلانيا امكنها أن تغذي سكانها الحاليين بل وسكانا اكثر منهم ، واكثر من ذلك اذا استخدمت الموارد الأوقيانوسية والموارد الشمسية ، ولكننا نجدنا أمام حد لسكنى الكوكب لا يمكن تجاوزه .

كذلك يضع ثبات السكان قضية طول العمر والشيخوخة المديدة ، والتنافس بين الآباء والأبناء،والاجيال القديمة والجديدة،ويتعقد تزايد حاجات الاستهلاك العام والاستهلاك العددي بحسب الراس ، لأن تزايد الاستهلاك يعتبر صفة مميزة للمجتمع الحديث وتبريرا لجهده نحو التقدم ،ولعلنا نتساءل ماذا يمكن أن تكون في العام ٢٠٠٠، على سبيل الفرض، حاجات الاستهلاك لسكان الأرض وقد بلغ عددهم سبعة مليارات نسمة ووصلوا الى مستوى حياة الولايات المتحدة حاليا ؟

لقد فكر بعضهم باستعمار الكواكب الأخرى،وليس الوصول الى القمر الا ظاهرة لهذا التفكير ، فاذا فرضنا أن هذا الاستعمار مثمر ، فان أقرب الكواكب الينا ، وهو الزهرة ، على ٤٠٠ درجة حرارة منا ، والمريخ دون مولد حموضة(أوكسجين) غير صالح لحياة الجسم الانساني بشكل طبيعي ، فما بالنا بالكواكب الكبرى البعيدة والكواكب الأبعد منها حيث تقترب الحرارة من الصفر المطلق ، ويكون الازوت سائلا والتثاقل أعظم من تثاقل الأرض بمئات المرات . أما منظومة الكواكب الاخرى فان المسافة بينها وبيننا تقاس بالسنين . ان لم تكن بمئات السنين ــ النووية ، وهذا يعني أن أسرع السفن الفضائية التي يمكن تصورها للوصول اليها تتطلب حياة اجيال وأجيال ، بما يعادل ٤٠ عاما على سفينة سوبر آبوللو أسرع بعشرة آلاف مرة من آبوللو التي نزلت على سطح القمر .

ولذا فمن المعقول والمقبول أن نحكم بأن التوسع لا يمكن أن يكون غير محدود في عالم محدود ، أو أن نفكر بتقدم مادي غير محدود ؛أما الشكوك والمخاوف التي تخلق حولنا « أزمة تقدم » فربما تكون منذرة بعصر ما يزال بعيدا عنا ، ولا نعتقد بعد هذا أن التقدم والتوسع قد استنفذا غاياتهما ولفظا انفاسهما ، فلديهما من السرعة والتسارع ما يجعلنا ننتظر منهما فتوحات جديدة وانتصارات مبينة ، ومكاسب حقيقية تنكسف أمامها مكاسبنا الحقيقية منها والوهمية؛ لأن لغز الحياة لما يحل ، ولأن العمل البشري لما ينته ، ولأن القافلة الحضارية ما زالت تغذ السير نحو آمال وأحلام بغير حدود .

وبعد فما هو موقف الانسان امام معطيات حضارة العصر ؟ ان الفلسفة والأدب والفن التي ظهرت بعد ١٩٤٥ تشيد كلها بقيمة الانسان وجهده وموقفه الحر وارادته وحريته التي يكتشفها في الخبرات التي تنتزعه من كل ماضيه ومن كل ما يعتقد بأنه كان كائنه والتي تؤلف وجوده الخاص . وان الانسان يشعر بضرورة اعادة النظر في كل شيء وطرحه على بساط البحث من جديد . وان التقاليد بقديمها وحديثها قد اهتزت عروشها بقوة ، وان ظاهرة العصر

الحاضر تريد قبل كل شيء أن تعطي الانسان من جديد ، وأشقى انسان في الناس مكانه الحقيقي وكرامته الحقيقية وعظمته الثمينة التى لا تقدر . وان أفضل النظم وأحدثها ليس لها الا قيمة نسبية ، وليست أقوى من الناس الذين يضعونها: ومن الممكن اقامة السدود ضد الفيضانات المهددة، واصلاح الحق العام ، وتعزيز الاستقلال وتجديد الطرق التشريعية ولكن كل هذا يظل غير كاف ولن تكون له قيمة الا اذا اعتمد على أساس روحي وأخلاقي متين ، لأن هذا الأساس وحده يمكن أن يعطى الانسان الحر القوة التى تساعده على انهاء مشاكل العصر الذرى والثورة التقنية ، وفوق كل شيء يجب الاهتمام باقامة النظم التى تحمى حرية اختيار الانسان لمن هم أحياء يعيشون معنا أو للذين يأتون فى المستقبل ويرون القضايا بشكل مغاير لنا لئلا يكتشفوا أننا استنفدنا من غير نفع وبجنون ، امكانات اختيارهم وافسدنا عليهم محيطهم الطبيعي والاجتماعي . ولن تكون للحضارة قيمة الا اذا صانت كرامة الانسان وساعدته على التحرر ، وان من حق كل انسان أن يثور لحريته وكرامته ، واذا ثارت الشبيبة الجامعية فى هذا العصر فلأن لها مطاليب تريد تحقيقها : لقد وجدت نفسها محرومة من كل أمن على مستقبلها وقد تبددت أوهام الماضى، فثارت على الآباء والأساتذة ولن تهدأ هذه الثورة الا بالمزيد من الحرية والتحرر من قيود الماضي البغيض .



محمود رياض

الألكترونيات وتقارب الثقافات

مقدمة

اذا القينا نظرة عامة على تاريخ تقدم البشرية منذ عصورها الاولى نجد ان هناك علامات واضحة على طريق هذا التقدم تشير الى تطورات هامة كان لها أثر بالغ فى دفع عجلته الى الامام وازدهاره ، ولا نكون مبالغين اذا ذكرنا ان الاكتشافات الحديثة فى علوم الالكترونيات هى من اهم هذه التطورات ، تلك الاكتشافات التى اخذت تتوالى منذ مطلع هذا القرن وتتشعب فى تطبيقاتها حتى شملت نواحى كثيرة فى حياتنا اليومية سواء منها ما يتعلق بالعمل والانتاج أو ضروب الثقافة والفكر الانساني أو وسائل اللهو والتسلية، ناهيك بما لها من استخدامات خطيرة ادت الى تقدم الاسلحة ووسائل التدمير فى الحروب الحديثة ،ولقد اصبحت الاجهزة الالكترونية فى عصرنا جزءاً لا يتجزأ بل هى بمثابة القلب النابض فى معظم الآلات الحديثة التى لا غنى عنها فى حياتنا العصرية .

ولقد دعت هذه الأسباب هيئة الامم المتحدة ومختلف الدول والهيئات العلمية الى العناية بهذا الفرع الخطير من فروع العلم الحديث فعقدت له العديد من المؤتمرات والندوات لتبادل الرأى والوصول الى اتفاقيات دولية تتناول بعض شئونه الهامة مثل توزيع الذبذبات ووضع حدود للمواصفات الفنية وما اليها .

ومن الواضح انه لكي تتقارب الثقافة بين مختلف الشعوب ، يجب كخطوة اولى ان تنتقل

---

* الدكتور محمود محمد رياض ــ استاذ الالكترونيات بجامعة الكويت اشتغل بالتدريس بكلية الهندسة جامعة الاسكندرية . ساهم فى بناء اول مفاعل ذرى بالجمهورية العربية المتحدة .فى سنة ١٩٦٤ عين وزيرا للمواصلات ــ امين عام الاتحاد العربي للمواصلات السلكية اللاسلكية .قام بابحاث في التوجيه اللاسلكى وله مقالات علمية منشورة بالمجلات العلمية المصرية والاجنبية .

هذه الافكـار ، مـن علم وأدب وفن بأشكالهـاالمختلفة ، وتتداول بين الناس حتى يطلعوا عليها ويتفهموها وعندئذ تأتي الخطوة التالية بأن تؤثرالثقافات الجيدة على غيرها وتزداد انتشارا ، وبذلك تتقارب الافكار ويزداد عمق التيار الذىيربط بينها ، وهنا يبرز الدور الكبير الذى تلعبه وسائل الاتصال الألكترونية الحديثة فى نواحىنقل هذه الثقافات والربط بينها .

وسوف نقتصر فى هذا المقال على القاء نظرةشاملة على النواحى التطبيقية لعلوم الالكترونيات الحديثة التى كان لها أثر واضح فى تقاربالثقافاتبين شعوب مجتمعنا الانسانى الكبير ، نظراً لما لهذا التقارب من نتائـج بعيدة المـدى تتعدى حدودالمسافات الشاسعة والفوارق الحضارية واللغوية والدينيـة والثقافية ، تلك الفـوارق التى ظلتقرونا عديدة تقيم الحواجز المنيعة بين الشعوب وتكـاد تعزلها عـزلا تاما عـن بعضها البعض ،وسيتناول بحثنا فى هذا السبيل النقاط الآتية :

ـ اكتشـاف اشـباه الموصلات والترانزستور .

ـ التلفزيون .

ـ الاتصالات اللاسلكية عبر الفضاء بوساطةالأقمار الصناعية .

ـ الآثار غير المباشرة لبعض المخترعات الالكترونية .

١ ـ اكتشاف اشباه الموصلات والترانزستور

Semiconductors & Transistors

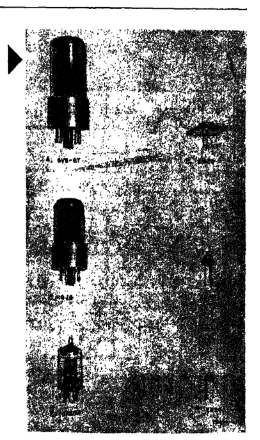
ظل الصمام الألكتروني (Thermionic Vacuum Tube) على مدى حقبة طويلة من الزمن بمثابة الاداة الرئيسية التى تستخدم فى صناعةاجهزة استقبال الاذاعات الصوتية والمرئية(الراديو والتلفزيون) . وقد أدى هذا الوضع الى فرضقيود بالضرورة علىامكانيات انتشار هذه الاجهزة، اذ انها كانت تحتاج فى أغلب الاحيان الى استخدامالتيار الكهربائي العادى فى المدن ، وقد حاول المهندسون التغلب على هذه الصعوبة بأن بذلوامحاولات عديدة لتصميم أجهزة وصمامات تعمل بالبطاريات السائلة والجافة بحيث يمكن حملهاونقلها منمكان الى مكان الا أن هذه المحاولاتكانت محدودة الأثر نظراً لارتفاع تكلفة هذه البطارياتوسرعة استهلاكها فضلاً على ان حجم الاجهزة نفسها كان لا يسمح بسهولة حملها ونقلها ، وهكذاظل استخدام جهاز الراديو مقصوراً على المـدن والقرى الكبيرة التى يتوفر فيها التيار الكهربائيوعلى فئة محدودة منالناس الذينتسمح مواردهم المالية بتحمل نفقاته .

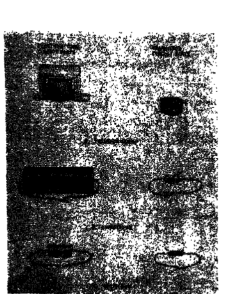
وفى عام ١٩٥١ وقع حدث هام كان بمثابةثورة عارمة فى عالم الالكترونيات وترتبت عليـه آثار بالغة فى تطوير صناعة الاجهزة الألكترونية ،فقد اكتشف فريق من العلماء فى مختبراتالابحاث بشركة « بل » الامريكية خصائص جديدة لمادتيالجرمانيوم والسليكون امكن بوساطتها استخدام هاتين المادتين فى صناعة رقائق دقيقة أطلق عليهااسم « اشباه الموصلات والترانزستور » . فقد أثبتت التجارب والابحـاث بأن الترانزستـوريمكنه ان يحل محل الصمام الألكترونى ويؤدى

جميع الوظائف المطلوبة منه فى الاجهزة الالكترونيةبكفاءة تامة فضلا على انه يمتاز عنه بميزات كبيرة تتضح من الجدول الآتي للمقارنة بينهما : ــ

(الصمام الالكتروني)	(الترانزستور)
يحتاج الى طاقة كهربائية كبيرةنسبيا لتسخينه حتى يتولد فيه التيار الالكتروني ويتطلب مرور بعض الوقت حتى تصل درجة الحرارة فى بعض أجزائه الى حد معين .	لايحتاج الى اية طاقة كهربائية للتسخين ويتولد التيار الالكتروني فيه فوراً بمجرد توصيل البطارية .
يستلزم جهداً كهربائيا عاليا (Voltage) لتشغيله وهذايحتاج الى استخدام التيار الكهربائي العادى او بطاريات خاصة كبيرة الحجم	لا يستلزم سوى بطاريات جافة صغيرة الحجم لتشغيله بنفس الكفاءة .
حجم الاجهزة التي يستخدم فيها ــ مهما روعي تصغير حجم الصمامات ــ يكون كبيرا نسبيا .	يمكن بناء الاجهزة فى احجام صغيرة جدا لدرجة أن بعضها يستخدمها ضعاف السمع بوضعها داخل الاذن .
تؤثر فيه الاهتزازات وتصدر عنها اصوات غير مقبولة فى الاجهزة Microphonic Noises	لا تؤثر فيه الاهتزازات لدقة حجمه .

صورة (١) تبين صغر حجم الترانزستور بالنسبة لبعض الصمامات الالكترونية الشائعة الاستعمال

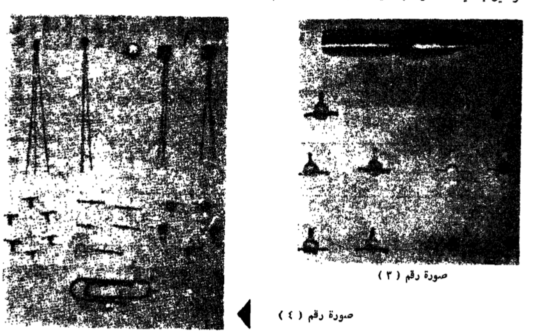




صورة رقم (٢) تبين صغر حجم المكونات Components التي تستخدم فى دوائر الترانزستور بالنسبة لمثيلاتها التي تصحب الصمامات الالكترونية .

توضح الصورتان رقم (٢) ، (٣) صغر حجم الترانزستور والمكونات التي تستخدم معه فى

الدوائـر الألكترونية بالمقارنة مع الصمامات الألكترونية ومكوناتها ، وهذا هو السـر الذى يكمن وراء تطور صناعة الاجهزة الألكترونية بهذا الشكل المذهل فى السنوات الأخيرة حتى أصبح جهـاز الراديو بما يحمله من البطاريات من صغر الحجم بحيث يمكن وضعه فى الجيب .



صورة رقم (٣)

صورة رقم (٤)

(توضحان مجموعة من اشباه الموصـلات والترانزستـورات الحديثة المتناهية في الصغر)

ولقد اطرد التطور فى صناعة أشباه الموصلات والترانزستورات المتناهية فى الصـغر وكـذلك الاجهـزة الالكترونيـة التي تستخدمهـا بحيث أصبحت فنا فى التصنيع قائما بذاته Mi iaturi-gat on وصار فى الامكان استحداث أجهزة خاصة لمختلف الأغراض العلمية والانسانية لـم يكن فى الحسبان الوصول الى صناعتها من قبل ، بل ان هذا الفن الجديد قد أدى الى تحسين أداء الاجهزة وخفض اسعارها بتقليل أسلاك التوصيل الداخلية ومراحـل التصنيع فضـلا على تقليل استهلاك الطاقة الكهربائية من البطاريات اللازمـة للتشغيل .

هذه التطورات الكبيرة كان لها اثر كبير فى انتشار اجهزة الراديو بالذات ، فقد أدى انخفاض أسعارها وصغر حجمها وقلة استهلاكهـا مـن البطاريات الجافة الصغيرة الى ان أصبحت فى متناول أيدى ذوى الدخل المحدود من الناس أينما كانت محال اقامتهم .

وهكذا دخل جهاز الراديو الصغير خيمة الاعرابي فى الصحراء وبيت الفلاح فى الريف بل تغلغل هذا الجهاز الى الغابات والادغال ووصل الى البقاع النائية فى أقصى المعمورة حتى لقـد أصبح يعد بالملايين فى أي دولة ، وكان من اثـر ذلك أن أصبح الانسان فى أى ركـن مـن اركان الأرض يشارك بشعوره ووجدانـه عـن طريق الاذاعات العالمية ، فيما يجرى من أحداث تقـع على بعد الآف الاميال ويسمع انباء ما يجرى فى البلاد الاخرى لحظة وقوعها ، أضف الى ذلك ما تسعى اليه كثير من الهيئات المستنيرة من نشر ثقافة بلادها وتراثها عن طريق الاذاعة وبلغات أهل البلاد التي توجه اليهم ، وقد كان لهذا كله اثر بالغ فى تقارب الثقافات بين الشعوب المختلفة

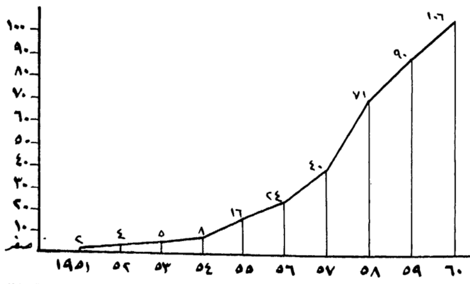
وأخذ ابناء البشرية جميعاً يقتربون من الناحيةالفكرية من بعضهم البعض ، ويكونون ما يسمى بالرأى العام العالمي بالنسبة لمعظم الأحداثالكبيرة التيتقعمن حين الى حين فيانحاء العالم .

وهناك مجالات أخرى لاستخدام الاذاعةالصوتية لم تزل فى بدايتها ولسوف تتضح آثارها البعيدة فى المستقبل ، ومن أهم هذه المجالات علىسبيل المثال تعليم القراءة والكتابة للسواد الأعظم من الشعوب النامية ، اذ ان هذه الطريقة تؤدىالى محو الأمية فى سنوات قليلة وبنفقات زهيدة لا تذكر بجانب ما يتطلبه انشاء العدد الكبير منالمدارس ، أضف الى ذلك نشر الثقافة العامة بين ذوى الدخل المحدود ممن لاتيسر لهم ظروفهمالاقتصادية أو المعيشية كثرة الاطلاع على الصحف والمجلات وسائر المطبوعات .

ويمكننا أن نتصور مدى التقارب الفكرىالذى يحدث بين الشعوب اذا ما اختفت الامية واصبحت الغالبية العظمى من بني الانسان علىمستوى من الثقافة يؤهلهم لاستيعاب ما يجرى فى العالم من أحداث والحكم عليها حكما منطقياصحيحا .

٢ ــ التلفزيون

بدات تجارب الارسال التلفزيوني فى عدد منالبلاد قبل الحرب العالمية الثانية وكان بعضها يستخدم فى ذلك الوقت خليطاً من الأجهزةالالكترونية والميكانيكية ، وقد اشرفت بعض هذه التجارب على الوصول الى نتائج تبشر بالنجاح ،الا أنها ما لبثت ان توقفت جميعا عند نشوب الحرب ، وقد ساعد التقدم الكبير الذى احرزتهعلوم الالكترونيات تحت ضغط ظروف الحرب على انتاج اجهزة اكثر دقة وكفاءة مما ادى الىنجاح الارسال التلفزيوني فى كثير من البلاد عندما استؤنف فيها بعد ان استتب السلام ، وقدانتشرت بعد ذلك الاذاعات التلفزيونية فى كثير من الدول الاوروبية والولايات المتحدة الامريكية ،وزاد عدد أجهزةالاستقبالونما نموا مطرداً لاسيما أن معظم هذه الدول استطاعت صنع الاجهزة فىمصانعها المحلية فضلا على ان حكوماتها قدمت كل معاونة ممكنة للابحاث والاختبارات التي يقوم بها علماؤها كما يتضح لنا من الرسوم البيانية المرفقة فى الصورتين رقم (٥) ، (٦) .



شكل (٥) يوضح الزيادة فى العدد الاجمالى لمحطات الارسال والتقوية فى البلاد اعضاء الهيئة الدولية للاذاعة والتلفزيون

وكان من الطبيعي ان تتلو هذا النمو خطوةهامة هي ربط محطات الارسـال بشبكة مـن الكابلات الأرضية او الموجات اللاسلكية المتناهيةالقصر بحيث يتسنى للمشاهدين رؤية البرامج التي تذاع فى البلاد المجاورة ، وقد انتظمت البلادالأوروبية فى شبكتين رئيسـيتين احداهما هي شبكة (Eurovision) التي تضم دول اوروباالغربية والثانية هي شبكة (Intervision) التي تضم دول اوروبا الشرقية ، وما لبثت الشبكتانان تبادلتا كثيراً من البرامج الاخبارية والثقافية والترفيهيـة علـى مـدى الاعـوام العشـرةالاخيرة ، اما الولايات المتحدة الامريكيـة فلهـا شبكتها الخاصة التي تغطى تلك البلاد الواسعةمن أقصاها الى أقصاها .

ثم جاء بعد ذلك دور الاقمار الصناعية فىربط هذه الشبكات التلفزيونية الرئيسية عـبر المحيطات والقارات فى خـلال السنوات القليلةالماضية ـ كما سيأتي ذكره فيما بعد ـ وهكذا أصبح فى مقدور المشاهد عن طريق هذه الوسائلالفنية الحديثة أن يرى وهو فى منزله ما يجـرى من أحداث على بعد آلاف الاميال ، ولعلنا ما زلنانذكر بعد ما قامت به محطة تلفزيون الكويت منذ شهور قليلة اذ نقلت الينا الاحداث التاريخيـةالتي صاحبت رحلة الصاروخ أبوللو ١٢ الى سطح القمر وعودة الرواد بسلام من تلك الرحلة الىالمحيط الهادى .

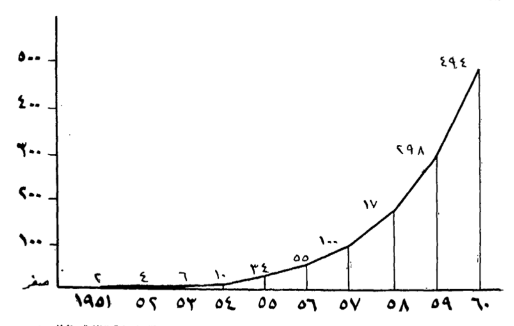
وهذا عرض موجز لمراحل التقدم فىالاذاعةالتلفزيونية فىاوروبا وامريكا ،اما بالنسبة لافريقيا فيمكن القول اجمالا بان التلفزيون فى هذه القارةلا يزال فى بدايته ، فقد دخلت هذه الاذاعة الى افريقيا لاول مرة فى عام ١٩٥٣ عندما انشـأتاحدى الشركات الخاصة محطة فى المملكة المغربية، ثم تلتها بعد بضع سنوات كل من الجمهوريـةالعربية المتحدة ونيجيريا وروديسيا الجنوبيـة وغيرها من الدول التي اخذت تدخل فى هـذاالمضمار تباعا ، الا ان انتشار التلفزيون فى بعض البلاد الأفريقية يعاني شيئا من المصاعب ، وتأتيعلى راسها مسألة اعداد البرامج بسبب عـدم رسوخ قدم الفن المسرحي او الافلام السينمائية ،مما ادى فى كثير من الاحيان الى ان تعتمد برامج التلفزيون على الأفلام المستوردة التي قد لا تروقلابناء البلاد ، كما ان النواحي المالية تشكل صعوبة اخرى نظراً لأن انخفاض مستوى الدخل فى بعضالبلاد الافريقية لا ييسر لكثير مـن الافراد شراء أجهزة الاستقبال المرتفعة الثمن ، اضف الى ذلكعدم توفر الكهرباء فى اماكن كثيرة من تلك البلاد .

اما بالنسبة للقارة الآسيوية ـ فيما عـداليابان ـ فان الحال لا يختلف كثيراً عن افريقيا ، الا ان التقدم السريع الـذى طرأ على الخدمـةالتلفزيونية فى اليابان قد دفع كثيرا من تلك الدول التي حصلت على استقلالها بعد الحرب العالميةالثانية الى الاهتمام بهذه الوسيلة الحديثة كمظهر من مظاهر التقدم واحدىالدعامات الاساسيةالتيترتكز عليهاالنهضةالتعليميةوالثقافيةوالترفيهية.

ويمكن القول اجمالا بان عدداً كبيراً منالدولالنامية فى آسيا تعاني من نفس المصاعب التي تواجه مثيلاتها فى افريقيا من حيث الافتقار الىالبرامج الجيدة والنواحي المالية وعـدم توفـر الكهرباء .

بعد هذا العرض التاريخي الموجز لانتشارالتلفزيون فى انحاء العالم ، يهمنـا ان نعرف اثر هذا الاختراع الحديث على تقارب الثقافات بينالناس فى مختلف الدول ، فمن الواضح ان الاذاعة التلفزيونية تعتمد فى كثير من برامجها على الافلامالمستوردة والمنقولة على الشبكات الرئيسية من البلاد الاخرى سواء أكان ذلك بسبب الرغبة فىالتبادل الثقافي ام لعدم كفاية الانتاج المحلي كما اسلفنا ، اضـف الى ذلك استخـدام الاقمـارالصناعية فىنقل الاحداث الهامة صوتا وصورة وقت وقوعها ، وأيا كانت الاسباب فقد اصبح فىاستطاعة الفرد العادى وهو جالس فى عقر داره

أن يرى ويسمع ما يجرى فى انحاء العالم من اخبارويتابع تطورات الاحداث على الطبيعة ويطلع على عادات النــاس فى البلاد الاخــرى وأساليبهم فى الحياة وحكمهم على الاشياء والمواقف المختلفة من خلال الافلام الترفيهية والمسرحيات فضلا على مدى تقدمهم فى فنون الموسيقى والرقص ..الخ ، وهكذا اخذ الانسان فى هذا العصر يشارك مشاركة فعالة بشعوره وفكره ووجدانه فيمــا يجرى فى عالمنا من احداث ، وازدادت الروابط الفكرية توثقابين مختلف الاجناس الى درجة كبيرة لم تكــن لتصل اليها بدون هذا الاختراع الحديث ،والامثلة على ذلك كثيرة : فاذا وقعت كارثة من كوارث الطبيعة كالزلزال فى بلد من البلاد شعرت به جميع بلاد العالم ، بل رات مشاهده المروعة بعد حدوثه بساعات قلائل ، فتبادر الشعوب المختلفة الى مديد المعونة الطبية والمادية الى المنكوبين ، واذا شنت احدى الدول حرباً عدوانية على دولة اخــرى انتشرت اخبارها وصورها بسرعة البرق وظهرت على شاشات التلفزيون فى انحاء العالم فتبــادر الشعوب التي تأخذ جانب الحق الى تأييد الشعب المعتدى عليه مادياً وأدبياً ، وقد أدى ذلك الى قيام رأي عام عالمي يحسب حسابه وتعمل الدول كبيرها وصغيرها على كسب تأييده بمختلف الوان الدعايــة .



شكل (٦) يوضح الزيادة فى عدد استوديوهات التلفزيون فى البلاد اعضاء الهيئة الدولية للاذاعة والتلفزيون

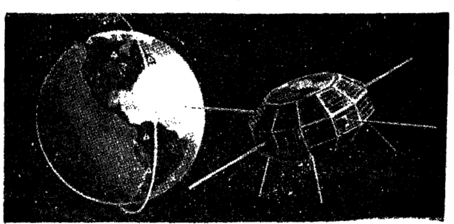
وهناك عاملان اساسيان سوف يكون لهما ابلغ الأثر فى زيادة تأثير التلفــزيون فى تعميــق التيارات الفكرية والثقافية بين مختلف الشعوب :ــ

العامل الاول هو بدء استخــدام اشــباه الموصلات والترانزستور والدوائر الألكترونيــة المتناهية الصغر فى صناعــة اجهــزة استقبــال التلفزيون ــ شأنها فى ذلك شأن اجهزة الراديو ــ مما يؤدى الى صغر حجم الجهاز وسهولة نقله من مكان الى مكان وامكان تشغيله بالبطارية دون الكهرباء ، وقد بدأت هذه الاجهزة تظهر فى الأسواق الا انها ما زالت مرتفعة الثمن ، فاذا أمكن التغلب على هذه العقبة واصبحت فى متناول ذوى الدخل المحدود فسوف تنتشر انتشارا سريعا لا سيما فى المناطق التي لا يتوفر بها التيار الكهربائي فى البلاد النامية فى افريقيا وآسيا ، ولا يخفى ما لهــذا الانتشار من آثار كبيرة على زيادة الروابط الفكرية والثقافية بين مختلف الشعوب .

اما العامل الثاني فهو استخدام التلفزيون كوسيلة تعليمية لمكافحة الامية ونشر الثقافة على نطاق واسع بين سواد الشعب ، ومما لا شك فيه ان هذا الأسلوب فى التعليم له اثر اكبر كثيراً من استخدام الراديو لان مصاحبة الصورة للصوت لها أثر فعال فى تسهيل مهمة المدرس وترسيخ مضمون الدرس فى ذهن الطالب ، وان كان التلفزيون التعليمي لا يزال فى بدايته الا اننا نتنبأ له بآثار كبيرة فى النواحي الفكرية عندما يؤدي رسالته فى محو الامية ونشر المعارف بين اعداد كبيرة من الناس ، وقد بدأت بعض الدول ــ ومنها دول متقدمة مثل الولايات المتحدة ــ فى تطبيق هذه الوسيلة الحديثة بأن امدت عدداً كبيراً من المدارس والنوادى بأجهزة استقبال تلفزيوني واعدت برامج تعليمية خاصة تذاع فى اوقات معينة ، وقد روعي فى اعدادها ان تناسب المستوى الثقافي للفئات المختلفة من المشاهدين .

٣ ــ الاتصالات اللاسلكية عبر الفضاء بوساطة الاقمار الصناعية

عندما استطاع الانسان فى السنوات القلائل الأخيرة ان يطلق اقماراً صناعية تدور فى أفلاك حول الارض ، وان يتحكم بدقة فى مدارها من حيث السرعة والاتجاه ، بدأ التفكير فى استخدام هذه الوسيلة الجديدة فى الاغراض السلمية ، ومن بينها الاتصالات اللاسلكية ، وبذلك بزغ على العالم فجر جديد قفزت فيه الاتصالات اللاسلكية قفزة هائلة الى الأمام وتحقق حلم الانسانية بانشاء شبكة موحدة تربط أرجاء الكرة الأرضية بعضها ببعض.



صورة (٧) توضح دوران قمرين صناعيين حول الارض فى مدارين متعامدين

كانت الاتصالات بين القارات تتم حتى عهد قريب ، اما بوساطة كابلات بحرية (Submarine Cables) تعبر المحيطات او باستخدام موجات لاسلكية ذات ذبذبات عالية (High Frequency Radio Comunications) اما الوسيلة الاولى ــ وان كانت ذات كفاءة عالية ــ فهي باهظة التكاليف سواء من ناحية رأس المال او نفقات الصيانة والتشغيل ولذ اقتصر استخدامها على الحالات التي تشتد فيها الحركة بين النهايتين ، واما الوسيلة الثانية فكفاءتها منخفضة ، اذ ان حيز الذبذبات (Frequency Band) الذي يمكن نقله بوساطتها محدود جدا عدا انها تخضع الى حد كبير للظروف الجوية والاشعاعات الفضائية كالبقع الشمسية وغيرها .

أما الأقمار الصناعية فلها ميزات فائقة فى هذا المضمار : أولاها ان القمر الصناعي يستطيع

ان « يرى » رؤية لاسلكية مباشرة ـ لا يحجبهاأى عائق ـ مساحات شاسعة على الكرةالارضية بحيث يستطيع الأنسان عن طريقه ان ينشيءاتصالات لاسلكية على مستوى عال جدا من الكفاءة بين جميع البلاد التي تقع فى أفقه ، الأمر الذىلم يكن متيسراً بالوسائل التقليدية التي كانت معروفة من قبل ، ومن بين هذه الميزات ايضاان التراسل (Ira..smission) بهذه الطريقة الحديثة يجرى على الموجات المتناهيةالقصر (Microwaves) مما يجعل الاستقبال واضحاً غاية الوضوح ويسمح بنقل حيز كبيرجدا من الذبذبات وبذلك يتسنى نقل البرامج التلفزيونية والاذاعات الصوتية والمئات من المكالمات التلفونية والبرقيات فى وقت واحد ، الأمر الذى كان فى حكم المستحيل قبلاستخدام الاقمارالصناعية .

ولعله من المناسب هنا أن نسرد بعض المعلومات الطريفة عن هذه الوسيلة الحديثة قبل ان يتطرق بنا الحديث الى دراسة آثارها : ـ

كيف يوضع القمر الصناعي فى مداره ؟

كان هذا الأمر فى بدايته على جانب كبير من الصعوبة الى أن استطاع العلماء أخيراً انتاج الصواريخ ذات الطاقة الهائلة والتحكم فى مسارهابدقة ، والمعروف أن أي جسم قريب من سطح الارض يقع تحت تأثير قوة الجاذبية الارضية (Gravity) وهذه القوة تتناسب تناسباً طردياً مع وزن الجسم وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة التي تقع بينه وبين مركز الكرة الأرضية ، وعلى ذلك فكلما بعد الجسم عن سطح الأرض قل وزنه وضعف تأثير الجاذبية الأرضية عليه ، ومن المعروف ايضا أن أي جسم يدور بسرعة كبيرةيقع تحت تأثير قوة أخرى تتناسب مع سرعته وتحاول ان تبعده عن مركز الدوران ، وتسمى هذه بالقوة الطاردة المركزية Centrifugal Force .

وعلى هذا فلكي يدرك القمر الصناعي مداره يجب ان يدفع به الى طبقات الجو العليا ويبدأ دورانه حول الأرض بسرعة مناسبة تتساوى عندها القوتان المتعارضتان اللتان تؤثران عليه وهما قوة الجاذبية الأرضية والقوة الطاردة المركزية ، وكلمازاد ارتفاع القمر فوق سطح الارض انخفضت السرعة اللازمة لحفظ هذا التوازن ، فالقمر الذىيرتفع الى ١٠٠ ميل مثلا يجب أن يتم دورةواحدة كل ٨٧٫٥ دقيقة ، فى حين انه اذا ارتفع الى ٦٠٠ميل يتم دورته كل ١٠٤ دقيقة ، أما اذا امكن رفع القمر الى ارتفاع شاهق يبلغ ٢٢٢٧٠ ميلافان وقت الدورة الواحدة يصبح ٢٤ ساعة تقريبا اى نفس سرعة دوران الارض ، وفى هذه الحالةيسمى بالقمر المتزامن (Synchronous Satellite) ومثل هذا القمر اذا اتجه شرقاً وكان مداره راسيا فوق خط الاستواء فانه يظهر (اذا امكن رؤيته) وكأنه ثابت فى السماء بالنسبة للأرض .

الاقمار التي يمكن استخدامها فى الاتصالات اللاسلكية وانواعها :

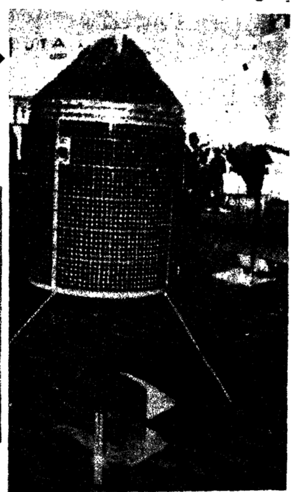
يمكن تقسيم هذه الاقمار بوجه عام الى ثلاثة أنواع رئيسية هي : ـ

القمر غير العامل أو العاكس :

ويمتاز فى تركيبه بالبساطة اذا انه يتخذ شكل بالون كبير مغطى بغلاف معدني ولا يحتوى على أية اجهزة بداخله ، ويستخدم لمجرد انعكاس الأشارات اليه من الأرض فتصل بذلك الى مسافات بعيدة ، وقد اطلق أول قمر من هذا النوع فى اغسطس عام ١٩٦٠ تحت اسم (E-ho 1) على مدار يبعد ١٠٠٠ ميل عن الأرض ، وقد استخدم هذا القمر على مدى

سنوات فى ارسال موجات اذاعية تحمل الصوت والموسيقى وحتى بعض البرامج التلفزيونية لمسافات شاسعة .

واهم عيوب هذا النوع من الأقمار هو القوة الهائلة التي يتطلبها جهاز الارسال الأرضي لكي يتسنى استقبال اشارات واضحة عند جهاز الاستقبال .



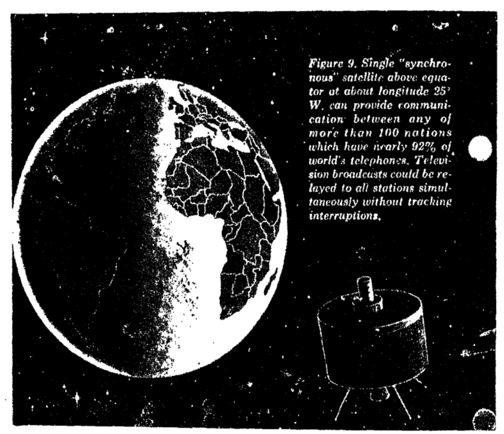
صورة (٨) قمر صناعى عامل ويحتوى فى داخله على اجهزة الاستقبال والارسال وسطحه الخارجى مغطى بالبطاريات الشمسية .

صورة (٩) يلزم ٥٠ او اكثر من الاقمار المنخفضة الارتفاع غير المتزامنة لكي تحقق الاتصال بين اى محطتين على سطح الارض .

القمر العامل غير المتزامن :

وفى هذه الحالة فان القمر يحتوى فى داخله على جهاز واحد او اكثر من اجهزة الاستقبال والارسال تمدها بالقوة اللازمة لتشغيلها مجموعة كبيرة من البطاريات الشمسية (Solar Batteries) تمتص أشعة الشمس وتحول طاقتها الى طاقة كهربائية (صورة ٨) ، ويلتقط جهاز الاستقبال فى داخل القمر الاشارات التي ترسلها المحطة الأرضية فيزيد من قوتها ثم يرسلها بالتالي الى محطة استقبال أرضية اخرى ، وبهذه الطريقة فان الأمر لا يستلزم ارسال اشارات بالغة القوة من الارض ، وهذا ما يؤدى الى خفض تكاليف المحطات الارضية ، وبطبيعة الحال فان الاجهزة التي تستخدم داخل القمر يجب ان تكون على درجة عالية جداً من الجودة والكفاءة ، اذ أن المطلوب منها أن تعمل بانتظام وبدون اية صيانة لعدة سنوات .

أما كون هذا النوع من الاقمار غير متزامن فلأنه يطلق على مدار منخفض نسبياً ــ وبسرعة مدارية عالية ــ بغية الاقتصاد فى نفقات الصواريخ، الا أن القمر الواحد فى هذه الحالة لا يبدو ظاهراً بالنسبة لمحطتين أرضيتين فى وقت واحد الا لفترة قليلة من الوقت ثم يختفي وراء الافق ولا يظهر ثانية الا بعد فترة طويلة أخرى ، ولذلك فان استخدام هذا النوع من الاقمار عن طريق عدة ازواج من المحطات فى نفس البقعة من العالم لا يتأتى الا بزيادة عدد الاقمار المرئية فى وقت واحد (صورة ٩) ، وهذا قد يكون سبباً فى عدم ملاءمة هذه الوسيلة من النواحي الاقتصادية ، الا أنها قد تستخدم فى أغراض أخرى كالأرصاد الجوية والبحوث العلمية والفلكية .



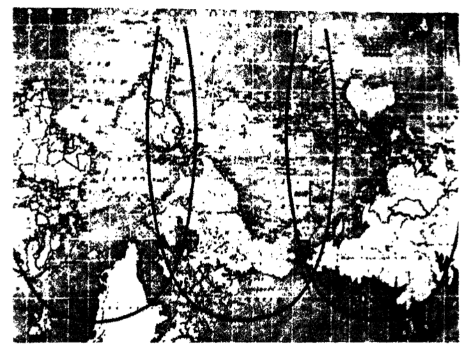
صورة (١٠) : قمر صناعى متزامن يقع فوق خط الاستواء عند خط الطول ٢٥ غربا يستطيع أن يخدم ١٠٠ دولة بها ٩٢٪ من تلفونات العالم وينقل الاذاعات الصوتية والتلفزيونية بينها بلا انقطاع

القمر العامل المتزامن :

وهو لا يخرج فى تركيبه عن النوع السابق بوجه عام مع اختلاف فى أجهزة الضبط والتحكم ، ونظراً للارتفاع الهائل الذى يجب ان يبلغه هذا النوع قبل ان ينتظم فى مداره فان الصاروخ الحامل له تزيد تكاليفه بدرجة كبيرة ، ويقابل هذا خفض كبير فى تكاليف المحطات الأرضية لأن القمر ثابت فى وضعه بالنسبة لها فى السماء ، أضف الى ذلك ان مدى هذا القمر كبير جدا لدرجة ان ثلاثة أقمار فقط من هذا النوع تكفي لايجاد اتصال مباشر عبر الفضاء بين جميع انحاء المعمورة (انظر

الصورتين (١٠ ، ١١) ، ويمكن عن طريق هـذاالاتصال نقل الاذاعات الصوتيـة والتلفزيونيـة ومئات من المكالمات التلفونية والبرقيات فى نفس الوقت كما سبق ذكره .

لهذه الأسباب فان هذا النوع من الأقمـارهو الذى يستخدم الآن فى الاتصالات اللاسلكية عبر الفضـاء .



صورة (١١) : ثلاثة اقمار صناعية متزامنة تستطيع ان تغطى بلاد العالم كافة بمواصلات الفضاء .

وقد تنبهت الدول الى خطورة هذه الوسيلةالجديدة من وسائل الاتصال ، فعرض الأمر على هيئة الامم المتحدة التي اتخذت بدورها قراراًيقضي بأن تكون مواصلات الفضاء متاحة لجميع الدول لاستخدامها على مستوى عالمي دون تمييزبين دولة وأخرى ، ومعنى هذا القرار انه لا يسمح لاية دولة باحتكار هذه الوسيلة حتى ولو كانتهي التي تطلق الاقمار الصناعية .

كما بادر الاتحاد الدولي للمواصلاتالسلكيةواللاسلكية الى عقد اول مؤتمر دولي للمواصلات اللاسلكية عبر الفضاء فى جنيف بسويسرا خلال شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ ، وقد اتخذ هذا المؤتمر عدة قرارات هامة منها ما يتعلق بتخصيص مجالات جديـدة مـن الذبذبـات للاذاعـات الصوتيـة والتلفزيونية والمكالمات التلفونيـة والبرقيات ، فضلا على مجالات أخرى لابحاث الفضاء وعلـم الفلك اللاسلكي والارصاد الجوية وغيرها مـن النواحي العلمية ، ومن هذه القرارات ما يتعلق باستحداث خدمات جديدة لسفن الفضاء فى حالات الاستغاثة والطوارىء وما اليها .

بعد هذه الدراسة الموجزة يجـدر بنا ان نلقى نظرة على الآثار الخطـيرة التي تترتب على استخدام هذه الوسيلة الحديثة فى ربط بلاد العالم بعضها ببعض من النواحي الثقافية ، علما باننـا ما زلنا فى هذا المجال بعد فى بداية الطريق ، ويمكننا ان نتصور ما سيكون الحال عليه بعد عشر سنوات مثلا : حين يجلس المرء فى داره فيرى على شاشة التلفزيون ما يجرى من احداث فى اقصى الأرض لحظة

وقوعها ، أو يستمع فى الراديو الى اذاعات واضحةلا تشويش فيها تأتيه ليلا ونهاراً من جميع انحاء العالم ، او يدير قرص تلفونــه فيتصل فى ثوان معدودات باقاربه وأصدقائه فى القارات الأخرى . . لا ريب فى ان هذه الصورة التي ينتظر ان تتحقق فى المستقبل القريب تحوى ابعاداً من التقــارب الثقافي والتآلف الفكرى سوف يكون لها أعمق الآثار على الاجيال القادمة من البشر ، ومما لا شك فيه أنها سوف تؤدى الى أن يكون الناس أعمق فهماً لمشاكل بعضهم البعض واكثر اســتعداداً لتقبل وجهــات النظر المختلفــة او تفهمهــا على الأقــل .

٤ ــ الآثــار غــير المبــاشرة لبعض المخترعــات الالكترونية

سوف نتناول هنا الآثار غير المباشرة التي تترتب على استخدام الالكترونيات فى استحداث او تطوير بعض الاجهزة والتنظيمات . Systems التي تلعب دوراً هاماً فى تسهيل الاتصال الفكرى والثقافي بين أرجاء العالم ، على اننا سوف نقتصر على الاشارة فى ايجاز الى بعض هذه المخترعات وذلك على سبيل المثال لا الحصر : ــ

اجهزة تسجيل الصوت :

ظلت أجهزة التسجيل سائرة فى نفس الطريق الذى بدأه توماس اديسون المخترع الامريكي حين توصل فى مطلع هذا القرن الى تسجيل الصوت على اسطوانات ثم على اقراص مــن الشــمع ، واخذت هذه الاجهزة بعد ذلك تتطور ببطء الى ان اكتشف الصمام الالكتروني وامكانياته الكبــيرة ، وحينئذ قفزت الأنواع المستخدمــة فيهــا قفزة واسعة الى الامام : منها ما يسجل الصوت على اقراص من البلاستيك زهيــدة الثمن ، ومنهــا ما يستخدم الأشرطة المغناطيسية التي تستوعب الساعات الطوال من الأحاديث والموسيقى والاغاني ، اضف الى هذا صغر حجم الأجهزة نفسها وقلــة النفقات اللازمة لتشغيلها وسهولة حملها مــن مكان الى مكان .

كل هذه التحسينات ادت الى اتساع مجالات استخدام هذا النوع من الاجهزة ، ولعل أهم هذه المجالات فى نظرى هو تعليم اللغات الحية بطرق حديثة سهلة ، وعلى أسس فنية جديدة ، فقــد اصبح فى متناول الفرد ان يقتني جهاز تسجيل ومعه مجموعة كاملة من الدروس اللازمة لتعلم اي لغــة مســجلة على « اسطوانات » كمــا ان الجامعات ومعاهد العلم أخذت تستخدم هــذه الوسيلة الحديثــة على شــكل « مختبرات . . للغات » حيث يستطيع الطالب وهو جالس فى مكانه أن ينصت الى مختلف التسجيلات اللغوية مما يساعد الاستاذ مساعدة كبيرة فى أداء مهمته ، ويمكننا ان نتصور مدى مساهمة الالكترونيات ــ حتى فى هذا المجال المحدود ــ فى نشر الثقافات وتقارب الأفكار ، اذ ان انتشار اللغات يؤدى الى تيسير ســبل التخاطب والتفاهم بــين مختلف الاجناس .

اجهزة الملاحة البحرية والجوية :

انتشر استخدام الالكترونيات فى السنوات الاخيرة انتشاراً كبيراً فى الأجهزة الخاصة بتيسير الملاحة البحرية والجوية ، واصبحت هذه الأجهزة تعتمــد اعتماداً كلياً على الدوائر الالكترونيــة الحديثــة فى هدايــة الســفن فى اعالي البحــار والطائرات ذات المدى البعيد ، وتحديد اماكنها بدقة على الخريطة فى أية لحظة على مدار الاربع وعشرين ساعة ، بــل ان هنــاك مــن الأجهــزة ما يستخدم حالياً فى المطارات الدولية لأرشــاد الطائرات ومنع تصادمها عند النزول فى أســوأ الظروف الجوية ، بل انها تستطيع انزال الطائرات تلقائياً دون تدخل من الطيار نفسه عند الحاجة

الى ذلك ، ولعل ابلغ دليل على ما وصل اليه التقدم في هذا المجال ما لمسناه أخيراً في رحلات أبوللو الأمريكية الى القمر وكيف استطاعت الأجهزة الالكترونية أن تحدد في دقة متناهية مكان هبوط الكبسولات التي تحمل رجال الفضاء في المحيط الهادى ، ووقت هذا الهبوط بالضبط مما سهل عمليات انتشالهم وانتشال الكبسولات بما تحمل من معلومات لا تقدر بثمن .

ولننظر الآن فيما يترتب على ذلك من آثار بالنسبة للموضوع الذى نحن بصدده : فمما لا شك فيه ان تأمين سلامة المسافرين والبضائع بالبواخر والطائرات قد أدى الى تقريب المسافات البعيدة بين أنحاء العالم واصبح الانتقال من مكان الى مكان مهما بعدت الشقه في متناول عدد كبير من الناس باجر معقول وفي ساعات قلائل ، مع توفر وسائل الأمان بدرجة لم يعرفها الانسان من قبل في تاريخه الطويل على وجه الارض ، وكما سبق ان أسلفنا فان اختلاط الناس بعضهم ببعض يزيل الحواجز بينهم ويعمق التيارات الفكرية التي تربطهم .

اجهزة التنبؤات الجوية :

أخذت هذه الأجهزة في السنوات الاخيرة تعتمد اعتماداً كلياً على الألكترونيات ، وأصبحت محطات الأرصاد الجوية المنتشرة على وجه الكرة الأرضية ـ بل وفي سمائها داخل الاقمار الصناعية ـ تستقي بياناتها ونشراتها وقياساتها عن طريق الدوائر الألكترونية العديدة المركبة بها ، وقد أدى هذا الى تقدم ملموس في صحة التنبوءات الجوية ومقاربتها للواقع .

اما الدور الذى تلعبه هذه النشرات في حياتنا اليومية فهو مهم وأساسي لا سيما بالنسبة لتأمين الملاحة البحرية والجوية وكفاءة الاتصالات اللاسلكية وغير ذلك من أوجه النشاط ، وهنا يتضح الدور غير المباشر الذى تلعبه الألكترونيات في حياتنا الفكرية والثقافية .

★ ★ ★

صلاح الدين طلبه

العقول الالكترونية

عملها واستعمالاتها وآثارها

١ ـ عصر آلات التفكير

يحتاج الانسان فى كفاحه من أجل الحياة والسيطرة على الطبيعة الى استخدام حواسه ، وذهنه ، وعضلاته . فحواسه تكشف له الدنيا حوله ، وذهنه يرشده الى ما يجب أن يفعل تجاه البيئة التى يعيش فيها ، وعضلاته هى وسيلته المادية فى تنفيذ ما يرشده اليه ذهنه .

ولما كانت قوى عضلات الانسان محدودة فقد قدح ذهنه لتسخير قوى الطبيعة فى خدمته، وكان نجاحه فى ذلك فائقا ، فقد اخترع الآلة البخارية ، ومولد الكهرباء ، والمحرك الكهربى ، وآلة الاحتراق الداخلى ، وبهذا أضاف الى قوى عضلاته قوى أخرى تبرزها مرات ومرات وتؤدى له خدمات من ثلاث درجات : فهى تساعده فى انجاز أعمال كانت تثقل كاهله ، وتؤدى له أعمالا أخرى من نوع هذه الأعمال ولكنها تزيد عليها عشرات المرات ، كما تقوم له بأعمال من أنواع جديدة ما كان يستطيع القيام بها بدون هذه الآلات .

كذلك كان مدى رؤية الانسان وسمعه محدودا ، على أنه بقدح ذهنه أمكنه اختراع التلسكوب ، والميكرسكوب ، وآلة التصوير ، والسينما ، والتليفون ، والتلغراف ، والراديو ، والتليفزيون . وبذلك اتسعت أمامه الآفاق ، وأبصر دقائق الأشياء ، ورأى وسمع ما يحدث فى أجزاء الأرض الأخرى وهو بعيد عنها آلاف الأميال .

ولقد اخترع الانسان كل الآلات السابق ذكرها دون أن يجد ذهنه من المساعدات سوى

(*) الدكتور صلاح الدين طلبة . استاذ الاحصاء بجامعة الكويت ورئيس قسم الاحصاء والتامين بكلية التجارة بجامعة الاسكندرية . له بحوث منشورة فى المجلات العلمية العربية والاوروبية فى الرياضيات والاحصاءات الحيوية والتامين . من مؤلفاته : مقدمة الطرق الاحصائية (دار المعارف ـ الاسكندرية) .

تلك التى قدمتها له الآلات الحاسبة التقليدية الهزيلة، وعدد من الجداول الرياضية المليئة بالاخطاء وبعض المعلومات التى سجلها بنو جنسه فى الكتب والمجلات. على أنه كلما ازداد تقدمه فى تسخير قوى الطبيعة استجدت له احتياجات حسابية ورياضية جبارة ولم تعد الآلات الحاسبة التقليدية والجداول الرياضية القديمة كافية لتلبية هذه الاحتياجات. كذلك تراكمت الكتب والمجلات وأصبح البحث فيها عن المعلومات من أشق الأمور .

وهكذا لزم الانسان أن يبحث عن وسائل من نوع جديد تساعد ذهنه فى حل المشاكل الرياضية العويصة ، وتقوم له بالأعمال الحسابية الروتينية المتراكمة ، وتخزن له المعلومات وتمده بها منقحة عند الطلب بأقل جهد وبدون انتظار .

ولقد أوشك الانسان فى القرن الماضى على النجاح جزئيا فى هذا السبيل عندما اهتدى عالم الرياضيات الانجليزى تشارلز بابدج(1) الى المبادىء الأساسية اللازمة لتصميم الآلات المساعدة للذهن فى حل المشاكل الرياضية ، وفى أداء الأعمال الحسابية . على أن التكنولوجيا فى عصره لم تسعفه فى اتمام صنع آلة صممها لذلك وسماها « الآلة التحليلية » ، ونامت أفكار بابدج قرنا من الزمان .

وأخيرا ــ ومنذ ربع قرن فقط ــ وتحت ضغط الاحتياجات الحربية ــ جاءت النجدة لمساعدة أذهان الناس فى شكل آلات يحب البعض ان يسميها « العقول الالكترونية » ، ويفضل العلماء أن يطلقوا عليها اسما أكثر دقة مثل « الآلات الحاسبة الالكترونية » ــ أو شيئاً من هذا القبيل . ولم يكن نجاح الانسان جزئيا فى هذه المرة ، وانما كان كليا وفوق كل ما كان يسعى اليه أو يتوقعه ، فقد صنع آلات من نوع جديد تماما تحل أصعب المسائل الرياضية ، وتؤدى الملايين من الأعمال الحسابية الروتينية فى ثوان معدودة . كما أنه فى الاستطاعة توسيع « ذاكرتها » لتسع أى قدر من المعلومات بعد تنقيحها ، ثم تعطيها فى الحال عند الطلب .

وهى تفعل كل ذلك بدون أن تتعب، وبدون أن تمل ، وبدون أن تخطىء .

ولقد كان من باكورة انجازات هذه الآلات عمل الجداول اللازمة لاطلاق المدافع ، وحل العديد من المسائل الرياضية اللازمة لتصميم وصنع كل من المفاعل النووى ، والقنبلة الذرية ، والطائرات النفاثة ، والصواريخ الجبارة ، والقنبلة الهيدروجينية . ولم تكن الآلات الأولى تستخدم للأغراض التجارية لكثرة تكاليفها ، وكبر حجمها ، وعدم توفر المتخصصين فى مجال استعمالها وتشغيلها .. على أن التقدم التكنولوجى السريع جعل فى الامكان صنع أنواع جديدة من هذه الآلات بتكاليف اقل وحجم اصغر مع كفاءة أكبر ، سواء من حيث سرعة الاداء أو سعة الذاكرة ، كما أن الناس تعلموا كيف يستعملون هذه الآلات ، وبذلك نزلت الآلات الحاسبة الالكترونية الى الأسواق بالعشرات ، ثم بالمئات ، ثم بالآلاف ، واصبحت صناعتها واحدة من أكبر الصناعات ، وفى اقل من ربع قرن أصبحنا نجد هذه الآلات فى خدمة العلم، والطب ، والهندسة ، والصناعة ، والتجارة والاقتصاد وغيرها .

ولكن ما هى الخدمات التى تؤديها الآلات الحاسبة الالكترونية فى هذه المجالات ؟ انها تساعد ذهن الانسان فى حل المشاكل الرياضية والعلمية ، وفى تذكر المعلومات ، وفى تشخيص الأمراض ، وفى تصميم مختلف الأنواع من الآلات ، وفى الادارة الآلية للمصانع ، وفى استخدام الموارد المحدودة

(1) Charles Babbage

بأكبر فائـدة ، وفى الأعمال الاحصائية بادارات الحكومة، والأعمال المحاسبية بالمصارف والشركات، بالاضافة الى كثير غير ذلك ..

ولكى يتبين الى أى حد تساعد هذه الآلات ذهن الانسان فى المجالات المختلفة يكفى أن نقول بأن الآلة الواحدة الكبيرة منها تستطيع أن تحل فى دقائق من المسائل الرياضية أكثر مما يستطيع مائة من الرياضيين فى عام كامل ، وأن تؤدى فى يوم واحد من الأعمال الحسابية ما يشغل ملايين الكتبة فى أسبوع ، وان تحفظ فى ذاكرتها ما يملأ مئات المجلدات . وعما قريب سيأتى اليوم الذى تسع فيه ذاكرة بعض الآلات ما يوجد بمكتبة عامة كاملة .

ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بالمدى الـذى ستصل اليه نتائج اختراع هذه الآلات الجديدة التى يقابل دورها فى مساعدة الذهن ذلك الدور الذى تقوم به الآلات التقليدية فى مساعدة العضلات. فالآلات الحاسبة الالكترونية تؤدى للذهن خدمات من ثلاث درجات : فهى تساعده فى انجاز أعمال كانت ترهقه ، وتؤدى له أعمالا أخرى من نوع هذه الأعمال ولكنها يمكن أن تزيد عليها آلاف المرات ، وتقوم له بأعمال من أنواع جديدة ما كان يستطيع القيام بها بدون هذه الآلات .

ولئن جاء اختراع الآلة البخارية اعلانـا للثورة الصناعية فما هو الاعلان الذى جاء بـه اختراع الآلات الحاسبة الالكترونية ؟ ان الناس يحبون أن يقيسوا التغيرات بمقدار نتائجها المادية، ولذلك يقول البعض منهم ان اختراع هذه الآلات جاء اعلانا لثورة صناعية ثانية . على أننا نكون أكثر دقة لو قلنا ان ما جاءت به هذه الآلات هو « ثورة ذهنية » سيكون لها من الآثار ما لا يقاس به أثر اختراع الآلة البخارية . أليس من أول آثار الآلات الجديدة أن دخل الانسان عصر الفضاء ؟ وهل كان يمكن بدون هذه الآلات اطلاق الصواريخ فى الاتجاه الصحيح، ثم تتبع مساراتها ، وتوجيهها فى ذهابها الى القمر ، وعودتها منه ؟

ولا تقتصر آثار الآلات الحاسبة الالكترونية على مواقع منعزلة (مثل الصواريخ عابرة الفضاء، أو البحوث النووية) وانما تمتد آثارها الى ميادين واسعة ، فقد نتج عن وجودها ظهور علوم وطرق جديدة تغطـى مجالات الادارة ، والصناعـة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والحرب . ومن هذه العلوم والطرق الجديدة : « البرامج الخطية »(٢) ، و « المحاكـاة »(٣) و « تقـويم المشروعات »(٤) ، وغيرها مما سنتكلم عنه فيما بعد . ولاشك أنه سيترتب على اختراع الآلات الجديدة ظهور علوم وطرق أخرى لم يحلم بها الانسان ، ولعله مـن أخطـر الآثار التى تترتب عـلى اختـراع الآلات الحاسبة الالكترونية أن الادارة الآلية أو « الأوتوميشن »(٥) فى الصناعة أصبحت أمرا ممكنا .. ولقد ظهرت بداية ذلك فى صناعات تكرير البترول وبعض الصناعات الكيمائية والكهربية ، وهـكذا ستدير « العقول » الالكترونية المصانع ، وتشرف على الآلات الأخرى ، وتقضى شيئا فشيئا على احتياجات الصناعات القائمة للأيدى البشرية . ولابد أن مجرد ظهور هذه الفكرة يقض مضاجع علماء الاجتماع والاقتصاد ، ورجال السياسة . فهل ستؤدى « الأوتوميشن » فى الصناعات الى أن تعم البطالة ـ بما يترتب على ذلك من آثار اجتماعية واقتصادية وسياسـية خطـيرة ، أم ستنشأ من ذلك صناعات جديدة تحتاج الى عمال جدد (مدربين فى هذه المرة بدرجات متفاوتة) فيكون الأمر فى صالح العمال والناس جميعا فى النهاية ؟

ولو أمعنا الفكر فى هذا السـؤال فربما وجدنا ان الأرجح الا تعم البطـالة فى المجتمعات

(2) linear programming (3) Simulation (4) PERT (5) automation

المتقدمة ، فسينشأ فيها دائما صناعات وأعمال جديدة . وانما الويل كل الويل للمجتمعات التي ستبقى فى المؤخرة العلمية والتكنولوجية .

ولعله جاء الوقت الآن لكى نصف الآلات الحاسبة الجديدة ونصنفها ، على أنه قبل أن نفعل ذلك نحب أن نتفق على أن نعطى هذه الآلات اسمها العلمى المتفق عليه وهو الـ « كمبيوتر »(٦).

والكمبيوتر كلمة معناها فى اللغة الانجليزية « الحاسب » على شريطة أن يستلزم الحساب تفكيرا وخطوات . والكلمة مشتقة من لفظ لاتينى(٧) معناه « يفكر » . على أن الاستعمال الفنى للفظ « كمبيوتر » أصبح الآن مقصورا على آلات معينة تتمشى صفاتها مع التعريف التالى :

« الكمبيوتر آلة تلقن أوامر وبيانات ثم تترك فتقوم بأعمال « حسابية » تتألف من خطوات * . وتتم عملها كله فى تلبية الأوامر بدون تدخل الانسان . وعندما تصل الى النتيجة المطلوبة تعطى هذه النتيجة أو تبدأ عملا مبنياً عليها » .

لعل القارىء لاحظ أننا لم نعط للكمبيوتر فى هذا التعريف صفته « الالكترونية » المشهور بها. لقد فعلنا ذلك عمدا لأنه يمكن صنع كمبيوتر لا يستعين بالوسائل الالكترونية ، فالالكترونات دقائق صغيرة تسبح فى مسالك لها ، ومن الممكن تصميم جهاز تقوم فيه جزيئات الهواء أو الماء بنفس الدور الذى تقوم به الالكترونات فى الكمبيوتر الالكترونى . كما أنه من الممكن تصميم كمبيوتر لا يستخدم فيه سوى الوسائل الميكانيكية مثل الروافع والعجلات المسننة «التروس» . ولقد صمم تشارلز بابدج أول كمبيوتر على هذا الأساس فعلا (وكان ذلك كما سبق أن ذكرنا قبل أكثر من مائة سنة من اتمام صنع أول كمبيوتر عرفه الناس) .

على أن الفارق الأساسي بين الكمبيوتر الالكترونى والكمبيوتر غير الالكترونى هو أن الأول يقوم بعملياته بسرعة مذهلة تبز آلاف المرات سرعة أى كمبيوتر غير الكترونى .

وسواء كان الكمبيوتر الكترونيا او غير الكترونى فانه لا يزيد عن كونه آلة من اختراع الانسان ، ولا يستطيع ان يفعل شيئا من نفسه ، ومن التجاوز أن نسميه « عقلا » .. على أن هذا لم يمنع بعض العلماء من التفكير فى اختراع آلات « ذكية » تستجيب للمؤثرات بطريقة التجربة والخطأ ، ولن نناقش هنا امكان وجود مثل هذه الآلات . وعلى كل حال فليس الكمبيوتر من الآلات التى يمكن وضعها تحت قائمة « الآلات الذكية » حسب التعريف السابق .

على أن هذا يجب ألا يجعلنا نحط من قدر الكمبيوتر ، والواقع أن له من القدرات ما يجعله قادرا على « اتخاذ القرارات » فى مواقف معينة (على أساس قواعد تلقن له) اذا كانت « الأوامر » الصادرة اليه من الانسان تتطلب منه ذلك وكان تصميمه مبنيا على أساس الاستجابة لهذه الأوامر. وهناك كمبيوترات يمكنها أن (تلعب) الشطرنج وتتخذ بعد كل حركة من الخصم قراراً يتوقف على الوضع القائم وقتئذ .

وهذا ينقلنا الى الكلام عن أنواع الكمبيوتر والتصنيفات المختلفة التى يمكن ايجادها بين هذه الأنواع .

---

(6) computer (7) computare

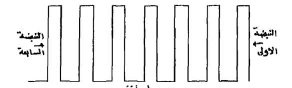
(*) تتم الخطوات واحدة بعد أخرى فى الكمبيوتر الرقمي بخلاف الكمبيوتر التناظرى الذى تتم فيه « الخطوات » معا فى وقت واحد (سيأتى وصف أنواع الكمبيوتر فيما بعد).

٢ ـ أنواع الكمبيوتر

تستخدم الكهربية فى أنواع الكمبيوتر الحديثة المختلفة ، وسيكون من الملائم أن نراجع بعض المعلومات الكهربية الأولية التى تلزمنا للتمييز بين النوعين الرئيسيين من الكمبيوترات .

النبضات الكهربية(٨) :

لعله من المفيد ان نراجع أولا معلوماتنا عن نبضات القلب التى نعرفها جيداً .. من المعلوم ان نبضات القلب تحدث بمعدل ٧٠ نبضة فى الدقيقة (فى المتوسط) ، ولسنا نقصد بالنبضة ذلك الصوت الذى نسمعه من القلب ، وانما نقصد بها ذلك الاندفاع فى الدم . أو الضغط ، الناشىء عن انقباض القلب . وهنا يجدر بنا ان نذكر أن هذا الانقباض يتبعه تراخ . واذا قسمنا الدقيقة الى ٧٠ فترة متساوية فاننا نجد أنه اذا شرع القلب فى النبض فى بداية الفترة الأولى فان النبضة تستغرق جزءا من هذه الفترة ، يليها تراخى القلب فى باقى الفترة ، ثم تبدأ نبضة أخرى فى بداية الفترة الثانية ، وهكذا .



شكل (١) يمثل ٧ نبضات لقلب ينبض بمعدل ٧٠ نبضة في الدقيقة .

ويمثل شكل (١) سبع نبضات لقلب ينبض بمعدل ٧٠ نبضة فى الدقيقة ، والخط الرأسى الأيمن يبدأ من اسفل متجهاً الى اعلى ممثلا أن ضغط الدم يزداد فجأة (فى بداية الفترة الأولى) الى ارتفاع معين . ويتلو ذلك خط افقى ممثلا ان ضغط الدم يبقى مرتفعا أثناء النبضة . اما الخط الرأسى الثانى فيبدأ من أعلى متجها الى اسفل ممثلا أن الضغط ينخفض فجأة عند نهاية انقباض القلب وبداية تراخيه ، ويتبع ذلك خط افقى ممثلا ان الضغط يبقى منخفضا طوال بقية الفترة الأولى . وهكذا بالنسبة الى باقى النبضات .

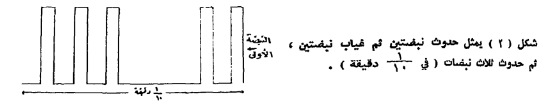
ومن الواضح ان هذا تبسيط شديد فى تمثيل التغيرات التى تحدث لضغط الدم نتيجة حدوث حركة القلب ، فالواقع أن ضغط الدم لا يرتفع فجاة (عند بداية الانقباض) بالطريقة الظاهرة فى الشكل ، ولا بد أن اتمام الارتفاع يستغرق وقتا ، مهما كان هذا الوقت ضئيلا . على أن كل ما يهمنا هو ان نعتبر أن القلب يرسل « اشارات » متتابعة فى شكل نبضات ، وربما كانت الضغوط غير متساوية فى هذه الاشارات ، ولكن هذا لا يهمنا ، فالاشارات تحدث بصرف النظر عن مقدار الضغوط فيها ، وعن تساوى هذه الضغوط أو اختلافها فيما بينها .

والآن دعنا نقارن بين نبض القلب وعمل موظف التلغراف الذى يجلس الى آلة الارسال . يمكننا ان نطلب منه ان يقلد عمل القلب ويرسل « اشارات » فى فترات زمنية متساوية فى شكل « نبضات كهربية » . ولو كانت سرعة ارساله هى ٧٠ نبضة فى الدقيقة فمن الممكن أن نمثل النبضات الكهربية التى يرسلها فى ١٠/١ دقيقة بنفس الرسم الموجود فى شكل (١) .

ولنفرض ان هذا الموظف قسم الدقيقة الى ٧٠ فترة متساوية كما طلبنا ولكنه بعد ارسال

(8) electric pulses

الاشارتين الأولى والثانية لم يرسل الثالثة والرابعة ثم أرسل الاشارات الثلاث التالية فى مواعيدها ، عندئذ يمكننا أن نمثل الاشارات (النبضات) التى أرسلها كما فى شكل (٢) .



شكل (٢) يمثل حدوث نبضتين ثم غياب نبضتين ، ثم حدوث ثلاث نبضات (في ١/١٠ دقيقة) .

على أن هناك من الأجهزة الكهربية ما يمكنه ارسال مئات الآلاف من النبضات فى الثانية ، ومن الممكن أن نجعل جهازا من هذه الأجهزة يرسل نبضات فى الفترات التى نعينها له ، وأن يتوقف عن الارسال فيما بين هذه الفترات .

وقد يكون زمن النبضة ١/٢ ميكرو ثانية أو أقل (تحتوى الثانية على مليون ميكروثانية) ، مع وجود فاصل بين نبضتين متتاليتين قدره ميكرو ثانية واحدة أو اثنتان .

« الضغط الكهربي » :

عندما نقترب من محطة لتوليد الكهرباء قد نرى لافتة عليها العبارة « خطر . ضغط كهربي عال » . وربما ذكر تحت هذا التحذير العبارة « ٥٠٠٠ فولت » مثلا . ولا بأس من استعمال لفظ « ضغط كهربى » فى دراستنا ، وان كان من الأفضل استخدام كلمة أخرى هى « الفولتية » (أو فرق الجهد) . والضغوط الكهربية لا تصل فى منازلنا الى هذا المقدار المخيف ، فأجهزتنا مجهزة لتحمل ٢٢٠ فولتاً أو ١١٠ فولتات أو شيئاً من هذا القبيل . اما فى السيارة فان الضغط الكهربي يكون دون ذلك بكثير ، فالبطارية الموجودة فى السيارة تكون قوتها الدافعة الكهربية ٦ فولتات أو ١٢ فولتاً ، ذلك لأننا لا نحتاج الا الى مقدار ضئيل من الكهرباء فى سياراتنا . والضغط الكهربى هو ما يعمل على دفع الكهربية فى الأسلاك والأجهزة . وكلما زاد هذا الضغط زادت « شدة » التيار الكهربى .

ثلاثة أنواع من الكمبيوتر :

تقوم الأعمال الحسابية اما على أساس العد ، واما على أساس القياس . وغالبا ما يبنى القياس على فكرة التناظر . فالانسان مثلا يقيس درجة الحرارة بتحديد ارتفاع سطح الزئبق فى الترمومتر ، وكل ارتفاع لهذا السطح « يناظر » درجة حرارة معينة . وكذلك تقاس سرعة السيارة باستعمال جهاز معين ذى مؤشر ، وكل وضع لهذا المؤشر يناظر سرعة معينة لدوران عجلات السيارة . وهكذا .

وهناك ثلاثة أنواع من الكمبيوترات هى :

١ ــ الكمبيوترات التناظرية(٩) التى تعمل على أساس القياس .

٢ ــ الكمبيوترات الرقمية(١٠) التى تعمل على أساس العد .

٣ ــ الكمبيوترات الهجينة(١١) وهى تجمع بين القياس والعد .

(9) analog (10) digital (11) hybrid

الكمبيوتر التناظرى :

يتقلى هـذا الكمبيوتر البيانات فى شكـل ضغوط كهربية تسمى « اشارات » وتعالج كل « البيانات » فى وقت واحد (أى أنها لا تعالج واحدة بعد أخرى كما هـو الحال فى الكمبيوتر الرقمى) . وتتحدد القيم العددية لهذه الاشارات بمستوى الضغط فيها. ويقوم الكمبيوتر التناظرى بعمليات الجمع ، والضرب ، والقسمة ، ووظائف رياضية أخرى (كالتكامل المحدود) .

ومن غير الممكن أن تصل دقة القياس الى درجة دقة العد . ولذلك نجد أن درجة الدقـة تقل فى الكمبيوترات التناظرية عنها فى الرقمية . علـى انـه يمكن بتحسـين التصميـم وتطويـر التكنولوجيا صنع كمبيوترات تناظرية ذات درجة عالية نسبيا من الدقة . ومنذ سنوات يوجد بالأسواق آلات من هذا النوع تصل فيها درجة الدقة الى ٩٩٫٩٩٪ . الا أنه قد يكتفى مـن الكمبيوتر التناظرى بنتيجة تصل فيها درجـة الدقة الى ٩٩٪ .

وفى مقابل أن دقة الكمبيوتر التناظرى ليست عالية جدا (ويفوقه الكمبيوتر الرقمى فى ذلك بكثير) ، نجد أنه نظرا لأن عمل هذا الكمبيوتر مبنى على القياس فان بامكانه اعطـاء النتيجة المطلوبة فى الحال ، ويكون لذلك شأن كبير فى المواقف التى لا تسمح فيها الظروف بالانتظار .

وتستخدم الكمبيوترات التناظرية فى اطلاق القذائف الموجهة وتصحيح مساراتها ، وفى عمليات الـرادار ، وفى العمليـات الصناعيـة الآليـة (الأوتوميشن) ، وفى أشياء اخرى كثيرة . ومن أهم استخداماتها انشاء نماذج « تحاكى » نظما معقدة يصعب فيها حسـاب النتيجـة بالطـرق العادية ، ولكن الكمبيوتر التناظرى يعطى هذه النتيجة فوراً .

ويتركب الكمبيوتر التناظرى عن عدد مـن الدوائر الكهربية التى تقوم بالعمليات الحسابية . والأنواع الرئيسية لهذه الدوائر قليلة . ولكـن الدوائر المتشابهة تتكرر عددا كافيا من المرات للقيـام بالأعمـال الحسابية المطلوبة ، ونقصد بالدوائر المتشابهة تلك التى تقوم بنفس النوع من العمليات الحسابية . وعندما يراد حل مسألة رياضية توصل أجزاء الكمبيوتر معا بحيث تتناظر العمليات فيه مع التغيرات التى يراد ايجاد نتيجتها. وفى الكمبيوترات التناظرية الحديثـة تستخـدم لوحات خارجية للتوصيل حتى يتسنى تحضير لوحة جديدة لكل عملية مقبلة أثناء عمل الكمبيوتر فى عملية أخرى . وبذلك لا يبقى الكمبيوتر عاطلا بين عمليتين .

والنتيجة التى نريد الحصول عليها مـن الكمبيوتر التناظرى قد تكون جوابا رقمياً يظهر على واجهة الآلة فى شكل ضغط ثابت ، وقـد تكون هذه النتيجة قياس التغيرات المتتالية التى تحـدث لمتغير خارجى (مثل سـرعة جسم أو المسافات التى يقطعها فى فترات متتالية من الزمن) فتظهر هذه فى شكل رسم يظهـر على شاشـة الجهاز ، كما قد يكون المطلوب من الكمبيوتر اصدار اشارة كهربية يبدأ بها عمل معين (مثل اطلاق قذيفة على طائرة معادية ، أو احداث تغيير فى عملية صناعية) .

الكمبيوتر الرقمى :

يتم العمل فى الكمبيوتر الرقمى على أساس العد باستخدام نبضات كهربية نسميها اشارات. والمهم هنا هو وجود اشارة أو عدم وجود اشارة ، ولا يهم اطلاقا مقدار الضغط فى النبضة ، بخلاف الحال فى الكمبيوتر التناظرى .

وبالاضافة الى العمليات الحسابية العادية فان الكمبيوتر الرقمى يمكنه أن يقوم بعدد من العمليات « المنطقية » . وكما سبق أن ذكرنا يقوم الكمبيوتر الرقمى فى عمله بخطوات متتابعة ، بخلاف الكمبيوتر التناظرى الذى يعالج كل « القيم » التى تلقن له فى وقت واحد .

ويكون تلقين الأوامر والبيانات للكمبيوتر الرقمى الحديث فى شكل سلاسل من النبضات الكهربية بنظام معين ، يتوقف على « اللغة » التى « يخاطب » بها كما سيأتي فيما بعد . وينشأ من هذه النبضات سلاسل من نبضات أخرى تؤدى الى النتيجة المطلوبة .

وتفسير الفقرة السابقة هو أن الأوامر والبيانات تلقن للكمبيوتر الرقمى ـ باستعمال شفرة معينة ـ فى شكل « نبضات » تتخللها « فراغات » بنظام معين يتوقف على نوع الأوامر والبيانات ، ويصمم الجهاز على أساس أن ينشأ من كل أمر بعينه سلسلة خاصة من النبضات تتوقف على البيانات وعلى النتائج السابقة ، وفى النهاية نحصل على النتيجة الرقمية المطلوبة .

ويعطى الكمبيوتر الرقمى النتيجة بكل دقة ما لم يحدث فى العمليات التي يقوم بها تقريب (بسبب طبيعة العلاقات الرياضية فى المسألة المعروضة للحل) ينشأ عنه تراكم الخطأ ، وخاصة فى الأحوال التى تعاد نفس العملية على النتائج الجزئية مرات عديدة (قد تصل الى آلاف المرات). على أنه يمكن الحصول من الكمبيوتر الرقمي على أى درجة نريدها من الدقة بزيادة الوقت المخصص للحل .

وليس من النادر أن يوجد عشرون رقما فى بعض العمليات التى يقوم بها الكمبيوتر الرقمى .

وقد صنعت الكمبيوترات الرقمية الأولى بغرض حل مسائل رياضية معقدة فى الفيزياء ، ولعمل جداول اطلاق المدافع ، ولحل مسائل نشأت عند صنع القنبلة الذرية الأولى ، وقد تلا ذلك تصميم كمبيوترات أخرى لأغراض علمية وحربية مشابهة . على أنه سرعان ما ظهر أنه بالامكان استغلال الكمبيوتر الرقمى فى اغراض تجارية ، وخاصة عندما ظهر جيل جديد من هذه الكمبيوترات قليل التكاليف نسبيا ، وساعد على ذلك أنه ظهرت للكمبيوترات الرقمية فوائد جانبية كثيرة ، فالى جانب قدرة هذه الآلات على حل المسائل الرياضية المعقدة التى لا يتم حل بعضها الا بعد اجراء الملايين من العمليات الحسابية ، فان هذه الآلات يمكن ان تستخدم فى تنظيم وتنقيح المعلومات ، ثم فى استرجاعها بمجرد الطلب عندما يلزم الأمر ، كما يمكن ان تستخدم فى اتخاذ القرارات المبنية على معلومات جديدة أو معلومات « مخزونة » . ومن أهم استخدامات الكمبيوتر الرقمى الكبير ما يكون فى الدراسات المبنية على « محاكاة » النظم المعقدة التى تسير فيها الأمور عشوائياً ، أى بطريقة يصعب معها التنبؤ بالنتائج ، وقد أمكن باستعمال طرق المحاكاة عمل دراسات حربية واجتماعية واقتصادية وبيولوجية ما كان يمكن ان تتم قبل اختراع الكمبيوتر .

الكمبيوتر الهجين :

قد يكون من الأفضل او من الواجب فى بعض المواقف أن يكون العمل فى بعض اجزاء الكمبيوتر على أساس التناظر ، وفى البعض الآخر على اساس العد ، أى أن يكون الكمبيوتر « هجينا » مكونا من اجزاء تناظرية واخرى رقمية . وفى هذه الحالة يلزم أن يحتوى الكمبيوتر على واحد على الأقل من النوعين الآتيين من المبتكرات :

أ ـ « محولات تناظرية/رقمية »(١٢) ، وهى مبتكرات تحول تغيرات الضغوط الكهربية (الناشئة من التغيرات المادية) الى ارقام .

ب ـ « محولات رقمية/تناظرية »(١٣) ،وهى مبتكرات تحول الأرقام الى تغيرات فى الضغوط الكهربية .

وعلى سبيل المثال نجد أنه قد يلزم فى بعض الصناعات أن يتأثر الكمبيوتر بالتغيرات غير المرغوبة فى عملية الانتاج ، وأن يعطى نتيجة لذلك« امرا » بالتعديل اللازم فى سير العمل . هنا نجد أن كلا من التلقين واعطاء النتيجة يكون على أساس التناظر . فاذا كان يرى أن يكون الحساب فى الكمبيوتر على أساس رقمى فانه فى هذه الحالة قد يحتوى الكمبيوتر المستعمل على الاجزاء الآتية:

أ ـ اداة تلقين تناظرية   ب ـ محول تناظرى/رقمى

جـ ـ قسم للحساب على أساس رقمى   د ـ محول رقمى/تناظرى .

★ ★ ★

٣ ـ تصنيفات أخرى للكمبيوتر

اذا قسمنا الكمبيوترات حسب الفرض الذى اعدت من اجله (بصرف النظر عن نوعها القائم على أساس التقسيم السابق ذكره) نجد أن هناك صنفين من الكمبيوترات هما :

١ ـ الكمبيوترات ذات الفرض الخاص(١٤) التى لا يستخدم الواحد منها الا للغرض الذى أنشىء من اجله .

٢ ـ الكمبيوترات ذات الفرض العام(١٥) التى يستخدم الواحد منها فى أغراض متعددة .

ومن الكمبيوترات ذات الفرض الخاص تلك التى توجد فى المصارف لبيان أرصدة العملاء ، أو التى تستخدم فى مكاتب الطيران لبيان وجود مقاعد خالية وحجز هذه المقاعد فى مكاتب للشركات قد توجد فى أقطار أو قارات مختلفة ، أو التى تستعمل مع الجيوش لتصحيح اتجاه اطلاق المدافع ، أو التى توجد فى العيادات الطبية الكبرى لتشخيص مرض بمعلومية أعراضه والتاريخ المرضى للمريض .

ويكون الكمبيوتر التناظرى ذا غرض خاص فى الغالب .

أما الكمبيوتر الرقمى فانه يكون ذا غرض خاص أو عام .

ويقابل حصر فائدة الكمبيوتر ذى الفرض الخاص فى نطاق ضيق أن اعطاء الأوامر اليه يكون عملية بسيطة لا تستلزم وقتا تقريبا ، بالاضافة الى قلة تكلفة انشائه نسبيا .

---

(12) analog/digital converters (13) digital/analog converters

(14) special purpose computers (15) general purpose computers

وتنقسم الكمبيوترات الرقمية ذات الغرض العام الى فئتين هما :

أ ـ الكمبيوترات العلمية(١٦) .

ب ـ كمبيوترات الأعمال(١٧) .

وتصمم الكمبيوترات العلمية على أساس امكان الاستجابة للعديد من الأوامر المختلفة اللازمة لحلول المسائل العلمية بأنواعها ، بينما تصمم كمبيوترات الأعمال على أساس الاستجابة لعدد قليل نسبيا من الاوامر المختلفة مع وجود مقدار كبير من البيانات . وبذلك يختلف عدد الأوامر المتنوعة التى يمكن للكمبيوتر أن ينفذها حسب الفئة التى ينتمى اليها . ويتراوح هذا العدد عادة بين ١٦ أمرا و ٢٥٦ أمرا مختلفا .

وبرغم هذا التقسيم للكمبيوترات الرقمية ذات الغرض العام الى فئتين فانه من الممكن استخدام الكمبيوترات العلمية لأغراض الأعمال . على أنه من الوجهة الاقتصادية يحسن استخدام كمبيوترات الأعمال لهذه الأغراض .

ومن الممكن أن تستخدم كمبيوترات الأعمال فى أعمال المحاسبة وفى بعض الادارات الحكومية ، وفى أعمال الشركات .

على أن هذا لا يجب أن ينسينا أن هناك كمبيوترات رقمية ذات غرض خاص تستطيع القيام ببعض هذه الاعمال . فهناك مثلا كمبيوترات رقمية خاصة لأعمال المحاسبة ، وأخرى خاصة لحجز المقاعد فى شركات الطيران ، وهكذا .

وقبل ان ننتقل الى نقطة اخرى يحسن بنا أن نميز بين « الأعمال » و « علم ادارة الاعمال » الذى تطور فى السنوات الأخيرة تطورا كبيرا جدا باستخدام الطرق الرياضية الكمية والمنطقية . ومن المسائل المستحدثة فى هذا العلم انواع تحتاج الى استعمال كمبيوتر رقمى علمي ذى سعة تخزين كبيرة جدا .

٤ ـ البرامج(١٨) ولغات الكمبيوترات

« البرنامج » هو مجموعة الأوامر التى تبين للكمبيوتر جميع الخطوات التي يلزم تأديتها بترتيب معين لحل مسألة معينة ، ويجب أن تكون كل التفاصيل الدقيقة موجودة وصحيحة . وعندما يضع كل من شخصين برنامجا لحل نفس المسألة فان البرنامجين يكونان مختلفين عادة .

وتختلف المدة اللازمة لوضع البرنامج من مسألة الى اخرى ، فقد يستلزم وضع البرنامج من شخص مدرب أسابيع أو أشهرا ، وربما احتاج وضع برنامج الى عمل فرقة باكملها مدة سنة كاملة .

وهناك قول شائع ان فى كل برنامج خطأ على الأقل ، والمقصود هنا طبعا هو البرنامج عند وضعه لأول مرة وقبل تجربته .

---

(16) scientific computer (17) business computer (18) programs

وكلامنا هنا يدور حول البرامج التي تعدللكمبيوتر الرقمي ذى الفرض العام ، اى المعد لحل أنواع مختلفة من المسائل . أما الكمبيوتر ذوالفرض الخاص فانه يكون مصمما بحيث لا يحتاج الا الى أمر بالبدء مع اعطاء البيانات اللازمة . و« يخاطب » الكمبيوتر الرقميباستعمال رموز تبعا لشفرة خاصة تتوقف على تصميم الكبيوتر تسمىلفة الكمبيوتر ، على انه نظراً لصعوبة استعمال لغة الكمبيوتر الأصلية فانه قد اخترعت لغـات كثيرة تكتب بها البرامـج وتلقن الى الكمبيوتـر فيترجمها الى لغته الخاصـة وذلك باسـتعمال برنامج معد لذلك يختلف من كمبيوتر الى آخر .

وسوف نعطى فيما بعد شيئا من التفاصيلفى هذا الموضوع . (انظر تذييل ١) .

٥ ــ نظم الكمبيوتر(١٩)

قد يكون الكمبيوتر جـزءا مـن « نظام »يحتوى على آلات أخرى متصلة بعضها بالبعض الآخر ، وربما كان بعض هذه الآلات كمبيوتراتأخرى . وبقولنا « نظام كمبيوتر » نقصد مجموعة من الآلات المختلفة التي يؤدى فيها كمبيوتر معيندورا جزئيا . وسنتكلم فيما يلى عن بعض النظم المختلفة .

نظم كمبيوتر الوقت الحقيقي (٢٠) :

يستطيع الكثير من الكمبيوترات ان يصلالى القرارات فى اجزاء من الف من الثانية بعـد تلقينها الأوامر والبيانات . وفى كثير من الأحيان نجد أن هناك عددا كبيرا من المســائل المطلوب عرضها على الكمبيوتر ، ويكون عرضها عليه ممـايستدعي انتظار كل مسألة حتي يحين دورها ، ولكن هناكمن المواقف ما يستدعي أن يكونالتلقينبدون انتظار ، حيث أنه يلزم أعطاء النتيجة فى الحـال .

ومنهنا نشأ نوع جديد مننظمالكمبيوترات،الفرض منه التحكم فى بيئة معينة ، وذلك بتلقي الاوامر بدون انتظار الدور ، واعطـاء النتيجـةالمطلوبة بالسرعة الكافية للتأثير الأمثل فى البيئة . والنظم من هذا النـوع تسمى « نظم كمبيوترالوقت الحقيقي » .

وفى هذه النظم يكون الكمبيوتر عن بعد فىالغالب ويكون تلقين المعلومات بطرق مختلفة منها استعمال أزرار متصلة بالآلة . وبعد مرور وقتوجيز ــ يسمى وقت الاستجابة ــ يتلقى العامل الاجابة المطلوبة . وقد يكون هذا الوقت بعضأجزاء من ألف من الثانية كما فى استعمال الرادار، أو نحو ثانيتين كما فى نظم حجز مقاعد الطيران ،أو نصف دقيقة كما فى نظم الرقابة على المخازن ، أو خمس دقائق كما فى نظام الرقابة فى مصنعورق .

نظم الوقت المشترك (٢١) :

يميل الاتجاه فى المراكز الصناعية والعلميةوالتجارية الكبيرة فى الدول الصناعية الكبرى الى اقامة نوع من الكمبيوتـرات الرقميــة يتصــلبالواحد منها عدد من العملاء لكل منهم نقطة تحكم

---

(19) computer systems (20) real-time computer systems

(21) Time-sharing computer systems

مستقلة فى مقر عمله يعطى منها الاوامر والبيانات ويتلقى فيها الاجابات . وهذه النظم التي يخدم فيها عدد من العملاء فى وقت واحد تسمى نظم « الاشتراك فى الوقت » .

ومن الأمثلة على هذه النظم نذكر نظاما (٢٢) لشركة جنرال الكتريك الأميركية مصمماً لعمليات الاشتراك فى الوقت على نطاق واسع ، وفى هذا النظام يمكن لثلثمائة فرد أن يستخدموا الكمبيوتر فى نفس الوقت ، ويمكن لاكثر من الف « نهاية » (٢٣) أن توصل بالنظام .

ويمكن للكمبيوتر فى هذا النظام ان يتسجيب فى أجزاء من الف من الثانية ، وأن يجيب بصوت مسموع على أنواع من الاسئلة ، وان يحل المسائل البسيطة ، كما يمكنه أن ينفذ عمليات طويلة كاملة بالطريقة التقليدية للكمبيوترات العادية .

ويحتوى هذا النظام للاشتراك فى الوقت على مبتكرات مختلفة السرعة منها كمبيوترات رقمية صغيرة ، وآلات طباعة (تايبريتر) تكتب عن بعد ، ومبتكرات للعرض المرئي ، وكمبيوترات تناظرية .

٦ ـ عباقرة الكمبيوتر الرقمى

يجمع الكتاب على أن للكمبيوتر الرقمي جد هو الرياضي الانجليزى « تشالز بابدج » (٢٤) ، وأب هو الرياضي الهتغارى المولد « جون فون نويمان » (٢٥) . وبجانب هذين العبقريين هنـاك الفيزيائي الأمريكي « هوارد ايكن » (٢٦) الذى كان له الفضل فى صنع أول كمبيوتر رقمي . وسنورد فيما يلي شيئا عن حياة كل من بابدج وفـون نويمان ودورهما فى أختراع الكمبيوترات الرقمية ، وكذلك شيئا عن دور ايكن فى ظهور الكمبيوترات الرقمية الى حيز الوجود .

تشارلز بابدج (١٧٩٢ ـ ١٨٧١) :

ولد تشارلز بابدج ، الذى يعتبر جَدّ الكمبيوترات الرقمية ، فى ديفونشير بانجلترا ، وتلقى فى صغره تعليما غير منتظم ، على أنه قام بتعليم نفسه الرياضيات الى درجة أنه عندما ذهب الى كمبردج للالتحاق بالجامعة وجد نفسه أكثر علما بالجبر من المشرف الذى وكل أمره اليه . وقد رفض بابدج التقدم لامتحانات كمبردج للحصول على درجة الشرف فى الرياضيات ، وكان هذا خطأ منه ، على أنه مع ذلك اختير فى سنة ١٨٢٨ أستاذاً للرياضيات فى الكرسى (٢٧) الذى كان يشغله نيوتن فى القرن السابع عشر ، وقد احتفظ بابدج بهذا المنصب احد عشر عاما دون ان يعطى محاضرة واحدة فى الجامعة .

وفى أحد ايام سنة ١٨١٢ كان بابدج جالسا فى مكتبه فى « الجمعية التحليلية » (٢٨) ينظر الى جدول لوغاريتمات ، يعلم أنه مليء بالأخطاء ، عندما خطرت له فكرة حساب الجداول الرياضية باستخدام الآلات ، وكان بابدج وقتئذ يستعرض فى ذهنه عملا كان قد تم فى فرنسا . فقد كانت الحكومة الفرنسية قد قامت بعمـل جـداول رياضية عديدة بطرق جديدة بأن وضع ثلاثة أو اربعة رياضيين فرنسيين طريقة حساب الجداول ، وقام ستة آخرون بتقسيم العمليات الى خطوات

(22) GE-645 (23) terminal (24) Charles Babbage (25) John von Neumann
(26) Howard Aiken (27) Lucasian Chair of Mathematics (28) Analytical Society

بسيطة لا تحتوى الا على عمليات الجمع والطرح ،ثم قام بأداء هذه الخطوات ثمانون شخصا لا يعلمون من قواعد الحساب سوى الجمع والطرح . وقد جعل ذلك بابدج مأخوذا طول الوقت بفكرة أن الآلات يمكنها أن تقوم بأعمال مثل هؤلاء الرجال غير المدربين وبطريقة أسرع واكفأ ، واذ ذاك قام بعمل نموذج لآلة مبنية على فكرة رياضية بسيطة (فكرة جداول الفروق) وعرضها فى سنة ١٨٢٢ فقوبلت بحماس عظيم مما جعله يفكر فى انشاء آلة أكبر كثيراً ، وقد عضدت « الجمعية الملكية » (٢٩) المشروع وقابل وزير المالية بابدج ووعده بمنحة يدفع منها تكاليف الانشاء ، كما أقامت الحكومة مبنى يؤدى فيه العمل .

وبينما كان العمل متوقفا لمدة عام سنة ١٨٣٣ خطرت لبابدج فكرة آلته « التحليلية »(٣٠) التي كان يرى أنها أكثر قدرة بكثير من آلة «الفروق» وأنها سيمكنها القيام بالعمليات الحسابية من أى نوع . على انه بينما كانت تصميماته للآلة تتضمن جميع الأفكار الرئيسية فى الآلات الحاسبة الرقمية الحديثة الا أن حالة التكنولوجيا فى عصره لم تكن تجارى أطماعه فى بناء الآلة الكبيرة الحجم والقدرة التى صممها ، فلم يتمكن من اتمام صنعها أبدا ،وفى سنة ١٨٤٢ توقفت الحكومة عن مده بالمال . على أن ابنه هنرى الذى كان ضابطا فى الجيش البريطاني أخذ يحاول اتمام عمل أبيه بعد موته وبنى قسماً من الوحدة الحسابية قامت بطبع النتائج على الورق مباشرة .

ومن الأفكار الرئيسية التي ادخلها بابدج استعمال البطاقات المثقبة فى تلقين المعلومات للآلة، فقد كان عليه أن يجد طريقة آلية للتحكم فى عمليات الآلة وفى تقديم الأعداد فى صورة « تفهمها » . وقد وجد الحل لهذه المشكلة فى البطاقة المثقبة التي كان الفرنسي جاكار (٣١) قد اخترعها سنة ١٨٠١ للتحكم فى أنوال النسيج .

(بعد وفاة بابدج بنحو عشرين عاما اخترع الدكتور هرمان هولرث (٣٢) ـ الذى كان مشرفا على تعدادات السكان فى الولايات المتحدة ـ طريقة تسجيل البيانات بعمل ثقوب فى البطاقات ، ثم اخترع سلسلة من الآلات لفرز وتحليل البيانات المسجلة بها) .

هوارد ايكن :

بينما كان هوارد ايكن يقوم بأبحاثه فى سنة ١٩٣٧ للحصول على الدكتوراه فى الفيزياء من جامعة هارفارد فى الولايات المتحدة فكر فى صنع آلة حاسبة يستخدمها فى حل المسائل العددية ، وقد اخترع آلة بسيطة لذلك ثم طورها لكي تحل مسائل أكثر تعقيدا ، وفى أثناء ذلك كله فكر فى صنع آلة حاسبة ذات غرض عام يمكنها أن تحل مسائل من انواع مختلفة ، وبالاتفاق مع شركة آى بي ام(٣٣) صنع كمبيوتراً رقمياً ذا غرض عام أطلق عليه اسم « مارك ١ »(٣٤) وأقيم فى جامعة هارفارد فى سنة ١٩٤٤ .

وقد كانت هذه الآلة التي استغرق صنعها خمس سنوات أول كمبيوتر رقمي تم صنعه ، ولكن بالرغم من انها كانت آلة ميكانيكية كهربية فانها لم تحرز تقدماً محسوساً فى تصميمها المنطقى على آلة بابدج الميكانيكية ، ويختلف الكتاب فى تحديد الوقت الذى علم فيه ايكن بأفكار بابدج ، فبعضهم يقول انه لم يعلم بها الا بعد اتمام تصميمه لآلته ، وبعضهم يقول ان هناك ما يوحى بأن افكار بابدج هى التى اوحت بتصميم الآلة « مارك ١ ».

---

(29) Royal Society (30) Analytical Machine (31) Joseph-Marie Jacquard
(32) Dr. Herman Hallerith (33) International Business Machines (IBM) (34) MARK 1.

على أن الاستاذ ايكن اكتسب سمعة كبيرة باتمام صنع هذا الكمبيوتر وبما أداه بعد ذلك فى مجال تصميم الآلات الأكثر تقدما ، وعندما عقد « المؤتمر الدولي لمعالجة المعلومات » تحت رعاية اليونسكو فى ١٥ ــ ٢٠ يونية ١٩٥٩ بباريس عقدت له رئاسة المؤتمر .

جون فون نويمان (١٩٠٣ ــ ١٩٥٧) :

عندما توفى العالم الرياضي ــ الهنغارى المولد ــ جون فون نويمان فى وشنطون بالسرطان فى أوائل سنة ١٩٥٧ كتبت النيويورك تايمز تقول عنه :

« لقد عرف بانه الرائد العالمى فى تطوير وصناعة الآلات الحاسبة العالية السرعة .. التي جعلت فى الامكان حل مسائل كانت تحتاج بدون هذه الآلات الى أعمال عدد كبير من الناس لحلها »

ولد فون نويمان فى بودابست وحصل على الدكتوراه فى الرياضيات فى سن الثالثة والعشرين ثم سافر فى عام ١٩٣٠ الى أمريكا ليعمل فى جامعة برنستون ، وفى خلال ثلاث سنوات حقق لنفسه مكانة بين اعظم الرياضيين . وتلا ذلك تعيينه فى معهد الدراسات العليا فى برنستون . واصبح ، مع أينشتين ، واحدا من أوائل أعضائه الدائمين .

كان فون نويمان متعدد المواهب ، فقد قام فى أوائل سنوات عمله باضافات عديدة فى علم ميكانيكا الكم ، وكان كذلك ممهدا فى المنطق الرياضى لطريق جودل (٣٥) وقام بادخال علم جديد هو علم « استراتيجية الألعاب » عندما اشترك مع العالم الاقتصادى الكبير أوسكار مورجنسترن (٣٦) فى تأليف كتاب « نظرية الألعاب والتصرف الاقتصادى » (٣٧) الذى ظهر سنة ١٩٤٤ . وترفعه أعماله فى هذا الكتاب وحده الى منزلة نيوتن . وفى أثناء الحرب العالمية الثانية دعته الحكومة البريطانية للقيام بأبحاث فى مجال الأرصاد الجوية وصناعة الطائرات .

وفى سنة ١٩٤٥ احدث أكبر قفزة فى صناعة الكمبيوترات عندما اقترح تخزين البرامج داخل الآلة بدلا من استعمال لوحة سدادات (٣٨) وأسلاك للتحكم من الخارج ، وقد أوضح فى نفس الوقت ان تصميم الكمبيوتر على أساس استخدام النظام الثنائي للأعداد (الذى لا يستخدم فيه من الأرقام غير الصفر والواحد والذى سنقوم بدراسته فيمابعد) يوفر قدرا كبيرا من التجهيزات اللازمة للآلة . وبالاستعانة بآخرين من ذوى الكفاءة قام بتصميم سلسلة من الكمبيوترات الرقمية على الأساس الجديد ، ولم يترك أدق التفاصيل فى تصميم الدوائر الالكترونية . وقد أدت افكاره فى مجال تصميم الكمبيوترات الرقمية الى أن الكتاب أصبحوا يقسمون تاريخ هذه الآلات الى عهدين : عهد ما قبل فون نويمان ، وعهد ما بعد فون نويمان ، فبفضل التخزين الداخلي للبرامج يمكن للآلة أن تعالج الأوامر حسابياً و « منطقيا » وبذلك يكون لها القدرة على أن تغير وتعدل الأوامر التي تعطى لها مما فتح آفاقا جديدة واسعة للمرونة والتحكم الذاتي فى الكمبيوتر .

وفى سنة ١٩٥٥ أصبح فون نويمان عضوا فى لجنة الطاقة الذرية الأمريكية وحصل على جائزة فرمي (٣٩) وقدرها خمسون الف دولار .

---

(35) Kurt Goedel (36) Oscar Morgenstern (37) " Theory of Games and Economic Behavior." (38) plugboard (39) Fermi

٧ ــ الكمبيوترات الرقمية الأولى

لم يكن من الممكن انتاج الكمبيوترات الرقمية الأولى بالجملة . فالكمبيوتر الأول الذى صممه ايكن كان « نسخة » واحدة لم تتكرر وقد أعطى له اسم خاص به لا يطلق على أى آلة أخرى .

وكذلك كان كل من الكمبيوترات الرقميــة الأولى مختلفا فى تصميمه عن الكمبيوترات الآخرى وله اسمه الخاص به . ولم يحدث انتاج الكمبيوترات بنسخ متعددة على أساس نفس التصميم الا عندما أصبح ذلك اقتصاديا بتقدم التكنولوجيا .

وبالاضافة الى ما ذكرناه عن الكمبيوتر « مارك ١ » الذى صممه ايكن فاننا سنورد فيما يلي شيئا عن تاريخ بعض الكمبيوترات الأولى ذات النسخة الواحدة، ثم عن بداية ظهور الكمبيوترات التى صنعت لأغراض تجارية .

الكمبيوتر « انياك » (٤٠) :

بالاضافة الى الكمبيوتر « مارك ١ » تـم صنع عدد من الآلات الحاسبة الالكترونية فى المدة ١٩٣٨ ــ ١٩٤٤ ، كما كان عدد آخر غيرها فى دور التصنيــع ، على أن أول تقــدم تكنولــوجي على « مارك ١ » كان بصنع الكمبيوتر « انياك » . فمع أن هذا الكمبيوتر لم يكــن له تفوق « منطقي » محسوس على « مارك ١ » الا أنه كان أول كمبيوتر الكتروني . .

وقد صنع الكمبيوتر « انياك » فى مدرســة مور (٤١) للهندسة الكهربية فى جامعة بنسلفانيا ، وكان الغرض من صنعه عمل جداول رياضيــة لازمة لاطلاق قذائف المدفعيــة ، وصمم الآلــة الــدكتــور اكــرت (٤٢) والدكتــور موشــلي (٤٣) من مدرسة مور بالتعاون مع الميجور جولدستين (٤٤) من مدفعية الجيش الأمريكي ، وقد التحق بهذا الفريق أفراد عديدون ، وكان مصممو الآلة من الشباب ، فقد كان جولدســتين فى الثانيــة والثلاثين من عمره ، وكان اكرت فى العشرينات الأولى ، وبعد ثلاث سنوات من العمل تم صنع الآلة فى صيف ١٩٤٦ ، وقد كانت التكنولوجيا الهندسية فى أطوارها الأولى وقت صنع الآلة ، وكان معدل احتراق الصمامات الالكترونية كبيرا ، وكانت الآلة تحتوى على ١٨٠٠٠ صمام الكتروني (٤٥) (مع ١٥٠٠ متابع كهربي) ، ولم تكن تستطيع أن تعمل بكفاءة مالم تكن كل هذه الصمامات صالحة، ومع ذلك نجحت الآلة، وكان من أولى المسائل التي أعطيت لها مسألة معقدة فى الفيزيــاء النوويــة فقامت بحلها فى ساعتين ، ولو كان هذا العمل قد وكل الى مائة شخص للزمهم سنة كاملة ، وقد أمكن لهذه الآلة حل العديد مــن المســائل التي تراكمت اثناء الحرب العالمية الثانية .

على انه كان يعيب هذه الآلة ــ بمقيــاس الكمبيوترات الحاضرة ــ انه لحل كل مســألة جديدة كان يلزم الاعــداد اليدوى لتوصيــلات كهربية تلائم هذه المسألة ، وكان فى ذلك تقييــد للدور « المنطقي » للآلة . .

---

(40) ENIAC (Electronic Numerical Integrator and Calculator).

(41) The Moore School of Engineering. (42) J. Presper Eckert (43) John Mauchjy

(44) Herman Goldstine (45) vacuum tube (electronic valve)

وفى سنة ١٩٤٤ كان فون نويمـان يعمـل مستشارا لجماعة تعمل فى مشروع القنبلة الذرية فى لوس ألاموس عندما سمع ، بطريق الصدفة تقريبا ، بنبأ مشروع الآلة الحاسبة التي كان يجرى اعدادها فى مدرسة مور للهندسة الكهربية بجامعة بنسلفانيـا . ولمـا كان مشروع القنبلة الذرية يحتاج الى اجراء أعداد هائلة من العمليات الحسابية فقد عمل بالتعاون مع الميجور جولدستين ومع بيركس (٤٦) من جامعة متشجان فى دراسـة الموضوع . ونتيجة لهذه الدراسة صدرت سلسلة من التقارير قدمها فون نويمان ، وقد تضمنت هذه التقارير الأفكار الأسياسية التي ادخلهـا فون نويمان والتى سبق الاشارة اليها. (وقد بين فون نويمان فى أحد هذه التقارير انه بينما كانت الآلة « انياك » تعمل بواسـطة ١٨٠٠٠ صمـام الكتروني باستخدام النظام العددى العشـرى فانه باستخدام النظام العددى الثنائي كان يكفي نحو ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ صمام) .

وفى سنة ١٩٤٧ اقترح فون نويمان طريقة لتحويل « انياك » الى آلة ذات تخزين داخلي وقام بالدور الرئيسي فى تصميم أدق التعديلات اللازمة . وهكذا أصبحت الآلة « انياك » أول كمبيوتر ذا تخزين داخلي ـ بالاضافة الى كونها أول كمبيوتر الكتروني .

الكمبيوتر « ادفاك » (٤٧) :

فى أحد التقارير الأولى التى قدمها فون نويمان بشأن الآلات الحاسبة الالكترونية نتيجة لدراسات تمت سنة ١٩٤٥ جاء تعريف بآلة مقترحة أطلق عليها اسم « ادفاك » . وفى سنة ١٩٤٦ ظهـر تقرير آخر ، بالاشتراك مع جلدستين وبيركس ، وفيه تفصيلات أكثر ، وقد قام اكرت وموشلي بتصميم تجهيـزات الآلـة « ادفاك » التى تـم صنعها فى مدرسة مور أيضا فى سنة ١٩٥٠ . وكانت أول كمبيوتر الكتروني يتم صنعه فى أمريكا على أساس التخزين الداخلي منذ البداية وعلى أساس النظام العددى الثنائي . وكان يمكن لهذه الآلة تخزين ١٠٢٤ « كلمة » كل منها مكون مـن ٤٤ رقما ثنائيا ، اى صفرا أو واحدا .

الكمبيوتر « ادساك » (٤٨) :

كان تقرير « ادفاك » حافزا لتصميم اثنتين من الآلات الحاسبة الالكترونية فى انجلترا ، وقد بدأ العمل فى صنع احدى الآلتين فى أوائل سـنة ١٩٤٧ فى المختبر الرياضي بجامعة كمبردج وأطلق عليها اسم « ادساك » وقد قامت هذه الآله بأول عملية حسابية فى مـايو ١٩٤٩ ، وهكـذا كانت « ادساك » أول آلة تم صنعها على أساس افكار فون نويمان .

وقد أشرف على صنع هذه الآلة الأستاذ ويلكس (٤٦) (الرئيس الحالي للمختبر الرياضي بجامعة كمبردج) الذى اشتهر اسمه كواحد من أكبر مصممي الآلات الحاسـبة الالكترونيـة فى انجلترا .

الفترة التالية :

تلا ظهور الانياك والادفاك فى أمريكا والادساك فى انجلترا ظهور سيل من الآلات الحاسبة الرقمية على أساس افكار فون نويمان ، وجاء اختراع الترانسستور سـنة ١٩٤٨ عاملاً جديـدا فى

---

(46) Arthur W. Burks (47) EDVAC (Electronic Discrete Variable Automatic Computer

(48) EDSAC (Electronic Delayed Storage Auotomatic Computer) (46) M. V. Wilkes

التكنولوجيا ، وفى السنوات الوسطى من الخمسينات ظهرت كمبيوترات تستعمل الترانسستورات بدلا من « الأنابيب المفرغة »(التى كانت تستخدم كصمامات فى الآلات الالكترونية السابقة) مع عدم تغيير الأساس المنطقي لتصميم الكمبيوتر . وفى البداية كان صنع الآلات من النوع الجديد لخدمة الأغراض الحربية التي كان يهمها صغر حجم الآلة وخفة وزنها .

وفى الخمسينات الأخيرة ظهرت حاسبات الترنسستور للاغراض التجارية (مثل هانيول ٤٠٠ ، ٨٠٠ (٤٧) ومثل آى . بي . أم ٧٠٤) ، (٤٨) وتلا ذلك فيض من الطرازات المختلفة من صنع شركات عديدة .

وفى الستينات ادخلت « الدوائر المتكاملة »(٤٩) فى صناعات الكمبيوتر ، وتحتوى الدوائر من هذا النوع على عدد كبير من المبتكرات الالكترونية والكهربية العادية وكلها موجودة فى مساحة ضيقة جدا ، وبذلك أمكن صنع كمبيوترات الكترونية رقمية غاية فى الصغر ، والعامل الأساسي الذى يحد من الحجم الأدنى للكمبيوتر هو وسائل التلقين واستخراج النتائج من الآلة ، حيث أن الانسان لا يستطيع استعمال الآلات اذا نقص حجمها عن حد معين .

على انه لن يكون بعيداً ذلك اليوم الذى يحمل فيه الانسان كمبيوتراً رقمياً الكترونيا كاملاً فى محفظة جيبه ، ولا يستطيع المرء ان يتنبأ بما ستتمخض عنه التكنولوجيا فى مجال صناعات الكمبيوتر ، والأغلب أن ما سيستجد سيكون سابقا للحلم فى كثير من الأحيان .

٨ ـ النظم العددية :

فى تاريخ الأرقام :

اننا متعودون على النظام « العشرى » للعد ، فعندما نصل الى العدد « عشرة » نبدأ من جديد فنقول « أحد عشر » قاصدين واحداً بعد العشرة الأولى ، ونتبع ذلك بقول « اثناء عشر » ، واذا قلنا مثلا خمسة وثمانون فاننا نقصد ثماني عشرات وخمس مفردات ، وعندما نصل الى عشر عشرات نقول مائة ، وعندما نصل الى عشر مئات نقول الف . . وهكذا . .

وليس النظام العشرى للعد نظاماً عاماً لا يستخدم الناس غيره ، فالهنود الحمر يستخدمون نظاماً « خمسيا » . فبعد أن يصلوا الى العدد « خمسة » يقولون « خمسة وواحد » ثم « خمسة واثنان » ، وهكذا . . والاستراليون الأصليون يستخدمون نظاما ثنائيا غير كامل ، فبعد ان يصلوا الى اثنين يقولون « اثنان وواحد » ثم « اثنان واثنان » . على أنهم يقولون « كثير » اذا زاد العدد عن ذلك .

وقد علل ارسطو استخدام النظام العشرى بأن الناس كانوا يستخدمون أصابع اليدين فى العد ، ولو كان ارسطو يعلم بأمر الهنود الحمر واستخدامهم للنظام الخمسي لعلل ذلك بأنهم يستعملون اصابع يد واحدة . أما الاستراليون الأصليون فالاغلب انهم يستخدمون اليدين دون الأصابع فى العد .

(47) Honeywell 400 and 800 (48) IBM 704 (49) integrated circuits.

ولكل نظام عددى « أساس » . فنظامنا العددى أساسه عشرة ، ونظام الهنود الحمر أساسه خمسة،ونظام الاستراليين الأطليين أساسه اثنان .

وليست العشرة أكبر أساس مستعمل للعد، ففي بعض الصناعات فى الخارج نجد ان الأساس المستعمل هو « الدرزن » (٥٠) (الدستة) أى اثنا عشر فيقال مثلا « درزنان وأربعة » يليها « درزنان وخمسة » وهكذا ، والدرزن من الدرازن تسمى « جروسة » (٥١) ،والدرزن من الجروسات تسمى « جروسة كبيرة » (٥٢) ، اما لماذا يفضل الأساس الدرزني فى تلك الصناعات فذلك لأنه يمكن تقسيم الدرزن بدون باق الى نصفين،او ثلاثة اثلاث ، أو أربعة أرباع ، أو ستة أسداس ، بينما لا يمكن تقسيم العشرة بدون باق الا الى نصفين اوخمسة اخماس ، ولو ان الناس خلقوا بستة أصابع فى كل يد فمن المؤكد انهم ماكانوا فكروا فى النظام العشرى ، ومن الراجح انهم كانوا استعملوا النظام الدرزني فى حياتهم اليومية .

والرموز التي استخدمها الناس فى الماضي لتدوين الأعداد تختلف باختلاف المكان والزمان ، فالمصريون القدماء رمزوا للواحد بخط راسى ،وللاثنين بخطين راسيين ، وهكذا حتى العدد ٩ الذى مزوا له بتسعة خطوط ، اما الأعداد عشرة ومائة وألف وعشرة آلاف ومائة الف فقد استخدموا رمزا خاصا لكل منها ، واذا وضعوا شيئا من الرموز بجوار بعضها البعض فان العدد الناتج يساوى مجموع قيم الرموز ، وفيما يلي بعض الأمثلة .

العدد	١	٢	٣	١٠	٢٣
الرمز عند قدماء المصريين	ا	اا	ااا	∩	∩∩ااا

وقد اتبع الرومان نفس الطريقة بتحوير بسيط ، فاستخدموا رمزا لكل من الواحد ، والخمسة ، والعشرة ، والخمسين والمائة والخمسمائة ، والألف ، واذا جاء رمز الى يسار رمز أكبر منه كانت قيمة العدد الذى يدل عليه الرمزان معا تساوى الفرق بينهما ، وفيما عدا ذلك نحصل على قيمة العدد كله بالتجميع . وفيما يلى بعض الأمثلة :

العدد	١	٢	٥	٤	٧	٢٦	١٠٠٠	٩٠٩
الرمز الرومانى	I	II	V	IV	VII	XXVI	M	CMIX

ولقد بقي الأوربيون يستعملون الرموز الرومانية للأعداد حتى نقلوا الأرقام الهندية عن العرب وسموها « الأرقام العربية » ، واقدم مخطوط أوربى معروف يحتوى على تلك الأرقام كتب فى اسبانيا سنة ٩٧٦ ميلادية .

ولم يكن رمز الصفر موجودا فى مبدأ الأمرفى الأرقام الهندية ، كما أن شكل تلك الأرقام تغير من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان . وربما جاء ادخال رمز الصفر فى القرن التاسع الميلادى. وكان هذا الرمز على شكل دائرة . وكان العرب يكتبونه بهذا الشكل ونقلوه الى أوربا بصورته الهندية ، وما زال عرب المغرب يكتبونه بالشكل الدائرى الى الآن . على أن عرب المشرق استعملوا النقطة بدلا من الدائرة عندما حدث اللبس بينه وبين رقم الخمسة الذى كان يشبه عندهم قلبا قمته الى اعلى .

---

(50) dozen (51) gross (52) great gross

والميزة الحقيقية للأرقام الهندية هي اختلاف القيمة التي يدل عليها الرقم باختلاف موضعه ، اي منزلته من العدد ، فالرقم ٤ يدل على أربعة في المنزلة الأولى ، ولكن على أربع عشرات في المنزلة الثانية، وعلى أربع مئات في المنزلة الثالثة ، وهكذا . ويحافظ على المنازل بادخال الصفر ان لزم الأمر ، فمثلا نكتب ٤٠٥ حيث يكون لدينا اربع مئات وخمس مفردات بدون وجود عشرات بجانب ذلك .

والنتيجة انه بفضل الهنود والعرب أصبح لدى الناس الآن عشرة ارقام مختلفة هي : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ٠ . ومن هذه الارقام يمكن ان نرمز لأي عدد صحيح . فمثلا :

$$٨٠٧٥٦ = (٦ \times ١) + (٥ \times ١٠) + (٧ \times ١٠٠) + (٠ \times ١٠٠٠) + (٨ \times ١٠٠٠٠)$$

او $$٨٠٧٥٦ = ٦ + ٥ \times ١٠ + ٧ \times ١٠^{٢} + ٠ \times ١٠^{٣} + ٨ \times ١٠^{٤}$$

ولقد ادى ادخال الأرقام الهندية العربية الى تسهيل العمليات الحسابية الى حد انها اصبحت لعبة اذا قيست بالصعوبات التي كان يعانيها الأقدمون في حساباتهم . ولكي يدرك القارىء مقدار تلك الصعوبات فليحاول مثلا أن يقوم بعملية ضرب ٢٨٤ في ٢٨٢٧ باستخدام الرموز اللاتينية لهذه الأعداد وهي : MMDCCCXXVII , CCLXXXIV .

النظام الدرزني للأعداد :

ولنفرض ان الناس جميعا ادركوا مزايا النظام الدرزني التي ذكرناها وارادوا التحول اليه مع الاحتفاظ بطريقة المنازل في الكتابة ، فماذا يفعلون ؟ ان الأرقام الهندية العشرة (بما فيها علامة الصفر) لا تكفيهم وعليهم أن يضيفوا رقمين آخرين اذا كانوا ما زالوا معجبين بشكل تلك الأرقام ، وقد يحلون هذه المشكلة بكتابة (ع) رمزا للعشرة ، وكتابة (ح) رمزا للأحد عشر ، مثلا .

والآن هب ان صانعا احصى مفردات بضاعته فوجد أن لديه احدى عشر جروسة كبيرة ، وخمسة جروسات، وعشرة درازن، وثلاث مفردات أخرى، فكيف يكتب هذا العدد في النظام الدرزني ؟

من الممكن أن نكتب نحن بيان البضاعة كالتالي :

آحاد	درازن	جروسات	جروسات كبيرة
٣	ع	٥	ح

حيث « ع ، ح » لهما القيمتان اللتان اخترناهما لهما ، أما الصانع فانه لن يكتب السطر الأول من هذا البيان ويكتفي بكتابة ٣ع ٥ح وهو عدد درزني مكون من أربعة ارقام ، ولكي لا يحدث لبس فاننا سنكتب هذا العدد مع بيان أساسه معه هكذا : $(\text{٣ع ٥ح})_{١٢}$ ، ومما تقدم ينتج أن :

$$(\text{٣ع ٥ح})_{١٢} = ٣ + ١٠ \times ١٢ + ٥ \times ١٢^{٢} + ١١ \times ١٢^{٣}$$

حيث الأساس في الطرف الأيسر ١٠ . وبالاختصار نجد أن العدد = ١٩٠٠٨ (عشرى)

النظام الثنائي للأعداد (٥٣) :

سبق أن ذكرنا انه في سنة ١٩٤٥ بين نويمان ان اكفأ الكمبيوترات من جهة الاقتصاد في تكاليف

(53) binary system

الانشاء هى ما قامت على النظام العددى الثنائي . وقد كانت الآلات السابقة مصممة على الأساس العشرى . وهذه نقطة كثيرا ما يتجاهلها الكتاب حتى أن عدداً كبيراً من مستخدمى الكمبيوتر الرقمى يظنون أن الطريقة الوحيدة لتصميم الكمبيوتر هى أن يبنى على النظام الثنائي .

واذا كان النظام العشرى يحتاج الى الصفر وتسعة أرقام ، والنظام الدرزنى يحتاج الى الصفر واحد عشر رقما ، فان النظام الثنائي يحتاج الى الصفر والواحد فقط ، وتكون قيمة الواحد فى اى منزلة بعد الأولى ضعف قيمته فى المنزلة التى الى يمينها ، فالواحد قيمته فى المنزلة الأولى «١» وفى المنزلة الثانية « ٢ » وفى المنزلة الثالثة « ٤ » وفى المنزلة الرابعة « ٨ » وفى المنزلة الخامسة « ١٦ » وهكذا ..

فمثلا ١٠١١ فى النظام الثنائي = ١ + ١ × ٢ + ٠ × ٤ + ١ × ٨ = أحد عشر .

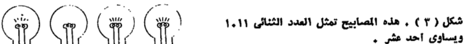
وفى الجدول التالى بعض الأعداد العشرية وما يقابلها فى النظام الثنائي :

جدول (١)

عشرى	ثنائي	عشرى	ثنائي	عشرى	ثنائي
١	١	٨	١٠٠٠	١٦	١٠٠٠٠
٢	١٠	٩	١٠٠١	١٧	١٠٠٠١
٣	١١	١٠	١٠١٠	١٨	١٠٠١٠
٤	١٠٠	١١	١٠١١	١٩	١٠٠١١
٥	١٠١	١٢	١١٠٠	٢٠	١٠١٠٠
٦	١١٠	١٣	١١٠١	٢١	١٠١٠١
٧	١١١	١٤	١١١٠	٢٢	١٠١١٠
		١٥	١١١١	٢٣	١٠١١١
				٢٤	١١٠٠٠

والميزة الحقيقية للنظام الثنائي للأعداد هى أنه يجعل فى الامكان استخدام وسائل مادية بسيطة فى تسجيل الأعداد واجراء العمليات الحسابية عليها . فمن الممكن مثلا ان نعتبر المصباح المضىء ممثلاً للواحد ، والمصباح المطفأ ممثلا صفراً ، وباستخدام أربعة مصابيح يمكننا ان « نسجل » اى عدد صحيح واقع بين صفر وخمسة عشر ، ففى شكل (٣) مثلا نجد أن المصابيح تمثل العدد الثنائى ١٠١١ (أحد عشر) . لاحظ أن المصباح الثالث من اليمين مطفأ وحده .

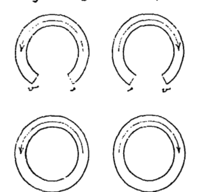
ولتمثيل العدد « ١ » نضيىء المصباح الأيمن وحده ونطفىء الباقى . ولتمثيل العدد ٢ نضيىء المصباح الثانى من اليمين ونطفىء الباقى ، وهكذا .



شكل (٣) . هذه المصابيح تمثل العدد الثنائى ١٠١١ ويساوى احد عشر .

ولماذا اخترنا المصابيح بالذات ؟ ذلك لأن المصباح يكون على احدى حالتين : فهو اما مضىء واما مطفأ . (ويمكن أن نختار احدى الحالتين ممثلة للواحد ، فتكون الأخرى ممثلة للصفر) وليس الامكان قاصرا على استخدام المصابيح فى هذا المجال . فالمبتكرات التى تستخدم فيها مواد مغنطيسية تكون من احسن الوسائل للتعبير عن حالة من احدى حالتين . فاذا اخذنا قضيبا مصنوعا من مادة مغنطيسية مثنيا على شكل حلقة مفتوحة كما فى شكل (٤) فانه من الممكن

مغنطة القضيب بحيث يكون طرف معين منه قطباشماليا ، كما يمكن عكس اتجاه المغنطة ليصير نفس الطرف قطبا جنوبيا . ونستطيع ان نختاراحدى حالتى الحلقة ممثلة للواحد ، فتكون الحالة الأخرى ممثلة للصفر . ومن الواضح أنه لو كانت الحلقة مقفلة فان مناقشتنا لا تتأثر . فالمهم أنه اذا كانت المغنطة فى اتجاه معين تمثل « الواحد » فان المغنطة فى الاتجاه المضاد تمثل « الصفر » .



شكل (٤) . يمكن أن تأخذ احدى الحلقتين المغنطتين ممثل للواحد فتكون الاخرى ممثله للصفر ، ويصح هذا الكلام على الحلقتين المفتوحتين كما يصح على الحلقتين المغلقتين .

العمليات الحسابية فى النظام الثنائي :

من السهل أن يتحقق القارىء من القواعدالآتية للعمليات الحسابية الأربع فى النظام الثنائي.

الجمع	الطرح
٠ + ٠ = ٠	٠ − ٠ = ٠
٠ + ١ = ١	١ − ٠ = ١
١ + ٠ = ١	١ − ١ = ٠
١ + ١ = ٠ ونحمل واحدا الى المنزلة التالية	٠ − ١ = ١ مع اقتراض واحد من المنزلة التالية
١ + ١ + ١ = ١ ونحمل واحدا الى المنزلة التالية	

الضرب	القسمة
٠ × ٠ = ٠	٠ ÷ ١ = ٠
٠ × ١ = ٠	١ ÷ ١ = ١
١ × ٠ = ٠	ولا يجوز القسمة على الصفر .
١ × ١ = ١	

(ويمكن اجراء عملية طرح باستخدام الجمع ، كما يمكن اجراء عملية الضرب بتكرار الجمع ، واجراء عملية القسمة بتكرار الطرح) .

نظم عددية اخرى :

من النظم العددية الأخرى الهامة فى عمل بعض طرازات الكمبيوتر ، النظام الثماني(٥٤) والنظام السادس عشرى(٥٥) . والنظام الأول أساسه ٨ والثاني أساسه ١٦ .

وفى النظام الثماني يكفي استعمال الصفر والارقام من ١ الى ٧

(54) octal system (55) hexadecimal system

اما فى النظام السادس عشرى فيلزم استخدام ارقام ترمز الى الأعداد الصحيحة من عشرة الى خمسة عشرة بالاضافة الى الارقام العربية الهندية .

النظام العشرى بالشفرة الثنائية (٥٦)

أحيانا يستخدم النظام العشرى مع استخدام الشفرة الثنائية لكل رقم عشرى . وبالنظر الى جدول (١) نجد أنه يلزم اربعة أرقام ثنائية لتمثيل الرقم ٩ وهو أكبر رقم عشرى . واذا كتبنا الأعداد باستعمال الشفرة الثنائية من أسفل الى أعلى نجد أن العدد ١٨٩٠٢٧ مثلا يمكن الرمز له كالاتي : ـ

٠١١٠٠٠

٠٠٠٠٠١

٠٠٠٠١١

١٠١٠٠١

حيث العمود الايمن هو « ١١١٠ » مكتوبا راسيا من أسفل الى أعلى (ويساوى ٧) والعمود الثاني من اليمين هو « ٠١٠٠ » ويساوى ٢ .وهكذا .

النظام السادس عشرى بالشفرة الثنائية :

راينا كيف يمكن استخدام ٤ صفوف من الارقام الثنائية لتمثيل عدد عشرى مثل ١٨٩٠٢٧ . على انه يمكن استخدام نفس العدد من الصفوف لتمثيل عدد سادس عشرى . فمثلا يمكن ان نأخذ فى النظام الأخير الحروف ع ، ح ، ن ، ل ، ر ، خ لتمثل الأعداد من عشرة الى خمسة عشر كالآتي :

العدد	الرمز فى النظام السادس عشرى
عشرة	ع
أحد عشر	ح
اثنا عشر	ن
ثلاثة عشر	ل
اربعة عشر	ر
خمسة عشر	خ

ومع استعمال الأرقام الهندية العربية بنفس قيمها ، فان العدد ٥ع ٣خ ٢ السادس عشرى والذى يساوى

٥+١٠×١٦+٣×٢١٦+١٥×٣١٦+٢×٤١٦

يمكن الرمز له باستعمال الشفرة الثنائية من اسفل الى اعلا كالآتي :

٠١٠١٠

٠١٠٠١

١١١١٠

٠١١٠١

(56) binary coded decimal system

٩ ـ الاقسام الرئيسية للكمبيوتر الرقمى

بالرغم من أن الكمبيوترات الرقمية تختلف فيما بينها اختلافات بينة فى التفاصيل فان الأفكار الرئيسية فيها واحدة . ويبين شكل (٥) الأقسام الخمسة الرئيسية للكمبيوتر الرقمي وهي :

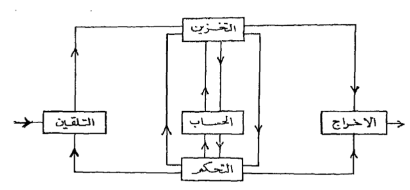
١ ـ التلقين(٥٧) (أو الادخال او التغذية)

٢ ـ التحكم والتوجيه (الكنترول) (٥٨)

٣ ـ الذاكرة (٥٩) أو التخزين (٦٠)

٤ ـ الوحدة الحسابية (٦١)

٥ ـ الاخراج (٦٢) .



شكل (٥) . الاقسام الرئيسية الخمسة للكمبيوتر الرقمي .

١ ـ التلقين :

تتلقى الآلة الأوامر والبيانات عن طريق التلقين (الادخال) . وهناك طرق مباشرة وطرق غير مباشر لذلك . للتلقين المباشر يمكن استخدام« تيبريتر » كهربي أو أزرار تحكم . ولا تستخدم هذه الوسائل البطيئة الا عند الضرورة (لتصحيح خطأ فى البرنامج أو لاختياره مثلا) .

ومن الوسائل المباشرة الاخرى للتلقين المفاتيح والأزرار الموجودة على واجهة التحكم . وتستخدم هذه فى التحكم اليدوى باعطاء الأمر للكمبيوتر بالشروع فى العمل أو فى ايقافه وفى عمليات أخرى .

والتلقين غير المباشر تستخدم وسائل مختلفة يتوقف اختيارها على عوامل التكلفة والسرعة وسهولة الاستعمال والمرونة . ومن الوسائل غير المباشرة للتلقين : البطاقات المثقبة . شريط الورق المثقب . الشريط المغنطيسي . الكتابة بالحبر المغنطيسي . الحروف الضوئية . الطنبور المغنطيسي . البطاقات المغنطيسية . الأقراص المغنطيسية . وسنتكلم عن بعض هذه الوسائل فيما بعد .

---

(57) input (58) control (59) memory (60) storage (61) arithmetic unit
(62) input

٢ ــ التحكم والتوجية :

ينظم قسم التحكم والتوجيه ترتيب عمليات الكمبيوتر ، فيفسر الأوامر ، ويوجه جميع الأقسام الأخرى (وفق ما تقضى به الأوامر) بترتيب معين . ولهذا القسم القدرة على تغيير ترتيب العمليات حسب النتائج الجزئية أو نتيجة مقارنات معينة .

٣ ــ التخزين :

عندما تدخل المعلومات الى الكمبيوتر عن طريق وسائل التلقين فانه لا يمكنها الانتقال الى قسم الحساب مباشرة ، فعليها أن تنتظر حتى يستدعيها التحكم تبعا لأوامر البرنامج . والتخزين هو مكان الانتظار ، ويتفاوت وقت الانتظار من كسر ضئيل جداً من الثانية الى زمن طويل والى أن تدعو الحاجة الى الاستدعاء .

وينقسم تخزين الكمبيوتر الى قسمين : التخزين الرئيسى(٦٣) والتخزين المساعد(٦٤) وللتخزين الرئيسي (الذاكرة الرئيسية) ثلاثة وظائف وهي :

أولا : التخزين المؤقت للأعداد والأوامر الواردة من التلقين او التي في طريقها الى الاخراج .

ثانيا : تخزين جميع البيانات والأوامر اللازمة للمسألة التي يعالجها الكمبيوتر .

ثالثا : التخزين المؤقت للنتائج الجزئية للحساب .

أما التخزين المساعد (الذاكرة الاضافية) فله وظيفتان هما :

أولا : تخزين المعلومات والبرامج لحين الحاجة اليها فى المستقبل .

ثانيا : زيادة سعة التخزين الرئيسي .

ويتصل التخزين الرئيسي اتصالاً مباشراً بقسمي التحكم والحساب ، ويقوم بدور أساسي فى معالجة البيانات . ويجب أن يكون له من السعة ما يكفي الأوامر والبيانات اللازمة للمسألة تحت الحل ، وعند اللزوم يستخدم جزء من التخزين المساعد لتوسيع التخزين الرئيسي .

وينقسم التخزين الرئيسي الى أجزاء متساوية الحجم لكل منها عنوان (٦٥) فى التخزين ، وعندما يبحث التحكم عن معلومات معينة فى التخزين فانه يطلبها عن طريق عنوانها .

وبعد معالجة البيانات فى قسم الحساب تنقل الى التخزين الرئيسي أو التخزين المساعد (أو كليهما) حيث تبقى الى وقت الحاجة اليها .

وأكثر مبتكرات التخزين الرئيسي استخداما فى الوقت الحاضر هو « اللب المغنطيسي » (٦٦) الذى يتكون من حلقات صغيرة من مواد مغنطيسية . وهو مرتفع الثمن نسبيا بالمقارنة بالوسائل الأخرى . وتدخل البيانات أو تستدعي من اللب كلمة فكلمة فى وقت يتراوح بين نصف ميكرو ثانيه وخمس ميكرو ثانيات (الميكرو ثانية جزء من مليون من الثانية) . ويسمى هذا الزمن باسم « زمن الاتصال » (٦٧) .

ومن وسائل التخزين الرئيسي الأخرى « الشريط الرقيق » (٦٨) . وعندما تلزم بعض

---

(63) primary storage (64) auxiliary storage (65) address (66) magnetic core
(67) access time (68) thin film

البيانات من التخزين المساعد فان قسم التحكم يوجه عملية نقلها الى عنوان معين فى التخزين الرئيسي . وعندما يلزم الأمر تعاد البيانات مع نتائج الحساب الى التخزين الاضافي .

ويكون الادخال (التلقين) الى التخزين الرئيسي بواسطة « قارئة » للوسيلة المستخدمة للادخال (التلقين) تختلف باختلاف تلك الوسيلة . ويكون انتقال البيانات من التخزين الرئيسي الى التخزين المساعد بواسطة نبضات كهربية فى الأسلاك الموصلة يتبعها تسجيل تلك البيانات .

ومن وسائل التخزين المساعد : الشريط المغنطيسي ، والطنبور المغنطيسي ، والقرص المغنطيسي .

٤ ـ الوحدة الحسابية :

يقوم القسم الحسابي بعمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة (و فى الكمبيوترات العلمية باستخراج الجذور وعمليات حسابية اخرى) .

وقد سبق ان ذكرنا أن العمل يتم فى الكمبيوتر الالكتروني الرقمي باستخدام نبضات كهربية . ويمكن ان تفسر النبضة بوجود الرقم « ١ » وعدم وجود نبضة بالرقم « صفر » والرقمان ١ ، صفر هما الرقمان الثنائيان ، اى المستعملان فى النظام العددى الثنائي .

والادخال والتخزين والاخراج تعتمد كلها على مبتكرات « ثنائية » . فالموضع المعين فى بطاقة قد يكون مثقبا ، فيفسر بوجود « ١ » أو غير مثقب فيفسر بوجود « صفر » . والحلقة المغنطيسية قد تكون ممغنطة فى اتجاه معين يفسر بوجود « ١ » أو فى الاتجاه المضاد فيفسر بوجود « صفر » ، وهكذا .

٥ ـ الاخراج :

تقوم وسائل الاخراج بوظيفتين هما :

أولا : تسجيل نتائج معالجة البيانات .

ثانيا : اعطاء البيانات المسجلة أو المحسوبة فى صورة يفهمها الانسان .

وقد تسجل البيانات الناتجة من المعالجة على شريط مغنطيسي أو قرص مغنطيسي أو طنبور مغنطيسي أو بطاقة مغطيسية . وفى هذه الحالة قد يحتفظ بالمعلومات لاستعمالها أوتوماتيكيا بواسطة الكمبيوتر تبعا لأوامر البرنامج . وكذلك قد يكون الاخراج بالتسجيل على بطاقات مثقبة أو شريط مثقب .

ومهما كانت الطريقة التي تسجل بها النتائج فى الاخراج (مغنطيسية أو غيرها) فانه يمكن تحويلها الى صورة مطبوعة بلغة يفهمها الناس على الورق ، أو تحويلها الى صورة مرئية على شاشة تشبه شاشة التليفزيون ، أو الى كلام مسموع عن طريق التليفون .

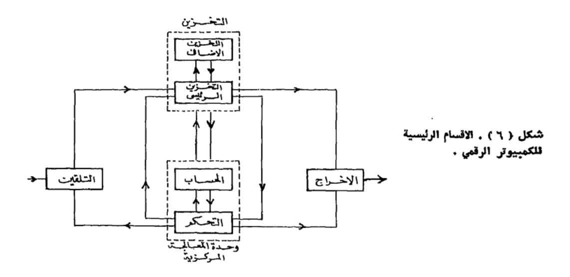
ولا يقتصر الاخراج اذن على الصورة المطبوعة ، أو المرئية على الشاشة ، أو المسموعة بواسطة التليفون ، فالواقع أن مجرد تسجييل النتائج بصورة من الصور (التى يمكن تحويلها الى صورة مفهومة للناس) يعتبر اخراجا .

وحدة المعالجة (التشغيل) المركزية(٦٩) :

يجتمع القسم الخاص بالتحكم مع القسم الخاص بالحساب فى وحدة مادية واحدة يطلق عليها اسم « وحدة المعالجة المركزية » وهـذه الوحدة هي الكمبيوتر الحقيقي . ففيها مصدر التحكم والتوجيه ، كما أن العمليات الحسابية تتم فيها .

وبذلك تكون العمليات الرئيسية فى الكمبيوتر هي : التلقين ـ التخزين ـ المعالجة المركزية ـ الاخراج .

ومن الممكن الآن أن نعيد رسم الاقسام المختلفة للكمبيوتر كما فى الشكل (٦) .



شكل (٦) . الاقسام الرئيسية للكمبيوتر الرقمي .

١٠ ـ بعض مبتكرات التلقين والاخراج والتسجيل

البطاقة المثقبة :

هناك أكثر من نوع من البطاقات المصنوعة من الورق المقوى التي تستخدم لتسجيل المعلومات بواسطة ثقوب بشفرة خاصة . وسنشرح هنا بطاقة آى . بي . ام .

هذه البطاقة مستطيلة الشكل فى حجم كف اليد ومقسمة الى ٨٠ عمودا رأسيا . ويوجد بكل عمود ١٢ موضعا للتثقيب . والمواضع التسعة السفلى تسمى مواضع « عددية » . أما الثلاثة العليا فتسمى « مناطق (٧٠) » وموضع الصفر يكون موضعا عدديا ومنطقة فى نفس الوقت .

ويمثل كل رقم بثقب واحد فى الموضع المناظر بالعمود ، أما الحروف فيمثل الواحد منها بثقب فى موضع عددى وبثقب فى منطقة ، وبعض العلامات والرموز الخاصة تمثل بثقب أو اثنين

(69) central processor (70) zones

أو ثلاثة فى عمود واحد . وتسهيلا لقراءة البطاقات تكون الأرقام مطبوعة على كل عمود على حدة ويكتب رقم كل عمود فى أسفله ، وتكون كل البطاقات مشطوفة من الجانب الأعلى من نفس الجهة حتى يمكن وضع البطاقات كلها فى وضع متناظر .

شكل (٧) . بطاقة IBM أو Hollerith المثقبة . طولها ١٨٫٧ سم وعرضها ٨٫٢ سم وسمكها ١٨ر. مليمترا تقريبا وتحتوى على ٨٠ عمودا .

وقد استخدمت البطاقات المثقبة لسنين عديدة كوسيلة للاتصال بالآلات الحاسبة ، سواء لادخال المعلومات اليها ، أو لتسجيل المعلومات الخارجة منها .

وميزة البطاقات المثقبة أنه يمكن استعمالها لادخال المعلومات الى الكمبيوتر أكثر من مرة ، اذ أنه من السهل الاحتفاظ بها .

وتثقب البطاقات اما يدويا أو باستخدام لوحة ازرار (كهربية) أو اتوماتيكيا فى وحدة اخراج لتسجيل نتائج الحساب . وبعد الانتهاء من تثقيب بطاقة (فى غير وحدة الاخراج) يلزم مراجعة التثقيب باستخدام آلة تحقيق ، اما يدوية أو كهربية .

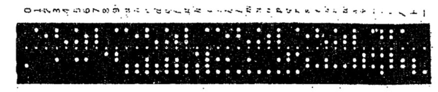
شريط الورق المثقب (٧١) :

تمثل البيانات على شريط الورق بواسطة ثقوب بشفرة معينة تختلف من نظام الى آخر . وفى العادة يمثل الحرف أو الرقم بنظام من الثقوب فى صف بعرض الشريط . وعدد مواضع التثقيب بعرض الشريط يختلف من خمسة الى ثمانية . ويكون عرض الشريط حوالي بوصة عادة . ومن الشائع أن تحتوى البوصة من طول الشريط على ما يمثل عشرة أرقام أو حروف .

---

(71) punched paper tape

وهناك انواع متعددة من آلات تثقيب شريط الورق . ويكون التثقيب باستخدام لوحة أزرار كهربية أو أتوماتيكيا في وحدة اخراج لتسجيل النتائج .



شكل (٨) . شريط ورق مثقب ذو ثمانية ثقوب بعرض الشريط (مع الشفرة الخاصة بالارقام من صفر الى ٩ والحروف اللاتينية وبعض العلامات في نظام EIA) .

الشريط المغنطيسي (٧٢) :

من الشائع استعمال الشريط المغنطيسي في تسجيل البيانات . وقراءة البيانات عليه بواسطة الكمبيوتر اسرع من قراءة البطاقات المثقبة أو شريط الورق المثقب . والمبدأ الذى يبنى عليه تسجيل البيانات على الشريط المغنطيسي يماثل ذلك الذى يبنى عليه تسجيل الأغاني والأحاديث على شريط التسجيل العادى . ويكون قطر الشريط المغنطيسي ١٠١/٢ بوصة وطولة ٢٤٠٠ قدما تقريبا . والعرض الشائع للشريط يتراوح بين ١/٢ بوصة وبوصة عادة ، وتتراوح سرعة قراءة الكمبيوتر له بين ٣٠ بوصة في الثانية و ١٥٠ بوصة في الثانية .

ويوجد بعرض الشريط سبعة مسارات في الغالب . وبذلك يكون هناك ٧ مواضع ممغنطة او غير ممغنطة في شفرة خاصة .

وهناك نوع جديد من الشريط المغناطيسي موضوع في علبة مستطيلة (٧٣) كتلك التى تستخدم في التسجيل العادى ولكنها أكبر حجما .



شكل (٩) . شريط مغنطيسي وقد ظهرت عليه الاجزاء المغنطة المقابلة للارقام والحروف اللاتينية والعلامات المبينة في الصورة

الطنبور المغنطيسي (٧٤) :

يكون الطنبور المغنطيسي على شكل اسطوانة من الألومنيوم مطلية بمادة مغنطيسية ، ويدور بسرعة كبيرة أثناء التسجيل عليه . ويتفاوت عدد مسارات التسجيل عليه ، كما يتفاوت الطول

(72) magnetic tape (73) cassette (74) magnetic drum

المستعمل . وقد تصل سرعة الطنبور الى ١٥٠٠٠ دورة فى الدقيقة ، ومن الشائع ان تكون سعة تخزينه حوالى نصف مليون رقم ثنائي وقد تصل الى ٤ ملايين او اكثر .

القرص المغنطيسي (٧٥) :

تستعمل الأقراص المغنطيسية كأداة تخزين اضافى ، ولها سعة تخزين كبيرة جدا . وهى تشبه اقراص (اسطوانات) جرامافون كبيرة وتكون مغطاة بطبقة رقيقة من اكسيد الحديد . وتدور الأسطوانات حول محور رأسي مشترك بمعدل الف دورة أو أكثر فى الدقيقة . وتكون المسارات على القرص فى شكل دوائر ذات مركز واحد . وتتوقف سعة تخزين القرص على كل من سرعة الدوران ، وقطر القرص ، والكثافة المغنطيسية المستعملة لكل رقم ثنائي . وقد تصل سعة التخزين على القرص ذى ٤٠ بوصة والمطلى من وجهيه الى عشرة ملايين رقم ثنائي . وباستعمال عشرين قرصا معا قد تصل سعة التخزين الى ٢٠٠ مليون رقم ثنائي .

ومن الممكن اعادة استعمال القرص الذى سجل عليه بيانات (أو برامج) مرات عديدة . وعندما يخزن عليه معلومات جديدة تمحى المعلومات القديمة التي كانت مكانها .

ومن الممكن ابقاء الأقراص متصلة بالكمبيوتر اتصالا دائما . كما انه من الممكن استبدالها بغيرها ، مما يعطى مقدرة على التخزين غير المحدود .

اللب المغنطيسي (٧٦) :

يستعمل اللب المغنطيسي للتخزين الرئيسي فى الكمبيوترات الحديثة (ولم يكن يستعمل قبل الخمسينات الأولى) . ويتكون اللب من حلقات صغيرة بدرجات متفاوتة مصنوعة من مادة مغنطيسية . والصغير منها قد يكون قطره الخارجي ٠٫٢ بوصة وقطره الداخلي ٠٫١٥ بوصة . وقد يحتوى نظام الكمبيوتر الواحد على ٢٠ مليون حلقة . وتسجل البيانات على الحلقات بمغنطتها بواسطة تيارات كهربية تمر فى اسلاك بمركزها أو تلف حولها . ويمكن « قراءة » الحلقات بواسطة تيارات كهربية ايضا .

ويمتاز اللب المغنطيسي بأن الكمبيوتر يستطيع ان يسترجع منه المعلومات بطريقة « الاتصال العشوائي » (٧٧) بمعنى أن الحصول على بيان موجود فى موضع معين بالذاكرة لايستلزم المرور على المواضع الموجودة قبل ذلك .

المطابع السريعة :

قد يكون من اللازم الحصول على النتائج من الكمبيوتر فى صورة مطبوعة ، ولذلك تستخدم مطابع خاصة ذات سرعات عالية ، وهناك أنواع مختلفة من هذه المطابع ، فبعضها يطبع بواسطة دوران اسطوانة عليها حروف بارزة ، وبعضها يطبع بواسطة مطارق . وقد تصل سرعة الطبع الى ٥٠٠ سطر فى الدقيقة مع مسافات ضيقة أو واسعة بين السطور ، ويحتوى السطر على ١٢٠ أو اكثر من مواضع الطبع (حروفا أو أرقاما) . ومع السرعة الكبيرة للآلة يمكن طبع صفحات كبيرة فى ثوان .

---

75) magnetic disk (76) magnetic core (77) random access

١١ ـ الكمبيوتر والأوتوميشن فى الصناعة

الأوتوميشن (٧٨) :

فى العمليات الصناعية يستعمل لفظ« أوتوميشن » بمعنى استعمال الآلات للرقابة والتحكم فى آلات اخرى . واللفظ مشتق من كلمة اغريقية(٧٩) معناها العمل التلقائي .

وفى عمليات الاوتوميشن يوجد طوران :

فى الطور الاول يصدر الكمبيوتر الأوامر الى آلة الانتاج .

وفى الطور الثاني ترسل نقطة العمل تقريراً الى الكمبيوتر تبلغه فيه بالتغيرات التي حدثت فى حالة العمل . ويطلق على التقارير من هذا النوع اسم « التغذية المرتدة »(٨٠) .

وعندما يتلقى الكمبيوتر التغذية المرتدة ـ أى التقرير بتغيرات الحالة ـ فانه يعدل عمل آلة الانتاج ، أو يوقفها ، أو ينتقل الى طور اخر ، حسب ما يملى عليه البرنامج ، وبسبب قدرات الكمبيوتر الفائقة لا يلزم غير زمن ضئيل للغاية لاتمام تحليل المعلومات الواردة بتقرير التغذية المرتدة واصدار الأمر التالي .

والأوتوميشن شائع الاستعمال فى صناعة تكرير البترول التي كانت من أولى الصناعات فى هذا المجال ، وهناك عدد من الصناعات الكيميائية شاع فيها العمل بنظام الأوتوميشن ، منها صناعات النايلون واللدائن (البلاستيك) والتقطير والطحن .

وفى الصناعات الهندسية نجد أيضا أمثلة على الأوتوميشن وان كان ذلك لا يشمل فى الغالب غير بعض أطوار العمل ، ومن الأمثلة على ذلك بعض أطوار صناعة السيارات . على أن اليوم الذى سنرى فيه الأوتوميشن يعم المصانع الهندسية الكبرى ليس بعيداً ، وفى الواقع هناك من المصانع اليوم ما يسير كله على هذا النظام .. مثال ذلك بعض مصانع أجزاء الآلات اللاسلكية . وهناك بطبيعة الحال رجال يعملون فيها ، ولكنهم فنيون مدربون تدريبا عاليا مهمتهم مراقبة عمل الآلات الأوتوماتيكية ، وصيانتها ، واصلاحها ان لزم الأمر .

ولا يعلم أحد ، حتى العلماء انفسهم ، امكانيات الكمبيوتر فى مجال الأوتوميشن . ولكن من المؤكد أن استعمالاته ستزيد يوما بعد يوما . واذا كانت الثورة الصناعية الأولى قد اتت ثمارها بعد نحو مائة وخمسين عاما ، فان الكمبيوتر قد أعطى نتائج مذهلة وهو وليد بعد . ومن المظاهر « البسيطة » للأوتوميشن تحكم الكمبيوتر فى سفن الفضاء ، فهو يرسل لها الأمر ، فترد عليه ، فيرسل لها أمراً آخر ـ كل ذلك فى لمحة العين . ومن مظاهر الأوتوميشن ايضا أن بعض الطيارات المجهزة بكمبيوترات تستطيع الهبوط فى المطارات بدون مساعدة من القائد ، كما يستطيع بعضها أن تطير بدون قائد وتؤدى عملا حربيا ثم تعود وتهبط فى الممر المحدد لها .

(78) automation (79) automatos (80) feedback

الى اليمين : : « جد العقول الآلية » تشارلز بابدج (١٧٩٢ – ١٨٧١) . كان استاذا للرياضيات فى كمبردج .

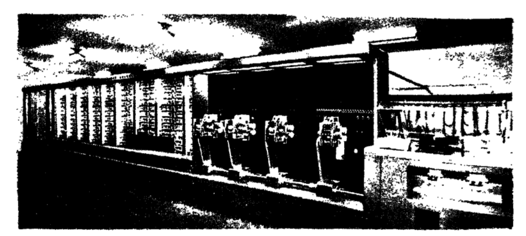


تحت الى اليسار : الرجل الذى أعطى أكبر دفعة للعقول الالكترونية .. جون فون نويمان (١٩٠٣ – ١٩٥٧) . كان استاذا للرياضيات فى معهد الدراسات العليا فى پرنستون .

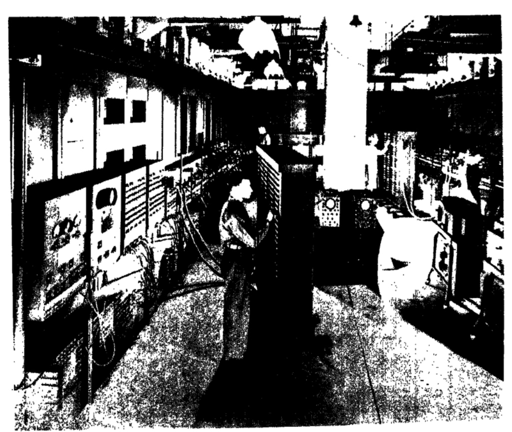
تحت الى اليمين : والد علم « السيبرنتكس » نوربرت ڤينر (١٨٩٤ – ١٩٦٤) . كان أستاذا للرياضيات في معهد ماساتشوستس التكنولوجي .







المنظر الأمامي للكمبيوتر « مارك ١ » MARK 1 الذى تم صنعه فى سنة ١٩٤٤ وكان أول كمبيوتر رقمى ذى غرض عام ، ولكنه لم يكن الكترونيا .



الكمبيوتر « انياك » ENIAC الذى تم صنعه سنة ١٩٤٦ وكان أول كمبيوتر رقم الكتروني . لاحظ أن قاعدته تدور حول القاعة على شكل حرف U .



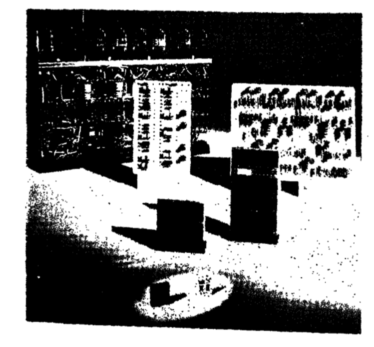
صورة مخترعي الترانزستور من علماء شركة بل الامريكية للتليفون ، اخذت لهم سنة اختراعه (١٩٤٨) ، وهم من اليسار الى اليمين :

و . شوكلى W. Shockley

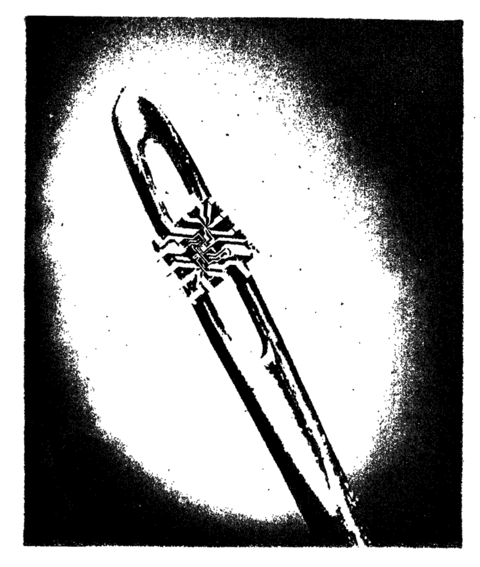
و . هـ . براتين W. H. Brattain

ج . باردين J. Bardeen

وقد نالوا لاختراعهم جائزة نوبل سنة ١٩٥٦



دوائر فى ثلاثة اجيال متعاقبة من الكمبيوترات الرقمية : (١) فى الخلف ـ دائرة « انابيب مفرغة » . (٢) فى الوسط ـ بطاقات « الحالة الصلبة » التى جاءت نتيجة اختراع الترانزستور وحلت محل الانابيب المفرغة . (٣) فى المقدمة ـ تحت الضوء « قالبان » للدوائر الدقيقة يؤدى كل منهما جميع الوظائف « المنطقية » للكمبيوتر . ويرى خلفهما مجموعة من ٦ قوالب واخرى من ١٢ قالبا من هذه القوالب الدقيقة .



نموذج للصناعات الالكترونية الدقيقة مما يستخدم في تركيب الكمبيوترات الحديثة :

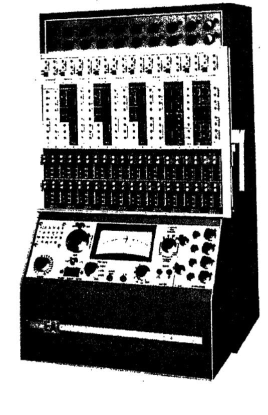
على ثقب ابرة طولها ٥ر٤ سنتيمترا تتزن لوحة عليها ١٨ صماما ثنائيا ، واربعة ترانزستورات ، وثمانية مقاومات كهربية .

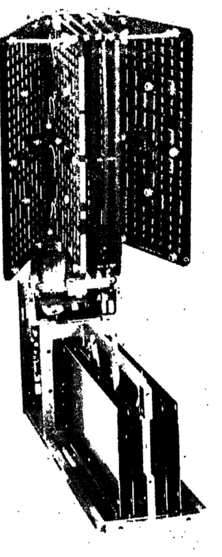
بقى أن نشير الى أن هذا النموذج يعتبر « كبيرا » بالنسبة الي آخر ما وصلت اليه دقة الصنع في المكونات الالكترونية .

الى اليسار ـ

الكمبيوتر التناظرى Pace TR-20 وفيه تصل دقة الحساب الى ٩٩٫٩٩٪ وهى مرتفعة بالنسبة للكمبيوترات النظرية ، منخفضة اذا قورنت بدقة الكمبيوترات الرقمية .

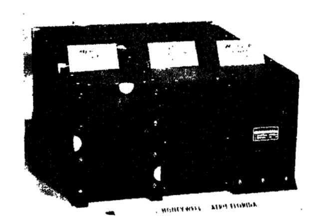
(Electronic Associates Incorporated)

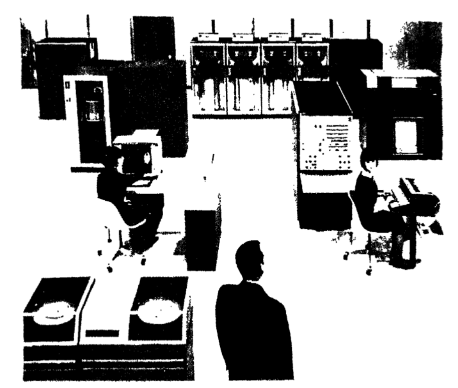




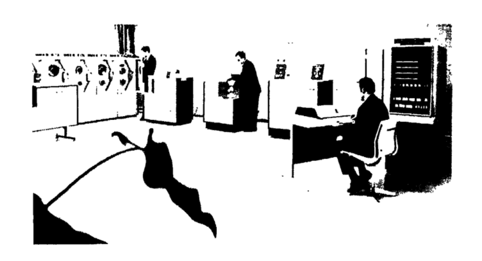
الى اليمين والى اسفل ـ

الكمبيوتر الحربى المحمول بالجو Alert Airborne (هانيول Honeywell) .





نظام كمبيوتر من سلسلة آى . بى ام/٣٦٠ IBM /360 System . وترى وحــدة المعالجــة المركزية فى يمين الوسط ، وخلية بيانات فى يســار الخلف ، ومجموعة أقراص فى يسار الامام .



نظام كمبيوتر متوسط الحجم طراز يونيفاك ٩٤٠٠ UNIVAC 9400 System



نظام كمبيوتر كبير الحجم طراز يونيفاك ١١٠٨ UNIVAC 1108 System



نظام كمبيوتر كبير الحجم طراز آى.سى.ال ١٩٠٦/أ ICL 1906-A



نظام كمبيوتر كبير « للوقت الحقيقى » طراز يونيفاك ٤٩٤ UNIVAC 494 System تستخدمه الخطوط الجوية ويلعب دورا هـاما فى مشروع« الانسان الى القمر ـ ناسا »
NASA Man to the Moon Program



مركز شركة Keydata Corporation «للكمبيوتر على الخط » للخدمة التجارية العامة ، حيث يستخدم نظام الكمبيوتر يونيفاك ٤٩١ UNIVAC 491 (للوقت الحقيقى) لمعالجة البيانات المرسلة عبر خطوط تليفونية مؤجرة من المشتركين فى منطقة بوسطن (أمريكا) .



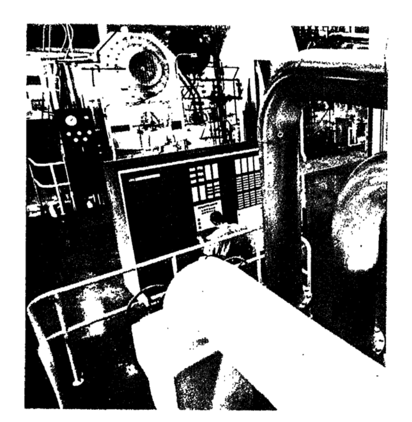
يحتفظ صانعو الكمبيوترات بارقامهم سرا لسنوات عديدة . ولكن « لجنة الاوراق الصناعية » المنبثقة من « لجنة امريكا لاستثمارات البنوك » قدرت فى أواسط الستينات أنه فىسنة ١٩٧٠ ستكون المبيعات الامريكية من تجهيزات « معالجة البيانات » فى مستوى ٢٠ ألف مليون دولار . وليس هذا خيالا . ففي سنة ١٩٦٢ مثلا انفق من ميزانية الدفاع الأمريكية وحدها ١٣٠٠ مليون دولار لشراء الكمبيوترات ، كما أن صناعات الكمبيوتر تنمو بمعدل من ١٠ الى ١٢ فى المائة سنويا .

والصورة العليا ، التى أخذت فى سنة ١٩٦٤ ،تبين تركيب الاسلاك الداخلية فى مطابع نظم الكمبيوترات فى خط الانتاج فى احدى منشآت شركة اى.بى.ام IBM .



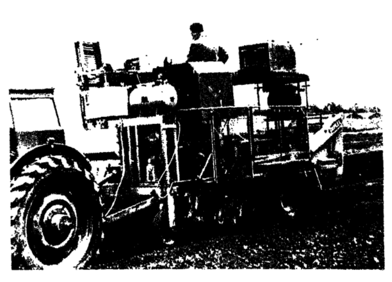
الكمبيوتر في الصناعة :

عامل يشاهد الكمبيوتر PDP-8/L من انتاج Digital Equipment Cor. يطبع أوامره لتغيير الآلات . ويطبع هذا الكمبيوتر كذلك البيانات التي تساعد عمال الصيانة على تحديد موضع العيوب في الآلات وتصليحها بدون ضرورة البحث في النظم الكهربية والميكانيكية والهيدروليكية .



يمكن لنظام IBM 1800 Data Acquisition and Control System أن يقوم بوظائف مختلفة في كثير من الصناعات العامة وتطبيقات البحوث ، مثل الاشراف على خط التجميع ، والتحكم في عملية صناعة الصلب ، والتحليل الدقيق لقذيفة أثناء اطلاقها .

الكمبيوتر فى التجارب



الكمبيوتر PDP-8/L المشاهد الى يمين العامل الفنى يستخدم هنا فى محطة المعهد الوطني الاسكتلندى للهندسة الزراعية قرب ادبنره لاختبار جهاز جديد (قبل انتاجه) لجنى البطاطس يستعين باشعة اكس فى رفض كل المواد الغريبة .

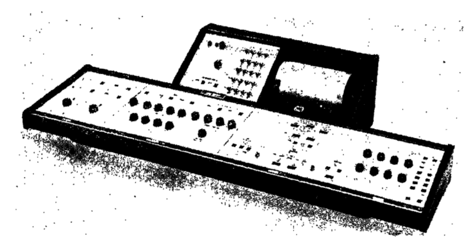


باحث فى الكيمياء التطبيقية فى مجلس البحوث الوطنى فى أوتاوا يستعمل نظاما لشركة Digital Associates Ltd. مبينا على الكمبيوتر PDP-8/L لدراسة الرنين المغنطيسى النووى .

الكمبيوتر في التعليم



في مشروع « لوكال » LOCAL تشترك خمس مدارس عليا في منطقة بوسطون في استكشاف استخدام الكمبيوترات في الفصول الدراسية ، وذلك باستعمال نظام الاشتراك في الوقت Digital Equipment Co.poiation Tss-8 والذى يمكن الاتصال به عن بعد بواسطة التيبريتر أو خطوط التليفون العادية .

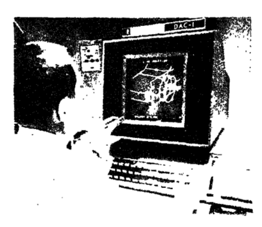


كمبيوتر التدريب Arkay CT-650 Trainer الذى يحتوى على ٦ « قوالب » تقابل الوحدات الاساسية الست الموجودة في معظم الكمبيوترات ذات الغرض العام .



الكمبيوتر في البنوك

باستخدام بطاقة العميل وسماعة التليفون والازرار الموجودة بجانبها تتصل الموظفة بكمبيوتر البنك وتستعلم منه عن رصيد العميل ، وتخبره بمبلغ العملية فتتلقى منه قيمة الرصيد النهائي للعميل .



الكمبيوتر في مساعدة التصميم الهندسى

باحث فيأحد مختبرات شركة جنرال موتورز للسيارات . يستعمل نظام GM DAC-1 لاختبار برنامج كمبيوتر يسمح بتعديل « رسم » تصميم جزء من سيارة .



الكمبيوتر في المعاهد العليا

احد العلماء في معهد ماساتشوستس التكنولوجى يتصل بكمبيوتر كبير للمعهد لاجراء عملياته الحسابية أو حل مسائله العلمية دون ان يغادر مكتبه .

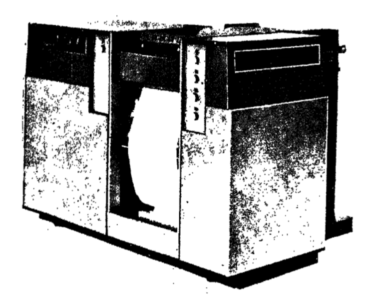




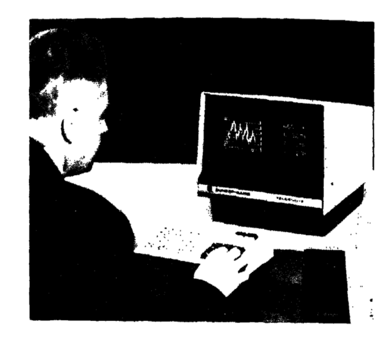
من وسائل التلقين والاخراج

قارئة شريط مثقب (ICL)

الارقام والحروف المكتوبة بالحبر العادى وباليد يمكن أن تقرؤها « قارئة حروف ضوئية » optical character reader وترسلها مباشرة الى الكمبيوتر (IBM)



المطبعة الالكترونية آى.سي. ال ١٩٣٣ ICL 1933 تستطيع أن تطبع لغاية ١٣٥٠ سطرا فى الدقيقة ويحتوى السطر على ٩٦ او ١٢٠ أو ١٦٠ حرفا أو رقما حسب الطلب .

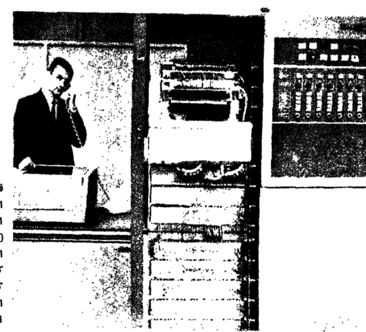


بعض وسائل العرض

باستعمال هذه « النهاية » يتصل هذا السمار بكمبيوتر بعيد عبر خط صوتى فيتلقى الاجابة على شاشتين منفصلتين، اليمنى منها للبيانات الرقمية والحرفية ، واليسرى للرسوم التى تتكون بتجمع النفط .

والنهاية المستخدمة هى

Bunker Ramo Telequote 70 terminal.





ردا على سؤال القى باستعمال قرص التليفون يتلقى هذا المهندس اجابة صوتية من الوحدة المستخدمة وهى وحدة IBM7770 وتحصل الوحدة على البيانات من كمبيوتر يجمع كلمات الاجابة من « قاموس » كلمات مسجلة على الطنبور المغنطيسي الظاهر في أعلى وسط الصورة .

بعض وسائل التسجيل والتخزين




القرص المغنطيسي الوحيد UNIVAC unidisc القابل للنقل .

طنبور مغنطيسي نموذجي من انتاج يونيفاك UNIVAC



« بنك بيانات » يتكون من مجموعات قابلة للنقل من الاقراص المغنطيسية. يمكن الاتصال بها بعد ٧٥ جزء من ألف من الثانية (I B M).

١٢ ـ وسائل وعلوم جديدة

علم « رجل سكان السفينة » (٨١)

فى سنة ١٩٣٨ قرر نوربرت فينر (٨٢) أستاذ الرياضيات بمعهد ماساسوستش للتكنولوجيا (٨٣) مع طبيب القلب روزنبلوث (٨٤) استكشاف « الأرض المحايدة بين مجالات العلم المتوطدة المختلفة .. تلك المناطق المتاخمة لحدود العلم والتي تحوى أعظم الفرص للباحث المؤهل » . وقد أطلق فينر على العلم الجديد اسم « سيبرنتكس » وهي كلمة اغريقية معناها « رجل سكان السفينة » .

وقد نمت الفكرة بسرعة وجذبت عدداً كبيراً من العلماء ذوى التخصصات المختلفة ، وهكذا نشأت أنواع جديدة من علم « رجل سكان السفينة » ذات اتجاهات رياضية والكترونية ، وبيولوجية ، وتكنولوجية ..

وفى أوسع المعاني يشمل علم « رجل سكان السفينة » كل مجالات الرقابة والتحكم والمواصلات فى الآلة والانسان .

واليوم يشمل هذا العلم كلا من المواضيع الآتية :

نظرية المعلومات (٨٥) ـ المواصلات ـ الحسابات الاوتوماتيكية (٨٦) ـ الأوتوميشن ـ تفسير الظواهر البيولوجية ـ التكيف (٨٧) ـ التغذية المرتدة فى « الحيوانات » الالكترونية ، أى الآلات التى تستجيب بالتجربة والخطأ ـ الترجمة الميكانيكية ـ نظرية ألعاب الاستراتيجية ـ التنبوء ، واتخاذ القرارات ، وبحوث العمليات (٨٨) ـ الاستنتاج الأوتوماتيكي .

ويتصل الكثير من هذه المواضيع بالكمبيوتر أو استعمالاته .

البرمجة الخطية :

عرفت « بحوث العمليات » بأنها « استعمال الطريقة العلمية ، وخاصة طريقة القياس ، للوصول الى قرارات يبنى عليها العمل التنفيذى » .

ولا شك فى أن البرمجة الرياضية هي أهم صور بحوث العمليات ، وأول فصل فى البرمجة الرياضية هو « البرمجة الخطية » والتي يمكن تبسيطها بالقول بانها طريقة رياضية للاجابة على السؤال التالي :

اذا كان لدينا موارد محدودة ذات استخدامات متعددة فيكف نستخدمها للوصول الى أكبر فائدة ممكنة (أو لتحمل أقل قدر من النفقات) ؟

(وبطريقة أدق : البرمجة الخطية هي النظرية الرياضية لايجاد النهاية العظمى أو الصغرى لدالة خطية لمتغيرات متعددة مع وجود قيود فى صورة « غير متساويات » خطية) .

---

(81) cybernetics (82) Norbert Wiener (83) M.I.T. (84) Rosenblueth
(85) information theory (86) automatic calculations (87) adaptation
(88) operations research.

وقد كان احســن الحلول لمشكلة المــواردالمحدودة المتعددة الاستعمالات هي الطريقة (٨٩) التي توصــل اليهــا الريــاضي (الألماني المولد)دنتزج (٩٠) مع اثنين من زملائه ، وكان وصولهم للحل سنة ١٩٤٦ لصالح البنتاجون ، على أن الحل لم ينشر الا في سنة ١٩٥١ عندما تأكـد الأمريكيون أن الروس قد وصلوا الى نفس الحل .

ولقد جاء الكمبيوتر في الوقت الملائم لخدمة الحل الذي وصل اليه دنتزج وزملاؤه والمبنى على عمليات حسابية طويلة لا يمكن اجراؤها باستعمال الآلات الحاسبة التقليدية الا في ازمنة طويلة جدا ، بحث لا يحصل على الاجابة الا بعد فوات وقت الافادة منها .

وهكذا بدأ علم البرامج الخطية . وتبعه علم البرامج غير الخطية .

ولقد جاءت البرامج الخطية حلا لمشاكل تقابل رجال الحرب عندما تكون مواردهم محدودة . على أن هذا النوع من المشاكل يقابل النــاس في الصناعات أيضا ، وبنفس القوة . ومن هنا جاء دور علم « البرامج الخطية » في علوم الادارة .

تقويم المشروعات* :

في « أهرام » الجمعة ١٩٧٠/٤/٣ كتب محمــد حسنين هيكل :

« انني لا أجادل لحظة في أن اسرائيل دولة متقدمة تمتلك كل الوسائل التي أنتجها العلم لتحقيق التقدم » .

« لديها جامعات ومعاهد فنية على مستوى ممتاز بأى مقياس عالمي . »

« ولديها مقدرة على استيعاب علوم الادارة الحديثة التي هي محرك التقدم المادى » .

« ولديها بنسبة سكانها أكبر عــدد مــن العقول الالكترونية في العالم وكانت هذه العقول هى التي حسبت لهاضربة الجو الحاسمة صباح يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ ، بطريقة الـ PERT وهي « معادلة التنسيق الكامل في اطار واحــد بــين خطوات متعددة لكي تتم جميعا في نفس الوقت وبأعلى درجة من الكفاءة ... »

ونحب أن نضيف الى تعريف « الاهرام » لطريقة «برت» أنها تستخدم عندما يوجد مشروع له مناطق متعددة ، بعضها يجب أن تتم فيــه النتيجة في وقت ضيق ، والبعض الآخــر لــه فائض من الوقت ـ وذلك مع وجــود مــوارد محدودة ، ويستدعي استخدام هذه الطريقــة تحليلا دقيقا للمشروع بأكمله لكي تعمل قائمة بكل النشاطات أو الأعمال الفرديــة التي يجب أداؤها لكي يتحقق الهدف النهائي ، ويحتــاج الأمر الى استخدام كل المواهب والخبرات لكي يكون التحليل كاملا تماما ومحتويــا على كــل التفصيلات ، وبعد وضــع قائمــة النشــاطات تنظم هذه في شبكة تعرض فيها العلاقات المتتابعة بها ، وبذلك يلقى الضوء على المناطق التي ليس لها فائض من الوقت للضياع عند تنفيذ المشروع ، والمناطق التى لديها ذلك الفائض .

---

(89) simplex method (90) George B. Dantzig

* الاسم الكامل هو « تكنيك تقويم ومراجعة المشروع » .

" Program Evaluation and Review Technique "

علم الكمبيوتر (٩١)

لم يحدث قط لاختراع واحد أن ظهرت له الآثار العميقة فى المجالات المختلفة فى سنوات قليلة مثلما حدث للكمبيوتر ، ولقد تبين بعد أن ادخل فون نويمان الأفكار التي أتى ذكرها فيما سبق أن هذا الاختراع جاء فاصلا بين عهدين ، فلا عجب اذن ان رأينا الاقبال منذ البداية على ميدان الكمبيوتر من علماء الرياضيات والفيزياء ، والمهندسين ، ورجال التكنولوجيا ، وأصحاب رؤوس الأموال . ولقد نشأ من ذلك علوم وتكنولوجيا وصناعات جديدة . ومن العلوم الجديدة فى هذا المجال « علم الكمبيوتر » .

ويهمنا هنا أن نتكلم عن بعض الفروع التي تدخل تحت اسم هذا العلم الجديد . .

فى سنة ١٨٥٤ نشر الرياضي والفيلسوف الانجليزى جورج بول (٩٢) (١٨١٥ — ١٨٦٤) كتابه المسمى « بحث عن قوانين الفكر التي تبنى عليها النظريات الرياضية للمنطق والاحتمالات » (٩٣) ولم يكن بول قد نشر قبول ذلك شيئا يستحق الذكر من البحوث الرياضية الأصيلة التي لها مثل العمق الذى ظهر فى هذا الكتاب . وبذلك أصبح أول شخص ينشر باكورة بحوثه العلمية الخلاقة فى سن الأربعين ، على أن أفكار بول لم تقابل فى مبدأ الأمر بالتقدير الذى تستحقه ، اذ لم يكن واضحا اى قيمة عملية للنتائج التي وصل اليها ، أو تلك التي وصل اليها الرياضي الانجليزى الآخر دى مورجان (٩٤) فى نفس المجال ، ولم تظهر هذه القيمة الا عندما كتب كلود شانون (٩٥) فى سنة ١٩٣٨ رسالته للماجستير فى العلوم من معهد ماساسوستش للتكنولوجيا ، فقد بحث شانون فى رسالته طريقة ايجاد أبسط وأكفأ توصيلات المفاتيح (٩٦) والمتابعات (٩٧) فى الدوائر الكهربية باستعمال تعبيرات رياضية مبنية على العلاقات بين المتغيرات على أساس المنطق ، تلك العلاقات التي أوجدها جورج بول والتى يطلق الآن على قواعدها اسم « الجبر البولي » .

ومن هنا أصبح الجبر البولي أحد الفروع الأساسية فى الرياضيات اللازمة للكمبيوتر . كذلك نشأ فرع جديد لعلم الكبيوتر باسم « نظرية دوائر المفاتيح » (٩٨) ويتضمن تطبيقات الجبر البولي فى التوصيلات الكهربية .

ولعل القارى يدهش اذ يعلم أن « تصميم الكبيوتر الرقمي » أصبح الآن تطبيقا للجبر البولي (فى الواقع لفرع له يعرف باسم « الجبر البولى الثنائي » (٩٩)) .

علوم وفروع أخرى :

فى مجال وضع البرامج للكمبيوتر توجد دراسات كثيرة لانشاء لغات جديدة للكمبيوتر

---

(91) computer science (92) George Boole (93) " Investigation of the laws of thought on which are founded the mathematical theories of logic and probabilities "

(94) Augustus De Morgan (95) Claude E. Shanon (96) switches

(97) relays (98) switching circuit theory (99) binary Boolean algebra

تكون اكثر صلاحية واسهل استعمالا من اللغات الحاضرة . وتتعاون اقسام الرياضيات واللغات فى الجامعات فيما يطلق عليه اسم «لغات البرامج».

ولما كان عمل الكمبيوتر متعلقا أساسا بالبيانات فقد نشأت صلة وثيقة بينه وبين علم جديد يعرف باسم « نظرية البيانات » (١٠٠) .

وفى علم الفيزياء زاد الاهتمام بفرع « فيزياء الحالة الصلبة » (١٠١) نظرا لتطبيقاته فى صناعة الكمبيوتر . واليوم يدرس الباحثون كيف يمكن الاستفادة من أشعة « الليزر » (١٠٢) فى صناعة كمبيوترات من جيل جديد تتم فيها العمليات بسرعة الضوء .

١٣ ـ علوم الكمبيوتر واستعمالاته فى الجامعات والمعاهد العليا

لقد رأينا كيف أن الفضل الأول فى مجال الأفكار الأساسية فى تصميم الكمبيورتات كان لأساتذة الجامعات وعلى رأسهم :

الرياضي بابدج من جامعة كمبردج

الرياضي فون نويمان من جامعة برنستون

الفيزيائي ايكن من جامعة هارفارد

التكنولوجي ويلكس من جامعة كمبردج

ولا عجب اذن أن نرى الاهتمام المتزايد بعلوم الكمبيوتر وتطبيقاته فى الجامعات والمعاهد العليا فى البلاد المتقدمة ، وفيما يلي بعض المعلومات التى تبين مدى اهتمام الجامعات فى هذا المجال . .

فى بريطانيا * يتخصص فى علم الكمبيوتر وتطبيقاته والعلوم المتصلة به اتصالا مباشراً أكثر من ٢٥٠ من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات والمعاهد العليا ، موزعين كالآتي :

١٤٣ عضوا فى أقسام « علم الكمبيوتر »

٧١ عضو فى اقسام « علم البيانات »

٣٨ عضواً فى أقسام « الرياضيات »

ويوجد فى جامعة لندن وحدها معهد متخصص باسم « معهد علم الكمبيوتر » بالاضافة الى قسمين من أقسام « علم الكمبيوتر » .

وفى جامعة كمبردج يعمل فى « مختبر الرياضيات » ستة من أعضاء هيئة التدريس

---

(100) information theory (101) solid state physics (102) lasers

* بيانات ١٩٦٩ .

المتخصصين فى علوم الكمبيوتر وعلى رأسـهم الاستاذ ويلكس عضوا الجمعية الملكية الذى صمم الكمبيوتر « ادساك » .

وفى الولايات المتحدة الامريكية * يوجد اكثر من الف كمبيوتر رقمي فى حوالي أربعمائة جامعة ومعهد عال ، ويزيـد نصيب علـوم الكمبيوتـر وتطبيقاته عنه فى بريطانيا بكثير بطبيعة الحـال، وأمامى الآن دليل الدراسات العليـا باحـدى الجامعات (جامعة سيراكيوز) فاجد ٧ مقررات من علوم الكمبيوتر .

واما فى البلاد العربية فالأمر مختلف بطبيعة الحال . ولست أقصد أن اقارن بلادنا فى مجال علوم الكمبيوتر بالبلاد الصناعيـة الكبرى التي تسبقنا فى مجال العلم والتكنولوجيا بمسافات تزيد كل يوم ، ولكن مما يشجع أن نجد أن هناك أربع جامعات حكومية فى الجمهوريـة العربيـة المتحدة بها مراكز حساب الكتروني وذلك بالاضافة الى مختبر الحساب الالكتروني بالجامعة الامريكية بالقاهرة . وهذه الجامعات (بترتيب بدء استعمالها للكمبيوتر) هي : الاسكندرية (كمبيوتر امريكي)، عين شمس (كمبيوتر أمريكي) القاهرة (كمبيوتر انجليزى) ، الأزهر (كمبيوتر بولندى) والآلتان الأخيرتان كبيرتا الحجم حديثتان وسعة التخزين الرئيسية فى كل منهما قابلة للنمو الى ٢٦٢ الف كلمة ، أما التخزين الاضافي فيمكن أن يصـل الى مئات الملايين ، وعندما تكمل أجزاء كمبيوتر جامعة القاهرة فانه سيمكنه تنفيذ ١٦ برنامجـا فى وقت واحد .

وفى البلاد العربية الأخرى ، مثل الكويت ولبنان ، يوجد كمبيوترات ببعض الجامعات ، كما أن البعض الآخر فى طريقها الى انشاء مراكـز حساب الكتروني .

١٤ ــ تكاليف الكمبيوتر

تقسم نظم الكمبيوترات الى ست مجموعات حسب حجمها ، وفيما يلى بيان بالايجار الشهرى بالتقريب فى الولايات المتحدة لكل من المجموعات كما كان سنة ١٩٦٧ :

المجموعة	الايجار الشهرى بالدولار			
المجموعة الأولى (كبيرة جدا)	من	٥٠٠٠٠	الى	١٤٠٠٠٠
المجموعة الثانية (كبيرة)	من	٢٠٠٠٠	الى	٥٠٠٠٠
المجموعة الثالثة (متوسطة)	من	١٠٠٠٠	الى	٢٠٠٠٠
المجموعة الرابعة (صغيرة)	من	٥٠٠٠	الى	١٠٠٠٠
المجموعة الخامسة (صغيرة جدا)	من	٢٠٠٠	الى	٥٠٠٠
المجموعة السادسة (اصغر المجموعات)	من	٣٢٥	الى	٢٠٠٠

* بيانات ١٩٦٦ ولا بد انه قد حدثت تطورات كبيرة منذ ذلك الوقت .

١٥ ـ خاتمة

فى سنة ١٩٣٠ هاجر الى الولايات المتحدةالأمريكية شاب من مواليد بودابست يحمل الدكتوراه فى الرياضيات. وكان عمره عند وصولهالى الولايات المتحدة سبعة وعشرين عاما .

وفى سنة ١٩٣٥ هاجر الى الولايات المتحدةالأمريكية شاب آخر من مواليد بودابست أيضا يحمل الدكتوراه فى الفيزياء . وكان عمره عندوصوله الى الولايات المتحدة سبعة وعشرين عاما كذلك .

وقد عرف الرجل الأول فيما بعد باسم« والد الكمبيوترات الحديثة » .

أما الرجل الثانى فقد عرف فيما بعدباسم « والد القنبلة الهيدوجينية » .

وقد عرفنا الرجل الأول فيما تقدم فهويانوس فوننويمان الذى غير اسمه الأولالىجون.

أما الرجلالثانىالذىيدعى ادوارد تلر(١٠٣)،فلم نذكر عنه شيئا فيما سبق . وربما يظن القارىء أننا ذكرناه هنا لنبين أن شخصين منأمة صغيرة لا حول لها ولا قوة قد قاما بجهود علمية ستغير نتائجها وجه العالم الذى نعيش فيه،وأن فى هذا عبرة لنا . فلعله يشب يوما ما فى بلادنا شخص يغير وجه هذه الأرض بأعماله العلمية .

اننا لم نقصد ذلك تماما ، وان كنا نتمناهبطبيعة الحال ، ولكننا قصدنا شيئا آخر . فقد جاءت أفكار فون نويمان أثناء عمله فى لجنة الطاقةالذرية الامريكية ، وكذلك جاءت أفكار ادوارد تلر أثناء عمله فى نفس هذه اللجنة . وهناك مثليقول « بعد الحرب تتحول السيوف الى نصال للمحاريث » ،فصنع السيف سيؤدى يوما ما الىحرث الأرض . وها نحن قد راينا كم أفاد الناس فى وقت السلم من الكمبيوتر ومن الطاقة الذرية . ولعله يأتى اليوم الذى يستطيع فيه الناس تسخير الطاقة النووية الهيدروجينية لخدمة البشر .

عندئذ سيتغير كل شيء على هذه الارض . فالهيدروجين من أكثر العناصر انتشارا ، ولا يكاد يكون له ثمن . والطاقة النووية التى يمكنتوليدهامنه ليس لها حدود .

وهناك بارقة أمل فى نجاح الانسان فى هذاالسبيل بعد نتائج بحوث علمية اعلنت حديثا فى روسيا . وكل ما نتمناه أن يعم الخير كل البشر.

ولي أمنية ، أرجو من صميم قلبى أنتتحقق : هى أن يكون للعرب قسط ، اى قسط ، فى الجهود العلمية التى ستقود الانسان الى الكنوزالتى لن تنضب ما بقى من الناس احياء على هذه الارض .

(103) Edward Teller

تذييل (١)

أنواع البرامج ولغات الكمبيوتر

يتألف البرنامج من سلسلة من الأوامر تلقن للكمبيوتر وتخزن فى ذاكرته الرئيسية قبل العمل، وتختلف هذه السلسلة عادة من برنامج الى آخر ، ويقتضى وضع برنامج لحل مسألة معينة ما يأتى :

١ ــ تجزئة المسألة الى خطوات أولية يستطيع الكمبيوتر أن ينفذها .

٢ ــ كتابة الخطوات فى تسلسل سليم .

٣ ــ ترجمة البرنامج المكتوب الى (لغة) يفهمها الكمبيوتر .

٤ ــ اختبار البرنامج باستخدام مجموعة بسيطة من البيانات .

والكنترول ، أى التوجيه والتحكيم ، هو الذى يفسر كل « أمر » بعد أن يتلقاه فى دوره من التخزين الرئيسى مكتوبا بشفرة ثنائية (فى معظم الكمبيوترات الرقمية) تعرف باسم « لغة الآلة »(١٠٤) . وتعرف الأوامر فى هذه الصورة باسم « أوامر الآلة »(١٠٥) وتتوقف لغة الآلة على تصميمها .

وفى الأيام الأولى للكمبيوترات الالكترونية كان واضعو البرامج يكتبونها بلغة الآلة التى ستنفذ عليها ، وكانوا يلاقون فى ذلك مشقة كبيرة . وعلى سبيل المثال اذا كانت الآلة المستخدمة هى آى . بى . ام/٧٠٤٠(١٠٦) فانه كان يكتب :

0001 0000 0000 0000 0000 0000 0000 1011 0111

للأمر بجمع محتويات « الموضع رقم (١٨٣) » فى الذاكرة الى « المراكم »(١٠٧) وهو المكان الذى تخزن فيه نتائج الجمع والطرح الخ .. تخزينا وقتيا أثناء عملية الحساب .

على أنه قد أمكن التخلص من معظم العناء الذى كان يلاقيه واضعو البرامج باختراع لغات سهلة الاستعمال نسبيا تترجم فيما بعد الى « لغة الآلة » باستخدام برنامج خاص يتوقف على اللغة المستخدمة وعلى تصميم الآلة . وتزيد اللغات التى اخترعت فى هذا المجال وشاع استعمالها فى أوقات مختلفة عن ١٢٠ لغة ، وذلك بخلاف اللغات التى كان استعمالها محليا .

اللغة الرمزية(١٠٧)

وقد كانت أولى اللغات التى اخترعت للتخلص من مصاعب لغة الآلة تسمح لواضع البرنامج بكتابة « الأوامر » فى صورة تحتوى على مختصرات لغوية وأعداد عشرية . وعلى سبيل المثال اذا أريد جمع محتويات « الموضع رقم ١٨٣ » الى « المراكم » (وهو الأمر السابق ذكره) فانه قد يكتب ADD 183

---

(104) machine language (105) machine instructions (106) IBM 7040

(107) accumulator (108) symbolic languages.

وكذلك كانت أوامر الطرح والضرب والقسمة والقراءة والوقوف تكتب فى بعض البرامج (المعدة للتنفيذ على آلات معينة) كما يلى على التوالى (من اليسار الى اليمين) :

SUB, MUL, DIV, RD, HLT

ومن السهل تذكر صور هذه الأوامر اذ انها اختصارات للألفاظ الانجليزية :

SUBtract, MULtiply, DIVide, ReaD, HaLT

والتى لها المعانى المقصودة فى الأوامر (وقد كتبنا الحروف المحذوفة فى اللغة الرمزية بخط صغير) . والشفرة من هذا النوع تسمى « شفرة تذكرية »(١٠٩) لأنه من السهل تذكرها . ويطلق على البرنامج الذى يستخدم لترجمة اللغة الرمزية المكتوبة بهذا الشكل الى لغة الآلة اسم «مجمّع»(١١٠) كما يطلق على عملية الترجمة اسم «تجميع»(١١١).

وقد اخترعت فيما بعد لغات أخرى ذات مستوى عال(١١٢) (لا تستخدم مع الكمبيوترات ذات السعة الصغيرة جدا) . ومن هذه اللغات ما عم استعماله مثل لغات «فورتران» و «كوبول» و « ألجول » وقد اشتقت هذه الأسماء كما هو مبين فيما يلى :

FORTRAN	(FORmula TRANslator)
COBOL	(COmmon Business — Oriented Language)
ALGOL	(ALGebraic — Oriented Language).

والأمر الواحد المكتوب باحدى هذه اللغات يترجم الى سلسلة كاملة من « أوامر الآلة » والبرنامج الذى يستخدم لهذه الترجمة يتوقف على اللغة وعلى تصميم الكمبيوتر ويطلق عليه اسم «مجمع كبير »(١١٣) كما يطلق على عملية الترجمة اسم« التجميع الكبير »(١١٤) .

ونستخدم لغتا فورتران والجول فى النواحى العلمية(١١٥) بينما تستخدم لغة كوبول فى النواحى التجارية (الأعمال غير العلمية) .

وهناك لغة حديثة نسبيا تستخدم فى كل من الناحيتين العلمية والتجارية وتعرف باسم :

PL/I (PROGRAMMING LANGUAGE 1)

لغة فورتران :

اعلنت شركة آى . بي . ام هذه اللغة سنة ١٩٥٧ بعد سنوات من البحوث ، وكانت اللغة تتكون من ٢٥٠٠٠ سطر من الرموز . وقد اكتشفت بعض الأخطاء فيها فى مبدأ الأمر . وقد صححت هذه الاخطاء واستمر العمل فى تطوير اللغة مدة طويلة وظهرت عدة صور منها .

ولغة فورتران ذات قيمة عظيمة فى حل المسائل العلمية التى تعتمد على معادلات او علاقات رياضية . وتستخدم هذه اللغة فى الوقت الحاضر مع كمبيوترات من صنع العديد من الشركات .

---

(109) mnemonic code (110) assembler (111) assembly (112) high-level languages
(113) compiler (114) compilation (115) scientific

لغة كوبول :

فى سنة ١٩٥٩ فكرت وزارة الدفاع الأمريكية فى تشكيل لجنة من الحكومة ومن ممثلى شركات الكمبيوترات للقيام بتطوير لغة تتكون من الفاظ دارجة الاستعمال فى أمريكا وذلك لاستخدامها فى معالجة البيانات باستعمال أى كمبيوتر رقمى ذى سعة تخزين معقولة . وكانت لغة كوبول ثمرة لجهود هذه اللجنة .

وتتكون هذه اللغة من الفاظ انجليزية معينة وتتركب جملها حسب قواعد خاصة . وعندما يتم شخص وضع برنامج بهذه اللغة فانه يكون من السهل على شخص آخر يعرف اللغة الانجليزية أن يفهم هذا البرنامج وان لم يكن فى استطاعته وضع برنامج مماثل له .

لغة الجول

كانت الجول أول لغة كبيرة تصممها لجنة مشتركة من منظمات مختلفة . وفى الواقع كانت اللجنة التى صممتها دولية . وفى مارس ١٩٥٩ صدر فى كوبنهاجن اول عدد من (نشرة الجول)(١١٦) وفى سنة ١٩٦٨ صدرت صورة معدلة من هذه اللغة .

لغة PL/ 1

منذ بداية استعمال لغة فورتران كان واضحا ان هذه اللغة تعانى من قصور لعدم امكان استعمالها فى عدد من الآلات الموجودة بالاسواق . وذلك بالاضافة الى صعوبات فنية اخرى . ولمعالجة ذلك وافقت منظمة « شير »(١١٧) وشركة آى . بى . ام فى سنة ١٩٦٣ على تأليف لجنة مشتركة لتصميم لغة ذات مستوى عال تخلو من قصور فورتران . وقد تلقت اللجنة مساعدات من افراد وهيئات اخرى . وفى أقل من ثلاث سنوات ظهرت هذه اللغة وكان لها تأثير كبير على صناعة الكمبيوتر . ويعتقد البعض أنها ستحل فى المستقبل محل لغات فورتران وكوبول والجول .

برنامج المصدر(١١٨) وبرنامج التطبيق (١١٩)

عندما يتم برنامج ويعد لتلقينه للكمبيوتر لترجمته الى لغة الآلة فانه يسمى «برنامج المصدر» والبرنامج الذى ينتج من الترجمة يسمى « برنامج التطبيق » والبرنامج الاخير هو الذى يستخدم مع البيانات للحصول على النتائج المطلوبة .

تذييل (٢)

نبذة تاريخية عن الكمبيوترات التناظرية

كما سبق أن ذكرنا كان الكمبيوتر « انياك »اول آلة حاسبة رقمية الكترونية . على ان اول التطورات الألكترونية فى صناعة الآلات الحاسبة كان فى مجال الكمبيوترات التناظرية . فبفضل التكنولوجيا الالكترونية التى نشأت اثناء الحرب العالمية الثانية امكن صناعة صور الكترونية لالة

(116) Algol Bulletin (117) SHARE (118) source program (119) object program.

ميكانيكية تعرف باسم « المحلل التفاضلي » (١٢٠) كان الدكتـور فانيفـر بـوش(١٢١) مـن معهـد ماساسوستش التكنولوجي قد اخترعها سنة ١٩٣٠ وتم صنع نسخ عديدة منها بين هذه السنة وسنة ١٩٤٢ . وكانت هذه الالة مبنية على فكرة مبتكر صـنعه الفيزيائي البريطاني الكبير اللـورد كلفن سنة ١٨٧٦ ويعرف باسم « مكامل كلفن » (١٢٢) على انه من المرجح ان بوش وزملاءه قد عملوا مستقلين عن افكار كلفن .

وقد كانت « المحللات التفاضلية » مفيدة للغاية في دراسة النظم المعقدة التى يمكن تمثيلها بمعادلات تفاضلية . على أنه سرعان ما ظهر ان الكمبيوترات الرقمية الجديدة اكثر قدرة واوسع افقا ، مما جعلها تحل بسـرعة محل الكمبيوترات التناظرية كلما سمحت طبيعة المسائل المعروضة بذلك .

شكر

أود أن اقدم جزيل الشكر للهيئات والشركات الصانعة للكمبيوترات التي تفضلت بتقـديم صور توضح نظم الكمبيوترات ومكوناتها واستعمالاتها مما جاء بعضه في هذا العدد من مجلة (عالم الفكر) . ولا شك أن المجلة ستقوم بتقديم البعض الآخر في فرص قادمة .

* * *

(120) differential analyzer

(121) Vannevar Bush

(122) Kelvin integrator

المراجع

1. BARTEE T. C. : Digital Computer Fundamentals ; Mc Graw-Hill, 1966.
2. BOWDEN B. V. : Editor : Faster than Thought ; Pitman, 1967.
3. BRAZEE J. G. : Semiconductor and Tube Electronics ; Holt, Rinchart and Winston, 1968.
4. BROWN J. A. : Computer and Automation ; Arco, 1968.
5. BURROUGHS CORPORATION : Digital Computer Principles ; Mc Graw-Hill, 1962.
6. CRAWFORD F. R. : Introduction to Datea Processing ; Prentice-Hall, 1968.
7. CULBERTSON J. T. : Mathematics and Logic for Digital Devices ; Van Nostrand, 1966.
8. DEPARTMENT OF EDUCATION AND SCIENCE AND THE BRITISH COUNCIL : Scientific Research in British Universities and Colleges, Vol. I, Physical Sciences ; Her Majesty's Stationery Office, London, 1969.
9. DESMONDE W. H. : Computers and their Uses ; Prentice-Hall, 1964.
10. EADIE, D. : Introduction to the Basic Computer ; Prentice-Hall, 1968.
11. ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 1967.
12. EVANS, G. W. : WALLACE, G. F. and SUTHERLAND, G. L. Simulation using Digital Computers ; Prentice-Hall, 1967.
13. FARINA M. V. : Computers ; Prentice-Hall, 1969.
14. FLORES, E. : Computer Software ; Prentice-Hall, 1965.
    : Computer Design ; Prentice-Hall, 1967.
16. FONTAINE G. : Diodes and Transistors ; Centrex Publishing Co., Eindhoven, 1963.
17. FUCHS W. R. : Mathematics for the Modern Mind ; Macmillan, 1967.
18. GERRISH H. H. : Electricity and Electronics ; The Goodheart-Willcox Co. Homewood III, 1968.
19. GREEN B. F. Jr. : Digital Computers in Research, an Introduction for Behaviorial and Social Sciences ; Mc Graw-Hill, 1963.
20. HARTEE D. R.: Calculating Instruments and Machines, Cambridge University Press, 1950.
21. HELLERMAN H. : Digital Computer System Principles ; Mc Graw-Hill, 1967.
22. KRIEGER M. : Basic Switching Circuit theory ; Macmillan, 1967.
23. LAURIE E. J. : Computers and How They Work ; South Western Publishing Co., 1963.

24. LYTEL A. : Digital Computers in Automation ; The Bobb-Merrill Co. 1966.

25. MALEY G. A. and HEILWEIL M. F. : Introduction to Digital Computers ; Prentice-Hall, 1968.

26. MANDL M. : Fundamentals of Electronic Computers ; Prentice-Hall, 1967.

27. MARCUS M. P. : Switching Circuits for Engineers ; Prentice-Hall, 1967.

28. MARTIN F. F. : Computer Modeling and Simulation ; Wiley, 1968.

29. MARTIN J. : Design of Real-Time Computer Systems ; Prentice-Hall, 1967.

30. : Telecommunications and the Computer ; Prentice-Hall, 1969.

31. McCORMICK, E. M. : Digital Computer Primer ; McGraw-Hill, 1959.

32. MILLERMAN and TAUB : Pulse, Digital and Switching Waveforms ; McGraw-Hill, 1965.

33. RICHARDS R. K. : Digital Computers and Circuits ; Van Nostrand, 1965.

34. SAMMENT J. E. : Programming Languages ; Prentice-Hall, 1969.

35. SAY M. G. : Concise Encyclopaedia of Electricial Engineering ; Elsevier (Amsterdam) 1962.

36. SIPPI C. J. : Computer Dictionary and Handbook ; Sams, 1967.

37. STIBITZ G. R. and LARRIVEE J. A. : Mathematics and Computers ; Mc Graw-Hill, 1957.

38. TATON, RENE, : Science in the Twentieth Century ; Thames and Hudson, 1964.

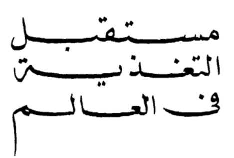
39. TECHNICAL EDUCATION AND MANAGEMENT Inc., Computer Basics Vols. 1-VI, Sams 1968.

40. Thomas H. E. : Handbook of Transistors, Semiconductors, Instruments and Micro-electronices ; Prentice-Hall, 1968.

41. WILLIAMS J. B. : Digital Computing Systems ; McGraw-Hill, 1959.

42. WRUBEL M. H. : A Primer of Programming for Digital Computer ; Mc Graw-Hill, 1959.

حسن طه النجم



لعل من بين ابرز مظاهر التغير التى يواجهها عالمنا الحاضر هو النمو العددى المريع لسكانه، وبشكل يفوق حد التنبؤ والحساب ، بحيث اصبح يكون حالة من التحدى الخطير للجنس البشرى يجابهها في نواحي حياته المختلفة : في حصوله على الطعام ، على السكن ، على التعليم، على العمل الذى يرتزق منه ، وعلى امور كثيرة اخرى ، وهى حالات تدفعه جميعا الى استدرار موارد بيئته ما امكن ، والى حد ربمـا ادى فى بعض الاحيان الى تدمير هـذه الموارد ، وذلك لانه مهما كانت هـذه الموارد غزيرة وكامنة القابليات الا انها على نقيض السـكان ،لا يمكن ان تنمـو بدون حدود ، تلك الحدود التى يعينها كيانهـا الطبيعي والمرتبط باوضـاع المناخ ومساحـة السطح وما تحت السـطح من ثروات معدنية وما فوقه من مظاهر التربة .

صحيح ان الانسان الحديث بعلمه وبفنونه الصناعية قد تمكن من تغيير الكثير من معاني الموارد الطبيعية وحول ما كان سلبيا منها وجعله ايجابيا ،وهو لا يزال ماضياً في هذا الطريق ، ولكن لا شك فى ان الجواب النهائي على امكانية استمرار هـذا التغير تعطيه البيئة الطبيعية نفسها .

وفى خضم هذا التغير اصبحنا نجد العـالم اليوم ، لا سيما اصحاب الشان فيه ، يزداد قلقا من امر هذا التزايد المتفجر لسكانه ، وذلك نظراً لما لهـذا الوضع من علاقة بامر اكفاء الحاجـات الغذائية ، هذه الحاجـات الغذائيـة التى يسبب نقصهـا الاخلال فى الكثير من مواقف الانسـان وسلوكه ، حيث قد تضطره مثل هذه الحالة الى الهجرة ، وقد تدفعه الى الاستجداء والتسول ، وقد تدفعه الى بيع ابنائه ، وقد تدفعه الى اكل لحـم اخيه ، وقد تدفعه اخيرا الى مهاوى الفناء

---

* الدكتور حسن طه النجم . استاذ الجغرافيا المساعد بجامعة الكويت . وجامعة بغداد . اشترك فى تاليف وترجمة عدد من الكتب فى الجغرافيا الاقليمية والاقتصادية .

جوعا.ويزداد قلق العالم من ذلك اكثر فأكثر كلما نشرت احصائية جديدة عن تعاظم اعداد سكانه ، ففي عالم اليوم ينفتح في كل دقيقة حوالي ١٣٠ فما جديداً طالباً الطعام،وسيزداد عدد هذه الافواه المفتوحة اكثر فأكثر كلما مرت السنون .

ان تفاقم مشكلة التغذية بما لها من علاقة بتزايد سكان العالم يمكن ان تتجسم لنا بدرجة اكبر لدى القائنا نظرة خاطفة على التقديرات الاحصائية لمختلف سكان العالم عبر التاريخ الحديث ، والتي سترينا بوضوح أن اعداد السكان هؤلاء قد اخذت بالتنامي المطرد ولا سيما منذ بداية القرن التاسع عشر ، وهو القرن ــ الذي بدأت فيه نتائج الثورة الصناعية تتجاوب اصداؤها في انحاء مختلفة من العالم وتؤتى اكلها في رفع مستويات المعيشة وتحسين سبل الحياة ــ فخلال المئة سنة الواقعة بين ١٨٠٠ و ١٩٠٠ زاد سكان العالم من حوالى ٩٥٥ مليون نسمة الى ١٦٥٥ مليون نسمة او بنسبة ٧٣٪ تقريبا ، فى حين قفز الرقم الى ٢٥٠٠ مليون نسمة بعد خمسين سنة فقط من بداية القرن الحالى ، او بنسبة ٥٢٪ ،هذا على الرغم مما اصاب العالم خلال هذه الفترة من القرن العشرين من مآسى الحربين العالميتين الأولى والثانية ، والحروب المحلية والاقليمية الاخرى ، والتى عملت جميعها على ازهاق ارواح الملايين من السكان الذين معظمهم فى عمر الانتاج والتكاثر،كما خلفت ما خلفته من الأوبئة والامراض الكاسحة التى اختطفت ملايين اخرى وذلك كنتيجة لتفشى المجاعات وسوء التغذية وقلة العناية الصحية .

على ان هذه النسبة من تزايد السكان التى حدثت فى النصف الأول من القرن الحالى لم تلبث ان تكررت بعد عشرين سنة فقط من بداية النصف الثاني من هذا القرن،حيث بلغ عدد سكان العالم فى مطلع سنة ١٩٧٠ اكثر من ٣٦٠٠ مليون نسمة ، وذلك كنتيجة لانتشار الوعى الصحى وشيوع التعاطف الانسانى الباعث على اغاثة المصابين بالمجاعات منها وعلى تبنى برامج المساعدات المختلفة ، وعلى الرغم من ان هذا التفجر السكانى للعالم وبهذا النمط قد اخذ يرعب المعنيين فى مختلف انحاء العالم بحيث أدى ذلك الى تعالى الدعوات الى تحديد النسل وبذل كل الجهود لتحقيقه ، ولكن دون جدوى .. فان جميع الدلائل تشير الى ان هذه الزيادات بهذا الشكل المريع ستستمر ، بل تتأمل تقارير الامم المتحدة بانها ستكون بدرجة اشد مما كانت عليه سابقا بحيث سيتضاعف سكان العالم فى نهاية القرن الحالى (اى بعد ثلاثين سنة من الزمن) مرة اخرى ويصل عددهم الى حوالى ٦٦٠٠ مليون نسمة ، ثم يتكرر تردد التضاعف هذا فى فترات اقل فأقل اذا ما استمرت الزيادة على هذا المعدل بحيث يؤمل ان يصل سكان العالم الى حوالى ٢٥٠٠٠ مليون نسمة بعد مئة سنة من الآن ــ هذا اذا لم تحدث كوارث مبيدة تحد من هذا التكاثر (١) ، (انظر الشكل ١) .

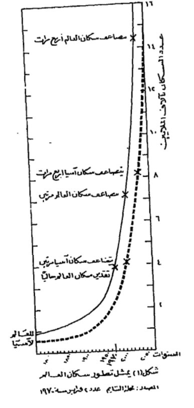
فهل اذن مع هذه الحقائق المفزعة عن تنامى سكان العالم سيتمكن هذا العالم من ان يحقق لسكانه غداً أفضل ينعم فيه افراده بحياة حرة من مخاوف الجوع ــ التى هى اشد المخاوف المنغصة للعيش والمودية به احيانا ــ وهل ستتمكن التقنية الحديثة من ان تحقق المعجزات التي تراود دائما وابداً افكار الموغلين في التفاؤل ، فتضفى نتائجها بذلك حلل الرفاه والخير العميم على سكان هذا الكوكب ؟ أم ان قدرة الانسان ستحددها فعلا القدرات الطبيعية المحدودة وبذلك يصدق حدس (المالثوسيين الجدد Neo-Malthusian) والذى يعبر عنه احد روادهم ــ الاستاذ ارلك Ehrlich بجامعة ستانفورد الامريكية ــ في قوله بان « النطاق الحياتى لهذا الكوكب Biosphere

---

(١) انظر صحيفة الـ Guardian اللندنية ، عدد ٢٠ فبراير ٧٠ ، كذلك مجلة Time « تايم » عدد ٢ فبراير ١٩٧٠ .

سوف لن يكون قادراً على اعالة هذه البلايين من السكان ، واذن فليس هنالـــك بد من حدوث المجاعات والاوبئـــة والحـــروب التى تعمل على تقليص سكان العالم . » (١)

ان الاجابة على هذه الاسئلة وامثالها ستشكل الهدف الاساسى الذى سيقصده هذا البحث ، حيث سيحاول اولاً تحليل الوضع الغذائى لسكان العالم كما هو عليه فى الوقت الحاضر ، ثم كمـا يحتمل ان يكون عليه غداً ، وبيان مدى قـــدرة مصادر هـــذا العالم على اكفـاء حاجات سكانه الغذائية المتنامية ، وبما ان هذه الحاجات الغذائية المتنامية لا يمكن ان نضع لها حدوداً منظورة اذ ما زال سكان العالم في تزايد متفجر وما زالت مطاليبهم فى توسع مع ارتفاع مستوياتهم المعيشية، اذن لا بد ان نضع نحن لبحثنا حداً نقف عنده لتحقيق مثل هذا التحليل . وسنتخذ من نهاية القرن الحالى ــ اى سنة ٢٠٠٠ ــ نهاية وحدا لذلك ، هذا الحد الذى يعتقد البعض بان مصادر العالم المتوفرة حاليا ستجابه من بعده الصعوبات فى سبيل توفير ما يفى بحاجات السكان الغذائية.



شكل(١) يمثل تطور سكان العالم
المصدر : مجلة التايم عدد ٢ فبراير سنة ١٩٧٠

وتحقيقا للقصد فان هذا البحث سيعمد الى اتخاذ مصادر الامم المتحدة ــ لا سيما منظمة الغذاء الدولية ــ معيناً مهماً لاقتباس المعلومات ،خاصة الاحصائية منها ، لغرض التحليل ، هذا على الرغم من نقص هذه المعلومات اساسا ، وذلك بسبب تعذر الحصول عليها من جزء كبير مـــن مناطق العالم المختلفة ، وعلى الرغم من نقص المصادر ذاتها محلياً ، ولكن مع ذلك فانه بحدود ما توفر من المعلومات من هذه المصادر ومن غيرها فان البحث سيحاول تحليلها للوقوف منها على صورة التغذية بوضعها الحالي وللتوصـــل الى بعض النتائج التى تمت بصلة الى مستقبلها .

ونظراً لأن البحث الحالى لم يصمم لأن يكون دراســـة شاملة لمشكلة متشعبة الأبعاد عميقـــة الجذور ، كمشكلة التغذية فى العالم ، فاننا سوف نلجأ الى التعميمات بدل الدخول فى التفاصيل الدقيقة ، لا سيما فيما يختص بتوزيع الظاهرات المتعلقة بالمشكلة ، ولأجل تحقيق ذلك فاننا سنلجأ الى تقسيم العالم الى اقاليم ومناطق جغرافية كبرى نعتقد ان الدول التى تضمها كل واحـــدة منها تشترك مع بعضها البعض فى بعض الخصائص التى تمت بصلـــة الى وضـــع التغذية وانتـــاج موادها ، كما ان مثل هذا التنظيم الاقليمى للعالم هو الذى تبنته معظم المصادر التى عالجت هذه المشكلة ، عالمية منها ام خاصة .

هذه المناطق المقترحة للبحث هى : امريكا الشمالية (وتضـــم كندا والولايات المتحـــدة) ، واوربا (عدا الاتحاد السوفيتى) ، والاتحـــاد الســـوفيتى (بقسميــــه الاوربى والآسيـــوى) ،

---

(١) انظر مجلة التايم الآنفة الذكر .

والاوقيانوس (ويشمل استراليا ونيوزيلندة) ـ وهذه جميعا زائداً اليابان تكون ما يسمى بدول العالم المتقدمة ، اما المجموعة الاخرى من المناطق فتشمل : الشرق الاقصى (عدا اليابان)، والشرق الاوسط (بما فى ذلك الجمهورية العربية المتحدة والسودان وليبيا) ، وافريقيا (عدا دول الشرق الأوسط منها) وامريكا اللاتينية (وتضم امريكا الوسطى وامريكا الجنوبية وجزر البحر الكاريبى) ـ وهذه جميعا تسمى بالمناطق النامية .

وضع التغذيه والغذاء فى العالم اليوم :

لا شك فى ان تقييم الوضع الغذائي الحالى او التخطيط لتحسينه للمستقبل ، سواء كان ذلك على المستوى الاقليمى او المستوى العالمى ، ليس بالامر الهين ، اذ أن ذلك (كما اوضحنا سلفا) يحتم توفر المعلومات اللازمة والكافية عن الانماط والمستويات والاتجاهات الواقعية لاستهلاك المواد الغذائية ، وهذا يتطلب وجود مصدرين هامين :

١ ـ ميزانيات الطعام Food-Balance Sheets والتى تجرد مجموع انتاج الاغذية المعدة للاستهلاك (معدلة بالنسبة لما يدخل التجارة منها) على ان تأخذ بعين الاعتبار ما يوفر من هذا الانتاج لأغراض الصناعة والعلف الحيوانى والبذار والضياع اثناء النقل والتخزين .

٢ ـ مسوحات الاستهلاك الغذائى (Food-consumption surveys) وهى التى توضح الانماط والمستويات الحقيقية للتغذية لمختلف جماعات المجتمع ، سواء كان ذلك بالنسبة لطبقاتهم او لأعمارهم او لأجناسهم او لأعمالهم(١) ولما كان من المتعذر الحصول على القدر الكبير والدقيق من مثل هذه المعلومات لكثير من مناطق العالم ، لا سيما النامية منها ـ وذلك بسبب بعض المشاكل المحلية من أمثال صعوبة النقل والاتصال، والجهل باهمية المسوحات الغذائية، وكيفية القيام بها ـ فقد أدى كل ذلك الى استنباط المعدلات الخاصة بمستويات التغذية بالاستناد الى دراسة بعض الحالات المحدودة والتى يرجى منها ان تكون ممثلة لمجموعات سكان القطر الواحد المختلفة ، رغم انها لا تعكس الصورة الصحيحة للوضع الغذائى فى الدولة .

ففى محاولة سابقة من قبل صاحب البحث لتقييم الوضع الغذائي لأقليم معين ، وجد أن معظم الدراسات المتيسرة قد تمت نسبة الى بعض الجماعات المقيمة بالقرب من المدن ، لا سيما العاصمة ، والتى لا شك فى انها جماعات لا يمكن أن تمثل الجماعات الريفية البعيدة ، وذلك بحكم اتصال الأولى بالحواضر ذات المستويات المعيشية العالية بالنسبة الى الارياف ، هذا مع العلم بان سكان الارياف والمدن الصغرى فى معظم الدول النامية يكونون النسبة الساحقة للسكان . ثم ان استنباط معدلات التغذية للدول النامية ذات المستويات المعيشية المتباينة لا يمكن ان يشير الى الواقع الفعلى لمستوى التغذية العام فيها . ذلك لان مثل هذه المعدلات تخفى بين طياتها الكثير من الوقائع العملية للوضع الحقيقى لتغذية الطبقات الفقيرة والضعيفة الدخول والتى تكون نسبة غير قليلة من السكان .

ومع كل ذلك فقد ساعدت مثل هذه الدراسات على اعداد ميزانيات طعام ومسوحات غذائية عامة لكثير من دول العالم، مكنت للمنظمات الدولية وغيرها الخروج منها بدراسات مفيدة

---

(١) انظر: W. Schulte, statistics of Food Consumption " Agricultural Planning Studies, No. 7, F.A.O., Rome, 1966

لتقييم الاوضاع الغذائية للعالم ومناطقه المختلفةوبصورة متتابعة ، وهى عملية لا تزال مستمرة فى طريق التطور .

★ ★ ★

من هذه الدراسات ومن غيرها من الاحصائيات المتوفرة ، تتوارد الادلة جميعا على ان الانتاج المطلق للمواد الغذائية فى العالم قد تزايد تزايداً ملحوظاً ، لا سيما خلال العقد الأخير من الزمن ، بحيث بلغ ٣٪ سنوياً للفترة الواقعة بين ١٩٥٧و ١٩٦٧ والجدول رقم ــ ١ ــ يرينا توزيع هذه الزيادات بحسب نسبتها المئوية لمختلف مناطق العالم الكبرى ، ومنه نستشف لاول وهلة بان نسب الزيادات كانت عموما اعلى فى مناطق الدول المتقدمة مما هى عليه فى مناطق الدول النامية :

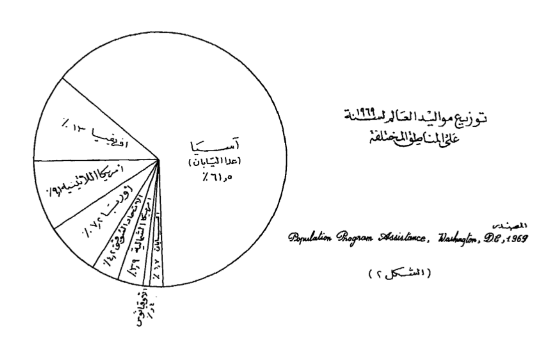
جدول ــ ١ ــ

نمو انتاج المواد الغذائية للعالم واقاليمه المختلفة :

المنطقة	النسبة المئوية لصافى زيادة الانتاج السنوى : ١٩٥٧ ــ ١٩٦٧
اوربا الغربية	٢ر٧
اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى	٣ر٧
امريكا الشمالية	٢ر٢
الاوقيانوس	٣ر٨
الاقطار المتقدمة الاخرى	٣ر١
المعدل العام للاقطار المتقدمة	٢ر٩
امريكا اللاتينية	٣
الشرق الاقصى (عدا الصين واليابان)	٢ر٦
الشرق الاوسط	٢ر٩
افريقيا (عدا جنوبها)	٢ر٢
المعدل العام للاقطار النامية	٢ر٧
المعدل العام للعالم	٢ر٨

المصدر : (F.A.O., The State of Food and Agriculture, 1969.

هذه الصورة لنمو الانتاج وان كانت تبدوعلى درجة جيدة من الاطراد ، ولكنها لا تبدو ايجابية جدا عند مقارنتها بنسب تزايد السكان فى العالم ، والتى تتصاعد جيلا بعد جيل بحيث بلغت خلال النصف الاول من عقد الستينات نسبة تقرب من ٢٪ ، وهى نسبة يتباين مداها بين حوالى ٣٪ لامريكا اللاتينية واقل من ١٪ لجميع القارة الاوربية ، وذلك كما يبدو لنا من الجدول التالى : (كذلك انظر الشكل ــ ٢ ــ)



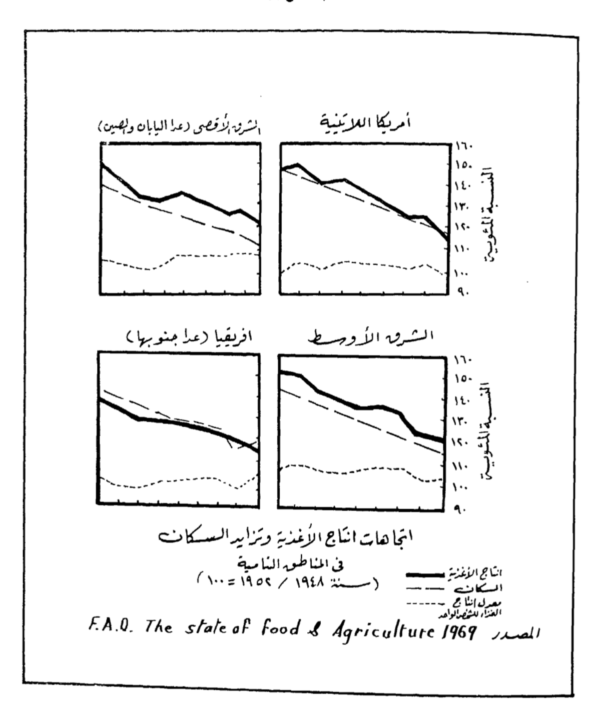
جدول ـ ٢ ـ

النسبة المئوية لزيادات السكان السنوية للفترة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٤ :

المنطقة	النسبة المئوية للزيادة
اوربا	٠ر٩
امريكا الشمالية	١ر٦
امريكا اللاتينية	٢ر٨
افريقيا	٢ر٤
الشرق الاقصى (عدا اليابان)	٢ر٥
الشرق الاوسط	٢ر٤
الاقيانوس	٢ر٢
المعدل العام للعالم	١ر٨

واذا قارنا مثل هذه الزيادة للسكان بنسبة زيادات انتاج المواد الغذائية لمناطق العالم المختلفة المبينة في الجدول ـ ١ ـ فانه سيظهر لنا آنيا مدى التخلف الذى يتسم به انتاج المواد الغذائية (بمعدل الشخص الواحد) في الدول النامية عماهو عليه في الدول المتقدمة ، وذلك كما يظهره الجدول ـ ٣ ـ والشكل ـ ٣ ـ والخريطة في الشكل ـ ٤ ـ .

(الشكل ٣)


أمريكا اللاتينية
الشرق الأقصى (عدا اليابان والصين)
الشرق الأوسط
افريقيا (عدا جنوبها)
١٦٠
١٥٠
١٤٠
١٣٠
١٢٠
١١٠
١٠٠
٩٠
النسبة المئوية
اتجاهات انتاج الأغذية وتزايد السكان
فى المناطق النامية
(سنة ١٩٤٨ / ١٩٥٢ = ١٠٠)
انتاج الأغذية
السكان
معدل انتاج الغذاء للشخص الواحد
F.A.O. The state of Food & Agriculture 1969 المصدر

جدول ــ ٣ ــ

معدل صافي النسبة المئوية لزيادة انتاج المواد الغذائية للشخص الواحد سنويا : للفترة ١٩٥٧ ــ ١٩٦٧ :

المناطق المتقدمة		المناطق النامية	
اوروبا الغربية	١ر٨	اميركا اللاتينية	١ر٠
اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي	٢ر٤	الشرق الاقصى (عدا الصين واليابان)	١ر٠
امريكا الشمالية	٠ر٦	الشرق الاوسط (عدا فلسطين)	٠ر٣
دول متقدمة اخرى	١ر٩	افريقيا (عدا جنوبها)	٠ر٣
الاوقيانوس	١ر٦		
معدل المناطق المتقدمة	١ر٦	معدل المناطق النامية	١ر٠
المعــدل العام للعالم	٠ر٨		

المصدر : (F.A.O., The State of Food and Agriculture, 1969.

يتبين لنا من مطالعة الجدول الانف الذكر والشكل (٣) والخريطة التي توضحهما بان تزايد انتاج المواد الغذائية ، لا سيما في الدول النامية ، لا يتكافأ مطلقا مع حاجات السكان فيها. فلو اخذنا بنظر الاعتبار حقيقة كون الفرد في هذه المناطق غالبا ما يعيش بمستوى غذائي واطىء ــ يعادل بمقياس السعرات الحرارية مالا يزيد على ٢١٠٠ سعرة يوميا ، بالمقارنة مع معدل ٣٠٠٠ سعرة او اكثر بالنسبة للفرد في الدول المتقدمة ــ فضلا على ما ذكرناه سابقا من ان مثل هذه المعدلات لا تمثل الصورة الحقيقة لوضع التغذية للنسبة العظمى من السكان ، اذن لتبين لنا النقص الكبير الذي تعانيه الدول النامية في انتاج المواد الغذائية نسبة الى الوفر الكبير الذي تحققه الدول المتقدمة ، وتتحدث لنا الاحصائيات الحديثة عن انتاج المواد الغذائية في الدول المتقدمة بان بعض هذه الدول قد اخذت تعاني من تكدس بعض المواد الغذائية بصورة مستمرة خلال عشر السنوات الماضية ، بحيث يؤمل أن تصل بالنسبة لبعض هذه المواد ــ مثل القمح ــ حداً يصعب معه تخزينها ، لذا فلا يجب ان نستغرب اذ نجد بلداً كالولايات المتحدة الامريكية مثلا ، ينتج من المواد الغذائية ما يعادل ١١٫٠٠٠ سعرة حرارية يوميا للفرد الواحد ، في الوقت الذي لا تزيد حاجة هذا الفرد على ٣٠٠٠ سعرة . وفيما يلي جدول يوضح لنا مدى التكدس الذي تحقق لبعض المواد الغذائية في بعض دول الانتاج الوفير خلال العقد الحالي من الزمن .(١)

جدول ــ ٤ ــ

مقادير التكــدس مــن بعض الحاصــلات الغذائية (بملايين الاطنان) :

	معــدل ١٩٦٠ ١٩٦٢	معــدل ١٩٦٣ ١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٧	التنبوء ل ١٩٦٩
١ ــ القمح :						
في الولايات المتحدة	٣٦ر٧	٢٦ر٤	١٤ر٦	١١ر٦	١٤ر٧	٢٢ر١
في كنــدا	١٤ر٥	١٣ر٢	١١ر٤	١٥ر٧	١٨ر١	٢٢ر٦
في الارجنتين	٠ر٧	٢	٠ر٢	٠ر٣	١	٠ر٧
في إستراليا	٠ر٩	٠ر٦	٠ر٦	٢ر٣	١ر٤	٧ر٥
في فرنسا	٢	٢ر٥	٢ر٥	١ر٧	٢ر٤	٢ر٧
المجموع	٥٤ر٨	٤٤ر٧	٢٩ر٤	٣١ر٦	٣٧ر٦	٥٥ر٦

(١) انظر : F.A.O., The State of Food and Agriculture — Rome 1969.

٢ ــ الحبوب الغليظة (من الذرة والشعير وغيرهما)

فى الولايات المتحدة	٧٠ر٢	٥٧	٣٨ر٦	٣٤ر٦	٤٤ر٢	٤٤ر٢
فى كنــدا	٤	٤ر٨	٥ر٤	٥ر١	٤ر٤	٦ر٢
فى الارجنتين	٠ر٤	٠ر٣	٠ر١	٠ر٦	١ر٨	١ر٨
فى استراليا	٠ر١	٠ر٣	٠ر٦	٠ر٩	٠ر٨	١
فى فرنسا	١ر٦	١ر٣	١ر٢	١ر١	١ر٦	١ر٤
المجموع	٧٦ر٣	٦٣ر٧	٤٥	٤١ر٩	٥٢ر٨	٥٤ر٨

٣ ــ الزبدة :

المجموع العالمي	٠ر٣٥	٠ر٣٣	٠ر٣٤	٠ر٤٥	٠ر٥٨	...

٤ ــ السكر :

المجموع العالمى	١٥ر١	١٣ر٢	١٨ر٦	١٨ر٧	١٨ر٧	١٧ر٤

استناداً الى هذه الحالة القائمة فى عـدم تكافؤ انتاج المواد الغذائية بالنسبة للفرد الواحد فى مختلف دول العالم ، ونظراً لان اكثر من ثلثي سكان العالم هم من سكان المناطق النامية ، وان هذه النسبة ستزداد مع تزايد السكان فى المستقبل(١) فان من المتوقع ان تنحصر مشكلة التغذية فى العالم ، وستبقى محصورة بهذه المناطق النامية . يؤيد ذلك ما توصل اليه المسح الغذائي العالمي الثالث الذى نشرته منظمة الغذاء الدولية سنة ١٩٦٣ من ان ٦٠٪ من سكان المناطق النامية تعاني اما من نقص التغذية او من سوئها ،واذا اضفنا الى ذلك الجماعات التي تعاني من مثل هذه المشاكل فى الدول المتقدمة (حيث قد اشارت الانباء مرة ان فى الولايات المتحدة وحدها يوجد حوالي ١٨ مليون نسمة من السكان ،او حوالي ٩٪ من المجموع يعانون من سوء التغذية) فانه يمكن القول بان ما يقرب من نصف سكان العالم يعانون اما من علائم المجاعة او من نقص التغذية (٢) . واذن فسيكون من قبيل تحصيل الحاصل ان يقتصر اى بحث عن مشكلة التغذية

---

(١) انظر : Sukhatme, Basu, and Schulte, Problem of Population and Resources with Reference to Land Use and Food Supply. (مقالة خاصة)

(٢) انظر : F.A.O., Third world food survey, Rome, 1963. P. 51.

فى العالم على المناطق النامية بالدرجة الاولى ،والتي تشير جميع الدلائل الى انها فى طريق التأزم بسبب التزايد الكبير الذى تشهده هذه المناطق في سكانها .

عوامل وملامح سوء التغذية :

ان سوء التغذية او نقصها عند سكان العالم، ولاسيما سكان المناطق النامية ، لا ينشأ فقط عن تخلف الانتاج النسبي للمواد الغذائية ونقص ما يتوفر منها للافراد ، وانما ايضا عن نوعية الغذاء وانماط التغذية ففي الوقت الذى نشاهد فيه المواطن فى دول العالم المتقدم يستمد غذاءه من مصادر متعددة ، نجد الفرد فى الدول النامية يستمد غذاءه من مصدر رئيسي واحد او من بضعة مصادر قليلة ،ففي الهند مثلا تكون الحبوب الغذائية اكثر من ٦٠٪ من مواد الغذاء للسكان ـ خاصة الريفيين منهم ـ بينما هي لا تزيد على ١٠٪ من وجبة الفرد الامريكي ، هـذا فضـلا على أن الاعتماد على الحبوب الغذائية والمواد النشـوية آخذ فى التناقص فى الدول المتقدمـة لحسـاب المصادر الغذائية الأخرى مثل الخضروات والفواكه والمنتجات الحيوانية ، وهذا ما يؤدى الى احلال التوازن بين عناصر التغذية المختلفة من السعرات الحرارية والبروتينات والفيتامينات المختلفة والتي تعتبر جميعا ضرورية لبناء جسم صحي وسليم للفرد ، وذلك على النقيض مـن الاقتصـار على مصادر محدودة فى التغذية ، التي وان كانت احيانا تحقق وفراً من السعرات الحراريـة ، الا انهـا تشكل نقصا فى العناصر الاخرى المذكورة اعلاه ،هذا النقص الذى يعزى اليه الكثير من الامراض التي تلازم الاطفال وتصيب البالغين فى الدول النامية امثال الكساح والبلاجرا وفقر الدم وغيرها، حيث يقدر بان العالم يفقد يوميا حوالي ١٠ر٠٠٠ نسـمة من السكان (معظمهم من الاطفال) بسبب الامراض التي ينشأ جزء لا يستهان به منها من سوء التغذية (١) . ففي مقارنة ثانية بين مكونات الغذاء للفرد الامريكي ومكوناته للفرد الهندى نجد بان مقدار البروتينات المتوفرة للفرد الامريكى تبلغ حوالي ٩٥ جراما يومياً ، ٦٤ منها (او حوالي ثلثيها) من البروتينات الحيوانية المهمة ، فى حين ان ما يتوفر للفرد الهندى لا يزيد كثيرا على معدل ٤٥ جراما يوميا ، عشرها فقط من البروتينات الحيوانية ، وفى الصين الوطنية التي تعتبر الآن احسن مستوى فى التغذية من كثير من الدول الآسيوية الشرقية الاخرى (عدا اليابان) ، نجد ان هذه الارقام هى ٦٨، ٢٤ على التوالى(٢) ولكنها على اى حال دون مستوى البروتينات المتوفـرة للفرد في الدول المتقدمة كما ونوعاً .

وفى الجدول التالي انتخبنا بعض الدول التي تمثل كلا من المناطق المتقدمة والمناطق الناميـة على التوالي ومـن مختلف قارات العـالم وذلك لتوضيح مدى التباين الذى تتكون منه مصادر الغذاء المتوفر للفرد الواحد يوميا وبين فترتين من الزمن : فترة سابقة وفترة حالية(٣) ، والتي من المقارنة بينهما يمكن الاطلاع بسهولة على مـدى ونوع التطور الذى تتسم به التغذية فى مناطق العالم المختلفة .

---

(١) من رسالة خاصة للرئيس نيكسون الى مجلس الكونجرس الامريكي فى تموز ١٩٦٩ .

(٢) انظر المصدر السابق الذكر : The State of Food and Agriculture, P. 149.

(٣) نفس المصدر

جدول ــ ٥ ــ

معدل ما يصيب الفرد الواحد مـن بعض المواد الغذائية المعدة للاستهلاك :

(غرام/يوميا)

الدول	الفتــرة	حبوب غذائية	بطاطس ونشويات	سكريات	خضروات	فواكه	لحوم	حليب
أ ــ المتقدمة								
١ ــ انجلترا	١٩٣٤ ــ ١٩٣٨	٢٦١	٢٢٦	١٢٢	١٤٩	١٤٤	١٨٤	٤٠١
	١٩٦٧ ــ ١٩٦٨	٢٠٠	٢٨٣	١٣٥	١٧٣	١٣٩	٢٠٤	٦٠٠
١ ــ ايطاليا	١٩٣٤ ــ ١٩٣٨	٤٤٠	١٠٠	٢٢	١٥٣	٨٧	٥٥	٢١٦
	١٩٦٦ ــ ١٩٦٧	٣٦٠	١٢٠	٧٢	٤٣٠	٣٢١	١٠٦	٤١٨
١ ــ المجر	١٩٦٠ ــ ١٩٦٢	٣٧٢	٢٦٢	٧٥	٢٢٠	١٦٧	١٣٣	٢٩٥
	١٩٦٧	٣٦٨	٢٣٢	٨٨	٢٢٣	١٩٣	١٤١	٢٨٨
٤ ــ الولايات المتحدة	١٩٣٥ ــ ١٩٣٩	٢٥٣	١٨٢	١٣٥	٢٩٠	٢٧١	١٩٧	٥٦٤
	١٩٦٧	١٧٧	١٣٣	١٣٣	٢٦٩	٢٣٩	٢٩٥	٦٦٥
٥ ــ اليابان	١٩٣٤ ــ ٣٨	٤٣٢	١٢٧	٣٩	١٩٣	٤٢	٨	٩
	١٩٦٧	٣٨٠	١٨٨	٥٧	٣٦٢	١٢١	٣٧	١١٨
٦ ــ استراليا	١٩٣٥ ــ ٣٩	٢٩١	١٨٠	٧٤	٦٧	١٢٩	٢٩٢	٤١٩
	١٩٦٦	٢٦٨	٢٠٢	٩٠	١٢٤	٢٢٩	٣٠٩	٣٣٩
ب ــ الدول النامية								
١ ــ الهند	١٩٣٤ ــ ٣٨	٣٧٧	٢١	٣٦	٦٨	٧٢	٨	١٧٧
	١٩٦٥ ــ ٦٦	٣٤٦	٣٩	٥٠	؟	٤٤	٤	١١٠
٢ ــ الجمهورية العربية المتحدة	١٩٤٨ ــ ٥٠	٤٧٤	٢٩	٣٩	١٢٥	١٣٨	٢٨	١٦٣
	١٩٦٥ ــ ٦٦	٥٥١	٣٨	٤٩	٢٤٢	٢٣٠	٣٦	١٢٢
٣ ــ تركيا	١٩٣٤ ــ ١٩٣٨	٥٢٠	١٦	٢٠	٨٧	١٥٦	٤١	٢١١
	١٩٦٠ ــ ١٩٦١	٦١١	١٠٥	٥١	٢٨٨	٣٤٠	٣٧	٢٢١
٤ ــ جابون	١٩٦٠ ــ ١٩٦٢	٤٤	١١٣٩	٨	١٠٨	١٤	٨٢	١٦
	١٩٦٣ ــ ١٩٦٥	٥٦	١١٠١	١١	١٠٥	١٣	٧٣	٢٧
٥ ــ المكسيك	١٩٥٤ ــ ١٩٥٦	٣٤٦	٤٥	٨٨	٥٣	١٣٦	٥٤	١٩٠
	١٩٦٥ ــ ١٩٦٦	٣٥٦	٢٤	١٠٩	٦٧	١٨٧	٥٣	٥٦
٦ ــ فنزويلا	١٩٥٢/١٩٥٣	٢٢٣	٢٣٨	٨٨	٢٧	١٠٨	٥١	٢٠٠
	١٩٦٦	٢٥٤	٣٣٥	١٠٦	٤١	٢٩٥	٨٠	٢٠٢

وكنتيجة لهذا التباين فى مصادر الغذاء عندمختلف شعوب العالم ، لا بد ان تكون ميزانية الغذاء من السعرات الحرارية والبروتينات التييستمدها الفرد من غذائه متباينة ايضا ، يبدو لنا ذلك واضحا من استنباط مثل هذه الميزانيةللدول التي ورد ذكرها فى الجدول ــ ٥ ــ والتي يظهرها لنا الجدول التالي :

جدول ـ ٦ ـ

تقرير السعرات الحرارية والبروتينات التي تصيب الفرد الواحد من معدل مواد الغذاء الاستهلاكية :

الدول	الفترة	السعرات	مجموع البروتينات الحرارية	الحيوانية منها
ا ـ المتقدمة				
١ ـ انجلترا	قبل الحرب	٣١١٠	٨٠ر٢	٤٣ر٩
	٦٨/١٩٦٧	٣١٥٠	٨٧ر٥	٥٣ر٨
٢ ـ ايطاليا	قبل الحرب	٢٥١٠	٧٦ر٦	٢٠ر٣
	٦٧/١٩٦٦	٢٨٦٠	٨٥ر٤	٣٥ر٥
٣ ـ المجر	٦٢/١٩٦٠	٣٠٣٠	٩١ر٧	٣٧ر٢
	١٩٦٧	٣١٤٠	٩٦ر٤	٣٩ر٤
٤ ـ الولايات المتحدة الامريكية	قبل الحرب	٣٢٨٠	٨٦ر٣	٥١ر٧
	٦٨/١٩٦٧	٣٢٠٠	٩٥ر٦	٦٨ر٦
٥ ـ اليابان	قبل الحرب	٢٠٢٠	٥٩ر٧	٧ر٧
	١٩٦٧	٢٤٦٠	٧٤ر٧	٢٨ر٢
ب ـ الدول النامية : ـ				
١ ـ الهند	قبل الحرب	١٩٥٠	٥٢ر٢	٨ر٢
	١٩٦٦	١٨١٠	٤٥ر٤	٥ر٤
٢ ـ الجمهورية العربية المتحدة	٥٠/١٩٤٨	٢٣٦٠	٦٩ر٣	١٢ر١
	١٩٦٦	٢٨١٠	٨٠ر٨	١١ر٨
٣ ـ تركيا		٢٤٩٠	٨١	١٥ر٩
	٦٢/١٩٦٠	٣١١٠	٩٧ر٥	١٥ر٩
٤ ـ جابون	٦٣/١٩٦١	١٩١٠	٣٥ر٩	١٥ر٧
٥ ـ المكسيك	٦٢/١٩٦١	٢٥٠٠	٦٥	١٥ر٥
	١٩٦٦	٢٥٥٠	٦٥ر٧	١٥ر٢
٦ ـ فنزويلا	٦٢/١٩٦١	٢٣٠٠	٥٨ر٧	٢٣
	١٩٦٦	٢٤٩٠	٦٥ر٩	٢٦ر٤

المصدر : The State of Food and Agriculture, 1969.

واذا ما اعتمدنا ميزانيات الغذاء التي اعدتها منظمة الغذاء والزراعة الدولية لـ ٨٤ دولة خلال فترة النصف الاول من عقد الستينات اساسا لتقييم الوضع الغذائي في العالم ، وقارناها بمعدل حاجات الفرد الواحد من الغذاء بمقياس السعرات الحرارية ، كما توصلت اليها دراسات المنظمة ذاتها نسبة الى الاعمار والظروف المناخية العامة التي تميز المنطقة (١) ، وبمقياس البروتينات كما اقترحت نسبها لجنة الطعام والتغذية لمجلس البحث القومي الامريكي (٢) National Research Council فاننا سنتمكن من تمييز عدد من المستويات الغذائية كما يعيشها عالمنا اليوم، والتي

ملاحظة : تعتبر البروتينات ـ خاصة من المصادر الحيوانية ـ ذات اهمية شديدة في بناء الجسم ، اذا انها تكون نصف جسم الانسان بعد استنزاف المياه منه .

(١) انظر : F.A.O., Calorie Requirements, Nutritional studies No. 15, Rome 1958

(٢) انظر : U.S. Department of Agriculture, Food, (the year book of Agriculture, 1959 p. 61)

بعد تدقيقها وجدنا ان من الممكن ان تنتظم في خمس مجموعات رئيسية تتوزع جغرافيا فى مناطق العالم المختلفة بالصورة التى تظهرها لنا الخارطة فى الشكل ــ ٥ ــ وهذه هي : ــ

١ ــ مناطق الفيض الغذائي : وهي المناطق التي يزيد معدل ما يصيب الفرد الواحد فيها من السعرات الحرارية على ٣٠٠٠ وحدة يوميا ويزيد معدل البروتينات التي يتناولها على ٨٠ جراماً يوميا والتي اكثر من نصفها من مصادر حيوانية ، وتشمل هذه امريكا الشمالية واوربا الغربية والوسطى والاوقيانوس .

٢ ــ مناطق عالية التغذية : وهي التي يتراوح معدل نصيب الواحد من السعرات الحرارية فيها بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ وحدة يوميا ، ومعدل البروتينات بين ٦٠ و ٨٠ جراماً ، اكثر من ربعها من مصدر حيواني ، وتشمل الاتحاد السوفيتي والدول الاسكندنافية وشرق اوربا ودول البحر المتوسط الاوربية وتركيا والمكسيك والبرازيل والارجنتين واورجواى وباراجواي وافريقيا الجنوبية واليابان .

٣ ــ مناطق معتدلة التغذية : ويتراوح معدل استهلاك السعرات الحرارية فيها بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ وحدة للفرد الواحد يوميا ، ومعدل البروتينات بين ٥٠ و ٦٠ جراماً يوميا ، اقل من ربعهما من مصدر حيواني ، وتشمل الصين ودول الشرق الاوسط (عدا الجزيرة العربية) ، وافريقيا (عدا أواسطها وشرقها) ودول غرب امريكا الجنوبية .

٤ ــ مناطق ضعيفة التغذية : ويبلغ معدل استهلاك السعرات الحرارية للفرد الواحد كما فى المنطقة الثالثة ، الا ان معدل البروتينات التي تصيب الفرد الواحد يقل عن ٥٠ جراماً يوميا واقل من ربعها من مصدر حيواني ، وتشمل هذه بقية دول الشرق الاقصى واواسط افريقيا وموزمبيق وملاجاسي وكولومبيا في أمريكا الجنوبية .

٥ ــ مناطق رديئة التغذية : ويقل معدل استهلاك السعرات الحرارية فيها عن ٢٠٠٠ وحدة يوميا للفرد والواحد والبروتينات عن ٥٠ جراما يومياً ، حوالي عشرها من مصادر حيوانية ، وتشمل الجزيرة العربية (عدا بعض مناطق الخليج العربي الصغيرة) والصومال والفيلبين وجزائر جنوب شرقي آسيا وبوليفيا واكوادور ومقاطعات غيانا .



ولدى تدقيقنا الخارطة فى الشكل ــ ٥ ــ والجدولين ٥ و٦ فاننا نتمكن من استخلاص بعض النتائج العامة لاوضاع التغذية فى العالم اليوم :

١ ــ ان دول العالم التي تعاني من انخفاض مستويات التغذية هي تلك التي تقع ضمن المناطق المدارية وشبه المدارية من جميع قارات العالم (عدا البرازيل) ، وهذه هي التي تسمى بدول المناطق النامية ، ولما كانت هذه المناطق تضم حوالي ثلثي سكان العالم ، فان ذلك يؤيد ما ذهبنا اليه آنفا من ان غالبية سكان العالم تعاني من مشاكل سوء التغذية اليوم .

ومع ذلك فان تصنيف هذه الدول الى مثل هذه المستويات لا يمثل الا معدلات عامة للاستهلاك الغذائي والذى ــ كما قلنا ــ يخفي بين طياته العديد من الحالات التي هي ادنى جداً من المستوى الذى تنضوى تحته وحتى فى مناطق التغذية الجيدة ، كالبرازيل ، هناك مناطق ، مثل

منطقة (السرتاو) في شمال شرق البرازيل التي تعتبر من بين المناطق المتكررة النكبات الغذائية بسبب تقلب الاحوال المناخية فيها ، فلا شك اذن ان توجد اجزاء في مناطق التغذية الضعيفة هي اسوأ جدا مما تظهر به على الخارطة بحيث قد تصل الى مستوى المجاعات الكاسحة .

٢ ـ ان مصادر التغذية عند الشعوب النامية ، كما سبق وذكرنا لا تزال ترتكز بالدرجة الأولى على الحاصلات الزراعية من الحبوب والنشويات ، لا بل قد تزايد الاعتماد عليها عبر السنين القليلة الماضية حتى الوقت الحاضر ، بينما لا تزال المصادر الحيوانية تحتل مركزا ثانويا جدا في تغذيتها بل ربما شهد مركزها شيئا من التقلص بين بقية مصادر الغذاء .

٣ ـ يحدونا الحدس الى القول انه فضلا على عدم التوازن المنظور بين مصادر الغذاء وعناصره المختلفة في الدول النامية ، فان مثل هذه الحالة قد تزداد اختلالا عبر السنة وبتغير الفصول ، وذلك كنتيجة طبيعية لوفرة مواد الغذاء بعد موسم الحصاد وشحته قبل ذلك ، ومما يزيد اعتقادنا في ذلك هو ضعف وسائل التخزين والحفظ للمواد الغذائية مما لا يمكن معه تحقيق توازن توزيعها عبر السنة ، ومما يؤيد مثل هذه الظاهرة ايضا وقائع المجاعة التي تجتاح الكثير من الدول النامية بين آن وآخر عند تخلف الحاصلات او فشلها لسبب من الاسباب .

٤ ـ اما بالنسبة للشعوب المتقدمة ، فان غذاء افرادها يتسم بالتوازن بين عناصره المختلفة ومصادره النباتية والحيوانية وان المصادر الحيوانية تزداد وزناً في تكوين وجبة الطعام اليومية .

٥ ـ ان الشعوب التي حققت قدرا كبيرا من التقدم واصبحت في عداد الشعوب الجيدة التغذية ، مثل دول البحر المتوسط الاوربية ، والتي تمثلها ايطاليا في الجدول ، ودول البلقان ، والتي تمثلها المجر وكذلك اليابان قد حققت تطورا كبيراً ايضا في نمط تغذيتها في الآونة الاخيرة ، حيث زادت من استهلاك المنتجات الحيوانية والخضروات والفواكه ، فحققت بذلك قدرا جيداً من التوازن بين عناصر الغذاء المختلفة .

مستقبل الكفاية الغذائية

اذا كان هذا هو الوضع الغذائي لثلثي سكان العالم اليوم ، فكيف اذن سيكون الغد عندما سيتضاعف سكان العالم بصورة متزايدة وخلال فترات متقاربة من الزمن ؟ وعندما ستكون معظم الزيادات من نصيب المناطق النامية السيئة التغذية ؟؟ ثم لو اننا سلمنا بامكانيات العالم على مواجهة حاجات السكان الغذائية المتنامية : فالى اى حد ستتوفر مثل هذه الأمكانيات ؟ وما هو المستوى الغذائي الذى نريد توفيره لسكان المستقبل ؟ أهو المستوى السائد ، والذى هو لمعظم سكان العالم دون مستوى الكفاية بحيث لا يتناسب مع القدرة الانتاجية المطلوب أداؤها من قبل افراد مجتمع منتج ومتطور ؟ أم هو مستوى الكفاية الذى تفرضه التوصيات الصحية بابسط معدلاتها ؟

لقد سبق ان اوضحنا في مقدمة البحث ان الرأى السائد في الوقت الحاضر هو ان مصادر الغذاء الحالية في العالم ستعجز عن تلبية حاجات السكان من الطعام بعد نهاية القرن الحالي ، عندما يزيد سكان العالم على ٦٦٠٠ مليون نسمة ، ولكن الى جانب ذلك هناك آراء اخرى تشير الى ان في العالم من الامكانيات ما تيسر طعاما لاضعاف هذا العدد من السكان ، فيقدر الاستاذ كولن كلارك C. Clark

بان العالم يتمكن من اعالـة ٤٧٠٠٠ مليون نسمةوبالمستويات الجيدة السائدة فى امريكا الشمالية و ١٥٧٠٠٠ مليون نسمة بمستويات التغذية فىاليابان (١) ، وهذه اعداد يمكن ان يصل اليها سكان العالم خلال ١٢٥ و ١٨٥ سنة على التوالى باعتباران معدل الزيادة السنوية سيستمر بمقدار ٢٪ (٢).

ومع ذلك فان مثل هذه الاعداد الضخمة من السكان ومثل هذه الفترات الزمنية لبلوغها يمكن ان تمثل الحدود القصوى للاعالة على سطح هذا الكوكب ؛ والتي لو توفرت جميع الظروف المؤاتية لها فان العالم سيبلغها يوما ما : ولكن يلى ذلك السؤال وهو : ماذا بعد ذلك ؟؟

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان مثل هذه الاحتمالات القصوى لاعالة السكان يرتكـز تحقيقها على امكانية تطوير القدرات « الحديثة » لمصادر الغذاء فى العالم بالاعتماد على قدرة التقنية الحديثة ، وهى عملية ، كما سنرى فيما بعـد ، محفوفة بالكثير من الشكوك والسلبيات ، لـذا فاننا نرى تأكيد ما ذهبنا اليه فى مقدمة البحث من اننا سنتناول بحث مستقبل التغذية فى العالم بما لذلك من علاقة بالمصادر المؤكدة التى قلنا انها ستبلغ طاقة اعالتها القصوى في نهاية القـرن الحالى .

* * *

لا شك فى ان بيان مستقبل الكفاية الغذائية كدراسة ترتبط بمشكلة الجوع وسوء التغذيـة لا بد ان يتم بتحليل جميع العوامل المرتبطة بهذه المشكلة دون الاقتصار على بعضها ، نقول هـذا بسبب ما يحـدونا من الاعتقاد بان الكثير من تقديرات الاعالة لسكان هذا الكوكب غالبا ما تستند على العامل المادى لقابلية الارض الانتاجية فى حين ان هناك عوامل اخرى متعددة الجوانب وذات صـفة داينميكية متغيرة ترتبط بكـلا الكيانين :الطبيعى والبشرى ، والذى يعطينا تحليلها على مستوى ترابطها مع بعضها البعض الجواب على امكانية معالجة مشكلة الجوع وسـوء التغذية ، وبالتالي تقييم مستقبل التغذية من الوجهة العملية .

فمثلا : ما قيمة انتاج مواد وفيرة لا يتمكن السكان من الحصول عليها بسبب ضعف قوتهم الشرائية ، او انهم لا يرغبون في استهلاكها بسبب عدم تذوقهم لها ؟؟ ولقد وجدنا سابقا مثلا حيا على ذلك من تكدس بعض الاغذية فى بعض الدول ، بينما كانت شعوب اخرى تعانى نقص الغذاء ؟

ثم حتى لو افترضنا ارتفاع القوة الشرائية للمستهلك ، ولكن ما اهمية ذلك فى رفع مستوى التغذية لديه ان لم يعمل على تنويع وجبة طعامه بالشكل الصحيح ؟؟ وهكذا فان هناك العديد من الامور التى يمكن ايرادها فى هذا الصدد .

اننا لذلك نرى بان دراسة مستقبل التغذية فى العالم ــ او فى اى جزء من اجزائه ــ يجب ان تتناول بحث المواضيع التالية :

١ ــ تقييم الحاجات الغذائية للسكان على ضوء تزايدهم خلال الفترة المعينة من الزمن .

---

(١) انظـر : Colin Clark, population Growth and Land use. MacMillan, N. Y., 1967 Chapt. IV.

(٢) انظـر : Abercrombie, population Growth and Agricultural Development, monthly Bulletin of Agricultural Economics and statistics, Vol. 18, No. 4, 1969)

٢ – تقييم مصادر الارض الانتاجية على ضوء حاجات السكان المتنامية من الغذاء وبمستوى توزيعها الاقليمي .

٣ – تقييم اثر التقنية الحديثة فى زيادة وتنويع انتاج المواد الغذائية من مصادرها .

٤ – تحليل العلاقات الاقتصادية – الاجتماعية المرتبطة بانتاج واستهلاك المواد الغذائية .

١ – تقييم الحاجات الغذائية :

فى تقييمنا لحاجات السكان الغذائية على ضوء تزايدهم حتى نهاية هذا القرن ، سنتخذ من المقاييس المقترحه صحيا من قبل منظمة الغذاء الدولية(١) اساسا للبحث ، علما بأن مثل هذه المقاييس لا تمثل ألا الحدود الصفرى التى تكفل للكائن البشرى وجودا مثمرا ومنتجا ضمن منطقته الجغرافية ، وذلك لأن مقاييس التغذية الحالية لا سيما فى المناطق النامية ، لا يمكن ان تشكل مثل هذا الأساس الصحيح لاحتساب التقييم الغذائي ، كما انها لا تتناسب مع عالم الغد الذى يرنو فيه الجميع الى حياة افضل .

لقد اوضحنا فى مقدمة البحث ان عدد سكان العالم سيصل الى حوالى ٦٦٠٠ مليون نسمة فى نهاية القرن الحالى ، موزعا على مناطق العالم الكبرى بالشكل الذى يوضحه الجدول التالى :

جدول – ٧ –

توزيع سكان العالم على مناطقه المختلفة خلال فترتين (بالملايين)

المنطقة	سنة ١٩٦٥	٪ لمجموع العالم	سنة ٢٠٠٠	٪ لمجموع العالم	الرقم القياسى للزيادة ١٩٥٦ = ١٠٠
الشرق الاقصى (عدا اليابان)	١٦٩٣	٥٠	٣٥٠٠	٥٣	٢٠٤
الشرق الاوسط	١٤٩	٤ر٤	٣٥٥	٤ر٥	٢٣٩
أمريكا اللاتينية	٢٤٦	٣ر٧	٦٥٠ر	١٠	٢٦١
أفريقيا	٢٦٧	٨	٦٧٠	٢ر١٠	٢٥٠
مجموع المناطق النامية	٢٣٦٠	٧ر٦٩	٥١٧٥	٦ر٧٨	٢١٩
اوروبا (ضمنها الاتحاد السوفيتى)	٦٧٥	٢٠	٨٨٥	٤ر١٣	١٣١
امريكا الشمالية	٢١٤	٨ر٦	٣٥٦	٤ر٥	١٦٦
الاوقيانوس	١٧	٥ر٠	٣٣	٥ر٠	١٩٤
اليابان	٩٨	٣	١٢٥	٢	١٣٩
مجموع المناطق المتطورة	١٠٠٠	٣ر٣٠	١٤٠٠	٣ر٢١	١٣٩
المجموع العالمى	٣٣٦٠	١٠٠	٦٦٠٠ (تقريبا)	١٠٠	١٩٥

انظر : F.A.O., Calorie Requirements السابق الذكر

يتضح لنا من هذا الجدول ان معظم زيادات السكان فى نهاية القرن ستصيب المناطق النامية ، اذ سيتضاعف سكانها – نسبة الى احصاء سنة ١٩٦٥ التى اتخذت سنة قياسية فى الجدول – ما بين مرتين ومرتين ونصف (عدا الصين التى اتخذت نسبة الزيادة فيها اخيراً بالتناقص بسبب شعورها بوطأة الازدحام) وهذه الزيادات هى اعلى من نسبة الزيادة الكلية لسكان العالم والتى ستبلغ أقل من الضعف ، وهى حتما اعلى جدا من نسبة تزايد السكان للدول المتقدمة والتى ستقرب من ٤٠٪ فقط من مجموع سنة ١٩٦٥ (اى ان نسبة زيادة السكان للدول النامية ستبلغ حوالى ثلاث مرات نسبة زيادتهم للدول المتقدمة).

كل ذلك يعني أن سكان المناطق النامية الذين كانوا يكونون حوالى ٧٠٪ من مجموع سكان العالم ، سيكونون فى نهاية القرن ٨٠٪ من هذا المجموع ، وسيترتب على ذلك بعض النتائج الآنية والتي ابرزها اشتداد الطلب على المواد الغذائية وحتى لو افترضنا بقاء مستوياتهم الغذائية الحالية دون تغيير ، بما يزيد على مرتين فكيف اذن فى حالة ارتفاع مستويات التغذية كماً ونوعاً ؟ هذا فى الوقت الذى ستخلو فيه المناطق المتقدمة من مثل هذه المشاكل ، كما تخلو منها الآن ، كنتيجة لقلة نمو سكانها ولجودة الانتاج فيها .

هنا نجد التبرير الكافى للقلق الذى يساور المعنيين بشؤون التغذية فى العالم ، من ان مشكلة مستقبلها ستنصب بالدرجة الاولى على المناطق النامية ، ومن الممكن تصور هذه المشكلة بشكل اوضح لو عاودنا النظر فى الجدول – ٣ – والخريطة فى الشكل – ٣ – ، والتى ظهر فيها ان معدل صافى زيادة انتاج المواد الغذائية للشخص الواحد فى المناطق النامية كان ١ر٠٪ سنويا للفترة الواقعة بين ١٩٥٧ و ١٩٦٧ بينما للمناطق المتقدمة كان المعدل ٦ر١٪ سنويا ، ومن الواضح ان هذا التخلف فى معدل انتاج المواد الغذائية للمناطق النامية لم يكن ليعزى الى التخلف فى مجموع الانتاج الكلى منها ، وانما الى تزايد السكان بشكل سريع وبنسبة تفوق احياناً نسبة زيادة الانتاج (كما حدث ذلك مثلاً فى القارة الأفريقية) .

واذا كان لمنطقة ما ، أو لدولة معينة فى هذه المجموعة من امكانية على حفظ مستويات غذائية معينة رغم تفاقم معدل الانتاج للشخص الواحد ، فانما يعود ذلك اما الى المساعدات الخارجية التى تتوارد على الدولة فى اوقات الازمات او الى عملية استيراد الاغذية من الخارج : وهى جميعا عمليات محفوفة بالكثير من المخاطر والمشاكل ان لم ترتكز على سياسة ثابتة ومستقرة للدولة، وذلك لان عدم استقرار مستويات التغذية فى اية امة من الامم يعتبر من اكبر دواعى القلق الاجتماعى فيها .

ان وجود النسبة العظمى من سكان العالم يعيشون بمستوى الكفاية « الحدية » للتغذية او دونها ، هى حالة تحمل بحد ذاتها الكثير من دواعى الخطر ، فغالبا ما تكون المجاعة حالة استمرارية لظاهرة سوء التغذية ذلك لان الانسان الناقص التغذية لا يتيسر له اكتناز اى فائض من الشحوم او عناصر الغذاء الاخرى فى جسمه ، لذا تراه يهوى امام اول علامة من علامات شحة الغذاء باسرع وباشد مما يتعرض له الانسان الكامل التغذية الذى له قدرة افضل على المقاومة(١) .

---

(١) انظر : Masefield, Food and Nutition Procedure in Times of Disaster, "F.A.O. Nutritional Studies, No. 21, 1967" P.3

من هذا المنطلق لا بد ان نخطط لمستويات غذائية افضل لسكان عالم الغد ، تزداد فيها حصة الفرد من الطعام كماً وتتعدد نوعاً ، ولقدعملت مصادر منظمة الغذاءالدولية F.A.O على وضع مثل هذه الخطة التى تستهدف رفع المستوى الاستهلاكى للمواد الغذائية لشعوب الدول النامية فى مناطقهم المختلفة ودعت العالم الى التعاون على تطبيقها بمرحلتين : الأولى قصيرة الأمد تحقق ادنى مستويات مطلوبة للتغذية ، وتسمى بمرحلة(عقد الانماء لمنظمة الامم المتحدة : U.N. Development Decade) والثانية طويلة تستكمل بموجبها مستويات غذائية أحسن وذلك عند نهاية القرن الحالي حيث يكون افراد المجتمعات النامية قد وصلوا الى مرحلة جيد من المستوى الصحي والبناء الجسماني ، وتوصي هذه الخطة بشكلها النهائي بان تتوفر المواد الغذائية بالكميات والنوعيات المذكورة فى الجداول التالية لمختلف المناطق النامية وذلك كي يتحقق مستوى غذائي يتراوح بمقياس السعرات الحرارية بين ٢٤٠٠ و ٢٦٠٠ سعرة يوميا للفرد الواحد .

جدول – ٨ –

مقادير المواد الغذائية المتوفرة حاليا والواجب توفرها للمستقبل (بالنسبة لمنطقة الشرق الاقصى)

المادة الغذائية	المتوفر منها حاليا (جرام / يوميا)	المطلوب للمستقبل (جرام / يوميا)	نسبة المطلوب الى المتوفر ٪
الحبوب الغذائية	٤٠٠	٣٦١	٩٠
الدرنيات النشوية	١٦٦	١٤٤	٨٧
السكر	٢٤	٣٥	١٤٦
البقول والمكسرات	٥٠	٨٠	١٦٠
الخضروات والفواكه	١٤٤	٣١٥	٢١٩
اللحوم	٢٤	٦٦	٢٧٥
البيض	٣	٨	٢٦٧
الاسماك	١٢	٣٠	٢٥٠
الحليب	٥٤	١٤٠	٢٥٩
الشحوم والدهون	٩	٢٤	٢٦٧
مجموع السعرات الحرارية	٢٠٦٠	٢٤٠٠	
مجموع البروتينات	٥٦	٧٤	
الحيوانية منها	٧٫٥	٢٠	

جدول ـ ٩ ـ

مقادير المواد الغذائية المتوفرة حالياً والواجب توفرها للمستقبل
(بالنسبة لمنطقة الشرق الاوسط)

المادة الغذائية	المتوفر منها حاليا (جرام/يوميا)	المطلوب للمستقبل (جرام / يوميا)	نسبة المطلوب الى المتوفر ٪
الحبوب الغذائية	٤٤٦	٣٧٤	٨٤
الدرنيات النشوية	٤٤	٤٤	١٠٠
السكر	٣٧	٥٠	١٣٥
البقول والمكسرات	٤٧	٤٧	١٠٠
فواكه وخضروات	٣٩٧	٣٩٧	١٠٠
اللحوم	٣٥	٠٦٨	١٩٤
البيض	٠٥	٠٢٥	٥٠٠
السمك	٠٦	١٥	٢٥٠
الحليب	٢١٤	٣٠٧	١٤٣
شحوم ودهون	٠٢٠	٣٠	١٥٠
مجموع السعرات الحرارية	٢٤٧٠	٢٥٠٠	
مجموع البروتينات	٧٦	٧٩	
الحيوانية منها	١٤	٢٥	

جدول ـ ١٠ ـ

(بالنسبة لافريقيا)

المادة الغذائية	المتوفر منها حاليا (جرام/يوميا)	المطلوب للمستقبل (جرام / يوميا)	نسبة المطلوب الى المتوفر ٪
الحبوب الغذائية	٣٣٠	٣٤٠	١٠٣
الدرنيات النشوية	٤٧٣	٢٢٤	٠٤٧
السكر	٠٢٩	٣١	١٠٧
البقول والمكسرات	٠٣٧	٤٤	١١٩
خضروات وفواكه	٢١٥	٣١٧	١٤٧
اللحوم	٠٤٠	٧٤	١٨٥
البيض	٠٤	١٥	٣٧٤
السمك	٨	٣٥	٤٣٨
الحليب	٩٦	٢٠٣	٢١١
شحوم ودهون	١٩	٢٥	١٣٢
مجموع السعرات الحرارية	٢٣٦٠	٢٥٠٠	
مجموع البروتينات	٦١	٧٥	
الحيوانية منها	١١	٢٥	

جدول ـ ١١ ـ

(بالنسبة لامريكا اللاتينية / عدا الارجنتين وارجواى وبارجواي)

المادة الغذائية	المتوفر منها حاليا (جرام / يوميا)	المطلوب للمستقبل (جرام / يوميا)	نسبة المطلوب الى المتوفر ٪
الحبوب الغذائية	٢٨٢	٣١٥	١١٢
الدرنيات النشوية	٢٢٥	١٦٩	٧٥
السكر	٨٩	٧٤	٨٣
بقول ومكسرات	٥٣	٥٣	١٠٠
خضروات وفواكه	٣٥٥	٣٥٥	١٠٠
اللحوم	٧٢	٨٥	١١٨
البيض	١١	١٦	١٤٥
السمك	٨	١٦	٢٠٠
الحليب	٢٠١	٢٥٠	١٢٤
شحوم ودهون	٢٢	٢٥	١١٤
مجموع السعرات الحرارية	٢٤٣٠	٢٥٥٠	
مجموع البروتينات	٦٣	٧١	
الحيوانية منها	١٩	٢٥	

من دراسة الجداول المدرجة اعلاه يتضح لنا ان خطة التغذية المقترحة للمستقبل ترمي عموما الى التقليل من استهلاك الحبوب الغذائية والنشويات والتي تكون النسبة الكبرى لمصادر التغذية للشعوب النامية بينما تؤكد على زيادة استهلاك المنتجات الحيوانية التي هي فضلا على قيمتها الغذائية الاخرى ، فانها مصدر للبروتينات الضرورية لبناء الاجسام ونموها .

ولدى اتخاذ هذه المطاليب اليومية اساسا لاحتساب الحاجات السنوية منها للفرد الواحد ، فان مقاديرها المطلوبة سيظهرها لنا الجدول التالي موزعة على مناطق العالم المختلفة :

جدول ـ ١٢ ـ

(مقادير المواد الغذائية الواجب توفرها للامد الطويل نسبة الى الفرد الواحد سنويا)
« معدلة بالكيلو جرامات »

المادة الغذائية	لمنطقة الشرق الاقصى	المنطقة الشرق الاوسط	لأفريقيا	لامريكا اللاتينية
الحبوب الغذائية	١٣٢	١٣٦	١٢٤	١١٥
الدرنيات النشوية	٥٣	١٦	٨٢	٦٢
السكر	١٣	١٨	١١	٢٧
بقول ومكسرات	٢٩	١٧	١٦	٢٠
خضروات وفواكة	١١٥	١٤٥	١١٦	١٣٠
اللحوم	٢٤	٢٥	٢٧	٣١
البيض	٣	٩	٦	٦
السمك	١١	٦	١٣	٦
الحليب	٥١	١١٢	٧٤	٩١
شحوم ودهون	٩	١١	٩	٩

(١) الجداول الاربعة التالية ماخوذة من : The Third World Food Survey السابق الذكر

ولو ربطنا هذه المقادير من المواد الغذائية المطلوب توفرها بما سيكون عليه سكان كل منطقة من المناطق المذكورة فى نهاية هذا القرن (بحسب جدول ٧) لتجسدت فيها الكميات الهائلة من المواد الغذائية المختلفة الواجب تجهيزها للاستهلاك للمناطق النامية والتى تتراوح مقاديرها بين اكثر من ٦٠٠ مليون طن لكل من الحبوب الغذائية والفواكه والخضروات وحوالى ٢٠ مليون طن للبيض (او ما يقرب من نصف بليون بيضة متوسطة الحجم سنويا) موزعة حسب مناطق استهلاكها بالشكل الذى يظهره الجدول التالي :

جدول - ١٣ -

مجموع المواد الغذائية المطلوب توفرها للاستهلاك سنة ٢٠٠٠

« بملايين الاطنان/سنويا »

المادة الغذائية	منطقة الشرق الاقصى	منطقة الشرق الاوسط	لافريقيا	لامريكا اللاتينية	المجموع
الحبوب الغذائية	٤٦٢	٤٨	٨٣	٧٤	٦٦٥
الدرنيات النشوية	١٨٥	٦	٥٥	٤٠	٢٨٥
السكر	٤٥	٦ر٥	٧ر٥	١٧	٧٦
بقول ومكسرات	١٠٢	٦	١١	١٣	١٣٢
خضروات وفواكة	٤٠٣	٥٢	٧٧ر٥	٨٣ر٥	٦١٦
لحوم	٨٤	٩	١٨	٢٠	١٣٠
بيض	١٠ر٥	٣	٤	٤	٢٢
سمك	٣٨ر٥	٢	٩	٤	٥٣
حليب	١٠٨ر٥	٤٠	٤٩ر٥	٥٨ر٥	٢٥٠
شحوم ودهون	٣١ر٥	٤	٦	٦	٤٨

ولو قارنا هذه الحاجات الغذائية الواجب توفرها فى نهاية هذا القرن بما هو متوفر منها للاستهلاك الآن فى كل منطقة من المناطق (بحسب معدل اوائل عقد الستينات) فسيبدو لنا ان على منطقة الشرق الاقصى ان تضاعف تزويدها من مجموع الاغذية الزراعية المعدة للاستهلاك باكثر من ٤ مرات ومن الاغذية الحيوانية باكثر من ٥ر٦ مرات وعلى منطقة الشرق الاوسط ان تضاعفها ٣ر٣ مرات و ٦ر٤ مرات على التوالي ، وبالنسبة لافريقيا ٣ر٣ و ٣ر٥ مرات على التوالي ، ولامريكا اللاتينية (عدا دول حوض نهر بلاتا) ٦ر٣ و ٥ مرات على التوالي ، هذا بينما يقدر للدول المتقدمة ان تزيد من تجهيزها من المواد الغذائية الاستهلاكية بما لا يزيد كثيراً على نصف انتاجها الحالي .

ولدى استخلاص هذه الزيادات فى انتاج جميع المواد الغذائية المطلوب توفرها فى العالم فى نهاية القرن الحالي ومقارنتها بوضعية انتاجها الحالي (باعتباره يعادل ١٠٠) ، يبدو ان مجموع الرقم القياسي لانتاج هذه المواد سيبلغ ٢٦٧ موزعا على مناطق العالم المختلفة بالشكل التالي :

جدول ــ ١٤ ــ

(نسبة توفر المواد الغذائية فى مناطق العالم المختلفة)

المنطقة	النسبة الحالية ٪	النسبة المطلوبة سنة ٢٠٠٠ عما هي عليه حاليا
الدول المتقدمة	٥٩	٩٢
الشرق الاقصى	٢٧	١٢٧
الشرق الاوسط	٤	١٥
افريقيـــا	٥	١٥
امريكا اللاتينية	٥	١٨
المجموع العالمي	١٠٠	٢٦٧

« المصدر : «The third world food survey

من هذا يتبين لنا أن على المناطق النامية ان تحتل مراكز اهم فى تهيئة المواد الغذائية لسكانها ، وان منطقة الشرق الاقصى بالذات يجب ان تتبوأ المركز الأول بدل الدول المتقدمة فى توفير مقادير هذه المواد ، كما يبدو من بيانات الجداول التي سبقت الجدول الحالي ان معظم الثقل فى عملية التزويد الغذائي هذه يقع على المنتجات الحيوانية التي هي اصعب تحصيلاً واغلى ثمنا من المنتجات الحقلية ، وخاصة نسبة لسكان المناطق النامية الذين معظمهم من ذوى الدخول الضعيفة ..

فهل تتمكن المناطق النامية من توفير مثل هذه المطاليب الغذائية ؟ وهل يكون ذلك من مصادرها الاقليمية ام من مصادر خارجية ؟

ان الجواب على ذلك ينقلنا الى العنصر الثاني من بحث مستقبل الكفاية الغذائية : وهو تقييم مصادر الارض الانتاجية :

٢ ــ تقييم مصادر الارض الانتاجية :

لقد حاولنا على الصفحات السابقة تقييم حاجات السكان الغذائية كما تتطلبه اعدادهم وكما يتطلبه المستوى الغذائي المنشود فى نهاية القرن الحالي ، وقد وصلنا الى النتيجة الصارخة من ان العالم سيحتاج الى تحقيق زيادات هائلة من المواد الغذائية تزيد على ١٦٠٪ من مجموع انتاجها الحالي كي يتمكن بها سد تلك الحاجات : فمن اين سيتمكن العالم من تحقيق تلك الزيادات ؟؟

لا شك فى ان المصـــدر الاول والاســاسي للحصول على الطعام هي الارض : الارض بمفهومها الانتاجي الزراعي .. ويمكن ان نتأكد من حقيقة ذلك اذا علمنا ان ٨٧٪ من مجمـوع اسـتهلاك السعرات الحراريـة و ٧٠٪ مــن البروتينـات مصدرهــا المباشر الاراضي الزراعيــة ، أما اذا اضفنا الى ذلك الاغذية المستمدة من المنتجات الحيوانية (عدا الاسماك) ــ والتي هي منتجات ارضية غير مباشرة ــ فان هذه النسب سترتفع الى ٩٩٪ و ٩٦٪ على التوالي . (١)

فهــل ستبقى الارض المصــدر الاساسي المعول عليه فى الحصول على مواد الغذاء بهــذا الشكل ورغم تزايد الطلب وفق المقاييس التي شرحناها آنفا ؟

---

(١) انظر مقالة Sukhatme السابقة الذكر ، كذلك يبدو لنا من هذه النسب ان البروتينات المستمدة من الاسماك (كانتاج بحرى) لا تكون اكثر من ٤٪ فى التغذية العالمية .

واذا كان كذلك : فما مدى طاقتها الانتاجية لمجابهة تلك الحاجات ؟

لأجل ان نجيب على هذه الاسئلة وأمثالها ، لا بد لنا من ان نلقي نظرة ولو خاطفة على قابليات الارض الانتاجية ، وخاصة بما لذلك من علاقة باعداد السكان : حاضرا ومستقبلا .

★ ★ ★

ان التقديرات المعروفة عن مدى قابليات الارض الانتاجية ــ بمقياس الاراضي الصالحة للزراعة ــ فى غاية التباين ، فهي تتراوح بين ٢٠ و ٦٠ بالمائة من مجموع مساحة اليابس ، ولكن يبدو أن كلتا النسبتين تشوبهما بعض المغالاة ، حيث ان التقدير الواطىء قد بني على اساس صلاحية التربة ــ وهى كما نعلم عنصر قابل للاستصلاح والتغيير بعض الشيء ، بينما التقدير العالي بني على اساس الامكانيات المناخية ، والتي قد تكون ملائمة دون ملاءمة بقية العوامل الطبيعية الاخرى المرتبطة بقابلية الانتاج الزراعي ــ وسواء كانت تلك النسبة او هذه او اية نسبة وسط بينهما ، فان ما يستغل للانتاج الزراعي حاليا ، وبشكل من الاشكال ، يكوّن حوالي ١٠٪ فقط ، من مجموع سطح اليابس بينما هنالك ٢٠٪ اخرى هي في عداد المراعي والمروج الدائمة : وهذه جميعا تتوزع توزيعا متباينا بين مناطق العالم المختلفة بالنسب التي يظهرها الشكل (٦)

ومن هذا التوزيع يبدو لنا ان مجموع الاراضي الزراعية فى المناطق النامية يبلغ حوالي ٥٤٪ من مجموع مساحاتها فى العالم ، وان على هذه ان تعيل ٧٠٪ من مجموع سكان العالم حاليا ، وحوالي ٨٠٪ منهم فى نهاية القرن ، بينما يتبقى فى المناطق المتقدمة ٤٦٪ من الاراضي الزراعية التي عليها ان تعيل ٣٠٪ من سكان العالم وان تحملها لضغط السكان سيكون اقل نسبيا فى نهاية القرن .

اما بقية الاراضي التي يعتقد بانها صالحة للزراعة ، ولكنها غير مستغلة ، فلا يمكن تحديد مواطن توزيعها على وجه الدقة ولا تقييم قابلياتها الانتاجية بصورة قطعية ، ولكن على اى حال فاننا نعتقد أنها على العموم اقل انتاجية واردأ موقعا ، وذلك لان الانسان عندما يعمد الى استغلال اية ارض فلا بد ان يعطي الافضلية فى ذلك الى جودتها الانتاجية وفقا لما يسمى بقانون الاولوية Law of primacy او الى موقعها الجغرافي المناسب وفقا لقانون الاتصال Law of Accessibility ومع ذلك فان مثل هذه الامور انما هى مواضيع نسبية تتغير قيمتها بتغير الظروف الزمانية والمكانية التى تغير من وسائل واقتصادية الاستثمار .

ولعل معظم هذه الاراضي غير المستغلة الآن هي تلك التي توجد ضمن المناطق المدارية الرطبة وشبه الرطبة حيث يعتقد بان استغلالها فى المستقبل سيجابه الكثير من المشاكل ، امثال زيادة ترشيح التربة وصعوبة حراثتها بعد جفافها وتعرضها للانجراف المائي اثناء استغلالها وذلك بسبب شدة هطول الامطار فى مثل هذه المناطق ، كما يعتقد بان نسبة اخرى يمكن ان تضاف من حصة المراعي فيما لو احسن استغلالها والمحافظة عليها ، لا سيما من عملية انجراف التربة .

على اننا لو اخذنا ما هو مستغل حاليا للزراعة وما هو في عداد المراعي او غيرها من ضروب الاستثمار من حيث توزيعه الجغرافي على مناطق العالم المختلفة وقارنا ذلك باعداد السكان الذين تضمهم كل منطقة من هذه المناطق ــ حاليا ومستقبلا ــ لظهر لنا مدى التباين لمعدل حصة الفرد من هذه الاراضي فى كل جزء من اجزاء المعمورة : (انظر الخريطة في الشكل ٧) . ومن تدقيق الخريطة الموضحة لهذا التوزيع يتضح لنا ان اقل حصة تصيب الفرد من الاراضي الزراعية توجد فى منطقة الشرق الاقصى ، حيث تبلغ ٢٢ر. من الهكتار (عدا اليابان التي تصل حصة الفرد فيها الى ٠٦ر. من الهكتار) وان اعلى حصة توجد فى الاوقيانوس حيث تبلغ ٢٣ر٢ هكتار

(شكل ٦)

النسبة المئوية لتوزيع الأراضي الزراعية والرعوية والغابات والسكان في مناطق العالم المختلفة

الغابات: الأوقيانوس واليابان — أمريكا الشمالية — الاتحاد السوفيتي — أوروبا عدا الاتحاد السوفيتي — أمريكا اللاتينية — افريقيا — الشرق الأوسط — الشرق الأقصى (عدا اليابان)

الأراضي الرعوية: الأوقيانوس — أمريكا الشمالية — الاتحاد السوفيتي — أمريكا اللاتينية — افريقيا — الشرق الأوسط — الشرق الأقصى (عدا اليابان)

الأراضي الزراعية: الأوقيانوس واليابان — أمريكا الشمالية — الاتحاد السوفيتي — أوروبا عدا الاتحاد السوفيتي — أمريكا اللاتينية — افريقيا — الشرق الأقصى (عدا اليابان)

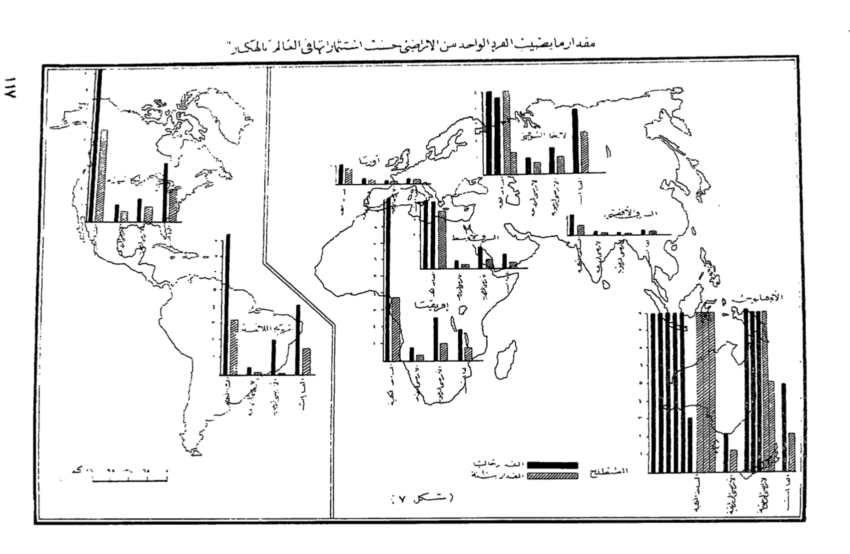
السكان ٢٠٠٠: الأوقيانوس واليابان — أمريكا الشمالية — الاتحاد السوفيتي — أوروبا عدا الاتحاد السوفيتي — أمريكا اللاتينية — افريقيا — الشرق الأوسط — الشرق الأقصى (عدا اليابان)

السكان ١٩٦٥: الأوقيانوس واليابان — أمريكا الشمالية — الاتحاد السوفيتي — أوروبا عدا الاتحاد السوفيتي — أمريكا اللاتينية — افريقيا — الشرق الأوسط — الشرق الأقصى (عدا اليابان)

١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ ٨٠ ٩٠ ١٠٠

الدول النامية — الدول المتقدمة

مقدار ما يخص الفرد الواحد من الأراضى حسب استثمارها فى العالم (بالهكتار)



(شكل ٧)

للفرد الواحد ، ولو اضفنا الى هذه المقارنة البسيطة حالة تزايد السكان فى نهاية هذا القرن وكما سيتوزعون على مناطق العالم المختلفة والحقائق الاخرى عن ضروب الاستثمار التي تتوزع اليها اراضي هذا الكوكب لتمكنا ان نتوصل الى بضعة حقائق عن طبيعة مصادر الارض الانتاجية .

١ ـ ان نسبة الاراضي الزراعية ـ والتي لا تزيد كثيرا على ١٠ ٪ من مجموع مساحة اليابسة تعتبر واطئة بالمقارنة مع اعداد السكان وحاجاتهم الغذائية ولا سيما فى المستقبل ، باعتبار ان هذه الاراضي بوضعها الحالي لم تتمكن من سد حاجات السكان بالمستوى المطلوب ، فكيف اذن ستتمكن من ذلك عندما يتضاعف عدد سكان العالم وتزداد مطاليبهم الغذائية فى بعض المناطق بمقدار ٣ أو ٤ أضعاف مطاليبهم الحالية ؟ ولذا حتى لو ضوعفت بقية الاراضى التى يعتقد انها صالحة زراعيا (والتي قد لا تزيد اكثر من مرتين على المساحات المستغلة حاليا) فان انتاجها بمستوى الاستثمار الحالي سوف لن يتمكن من مقابلة مستوى التجهيز الغذائي المنشود لسكان العالم ، هذا مع العلم بان فى الكثير من المناطق المزدحمة السكان قد تناقصت نسبة الاراضي الصالحة للاستغلال وغير المستغلة ، ففي الهند مثلا بلغت نسبة الاراضي المستغلة فعلا فى الزراعة حوالي ٥٠٪ من مساحة البلاد (١) بالمقارنة مع ١٠٪ للمعدل العالمي ، لذا فلا يعتقد بانه قد تخلفت هنالك اراض كثيرة غير مستغلة .

٢ ـ كما سبق وذكرنا : ان هناك اختلالا بين نسبة الاراضى الزراعية والرعوية الى السكان فى المناطق النامية ونسبتها فى المناطق المتقدمة ، فبالنسبة للاراضي الزراعية فى المناطق النامية هنالك وحدة من الاراضي لكل ثلاثة اشخاص ، بينما هنالك وحدتان لكل ثلاثة اشخاص فى المناطق المتقدمة ، اما بالنسبة للاراضي الرعوية فهنالك وحدتان منها لكل ثلاثة اشخاص فى المناطق النامية ، بينما توجد اكثر من ثلاث وحدات ونصف لكل ثلاثة اشخاص فى المناطق المتقدمة (هذا عدا اليابان) .

وستزداد هذه النسبة اختلالا نحو نهاية القرن ، فتصبح وحدة واحدة من الاراضي الزراعية لكل اكثر من ستة اشخاص ، وحوالي وحدة من الاراضي الرعوية لكل ثلاثة اشخاص فى المناطق النامية بالمقارنة مع وحدتين من الاراضي الزراعية واربع وحدات من الاراضي الرعوية لكل خمسة اشخاص فى المناطق المتقدمة .

٣ ـ اما بالنسبة لحصة الفرد الواحد من هذه الاراضي ، فقد سبق ان اشرنا الى مدى التباين الموجود فى ذلك فى مختلف مناطق العالم والذى يبدو منه ان معدل نصيب الفرد الواحد من الاراضي الزراعية والرعوية فى المناطق النامية هو نصف نصيبه فى الدول المتقدمة وستقل مثل هذه النسبة فى نهاية القرن لتصبح حصة الفرد فى المناطق النامية من الاراضي الزراعية والرعوية ثلث حصة الفرد منها فى المناطق المتقدمة .

واذا ما علمنا ان ضغط السكان الريفيين فى المناطق النامية على الاراضي الزراعية اشد مما هو عليه فى المناطق المتقدمة ، حيث انه فى كثير من الاحيان تصل نسبتهم فى الحالة الاولى الى اكثر من ٧٠٪ من مجموع السكان بالمقارنة مع حوالي ١٢٪ لبلد مثل الولايات المتحدة و ٧٪ لبريطانيا ، وان هذا

---

(١) انظر مقالة : Sukhatme الآنفة الذكر .

الضغط سيزداد بمرور الزمـن بسبب تزايـدالاعداد المطلقة للسكان هؤلاء (١) ، اذن لتمكنا ان ندرك بصورة آنية صعوبة وجود سوق محليـةملائمة للمنتجات الزراعية في كثير مـن الـدول الناميه ، وبالتالي عجز الاراضي الزراعية فيهاعن تموين السكان المدنيين على الاقل بحاجاتهـم الغذائية الكافية ، هذا فضلا على انه كنتيجـةلشدة الازدحام هذا ، فان كثيرا مـن الاراضي الزراعيـة في المناطق الناميـة تنوء تحت عبءالاستغلال الكثيف ، ففي كثير من مناطق جنوب وجنوب شرقي آسيا تستغل حقول الرز لحاصلين او اكثر خلال العام الواحد ، مما يشير الى عدم توفر اراض اخرى صالحة وجاهـزة للاستغلال بدرجة تستحق الاهتمام ، ففي الهند مثلاً تقدر الاراضي الصالحة للانماء الزراعي وغير المستغلةبحوالي ١١٪ من مجموع الاراضي المستغلة ،وفي الارجنتين ــ حيث السكان اقل ازدحاما ــ لا تزيدمثل هذه الاراضي على ٣٠٪ من مجموع المستغل، بل وحتى في الدول المتقدمة مثل فرنسا ، لـم يبق من مثل هذه الاراضي اكثر مـن ٢٠٪ وفي الولايات المتحدة حوالي ١٥٪ (٢) .

هذا من حيث الاراضي الزراعية المعـدةلانتاج المحاصيل الحقلية وغيرها ، اما بالنسـبة للاراضي الرعوية ، فاضافة الى ما ذكرناه سابقامن ان نصيب الفرد في المناطق النامية لا يزال اوطأ مما هو في المناطق المتقدمة ، فان اهميتها للتغذيةبمقياس الانتاج الحيواني لا تزال قليلة بالمقارنة مع اهمية نظيرتها في الدول المتقدمة ، فلو اخذناانتاجية الماشيه (من اللحوم والحليب) أساسـا للمقارنة ، فان هذه الظاهرة تبدو مرة اخـرى على درجة كبيرة من التباين بين مختلف مناطق العالم ، وذلك كما يظهرها لنا الجدول التالي :

جـدول ــ ١٥ ــ

(توزيع اعداد الماشية وانتاجيتها علـى مناطق العالم المختلفة)

« حسب احصاء ١٩٥٨ » (٣)

المنطقة	اعداد الماشية بالملايين	الانتاجية بملايين الاطنان	
		لحوم	حليب
اوروبا	١٠٨	٩ر٥	١١٩
امريكا الشمالية	١٠٤	٢ر٧	٦٥
استراليا ونيوزيلندة	٢٣	٢ر١	١١
الاتحاد السوفيتى	٦٧	٧ر٢	٥٧
امريكا اللاتينية	١٨٥	٩ر٥	١٩
الشرق الاقصى	٣٤٤	٩ر٢	٢٧
الشرق الاوسط	٣٤	٦ر٠	٧
افريقيا	١٠٢	٥ر١	٨
العالم	٩٦٧	٩ر٢٧	٣١٣

المصدر : (F.A.O., Possibilities of Increasing World Food production)

(١) انظر مقالة : Abercrombie الآنفة الذكر .

(٢) انظـر : F.A.O., Production year-book, 1967.

(٣)رغم ان ارقام الانتاجية تعود الى فترة قديمة بعـض الشيء الا ان مقارنتها مع بعض مثيلاتها الحديثة لا تظهر تغيرا كبيرا في نسب الانتاج .

يتبين لنا من دراسة هذا الجدول انه على الرغم من ضخامة اعداد الماشية التى توجد فى المناطق النامية ، حيث تكون ٧٠٪ تقريبا من المجموع العام ، الا ان انتاجيتها واطئة جدا ، فانتاجية اللحوم منها لا تكون اكثر من ثلث الانتاج العالمى ، بينما للحليب لا تزيد النسبة على خمس هذا الانتاج منها . تتجلى لنا هذه الحقيقة بصورة اوضح اذا علمنا ان انتاجية بقرة الحليب فى الهند (بموجب احصاء ١٩٥٨) تبلغ حوالى ٢٢٠ كيلو جراما سنويا وفى الباكستان ٤٢٠ كيلو جراما ، بينما فى هولندة تصل الانتاجية الى حوالى ٤٢٠٠ كيلو جرام وفى فلسطين نجحت عمليات التهجين في ايصال الانتاجية الى حوالي ٤٣٠٠ كيلو جرام سنويا .

من هذا الجرد البسيط لمصادر الارض الانتاجية يمكن ان يتضح لنا ان مشكلة توفرها تكاد تتمركز فى المناطق النامية ، وان هذه المشكلة ستتفاقم اكثر فى المستقبل ، وانه بالنظر لعدم وجود احتياطى كبير من مثل هذه المصادر ، فان مستقبل الانماء الزراعى فيها يكمن بالدرجة الاولى فى تحسين وسائل وانماط استغلال المصادر الحالية قبل البحث عن مصادر جديدة .

ولنا من اليابان خير مثل على ذلك ، فالفرد اليابانى يستمد معظم غذائه اليوم من ٠٦ر٠ من الهكتار بالمقارنة مع ٣ر٠ من الهكتار للمناطق النامية ، ومع ذلك فقد تقلص استيراد بعض المواد الغذائية في اليابان في الآونة الاخيرة ، ومن الرز بالذات بنسبة ٣٧٪ سنة ١٩٦٧ و ٤٧٪ سنة ١٩٦٨ .

ان مثل هذا الوضع يتطلب التأكيد على اهمية التقنية الحديثة والاستفادة من نتائجها في فى ميدان الاستغلال الزراعى وانتاج الاغذية .

٣ ــ اثر التقنية الحديثة في زيادة انتاج الاغذية :

لعل من اهم الخصائص التى تميز عملية استثمار مصادر الثروة فى المناطق النامية بصورة خاصة ، هى الهوة السحيقة التى تفصل بين الوسائل والانماط التى يزاولها الانسان فى الانتاج والانماط والوسائل التي ابتدعتها التقنية الحديثة وتوصلت اليها مختبرات البحوث والحقول التجريبية ، وتزداد مثل هذه الهوة عمقا كلما اشتد الانسان تمسكاً بوسائله التقليدية ، وكلما توصل البحث العلمى وتوصلت التجربة الى نتائج جديدة في طرق الاستغلال . وتشير بعض الامثلة التى اوردناها على الصفحات السابقة او التى سنذكرها فيما يلى على صحة هذه الوقائع .

ــ اذ ما الذى اوصل انتاجية البقرة من الحليب فى فلسطين الى أعلى المستويات ، فى حين ان موارد ارض فلسطين لم تتغير خلال العقود القليلة الماضية ؟

ــ وما الذى جعل منطقة شلالات نياجرا Niagra فى كندا والولايات المتحدة من بين اهم مناطق الصناعة فى العالم ، فى حين كان الهنود الحمر الاوائل يهربون منها فزعا من صوت هدير الماء المتساقط ؟

ــ وما الذى حول منطقة السهوب الآسيوية فى سيبريا الى مناطق انتاج زراعى وصناعى هامة بعد أن كانت مسرحاً لتسابق قطعان الرعاة ؟

ان الجواب على هذه الاسئلة ومثيلاتها بسيط وبديهى : ذلك ان جهد الانسان العلمى هو المسؤول عن تغيير صورة سطح الارض بهذا الشكل ، وعن تغيير معانى الثروة وتفجير كوامنها ، وعلى هذا

فان مصادر الانتاج فى الواقع بالعلاقة مع هذاالجهد العلمى البشرى تحمل مفهوما ديناميكيا متغيراً مدفوعا الى حد بعيد بحاجات الانســانفسه .

ان البحث الحالى لا يهدف الى شرح جوانبالتقنية المتعددة فى موضوع الانتاج ، فان ذلك يخرجنا كثيراً عن نطاق بحثنا المحدود ، ولكنــهيحاول تقصى بعض الآثار المهمة التى يمكن ان تنشأ عــن استخدام اســاليبها والتى يمكن تلخيصهابالعبارة المختصرة : زيادة الانتاجية نسبة الــى عوامل الانتاج المستعملة،وذلك عنطريقاستنباطـوتطوير القابليات الكامنة فى هذه العوامل .

لقد عملت ولا تزال تعمل التقنية الحديثــةعلى زيادة الكفاءة الانتاجية لمصادر الثروة المختلفة باسـاليب متعددة امثال التغييرات البيولوجية التيتحدثها فى تكوين الكائنات الحية كنتيجة لعمليات التهجين ، وذلك كى تجعل منها كائنات اقدر تكيفافى بيئات جديدة غير بيئتها الاصلية ، او اكثر انتاجيةلثروةمعينة،كذلكالتغييراتالتى تحدثها فىبناء التربةالميكانيكىوتكوينها الكيماوىلجعلها اكثر قدرة على الانتاج ، او الاستزادة من مصادر المياهوالاقتصاد فى استعمالها ، لا سيما فى الزراعة[1] حيث تكون الحاجة اليها ماسة جداً فى كثير منمناطق العالم او الحصول على بعض عناصر الغذاء مــن مصــادر اصطناعية ، مثل الحصــول علىالبروتينات من الصناعات البتروكيماوية بلوحتى التغييرات الفيزيولوجية التى تعمد اليوم بعضالابحاث الى احداثها على الكيان البشرى فىسبيل جعلــه اكثــر تحملا للاجواء المرهقة والبيئــاتالصعبة ، هذا بخلاف ابتداع الوسائل والانماط الجديدة فى الانتاج مثل الآلات الحديثة والدوراتالزراعية وعمليات التسميد وغير ذلك .

وتعتبر عمليات التهجين من اهمالجهود التىينظر اليها العالم اليوم نظرة تفاؤل فى سبيل زيادة انتاجية الارض من المواد الغذائية ، فقد تمكنتالمختبرات والحقــول التجريبية مــن ان تنتج هجائن جديدة من البذور تعيش فى بيئات غيــربيئاتها الاصلية فتوسعت بذلك مناطق انتاجها ، وان تنتج غلة اكثر فزادت بذلك الطاقة الانتاجيةلوحدةالانتاج الواحدة . فمن امثال ذلك التوصل الى بــذور القمــح الشديــدة المقاومة للجفــافوللبرودة ، فامتدت بذلك مناطق انتاج هــــذا الحاصل اكثر باتجاه الاقطاب ، حيث لم تكن الاراضي بذات امكانية للانتاج الزراعي . كما توسعت نحو حافات الصحارى : وفىكلتا الحالتين استطاعالانسان ان يستغل اراضى اقل ازدحاما بالسكان ويوفر بذلك حاصلات للمناطق المزدحمة .

كما ادت مثل هذه الجهود الى الحصول علىهجائن من الذرة ادت بدورها الى تزايد الانتاجية منها ، لا سيما فى منطقة الــذرة الاميركية حيثتضاعفت انتاجية الهكتار من ١٤٠٠ كيلو جرام الى حوالي ٣٢٠٠ كيلو جرام خلال الاربعين سنةالماضية ، كما ان استعمال الاصناف الجديدة من الرز فى بعض مناطق الشرق الاقصى قد ادىالى زيادة انتاجيته الى اكثر من ٧٥٪ على مستواها الاعتيادى بحث اصبحت بعض الدول هناك تجابهمشكلة فيض الانتاج دون امكانية تصديره ممــا حدا بالمدير العام لمنظمة الزراعة والغذاء الدولية F.A.O. الى استقصاء احتمال عقد اتفاقيات دولية لتسويق الرز لا سيما بين الدول النامية .

غير ان مما يعرقل الاستفادة من مثل هــذهالبذور بشكل واسع هو تلكؤ الكثير من الدول النامية فى استعمالها ، لسبب او لآخر ، فكانتالنتيجة تخلف جنى الفوائد منها بما يتلاءم وتزايد

---

(١) لعل من ابرز الامثلة على ذلك هي الزراعة الهوائيــةHydroponics التي تستفيد من آخر قطرة من المياه فى عمليات ري المحاصيل ..

الحاجة الى المواد الغذائية ، ولكن يبدو ان جهود خبراء منظمة الزراعة والغذاء الدولية وغيرها قد اخذت تفلح فى الآونة الاخيرة فى ضرورة الاستفادة منها ، ويعتقد كنتيجة لذلك ان دولة كالهند مثلا ستتمكن فى سنة ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ من اكفاء نفسها ذاتيا من الحبوب الغذائية ، على ان يصحب ذلك تبنى الوسائل الأخرى الكفيلة بتطوير نظام ريفى مناسب يساعد على حسن توزيع الانتاج ويسهل استعمال بقية طرق الانتاج الحديثة ومكافحة الاوبئة(١) .

وكما ان تهجين البذور الزراعية قد ادى الى زيادة انتاجية الارض ، فان تهجين الحيوانات قد أدى ايضا الى زيادة قابلية الحيوانات على التكيف لبيئات جغرافية جديدة والى زيادة انتاجيتها على السواء ، ففى امريكا اللاتينية مثلا هجنت الابقار الهندية المدارية مع الابقار الهولندية ، فأدى ذلك الى الحصول على سلالة جديدة ذات قابلية للعيش فى اجواء القارة المدارية بصورة خاصة ، ولكن فى نفس الوقت بانتاجية عالية من اللحوم والحليب .

ولا تقل عمليات استصلاح الاراضى واحيائها أهمية فى مجال توسيع رقعة الاراضى الزراعية وزيادة انتاجيتها ، فتجفيف المستنقعات وازالة الملوحة من التربة واضافة المخصبات والمواد الكيماوية الاخرى لاعادة بنائها وموازنة تركيبها الكيماوى ، وتطوير مصادر المياه وتطبيق الوسائل الاقتصادية فى استعمالها ، لا سيما فى المناطق الجافة ، بل وحتى استعمال ابحاث الفضاء فى الكشف عن مناطق الاصابات والامراض النباتية فى الحقول الزراعية والمبادرة الى مكافحتها ، هى امثلة قليلة من زخم هادر من الابحاث التي تجرى الآن في العالم لانماء مصادر الثروة وتطويرها في سبيل تحقيق مستقبل أفضل .

على ان استعمال التقنية الحديثة فى زيادة الانتاج يجب ان تواكبها الدقة والحكمة فى التطبيق، وذلك لان قوة العلم الحديث قد تقابلها قوة معاكسة تقضى على الكثير من العناصر القيمة فى بيئة الانسان الطبيعية (٢) ففي الباكستان مثلا : في الوقت الذى توسعت فيه مشاريع الرى لارواء ٤٠ مليون فدان من الاراضى منذ ١٩٤٩ ، فان هذه المشاريع نفسها دمرت ٥ ملايين فدان بسبب الملوحة وذلك بعد عشر سنوات من الزمن ، ولا تزال باكستان تفقد بين ٥٠ الى ١٠٠ الف فدان سنويا لنفس السبب ، والامثلة على ذلك تتكرر في كل من العراق وايران والولايات المتحدة وغيرها من المناطق الاروائية .

وفى الجمهورية العربية المتحدة يقال ان توسيع عمليات الرى وتخزين المياه قد أديا الى تقليل نسبة الطمي الذى يرمي به نهر النيل في مصبه مما أدى الى هجرة اسماك (السردين) عن الشواطىء المصرية بحيث ادى ذلك الى تناقض الانتاج منها بشكل كبير جداً . وفي فلسطين المحتلة ادى استعمال بعض السموم للقضاء على فئران المزارع الى قتل الطيور الساحلية التى كانت تقتات عليها، فى الوقت الذى اكتسبت فيه الفئران مناعة ضد تلك السموم بمرور الزمن بحيث عادت الى التكاثر وبشكل سريع . ويخشى المجلس البريطاني للبحث العلمي من كثرة تلوث مياه الخزانات التي تستمد مياهها من الانهار التي تستلم قدرا كبيرا من بقايا عمليات التسميد من الفوسفات

---

(١) انظر مقالة : Lowell Satin, Next Steps to Sustain Agricultural Revolution, (International Development Review, March, 1969).

(٢) انظر مقالة : Edwin Maxtin, Three Critical Issues in Agricultural Development (Inter. Develop. Review,March, 1969).

والنترات ، لان ذلك يؤدى الى نمو بعض طحالب المياه التي تشكل غطاء فوق المياه يمنع تغلغل الشمس ونفوذ الاكسجين ، وهي حالة يقضي معها على الحياة السمكية في هذه الخزانات كما يؤدى الى زيادة فقدان المياه منها بطريق التبخر والنتح.

لذا فيمكن القول ان استعمال وسائل التقنية الحديثة لا يمكن ان يتم بصورة عشوائية ، بل ان مدى نجاح ذلك يتناسب طرديا مع مستوى الثقافة والوعى العلمى فى البلاد ، وهذا أمر يعتبر فى غاية الاهمية بالنسبة للدول النامية .

٤ ــ العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية :

قد يبدو لنا لأول وهلة ان حل مشكلة التغذية فى العالم يمكن ان يتحقق ببساطة عن طريق زيادة انتاج الطعام كماً ونوعاً الى المستوى الذى يمكن ان يسد حاجات السكان الغذائية ، وقد يعنى ذلك من الناحية الموضوعية تبنى الاساليب الحديثة فى زيادة وتنويع الغلة من الوحدة الانتاجية الواحدة ، او التوسع الى اراض جديدة عن طريق استصلاحها واعدادها للانتاج .

ان زيادة انتاج الطعام وان كانت فعلا تكون الهدف النهائي لحل مشكلة التغذية ، الا ان كيفية تحقيق هذه الزيادة وكيفية تمكين المستهلكين من الحصول عليها حيث يحتاجونها تشكل الجوانب العملية فى مجابهة المشكلة وحلها ، فلو اخذنا الانتاج العالمى الحالى للاغذية مثلا وقارناه بحاجات الاستهلاك الحالية فى العالم ، لما بدت لنا صورة التغذية بهذا الشكل الكئيب والمشوه الذى هى عليه فعلا فى كثير من مناطق العالم ، ولقد تبين لنا من الجدول (٤) مدى التكدس الذى نجم عن فائض الانتاج لكثير من المواد الغذائية فى بعض دول العالم ، ولو اخذنا من هذا الجدول حالة الفائض من القمح فقط ، والذى اخذ يتزايد ما بين ١٠ الى ٢٠ مليون طن سنويا فى بعض الاحيان ، لوجدنا انه يمكن ان يسد حاجة ما بين ٧٥ ــ ١٥٠ مليون شخص سنويا من الحبوب الغذائية .

كما أننا لو اخذنا حالة انتاج المواد الغذائية في بلد كالولايات المتحدة ، حيث يعادل ١١٠٠٠ سعرة يوميا للفرد الواحد ، وهو معدل يساوى اربعة أضعاف حاجة الفرد الاعتيادية ، لتبين لنا مرة اخرى مدى الفيض الغذائى التى تتميز به بعض الدول نسبة الى « الشحة » فى دول أخرى ، بحيث يؤدى مثل هذا الفيض غالباً الى التبذير والاسراف اثناء التوزيع والاستهلاك .

كما اننا اوضحنا فى الجدول « ١٥ » وفرة مصادر التغذية الكامنة فى الثروات الحيوانية فى كثير من الدول النامية التى هى نفسها تعانى من مشاكل التغذية ، ولكنها دون استفادة تذكر بحيث ان شعوب هذه الدول تتعرض الى الكثير من الامراض الناجمة من نقص العناصر الحيوانية فى طعامها .

فالمشكلة من الناحية الموضوعية اذن ليست بتلك الدرجة من التدهور ، ولكن حلها بصورة واقعية ليس بتلك الدرجة من السهولة والبساطة ايضا ، والذى ربما يتراءى بانه مجرد علاقة بسيطة بين اعداد السكان وكمية الانتاج ، بينما يرتبط الحل فى الواقع بالكثير من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع والتى هى بحد ذاتها تختلف من بيئة جغرافية الى اخرى ، ومن ثقافة الى اخرى ، بحيث يتوجب ان يكون لكل جماعة من الناس فى كل بيئة معينة حل خاص بها .

أما من حيث العلاقات الاقتصادية المرتبطة بوضع التغذية وبمستقبلها ، فانها ذات صلة بمجموع الدخل القومي وبمشاريع التنمية الاقتصادية المتعددة الجوانب في الامة الواحدة .

فان الدخل القومي يقرر معدل دخل الفرد الواحد والذى بدوره يحدد قوته الشرائية ـ القوة الشرائية التى تعتبر اليوم اساسية لتحديد قدرة الفرد على توفير حاجاته الغذائية في الدول النامية، اذ انه بدون مثل هذه القدرة لن تكون هناك اية قيمة لوفرة المواد الغذائية سواء داخل حدود الدولة او عبر قنوات التجارة الدولية .

وتبدو لنا أهمية مثل هذه الصلة بين القوة الشرائية ومستوى التغذية من دراسة الجدول التالى الذى يورد نماذج موضحة للعلاقة بين هاتين الظاهرتين من دول ذات دخول مختلفة .

جدول ـ ١٦ ـ

« معدل مستوى التغذية نسبة الى معدل مستوى الدخل في بعض اقطا العالم »

الدولة	معدل دخل الفرد السنوى (بالدولار)	مقدار السعرات الحرارية المستهلكة (يوميا)	البروتينات (جرام يوميا)	الحيوانية منها
انكلترا	١١٣٣	٣٢٧٦	٨٩	٥٣ر٤
فرنسا	٩٦٨	٢٩٧٥	١٠٣	٥٩ر٤
الاتحاد السوفيتى	٨١٦	٢٩٩٨	٨٥ر٩	٢٩
ايطاليا	٥٤٥	٢٧٣٤	٨٠	٢٩ر٨
الهند	٥٠	٢٠١٧	٥١ر٥	٦

على ان هذا الجدول لا يظهر فقط مدى العلاقة الايجابية بين مستوى الدخول ومستوى التغذية ، وانما يوضح ايضا بانه في حالة الدخول العالية فان عناصر التغذية تكون متكافئة : نباتية وحيوانية (بدليل كثرة البروتينات الحيوانية المستهلكة) ، بينما في حالة الدخول الضعيفة فان النسبة العظمى من الغذاء مستمدة من مصادر نباتية وهو أمر سبق ان اشرنا الى خطورته في احداث سوء التغذية او نقصه . فمن الادلة الشاهدة على ذلك هو ما سبق ان ذكرنا من ان الحبوب الغذائية تكون المصادر الاساسية في تغذية الشعوب النامية، حيث تشكل ما بين ٥٠ ـ ٦٠٪ من مقادير الاغذية المستهلكة يوميا في مناطق الشرق الاقصى ، بينما في بريطانيا مثلا لا تشكل الحبوب الغذائية اكثر من ١٢٪ من مصادر تغذية الفرد .

على انه ليكن واضحاً لدينا أيضا بان العلاقة الايجابية هذه بين الدخول ومستوى التغذية لا يمكن ان تستمر في تصاعد وبدون حدود ، بل انه بحكم عدم مرونة الطلب على المواد الغذائية بعد حد الكفاية فان استمرار زيادة الدخول لن يحدث آثاراً مشابهة في طلب المواد الغذائية واستهلاكها ، ويبدو ذلك جلياً من دراسة الجدول السابق الذكر، حيث نلاحظ أن الفرق بين مستوى دخل الفرد البريطانى والفرد الايطالى الذى يبلغ حوالى الضعف ، لم يحدث ضعف الفرق في مستوى التغذية .

من ذلك يمكن ان نستنتج ان مرونة الطلب على المواد الغذائية ستكون شديدة عند الشعوب الضعيفة التغذية والضعيفة الدخول ، وستبقى النسبة العظمى من دخول الشعوب النامية تنفق على المواد الغذائية لمدة غير قليلة من الزمن الى ان تتحقق لديها مستويات الكفاية الغذائية . يبدو لنا ذلك واضحاً من مقارنة توزيع معدل دخل الفرد على مطاليب الحياة المختلفة في كل من

الولايات المتحدة والهند ، ففى الولايات المتحدةيتوزع معدل الدخل على المطالب المختلفة بالنسب المئوية التالية :

الغذاء ٣٠٪ ، السـكن ٢٥٪ ، الملابس ١٥٪ ، امور اخرى ٣٠٪ . اما في الهند فتوزيع الدخل يتم بالشكل التالى :

الغذاء ٦٠٪ السكن ٨٪ الملابس ٧٪ اموراخرى ٢٥٪ ، واذن فمن الممكن ان نتوصل الى النتيجة التي لا تقبل الجدل وهي ان تحسن مستويات التغذية عند الشعوب النامية يرتبط ارتباطا وثيقا بتحسن مستوى الدخل القومى ،وبالتالى تحسن الدخل الفردى .

فما هو وضـع الدخل القـومى للشعوبالنامية ؟

لعل من المفيد فى هذا الصدد ان نعلم بانشعوب العالم النامية التى تكون حوالى ٧٠٪ من سكان العالم لا تساهم بأكثر من ٢٠٪ من مجموع الدخـل العالمى(١) وان الفـروق بين مستويات الدخول للشعوب النامية والشعوب المتقدمة تزدادبوما بعد يوم بدل ان تضيق، وذلك كنتيجة لتزايد سكان المناطق النامية بدرجة اسرع مما فى المناطق المتقدمة ، بينما لا تنمو مشاريع الاعمار والانماء فيها ، وبالتالى لا ينمو مجموع انتاجها القومى بالسرعة المطلوبة . ففيدراسة لمعدل التغير السنوي للسكان ومعدل دخل الفرد الواحد اجريت على٣٢ دولة من الدول النامية فى آسيا وافريقيـا وامريكا اللاتينية للفتـرة مـن ١٩٥٢/٥٦ حتى١٩٦٠/٦٤ ، وجد ان سكان هذه الدول قـد زادوا بمعدل ٢ر٥٪ سنويا بينما كان معدل زيادةالدخل الفردى ١ر٨٪ (٢) ، وهذا يعني ان زيادة الدخول بمعدل دخل الفرد الهندى (كما هو مبين فى الجدول ١٦) قد لا تتعدى الدولار الواحـد سنويا ، بينما هى للدول المتقدمة قد تزيد علـى ٣٠ دولاراً سنويا للفرد الواحد .

ان تزايد سكان المناطق النامية بهذا الشكل نسبة الى زيادة انتاجها العام ، لا شك انه يؤدى الى تزايد البطالة ، الامر الذى يعنى انخفاض مستويات المعيشـة وتناقص القـدرة الشرائيـة للاغذية لدى الكثير من العائلات،ومع ذلك فسيبقى تزايد السكان ذا أثر كبير فى تزايد الطلب العام على الاغذية فيؤدى بذلك الى جنوح اسعارها نحـو الصعود مما قد يدفع الدولة الى استيرادها مـن الخارج وانفاق الكثير من الاموال على ذلك ، فى الوقت الذى يمكن ان تستغل مثل هذه الاموال فى اقامة مشاريع التنمية التى تؤدى بدورها الى تقليص حجم البطالة عن طريق ابتلاع ايدى عاملة جديدة .

ومن الامور الاخرى التى قد تحدث البطالة بين السكان ــ لا سيما الريفيين منهم ــ هو الميل نحو تنويع الحاصلات الزراعية خاصة وان هذا التنويع يعتبر ضروريا لتنويع مصادر التغذية ، فلقد لوحظ فى البرازيل مثلا ، انه نتيجة التحول من زراعة البن كحاصل رئيسى فى بعض المناطق ــ الى تربية الحيوانات للحصول على منتجاتها ، ان قد حصل تقلص مستمر فى مقدار العمل المطلوب الذى ربما ادى الى الاستغناء عن ٩٠٪ من الايدى العاملة التى كانت تعمل ضمن وحـدة انتاجية للبن ، ومثل ذلك يحصل ايضا فى تنزانيا كنتيجة لتقلص زراعة السايسال ــ Sisal ــ (وهو من حاصلات الالياف الزراعية) لحساب التوسع فى انتاج محاصيل حقلية وحيوانية اخرى ، حيث

---

(١) انظـر : The third world food survey. P. 24.

(٢) انظـر مقالـة : Abercrombie

ان ذلك سيؤدى الى الاستغناء عن اكثر من ٩٥٪ من العمال الزراعيين فى بعض الاحيان ، ولا شك فى ان هذه الحالة ستتكرر فى حالة تنويع الانتاج الزراعى فى مناطق الشرق الاقصى التى تبتلع زراعة الرز فيها الملايين من الايدى العاملة ، وعلى ذلك فقد لا يكون لزيادة الانتاج ـ كماً ونوعاً ـ معنى فعلي في زيادة الاستهلاك عند جماعة كثيرة من الناس نتيجة لتزايد البطالة وانخفاض مستوى معيشتهم .

من هنا اصبح الواجب على مشاريع التنمية التى تهدف الى رفع مستوى الانتاج الغذائي ، وبالتالى رفع مستوى استهلاكه ان تحسب حساب استيعاب هذا الفيض من السكان : سواء ذلك الذى يحصل بطريق الزيادة الطبيعية او نتيجة الهجرة من الريف بسبب تقلص الحاجة الى العمل ، وذلك بان تعمد الدول النامية الى تنمية المشاريع الصناعية والمدنية الاخرى جنبا الى جنب مع مشاريع التنمية الزراعية .

ان وجود مشاريع التنمية المدنية الى جانب الريفية منها يعتبر من الامور الضرورية لاعادة البناء الوظيفى لمجتمع الدول النامية ، فوجود نسبة كبيرة من السكان الريفيين (الذين قلنا انهم قد يشكلون احيانا ثلثي نسبة السكان) يعنى ضيق السوق المحلية للانتاج الزراعى القومى ، باعتبار ان معظم هذا الانتاج يستهلك من قبل السكان الريفيين انفسهم قبل ان يصل الى المدينة ففى دولة كالصين مثلا ، نجد ان حوالى ٨٥٪ من انتاج الرز فيها يستهلك حيث ينتج ، وفى الهند نجد ان ٦٠٪ من هذا الانتاج لا يغادر القرية ، لذا فكلما حصل تكافؤ بين نسبة السكان الريفيين والسكان المدنيين ـ وذلك عن طريق اقامة المشاريع المدنية التى تجتذب العمل الفائض فى الريف ـ فان احتمال توسع السوق المحلية ومساهمة ابن المدينة فى استهلاك المواد الغذائية سيزداد بالتبعية ، كما ان ذلك يساعد على ان يساهم ابن القرية في الحصول على جزء من ابواب انفاق الدخول لابن المدينة ، فيؤدى ذلك بالتالى الى توزيع احسن لمستوى الدخل العام .

على انه يتوجب على خطط التنمية الزراعية لاجل ان تحقق هدف توسيع الاسواق المحلية العمل على تحسين وسائل تسويق المنتجات الزراعية وبصورة منتظمة وذلك عن طريق تطوير وسائط النقل والمواصلات والتوزيع والتخزين وغير ذلك ، والا فان العملية ستصبح ذات جانب واحد تتكدس نتيجته السلع وتتردى اسعارها فترمى بذلك بالفلاحين فى احضان الخسارة ، مما سيدفعهم الى ترك الانتاج .

ولقد لاحظنا سابقا كيف أن دخول الاصناف المحسنة من الرز الى بعض مناطق الشرق الاقصى قد ادى الى زيادة انتاجيته ، ولكن دون تسهيل عمليات تسويقه ، مما عرض الفلاحين الى بعض الازمات المالية ، فدفع ذلك المدير العام لمنظمة الغذاء والزراعة الدولية الى استقصاء احتمال عقد اتفاقيات دولية ـ اقليمية للرز لتسهيل تسويقه وتثبيت اسعاره بشكل ملائم للمنتج والمستهلك .

فى مجال التنمية هذه ، يتبادر الى الذهن سؤال آخر عما ستكون عليه حالة انتاج المواد الغذائية لو عمدت جميع الدول النامية المجاورة الى تطوير انتاجها من حاصلات متشابهة ، بحيث يؤدى ذلك الى تشبع الاسواق المحلية او الاقليمية منها ، كما انها قد لا تتمكن ان تجد طريقها الى الاسواق العالمية الاخرى ، خاصة فى الدول المتقدمة ، بسبب كثرة الحواجز الجمركية المفروضة على استيراد السلع الزراعية اليوم وبسبب سوء السمعة التى تسبق السلعة القادمة من الدول النامية .

لذا فقد اصبح من الواجب على الدول النامية ان تمارس التعاون فيما بينها عن طريق احلال التوافق بين خطط التنمية فيها ــ على المستوى الأقليمي اولاً ثم على المستوى الاوسع بعد ذلك ، بحيث يؤدى ذلك الى تقليص فرص التنافس بين انتاج السلع المتشابهة بالشكل الذى يتلاءم والظروف الجغرافية لكل دولة من هذه الدول ــ ولعل الاسواق الاقليمية المشتركة التى بدات تبرز الى الوجود اليوم هى نموذج على امثال هذا التعاون .

★ ★ ★

اما من حيث العلاقات الاجتماعية ومدى اثرها على مستقبل التغذية ، فهي حالة اخرى تستحق الاعتبار فى المناطق النامية ، وان عادات وطبائع انتاج واستهلاك المواد الغذائية والمتأثرة بالتقاليد والاعتبارات الدينيــة والذوق ، لهى عقبات ــ قد تعتبر أصعب من غيرها فى بعض الاحيان ــ فى سبيل حل مشكلة التغذية .

فمن حيث الانتاج ، والذى يتسم فى المناطق النامية على العموم بانخفاض الغلة وباقتصارها على حاصل رئيسى او حاصلات قليلة محدودة ، فان ذلك يعود الى عوامل كثيرة مثل نظام الملكية الزراعية وتقاليد الانتاج وكيفية الاستفادة من بعض مصـــادر الثروة الموجـــودة في المزرعة ، كالحيوانات .

فيما يختص بنظام الملكية الزراعية ، فانه تبعا لشدة ازدحام السكان فى معظم المناطق النامية ، لا سيما الريفية منها ، وبسبب نظام الميراث السائد فى بعضها فان معظم المزارع صغيرة ، بل وتزداد صغرا بمرور الزمن ، الى درجـــة بحيث انها مع نظام الانتاج الحالى قد لا تفى حتى بحاجات اصحابها من الانتاج ــ لذا فهى عموما زراعيـــة استهلاكية Subsistence Farming وذات عوائد نقدية قليلة جدا على الفلاح بحيث لا تيسر له استعمال الوسائل الحديثة فى التنمية حتى اذا توفرت ــ كما انها تقتصر على صنف رئيسى واحد فى الانتاج بحيث تصبح معه وجبة الفلاح مكونة ايضا من طبق رئيسي واحد تنقصه عناصر الغذاء المختلفة .

وهذا على نقيض ما يميز المناطق المتقدمة ، حيث الانتاجية أعلى : بالنسبة للمزرعة وبالنسبة للفرد المنتج ، بحيث يتوفر معه فائض للبيع ، لذا ففى الكثير من المناطق المتقدمة هنالك ما بين ١٠ الى ٢٠ عائلة يمكن ان تستفيد من انتاج عائلة فلاحية واحدة ، هذا فضلا على تنوع الانتاج .

اما الحيوانات التي توجد في المزارع ، فلها قصة اخرى فى المناطق النامية ، فانها فضلا على بعض التقاليد الدينية التى تحرم الاستفادة منها ، فانها ان وجدت في المزرعة فانها لا تستعمل الا لمساعدة الفلاح فى اعمـال الزراعة والنقل دون الاستفادة من منتجاتها ، هذا فى الوقت الذى تشارك فيه هذه الحيوانات الفلاح حاصلات الحقل رغم ضعف انتاجيته ، وحتى فضلاتها ــ فبدلا من استعمالها فى عمليات تسميد التربة واعادة الخصوبة اليها فانها تحول الى وقود لاستعمالها فى الاغراض المنزلية ــ وهكذا فغالبا ما تكون الحيوانات بهذا الشكل عبئاً على مصادر الغذاء بدل ان تكـون مصدراً له .

ان من المحتمل ان تستمر مثل هذه الاوضاع والانماط الزراعية فى المناطق النامية ما دام الفلاح جاهلا وبعيداً عن مصادر الارشاد الزراعي وفقيراً تجاه تكاليف الانتاج الحديث ، وليس هناك اصعب من تغيير تقاليد الفلاح الجاهل والفقير .

اما من حيث عادات وطبائع الاستهلاك فهي امور اخرى ذات اهمية كبيرة في موضوع التغذية ، فقد لاحظنا سابقا ان من اهداف مستقبل التغذية ضرورة التأكيد ليس على زيادة استهلاك المواد الغذائية فحسب ، بل ربما اهم من ذلك تحسين نوعيتها وطريقة استهلاكها ، بحيث يؤدى ذلك الى جعل الناس يأكلون احسن الى جانب ما يأكلون اكثر ، ولكن هل من الممكن تحقيق ذلك ، حتى لو فرض وتحسنت دخول الافراد وتوفرت لهم المواد الغذائية كما ونوعا ؟ .

ان كل الدلائل تشير الى ان تبديل عادات الكثير من الناس في استهلاك المواد الغذائية يعتبر من الامور الصعبة التحقيق خلال فترة قصيرة من الزمن ، مهما تحسنت احوالهم المعاشية وارتفعت دخولهم . فلقد لوحظ بطريق التجربة في كثير من الدول النامية التي ازدادت فيها دخول بعض العائلات بأن ربة البيت لا تزال تشترى نفس مواد الغذاء التقليدية وتطبخها بنفس الطريقة التي تعودت عليها – تلك الطريقة التي تقضي على الكثير من عناصرها الغذائية – ولعل مما يؤيد هذه الحقيقة هي ظاهرة تزايد المطاعم الاجنبية (لاسيما الشرقية منها) في الكثير من المدن الغربية الكبرى التي بدأت تتعرض لتوافد الكثير من الزوار والسياح الاجانب من انحاء العالم المختلفة ، هؤلاء الوافدين الذين تشير امكانية قيامهم بالسفر البعيد الى تحسن مستوى دخولهم وارتفاع مستوى معيشتهم ، ولكن مع ذلك يجد هؤلاء من الصعوبة عليهم تغيير ذوقهم في عملية التغذية ، كما ان الكثيرين من المهاجرين الشرقيين ، وخاصة من الهنود والشرقيين الذين خلفوا امورا كثيرة وراءهم في وطنهم الأم نازحين الى اوطان جديدة لم يخلفوا في هجرتهم عاداتهم الغذائية ، فما كان من هؤلاء الا ان يأخذوا معهم ما يسمى احيانا بثقافة الرز – Rice Culture – الى حيث هجروا ، فكان ذلك سببا في دخول زراعة هذا الحاصل الى بعض مناطق العالم الجديد .

لذا فيبدو لنا واضحا ان تغيير عادات التغذية لغرض تحسينها لا بد ان يبدأ مع الاجيال الجديدة الناشئة وهنا تبدو اهمية مشاريع التغذية الجماعية ، سواء كان ذلك في المدارس أو في غيرها ، في سبيل تحقيق هذا الهدف .

الخلاصة :

ان المحاولة التي قمنا بها على الصفحات القليلة الماضية لعرض مشكلة التغذية كما سيواجهها العالم في المستقبل وبيان الجوانب المرتبطة بعلاجها يمكن ان تقودنا الى استخلاص بعض النتائج عن هذه المشكلة والتي نوجزها فيما يلي : –

١ – لا شك في ان مشكلة التغذية السائدة تنجم اساسا عن شحة المواد الغذائية المهيئة للاستهلاك ، وذلك كنتيجة لتفوق نسبة تزايد السكان على نسبة توفير هذه المواد الغذائية ، وان المستقبل سيزيد هذه المشكلة تعقيدا مادام مثل هذا التسابق بين الحالتين مستمراً بهذا الشكل .

٢ – ان الحديث عن هذه المشكلة وعن مستقبلها يكاد يقتصر حالياً على المناطق النامية في العالم ، والتي تتسم فيها العلاقة بين السكان والغذاء بمثل هذا الطابع السلبي ، وان كل الدلائل تشير الى ان مثل هذه العلاقة السلبية ستتفاقم كنتيجة للتفجر السكاني الذى يحدث في هذه المناطق ، مما يؤدى الى الاخلال بقيمة التزايد الذى يتحقق في انتاج المواد الغذائية فيها ، اذن فلا بد من معالجة هذا التفجر السكاني كمفتاح لحل المشكلة في المستقبل .

٣ – ان مستقبل التغذية في هذه المناطق يجب ان لا يرتبط فقط بسد حاجات السكان الغذائية أي بما يسد رمقهم وبالمستوى السائد اليوم ، بل لا بد ان يعمد الى رفع مستوى التغذية الى ادنى

الحدود الصحية المطلوبة ، بما يكفل تحقيق حياةمنتجة للافراد فى وسط مجتمع منتج، لا مستهلك فقط ، فمشكلة التغذية فى الواقع ليست مشكلةمجاعة اكثر من كونها مشكلة نقص او سوء تغذية .

٤ ــ اذا كانت حوادث المجاعة عبارة عن حالات طارئة ومؤقتة ، فان سوء التغذية او نقصها اكثر ازمانا بين الشعوب النامية وان كلامنهما يكون عقدة فى حلقة مفرغة فى موضوع التنمية وزيادة الانتاجية ، فلا يمكن ان نرجو من افراد خاوي البطون ان يقدموا انتاجا كفوأ ، كما ان الانتاج غير الكفؤ لا يمكن ان يسد حاجات الافراد بالشكل المطلوب .

٥ ــ ان هناك من الدلائل ما يشير الى ان المناطق النامية تمتلك من القابليات والامكانيات الكامنة لزيادة انتاج المواد الغذائية ما يكفل اكفاءمعظم حاجاتها منها ــ على الاقل للامد المنظور ــ وذلك لأن مواردها الحالية لم تستغل استغلالاً جيداً بسبب ضعف المنتج وضعف اساليبه القديمة والتقليدية ، كما ان تطوير هذه المصادر المحلية او الاقليمية امر ضرورى لتقليل امل الاعتماد على استيراد من الخارج ــ ولا سيما من دول الفيض الغذائي ــ وذلك بسبب الصعوبات التي تنشأ عن تباين مستويات المعيشة وتكاليف الانتاج ،وبالتالي اسعار تلك المواد المستوردة والتي لا يمكن للدول النامية ان تواجهها نظرا لارتفاعها .

هذا فضلا على ان تطوير المصادر الحالية وتنميتها يعتبر اكثر اقتصادية ، لأنه فضلا على كونه يعمل على رفع مستوى معيشة مجموعة كبيرة من الناس المرتبطين بوجودها فهو يتطلب عمليات احياء اراض جديدة او فتح طرق جديدةاو تنظيم استيطان جديد .

٦ ــ لما كان هناك ترابط شديد بين زيادةالدخول وتحسن مستويات المعيشة ، فقد اصبح من الضرورى ربط مشاريع الانماء الزراعي بمشاريع التنمية الاخرى لتحقيق التوازن بين الجوانب المختلفة للعملية ، وذلك لان القطاعات الانتاجية المختلفة فى الدولة انما هى عناصر مترابطة فى عملية واحدة تتصل بانتاجها القومى العام .

٧ ــ ان تباين توزيع مصادر الثروة بين المناطق المختلفة ، نتيجة لاختلاف وتباين العوامل الجغرافية ، يقضي على الدول المتجاورة ، على الاقل بان تتعاون مع بعضها البعض في عمليات التنمية لا سيما في ميدان الانتاج الزراعي ، كي تستطيع ان تحصل على الفوائد الممكنة من ذلك ، وذلك لانه بسبب هذا التباين لا يمكن لاية دولة من الدول مهما كانت واسعة وغنية بمواردها ان تكفي نفسها بجميع ما تحتاجه من انتاجها المحلي .

★ ★ ★

مصادر البحث

1. F.A.O. **Third World Survey,** (Basic Study No. 11) Rome, 1963.
2. F.A.O. **Possibilities of Increasing World Food Production,** (Basic Study No. 10), Rome, 1963.
3. F.A.O. **The State of Food and Agriculture,** 1969, Rome, 1969.
4. F.A.O. **Agricultural Commodities — Projections for** 1975-1985 Vol. I, II. Rome, 1967.
5. F.A.O. **Calorie Reqnirements,** (Nutritional Studies, No. 15) Rome, 1958.
7. F.A.O. **Food and Nutrition Procedure in Times of Disaster,** by Masefield, (Nutritional Studies No. 21) Rome, 1967.
8. F.A.O. **Agricultural Planning Course** 1965, (Agricultural Planning Studies No. 7) Rome, 1966.
9. F.A.O **Incentives and Disincentivcs for Farmers in Developing Countries,** (Agricultural Planning Studies No. 8) Rome, 1967.
10. U. S. **Department of Agriculture, Food, (Year-Book of Agriculture,** 1959) Washington, D.C.
11. Clark, Colin, **Population Growth and Land Use.** MacMillan and Co., London, 1967.

مقالات وابحاث :

1. Sukhatme, P., Basu, D.,and Schulte, W., **Problem of population and Resources with special Reference to land use and Food supply.**
2. Martin, E., " **Three Critical Issues in Agricultural Development," International Development Review,** March, 1969.
3. Satin, L., Next steps to sustain the Agricultural Revolution, **International Developmen t Review,** March, 1969).
4. Abercrombie, K. C., " Population Growth and Agricultural Development," **Monthly Bulletin of Agricultural Economics and Statis⁴!cs of the F.A.O.** April, 1969.
5. Dovering, F., " The Share of Agriculture in a Growing Population," **Monthly Bulletin of Agricultural Economics and Statistics,** September, 1969.
6. Nixon, President R., **Population Growth : Problems and plans** (a special message to the U.S. Congress, 1969).
7. Yarborough, Senator R., **Hunger and the Population Boom : The Dual Crisis,** Washington, D. C., 1969.
8. Fredrick, Dr. J.S., **Improving Nutrition for World's Population.** Harvard University, Boston, 1969.
9. Thompson, W., " The spral of population," **Man's Role in changing the face of the Earth**— University of Chicago Press, Chicago, 1966.

التربية في عالمنا المتغير

محمد ناصر *

تمهيد

لعله من المناسب قبل البدء في مناقشة هذا الموضوع أن نبين أننا سنحاول التأكيد على دور التربية في عالمنا المتغير . اننا بطبيعة الحال نفترض أن عالمنا في تغير ، وان كانت مناقشة التغير الاجتماعي خارجة عن نطاق هذا البحث من جهة ، كما انها من اختصاص علماء الاجتماع من جهة أخرى .

وسنشير فيما بعد الى بعض التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والتكنولوجية التي تلقي على التربية في العصر الحديث دورا خاصا .

كذلك من المفيد أن نذكر في بداية بحثنا هذا أن مفهوم التربية قد يختلف باختلاف الفلسفات الاجتماعية والتربوية التي يدين بها هذا المربي أو ذاك . فهناك من يعرف التربية بانها (حياة) أو (نمو) أو (توجيه) كما يذهب الفيلسوف الامريكي المعاصر الى ذلك (١) . ويرى آخرون بانها عملية تفتح (شبيهة بعملية تفتح الزهرة) أو ترويض الملكات الذهنية ، وهكذا (٢) . كذلك هناك من يؤكد على الفرد في العملية التربوية ، بينما يؤكد غيره على المجتمع ، ويؤكد ثالث على الانسجام بين الفرد والمجتمع (٢) .

وزيادة على ذلك فهنالك تربية نظامية مقصودة تتم في المدارس والجامعات والمؤسسات الثقافية

---

* الدكتور محمد ناصر استاذ التربية بجامعة الكويت ، كان استاذا وعميدا فى كلية التربية بجامعة بغداد ثم وزيرا للتربية ووزيرا للثقافة والارشاد في العراق ، من اهم مؤلفاته: التربية الوطنية ، تربية المواطن العربي ، دليل الطالب للدراسة فى الولايات المتحدة الامريكية .

« ١ » انظر جون ديوى تعريب متى عقراوى وزكرياميخائيل « الديمقراطية والتربية »

« ٢ » انظر حول ذلك رونيه اوبير تعريب عبد اللهعبد الدائم : التربية العامة ، وجورج شهلا وعبد السميع حربلي : الوعي التربوى ومستقبل البلاد العربية « ٣ » انظر المصدرين السابقين

الاخرى ، والى جانبها تربية غير مقصـودة تتم خارج هذه المؤسسات وبوسائل اخرى كالصحف والمطبوعات الاخرى والراديو والتلفزيون والسينما والمسرح الخ ..

على اننا لاغراضنا العملية سـنقبل التعريف الذى يؤكد على تنمية شخصية المتعلم ـ طفلا كان أو مراهقا أو حتى راشدا في بعض الاحيان ـ واعداده ليكون عضوا نافعا فى المجتمع ، ويمكن أن نقبل التعريف التـالي للمربي الفرنسـي « اوبير » في هذا الشأن :

« التربية جملة الافعال والآثار التي يحدثها بارادته كائن انساني فى كائن انساني آخر ، وفى الغالب راشد في صغير ، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل الغايات التي يعدلها حين يبلغ طور النضج (٤) . »

التغيرات في مجتمعنا المعاصر

ان التغيرات التي حدثت في مجتمعنا المعاصر ، وخاصة منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كثيرة .. لقد حدثت خـلال هذه الفترة ثورات سياسية واجتماعية عدة ، واهم هذه الثورات من حيث مدى تأثيرها في المنطقة التي وقعت فيها وفي العالم كله ثورة الاستقلال الامريكية (١٧٧٦ م) والثورة الفرنسـية (١٧٨٩ م) والثـورة البلشفية (١٩١٧ م) .

ويمكننا القول ان هذه الثورات الثلاث الكبيرة استهدفت ، كل باسلوبها الخاص ، تحقيق مبادىء الحرية السياسـية ، والعدالة الاجتماعية ، أو الديمقراطية الاجتماعية كما يفضـل الكتاب في البلدان الاشتراكية تسميتها ، مقابل الديمقراطية السياسـية التي يؤكد عليها الكتاب في البلدان الراسمالية ، والأخوة ـ أخـوة البشر ـ مهما اختلفت ألوانهم وعقائدهم وشعوبهم وأجناسهم .

ان تأثير هذه الثورات منفردة أو مشتركة امتد الى خارج البلدان التي وقعت فيها ويمكننا أن نعزو كثيراً من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت في ما نسميه الآن بالعالم الغربي أو الرأسـمالي والعالـم الشرقي أو الاشتراكي والعالم الثالث أو غير المنحاز .. الى هذه الثورات .

وقد تأثر بها عالمنـا العربي بطبيعـة الحال . وتركت هذه الثـورات وآثارها السـياسية والاقتصادية والاجتماعية طابعها على نظم التربية والتعليم في مختلف انحاء العالم ، ومنهـا عالمنا العربي كما سنرى فيما بعد .

وقد تقدمت العلوم ، وخاصة العلوم الطبيعية ، تقدماً كبيراً خلال القرنين الأخيرين بلغ اضعاف ما حققته في تاريخ البشرية السابق باكمله ، وبلغ تقدم العلوم ذروته في تفجير الطاقة الذرية التي اصبحت نعمة ونقمة في الوقت ذاته ـ نعمة اذا احسنت البشرية استخدامها لخيرها ، ونقمة اذا استخدمتها لتدمير نفسها . وتقدمت التكنولوجيا جنبا الى جنب مع تقدم العلوم ، واصبح العالم الحديث لا يمكن ان يسـتغني عن التكنولوجيا اذ معنى ذلك عودته الى الوراء ـ الى عهـود التخلف .

« ٤ » انظر رونيه اوبير : التربية العامة ، ص : ٢٧ .

ورافق النهضة العلمية والتقدم التكنولوجي تطور كبير في الاقتصاد رفع من مستوى معيشة الانسان ، وخاصة في البلدان المتقدمة الى حد كبير بما هيأ له من وسائل مادية وصحية ومعيشية وثقافية وترفيهية لم يسبق أن تهيأت له في الماضي .

كذلك تيسرت طرق المواصلات بين أجزاء العالم المختلفة وقصرت المسافات فيما بينها ، وسهلت الاتصالات بواسطة وسائل الاتصال الحديثة كالصحف والمطبوعات الاخرى والراديو والتلفزيون والسينما الخ ... وهكذا لم يعد أي بلد بمعزل جغرافي او اقتصادى او فكرى عن بقية انحاء العالم . ورافق هذا التغير العلمي والتكنولوجي والاقتصادى تغير في الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما سبق واشرنا الى ذلك قبل حين ، وكذلك تغير في قيم المجتمع . وقد وضعت كل هذه التغيرات اعباء كبيرة على التربية في البلدان التي حدثت فيها على نطاق واسع . وقد يكون من المفيد ان نستعرض الدور الذى قامت به التربية في بعض البلدان المتقدمة لكي تتضح لنا العلاقة بين التغيرات العلمية والتكنولوجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحدث في المجتمع من جهة وبين التربية من جهة اخرى . اننا سوف نستعرض الاتجاهات العامة ولن ندخل في التفاصيل التي ان يفي بها كتاب بله أن يكون بحث عام (٥) .

الدولة والمجتمع الدولي والتربية

لقد كانت التربية فى كثير من بلدان العالم الى وقت قريب من الاعمال التى تقوم بها الهيئات الخيرية والدينية والثقافية وحتى التجارية وكذلك الافراد ، وبدأ اهتمام الدولة بالتربية فى أواخر القرن الثامن عشر على أثر نشوء الحركات الديمقراطية والقومية (٦) .

وفى أعقاب الثورة الفرنسية قام نابليون بانشاء نظام قومي للتربية خول فيه الحكومة الفرنسية الاشراف على جميع مراحل التعليم من المدرسة الابتدائية الى الجامعة .

وقد عرف هذا النظام الفرنسي بمركزيته الشديدة . أما فى انكلترا فلم تسن الحكومة قانونا لتنظيم التربية والتعليم الا فى عام ١٨٧٠ م . وقد منح هذا لقانون صلاحيات واسعة لما يعرف بالسلطات المحلية ، ولكنه لم يمنح الحكومة صلاحيات تذكر ، وعند اعلان الثورة الفرنسية (١٧٨٩ م) لم يكن هناك نظام تربوى فى اى بلد أوربى (٧) .

واما الولايات المتحدة فقد شرعت أول قانون يمنح الحكومة الفيدرالية صلاحية القيام بدور تربوى ، وان كان محدودا جداً ، فى عام ١٨٦٢م . وسمي بقانون مورل (Morril Act) وهو ينص على تخصيص اراض حكومية يستفاد من دخلها فى مساعدة كليات الولايات « وليس كليات

(« ٥ ») يمكن الرجوع الى كثير من الدراسات التربوية الفنية الاهلية والرسمية التي صدرت خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها فى كل من الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا والاتحاد السوفيتي مثلا وليس حصراً فى تحديد دور التربية فى كل من هذه البلدان لمجابهة التغيرات التي حدثت في العالم عامة وفيها خاصة .

(٦) انظر : جورج شهلا وعبد السميع حربلي « الوعي التربوى » الفصلان ٢٤ و ٢٥

(٧) انظر : John S. Brubacher. A. History of the Froblems Education pp. 64, 65.

تابعة للحكومة الفيدرالية » اذ لم تكن مثل هذهالكليات قائمة ، لكي تقوم بتدريس « فروع المعرفة ذات العلاقة بالزراعة والفنون الميكانيكية » .

ومنـه يتضح ان دور الحكومـات فى اوروباوامريكا فى انشاء المدارس او المعاهـد التربويـة الأخرى وتمويلها والاشراف عليها أتى متأخـراً(فى اواخر القرن التاسـع عشر) كما انـه كان محدودا . ولكن هذه الصورة تغيرت تدريجيا فىالبلدان التي ذكرناها وفى غيرها بحيث انه لـم تنته الحرب العالمية الثانية الا وقد ازداد دورالحكومات بصورة عامة فىشؤون التربية والتعليم، وما سبب ذلك ياترى ؟

سببه انه بالنظر للتغير السريع الذى يجـرىفى المجتمعات الحديثة لم يعد فى وسع الحكومات أن تترك السياسة التربوية ، وشؤون التربيـةوالتعليم الاخرى للمجهودات الفردية او نشـاط الهيئات الدينية او الخيرية او حتى للحكومـاتالمحلية او الاشراف الضعيف للحكومات المركزيـة او الفيدرالية .

ان قوة الدولة الحديثة أصبحت تعتمد علىاستثمار طاقاتها البشرية ، وعلى التقدم العلمي والتكنولوجي والتطور الاقتصادى ، وكل هـذهلا تتحقـق الا بتخطيط تربوى ضمـن الخطـة الاقتصادية ، تلعب الدولة فيه دوراً رئيساً ،وهكذا نجد ان اهتمام انكلترا بشؤون التربيـة والتعليم تمثل فى عدة اعمال من ابرزها سن قانونالتربيةلعام ١٩٤٤ الذىأسستبموجبهأول«وزارة للتربية » بعد ان كان الجهاز الذى يشرف اشرافاضعيفا على شؤون التربية والتعليم قبـل ذلك يسمى « مجلس التربية » واصبحت وزارةالتربيةبحسب القانون الجديد « تدير وتوجه »السلطات التربوية المحلية مـن اجل « تنفيـذ السياسـةالقومية بكفاية . » (٨) ولم تعد شؤون التعليم الجامعي فىانكلترا مندون سياسة ، وقد اقترحتلجنة اللورد روبنـز Lord Robbins التي شكلّها رئيس الوزراء عام ١٩٦١م والتي نشرتتقريرها حول « التعليم العالي » فى بريطانيا عام ١٩٦٣م اهتماما اكبر بشؤون التعليم الجامعيوالعالي ، وتمويله ، وتنسيقه ، واسهامه فى خطة الدولة القومية .

وحـدث نفس الاتجـاه فى الولايات المتحـدةالامريكية ، فقد دعا كثير من الهيئات التربويـة وفى مقدمتها الجمعية التربوية الوطنية (National Education Association) والمجلس الامريكي للتربيـة American Council on Education الىاهتمام واسهام اكثر من الحكومة الفيديراليـة بشئون التربية والتعليم والعلم . ودعا جيمسكونانت James Connant رئيس جامعةهارفرد سابقاً الى تطوير « سياسة قومية مناسبةلمواجهةالتحديات للعصر الجديد والمخيف الذى نعيش فيه . » (٩) وفى الواقع تم تشريع كثير من القوانينالتي زادت من اسهام الحكومة المركزية فىشؤون التربية والتعليم ، اما عن طريق وزارات الصحةوالتربية والشؤون الاجتماعيةاو وزارات التربية فى الولايات (States) او عن طريق وزاراتاخـرى تعنى بالعلـوم او الابحـاث كالزراعـة او القـوات المسـلحة (الجيش ، والبحريـة ،والطيران) او لجنة الطاقة الذرية ، أو المؤسسة القومية للعلوم .

أما فرنسا التي يتميز نظامها التربوى بالمركزيةـ اى بسيطرة الحكومة المركزية عليه منذ اول

---

(٨) انظـر : Nicholas Hans, Comparative Education p. 258.

(٩) انظـر : James Bryant Connant Shaping Educational Policy p. 134.

تأسيسه على عهد نابليون ــ فانها استفادت من طبيعة نظامها التربوى هذا فى وضع خطة قومية للتربية تتلاءم حسب ما تراه والظروف التي تجتازها ، وفى الوقت الذى منحت فيه فرنسا المقاطعات صلاحيات اوسع فى حقل التربية والتعليم ، الا انها ــ ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ــ عملت فى الوقت ذاته على ضمان تطوير التربية فى مراحلها المختلفة وتوجيهها لخدمة الاغراض الوطنية ، وقد كانت لجنة الدراسات (Commission d,études) التي رأسها الاستاذ بول لانجفا (Paul Langevin) وعرفت باسمه فيما بعد ، وضمت عدداً من رجال الفكر والجامعات فى فرنسا . . كانت هذه اللجنة سباقة الى اقتراح اصلاح جذرى (١٩٤٦م) للتربية والتعليم يتلاءم والظروف الجديدة التي جابهت فرنسا ، وتخدم اغراضها القومية . (١٠)

اما الاتحاد السوفيتي فاشرافه على شؤون التربية والتعليم كان ولا يزال ، اقوى فى أى من البلدان التي ذكرناها ، فالحزب الشيوعي كان ولا يزال هو المخطط الأول للسياسة التعليمية فى جمهوريات الاتحاد السوفيتي التي يبلغ عددها ست عشرة جمهورية والتي تكون الاتحاد ، ولا تخلو تقارير الحزب التي تناقش اثناء مؤتمرات الحزب من بحث لشؤون التربية والتعليم وتوجيهها لخدمة الاغراض القومية ، ولذلك فانه بالرغم من وجود وزارة تربية لكل جمهورية ، وعدم وجود وزارة اتحادية للتربية ، فان وحدة النظام والاهداف والطابع العام مضمونة عن طريق الحزب الشيوعي على نطاق الاتحاد السوفيتي ، اما التعليم العالي والتعليم الثانوى الاختصاصي فله وزارة مركزية واحدة ، مركزها موسكو عاصمة الاتحاد السوفيتي ، وهي مسؤولة عن شؤون التعليم الجامعي والتعليم العالي الذى يتم فى المعاهد الاختصاصية العالية (Higher Institutes) والتعليم الثانوى الاختصاصى الذى يعد الفنيين كالمساعدين الطبيين والمعلمين للمدارس الابتدائية والموسيقية الخ . . وتشرف الدولة بطبيعة الحال على النشاط العلمي عن طريق اكاديمية العلوم المرتبطة بمجلس الوزراء والاجهزة الاختصاصية الاخرى .

وهكذا نجد ان الدولة الحديثة اصبحت تعير التربية والتعليم اهتماما متزايداً بلغ ذروته خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ، وسبب ذلك ان مصير الامم اصبح متوقفا الى حد كبير على استثمار الطاقات البشرية المتوفرة لدى كل منها لضمان تقدمها وأمنها وكذلك ضمان تقدمها العلمى والتكنولوجي ، وبلغ التنافس فى ذلك اشده بين اكبر دولتين فى العالم وهما الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية ، وعلى سبيل المثال يمكن ان نذكر انه بمجرد اطلاق الاتحاد السوفيتي اول قمر اصطناعي فى الفضاء فان القلق اصاب الولايات المتحدة الامريكية خشية من ان يتغلب عليها الاتحاد السوفيتي فى العلم عامة وفى حقل الفضاء خاصة ، وكان من نتائج القلق ان الولايات المتحدة صارت تعير دراسة نظام التربية والتعليم بصورة عامة واعداد العلماء والمهندسين بصورة خاصة فى الاتحاد السوفيتي اهتماما كبيرا ادى الى القيام بكثير من الدراسات القيمة فى هذا الشأن ، ولم يكن الاتحاد السوفيتي اقل اهتماما من الولايات المتحدة بدراسة نظم التربية والتعليم عامة واعداد الاخصائيين خاصة فى الولايات المتحدة . .

وفى ذات الوقت الذى اهتمت به الدول الحديثة بشؤون التربية والتعليم وتوجيهها فى سبيل خدمة الاغراض القومية ، فان المجتمع الدولي متمثلا فى هيئة الامم المتحدة وفى منظماتها الاختصاصية ، وخاصة منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) اعارت التربية والتعليم اهتماما كبيرا لخدمة الاهداف التي انشئت هيئة الامم المتحدة من اجلها وهي

---

(١٠) انظر : Nicholas Hans, Camparative Education.

السلام واحترام حقوق الانسان الاساسية وكرامة الفرد ، ونصت ديباجة ميثاق اليونسكو على انه ما دامت الحرب تنشأ فى عقول بني الانسان فعلينا انتزاعها منها وزرع السلام مكانها، وجاء فى المادة السادسة والعشرين من الاعلان العالمي لحقوق الانسان مايلي :

١ ـ لكل شخص الحق فى التعلم ، ويجب ان يكون التعليم فى مراحله الاولى والاساسية على الاقل بالمجان وان يكون التعليم الاولى الزامياً ، وينبغي ان يعمم التعليم الفني والمهني ، وان ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى اساس الكفاءة .

٢ ـ يجب ان تهدف التربية الى انماء شخصية الانسان انماء كاملا ، والى تعزيز احترام الانسان والحريات الاساسية وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية او الدينية ، والى زيادة مجهود الامم المتحدة لحفظ السلام .

ان هيئة الامم المتحدة واليونسكو لا يمكن ان تتدخلا فى توجيه التربية والتعليم فى بلدان الدول الاعضاء فيها ولكنها ، وخاصة اليونسكو ، تستطيع ان تشجع المؤتمرات والدراسات التربوية التي تخدم اهدافها فى السلام والتفاهم الدولي كما تعقد هي مثل هذه المؤتمرات وتنشر كثيراً من الدراسات التي تهدف الى غرس السلام والتسامح الخ ....

ولم تخل هذه الاعمال من فائدة ، ولكن العالم ، ويا للأسف الشديد ، لا يزال بعيدا عن تحقيق السلام والعدالة واحترام كرامة الفرد ، وامامنا كثير من الشواهد على ذلك ومن ابرزها مالحق بالشعب الفلسطيني خاصة وبالامة العربية عامة من انتهاك لحقوق الانسان على ايدى الاسرائيليين والمستعمرين .

ان تجارب العالم غربياً كان ام شرقياً فى الاهتمام المتزايد بالتربية والتعليم واعتبارهما « سياسة قومية » لا يجوز تركها للهيئات الخاصة والأفراد ، خاصة فى هذا العصر ، بل لا بد من « توجيه » الدولة لهما ـ أن هذه التجارب جديرة بان تثير اهتمام الحكومات العربية وجامعة الدول العربية بشؤون التربية والتعليم ورفعهما الى منزلة « السياسة القومية » للأمة العربية فى شتى اقطارها .

الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية والتربية

نقصد بالديمقراطية السياسية تمتع المواطنين فى مجتمع ما وعلى الاخص فى ظل دولة ما بحقوق متساوية من حيث حق الانتخاب « سواء أكان حقهم فى انتخاب ممثليهم فى البرلمان ام اية هيئة مماثلة له ، أو حقهم فى ان ينتخبوا هم كممثلين للشعب » . وقد كافحت البشرية طويلا فى سبيل الحصول على الديمقراطية السياسية ، وجعلها شاملة للراشدين والراشدات بغض النظر عن فقرهم او غناهم ، جهلهم او تعلمهم ، او كونهم من اية طبقة اجتماعية ، او من اية عقيدة دينية او رأى سياسي الخ .. ولا تزال بالرغم من ذلك كثير من الفئات وحتى فى الشعوب المتقدمة كالزنوج فى الولايات الامريكية المتحدة ، والسكان الاصليين وهم الاغلبية الساحقة فى جنوبي افريقيا وروديسيا وفى كثير من المستعمرات لا تتمتع بهذا الحق ، ولكن بالرغم من هذا يمكننا القول بان اغلبية البلدان المتقدمة فى اوربا وامريكا وفى اجزاء اخرى من العالم قطعت شوطا كبيرا فى تحقيق قدر كبير من الديمقراطية السياسية .

فما هو دور التربيــة فى البلدان التي تؤمــن بالديمقراطية السياسية ؟ ان دورها هو ضـمان نجاح النظم الديمقراطية السياسية التي تعتمد على التطور فى التغـير الاجتمـاعي وليس على الانقلابات العسكرية او الثورات ، ويكون ذلك بنشر التربية والتعليم ورفع مستواهما واعداد القادة الذين يحتـاج اليهم النظـام الديمقراطي السياسي .. ومنذ ارسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد والمفكــرون والسياســيون يربطون بـين استقرار النظام السياسي وتطوره التدريجي من جهة وبين نشر التربية والتعليم والوعي السياسي من جهة اخرى ، وقد صاحب نشوء القوميات الاوروبية فى القرن الثامن عشر الميلادى اهتمام كبير بالتربية ، ويظهر ذلك فى اثار ماتزيني وغريبالدى فى ايطاليا و « فختــه » فى المانيــا وغيرهم مــن زعماء الحركات القومية الاوربية الذين رأوا فى نشر التربية بين شعوبهم دعما للقوميــة وللنظم السياسية الديمقراطية التي بنيت عليها ، ويعزى الى احد السياســيين الانكليز قولــه : « لنرب حكامنا » قاصدا بذلك ان الشعب الذى يختار حكامه ، والذى يختارهم مــن بينــه ، ينبغي أن يتربى ويتثقف لكي يحسن اختيار الحكام ، ولكي يحكم الحكام المنتخبون بهدى من المعرفة والحكمة والعقل ، لا الجهل والعاطفة الملتهبة .

وهكذا نجد ان الدول المتقدمة بدأت بتعميم التعليم الابتدائي كحد ادنى للتربيــة الشــعبية مستهدفة من ذلك القضاء على الأمية ، ويسرت بقدر ما تسمح بذلك ظروفها الاقتصادية ، التعليم الثانوى والتعليم العالي لمن يستطيع تحمل نفقاتهما والاستفادة منهما ، ويسرته على نطاق ضيــق للمتفوقين من ابناء الطبقات الفقيرة ، ولم يكن التعليم الثانوى والتعليم العالي الى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة متيسرين الا لنسبة ضئيلة من الطبقات الاجتماعية الوسطى والعاملة فى البلدان الأوربية المتقدمة الرئيسية كانكلترا وفرنسا والمانيا بله البلدان الاخرى (١١) .

ولا شك ان عدم تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص فى التعليم الثانوى والتعليم العالي امام جميع الشبان والشــابات فى هذه البلدان حدّ مــن ممارســة الديمقراطية السياســية التي تؤمــن بها هــذه البلدان ، ويمكن اعتبار الولايات المتحدة البلـد الغربي الوحيد الذى هيأ الفرصة لاعداد كبيرة من خريجي المدارس الثانويــة للالتحــاق بالمدارس العالية ، ولكن بالرغم من ذلك فان اعداداً كبيرة من الاطفال والشبان الزنوج لم تتهيأ لهم الفرصة على قدم المساواة مع الاطفال والشبان البيض ، وكنتيجة لذلك أصبح « الحكام » الذين أشار اليهم السياسي البريطاني على نوعين ، نوع ذى مستوى ثقافي عال ونوع ذى مستوى ثقافي واطىء ، الأول يتكون من البيض والثاني يتكون من الزنوج ، واصبح كفاح الزنوج فى السنوات الاخيرة فى سبيل ضمان تكافؤ الفرص أمام جميع الاطفال والشبان فى الولايات المتحدة وفى سبيل القضاء على عزل مدارس الزنوج عن مدارس البيض (School Segregation) اصبح كفاحهم شديداً دعا المحكمة العليا فى الولايات المتحدة أخيراً ، وهي أعلى هيئة قضائية فيها ، الى اعلان عدم دستورية العزل ، ويعني هذا انه لــم يعــد فى امكان ادارة أيــة مدرســة كانت خاصة بالبيض فى الماضي ان تمنع الآن أى طالب زنجي من الالتحاق بها استنــاداً الى انه زنجي وليس أبيض . ولا شك أن هذا القرار سيساعد على أزالة الفوارق بين اطفال وشبان الشعب الواحد ومن ثم بين مواطني الشعب الواحد ، ولكن بالرغم من هذا القرار الخطير فانه لا يزال امــام الولايات المتــحــدة شــوط كبــير فى ســبيــل رفــع المستوى الثقافي للمواطنين الزنوج الى المستوى الذى حققه المواطنون البيض ..

واذا عدنا الى المستوى الثقافي والتربوى فى بعض البلدان المتقدمة وجدنا انه ارتفع ارتفاعــا

---

(١١) انظــر : Nicholas Hans, Comparative Education وخاصة الفصول الخاصة بانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة .

ملحوظا فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ،الأولى والثانية ، وانه استمر فى الارتفاع بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد رفعت الولايات الامريكية المتحدة سن التعليم الاجبارى من عمر ١٤ الى عمر ١٨ ، ويسرته بعض الولايات فيها (كاليفورنيا مثلا) من حيث جعله مجانياً الى سن العشرين ، اما انكلترا فكانت قد قررت خلال الحرب العالمية الثانية رفع سن التعليم فيها من ١٤ الى ١٨ ، ولكنها اجلته لاسباب عملية ،وجعلته الى سن ١٦ بدلا من ذلك وأما فرنسا فقد رفعته من سن ١٤ الى سن ١٥ .

وقد رافق رفع مستوى التربية والتعليم فى هذه البلدان من حيث السن اعادة النظر فى تنظيم الدراسة الابتدائية والثانوية بهدف ان تكون المدرسة واحدة لابناء الشعب الواحد (école unique) كما يسميها الفرنسيون او المدرسة العامة (Common School) كما يسميها الامريكيون ، والغرض الرئيسي من ذلك أن يمر مواطنو المستقبل فى مدرسة واحدة توحد من نظرتهم الى الحياة والى النظم السياسية التي يعيشون فيها بقدر الامكان وتعرضهم لمناهج تربوية واحدة أو متشابهة .

وتؤكد هذه المدارس على مقدار معين من دراسة اللغة القومية والتاريخ والجغرافيا والواجبات الوطنية ، اما فى مرحلة الدراسة الثانوية فيؤكد المنهاج على دراسة اللغة القومية والأدب القومي ، والتاريخ وعلى دراسة النظام السياسي ، الى جانب الدراسات الاخرى التي تختلف بين طالب وآخر ،وزيادة على ذلك تحاول المدرسة الثانوية فى كل من الولايات المتحدة وانكلترا ان تكون شاملة (Comprehensive) اى مدرسة تضم الدراسات الاكاديمية او النظرية التي تؤهل الطالب لدخول الجامعة الى جانب الدراسات المهنية (الصناعية أو الزراعية أو التجارية أو البيتية) التي تؤهل للالتحاق بوظيفة متوسطة . وتهدف هذه المدارس الى اعداد مواطني المستقبل اعداداً واحداً عن طريق التحاقهم بمدرسة ثانوية واحدة وتلقيهم الدراسات الثقافية (اللغة والادب والسياسية او الاجتماعية جنبا الى جنب ، وفيما عدا ذلك تيسر لكل طالب اتباع المنهاج الذى يلائم قابلياته ويتفق ورغباته .

وان اهم انتقاد يوجه الى نظم التربية فى البلدان المتقدمة والتي تدين بالديمقراطية السياسية ، أن الديمقراطية السياسية وحدها لا تهيىء فرصاً متكافئة امام الطلاب من مختلف الطبقات الاجتماعية للاستفادة من التربية .. وقد شعرت الدول الغربية ، وفى مقدمتها انكلترا بالعيوب التي ترافق النظام الديمقراطي السياسي الذى لا ترافقه ديمقراطية اجتماعية او اقتصادية ، والمقصود بالديمقراطية الاجتماعية او الاقتصادية أن تقلل الفوارق الطبقية بين المجتمع عن طريق توزيع عادل للثروة ، بحيث لا يعود العامل الاقتصادى عائقا امام الطالب الكفؤ فى اختيار الدراسة التي تناسب قابلياته وميوله الى أعلى المستويات ، ولواخذنا انكلترا كمثل على بلاد عرفت بين العالم بقدم ونجاح ديمقراطيتها السياسية لوجدنا انه منذ عام (١٩٠٢م) كان التعليم الابتدائي فيها اجبارياً ومجانياً من سن الخامسة الى سن الرابعة عشرة ، ولكن هذا التعليم لم يكن يؤدى الى باب مفتوح بالنسبة للتلاميذ الذين ينهون المدرسة الابتدائية ، اي أنه لم يكن بوسع الا نسبة ضئيلة جدا من هؤلاء التلاميذ الالتحاق بالمدرسة الثانوية التي كانت تتطلب اجورا دراسية من طلابها والتي لم يكن بوسع جميع أولياء أمور التلاميذ الذين يرغبون فى الالتحاق بها دفعها نظرا الى ان أغلبيتهم الساحقة من الطبقات العاملة اوالوسطى ، اما أبناء الطبقة الفنية فكانت تلتحق بمدارس اعدادية (Preparatory Schools) او بالمدارس الخاصة (Public Schools) ومنها تذهب الى جامعتي اكسفورد وكمبردج فى الغالب او الى الجامعات الاخرى ، ومعنى هذا حرمان

ابناء الطبقة العاملة وكثير من ابناء الطبقة الوسطى من التعليم الثانوى والتعليم العالي . (١٢) وقد دعت حركة العمال فى انكلترا الى اعطاء فرص متساوية لجميع التلاميذ ، ودعت الى ما سمته « دراسة ثانوية للجميع » . وقد دعا أحد التقارير التربوية المهمة التي بنى عليها اصلاح التعليم فى انكلترا ــ تقرير سبنس (Spens Report) عام ١٩٣٨ الى اصلاح أخطاء الماضي وذلك برفع سن التعليم الاجبارى الى ١٥ وسن الدوام الجزئي الى ١٨ وتنويع الدراسة الثانوية الى ثلاثة انواع: تقليدية ، وصناعية ، وحديثة مع اعطاء هذه الانواع نفس المكانة والامتيازات ، وكانت هذه خطوة فى طريق فسح الفرص امام التلاميذ الذين ينهون المدرسة الابتدائية للالتحاق بالمدرسة الثانوية دون صعوبات اكاديمية ، وتذليل قسم من الصعوبات المالية . وجاء قانون التربية فى عام ١٩٤٤ ليعيد تنظيم التربية ويعطى وزارة التربية التي شكلت بموجبه ــ كما سبق ان ذكرنا ذلك ــ حق « ادارة وتوجيه » السلطات التربوية لغرض « تنفيذ السياسة القومية بكفاية » وقد جاء هذا القانون خطوة تقدمية فى تنظيم التربية والتعليم فى انكلترا واتاح فرصا متكافئة للاطفال والشبان فى التربية والتعليم ، ومع هذا فلا يزال امام انكلترا وقت غير قليل قبل ان تتحقق الديمقراطية الاقتصادية فيها الى جانب الديمقراطية السياسية بحيث يجد جميع الشبان امامهم فرصاً متكافئة للافادة من التربية والتعليم.

ويمكن القول ان ما يجرى فى الولايات الأمريكية المتحدة فى حقل ديمقراطية التربية والتعليم ــ اذا ما استثنينا مدراس الزنوج والتربية الخاصة بالزنوج ــ شبيه بما يجرى فى انكلترا بصورة عامة، ولكن الولايات المتحدة لن تتحقق فيها ديمقراطية تربوية صحيحة مالم تتح فيها فرص متكافئة امام جميع التلاميذ من بيض وسود ..

وسارت فرنسا بصورة عامة فى سبيل اتاحة الفرصة امام جميع التلاميذ على قدم المساواة من بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكنها لم تصل بعد الى تحقيق مبدا تكافؤ الفرص التربوية فى التعليم الثانوى والعالي ، وعلى العموم يمكننا القول ان الدول الغربية التي بدات بالديمقراطية السياسية شعرت بمرور الزمن وبالتجربة أن ــ الديمقراطية السياسية وحدها ــ لا تكفي لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والأخوة وهي المبادىء التي دعت اليها الثورة الامريكية والثورة الفرنسية ومن قبلهما وبعدهما النظريات السياسية الانكليزية .

اما الدول الاشتراكية فكانت ولا تزال تصر على ان الديمقراطية السياسية لا معنى لهـا من دون تحقيق الديمقراطية الاجتماعية او الاقتصادية ،ولذلك فان الاتحاد السوفيتي مثلا حاول منذ اول استيلاء الحزب الشيوعي على السلطة فى اعقاب ثورة اكتوبر ١٩١٧ أن يزيل الفوارق الاقتصادية بين المواطنين تمهيداً لتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة والاخوة بينهم .

لقد كانت روسيا قبل عام ١٩١٧م مثل غيرها من البلدان الأوربية ، تقاسي من تأثر نظام التربية فيها بالنظام الطبقي الذى كان سائدا فيها ، فكان هناك سلمان للتعليم :

التعليم الابتدائي الريفي والمدني (ومدته اربع سنوات) ويبدأ من سن ٨ وينتهي فى سن ١٢ ، والتعليم الابتدائي العالي (ومدته اربع سنوات ايضا) ويبدأ من سن ١٢ وينتهي فى سن ١٦ ، وكان هذا السلم التعليمي مقصوراً على عامة الشعب ، وكان لا يؤدى الى الالتحاق بالجامعة ، بل الى دخول دور المعلمين او المدارس الثانوية الصناعية . واما السلم الثاني فيتكون من نوعين

(١٢) أنظر : Nicholas Hans, Comparative Education pps. 255, 256.

من المدارس الثانوية ــ مدارس الجمنيزيا (Gymnasia) وهي المدارس الادبية أو الكلاسيكية ومدة الدراسة فيها ٩ سنوات والمدارس الحديثة (Real) وهي المدارس التي تشمل الدراسات العلمية ومدة الدراسة فيها ٧ أو ٨ سنوات ، ويحق لخريجي مدارس الجمنيزيا الالتحاق بالجامعات مباشرة ، اما خريجو المدارس الحديثة فيحق لهم اما دخول المعاهد الصناعية العليا بعد اجتياز امتحان مسابقة واما دخول الجامعات بعد اداء امتحان في اللغة اللاتينية التي لم تكن ضمن منهاج المدرسة الحديثة .

وقد تبلورت اعادة تنظيم المدارس في الاتحاد السوفيتي في ثلاثة أنواع من المدارس العامة : « ١ » مدرسة ابتدائية ذات أربعة صفوف (فصول) في الارياف « ٢ » مدرسة ثانوية غير كاملة ذات سبعة صفوف في المدن والمناطق الصناعية وبعض الارياف « ٣ » مدرسة ثانوية كاملة ذات عشرة صفوف في المدن الكبيرة والمراكز الصناعية الكبيرة ، وقد رفع سن التعليم الاجباري في عام ١٩٥٨ من سن الثامنة الى سن الثانية عشرة في الارياف ، ومن سن الثامنة الى سن الخامسة عشرة في المدن ، وفتحت المدارس امام الجميع على قدم المساواة ، وبذلك سبق الاتحاد السوفيتي البلدان الغربية في تطبيق مبدأ الديمقراطية الاجتماعية او الاقتصادية والعدالة الاجتماعية ومبدأ تكافؤ الفرص التربوية (١٣) . وبامكان الطالب الذي ينهى الدراسة في المدرسة الثانوية الالتحاق بالجامعة بعد اجتياز امتحان خاص في القسم او المعهد الذي يريد الانتماء اليه ، على انه ينبغي على الطالب السوفيتي أن يقضي عامين في الخدمة العسكرية وعامين آخرين في العمل قبل أن يحق له الالتحاق بالجامعة باستثناء طلاب العلوم وبعض فروع الهندسة الذين يحق لهم الانتماء الى الجامعة مباشرة نظرا للحاجة الماسة اليهم ..

وهكذا نجد ان الحالة الاقتصادية للطالب أو وليّه لا تؤثر على تربيته أن سلبا أو ايجابا ، اذ أن الفرصة متوفرة للكل الى اقصى حد تمكنهم قابلياتهم من الوصول اليه ..

ويشمل منهج المدرسة الثانوية الى جانب التربية السياسية والعقائدية للطالب وذلك بدراسة النظرية الماركسية ، دراسة اللغة الروسية والأدب الروسي والرياضيات خلال سني الدراسة الثانوية وهذا بطبيعة الحال بالاضافة الى الدروس الاكاديمية الاخرى والدراسات العملية التي يؤكد عليها نظام التربية السوفيتي .

والمدرسة الثانوية العامة واحدة للجميع ، وبذلك تخلص السوفييت من العيوب التي توجه الى التعليم الثانوي في البلدان الغربية والتي تتلخص في انه لا يزال طبقيا أو لم يتخلص بعد من الطبقية ، اذ توجد هناك المدارس الخاصة الى جانب المدارس الحكومية في كل من انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة .

وتوجد الى جانب المدارس الثانوية العامة : (١) المدارس المسائية التي تقدم دراسات تكنيكية معادلة للدراسات التي تقدمها المدارس الثانوية العامة (٢) المدارس المهنية الصناعية وهي مدارس لا تؤدي الدراسة فيها الى الالتحاق بالتعليم العالي ومدة الدراسة فيها من سنة الى ثلاث سنوات وتستهدف تدريب التلاميذ في المدن والريف على مهارات مهنية معينة (٣) والمدارس

---

(١٣) انظر : Nicholas Hans, Comparative Education pps. 310, 311

والفصل السادس عشر «النظام التربوي في الاتحاد السوفيتي» بصورة عامة .

انظر كذلك : Lord Rbbins (Higher Education) Appendix Five Section XI.

الثانوية الاختصاصية وهـي مـدارس تقع بين الدراسـة الثانوية والدراسـة العاليـة وتدرب الفنيين على اعمال اختصاصية كمساعدى الاطباء او الممرضات او فنيى الاشعة او معلمى المدارس الابتدائية .

وجميع انواع المدارس الثانوية المذكـورة باستثناء المدارس الثانوية الصناعية (التى تتراوح مدة الدراسة فيها بين سنة وثـلاث سـنوات) تؤدى الى التعليم العالى .

ويدخل الطالب الثانوى المؤهل اما الـى الجامعة او الى المعاهـد العليـا التى تناسـب اختصاصه فى مرحلة الدراسة الثانوية ، وبذا يكون الطريق امامه مفتوحا للتقدم دون ان يعوقه المال كما هو الامر فى البلدان الغربية .

والخلاصة اننا لاحظنا من دراستنا لتطـور التربية فى بعض البلدان الغربية (انكلترا وفرنسا والولايات المتحـدة) انهـا بـدأت بالديمقراطية السياسية ، ولكن ظهر لها بالتطبيق وبالتجربة ان الديمقراطية السياسية وحدها لا تيسر للتلاميذ الذين سيكونون مواطنى المستقبل فرصاً تربوية متسـاوية ، وبذلك لا تحقق العدالة الاجتماعيـة والمساواة والاخوة ـ وهى المبادىء التى ما فتئت هذه البلدان الغربية تدعى انها حريصة على السير بهداها ـ ومنذ الحرب العالمية الأولى ، ومن بعد ذلك منذ الحرب العالمية الثانية وهذه الدول الغربية تسير نحو ملافاة الاخطاء التى وقعت فيها وتقترب شيئا فشيئا من الديمقراطية الاقتصادية .

كما لاحظنا ان الـدول الاشتراكية التـى لا تعطى أية قيمة للديمقراطية السياسية ما لم تكن قبلها ديمقراطية اقتصادية ، تعمل على تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص التربوية بصورة أحسن مما تطبقه الدول الغربية وترتفع بالمستوى الثقافى لمواطنيها تدريجيا الى الحد الذى تصبح فيـه الديمقراطية الاقتصادية ناقصـة اذا لم ترافقها الديمقراطية السياسية ، وهكذا تقترب الدول الغربية والدول الاشتراكية من بعضها البعض على الرغم من الفوارق التى تفصل بينها . .

ويقول هانز مؤلف كتاب « التربية المقارنة » بهذا الصدد ما يلى : « ان هذه البلدان الاربع كانت فى الماضى كما هى الآن قائدة للبشرية فى بناء مجتمع ديمقراطى جديد كما انها امدتها بالافكار التى اصبحت فيما بعد ملكـا لجميع الشعوب والاجناس ، لقد كان لانكلترا ثورتها قبل الاخريات وأوجدت باسم « الحرية » توازنا بين التقاليـد والتغير ، وكان لامريكا وفرنسا ثورتاهما فى القرن التالي باسم « المساواة » وقوضتا الى الابد بقايا الامتيازات الاقطاعية ، وبعد قرن آخر اقتفت روسيا أثرهم باسم « الاخوة » فى ثورة عارمة ، وان آثار هذا الزلزال الروحى يحس بها الناس فى جميع انحاء العالم ، وان يقظة الشعوب الملونة هى النتيجة المباشرة له . » (١٤) .

وهكذا تكون التربية قد لعبت دوراً مزدوجا وان لم يصل الى غاياته النهائية بعد ـ فى محاولة لتحقيـق الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية او الاقتصادية فى ذات الوقت فى عالمنا المتغير ـ ومن أهم النتائج التى جناها العالم المتقدم من ذلك انه رفع من المستوى الثقافى والسياسى للمواطنين فيه بصفة عامة بحيث اصبح هـذا المستوى الجديد احد الضمانات لاستقرار النظام الاجتماعي وتطوره ، كما انه فى الوقت نفسه هيأ فرصاً متكافئة امام جميع المواطنين للافادة من

---

(١٤) انظر : Nicholas Hans, Camparative Education, p. 325.

التربية والتعليم وذلك بمحاولته تحقيق مبدأالديمقراطية الاقتصادية اما بشكل تدريجي وبطيء وناقص كما تفعل الدول الغربية واما بشكل جذري كما فعلت الدول الاشتراكية .. وتزودنا تجارب العالم الغربي والعالم الاشتراكي بعبر ينبغي علينا في وطننا العربي الكبير ان نستفيد منها ..

العلم والتكنولوجيا والتربية

اصبح العلم والتكنولوجيا من الأمور التي ترتبط بالتربية ارتباطا وثيقا ، كما انهما حازا على اهتمام الحكومات .

ان حياة الامم المتقدمة اصبحت تعتمد الى حد كبير على تقدمها العلمي والتكنولوجي الى جانب متانة نظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وزاد من اهتمام الحكومات بالعلم والتكنولوجيا التقدم الهائل في الابحاث الذرية والاقمار الصناعية والصواريخ الموجهة التي اصبح تفوق دولة واحدة فيها على دولة أخرى أو دول اخرى يثير الخوف في نفس الدولة أو الدول المتخلفة ، واننا نعيش الآن في عصر تحاول فيه أقوى دولتين في العالم ـ الاتحاد السوفيتي والولايات الامريكية المتحدة ـ أن لا تتخلف احداهما عن الاخرى في حقل العلم والتكنولوجيا وخاصة في حقل الذرة والصواريخ .

ان للعلم تاريخا يعود الى العصور القديمة ، ولكن التقدم العظيم الذي حققه العلم الحديث يعود الى العصور المتأخرة حيث قام فرنسس بيكون وغاليليو وديكارت وغيرهم ، بتطوير الطريقة العلمية ، وقد أدى ذلك الى كثير من الاكتشافات والاختراعات العلمية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وكانت هذه الاكتشافات والاختراعات تتم خارج المعاهد العلمية العالية ، وخاصة الجامعات ، وفي داخلها ، كما كانت تتم في الغالب نتيجة للتشبث الفردي الذي يقوم به العالم نفسه أو بالتعاون مع زملائه او مساعديه أو بتشجيع من بعض الشركات الكبرى التي بدأت تهتم بالبحث العلمي الذي له علاقة بمجال نشاطها .

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا فقد بدأت الدول تشعر بان التطور العلمي ينبغي أن لا يترك الى الرغبة الفردية للعالم او الى المصادفات أو الى سياسة « دعه وشأنه » (Laissez Faire) بل لا بد من تدخلها في الأمر .

وكانت الحروب أو الاستعداد للحروب من جملة العوامل التي زادت من اهتمام الدول بالعناية بالعلوم والتكنولوجيا ، وهكذا نجد ان الدول الغربية مثل انكلترا والولايات المتحدة وفرنسا بدأت ببذل مساعدات مالية وغيرها لتشجيع البحوث العلمية ، ولعل الولايات المتحدة كانت من أبرز الدول الغربية التي سنت القوانين لتشجيع البحوث من جهة ولاعداد العلماء والباحثين من جهة اخرى ، وهكذا نجد أن مؤسسة الدفاع في هذه البلاد أو بعض الوزارات أو المؤسسات الاخرى تقوم بابرام عقود مع الجامعات أو الشركات الكبرى لكي تقوم لها ببعض البحوث ، كما خصصت مساعدات مالية كبيرة لاعداد العلماء والباحثين ، وعلى سبيل المثال فان الاموال التي خصصتها الحكومة الفيدرالية لمساعدة البحوث والتربية (اعداد العلماء والباحثين) ارتفعت من ٣ر٩٥ مليون دولار في عام ١٩٤٨ الى ٤ر٥٣٤ مليون دولار في عام ١٩٥٨ ، وقامت كل من وزارة

الدفاع ، والمؤسسة القومية للصحة ، والمؤسسة القومية للعلوم بتوزيع هذه المبالغ . وقد أصاب الجامعات حوالى ٥ر٦١٪ منها(١٥) .

وفى سبيل تنسيق البحوث العلمية وتشجيعها والتأكد من أن الولايات المتحدة ستبقى فى المقدمة فقد تم انشاء المؤسسة القومية للعلوم منذ عام ١٩٥١ ، ويعتبر انشاؤها حدثا كبيرا فى تاريخ العلم .

وظهر اهتمام الولايات المتحدة بالعلم والبحث العلمى فى اللجان القومية المتعددة التى عينها رئيس الولايات المتحدة لدراسة قضايا معينة تتصل بالعلم والتعليم الجامعي ، ومن اشهر هذه الدراسات « التعليم العالى للديمقراطية » (Higher Education for Democracy) التى نشرت فى عام ١٩٤٧ م والتى أثارت اهتماما كبيرا فى الولايات المتحدة وفى خارجها ، ويشير هذا التقرير بصراحة الى أن « مستقبل حضارتنا يعتمد على الاتجاه الذى ستتخذه التربية ليس فقط فى المستقبل البعيد ، وانما فى الايام القادمة » وشكل الرئيس لجنة اخرى عام ١٩٥٧ عالجت قضايا التعليم العالى(١٦) .

والى جانب الاهتمام بالعلماء والباحثين فان الولايات المتحدة أبدت اهتمامها أيضا بالأشخاص التكنولوجيين . اذ انه يتوقف على هؤلاء التكنولوجيين تقدم الصناعة والزراعة والهندسة والتجارة الخ .. ويمكننا القول بان اهتمام الحكومة الامريكية الفيديرالية بالكليات الزراعية والتكنولوجية منذ أواخر القرن التاسع يعكس هذا الاهتمام الذى ازداد بمرور الايام ، ويمكن اعتبار قانون مورل (١٨٦٢) أول خطوة حكومية فى سبيل الاهتمام بالتربية التكنولوجية وقد تبع ذلك تشريع آخر فى عام ١٩١٧ ، انشئت بموجبه كليات الزراعة والميكانيك والتى تطور بعضها الى ما يشبه الجامعات التكنولوجية فى المانيا ، وقد قدمت هذه الكليات والمعاهد الحكومية منها والأهلية (ومن اشهر المعاهد الأهلية معهد ماساجوستس التكنولوجى المعروف بـ (M.I.T.) خدمات جلى لتقدم الصناعة فى الولايات الامريكية المتحدة .

وبالرغم من الجهود الكبيرة التى بذلت لتنسيق الجهود العلمية والتكنولوجية ، وخاصة بعد انشاء المؤسسة القومية للبحوث فى عام ١٩٥١ ، فان هناك من يعتقد بانه ينبغى بذل جهود اخرى لزيادة التنسيق على مستوى الولايات وعلى المستوى الفيديرالى ، ويعتبر جيمس كونانت رئيس جامعة هارفرد السابق فى مقدمة الداعين الى ذلك .

ولعل من المفيد ان ننهى ملاحظاتنا حول الولايات المتحدة بالعبارة التالية وهى مقتبسة من قانون التربية للدفاع الوطنى لعام ١٩٥٨ كما عدل فى عام ١٩٦٣ :

« يرى الكونغرس ويصرح بان سلامة الأمة تتطلب التطوير الكامل للمصادر الفكرية والمهارات الفنية لشبانها وشاباتها ، وتتطلب الظروف الطارئة الحاضرة ان تهيأ فرص تربوية اضافية وبصورة كافية « للطلاب » . ان الدفاع عن الامة يعتمد على اتقان الاساليب الحديثة المتطورة من

---

(١٥) انظر : James Bryant Connant, Shaping Educational Policy p. 11.

(١٦) Presidents Commission: Education Beyond the High School.

وفى هذا التقرير تقترح اللجنة ان يستفيد من فرص التعليم العالي ما لا يقل عن ٥٠٪ من خريجي المدارس الثانوية .

المبادىء العلمية المعقدة ، كما يعتمد ايضا على اكتشاف وتطوير مبادىء جديدة ، واساليب جديدة ، ومعرفة جديدة » .

« ويجب ان نزيد من جهودنا لتشخيص اعداد اكثر من قابليات الامة وتربيتها ، ويتطلب هذا المجهود برامج تضمن أن لا يحرم طالب ذو قابلية من فرصة التعليم العالى بسبب العوز المالى ، وان نصلح بأسرع وقت ممكن عدم التوازن الموجود حاليا والذى ادى الى أن نسبة غير كافية من نفوسنا حصلت على تربية فى العلوم والرياضيات واللغات الاجنبية ، وان تتدرب فى الحقول التكنولوجية » .

ان هذه العبارة تبين بوضوح الاهمية التى تعلقها دولة كبرى على التربية العلمية والتكنولوجية بحيث أنها وضعتها بمنزلة الدفاع عن الأمة .

ويمكن القول ان تطوراً مماثلا ، وان كان يختلف فى تفاصيله ، حدث فى البلدان الغربية وخاصة انكلترا وفرنسا والمانيا ، وقد وصل الاهتمام فى انكلترا بالعلم والتكنولوجيا الى درجة انشاء وزارة للعلم فيها ، الى جانب وزارة التربية التى تهتم بشؤون التربية والتعليم .

وقد نشطت الدول الاعضاء فى منظمة التعاون والتطور الاقتصادى (OECD) لتطوير التربية العلمية والتكنولوجية فى كل منها ، كما انها تتعاون فيما بينها بالقيام بدراسات اقليمية للتوصل الى خير السبل فى ذلك(١٧) .

واما الاتحاد السوفيتى فيزودنا باسلوب آخر فى التربية العلمية والتكنولوجية .. انه بالرغم من أن لروسيا القيصرية خبرة غير قليلة فى الحياة العلمية والتكنولوجية المتمثلة فى جامعاتها القديمة ومعاهدها التكنولوجية ، وبالرغم من أن القيصر بطرس الاكبر كان قد خطط لتصنيع روسيا وتقدمها ، الا ان تلك المشاريع توقفت بسبب الحروب ولم يكتب لها ان تتطور بالشكل الذى تطورت به الجامعات ومعاهد التكنولوجيا الغربية . . فانه باستيلاء الشيوعيين على الحكم فى روسيا فى أعقاب ثورة اوكتوبر ١٩١٧ حاولت الحكومة السوفيتية ان تخطط للتطور الاقتصادى ومن ضمنه التطور العلمى والتكنولوجى ، مستفيدة مما كان لها من خبرة فى الحقلين ، وقد وضع الاتحاد السوفيتى اول خطة خمسية (لمدة خمس سنوات) فى عام ١٩٢٨ ، واستهدفت هذه الخطة الاسراع فى تصنيع الاتحاد السوفيتي وتجهيزه بالعلماء والباحثين والخبراء والتكنولوجيين ، وقد شملت الخطة اصلاحا جوهريا لنظام التربية والتعليم بكامله ، وأعطت اهمية كبيرة فى ذلك للتربية التكنولوجية والمهنية للأيدى او الكوادر التى سيوكل اليها تنفيذ عملية التصنيع .

وقد تمكن الاتحاد السوفيتى لذلك فى خلال عشرين عاما منذ البدء بتطبيق الخطة الخمسية من تحويل روسيا من بلد زراعى يضم ريفها حوالى ٨٠٪ من سكانها الى دولة صناعية عظيمة(١٨) وبالنظر للحاجة الماسة الى العلماء والتكنولوجيين لتطوير الاقتصاد فى اجزاء الاتحاد السوفيتى

---

(١٧) تضم دول منظمة التعاون والتطور الاقتصادى الدول التالية : النمسا ، بلجيكا ، كندا ، الدانمرك ، فرنسا ، جمهورية المانيا الغربية ، اليونان ، ايسلندا ، ايرلندا ، ايطاليا ، لكسمبرج ، هولندا ، النرويج ، البرتغال ، اسبانيا ، السويد ، سويسرا ، تركيا ، المملكة المتحدة ، الولايات المتحدة ، يوغوسلافيا .

(١٨) انظر : Nicholas Hans, Comparative Education pp. 74, 75.

الاخـرى ، فـان الحكومـة عملت على مضاعفة المدارس الصناعية ، وعلى توزيعها بشكل منسجم فى انحاء البلاد ، وعلى فتح مدارس جديدة بطرق جديدة ، ومناهج جديدة لسد الحاجة الى الفروع التى لم تكن موجودة فى المدارس السابقة (١٩) .

وقد جند الاتحاد السوفيتى العديد من الطلاب للالتحاق بالمدارس والمعاهد المهنية والتكنولوجية ، وكمثل على التطور الذى حصل فان نسبة الطلاب الذين كانوا يدرسون التكنولوجيا فى عام ١٩١٥ (قبل الثورة) كانت ١٩٪ بينما ارتفعت هذه النسبة فى عـام ١٩٣٣ الى ٤٩٪ وكانت نسبة طلاب الزراعة فى عام ١٩١٥ حوالى ٦ر١٪ بينما زادت فى عـام ١٩٣٣ الى ١٣٪ (٢٠) ولقد كان هذا على حساب الدراسة الثانويـة العامة ، ولكن الامور بدات تكون اكثر موازنة بعد ان سدت الدولة حاجتها الى الأيدى الفنية .

واذا ما اردنا ان نقارن بين الأسلوب الذى اتبعه الاتحاد السوفيتى فى التصنيع وفى اعداد العلماء والتكنولوجيين ، بالاسلوب الذى اتبعته الدول الغربية فلا نجد عبارة توضح ذلك خيراً من العبارة التالية للاستاذ هانز :

« بينما لا يكاد ان يسمى التغير الاقتصادى الذى حدث فى انكلترا بثورة بل الأولى ان يسمى « تطوراً صناعياً » استغرق ١٥٠ عاماً لتحقيقه ولتكييف النظام التربوى للبناء الاقتصادى ، فان التغير فى روسيا هو فى الواقع « ثورة صناعية جذرية على خير ما تكون الثورة » فلقد اختزل ١٥٠ عاما مـن التاريخ الاقتصادى والتربـوى الانكليزى فى فترة لا تتجاوز عشرين عاما ، نتج خلالها تغير على اعلى مستوى من الجذرية والسرعة عرفه التاريخ، وحتى التحول الشهير الذى حققته اليابان والذى اثار خيال العالم الغربي لا يقارن بتحول الاتحاد السوفيتى(٢١)

وهكذا نرى مجدداً ان العلم والتكنولوجيا يعتمدان اعتماداً كبيراً على التربية وانه لكي نحقق التطور الاقتصادى او الصناعى الذى نهدف اليه فلا بد من ان نخطط لذلك تخطيطا علمياً .. ان الدول الغربية بدات فى اعداد العلماء والتكنولوجيين من دون خطة ، ولكنها وجدت نفسها ، وخاصة خلال الأزمات كالحروب ، وفى الوقت الحاضر ، مضطرة لان تعتمد على خطة قومية تشرف عليها الدولة ، وقد رأينا كيف ان هذا قد تم فى انكلترا عن طريق وزارة العلم والتكنولوجيا الى جانب وزارة التربية، كما انه قـد تم فى الولايات المتحـدة عن طـريق المؤسسات الحكومية كالمؤسسة القومية للبحوث ووزارة الدفاع .

اما فى الاتحاد السوفيتى فقد كان التخطيط بداية العمل ، ولكل بلد ظروفه التى تملى عليه اتباع الطريق التى تناسبه ، فما هى الطريق التى تناسبنا فى البلاد العربية ؟

★ ★ ★

(١٩) انظر المصدر السابق ص : ٧٧

(٢٠) انظر المصدر السابق ص : ٧٧

(٢١) المصدر السابق ص : ٧٩

التنمية الاقتصادية والتربية

بالرغم من أن كلا من المواضيع الرئيسية التي أثرناها (الدولة والمجتمع الدولى والتربية ، والديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية والتربية ، والعلم والتكنولوجيا والتربية) والموضوع الحالى (التنمية الاقتصادية والتربية) متداخلة مع بعضها، وخاصة الموضوعين الأخيرين، الا ان كلا منها يؤكد على ناحية واحدة دون أخرى .. هذا من جهة ومن جهة أخرى فان هذه النواحى لا تشمل جميع النواحى التى لها علاقة بموضوعنا الرئيسى وهو « التربية فى مجتمعنا المتغير » ، اذ أن هناك نواحي أخرى كالتربية الدينية والخلقية والتربية لم نتعرض لها فى هذا البحث نظراً لانها تتطلب ـ بحسبما نعتقد معالجة خاصة بها ـ ولذا فسوف نكتفى بمعالجة التنمية الاقتصادية والتربية ، ثم ننتقل من بعد ذلك الى دراسة التربية والتغير الاجتماعي ، ثم ننهي بحثنا ببعض النتائج والاقتراحات الخاصة بعالمنا العربى .

لقد شاهدت السنوات الاخيرة اهتماما متزايداً بالتخطيط التربوى نظرا لعلاقته الوثيقة بمشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وليس الاهتمام بهذا الامر مقصوراً على الدول المتخلفة فحسب بل انه يشمل الدول المتقدمة أيضا ، اما بالنسبة للدول المتخلفة فالأمر ملح جدا نظراً الى انه لم يعد فى الامكان ترك التنمية الى سياسة « دعه وشأنه » (Laissez Faire) اذ ان هذه السياسة لا تستطيع مجابهة المشاكل الملحة التي تتطلب حلولا سريعة فى ضوء العلم والتخطيط، ولم يكن حظ الدول العربية أو دول منطقة الشرق الأوسط قليلا من حيث التخطيط للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ولكن ما قامت به لا يزال فى البداية ، فان البنك الدولى للانشاء والتعمير (I.B.R.D.) بناء على طلب بعض الحكومات العربية ، قام بدراسات حول التنمية الاقتصادية لعدد من الدول العربية كالكويت وسوريا والعراق ، ووضعت بعض الدول العربية لنفسها مستعينة ببعض الخبراء مشاريع سنوات (خمسية أو عشرية) لكي تنمى مواردها الطبيعية والبشرية وتستثمرها لصالحها .

ولم يكن اهتمام الدول الغربية او الاشتراكية بالتخطيط لاغراض التنمية الاقتصادية والاجتماعية باقل من اهتمام الدول المتخلفة .وقد سبق ان ذكرنا « منظمة التعاون والتطور الاقتصادى » (OECD) التي تضم عدداً غير قليل ن الدول الغربية المتقدمة كالولايات المتحدة وانكلترا والمانيا وفرنسا وغيرها ، سبق ان ذكرناها كأحدى المنظمات الغربية التي اهتمت بالتخطيط التربوى العلمي كجزء من التخطيط الاقتصادى العام ، وبالاضافة لهذه المنظمة المهمة توجد هيئات فى كل بلد غربي تهتم بالتخطيط الاقتصادى والاجتماعي فيه ..

أما الدول الاشتراكية ، فقد اعتمدت منذ اول تشكيلها على التخطيط الاقتصادى والاجتماعي والثقافي ، وقد سبق ان ذكرنا ان الاتحاد السوفيتي وضع أول خطة خمسية له فى عام ١٩٢٨ ، ومنذ ذلك الوقت والاتحاد السوفيتي يضع الخطة الاقتصادية تلو الاخرى ، وقد اقتفت الدول الاشتراكية الاخرى اثر الاتحاد السوفيتي فى هذا الشأن .

فأين تكمن العلاقة بين التربية والتنمية الاقتصادية ؟

هناك أولاً عدد من الاقتصاديين والسياسيين الذين يعتقدون بان استثمار الطاقات الانسانية الكامنة فى الافراد الذين يكونون الشعوب أو الدول هو شبيه باستثمار المواد الخام ، ولذا فان البشر يكونون « رأسمال بشرى » ، وان استثمار هذا الرأسمال هو « استثمار للانسان » . ويدلل

هؤلاء الاقتصاديون على ان التربية والتدريبعامل مهم فى عملية الانتاج الى جانب العوامل الاخرى (٢٢) وهناك ثانيا اعتقاد بان الصرف علىالتربية يجب ان يبنى على نفس الأسس التي يبنى عليها الصرف على اى مشروع اقتصادىآخر ، ومعنى هذا انه ينبغي علينا أن ننظر الى التربية كعملية استثمارية وليس كعمليةاستهلاكية ، فنحدد استنادا الى ذلك ما نصرفه على كل مستوى تربوي على اساس الأهدافالاقتصادية والاجتماعية التي يحققها . (٢٣)

وهناك ثالثا شعور بان علينا لكي نضمن نجاحالخطة الاقتصادية والاجتماعية التي نضعها ــ أن نعد الأيدى العاملة الفنية والماهرة والكوادرالادارية والمشرفة والمنفذة والمخططة والعلمية والتكنولوجية التي تحتاج اليها الخطة العامة ــومن الضرورى لكي يتحققذلك ان نضمنالتنسيق بين التربية والتخطيط ، وهناك اخيرا وليسآخراً ، شعور بان الخطة الاقتصادية والاجتماعية يجب ان تكون بعيدة المدى ، وان ذلك يتطلب انتكون للتربية هي الاخرى خطة بعيدة المدى منسجمة مع الخطة الاقتصادية . (٢٤)

وهكذا برز دور التربية فى عملية التنميةالاقتصادية والاجتماعية ولكن تغير الظروف الاقتصاديةوالتكنولوجية يزيد من مهماتالتربية «انها تفرض على التربية ان تربط نظمها وطرائقها ومناهجها باغراض التنمية ،انها تملي عليها مهماتجديدة من مثل العناية بالتكوين المهني ، ونشر التقدم العلمي والتكنولوجي ، والاعداد للبحوثالعلمية الاساسية والتطبيقية ،وخلق روحالابتكار والتجديد فى عصر يقوم فيه الانتاج على هذاالابتكار والتجديد المستمر » (٢٥)

التربية والتغير الاجتماعي

لعل هذا الموضوع يثير كثيراً من الاسئلة ،فهلالتربية هي التي تقود المجتمع الى التغيير الاجتماعي ؟ أم هل تتبع المجتمع فتتغير تبعاله ؟ام هل هي عامل استقرار وثبات فى المجتمع ؟

يختلف المربون فى الاجابة على هذه الاسئلةوامثالها ، ولكن لو تتبعنا تاريخ التربية من جهة والدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية من جهةأخرى لرأينا ان المجتمع فى الغالب اوجد النظام التربوى والمدرسة النظامية لكي ينقل الى الاجيالالجديدة اساليب عيشه ومهاراته وخبراته وتراثه وقيمة بحيث يجعلها ــ أى الاجيال ــ كفوءة للقيامبدورها عند النضج ، ولقد سبق أن قبلنا تعريفا للتربية للمربي الفرنسي أوبير يتضمن هذهالمعاني،وقد يرى البعض فى قبول هذا المفهوم للتربية تأكيداً على الدور المحافظ للمدرسة وقد يصبحالدور المحافظ أحيانا دورا رجعياً .. ان لهذا الخوف ما يبرره فى المجتمعات المغلقة على نفسهامن الداخل أو الخارج ، فالمجتمع من هذا النوع لن يسمح لاحدى مؤسساته الاجتماعية ــ التيهي من صنعه ــ ان تعمل على تغييره ، وقد

(٢٢) انظر : OECD Forecasting Educational Needs for Economie and Social Development, p. 7.

(٢٣) انظر المصدر السابق « ص ٨ »

(٢٤) انظر المصدر السابق . كذلك انظر عبد اللهعبد الدائم « التخطيط التربوى »

(٢٥) عبد الله عبد الدائم من محاضرة مطبوعة له

حدث هذا في المجتمعات القديمة بصورة عامة كماحدث في العصور الوسطى ، وخاصة في اوربا حيث لم يكن في وسع المدارس الكاثوليكية ان تتخذ لنفسها منهجا او اسلوباً غير المنهج أو الاسلوب الذى ترسمه الكنيسة الكاثوليكية لها ،وقد حدث مثل هذا في عصور التأخر التي مرت على الشعوب العربية والاسلامية ، اذ اصطبغت المدارس الدينية بالصبغة المحافظة ان لم تكن الرجعية ، ولكن المجتمع اذا كان منفتحاً على نفسه من الداخل أو الخارج فان المدرسة فيه تتسم بالمحافظة المرنة التي تقبل التغير التدريجي البطيء الذى سبق وقبله المجتمع ذاته ، ويمكن ان نورد امثلة عدة على هذا النوع من التطور التربوى ..

فقد تطورت المدارس الانكليزية منذ أول تأسيسها الى الوقت الحاضر تطوراً كبيراً ، بحيث ان المرحلة التي وصلت اليها الان يمكن ان تعتبر ثورة تربوية اذا ماهي قورنت بما كانت عليه المدارس الانكليزية في الماضي ـ منذ مائتين اوثلثمائة سنة مثلاً ـ ولكن هذا التطور التدريجي للتربية الانكليزية انعكاس للتطور التدريجي للمجتمع البريطاني .

ولو رجعنا الى الثورات التي سبق وذكرناها في اول هذا البحث كالثورة الامريكية والثورة الفرنسية والثورة الشيوعية وحاولنا ان نعرف تاثير التربية والمدارس في وقوعها لراينا ان هذا التأثير كان ثانويا ، ولو اخذنا فرنسا بالذات قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩) كمثل لوجدنا ان المدارس الفرنسية فيها كانت تتعاطف مع الاشراف ورجال الدين (٢٦) نعم لقد حاول بعض الكتاب الثوريين التأثير على الطلاب ، ولكنهم لم يتمكنوا من التأثير فيهم عمليا . ولم يتيسر لهؤلاء الكتاب التأثير في الناشئة الا بعد نجاح الثورة الفرنسية وتبنى الدولة للافكار الجديدة (٢٧)

وتبين لنا هذه الامثلة ان المدرسة هي من صنع المجتمع ، وانها لا يمكن ان تقوده الى التغير ،وانما هو الذى يقودها : وقد اصبحت المجتمعات المتقدمة تدرك النتائج الخطيرة التي تنجم من نظام تربوى لا يتمتع بقدر معقول من الحرية الاكاديمية،وحرية الاختلاف في الراي وحرية البحث وحرية النقد ، اذ أن الحرمان من هذه الأمور يشل العملية التربوية ويؤدى الى الجمود الفكرى بدلاً من الابداع ، ولذا فاننا نجد ان المجتمعات المتقدمة صارت تحرص على ضمان هذه الحريات للمعاهد التربوية ، وخاصة المعاهد العليا والجامعات ،ونجد أن هذه الحريات الاكاديمية تتمثل على خير شكل عملي ـ ولا نقول مثالياً ـ في انكلترا وفرنسا والبلدان السكندناوية ، أما الولايات الامريكية المتحدة ، فبالرغم من انها تنتمي الى التراث والتقليد الأوروبيين ، فان الحريات الاكاديمية فيها لا تتوفر بالشكل الذى تتوفر فيه في البلدان التي سبق ذكرها ..

وبصورة عامة يمكننا القول ان المجتمعات الجمعية (Pluralistic Societies) اى المجتمعات التي تضم فئات مختلفة ذات مصالح مختلفة كماهو الحال في البلدان الغربية اكثر تسامحا في الاختلاف بالرأى واكثر مراعاة للحريات الاكاديمية ـ ضمن المفهوم الغربي لها ـ من المجتمعات الكلية (Totalitarian) كما كان الحال في المانيا النازية وايطاليا الفاشية ، ومن المجتمعات الاشتراكية ـ التي لها هى الاخرى مفهومها الخاص بها للاختلاف في الرأى والحريات الاكاديمية ـ فحيث توجد فئات مختلفة لها مصالح مختلفة ولها فلسفات اجتماعية وسياسية مختلفة واحزاب سياسية مختلفة وديانات وطوائف دينية مختلفة كما هو الحال في الدول الغربية ، فان الاختلاف

---

(٢٦) انظر : John S. Brubacher. A History of the Problems of Education p. 585.

« ٢٧ » انظر المصدر السابق ص : ٥٨٥

الذى يتمثل فى المجتمع فى بعض نواحي الحياةينتقل الى المدارس التي تسيطر عليها بعض الفئات ، كالمدارس الدينية او المدارس الخاصة فىانكلترا مثلا ، فلكل من الكنيسة الانكليكانية والكنيسية الكاثوليكية مدارسها الخاصة التيتكون تابعة لتوجيه الكنيسة التي تنتمي اليها ، وليس الى الدولة ، والتي تتبع مناهج خاصةغير مناهج الدولة .

كما أن لنقابات العمال فى انكلترا نظاماً تربوياً واسعا لتربية الراشدين بين الطبقة العاملة ، ولا تخضع هذه المدارس لاشراف الدولة ، وبالنظرالى أن حزب العمال يدين بالاشتراكية فمن المتوقع انه يبشر للاشتراكية بين العمال فى هذهالمدارس حتى فى ظل حكومة محافظة (أعنيحكومة يتولاها حزب المحافظين) لا تؤمن بالاشتراكية .

ويعتبر هذا الوضع فى انكلترا من المشاكلالتربوية المهمة التي تتطلب حلا عمليا تقبله الأكثرية ولا تعارضه الاقلية أو الأقليات معارضةمبنية على العقيدة الدينية ، أو الضمير ، أو الراي بحيث تحقق للشعب البريطاني الوحدة ضمنالتنوع او كما يقولون فى الانكليزية (Unity Within Diversity) وقد قطعت انكلتراشوطا لا بأس به فى هذا المجال ، وخاصة فيما يتعلق بالاشراف على التعليم الخاص ، ولكنلا تزال امامها بعض المشاكل التي لم تحل .

ولكن ، لنتساءل الآن — الا يكون للتربية أوللمدرسة — دور فى تغيير المجتمع ، ومتى يبرز مثل هذا الدور ؟ يكون للتربية أو للمدرسة دورفى تغيير المجتمع حين يعهد اليها المجتمع بذلك ، فان الثورات التي سبق ذكرها (الامريكية ،الفرنسية ، الروسية) عهدت الى التربية بالدور الجديد الذى يتطلبه المجتمع الجديد منها ، ويمكنان تكون الثورة الروسية خير مثل على ذلك ، فانه بمجرد استيلاء الحزب الشيوعي على السلطة فى روسيا سيطر على النظام التربوى وحوله من جهاز يؤيد الحكم القيصرى الى جهاز يعاديهويؤيد حكماً جديداً مناقضاً تماما لذلك الحكم .

ومنذ ذلك الوقت والتربيةفىالاتحاد السوفيتيتخدم النظام الجديد ، واصبح مثلها فى هذا بعد ان استقر النظام الشيوعي مثل المدارس فى ظلالنظام الديمقراطي الغربى بصورة عامة ، وحدث الشيء ذاته حين استولى الحزب النازى علىالحكم فى المانيا قبل الحرب العالمية الثانية ، فان التربية اصبحت وسيلة من وسائل الدولة لتأييدالنظام ، وكذلك حدث الشيء ذاته فى ظل الحزب الفاشستي فى ايطاليا .

ويوجد هناك مفكرون ومربون يعتقدون بانهينبغي ان لا تكون التربية تابعة للمجتمع ، كما لا ينبغي ان تكون قائدة له ، وانما ينبغي ان تعنىبتربية الرجال والنساء بشكل يساعدهم على تنمية امكاناتهم وتطويرها كما تساعدهم علىالتفكير المستقل ، ويعبر المربي الألماني المشهور فروبل (Froebel) عن هذا الرأىبالعبارة القوية التالية :

« انني لو كنت جهازا فى الدولة لعنيت بعملاجهزة أخرى ، ولكنني ارغب فقط فى تدريب رجال أحرار ، ومفكرين ، ومستقلين » (٢٨) ونجد من بين المربين المحدثين جون ديوى الفيلسوف

« ٢٨ » مقتبسة فى المصدر السابق — ص : ٥٩١

التجريبي الامريكي (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢) يدعو الى أن لا تتأثر التربية بالظروف السياسية والاجتماعية الخارجية للمجتمع ، بل على العكس ان تحدد هي أهدافها مستقلة عن اى تأثير خارجي ، وقد وجدت هذه الدعوة فيما بعد تجاوبا عند مرب امريكي آخر ـ الاستاذ جورج كونتس «G. S. Counts» الـذى دعـا المعلمـين وهـم الذيـن يملكـون اكبر قوة فى توجيه الاجيال القادمة ، ويتسلحون بتراث الماضي وتجاربه وحكمته الى ان يستولوا على السلطة عن طريق تكوين جيل يؤمن بنظام اجتماعي جديد ، ورايه فى ذلك أن السياسيين والعسكريين ورجال الدين ورجال الاعمال حاولوا قيـادة المجتمع ولكنهم فشلوا فى ذلك ، فلماذا لا يدلي المعلمون دلوهم فى الدلاء ويجربون حظهم فى انقاذ المجتمع من محنه التي يقاسي منها .(٢٩) ومع ان الاستاذ المذكور حاول أن يصدر بياناً مع غيره من المربين يدعون فيه المعلمين الى هذه المهمة الخطيرة ، الا انه لم يكتب لهذا البيان أن يـرى النور ، لأن الذين اجتمعوا لتوقيعه لم يتفقوا على طبيعة النظام الاجتماعي الجديد الذين يدعـون اليه (٣٠)

بعض النتائج والاقتراحات بالنسبة لدور التربية في الوطن العربي

بالرغم من اننا لم نستوف معالجة البحث من جميـع النواحي ، وانما اخترنـا بعض النواحي المهمة منه ، فاننا يمكن ان نستخلص بعض النتائج من دراستنا تساعدنا على تحديد اكثر وعيا ودقة لدور التربية فى المجتمع العربي الحاضر ، وربمـا سأكون معبـراً عن آرائي الخاصـة فى اكثر مـا ساورده فى هذا القسم من البحث . .

ان المجتمع العربي فى تغير ، شئنا أم ابينـا ، ثم ان من مصلحتنا ان نوجه هذا التغير لصالح الأمة العربية وان يستهدف هذا التغير الوصول بالأمة العربية ـ متحدة ، أو موحدة ، أو متضامنة ، أو غير ذلك ـ الى مصاف الأمم المتقدمة ، وباسرع وقت ممكن ، وأود ان أؤكد على نوعيـة التقـدم والسرعة . . اذ المشاهد مع الأسف الشديد اننا نقل بعض مظاهر التغير كاستعمال السيارات او تشييد العمارات الكبيرة أو انشاء المستشفيات أو تأسيس المدارس الحديثة ، او اتباع الاساليب الحديثة فى الادارة . . اننا نعنى بالشكليات دون الجوهر فاستعمالنا للآلة يصحبه اهمال لها وعدم صيانتها مما يؤدى الى توقفها عن العمل فى وقت سريع ، واقامتنا للأبنية يصحبه اهمال لصيانتها والعناية بمرافقها المختلفة مما يؤدى الى تلفهـا السريع ، وادارتنا للمستشفيات والمدارس اذا ما هي قيست بالادارة المتبعة فى البلدان المتقدمـة تظهرنا وكأننا بدائيون ، واساليبنا الادارية لا تزال حبيسة الاوراق والاضابير والروتين . . واهتمامنا بالمظاهر ـ التي نعرف انها لا تمثل الواقـع ـ تجعلنا نعيش فى عالم وهمي من التقدم الـذى نعتقد أننا حققناه ، ولذا فان علينا حين نفكر فى التغير وفى التقـدم ان نفكر فى التغـير الحقيقي والتقدم الحقيقي . . ولن تصل الأمة العربية الى

---

(٢٩) الف الاستاذ جورج كونتس كراسا يدعو فيه الى هذه الفكرة وعنوانه : هل تستطيع المدرسة بناء نظام اجتماعي جـديد ؟ Dare the School Build a New Social Order?

(٣٠) انظـر : Brubacher History of the Problems of Education. p. 593.

مصاف الأمم المتقدمة ، إذا لم تحقق تغيراً وتقدماحقيقيين ، أما السرعة فى التقدم فحيوية بالنسبة للأمة العربية ، ونحن لا يسعنا أن ننتظر اجتيازالفترات التي مرت بها انكلترا مثلا منذ الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر الى الوقتالحاضر ، بل لا بد من اختصار هذه الفترة ، كما اختصرتها اليابان ، وكما اختصرها الاتحادالسوفيتي ، انني لا استطيع تحديد الوقت . لتحقيق التغير والتقدم ، ولا شك ان المختصين من بين خبراء الامة العربية والخبراء غير الغرب الذين نثق بهم قادرون على تحديد الوقت اللازملتطور كل بلد عربي او مجموع الامة العربية ،ومن العوامل التي تدعونا الى اختصار الوقت ان لنا عدواً خطيراً سبقنا فى مضمار التغير والتقدم . واعني به اسرائيل والصهيونية العالمية ومن يؤيدهما ، واننا ليس فى وسعنا الانتظار اكثر من مائة وخمسين سنة لكي ننتقل من مجتمع متخلفالى مجتمع متقدم ، بل لا بد من اختصار الوقت كما اختصرته اليابان والاتحاد السوفيتي .

وبعد هذه المقدمة أذكر النتائج والاقتراحاتالتالية :

١ — ان التربية عملية بناء ولم يعد فى امكان أيةأمة تريد البقاء والحياة أن تهمل عملية بناء كيانها، فلا بد ان تشمل التربية جميع اطفال الامة العربيةالذين هم فى سن التعليم الالزامي ، وان تيسرها لغيرهم بقدر ما تسمح به الظروف الاقتصاديةولكن بسخاء فى مرحلتي التعليم الثانوى بانواعه والتعليم العالي بأنواعه .

٢ — ان العالم العربي يمر فى فى تغيراتسياسيةواقتصادية واجتماعية وثقافية،ولا يمكن ان تعزل التربية عن هذه التغيرات ، بل الواجب علىالمخططين لمستقبل الامة العربية ان يحسبوا للتربية حسابا مهما فى انجاز عملية التغير والتقدمبشكل حقيقي وفى اسرع وقت ممكن .

٣ — لقد تقدمت العلوم المختلفة والتكنولوجيا تقدماً هائلاً ، ولا بد للامة العربية من أن تعد من ابنائها وبناتها من يتفقه فى العلوم والتكنولوجيابنفس المستوى الذى تفقه فيه أمثالهم من الدول المتقدمة فى هذه الحقول ، ولذا فينبغى العنايةالقصوى باعداد العلماء والباحثين والتكنولوجيين العرب .

٤ — كذلك تقدم الاقتصاد والادارة تقدماً كبيراًسواء اكان ذلك من ناحية المعرفة الهائلة التي وصل اليها الانسان لنجاح العمليات الاقتصادية والادارية أم منناحية الاساليب الحديثةفىالانتاج والتوزيع والادارة ، وينبغي تبعاً لذلك ان نعدالاقتصاديين والاداريين الذين يستطيعون تطوير اقتصادنا واساليبنا الادارية من اشكالها شبهالبدائية الى الاساليب الحديثة حقا .

٥ — ان التربية عملية سياسية بقدر ماهيعملية بناء ، وهي عملية سياسية بمعنى أنها تعد المواطن الذى يكون عاملا فعالا فى تكوين الامةالحديثة والدولة الحديثة ، كما يكون عاملاً فى سبيل استقرارها وتطورها .

ولذلك فلا يسع الامة العربية ان تهملالتربية،وان انتقالنا كأمة من وحدات عائلية وعشائرية

وطائفية الى وحدات سياسية يضع علىالحكومات العربية تأكيد الولاء فى نفس التلميذ للوطن قبل العوائل والعشائر والطوائف التي ينتمي اليها . .اي غرس التربية الوطنية الحقة ، وبالعمل قبل اللفظ .

كذلك لا بد للأمة العربية ـ وهي ممثلة فى وحداتها السياسية الصغيرة ـ من أن تؤكد على الولاء للأمة العربية ، وان تتخذ جميع الحكومات العربيةموقفا صريحا ـ روحا ، وعقيدة وعملا لا لفظاً فقط ـ من وحدة الامة العربية ، ويجب ان لايقف بحسبما أعتقد اى نظام سياسي ـ ملكيا كان أم جمهوريا ، اشتراكيا أم غير اشتراكي ـ امام وحدة الامة العربية او اتحادها فى وجه الخطر الاكبر الذى يجابها ـ وهو الغزو الاسرائيلي ـ الصهيوني . .

٦ ـ اننا فى الوقت الذى نرى أن تلعب فيه التربية دورها فى التربية للمواطنة الحقة ، والولاء الصحيح للامة العربية ، فاننا نرى ايضا ان تكون تربيتنا انسانية وعالمية ، تؤمن بالتعاون بين شعوب الأرض قاطبة ، وتدعو الى السلام العالمي، وتحارب التعصب العنصرى . . وان تأخذ هذه التربية الانسانية شكلا عمليا ـ لا لفظياً ـ فقط .

٧ ـ ان شؤون التربية والتعليم ينبغي ان تكون من اختصاص الدولة لا أن تترك للأفراد والهيئات، ويفضل ان تقوم الدولة بفتح المدارس ومن مختلف المستويات وكذلك الجامعات وتمويل هذه المؤسسات ، واذا شاءت السماح لبعض الفئات والهيئات بفتح مدارس خاصة ، فينبغي اولا ان تجيز الحكومة فتح هذه المدارس الخاصة ، وثانياان تتبع هذه المدارس المناهج الدراسية المقررة ، وثالثا ان تضمن الحكومة الاشراف على هذه المدارس وتوجيهها .

٨ ـ أن البحث العلمي الصرف منه والتطبيقي، ينبغي أن يكون من مسؤولية الحكومات العربية ، ولكن ينبغي أن تكون للامة العربية خطة متكاملة للبحث العلمي ، فلا تحاول كل حكومة ان تقوم بما تفعله الحكومات الاخرى ، ان مثل هذا العمل اهدار للمال والطاقات البشرية ، ولن يؤدى الى نتائج تتناسب والجهود التي بذلت والأموال التي صرفت ، وبالنسبة للبحث العلمي داخل البلد الواحد فى حالة وجود اكثر من جامعة فانه لا بد من تنسيقه .

كذلك يجب ان يكون هناك تنسيق بين الجامعات وبين مجالس البحوث فى البلدان التي توجد فيها مثل هذه المؤسسات ، ويا حبذا لو اعادت تلك البلدان النظر فى علاقة هاتين المؤسستين (الجامعة ومجلس البحوث) بعضها ببعض .

٩ ـ انه بالنسبة للتعليم الثانوى بانواعه والتعليم الجامعي لا بد من أن نفسح المجال فيهما لكل ذوي القابليات التي يمكن ان تفيد من هذين النوعين من التعليم ، دون ان يعوق هؤلاء اى عائق سببه المال ، اى فقر الطلاب او ذويهم ، ولا بد ان نحقق اقصى ما نستطيعه من ديمقراطية اجتماعية بين فئات الشعب كافة عن طريق التربية، فالتربية اذا احسن استخدامها تغدو احدى الوسائل التي تذيب الفوارق الطبقية فى المجتمع ، وتخلص ذلك المجتمع من الصراعات الطبقية واجتيازها الى المجتمع العادل الذى تتحقق فيه الديمقراطية السياسية والاجتماعية فى الوقت ذاته ، ودليلنا

الأول فى تشجيع ذوى القابليات على الدراسة الىالحد الذى تمكنهم قابلياتهم من الوصول اليه هو مبدأ تكافؤ الفرص التربوية امام الجميع .

١٠ ـ انه من الافضل بالنسبة للتعليم الثانوىوالتعليم الجامعي ان يدرس الطلبة على اختلاف الفروع التي ينتخبونها (فى المرحلة الثانوية) او الاختصاصاتالتي يختارونها (فى التعليم الجامعي) قدراً مشتركا عن الدراسات التي توحد نظرتهم الىالحياة « فلسفتهم » وتربطهمبتراثهمالحضارى والثقافى وتبصرهم بمشاكلهم كافراد وبمشاكلمجتمعهم .

انه ليس مـن غرضي ان احـدد الدروس أوالمواد التي ينبغي ان تعطى للطلاب فى كل مـن المرحلتين السابقتين ، ولكن يمكن ان اذكـر على سبيل المثال اللغة العربيـة ، والأدب العربي ، وشيئاً من الادب العالمي ، والحضارة العربيـةالاسلامية ، مع علاقتها بالحضارة الانسانية ومادة تتصل بمشاكل الفرد كعلم النفس مثلا ومـادةتتصل بمشاكل المجتمع الحديث مع التأكيد على المجتمع العربي ، ومادة علمية لغير المتخصص فىالعلوم ..

١١ ـ انه امام التقدم الذى يحدث فى رفـعمستوى التعليم الثانوى بفروعه المختلفة والتعليم الجـامعي ورفـع مستواه فى البلدان الغربيـةوالاشتراكية لا بد لنا من اعادة النظر فى هاتـين المرحلتين من حيث المناهج الدراسية والمستوىوالوسائل التعليمية وطرق التدريس .

ولا بد ان تكون مدارسنا الثانوية وجامعاتنـاذات مستوىرفيع حقاً ،وان تتخلص منالشكليات فىكل شيء وخاصة الاساليب الادارية البالية،وانتتحول الى وحدات تربوية كفؤة ومؤهلة للقيام بالدور التربوى المطلوب منها فى تغيير العالمالعربىمن عالم متخلف الى عالم متقدم .

١٢ ـ اننا فى المرحلة التي نجتازها لا بد لنا مناستخدام التربية ـ المدارسوالجامعات ـكوسيلة لتحقيق التغير الاجتماعي الذى نريده ، انه لا يمكننقل مجتمع متخلف الى مجتمع متقدم وناهض ومتصنع الا عن طريق المدرسة والجامعة ولكننا ينبغي فى الوقت ذاته ان نحـاذر مـن ان تكون مدارسنا وجامعاتنا أدوات مسلوبة الفكر ، اذ أنسلب الفكر وعدم تشجيع التفكيرالمستقل والابداع سيقتل امكانات الخلق فى الشخصيات الانسانيةالتي تعج بها مدارسنا وجامعاتنا فى طول البلاد العربية وعرضها ، وسنصاب نتيجة لذلك بالجمودبدلا من الحيوية .

١٣ ـ تلعب التربية دورا كبـيرا فى التنميـةالاقتصادية ، ولذلك فلا بد من النظر الى التربية علىانها عملية استثمارية وليستعمليةاستهلاكيةكمـا كنـا ننظر اليهـا فى الماضي ، كذلك لا بـد للمخططين والسياسيين منأن يدركوا دور التربيةفى الخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية وان يكـون هنـاك تناسق بين خطـط التنميـةالاقتصادية والاجتماعية وبين خطط التربية او التخطيط التربوى .

١٤ ـ من الضرورى ان تتعاون الدول العربيةفيما بينها فى مشاريع تنمية اقتصادية على غرار المشاريع التي تعاونت بعض دول البحر الابيضالمتوسط فيما بينها عليها باشراف منظمةالتعاون والتطور الاقتصادى (OECD) ..ان مثلهذه المشاريع التعاونية تمهد لنا الطريق لتعاون

أوثق ، كما انها تكون بمثابة تجارب واقعية اوميدانية للتعاون فى حقل التنميـة الاقتصاديـة والتخطيط التربوى .

وختاما أود ان انهي ما كتبت بعبارة شـهيرةللكاتب الانليزى هـ . ج . ويلز وفحواها « ان المدنية سباق بين التربية والدمار » ، فان وعينا أهمية التربية فى بناء مجتمعنا وعملنا على قيامها بدورها الانشائي فى تقدم العالم ازدهر العـالم وبقيت مدنية الانسان ، وان لم نع ذلك ، وتأخرت التربية عن القيام بدورها ، سبقها الدمار وقوض المدنية .

ان العالم كله عرضة لان يحقـق المدنيـة اوالدمار ، والامة العربية تعيش فى فتـرة ان لـم تنقذها التربية كان نصيبها الدمار ، فان انقذتها ـ وهذا ما نرجوه ـ كان نصيبها الحياة والتقدم .



العقل الاغريقي

على حافظ *

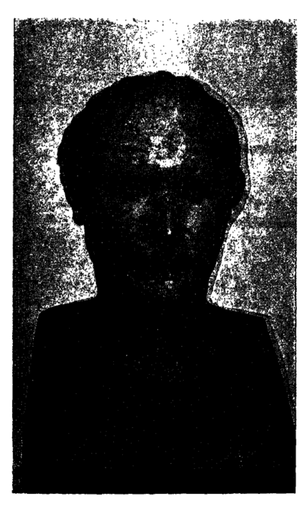
تمهيد :

لم أرد أن أمشي فى اثر قوم يهتفون بأن ما خلق الاغريق من آداب وفلسفة وفنون كان معجزة « Miracle grec » كما يقول رينان ولا الذين يردون كل علوم المدنية الغربية وفنونها وسياستها الى اصول يونانية ويكرهون أن يردوا أصول المدنية الاغريقية الى شيء قبلها فهي من خلق أمة النابغين الموهوبين الاغنياء بعقلهم وعلمهم ومعجزة العلوم والفنون، والذى ردني عن أن أمشي فى ركب هذه المدارس والأخذ بكل ما تكتب أو تقول تجربة شخصية استبقيت فيها حريتي فى قراءة ما أحب وفى التأمل فى أصول الفكر اليوناني والاخلاق اليونانية التى تثير كامن ضميرى كأنما تبعث من خلا من آباء ضمائرنا وترسل الحياة فيما وارته احقاب الدهر من آداب المصريين ، وكانت هذه التجربة كالكتابة المقدسة وكاشراق المؤمنين تبعث فى الروية أسباب القربى بين الشتيتين .. وكان ديموستين الأثيني حادى هذه التجربة وأول من سألت عن عقله ودينه وتهذيبه ، فعنوان المقال «العقل الاغريقي » كان سؤالا سألته يوما عسى أن أفهم به آيات عقل ديموستين .. وكانت النتيجة أن تتصل حياة هذا الخطيب بفلسفة أفلاطون وبطولة أبطال سوفوكل وبطولة أنتيجونه خاصة ، وبذلك ربطت فى هذا المقال بين بطولة أنتيجونه وبطولة سقراط وبطولة ديموستين ، واصبحت البطولة قاسما مشتركا

(*) الدكتور على حافظ أستاذ ورئيس قسم الدراسات الكلاسيكية سابقا بجامعة الاسكندرية قام بترجمة اعمال سوفوكليس الكاملة عن اليونانية .

بـين أعـلام الأدب الاغريقـي وكان الشـاعر « بندار » فى أول القرن الخامس ق.م يتغنى بهذه البطولة فى محافل الالعاب الأولومبية وكان بين شعر بندار ونقوش معابد المصريين نسـب قريب فى الرمز لدين العدل والخلود وامتدت الأسـباب فـاذا بعبـادة الابطال كانت دين المصريين العادلين الأولين ودين من أخذ عنهم من الاغريق صلاة الابطال ــ فامتدت بذلـك آداب ديموستين الى اصول المدنية الاولـى وأصبحت المعابد صلاة الابطال من أولياء الله والانسانية ، وتفسير العقل الأغريقـي بهـذا الدين يكشف المعدن الصافى والمعدن المزيـف فيمن أخذوا بآداب الاغريق فى تجربة الرومان وتجربة المدنية الغربية الحديثة .

وفى الأدب اليوناني كتاب كتبه أفلاطون يبين منزلة الخطر الماحق الذى أحاط بمدنية العدل والخير ــ هذا الكتاب هو كتاب بروتاجوارس السـوفسطائي الـذى يعجب بما جـاء بـه بروميثيوس من علم انساني جديد .. سرق بروميثيوس النار التى تخلق الفنون والصناعة ووهبها الانسان وعجـز بروميثيوس عن أن يأتي الانسان بالعدل فهو أب المدنية الحديثة فى كل ما تفخر به وفى كل ما تشكو منه .



(١)

عبادة الأبطال

آخر صلاة يودع فيها هيكتور (١) الحياة قبل أن يلقي حتفه أن نادى ربه والالهة أجمعين أن يهيئوا لابنه ما هيأوا لحياته فينبغ فى الفضل على بني طروادة ، وأن يهيئوا له حياة طيبة عادلة ليسمو فى ايليون حتى يقول القائلون انه بز أباه فى مجد القتال وليقتل عدوه ويسلب سلبه وتقر به عين أمه .

وباتت مسألة المسائل فى المدنية القديمة ان البطولة والفضيلة لا تورثان الا ما شاء الله ..

وبذلك أصبح هذا الميراث صلاة بيد الله يؤتي الفضل من يشاء والايام التى تصاحب حياة كل حي قد تحمل المجد وتحمل الشقاء وتزهر الانساب أحيانا وقد ترتد عقيما .. كالنبات والشجر فلمن يغرس الكبير شجرة ولمن يمد الابطـال ايمانهم بثمـار البطولة التى تتقطـع دونها العزائم .. لله رب العالمين ويتلقى ثمرات البطولة من يحمل تاجها ويسعى لها سعيها فى أمم مؤمنة بصلاة الابطال ، فميراث البطولـة حي أزلي لا يموت .. قائم خالد حتى يرقى اليـه بطل مؤمن فى عمـر هذه المدنية أو فى

---

١ ــ هيكتور بن بريام ملك طروادة وهوبطل طروادة فى الياذة هومير وهو نـد أخيل بطل ملوك الاغريق فى هذه القصيدة

صحوة الاقدار فى أعمار الانسانية .. آمنت قرية أن أعز ثمرها لا يثمر الا فى زرع المؤمنين العادلين ، وآمنت مدنية الابطال انها لا تنجب أبطالا بغير العـدل .. وثمار البطولة ثمـار الانسانية العادلة الدائبة ينوج بتاجها كـل نابغة طلاع أودية حمال ألوية .. انها ليست ميراث رجل ولا أسرة وهي ميراث النابغين فى العالمين فى أزل الدهر ..

كانت مدنية العادلين المؤمنين الذين عاشوا فى حياتهم سعداء فلما ماتوا نشرت الانسانية ذكرهم فى صلاتها وبنت لذكرهم مع الالهـة معابد الاولين .. انهم ارثوا الانسـانية صلاتهم وموسيقاهم وتفردهم فى الآداب والحكمة .. وارتقاءهم الى المثل الاعلى ، وخلودهـم فى جزر السعداء ، وخلدت المعابد سيرتهـم فى الحياة والممات وخلد الشعر أعمالهم فى الحرب والسلم .. ويحج الابطال الى معابدهم من كل فج عميق .. اتتصل اسباب البطولـة بين الموت والحياة .. وخلقت هذه المدنيـة الخلود لآثار البشر الفاني فى أفعالهم وأقوالهم وظلت أفعالهم وأقوالهـم آثارا خالدة كآثار معابدهم وصارت حكمتهم كنوز الابد .

* * *

عاشت صلاة الابطال فى معابد مصر ومعابد الاغريق تخلق أبطال الشـعر وابطـال الطب وأبطال الفنون والرأى والحكمة حتى مغرب المدنية الاغريقية فى مدائنها المختلفة ، فكـل مشرع كان حريصا على أن يهذب مدينتـه بالموروث من سير الابطال وبمقادير عادلة من شعر الابطال والموسيقى ورياضة الابـدان ، فمنذا الذى أطفأ نور معابد العدل وصـلاة الابطال قبل أن تغرب مدنية المصريين القدماء ومدنية المدائن الهيللينية .. الانسـان الذى عجز فلم يستطع تكاليف العدل والبطولة .. سكنت عبادة معابد المصريين وانتشرت فى العامة والكافة عبادة دين جديد ضمنت للعامة جنة بغير بطولة وسكنت معابد الهيللينيين عـن عبادة الابطال حين نقم العامة من الابطال تفردهم بالعدل والعلم والسعادة وجاءهم بروميثيوس(١) بقبس مسروق من معابد زيوس . وجاءهم السوفسطائيون بعلم جديد لا يؤمن باللـه ولا يكلف البطولة فى شيء والمورد السهل شديد الزحـام .

متى هب الصراع بين أوليـاء العامة وبين الابطال فى تاريـخ الادب القديم ومتى سرق بروميثيوس قبس النار وجاء يعدو به الـى العامة فأغضب زيوس واحتمل بروميثيـوس العقاب متكبرا وتنبأ بزوال ملك زيوس .. يوم يحتل ضمائر البشر اله أقوى من زيوس نفسه .. الاساطير التى حدثت بهذا الصراع اكتنفت أصولها سحب القدم ، وما يميـز الآداب الاغريقية القديمة الا أنها تبدأ فيما بقي من آثارها بآثار الابطال واناشيد الآلهة فى شعر هومير .. ثم ينحدر منحدر المدنية الى حكومة العامة وآداب العامة .. ويوم تعلـو كلمـة العامة تهجر معابد العدل والخير كتجربة خلت ليس لها وارث حتى فى أحلام الانسـانية .. فهل يحل لنا أن نذهب مذهب أولياء اللـه والعدل ونرمي مدنية العامة بأنها بربرية سعيدة ومدنية مزيفة ؟؟ فمنذ هجرت معابد العدل والخير لم يسمع الانسان موسيقى العدل ولم يقرأ الانسان بقلبه وجنانه صلاة الخلود ولا يكاد الانسان أن يصدق بدينها لانه ألف تهذيب العامة وحده وأحل فيه علماؤه الاولون الكذب وبدلوا فضائل العادلين رذيلة وصاروا كأجناس الحديد .

« الا ليتني لا يقضى عليَّ أن اعيش بين رجال الجنس الخامس فأموت قبل أن يولدوا أو أولد بعـد أن يذهب الله بهم مـن الارض .. أنهم

---

١ – بروميثيوس Prométhée هو رب من ارباب الاساطير سرق قبسا من نار تعلم العلوم والفنون وجاء بهـا الانسان وهو اب المدنية الحديثة التي تتقن الصناعة وتجهل العدل . اقرأ اسطورته فى بروتاجوراس لافلاطون

جنس الحديد الذين لا يستريحون من الكد نهارا ويعنون من عنائهم ليلا ، قد رماهم الله بهموم ثقال وقد يختلط بشرهم خير ما حتى يذهب الله بهذا الجنس من البشر الفاني اذا ولدوا بمفارق بيض لا يشبه الاب بنيه ولا يشبه الابناء آباءهم ولا يكرم الضيف ضيفه ولا يحب الصديق صديقه ولا ينصر الاخ اخاه كما الف الناس أن يفعلو فيما خلا من الدهر واذا بلغ الوالدان الكبر فلا يكرمهما ابناؤهما ويلوم الابناء آباءهم بكلمات فظيعة يا لهم من أشقياء أنهم لا يعرفون خشية الآلهة .. انهم يأبون أن يطعموا فى الكبر من أطعمهم صغارا لا يقيمون وزنا للقسم ولا للعدل والخير ولا يمجدون الا فاعل السوء والظالمين ، والعدل عندهم فى القوة وضياع الحياء .. ويؤذى أهل السوء الفاضلين بالافتراء والبهتان ويحلفون الايمان على ما يقترفون ويمضى الحسد فى أعقاب البشر المساكين يرميهم بالريب ويشمت فى مصائبهم ويقتفى آثارهم بوجه بغيض وحينئذ يهجر الارض العريضة الى السماء الحياء والعدل يخفيان جسمهما الجميل فى ثيابهما البيضاء ولا يبقى للانسان فى الارض الا الآلام والعذاب .. (هيزيود : « الاعمال والأيام » ١٧٤ وما بعده) .

★ ★ ★

المدنية الاولى وجدت فى دين العدل سعادة الدنيا والآخرة فتطاولت آمال العاجزين الى جزاء العادلين فاقتحموا أبواب جنة السعداء بشهادة مزورة واحتل الاسكندر الاكبر طرفا من معابد العدل والخير فى طيبة مصر ، وسُمّيَ الظالمون الغاشمون أبطالا اذا غلبوا ..وطردت البطولة الكاذبة المزيفة بطولة الحق والصدق من ضمير الانسانية وغلب الظاهر الكاذب جوهر الحق والصدق وعشيت الضمائر فاطمأنت لباس الانسان وعميت عن بأس الله والعدل ، وينهض فى منحدر المدنية صنوان متشابهان من الرجال يغلب المزيف الاصيل ويقتل الفاجر المؤمن وتنهض بينهما حرب فى التهذيب والايمان والصدق حتى تصبح معابد العدل والخير اطلالا مهجورة مغمورة فى صحراء الزمان .. وفيها كنوز آباء الانسانية وسر التهذيب والادب ولا تذكر حتى فى صلاة العابرين .

★ ★ ★

متى تفرق الاجيال فى غمر الانسانية بين رجلين معاصرين شب أحدهما بتهذيب الابطال وشب قرينه بتهذيب السوفسطائيين وكلاهما بلغ فى اثينا فى القرن الرابع ق . م منزل الزعامة وغلب المزيف الاصيل على أبواب المجد فى الحياة الدنيا .. زعيمان من خطباء أثينا فى القرن الرابع ق . م . هما أشين وديموستين .. كيف تميز الاجيال الاصيل والمزيف فى معدن الرجال ومعدن الصدق والزور فيما يقول أنصار الصدق وأولياء الكذب ؟

ولا تبلغ القرن الخامس ق . م حتى تكشف آداب هذا القرن عن صراع بين مدرستين : مدرسة الابطال القديمة ومدرسة التعليم الحديث وكل مدرسة تنبت طرازا من الفكر والمبادىء والرجال .

الفكر الظالم : أنت أيها العجوز الهرم ..

الفكر العادل : أنت السبب الذى جعل الشباب لا يحبون ان يذهبوا الى المدرسة وسيرى الاثينيون يوما أى تعليم علمت جهالهم .. أنت مفسد الشباب والمدينة التي تؤويك مغلوبة على عقلها ..

منشدة الكورس : كفا عن الحرب والشتائم .. بين لنا أنت بأى تعليم علمت القدماء وقل لنا أنت (تريد الفكر الظالم) ما هو تعليمك الحديث .. من يبدأ ؟

الفكر الظالم : دعه يتكلم فاذا فرغ من كلامه رميته بسهام من أفكار وجمل جديدة ..

منشدة الكورس : (تخاطب صاحب الفكر العادل) تحدث أنت يا أيها الذى توج الاقدمين بأكمل الاخلاق والفضل ، أفصح عما تحب وبين لنا طبيعتك ..

الفكر العادل : سأحدثكم عن التعليم القديم الذى كان سائدا يوم كنت مزدهراً بقول الحق والعدل ، وكان العلم والحكمة دينا وكان محرما على متعلم أن يلمز بالصوت وكنت ترى أبناء الحي كالبنيان المرصوص فى طريقهم الى معلم الموسيقى عراة فى صف واحد ولو امطرتهم السماء وابلا من جليد منفوش كانوا يتعلمون نشيدا :

« يا بلاس ، يا لك من قاهرة المدن »

أو نشيد الصوت البعيد ويحافظون على الهارمونية التي ورثوها عن آبائهم ثم يذهبون الى معلم الرياضة البدنية .

المنطق الظالم : هذا التعليم البالي ..

المنطق العادل : بهذا التعليم البالي علمت ابطال مراثون وانت تعلم تلاميذك أن يتلفعوا بعباءاتهم ، وبذلك ثق بي واتخذني رفيقا أيها الشاب ،سأعلمك أن تكره التسكع فى الاجورا (١) وتنأى عن الحمامات العامة وان تخزى من العار اذا سخر منك ساخر وان تفسح المكان للشيوخ وان تقف أن قدموا عليك ولا ترد القول على أبويك ولا ترتكب عارا يخزى جمالك .. وتقضي زمانك فى ساحات الرياضة مزدهرا وضاء ولا تفعل ما يفعله شباب اليوم الذين يملأون « الاجورا » بالثرثرة التي لا تغني شيئا . » (٢)

والمنطق الظالم سمي بهذا الاسم لانه ينكر القانون والعدل ويغلب الرأى الضعيف على القوى ويحل الحرام ويحرم الحلال ..

والمنطق العادل يتخذ هيرقل أبا الابطال اسوة فى تعليمه ..

★ ★ ★

الفكر ميزان الرجل والفكرة ثمرة التعليم والرجال الذين تهذبوا بآداب الابطال شبوا ابطالا والذين تعلموا علوم العامة كان همُّ اكثرهم أن يغلبوا الباطل على الحق ويجحدوا الحق والعدل ويحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ..

ويميز اريستوفان فى كوميدية الضفادع بين تعليمين فى اثينا : انبتا توأمين متصارعين فى أثينا فى القرن الخامس ق . م . :

« مثل مدينتنا فيمن تختار من رجالها العادلين الطيبين كمثل ما تصنع المدينة فى اختيار العملة القديمة الاصيلة والذهب الجديد .. اننا لا نستعمل ذهبا صافيا غير مزيف كان أجمل عملة وكانت وحدها اصدق ما صك من عملة فى بلاد الهيلليين والبلاد جميعا وتؤثر عليها عملة من نحاس خبيث صكت بالامس فى أسوأ صك ونفعل ذلك فى اختيار رجالنا ، نحن نعلم من كان منهم اصيلا منسّباً وكان حكيما عالما عادلا ومن الصالحين ، ونعلم انهم تهذبوا فى ساحات الرياضة وفى الموسيقى ومنشدى الشعر ، اننا لا نختارهم ونؤثر عليهم رجالا مزيفين من نحاس خبيث وهم اشرار أبناء أشرار ، هم رجالنا فى كل صوب وهم آخر بلاء ما كانت المدينة فى ما مضى لتتخذهم كفارة تكفر بهم عن ذنوبها » (٣)

---

١ – الاجورا : اى الاسواق .

٢ – اريستوفان : السحب ٩٥٣ وما بعده

٣ – اريستوفان : – الضفادع ٧١٧ وما بعده

اذا اجتمع المال المزيف والمال الاصيل فى الاسواق اختفى المال الاصيل من الاسواق ..

* * *

وما بلغه العقل من الكمال فى أوج المدنية الاغريقية كان أعلى قمة سما اليها أبطال العقل فى تاريخ هذه التجربة الانسانية .. وكل ما تطاولت اليه نفوس الابطال فى عمر الزمان جعل الخلود لله وحده وما يبث الله من روح فى حياة الانسان الفاني ..

الانسان حلم من ظل نهار منقشع حتى يلقى الله عليه بعضا من نوره فيرتد سعيدا مجيدا . وتجربة ابطال المدنية فيما خلا من الدهر بدت كنبع نهر منحدر من قمم جبال شريفة صعد الى أعاليها ابطال الموسيقى والطب والبيان والحكمة .. وخلدت فنون مدنيتهم آثار الخالدين .. والفكرة سر من أسرار الله .. فى أسرارها موسيقى الخلود وترفع الانسان الفاني الى مثل الله الاعلى ، لا يزال الانسان مصعدا فى ثناياها فان حضره الموت ظل هاديا وحاديا للمصعدين فى أعمار الانسانية ، ولا يقصرون شرف المصعدين على أمة من الامم ولا على نسب من الانساب وجعلوها للموهوبين من الامم التي آمنت بعبادة الابطال وتهذبت بتهذيب الابطال .. وبنيت المعابد لله ولصلاة الخالدين .. قد خلت مدنية الابطال فى مصر وفى بلاد الاغريق حتى اطفئت مصابيح كانت تضيئها فى معابد العدل والخير أبطال العدل والخير ، حتى سئم الانسان فى مدائن الاغريق تكاليف الابطال فى القرن الرابع قبل الميلاد ولكن خلود الفكر يهيىء لها من بني الانسان اجيالا من بني البشر يتلقون مجد الفكرة ويصعدون فى آمالهم الى ما صعد اليه ابطال الأولين ، وهم فى مجد شبابهم ينشدون ان ارتقوا نشيد الأولين : ـ

« اني احمل اليك يا اميرتي تاجا نسجته لك من زهر مرعى طاهر .. لا يجرؤ راع أن يرقى اليه بأغنامه ولا يصل اليها ابدا حديد المناجل ولا ترقى اليها الا نحلة الربيع تغدو وتروح فى مراعيها الطاهرة ويسقيها الشرف والحياء بحبات الندى ولا يبلغها احد بعلم مدروس ولا يبلغها الا الموهوبون الذين آتتهم طبائعهم العلم فى كل علم .. هؤلاء أحلت لهم زهور المرعى يقتطفونها وحرمت قطوفها على الآثمين .. فتقبلي يا أميرتي المحبوبة من يد تقية نقية رباطا لشعرك الذهبي .. اني وحدى من دون العالمين قد نلت هذا المجد .. اني أعيش معك اجيبك بكلامي واسمع دعاءك ولا أرى وجهك ، اجعلي خاتمة حياتي كأولها . » (١) (يوربيد ـ هبوليت .

* * *

قد يولد فى عمر الانسانية فى بلاد الله رجال ينهضون الى بطولة العلم والفنون ، لأن تجربة الاولين دين انساني لا يتجزأ .. من آمن به فى عمر الزمان جاء بمثل ما جاء به ارباب الفكر فى مدينة العدل ومن قال بأن الفضيلة لا تورث يرمي خلق الله بالعقم ويد الله تجود بالخير كالريح المرسلة والذى صرف ابناء الاغريق عن دين البطولة فى القرن الخامس والرابع ق . م نزعة جديدة فى الحياة .. آمنوا بالقوة ولم يؤمنوا بالعدل وجعلوا الانسان ميزان كل شيء وذهبوا الى أن الانسان خلق كل شيء .. خلق آلهته وخلق مدنية مادية ونبغ فى الكلام واعتد ببأسه وقوته ونسب لنفسه ما خلق الابطال من قبله وسعى الى مناصب الشرف وحرم منها من هم احق بها منه ... كل هذا التحول كان من طبيعة البشر فى كل دهر ، منهم من يبني ومنهم من يهدم ، وكل شيء ما عدا الله باطل .. وقسوة المصير ان يعيش رجال فى معابد المؤمنين ثم لا يموتون حتى تقفر المعابد من أهلها ويروا ابناءهم يتولون قصدا عن دين آبائهم الطيبين ومن يفعل ذلك فكأنما قتل آباءه .. وبين الاجيال خلاف فى التهذيب ، جيل بنى معبدا وآمن بما يقول العلماء :

« ان فى السموات والارض نظاما بني

بهارمونية العدل لأن اللـه يزن كل شـيء بجيومترية محكمة »

والفصول بنات هذا العدل ، والقوانين الرشيدة ثمرات هذا العدل ، والسلام والعلم ومكارم الاخلاق طيبات هذا العدل ، ويخلق هذا الادب طرازا شريفا من عظمـاء الرجـال والابطال ، ثم ينهض جيل فيتغافل عن هـذا التهذيب ويتهاون بحكمته .. ويفرغ الضمائر من التهذيب الحكيم : « فاذا شب فتى محروما من التهذيب وشب على حب المال واستطعم عسل الدبابير وعاشر الحشرات الضارة التي تستطيع أن تمتعه بلذات من كل جنس فانه يفير حكومة ضميره فيقترب من حكومة العامة .. فاذا سارع احد لنجدة المبادىء الباقية من الأولين فقد ينجح لينقذ نفس الفتى قبل ان تحول .. وقد يحدث ان تنمو فى نفس الفتى الذات كبرت سراً وخفاء اذا اغفل الوالد ولده فلم يهذبه .. واخيراً تحتل هـذه الشهوات قلعة الضمير اذا آنستها فارغة من التعليم ومبادىء الاخلاق الفاضلة ومـن الحقيقـة والصدق وكلها آمن حراس تحـرس عقـول الذين يحبهم الله من الناس » .

فاذا كان فؤاد الفتى فارغا من التهذيب هبط عليه غزاة من المبادىء الكاذبة الخادعة ومن باطل الرأى ، تحاصر ضميره كما يحاصر العدو القلاع ثم تستولي عليها ثم توصد هذه المبادىء الفاسدة باب الحصن ولا تدخـل فى الحصن نجدة من نصيحة يوليه اياها من كانوا اكبر سنا ، قد انتصرت المبادىء الكاذبة ثم سمت الحياء غفلة وألقته بمزجر الكلب ودعت الحكمة جبنـا ونبذتها مكانا قصيا وتقتلـع التوسط وتدبير المال وتعد ذلك مـن شمائل المزارعين التى لا تليق بالأحـرار وتظاهرهـا شهوات كثيرة لا نفع لها .

واذا انتصرت هذه المبادىء الكاذبة أفرغت الضمير وطهرته كأنما تعده للولوج فى الاسرار الكبـرى وحينئـذ تزف الاسراف والفوضى والفاحشة والفجور وضاءة فى موكب عظيـم وعليها تاج وتغني محامدها وتنشـد مزاياها وتسمى الاسراف تهذيبـا والفوضى حريـة والفجور وجاهة والفحش شجاعة(١) (أفلاطون ــ الجمهورية الكتاب السابع) .

كان انصار التعليم الحديث اشـد الناس يقينا انهم علماء وهم محرومون مـن الخيـر والعدل فنهض سقراط يكشف لهم عن خفايا نفوسهم فسخروا علمهم الذى يصور الكذب بصورة الصدق وقتلوا بطلا مـن القديسين المؤمنين العادلين وهزمت أثينا وتولى المؤمنون عن معابد العدل والخير ويومئذ وهب أفلاطون مواهبه ونبوغه لينقذ ميراث العدل وتهذيب الابطال فيما خلا من معابد العدل والخير كما يقول فى الخطاب السابع : « لا سبيل الى نجاة البشر من الشرور قبل ان يصل العلماء حقا وصدقا الى الحكم او يتولى الله الحاكمين فى المدائن فيأخذوا بالعلم حقا وصدقا »

(٢)

« افلاطون »

فى شباب أفلاطون فى أوائل القرن الرابـع ق . م . غلبت على الفكر الاغريقي مبـادىء بربرية من الايمان بالقوة والتسلط (التيرانية) والكفر والجهل بالموروث من دين العدل وانحدر نهر المدنية من مدائن متقاتلة على الغلبة . كل مدينة تريد أن تبسط سلطانها على ما عداها من مدائن الاغريق بالحـرب أو بالمـال حتى استيقظت آمال فيليب المقدوني فأوقد بـين المدائن الفتنة ليضرب بعضها ببعض ويستعين ببعضها على بعض ، فأورث المدنية الحديثـة سياسة الجواسيس ومصادقة الخونة الذين يخونون أوطانهم والنفاق التام الذى يخـدع الانسانية فتتخذ الذئب حكما وتستغيث بـه كرسول العدل والتقوى ليحمل أعلام الديـن حتى يقتل المؤمنين فى محراب صلاتهم ويمحو الذين يعارضونه مـن الأرض .. ويشترى خطباء

المدائن بالمال والوعود ، وأورث المدنية الحديثة « الطابور الخامس» واشترى العلماء والفلاسفة ومن ينحدر من نهر المدنية فى اولهـا فيبصر المعابد حافلة عامرة بأبناء العادلين ، يبصر فى القرن الرابع أتعس ما انبتت البربرية من مظالم جرؤ أهلها على ان يقيموا لنصرهم معابد كالتي بنت الانسانيـة فيمـا خلا من الدهر لمجـد العادلين .. وسميت الصولة والفوز بأى سلاح مدنية وصـار المال ديناً والسطـوة والبأس ديناً . وصار النجاح دينا ، واقـام العقـل الاغريقي مدارس للكلام يلهو فيها شباب الأمم التعس بألفاظ الكذب ، واستفحل الداء مـن أوله ليجر الشيخ الكبير الفاني الى القضـاء ويسلط عليه بيان كاذب من أشباه المحامين .

فى هـذا المنحـدر يبغى الطغـاة ويقتلون سقراط ولا يجد أفلاطون مناصاً من أن يصرف كل همته ونبوغه لحفظ آداب الابطال العادلين، فلما راى افلاطون فساد السياسة استمسك بالعلم الصحيح (الفلسفة الحقة) فهي التي تظهر السياسة العادلة وكل أخلاق الفرد ولا تبرؤ البشرية مـن آلامهـا حتى يبلغ العلماء الصادقون الحكم أو ينقلب الحاكمون بقـدر الهي فيصبحوا علمـاء وفلاسـفة غير مزيفين (أفلاطون الخطاب السابع ٣٢٦) .

حتى أيام أفلاطون فى آخر القرن الخامس ق .٠. م . كانت معابد مصر ما زالت عامـرة بالعلماء ومعابد الاغريق التى يغشاها سقراط وأفلاطون عامرة فاوى افلاطـون الى معابـد مصر ليتفقه بها فى فقه العدل ولبرى فيهـا ويسمع ما يقول العلماء عن العلماء والفلاسفة الذين صاروا ملوكا والملوك الذين كانوا فلاسفة، ووفى أفلاطون الفكرة بيانا وتفصيلا ونكاد نحصر فكرة أفلاطون فى أوج الفكرة التى بلغها أبطال الانسانية العادلون فى المدنية المصرية وفى مدنية الاغريق حتى القرن الرابع ق . م .

العالم الفيلسوف رجل فطر على حب الخير وحب الانسانية فيسعى الى بحر مقدس ليحمل من مائه الطاهر النقي سقاية للظامئين صـلاة لله والخير .. وترمز الكتابة المقدسة لحب العلم بقلب متعلق ببحر العلم الطاهر ومتعلق بالخير ليروى الظامئين بالعلم حسبة لله والخير .



أ ـ ظهور العلم

الفيلسوف حبيب العلم والخـير ، يـوم تصبح معابد الابطال فى مصر وفى بلاد الاغريق أطلالا مهجورة ساكنة قد بناها قومها للخلود افئن تقطعت الأسباب وغاب العلم فى المعابـد عمن كفروا بهذا العلم ولا يصدقون بأبطاله ، نظن أن ما آمنوا به من خلود قد طمره تراب الجهل وعماية الضمير .

كيف يرد السمع الى آذاننا والبصر الى اعيننا والنور الى قلوبنا لنسمع موسيقى معابد مصر فى طيبة ونتفقه فى دين العدل فى أعلى وديان الحقيقة والصدق ونحضر حيـاة الملك الفيلسوف الـذى أصبح ملكا ونشهد مجـد الخالدين .. ليست زهرة الفكرة « Pensee » التـى يـزرع الطاهــرون فى حديقتـهم .. بشيء حتى تجمع بين الشتيتين بمرهف الفكر والفكـرة الحقـة التى نزرع فى ضمائرنـا ليست بشيء حتى تجمع الاولين والاخرين فى وادى الحقيقة والصدق..والفكرة التى بناها أبطال البيان خالدة ترد الى أصولها وتسـمع اجيال المؤمنـين سرها ونجواهـا ، والفكـر الاغريقي الذى آمن بالعدل والخير والخلـود امتداد لفكـر المصريين الأولين الذين أقامـوا مدنيتهم وفكرهم على عمق مـن دين العـدل والخلود .

من يزرع فى ضميره لله والخير فكر أفلاطون وشعر بندار فى تمجيد أبطال الالعاب الاولومبية ثم يرتفع الى أناشيد هومير فى أبطال حـرب

طروادة فى الحرب والسلم ويقرأ شعر هيزيود ثم يأوي الى معابد طيبة فى مصر تتفتحله كزهر الفكر أسرار الكتابة والنقوش فى معابد المصريين ويعلم بهداية فكرة أفلاطون أن المعابد لا تقام الا لعبادة الابطال الخالدين وليست المعابد بناء لبأس الملوك الا فى زمان الهاوية .

« اذا بلغ (أبطال النابغين) من العمر خمسين عاما فمن نجى منهم ونبغ فى كل شىء فى العلم والعمل لا بد من دفع هؤلاء الى غاية (البطولة) ولا بد من الزامهم أن يمدوا اعين ارواحهم الى النظر الى الكائن الذي يمد الاشياء كافة بالنور. فاذا رأوا الخير فى جوهره اتخذوه أسوة لهم فى اصلاح وطنهم وتجميل أنفسهم وتهذيب الآخرين فيما بقى لهم من العمر ، كلٌ منهم على قدره ويقضون جل وقتهم فى العلم والفلسفة — فاذا قسم لهم ان يحكموا وطنهم وان يبذلوا جهدا فى سبيل قومهم فعلوه ليؤدوه كما تؤدي الضرائب ولا يفعلونه ابتغاء الجاه وبذلك يعلمون سواهم ليكونوا مثلهم ثم يتركون اذن حراسة الوطن الى جزر السعداء ثم يبنى لهم الوطن معابد وصلوات يذكرون فيها أربابا اذا اذنت (ألبيتيا) استخارة أبولون فان لم تأذن ذكروا فىالسعداء الخالدين . » (أفلاطون — الجمهورية الكتاب السابع ٥٤٠) .

اذا اقيمت لأبطال العدل المعابد ، بني المعبد بموازين العدل مثلما بنيت فكرة الابطال بالعدل .. فماذا تعرف المعابد عن العالم الذى بلغ بالعلم آفاق البطولة فى العلم والفكرة ، هو رجل تعلق قلبه بالماء من ناحية وبالخير من ناحية فاذا رمزنا للعلم ببحر الله الطاهر وللخير بسقاية الظامئين فهو ساق يحمل اناء يصب منه الماء الذى جاء به من النهر وحيث اننا نتخذ هذه الرموز كحروف فى كتابة مقدسة فلا بد ان نجعل كل رمز متصلا بالله فيكون البحر بحر الله ويكون الحب السقاية لله ، وتكون الرموز الثلاثة

الماء والقلب المعلق اى الحب

وسقاية الماء كلها تعادل ما حفظت الكلمة الاغريقية فى كلمة الفلسفة اى حب العلم والحكمة « Philo ophie »

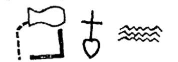
ب — حب العلم :

والفلسفة التي رفض فى حبها افلاطون الملك ، هي علم المقدسات فيما أورثت مدنية الابطال والعدل فى مصر القديمة وفى بلاد الهيللينيين .

وان شئنا أن ندخل فى أسرار هذا التعريف الذى بنيت له معابد الابطال فى مصر وفى بلاد الاغريق فليس لنا من سبيل سوى أن نجمع هذه الاسرار مما انقذه أفلاطون من جمال أسرار المعابد .

أولى درجات هذا العلم انه صلاة مطهرة لأن ماء الله طهور وهو الذى يخرج الحي من قيود الجسم الى سماء المقدسات ، ومن الاغريق

١ — الكلمة الهيروغليفية التي ترمز للطهر والحب والخير والتى تترجمها كلمة الفلسفة اليونانية هى:



من آمنوا بتطهير النفس بالموسيقى والرياضة: وهو النبع المقدس الذى يرقى اليه أبطال العلم وهو مثل الله الاعلى ، والرمز الثاني هو القلب المتعلق بالعلم والخير اى الحب وقد كتب أفلاطون عن الحب ونقل الحديث عن قديسة غريبة لم يعين فى أى المعابد لقيها سقراط لكنها أدخلته فى أسرار الجمال والحب (١) . واذا بهذا الحب هو تعطش للجمال والخير وداب وصبر فى سبيل الجمال والخير .. الحماسة والحب يلاحقان الانسان ليخلقا من الانسان الفاني أثراً باقياً .. خلود المواهب غاية هذا الحب وكلما ارتقى الانسان كان أشد الناس طلبا للخلود والموهوبون الذين اوتوا النجابة فى ارواحهم يلدون الفكرة والنبوغ فى العقل ،ومن هؤلاء الشعراء والخالقون ،وأعلى الفكر واجمله ما اتصل بسعادة الامم والافراد .. اى الحكمة والعدل ، ومن ينظر الى هومير وهيزيود وسائر الشعراء الماجدين .. يحسدهم على ما انجبوا من خلق اكسبهم مجداً لا يموت وذكرا خالدا وقوانين « ليكورج » حامية لاسبدايمون والهيلاد،وصولون خالد بقوانينه ، ولهم جميعا أشباه فىبلاد الهيللينيين وفى بلاد البربار ،وهذه الآثار أقامت لهم معابد وصلوات فى كل مكان وهذا الحب اى التعطش للجمال ارتقى الى المثل الأعلى .

حب العلم والخير قائم فى الروح ، والروح خالدة ، فى أسرارها قوة الهية ترتفع بجناحين الى سماء الآلهة ومن صفاتها الجمال وحب العلم والخير .. والارواح الخالدة ترتفع الى قبة السماء وتطلع على جوهر الاشياء فى السماء وفى غير السماء ـ كما يصف أفلاطون هذه المطالع السماوية .

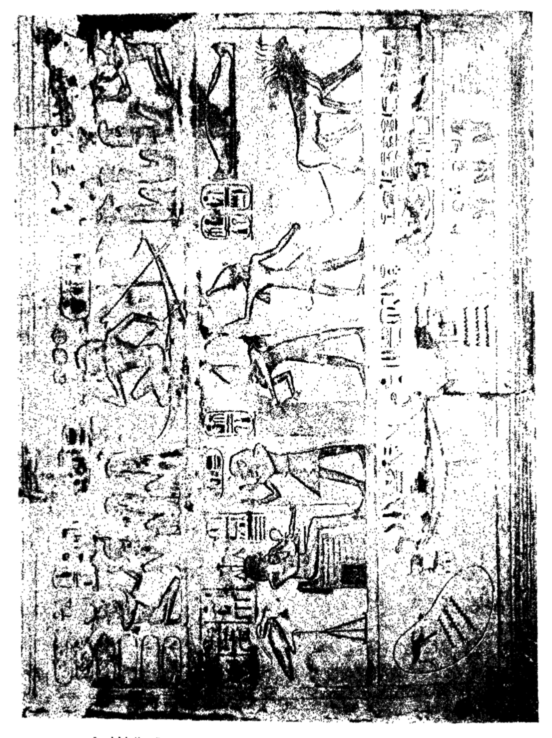
« هذه المطالع التي ترقى اليها الروح فوق قباب السماء لم ينشد نشيدها شاعر فى هذه الارض ولن ينشد شاعر ما يوفيها حقها .. واليكم بيانيه : يجب أن نجرأ على قول الحق وخاصة من يبحث عن الحق ، فالحقيقة التي لا تحد بشكل ولا تعين بلون ولا نبلغها بحواس اللمس لانها حقيقة فى صميمها لا تبصر الا بعين ربان الروح وهي موضوع معرفة الحقيقة وهي التي تقيم فوق هذه المطالع ـ وعلى ذلك ففكرة الله التي تأخذ غذاءها من العقل والعلم الصافي وكل روح تتغذى بغذاء من معدنها لا تلبث ان تشهد الحقيقة وتحبها وتتأمل حقائق الاشياء وتتخذ منها غذاءها وتنعم بذلك حتى تتم دورتها .. فى هذه الدورة تنظر الروح العدالة فى جوهرها وترى المعرفة فى جوهرها ، المعرفة التى لا تعتريها الغير ولا تصور فى صورة شيء آخر مما نسميه فى الارض بأسمائه وهي الحقيقة فى الجوهر الحق الذى لا تبديل له فاذا شهدت الروح كل الاشياء فى حقيقتها وجعلتها غذاءها ـ انها اذن تطل على السماء ثم ترجع الى بيتها فيقف حاديها وسائقها عند حظيرة خيلها ويطعم الخيل ويسقيها بالامبروز والنيكتار « اى طعام الخالدين وشرابهم » (افلاطون فيدر ٢٤٨) .

* * *

غاية ما تطاولت اليه فكرة أبطال الانسانية هي معرفة الحقائق الخالدة ويعبر بلوتارك عن هذه التجربة بقوله (غاية العلماء معرفة الكائن الاول الكائن العلي الاعلى ، الكائن الذى لا نبلغه الا بالفهم الخالص ، الكائن الذى يعيش فى ربة العدل ايزيس .. وايزيس تدعو الى معبدها من يبحث عن الكائن الاول واسم معبد ايزيس يدل على ان العلم فيه هو معرفة الحقيقة اذا دخله الانسانخاشعا متفكرا (بلوتارك وايزيس واوزيريس ٢) .

البطولة التي تبلغ سماء الحقيقة جعلت الابطال يبلغون آفاق الصدق الابدى وهمالذين أورثوا الانسانية دين العدل والتقوى وهم الذين آمنوا بخلود الروح .. وتراهم فيما

١ ـ افلاطون : المائدة ٢٠١ وما بعده



هذه الصور صورها معهد شيكاجو بالاقصر تفضــل بها رئيس بعثتهم الاستاذ شارلس تيمس

نقش على المعابد من آثارهم يلبسون جلداً أسود ليتشبهوا بهيرقل الذى غلب الأسد المفترس ولبس جلده ... فهو رمز لبطولة العلم .. « غاية العلم الخير »

والرمز الاخير من كلمة حب العلم هو سقاية الظامئين ساق يحمل اناء يصب منه الماء وهو أشرف غاية العلم .. غاية العلم الخير كما يفصل آياته أفلاطون .

(٣)

الملك الفيلسوف

« لا تهجع اوجاع الانسانية حتى يكون الفلاسفة ملوكا ويكون الملوك فلاسفة ، يجمعون بين سلطان الملك والعلم » .

هذه الحكمة علم وأمل فى فلسفة افلاطون وما ضرنا ان نرد الحكمة الى مواردها الأولى ونقول غير خائفين ولا ظالمين إن افلاطون قد جاء بهذه الحكمة من معابد المصريين .. ونكاد نفترض كلما تأملنا ما خلف الناقشون من صور الملك الفيلسوف فيما بنى المصريون من معابد فى طيبة أن افلاطون قد سبقنا اليها وهى عامرة بعلمائها الذين كانوا فقهاء فى العلم والعدل وبينوا لأفلاطون معنى ما خلدت المعابد من صور ملك يحرث الارض وفوق رأسه تاج العادلين ويضم ثمار غلته وفى الصورة قدمه اليمنى .. وقد وقفت عند هذه الصورة والمعابد اطلال لا ترد سؤالى وأول العلم السؤال والتعجب .. وقد رجعت الى هذه الغرفة (فى مدينة هابو بالاقصر) أصورها كلما وجدت سبيلا وهي تهز ضميرى بروعة الصلاة فكيف يضيع هذا المعنى ان ارتفعت هذه المعابد الى دين الخلود ؟ أليست من بقايا دين الخلود التي أبقاها الادب الاغريقي اسطورة بطل جميل فلما مات نارسيس ثبتت فى موضعه زهرة النرجس وهذا الملك الحارث بني مكانه معبد وحمل المعبد زهور اعماله فالمعبد والنقش فكرة من بينات الخلود ولا تموت الفكرة حتى يطمسها الجهل أخ الموت .. ثم أحيى هذه الفكرة فى نفسي هومير وأشيل وأفلاطون واصبحت هذه الصورة فى كتابتها المقدسة تخليدا لحياة الملك الفيلسوف .. انه الذى يحرث حرث الله فى قلبه لا يحرثه الا بحرث الفكرة والعلم لله والخير ، فلما تبينت هذا المعنى أبصرت الملك فى صورة مجاورة يلبس جلد الاسد فهو قد بلغ البطولة فى العلم وفى صورة مجاورة وثاق يربطه « توت » اله العلم والحكمة واله له رأس اسد اى رب الحكم .. فهو جامع بين سلطان الحكم والعلم وفى صورة مجاورة (الذمة ربة العدل) تقوده ميتا الى جزر السعداء الخالدين .. وفكرة الابطال العادلين خالدة يتلقاها ابناء الانسانية السعداء الذين يرقون الى شرف الخلود .

وأقرب صورة الى هذا النقش نقش أبقاه هومير فى شعره الخالد وهو اقرب آباء المدنية الاغريقية دينا وفنا ونسبا بدين المصريين وفنونهم .. وناقش الكتابة المقدسة فى اساطير الاغريق كان هيفايستوس الذى نقش درع أشيل بطل الابطال فى حرب طراودة ، وبذلك نعلم ان فكرة الخالدين بنيت فى عمر الزمان فى كل صور فنون الخالدين ــ النقش والموسيقى والكتابة المقدسة والفلسفة والمنطق وارتفعت بذلك جميعاً الى وادى الحقيقة الازلية والصدق .. وهيفايستوس نقش على درع بطل الابطال صورة كنقش معابد المصريين « صور مدينتين جميلتين من مدائن البشر الفانين .. فى احدى هاتين الصورتين صور هيفايستوس زواجا وافراح زواج وزفاف العرائس على ضوء المشاعل حول المدينة وتتصاعد من ورائها صيحات الفرح من كل صوب .. وفتيانا يرقصون ويدورون فى دائرة الرقص وخرجت كل امراة ووقفت عند عتبة بابها معجبة وتجمع ملأ المدينة فى ساحة اسواقها هب فيها خصام بين رجلين على دية قتيل اما



احدهما فيقول انه دفع الدية كاملةويعلن ذلك على الملأ وينكر الآخر انه اخذ شيئاً وكلا الخصمين قبل ان يضع حداً لهذا النزاع ، وشايعهما الملأ وكلا الخصمين قبل ان يصيح معه أنصاره .. وفي الجمع منادون .. يدعون الحي الى السكون وشيوخ الملأ جالسون على مقاعد من حجر في دائرة مقدسة امسكوا بأيديهم عصي المنادين ذوى الصوت الجهور. واعتمد الشيوخ على هذه العصى وقضى كل منهم بدوره ـ وكان وسط القضاة على الارض قنطاران ذهبا لخير قاض يقضي بينهما بالعدل ... « هومير الالياذة النشيد الثامن عشر » ٤٩٠) .

★ ★ ★

وتفسير هذه الرموز ان البطل كان حصنا أفشى السلام والفرح والعدالة فى قومه وهذه صفة الملك العادل فى السلم .. اما الحرب فقد صوره بصورة كالتي حفظتها معابد المصريين حين يهب الملك بعربة الفروسية لرد المعتدين.

وفى النقش صورة اخرى قريبة من صورة الملكالفيلسوفالتىنرىوقد نقشهيفايستوس فوق الدرع حقلا لملك .. فى هذا الحقل زراع بأيديهم مناجل حادة يحصدون بها (غلة الملك) فتهوى على الارض فوقمجارى الحرث قطوف الغلة بعضها فوق بعض قد حزمت فى حزم .. حزمها الزراع الذين يربطون الغلة فى حزم ، ومن هؤلاء وقف ثلاثة يحمل لهم الصبية ما يجمعون من منثور الغلة .. يحملونها بين ايديهم ويقدمونها لمن يجمعونها حزما ولا يكل عملهم .. والملك واقف ساكن يحمل عصا الملك فوق خطوط حرثه وقلبه فرح سعيد ..والمنادونمنبعيد تحتشجرة باسقة يعدون الغذاء .. قد قربوا للآلهة ضحية عجلا سمينا .. والنساء تعد الغذاء للزراع وتبذر عليه دقيقا كثيرا أبيض (هومير الالياذة النشيد الثامن عشر ٥٥٠ وما بعده) .

وما تأويل هذا النقش عندى الا انه تعبير كتعبير الكتابة المقدسة عن ملك فيلسوف زرع حقل الله فى نفسه اى قلبه وعقله فأنبت زرعه غلة سعيدة يجمعها العلماء كتبا (كالحزم التى يحزمها الحازمون) ويدرسها الصغار قطعا يقرأونها على علمائهم كما يفعل الصبية المنتشرون فى الحقل والمنادى الذى ينادى الملأ بأحكام الملك يقرب خيراته لله والنساء ينثرن دقيقا أبيض فوق طعام الزارعين الدارسين ـ وقد نؤول هؤلاء النسوة بملهمات العلموالفنون muses ثم تفصح أسرار الكتابة المقدسة عن أسرارها التى كانت ميراث الابطال بلغة أقرب الى عقولنا فى شعر القرن الخامس ق.م اى فى جيل الابطال من آباء افلاطون .. فاشيل شاعر التراجيدية واحد أبطالماراتونوسلامين فى الحرب الميدية يصف فى تراجيدية « السبعة المحاصرون لطيبة » بطلا نقيا عالما هو أقرب الصور التى شدا بها الشعر بعد النقش والكتابة المقدسة وهى تفسر معنى الحرث ومعنى ثمار الحرث بما نفهمه من معنى العلم culture وثمار العلم اى الفكرة pensée

الرسول : دعني أقص عليك نبأ سادسهم انه اعلم الناس وأشجع الناس فى القتال هو نبي يعلم الغيب انه البطل المجيد امفياريوس حمل هذا البطل درعا من صلب ثقيل وقال وهو مطمئن الجنان ما كان من قول .. لم ينقش فوق درعه نقشا لأنه لا يحفل بالظاهر وما يحب الا أن يكون بطلا فى الحقيقة ـ فيما بينه وبين الله قد حرث فى قلبه وعقله حرثاً عميقا ينبت زهرا غنيا من الرشاد والحكمة أرسل للقائه أبطالا علماء عادلين فمن يتقى الآلهة ليس بهين يسير (اشيل « السبعة حول طيبة » ٥٩٠ وما بعدها ..)

★ ★ ★

ورثت الانسانية حكمة الابطال من أبطال العلم فى مصر وفى بلاد اليونان ـ وكانت تجربة سعيدة لأنهم كانوا فى حياتهم حصون الحياة وكانوا فى خلودهم آباء العقل والعدل والبيان

والحكمة والملوك الفلاسفة والفلاسفة الملوك عند أفلاطون علماء نشهد حياتهم وعلومهم تفصيلا .. قد بلغوا بفكرتهم الى سماء العدل والخير ـ أى الى مثل الله الأعلى .

فاذا بلغنا أفلاطون سمعناه يحدثنا عن شيم هذا الملك الفيلسوف فهو يحب العلم كله ..لا يقصر همته على الجزء دون الكل ويحب الحقيقة كلها ويكره الكذب وهو عالى الهمة تشرئب همته الى ان يعلم حقيقة خلق الله والانسان ـ وهو شجاع لا يخشى الموت .. فماذا لو سألنا أفلاطون عن زمانه وما خلف زمانه من مدنيات كالمدنية الهيللينية بعد الاسكندر والمدنية الرومانية والمدنية الحديثة .. الم تنبت الطبيعة نفسا عالية تحب العلم والصدق وخصتها بذاكرة ووهبتها حب الجمال وموازين العدل فما بالها لم تنجب ما أنجبت مدنية الابطال ؟؟ والجواب على ذلك ان العدل تهدمت أركانه وفسد زمانه وفسد تعليمه والموهوبون اذا نبتوا فى ارض ظالمة فسد نباتهم ونبغوا فى الشرور .

« نحن نعلم ان كل بذرة لنبات وكل نطفة فى خلق الاحياء تفسد اذا لم تجد ما يلائمها من صالح الارض والهواء والغذاء .. »

ونعلم أن أفلاطون نفسه قد هجر اثينا فى شبابه لأنها مفسدة لفكرته .. لقد عرضت عليه أثينا بعد موت سقراط أن يشارك فى حكومتها . فأبى لأن نظامها السياسى فسد فسادا لا يستطيع معه أفلاطون شيئا فترك اثينا وآوى الى معابد مصر بمعزل عن الناس ليتفقه فى العدل وتهذيب العادلين وليعصم بموهبته ميراث العادلين من الفناء وهو الذى يحدثنا عن ارض أثينا وهوائها وغذائها فى أيامه وهو الذى يصور تصوير المعابد كيف يتفرد النابغون فى زمانهم بالخروج على قيود عامة المتعلمين والارتفاع بجد الابطال الى شمس العدل والخير .

البطولة فى الفكرة كالبطولة فى تسلق القمم العصية ، هيأت لأبطال الفكرة مجد مصارعة الفساد فى تعليم زمانهم وظلم زمانهم وكأنما يحدث أفلاطون عن نفسه وهو بمعزل فى جوار من خلا من أرباب الفكرة فى معابد العدل والخير .

« قليلون ياأديمانت من يستحقون ان يباشروا العلم الحق والفلسفة : رجل موهوب شب على تعليم سليم فأقصي عن وطنه وابتعد عن المفسدين وظل بطبيعته وفيا للعلم والفلسفة فمن ذاق نعيم العلم والفلسفة وعرف ضلال الأكثرين وجنونهم وعرف انه لم يبق فيمن يحكمون المدائن قلب سليم وأنه لن يجد نصيرا ينصر معه العدل دون أن يلحقه الموت كمن وقع بين الوحوش المفترسة لا يريد ان يظلم معهم ولا يستطيع ان يقاوم وحده كل هذه الوحوش قبل أن ينفع اصدقاءه وينفع وطنه ، وبذلك ينزوى فى مأمن ولا يفعل الا ما يغنى عنه شيئا كمن هب عليه اعصار من تراب فاحتمى بحائط واذا رأى الناس من حوله غارقين فى الظلم قنع بأن يعيش بريئا من الظلم وان يخرج من الحياة بأمل مطمئن رحيم » (أفلاطون ، الجمهورية ، الكتاب السادس ـ ٤٩٦ ب) .

من جد بالعلم حتى يبصر بالعقل والفكرة ما خلق الله من جمال لا يهبط من سماء الفكرة الى صراع المخطئين .

بطولة الفكرة ليست فيما يطلب عامة الناس من علم فى كهوف مغلقة يأتيها نور من خارج الكهف وهم فيه قعود مقيدون بسلاسل فى اقدامهم وبأغلال فى أعناقهم لا يخرجون من كهوفهم منذ طفولتهم ؛ يسمون الأشياء بما تعكس الاشياء من ظلال فى الكهف وما يحمل الصوت من صدى ؛ حبسوا حياتهم عن أن ينفذوا الى حقيقة الاشياء والذين ارتقوا فى عمر الفكرة الى سماء الحقيقة كانوا أحرارا لم تقعدهم عن كشف الحقيقة قيود ولم يطيبوا نفسا بالذهب والفضة وظلال الجاه والراحة فى كهوف الحياة .. ومن دأب فكرة الابطال اذا غرست فى نفس

صالحة ان تحطم القيود والاغلال فان خرجت من كهفها أبصرت الشمس وعلمت أنها مبعث النور .. شبه الطلوع الى سماء الحقيقة وتأمل آياتها العليا بارتقاء الفكرة والروح الى سماء الخير .. وهى أن أبصرت بعد جد كانت مصدر كل جمال .. هى مبعث النور ومبعث الحقيقة والعلم ، الارتقاء الى صور الخير المقدسة كان أروع آيات الفنون التى صاغتها يد ابطال الفنون فى عمر المدنية والعلم ، أرقى مدارج الفنون وتهذيب الابطال ليس علما يصب فى النفس كمن يصب النور فى عينين كفيفتين ، ان للعلم ملكة فى الروح تصرف النظر عن كل شيء عارض يزول وتتأمل الحقيقة الدائمة التى لا تزول .. بأى العلوم ترفع هؤلاء الى النور كما ارتفع بعض أبطال الاساطير من ظلال الموتى الى سماء الآلهة ؟

علوم الحساب التى تخرج النفس من عالم الحواس الى عالم الحقيقة والهندسة والفلك ، والهارمونية التى تنتهى الى الواحد الأحد والموسيقى والتطهر والصلاة .

(٤)

خلود الروح

لم تكن فكرة أفلاطون خالدة كخلود معابد العدل والخير رمية من غير رام ، ولكنها دليل على خلود البطولة وخلود ارواح الابطال وهى دين الانسانية جميعا وقد يفسر ذلك ان ما سمت اليه أعمالهم وأقوالهم بات أمدا لبنى الانسان من كل جنس كآماد الالعاب الأولومبية التى يتسابق على بلوغها وسبقها أبطال الاجيال .. لا يكاد الانسان فى عمر المدنية القديمة والحديثة يخرج من كهوف الظلام ويحطم قيوده وأغلاله حتى ينطلق فى مطالع الفكرة الى ما سما اليه الأولون عند مشارف الجمال والخير .. فهى تجربة أولومبية فى عمر الانسانية .. والبطولة ميراث حر لمن ينهض من الاحياء والذين يحملون الشعلة الأولومبية تنبض قلوبهم بأسعد نبضات الحياة .. والذين يحملون هذه الشعلة فى عمر الزمان هم زينة الانسانية يحملون نور الله الذى لا يموت وهم جميعا يسكنون ضمائر الاحرار وما كان لله فهو يبقى وما فعل الانسان لذاته وغروره يموت قبل ان يموت فاعله وشجرة الفكرة ، اى زرع البطولة والخلود التى زرعها أفلاطون ، شجرة خالدة تمتد أصولها الى أول المدنية وتنبت نباتا مباركا فى عمر الزمان .. وسر هذه الشجرة أنها قد تمكث هشيما فى عمر الدهر فيلقى بذرها فى باطن الارض فيطمره التراب ان أغفلت أرضه ولكنها لا تلبث أن تزهر ان هبط على أرضها طل الندى أو حملتها الرياح فى أعطافها الى بلد بعيد فتثمر ثمرا طبيعيا كزهور الصخور العالية واذا افلحت أثمرت ثمرا كثيرا .. قد ينهض فى عمر الانسانية رجال لا تطيب لهم الحياة حتى يتوجوا بأثر من آثار البطولة فى الاعمال والاقوال .

واذا أردنا أن نقترب من آداب الابطال الذين يردون الالعاب الأولومبية نجد فى غصون ما توجوا به شبها بين الزهر والفضيلة كالتى ينشد مجدها بندار .

« الفضيلة القيمة (البطولة) لا تنجب ثمرها فى الاجيال تباعا ومثلها كمثل الحرث فى الأرض السوداء لا تؤتى ثمارها كل عام بغير انقطاع والشجر لا يرضى فى كل حول أن يحمل ثروة متكافئة من زهره العاطر ولكنه يفارق كل عام فى ثمره عاما يجود وعاما يقتر .. وأحياء البشر الفانون يتبعون مقادير الزرع . »

ولا نعجب أن تجمع الالعاب الأولومبية أبناء كل امة حرة مكلفة بتكليف الحرية .. اى هذبت ابناءها ليكونوا امنع حصونها وليحملوا ميراث الابطال .. ودين الابطال اشتمل على أعز فضائل التهذيب ، وعلى أشرف آداب الانسانية ، قد حرصوا على أن يخلد الشعر والموسيقى ما يتوجون به من أغصان شجرة

زيتونة زرعها لهم فيما خلا من أعمار الانسانية رب البطولة هيرقل وآيات الشعر تفصل ما تهذبت به شمائلهم .. قد هذبت نفوسهم بالتقوى والعدل والاحسان وبأعز فضائل التهذيب والادب .. التقوى لا تموت وهي التى تصحب الانسان التقى فى قبره والعدل فى كل موازين الحياة .. ولو اننا فصلنا فضائل تيجان الالعاب الأولومبية فيما خلفه « بندار » لعلمنا ان هذه الالعاب كانت صلاة فى معابد الخالدين واسمعتنا موسيقى بندار ما حجب الجهل والزمان من دين الخالدين .. وأول النشيد صلاة للآلهة لكي تتقبل فى معابدها بطلا تقياً عادلا عالما من ابناء تينيدوس :

انه لا تستعجم قيثارته ولا اناشيده فى صلاة الآلهة والابطال ويرعى زيوس رب الضيف الغريب .

ثم أرجوس أم الإبطال الابطال وأبطال أرجوس هيأوا للمهمات العلم والموسيقى بنات زيوس أن يحرثن حرثهن :

« مثل البطولة (الفضيلة) كالشجرة التى ترتفع باسقة اذا سقتها حبات الندى الصابح وكذلك البطولة ترتفع باسقة فى سماء الاثير اذا سقيت فى نفوس العلماء والحكماء العادلين »

« جنس البشر واحد وجنس الآلهة واحد : كلا الجنسين يتنفس انفاس الحياة من « ام واحدة » وشتان بين قوتنا وقوة الآلهة فقوة البشر ليست شيئا والسماء مقام الآلهة الخالدة الذى لا يغلب ولكن بيننا وبين الخالدين شبه فى فكرنا العظيم ، او فى طبيعتنا وان كنا نجهل ما كتب القدر علينا فى الليل والنهار . »

والآن يشهد « الكيميداس » أن ميراث البطولة كثمار الحرث التى تختلف من عام الى عام ــ عام مقل وعام خيره غزير .

والبطولة تنبت فى الوطن الذى يتبع القوانين، والعدالة التى لا تنتظم بغيرها بلد والسلام واهب الثراء للانسان والتقوى (الأولومبية الثالثة عشرة) وهى كلها فضائل تقتلع الاسراف والجور والتهاون والغرور .

وتاج البطولة الذى يتوج احياء امة لا يخص الاحياء وحدهم بالمجد بل يرفع المجد الى من خلا من الابطال ، فتراب القبر لا يحجب عنهم مجد ابنائهم وتحمل لهم ربة الأنباء ما وهب الله ذريتهم من مجد عظيم فى الألعاب الأولومبية (الأولومبية الثامنة ١٠٢) .

« التاج الذى ينال الابطال فى الالعاب الأولومبية هو ثمرة الفضائل الشهية (الألومبية الخامسة : اول بيانها) ــ بعد الموت يلقى كل امرىء جزاء أعماله ويلقى الاطهار الطيبون العادلون جزاء الخلود فى جزر السعداء » .

لو علم الانسان ما ينتظره بعد موته .. فاذا صرعهم الموت دفع المجرمون ثمن جرائمهم .. هنالك اله يحكم على ما ارتكب الاحياء من جرائم فى الارض ويقضى فيهم قضاء صارما .

« فى جنة تضيئها الشمس ويستوى الليل فيها والنهار يخلد الابطال العادلون لا يقلبون الارض بأيديهم ولا يجذفون فى البحر طلبا للعيش وهم يعيشون فى جوار أولياء الله الذين يحبون الذمة والوفاء ويعيشون عيشة غير باكية ، اما من ظلم فلهم عذاب أليم .

« والذين استطاعوا ان يمكثوا ثلاث مرات فى الدنيا والآخرة اطهارا لا يظلمون أنفسهم ولا يظلمون الناس شيئا ويمضون فى سبيل الله الى أبواب .. كرونوس ــ اذ يبلغون جزر السعداء التى يهب عليها نسيم المحيط وفيها زهور من ذهب منها ما ازدهر فى الأرض على شجر باسق ومنها ما ازدهر فى الماء ينسجون فيها تيجانا يلبسونها برعاية رادامانت (الأولومبية الثانية ١٠٩ وما بعده) » .

* * *

اذا قدرنا آثار المدنية الأولى فيما بقى من معابدها وفنونها وما خلف هومير من بينات

وما أبقت آثار الفنون والشعر من تهافت ابطال الالعاب الأولومبية حتى آخر القرن الخامس ق.م. على تاج الالعاب الأولومبية ، واذا علمنا من أى الفضائل الانسانية نسج تاج الفائزين فى الالعاب اقتربت أسباب الخلود فى دين هـذه المدنية واقترب تاج الفائزين فى الألعاب من تاج الخلود الذى يتوج بـه العادلون فى معابـد المصريين وهو الذى يصوره « بندار » فى وصف جزر السعداء فى الأولومبية الثانية ..

ما جزاء العدل .. الذى تطاولت اليه أفئدة العادلين ؟ .. بطولة العدل وتاج الخلود .

(٥)

تاج العادلين الخالدين

كانت الالعاب الاولومبية والتهذيب المتصل بدين الابطال طرفا من صلاة الابطال وديـن الخالدين ؛ وقد جعل هذا الدين خلود الروح أسعد آمال العادلين واتصلت غاية الحيـاة والموت فيما نبغ فيه الحكماء والعلماء وصاغته الفنون بهذا الدين ، وحيثما توليت فآثار باقية خالدة متصلة بهذا الدين فيما أبقت هـذه المدنية فى شعر الشعراء وفلسفة الفلاسفة وما بلغت سماءه عقول الخالدين كانت آثارهـم ولعبهم صلاة فى معابد الخلود .. وتوج النابغون بتاج الخلود .. فاذا كان دين العادلين الخالدين أساس الحياة والموت استوى جزاء العادلين فى كل صوب وحمل تاج الالعاب الاولومبيـة أيام كانت الالعاب صلاة وتاج النابغين فى الشعر والموسيقى وتاج الذين قادوا سياسة أممهم بالعدل ودين الخالدين .. هذه التيجان جميعا رمز لحياة العدل وبطولة الخلود وهي جميعا من أصل واحد وما قرأنا فى « يوربيد » يقرب الينا ما نجهل من دين الاولين فهيبوليت بطل مثل أبطال الالعاب الاولومبية ارتفع ببطولتـه الى مطالع معجزة فى قمم عالية ليأتي منها بزهر طاهر بكر لم تسبق اليه يد لينسج منه تاجا لربة الطهر والعفاف .. وقد صيغ من أفكار سوفوكل وشعره وموسيقاه ما عقدت له أمته من تيجان العادلين الخالدين وعقدت لديموستين من أفعال ديموستين وبيانه تيجان العادلـين الخالدين ثم عقد أفلاطون لسقراط الذى أعدمه السوفسطائيون فى أثينا تاج العادلين الخالدين وبقيت آثارهم جميعا فى معابد الانسانية كنوز الابد وهؤلاء جميعاً لا يتوجون حتى تـوزن قلوبهم بميزان العدل الذى يحصى بريشـة العدل ايمانهم وأفعالهم ... ويشهد عـلى أفعالهم شهود عدول من قديسي العـدل وأبطالـه .

وبذلك يقترن تاج ديموستين فى آخر القرن الرابع بتاج سقراط فيما كتب أفلاطون فى الدفاع عن سقراط (Aopalogie de socrate) ويقترب من تاج انتيجونه فى شعر سوفوكل ويقترب من أناشيد الألعاب الألومبية وكلهـا قريبة من تاج العادلين فى محكمة العدل فى دين المصريين الأولين والشبه بينها جميعا أن يشهد فى معابد مصر علماء العدل ويشهد « بندار » بعدل أبطال الألعاب ويشهد أفلاطون بعـدل سقراط ومن كان حيا كديموستين دافع عن حياته وسياسته كمن يدافع عن نفسه امام حكم الله والعدالة ــ وبين أيدينا ترجمة لمـا يتوج به العادلون فى مصر قديما .

« كنت عادلا صادقاً لم أرتكب اثما وكنت تقياً أرعى الله فآتانى الله الحكمة ، قد جئت عالم الخلود بعد ما فعلت الخير فى حياتى ، لم اظلم ولم آثم ولم أشترك فيما لا يرضى الله والشرف ، ونعمت بقول الحق وكنت مؤمنا أن الصدق ينجى من اعتنقه حتى الموت ، وهو خير ما يدافع به المرء عن نفسه أمـام هـذه المحكمة التـى تعـلم السرائر وتعاقب الآثم » (ترجمة دريوتون للكتاب ١٢٥ من كتاب الموتى)

كل أبطال هذه المدنية يتسامون الى طراز فريد فى الانسانية يتخذون من خلا من أبطال الأساطير أسوة ليبلغوا المثل العليا التى تشرف منها ضما ئرهم وأبصارهم على آيات الله التى لا تبديل لها ويذكرون فى صلاتهم آباء آمالهم



لا يسعدهم شيء من نصرهم أكثر مما يقربهم في ايمانهم الى لقاء العادلين في جزر السعداء ، وقدر هذا الدين للانسانية ان تنجب أبطالا في الشجاعة والرأى والشعر والموسيقى والبيان والحكمة حتى غربت شمس المدنية القديمة ، ومن آمن بالعدل فيما يحسن من شيء بيده وبقلبه ولسانه وصاغ حياته جميعا بدين العدل ، ورياضة العدل بيده وقلبه ولسانه تثمر له الأرض اطيب ثمرها ويمده البحر بطيباته وتحيط به ذرية سعيدة جميلة ويزهر له العلم والفنون آيات صادقة من جمال الجسم والعقل ويتوج يوم يموت بتاج الخالدين ويخلد مع السعداء في جزر السعداء كل ما شدا به الشعراء في فضائل أبطال كانوا حصون أمتهم وكل ما تجملت به حياة هؤلاء من الجمال والخير وجمال الجود وحماية الغريب وجوار المستجير وحمل الضعيف وافشاء السلام والنبوغ في الرأى وبطولة العلم والفكر ، اى بلوغ الحقائق الأبدية ــ كان ثمرة دين العدل وكل هذه الآمال عقدت على رجال حملوها غير مكرهين ، قد كفلت ربة العدل ارزاق العادلين فلا يشقون في ذل الحاجة وصرفت كل همتهم الى حب العلم ، أى الى ان يردوا مورد العلم المقدس الطاهر النقى ليأتوا منه بسقاية بنى الانسان وليحملوا النور الى من لا نور له ويفعلوا ذلك لله والخير وأول الخير ان يبداوا بأنفسهم وبتهذيبهم الحر ليحققوا بالعدل أجمل هارمونية بين قوة الابدان وحكمة العقل والبيان وقوة الاجسام ، كما يقول أفلاطون : لا تطلب كقوة بهيمية الانعام وانما تراد اولا وآخرا لقوة العقل والفضيلة .

العقل اليوناني ميراث مدنية العدل والابطال الخالدين وقد يرث الانسان الملك ويرث الفضة والذهب ولا يرث الانسان الفكر والموسيقى وبينات الحكمة حتى يسعى لها سعيها وهو مؤمن ، هي الكنز الخافي في أعماق الحقل لا يدركه الا الجادون العاملون المفلحون الذين تبهرهم الفكرة بجمالها ويتخذونها صلاة لأنها قبس من فيض الله في قلب الانسان .

العقل اليوناني بُني أساسا بموازين العدل فما ظلم يرد الى موازين العدل وربات الانتقام يعاقبن المسرفين ومن يسرف في شيء يفسده فيما تصنع يداه وما تصوغ أنامله وما يحكم عقله من شيء وبنيت السموات والارض بموازين العدل ، فان أسرفت قوانينها في شيء ردت الى موازين العدل ومن يسرف في قوانين الموسيقى لا تعتدل موازينه ، ومن لم يحكم صياغة التماثيل بالعدل والقسط وأسرف في اليدين والرجلين أو ألوان العينين ، انتقم العدل فافسد عمله .

وقد تعبث المقادير فتخذل الذكي وتنصر الغبي فتؤتيه المال والحكم ولكن المقادير عجزت عن أن تزين ينبوع البيان والفكر الا من هذبتُوا بتهذيب الاحرار وغرسوا فكر النابغين في ضمائرهم حتى يثمر ثمره الحق الامين .

وعبادة الابطال كانت ديناً يعرضون فيه أصدق ثمرات تهذيبهم في معابد العدل والخير وقد يتسابقون في الالعاب الاولومبية التى حرمت على البربار والآثمين ليشهدوا أرواح سلفهم ويشهدوا آلهتهم أيهم أحسن عملا وأعدل حياة واملا ، وأبعد ثمرات هذه البطولة ليست فيما تشهد من قوى المتصارعين وسبق الفرسان والعدائين الذين لا يشق لهم غبار وكل ما قد تغلب فيه بهيمية الانعام ، ولكن أروع الصور أن يكون هذا الذى يرمي القرص فلا يبلغ مرماه احد ، قد اشتمل على اشرف تهذيب في الموسيقى والبيان والحكمة فالانسان الذى يسمو مصعدا ليسمو الى شرف الحياة قد يصارع الاحداث والمقادير ، والمقادير قد تكون أشد هولا من بأس الانسان وبطل هذه المدنية يلقى مصارعة المقادير بصراع اشد من صراع أبطال الالعاب الاولومبية وما يلقون به مقاديرهم قد أبقته الحكمة مثلا من هذه المصارعة .

« انما يأمرنا القانون أن خير الاخلاق أن

نستمسك فى صراع الاحداث بأقصى ما نملك من سكون الروع ولا نهتاج فزعاً لأننا لا نستبين ان ما ينزل بنا أهو خير ام شر وقد لا ينفع التوجع فى شيء وقد لا يكون فى شيء من اشياء البشر ما يستحق الهول والتوجع وقد يحول التوجع بيننا وبين السلامة ان مدت السلامة الينا يدها لتغيثنا على عجل »

فقال : عم تتحدث ؟

« اني اتحدث عن النصح فيما ينزل بنا من نوازل القدر ، اني أنصح أن نقف منها كلاعب النرد المعرض للخسارة فيهيء عقله لاحتمال الخسارة قبل أن تقع ويحتمي بأنفع وسائل الاحتمال التى يبديها له العقل ولا يتلقاها كما يتلقى الطفل اللطمة والضربة بالبكاء والعويل ، وانما يهيء نفسه لتنهض فتسعف بالدواء ، ويقيم ما تهاوى وما أغفل ويضع الدواء فى موضع التوجع والعويل . » (أفلاطون : الجمهورية : الكتاب العاشر)

ويكاد ديموستين يوجه هذا النصح الاولومبي لأثينا وهي تقاتل على حريتها فيليب المقدوني :

« انكم أيها الاثينيون تملكون قوة فى البر وفى الخيل والمال أكبر مما يملك سائر الاغريق ولكنكم لم توجهوها وجهة صحيحة حتى يومكم هذا ، وانكم لتصارعون فيليب كما يصارع البربار (أى الذى لم يتهذب بتهذيب احرار الاغريق) فهذا البربرى اذا تلقى لطمة امسك بيديه موضع اللطمة ، فان لطم فى موضع آخر وضع يده حيث لطم ، لكنه جاهل لا يعرف أن يتقى اللطمة باللطمة ولا أن ينظر ولا ان يحذر أو يتقى » . (ديموستين الفيليبية الاولى)

(٦)
خطبة التاج

ميراث العقل الاغريقي فكرة جعلها ديكارت على كل لسان وهي ان الانسان فكرة .. تقاس أقدار كل امرىء بما تبنى فكرته : وتحديد الفكرة فى عالم الفكرة المجردة قد يخفى على الأعين وما يجليها الا أن نصنع منها ما ألف الفن القديم أن يصنع وأن نصوغ من الفكرة تمثالا حيا ناطقا لرجل يعرض حياته فى تمامها على محكمة العدل التى يتوج عندها الخالدون..

واذن يصور الفكرة فى حرثها المقدس الذى يرفع البشر الفاني الى منازل الابطال الخالدين وقد اختار الاغريق منذ اولهم نظاما كنظام القبائل أى نظام المدائن وتسابقت كل مدينة على أن تنبت ابطالا وكان اليونان واثينا أسبق الهيللينيين الى تقديس الفكرة ، فلما افلت شمس اثينا السياسية افلت فكرة البطولة الموروثة وهزمت أثينا وتوالت أعاصير الفناء على المدينة وانشبت المنية اظفارها فى احرار المدائن وأحاط بالعالم ليل حالك من اليأس والخوف والعجز ، والقى الاحياء الباقون أيديهم بالتسليم للمقادير التى عصفت بأعز ما زرع الانسان فى عمر الزمان .. أى العدل والخير والحرية وكرامة الانسان :

وما كان قيس هلكه هلك واحد
ولكنه بنيان قوم تهدما

بل بنيان الانسان العزيز البطل الصادق الامين تهدما .. لتقوم على هدمه امبراطورية الاسكندر .. وفى ميتم الحرية نظر الاحرار بعضهم الى بعض ولم يكتفوا برثاء الابطال الذين قتلوا فى موقعة كيرونيه سنة ٣٣٨ ولكنهم نهضوا أمام رهبة الموت وقدموا التاج لديموستين فأنكر أعداء ديموستين على ديموستين تاج

Descartes – Disccurs sur la methode: je pense done je suis 1,

البطولة والعدل فنهض ديموستين يعرض حياته الخاصة والعامة كما كان يعرضها فى دين المصريين أولياء الله والعدل وكما ألف الابطال فى الالعاب الألومبية ان يعرضوا فى أناشيد النصر حياتهم العادلة وكما توجت بطولة بطلها بتاج الخالدين ، **فتاج ديموستين فى خطبة التاج هو خاتمة دين اطفئت مصابيحه وغابت معالمه وبنيت المعابد بعدئذ للظالمين وتليت حياة الطغاة الجبابرة على شباب الامم فى معاهد العلم ليمجدوا ذكر اعداء الله والانسانية ولا يكادون يذكرون المحسنين الذين قدموا فكرهم وأعمالهم وأقوالهم ودينهم لسعادة الانسان .. ومن يمعن النظر يجد نسبا قريبا بين فكرة ديموستين فى نهاية القرن الرابع ق.م. وفكرة سقراط فى نهاية القرن الخامس ق.م وفكرة سوفوكل من قبلهما فى تصوير بطولة أنتيجونه .**

قد غلب اذن دين جديد على ضمائر الانسان ووقع ما كان يتنبأ به بروميثيوس من زوال ملك زيوس : سيزول ملك زيوس يوم يولد اله أقوى منه فى ضمير الاحياء ، وقد نسأل أفلاطون ونسأل سقراط ونسأل اريستوفان وسوفوكل ويوريبيد وآباء الآداب اليونانية فى القرن الخامس ق.م. ما هذا الدين الجديد الذى جاء حربا على معابد العدل والخير وكان اشد فتكا بالمدنية من جيوش الفرس وبربرية الآسيويين .. كلهم مجمعون على أن الذى ذهب بمدنية الابطال والعدل هو اله المال والتسلط وحكومة الطغيان ومن قبلهم انزل المصريون لعنتهم على من علمهم الترف وحب المال وصوروا للقضاء صورة قضاة بغير أيدى حتى لا يمدوا أيديهم لرشوة وشيخهم أعمى حتى لا يحابي كبيرا ويحتقر صغيرا .. ودين المال لا يعرف العدل والتيرانية استحلت كل ظلم فى سبيل الملك والحكم ــ وفى الحرب الميدية رد الابطال جحافل الفرس ولكنهم لم يردوا سحر ذهب الفرس الذى سحر أبناءهم وسحر الفلبة التى غلبت على أبنائهم. وقد صحا العادلون بيقظة الكلب الساهر على دين الله وسعادة الانسانية ليدفعوا طوفان الدين الجديد الذى يجرف أمامه ما ادخر العادلون لسعادة الانسانية ويخلق أول السيل تعليما ولغة جديدة ليعبث الابناء بمجد آبائهم ويسموا الفوضى حرية والشجاعة تهورا والخشونة تأخراً والحلم عجزا والعدل ضعفا ، ويجعلوا النجاح دينا « فما أشهى ساعة النصر والنجاح .. أقدم ولا تتردد فاذا نلنا النجاح البسنا النجاح ثياب العادلين .. اطعني ساعة من نهار وارتكب مالا ترضى من السوء والعار وبعدئذ ستدعى فيما يأتي من الدهر اتقى اتقياء البشر .. » (فلوكتيت لسوفو كل)

ومن دين هذه المدنية الجديدة ان تخدع الناس بكل خديعة حتى يصدقوا انك عادل تقي .. والعادل الاكمل هو اظلم الناس الذى يقنع الناس انه أعدلهم والعالم الأكمل هو أجهل الناس الذى يقنعهم انه أعلمهم .. وذهبوا فى كل مذهب يرمون البرىء بصفات المجرمين ــ اتهموا أنتيجونه فى آداب سوفوكل . بالكفر وهي أتقى القديسين ليحلوا قتلها ، واتهموا أعدل العادلين سقراط بالكفر وبافساد الشباب ، واتهموا أوفى الاحرار ديموستين بالخيانة وأصبحت اللغة بغير عدل سلاحا بتارا يقتلون به المؤمنين ويمجدون به الظالمين الجائرين ، وكان القرن الخامس والرابع ق.م. مشهدا رهيبا للاعتداء على أولياء الله الصالحين الاتقياء الذين كانوا أجمل زينة أبطال الانسانية .

الف الانسان فى مدنية الابطال ان يصوغ من الفكرة تمثالا ، واذا أبصرت تمثالا لبطل فليس بشيء حتى يعبر عن فكرة صاحبه ، وما نعلم من أمر أنتيجونه فى شعر سوفوكل فى القرن الخامس ق . م . الا انها تمثال ناطق صور فيه سوفوكل فتاة تحمل جلال فكرة العدل والتقوى ولو صيغ للفكرة فى مثلها الاعلى تمثال لاستهوت أفئدة الناس اجمعين وانتيجونه كعذارى الاكروبول التى صاغتها

للخلود أنامل فيدياس وتلاميــذه وهي ذروة العقل اليوناني .

ومن صفات الابطال انهم يحبون الله ويحبون الانسانية وانهم ساهرون أبدا على الابقاء على ما أورثهم آباؤهم وأورثوا الانسانية من خير . فينهضون في ليل الاحداث كالكلب الامين لتدفع أنتيجونه عن ما بقي من ميراث العدل والتقوى والشرف ويسهر سقراط ليدافع عن العلم والعدل ويسهر ديموستين كي يدافع عن الحرية والعلم والعدل والشرف ولم تأفل شمس مدنيـــة الابطال حتى تخلق تماثيل لهؤلاء في معابـد العدل والخير وتماثيل في ضمائر الاحرار في كل صوب .

ومن صفاتهم انهم كانوا فوق مغريات المال وأقوى من هول الموت .. فاذا غالهم الظلم والجور قالت الانسانية جميعا ما قال ملأ طيبة في نجواهم عن انتيجونه وصور ذلك سوفوكل في جواب هيمون لأبيــه كريون الذى قتــل انتيجونه :

هيمون : ياأبتي ان الآلهة حين خلقت العقل والفكرة للانسان آتته أعز الكنوز وانا لا أستطيع ولا أتجاسر على أن اقول انك لم تهتد الى الحق والصواب ولكن غيرك من الناس قادرون على أن يأتوا بالصواب واني خلقت لأسمع كل ما يقال عنك وما يدبر لك المدبرون من شيء وما يلومك اللائمون في شيء ، ان الشعب يخاف رهبة وجهك ان قال ما لا تحب سماعه ولكني أنا أسمعهم في نجواهم ــ ان المدينــة ترثي لأنتيجونه ، انها من دون نساء العالمين لا تستحق أن تلقى شر العقاب في سبيل امجد عمل يؤديه الانسان ، ان أخاها قتل والقى في العراء نهبا للكلاب الجائعة والطير المفترس : الا تستحق(١) تاجا من ذهب ؟؟ انهم يسرون ذلك في نجواهم . »

وأنتيجونه لم تهجع في منامها ليلة أعلـن كريون تحريم دفن أخيها وهبت توقظ اختها التى لم تؤت البطولة مثلها فالبطولة هبة يخص الله بها من يشاء لا تشترى ولا تكتسب بعلم ولا تجربة .. وقد قرأنا في شعر يوربيد ان زهور التاج التى يجنيها من مشارف المرعى حرمت على من يبتغونها بتعليم المدارس وحرمت على الآثمين وما يقطفها الا من وهبته الطبيعة مواهبها .. وقد رأينا سقراط وهو يجـادل السوفسطائيين الذين يدعون انهم يعلمون كل شيء ، يفحمهم بسؤال قد لا يعرفون جوابه وهو انهم لا يستطيعون أن يعلموا الفضيلــة والبطولة فأبناء بريكليس لا ذكر لهم في الفضل رغم مجد أبيهم وتوسيديد يخص تيميستو كل بهبة من الطبيعة جعلته الالمعي الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع .. وسقراط لا يدعي العلم وهو عند الله أعلم زمانه وديموستين لا يرد نبوغه في صدق الرأى الى شيء أكثر من هبة طبيعية من عند الله ..

فاذا شبهنا العلم بالحرث والزراعة فقلوب الابطال التى يحرثونها بالعلم والفكر هي الارض المقدسة الجامعة لسر الله ومواهبه وسنـرى في حرث المدنية الغربية بفكر يوناني ان التوارث في البذر لا يغني عن التوارث في هبة الابطـال ودين الابطال ، واذا قارنا أرباب الفكـر في العقل الحديث بارباب الفكر في المدنية القديمة رأينا الفرق بين معدن الذهب ومعادن أخرى أقل صفاء ونبلا وخصصنـا ابطال الاغريـق وأبطال الفكر الأولين بأنهم كانوا قديسين وانهم كانوا آباء الانسانية الذين لا يرقى الى شرفهم أحد وأنهم كانوا جنس الذهب الذى وصفـه هيزيود منذ وارت الارض هؤلاء الابطـال ، صاروا أبطالا سعداء بمشيئة الله العلي القدير وأرواحهم حارسة تحرس البشر الفاني .. واذا نحن غرسنا في أجيالنا أفكار الأولين فلا نرجو أن نأتي بمثل بطولتهم وتهذيبهم ودينهم لأن بطولتهم كانت دينا طوته الايام في منحـدر

---

١ ــ سوفوكل : انتيجونه ٦٩٠ وما بعده

المدنية وهذا المنحدر ليس تاريخا حديثا ولكنه منحدر هال العادلين من أبطال العدل فى القرن الخامس ق . م .

لا بد للبطولة من هبة قبل العلم والتعليم..

« اني لا أخص نفسي بمقدرة فريدة فيما صدقت فيه فراستي فيما أوليتكم من نصح يا رجال أثينا ولست أعرف لهذا الفضل سببا الا أمرين أقولهما لكم : السبب الأول يا رجال أثينا موهبة يخص الله بها من يشاء وهي عندى فوق العلم والخبرة ، والامر الثاني انني لا أقضي فى أموركم ولا أحكم على السياسة بدافع المال ولا يستطيع أحد أن يثبت ان للمال أدنى سلطان علي وكان صوابا ما أملت علي الاحداث فائدته .. ضع المال فى كفة والرأى فى كفة فستشيل كفة الرأي ويجذب المال الراي والعقل اليه ولا يستطيع من ينصح ابتغاء مال ان ينصح بشيء حق او سليم لانه لا يستطيع أن يزن شيئا .. » (ديموستين خطبة السلم ١١ - ١٢) . »

ونحن نذهب الى ان من أراد الفكر بالمال وللمال فلن يأخذ منه الا مازيف بائعو العلم واله المال فى كفة وزيوس ومدنية العدل والخير فى كفة .. كانت مأساة البشرية لأن اله المال كان ساحرا يغزو ضمائر البشر وهي خالية من تهذيب المؤمنين والبطولة ودين البطولة فى كفة وذهب الفرس وذهب المقدونيين فى كفة .. قد صرفت الانسانية عن دين والعدل وجعلت العلم تجارة وجرى العلماء والخطباء والفلاسفة حيث يجدون المال واقفرت معابد العدل حتى تصلي الانسانية لرب المال وتتقاتل الانسانية فى سبيل المال ويدخل المال جزر السعداء مع أولياء الله واتقيائه .

كان فى ملك كرونوس (أب زيوس) قانون ما زال سارياً عند الله ، وقد سن هذا القانون ليسرى على البشر فكل انسان قضى حياته تقيا عادلا اذا قضي أجله دخل جزر السعداء وعاش فيها سعيدا مبرءاً من الآلام والسوء ، أما من ظلم وكفر فيلقى فى سجن يكفر فيه عن شروره .

وفى حكم كرونوس وفى حكم زيوس كان القضاة الذين يحكمون على حياة من مات ، أحياء يحكمون على أحياء ، كانوا يحكمون على الانسان يوم يبلغ أجله وكانت أحكامهم غير صادقة فشكى حراس الجنة من اختلاط الاشرار بالاخيار وقد جاء الجنة رجال لا يستحقون أن يكونوا فى الجنة ، جاءوا باجسام جميلة وجاءوا بأهلهم واموالهم وشهد لهم شهود كثيرون انهم عاشوا اتقياء عادلين طيبين (أفلاطون فيدون) .

ولا تغرب شمس المدنية الاولى مدنية الابطال والعدل حتى تعلو صولة المال والباس فى ضمير الاحياء ، ويمجد الاسكندر المقدونى بما مجد به أبطال العدل والخير فى طيبة مصر فاختلط الامر على الانسانية التى ورثت عقل الاغريق :

العدل والبطولة فى كفة والباس والمال فى كفة وأقيمت هذه الموازين لضمير الانسان فى آخر المدنية الاغريقية حتى سال الدم على جوانب هذا الميزان الرهيب ولم يعبر الاغريق هذه التجربة المحزنة حتى اسمع أبطالهم وهم فى قبضة الموت دين الابطال العادلين .. لم يصب الانسانية بلاء أكبر من حب الذهب ، انه هادم المدائن وطارد الناس من بيوتهم ، انه هو الذى علم الانسان السيئات وطمس على العقول الصالحة وزج بها الى العار والسوء ، وعلم الانسان الفجور والكفر فى كل زمان .. (سوفوكل أنتيجونه ٢٩٥ وما بعده) .

والابطال الذين نتوج هم صرعى الطغيان والمال ولكنهم اقدر الناس على تصوير نفوس العادلين قبل أن تغشى الضمائر والابصار بمساقط المدنية الحديثة ، دين أنتيجونه هو

خلاصة دين الابطال العادلين وهى مؤمنة ان ماتت انها ملاقية مـن خلا من قومها وانهـا سترقد فى الآخرة حبيبة بجـوار حبيب ولا يثنى ارادتها شيء عن أداء الواجب .

الحارس : انى أقص عليك ما كان حينما عدنا مثقلين بما توعدتنا به ، نفضنا عن الجثة ما كان عليها من تراب وعرينا الجثة التى بدأت تتقيحووقفنا فوق صخرة عالية بعيداً عـن مهب الريح لنتقى نتن الجثة وايقظ كل حـارس صاحبه بألسنـة حـداد خشية أن يصيبه اعياء أو كلل ومكثنا على ذلك حتى الظهيرة وكان الحر لافحاً فلـم يفجأنا الا اعصار يهب من الارض فملأ أقطار الوادى ترابا وهز الاشجار هزا عنيفا واظلمت اعيننا وصبرنا علىهذا البلاء الذى نزل علينا منالسماء زمانا طويلا فلما انقشع البلاء ابصرنا هـذه الفتاة وهى تولول وتصيح صيحات حادة كأم الطير ان رأت عشها فارغاً من فراخها الصفار ، وكذلك فعلت هذه الفتاة حينما ابصرت جثة أخيها عارية ارسلت صيحات عالية ودعـت بالشرور على من فعل بأخيها هـذه الفعلة وحملت فى أيديها ترابا جافـا فى اناء من صلب مطروق وصبت منه ثلاثا وتوجت بهذا الوضوء جثته فلما ابصرنا هامشينا اليها وامسكنا بهافلم تفزع شيئا وسألنا عما فعلت من قبل وعما فعلت الآن فم تنكر شيئا .

كريون : (يخاطب أنتيجونه) أنت أيتها التى تطرق برأسها تكلمى .. اتنكرين أم تعترفين بأنك أنت التى فعلت هـذه الجريمة ؟

أنتيجونه : انى اعترف انى فعلتها ولست انكر شيئاً ..

كريون : (يخاطب الحارس) اذهب انت ان شئت لا عليك من الجرم الثقيل شيء
(ثم يخاطبأنتيجونه) تكلمي ولا تطيلي
ألم تعلمي أننا نادينا بتحريم ما فعلت؟

أنتيجونه : نعم كيف اجهله وقد كان علانية ؟

كريون : ثم تخرقين رغم ذلك قوانين المدينة ؟

أنتيجونه : ان قوانين المدينة لم يأمرنى بطاعتها زيوسولم تأمرنى بها ربةالعدالة التى تعيش بين آلهة الدنيا والآخرة ان الله والعدالة لم يشرعا للناس مثل قانونك ولا اعتقد ان قوانينك ذات بأسوقوة حتى أعصى وأنا هالكة لا محالـة ، قوانين اللـه التى لم تكتب والتـى لا تخطىء مثقال ذرة والتى لم تشرع اليوم ولا بالامس وهى ازلية ابديـة ولا يعلم احد متى ظهرت ، اني لا اكفر بهذه القوانين خوفا من قوانين أحد من البشر فالقى عقابى عند الآلهة ، انى اعلم اننى لا محالة ميتة ، كيف أفر من الموت حتى ولو لم تأمر بمـا أمرت به ولو مت قبل اجلى كان ذلك كسبا لي ، فمن كان مثلى يعيش فيما لا يحصى من الآلام .. كيف لا يكون الموت ربحا له ؟ وما ضرنى ان ألقى ما قدرت علي مـن عقاب لكننى لو تركت ابن أمى ميتاً فى العراء فذلك هو عذابى (سوفوكل أنتيجونه) .

كانت أنتيجونه نبوءة بما يلقى أبطال الاحرار فى صراع الجـور ومـا لبث داء السوفسطائية والبغى ان فتك بقديس من اولياء الله والعدل وحملوا سقراط آثامهم فهم يعلمون كل شيء فيما يقولون الا العدل وهو لا يعلم شيئا الا العدل وعدله وتقواه صوت يأمـره بالعـدل والاحسان وينهاه عما يكره الله والعدل ، وكلفه هذا الصوتأنينسى نفسه ويذكر وطنه ويمشى فى الاسواق يبين للمخدوعين انهـم جاهلون واستفحلت السوفسطائية فأصبحت لا تؤمن بما آمن به أولياء الله والعدل وحصرت همم

المعلمين والمتعلمين فى ان ينالوا بكل سبيل ثراء المال وسلطان الملك وما عليهم الا ان يتظاهروا بالعدل والتقوى فالظاهر اقوى من الحقيقة والانسان ميزان كل شيءفان خدعت الانسان ملكته واستحب هؤلاء النجاح والوصولية بكل سبيل حتى ضيعوا ملك اثينا فى آخر حرب البيلوبونيز ثم اتهموا سقراط التقى واعدل الناس وبلبل الحكمة وبطل الصدق والحقيقة واعلم اهل زمانه بانه كان مجرما مفسدا معلما أفسد تلاميذه وجر اثينا الى الهاوية وسقراط صامت لم يتكلم فلما قتلوه كما قتل كريون انتيجونه ودعوا تقواها كفرا هاجر افلاطون وآوى الى معابد مصر ، اى الى معابد ابطال العدل ، وشغل قلبه بما يبصر فى صور البطولة من حساب الاتقياء العادلين الذين يلبسون تاج الخالدين ويأوون بعدلهم الى جزر السعداء فكتب دفاعا عن سقراط كأنما يعرضه على قضاء الله ومحكمة الذمة ربة العدالة ، وهذا الدفاع آية من آيات البطولة وكنز من كنوز معابد الأولين .

(٧)
موت سقراط

اي شاعر يثير كامن الأسى على قتل قديس بريء كان نسكه وصلاته وحياته ومماته لله واوطنه وللعدل .. ولا سبيل لبيان آية العدل المقدسة فى أثينا الا فى موسيقى تراجيدية سوفوكل وفي موت سقراط في آخر أيام سوفوكل .. فموت سقراط ان نفذت ابصارنا الى اعماق التراجيدية الأثينية في القرن الخامس ق . م . هو موت لأشرف القيم التى بنيت عليها سعادة الانسانية في تاريخها القديم .

قد بينا فيما ذكرنا من دين العدل انملهمات النبيان الموسيقى ارتفعت بالقديسين الذين قدسوا العدل الى ربة العدل الجالسة على عرش « زيوس » وهداهم فنهم الى تصوير صورة العدل في شيء غير ما ورثت الكتابة المقدسة من ارمز لربة العدل بربة فوق رأسها ريشة تقيم الميزان وتزن حبة قلب الانسان بالحق والعدل ، وربة العدل لا تموت أبدا في عمر الانسانية مهما تردى الانسان في مجاهل الجهل و لرذيلة ، ثم لا نرى الانسانية في تاريخها القديم والبعيد تأسى على موت ظالم أو آثم وانما تأسى على قوم حماوا دين العدل ورفعوا فضيلة العدل الى البطولة اى الى مثل العدل الأعلى ، نحن لا نأسى على موت انتيجونه في تراجيدية سوفوكل ولا على موت سقراط في آخر أيام سوفوكل وموت ديموستين في آخر أيام الديموقراطية الأثينية لأنه بنيان قوم تهدما .. وانما تذهب انفسنا عليهم حسرات لأنهم بلغوا بعلم ودين وبينة اشرف غايات الانسان .. اي الرجلين اولى بأن يتقدم ذكره في مقدمة عن حياة التراجيدية الأثينية في القرن الخامس ق . م . سقراط أم سوفوكل؟ منطق المعلمين والمدارس التى كنا فيها لا يكاد يجمع بين الرجلين الا عرضا لأن التراجيدية تياترو من عمل الشعراء والممثلين ، وسقراط فيلسوف .. ومنطق المعلمين والمدارس يكره الجمع بين رجلين أمهما أم واحدة ودينهما دين واحد وأملهما أمل واحد، وموت سقراط الذى حكم الأثينيون باعدامه وهم يعبثون كأنهم شهود يشهدون كوميدية من تياترو شعبى ، كان موت أقدس قيم العدل في حياة أثينا .. لا قدر لكل مدنية ان مات في ضمائرها دين العدل ولا جمال لأية حياة ان استهانت بدين العدل جهلا أو عن اصرار وبينة ، والتراجيدية هي تصوير كوارث الملوك والأمم الذين انحرفوا عن دين العدل عن قصد أوجهل وأصبحت حياة أثينا في أيام سقراط وسوفوكل ملكاً بنى أوله على التقوى والعدل فانبت الخالدين في الشعر والفلسفة والفنون وطرازا فريدا من عظماء الرجال ، ثم أغرتهم نشوة السلطان والحكم ومات دين العدل في ضمائر من غرهم بأسهم فوقعت أصدق تراجيدية شهدها الأثينيون وهى موت أثينا ربة الاقدام والحكمة وتهدم ملك بناه المؤمنون بالعدل ومهما اوتينا من بينة فلسنا على شيء بجانب ما كتب أولياء

العدل في تصوير ما حل بأمتهم من بلاء .. وما يعلم اسرار ضمير العدل والحرية الا القديسون أولياء الحرية والعدل ، وما ضرنا أن نسمع تفصيل ما كتب أفلاطون عن سقراط وهو بين أيدى قومه الحاقلين في قضاء لأمة يتهمونه زورا انه كفر بآلهة المدينة وجاء قومه بآلهة غريبة ، وانه أفسد شباب أمته وهو أذن سبب ما حل بهم من ضياع ملكهم وما نزل بهم من دمار في هزيمة صقلية وما وقع فيهم من فتنة وحرب أهلية ، وصدق قضاته الكثيرون افتراء تلاميذ السفسطة وقتلوا بلبل الحكمة واشرف العادلين وقديس العدل والتقوى ضحى وهم يلعبون وسقراط صامت لم يتكلم حتى عرضه بيان تلميذه افلاطون في صورة ادنى الى دفاع القديسين عن حياة العادلين امام ربة العدل التى بيدها مفاتيح الخلود .. والتى تتوج العادلين بتاج النصر والخلود ..

قضاة سقراط

نظام القضاء أصدق موازين الحرية والعدل معا وقد ترى امة ناعمة البال مزدهرة البيع والتجارة وحديث الأحداث ثم لا يغنى عنهـا الجاه والثراء مثقال ذرة ان اختل العدل فى ذمة القضاء مثقال ذرة .. والذين قدسوا الحرية قدسوا قوانين أمتهم فعلقوها أو نقشوها على معابد الهتهم ، والمساواة والحرية والديمقراطية والعدل اسماء كاذبة اذا طمع شريف في حيفك أو يئس ضعيف من عدلك ، وذهب الأحرار كل مذهب فى الابقاء على قوانينهم المقدسة فكل تصدع في العدل تصدع فى صرح السعادة والحرية ، ويحدث ديموستين عن صولون حين سألوه عن عقاب مزيفي القوانين .. قال لهم صولون أن مزيفى القوانين أشد خطرا ممن يزيفون المال المصكوك .. فقد استطاعت أمم أن تعيش رغم عملتها المزيفة وما تستطيع امة أن تعيش أبداً اذا زيفت قوانينها ، وضرب ديموستين لأمة تكلف من يريد أن يصلح قوانينها رهقا ، كانت تضع في عنقه حبلا ثم تدعه يبسط لأهل المدينة أصلاحه ثم يتداول القوم في أمره فان جاء بما يصالح المدينة عفوا عنه وان جاء بما يفسدها ويفسد قوانينها شدوا الحبل على عنقه وشنقوه .. ويهدم السياسيون والحاكمون بناء قومهم بأيديهم كلما سخروا قوانين امتهم لأهوائهم — وقبل أن يهوى صرح الديموقراطية الاثينية ويقتل قضاة سقراط رب العدل والتقوى شكى الاثينيون من خطر ماحق يهدد الصرح الذى بناه لهم آباؤهم العادلون فقد سلوا على الفاضلين سيف النفى (الاوستراسيزم) وكتب أشيل يمجد عدل محكمة الاريوباج وبنى على عدلها شرف أثينا وسعادتها ، وكتب سوفوكل تراجيدية نفى فيلوكتيت ، وكتب أريستوفان نقد الديماجوجية والسفسطة وغش السياسيين وفساد طوية الخطباء أى المحامين الذين يتهمون الاحرار ويتجسسون عليهم واذا نجحوا فى قتلهم باسم الديموقراطية والقانون ورثوا اموالهم .. وكتب اريستوفان فى كوميدية الدبابير نقد نظام القضاء فى أثينا فى القرن الخامس ق.م وكما يكتب مترجم الدبابير فى ترجمة أريستوفان الفرنسية : « كوميدية الدبابير هى نقد صارم لاهم نظام فى نظم الديموقراطية الاثينية اى نظام القضاء الذى أفسده زعماء العامة واستغلوه فى قضاء مآربهم وخاصة كليون الذى أفسد أخلاق الأثينيين وأفسد عقولهم »

ونلخص نظام القضاء فى أثينا قبل أن نعرض صوره فى نقد أريستوفان وسنرى أن المال وحاجته قد أفسد ضمائر القضاء فى دبابير أريستوفان ..

لم يكن القضاة فى أثينا موظفين ، وكل أثينى بلغ عمره ثلاثين عاما وهو مستمتع بحقوقه السياسية قد تقع عليه القرعة فيكون قاضيا فى قضية واحدة . قبل كل قضية يقترع على قضاتها ، ويختلف عدد القضاة حسب أهمية القضية فيختارون لبعض القضايا « ٢٠١ ، ٥٠١ ، ١٠٠١ » .

وكان هؤلاء القضاة فى أول حياة الديمقراطية

يقضون بغير اجر حتى جعل لهم بريكليس اجراً ــ فيأخذ القاضي « أوبولا واحداً » عن كل جلسة ودفعأجر للقضاة (كما يقول مترجم الدبابير) أحدث أثرين أولهما أن الاغنياء والموسرين انصرفوا عن هذا القضاء الذى لا يكافئهم بهذا الاجر الزهيد وأما الفقراء والفارغون والكسالى فقد اقبلوا عليه وجعلوه موردا لرزقهم ــ قبل كل جلسة كانوا يتزاحمون على أبواب المحاكم ــ وقعت المحاكم في قبضة زعماء العوام الديماجوج منذ رفع كليون أجر الجلسة من « أوبول » واحد الى أوبولات ثلاثة واصبح الفقراء سادة المدينة .

ولم يكن العدل هم القضاة بل كان همهم الأجر وظاهر السلطان والحكم ..

وحرص الديماجوج على أن يبسطوا يدهم على القضاء ليخلصوا من خصومهم السياسيين وليأكلوا مال من شاءوا من الأثينيين وكان ذلك عهد التجسس والوشاية ..

انبثت ضرورة المال فيأفئدة عامة الأثينيين واشترى زعماء العامة ضمائرهم بدراهم معدودة وهجر العدل الامن ضمائر القديسين الاخيار ، وصارت ديموقراطية سولون وكليستين في حياة القديسين الاخيار ديموقراطية ظاهرا وهي في صيحة الاخيار حكومة الجور والبغى وهي أبغض ماكره العادلون من الجور واشقى ما تتردى فيه أمة من ظلم ، وانبثت التيرانية في قلب حكومة الأثينيين وعامتهم لا يشعرون .. كما يقول الكوروس في كوميدية الدبابير :

الكوروس : أليس ظاهرا كالشمس حتى للفقراء أن حكومة الطغيان (تيرانية) تنبت فينا من حيث لا نشعر ــ ان كنت انت يا شر الاشرار تنزع منا القوانين التي سنتها المدينة لا لسبب ولا عذر مقبول سوى ان تحكمنا وحدك .

بدليكليون : كل شي عندكم حكومة طغيان ومؤامرة في الصغيرة والكبيرة من أموركم لم اسمع اسم « التيرانية » منذ خمسين عاماً وهي الآن اهم من الفسيخ واسمها في الاجوار على كل لسان . (١) (الدبابير ٤٨٧ وما بعده)

شر الكوارث ما اقبل عليه الانسان مختارا بكل جوارحه وهو لا يدرى أنه مقبل على حتفه، لذة الخمر قاتلة ومن اخذت الخمر براسه لا يرجع الى الحق .. وفي كل الشهوات خمر .. وشهوة الحكم خمر جامحة وقد اخذت خمر الحكم بعامة الأثينيين فلم يستمعوا لما يتلى عليهم من آيات الحكمة وترددوا في كارثتهم رغم نصيحة سوفوكل وفلسفة سقراط وسخرية اريستوفان وماحملت عقولهم من بينات الحكمة وما أصاب مدينة العلم والحكمة قد يصيب الانسانية كافة الا من عصم الله فاستمسك بالعدل والتقوى وصيحات سوفوكل وسقراط في غمرات سكرات قومهم باتت بلاغا للعالمين ونصحا للاحرار في كل عهد .. لله ما علموا وما عملوا ، وقد صور اريستوفان خمر الزهو التي اخذت برؤوس عامة الأثينيين اذا قضوا .

فيلوكليون : اني سأبين لكم ان سلطتنا ليست أدنى من سلطة أي ملك وابسط الأمر من مطلعه .. هل ترون في الدنيا نعيما وسعادة فوق نعيم القضاء وسعادته ؟ هل من حياة أمتع أو أكبر هيبة من حياة القضاة وخاصة في شيخوختهم فقبل أن أذهب من مضجعي ينتظرني عند عتبة المحكمة رجال كبار ذوو قامة عالية فاذا اقتربت وضعوا في يدى يدهم الناعمة التى سرقت أموال الدولة ويستجيرون بي خاشعين بصوت مسكين ويقولون: « أني اضرع اليك وأستجير بك يا أبتى فربما تكون أنت مثلى قد سرقت يوما ما شيئاً في حكم توليته أو في الجيش في ما اشتريت لمؤونة رفاقك ــ وهذا الرجل لا يكاد يشعر بحياتي لو لم يرد أن ابرئه قبل كل شيء »

بدليكليون : هذا شأن المستجيرين ولأحفظها لك .

فيلوكليون : حتى أدخل المحكمة فأسمع رجاء المستجيرين ويذهب عني الفضب ، ولا افعل شيئا مما وعدت به وأسمع أصوات المتهمين يسألون البراءة ثم تعالوا فانظروا بأى تملق يتوسل المتقاضون الى القاضى،منهم من يبكى فقره ويبالغ فيه ومنهم من يروى لنا قصةمن‌نوادر « ايزوب » ومنهم من يمزح حتى‌أضحك ويصرف عنى همى فان لم تنفع هذه الوسائل توسل الينا بأطفاله الصغار وجاء فى يده بالبنين والبنات ثم استمع أنا اليهم وهم مطرقون يتكلمون بأصوات كثغاء الغنم ثم يتحدث أبوهم نيابة عنهم ويسألنى وهو يرتعد ان أبرئه من الحساب على سوء ادارته ويقول لي اذا كنت تحب صوت‌الخروف فارحم صوت ولدى وان كنت تحب صوت النعاج .. أثر على‌بصوت بنيه ونحن نبسط له‌وجهنا بعض‌البسط اليست سلطة القاضى سلطة كبيرة تهزأ بكل غني ؟

وامتع ما أجد فى كل ذلك قد نسيته اذا رحت الى دارى ومعى أجر قضائى ، كل اهل الدار يرحبون‌بي‌حبا فى قطعة الفضة(التريبول) وبنتى تحميني وتعطر قدمي وتحلق على وتقبلني وتناديني « بابا » وتصيد بلسانها قطعة التريبول من فمى وامراتى تدللنى وتقدم لى فطيرة ثم تجلس بجانبى وتعزم على وتقول كل هذه اللقمة،قرقش هذه اللقمة . (١) الدبابير ٥٦٠ وما بعده

هؤلاء القضاة سعداء بمظاهر السلطان لان القضاء فى‌أثينا كان قضاء شعبيا ، وكان‌الشعب سلاحا فى أيدى زعماء العامة « الديماجوج » ولم يكن لزعماء العامة رادع من شيء ، قد استبدوا مرة واحدة وسلطوا قوانين المدينة على أعدائهم وادعوا الاخلاص للمدينة والشعب وفرضوا لقضاة الشعب أجرا زهيدا « ثلاثة أبول » كلما أسعد العاطلين الحظ فوقعت عليهم قرعة القضاء وهم بذلك فقراء معلقة آمالهم بحكام الشعب الذين اشتروا ضمائرهم وسخروهم كالدبابير على خصومهم وشهروهم كالسيف فى قضاء مآربهم :

« ان زعماء الشعب حريصون على فقرك (أى قاضى الشعب) وسأبين لك ما يريدون من وراء ذلك ـ يريدون أن تعرف من يروضك حتى اذا صفر لك مروضك لتنقض على عدو من اعدائه انقضضت عليه وافترسته كالوحش وما كان أيسر الأمر لو جعلوا الناس جميعا أغنياء لو أنهم أرادو (١) لكنهم قتروا على الشعب‌وخرجوا هم والمتملقون بنصيب الأسد واذا تعطشت نفوس الحاكمين فى حكومة ديموقراطية الى الاستبداد بالحكم فمصير المدينة أن تغشاها الرذيلة والظلم والدمار ..

ملك العامة ملكا عظيما فى حياة سقراط فلما بغوا انقضوا كالدبابير المصروعة يقتلون العادلين الابرياء ، وعلم السفسطة الحديث الذى احل حراما وحرم حلالا وجعل الخطابة سلاحا بتارا أشرف غاياته أن يغلب حججه فى القضاء وفى المجامع السياسية ظالما أو مظلوما ـ وبحججهم الظالمة قتلوا سقراط وقضى الامر ومات سقراط ـ لكن سقراط سيقف بعد موته امام ميزان ربة العدل والانسانية وتزن قلبه الطاهر البرىء بريشة العدل فاذا من قتله قومه من عامة الأثينيين وتلاميذ السوفسطائيين يدخل فى ضمير الانسانية فى جنة القديسين والشهداء فيخلد فيها أبدا ..

وما كتبه افلاطون عن سقراط بعد موت سقراط كان يقظة ضمير الانصاف والحق فى

١ ـ اريستونان ـ الدبابير ٧٠٠ وما بعده

أثر الحياة العادلة التى لم ترتكب مثقال ذرة من السوء وهل ترى فى مآسى البشرية مأساة أنكر من أن يقتل البقية الباقية البريئة من أولياء الله والعدل فى معبد العدل المهجور ــ وقد قرأت الانسانية من بعد سقراط ايمان سقراط بخلود أرواح العادلين وقرأت هذه الآية الفريدة من تقديس الوطن وقوانينه .. نصح كريتون سقراط أن يهرب من السجن ويتقى الموت فأجابه سقراط :

سقراط : انظر ما أقوله لك .. هب أننا هممنا بالهرب أو سمه كما تشاء فاذا بقوانين المدينة تعترض سبيلنا وكذا الصالح العام وتقول لنا (قل لى يا سقراط ماذا تريد أن تفعل ألست ترى انك انما تقدم فيما تستطيع على هدم القوانين والوطن جميعا ألست تعلم أنه لا بقاء للمدينة اذا هان العدل فيها وعبث أفرادها بأحكام القضاء فسلبوها سلطانها وهدموها ؟) فماذا تجيب يا كريتون على هذا السؤال أو على ما يشبه هذا السؤال ــ قد لا يعدم الانسان حجة وخاصة من كان خطيبا فى الدفاع عن القانون الذى دسنا عليه والذى يأمر باحترام قضاء القضاة ــ أنجيب القانون أننا هربنا لان المدينة ظلمتنا واخطأت فى حكمها علينا ؟ انرد على القوانين بهذا الجواب ؟

كريتون : نجيب بذلك الجواب يا سقراط ..

سقراط : ثم ماذا نقول ان قالت لنا القوانين (ألم تتعهد لنا ياسقراط باحترام ما تحكم المدينة به ؟) فان استغربنا لما تقول فقد تقول (لا تعجب لما نقول يا سقراط ولكن اجبنا فقد دأبت على السؤال والجواب ماذا تشكو منا ومن وطنك حتى تهم بهدمنا، ألا تدين لنا بحياتك فقد تزوج أبوك أمك وخلفك فى ظل قوانين المدينة ، تعال فقل هل تعيب على قوانين الزواج شيئا) فسأقول (لا لا أعيب عليها شيئا) (أم هل تشكو شيئاً من القوانين الخاصة بتربية المولود وتعليمه والتي تعلمت أنت بفضلها والتي فرضت على أبيك أن يعلمك الموسيقى ورياضة الابدان هل تجدبها عيباً ؟) فسأقول (كلا انها قوانين صالحة) فقالت (وهو كذلك فمن حيث أنك ولدت ونشأت وتعلمت فهل تدعى الآن انك لست ابننا وعبدنا وأنك منا أنت وآباؤك واجدادك واذا كان هذا هو شأنك فهل تعتقد أن لك علينا مثل مالنا عليك من حق لك أن ترد علينا ما نقضي فيك ــ فان كنت لا تملك مثل ما لأبيك عليك من حق ولا مثل ما لسيدك ان كنت عبدا حتى ترد عليهما ما يصيبك منهما فاذا شتمناك شتمتهما واذا ضربناك ضربتهما او شيئا من هذا القبيل ــ هل يحل لك ان استطعت أن تهدمنا نحن القوانين ونحن وطنك اذا نحن رأينا من الحق ان نقتلك ، ثم تقول اذا فعلت ذلك ، ان ذلك هو الحق أنت يا من تعيش للفضيلة بحق وأنت أيها الحكيم هل يخفى على حكمتك أن الوطن أحق بالبر والتقديس من أبيك وأمك وأسلافك أجمعين وهو ذو منزلة عالية عند الآلهة وعند الحكماء وأن للوطن علينا حقا أن نقدسه وأن نطيعه ونفعل ما يأمرنا به ونحتمل ما يأمرنا به ، أن نحتمل بنفس راضية ولا نرد له أمراً ان ضربنا أو قيدنا او ساقنا الى الحرب لنجرح او نموت فنفعل ما يأمرنا به لان ذلك عدل وحرام علينا أن نفر من صفوفنا او ننحاز عنها او نتخلى عنها ولا بد أن نطيع ما يأمرنا به الوطن فى القتال او فى المحاكم او

فيما يشاء الوطن أو نقنع الوطن أن يغير حكمه بسبله المشروعة ــ أما من يعصى أمه وأباه أو وطنه فانما يرتكب ظلما حرمه الله) فماذا نرد على ذلك يا كريتون ؟ هل تقول القوانين حقـا أم لا ؟

كريتون : اني اعتقد انها على حق ..

سقراط : ثم تقول القوانين (تعال يا سقراط أطع القوانين التي ربتك ، لا تجعل ابناءك ولا حياتك ولا أى شأن مـن شئونك أغلى مـن العـدل حتى اذا لاقيت الله فى آخرتك دافعت بالعدل عن حياتك لدى قضاة الآخرة ، فان هربت وعصيت أمرنا فلن تجد فى هذه الارض خـيراً ولا شرفاً ولن ترضى العدل والتقوى وتلحق سيرة السوء بكل أهلك ولن تجد فى الاخرة ثواب العادلين واليـوم تبـرح الحيـاة ان غادرتها مظلوما لم تظلمك القوانـين انما ظلمك اناس من البشر فان خرجت هارباً من سجنك لبست عاراً ودفعت السيئة بالسيئة والشر بالشر وخرقت العهد الذى عاهدتنا عليه، وآذيت أقل الناس استحقاقا لأذاك ، تؤذى نفسك وأصدقاءك ووطنك وتؤذينـا نحـن وسينزل بك غضبنا حيا واذا مت لا تتقبلك قوانين الآخرة وهم اخوتنـا قبولا سعيدا لانهم يعلمون أنك هممت بهدمنا بما ملكت يمينك فلا تطع كريتون فيما ينصحك به واتبع ما نأمرك به)(1).

(٨)

دفاع سقراط

الدفاع عن هذه الحياة بعد الموت كان طرفا من دين العدل ــ وعدل الله في الآخـرة له قوانين الهية خالدة ــ وأولياء العدل في دين العدل علموا كثيرا من قوانين اللـه الأزليـة الراسخة في الصدق التى لا تحيد عواقبها عن الحق مثقال ذرة وهى التى علمت الانسان الرياضة والفلك والحساب وكشفت للانسان ابواب السعادة والخلود وهذبت الانسان بما يرضى الله والعدل ــ وهى فى أعماق التراجيدية الأثينية ، كل ملك لا يستند على قوانين اللـه والعدل لا يلبث أن يهدم وكل حياة حادت مثقال ذرة عن تقوى الله والعدل فعاقبتهـا الشقاء والبوار .. ومن ملك كل شىء ولـم يستمسك بقوانين العدل فقد ملك مالا يغنى عنه شيئا ، ومن صفات قوانين الآلهة انهـا مغيبة في أصول الحياة والموت لا تراهـا الا ضمائر الاتقيـاء العادلـين ومجـد الشعراء والموسيقى في دين العدل أنهم بينوا للانسان نصيبا من سلطان عدل الله وطـاب لشعراء التراجيدية الاثينية أن يصرعوا ملك التيرانية والسلطان المطلق بقوة عدل الله الذى لايغفل شيئا وقد رأينا كيف لقيت أنتيجونه الموت بجنان ثابت لانها مؤمنة بدين العدل فى أساطير أوديب ، وقد نرى كيف لقى سقراط الموت في أثينا بنفس راضية لانه مؤمن بدين العدل.

وما رفع ادب أوليـاء العدل الى شرف الانسانية الا انهم آمنوا بعدل الله الذى لا يرضى للانسان عار الفحش والرذيلة ، لا يقبل الله الكاذبين الظالمين المخادعين ويحب اللـه الخيرين الصالحين الطاهرين ــ وعين العـدل ساهرة تبصر ما يخفى ولا تغيب عنها النوايا ــ ومـن شر البلايا أن يعيش العادلـون حتى يصارعوا بموتهم وحياتهم غائلة الظلم الذى لا يبصر الا ظواهر الامور ــ ويتخذ ظواهر الاشياء ميزانا لكل شىء ويكفر بالعدل والدار الآخرة التى لا تشهدها ابصار الجاهلين ولا تصدق بها أفئدتهم .. وفى آداب هذا العهد خاصة خلاف بين الحقيقة الأزلية الموصولة بعدل الله وبين الحكم بظواهـر الاشياء وصار الخـلاف بين

1 ــ افلاطون : كريتون ٥٠ وما بعده

الطائفتين فى اثينا أيام سقراط وسوفوكل وتوسيديد خلافا بين مذهبين من مذاهب الحياة والعقل، وانتصار العامة الغالبةالحاكمة لظواهر الامور علمها الباطل والكذب، وأحل البغى والظلم وهدموا بظواهر الجاه والبأس ما بنى العادلون بالحق والتقوى ـ وقد نلخص حياة العادلين أمثال شعراء التراجيدية وسقراط أنهم حاربوا بمواهبهم الخارقة خدعة الظاهر في عقول المخدوعين بظواهر الامور من بنى قومهم ـ وقد تمادت أثينا في الباطل حتى خدعت عامةالمدينة بظواهر الامور فاستمسكت غير مرة بنصر ظاهر وجاه خادع كسراب بقيعة وظلمت أتقياءها العادلين المؤمنين الذين لا يباهون بنصر فعلوه ولا ينقشون فوقدروعهم آثار فخارهم لانهم لا يحرصون على أن يكونوا ابطالا في ما يظهر للناس ولا يبتغون سوى الحقيقة التى توزن بميزان عدل الله والذين حرثوا في قلوبهم حرثا عميقا ينبت نباتا شهيا من العلم والرأى .. فالتراجيدية الانسانية في الأنسان نفسه حين يرتفع أبطال العدل الى قمة الخلود ثم لا يملكون لقومهم نفعا اذا تردى قومهم فى وهاد الظلم .. وما يملكون الا أن يقيموا شعائر العدل بين قوم مستكبرين .. ولو أذن مؤذن للصلاة فيحي الأثم والبغاءلذهب دعاؤه هباء ـ ولو نبتت ثمار شهية في حقل الخبيث من الزرع لذهب الخبيث والطيب هباء ـ فهل دعا الشعراء قوما صما عن سمع آيات العدل أم كانوا قوما يعلمون كثيرا عن صناعتهم وسياستهم وحريتهم ولكنهم سلكوا طريقا غير التىسلكآباؤهم واستكبروا كثيرا ـ ولعلك قارىء صورتهم فيما صوره سوفوكل في تراجيدية أنتيجونه :

الكوروس : فى الخلق عجائب كثيرة وليس فيها شيء أعجب من الانسان .. امتطى أعناق الموج المزمجر وسار بريح الجنوب العاصفة والأرض الطيبة المقدسة التي لا تكل ولا يفيض معينها .. انه يجهدها بمحراثه .. يقلب أرضها غدوا ورواحا عاما بعد عام وتجر محرأثه أمة الخيل، وقبائل الطير السريعةطوقهابشراكهواقتنصها، ووحوش البر والبحر قد أوقعها الانسان الذكي فى حبائله المحبوكة وملك بشباكهوحوش الجبال وأخضع عنق الجواد الناعم شعره لطوقالناف واخضع رقاب ثيران الجبال التي لا تكل .

وتعلم البيان والفكر الذى يسرى كالنسيم واخلاق المدنية وتعلم أن يتقي نزلات البرد فى العراء وهو ذو حيل واسعة وهو يمضي لغده غير عالم بشيء منه والموت وحده لم يجد منه مفرا والامراض العصية عرف دواءها .

واوتي من العلم والفن ما جاوز الأمل حتى اذا أخذ بزمام الحكم فى مدينته تضاربت عليه الضلالة والهدى واختلطت عنده قوانين الارض والعدالة الالهية والايمان .. ليس أهلا لوطنه من لا يرعوي عن ارتكاب السوء ومن لا يدخل فى عبادتي (أى عبادة العدل) ومن لا يؤمن بما أومن به (۱)«سوفوكلأنتيجونه۳۳۲ وما بعده»

فأبناء أثينا الذين غرهم ملكهموغرتهم قوتهم نبغوا اذن فى البر والبحر، وعلموا كثيرا مما كان عندهم علما حديثا واستكبروا على آداب العادلين فأغرقوا أمتهم ونهض خطباؤهم فزجوا بسقراط فى محاكمة لم يدافع فيها سقراط عن نفسه ونجحوا فى اعدامه فكتب أفلاطون بعد موته محاورات سقراط وكتب دفاعا عن سقراط للعدل والانسانية ولله رب العالمين انه دفاع امام محكمة أثينية وهو فى أعماقه كخطابة القديسين المصريين الذين يعرضون حياة الموتى لرية العدل ومن تطهرت كل حياته من الأثم وعمل طول حياته عملا صالحا توج بتاج النصر والبراءة ليدخل جنة

السعداء مع العادلين المؤمنين وما يغنى فى عرض دين العدل ان نكتفي بأطراف من هذا الدفاع فهو دفاع فى باطنه دين العادلين المؤمنين فى الحياة والموت وهم أولى الناس بأن يتحدثوا عن دينهم وادبهم .. هذا الادب ميراث الاحرار فى كل دهر وما ضرنا أن نتلو آياته كاملة ما وسعنا الصبر .

أ ـ مقدمة :

اني لا اعلم يا رجال أثينا مدى تأثركم بخطابة الذين اتهموني ، أما أنا فقد كدت لا اعرف نفسي لانهم يملكون ناصية البلاغة والاقناع وان لم يقولوا كلمة صدق واحدة ولكن أكبر ما عجبت له فى كل ما افتروه من الكذب شيء واحد حين سألوكم أن تكونوا من كلامي على حذر لاني فيما يدعون خطيب داهية .. أولا يستحون من الكذب ان كذبتهم من فوري واثبت لهم انني لم اظهر ابدا فى حياتي فى هيئة خطيب مقتدر ـ ان ذلك الكذب أخزى ما يخزيهم ما لم يكونوا يسمون خطيبا داهية من لا يقول الا الحق فان كان ذلك ما يقولون فانا أقول معهم اني خطيب لكني خطيب على غير طرازهم .. فهم كما قلت لكم لم يقولوا كلمة صدق واحدة وانا لن تسمعوا مني الا الحق كل الحق ، لن آتيكم بالله يا رجال أثينا بكلام مزين مثل كلامهم ولا مثلهم بعبارات بديعة والفاظ ونغم ولكني سأحدثكم بكلام مرسل على علاته .. اني مؤمن اني لن اقول لكم الا الحق والعدل فلا تنتظروا مني شيئاً سوى العدل والحق ، انه لا يجمل بسني أيها الرجال أن آتيكم بكلام مصطنع منمق كما يفعل الصبية ، ولي عليكم بعد ذلك رجاء يا رجال أثينا أسالكم أن تحققوه فاذا رايتموني احدثكم واجادلكم بأسلوبي الذى الفت أن احدثكم به فى سوق المدينة على الموائد حيث سمعني كثيرون منكم أو حيثما الفتم أن تسمعوني فلا تعجبوا ولا تثوروا ـ والسبب فى ذلك أنني اقف لأول مرة أمام القضاء وقد بلغت من العمر سبعين عاما وأنا جاهل بأسلوب المحاكم واذا جاءكم رجل أجنبي حقا استمعتم الى لهجته ولغته التي شب عليها فاسمحوا لي ايضا أن أخاطبكم بلغتي وأسلوبي الذى شببت عليه ، وأسألكم هذا الحق الا تقيدوني بأسلوب واقبلوا أسلوبي حسناً أو قبيحا ولا تنظروا الا الى أمر واحد ـ هل أخاطبكم بالعدل والحق أم لا فهذه هي فضيلة القاضي وفضيلة المحامي أن يقول الحق .

من حقي يا رجال أثينا أن أدفع عن نفسي التهم القديمة الكاذبة وأدحض المتهمين الاولين، حتى اذا فرغت منها دفعت التهم القريبة والمتهمين الحديثين ، انني بلوت متهمين كثيرين قد اتهموني منذ عهد بعيد ولم يقولوا الا كذبا واني اخشاهم اكثر مما أخشى « أنوتوس » ورفاقه الذين لا أستهين بخطرهم ، أما السابقون فهم عندى اشد هولا ايها الرجال لانهم استبدوا بعقولكم منذ صباكم وأقنعوكم وافتروا عليَّ كذبا وقالوا لكم أن فيكم رجلا يدعى سقراط وهو رجل عالم مهتم بدراسة السماء باحث عن اسرار الأرض ويقلب الرأى الضعيف على الرأى القوى ـ قد أفشوا هذه التهم ايها الاثينيون وهي أخطر ما أخشى من التهم لان الذين يسمعونها يؤمنون أن الباحثين عن هذه الاشياء لا يؤمنون بالالهة وهؤلاء المتهمون غير قليل اتهموني من أجل بعيد وخاطبوكم وأنتم فى سن تصدق كل شيء فى طفولتكم وفى صباكم واتهموا من لم يدافع عن نفسه قط ولم يدافع عنه احد ـ وأنكر ما فى أمرهم انك لا تستطيع أن تسمى احداً منهم باسمه اللهم الا شاعر كوميدية ، ومنهم قوم أكل الحسد والحقد قلوبهم فروجوا فيكم هذه التهم واشاعوها بين الناس وهؤلاء لا سبيل الى معرفتهم ولا الى دعوتهم هنا ودحض افترائهم ولا بد أن تدفعهم كظلال الشياطين وتدفع تهمهم وهم غيب لا يجيبون ، فاعلموا ان الذين يتهمونني طائفتان : الذين اتهموني فى هذه المحاكمة والذين اتهموني من أجل بعيد ، وهؤلاء هم اول من أدحض افتراءه لانكم سمعتوهم قبل أن تسمعوا الآخرين وسمعتوهم اكثر مما سمعتم هؤلاء الآخرين .

وبذلك أبدأ الدفاع وأحاول أن أنزع منكم هذه الريبة التي حفظتم زماناً طويلا في ساعة ضيقة ، واريد أن افعل ذلك لعل فيه خيرا لكم ولي ، وان دفعت عن نفسي هذه الريبة فقد كسبت كثيراً ولكني اعرف أن ذلك امر عسير ولا يخفي عليَّ عسره ، فليكن ما يريده اللـه ولنؤمن بقانون المدينة ونبدأ الدفاع :

تعالوا نعالج الامر من أصوله لنرى منبت الريبة التي اعتمد عليها ميليتوس فرفع عليَّ هذه القضية ــ انظروا ماذا يتهمني من اتهموني ولنقرأ نص اتهامهم : « سقراط ارتكب ظلما فهو دائب البحث عن أسرار الارض والسماء ويغلب الرأي الاضعف على الراي الأقوى ويعلم تلاميذه أن يفعلوا مثل فعله . »

ويرجع ذلك الى ما ألفتم أن تشهدوا في كوميدية اريستوفان ، اذ تشهدون سقراط معلقاً يدعي أنه يمشي في الهواء ويقول سخافات أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ولا أعلم منها صغيرة ولا كبيرة ولست في ذلك بمستهجن مثل هذه العلوم ان علمها احد من الناس ــ لكني أقول ذلك لكيلا يتهمني ميليتوس بهذه التهمة الخطيرة فاني أيها الاثينيون لا علم لي بشيء منها ، اني استشهد بكثيرين من بينكم واني أسألكم أن يفضي بعضكم الى بعض بما سمعتموني اجادلكم فيه فكثير منكم قد سمعوني ، فليحدث بعضكم بعضا ان كان احد منكم سمعني اقول ادنى شيء من هذه المسائل ــ وستعلمون بعدئذ ان ما يرميني به عامتكم لا يعدو هذا الباطل ، كل ذلك باطل وكاذب من يقول انني كنت معلما أعلم الناس تلقاء أجر من المال .. وانا أحمد من يستطيعون تعليم الناس كما يفعل جورجياس الليونتيني وبروديكوس الكييوسي وهيبياس الاليسي (١) كل رجل منهم يا رجال أثينا قادر على ان يذهب الى كل مدينة ويقنع شبان المدائن الذين يستطيعون ان يصاحبوا من شاؤوا من رجال وطنهم بغير أجر وهم يقنعون هؤلاء الشبان أن يقطعوا مصاحبة أهلهم ويصحبوهم هم ويؤجروهم اجورا من المال ويعترفوا لهم بالجميل ــ وبيننا الان عالم من باروس كما أخبروني ، وحدث اني ذهبت الى بيت كالياس بن هيبونيكوس وهو رجل دفع وحده لهؤلاء العلماء اكثر مما دفع لهم سائر الناس فسألته هذا السؤال وهو والد له ولدان فقلت له يا كاليا : لو أن ولديك كانا مهرين أو عجلين لعرفت أن اختار لهما معلماً بأجر يعلمهما ويجعلهما أصلح وأجمل .. كل حيوان حسب مواهبه ــ اذن لاخترنا لهما مروض الخيل او فلاحا ، لكن ولديك من الانس فمن عسى أن تختار لهما من المعلمين .. أي المعلمين يستطيع أن يعلم الفضيلة والانسانية والسياسة .. فلا بد أنك فكرت في هذه المسألة لان لك ولدين ــ وقلت « هل نجد هذا المعلم او لا نجده » فقال: « لا شك انه موجود » فقلت : « من هو ومن اي البلاد وكم يتقاضى من اجر لقاء تعليمه » فقال لي : « انه ايفيتوس من أهل باروس يا سقراط وهو يتقاضى خمسة منًا (اى خمسمائة درهم) » .

اما انا فقد غبطت نعمة ايفيتوس لو استطاع حقا أن يعلم كما يقولون بهذه الطريقة المحكمة وكم كنت اتباهى وأتكبر لو كنت أعلم ذلك ولكني لا اعرف من ذلك شيئا أيها الرجال .

وقد يعترض منكم معترض فيقول : « ما خطبك يا سقراط من أين أتتك كل هذه التهم فان كنت لم تفعل سوى ما يفعل الآخرون فما هذه الشهرة العريضة التي كسبت وما هذا الاسم المفرد العلم .. قل لنا ما هذا الخطب حتى لا نتخبط في أمرك خبط عشواء » .

ان هذا سؤال عدل وسأجتهد فأبين لكم منبت هذا الاسم والشهرة الباطلة فاستمعوا له ولا يحسبن احدكم اني الهو وكونوا على يقين اني لا أقول غير الحق .. أن هذه الشهرة

---

(١) هؤلاء كبار السوفسطائيين في زمان سقراط .

نتجت عن علم عرفته فما هو هذا العلم — ربما أسميه علم الانسان ، ربما اكون عالما بهذا العلم اما هؤلاء العلماء الذين ذكرت من قبل فلهم علوم اكبر من علم الانسان او ضلت حيلتي فلا اعرف ما اقول فأنا لا أعلم من علمهم شيئا ومن قال اني اعلم علمهم فقد افترى علي كذبا ورماني بكل ريبة .

وأنا اسألكم يا رجال أثينا الا تضجوا ولا تحسبوا اني آتيكم بمبالغة وما أقوله ليس من عندى وانما آتيكم بمن قال هذا القول وهو قائل جدير بأن تصدقوه « أى علم ان كنت أعلم وما قدر هذا العلم اني آتيكم بشاهد عليه هو اله ديلف .. وأنتم تعرفون من هو شريفون انه صاحبي منذ الصبا وهو صديق عامتكم قد نفي معكم ورجع معكم وأنتم تعلمون اخلاق شريفون اذا أقبل على أمر اقبل عليه بكل نفسه ، قد قدم يوما على معبد ديلف فاجترأ أن يسأل عرافة المعبد عمن عسى أن يكون أعلم مني فأجابت النبوءة بصوت عال انه ليس من احد اعلم مني .. ويشهد على ما اقول اخ شريفون فهو حاضر بينكم لان شريفون نفسه قد مات » .

فتبينوا ما بالي اقص عليكم هذا الحديث انما أريد أن أبين لكم مصدر هذه التهمة الباطلة التي اتهموني بها حين سمعت هذه النبوءة قلت لنفسي .. ماذا يقول اله ديلف وهل وراء هذا القول معنى خاف .. فأنا فى نفسي أعلم انني لست على صغيرة ولا كبيرة من العلم فماذا تعني النبوءة التي تقول اني أعلم الناس ، والنبؤة لا تكذب ولا يحل لها أن تكذب — ومكثت على ذلك زمانا طويلا لا أستبين معنى هذه النبؤة — وبعد لأي اخذت على عاتقي أن أبحث عن معنى هذه النبؤة ، فمشيت الى رجل مشهور بالعلم وهل من سبيل الى أن أستبين حقيقة النبؤة الا بهذه الوسيلة وقلت للعرافة : « هذا الرجل اعلم منى وانت قلت انني اعلم منه ثم امتحنت الرجل ولا حاجة بي لذكر اسمه ، كان رجلا من أعلام السياسة امتحنته

وناقشته فماذا لقيت منه أيها الرجال الاثينيون؟ قد ظهر لي أن الرجل عالم في ظاهر الامر عند نفسه وعند عامة الناس وهو فى حقيقة الامر غير عالم ، ثم حاولت أن أبين له أنه مخدوع يحسب نفسه عالما وما هو بعالم وكانت النتيجة انه عاداني هو وكثير من الحاضرين ، ثم رجعت الى نفسي وقلت لنفسي أني أعلم من هذا الرجل ، وكلانا قد لا يكون على شيء من علم الجمال والخير والفرق بيني وبينه أنه لا يعلم شيئا ويحسب نفسه عالما وانا لا أعرف شيئا ولا احسب نفسي عالما — فانا أعلم منه بهذا المقدار الضئيل وهو أني جاهل غير مخدوع ولا أحسب نفسي عالما .. ثم انطلقت الى رجل آخر ممن يعده الناس عالما وكانت النتيجة واحدة وقد عاداني هو أيضا ، وعاداني قوم كثيرون . »

وبعدئذ سرت سيرتي لم أكف عن البحث وقد عرفت اني ملاق عداوة الناس وقد آلمتني عداوتهم وملأتني رعبا ولكني جعلت قول الله فوق كل حساب وكان لزاما على أن أمضي في طريقي لاستبين ما تعني نبوءة الله .. فامتحنت سائر المشهورين بالعلم .. وأنا بحق الكلب (الكلب حارس أبواب الآخرة) يا رجال أثينا لا أقول الا الحق واليكم ما جربت فى امتحان الناس :

ان أشهر المشهورين بالعلم الا قليلا منهم كانوا اقل الناس علما فى هذا الامتحان الذى امرني الله أن امتحنهم به — وكان أبسط الناس اقربهم الى العلم .. لابد من أن أعرض عليكم سعيي واجتهادي في تأويل نبوءة اله ديلف تأويلا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فبعد المشهورين فى السياسة ذهبت الى الشعراء الذين يقرضون الشعر فى التراجيدية وشعر الاناشيد الدينية وكل شعر آخر وأنا عالم انني لن البث ان أبدى لهم صفحة جهلى وانني دونهم علما وقد أخذت معي اجمل شعرهم الذى قالوا وسألتهم عن معناه عسى

أن يعلموني أيضا من علمهم شيئا .. اني أنا استحي أن أقول لكم حقيقتهم أيها الرجــال ولكن لا مفــر من أن أصارحكم بها .. لست أتجنى عليهم ان قلت ان كل الحاضرين كانوا احسن حديثا في تأويل ما كتب هؤلاء الشعراء، ولم ألبث أن علمت من أمر الشعراء هذه الحقيقة وهي انهم لا يقرضون الشعر عن علم وانمــا يقولون الشعر بموهبة طبيعية خاصة وبوحي الهي، ومثلهم كمثل أنبياء الله والمنبئين بالغيب فهم يقرضون شعرا جميلا ولكنهم لا يعلمون ما يقولون، كانت هذه هي خبرتي مع الشعراء وتبينت انهم بشعرهم يحسبون أنهم أعلم الناس وهم فى الحقيقة ليسوا على شيء مــن العلم فانصرفت من لدنهم بنفس النتيجـــة التي انصرفت بها من لدن علماء السياسة وهي اني اعلم منهم لانهم مؤمنون انهم علماء وهم ليسوا على شيء من العلم وأنا لا أعلم شيئا وأنا عارف اني لا أعلم .

وذهبت آخر الامر الى الصناع وأنا أعلم اني لا أعلم من علمهم شيئا واني سأجد فيهم من يعلمون أمورا كثيرة جميلة ولم أكن مخدوعا فى ذلك فهم كانوا يعلمون مالا اعلم وكانوا فى ذلك أعلم مني ولكني وجدتهم يا رجال أثينا فيهــم عيوب الشعراء، وعلماء السياسة فهم بمهارتهم فيما احسنوا من صنعتهم ظن كل منهم أنــه أوتي من العلم كل شيء وهذه الخدعة حجبت العلم عنهم .. وقد سألت نفسي وأنا مهــتم بنبوءة دلف : أليس خــيرا لي أن أرضي بما قسم الله لي .. لا أحظى بعلمهم ولا بجهلهم ولا يكون لي ما هم فيه من علم وجهــــل ثم اجبت نفسي وأجبت النبوءة انه مــن الخير لي أن أبقى كما قسم الله لي .

هذا البحث والتمحيص يا رجال أثينا قــد خلق لي أعداء كثيرين ومنهم اعداء لا تأخذهم فى عدوهم رحمة ولا ذمة فأشاعوا عني هــذه الريب وسموني عالما وقد ظن الحاضرون كل مرة أنني عالم فيما اقحمت فيه الآخرين ولعل الله أيها الرجال أراد بهذه النبوءة أن يقول أن العلم لله وحده وأن علم الانسان علم ناقص أو هو علم لا يزن مثقال ذرة وقد تكون نبوءة الله أشارت الى اسم سقراط لتضرب به مثلا كأنما تقول للناس أعلم الناس من تخلق بأخــلاق سقراط الذى يؤمن بأن علمه لا يســاوى فى حقيقته شيئا وما زلت أسعى فى المدينة أبحث عمن عسى أن يكون عالما من أهلها ومن الاغراب وافعل ذلك مرضاة لنبوءة الله ـ فان لم أجد أحدا عالما صدقت نبوءة الله وبينت له انه ليس بعالم وجعلت ذلك شغلي الشاغل فلم أجــد فراغا بعدئذ لقضاء شئون المدينة أو قضــاء شئوني الخاصة وعشت في فقر مدقع لأؤدى ما علي لله من شيء .

وفوق ذلك تبعني شبان من أبناء الاغنياء كان لهم من سعة الوقت ما يقدر لهم أن يتبعوني من تلقاء أنفسهم وسرهم ما سمعوا من امتحان الآخــرين فقلدوني في أحيان كثــيرة وجعلوا يمتحنون الآخرين وما أظن الا أنهم وجدوا لدى من يحسبون أنهم علماء أنهم لا يعلمون الا قليلا او أنهم لا يعلمون شيئاً ، وبعدئذ غضب علي من وقعوا عرضة لامتحان هؤلاء الشبان وكان اولى بهم أن يغضبوا على انفسهم ثم قالوا ان في المدينة ســقراط فاسقا وماذا يعلم ؟ قالوا انهم لا يعلمون ولكي لا يجدوا حرجا قالوا ما يقال فى اتهام الفلاسفة أى انه يبحث عن أسرار أفلاك السماء وباطن الارض ولا يؤمن بالآلهة ، ويغلب الحجة الضعيفة على الحجة القوية ، وهم لا يحبون أن يعترفوا بالحقيقة وهي أنهم يدعون العلم بما لا يعلمون وهم رجال يحبون سمعتهم وهم رجال ذوو بأس والعدد غير قليل وهم يد واحدة عليّ واذا اجتمعت كلمتهم كانوا مقنعين صادقين وملأوا آذانكم قديما وحديثا بهذه التهم الفاحشة ومن هؤلاء من انقضــوا عليّ مرة واحدة وهم ميليتوس وأنوتوس ولوكوس ـ وعاداني ميليتوس باسم الشعراء .. وعاداني أنوتوس باسم السياسين والصناع . وعاداني لوكوس باسم الخطباء .. وبذلك فانا كما بينت لكم في أول الخطاب يدهشني ان استطيع في وقت قصير أن انزع منكم ريبــة استقرت فى

نفوسكم زمانا طويلا ـ ومع ذلك يا رجال أثينا لا اخفي عليكم شيئا ولا أكذب عليكم في شيء مما اقول ولا أقول الا الحق وذلك الذى يجر علي العداوة كما جرها علي من قبل والدليل على صدق ما اقول أن ما يتهمونني به اليوم هو ما اتهمت به قديما واسباب العداوة واحدة وسواء فتشتم عنها اليوم او تفتشون عنها بعدئذ فستجدونها قائمة ..

هذه هي التهم التي أفشاها المتهمون السابقون قد دفعتها بهذا القدر الكافي ، أما تهم ميليتوس الفاضل صديق المدينة فسأجتهد الآن في دفعها هي وسائرتهم المتهمين ، وتعالوا نقرأ نص اتهامهم لانهم جاءوا بتهم غير تهم الأولين .. واليكم نص اتهامهم : انهم يقولون أن سقراط افسد شباب المدينة وكفر بآلهة المدينة وآمن بآلهة جديدة ، تلك هي صيغة اتهامهم فتعالوا نمحصه تهمة تهمة ، قال ميليتوس اني ارتكبت جريمة افساد الشباب وأنا أقول أن ميليتوس ظالم في استهتاره بأمور الجد ودفع الناس الى المحاكمه وادعائه الاهتمام بأمور لم يعرها أي اهتمام وسأجتهد في أن أبين لكم أني لا أتجنى عليه ـ تعال هنا يا ميليتوس وقل لنا .. أنت لا تبغي شيئا اكبر من أن يكون شبابنا خير شباب .. ستقول : نعم .. فتعال وقل لهؤلاء القضاة بأي الناس تجعلهم خير شباب ، لا ريب انك تعرف لأنك مهتم بهذا الأمر وقد وجدت مفسدهم كما تقول فقدمتني لهؤلاء القضاة واتهمتني .. أما من يصلحهم ويجعلهم خير شباب فتعال وقل من هو ؟ انك ترى يا ميليتوس انك صامت لا تستطيع أن تجيب .. ألا يحزنك أن تقدم بصمتك شهادة كافية على ما اقول وهو انك لم تهتم قط بمن عسى أن يجعل شبابنا خيّرين فاضلين ، لكن قل لي أيها الطبيب : من الذى يجعلهم خيراً مما هم ؟ القوانين ؟ . ولكني لم أسألك عن ذلك يا أحسن الناس ، لكنني أسألك أى الرجال الذى يعلم كيف يصلحهم ويعرف ما تحدث به .. أي القوانين أم هؤلاء القضاة يا سقراط .. ماذا تقول يا ميليتوس .. هؤلاء القضاة يستطيعون أن يعلموا الشباب ويجعلوهم أحسن حالا .. أي والله .. أيستطيع هؤلاء القضاة جميعا أم أن منهم من يستطيع ومنهم من لا يستطيع .. كلهم .. انك تقول قولا حسناً بحق هيرا ونحن أغنياء برجالنا النافعين وهؤلاء السامعون هل يجعلون الشباب خيرا أم لا وهؤلاء أيضا وأعضاء المجلس وأعضاء مجلس الأمة هل يفسدون الشباب أم يصلحون حاله وهؤلاء أيضاً .. يظهر أن الاثينيين جميعا يستطيعون أن يصلحوا من حال الشباب وأنا وحدى مفسدهم أذلك ما تقول ؟؟ نعم ذلك ما أقول .. انك ترميني بشؤم كبير لكن اجبني هل الأمر سواء في الشباب وفي الخيل يصلح حال الخيل كل الناس ويفسد حالها رجل واحد أم الأمر كله على عكس ذلك يستطيع أن يصلح حالها رجل واحد أو فئة قليلة أى ساسة الخيل والأكثرون عدداً ان عاشروا الخيل أو ركبوها افسدوا حالها أليس الأمر كذلك يا ميليتوس في الخيل وفي سائر الأنعام .. اى والله سواء أجبت انت وانوتوس أو لم تجب .. وما كان أسعد الشباب لو أفسدهم واحد وحده واصلحهم سائر الناس .. كلا يا ميليتوس لقد أجبت اجابة تكفي للتدليل على انك لم تشغل بالك بما عسى أن ينفع الشباب أو يضرهم وأظهرت انك لم تهتم أبداً بما تقدمني للقضاة من أجله .

ب ـ عدل سقراط

قد قلت لكم في أول دفاعي انني عاداني قوم كثيرون فاعلموا انني لم اقل لكم الا الحق وهذه العداوة هي التي ستحكم علي أن حكم علي ولا أخشى ميليتوس ولا اونوتوس بقدر ما أخشى ما غشي الاكثرين من ريبة ونقمة وهما داء قديم قضى على قوم كثيرين من خير الناس وسيقضي في عمر الزمان على الاخيار ولا يقتصر بلاؤه علي ..

وبينما يقول قائل : ألا تستحي يا سقراط من أن تذهب في حياتك مذهبا قد يودي

بحياتك ؟ ومن حقي أن أقول له : انك لا تنصف أيها الرجل اذا رايت أن واجب الانسان مهما صغر شأنه أن يبالي بخطر الحياة والموت ولا يبالي اذا عمل عملا الا بشيء واحد .. أيعمل عملا عادلا أم ظالما .. ايفعل فعل العادلين أم يفعل أفعال الظالمين ـ انك اذن لا تمجد الابطال الذين ماتوا في طروادة ـ هم جميعا وخاصة أشيل بن ثيتيس الذى كان الموت أهون عليه من أن يلحقه عار فقد قالت له أمه وهو غاد ليقتل هيكتور وأمه الهة شيئا مثل هذا القول « يا بني انك ان انتقمت لموت رفيقك باتروكل وقتلت هيكتور فستموت أنت مع هيكتور كان ذلك قدرا مقدورا » فلما سمع ذلك لم يبال بالموت والخطر بقدر ما يخاف من سبة العيش ومن شر الخزي اذا لم ينتقم لرفاقه وقال لامه من فوره : « الموت أحب الي ان اخذت الحق لمظلوم من أن أعيش هنا لدى سفني المقوسة سخرية في فم الساخرين وأن امكث حملا على الأرض » هل تراه يبالي بالموت والخطر .. ذلك هو الحق أيها الاثينيون فحيثما وضع احد نفسه في منزلة اختارها لأنها خير المنازل في نفسه أو في صف صفه فيه قائده يجب أن يثبت في مكانه ويلقى أخطاره لا يبالي بالموت ولا بأي خطر الا الخزي والعار .

ما كان يغفر لي أيها الاثينيون لو برحت المنزلة التي أنزلني الله فيها وقد صفني قوادكم الذين اخترتم لقيادتي في بوتيديا وفي امفينوليس وفي ديليون فثبت في صفوفي التي وضعوني فيها كأي جندى وكدت ألقى حتفي ـ أفحيث وضعني الله وهو من آمنت به واتخذته عقيدة وجيث أمرني أن أعيش للعلم والحكمة أبحث عن العلم والحكمة في نفسي وفي نفوس الآخرين .. أولي هاربا خوفاً من الموت أو من أى خطر سواه وما كان أخوف ذنبي ان فعلته ، واذن كان لكم الحق أن تقدموني الى القضاء وتتهموني بحق أني لا أؤمن بالالهة وأني لم أطع نبؤة الله خوفا من الموت ، فاني أدعى العلم بما لا أعلم .

وهل الخوف من الموت شيء أيها الرجال سوى الظن بأننا علماء ولسنا علماء ، وهو الظن بأننا نعلم ما ليس لنا به من علم .. لا يعلم أحد الموت وعسى أن يكون الموت أسعد سعادة الانسان ثم يخافه الانسان كأنه على يقين أنه أشقى شقاء الانسان .. أليس ذلك أرذل الجهل أن ندعي العلم بما لا نعلم ؟ وقد يكون الفرق بيني وبين أكثر الناس انني لا أعلم علما شافيا بما يجرى في ديار الموتى ثم لا أراني أدعى العلم بما لا أعلم ولكني أعلم أن الظلم عار وشر ومعصية من هم خير منا الها كان أو بشرا عار وشر وأنا لا أخاف ولا أهرب من شيء لا أدرى لعله خير وما ينبغي لنا أن نخاف ونتقى الا ما نعلم عن يقين أنه شر .

ربما يعفو أحدكم ولا يصدق دعوى انوتوس الذى قال لكم اما أن سقراط لا يعرض على القضاء من بادىء الأمر واما أن يعرض وفي هذه الحالة ليس لكم من سبيل سوى اعدامه .. وقال لكم ان براتم ساحته فسيشط أبناؤكم فيما تعلموا من سقراط حتى يفسدوا عن بكرة أبيهم ، فان قلتم لي بعد ذلك « يا سقراط نحن لن نطيع فيك انوتوس وسنعفو عنك على شرط واحد وهو أن تكف عن قضاء حاجتك في امتحان الناس وفي الفلسفة وان عدت مرة أخرى حكمنا بموتك » ان براتموني بهذا الشرط اجبتكم بهذا القول : « اني حريص عليكم واحبكم أيها الاثينيون ومع ذلك فاني أوثر طاعة الله على طاعتكم وطالما كنت حيا ينبض قلبي فلن أكف عن الفلسفة وعن أن أحرضكم على العلم وعن تنوير من ألقى منكم وأقول له ما الفت أن أقول : « يا خير الناس انك أثيني من أعظم المدائن وأشهرها بالعلم والحكمة والقوة الا يخزيك الا يكون لك في الحياة هم سوى المال تريد أن تجمع منه أكثره ثم لا تكون لك همة لغير سلطان الحكم والدعاية أما عقلك وأما الحقيقة وأما روحك فلست تحفل بها شيئا ولا تفكر في أن تجعلها أذكى نفس وأبصر عقل واخلص حقيقة ؟ » .

فان اعترض احدكم وقال أنه لم يغفل عقله

وروحه فلن أدعه وأتولى عنه بل سأسأله وامتحنه وأحمله الوزر واذا لم يكن على شيء من الفضل ثم ادعى الفضل فسألومه بأنه اشترى الذى هو أدنى بالذى هو خير وآثر الغث على الثمين ، سأفعل ذلك بالكبير والصغير بالغريب والقريب ، وأفعل ذلك بأبناء وطني خاصة لما بيني وبينهم من أواصر القربى واعلموا أن الله قد أمرني بذلك واني مؤمن أن أكبر ما مسكم في وطنكم من خير هو استمساكي بطاعة الله فيكم ، ان عملي الوحيد في غدوى وفى رواحي أن أقنع شبابكم وشيوخكم الا يهتموا بأجسامهم وأموالهم وان يولوا أرواحهم ما يجعلها أزكى ما تكون تهذيبا وفضلا .. سأقول لهم أن المال لا يخلق الفضائل وانما تخلق الفضائل الأموال وكل الطيبات في حياة الافراد والأمم .. أبهذا الحديث أفسد شبابكم ، فان كان مفسداً فهو أذى ومن ادعى أني أقول لشبابكم غير ما بينت لكم فقد قال بهتانا وزورا ، ومن أجل ذلك اقول لكم يا رجال أثينا سواء علي صدقتم أنوتوس أم كذبتموه سواء برأتموني أم حكمتم علي لن افعل الا ما أمرني الله أن أفعل ولو قتلتموني ألف مرة .

والآن أيها الاثينيون لا تفزعوا واصبروا .. أني أسألكم أن تستمعوا لي ولا تقاطعوني فيما اقول لكم واني مؤمن أنكم لن تجدوا في سماعي الا خيراً .. قد تثورون علي بعض ما أقول لكم فبالله لا تفعلوا فانكم أن قتلتم رجلا مثلي حريصا عليكم فانكم لا تؤذونني بقدر ما تؤذون انفسكم .. ان ميليتوس وانوتوس لا يملكان أن يضراني شيئا .. وكيف يستطيعان .. لا يملك الخبيث أن يضر الطيبين شيئا قد يستطيع قتلي أو نفيي أو تجريدى من حقوقي السياسية ثم يحسب هو أو أحد غيره أنه ضرني وآذاني كثيراً وأنا لا اعد هذه المصائب شيئا انما اعتقد أن أم المصائب أن يفعل ما يفعل هو الآن .. أن يقدم بريئا للقضاء ثم لا يهدأ له بال حتى يقتله فأنا لا أدافع عن نفسي بقدر ما أدافع عنكم فلا تجحدوا نعمة الله عليكم فتقضوا باعدامي .. فان قتلتموني أيها الاثينيون فلن تجدوا رجلا مثلي .. سأقولها ولو ضحكتم مني فقد وضعني الله في جانبكم كالمهماز في جانب الجواد العظيم الأصيل الذى ثقلت خطاه بما نمى بدنه وهو بحاجة الى مهماز يوقظه .. هذه هي الفريضة التي كلفني الله أن أؤديها الى أهل المدينة .. كلفني أن أوقظ كل رجل منكم وأقنعكم والومكم حيث وجدتكم ولا اكف عن ذلك أبدا طول نهارى – كلا أيها الاثينيون انكم لا تجدون مثلي بغير مشقة وان تصدقوني فلا تفرطوا فى وربما تغضبون فتستجيبون لانوتوس فتقتلونني كما يضرب الغارق في نومه من يوقظه ثم لا تفيقون من سباتكم العميق بقية حياتكم ما لم يعبأ الله بكم فيرسل لكم رجلا مثلي .

قدروا أن رجلاً مثلي انما وهبكم الله أياه فهل ترون من البشر أحداً يغفل أعماله ويهمل كل أشغاله الخاصة أعواماً طوالا ولا أغفل عن حياتكم مثقال ذرة بل القى كل امرىء منكم كما يلقى الوالد ولده والأخ الأكبر اخاه وأحرضه على أن يتعلق بأهداب الفضل ، ولو انني حرضتكم على الفضل لقاء أجر كسبته أو ربح نلته لكان لي فيما قلت مبرر – والآن انظروا الى هؤلاء الذين اتهموني انهم خلعوا قناع الحياء فرموني بكل تهمة ولكنهم لم يستطيعوا أن يفجروا فيأتوا بشاهد واحد يشهد أني فعلت شيئا يوما ما لقاء اجر أو اني سألتكم اى جزاء وحسبي شاهد واحد يشهد بصدق ما أقول .. هذا الشاهد هو فقرى ..

وربما يبدو فعلي غريباً أن تروني اطوف ما اطوف بالمدينة لا أسدى نصحي الا لأفراد ولا اجرؤ على أن اتقدم فأسدى النصح لملأ المدينة والسبب في ذلك هو ما سمعتموني أقوله مرارا كثيرة .. هو هذه القوة الالهية والتي سخر منها ميليتوس في اتهامه .. فمنذ صباى ينتابني هذا الأمر وأسمع صوتاً وهذا الوازع هو الذى منعني من أن أباشر سياسة المدينة وأنا احمد الله أنه منعني واعلموا ذلك علم اليقين أيها الاثينيون وانني ان كنت باشرت

السياسة في المدينة منذ عهد بعيد اذن لقتلتموني قبل أن أنفعكم أو أنفع نفسي .

ولا تغضبوا علي لأني أصارحكم بالحق .. لا سبيل لأحد من البشر أن يأمن على نفسه اذا عارضكم أو عارض أية غالبية سياسية وصارح بالحق وصد عن سبيل ما ترتكبون من ظلم وما تخالفون ما أمرت به أو نهت عنه قوانين المدينة ولا مفر لمن شاء أن يدافع عن العدل مخلصا ويأمن على نفسه زمنا طويلاً أن يبقى فرداً ولا يدخل في صراع السياسة ـ سآتيكم ببرهان على ما أقول : وهذه البينة ليست كلاما وانما هي شيء تحترمونه ، هي بينة من واقع أعمالكم ـ سأقص عليكم ما بلوت بنفسي لتعلموا انني لم أخضع لأحد الا بالعدل ولم أفرط في العدل خوفا من الموت .. ولا مفر من الموت لمن يعصيكم .. سأرويها بأسلوب المحامين في المحاكم ولكني لا أقول الا الحق ..

انني أيها الاثينيون ما توليت في المدينة اى حكم الا مرة واحدة يوم كنت عضوا في مجلس الخمسمائة وكانت الرئاسة (البريتان) اذن في قبيلتنا اى قبيلة (انتيوخيس) قد اجمعتم اذن على أن تحاكموا قوادكم العشرة الذين لم ينتشلوا غرقى المعركة البحرية (١) ولم ترعوا في ذلك العدل والقانون كما تبينتم ذلك بعدئذ وكنت أنا وحدى بين رؤساء المجلس الذى عارضتكم كيلا تفعلوا أيّ معصية تخرقون بها القانون وأبيت وحدى أن أصوت بما تشتهون وقد انبرى لي خطباؤكم وأحبوا أن يقدموني للمحاكمة وكنتم تتصايحون وتحرضونهم على أخذى ، وقد اخترت أن أبقى في جانب القانون والعدل مهما أصابني من خطر ولا أكون معكم خشية السجن والموت اذ جرتم على القانون والعدل .

وقد حدث ذلك أيام كانت المدينة ديمقراطية

فلما جاءت حكومة الاقلية ناداني الثلاثون حاكما الى مقرهم وأمروني أنا وأربعة آخرين أن نأتي من سلامين بـ « ليون » ليقتلوه وقد أمروا أكثر الاثينيين بانجاز أوامر كثيرة ليشركوا في جرائمهم أكثر من يستطيعون من شركاء وسأثبت لكم بالفعل لا بالقول انني لا أعبأ بالموت ولا غير الموت ولا تؤاخذوني بهذا الأسلوب العارى والذى أعبأ به قبل كل شيء أن لا أفعل ما لا يرضي الله والعدل وكذلك هذه الحكومة على قسوتها لم ترعني ولم يأخذني الهول من قسوتها فارتكب ظلما فلما خرجنا من مقرها مضى الاربعة الى سلامين وجاءوا « بليون » أما أنا فقد انصرفت الى دارى وقد أصبحت بذلك عرضة للموت لولا أن عجل الله بهذه الحكومة فسقطت .. وسيشهد على ذلك شهود كثيرون .

أتحسبون اني كنت أعمر هذا العمر الطويل أو انني باشرت السياسة بالمدينة وفعلت ما ينبغي لرجل عادل أن يفعله فابصر العادلين وأجعل ذلك فوق كل حساب في حياتي .. كلا أيها الاثينيون .. لا أنا ولا أحد سواي من البشر .. وكذلك عشت في حياتي العامة ان وليت فيها حكما ما وفي حياتي الخاصة لم أرض أحدا على حساب العدل ولم ارض أحداً حتى ممن تجنى عليَّ فيه هؤلاء المتهمون فعدوهم تلاميذى ـ انني لم أكن أبداً معلما ولكنني لم أضن على أحد ان أراد أن يسمع ما أقول أو يشهد ما أفعل صغيراً كان أو كبيراً .. لست رجلاً أن قبض المال تكلم .. واذا لم يقبض المال ابى أن يتكلم ولا فرق بين فقير وغني ان جاءا يسألانني أو أحب فقير أو غني أن يجاوبني ويسمع ما أقول فان انقلب بعدئذ خيرا أو شريراً ، فبأى حق تحملونني وزره وأنا لم أعد أحداً علما ولم أعلم تلميذاً قط وان ادعى أحد أنه تعلم مني شيئا أو سمعني خاصة أقول ما لم يسمعه سائر الاثينيين فقد ادعى علي كذبا .

---

١ ـ معركة الارجينوز البحرية عام ٤٠٦ ق.م . : القانون يقضي بان يحاكم كل قائد على حدة ـ والشعب في غضبه اراد ان يحاكم القواد كلهم مجتمعين مرة واحدة .

لكن ما بال كثيرين أحبوا أن يصحبوني زمانا طويلا ؟ اسمعوني أيها الاثينيون فقد قلت لكم كل الحق — انهم أحبوا أن يسمعوني امحص علم الذين يحسبون أنفسهم علماء وما هم بعلماء وهو أمر لا يخلو من متعة أما أنا فقد أمرني الله بذلك كما قلت لكم ووجدت آية الله في نبوءة ديلف وفي أحلامي وفي أية صورة من الصور التي تكشف للانسان أمر الله وما أقوله لكم أيها الاثينيون حق اثباته يسير .. فلو انني أفسدت طائفة من شباب اليوم وأفسدت طائفة من قبل فلا بد أن ينهض منهم من كبروا فاستبانوا اني نصحتهم في شبابهم نصيحة فاسدة ثم يتهمونني ويطلبون عقابي فان لم يريدوا هم أن ينهضوا فيتهموني فلهم أولو قربى .. آباؤهم او اخوتهم أو كل من يمتون اليهم بصلة فان كان أقاربهم قد أصابهم شر بيدى فليذكروه الآن وليسألوا عقابي ، اني أرى منهم كثيرين بينكم اني أرى بينكم كريتون وهو من رفاق صباي ومن عشيرتي ، وهو أب كريتبولوس — ثم لوزانياس الشفيني والد اشين ثم انتيفون الكيفيزى والد ابيجين وآخرون سواهم حضر اخوتهم محاوراتي : نيكوستراتوس بن تيوزوتيدس أخ ثيودوتوس وقد مات ثيودوتوس فلا يستطيع أن يسأل أخاه شيئا وفيكم بارالوس بن ديمودوكوس وكان نياجيس اخاه وفيكم اديمانتوس بن اريستون وهذا اخوه أفلاطون وهذا ايا نتادوروس وهذا اخوه ابوللودور وكثيرون آخرون استطيع أن اسميهم ، كان ميليتوس يستطيع أن يتخذ منهم شهودا على دعواه فان كان نسي فليدعهم للشهادة وأنا آذن له أن يأتي بمن يشهد منهم بما يدعي ، ستجدون نقيض ذلك تماما ، ستجدونهم جميعا ينهضون لنصرتي انا الذى أفسد حياة أهليهم كما يدعي ميليتوس وانوتوس ، ربما يكون لمن أفسدت حياتهم عذر في أن ينصروني ولكن ما عذر أقاربهم الذين لم أفسد والذين بلغوا الكبر ، اللهم لا عذر لهم الا الحق والعدل وانهم يعلمون أن ميليتوس كذاب وأنا صادق..

ج — الخاتمة

فاذا لم تتجملوا بالصبر يا رجال أثينا مسكم عار واتهمكم الذين يحبون أن يسيئوا الى المدينة ، سيتهمونكم أنكم قتلتم سقراط العالم ، سيقولون أني عالم ولو لم أكن عالما نعم سيقول ذلك الذين يلومونكم .. واذا صبرتم قليلا جاءتكم الأدلة منقادة من تلقاء نفسها . انظروا الى سني واعلموا ان الموت قريب مني .. انى لا أقول ذلك لكم جميعا وانما أقوله للذين حكموا باعدامي ، اني أقول لهؤلاء هذا القول ربما تحسبون ايها القضاة انني لاقيت هذا المصير لأني عجزت عن اقناعكم واني لم افعل كل ما ينبغي أن أفعل أو أقول لانجو من عقابكم ، ما أبعد هذه الفكرة عن الحق .. ان عجزي لم يكن عجزاً في البيان ولكنني فعلت ما فعلت حياء ، اني خجلت من أن أقول لكم ما تحبون أن تسمعوه فأبكي بين أيديكم واستجير بكم واقول وافعل ما لا يليق بي .. أفعل ما الف الآخرون أن يفعلوه ، أو لم أقل لكم اننا لا ينبغي أن نفعل في المخاطر الا ما يفعله الأحرار ومن واجبي الآن ألا ادافع عن نفسي الا كما يفعل الاحرار وانا أوثر الموت على أن أعيش متبعا غير طريق الاحرار .

ليس لي ولا لأحد سواي أن نعمل كل شيء فى المحاكم وفى الحرب لنتقي الموت ، ففي القتال قد يحدث كثيرا أن يتقي الانسان الموت اذا القى سلاحه واستجار باعدائه الذين يلاحقونه وفى كل خطر حيل كثيرة ينجو بها الخائف من الموت اذا اجترأ الانسان على أن يفعل كل شيء أو يقول كل شيء .. اتقاء الموت هين واتقاء السيئات عسير .. ان السيئات تغدو وراءنا بخطى أسرع من خطى الموت وانا بطيء وشيخ كبير قد لحقني ابطأ اللاحقين والذين اتهموني عداؤون مسرعون فلحقهم أسرع اللاحقين أي الشر والسوء وسنخرج من هنا — علي انا عقاب الموت وعليهم هم أمام الحق عقوبة الاثم والعدوان !!

فلنفكر اذن أن الموت فى أكبر آمالنا خير ..

فالموت احدى اثنتين فاما أن يفنى الميت ولا يشعر بشيء أبداً أو أن الموت كما تقول الاساطير انتقال من حال الى حال وانتقال الروح من عالمنا هذا الى عالم آخر فاذا كان الموت انعدام الشعور اطلاقاً وهو نوم لا يرى فيه النائم حلما .. ألا يكون الموت اذن ربحاً عظيما ؟؟

فلو أن رجلاً وزن ليلة نام فيها ولم يضطرب نومه بحلم أبدا بسائر الأيام والليالي التي عاشها ثم تساءل كم من أيام حياته ولياليه كان امتع واطيب من هذه الليلة ، فلا ريب ان يؤثرها هو والملك الأعظم على سائر أيامه ولياليه فاذا كان الموت كنوم هذه الليلة فاني اعده ربحاً والزمان كله ينقضي كليلة واحدة من هذا القبيل .

فان كان الموت رحلة الى عالم آخر وكان حقا ما تقول الاساطير ان الموتى جميعا يتلاقون في هذا العالم الآخر فهل من سعادة أكبر من هذه الرحلة أيها الرجال القضاة ؟ فاذا بلغ الانسان دار الاخرة حال الموت بينه وبين قضاة الدنيا الذين يدعون أنهم قضاة ويلاقى هناك قضاة الحقيقة الذين يقضون بين الموتى كما تحدث بذلك الاحاديث ــ سيلافي مينوس ورادامانت وأياكوس وتريبتوليم وأولياء الله الذين كانوا عادلين فى حياتهم ــ أليست رحلة الموت اذن شيئا عظيما .. من منا لا يدفع اغلى ثمن في سبيل لقاء أورفيوس وموزايوس وهيزيود وهومير ــ فان كان ذلك حقا فاني اريد أن أموت مرارا فليس في الامكان ابدع من الحديث هناك حيث الاقي بالاميديس وأجاكس وتيلامون ومن حكم عليه بالموت ظلما واقابل ما بلوت بما لقوا هم من بلاء؟أليس ذلك متاعاً لنفسي واكبر المتاع أن أسألهم وأمتحنهم كما فعلت بكم فى هذه الدنيا وأعرف منهم الذين يحسبون انهم علماء وما هم بعلماء .. بأي ثمن تشترون تمحيص هذا الذى قاد جيوش طروادة أو تمحيص أوليس أو سيسوف وهؤلاء الذين لا يحصي عددهم من الرجال والنساء ؟؟ أليست السعادة التي لاريب فيها أن نلقاهم هناك ونعاشرهم ونمتحنهم وخاصة أن قضاتهم هناك لا يقتلون أحدا بهذه الأسباب .. وهؤلاء الموتى بعد ذلك أسعد من الأحياء في هذه الأرض فهم خالدون فيها أبداً اذا صدقت الاساطير .

انما ينبغي لكم أيها القضاة أن تستبشروا بالموت وتؤمنوا بصدق هذه العقيدة في أول ما تؤمنون .. وهي أن الانسان العادل الخيِّر لا يصيبه سوء في الحياة والموت وأن الله لا يتخلى عن مصيره وأن ما أصابني بحكمكم ليس رمية من غير رام ، بل هو خير اراده الله بي أن أموت واعتق من هذه الاشغال ولم يصرفني عن الموت ذلك الهاتف الذى يهتف بي ولست آسى على شيء من حكم من حكموا علي ولا من اتهام من اتهموني .. وهم لم يصدروا فيٌ حكمهم واتهامهم عن هذه العقيدة وانما فعلوا ما فعلوه ظانين انهم يؤذونني وفى ذلك هم يستحقون الملامة .

ولي عليكم رجاء ــ اذا شب ابنائي فصاروا شبانا فعاقبوهم أيها الرجال ــ آلموهم كما آلمتكم ان رأيتوهم يؤثرون على الفضل مالاً أو جاهاً وصرفوا همتهم لشيء غير الفضيلة واذا خادعوا انفسهم فحسبوا أنهم على شيء وهم ليسوا على شيء .. فلوموهم كما الفت أن ألومكم حتى لا يغفلوا ما ينبغي لهم أن يفعلوه ويحسبوا أنهم ذوو قدر وهم في الحقيقة لا يستحقون شيئا وان فعلتم ذلك كنت مدينا لكم بالعدل وأديتم الى ابنائي أعدل ما تؤدون .

والآن قد حان الرحيل فأنا راحل الى الموت وانتم عائدون الى حياتكم فأينا أسعد طريقا ــ الله وحده يعلم ...

(٩)

تاج ديموستين

لا تغيب شمس مدنية العدل والابطال حتى تبصر اثينا في آخر القرن الرابع سنة ٣٣٨ ق.م تتعلم الحقيقة فى مدرسة الآلام ــ ظلت رغم

اخذتها آخر حصن من حصون الحرية تسمع آذان العدل والبطولة .. لله رب العالمين

والحرية أم البطولة والعدل « ويوم » في العبودية يذهب بنصف فضائل الرجال

ـ كانت أثينا حرة في القرن الرابع ق.م وكانت منابرها يرقى اليها خطباء يلهون بالخطابة ويتملقون العامة ويسعدون بمغانم النفوذ والحكم .. ونهض الى منابر السياسة خطيب يسمعهم حقيقة انفسهم ويذكرهم بمن خلا من آبائهم من أبطال الانسانية يسمعهم صوت انتيجونه ودين سقراط والاثينيون لا يكادون يصدقون ما يؤذن به ديموستين وينصرفون عنه كأنما ينصرفون عن تلميذ يسمعهم حديثاً من ادب قديم ، قد الفوا علم السوفسطائيين والفوا خطباء الزور الذين اشتراهم فيليب المقدوني الذى طلع نجمه من جبال مقدونيه بشمس دين جديد ومدنية جديدة .. انه فجر المدنية الحديثة وهو لا يؤمن بزيوس الا فيما يخدع به ضمائر الناس ولا يكترث بالعدل وهو مؤمن بسلطان المال الذى اثر عنه أن بغلا يحمل ذهبا قد يفتح لجيوشه كل حصون المدائن وآمن بالقوة وكان أدهى المراوغين المخادعين لا يعبأ ان أراد أرضا أن يقتل بنيها ويهدم ديارها ويدخلها وهي مرتع للحزن والذل وأشباح المساكين من الشيوخ والنساء ... كان أمير جيش من باربار مقدونيه الذين يطيعونه لأنه أقواهم وأدهاهم وأصبرهم على الجد والمكر.. ولا يأخذ من آداب الأغريق الا ما كان زينة يزين به بربرية حياته ومقاصده ، أوتي مناجم من ذهب فاشترى بها امثال اريسطو ـ وأما أريسطو فلم يعلم الاسكندر شيئاً فى عام وبعض عام واريسطو أيضا اب الفكر في المدنية الحديثة وهو طراز جديد من عقل المعلمين في آخر مدينة الأبطال .. اشتراه فيليب المقدوني ليزداد المخدوعون خداعا وارسل خيله للالعاب الاولومبية التي اقتربت حينئذ من معنى الالعاب الاولومبية الحديثة اى مظاهرة المحترفين من أقوياء الأجسام الذين لا يؤمنون بدين العدل والبطولة كالذين خلوا من قبل وفرح فيليب يوم ولد الاسكندر .. فرح بميلاد ولد وبنجاح خيله في الالعاب الاولومبية .. الذهب اقتحم المعابد من كل مكان.. صحا هذا الفجر علىأثينا فخدعت ولكن فى أثينا أفلاطون وتراجيدية سوفوكل وتاريخ عريق فى دين البطولة اعتنقه ديموستين ومكث ديموستين كما كان سقراط وكما كان سوفوكل كالكلب اله المصريين امينا وفيا ساهرا على ميراث العدل والخير .

ديموستين كتب خطبة لتكون شاهدا على نواياه وافعاله ، فقد أنذر قومه وانذر الأغريق بنوايا فيليب منذ نهض للخطابة وكان تحول الاثينيين عن دين آبائهم فى القرن الرابع ق . م ونسيانهم وطنهم وحق الوطن وحرص الكثيرين على أن يخلدوا للسلم ويستمتعوا بمظاهر أعيادهم .. وفيليب فى الشمال يعد جيشا من أحدث فنون الحرب ويستعين على قضاء مآربه بالمكر والخداع وخلف الوعد والعبث بالقسم وكلما نجحت مآربه صار عند المغفلين بطلا كهيرقل .. ونهض رجال السياسة يبشرون الاثينيين أن فيليب صديق الاثينيين .. أكبر عقبة فى حياة ديموستين أن يحمل قومه على اليقظة والعمل ـ كان ديموستين بصيرا لا يخدعه ظاهر الاشياء وكان ذكيا مرهف الحس والجنان يرى عواقب الامور قبل أن تقع وأوتي لسانا صارما بتارا ولا تثنى عزيمته الهزائم وكأن الهزائم كانت محكا لارادته لا تصيبه لطمة حتى تزيده يقظة واشبه ما شبهت به طبيعة ديموستين غرائز الوفاء فى الكلب الامين وقد قيل انه رضي عن هذه الصفة وقال للاثينيين بعد هزيمة كيرونيه حين سألهم الاسكندر أن يسلموه خطباءهم رهائن ، نهض ديموستين فقال لهم « ان الذئب قد عقد معاهدة مع الغنم سألهم فيها أن يسلموه الكلاب رهينة فلما أخذ الكلاب عاث قتلا فى الغنم »

وديموستين مكث حارسا وفيا أمينا على شرف وطنه وعلى ميراث للمجد والبطولة منذ اسمع العالمين بيانه حتى شرب السم فى معبد

ليموت بعد جهاده في جوار الله .. انما يحارب بجهاد الابرار آفات قومه التي كانت أخطر على المدينة وشرف الوطن من فيليب المقدوني .

متى يا رجال اثينا ــ متى تفعلون واجبكم ؟ أتنتظرون أمرا ؟ .. لا ريب انكم تنتظرون أن تثيركم ضرورة قصوى فبالله كيف تسمعون ما حدث ؟ اني أعتقد ان أقصى ضرورة تصيب الاحرار ان يمسهم العار في أعمالهم .. قولوا لي أتريدون أن تدوروا في الاسواق تسألون من تلقون هل من جديد ؟ هل حدث جديد ؟ أغرب من أن تروا رجلا من مقدونيه يعد حربا على الاثينيين ويتحكم في مصائر بلاد الأغريق .. هل مات فيليب ، لا واللـه انه مريض .. هل تجدون فرقا بين موته ومرضه ــ فلو أصابته مصيبة فستخلقون من انفسكم فيليبا آخر طالما عالجتم سياستكم بهذه العقلية ــ ان اهمالكم وغفلتكم مكنا لفيليب أكثر من قوة جيوشه ، قال قائل قولا يا رجال أثينا «انه رجل من غير جموعكم وهو الذى يتطاير حطاما ان نجحت سياستي انه يقول ما نفعنا من خطب ديموستين انه يتقدم للمنابر كلما طاب نفسا بذلك ثم يملأ آذاننا بكلامه وينتقد الزمان الذى نحن فيه ويمجد زمان أجدادنا حتى اذا رفعنا الى السحاب وملأنا غرورا نزل .. لو انني استطيع أن اقنعكم بما أقول اذن لنال الوطن خير كثير لو اعدده اليوم لا يصدقني اكثرهم كأنها مبالغة وما أعتقد أن ذلك نفع قليل اذا عودتكم أن تسمعوا احسن النصح ومن أراد أيها الاثينيون أن ينفع وطنه فليبدأ بعلاج آذانكم ، ان آذانكم مريضة فقد عودوكم ان تسمعوا الكذب وكل شيء ما عدا النصح السديد »

لا يكل ديموستين من صيحات منكرة يوقظ بها المخدوعين ولا يريد ان يتشبه بالخطباء الذين يأتون المحافل بقول بليغ ولكن خطبه جميعا عمل وحض على العمل ، وعمل ديموستين منذ اوله كان عملا لا تطيقه الا نفوس الابطال الذين جعلوا حب الاوطان دينا وجعلوا الشرف دينا ، وما ندرى لعله أيضا كان مؤمنا انه رسول دين الابطال الاولين .. انه ينظر الى الخطر الرابض في مقدونيه ليأكل الحرث والنسل .

لولا أن رجلا كفيليب بنى قوته على أساس من الشر والجشع فلا تلبث هذه القوة ان تنهار رأسا على عقب اذا لقيت صدمة صغيرة ــ **كلا أيها الاثينيون لا يبنى احد ملكا قويا ثابتا بالظلم وبالكذب وبالحنث بالايمان وقد تصمد هذه القوة مرة وتصمد زمانا طويلا وقد تزهر آمالها اذا صاحبتها المقادير ثم لا تلبث أن يكتشف الزمان جريمتها فتنهار انقاضا بعضها فوق بعض ــ اذا كان أساس البيوت والسفن وما شابه ذلك لا بد أن يكون أساسا متينا قويا ، كذلك مبادىء السياسة وقواعدها يجب أن تقوم علم أسس من الصدق والعدل** ــ وهذا الاساس معدوم في كل ما فعله فيليب .

مكث ديموستين يوقظ قومه وهم رقود او ثملون بقوة النصر والذهب المحيطة بفيليب ... وكان أشد ما اعترضه تحول اكثر الناس الى ثراء المال وخداع السياسة والتجارة وكلما ذكر ديموستين الاثينيين بآبائهم الماجدين ظهر الخلاف بين ابطال ماراثون في أول القرن الخامس وبين جيل ديموستين كالخلاف بين مبادىء مدنية العدل ومدنية المال الحديثة .

آباؤهم كانوا ابطالا ينهضون بأنفسهم للذود عن الوطن وكانوا يعيشون متواضعين .. لو بحثت في أثينا اذن عن بيت اريستيد العادل وبيت ميلشادس لوجدت دورا لا تعلو على جيرانها ، وكانوا مؤمنين بالعدل والتقوى أما جيل ديموستين فقد تاجروا بالسياسة فبيت أحدهم أصبح عاليا كمعابد المدينة وقد كان الاولون يرون الامة سيدة وولية ما ينالون من شرف وانقلب جيل ديموستين غزاة غزوا أمتهم وجمعوا أموالها في أيديهم يتصدقون بها على من شاؤوا .. ان الذى غلب ديموستين

هو رذيلة الاثينيين الذين فسد تعليمهم ودخلوا قبل فيليب فى دين المال وتمجيد القوة التي لا تقوم على العدل ، وجهاد ديموستين كان خاتمة الايمان بدين الاولين وبداية الايمان بالذهب والفضة والسفسطة واشتمل ملك فيليب كالطوفان على مدائن الاغريق واحدة بعد الاخرى وغلب فيليب اثينا ولم يغلب فيليب ديموستين .. فهزيمة كيرونيه جعلت بيت ديموستين بيت الامة وجعلت ديموستين أبا لوطنه ولدين الابطال الأولين ولم تطفأ مصابيح الحرية فى أثينا بغير مجد ..

« عرض كتيزيفون على الاثينيين أن يتوجوا ديموستين بتاج من ذهب لبطولته وحبه لوطنه وخيره على بلاد الاغريق وعلى وطنه ولم يكف فى خطبه وفى أعماله عن ان يفعل الخير لوطنه وكان وفيا يفعل كل ما يستطيع من الخير » .

ولا يرقى فيليب والاسكندر الى شرف ديموستين وما يملكان الا ان يغلبا بالقوة والمكر وحيل الحرب والسياسة ، وكل خطبة من خطب ديموستين تزعزع ملكهم ونصرهم وتلبسهم خزي البربرية فى العالمين وتمنوا لو تزول صيحات ديموستين من صحف التاريخ حتى يدعوا أن نصرهم كان نصراً للمدنية الاغريقية ، فاطلقوا السنة الخطباء فى اثينا ليحرموا ديموستين من تاج المجد ويحكموا عليه بدائهم .. فهو حقود لئيم منافق خائن خان اصدقاءه .. مقلد يقلد الخطباء الماجدين لا يريد من السياسة شيئا سوى ما تدره عليه السياسة ـ وهو جبان شؤم جر على اليونان كل الويلات .. الرجل الذى اغرق الاغريق .. وهو من أم أجنبية وهو جاسوس وهو يعيش من مصائب قومه وهو بليغ فى الكلام ولكنه يعيش عيشة منكرة .. الفاظ جميلة وأفعال السوء .. فكيف يتوج الاثينيون رجلا بتاج البطولة والمجد وهو غير أهل للمجد والشرف .. ولو اطلق الاثينيون ايديهم فتوجوا بتاج المجد من يستحقه ومن لا يستحقه فستكون النتيجة أن يكف الناس عن الاجتهاد وتسوء أمور المدينة ومالهم يفعلون اليوم ما لم يفعله آباؤهم الماجدون .. اى الرجال كان أعظم .. تيميستوكل القائد الذى غلب الفرس فى معركة سلامين أم ديموستين الذى ولى هاربا ، أم ميلتياد الذى غلب البربربار فى ماراثون ، أم هذا الرجل .. أم الذين جاءوا بالشعب من منفاه أم اريستيد الذى لقب بالعادل وهو لقب لا يحمله اسم ديموستين ـ وديموستين يصيح حتى يقبض المال فاذا قبضه سكت ـ وكذلك يسمى دينُ السفسطة تقوى انتيجونه كفرا وعدل سقراط كفرا وفسادا وبطولة ديموستين شؤما وخيانة .

ونحن اذا حصرنا خطبة التاج نسمع صيحتين : صيحة أعداء ديموستين وفيها كل ما تؤمن به مدرسة السفسطة وقد نجحت بنجاح جيشها أن تدخل على الانسانية من كل باب وصيحة ديموستين وهي صيحة الابطال فى مغرب المدينة وتعتمد حياتهم على البر بأوطانهم والارتفاع فى هذا البر الى البطولة .

« اما انا فقد انذرتكم هنا وفى كل مكان ارسلتموني اليه فقد كانت المدائن مريضة والذين بيدهم مصائر المدائن كانوا يشترون ويخونون بثمن من المال وأفراد المدائن اما جهلة لا يبصرون أو استطعموا الراحة والبطالة ، وظن كل أمرىء أن السيل سيهبط على غيره ويبقى هو بمأمن ، وكانت النتيجة ان ضيع الاكثرون حريتهم ثمنا لاخلادهم الى هذا التهاون وعرف الحكام الذين ظنوا أنهم يبيعون كل شيء ، الا انفسهم قد باعوا انفسهم قبل كل شيء ، كانوا يدعون اصدقاء فليب والاسكندر

وجيرانه أسماء حملوها وهم يقبضون ثمن خيانتهم وأصبحوا يسمون — انفسهم — انهم ليسوا الا متملقين اعداء الآلهة وكل ما هم أهل له من الاسماء »

« فاذا كانت مدينتنا فاعلة وهي ترى فيليب يبني على أنقاض مدائن الاغريق ملكا وتيرانية وماذا كان على من يولي الاثينيين النصح أن يقول وأن يكتب — لان هذه أهم مسألة فأنا قد استيقنست أن وطني منذ أوله الى أن نهضت لمنابره كان يناضل فى سبيل الصدارة والمجد والشرف ، وأن مدينتنا انفقت من المال والرجال فى سبيل المجد وما ينفع الناس جميعاً أكثر مما أنفقت كل مدينة فى سبيل حاجتها وقد رأيت فيليب نفسه الذى كان علينا أن نصارعه قد فقد عينه فى سبيل الملك والسلطان وكسر كشحه وتعطلت ساقه وساعده وكل ما اخذت المقادير من اعضاء جسمه ، ضحى بذلك ليعيش بعد ذلك مجيدا ذا شأن وما كان احد يظن أن رجلا نشأ فى بيللي فى بلد صغير غير ذى مجد قد يأخذه الطموح الى أن يبني ملكا من بلاد الاغريق ويجعل ذلك نصب عينيه — وأنتم ايها الاثينيون تشهدون كل يوم فى كل شيء، فى خطب الخطباء وفيما تشهدون من آثار بطولة آبائكم وأجدادكم ثم يكون قدركم السيء أن تقدموا طائعين مختارين حريتكم الى فيليب .. ليس منكم من يرضى بذلك ولم يبق لكم الا أن تعترضوا بالعدل اعماله الظالمة »

وكذلك ظهرت فى آخر مدنية العدل ما بنت هذه المدنية من دين فى أولها ، أى اعتراف العادلين امام ربة العدالة انهم لم يرتكبوا ظلما طول حياتهم .. وظاهرخطبة التاج حساب يقدمه ديموستين للاثينيين عن حياته العامة والخاصة فهو يبسط أحداثا شارك فيها ولكنه يفكر بقلبه أن هذه الاحداث لم تكن الا تعبيرا عن ايمانه بالعدل .. فهو أساسا لم يرتكب ظلما وانه تحدى بالعدل ظلم مطامع الغزاة — وانه لم تفلح لديه مغريات المال — وأنه أنفق ماله الخاص ليعين اثينا على اصلاحها واصلاح سفنها وانه اعان الضعيف ونسي الضغينة فى سبيل الخير ..

« وبذلك أراني أهلا للثناء .. لانني كنت فى كل سياستي اعتنق المبادىء التي تكسب امتي المجد والشرف والقوة .. لا تجدون فى سياستي حطة ولا ضعة ولا شرورا ولا سفالة ولا شيئا يخزى وطني ، وقد تخلقت بهذه الاخلاق فيما عالجت من سياسة وطني وفيما باشرت من سياسة الاغريق لم أوثر حظوة الاغنياء على حقوق الاكثرين فى سياسة بلاد الاغريق ، لم تغرني عطايا فيليب وما عرض عليَّ من حق الجوار فتصرفني عما ينفع الهيللينيين كافة »

فى تهذيب ديموستين فوق الايمان بصلاة الابطال والعدل ، صفة كالتي يتحدث عنها افلاطون فى تهذيب مدنية العادلين ، فليس التعليم حشواً للذاكرة بالالفاظ والعبارات وانما هو لفت الروح والعقل الى صورة الخير الدائم الخالد .. فهو منذ منشأه يتأمل بقلبه وعقله وما خلد الأبطال من مجد وهو يرقى فى آماله الى دينهم ثم يتخذهم مثلا فيما يعالج من سياسة أمته .

« كان آباؤه يفيئون المستجير ان استجارهم لان الموت هو خاتمة الحياة ولو هرب انسان منه فى حجرته .. وعلى ذلك فواجب الخيرين الا يفعلوا الا الخير آملين أمل الخير فى النصر .. ويحتملون بجنان ثابت ما يأتي به الله وذلك الذى تخلق به اجداد الاثينيين .

قد وقعت الكارثة فانتصر فيليب وهزمت

جيوش ديموستين .. فكيف يدفع ديموستين عن نفسه سهام أعداء كثيرين نقموا عليه مجده، لان ظاهر الهزيمة بشع ووراء الهزيمة دين المجاهدين الذين تعلموا فى أسرة الابطال أن ينهضوا لنصرة الشرف لا يعبأون بالموت .

« كلا أيها الاثينيون لا تلوموا انفسكم لانكم لاقيتم الاخطار فى سبيل حرية الانسانية وسلامتها كلا واقسم بمن لاقى الاخطار من أجدادنا فى مراثون ، كلا وأقسم بالذين صفوا للقتال فى بلاتيا ومن قاتلوا فى سلامين وأرتيميزون ، وبالابطال الكثيرين الذين يرقدون فى معابد الامة ولم تحرمهم المدينة من تمجيد الموتى ، كلا ولم تقصر المدينة تمجيدها على المنتصرين والغالبين ... وذلك هو الحق والعدل فقد أدوا واجب الابطال العادلين .. اما جزاؤهم فقد نال كل منهم ما قدر الله له »

* * *

« اني اعتقد ان مصير امتنا كان مصيراً سعيداً ، وذلك هو رأيي وذلك الذى نبأتكم به نبؤة زيوس فى (دورون) مصير الانسانية الان أصبح أليما عسيرا فمنذا الذى لم يذق آلاما وشرورا لا تعد من الاغريق أو البربار »

اني كنت فى روابطي الانسانية صديقا وفيا وكنت معوانا فى الشدائد .. قد أعتقت من مالى اسرى الحرب وعاونت رجالا فى دفع مهر بناتهم » .

ثم يقول ديموستين وحراب الاسكندر مشهرة .. أن الانسانية جميعا قد لاقت مصيرا أليما فى دولة فيليب وسلطان الاسكندر .. ان أثينا فى حدادها لم تجد أبا للوطن أحق بهذا المجد من ديموستين ..

(١٠) ــ الخاتمة

العقل الاغريقي فى العقل الحديث

انتهت بهزيمة ديموستين مدنية العدل والخير ، ومضت امبراطورية الاسكندر تعلم علماً جديداً هو امتداد علوم السفسطة فى البلاغة والكلام وبعض المعارف العلمية واحتفظت مدرسة الاسكندرية بمكتبة النصوص اليونانية .

وتعلم الرومان البلاغة اليونانية وترجموا كثيراً من كتبها وقلدوا الالياذة .. وارتفع فيهم رجال الى اقدار ابطال الاثينيين ... لا تنتهي الجمهورية الرومانية حتى ينهض على انقاضها يوليوس قيصر منتصراً بدهاء الحرب وسلطان المال كفيليب والاسكندر وينهض سيسرو لحماية الحرية كما نصرها ديموستين فى تاريخ المدنية الاغريقية ، وهذه التجربة الاولى تكاد تثبت ظاهرة الخصب والخلود فى العقل الاغريقي فحيثما بذر اتى بثمار كثمره الاول .. ثم تعود مدنية الغرب بعد النهضة فتأخذ بأسباب العقل الاغريقي وتختار نظما كنظم المدائن الاغريقية وينبع فيها رجال فيحملون مصائر قومهم كأبطال الاغريق ويقوم فيهم رجال يشبهون الاسكندر وآخرون يشبهون انفسهم بديموستين وتبنى الجامعات على طراز اغريقي .. ويعترف علماء الغرب انهم مدينون للاغريق بكل شيء .. فى السياسة والتعليم والآداب والعلوم والفنون ، ومن يأخذ بظواهر الامور يبصر تجربة ثانية من خصب العقل الاغريقي ، واذا أمعنا النظر فى هذه المسألة المترامية الاطراف نجد ان العقل الروماني والعقل الحديث لم يحملا سر العقل الاغريقي .. الاول كان معدنا حراً صافيا يدين بدين العدل والخلود والرومان وورثة الفكر الحديث

لم يؤمنوا قبل أن يتهذبوا بدين الابطال العادلين الخالدين فشابهوهم فى الاسم ولم يشبهوهم فى الروح الا فئة قليلة بنت عقلها بعصامية مستقلة فجاءت بثمر قريب من ثمار الاغريق ــ ف/ كليمنصو الذى كتب آخر أيامه كتابا عن ديموستين كان بناء شريفا محترما وبطلا وطنيا لا ينكر بطولته احد ، والدكتور سفيتـذر الموسيقي الفيلسوف الكاتب العالم الـذى يقضي عمره فى مجاهل افريقيا يداوى المرضى لله والخير مثل قريب من الشرف الاغريقي ..

ولا تكون المدنية مدنية اذا جعلت غاية الانسان المال ونسيت العدل والخير .. والذين أخذوا من العقل الاغريقي آداب حب المال والتسلط قد انفقوا حياتهم فى ابتزاز المال من كل سبيل وبناء ملك على أنقاض الانسانية ومكنهم العلم من غزو الفضاء ولكن هؤلاء لم ياخذوا باسباب المدنية الاغريقية الاولى التي بناها ابطال العدل والخير وكانوا كبروميثيوس الذى سرق قبساً من نور الله ولم يأت بالعدل لان العدل متصل بالله ، وبروميثيوس لم يستطع أن يلج الى سر الله الأعلى أى العدل وكان عقاب الانسان أن يعيش كما يقول سقراط : مكلفا بان يملأ وعاء مثقوباً بدلو مثقوب .. فما تعاني منه المدنية الغربية الحديثة حب المال والجهل بالعـدل والخلود ، وجمال تجربتهم أن خرج على أفواج المتعلمين رجال بلغوا شأو ابطال العدل والخير فى الحياة وفى الموت .

★ ★ ★

الأدب المهجري الآخر

شاكر مصطفى *

ما أحسب أن الكثيرين في هذا الشرق العربي قرأوا « قصيدة الدم » القصيدة التي تقول « بالبرتغالية » :

Aral.ia Estas en mi
A imagen de tus desiertos
Mi verso se hizo
Ele es infinitoy ardiente

يا بلاد العرب ! انك في ذاتي
على صورة صحراواتك
يصاغ شعري
انه لا نهائي ومتقد !

* * *

اني صورة منك أخرى
ففي ماساة جسدى وروحي
ثمة دوما اسد يزأر
ونخلة تمنح الفيء

★ ★ ★

وساعة أتامل في ذاتي
أسمع
أصوات الأجداد
تصاعد في داخلي
مبهمة ، بعيدة ، رائعة

★ ★ ★

لقد شهدت كافة فترات الألق من قومي
قومي الذين أتوا العالم
بمصير لا يحور
مصير كالفجر !

★ ★ ★

* شاكر مصطفى محاضر في التاريخ الاسلامي بجامعة الكويت . كان وزيراً مفوضاً لبلاده « سوريا » في كولومبيا والبرازيل . وله اهتمامات واسعة بالأدب المهجرى . وقدنشر عدة بحوث وكتب في هذا المجال ومن ذلك مساهمته في كتاب : «من القصص البرازيلي» بالاشتراك مع نخله ورد.

عربي ذلك الذى كتب قصيدة الدم هذه ، الا انه كتبها فى غير العربيـة ، تركها تزحف نكرة ، فى الحرف البرتغالي ، لأنه يجهل لغة هؤلاء الذين يغني بهم ولهم ، أرضا وأجدادا والقا وفيء نخيل ! ألف قصيدة وقصيدة من مثل هذه ، الف مقال ، الف رواية ، الف قصة تسرب الآن فى الناس هناك وراء بحر الظلمات لا نعرف عنها شيئا ، ولو انها بنت هذه الأرض وهذه الصحراء الممدودة ، وهذا الفكر العربي وهذا الدم العتيق . ان كولومبوس لم يكتشف أمريكا بعد ! وهذا النتاج المكتوب بالبرتغالية تـارة ، وبالأسبانيـة تارات وبالانجليزيـة والفرنسيـة أيضا ، محجوب وراء الغيب ، مضروب عليه بسدين اثنين من سـدود ذى القرنين ليأجوج ومأجوج : سد اللغة العربية وسد البعد السحيق .. لكدت أقـول أيضا : وسد الجهل الممزق !

وانا لنتحدث فى الأدب العربي .. الحديث الطويل ، ونتحدث فى صلاته بالآداب الغربية حديثا أطول .. وانا لنترجم دوستويفسكي ونناقش سارتر ونقرأ شو،ونشغف بهيمنغواى، وتشرب جذورنا جهرا أو سربا من اليوت وباوند، ومن الرمزيين وما وراء الانطباعيين ! .. ولكنا قلما نعير انتباهنا الى هذه الأقلام التي اغتربت منا وراء الآفاق ، حتى فى الحرف . قلما نذكر أن بين المغتربين المهاجرين من أرضنا ، من غدا :

غريب الوجه واليد واللسان

فهو ينتج للآخرين وبلغـة الآخـرين وان كانت جذوره ما تزال تنبض كالشرايين فى هذه الأرض .

المدرسة المهجرية فى الأدب والشعر نعرفها . جبران ، المعالفـة . فرحات . القـروى . عريضـة . أبو ماضي .. كثيرون منا عاشوا على انساغهم والحدود . منذ أربعين سنـة تقريبا وهذا الأدب يتوغل فينا حتى أثبت فى هذه السنوات الخمس والعشرين الأخيرة نفسه مدرسة معروفة لها كهّانها والدارسون والنقاد.

والأدب المهجرى أضحى جزءا منا ولنا ،بايقاعه الوجودى ، ولونيات فكره وصراعه . وتصوفه الانساني الساذج ، ونضاله القومي . الآباء ، الجيل السابق مـن المغتربين الى الأمريكتين خاصة ، هم الذين كتبوا ذلك الأدب الـذى نعرف وانما أريد أن أتحدث عن الوجه الآخر للقمر ، الوجه المجهول ، عن الأدب المهجرى الثاني . الأبناء الذين ولدوا ونشأوا هناك فى المغترب ، على الأنـداء الغريبـة هـم الذين صنعوه . هم الجيل التالي . ولكنه الجيـل « الغريب الوجه واليد واللسان » ان الفكـر العربي يعطيهم هناك عطاءه الانساني الـذى تعود . يعطي ، كما قد طالما أعطى وأخذ ، فى تاريخه الألفي الطويل ..

هذا الأدب المهجرى الآخر،نجومه،جذوره، ملحمة الأرض معه ، شبق الكرم والخمر عليه ، رنين دهورنا العتيقة فيه ، كل ذلك قد يبدو غريبا،مفاجئا كأخبار الكنوز والسحر العتيق، ولكنه واقع يـدرج بين الناس ذلـك الأدب العربي .. غير العربي !

لقد أكون هاهنا ذكرتكم بالأدب الجزائرى ـ الفرنسي . بكتابه العمالقة . بتخبطه المأسوى ضمن الحرف الأجنبي . ولقـد أكون بعثت شيئا من شجى فى كل لهاة ولكن لا !

فان الذى بيني وبين بني أبي

وبين بني عمي لمختلف جدا !

يوم ألقى الكاتب الجزائري « مالك حـداد » محاضرته فى دمشق سنة ١٩٦٤ حول «مأساة التعبير لدى كتاب الجزائر » ويوم جسـد للناس مأساته فى عجمة لسـانه أمام اخوتـه وبين بني عمه ، ويوم روى قول الفرنسي له :

« ـ ان وطني هو اللغة الفرنسية

وجوابه : ـ ان اللغة الفرنسية هي المنفى الذى أعيش فيه .. »

يومذاك أحسب أن سحابة من المطر الأخرس

فيها الكثير من النحيب والجليد ، كانت تحوم على الأجفان وفى السرائر ، وعند أركان القاعة ركنا ركنا . انا عرفتها هذه السحابة . عرفت افجع منها . بلى ! عشت تدميرها وعويلها المجنون خمس سنوات طويلة وأنا انقل الخطا ، حيث نقل الخطا كل مغترب من بلادى فى الأمريكيتين .

كل ما اختزنت من التأجج العاطفي وأنا منطلق هناك بين دروب العالم الجديد ، الصنم الذهبي الكبير المنتصب وراء تلك المرافىء البعيدة ، اعاجيب الوهم والعمل والثروة والنهر الوحشي والغابة المفترسة والحديد المركوم فوق العواطف ، كل أولئك لم تحجب عني تلك السحابة الفاجعة التى طاردتني منذ المرفأ الأول ، وظلت تهمى ثم تهمي ، وحلا تارة ، ولهباً تارات فوق جبلة الطين التي تصوغ مني العروق والعظام وما وراء الفؤاد !

كان « مالك حداد » يمثل مأساة ذات ، تعرت فجاة فاذا بها تنكر اهابها والأصباغ . يتحدث عن غربة فكر رهيبة يحسها فى الحرف الغريب . يروى صراع فكر يريد الارادة القاسية الفاجعة ان يلتحم بهويته ! ولكنه كان يتحدث عن مأساة عابرة موقتة . المد العربي بدأ يتجاوزها ويمحوها . اما فى المهجر الأمريكي الآن ، لدى الأبناء فلا مأساة ولا غربة ولا صراع . حتى قصيدة الدم هذه التى ذكرت نشيداً منها ، ما خطر لها ان تعرف الحرف العربي . المأساة وحيدة الطرف هناك . من جانب واحد : جانبنا نحن !

أولئك الذين ذراناهم هناك من أهلنا لا يعرفونها . افوارهم لا تحسها . العروبة التي هي مني كلي ، ومنك كلك ، اضحت فيهم شيئا من الماضي الرومانسي البعيد . هى دماء فقط ليس من سبيل الى الغائها ، لأنها تسيل بالرغم منهم فى الشرايين . هي واقع موصول بالغوامض البعيدة منهم ، ولكنهم يجهلون مدى دنياه فى الأرض والزمن . حتى مصائرنا وصراعاتنا ومآسينا الجارفة ، حتى عقائدنا التى تجرنا اليها جر جبال المغناطيس للمراكب فى الف ليلة وليلة هى الاهيب فى الورق هناك ، الاهيب فقط ! ان ابناء المغتربين لا يحسون انهم يقطعون كل حبل معنا وهم يكتبون بغير لغتنا . ولا يأسون لهذا التقطع فى الأواصر مع هذا الوطن — الأب ، مع هذا التراث والى الابد وهم يعانون الحرف الغريب !

حب الوطن ، هذا التعاطف الرحماني بين التراب وأهله وماضيه وهى ثم وهى .. انه كعواطف الآباء والأبناء والأحفاد ، يتجه نحو الغد لا الأمس ، منحاه نزولي لا صعودى . يمتد من الأب الى الابن ، وليس يعرف طريق الرجوع عوداً . ان الكتاب الجزائريين يحسون المأساة لأنهم يريدون تخطيها ، لأنهم يبشرون بغد عربي منتظر فى الجزائر ، ولكن الفكر العربي فى المهاجر ماله فى ذاته — من مأساة . لأنه فقد ذلك الغد العربي المنتظر . لا يطمح ان يكون غير ما هو . الأسى انما هو فينا نحن . وانما هو اسانا لتلك القوى المبدعة التي فرطت منا دون امل بعودة ، سفح ماء فى رمال .. واذا كان مالك حداد قد أعلن دون دراميـة ولا صراخ مسرحي انتهاء جيله ، مصرع دوره مع آخر رصاصة فى الثورة الجزائرية ، حتمية ترك المكان للجيل العربي الذى هو لا بد آت .. فان من سوف أتحدث عنهم : دل مار ، ايليجي ، مدور ، كارنيرو ، سابيا ، والآخرين هم بداية الأجيال التي أضعناها ونضيعها هناك وراء البحر المحيط الى غير عودة .

قبل ان اروى بعض ملامحهم — وما اخالني استطيع أن اروى ها هنا اكثر من بعض الملامح — اشد الى الأسطر ملاحظات ثلاثا :

الأولى : ان ثمة ادباء منا كتبوا عن طواعية « فى لبنان مثلا وفى مصر » أو مرغمين « فى الجزائر وتونس والمغرب » او تجاوبا مع البيئة والظرف ، آدابهم بغير العربية ، البحث لو انداح أو شئت له أن ينداح حتى حدوده المشروعة اذن لمّ ثم طوى قافلة من الكتاب طويلة ، وافقا من البحث بعيداً ، يبدأ فى لبنان

مثلا باسكندر غانم ، وينتهي بجورج شحادة . ويضم قوافل الكتاب الجزائريين وبعض المصريين ممن كتبوا بالفرنسية ، وقوافل من مثلهم كتبوا بالانجليزية ، وغيرها .. وبعض هؤلاء جميعا معروف للناس ، ولهذا قصدت الى ذلك الفكر المجهول كل الجهل ، الذى انتجه ابناؤنا فى امريكا الجنوبية « بالأسبانية » وعلى التخصيص فى البرازيل « بالبرتغالية » .

الثانية : اني انما اقدم نماذج ممن عرفت ومما عرفت . لا هي الى الاحاطة ولا هي الى الحديث الشامل الوافى ، ولا هى الى العمق والدرس والتحليل . سبيل ذلك كله أو بعضه سبيل طويل ، وتخصص وجهد ومراجع تعوزني كلها الآن . أليس حسبي يا ترى أن أفتح بعض الكوى ما دام ذلك العالم جميعه مجهولا حتى اليوم ؟

الثالثة : أني لا أناقش ها هنا عروبة هذا الأدب . انها اشارة استفهام الى تلك العروبة ، ولقد تكبر ثم تكبر عند البحث أو تصغر ثم تصغر حتى يغشى الصورة ما يغشى . أما عندى فما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى ؟

أنى لأراه عربي الروح وان يكن أعجمي التعبير . انه فى النسيج التكويني وفى منحى الوجود والحركة شيء منا ، بأى لغة كتب ! ولقد يكون لغيرى رأى آخر يطرده خارج الهيكل العربي أو يضعه بالعكس، عند قدس الأقداس، ويدعو لتعريبه وتبنيه . ولست هنا لأدافع عن هذا الرأى أو أتعصب لذاك ، فما الى شيء من ذلك قصدت . ولكنها مناسبة أكتفي منها الآن بأن أسفح المشكلة ..

أول القصة : كان ما كان ..

.. وكالعادة التاريخية العتيقة العتيقة ، منذ فينيق وشراعه ، حتى الظلام العثماني الأخير ، غرب بعض شبابنا منذ سبعين وثمانين سنة تغريبة جديدة . تركوا الشاطىء الشامي واخترقوا البحر المتوسط الى بحر الظلمات ، وما كان « الأطلسي » بالنسبة اليهم سوى « بحر الظلمات » وان كانت تقوم وراءه : « أمالكا »[1] التي كانت فى زعم الناس أواخر القرن الماضي ، بلد الذهب والخير « وأنهار من عسل مصفى لذة للشاربين » ! .. كانت جنة المغترب ! ثم جاءت الأخبار مصدقة للشائعات واغتنى بعض من اغترب ، فاذا بأنبائهم التي للمها المقيمون حبال من وهم وأسطورة تجر الألوف سنة بعد سنة بعد سنة . وشدت أشرعة ما كان لدمعة الأم ان تمسكها عن الشد بينما العسر الاقتصادى يطردها فى البحر .. « أمالكا » ! « أمالكا » !

كان من الصعب أن يقاوم أحد ، لا سيما فى المناطق الفقيرة والبقاع ذات المتربة، هذا النداء « السيرينى » ذا الاغراء العجيب ، ولو وضعت الأصابع فى الآذان أو صب فيها الشمع المذاب! كانت أمريكا يومئذ عجلا ذهبياً له خوار. ولكن معظم الذين تراكضوا كانوا أضلاعا فارغة ممزقة وبضاعة من جهل كثير . وقد تقيئهم أسفل البواخر قيئاً هم وحظهم ، بأى مرفأ . وهكذا زرعوا على المرافىء التى لا يعلمون والتى لايريدون ، زراعة الصدفة أو هوى الربابنة أو سماسرة السفر .. فكان أن ضربوا الأوتاد وغرسوا الذرارى ، وجنوا شيئا من النشب ، فمنهم من عاد وهو الأقل ومنهم من ابتلعه العالم الجديد وابتلع ذريته ، فاذا هو الآن جثة فى التراب الأخرس ، أما الأبناء فللأمم الجديدة التى تنشأ هناك ، ليس لنا منها حتى سؤر الذكرى ! خسرنا منهم الأب الذى اغترب ، وماله وماكسب ، وذراريه الذين ولد .. الخالد الوحيد الذى بقي فى أيدينا منهم ، من تلك الملحمة الاغترابية الواسعة ذات الآلاف من الفصول الشجية ، هو ما أضافته الى تراثنا الأدبي الحديث من غناء .

---

١ ـ هكذا كان العامة ينطقون كلمة « أمريكا » وانما ذكرتها للتنويه بالجهل المطبق باحوال تلك المناطق لدى المغتربين اليها.

ولقــد غنى أولئك الآبــاء الأولون آلامهم وأوطانهم والأفراح ، شعرا غدقا وأدبا جنيا . رووا للحرف خواطرهم ، فكانت لنا المدرسة المهجرية التى نعرف والتى رضعنا ودرسنــا وأحببنا تارة بعد تارة ! .

ولكن هذه المدرسة « المهجرية » ليست من الهجرة ولا المهجر فى شيء . لقد عاشت معنا ولنا . ولئن نمت هناك على الشواطىء البعيدة فان جذورهــا والتهاويل والنسغ كانت من عندنا .وجودها « النيويوركى » «أو السان باولى » كان فى حدود المكان فقط،أما فىالتراث والقيم الفكرية والخلقية والجمالية وفى الالهام فكــانت تعيش هنــا فى شرقنــا العربى ، فى « العرزال » الجبلـي مــن لبنــان ، وعلى « الميماس » من عاصى حمص ، وبين الصخور الغبر التى صاغت ذات يوم بعلبك وتدمر ! لأنها كانت غريبة هناك عبرت المحيط الينا على أول مركب عائد ، فيكاد لا يبقى الآن منها فى المهجر طيف ! ولقد نرى فى « الأدب المهجرى » ميزات كثيرة من حنين وروحانيةوتحرر وتأمل وحس انســاني .. ولكنى ، فى زورة العابر الآن ، أزعم أن المهجريين لم يعيشوا الغربة الحقيقية ولكن فروا منها.اصطدموا بها ولكن ما وعوها، ما تركوها تتغلغلفىمسام الروح والقلب منهم. بكلمة : لم يغتربوا . ظلوا معنا هنا وان أكلوا وشربوا هناك على بعد عشرين الف كيلو متر منا !

الغربة أولا كتجربــة ــ ذروة ، كمعاناة للأقسى والأعنف والأفجع . كتصعيد للتناقض حتى يكون القيمة الكبرى . كتعر كامل امام القدر لصراعه .. هذه الغربة لم تظهر أبداً فى الأدب المهجرى . ذلك التوتر الكياني الذى يفجره لقاء ذاتينغريبتين،وراءحدودالكد اليومي والاجترار العابر .. ما عاناه المهجريون . انسانيتهم . الروحانية ، التأمل . الحنين . التحرر . كلها اخذوها من تراثنا العريق الممتد حتى الجاهلية. كانت هربا لا صراعا . كانت ردود فعل سلبية لا وقفة ايجابية مبدعة أمام القدر ، للقدر .

والغربة ثانيا كتجربة معاشة . كحياة فى صميم المأساة للتفاعل معها واستكناه الباقي والخالد الأعمق منها ، ما وصفها ادب المهجر . قصة الاوحال والجوع والقمــل والجماجــم الفارغة العيون ، ورعب الغابة الأمازونية ، وفواجع المغائر والكهوف وطبول البدائيين ، « والتوركو » (١) المحلأ ، كالجمل الأجرب من باب الى باب ، والسير الطويل الطويل تحت الحمل لا ينتهي حتى الموت ، وأنين « العتابا » الممدود مع البكاء .. كل تلك القصة ــ الملحمة، من ذا الذى رواها أو روى طرفا منها ؟ لقــد عاشوها غصة غصة ولكنهم لم يعبروا ولــم يكونوا أهلا للتعبير عن تجربتها المرة. ما سجلوا منها الا الظل الباهتوبعض الذكرى الصفراء. كل ما فيها من مأسوى وفاجع ومن رنين هول وشقاء يسحق العظم ، ذهبت به السنون فلم يبق منها الآن فى التراث المهجرى شيء ، بل لم يبق منها فى المهجريين الباقين هناك ســوى راسب عصبي ملىء بالعقد ..

والغربة ثالثا : كامتياح لينابيع جديدة ، كتفاعل مع الثقافات الأخرى ، كانفتاح على ثروات الآخرين فى التراث والفكر والقيــم والتفاعل معها .. اى ينابيع وأى ثقافــــة وانفتاح ؟ ما تعلم المغتربون حتى لغة المغترب ليأخذوا منه شيئا . القسم الأعظم منهــم مات وهو لا يقيم جملتين باللغة الأجنبية ، لم يقرأ حرفا ولا أهمه أن يقرأ الحرف ! .. لا الأدبالأمريكي دخلفى انساغهم ولا البرازيلي او الاسباني ظهرت منهما فى الادب المهجرى نسمات أو أجواء .. وهل احسست مــرة شميم البرازيل أو صخب نيويورك أو دوار جبال الأندس الممدود أو وحشــية الأمازون النهر ــ الأب ، فى بعض ذلك الأدب ؟

---

١ ــ كلمة « توركو » كانت الكلمة التى ينبذ بها المغتربون العرب فى أمريكا الجنوبية وما تزال . وفيها معنى الاحتقار وانما حمل العرب الكلمة ومعناها منذ الأدوار الاولى لاغترابهماذ كانوا يحملون الجنسية التركية .

ولقد انتهى الادب المهجرى الآن . تلك الظاهرة « الفطرية » التى نبتت كالفطور الغريبة دون جذور ، وفى غير مكانها وبدون غذاء ، كانت ظاهرة عابرة عاشت فترة الرضاع ثم انقضت . كانت استطالة « مشرقية » ما ان غاب حاملوها حتى ماتت ذبولا . كانت « انزياحا » جغرافيا كما تنزاح بعض الصخور فتوجد بعيداً عن منابتها ! لو كانت أصيلة ، عميقة ، ونبعا جديداً لنمت وامتدت لها الفروع والجذور وكانت « مدرسة » فعلا ، وكانت « فتحا » ! ما نسميه « المدرسة » المهجرية ليس الا شبه مدرسة !

بلى ! انتهى الادب المهجرى الآن وجفت منابعه ، كل المنابع . انتهى مع انتهاء « الماسكاتة » (١) العتيق ، و « التوركو » المنبوذ ودنيا الاغتراب الأولى وما ضمت ! أبناء الماسكاتة الآن لم يعد فيهم من « يمسكت » و « التوركو » تلك العقدة اللزجة فى ذكريات الآباء لم تعد تبصق على الأبناء الا قليلا . والمغترب القديم لم يلد ابنا مغتربا من مثله هناك ولكن مواطنا أصيلا ! .. وانتهى المغترب ليبدأ المواطن !

انهم، لألوف مؤلفة هؤلاء المواطنون الذين يحملون ترابنا فى شرايينهم والعظام وراء صورة اللحم والدم ، المكان الذى اقتحموه يمتد الى جميع قطاعات الحياة . مهندسون . أطباء . مزارعون بحارة . طيارون. صناعيون. ماليون للمصارف . رجال أعمال . أساتذة جامعات . أقطاب فى السياسة . فنانون للحن والريشة والقدم الغاوية . اعلام فى الفقه والقانون . شعراء كأحلى ما يكون الشعر ، صحفيون بالقلم الحديد الحديد . كل ما اختزنت الأجيال العربية الخمسون فى عروقهم من تراث تليد تفجر .. ولكن للبلد الغريب وفى الحرف الغريب ! لقد اندثر « التوركو » فيهم لأنه لم يكن له وجود ، وبرز العربي الخلاق ذو القيم ، برز لا العباءة عليه ولا العقال ولا لغو الضاد ! لقد اغترب !

وما تجمعهم مدرسة أو خط فكرى هؤلاء « الأبناء » الذين اغتربوا . لقد نكلف أنفسنا الشطط لو رحنا نتقصى حدودنا الفكرية فيهم ، أو نبحث عن دنيا واحدة أو موحدة من الفكر . عبث من العبث أن نلملم خصبهم فى سفط ، فى اطار ، فى قناة . انهم أبناء الحياة الخصبة ، وهل من حدود لأبناء الحياة الا الحياة ؟ فى الحرف الجميل ، ان بقينا فى حدود الحرف الجميل : ان فيهم الشعراء ، بمختلف مذاهب الشعر ، وفيهم الوان الرواية والقصة، وفيهم عديد الاتجاهات فى الفكر والرأى . لقد يكونون قد أخذوا عن الشرق ، شرقنا العربي ، اهتزازه للكلمة . تقديسه لها . مبادتها . ولقد يكون بعضهم قد عانى المعاناة القاسية،غربةالروح العربية ، فى ذلك الوسط الغريب . التراث الحضارى الألفي فى عروقه لا بد كانت له ارتكاسات وردود فعل ، بعيداً عن ترابه . ولكنهم لم يعرفوا الغربة الأخرى التي عرفها الآباء من قبل : غربة القمل والجوع والاحتقار المذل للانسانية . الآباء الذين عاشوها قبلهم كفوهم العناء بما وفروا لهم من سبل الرفاه والعيش الرغد والعلم . ولا عرفوا غربة التفاعل الثقافي .. فقد قبسوا الثقافات الأخرى وما فى أيديهم من الثقافة العربية شيء ليكون أخذ وعطاء وليكون تفاعل يبدع. جهل الآباء هو الذى قطع السلسلة فلم تتصل بين تراث الوطن الأول ، وهؤلاء الأبناء الذين نشأوا على الأثداء الغريبة . هل ضاعت

---

١ ـ الماسكاتة Mascate كلمة اسبانية دارجة تعني البائع المتجول . وكافة المغتربين انما بداوا اول أمرهم باعة متجولين يحملون « الكشة » وهي صندوق فيه من البضائع الوان أو ينوءون تحت حمل ثقيل عنيف من القماش .. للبيع . وقد اشتق المغتربون من الكلمة فعلا عربيا بعد أن اعتبروا الكلمة من لغتهم العربية الدارجة فهم يقولون « يمسكت » بمعنى يدور للبيع كما اشتقوا مثل هذا الفعل من كلمات أخرى فهم يقولون «يكوبر» اى يقبض من فعل Cobrar وينمر اى يعشق من Enamorar

على الثقافة العربية الحديثة بهذا فرصة من الفرص النادرة للخصب والفنى والنماء ؟ لعلها ! ولعلها . . . ولكنه سؤال آخر ! . .

ولعلهم لو اخذوا واعطوا ما بعثوا الينا بشيء . انهم لا يكتبون بالحرف الغريب المجهول فقط ولكنهم هم أنفسهم مجهولون . حتى الأقرباء حولهم لا يعرفون قيمة نشاطهم ولا مداه ولا عطره الفردوسي . فى المهاجر نفسها ليس من يستطيع أن يعد لك اثنين من هؤلاء الأبناء المبدعين . المادة التى تعشى الأجفان هناك تتركهم خارج اطار الاهتمام الجماعي ، والجهل العتيق .. يذهب بالباقي !

والأبناء بدورهم لا يلتفتون الى الوراء ، الى أهلهم ، الينا . وفيم يلتفتون ؟ (أورفيه) اليوناني العتيق ، فى الأسطورة ، حين التفت الى الوراء ضاعت منه حبيبته الى الأبد . وما هم بالملومين . انا لنصنع المواطن ها هنا صنعا . نصوغ . نشذب . نربي . ننحت . ننفق حتى دم الشرايين ليكون لنا المواطن الواعي الصالح . افتحسب أنهم يخلقون هناك بالمجان ودون أى جهد مواطنين واعين صالحين ! ومواطنين منا ولنا ؟ المثل الهندى يقول : « وأنت يا ملعقة التضحية أبعثك ملآنة لترجعي ملآنه » . ونحن نبعثها فارغة فارغة تلك الملعقة وان سميناها سفارات ومكاتب وملحقين .. ثم نريد لها أن ترجع بالخير العميم ؟ انهم هناك فى حاجة الى مثقال ذرة من عناية . فى حاجة الى من يقول لهم : انكم مواطنون ولكن فى برنامج شامل متكامل من العناية والدأب ، وأقوام كالرسل يعملون عليه . واشهد أن ثمة وتراً بين النياط والقلب من كل منهم يرن ، يهتز ، يثور ، يخبو ، يسكر ، يبكي ، يصلي اما عرفت كيف تجلو العربي فيه ! العربي الكامن العريق !

وما العربي عند واحدهم بالشيء الكثير ، مع ذلك . وقد لا يكون أكثر من جمل وخيمة صحراء . وقد لا يكون أكثر من لوحتين من الف ليلة . كذلك علمتهم الثقافات الاجنبية

ولم يقل لهم آباؤهم شيئا . الآباء يخجلون بهذا الأصل . أما الأبناء فيرون فيه نوعا من الاعماق الرومانتيكية والرنين الغريب الساذج. صور الأجداد ؟ انها تطوف لدى واحدهم فى جو من الغموض والسر . تعيش خرافة حلوة فى النسيج الفورى منه . ولكنه يزين ذلك لنفسه بالأصداء العاطفية الفنية :

وتلفتت عيني فمذ خفيت
عنى الطلول تلفت القلب

وحين يكتبون أو يتكلمون فانه الوجدان العربي البدىء ، دون عقد ولا مضاعفات ولا مركبات ورواسب ولا أفكار مسبقة ذلك الذى يكتب ويتكلم ـ ان كتب وتكلم ـ وراء عجمة الحرف الذى به يلفون . « قصيدة الدم » التى رويت هي ايقاع القدر فيهم . انها تجرى غامضة فى عروقهم ولكنها تجرى . هم فواصل فيها وقواف واناشيد . كل يغني فى اطارها على هواه . ولكن القصيدة تنداح من حدود المكسيك حتى أقصى الأرجنتين .. تربط الجميع الى قافية واحدة .

أم وددتم لو نتغلغل فى طوايا هذه القصيدة ؟ لو نكشف وراء الموسيقى والحرف والسطر شخوصها والأطياف المجهولة ؟ اذن فلنركب الى بعض الأقطار . لنذهب مثلا مع « قصيدة الدم » الى كولومبيا .

فى « بارانكيا » على البحر الكاريبي هناك شاعرة هى ميرا دلمار . اصلها من عكار ولكنها ولدت فى كولومبيا . وهي فى حوالي الخامسة والأربعين الآن ، ولكنها بدأت منذ الرابعة عشرة من عمرها بنظم الشعر الأسباني . طبعت فيما اعرف ، أربعة دواوين شعرية ، نفدت جميعا ، فقراؤها المعجبون منتشرون فى طول القارة اللاتينية وعرضها . شهرتها فى شيلي تعدل شهرتها فى المكسيك على السواء . وحين اختاروا فى الأرجنتين شعراء القارة الأوائل كانت واحداً من الشعراء الخمسة

والعشرين المختارين ، الذين طبعت مختارات قصائدهم على أنهم الكلاسيكيون الكبار . وكولومبيا تعدها من مفاخرها ، تمنحها وسام الاستحقاق ، تعقد لها الزعامة الأدبية منذ أكثر من ربع قرن فى بلدتها . تتناشد أشعارها التى تنشرها جريدة « التيمبو » أشهر جرائد البلد والقارة فى صدر صفحاتها . أما هي فما تزال منا وان كنا نجهلها كل الجهل . ان الشرق العربي ، شرقنا نحن ما يزال فى قوافيها وفى الألحان يهبها السحر والرنين العميق . وها هنا احد سريها الكبيرين . أما السر الآخر ففي البحر الذى أخذت منه اسمها . «ميرادل مار» أو « مرآة البحر » ليس باسمها الحقيقي . أسمها فى الاصل اولفا شمس ، التوقيع المستعار من البحر المجاور لبلدها بارانكيا ، هو الذى اشتهرت به تلك القصائد المفعمة حنانا وحبا غامضا يقرب من الصوفية وموسيقى ذات لون وعطر . انها الآن واحدة ممن يقودون مسيرة الشعر ويغنون بالأسبانية لمائة وخمسين مليون انسان فى القارة اللاتينية ما بين المكسيك ومضيق ماجلان البعيد .

ونتنقل مع «قصيدة الدم» الى الباراغوى . فى قلب القارة الأعجم . هناك : « ماريو ايليجي» (ماريو العجي) الحمصي الذى لم يز قط حمص . هو ابرز كتاب المسرحية فى بلاده . كتب رغم شبابه الذى لا يبلغ الاربعين ورغم انشغاله بالأمانة العامة لوزارة الصناعة ، خمسا وعشرين مسرحية حتى الآن . وانه ليكتبها بالأسبانية و « بالغواراني » لغة الهنود القديمة الشائعة فى بلاده . « انا من وراء الشخوص والأستار أكتب لبلدى . مسرحي كله وطني لأني مغرم ببلادى » هكذا قال لي ، ونحن نجتاز عبر الغابات والمسالك بلده « من الباراغواى سجلت فصلا بطوليا فى تاريخ ذلك البلد : كان الدوق دوكاشياس يقود جيش البرازيل الى عاصمة الباراغواى سنة ١٨٧٠ فلما شارفها فوجىء فى الليل بهجمة غير منتظرة من فرقة هوجاء عنيفة باغتته ولم يكن يدرى بوجودها فى تلك المشارف . وابيد المهاجمون ذلك الليل . ولكن « دوكاشياس » وقف عند الصباح يبكي حنقا وألما . لم تكن الفرقة الباراغوائية سوى جمع من طلاب المدارس الفتيان بقيادة المعلمين . وقد وضعوا اللحى المستعارة لتكون لهم سمات المحاربين .. » هكذا قال لي ثم تساءل عما اذا كان فى التاريخ العربي شيء من مثل ذلك !!

ومع «قصيدةالدم» نفسها نصل الى شيلي لنجد : Mahfud Massis محفوظ مصيص الشاعر الاشتراكي صاحب ديوان « تدمير الحداد » Las destias del duelo ونجد الشاعر الآخر ماريو عويس M. Oes ونجد Andrè Sabella اندريه سابيلا أحد كبار كتاب الرواية وصاحب رواية Campo Grande (الحقل الكبير) . كما نجد بنديتو شوحي أو جميل الشوحي الذى نال أكثر من جائزة ادبية .

وننتقل الى دنيا الأرجنتين فنجد بين من نجد نيليدا شرارة . أبوها سعيد ، حين ترك بنت جبيل ، كان أقصى أمانيه ثمن قطعة أرض ، فاذا به يعطي الأرجنتين من خلال بلدة روساريو التى عاش فيها احدى قيمها الأدبية الكبرى .

وثمة عشرات اين لي أن الاحقهم فأحصيهم ، فى كوبا ، فى فنزويلا ، فى المكسيك والأكوادور وبيرو والأرجنتين .. عشرات . أني لي الاحصاء ؟ ان قصيدة الدم طويلة الفصول . انها ملحمة . كل عبقرى مبدع يضيف اليها سطوره ، دعونا نقف ، على الأقل عند فصلها البرازيلي ، ففي البرازيل منها اناشيد وأناشيد . هناك مثلا :

دافيد نصر : انه زعيم المقالة الصحفية فى البرازيل . بالأحرف الضخمة العريضة تطبع مقالاته . ولكنها فى النتيجة تجتمع دوما فى فى كتاب . اذا تبنى قضية فمعنى ذلك انها أضحت لديه لهبا ينير ويحرق معا . بين دفتي كتاب من كتبه نقرأ قضية « عائدة خورى » الفتاة التي حاولها بعض الفتية من

ابناء الملايين والسياسة والنفوذ فى « ريودى جانيرو» فلما اعيتهم احتالوا فأدخلوها مصعداً من بناية ، ثم زحموها فى الطابق الثالث عشر .. ورمت عائدة بنفسها من الشرفة ! وسجل الحادث انتحاراً . وانصرف الفتية الى قصور ذويهم آمنين !

كان ذلك منذ عشر سنوات او تزيد قليلا ، ولكن الفتية كانوا حتى عهد قريب فى السجون يقضون العقوبات التى صدرت بحقهم . لقد دخل قلم دافيد نصر فى القضية ، وجرهم واحداً واحداً الى السلاسل . حتى حين هرب واحد منهم عبر أراضى البرازيل وملايينها السبعين وغاباتها المعروفة بجهنم الخضراء . لاحقه دافيد نصر بقلمه ومجلته . فتح عليه عيون الملايين بكل مكان حتى سقط فى السجن. فى مقدمة كتابه عن « عائدة خورى » قال دافيد لهم : « انه لبديهي ألا تفهموا قيم الشرف التى دفعت عائدة حياتها ثمنا له . هذه القيم التي حملتها أنا ايضا من بلادى ، بلاد العرب . ولكن ثمة قيما أخرى من بلادى هذه سأعلمكم اياها ، هي الحق والعدل . ان « التوركو » سيدافع هنا عن قيمه ... »

وفى البرازيل سلمون جورج ابن آل سلامة فى جبال اللاذقية بسورية . دخل السياسة من بابها الأوسع ، فصار عميد الأكثرية فى المجلس النيابي منذ سنوات، ومارس الخطابة، فله اللسن والبلاغة الآسرة التى استخدمها فى الف محاضرة للدفاع عن العرب ، وغرق فى الشعر فهو بيان وقافية ، ودعوة عميقة لحب الحياة ، حتى لتجد من قصائده ما نقش فى اصقاع البرازيل فى صدور الدور . ديوانه : « تزيينات عربية Arabes cos » فيه كافة تلك اللونيات الفكرية الممتدة من الغزل حتى الموت . وفيه لهيب الصحراء وأنين النخيل المتفرد البعيد .

ومن البرازيل ، فى اطار قصيدتنا نفسها نجد :

سيسيليو كارنيرو S. Carnero (وهو من بيت غنمة فى الأصل) وقد ترجم الكلمة الى البرتغالية . غلب عليه الطب اليوم ولكنه كان الى سنوات بين الروائيين الأول . روايته A Foguira (شعلة النار) نالت الجائزة البانامريكية للرواية فى نيويورك سنة ١٩٤٢ . وماذا فى A Foguira ؟ انها تروى قصة الهجرة العربية من خلال أبيه واخوته .. تروى قصة ذلك الذى انحدر من «تربل» قرب طرابلس ليلقي العصا والذرارى والجهد المنتج فى البرازيل . لقد كتب فيها ما لم يكتبه الأدب المهجرى مجتمعا من قصة الاغتراب . وما لم يبح به العربي للحرف العربي باح به للحرف البرتغالي .. !

وفى البرازيل نعيم ابو سمرة .. أو كان حتى أمد ليس بالبعيد من أبرز الكتاب . بلى كان ، لأن تألقه خبا اليوم .وكان يكتب ووجهه الى المشرق ففيه من شرقنا العربي روحه وجبريته ، وذلك الأسلوب العطر الذى يتعبد الكلمة . كان « خيامي » الهوى ، يدعو الى عناق الحياة وامتصاص اللحظة ، لأنه كان فى الأعماق للروح ولما وراء المادة . اعلام الفكر الانساني تناولهم ، من هذه الزاوية ، فى كتاب رسم فيه آفاقه الثقافية الواسعة أكثر مما ترسم المذاهب وطرق الفكر .

اما فى « الرواية » فكان رمزيا تحليليا لم تغلبه الواقعية على قلمه . فاطاره من الأحداث ذاتي مجنح ، يوشك أن يلامس دنيا الشعر أكثر مما يقر فى دنيا الرواية .. لعله لهذا مثلا هرببخيالهمن اطار البرازيلليكتب : « رواية فى استامبول » !

ماريو نعمة : دخل دنيا الأدب والفكر فاتحا بعدد من المؤلفات المتتابعة منذ خمس وعشرين سنة ، فاذا به منذ سنوات أمين « أكاديمية الكتاب البرازيليين » . روائي ، نقاد ، بحاثة . ولكنه من وراء ذلك كله ومن فوق ذلك كله فنان تندى حروفه بعبادة الجمال وذوب العاطفة والايحاء الموحش الكئيب .

لن أتابع قصيدة الدم بعد ، فهي فصول ومقاطع وقواف كثيرة كثيرة . سأنسى الآن منها : الصحافي باولو تقلا ، والشاعر أسيس فارس صاحب ملحمة « الماسكاته » والروائي أميل فرحات (ابن اخ الشاعر الذى نحب ونعرف الياس فرحات) صاحب رواية « الحلة الكبيرة » . والشاعرتين : منيرفا سعادة وايفا جبور . والشاعرة الشابة التى ظهرت أمس فقط (عمرها الآن ٢٤ سنة) فى اول ديوان لها سنة ١٩٦٣ بعنوان (نصف وردة Semi Rosa) موقعة القصائد باسم : لا احد Ningum

لا ! لن اتابع القصيدة كلها . وحسبي أخيراً أن أقف منها بعض الوقوف عند : القصصي الشاعر جورج مدور والشاعر الكاتب جميل المنصور الحداد .

جورج مدور : هو ابن دمشق فى ظلها الحاني وترابها المخضل بالندى والربيعين . وهو فى الوقت نفسه ابن « باهيا » Bahia ، تلك المقاطعة البرازيلية ذات المجتمع الحار الفاجع ، والرنين الافريقي الأبح . وراءه الآن وهو فى زهو الكهولة سبعة دواوين وست مجموعات من القصص القصير . ومواسم الخصب الى اقبال . اكثر من جائزة أدبية نال . ومجموعته قبل الأخيرة نالت جائزة « حاكم سان باولو » الادبية . والناس يقرأونه بالروسية والانجليزية واليوغسلافية والفرنسية والأسبانية والألمانية .. فى انتظار العربية واللغات الأخرى . الى اللغة العربية لم يترجم له سوى قصة صغيرة واحدة ! (١)

أخذ عن أبويه الدمشقيين ذلك الباب الموصول ما بين العين والقلب وذلك الحنين الى الأرض الاولى ، وتلك « الاجتماعية » التى تحتضن الوجود . فهو غنائية خصبة مؤثرة وشاعرية للموسيقى وللترجيع اللانهائي . ومن وراء ذلك حنين حضارى عربي ليس أعمق من رحمه الانساني .

هل تعلمون أني صنعت فى طفولتي

من خشب الأرز القديم سفنا

أجراها على اليم خيالي

وابي ابن المدور نسج لسفني قلوعا

وأمي من آل زيدان نفحتني بحب التونزادا

وطويت البحار استهدى النجوم

والآفاق المضرجة بوهج الأغاني والآهات

واليوم صار لي مرافىء أرسو بها آمنا

فى ضوء البدر الفضي

وقلبي ثمرة ناضجة !

فان حملت لكم من أسفارى « مشمشا »
و « بقلاوة » (٢)

فهما مما منحني من الطيبات آبائي العرب

وقد بقى للمدور الكثير من طفولته وفتوته فى البلد الصغير المجاور للنهر ، الذى عاش فيه . جوانحه مثقلة بما بقى وترسب فيها من تلك الصور . لهذا أصدر « قصص طفل » مجموعة من امتع واحلى مجموعاته القصصية . ولم لا ؟ « أنا ما انفك طفلا ــ كذلك يقول ــ الاطفال وحدهم يستطيعون استرجاع عالمنا الذى سطا عليه الليل .. »

وقد حمل معه من أيام بؤسه والمسكنة ، وهى ايام طويلة فى « باهيا » عضة الظلم الاجتماعى فهو يسارى الهوى . يعيش فى وهج المشكلة الاجتماعية للطبقة الفقيرة المسحوقة فى البرازيل . فأشخاصه منها وقلمه على الدرب الاشتراكى وحياته للفلاب اليومى الموصول .

١ ــ نشرتها وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ضمن مجموعة « من القصص البرازيلي » ترجمة المرحوم نخلة ورد .

٢ ــ هاتان الكلمتان وضعهما بالعربية في القصيدة ولهما هناك وقع الأمور الشرقية الغامضة الحلوة لا المعنى المادى .

وبالرغم من عمله الصحفي في ادارة كبريات الصحف ، ومن عمله الاذاعي الذي لا ينقطع والذي يتصل بسلسلة من عشرين وثلاثين محطة اذاعية فان ذلك لم يؤثر على قلمه الأديب الذي ظل ينتج وينتج الرائع الجميل من الشعر والقصص .

ولقد دخل القصة عن طريق الشعر . ومن ذا الذي يمر بحقول الربيع فلا يخرج ملء الصدر والخف واليدين عطراً وزهوراً ؟ ان من السهل أن ترى في المدور القصاص ، المدور الشاعر . على أنه يكتب القصة الواقعية . القصة التي تملك من « الحتمية » ونبض الحياة ما يمنحها التعبير الانساني الكامل . وأوقع ما يقر بنفسك منه ذلك الايمان بالانسان . ما ان يهم المدور أو يعنيه أن يقص القصص . ما يهمه هو أن يفجر الانسان في الانسان . أن يجدد الثقة في الكائن الشعبي البسيط ، وفي أفجع ما في الحياة من زاوية . ولعلي أكون أقرب منه ضوءاً — دون ان أسيء اليه — ان لخصت قصة صغيرة من قصصه . انها حول طفل يعمل دليلا لأعمى . وقد ترك ضريره فجاءة دون سبب ، وسافر مع أعمى آخر الى « سان باولو » البعيدة جداً . ولكن هذا الأخير تركه فور وصوله . ووقف الطفل أمام السيارة العائدة وتذكر حياته كلها مع ذلك الضرير القديم دميان .. تفاصيلها الصغيرة ، وتذكر موت امه ، يوم الدفن ، اربعة او خمسة مشيعين بينهم الضرير دميان ولياليه بعد ذلك على الأرض العراء في كوخ الأعمى دون ضوء . فالضرير لم يكن بحاجة الى نور ، أضواء سيارات الشحن كانت تنعشه في بداية الليل . وعواء الكلاب . وحين يسود السكون يتجمع على نفسه ويضع يديه بين ساقيه :

— سيد دميان !

— هوم !

— لاشيء .. لا ...

في البدء كان يعتقد أن الأعمى لا ينام ..

وكيف يمكن ان ينام دون عيون ؟ وانه لا يرى الا في الليل . اذ كان يخرج بغير دليل ينزح الماء من البئر القريبة ويغسل ثيابه .. في بعض الأيام كان الطفل يرى ضوءاً يشبه السراج ، ويحس بالضرير يمشي على رؤوس أصابعه فيخرج من الكوخ . وخيل اليه أنه سمع مرة صوتا ناعما يتكلم وصوت دميان يقول : ان الصغير هنا ! .. وتذكر الطفل صدقات الناس . والطحين الذي كان يتقاسمه مع دميان . وكلام امه حول الأمانة ، وحول الاخلاص للضرير . وحالات القصاص الالهي الرهيب لمن يخون .. فاستبدت به رغبة في البكاء ...

وصعد الشاحنة . كانت عيناه ما تزالان حمراوين منتفختين من الغبار الذي ابتلعه في طريق القدوم .. قالوا له :

— اذن ستعود يا أوزاريو ..

— لا ادري !

— وأين الذي قدمت معه ؟

— ذهب مع بعض السيدات هنا وقالوا انهم سيشفونه ويمشي وحده دون دليل ..

سيشفونه ! وهنا ليس من يحتاجني !!

....

وتصل القصيدة ، قصيدة الدم ، اخيرا الى صاحبها :

جميل المنصور ... ان سألته من أي بلد أصلك أجابك : ما يهم ان أكون من أي بلد ؟ انا اعرف أن جذوري عميقة هناك في الشرق العربي . وهذا يكفي ! ابواه من بلادنا . وهما اللذان علماه مبادىء العربية . وجاء لبنان سنة . وزار مصر . وادهشه ، وقد التقى على الباخرة من أوديسا في الاتحاد السوفياتي الى اللاذقية ، أن الشباب العرب لم يكونوا يلهون وأن نشرة الأخبار كانت تجذبهم أكثر من لحن الرقص . كان ذلك سنة ١٩٥٦ يوم تأميم القناة .

ولكنك لن تعرف جميل المنصور ان لم

تعرف بعض مواقفه . سيرة الحياة العادية لا تكفى لرسم صورته الكاملة .

فى أواخر سنة ٦٣ مثلا ضجت الصحف البرازيلية بخبر غريب . لقد هجم جماعة من الكتاب اليساريين ومن الصحفيين على مستشفى المجانين فى سان باولو واخرجوا منه عنوة : سيدة ! اسم السيدة معروف فى الأوساط الاجتماعية والأدبية والمالية ، فهي كاتبة اديبة وموسرة من اصحاب الملايين وزوج لرجل من أصحاب الملايين . ولكن ميولها الاشتراكية دفعت الزوج للحجر عليها والاستبداد بمالها ، فدبر لها ما أوصلها به بحكم القانون الى مستشفى المجانين . ومن هناك أرسلت نداء الى أصحابها الذين لم يجدوا لانقاذها السريع سوى الاختطاف السريع . وكان بينهم الشاعر اليسارى العنيف : **جميل المنصور !**

وقبل ذلك سنة ١٩٦١ ضجت الصحف بخبر اغرب وأشد دهشة . لقد ضاق حاكم ولاية « ريودى جانيرو » بالشحاذين الذين يشوهون أناقة المدينة وجمالها السياحي الأخاذ . الحاكم هو « لاسيردا » ذو العينين القاتلتين الذى أسقط أربعة رؤساء جمهورية فى تاريخ البرازيل الأخير . نسي الحاكم مليوناً أو أكثر من مليون من الزنج البائسين الذين يسكنون الزرائب من التنك واخشاب السحاحير التي يسمونها Favellas والتي تنقش بالسواد كل السفوح الجبلية فى المدينة . نظره لم يرتفع الى السفوح . ظل على الأرصفة فقط وهناك لم يجد ما يشوه جمال « الريو » سوى المكدين وأهل الشحاذة . ووجد الحل للمشكلة ، وكان الحل بسيطا . فالمحيط الأطلسي أمام المدينة كبير كبير وبالامكان اغراق كل تلك القذارة فى المحيط ... وهكذا كان ! واحد من الذين استطاعوا النجاة من الغرق ، عاد الى الشاطىء ففضح الجريمة الباردة ! وضجت الصحف ! القلب الوحيد الذى تفجر ديواناً من الشعر كاملا ، حول هذه الجريمة هو قلب : جميل المنصور !

« أيتها الاجساد التي أغرقت بين الصرخات والزبد

« لئلا يغرق فقط أهلنا !

« سيبقى دوما نور وظلام ، يبقى يزدان وأهرمن (١)

« ياحاكم الغثيان والكهوف الأولى

« قابيل ! قابيل ! ماذا فعلت ؟ »

وراء جميل المنصور لآن قافلة من خمسين كتابا بين مؤلف ومترجم أو تزيد قليلا وسبعة وخمسون عاما من العمر أو تزيد قليلا . بدأ الشعر سنة ١٩٣٥ بديوان « القمر ، حبيبي » ثم « صلوات سوداء » سنة ١٩٣٨ ، فنال جائزة المجمع العلمي البرازيلي للشعر يومذاك . ولكنه بعد ذلك ترجم الخيام والف ليلة ، وبترارك ، وبوكاشيو ، وهوغو ، وفيرلين ، وبودلير . ونشر دراسات بعد دراسات فى الشعر البرازيلي والقصص العربي والوان الادب والنقد .. فأنت تغامر حين تقراه فى النثر والشعر ان لم تجمع اليك كل ما فى الجعبة من الثقافة ! اولا فأنت اذن غريق تائه بين كل المرافىء ولات مرفأ ! ..

لقد كان فى « صلوات سوداء » يشيع الكآبة فى الحروف ، ولو انه يدعو لسوانح الحب .. وانتهى فى ديوان « الحاكم والشحاذين » سوطاً من عذاب . لقد اختار طريقه اليسارى المتطرف ووقف دون فلسفته المادية يتقبل حجارة الرجم و .. يرجم ! ولكن أحداً لا يمارى فى مكانته من الشعر . انه أحد

---

١ ـ «يزدان واهرمن» هما اله الخير والشر أو النور والظلام فى الديانة الزرادشتية وقد اشتق الثانى من الاول والى هذا أشار المعرى مرة بقوله :

فكر يزدان على غرة — فصيغ من تفكيره اهرمن

امراء الشعر فى أمريكا اللاتينية كلها منذ سنين طويلـة .

و « قصيدة الدم » بعد هو الذى قالها . هو الذى قال :

يا بلاد العرب انك فى ذاتي

« على صورة صحراواتك

« يصاغ شعرى

« انه لا نهائي ومتقد

« اني صورة منك أخرى ..

★ ★ ★

بلى ! ان القصيدة لطويلة حقا . انها قصيدة جميع تلك القلوب التي غربت الى غير رجعة . وبقي فى مكنونها الغيبي شميم عرار نجد !

الستم معي فى أنها تستحق الاهتمام..هذه القصيدة ؟

شاكر مصطفى

قصيدة الدم

اترجم فى الصفحات التاليـة عن البرتغالية قصيدة جميل منصور الحداد التي أشرت اليها. لعلها تصلح ملحقا ايضاحيا للمقال تضيف اليه لونا من اللون :

يا بلاد العرب انك فى ذاتي !

على صورة صحراواتك

يصاغ شعرى .

انه لا نهائي متقد

أني صورة منك اخرى

ففي ماساة جسدى وروحي

ثمة دوما أسد يزأر ونخلة تمنح الفيء !

★ ★ ★

وساعة أتأمل فى ذاتي

أسـمع

أصوات الأجداد

تصّاعد فى داخلي

مبهمة ، بعيدة ، رائعة .

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي .

قومي الذين أتوا العالم بمصير لا يحور ،

مصير كالفجر !

★ ★ ★

أشعر أني كنت فيما سلف

محاربا جموحا ، رهيبا

فى المفاوز التي لا درب فيها

ونعلي الغليظ يدوس بطن الأرض البتول !

★ ★ ★

رايت تسعر الحرب الأشد

ومهندى العارى الذى كان دون غمد

كان يشحذ فى معارك الموت

وكم من صدر عدوٍ خرق

ان القدر نفسـه

ليتراجـع

امام المحارب المسعّر للحرب

مقتنعا بضعته !

★ ★ ★

الى جانب عنترة الرائع المحبوب

كنت جنديا

وعلىالأراضي الافريقيةاللاهبة تموج سيفي

مخضبا بالأرجوان

الهيأ بما أحرز من مجد

كل حــرب

كانت نصرا !

★ ★ ★

كنت احمــل علــى غارب ســيفي الايمان المعروف عن محمد .

ومع الايمان الحضارة .

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي

ومن خلال شجيرات التمر الهندى (١) الكثيفة فى أيام عكاظ

وفى تلك المباراة الغنائية الشعرية .

سمع صوتي ، الذى كانت تنبعث فيه روح كل تلك الموسيقى الكونية

سمع كرنين البلور ، مطربا

يعدل الليل فى العمق وكالفجر !

ولكي احرز غار السبق عرفت كيف أصوغ

القصيدة .

لامعة مزهــرة

فى اللغة الغنية بالقافية

فى اللغة الجميلة التي خلقت للوزن

وحين كنت أقول الشــعر فى عكاظ كنت انظم الجواهر قوافى

وكنت انظم النجوم !

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومى

نظرت الى محمد يولد

رأيت بزوغه الرائع كالشموس

رأيت فعاله العظيم النوراني

مع النصر المؤزر للاسلام

رأيت انا انتصار الشعر . انتصاره السحرى

رأيت الايمان فى فجره

منذ ذلك الوقت كنت احمل :

كأنجيل وعقيدة اي قصيدةهي : القرآن !(٢)

★ ★ ★

وبعد هذا رأيت بيت الشعر ينفذ فى حياة الأرض والناس

رأيته يتألق على الجدران المقدسة

للمســاجد كافة

رأيته ينقش بأحرف من ذهب على ستائر جميع مقاصير الحريم

رأيت الشعر يغني فى المطرزات التي تحجب الطهارة الالهية

فى جسد المحظيات الوضاء كالقمر

رأيت الشعــر يلف بلاد العرب كالــرداء

---

(١) هى من أخيلة الشاعر ان يتحدث عن شجرة التمرالهندى فى عكاظ ولا تمر هندى هناك ..

(٢) لنلاحظ ان الشاعر هنا يحاول التعبير عن معجزة القرآن وسحره البلاغي بكلمة قصيدة ولم يقصد المعنى المباشر للكلمــة .

رأيت ولادة الشعر فى بلاد العرب !

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي .

فى صورة فارس يعدو ، كنت سلطانا وكنت خليفة

وحكمت فى بغداد عدلا لا يمارى وعالما

وكان لدى من النساء أعداد كسرب من النجوم

بيضاوات كالفجر وسمراوات وشقراوات وقمحيات

يركعن على أقدامي ، كالجوارى

★ ★ ★

فى اجسادهن من العذوبة(١)

ما هو اروع

مما كانت تحمله أعناب سورية ودرّاق عمان .

كن يحتوين النار فى شعورهن العجيبة

ويحملنها خالدة ملأى بالتوق فى الجوانح .

★ ★ ★

لقد شهدت جميع فترات الألق من قومي

وفى بلاد الأندلس

شهدت الفخار

وشهدت من موسيقى الحياة المطربة نفسها

سريعها والبطيء !

رأيت (المرية) و (بلنسية)

رأيت غرناطة

رأيت الشعر

يتفجر كاملا رائعا (بارناسياً)

قبل هوغوبقرون وقبل موسيه والكونت (٢)

رأيت أنوار التفتح المجيدة

قبل كثير من تلك التي ورثتها فلورنسة عن ليوناردو (٣)

يدى الصنّاع

وهى تُعمل الازميل فى الجص

عرفت كيف تمنح

الأقواس الخالدة

فى « الحمراء » المعجزة

فى باحة الأسود وفى صالة السفراء

وحين كنت أعبر الحمراء

التي هي قبل كل شيء أعجوبة النقش والتزيين

وجدت (بنيفنوتو تشيليني) غراً لا يفقه شيئا (٤)

انت لا تموتين يا بلاد العرب . لا تموتين فى ذاتي

---

١ ــ اختصرت ، خوف الاطالة مقطعا في هذا الموضع وبعده .

٢ ــ هوغو ، موسيه ، ولوكونت دوليل ، من ابرز شعراء فرنسا فى القرن الماضي .والبارناسية احدى مدارس الشعر الفرنسي اذ ذاك .

٣ ــ ليوناردو دافنشى من اعظم فناني عصر النهضة وهو واحد من الثالوث المشهور انجيلو ، رافائيلو ، دافنشى ، فى ذلك العصر ولكنه الموسوعي الخصب فيهم .

٤ ــ نقاش . نحات . صائغ ايطالي مشهور (١٥٠٠ ــ ١٥٧١) يلخص اسمه تاريخ الصياغة في القرن السادس عشر .

فى كل حياة تبعثين حياة جديدة
وفى جوانحي كلها تتفجرين
ضراعة وكلاما وصلاة ونداء .
كل ما هو أنا الآن ، انما هو منك
تلتهب دمائي كما تلتهب صحراواتك
وعنترة يغني فى شراييني

منك جاءت روحي
منك جاء قصيدى الذى هو قصيدك
والذى يغلغل الآن مع كل ذرة من دمي
مندمجا مع كل خلية من جسدى
كنت فى جميع فترات الألق من قومي
لا تموتي ! يا بلاد العرب فى ذاتي لا تموتي !

* * *

الفوضويّة

علي أدهم *

لمحة تاريخية :

أساس النزعة الفوضوية فى النفس الانسانية هو الشعور بأن أسمى مطالب الحياة وأحبها الى النفس ، وأقربها الى القلب ، هو الحرية الاجتماعيــة والاقتصادية للفــرد والجماعة ، وترمى الفوضوية الى ايجاد مجتمع يحظى فيه الأفراد بالحرية الكاملة لانماء شخصياتهم وتفتح مواهبهم ، ويكون هذا المجتمع خاليا من وسائل القهــر والارغام ، واغلال الفقــر والحاجــة والحرمان ، التى تعوق الانسـان عن استكمال شخصيته ، واستغلال مواهبه وقدراته .

ومنذ ميلاد الحضارة وهذا الأمل يــراود الناس فى أخيلة الشعراء ، وأحلام الفلاسفة وتطلعات البشر بوجه عام ، ففى اليونان القديمة وفى الصين وفى غيرهما من أقطار العالم جاهد الناس من اجل الحصول على الحرية وحاربوا الطغيان والاستبداد حربا شــعواء متصلة ، وهذا النزوع العام الى الحرية الذى نتبين ملامحه ونلمح آثاره فى الأحداث المتابعة خلال التاريخ يوضح لنا ان متابعة المثل الأعلى للحرية أصيلة فى الانسان ، وأنها تقوى وتشتد كلما قوى شــعور الانســان بشخصيته وذخائر قدرته ، وقد أعيا طغاة الأباطرة والقياصــرة وسائر المستبدين والحاكمين بأمرهم التغلب على هذا النزوع الى الحرية ، واخماد أنفاسه ، والقضاء عليه ، وكان للحرية دائما الكلمــة العليا فى النهاية ، والتاريخ العام فى رأى هيجل يبين تقدم الشعور بالحرية من جانب الروح ، وتحقيقها نتيجة لذلك .

وكل مجتمع انساني مكون من مجموعة من الأفراد ، والمفروض أن هذا المجتمع وجــد لتحقيق مصلحتهم المشتركة ، وأن الأفــراد انفسهم لم يوجدوا من أجل المجتمع وفائدته ، والحرية فى طليعة مطالب الأفراد ، وتقتضى الحرية الاجتماعية أن يعيش الانسان طــوع

* ـ : اسهم الاستاذ علي ادهم اسهاما كبيرا في تعريف القارىء العربي باهم التيارات الادبية والاجتماعية والسياسية في العالم ونشر كثيرا جدا من المقالات والدراسات فى مجلة المقتطف ومجلة الهلال والثقافة والكاتب المصرى وغيرها . ومن اهم مؤلفاته المذاهب السياسية المعاصرة . وكذلك الجمعيات السرية والاشتراكية والشيوعية .

أرادته على شريطة أن لا يؤذى غيره ، ولكن هذه الحريـة الاجتماعيـة متوقفـة على الحريـة الاقتصادية ، وتستلزم هذه الحرية أن يكون حصوله على ما يسد حاجاته ، ويفى بمختلف مطالبه ، مكفولا ميسرا ، ولأجل أن يتم ذلك دون بذل مجهود ضخم لا بد من التعاون المتبادل فى ظل المجتمع ، والمجتمع الانسانى فى صورته النقية الخالصة قائم على هذا التكاتف فى سبيل المصلحة العامة لجميع أفراده .

ولذلك يجد الانسان ـ مثل سائر الحيوانات الأخرى ـ أن من مصلحته أن يعيش فى مجتمع ، وقد كيفت الانسان أحوال الحياة الاجتماعية ، وجهاده فى توطيد البناء الاجتماعى ، حتى أصبح من الصعب عليه ان يعيش فى عزلة عن المجتمع ، وكان هذا مدعاة لنشـوء الفكـرة القائلة بأن المجتمع مثل الجسم العضوى الحي ، وهى فكرة غير سليمة ، لأننا اذا فصلنا أى عضـو عن الجسم الحي لا يستطيع أن يعيش منفصلا عن الجسد ، ولكن اى انسان أوتى حظا مـن الفهم والقدرة على مواجهة المواقف الطـارئة يستطيع أن يدبر أموره اذا القت به الأقدار فى جزيرة نائية بها ما يكفى من الموارد الطبيعية ، وهو من غير شك سيقع فى العنت ، ويصادف ما يشق عليه ، ولكنه برغم ذلك يستطيع ان يملأ جوفـه ويلائم بين نفسـه وبين ظروفه المستحدثة ، ويعيش عيشة راضية الى حد ما .

وفكرة ان المجتمع وحدة قائمة بذاتها ، وأن لهذه الوحدة حقوقها التى تسمو على حقوق الأفراد قد وجدت فى مختلف عصور التاريخ ، وعدت فى العصر الحديث من الأفكار المسلـم بصحتها ، سواء فى ظل نظام مثل النظـام الهتلرى أو طريقة حكم مثل حكم الميكادو فى اليابان ، وفى كل المواطن يدعى الفرد للدفـاع عن بلاده ، وقد يدفع الى خوض الحرب التى يثيرها الحكام المشرفون على سياستها من أجل أشياء أخرى تستحق أن يضحى بالأفراد فى سبيل الحصول عليها حسب تقديرهم الخاص ، ويمكن أن نلمح من وراء ذلك وضع حقـوق الدولة او الجماعة فوق حقوق الفرد ، ويبدو ذلك فى وقت السلم ، ولكنه يزداد وضوحا فى أوقات الحرب ، ففى ابان السلم يؤمر الفرد بأن يقتطع من دخله جزءا يقدم للضرائب اللازمة لملء خزينة الدولة ، وعليه كذلك ان يقدم أولاده للخدمـة العسكرية ليساعد الدولة فى تكوين الجيش اللازم لها لفرض سياستها وتنفيذ مرسوم خططها ، اما فى وقت الحرب فان عليه ان يضحى بحياته من اجل الابقاء على حياة الدولة .

وفى وجهة النظر الفوضوية ، أن هذا التقدير للدولة قائم على أسطورة وهمية ، وفكرة مجردة لا نصيب لها من الحقيقة وأن هذه الأسطورة صيغت لتمكين من لهم مصلحة فى خلق هذه الأكذوبة ، وترويجها والدفاع عنها ، واضفاء القداسة عليها .

وعندهم ان الناس قد كونوا مـن أنفسهم جماعات منذ أقدم عهود التطور الانسانى . ولكن تكـوين الجماعة كان مـن أجل تيسير الحياة ، وتذليل الصعاب المعترضة ، ولحماية الأفراد ، ورفع الأذى عنهم وكان الباعث على تكوين الجماعة أن الأفراد الذين تكونت منهم رأوا أن تنوع مواهبهم يثرى الحياة الاجتماعية ويسمـو بمستواها ، أى أن أساس تكـوين المجتمع هو ضـمان المعيشـة الميسرة الكريمة لرجال المجتمع ونسائه جميعا بلا أدنى تفريق أو محاباة .

ويرى الفوضويون أن الدولة قد اكتسبت حقوقا تعد من وجهة نظرهم منافية فى طبيعتها لمصلحة المجتمع ، وأنها أصبحت بمرور الزمن آلة لحماية مصالح طبقة خاصة مـن طبقات المجتمع ولاستئثار هـذه الطبقـة بالسلطـة والنفوذ ، وقد مكنت السلطة المغتصبة هـذه الطبقة من استغلال الدولة فى حماية مصالحها الخاصة ، والحد من الحريات التى قد تضر بهذه المصالح ، واثارة حروب الغزو من أجل الحصول على أسواق جديدة ، ومصادر للمواد

الخـام المطلوبة ، واتبـاع سياسة العدوان الامبريالى فى سبيل تحقيق أهدافها ، ونيـل الفوائد المرجوة ، وفى مثل هذه الأحوال تصبح الدولة نظاما قائما لمساندة طبقـة حاكمة ، وحماية مصالحها ، وليست نظاما قائما لمصلحة جميع أفراد الدولة الا فى الحدود الطبقيةالتى يجد أفراد الطبقة المسيطرة فائدة لهم فى ضرورة الاستجابة لمطالب الطبقات المحكومة والمغلوبة على أمرها ، ويرى الفوضويون أن حرص هذه الطبقة المستغلة على بقاء الدولة التى يمتلك أفرادها زمامها يجعلهم يركنون الى طرائـق مستنكرة لو اتبعها فرد من أفراد الطبقات الأخرى لعدت من الجرائم التى ترتكب ضـد المجتمع،ويضرب الفوضويون مثلا لذلك الالتجاء الى الحرب لفض الخصومات ، وانهاء الخلافات التى تقوم بين الدول، فان القوانين المدنية تمنع الأفراد من الالتجاء الى القوة واصطناع العنف فى معالجة الخلافات التى تقع بين الأفراد ، ولكن الدولة التى تدبر أمورها الطبقة المتحكمة لا تتورع عن الاستعانة بالقوة الضارية والعدوان المكشوف فى القضاء على الاضرابات ، وتفريق المظاهرات ، ولا تعف عن اللجوء الى الكـذب والخداع ، والتورط فى آثام لو اقترفها أى فرد من الأفراد لعد من المجرمين الآثمين الذين يجب أن ينبذهم المجتمع ، ويعمل على تقليم أظافرهم، أو قطع دابرهم .

ويـرى الفوضويون أن المساوىء والعيوب لا تكف عن مصاحبة الدولة وملازمتها، فحينما توجد دولة تقوم أقلية بتدبير الأمور،والاشراف على جهاز الدولة ، وهذه الأقلية تفرض الطاعة على الأكثرية . فالحكومة من أجل ذلك لازمة فى نظام الدولة ، ولا يمكن أن توجد حكومة بغير قهر ولا ارغام ، ويكشف لنا التاريخ أنه كلما وجدت طبقة حاكمة تبـدأ فى استغلال مكانتها فى فرض سلطاتها على الناس،والحصول على امتيازات خاصة بها ، ومنافع مقصـورة عليها ، وعند الفوضويين أن الخطأ الذى وقعت فيه الثورات التى عرفها التاريخ جميعها هو ايجاد حكومة قاهرة فى مكان الحكومة التى قوضوا سلطتها ، وهدموا بنيانها ، والاشراف على جهاز الدولة الجديد الذى حل محل الجهاز القديم ، فبدلا من تحقيق الحرية المنشودة ، والتى قامت الثورة من أجل ايجادها فان رجال الثورة يرون أنه من اللازم الذى لا محيص عنه ان يكونوا أشد عنفا وضراوة من الحكومة التى أسقطوها ، وبذلك يغرقون الحرية فى سيل من الدماء ، مستعملين المقصلة، وتسفر الثورة المستحدثة اذا كتب لها البقاء عن ايجاد طبقة جديدة لها امتيازاتها ، ونظام حربى مزود بكل الأسلحة اللازمة للحرب ، وتطوى المثالية التى أوحت الثورة الأصلية ، ويحل محلها طغيان الطبقـة الجديدة المستبـدة الحريصـة على استغلال الموقف ، وتحقيق أهدافها الخاصة ،

ويضرب الفوضويون مثلا لذلك ما آلت اليه الثورة الانجليزية فى حكم القواد من أتبـاع كرومويل ، فقد قضت على حركة الحراثين Diggers وطلاب المساواة Levellers وضيق حكم القواد دائرة الحريات الفرديـة حتى صار نصيب الفرد من الحرية أقل من النصيب الذى كان يستمتع به فى عهد حكومة أسرة ستيوارت Stuarts ، والثورةالفرنسية نفسها تحولت مـن حكومة المجتمع القـومى Convention الى ديكتاتورية مارا Marat ودانتون Danton وروبسبيير Robespierre وآلت فى النهاية الى حكم نابليون الأول الذى كان أكثر طغيانا واستبدادا ، وقد أثيرت فيه النزعة التسلطية ومواصلة الحرب باسم الحرية والمساواة والاخاء .

ويرى الفوضويون ان الثورة الروسية ظللها وهم الحكومة ، والاعتقاد بأنها قادرة على ايجاد مجتمع تسوده الحرية والعدالة ، وقد قامت الثـورة الروسية بتطبيق نظريـة ديكتاتورية البروليتاريا البراقة الخادعة بين جماعات من المزارعين كان عـدد الصعاليك بينهـا قليـلا نسبيا ، وكان القائمون بهذه الديكتاتورية فى الواقع من أفراد الحزب الشيوعى لا من أفراد الصعاليك أو البلوريتاريا ، وكان عدد أفـراد الحزب الشيوعى أنفسهم يعدون أقلية ، فقد

كان عددهم لا يتجاوز ما بين المليونين وثلاثة ملايين من عدد السكان البالغ مائتي مليون نسمة ، وحتى في داخل الحزب الشيوعي نفسه كان الفصل في المسائل الحيوية الهامة موقوفا على الأقلية ، ويقول الفوضويون ان نتيجة ذلك كله كانت ان الكلمة النهائية الحاسمة في أي امر من الأمور العظيمة الأهمية صارت رهنا بارادة رجل واحد ، وهذا الرجل هو ستالين ، كما ختمت الثورة الفرنسية بسيطرة نابليون واخذه أزمة السلطة جميعها في يده .

وهم يرون أن تاريخ الثورات جميعها يؤكد تلك النتيجة المحزنة التي ضمنها المؤرخ البريطاني اللورد أكتون Lord Acton قوله الحكيم « السلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة تفسد افسادا مطلقا » .

ويقول الفوضويون ان بناء مجتمع تسوده الحرية السياسية والاقتصادية لا يمكن ان يقوم به سوى أفراد تجمعهم ارادة عامة تلقائية ترمى الى تحقيق هذا الهدف باهتمام بالغ وحرص شديد ، أما الحكومات التي تأخذ على عاتقها القيام بهذه المهمة فانها سرعان ما تتحول الى قلب المجن للثورة التي احدثتها مهما ادعت الاخلاص لمبادىء الحرية والمساواة ، والسبب في ذلك أن وجود أية حكومة يستلزم ايجاد نوع من النظام ، واعداد وسائل حمايته والدفاع عنه على حساب العمل الفردي والمبادأة الفردية ، والحكومة في رأى الفوضويين بطبيعتها محافظة ، ونزاعة الى الكبت والطغيان .

ولكن اذا كان لا بد من نبذ الحكومة والخلاص من سلطة الدولة فماذا تكون طبيعة هذا التنظيم الاجتماعي الذي يمنح الفرد الحرية في العمل والتعبير عن نفسه ويضمن له مع ذلك الاستفادة المادية والعقلية من خلال التعاون مع الجماعة ؟

هذه المشكلة أدرك وجودها كثيرون من المفكرين الميالين الى المذهب الفردي في العصر الفيكتوري في انجلترا ، وفي طليعتهم الفيلسوف المفكر جون ستيوارت مل J. S. Mill فقد قال « انى أقدر أن المشكلة الاجتماعية في المستقبل هي كيف توفق في الجمع بين أكبر نصيب من حرية العمل الفردي وبين الامتلاك العام للمواد الخام في أنحاء الكرة الأرضية ، والحصول على انصبة متعادلة من فوائد العمل الذي اتحدت الجهود في القيام به » .

ويرى الفوضويون ان ستيوارت مل قد لمس العيوب اللاصقة بالحكم الديمقراطي والتمثيل النيابي ولكنه لم يتقدم كثيرا نحو ايجاد حل مناسب للمشكلة ، وكذلك شأن معظم الأحرار المتطرفين في العهد الفيكتوري الذين رأوا ضرورة توفير الحرية للفرد ، والحد من طغيان سلطة الدولة ، ولكنهم مع ذلك لم يتجاوزوا الوقوف عند هذه المرحلة ولم يشيروا باتخاذ اسلوب اجتماعي يكفل أكبر نصيب من الحرية للفرد ، وفي الوقت نفسه يثبت انه اقدر من النظام الراسمالي على اشباع الحاجات المادية ، ومن أمثلة هؤلاء المفكرين في رأى الفوضويين هربرت سبنسر الفيلسوف الانجليزي المعروف ، فقد قادته آراؤه المستمدة من ايمانه بمذهب النشوء والارتقاء الى الاعتقاد « بأن الانسانية تتقدم تقدما تدريجيا الى مجتمع تتناقص فيه سيطرة الدولة الى أدنى حد ممكن ، وتتزايد فيه حرية الفرد الى أقصى حد مستطاع » ، ولكنه لم يحاول توضيح طبيعة هذا المجتمع . وبرغم أنه لم يكن راضيا عما بلغته سيطرة الدولة في عصره ، فانه كان لا يزال متعلقا بفكرة وجود الحكومة ، فهو يقول « لا أكتفي بتقرير أن قوة الدولة المسيطرة والكابحة للأفراد والجماعات والطبقات لازمة بل أذهب الى القول بأنها عليها أن تمارس هذه السيطرة الكابحة بطريقة أكثر فعالية وأبعد أثرا مما نراه في العهد الحاضر » ، وحقيقة ان سبنسر كان يؤثر أن تعنى الدولة بممارسة الحكومة لوظائفها السلبية ، ولكن الواقع أن طبيعة الدولة ترغمها على أن تفرض على الفرد مطالب ايجابية ، مثل دعوته الى الخدمة

الحربيــة ، وما الى ذلــك مــن التكاليف ، ولا تستطيع الحكومة أن تفصل النواهى عن الالزامات .

وفى رأى الفوضويين أن الرد على المشكلة التى تبين وجودها المفكرون الحريون هو أن المجتمع يقوم على أســاس اقتصادى وظيفى لا على اساس سياسى ، فاذا قمنا بتوزيع انتاج البضائع العالمية بحيث تضمن لكل انســان ما يلزمه ويسد حاجته ويفى بمطالبه فاننــا نكــون قد اتجهنــا فى طــريق تسوية المشكلة الرئيسية ، ومتى ضمنا حرية الفرد ، وهيأنا له مجال العمل الملائم لاستعداده ، ويسرنا له الحصول على مطالبه المادية ، نستطيع بعد ذلك أن نترك للمجتمع الشكل الذى يؤثره،وسنكون على ثقة من انه لن يكون شكلا جامدا غير قابل للتعديل والتحسين والتجديد،واذا اتبعنا مبدأ « أن نعطى كل انسان حسب حاجته » فاننا نكون قد وصلنا الى منتصف الطريق الذى يفضى الى قبول مبدأ التعاون المتبادل والذى يقول « بالأخذ من كل انسان حسب قدرته » وعند الفوضويين ان الفلسـفة الاجتماعية الفذة القادرة على تحقيق ذلك هى الفوضوية .

طبيعة الفوضوية :

لست أحاول تقديم تعريف للفوضوية ، لانها مختلفة الالوان ومتعددة السمات ، ولذلــك سأكتفى ببيان بعض صفاتها وأهدافها ، وكثيرا ما يسبق الى الخواطر أن الفوضوية مبــدأ يدعــو الى الارهاب ، ويحث على الهــدم والتحطيم ، ويجند اشاعة الفوضى واحــداث الاضطرابات الضارة ، واثارة الحرب الدائمة بين أفراد المجتمع ، ولكن هذا كله مناف الى حد كبير لطبيعة الفوضوية ، واذا كان بعض دعاة المذهب الفوضوى قــد حبذوا الاجرام أو تورطوا فيه فان كل مذهب من المذاهب السياسية أو الدينية أو الاجتماعية لم يخل من بعض دعاة يؤثرون استعمال العنف للفت الأنظار الى مذهبهم ، وتأييد عقيدتهم .

وأول ما تدعو اليه الفوضوية هو ايجاد سبيل الحياة يكفل السلم بين الأفراد والتعاون فى خدمة المجتمع مع احتفاظ كل فرد بحريته كاملة ، على شريطة أن لا يضر ذلك بحريــة الآخرين ، وهى عند الفوضويين مطمح الرجل الذى يعمل على استكمال شخصيته وفســح المجــال لمواهبــه خلال الحريــة الاجتماعية والاقتصادية والعقلية ، وهى لون من ألــوان الفلسفة الاجتماعية يحفز اليه تطلعات الأفراد ، وما يجيش بنفوسهم من الآمال فى تحقيق الحرية الخالصة ، والقضاء على كل أسباب القهــر والارغام ، والقسر والالزام ، ومختلف صنوف الاستبداد والعنف والطغيان .

والفوضوية هى المبدأ الذى يخلص للحرية كل الاخلاص ، ويحرص عليها أشد الحرص ، ولذلك يضيق بكل وسائل التسلط وسيطرة الانسان على اخيه الانسان ، وينكرها أقــوى أنكار ، ويؤمن بكفاية الفعل الفردى ، وميــل الانسان الغريزى الى السلم والتعاون حينما تسير مشاعره سيرها الطبيعى ، ولا تتعرض للانحرافات التى تحدثها السلطة القاهــــرة والطغيان المردى .

والفوضوية من الناحية الاجتماعية هى المبدأ الذى يقول بوجود مجتمع ليس به حكومة ، وهى تعلن للنــاس أن معظم أســباب الظلم الاقتصادى والاجتماعى راجعــة الى وجــود الحكومة ، لان الحكومة مهما تكن الصورة التى تتخذها تخلق الامتيازات والتسلط الطبقى ، ومهما يكن تظاهرها بالديمقراطية فانها قائمة على ارغام الفرد ، وهذا الارغام قد يكون فى أحسن حالاته من أجل الأكثرية ، ولكنه فى اغلب الأوقات من أجل الأقلية الحاكمة ، وكل مجتمع يملك سيادة وسلطة يتخذ الحكومة اساسا له ، وهو لا يملك البقاء اذا لم يخلق طبقة حاكمة ، وسلما تتصاعد فيه درجــات التبعة مما يقضى على المساواة سواء فى الثروة أو المكانة أو التمكن من اغتنام الفرص ، ومتى وجدت الطبقة الحاكمة فانها تبدأ فى اغداق

الامتيازات على اعضائها ، ويمكنهم ذلك من تثبيت أقدامهم ، وتوطيد مكانتهم ، بحيث يصبح من الصعب زحزحتهم والتخلص من سلطتهم ، وقد يكون هؤلاء الحكام فى بادىء الأمر حسنى النية ، ولكن ضرورات المحافظة على النفوذ ترغمهم على عدم تحرى العدالة ، كما تغريهم الامتيازات التى يحصلون عليها بالامعان فى الفساد ، والأدلة التاريخية التى تؤيد ذلك كثيرة متواترة .

والديمقراطية فى رأى الفوضويين ليست قائمة على الحرية ، لأنها تعد ارادة الأغلبية القانون الأسمى ، وترى ان المجتمع لا بد له من حكومة ، وأن الفرد يجب عليه ان يخضع لأوامر هذه الحكومة سواء اراد ذلك أو لم يرده ، وهى من ثم تختلف عن الحكومة المستبدة فى الغاء حرية الفرد اختلافا فى الكم والدرجة لا فى النوع ، والفرد الذى تقوم فى طريق حريته القوانين التى تسنها الدولة لا يعنيه أكانت تلك القوانين مصدرها ارادة رجل واحد أو ارادة الملايين ، وما يعنيه هو أن وجود هذه القوانين يجور على حريته ويعترض سبيلها .

والفوضوى لا يتطلب الخير ويبغيه للأقلية ولا للأكثرية ، وانما يريده للجميع على السواء بلا أدنى تفريق أو تمييز ، وهو يعتقد أن المجتمع القائم على أسطورة الدولة لا يستطيع أن يتجنب استعباد الناس لا من اجل مصلحة الأكثرية بل من أجل مصلحة الأقلية التى تستمتع بالامتيازات ، وطالما وجهت الى الفوضويين تهمة انهم جماعة من الحالمين غير العمليين لانكارهم نظام الحكومة ، ولكنهم يدفعون هذه التهمة عن أنفسهم قائلين ان الأكثر استحقاقا بأن يرمى بهذه التهمة هم الذين لا يزالون يعتقدون أنه من الممكن أن تقوم حكومة لا تستغل المحكومين، ولا يلحق الفساد القائمين بها ، برغم أنف الشواهد التاريخية التى تنقض هذا الزعم، وتكشف بطلانه . والفساد من طبيعة الحكومة ، كما أن السم من خصائص الأفعى .

ويرى الفوضويون انه ليس هناك معدى عن ازالة نظم الحكم والدولة وكل وسائل الارغام الارادى ، وقد عني خصوم المذهب الفوضوى بابراز هذا الجانب الهدام فيه ، كما بالغوا فى تضخيمه والتحامل عليه، ولا يزال عند بعض الناس الاعتقاد بأن الفوضوى نزاع الى القاء المتفجرات ، واستعمال العنف والارهاب ، واغراق المجتمع فى سيل من الدماء ، وحقيقة أن الفوضيين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر بوجه خاص شهروا سلاح الارهاب ، والاغتيال باعتباره وسيلة لاحداث الثورة الاجتماعية ، وألقى بعضهم متفجرات ، ولكن الحكومات لم تتورع عن القيام بمثل هذه الأعمال الارهابية ، والفرق فى التبعة بين ما صنعه الفوضويون وما فعلته الحكومات هو أن القنابل التى القاها الفوضويون كانت جد قليلة وكانت موجهة الى هؤلاء الذين أسرفوا فى الاضطهاد ، وأمعنوا فى قتل الناس ، أما القنابل التى القتها الحكومات فى خلال الحرب فانها تعد بالملايين ، وقد قتلت الألوف من الرجال الأبرياء والنساء البريئات ، وقد أعرض الفوضويون عن ممارسة الارهاب حينما اهتدت الفوضوية السنديكالية « النقابية » الى اسلوب الثورة الجماعية الاقتصادية ، ويرى الفوضويون أن اى نظام سياسى أو حكومى لا يتفق مع العدالة والحرية ، وأن المجتمع البشرى يجب أن يقوم على التعاون الحر بين الأفراد من الرجال والنساء .

وهناك خطأ وقع فيه بعض الذين عرفوا الحركة الفوضوية معرفة سطحية ، وهو أن الفوضوية فردية متطرفة ولذلك لا تقبل اى تنظيم اجتماعى ، ومما ساعد على ترويج هذا الرأى أن بعض الفوضويين القليلين دعوا الى مذهب الفردية المتطرفة ، ويقتضى ذلك أن يعيش الانسان بمفرده مبتور الصلة باخوانه البشر ، ولا يعنى بغير نفسه وانماء شخصيته واسعادها .

ولكن الفوضوية باعتبارها حركة اجتماعية

كانت ترمى دائما الى ايجاد نوع من النظام ، ولكنها تشترط أن يكون هذا النظام حرا ونابعا من حاجات الانسان ، والفوضوية تدعو الى الحرية وتبشر بها ، ولكن ليس معنى ذلك أنها تدعو الى الانفصال عن المجتمع ، وهى ترى الجمع بين المجتمع والحرية ، وترى الحرية يجب أن تكون متبادلة ، فحرية كل فرد متوقفة كذلك على حرية الفرد الآخر ، ولذلك لا بد من اقتران الحرية بالعدالة ، لأنه بدون العدالة لا تكون هناك حرية صادقة حقيقية ، كما أنه بدون الحرية لا توجد عدالة حقيقية .

والتعاون فى النهوض بالأعمال يمكن من انجازها فى وقت أقصر،ولذلك يرى الفوضويون ان توزيع العمل توزيعا عادلا معقولا يكثر الانتاج ، ويتيح فرصة لأوقات الفراغ . التى تريح الانسان من مواصلة الكدح طوال اليوم ، والرجل المستقل بنفسه والذى يكتفى بالاعتماد عليها فى جلب الضروريات لحياته عليه أن يقضى يومه فى العمل المتصل ليعيش فى مستوى متواضع ، ولا يمكن الانسان أن يحصل على فوائد العمل المشترك والحياة العامة اذا لم ينظم وظائف الانتاج القائمون به .

وقد ادرك ضرورة التنظيم الاجتماعى زعماء الدعوة الفوضوية ، وفندوا فى مناسبات كثيرة مزاعم الفوضويين الفرديين الخالصين ، وقد قال باكونين سنة ١٨٧٢ فى المؤتمر الدولى للحركة الفوضوية « ان ردنا على من يزعم أن العمل المنظم اعتداء على حرية الجماعات أو أنه محاولة لخلق قوة تسلطية جديدة هو وصفه بأنه سفسطائي وأحمق ، وأردأ من ذلك حالا هؤلاء الذين يتجاهلون قانون التعاون الانسانى الطبيعى الى حد أن يتصوروا أن استغناء الأفراد أو الجماعات بعضها عن البعض من الأشياء الممكنة أو انه من الأشياء المرغوب فيها، والرغبة فى هذا الاستغناء معناها الرغبة فىهدم المجتمع ،لأن الحياة الاجتماعية جميعها ليست سوى اعتماد بعض الأفراد أو الجماعات على بعضها الآخر ، وهو اعتماد متبادل غير منقطع ، وجميع الأفراد حتى أقواهم وأعظمهم مواهب منتجون ، وفى الوقت نفسه هم نتائج، والحرية المتساوية لكل فرد ليست سوى نتيجة لهذه المجموعة من المؤثرات المادية والفعلية والأخلاقية التى يوجدها الأفراد فى المجتمع الذى يولد فيه الانسان وينمو ويقضى نحبه ، والرغبة فى الافلات من هذا التأثير باسم الحرية المتعالية أو الأنانية المطلقة المقدسة رغبة فى الابادة والهلاك ، والامتناع عن التأثير فى الغير معناه الامتناع عن كل عمل اجتماعى ، بل هو فى الحقيقة امتناع عن التعبير عن افكار الانسان وعواطفه حتى يصبح كأنه غير موجود ، وهذا الاستقلال الذى يعلى من شأنه المثاليون والميتافيزيقيون ، وتصور الحرية الشخصية بهذا المعنى معناه الغاء الذات وابادتها » .

وقد عبر باكونين فى هذه الفقرات عن موقف الفوضويين ، فهم يقبلون الحدود الضرورية للحرية التى يؤثرها الناس ، وانما الذى يرفضونه هو الحدود التى تفرضها كتلة من البشر بالقهر والارغام كما تفعل الدولة .

ويرى الفوضويون أن يقوم المجتمع على الأساس الادارى الذى تتطلبه طبيعة الأشياء بدلا من نظام الحكومة،وفى المستوى الاقتصادى وحده وانتاج البضائع اللازمة لاستهلاك الناس واعداد الخدمات الاجتماعية اللازمة بطريق التعاون بين الأفراد الذين ينتجون مستلزمات الحياة المتحضرة .

وفى المجتمع الذى تنهى فيه الملكية العامة الامتيازات وعدم المساواة الاجتماعية الاقتصادية تصبح وظيفة الدولة بنظمها المستحدثة وبيروقراطيتها وجيشها وشرطتها من الأشياء التى لا لزوم لها،وكل هذه الملحقات الحافة بالدولة الحديثة ليس المقصود بها حماية أفراد المجتمع من الرجال والنساء وانما المقصود بها فى رأى الفوضويين حماية الطبقة الحاكمة وما فى حيازتها من الممتلكات التى تمكنها من السيطرة والحكم .

والمجتمع الذى يخلو من الامتلاك الخاص وتتساوى فيه اقدار الناس ويجد فيه كل انسان ما يشبع حاجاته لن تكون فيه دوافع لاقتراف الجرائم الا بين المصابين بالامراض ، وهؤلاء لا يقدمون للمحاكم ، ولا يُلقَى بهم فى غياهب السجون ، واذا الغينا الملكية الخاصة تنتفى الحاجة الى سن القوانين ، والعادات وليست الاجراءات والتنظيمات هى مظاهر افكار الانسان عن العدالة . وفى المجتمع الحر تتكيف العادات بحيث تصبح مناسبة للأفكار التقدمية فى المجتمع ، وفى ظلال الفوضوية سيكون كل انسان حرا فى أن يعيش كما يشاء بعد أن ينجز عمله،ويؤدى وظيفته الاقتصادية، على شريطة ان لا يتدخل فى حياة الغير من اخوانه البشر ، والأحرار الذين يعيشون فى مجتمع على هذا النمط يمكن الاعتماد عليهم فى المحافظة على السلم دون حاجة الى الاستعانة بالشرطة أو النواب .

وقد وجدت الافكار الفوضوية تعبيرا عنها واضحا جليا فى الفوضوية السنديكالية . والفوضوية السنديكالية تعمل على اعداد وسائل الثورة ، وتنظيم المجتمع الحر الذى تتمخض عنه الثورة ، وهي تدعو الى تنظيم العمال فى النظام الراسمالي فى تنظيمات اقتصادية نقابية تختلف عن الاتحادات التجارية فى أن القائمين بها جميعهم من العمال انفسهم ، وليس هدفهم أن يظفروا ببعض الاصلاحات فى ظل النظام الرأسمالي ، وانما غرضهم انجاز الثورة الاجتماعية بالطرق الاقتصادية، واساس الأسلوب الثورى عند الفوضويين السنديكاليين هو الاضراب العام ، والامتناع عن التعاون الاقتصادى ، وجمع صفوف العمال وتوحيدها فى القيام بهذه المعركة الاقتصادية ، وبعد الثورة تكون السنديكالية هي أساس وحدات النظام الاقتصادى ، وكل وحدة من هذه الوحدات تؤدى وظيفتها فى التعاون الاقتصادى العام الشامل ، ويمكن هذا النظام المجتمع من الحصول على حاجاته ، ويحل محل النظام القائم على السلطة والقهر والارغام .

وليست الفوضوية نظاما شيمته الجمود وعدم التطور والاستقصاء على التغيير ، وانما هي فلسفة ديناميكية تعترف بأهمية التطور فى المجتمع البشرى ، وتعرف خطأ اقامة نظام المجتمع على اسس غير قابلة للتقدم والتطوير ، ولذلك يرفض الفوضويون فكرة انالثورة يمكن أن تخطط وتتم عن طريق استيلاء حزب منظم على زمام السلطة ، وهم يرون ان الثورة تنبعث بحركة تلقائية يقوم بها الناس ضد حكامهم ، وان الدور الذى تلعبه الارادة الثورية فى المعركة الناتجة عن الثورة هو المحافظة فى عقول الناس على طبيعة الغاية التي يجاهدون من أجل تحقيقها، والقائمونبالثورة قد يبشرون بالحرية ويدعون اليها ، ولكن على الناس ان يحصلوا لأنفسهم على الحرية .

ولذلك يرى الفوضويون ان السنديكالية قد تكون وسيلة عملية لتنظيم المجتمع بعد قيام الثورة ، ولكنها ربما تكون وافية بكل الأهداف المطلوب تحقيقها ، ومتى تم تحرير الناس من ضغوط النظام الاجتماعي والاقتصادي فان تطور النظم الانسانية قد يتخذ صورا لا يمكننا أن ندركها ، ولذلك يرى الفوضويون أن ما يقدمونه من المقترحات وما يعدونه من الخطط للمستقبل وبعد حدوث الثورة لا يمكن اعتباره شيئا مفروضا منه وانما هو مجرد أساس لتطور اجتماعي ابعد مدى .

والفوضوى لا يتصور مجتمعا خاليا من النقص والعيوب ، وانما يحرص على ان يقيم مجتمعا على أسس الحرية والعدالة ، وهو يرى أنمثل هذا المجتمع خليق بأنيغزر فيه الانتاج، وتكثر الكفايات العملية، وتسمو القيمالأخلاقية والروحية ، ويجد الانسان فيه الحياة عذبة المناهل ، دانية القطوف ، سهلة ميسرة ، وقد تبدو الفوضوية لهؤلاء الذين ملأ فساد المجتمع الحديث نفوسهم يأسا ونقمة كأنها تبشر بجنة من صنع الخيال ، وتلفيق الأوهام، ولكن الأمل فى امكان تحقيق العالم الفوضوى المثالي قائم على الايمان بأن التطلع الى الحرية والعدالة والسلام جوانب أساسية فىالطبيعة الانسانية .

رواد الفوضوية

الاعتقاد الكامن في أساس المذهب الفوضوى هو الظن الحسن بالطبيعة البشرية ، ورغبة الناس الصادقة في الحرية وكراهية السيطرة ، وتبدو سمات هذه المزايا والصفات في الانسان خلال عصور التاريخ المتعاقبة ، ولكن اذا قصدنا بالفوضوية مذهبا محدد المعالم الى حد ما ، ويتميز باتجاه اجتماعي خاص وتوجيه اقتصادى معين فاننا نضطر الى حصر نطاق الموضوع ، وفي العالم القديم ظهرت بعض المذاهب الفلسفية الأخلاقية القريبة من الاتجاه الفوضوى ، من قبيل ذلك الفلسفة الرواقية التي كانت تبشر بضرورة الحرية الفردية ، وتنتقص الحرص على السيطرة ،وتزهد الناس في المشاركة في الأعمال السياسية ، فكان ابيكتينوس ــ أحد ممثلي هذه الفلسفة ــ ينصح الناس بأن لا يكونوا قادة في الجيش ، ولا أعضاء في السناتو ،ولا من القناصلة، ويوصيهم بالحرص على الحرية ،ولكن الحرية في رأى الرواقيين كانت الحرية الداخلية الخاصة. وكان الرواقيون يعتقدون أن الانسان يمكن أن يظفر بهذه الحرية الداخلية في المجتمع غير الحر اذا ازدرى السيطرة ، ونبذ المطامع الدنيوية ، ولذلك لم يحضوا الفرد على العمل لتغيير نظام المجتمع ، لأن حرية كل انسان أمر يعنيه ، وكانت فلسفتهم شبيهة بالنزعات الصوفية التي ترمي الى أن يصلح الانسان نفسه ، ويطلقها من اسار المطامع والشهوات والأهواء قبل أن يعمل على اصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجه .

وقد ظهرت في الصين القديمة مدرسة من الأساتذة الحكماء ترى أن الظروف الخارجية تمنع الانسان من انماء فضائله واظهار مزاياه الأخلاقية ، وانه لابد من ازالة العقبات القائمة في طريق انماء الفضائل واظهار المزايا الشخصية ، وكانت التاوية Taôîsme من العقائد الدينية الاجتماعية التي ترى اقامة مجتمع بدون حكومة ، وهي لذلك يمكن اعتبارها أول مذهب فوضوى النزعة في التاريخ .

والمعروف عن لاوتزي Lao Tsu موجد هذا المذهب جد قليل ، ويقال انه ولد في سنة ٦٠٤ قبل الميلاد في مقاطعة تشي Tchu واختير أمينا للمكتبة الملكية في كاو Kao وكان مثل سقراط تعرف تعاليمه من خلال أحاديثه وكان الكثيرون من طالبي المعرفة يستمعون الى محادثاته ويتلقون الحكمة من محاضراته ، ولما علت سنه اعتزل العمل في المكتبة الملكية ، وقصد جبال لنج بو Ling Po يلتمس فيها ملاذا يأوى اليه، ويقضي أوقاته في التأمل والتفكير ، واجتمع حوله في هذا الملاذ جماعة من المريدين ، وتلبية لطلبهم كتب لهم كتابا ضمنه آراءه ، ولما انتهى من تأليف هذا الكتاب ترك تلامذته ، وتوغل وحيدا في أعماق الجبال ، ولم يعد من هذه الرحلة .

وقد اوضح لاوتزي جانبا من تعاليمه في كتابه ، ولكن بعد مضي سنوات كتب تعاليمه شوانج تزى Chuang-Tze كما سجل أفلاطون آراء سقراط في محاوراته واصبح كتابه المرجع الأساسي للعقيدة التاوية ، وقد كان لهذه العقيدة تأثير عميق في التفكير الصيني ، وفي موقف الصينيين من الحياة .

وقد ذهب لاوتزي الى أن الفضيلة كامنة في الانسان ، وقال بضرورة ازالة العقبات التي تعترض التعبير عن هذه الفضيلة ، وكان يعتقد أن الميل الى الخير ينبع من أعماق الانسان ، ولا يمكن أن تلزمه بفعل الخير القوى الخارجية، ولذلك قال بضرورة توفير الحرية للانسان ليظهر في أفعاله ما تنطوى عليه نفسه من حب الخير ، ولتنضج شخصيته ، وأكثر من النهي عن التدخل في حياة الناس .

وكانت تعاليم لاوتزي من الناحية العملية والتطبيق الاجتماعي تعارض فرض التسلط على الانسان وتنهى عنه ، ولذلك كان لاوتزي يعارض رأى كونفوشيوس الذى كان يرى أن اصلاح الانسان يأتي من الخارج ، ويفرض عليه فرضا ، ومن مأثور كلماته قوله « ان الحديث عن عمل البر والقيام بالواجب لجيران الانسان

يكاد يخرجني عن الصواب ، فاعمل يا سيدى على أن تظل الدنيا محتفظة ببساطتها الأصلية ، وكما تهب الريح حيث تريد كذلك دع الفضيلة تسير سيرها وتشق مجراها » .

وكان كونفوشيوس ينصح الحكام بأن يتبعوا الحكمة فى حكمهم ، ولكن لاوتزي كان لا يرى الخطأ فى اسلوب الحكم ، وانما يجده فى الحكومة ذاتها ، ولذلك كان يعلم تلامذته أنهم ينجحون اذا اعرضوا عن الحكم اعراضا تاما ، أو بلفظ آخر اذا امسكوا عن ان يكونوا حاكمين ، ومن أقواله فى هذا الصدد « حينما تصدر أعمال الناس عن قوانين المنع والتحريم المفروضة عليهم فان البلاد يَخِبُ بها الخراب شيئا فشيئا ويدبُ فيها الفساد ، وحينما يسمح للناس بحرية استعمال السلاح فان الحكومة تصبح محفوفة بالأخطار ، وكلما صار الناس اكثر مكرا وأنشط فى ابتكار الحيل كثر استعمال الأشياء المصطنعة ، وحينما تقدّر هذه الفنون الماكرة وتعم ينتعش حال الأشقياء ويزدهر ، ولذلك يقول الرجل الحكيم (انى لا أضع نظاما ولا أرسم خطة) والناس ستسير على النهج الذى يلائمها ويرضيها وسألتزم الهدوء والناس ستجد الراحة والطمأنينة ، وسأعرض عن الطموح ، والناس ستعود الى البساطة الطبيعية » .

وهكذا يزهد لاوتزي الناس فى طلب الأشياء الدنيوية ، والتماس القوة والسيطرة ، ويوصي بهذه القواعد الثلاث ، الانتاج بدون امتلاك ، والعمل بغير تأكيد للذات ، والتقدم دون الركون الى السيطرة ، وهو بذلك يبشر بنوع من الأخلاق الاجتماعية والشخصية تعين على انماء الشخصية للفرد ، ولا تفترق فى جوهرها عن فلسفة الفوضوية .

ولم تكن التاوية من المذاهب الأكاديمية التي توجد فى فراغ اجتماعي ، بل كانت على نقيض ذلك نابعة من صميم المبادىء العامة الشائعة التي وجدت دائما فى المجتمع الصيني ، وعملت فى دورها على تقوية تلك المبادىء وشد أزرها وبيان مزاياها ، وصاغتها صياغة فلسفية جعلتها تؤثر تأثيرا بالغا فى الحياة الصينية باعتبارها عقيدة الدين لا يملكون شيئا ، وستكون من المؤثرات الأولى الأساسية فى توطيد المجتمع الحر حينما يصل الى الصين .

جيرارد ونستانلي Gèrard Winstanley

ولد سنة ١٦٠٩ وسنة وفاته غير معروفة .

حينما انتصرت البورجوازية الانجليزية على الاوتقراطية الملكية فى الحرب الداخلية التي ثارت فى انجلترا خلال القرن السابع عشر فان هذه البورجوازية كانت تعد حكومة طغيان تختلف فى الدرجة فحسب عن الحكومة التي تغلبت عليها يقوم بها القسم المتغلب من فريق البورجوازية المنتصر ، وكان القسمان المتنافسان فى جماعة البورجوازية هم أتباع الكنيسة المسيحية Presbyterians وقسم المستقلين ، وكانت الفروق السياسية بين هاتين الشعبتين قليلة سطحية ، وكان الفريقان يريدان اقامة حكم بورجوازى لا يعبأ بصغار البورجوازيين والعاملين لقاء أجور ، وكانت الحرية التي ينشدها الفريقان حرية الاستغلال مثل طلب حرية التجارة فى القرن التاسع عشر .

وقبل ان تضع الحرب أوزارها أدرك الشعب انه خدع ، ففي سنة ١٦٤٣ اضطر مجلس النواب الانجليزى الى أن يقترع للخدمة العسكرية لقلة عدد المتطوعين ، ومنذ ابتداء الحرب حدث شغب بين المزارعين ، وفى سنة ١٦٤٥ ظهرت بوادر النقمة على الاتجاه السائد فى حركة طلاب المساواة Levellers داخل صفوف الجيش وخارج صفوفه ، وهددت هذه الحركة جيش كرومويل بضع سنوات حتى استطاع هزيمة الفرق الناقمة .

ولكن طلاب المساواة كانوا من صغار البورجوازيين ولم يكونوا من طبقة البروليتاريا ، وذلك برغم انهم كانوا شديدى الاهتمام بالفقراء ، ولكنهم كانوا من المدافعين عن الملكية فى الوقت

نفسه ، وعارضوا فكرة الامتلاك العام ، كما رأوا ابعاد العمال الذين يتقاضون الأجور عن التصويت العام .

وكانت حركة طبقة البروليتاريا – وهي الطبقة الفقيرة – مصطبغة بالصبغة الدينية والنزعة الصوفية ، وصارت هذه الطبقة ترى ان الفقر نفسه من المؤهلات للوصول الى الملكوت السماوى ، ومن بين دعاة هذه الحركة ظهرت اكثر حركات العصر تقدما من الناحية الاجتماعية وهي حركة جيرارد ونستانلي والحراثين Diggers .

وكان ونستانلي من صغار تجار المدن ، وقد اخفق فى عمله فى اثناء الأزمة الاقتصادية ، واضطر الى الذهاب الى ضاحية كوبهام Cobham وظهر فى سنة ١٦٤٨ مؤلفا لرسالتين لاهوتيتين لا يختلفان كثيرا عن الرسائل التي غلبت عليها النزعة الصوفية ، وكانت شائعة فى ذلك العصر .

ولقيت أفكار ونستانلي قبولا ، وتطورت تطورا سريعا ، ففي النصف الثاني من سنة ١٦٤٨ ظهرت له رسالتان أخريان كشفتا عن انتقاله الى مرحلة اخرى من مراحل التفكير تنم عن أنه اصبح يؤمن بالآه على نمط آله عقيدة وحدة الوجود ، وكان هذا الاله فى رأيه هو العقل ، وهذا الاله أو العقل الخالص يربط المخلوقات بعضها ببعض برابطة الحب ، ومساعدة بعضهم البعض ، وأن هذا التعاون هو قوام الوجود ، وقد استخلص من ذلك ان العقل هو الذى يجب ان يسيطر على العلاقات المتبادلة بين الناس ، وأن العقل يوصي بأن يكسوه اذا عرى، لأنه ان كان اليوم طاعما كاسيا فقد يصبح فى الغد فى حاجة الى من يطعمه ويكسوه .

وفى أشهر قلائل تبلورت أفكار ونستانلي واتخذت صورة شريعة اجتماعية ، وفى مارس سنة ١٦٤٩ ظهر كتابه « قانون البر الجديد » واظهر فيه فهما صادقا للمشكلات الاجتماعية لم يصل الى مثله مفكر اجتماعي انجليزي قبل جودوين Godwin وقد ادرك الفساد الموجود فى نظام الحكومة ، ومن اقواله فى ذلك « كل من يصل الى يديه زمام السلطة يستبد بالآخرين » وذكر أن عدم المساواة الاقتصادية هي العقبة الكؤود فى سبيل الحرية والسلم ، وأنه ما دام هناك قوم يدعون ملكية الأرض فان عامة الشعب لن تظفر بحريتها ، كما لا تخلو الأرض من المتاعب ، والاضطهادات والشكاوى، ولعن الملكية الخاصة ، وقال انها العبء الذى ترزح تحته الخليقة ، وان القمين باصلاح هذه الأحوال هم الفقراء ، فهم الذين ينفذون قانون البر ، وعليهم أن يستولوا على الأرض فهي مصدر الثروة ، ولم يحبذ الاستيلاء بالقوة على الضياع ، وانما اشار على الفقراء بأن يستقروا فى الأراضي البور ، ويتعاونوا على استصلاحها، ويضربوا للناس مثلا فى التعاون المنتج يعلمهم فائدة التعاون ، وفى أول يوم من ابريل سنة ١٦٤٩ قام ونستانلي وأتباعه بحرث الأراضي الجرداء القريبة من والتون الواقعة على نهر التايمز ، وانضم اليهم كثير من الرفاق ، واشتركوا معهم فى حرث الأرض وزراعتها وقد جر عليهم القيام بهذا العمل عداوة جيرانهم فى تلك المنطقة ، لأنهم رأوا أن افكار جماعة الحراثين تهدد مصلحتهم تهديدا مباشرا ، ولم تمض أيام قليلة حتى هاجمهم جمع من الغوغاء، وحرقوا اكواخهم ، وحطموا آلاتهم ، واعتقلوا عددا منهم فى كنيسة والتون ، ولم يكفوا عن الحاق الأذى بهم ، وظل الحراثون يعاودون العمل سنة كاملة فى الفينة بعد الفينة محتملين الأذى والاضطهاد ، وفى مارس سنة ١٦٥٠ تم اجلاؤهم عن المنطقة التي احتلوها ، فلاذوا بأحد المروج الصغيرة القريبة ، ولكن اعداءهم لم يتركوهم ، ففي شهر ابريل قاد احد القساوسة جماعة من الغوغاء وأبعدوهم للمرة الأخيرة ، وقضى بذلك على حركة الحراثين . ولكن افكارهم الاجتماعية ذاعت خلال هذا الصراع ، كما أنهم أثروا الأدب الفوضوى بما خلفوا من آثار ادبية وقد ادرك الحراثون قبل سائر المفكرين الذين سبقوا عهد جودوين

الأساس الاقتصادى للمشكلات الاجتماعية ، وضرورة علاج هذه المشكلات من الناحية الاقتصادية بوجه خاص ، ولذلك كانوا يصرون على أن الأرض تكون ملكا للجميع ، وقد انتزع الغزاة الأرض من عامة الشعب ، والاصلاح الصحيح يقتضي أن ترد هذه الأرض للجميع بعد هذا الاغتصاب الذى طال أمده ، وتفاقم ضرره ، وكانوا يعتقدون أن سبب النقائص والعيوب الأخلاقية مثل الكبرياء والرياء والحسد والجبن والبخل والشح مصدرها جميعا العبودية التي يفرضها فريق من الناس على الفريق الآخر، وعرفوا أن السبب الحقيقي لاثارة الحرب اقتصادى قبل كل شيء ، وليس سببا روحيا ، وأن حب الامتلاك ، والحرص على المنافع والرغبة فى الاحتفاظ بالسيطرة والنفوذ ، هي سبب القطيعة بين الناس ،وباعث الحرب واراقة الدماء فى كل مكان ، كما ادركوا الدور الذى تقوم به الدولة بوصفها حامية الملاك واصحاب المصالح وذوى النفوذ ، وان سبيل القضاء على القهر والارغام هو الغاء الملكية ، وأن ذلك هو الطريق الوحيد الى الحرية ، ونرى من خلال ذلك أن جماعة الحراثين وعلى راسهم ونستانلي قد سبقوا الى الكثير من الافكار التي أعلنها كروبتكين فى كتابه عن « التعاون المتبادل » وبعض آراء باكونين وغيرهما من زعماء المذهب الفوضوى وكبار مفكريه .

وليام جودين (١٧٥٦ ــ ١٨٣٦)

لم تجد بذور المذهب الفوضوى ثرى خصبا فى بريطانيا ، وقد نظر الانجليز الى الفوضوية باعتبارها مذهبا نشأ فى روسيا وبعض البلاد اللاتينية ، وقد اختفت آراء ونستانلي فى انجلترا بعد القضاء على حركة الحراثين على وجه التقريب ، واذا كانت قد بقيت لها آثار فان هذه الآثار كانت ضعيفة الى حد كبير ، وقد ظهر بعد انقضاء قرن ونصف على تلك الحركة المفكر البريطاني وليام جودوين ، وكان فى الأصل قسيسا ثم خرج على الكنيسة وخلع الثوب الكهنوتي ، وصار من قادة الفكر فى انجلترا فى أثناء الثورة الصناعية والتجديد الرومانتيكي فى الأدب ، وكان له تأثير الى حد ما فى ممثلي الحركة الرومانتيكية فى انجلترا مثل الشاعر شيلي ووردزورث وكولردج ، والناقدين دى كونسي وهازلت ، وقد كانت آراؤه من البواعث التى حثت مالتوس Malthus على أن يرد عليه برسالته المشهورة عن « السكان » وقد شاءت الأقدار أن تكون هذه الرسالة أبعد شهرة من الكتاب الذى ألفت هذه الرسالة للرد عليه .

وقد كتب جودوين كتبا كثيرة وألف روايات، ولكن الكتاب الذى شرح فيه آراءه فى الاجتماع وكان له تأثيره فى التفكير الفوضوى هو كتابه عن « العدالة السياسية » الذى ظهر فى سنة ١٧٩٣ وقد دل بهذا الكتاب على سعة اطلاعه ، وقوة حجته ، ولا يزال هذا الكتاب مرجعا هاما من مراجع التفكير الفلسفي الفوضوى .

ويرفض جودوين فكرة وجود حكومة مهما تكن صورة هذه الحكومة ، لأن وجود حكومة يقترن فى رايه بوجود الاستبداد والطغيان سواء كانت هذه الحكومة ملكية أو جمهورية لأن وجود الحكومة فى حد ذاته هو المصدر الرئيسي للشر ، والفرق بين البلاد المحكومة حكما استبداديا والبلاد المحكومة حكما جمهوريا هو أن العقل تثقله القيود حينما يسود الحكم المستبد ، أما فى ظل الحكم الجمهورى فان العقل يحتفظ بنصيب من النشاط ويكون الضغط عليه ومصادرة حريته تابعا لتقلب الأحوال ، ونظم الحكم بطبيعتها فى رأى جودوين ميالة الى تجريد العقل من مرونته ، واقامة الحوائل فى طريق تقدمه ، وقد رفض جودوين فكرة أن الحكومة قائمة على العقد الاجتماعي التى قال بها روسو ، وهو يقول فى ذلك « لا نستطيع أن نتنازل عن استقلالنا الأخلاقي انه عقار لا نستطيع بيعه أو التفريط فيه ، ونتيجة لذلك لا تستطيع اية حكومة ان تستمد سلطتها من تعاقد أصيل » وهو يعزو اخطاء

المجتمع الى قهر الأفراد ، وهذا القهر لا يمكن فصله عن الدولة ، وفى كل انسان رغبة أساسية للحرية والسلم ، واذا أزيلت السلطة فان هذه الرغبة تثبت وجودها ، وغريزة الميل الى السلم والحرية عميقة الجـذور فى نفس الانسان ، ولذلك اذا ترك الانسان دون أن يكثر التدخل فى شئونه فانه يوجد البيئة الصالحة ، ويخلق لأولاده الأحوال الحسنة ، وسيطرة الغير على الانسان تدفع الى الثورة والعصيان ، والثورة فى دوَرها تسوق الى القهر والارغام ، وهـذا القسر المؤلم يبعث الأسى فى النفوس ، ويكدر الخواطر ، ويتبع ذلك الصدمات والجـروح والاصابات ، ويقول جودوين « علينا أن ننظر عند وضع الخطط لتحسين المجتمع الى الرجل السليم غير المقيد لا الى ذلك المقعد الكسـيح الذى شوهه التدخل وأرهقته القيود » .

وقد وجه أشد سهام نقده الى الملكية ، على خلاف المفكرين الأحرار المعاصرين له ، وهـو يقول فى نقدها « مهما تكن الشرور التى تأتي من الحكومات الملكية أو من الحاكم أو من دجل القساوسة أو من ظلم القوانين الجنائية فان هؤلاء جميعا يعدون من العجزة وضعاف العقول اذا قورنوا بالشرور الناشئة عن توطيد نظام الملكيـة » .

« والملكية المتراكمة تطأ القوى الفكرية فى التراب، وتطفىء شرر العبقرية، وتغرق الجموع الغفيرة من الناس فى هموم حقيرة » .

والتوزيع الوحيد العادل للملكية فى رأى جودوين هو الذى يكفل لكل انسان ما يكفي حاجاته ولا يمكن انسانا من أن يكون لاهيا فى بحبوحة من العيش وغيره يكدح ويعاني الفقر والمسغبة ، واذا كان للعدالة أى معنى فانها لا تسمح لانسان بامتلاك ما يزيد عن حاجاته فى حين أن كائنا بشريا لا يجد ما يكفيه من تلك الحاجات الزائدة ، بل ان العدالة لا تقف عند هذا الحد ، فما دام هناك من المدخرات ما يكفي فانه ليس من حق كل انسان أن يجد ما يكفيه فحسب بل من حقه كذلك أن يجد ما يسمح له أن يعيش فى رغد ، ومن الظلم أن يحـرم انسان من أوقات الفراغ التى تمكنه من أن يثقف قواه العقلية فى حين أن غيره لا يسهم بأى جهد ليضيف الى الرصيد العام ، ومواهب كل انسان مثل مواهب غيره من الناس ،ولذلك تقضي العدالة بأن يسهم كل انسان فى زراعة المحصول العام الذى يستهلك كل انسـان نصيبه منه .

وكان جودوين يرى أن يحل النظام الفيدرالي محل الحكومة السياسية « تلك الآلة الوحشية التى كانت العلة الدائمـة لمسـاوىء البشر » ويتكون هذا النظام الفيدرالي من جماعات تقوم بتنظيم نفسها تنظيما تلقائيا خالصا لا أثر فيه للضغط أو الارغام ، وترتب فيه الوظـائف الاجتماعية اللازمة، وعنده أن هذه الثورة يمكن أن تتم فى سلام عن طريق التربية والتعليـم والقدوة الحسنة .

وقد كان لكتـاب جـودوين عن العدالـة السياسية صـدى وتأثير فى مفكرى عصره ، وحينما عرض على وليام بست وهـو رئيس للوزارة البريطانية حين ظهور الكتاب أن يأمر بمصادرته قال ساخرا انه لا يصادر كتابا تباع النسخة منه بثلاثة جنيهات، ولكن الكتاب برغم ارتفاع ثمنه صادف اقبالا ورواجا ، وكون كثيرا من العمال من أنفسهم جماعات للحصول على نسخ منه ، ولا نزاع فى أن حركة التحرير التى قام بها بعد ذلك روبرت أوين ونشوء الاتحادات التجارية كانا الى حد كبير من تأثير أفكـار جودوين ، وترجع الحركة المناوئـة لفكـرة التسلط فى النهضة العمالية الى ما بثه جودوين من الخواطر المعادية للتسلط .

بيير جان برودون (١٨٠٩ ــ ١٨٦٥)

Pierre-Joseph Proudhon

كان برودون طباعا فرنسيا ، وقد صـار زعيما لحركة العمال الفرنسية بضع سنوات ،

وكانت أفكاره فى السنوات السابقة للكومون Commune شديدة التأثير فى العمال الفرنسيين الأحرار، واشترك برودون فى النشاط السياسى حينا قصيرا من الزمن عندما كان عضوا فى الجمعية الوطنية بعد ثورة سنة ١٨٤٨ ولكن صار فى الجزء الباقي من حياته بعد ذلك معارضا للأساليب السياسية والمجتمع السياسي ، وقد سجن مرتين لخروجه على قوانين الصحافة الفرنسية وقد عارض برودون الاحتكار الاقتصادى وانتقد تركيز السلطة فى يد الدولة، وفى سنة ١٨٤٠ الف كتابا عنوانه « ما هي الملكية ؟ » وجاوب على ذلك بأن الملكية سرقة ، وقد عدل رأيه بعد ذلك ، ورفض الملكية حينما تكون نتيجة للاستغلال ، ورأى ان المنتج من حقه أن يملك وسائل الانتاج ويستمتع بقيمة انتاجه ، وأن يكون أساس تقدير القيمة قائما على تقدير الوقت الذى قضى فى صنع الانتاج ، وسلم بأن يكون رأس المال فى صورة وسائل الانتاج على شريطة أن لا يتضمن ذلك استغلال الغير ، وفى المجتمع الذى تمثله برودون يكون الرأسماليون هم الرجال أو الجماعات من الرجال الذين يعملون بأدواتهم وآلاتهم ويتلقون لقاء ذلك فائدة تعادل ما بذلوا من جهد ، وباتباع هذه الطريقة لا يكون هناك سبيل للمستأجر الذى يملك الآلات ويعيش منها ويستخدم الغير فى العمل بها ، ويعطيهم فى مقابل ذلك أجرا أقل بكثير مما يستحقه العمل الذى يقومون به ، ويحصل بذلك على فائض ضخم يمكنه من أن يعيش دون أن يؤدى أى عمل ، وفى المجتمع الذى تمثله برودون ينال الانسان نصيبه من الطعام بقدر العمل الذى يقوم به .

ويرفض برودون الحكومة والسلطة، ويراهما مناقضين للعدالة ، ويقترح أن يحل محلهما مجموعة من العقود بين الرجال الأحرار ، وهو يؤيد ذلك بقوله « لكي أظل حرا ولا أعرض للخضوع لقانون غير القانون الذى اضعه لنفسي ، ولكي أكون المسيطر على نفسي فان المجتمع يجب أن يعاد بناؤه على أساس فكرة التعاقد » .

ونشوء الصناعة الحديثة جعل التنظيم الاقتصادى القائم على الأفراد والجماعات الصغيرة التى تملك وسائل الانتاج غير ملائم ، ولذلك تغلبت فكرة باكونين تلميذ برودون التى ترمى الى تأييد الملكية العامة .

ويرفض برودون وجود الدولة وكل الوان السياسة وصورها ، ولا يستثنى أى حزب من الأحزاب لان الاحزاب جميعها فى رأيه تطلب السيطرة ، وهي لذلك أنواع من الحكم المطلق ، ولا يستطيع المواطن أن ينال حريته ، أو تجد المجتمعات النظام ، او يظفر العمل بالاتحاد ، الا اذا حل نبذ السلطة محل الايمان بها ، ويقول برودون ان عقيدته السياسية وايمانه الاجتماعي هما عدم وجود الاحزاب وعدم وجود السلطة ، والحرية المطلقة .

ولم يكن برودون مفكرا لامعاً مثل جودوين ، ولكنه كان فى طليعة الفوضويين الذين ظهروا فى القارة الأوروبية ، وقد أثر فى تفكير العمال الفرنسيين بوجه خاص ، وفى الحركة الفوضوية بوجه عام ، وكان باكونين ممن تأثروا بتفكير برودون وشخصيته .

ميشيل باكونين (١٨١٤ ــ ١٨٧٦)

لا يمكن أن نعزو نمو التفكير الحر فى القرن التاسع عشر الى رجل واحد ، وقد كان لجودوين وبرودون وغيرهما ممن هم اقل منهما شهرة أهميتهم ومكانتهم ، ولكن ظهور ميشيل باكونين كان من اقوى العوامل فى نشر دعوة المذهب الفوضوى ، واظهار مكانته باعتباره مذهبا اجتماعيا ثوريا له أتباع وانصار فى كثير من الدول الأوروبية ، وقد انتقل بعض أنصار المذهب الى الولايات المتحدة الأمريكية وعملوا على الدعاية للمذهب بها فى مختلف أرجائها .

وميشيل باكونين روسي الأصل ، وقد ولد فى أسرة من الأسر الارستقراطية الروسية فى عهد القيصر الاسكندر الأول ، وهو يعد بحق امام الفوضوية الحديثة الذى قاد حركتها

واوقد شعلتها ، ولم يكن باكونين ندأ لماركس فى سعة الاطلاع ، وغزارة المعلومات ، والقدرة على تنظيم الأفكار وتحديدها . واجادة التأليف واستيفاء بحث النظريات والتعاليم ، وربما كان اقدر زعماء الفوضوية فى هذا المجال هو الأمير كروبيكين .

وقد ولد ميشيل باكونين فىسنة ١٨١٤ وكان والده من رجال السلك السياسي ، وكان والده حين مولده قد اعتزل الخدمة ، واقام فى ضيعة له فى ناحية تفر Tver ، وقد أراد أن يهيىء لابنه حياة وطنية محترمة فى الجيش القيصرى ، ولكن الفتى الناشىء باكونين كان ثائرا مطبوعا ، وقد حمل علم الثورة أول ما حمل فى داخل منزل اسرته ، وتحدى سلطة أبيه ، وكانت حياته العائلية الباكرة حافلة بالأحداث الثورية ، وكان يحرض اخواته على الثورة وشق عصا الطاعة ، ولم يكن أبوه من الآباء الطغاة المستبدين ، وانما كان رجلا ذكي الفؤاد مستنيرا سهلا متسامحا مع أولاده ، وقد استهدف مع ذلك كله لحملات هذا الابن المتمرد .

وقد الحق باكونين بمدرسة المدفعية فى بطرسبرج ، واقبل على دروسه الحربية بصبر وجلد ، وبرغم حصوله على وظيفة فى المدفعية فانه ترك خدمة القيصر عند أول فرصة لاحت له ، وعقد العزم على أن يفرغ للدراسات الاكاديمية ، واقبل على دراسة الفلسفة ، واعجب بفلسفة هيجل وكانت حينذاك هي الفلسفة السائدة فى الأندية الفكرية والبيئات المثقفة ، وسرعان ما ضاق بالمجتمع الروسي ، وفى سنة ١٨٤٠ ترك روسيا وهو فى السادسة بعد العشرين ليدرس الفلسفة الهيجلية فى بيئتها الألمانية ، وقد غادر روسيا وهو من رعايا القيصر المخلصين ، ولكنه لم يلبث أن وقع تحت تأثير الشبان الهيجليين ، ومال الى آرائهم الثورية ، ودرس الحركات الاشتراكية والشيوعية التي ازدهرت فى فرنسا ، ونشر مقالا فى المجلة التي كان يصدرها أرنولد ريج ، أحد أتباع هيجل البارزين ، وذلك فى سنة ١٨٤٢ ، وكان عنوان المقال «رد الفعل فى المانيا» وقد وردت فى هذا المقال كلمته المشهورة وهي « أن الرغبة فى الهدم هي كذلك رغبة خلاقة » ، وقد استغل هذه الكلمة الكثيرون من خصوم الفوضوية ، وصوروا باكونين فى صورة الوحش الضارى الذى يريد العنف قبل كل شيء ، فى حين أن باكونين كان يقصد بهذه العبارة أن الصورة القديمة للمجتمع يجب أن تتغير قبل بناء المجتمع الجديد ، ومهما يكن من الأمر فان هذا المقال دل على أن باكونين قد انضم الى زمرة الثائرين ، ولم يكن تحبيذ باكونين لاستعمال العنف صادرا عن بواعث سادية فى نفسه ، لأن المعروف عن اخلاقه وطباعه يناقض ذلك ، وقد كان يقول ان الثورة العنيفة ضرورة غير مستحبة ، وان الغباء البشرى هو الذى يحتم القيام بها ، ويجعلها ضرورية ، فالثورة فى رأيه شر لا بد منه ، وهو يقول فى ذلك «الثورات الدامية فى الأغلب ضرورة لازمة ، وذلك بفضل الغباء البشرى ، ولكنها دائما شر ، بل هي شر منكر وكارثة كبيرة، وهي ليست كذلك بالقياس الى ضحاياها فحسب ، وانما بالقياس كذلك الى سلامة الغرض الذى قامت من أجله الثورة وتحقيقه » .

وفى سنة ١٨٤٣ اتصل بوتلنج الشيوعي الألماني فى سويسرة ، ولم تعجب باكونين شيوعيته التسلطية ، وحينما اعتقل وتلنج فى سويسرة وجد اسم باكونين فى الأوراق التي كان يحملها ، فأخبرت الشرطة السويسرية السلطات الروسية بذلك ، وأمر باكونينبالعودة الى روسيا ، فرفض ان يطيع هذا الأمر ، فجردته الحكومة الروسية من لقب الشرف ، وحرمته من الميراث ، وحكمت عليه غيابيا بالاشغال الشاقة فى سيبريا ، وتحديه هذا للحكومة الروسية جعلها خصمه الألد وعدوه المتقد الحقد .

وفى السنة نفسها قابل برودون وماركس فى باريس ، وتأثر بهذا اللقاء ، وكان للرجلين

تأثيرهما فى اتجاهات تفكيره، فمن ماركس عرف ان المسائل الاقتصادية أهم من السياسة ومن الدين ، ومن برودون اقتبس اسس اتجاهه الفوضوى ، ومعارضته لوجود الحكومة ، ورأيه فى لا مركزية الاشتراكية .

وفى السنوات التالية حاول أن يتدخل فى كل ثورة تقوم فى اوروبا ، وفى أول الأمر اشترك فى الثورة البولندية ، وظل يساند الثائرين البولنديين حتى انتشرت اشاعة اذاعتها المخابرات السرية الروسية لتحط من قدره ، وتسيء الى سمعته ، وهي انه من جواسيس الحكومة الروسية ، وقد ظلت هذه الفرية عالقة بسمعته سنوات عدة ، وقد اعاد اذاعتها بعد ذلك الماركسيون لينالوا منه استجابة لرغباتهم الخاصة .

وفى فبراير سنة ١٨٤٨ ذهب الى فرنسا للمشاركة فى الثورة التى قامت بها ، وتحمس فى مساعدة الثائرين ، وحارب معهم فى الحواجز التى اقاموها فى الطرقات ، ولكنه لما بدأ يدعو لآرائه فى الفوضوية ضاقوا بها ذرعا ، وعملت السلطات الثورية على التخلص منه وابعاده ، ولما أدرك باكونين أن القائمين بهذه الثورة يخالفونه فى الرأى صمم على العودة الى الثائرين البولنديين وشد أزرهم .

فذهب الى برزلو على مقربة من الحدود البولندية ، ولكن البولنديين اظهروا له عدم الثقة به ، فاتجه الى براغ ، واشترك بها فى ثورة نشبت ، وحارب مع الثائرين فى الحواجز التى اقاموها ولكن الثورة اخفقت ، فهرب الى المانيا ، ووجد ملاذا مؤقتا فى انهالت Anhalt وهى ولاية صغيرة فى بروسيا ، وظل يتابع التآمر مع أصدقائه فى بوهيميا ، وفى سنة ١٨٤٩ تسلل الى درسدن ليكون على مقربة منهم ، وهناك اشترك فى ثورة أخرى ، فقد قام بها جماعة من الأحرار الألمان بثورة للمحافظة على النظام الديمقراطى ، وبرغم انه كان لا يعطف على الأحرار الألمان فانه قدم لهم خدماته برغبة خالية من الغرض ، وحينما هرب كثيرون من الثائرين ثبت باكونين فى الدفاع عن الثورة داخل الحواجز المقامة ، وأظهر من الشجاعة والاقدام ما حمل ماركس وانجلز على الثناء عليه .

ولكن ثورة درسدن لم تنجح ، واخمدتها الجيوش البروسية التى أرسلت لمساعدة ملك سكسونيا ، واعدم الكثيرون من الثائرين رميا بالرصاص ، وهرب فريق منهم الى شمنتز ومعهم باكونين ، والقى القبض عليه بها ، وكان اعتقاله فى هذه المرة بدء وضعه فى السجون الذى استمر ثماني سنوات ، لقى فيها الأهوال وتنقل خلالها فى سجون أربع دول ، وتبع ذلك النفى الى سيبريا ، وقد قضى أكثر من سنة فى السجن بسكسونيا ، وحكم عليه بالاعدام وارجيء تنفيذ الحكم فى اللحظة الاخيرة ، ثم سلم الى الحكومة النمساوية التى ارادت الانتقام منه لاشتراكه فى ثورة براج ، وأمضى سنة اخرى فى السجون النمساوية ، وحوكم وصدر الحكم باعدامه ، وأرجيء مرة ثانية تنفيذ الحكم ، وسلم الثائر فى هذه المرة لحكومة بلاده التى كانت حريصة على تعذيبه والتنكيل به ، والقى به فى سجن بطرس وبولس ثم نقل الى سجن شوسلبرج Schusselburg وظل مسجونا ست سنوات لقى فيها صنوف العذاب والحرمان ، واصطلحت عليه العلل والأمراض ، فتساقطت أسنانه ، وهزل جسمه ، ولكن هذه الآلام المبرحة لم تلن من عزمه ، ولم تقدح فى عقيدته ، ولم تغير من آرائه وفى سنة ١٨٥٧ ارسل الى سيبريا ليقضى حياته منفيا بها ، وقضى بها أربع سنوات ، واستطاع الهرب فى سنة ١٨٦١ الى بلاد اليابان ، وانتقل من بلاد اليابان الى الولايات المتحدة ، ومنها عاد الى لندن

وقد تجرع باكونين مرارة السجن والاعتقال والنفى لكراهته الشديدة للحكومات ، ولم تنجح الدول المختلفة التى عاقبته وأذاقته العذاب فى حمله على تغيير افكاره ، ومنذ عودته الى لندن

وقف حياته على اذاعة روح التمرد على الحكومات ، فلما بدأت الثورة البولندية فى سنة ١٨٦٣ حاول مساعدة الثائرين ولكن قادة الثوار رفضوا معاونته لأنه كان يرمي الى ايجاد تحالف فيدرالي بين الولايات السلافية ، وكان هذا يتعارض مع ما يراه الثائرون الذين كانوا يفكرون فى اقامة حكومة أرستقراطية ، فذهب باكونين الى استوكهولم وانضم الى حملة من البولنديين كانت تريد أن تحل بلتوانيا ، ولكن المشروع لم ينفذ ، وتعلم باكونين من تجاربه مع البولنديين أن الثورة الاشتراكية لا يمكن أن تتحقق عن طريق الحركات القومية ، ولذلك اتجه بتفكيره الى الحركة الدولية الثورية التى تقوم بها طبقة العمال .

وعاش أكثر ايامه فى السنوات التالية بايطاليا ، وأوجد أول تنظيم للثورة الفوضوية وهو « الأخوة الدولية السرية » وتبع ذلك انضمامه الى عصبة السلام والحرية وهي منظمة كونها جماعة من الاحرار عقدت أول مؤتمر لها فى جنيف فى تلك السنة التي أمَّل باكونين فيها أن تؤثر أفكاره الثورية .

وكان حضور باكونين لهذا الاجتماع أول ظهور لهذا الثائر الشهير الذى خاض غمار الثورات وعرف غياهب السجون والمعتقلات ، وقد قوبل بحماسة شديدة ، وكانت له آمال كبيرة فى عصبة السلام والحرية ، وقد اختير فى اللجنة المركزية للعصبة ، وانضم اليه بعض الأعضاء منهم الاخوان ايليزا ركليس Elisee Reclus وايلي ركليس Elie Reclus وقد أصبحا فيما بعد من الفوضويين البارزين ، ولكنه سرعان ما أدرك طبيعة العصبة البرجوازية ، وكان قد بدأ يعلن عداءه للرأسمالية ، وطالب بنزع ملكية الأرض ووسائل الانتاج ، وجعلها تحت تصرف العمال ليعملوا بها متعاونين ، وعند انعقاد المؤتمر الثاني للعصبة عرض اقتراحاته الخاصة بمصادرة الثروة ، وايجاد مجتمع خال من الطبقات ، ولما رفضت هذه الاقتراحات كما كان منتظرا ترك العصبة مع أنصاره ، وتحول الى الدولي باعتباره آلة العمل الثورى .

وعندما كان عضوا فى عصبة السلام والحرية أوجد الاتحاد الدولي للديمقراطية الاشتراكية، وكان أكثر أعضائه من أعضاء منظمة الأخوة الدولية السرية ، وانضم اليها الكثيرون من الثائرين فى ايطاليا واسبانيا والروسيين المنفيين المقيمين فى سويسرا ، وحاول باكونين ادخالهم الدولي بوصفهم اتحادا تم تكوينه ، ولكن المجلس العام للدولي بزعامة ماركس الذى كان قد بدأ يشعر بمنافسة باكونين وخطره على زعامته رفض هذا الطلب ، واضطر باكونين الى حل الاتحاد والسماح لأعضائه أن ينضموا الى الدولي فرادى .

وبدخول باكونين الدولي ومعه أنصاره من ايطاليا واسبانيا كثر عدد الأعضاء ، وقد استطاع باكونين أن يكسب الى صفوفه علاوة على الأعضاء الايطاليين والاسبانيين كثيرا من الأعضاء السويسريين والعمال الفرنسيين ، ولم يكن الصراع الذى نشب بينه وبين ماركس باعثه التأثير الشخصي أو اختلاف شخصيتهما فحسب ، فقد كان هناك خلاف شديد بينهما فى المبدأ،وذلك لأن باكونين كان يرفض السلطة، ويعارض فى وجود الدولة ، وكان باكونين يصرح بأنه ليس شيوعيا ، لأن الشيوعية تركز كل قوة المجتمع فى الدولة ، فى حين أنه كان يريد الغاء الدولة وازالة السلطة ، والدولة فى رأيه قد استبعدت الناس واضطهدتهم واستغلتهم وافسدتهم ، وحدثت أول معركة مكشوفة بين الماركسيين واتباع باكونين فى الاجتماع الذى عقد فى بازل سنة ١٨٦٩ والذى حضره باكونين واناب ماركس من حضر بدلا منه ، وقد عرض فيه ماكونين اقتراحا بازالة

حق الميراث ، ولكن أنصار ماركس عارضوا ذلك المقترح ، ورفض المجلس الاقتراح بأغلبية قليلة ، وبعد انتهاء الاجتماع في بازل أذاع الماركسيون اشاعات كثيرة تنال من سمعة باكونين ، ولكن هذه الأقاويل السيئة لم تؤثر في أتباعه .

وفي اثناء هذا الصراع وقعت الحرب البروسية الفرنسية وحدثت في فرنسا الثورة التي أطاحت بحكم نابليون الثالث ، وكان باكونين في لوكارنو واجتذبته الثورة فأسرع الى مدينة ليون ، وكان له فيها أتباع كثيرون ، وفي أواخر شهر سبتمبر كون الفوضويون في المدينة لجنة لانقاذ فرنسا ، وأعلنت هذه اللجنة الغاء الدولة وحدث شغب في ليون لم ترق فيه دماء ، واستولى الثائرون على المدينة وقتا قصيرا ، وجاءت فرقة من الحرس الوطني وانهت هذه الثورة الصغيرة ، والقي القبض على باكونين واعتقل ، وانقذه اعوانه ، وبعد أن ظل مختبئا فترة من الزمن هرب من فرنسا متنكرا .

واستمر الصراع بينه وبين ماركس حتى سنة ١٨٧٢ ، وفي سبتمبر من تلك السنة دعا ماركس الى عقد اجتماع للدولي في لاهاي La Haye ، فعارض ذلك اتباع باكونين ، وطلبوا عقد الاجتماع في سويسرة ، ولكن المجلس الاستشاري للدولي رفض ذلك ، وقاطع الفوضويون الايطاليون هذا الاجتماع ، واضعف ذلك موقف الفوضويين ، وطلب ماركس في الاجتماع نقل المجلس الاستشاري العام من لندن الى نيويورك ، وقد أراد ماركس بذلك أن يتخلص من الفوضويين من ناحية ومن الاتحاد التجاري الانجليزي من ناحية أخرى ، ورفض في هذا الاجتماع البرنامج الذي قدمه الفوضيون ، وقدم اقتراحا بطرد باكونين وصاحبه جيوم Guillaume من الدولي بحجة انهما حاولا ايجاد منظمة دولية منفصلة في داخل الدولي ، ووافق المجتمعون على ذلك ، ولكن الفوضويين رفضوا الاعتراف بهذا الفصل ، والسنوات التي تلت تصدع أركان الدولي كانت حافلة بالأحداث المكدرة والمتاعب المتكاثرة لباكونين ، فقد اعتلت صحته اعتلالا شديدا ، وتمكن منه المرض ، وعسره الفقر وحدث خلاف بينه وبين الكثير من أتباعه وانصاره ، ووقعت القطيعة بينه وبينهم ، ولما حدثت الثورة في اسبانيا سنة ١٨٧٣ أراد باكونين برغم مرضه أن يذهب الى هناك للمشاركة فيها ، ولكنه لم يجد ما يكفي من المال لهذه الرحلة ورفض أصدقاؤه معاونته ، وهكذا عاش باكونين حياة عاصفة ثائرة متحديا كل سلطة دون أن يفكر في سلامته الشخصية ، وبالرغم من التهم الوضيعة التي وجهت اليه فان تأثيره في نفوس أنصاره كان قويا ، وتختلف تعاليمه عن تعاليم استاذه برودون في مسألتين هامتين ، فقد ادرك أولا أن الزيادة المطردة في التقدم الصناعي تجعل فكرة المجتمع المكون من صغار الملاك الذين يملكون وسائل انتاج خاصة بهم ويتبادلون الانتاجات مع بعضهم البعض بطريق التبادل المصرفي فكرة غير قابلة للتنفيذ ، وليست عملية بحال من الأحوال ، ولذلك آثر فكرة الانتاج الجماعي الذي تكون فيه وسائل الانتاج ملكا للمجتمعات التعاونية المكونة من العمال ، ولم يصل باكونين الى فكرة مرحلة الانتاج العام للعمل التي دافع عنها كروبتكين بعد ذلك بسنوات قلائل .

والفكرة الثانية التي خالف بها برودون هي أنه لم ير أن الدولة يمكن ازالتها باتباع طرائق الاصلاح ، أو بقوة القدوة الحسنة ، وأعلن ضرورة الثورة للقضاء على النظم المؤيدة لوجود عدم المساواة والتي تعوق التمهيد لوجود المجتمع الذي تسوده المساواة الاجتماعية ، وعنده أن الثورات لا تصنع كما يرى الماركسيون ، وانما تجيء نتيجة انبعاث تلقائي

في وعي الجماهير ، وكان يتحدث في ذلك عن تجربة ومشاهدات بعد أن خاض غمار كثير من الثورات .

بيتر كروبتكين (١٨٤٢ – ١٩٢١)

Peter Kropotkin

كان ينقص الفوضويين الذين ظهروا بعد جيل باكونين المفكر الذى يضع الأساس العلمي الاجتماعي للمذهب الفوضوى ، وقد توفرت القدرة على النهوض بذلك فى كروبتكين ، وقد امد جودوين الفوضوية بخواطره الفلسفية ، ودعمها باكونين بنظراته الاجتماعية وخلاصة تجاربه الثورية ، وقد يسر ذلك السبيل لكروبتكين ليضع للمذهب الأساس العلمي ، ويؤيده بدراساته العلمية ، فان كان باكونين بطل الفوضوية الثائر فان كروبتكين عالمها المتمكن الواسع المعرفة والدراية .

وقد ولد كروبتكين سنة ١٨٤٢ وهي السنة التي بدأ باكونين يتعلق فيها بالمعتقدات الثورية ، وهو أسرة روسيه عريقة ، وقد نشئ تنشئة عسكرية ليشغل منصبا فى الجيش القيصرى ، وفى أوائل سنة ١٨٦٠ ألحق ضابطا باحدى فرق القوقاز المقيمة على مقربة من نهر آور فى سيبريا ، وقام بعد ذلك برحلات علمية كشفية فى نواحي سيبريا المجهولة وفى شمال منشوريا ، وكان يدرس فى أثناء ذلك التاريخ الطبيعي لهذه الأنحاء ، ويلاحظ حياة المجتمعات البدائية بها ، وقد تركت هذه الدراسة أثرا بعيدا فى تكوين آرائه الاجتماعية ونظراته السياسية ، وعاد الى بطرسبرج سنة ١٨٦٧ وقضى أربع سنوات فى دراسة الرياضة والجغرافيا ، وذاعت شهرته بين المتوفرين على الدراسات الجغرافية وعرضت عليه جمعية بطرسبرج الجغرافية ان يكون سكرتيرا لها ، ولكنه لم يقبل هذا العرض .

وفى خلال رحلاته الجغرافية المختلفة الى الأنحاء القاصية فى روسيا رأى بعينيه ما يعانيه أفراد الشعب من الفقر والاهمال وسوء الحال، فمضى يكتب التقارير الوافية ، ويقدم الاقتراحات المترعة بالغيرة على الاصلاح ومناصرة الفقراء الى ادارات الدولة ومختلف الهيئات الحكومية ، ولكن عمله كان بغير جدوى فقد كان القوم فى غفلة عن الاصلاح ، ولم يكن لهم فيه أرب ، ولا لهم اليه نزوع ، لأن الاصلاح لا يحقق لهم غرضا ، ولا ينيلهم نفعا ، وينبه راقد الفتنة ويهيج كامن الشر ، وأثر هذا التراخي والجمود فى تفكير كروبتكين، وجعله يعتقد أن الأمور لا يمكن أن تظل على هذه الوتيرة ، وانه لا علاج لهذهالأحوال السيئة المتخلفة الا بالخروج عليها والثورة بها .

وفى سنة ١٨٧٢ أصبح من العاملين فى صفوف الثائرين ورحل الى غرب أوروبا ، وقضى حينا من الزمن فى بلجيكا وسويسرة ، وهناك اتصل بالحركة التي كانت تدبر الثورات وترسم خططها ، وخالط أتباع باكونين ، وراقته مبادئهم ، وقد أوضح فى كتابه « مذكرات ثائر » سبب تركه بحوثه العلمية الجغرافية ، فقال « بأى حق أستمتع بهذه المسرات العليا والشقاء حولي ضارببجرانه ، وكل من أرى يجاهدون فى سبيل الحصول على كسرة من الخبز الفض ، وعلى حين أن كل ما أنفقه ليمكنني من أن اعيش فى عالم هذه العواطف السامية لا بد أن يكون منتزعا من افواه هؤلاء الذين يزرعون الغلال ولا يجدون من الخبز ما يكفي لاطعام اطفالهم ، لا بد أن يؤخذ ذلك من أفواه بعض الناس لان مجموع انتاج البشرية لا يزال جد منخفض » .

ونفر كروبتكين من الاشتراكية الماركسية ، ومال بكليته الى الاشتراكية الحرة التي بشر بها باكونين ، وعاد بعد ذلك الى روسيا وأخذ يحاول تعليم المزارعين والعمال ، وكان يعرف ما فى هذه المحاولة من خطر ، ولكنه لم يحجم عن ذلك ، واقبل على هذه المحاولة غير هياب ولا وجل ، حتى قبض عليه سنة ١٨٧٤ واعتقل فى حصن بطرس وبولس الرهيب ،

وقضى فى هـذا السجن عامين تابع فيهما دراساته الجغرافية .

وفى سنة ١٨٧٦ تمكن من الهرب ووصل الى بريطانيا ثم ذهب منها الى سويسرة ، وظل بها حتى سنة ١٨٨١ واخرج منها بسبب نشاطه الثورى والرعب الـذى أثاره مصرع القيصر الروسي الاسكندر الثاني ، وفى سنة ١٨٨٢ اعتقل بفرنسا وارسل الى سجن كليرفو بتهمة زائفة ، واثار حبسه احتجاج العلماء والكتاب ، وكان مـن الذين دافعـوا عنـه الفيلسوف البريطاني هربرت سبنسر والشاعران سوينبرن وفيكتور هيجو ، واضطرت الحكومة الفرنسية الى الافراج عنه فى سنة ١٨٨٦ فعاد الى انجلترا واقام هناك اقامة دائمة .

وفرغ لاستيفاء تعاليم مذهبـه السياسي ، وطـاف بأنحاء بريطانيـا والقى محاضـرات للدعوة الى مذهبه ،وبسط بها آراءه ونظرياته، وكان من مؤسسي مطبعة الحرية ، وشارك فى تحرير المجلة المسماة باسم الحرية ، واستطاع فى تلك الفترة أن يكتب معظم مؤلفاته ، ومنها كتاب « غزو الخبز » وكتاب «الحقول والمصانع والعامل » وكتاب « التعاون المتبادل » والكتاب الأول دفاع عن مذهبه السياسي ، والكتابان الآخران دراسات اجتماعية علمية ، وهما من المراجع الهامة لدارسي علم الاجتماع ، والفكرة الأساسية التي كان كروبتكين يرمي الى تأكيدها هي انه لا المذهب الفردى ولا مذهب اشتراكية الدولة ولا المذهب الشيوعي الذى يدعو الى اقامة ديكتاتورية البروليتاريا تستطيع أن تصل بنا الى المجتمع الصالح الذى يرضي نوازعنا ، ويلزم أن نقيم احوالنا الاقتصادية والاجتماعية على أساس التعاون والمشاركة الحـرة لا على التنافس القاسي أو الاجراءات المعطلة مـن ناحية أخرى ، وقد راى كروبتكين أن مذهب ترك الأمور تجرى فى مجاريها الذى أولعت به الراسمالية فى القرن التاسع عشر يسفر عن مظالم جائرة ، وأنه قد أخفـق اخفاقا تاما فى حل مشكلة توزيع السلع ، ورأى من ناحيـة أخرى أن أفكار ماركس فى الاشتراكية الحكومية لا تعين كذلك على حل هـذه المشكلـة ، وأن التعـاون الحر هو المبـدأ السليم والهـدف الأسمى ، وأن زيادة سيطرة الدولـة تنتقص الحرية ، ولا تزيد الرخاء المادى ، وكان يتطلع الى اليـوم السعيد الـذى يرى فيه الحيـاة الانسانية قائمـة على مبـدأ التعاون الحـر والتضامن الاختيـارى ، وفى أثناء الحـرب الكبـرى الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وقف فى صف الحلفاء ، لأنه كان يخشى خضوع أوروبا للامبريالية الالمانية ، ولم يرض هـذا الموقف الفوضويين وقد عللوا ذلك بأنه كان فى هـذه الفترة مريضا ومتقدما فى الشيخوخة ، وقد أنهكت قواه الأمراض ، ومجاهداته فى سبيل اذاعة افكاره ، وقد عاد الى روسيا بعد ثورة سنة ١٩١٧ ليساعـد الثائرين ولكن حينمـا استولى البلاشفـة على زمام السلطـة أدرك طبيعة ثورتهم وأهدافهم ، وعارض أساليبهم فى القمع والاضطهاد ، وقضى السنوات الأربـع الباقية من حياته فى فقر وحرمان حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٢١ ، وقد كان كروبتكين كبير المدافعين عن الشيوعية الفوضوية ، وقد ناقش فى كتابه عن « التعاون المتبادل » رأى داروين فى تنازع البقاء ، ورأى أن هذا التنازع ليس هو القاعـدة العامة فى عالم الحيـوان ، وأيد ذلك بمشاهداته الخاصة ومشاهدات غيره من العلماء ، وقرر أن التعاون هو سنة الوجود ، وسبيل البقاء ، وعزا اليه وجـود الأجناس الأضعف من الناحية الجسدية ، وأن الانسان مدين ببقائه برغم ضعفه لقدرته على التعاون ، وهو لا ينكر وجود المنافسة والتناحـر ولكن عنـده أن التعاون أهم وأبعـد أثرا فى تقـدم الانسانية ، والتعاون عنده أساس الأخلاق ، ويضاف الى ذلك عامل العطف والشعور بآلام

الغير وادراك حاجاته ومطالبه ، ويعد كروبتكين اقدر شراح المذهب الفوضوى وكبير فلاسفته ومفكريه ، وكتبه تقدم معلومات وثيقة وحقائق مؤكدة لدعم المذهب الفوضوى .

جوهان موست

وآخر المفكرين الفوضويين النظريين الجديرين بالذكر هو جوهان موست (١٨٤٦ — ١٩٠٦) وهو المانى الأصل من أبوين فقيرين سجن فى النمسا سنتين وفى المانيا سجن ثلاث سنوات ، وبعد طرده من المانيا أنشأ فى لندن جريدة أسبوعية وانتقل فى سنة ١٨٨٢ الى الولايات المتحدة ، واكتسب بها شهرة لا يغبط عليها بوصفه مدافعا عن الفوضوية الارهابية ، وكان من رأيه اغتيال الموظفين المكروهين لايقاع الرعب فى قلوب اعضاء الطبقات الحاكمة والدعاية بالأعمال لكي يلفت الانظار للحركة الفوضوية ، وقد اتهم بأنه كان من الذين ساعدوا على الشغب الذى حدث فى هيماركت Haymarket ومصرع الرئيس مك كنلى Mckinley وحكم عليه بالسجن غير مرة ، وكان يحاكم فى كل مرة لما يرسله من الأقوال لا لما كان يقوم به من الأفعال .

ومنذ أوائل سنة ١٩٢٠ ضعف تأثير المذهب الفوضوى ولم يظهر له دعاة واتباع لهم تأثير يذكر ، وأن نجاح الشيوعية الروسية كان له اثره فى التقليل من اهمية الدعوة الفوضوية .

* * *

مراجع البحث

Berkman Alexander, **A.B.C. of Anarchism** (Free Press 1942).

Catlin George, **A History of Political Philosophers** (George Allen and Univix 1950).

Carr E. H., **Michael Bakunin.,** (London 1935).

Carr E. H., **The Romantic Exiles** (London 1933).

Harmon M. Judd, **Political Thought From Plato to the Present** (Utah State University 1964).

Gettell Raymond G., **History of Political Thought.** (G. Allen and Univin 1951).

Joad C. E. M., **Introduction to Modern Political Theory.** (Oxford 1927).

Kropotkin Peter, **The State, Its Historic Role** (Freedon Press).

" " **Revolutionary Government** (Freedon Press).

" " **The Wage System** (Freedon Press).

" " **The Mutual Aid** (William Heinemann 1919).

Malatesta, E. **Anarchy** (Freedon Press) 1942.

Mackenzie Norman, **Socialism, A short History** (Hutchinson) 1944.

Read Herbert, **The Philosophy of Anarchism.** (Freedon Press) 1943.

Sabine George H., **A history of Political Thought** (George G. Harrap) 1951.

Wassermann Louis, **Modern Political Philosophers** (Garden City Books New York 1951).

Woodcelck George, **Anarchy or Chaos** (Freedon Press) 1944.

Woodcock George, **Anarchism** (Pelican Book) 1962.

Yaroslavsky E., **History of Anarchism in Russia** (Lawrence & Wisbort).



خبرات وتجارب

تجاربي مع الحشرات

سميرة الزيادي *

عندما شرعت في تدوين تجاربي مع الحشرات حملتني ذكرياتي الى زمن مضى ، عندما قررت وقدر لي الحظ أن أتعمق في كنهها وأتفهمها عن قرب التفهم العلمي الأصيل ، وكانت تستهويني كما فعلت بكثير من علما الأحياء منذ زمن بعيد ، ولعلها كانت أوفر الكائنات حظا من البحث والاستقصاء لصلتها الوثيقة بالانسان ، اذ بعضها نافع كدودة الحرير ونحل العسل ، وبعضها الآخر ضار يفتك بالزراعة كالجراد وديدان القطن ، أو ينقل العلة والمرض كالبعوض والذباب .

وحياة الحشرات تزخر بكل ما هو طريف وعجيب ، حتى ان الانسان ليقف أحيانا كثيرة مشدوها أمام سلوكها وطبائعها وطرائق حياتها . كيف تطير ، وكيف تتناسل ، وكيف تتحصن ضد أعدائها ، وكيف تتلاءم مع بيئتها ، وكيف تتغذى ، وكيف يعيش بعضها كالنمل والنحل في مجتمعات بلغت في دقة نظامها وأحكامها والعلاقات الاجتماعية التى تسودها حد الروعة والاعجاز .

ولعل استجلاء الحقائق العلمية عن حياة الحشرات ليدعو الى الكثير من التأمل ، ويثير في النفس المتعة والجمال ، بما أودعه الله في هذه الكائنات من قدرات ، وما فيها من غرائب وعجائب .

وسأحدثكم في هذا المقال عن موضوع فيه كثير من الطرافة ، ألا وهو موضوع النحل ، وهو الذى قال تعالى عنه في كتابه الحكيم العزيز :

« وأوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال

---

* دكتورة سميرة الزيادى استاذة علم الحشرات ورئيسة قسم علم الحيوان بجامعة الكويت . اشتغلت بالتدريس بجامعة القاهرة . عضو جمعية الحشرات المصرية وجمعية الحشرات الملكية بلندن وجمعية الحشرات الامريكية . لها كثير من البحوث في المجالات الحشرية وقد نشرت هذه البحوث في المجلات العلمية بمصر والخارج .

بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون* ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » (سورة النحل الآيتان ٦٨ ، ٦٩)

لماذا اختص الله سبحانه وتعالى النحل من دون الحشرات جميعا بأن جعله « آية لقوم يتفكرون » ذلك أنه قد أودع فيها من عظيم قدرته ما يعجز عن وصفه كل بيان ، ووضع بين ثناياها من الخصائص والقدرات ما يغني عن كل وصف وتبيان .

ولسوف يبين هذا المقال ما انطوى عليه هذا الاعجاز الالهي فى الخلق : فيما أودع فى النحل من غرائز تسلك بها سلوكا فى الحياة فريدا ، وتعيش بها حياتها كلهـا فى تعاون واستقرار . والمقصود بالنحلة هنا هي نحلة العسل « ابيبس مليفرا » Apis mellifra التي تنتمي الى مجموعة من الحشرات تعرف برتبة غشائية الأجنحة Hymenoptera ، وهي مجموعة ضخمة ذات صفات معينة مشتركة ، وترتيب الحشرات الى رتب سببه أنه يوجد منها فى العالم عدد من الأنواع يربو على المليون نوع، أكثر من اى مجموعة أخرى من الحيوانات، وما يزال يكتشف منها فى كل عام أنواع جديدة تقدر بالآلاف . وحتى لا نتضارب ونرتبك نتيجة للتباين فى شكلها ، تم ترتيبها ــ كما هو الحال مع جميع أنواع الحيوانات الأخرى ــ الى مجموعات كبيرة أو رتب ، وذلك بفرض معرفتنا بها ، وهذه الرتب الكبيرة تنقسم الى مجموعات أصغر فأصغر، وهكذا حتى نصل الى الكائن الذى نعطيه دائما اسما مكونا من أسمين ، اسم الجنس واسم النوع، مثل نحلة العسل ابيبس مليفرا Apis mellifera

وهناك رتب أخرى غير غشائية الأجنحة ، كرتبة حرشفية الأجنحة Lepidoptera ، وهي التي تضم اليها الفراشات وأبو دقيق ، ومستقيمة الأجنحة Orthoptera ، وينتمي اليها الجراد والنطاط Acrididae وصراصير الغيط Gryllidae وأقرباؤها ، وغمدية الأجنحة Coleoptera ، وهي تحوي الخنافس والسوس بأنواعها، وذات الجناحين Diptera وبها جميع انواع الذباب الحقيقي ، والبعوض والهاموش وأشباهها ، وخلاف هذا عدد آخر من الرتب تتميز جميعها من بعضهـا البعض بصفاتها الخاصة .

وتضم غشائية الاجنحة التى نحن بصددها بجانب النحل Apoidea النمل Formicoide والزنابير Vespoidea وذباب * الاكنيومون Ichneumonoidea والزنابير المنشارية والزنابير المتطفلة وزنابير الاورام النباتية Cynipoidea الخ.. حشرات تتصف جميعها بصفات معينة مشتركة . ويكوّن النحل جزءاً صغيراً فقط مــن بين هــذه المجموعــة الكبيرة . وليس من المهم أن نخوض فى جميع التفاصيل العلمية الدقيقة التى تجعل غشائية الاجنحة مختلفة عن كل ما عداها من أنواع الحشرات ، ولكن يكفينا فقط ان نعرف أن لها زوجين من الأجنحة الغشائية، زوجا على كل جانب، الامامي منهما دائمـــا اكبــر مــن الخلفــى . ويتشــابك الجناحان فى كل جانب عند الطيران مع بعضهما البعض ، ويعملان كما لو كانا جناحا واحدا . وطريقة التشابك هذه بسيطة ، فللحد الخلفي للجناح الامامي حافة قصيرة مرفوعة تستقبل صفا من الخطافات الصغيرة الممتدة على الحافة الأمامية للجناح الخلفي .

وفى هذه الرتبة تكون بعض المجموعات اكثر قربا فى صفاتها من بعضهـا الآخــر كالنحل والنمل والزنابير التى هي ابناء عمومة مــن الدرجة الأولى ، ولذلك سميت معا بغشائية الأجنحة اللاسعة Apocrita aculeata حيث انهــا قادرة على اللســع ، اذ أن آلة وضــع

*** يستعمل لفظ ذبابة دون تحفظ فى لغتنا الدارجة ولكن في معناها الدقيق يجب ان يشار به فقط الى ذات الجناحين كذبابة المنزل والبعوض .**

البيض فى اناثهـا قـد تحـورت الـى آلـة للدفاع أو آلـة للسـع ، وبذلك لـم تعـد تستعمل فى وضع البيض كباقي اناث الحشرات. وعلى الرغم من أن بعض أنواع هذه المجموعة تكون آلة لسعه مندثرة ، مثل النحل عديم آلة اللسع الذى ينتشر فى المناطق الاستوائية ، أو كالنمل الذى ليس فيه آلة لسع على الاطلاق، الا انها جميعا تمتلك من الصفات الأخرى ما يقربها من بعضها البعض، ومـن هذه الصفات العناية الفائقة التى يوليها أغلب أفراد هذه المجموعة لصغاره ، وقد نمت هذه الخاصية فى بعض أنواع النحل والزنابير ، وفى كل أنواع النمل ، وتحولت الى صورة ثابتة متقنة من صور الحياة الاجتماعية ، حتى أن الكثير من الباحثين يضعون هذه الرتبة من حيث التطور على قمة الرتب الحشرية كما يوضع الانسان على قمة سلسلة الفقاريات .

وتقدم لنا مجتمعات النحل والنمل أقرب مثل من امثلة التمدين فى عالم الحشرات ، اذ انها تعيش فى مجموعات مستقلة ــ تقابل الأسر فى الانسان ــ يطلق على كل منهـا اسـم المستعمرة ، تتميز فيها الأفراد الى ملكة وذكور وشغالة ، تعيش جميعهـا فى تعاون تام ، وانسجام قد يفوق فى صورته بعض الجماعات البشرية ، ومجتمعها فى تنظيمه شبيه بالمجتمع الانساني شبها كبيرا ، وليس بجديد أن نعلم أن الاعتبار الأول فى المعيشة الاجتماعية سواء أكانت انسانية أم حشرية هو توفير الغـذاء بانتظام وبكثرة ، فالمجتمعات البدائية قناصة تعيش غالبا على اللحـوم ، بينما المجتمعات المنظمة تنظيما راقيا والمكتظة أصبحت تعتمد اكثر واكثر على ما يقدمه عالم النبات من طعام مؤكد سهل المنال . وخير هذه المجتمعات فى عالم الحشرات هي مستعمرات نحل العسـل التى تعيش فيها الأم والأبناء معيشة تعاونية مشتركة ، فى مسكن او فى عش واحد ، وقد طالت فيها حياة الأنثى بدرجة تسمح لها بأن تعيش فى صحبة ذريتها ، وبذلك فان أساس حياة الحشرات الاجتماعية ــ مثل مجتمـع الانسان ــ هو العائلة ، وجمع وتوزيع الغذاء بين هذه الحشرات البالغة والصغار هو طريقة اقتصادية لا نجد نظيرها فى مجتمعنا .

ومستعمرات نحلة العسل عرفها الانسان منذ قديم الزمان ، والعلاقة بينه وبينها من أوثق العلاقات ، وسبب ذلك أن له شهيـة طبيعية للحلوى ، وأن هذه المستعمرات تمده بالعسـل الذى هو مادة حلوة المذاق ، وهو طعامها الذى تجمعه من الأزهار لتتغذى عليه وتخزنه لوقت الحاجة ، وكان منذ عصـور ما قبل التاريخ يسطو على خلاياها البريـة ويسلبها عسلها ، كما كانت تفعل الدببة ايضا ، حتى تعلم منذ بدء العصر الحجرى الحديث ــ على الأرجح ــ استئناسها وترويضها عـلى الحياة قريبا من مسكنه داخل قطاعات مـن جذوع الأشجار ، أو السلال الفارغة ، أو الأوعية الطينية ، وقد وجد النحل منقوشـا على آثار قدماء المصريين التى يرجع تاريخهـا الى عام ٣٥٠٠ ق.م .

ومن الطبيعي أن الانسان البدائي بعد أن قام باستئناس النحل ، وسهل له سـبل الاقامة ، أخـذ فى ملاحظتـه والتعرف على خصائصه ، وسرعان ما أثارته هذه الحشرة الصغيرة واستحوذت على دهشته واعجابـه ، واستنتج أنها من المخلوقات الموهوبة ، لأنها تعيش مثله فى جماعات ، كما أن الكثير مـن خصائصها الحميدة ، مثل طيرانها المستمـر بحثا عن الغذاء ، وقدرتها على اللسع دفاعا عن نفسها ، وارتباطها بالأزهـار دون غيرهـا ، وتجنبها للأوساخ والقاذورات ، وتعلق الشغالة منها بالملكة ، جعلته يعتقد فى قدسيتها ، حتى انه اتخذها عبر الزمن رمزاً لجميع الفضائل . فهناك الملكة والرعايا الماليون التى تتكون منها جميعا مملكة نموذجية ، طابعها الشجاعـة والاقدام والتضحية بالنفس فى سبيل المجموع، والحب المتبادل بين أفرادها التى تمتاز بالعمل المتواصل ، والقناعة فى المأكل بما يسد الرمق دون اسراف أو تبذير ، وادخار ما يفيض عن

حاجتها الى وقت الشدة ، وهناك أيضا الهندسة الدقيقة ، وعطف الكبير على الصغير ورعايته ، والذود عنه ضد أى عدوان ، والاستبسال فى الدفاع عن خلاياها ، وغير ذلك من الفضائل عدا الكرم ، فانها لا ترحب بالضيف ، ولا تحتمل بقاء النحل الدخيل فى خلاياها ، بل تسرع فى طرده الى الخارج ، وقد نظر القدماء الى هذه النقيصة على أنها فضيلة حيث انهم كانوا انفسهم لا يتخلون عن نعرتهم الوطنية أو القبلية .

وللتعرف على النحلة يجب اولا أن نميزها ، فجسمها ـ ككل الحشرات ـ ينقسم الى ثلاثة اجزاء واضحة ، الرأس والصدر والبطن ، ويوجد على جانبي الرأس عينان مركبتان كبيرتان وفى اعلى الرأس توجد ثلاث اعين بسيطة غائرة مثل الخرز ، مرتبة فى شكل مثلث ، وفى مقدمتها يوجد قرنا الاستشعار ، بينما فى اسفلها الفم الذى له زوج من الفكوك القوية ، بينهما عضو أنبوبي طويل يسمى باللسان ، تلعق به النحلة رحيق الأزهار .

والصدر وهو الجزء الأوسط يحمل الارجل الست وزوجي الأجنحة الغشائية ، ولأنه يحمل اعضاء الحركة والطيران فهو جزء عضلي أكثر من أى جزء آخر من الجسم ، ولذلك فالزنبور حينما يصطاد نحلة فانه يقطع راسها وبطنها ، ويحمل الصدر المليء باللحم فقط الى عشه ، وأرجل النحلة الخلفية متحورة تحورا بارعا لجمع وحمل حبوب اللقاح ، وبذلك فهي تعرف بسلال حبوب اللقاح .

والبطن يقع خلف الصدر ويتصل به بواسطة الخصر الذى يبدو رفيعا جدا لحمل هذا الجزء الثقيل من جسم الحشرة ، ولكنه وثيق الاتصال بالصدر بواسطة عضلاته القوية ، وهو يسمح للبطن بالتحرك بحرية فى جميع الاتجاهات تقريبا ، وتتكون البطن من عدة عقل عريضة ترتبط مع بعضها البعض مثل اجزاء المنظار « التلسكوب » وتقع فيها أعضاء الهضم والاخراج والتكاثر ، وتختبىء فى مؤخرة الحشرة أداة اللسع ، وهي تعرف بالحمة أو الزبان ، وأسفل البطن يوجد عدد من الغدد الشمعية تفرز سائلا لزجا يتحول الى قشور عند ملامسته للهواء .

تتكون مستعمرة النحل من عدد من الأفراد يتراوح ما بين ٤٠٫٠٠٠ و ٨٠٫٠٠٠ نحلة ، اى انها توازى تعداد مدينة متوسطة الحجم ، هذا بالاضافة الى عدد كبير من اليرقات فى مختلف اطوار النمو ، وكذلك البيض والعذارى المختبئة فى بيوتها . وفى المستعمرة ثلاثة انواع من الأفراد يتميز بعضها عن بعض فى الشكل والتركيب ، هي الملكة والذكور والشغالة .

والملكة هي اكبر أفراد المستعمرة حجما ، وهي الأنثى الكاملة فى مملكة النحل ، وبذلك فان مصير العشيرة كلها يعتمد اعتماداً تاما عليها ، فهي الوحيدة التى تستطيع وضع البيض ، ويعتمد عليها استمرار النوع ، ولو نظرنا الى الملكة لوجدنا ان بطنها اطول من باقي افراد المستعمرة بشكل واضح ، ولا تتحور ارجلها الى سلال اللقاح ، وليست لها غدد شمعية ولا غدد بلعومية ، وزبانها اقصر من زبان الشغالة ، وهي لا تقوم بأداء اى عمل من الأعمال داخل المستعمرة سوى وضع البيض ، وعمر الملكة طويل ، فهي تعيش نحو خمس سنوات او تزيد ، وتنتج من البيض ما يصل الى المليون ونصف المليون بيضة طوال حياتها.

أما الذكور ويوجد منها فى المستعمرة بضع مئات فهي وسط فى حجمها بين حجم الأفراد جميعا ، وليس لها زبان ـ حيث ان هذا العضو صفة انثوية ـ ووظيفتها الوحيدة فى الحياة تلقيح الملكة ، ولذلك تحورت اعضاؤها الجسدية بطريقة تؤهلها للقيام بهذا العمل ، فأعضاء الشم فيها قوية تساعدها على التعرف على الملكة عند طيرانها خارج الخلية للتزاوج ، وعيونها اكبر حجما من عيون باقي الأفراد ، واجنحتها أقوى من الملكة ، وبذلك تستطيع

اللحاق بها فى الجو وامساكها لاتمام عملية التلقيح ، وهي تقوم بهذه العملية مرة واحدة ، وتختزن الملكة الحيوانات المنوية كلها التى انتقلت اليها فى اثناء عملية التزاوج طوال حياتها وتستخدمها فى اخصاب البيض .

أما الشغالة فهي أصغر أفراد النحل جميعا وأكثرها عدداً ، وهي اناث عقيمة غير قادرة على التناسل ، وتمتاز بنشاطها الزائد ، والتفاني فى أداء الواجب ، وتقع على عاتقها جميع الأعمال اليومية اللازمة لحياة المستعمرة وازدهارها ، فهي تعنى بالصغار وتقوم باطعامها ، وتحافظ على نظافة المستعمرة وتهويتها والدفاع عنها من كل دخيل ، وتمتص الرحيق من الأزهار وتحوله فى حوصلتها الى عسل شهي ، وتجمع حبوب اللقاح من مختلف أنواع النباتات ، وتفرز الشمع من الغدد الشمعية تبني به الأقراص ، وغير ذلك من الأعمال التي لا تكل ولا تتوانى عن ادائها منذ مولدها الى أن تموت ، ولها من الخصائص الشكلية ما يساعدها على أداء هذه الأعمال ، فجسمها مغطى بشعر كثيف تلتصق به حبوب اللقاح ، وفى ارجلها سلال اللقاح ، كما أن حوصلتها التي تسمى أحيانا كيس العسل تتسع لقدر كبير من رحيق الأزهار ، وغددها اللعابية تفرز نوعا من الانزيمات تحول بها الرحيق الى عسل داخل الحوصلة ، وتخرجه النحلة بعد ذلك وتطعم بالبعض منه صغار النحل ، بينما تخزن الباقي ، وهي تبني بيوتها من الشمع ، وفى رأسها غدد بلعومية تفرز سائلا لبنيا غنيا بالبروتين هو الغذاء الملكي الذى تتغذى عليه صغار اليرقات ، وآلة لسعها حادة تدافع بها عن نفسها وعن مستعمرتها ، فتلسع بها كل من يحاول الاعتداء عليها ، وهي تعيش من ثمانية أسابيع الى سنة .

ويسكن النحل فى حالته المستأنسة خلايا خشبية يزوده بها مربيه أو كما يسمى « النحّال » وهي على هيئة صندوق من الخشب له فتحة جانبية صغيرة يخرج ويدخل منها النحل ، وهو ذو غطاء متحرك ، ومزود من الداخل بعدد من الاطارات الخشبية المعلقة تمكن النحل من بناء أقراصه ، ويمكن رفعها بسهولة عندما تحتاج الى اصلاح ، أو عند ابدالها بعد أن تمتلىء بالعسل ، ويتكون القرص الواحد من عدة آلاف من الغرف أو العيون الشمعية التي تبنيها الشغالة لتربي فيها صغارها وتخزن فيها العسل الفائض عن حاجتها وحبوب اللقاح ، وهذه الغرف أو العيون ذات شكل سداسي منتظم ، تبنيها الشغالة حول محور وسطي ، تتفرع منه باقي العيون على الجانبين ، وقاعدة كل عين مجوفة تجويفاً بسيطا ، بحيث تنطبق تماما وبمهارة مع قواعد العيون المقابلة وتجعل الاستفادة من كل الفراغ المتاح على أحسن ما يكون ، وتميل كل عين ميلا بسيطا ناحية الجدار الوسطي حتى لا ينسكب العسل منها ، وتتحد جدران العيون لتكون هذا الشكل السداسي المنتظم ، ومن الغريب حقا أن تختار نحلة العسل لعيونها الشكل السداسي وليس الشكل المستدير كما يفعل النحل الطنان القريب الشبه فى عاداته من نحلة العسل ، أو الشكل المربع او أى شكل آخر ، ولكن قد يزول تعجبنا اذا علمنا انها اذا اختارت اى شكل آخر لبناء عيونها فليس فقط أن المساحة المتاحة لا تتسع الا لعيون أقل فحسب بل ولسوف تستخدم النحلة مادة أكثر بكثير للبناء ، فمن الناحية الهندسية فان العيون السداسية التي تشترك مع بعضها البعض فى الجدر الجانبية اكثر توفيراً من مادة البناء المستعملة ، واكثر استغلالا للمكان المتاح ، والواقع أن النحلة قد الهمت منذ مدة طويلة ان هذا الشكل هو أنسب ما يمكن أن يتبع كيف توصلت النحلة الى هذا علم ذلك عند الله القوى العزيز الذى وسع كل شىء علماً .

وعند بناء الأقراص تفرز الشغالة الشمع من الغدد الشمعية اسفل بطنها ،والشمع مادة دهنية يخرج على هيئة قشور تزيلها الشغالة

بأرجلها ، وربما تخلطها بقليل من لعابها فتحولها الى كتلة لزجة نوعا ما ، لتستطيع تشكيلها بواسطة فكوكها القوية ، ومن هذه العجينة تبني الشغالة الأقراص تدريجيا .

وتحتوى خلية النحل على ثلاثة أنواع من العيون .. عيون سداسية الشكل وكبيرة الحجم نسبيا تضع فيها الملكة بيضا غير مخصب ، وهذا البيض سوف ينتج عنه الذكور ،وعيون سداسية أصغر قليلا فى الحجم تضع فيها الملكة بيضا مخصبا ينتج عنه الشغالة ، وبيوت أسطوانية مستطيلة قليلة العدد تضع الملكة بداخلها بيضا مخصبا ينتج عنه ملكات المستقبل .

ولا يوجد فرق واضح بين البيض الذى تضعه الملكة جميعه ، فهو مستطيل الشكل ، ليس بالصغير نسبيا فى الحجم ، اذ أنه لو وزنا ١٥٠٠ بيضة من هذا البيض لوجدناها تعادل وزن الملكة الأم التي وضعته . وعندما تبدأ الملكة فى وضع البيض فانها تمد رأسها داخل العين تتحسسها لتتأكد من أنها فارغة ومناسبة لتضع فيها بيضة ، ثم بعد ذلك تدلي بطنها فى الداخل ، وتظل ساكنة لبضع ثوان ، وعندما تسحب بطنها نستطيع رؤية البيضة المستطيلة فى قاع العين ، بينما تذهب بحثا عن عين فارغة اخرى لتضع بيضة ثانية ، وهكذا ، وهي تختار لهذا الغرض العيون التي فى منتصف الأقراص فقط ، ولو راقبناها من خلال خلية المراقبة ــ وهي خلية خاصة ذات جدر زجاجية ــ لوجدناها تمشي ببطء وجلال بين العيون ، وهي تؤدى هذه العملية . . والملكة تضع فىالربيع وأوائل الصيف نحواً من ١٥٠٠ ــ ٢٠٠٠ بيضة فى اليوم الواحد اى أنها تضع فى المتوسط بيضة فى كل دقيقة ليلا ونهاراً ، والواقع أنها تمر بفترات راحة قصيرة ، ثم تضع البيض بسرعة بين هذه الفترات ، والبيض ينمو بسرعة داخلها ، وبذلك يمكننا أن نفهم لماذا لا تؤدى الملكة اى عمل آخر غير هذا العمل .

ذكرنا أن الملكة تستغل العيون الوسطية من الأقراص لتضع فيها البيض ، أما العيون الأخرى التي تحيط بها فتخزن فيها الشغالة حبوب اللقاح ، بينما العيون الخارجية من الأقراص تخزن فيها فائض العسل .

بعد ثلاثة أيام من وضع البيض يفقس عن يرقات تتولى الشغالة فى الحال اطعامها ، ويرقات النحل جميعا من حيث الشكل والتركيب واحدة كلها ، ولا تختلف عن بعضها البعض عند خروجها من البيضة . وفى المرحلة الأولى من حياتها تطعمها الشغالة دون تفرقة بالغذاء الملكي أو الهلام الملكي الذى تفرزه من الخلايا البلعومية التي فى رأسها والتي سبق ذكرها ، والهلام الملكي سائل لبني غني بالفيتامينات وخاصة حامض البانتوثينات والبيوبترين ، وبعد ثلاثة أيام تمارس الشغالة عملية التفرقة الطبقية ، فتستمر فى اطعام اليرقات الملكية بالغذاء الملكي ، بينما تعطي يرقات الشغالة والذكور « خبز النحل » وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح ، ويجدر بنا فى هذا المقام ان نذكر أن التجارب اثبتت بشكل واضح أن هذه التفرقة فى الغذاء هي السبب الوحيد فى تحويل بعض اليرقات الى ملكات وبعضها الآخر الى شغالة ، فقد نقلت اليرقات الحديثة الفقس من عيون الشغالة الى عيون الملكات واطعمت طوال حياتها بالغذاء الملكي فصارت فى النهاية ملكات ، والعكس فى ذلك صحيح ، حيث أن اليرقات التي نقلتمن عيون الملكات الى عيون الشغالة أصبحت شغالة نحل بدلا من ملكات !!

وتكمل اليرقات نموها خلال ستة أيام يزيد فى اثنائها وزنها نحواً من خمسمائة مرة وبلغة الانسان فان الطفل حديث الولادة اذا غذّي بهذا القدر يصل وزنه الى نحو من طن ونصف طن من الأرطال. وبعد أيام ستةتبدأ اليرقات فى التحول الى عذارى ،عندئذ تغزل حولها نسيجا كثيفا من الحرير تسكن فيه تماما وتتحول الى عذراء ، وعند هذه المرحلة تقفل الشغالة العين

حتى تتيح لها السكون التام الذى يتطلبه هذا الطور من حياتها . وبعد اثني عشر يوما اى نحو ثلاثة اسابيع من وضع البيض يفتح الغطاء وتخرج النحلة الكاملة من عينها ، ودورة الحياة هذه هي دورة حياة الشغالة ، ولكن الذكور تلزمها ثلاثة أيام أخرى أكثر من الشغالة لتتم ، بينما تستغرق دورة حياة الملكة فترة أقل من الشغالة بخمسة أيام .

تظل الملكة تضع بيضها منذ أوائل الربيع وحتى نهاية الخريف ، ويمكننا أن نجد النحل فى جميع مراحل النمو مابين أوائل مارس حتى أكتوبر واكثر من الف شغالة صغيرة تخرج من الخلية يوميا خلال اشهر الصيف وبنفس هذا المقدار أيضا يتوفى النحل المتقدم فى العمر أو الذى يقع له حادث فى أثناء طيرانه خارج المستعمرة وحالما يخرج النحل الذى اكتمل نموه من العيون تشرع الملكة فى ملئها فوراً بالبيض ، ولاتقتصر عناية الشغالة بالصغار خلال مرحلتها اليرقية ، ولكنها تمتد حتى تتم نموها وتخرج حشرة كاملة ، فهي لا تحتاج فى كل هذه المرحلة الى الطعام فحسب ، ولكن يجب أن تظل درجة الحرارة داخل الخلية ثابتة عند درجة ٩٥ ف اللازمة للنمو ، وتقوم الشغالة بتثبيت درجة الحرارة عند هذه الدرجة ، فهي فى هذا تشبه جسم الانسان والفقاريات الأخرى الذى تظل درجة حرارته ثابته . ففى أيام الشتاء الباردة تتجمع الشغالة بالآلاف داخل الخلية على العيون التي بها الصغار وبذلك تجعل من نفسها غطاء ، وتعطى من حرارة أجسامها الحرارة اللازمة بينما فى أيام الصيف الحارة تحضر الشغالة قليلا من الماء وتغطى الاقراص بطبقة رقيقة منه وتروّح عليها بأجنحتها ، وهي تبدو فى هذا العمل وكأنها أجهزة تهوية حيّة تدفع الهواء الحار نحو فتحة الخلية . وهذا العمل ينتج عن شعور غريزى فى الشغالة بدرجة الحرارة الصحية المناسبة التي يبدو أن الانسان لا يمتلكها بمثل هذا الكمال ، يضاف اليه التعاون الوثيق بين أفراد المجتمع كله .

وفى الربيع ، اى بدء موسم تكاثر النحل وموسم الازهار ووفرة الطعام ، يبدأ النحل فى عملية التطريد ، وهي بداية تكوين مستعمرات جديدة من النحل . . فعند قرب خروج الملكات الجديدة من العذارى ، وهي عادة نحو ست ملكات أو تزيد قليلا فى كل عام ، تبدأ الملكة القديمة وكثير من الشغالة فى التجمهر عند مدخل الخلية ، ثم بعد ذلك ينشطن جميعا مرة واحدة ، وتملأ الشغالة حوصلتها بالعسل ، وتخرج من الخلية وتطير فى الهواء فى دوائر تتقدمها الملكة ، وبعد فترة تستقر الملكة على فرع شجرة أو أى شيء آخر مماثل ، وتتبعها الشغالة فى الغالب منجذبة اليها برائحة معينة هي رائحتها الملكية ، (وفى هذه اللحظة من الخمول يجمعها النحال ويضعها فى خلية جديدة فارغة يعدها لها ، وبذلك يحصل على مستعمرة جديدة) . بعد ذلك تنفصل مجموعة من الشغالة وتطير لتبحث عن مسكن جديد مناسب فى جذع شجرة مجوف ، وعندما تجد ضالتها تعود وتحرك المجموعة كلها التي تطير وراء هذه الشغالة الكشافة وتستقر فى المنزل الجديد لتبدأ مستعمرة جديدة .

ويضم سرب النحل هذا نحوا من ٢٠,٠٠٠ فرد من افراد النحل أو يزيد بجانب الملكة ، اى نحو نصف المستعمرة القديمة التي يظل بها باقي النحل بدون ملكة حاكمة بعد أن هجرته الملكة الأم ، ولكن بعد ايام قليلة تخرج أولى الملكات الجديدة ، ولكنها لا تحل محل أمها فى الحال ، لأنها لا تستطيع ذلك من الناحية الفيسيولوجية ، فهي ما تزال عذراء غير قادرة على وضع البيض ، ولا يمكنها أن تقوم بذلك الا بعد أن تطير فى الجو فى « طيران التزاوج » ولذلك فانها تنشط وتخرج من الخلية بمصاحبة بعض الشغالة والذكور التي تتنافس عليها ويتزاوج احدها معها فى طبقات الجو العليا ، عندئذ تعود ثانية الى خليتها بمصاحبة رهط الشغالة والذكور التي خرجت معها ، وفى هذه الأثناء تكون باقي الملكات فى المستعمرة قد كمل نموها وخرجت من طور

العذراء ، ولكن هذه الملكات تظل فى بيوتها خوفا من مهاجمة الشغالة لها ، أو خوفا من ملكة المستعمرة الجديدة . ومن الغريب حقا انه فى أثناء غياب الملكة الجديدة فى طيرانها التزاوجي خارج الخلية لا تحاول الشغالة قتل الملكات الأخرى ــ حيث أن مستعمرة النحل لا يجب أن يكون فيها أكثر من ملكة واحدة ــ بل تطعمها عندما تمد السنتها من خلال فتحة صغيرة فى غطاء عيونها ، ولكن حالما تعود الملكة الجديدة سالمة من طيرانها التزاوجي تبدأ هذه الأخيرة والشغالة معها فى مهاجمة هذه الملكات وقتلها ثم تلقيها الشغالة خارج الخلية .

ولكن قد يحدث ان تكوّن ملكة من هذه الملكات سربا آخر فتهاجر مع عدد من الشغالة وتنشىء مستعمرة أخرى جديدة .

وعندما تبسط ملكة المستعمرة الجديدة نفوذها تبدأ الشغالة فى جر الذكور ــ التي أصبحت الآن عديمة الفائدة بعد أن تم تلقيح الملكة التي تتلقح مرة واحدة طول حياتها وصارت عبئا ثقيلا على المستعمرة ــ الى خارج الخلية ، وتقاوم الذكور فعل الشغالة هذا ، ولكن هذه الأخيرة تلسعها وتعضها الى ان تنجح أخيرا فى طردها خارج المستعمرة وتركها فى العراء لتموت جوعا . ومن هنا نرى أن جماعة النحل تختلف عن الجماعات الانسانية، فى أنها تتخلص من أفراد مجتمعها الذين أنهوا دورهم فى الحياة وأصبحوا عالة على مجتمعهم .

وحياة شغالة النحل مليئة بالحركة والنشاط ،دأبها فى ذلك العمل البناء المتواصل من يوم أن تخرج من العذراء حتى وفاتها . والواقع أنها فى هذا المجال تمر بثلاث مراحل استنتجها بوضوح العالم الألماني «روش» Roche الذى راقب النحل وعاداته من خلال خلية المراقبة، فقد وجد أن جميع الأعمال الضرورية لاستمرار حياة المستعمرة (التي تدوم عادة نحو ست سنوات متصلة تتفرع فى أثنائها مستعمرات أخرى جديدة منها) ، تقوم بها شغالة النحل خلال فترة عمرها ، ولكن قيامها بهذه الأعمال يتم فى تتابع زمني محدد ،أى ان قيامها بكل عمل من هذه الأعمال يحدده عمرها ، وبذلك فانها فى الخلية الواحدة ذات الشغالة من مختلف الأعمار يصبح توزيع العمل بينها متوقفا على عمرها . وقد تبين «روش» من تجاربه أن الشغالة الصغيرة حال خروجها من العذراء تبدأ المرحلة الأولى من حياتها ، فعملها خلال هذه الفترة ينقطع داخل الخلية التي لا تغادرها على الاطلاق ، فهي التي تعد العيون الشمعية التي خرج منها النحل حديثا لاستقبال البيض الجديد ، وتعمل على تهوية المستعمرة ، وتبقى درجة الحرارة داخلها ثابتة ، وتطعم اليرقات الكبيرة فى العمر بخبز النحل ، وفى يومها السادس تكون غددها البلعومية قد كمل نموها، فتبدأ فى تغذية اليرقات الملكية بالغذاء أو الهلام الملكي (وهذه هي المهمة الأساسية المنوطة بالشغالة فى هذه الفترة من حياتها) ، أما فى اليوم العاشر من حياتها فتكون غددها البلعومية قد ضمرت فى الحجم ، وتكون المرحلة الأولى من حياتها قد قاربت على الانتهاء فتستعد لمغادرة الخلية لتصرف نشاطها فى الخارج ،وفى مبدأ الأمر عند مغادرتها للخلية لا تذهب بعيدا فى طيرانها ، ولكنها تقصر نشاطها حول الخلية لفترة قصيرة ، حيث تعود ثانية بعد خمس دقائق ، وهذا الطيران يقال له الطيران الاستكشافي أو التوجيهي ، وتكون قد قامت فى أثنائه بفحص كل ما يحيط بالمستعمرة من معالم ، وتكون لديها انطباع واضح عن البقعة التي تعيش فيها المستعمرة . وقد وجد «روش» أنه اذا أمسك بواحدة من هذه الشغالة خلال هذه المرحلة ثم اطلقها فانها تجد طريقها الى الخلية حتى من على بعد عدة مئات من الأمتار . وتنمي الشغالة معلوماتها عن المنطقة التي فيها المستعمرة بتكرار هذا الطيران الاستكشافي .

ومن اليوم العاشر الى اليوم العشرين تبدأ المرحلة الثانية من حياتها ، فقد انتهى عهدها كمربية للأطفال ، ونمت غددها الشمعية ، وعندئذ تبدأ فى بناء الأقراص والعيون ، وهنا تتحول الى بناءة ومصممة على غاية من المهارة

والاتقان ، ومن مهام هذه الفترة أيضا تسلم العسل من الشغالة جامعات حبوب الرحيق الاكبر منها عمراً ، وتكمل صنعه وتخزنه فى مخازن العسل ، وتسلم حبوب اللقاح من جامعات حبوب اللقاح وتضعه فى العيون المخصصة له ، وهي تجمع الفضلات وأجساد النحل الميتة وتلقيها خارج الخلية ، فالنحل شديد اشد الحرص على نظافة منزله ، وتقوم أيضا فى هذه الفترة بحراسة الخلية من الدخلاء ، وفى الواقع أن بعض شغالة النحل فى هذه السن تظل منتصبة عند مدخل الخلية تتحسس النحل الذى يأتي قربه فتتعرف عليه وتسمح بدخول مواطنيها وتهاجم من تشعر أنه غريب عنها حتى لو كان نحلا من أفراد مستعمرة قريبة من خليتها .

ومن اليوم العشرين وحتى وفاتها ، وهي الفترة التي تمر فيها الشغالة بالمرحلة الثالثة من حياتها ، يقتصر عملها على الحقل . وهي تلقب حينئذ « بالنحلة الجوالة » لأنها تتجول هنا وهناك بين الأزهار،جامعة الرحيق وحبوب اللقاح ، وكلما جمعت منه ما تستطيع حمله عادت الى الخلية حيث تسلمه للشغالة المختصة الأصغر منها عمرا ، وتعود لتؤدى مهمتها هذه من جديد ، وتفضل النحلة العمل دائما فى جو صحو ، فاذا ساء تعود الى أعمالها المنزلية وتستأنف نشاطها ثانية فى الحقل عندما يعود الجو ثانية الى الصفاء ، وشغالة النحل تؤدى عملها دائما دون كلل أو ملل ،من الصباح الى بعد الظهيرة ، وبذلك يتضح لنا صحة المثل الدارج « نشيط كالنحلة »

دعنا الآن نتأمل شغالة النحل التي تصرف جل نشاطها خارج الخلية ، تنتقل من زهرة الى اخرى جامعة الرحيق ، اذا كانت من جامعات الرحيق ، أو حبوب اللقاح اذا كانت من جامعات حبوب اللقاح ، ثم تعود الى خليتها بغاية الدقة والاتقان ، لتفرغ حملها ثم تكر عائدة مرة اخرى الى الأزهار لا تخطىء طريقها ولو مرة واحدة سواء فى الغدو أو فى الرواح .

وملاحظة شغالة النحل وهي تقوم بهذا النشاط يمكن القيام به اذا وضعنا علامات مميزة على صدور شغالة النحل التي نود مراقبتها ليسهل تمييزها، وقد قام العالم الألماني « فون فريتش » Von Frisch باجراء تجاربه على هذا النحو ، وخلص الى أن النحلة عندما تقف على زهرة ما ، ولتكن زهرة البرسيم مثلا ، فانها تتحسس بلسانها مكان وجود كيس الرحيق ، وعندما تجده تحاول ارتشاف ما به من رحيق، ثم تنتقل الى زهرة أخرى من زهور البرسيم ، وتكرر نفس العملية ، على الرغم من وجود زهور أخرى كثيرة من حولها لا تعيرها أدنى أهتمام ، وعندما تمتلىء حوصلتها تطير عائدة الى الخلية ، ثم تعود ثانية الى زهور البرسيم لتكرر نفس نشاطها السابق .

وقد تكون هناك مجموعة اخرى فى نفس الوقت ترتشف رحيقها من زهور البرتقال وليس من غيرها ، ومجموعة ثالثة من زهور من نوع ثالث وهكذا .. ويقوم هذا النحل فى الأيام التالية بجمع الرحيق من نفس الزهور التي جمع منها فى اليوم السابق وليس من غيرها ، وقد عرف فون فريتش هذه الظاهرة بأن لدى النحلة خاصية « ثبات الأزهار » وهي التي يعزى اليها السبب فى اختلاف نكهة العسل الذى نقتطفه من النحل فى المواسم المختلفة من السنة .

وتفيد هذه الخاصية النحل والأزهار على السواء ، فبانتقال النحلة من زهرة الى أخرى من نفس نوع النبات فانها بذلك تعمل فى ظروف اعتادت عليها ، فالنحلة عندما تحط على زهرة للمرة الأولى تقوم بعملية استكشاف دقيقة باحثة عن كيس الرحيق بواسطة لسانها الذى تمده تتحسس به الزهرة ، وتظل تقوم بهذا المجهود حتى تقع على موضع الكيس ، وبعد أن تزور الزهرة خمس أو ست مرات تكون فى النهاية قد تعلمت وتعرفت بوضوح على مكان الكيس ، واصبحت تؤدى عملها بغاية الاتقان ، ومن يراقب المجهود الذى تبذله

النحلة للتعرف على كيس الرحيق سوف يقدر الجهد والوقت الذي توفره النحلة بجمعها الرحيق من نفس نوع الزهرة وكونها ذات خاصية « ثابتة للأزهار » .

أما الفائدة التي تجنيها الأزهار من خاصية النحلة هذه فهي تحقيق عملية التلقيح ، اذ ما فائدة حبوب لقاح البرسيم لزهرة البرتقال مثلا ؟

وتحملنا هذه الخاصية أيضا على التأمل في الكيفية التي تتعرف بها النحلة على زهرة معينة دون غيرها من الأزهار التي حولها بهذه الدقة والمهارة الجديرتين بالاعجاب ، وقد أجاب فون فريتش على هذا التأمل بعدة تجارب بارعة ، اثبت منها أن الرائحة التي تنبعث من الزهور هي احد العوامل المهمة التي تتعرف بها النحلة على الزهرة ، فقد اثبت أن النحل يستطيع أن يشم العطور ويميزها من بعضها البعض ، ويتذكرها بدقة كبيرة . فقد تعرف النحل في تجاربه على عطر زهرة السنبط من بين ثلاثة وأربعين نوعا آخر من الزيوت العطرية المماثلة ، ولكنه اثبت في الوقت نفسه أنها لا تستطيع تمييز هذه الروائح الا اذا وصل تركيزها الى نفس مقدار التركيز الذي يستطيع الانسان ان يتعرف عليه ، فهي اذن شبيهة بنا من هذه الناحية ،وبذلك أمكن لفون فريتش ايضاح خاصية « ثبات الأزهار » عند النحل حيث انه لا توجد زهرتان من نوعين مختلفين من النبات لهما نفس الرائحة .

ومن تجارب فون فريتش أيضا اثباته ان النحل يمكنه تمييز لون الزهرة بجانب رائحتها، وهذان العاملان هما القوتان اللتان توجهان مجهودات شغالة النحل ، ولكن الدور الذي يلعبه كل من هذين العاملين يعتمد على زهو لون الزهرة وقوة الرائحة المنبعثة منها . وعلى العموم فقد وجد من تجاربه أن لون الزهرة هو العامل الذي يجذب النحل من بعد ، بينما الرائحة هي التي تجذبه عندما يكون قريبا منها .

يتضح مما سبق أن النحلة تمتلك خاصيتين قويتين هما حاستا الشم والابصار ، وعلاوة على ذلك فانها ايضا ــ مثل الحشرات الأخرى ــ ذات حساسية عالية للكيماويات تعادل حساسيتنا نحن للشم والذوق معا . فمن قديم عرف أن الحشرات ذات حساسية كبيرة للمواد الطيارة وان مركز هذه الحساسية هي قرون الاستشعار ، ولذلك نرى أن هذه الأعضاء التي تبرز من مقدمة الرأس تتحرك بحرية وباستمرار لتعطي الحشرة وسيلة لاكتشاف الهواء المحيط بها بطريقة أفعل من دخول جزئيات المادة ذات الرائحة الى حجرة أنفية كما هي الحال في الانسان والفقاريات الأخرى التي تعيش على الأرض . وقرون الاستشعار ذات حساسية عالية للمس أيضا، فانها تمد الحشرة بوسائل تختلف عن تلك التي توجد في الانسان ، وقد يكون هذا الادراك هو جمع بين حاستي الشم والشكل معا ، تماما مثل أعيننا واصابعنا التي تعطينا معا صورة مجسمة للأشياء نتيجة للجمع بين النظر والشكل .

واذن فان حاسة الشم في النحلة توجد في قرون استشعارها ، واذا فحصنا هذه الأعضاء تحت المجهر نجد أن العقل الثماني الأخيرة تمتلك بجانب الشعر والاشواك الحسية المنتشرة عليها، عددا كبيرا من الصفائح الرقيقة، واذا غطيت هذه العقل بفازلين أو بشمع أو بأي مادة أخرى غير منفذة،او قطعت، فان النحلة تفقد حساسيتها للرائحة واستخلص فون فريتش من ذلك أن فقدان حساسية الشم في الحشرة تسبب عن حرمانها من أعضاء الشم ، وليس نتيجة للصدمة التي تسببت عن قطع قرون الاستشعار كما كان الاعتقاد من قبل . . وعموما فقد بينت البحوث التي أجريت على مختلف الحشرات أن حاسة الشم توجد أساسا على قرون الاستشعار ، وانه اذا فقدت هذه الأعضاء فان هذه الكائنات تصبح غير قادرة كليا أو جزئيا على الاحساس بالروائح .

وتلعب الرائحة دورا حيويا في حياة النحل

ـ بل وفى حياة كثير من الحشرات ـ فالذكر يتعرف على الملكة برائحتها المميزة وهي طائرة فى الهواء ، وهو قادر على تمييزها من الشغالة المحيطة بها، وأيضا تتعرف الشغالة على بعضها البعض وعلى الأفراد الأخرى من مستعمرتها بالرائحة وكذا الازهار المختلفة .

والانتقال من حاسة الشم الى حاسة الذوق فى الحشرات انتقال تدريجي ، ومن المحتمل أن الحشرات فى كثير من الأحيان لا تدرك الشم والذوق كحاستين واضحتين منفصلتين ، وقد اوضح « مارشال » J.Marshall 1935 أن هاتين الحاستين منفصلتان ، ولكن يغلب على الظن أن الملامس الفكية واعضاء الحس على السطح السفلي للشفة العليا ملائمة لتلقي المؤثرات الكيميائية باللمس فقط ، ومن ذلك فانها تؤدى وظيفة أعضاء الذوق ، اما أعضاء الحس فى قرون الاستشعار فهي تدرك الروائح باللمس والشم معا .

والصفائح الحسية الموجودة على قرون الاستشعار فى النحلة ما هي الا اغشية رقيقة تغطي قنوات ضيقة تفتح على سطح «الكيتين» Chitin المغطى لقرون الاستشعار وتمتد عبر هذه القنوات نهايات عصبية رفيعة تتصل بالعصب الشمي من المخ ، والروائح الطيارة التي تنتقل من الهواء يمكنها أن تصل بسهولة الى هذه الأغشية ثم منها الى النهايات العصبية فى قرون الاستشعار . والشعر الدقيق الذى ينتشر علي قرني استشعار النحلة بين هذه النقر الحسية أعضاء مهمة للمس ، وهي أيضا مزودة بنهايات عصبية دقيقة تستطيع أن تدرك الأشياء باللمس ، ولذلك فان النحلة فى ظلام الخلية تستطيع أن تلمس الأشياء لتفحصها ، وهي أيضا تستطيع أن تتعرف عليها من بعضها البعض ، سواء كانت هذه الأشياء العيون الشمعية أو العسل أو البيض أو اليرقات ، الى آخر هذه الأشياء ، فهي بهذه الوسيلة تكتسب انطباعين : انطباع اللمس والشم معا فى نفس الوقت ، ويطلق على هذه الظاهرة أن النحلة يمكنها أن تشم شما تشكيليا ، وهذا تفوق على الانسان ، حيث ان العضو المقابل لقرون الاستشعار لديه وهو الأنف لا يمكنه أن يشم الا الروائح الطيارة التى تنتقل اليه من الهواء وتنفذ بسهولة الى الفشاء المخاطي الذى يبطن انفه ، وهذا الانف لا يعنيه على الاطلاق ما اذا كان هذا الشيء الذى تنبعث منه الرائحة كبيرا أم صغيرا ، طويلا أم قصيرا ، وهو بدون الأعين لا يستطيع ان يدرك هذه الأمور ، لان الرائحة لا تخبره بهذه المعلومات .

واظهر العديد من التجارب ايضا ان النحلة عندما وضع أمامها العسل النقي أو المخلوط بانواع مختلفة من المواد فان ٣٥ ـ ٤٠٪ منها فضلت العسل النقي ، ولم تتناول أى واحدة منها العسل المخلوط بزيت النعناع أو حامض الكربوليك ، بينما تناولت ٢٢٪ منها العسل المخلوط بالويسكي و ٢٩٪ العسل المخلوط بالخل ، وعندما خيرت النحلة بين صنفين من السكر احدهما مضاف اليه الكينين والآخر الاستركنين اختارت ٤٩٪ منها الكينين و ٤٪ فقط الاستركنين ، دالة على أن النحلة بحاسة ذوقها استطاعت أن تفرق بين نوعي المحلول اللذين لم يستطيع الباحث الذى قام باجراء هذه التجارب أن يفرق بينهما ، ومن الغريب حقا أن النحلة لم تتناول السكر المخلوط بسيانيد البوتاسيوم القاتل ، ولكنها تناولت السكر المضاف اليه فيروسيانيد البوتاسيوم وهو من الأملاح غير الضارة .

والحاسة الأخرى المهمة فى حياة النحلة هي حاسة الابصار . ففي النحلة كما جاء من قبل ، نوعان مختلفان من الأعين ، مثلها فى ذلك كمثل كثير من الحشرات الأخرى ، والنوع الأول هي العيون المركبة أو العيون ذات السطيحات السداسية الشكل بينما النوع الثاني هي العيون البسيطة وكلاهما يتركب بطريقة مختلفة تماما عن أعيننا ، فكل عين من العيون المركبة تتكون من عدد من

العدسات الدقيقة المركزة للضوء تسمى بالسطيحات ، يوجد أسفل كل منها وحدة بصرية كاملة تتصل بدورها بالعصب البصرى ، ولا يسمح المجال هنا بشرح التركيب المعقد للعين المركبة شرحا وافيا ، ولكن يكفي أن نقول ان كل سطيح سداسي ينظر فى اتجاه يختلف قليلا عن باقي السطيحات الأخرى وبذلك فأن الوحدات البصرية فى مجموعها تكون صورة فسيفسائية غير واضحة للمرئي تتكون من اجزاء عديدة منفصلة كل منها يمثل جزءاً صغيراً من اجزاء المرئي ينقلها السطيح السداسي الذى يقع فى ناحيتها ، وتتكون الصورة الفسيفسائية من التحام أجزاء عديدة من الصور تعطي فى النهاية صورة عامة للمرئي تماما مثل الصور التى تنشر فى الصحف ، وتتكون من عدد كبير من النقط المضيئة والمظلمة المختلفة فى شدة اضاءتها ، ووضوح الصورة التي تراها الحشرة يعتمد على عدد الوحدات البصرية المكونة للعين تماما كصورة الصحف التى كلما زاد فيها عدد النقط ودقتها كانت الصورة أكثر وضوحا، وترى الحشرات الأجسام القريبة منها بوضوح تام ولكن كلما بعدت المسافة بين الجسم والحشرة تصبح الصورة غير واضحة والعين المركبة تدرك أيضا حركة الأجسام الواقعة فى مجال رؤيتها وخاصة اذا كانت هذه الحركة مفاجئة ، ولكن الحركة البطيئة لا تدركها الحشرة ، ويمكن لعين الحشرة أن تكيف نفسها للرؤية فى النهار أو فى الليل بواسطة تركيب يعمل على تنظيم كمية الضوء الذى يقع على كل وحدة بصرية ، وتأثير هذا يشبه ضيق حدقة العين واتساعها فى الانسان ، وهذا التركيب عبارة عن مادة صبغية تتجمع أو تتفرق حول الوحدة البصرية حسب كمية الضوء الواقعة عليها .

هذا فيما يتعلق برؤية النحل للمرئيات ، أما بالنسبة للألوان فانها تستطيع أن تميزها بدليل أنها تنجلب للأزهار ذات الألوان المتعددة الزاهية ، ولكن لا يتعدى ادراكها هذا نطاق جزء الطيف الذى يراه الانسان ، فهي ذات حساسية خاصة للموجات الضوئية القصيرة التى تشمل الأشعة فوق البنفسجية التى تقع خارج النطاق الذى يراه الانسان ، وقد استطاع فون فريتش تمرين النحلة على أن تقرن غذاءها بألوان خاصة وذلك بالقيام بتجارب عديدة استطاع بها أن يحدد الألوان التي يمكن للنحلة أن تراها وتميزها بوضوح ، فوجد أنه يمكنها أن تميز بين الأصفر والبرتقالي والأصفر المشوب باللون الأخضر أو بين الأزرق والبنفسجي ولكنها لم تتمكن من التمييز بين الأحمر والأسود والرمادى الغامق ، فهي فى الواقع عمياء بالنسبة للون الاحمر ولكنها تستطيع ان تميز هذا الأخير اذا كان يعكس قليلا من الأشعة فوق البنفسجية .

وحساسية النحل لهذه الأشعة غريبة جدا ، فهو يستطيع أن يفرق بين سطحين ابيضى اللون ، عندما يعكس احدهما الأشعة فوق البنفسجية والآخر لا يعكسها ، كما تزداد حساسيته كلما كانت الأشعة قريبة من منطقة الأشعة فوق البنفسجية .

أما العيون الاخرى التى تمتلكها النحلة وهي العيون البسيطة فانها تستجيب فقط للضوء والظلام ، ولا تستطيع تكوين صورة للمرئي ، ويعتقد العلماء المعاصرون أن العيون البسيطة هي أعضاء تستخدمها النحلة للحساسية البصرية العامة .

وهناك حاسة أخرى فى النحل لم يستطع العلماء التثبت من وجود أعضائها حتى الآن ، وهي حاسة السمع ، فللنحل أصوات معروفة غير الطنين الذى يصدر عن اهتزاز الأجنحة السريعة ، فالملكة تخرج أحيانا صفيراً حاداً ، كما تصدر أصوات حادة من الشغالة حتى بعد أن تقطع أجنحتها . وأثبت الباحث « فاندر بلانك » أن النحل يتأثر بالنغمات الموسيقية ، فاذا كانت النغمة الموسيقية ذات ذبذبة تقرب من ٤٠٠ دورة فى الثانية سببت هياج شغالة النحل فى الخلية القريبة من مصدر هذه النغمة ، بينما تصاب الذكور بمثل هذا الهياج اذا

اقتربت النغمة من ٤٩٠ — ٥٠٠ دورة فى الثانية ، ومع ذلك لم يستقر الرأى حتى الآن على ما اذا كانت النحلة ذات حاسة للسمع أم لا .

وحاسة أخرى من حواس النحلة لم يعرف أيضا كنهها حتى يومنا هذا، هي حاسة الوقت التي يمكن عن طريقها للنحلة تحديد الوقت بشكل دقيق، وقد قامت بيلنج Beling عام ١٩٢٩ بدراسة هذه الحاسة وأجرت تجارب بارعة فى هذا المجال، أمكنها عن طريقها أن تدرب النحل على أن يتناول طعامه فى وقت محدد من النهار، وتعلم النحل بعد يوم واحد من التمرين أن يأتي يوميا فى نفس الميعاد لتناول الطعام ، ووجدت أيضا من تجاربها ان العوامل الجوية من اضاءة وحرارة ورطوبة وغيرها لا تؤثر فى هذه الحاسة عند النحل ، وحتى الآن أيضا لم يتمكن العلماء من تحديد العضو الداخلي الذى يسبب هذه الظاهرة عند النحل .

والواقع ان حاسة الوقت ذات أهمية بيولوجية عند النحل ، حيث تتوافق فى نشاطها مع افراز بعض الأزهار للرحيق ، أو اطلاق هذه الأزهار لحبوب اللقاح التى لا تقوم بها الا فى أوقات محددة من اليوم . وسرعان ما يتعلم النحل فى الطبيعة أن يبحث عن غذائه من الأزهار فى تلك الأوقات ، وبذلك يوفر على نفسه الكثير من مشقة البحث عن الغذاء فى غير هذه الاوقات . وقد وجد فون فريتش وغيره من الباحثين أن شغالة النحل التى لا تخرج لجمع الغذاء تقضي بقية يومها فى حالة استرخاء داخل الخلية .

ولننتقل الآن الى الكيفية التى تشق بها النحلة طريقها خارج الخلية ، فقد رأينا النحلة الصغيرة السن عندما تقوم بأول رحلة لها خارج مسكنها تقوم بعدة طيرانات تمهيدية استكشافية قرب مسكنها ، تدرس خلالها موقع الأرض المحيطة وخاصة الأشياء الظاهرة بالنسبة لموقع الخلية ، كما تستغل اللون والرائحة فى هذا المجال ، فهي تستطيع أن تتعرف على علامات معينة بجانب خليتها ، وتذكر المسافة التى تفصل هذه العلامات عن الخلية . والذى يقود النحلة الى الخلية رائحة المستعمرة المميزة عن رائحة باقي مستعمرات النحل ، ولون الخلية اذا كانت مطلية بلون تميزه . والنحلة الشغالة تفرز رائحة من غدد خاصة فى جسمها وفى وقت راحتها داخل الخلية وخاصة فى أثناء الشتاء ترى وهي متجهة برأسها نحو فتحة الخلية وبطنها متجهة الى أعلى تنثر الرائحة وهي تهز أجنحتها ، وعن طريق هذه الرائحة مهما كانت ضعيفة التركيز تستطيع النحلة أن تتعرف على خليتها .

وتهتدى النحلة ايضا الى منزلها علاوة على ذلك عن طريق خاصية التوجيه البوصلى للضوء Light Compass Reactoin ، وهي القدرة على ارشاد نفسها الى عشها بواسطة اتجاه الشمس، وقد لوحظ هذا السلوك عن قرب فى النمل أكثر منه فى النحل، فالنمل يسير فى خطوط مستقيمة ، وذلك بتحركه بحيث يعمل زاوية محددة مع أشعة الشمس ، فمثلا اذا أسرنا نملا لمدة ساعة أو تزيد فى أثناء رحلة من رحلاته ثم أطلقناه بعد ذلك فانه يشاهد وهو يتبع طريقا يعمل زاوية مع الطريق الأصلي مساوية للزاوية التى تحركتها الشمس فى أثناء ذلك الوقت وقد تتبع كثير من العلماء هذا السلوك فى النحل واهتدوا الى أن شغالة النحل الصغيرة تتعلم خلال طيرانها التوجيهي الأول بجانب المعالم المميزة فى محيط خليتها تحركات الشمس فى مكان اقامتها ، وقد اثبت فون فريتش أن هذه المخلوقات ذات قدرة فلكية أخاذة ، فقد حبس مستعمرة نحل فى قبو مظلم طوال فترة الصباح ، وأخرجها بعد الظهر ، وسمح للنحل ان يطير بحرية ، فوجد ان الشغالة الصغيرة قد لا حظت تحرك الشمس بعد الظهيرة ، وبعد ذلك اخذ هذه المستعمرة الى مكان غريب عنها كلية ، واطلق النحل طوال النهار ، فوجد أن النحل قد تمكن فى الحال من معرفة مكان مستعمرته الجديدة ، وذلك باستفادته من خبرته السابقة عن تحركات الشمس بعد

الظهيرة . وقد اظهرت النحلة انها لا تفتقر الى الذكاء ، وأن الله وهب لها ملكة التجربة والتذكر ، ولعبت الوراثة التى اكتسبتها من الأجيال السابقة دوراً هاماً فى هذا المجال .

وليست النجوم ولا القمر بذات فائدة للنحلة كما هي للانسان فى هدايتها الى الطريق الصحيح ، حيث انها تمضي الليل داخل خليتها ولكنها تحت السماء الزرقاء فى وضح النهار تفوق قدرتها قدرة الانسان ، فان عينيها تستطيعان أن تنفعلا بالضوء المستقطب واهتزازاته وهذا يفوق قدرة الانسان ، فهي بهذه الخاصية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالسماء الزرقاء ، وبقدرتها على رؤية الضوء المستقطب منها ، فانه يمكنها أن توجه نفسها حتى ولو لم تكن ترى الشمس تماما،وكيف يمكن للنحلة أن تفعل ذلك ؟ هذا ما لم يجبنا العلم عنه حتى الآن .

وقد يعجب بعضنا أن يعلم أن للنحلة لغة تتفاهم بها ، فهي من الحشرات التى تمارس الحياة الاجتماعية ، حيث المصلحة المشتركة والمصير المشترك ، وهذا التفاهم أمر ضرورى ليتم التوافق والانسجام بين الأفراد جميعا ، ويكون له أكبر الأثر فى تقدم المجتمع وتطوره ، وكان لفون فريتش الفضل فى اكتشاف لغة النحل فى نطاق بحثه عن « العوامل التى تساعد على تنسيق حواس النحلة » .

وجد فون فريتش Uon Frisch أن النحلة عندما تقع على مصدر غذاء غني ووفير فانها بعد أن تعود الى الخلية وعند دخولها تقوم بما اسماه « بالرقص » بين الشغالة الأخرى التى تراقبها بانتباه شديد ، وكانت تتوقف عن هذا الرقص بين الفينة والفينة وتعطي بعضاً مما جمعته من الرحيق الى الشغالة المحيطة بها . وبعد فترة لاحظ أن الشغالة أخذت فى مغادرة الخلية وذهبت الى المكان الذى اخبرت به دون أن تخطىء ، لتحصل على نصيبها من الرحيق بدورها . وقد ميز فون فريتش النحل الذى استخدمه فى تجاربه بعلامات خاصة ليسهل مراقبته،وبذلك استطاع أن يستنتج أن النحلة الأولى استطاعت أن تخبر أخواتها بمكان الرحيق ، وعندما عادت هذه الشغالة بعد أن حصلت على ما تريد قامت بنفس الحركات التى قامت بها النحلة الأولى ، وبدأت هي الأخرى ترقص لتعرّف مزيداً من الشغالة عن مكان وجود الشراب ، وهكذا .

وبسلسلة اخرى من التجارب أمكن للباحث أن يميز رقصتين رئيسيتين للنحل . ورقصة النحلة ما هي الا اهتزازات معينة من جسمها، اما أن تكون فى حركة مستديرة وتعرف بالرقصة الدائرية وفيها تتحرك النحلة فى دوائر صغيرة متتالية مرة الى اليمين فى اتجاه عقرب الساعة، ثم تعكس اتجاهها الى اليسار عكس اتجاه عقرب الساعة ، ثم الى اليمين وهكذا ، والرقصة الثانية هي « رقصة الذنب » وفيها تتحرك النحلة فى طريق مستقيم للأمام لمسافة قصيرة، ثم تعود الى النقطة التى بدأت منها بطريق نصف دائرى ، ثم تمشي فى طريق مستقيم ، لتعود ثانية فى نصف دائرة ولكن من الناحية الأخرى ، راسمة بذلك الشكل (8) وتظل تكرر هذه الحركات عدة دقائق مع تحريك بطنها مثل الذنب الذى تفعله عادة فى أثناء تحركها فى الخط المستقيم أى فى أثناء الجرى المهتز الذنب .

وبعد عدة دراسات شاقة وجد فون فريتش أن النحلة عندما تخرج الى الحقل لجمع الغذاء ، سواء من رحيق الأزهار أو حبوب اللقاح تعود الى الخلية وتفرغ شحنتها ثم تبدأ فى ممارسة الرقصة المستديرة اذا كانت الأزهار التى جمعت منها قريبة من الخلية ولا يزيد بعدها عن ١٠٠ ياردة ، ولكن اذا زادت المسافة عن ذلك فانها تمارس رقصة الذنب ، وهي تستطيع بهذه الرقصة أن تحدد المسافة الحقيقية بين الأزهار والخلية بعدد الدورات الكاملة للشكل (8) . فاذا كان بعد الأزهار عن الخلية ٣٠٠ ياردة فانها تدور ما يقرب من ٢٨ دورة كاملة فى الدقيقة ولكن اذا زاد البعد أكثر من ذلك حتى ٣٠٠٠ ياردة فانها تدور عدداً أقل

من الدورات قدره بـ ٩ دورات فقط . ووجد ان النحلة أيضا بالاضافة الى ذلك تستطيع أن تخبر بقية الشغالة عن الاتجاه الذى تسير فيه حتى تصل الى الأزهار ، فان النحلة المخبرة اذا قطعت الخط المستقيم فى أثناء ممارستها لرقصة الذنب عمؤديا الى أعلى كان ذلك دليلا على وجود الأزهار فى اتجاه الشمس فى هذا الوقت ، أما اذا قطعته الى الأسفل فتكون الأزهار واقعة عكس اتجاه الشمس ، واذا تحركت النحلة الى يسار الخط العمودى بزاوية خاصة كانت الأزهار موجودة فى اتجاه يمتد بنفس الزاوية الى يسار الخط الوهمي الممتد بين الشمس والخلية ، وقد تكون الشمس محتجبة بالسحب ومع ذلك لا يؤثر هذا فى قدرة النحلة على تحديد الاتجاه الذى تسير فيه سعيا وراء الغذاء ، وقد رأينا أن بقية النحل عند عودة النحلة المستكشفة الى الخلية تأخذ فى مراقبتها بانتباه زائد ، حتى تتمكن من استيعاب المعلومات التي توصلها الى المكان الصحيح دون أن تضل الطريق .

وهناك اختلاف طفيف بين رقصات جامعات حبوب اللقاح وجامعات الرحيق ، فبينما ينقل الاثنان المعلومات بنفس نوع الرقص ، نجد أن جامعات الرحيق تقرن رقصاتها برائحة الزهور الخاصة التي تعلق بجسمها ، فتشمها الشغالة الأخرى وتتعرف عليها ، أما جامعات حبوب اللقاح فانها تحضر معها الى الخلية قطعة من الزهور التي زارتها ، لأنها لا تحمل رائحة من حبوب اللقاح تستطيع أن تميزها زميلاتها .

وتستطيع النحلة أيضا أن تخبر بالرقص علاوة على الرحيق وحبوب اللقاح عن مصادر الماء ، ورقص النحل المستكشف وقت التطريد ما هو الا اخبار بالعثور على المكان المناسب لبناء مستعمرة جديدة .

وبعد فان حياة النحل مليئة بالأعمال الرائعة التي تدل فى مظهرها على الحكمة والتبصر بعواقب الأمور ، وبذلك نستطيع أن ندرك لماذا نعتها الأقدمون بالكثير من الصفات الحميدة التي لم يحظ بها أى حيوان آخر ، وقد نقل الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان الكبرى » عن أحد حكماء اليونان الذى نصح تلاميذه قائلا « كونوا كالنحل فى الخلايا » قالوا : وكيف النحل فى الخلايا ؟ قال : « انها لا تترك عندها بطالا الا نفته وأبعدته واقصته عن الخلية ، لأنه يضيق المكان ويفنى العسل ويعلم النشيط الكسل » .

وقد تقدمت فى ختام القرن التاسع عشر البحوث عن سلوك النحل وعاداته تقدما كبيراً ، وأوضحت هذه البحوث أن النحلة لا تبصر ولا تعقل ، ولكنها تقوم بأعمالها الرائعة بطريقة غريزية بحتة ، فانه يحدث فى جسمها من التغيرات الداخلية ما من شأنه أن يدفعها للقيام بنوع من العمل فى فترة محددة من الزمن ، وسبق أن بينا أن الوظيفة التي تؤديها خلال المراحل الثلاث من حياتها تعتمد اعتماداً تاماً على النضوج الفسيولوجي لغددها المختلفة التي تفرز أنواعا خاصة من المواد الكيميائية فتؤثر هذه فى حياتها وسلوكها . واذن فان العوامل الفسيولوجية الداخلية ويطلق عليها اسم « العوامل المؤثرة » تكون من نتيجتها افعال تعرف باسم « الاستجابات » تقوم بها النحلة دون وعي أو تفكير .

وهناك بجانب هذه العوامل الفسيولوجية الداخلية عوامل اخرى خارجية تعرف « بالمؤثرات الخارجية » تؤثر على سلوك النحلة ، ونتيجة لذلك تقوم بأفعال تعرف عند الباحثين « بالافعال المنعكسة » لأن المؤثر الخارجي يؤثر على الليفة العصبية الموجودة داخل أعضاء الحس فيولد احساسا ينتقل من خلالها الى المخ أو الى أي عقدة عصبية داخل الجسم — وذلك تبعا لطبيعة العامل المؤثر — وعند ذلك يرسله المخ فى ليفة عصبية أخرى الى العضلات فتنقبض وينتج عن ذلك الحركة المرئية للحشرة .

وليس للارادة أو التفكير أى دخل بمثل هذه

« الأفعال المنعكسة » فهي تحدث بطريقة آلية محضة ، وخير مثل لذلك الفراشة التي تنجذب الى مصباح مضيء وتصطدم به فتحترق بفعل حرارته . والمؤثرات الخارجية فى النحلة ــ كما سبق ــ توجد على قرون الاستشعار وفى الملامس الفكية ، وفى الأعين ، وعلى سطح الجسم الخارجي ، وفى الأعضاء الحسية الأخرى التي لم تكتشف بعد ، وبفضل هذه المؤثرات التي تستخدمها فى حياتها اليومية تهتدى النحلة الى مصادر الغذاء ومكان المستعمرة ، وفى جولاتها بين مختلف الأزهار وغيرها من مختلف الأعمال النشطة فى حياتها . فكل أفعال النحلة هذه استجابات مباشرة صادرة عن جهازها العصبي الى العضلات المختلفة نتيجة لمختلف المؤثرات الخارجية ، وبذلك نصل الى « الأفعال المنعكسة المركبة » التي أعرب عنها هربرت سبنسر بلفظ « الغريزة » واعتبر هذا الباحث أيضا أن السلوك الغريزى ما هو الا مجموعة من الاستجابات التي تنبثق عن الكائن الحي بفعل البيئة ، ويؤيد كثير من العلماء هذا الرأى ، فهم يعتبرون أن سلوك الحشرات عامة ان هو الا « أفعال منعكسة مركبة » أى « أفعال غريزية » ناتجة عن عوامل خارجية هي الضوء والحرارة والجاذبية وملامسة أجزاء التربة أو النبات وغير ذلك ، فتستجيب الحشرة لهذه العوامل ، وبذلك يكون سلوك النحلة بين الأزهار ، كما عبر عنه كاربنتر ، مثل سلوك برادة الحديد فى المجال المغناطيسي . وأنثى الذبابة التي تطير الى أكوام القمامة لتضع بيضها تجذبها رائحة القمامة ، فينتقل الدافع وهو الرائحة الى المراكز العصبية التي تسيطر على الأعضاء الجنسية وعضو وضع البيض ، وبذلك تكون عملية وضع البيض هي من « الأفعال المنعكسة »

ومن التجارب الطريفة عن الأفعال الغريزية فى الحشرات والتي هي مجموعة من الأفعال المنعكسة المعقدة ما قام به الأخوان بيكام Beckam على بعض أنواع الزنابير الانفرادية من جنس «بومبيلس» Pompilus ، فأنثى هذا الزنبور تحفر حفرة صغيرة فى الأرض أو عشا تضع فيه بيضها، ولكنها قبل أن تفعل ذلك تذهب وتصطاد عنكبوتا لتتغذى على يرقاته ، تلسعه وتشله ثم تعلقه من وسطه فى فرع نبات أو شجرة ريثما تنتهى من حفر العش فى المكان المناسب ، وفى احدى المرات استبدل الباحثان العنكبوت المخدر بعنكبوت آخر غير مشلول ، ولكن عندما فرغت الأنثى من حفر العش لم تعر العنكبوت الجديد أى اهتمام ، وصارت تبحث عن عنكبوتها هي ، وعندما لم تجده عادت فاصطادت عنكبوتا آخر وعلقته فى النبات ، وذهبت من جديد لتحفر حفرة أخرى على الرغم من وجود الحفرة التي قامت بحفرها سابقا . من هذا استنتج الباحثان أنه نتج عن تدخلهما فى سلوك الأنثى أن قامت هذه الأخيرة دون تفكير باعاة العملية بجميع خطواتها من البداية ولم تستغل المجهود السابق الذى قامت به . . وسلوك الأنثى هذا يبين أن هذا الترتيب يقع دائما فى دورتها الغريزية ، ولم تستطع أنثى الزنبور أن تتواءم مع الظروف المتغيرة التي واجهتها ، وأن دورتها الغريزية هذه تدفعها عند الانتهاء من عمل من الأعمال الى القيام بالعمل الذى يليه ، وهكذا .

ومع ذلك وجد بعض العلماء أن فى سلوك النحل بعضا من المرونة يمكنها بها أن تكيف أفعالها بدرجة ضئيلة ، نتيجة للخبرة والتجربة . فقد وجد بتلر Butler أنه اذا أدار الخلية بمقدار ٩٠ م عندما تكون شغالة النحل المتجولة فى الحقل فان هذه الأخيرة عندما تعود تهبط فى المكان الذى كان به باب الخلية الذى اعتادت أن تدخل منه ، وعندما لا تجده تجد فى البحث عنه فى كل اتجاه الى أن تكتشف مكانه الجديد ، وفى رحلاتها التالية تهبط على الجدار مكان الباب القديم ثم تجرى حوله لتصل الى الباب فى موضعه الجديد ، وراحت تفعل ذلك حتى استطاع النحل أن يتعلم مكان الباب الجديد فطفق يطير اليه مباشرة .

استنتج بتلر Butler من ذلك أن

الشغالة عن طريق التجربة استطاعت أن تجد باب الخلية الجديد وتطير اليه مباشرة .

ويكتسب الحيوان الأعمال الفريزية بالوراثة عن أبويه فينقلها بدوره الى أبنائه من بعده ، ولذلك تسير الفريزة فى النوع الواحد على نمط واحد وبطريقة متشابهة فى طريقها المرسوم من جيل الى جيل . والعديد من التجارب التي قام باجرائها كثير من الباحثين يدل على ذلك دلالة واضحة فقد عزلوا أنواعا معينة من الحشرات وقاموا بتربيتها بعيداً عن بقية افراد نوعها ، فقامت بأعمالها الفريزية على نفس النمط المعروف عنها ، من ذلك ما تقوم به أنواع الفراشات عند وضع شرانقها حيث ان اليرقة تعرف تمام المعرفة كيف تصنع شرنقتها الخاصة بها والتي يتميز بها نوعها .

وعموما فان الأعمال الفريزية فى الحشرات تهدف الى حماية الفرد فى أثناء حياته أو حماية النوع من الانقراض .

وبعد ، أليس ذلك كله « تدبير العزيز الحكيم » « الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هداه » . « ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » . صدق الله العظيم .



ـ المراجع ـ

— Butler, C.G. The honeybee. Oxford University Press. Oxford.

— Butler, C.G. & Free J.B., 1959: Bumblebees. Collins. The New Naturalist London.

— Frisch, K. Von., 1950: Bees. Their Vision chemical senses and Language. Cornell University Press. Ithaca. N.Y.

— Michner, C.D. & M.H. 1951, American Social Insects. D. Van Nostrand Co., Inc., New York.

— Richards, O. W., 1961: The Social Insects. Harpner & brothers, New York.

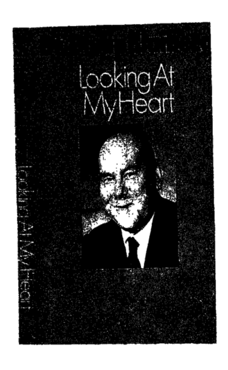
عالم النحـــل : تاليف جلبرت نيكسون ـ ترجمة الدكتور علي المرسي
الناشر دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٦١ .

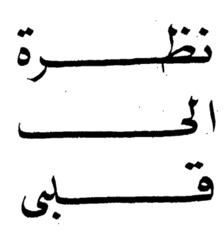
حياة الحشرات : تاليف أ . د . ايمز ـ ترجمة الدكتورة سميرة الزيادى
الناشر ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٦٣ .

المجتمعات الحشرية : تاليف هارولد باستن
الناشر : مؤسسة سجل العرب ـ القاهرة ١٩٦٣ .









*** عرض وتحليل**

د. حسان حتحوت

هذا الكتاب يحوى بين دفتيه قصة قلب..وهو فى الوقت ذاته سجل واف لاحدى وثبات الطب الرائعة فى صراعه الدائب لدفع المرض والحفاظ على الحياة .. ومؤلف الكتاب هو الدكتور ((فيليب بلايبرج)) لم يؤلفه بصفته طبيبا بل بصفته هو المريض .. ان الدكتور فليب بلايبرج هو طبيب الاسنان الذى لم يصب من الشهرة طبيبا عشر معشار ما أصاب منها مريضا .. والذى تركزت عليه الأضواء فى المقامات الطبية ، كما انشغلت به الاوساط الاعلامية فى العالم كله ، حين أجريت له عملية جراحية فى مستشفى ((جروت شور)) بجنوب أفريقيا ، شق فيها صدره وانتزع قلبه المريض ليستبدل به قلب جديد سليم ، ينبض بالدم فى عروقه ، وينسأ له فى اجله ، ويصل ما بينه وبين الحياة بل وبين الصحة ، فكأنما جدد بينه وبينهما عقدا كاد أن ينقض !

مفارقـة

ولقد وجدنا ونحن نختار هـذا الكتـاب لتقديمه الى القراء اننا ازاء مفارقة جابهتنا وان لم تثننا عن عزمنا .. فالكتاب نشيـد حياة صدحت به فى انتصارها على الموت ، وسجل فخار بمعجزة علمية انتزعت رجلا من براثن الموت ، وأمل بدا بعيداً ولكنه من بعد طول معاناة أخذ يختلج ثم يتحرك ثم ينمـو رويدا رويدا حتى تأرجح ثم ترجح ثم تحقق..

* تأليف : الدكتور فيليب بلايبرج ــ الناشر : دار هايتمان

ثم دقت له اجراس النصر وهتفت له الدنيا مباركة مهنئة .. ثم .. نعم .. وهذا هو وجه الحرج .. ثم مات البطل !

نعم .. مات الدكتور « فيليب بلايبرج » .. مات من بعد ان انتصر على الموت ! .. مات الدكتور « فيليب بلايبرج » بعد أن عاش ٥٩٤ يوما بقلب رجل آخر .. ٥٩٤ يوما مليئة بنور الأمل وظلام اليأس .. وبدات بعملية جراحية لزرع قلب .. تلاها ما يتلو اية زرعة من رى وسقيا وتعهد بالرعاية والعناية ، حتى انبتت وازهرت وأثمرت .. فلما أخذت زخرفهـا وأزينت امتدت يد الموت فاقتطفتها .. ولكن بعد ان خلفت آثارا باقية خالدة . أما آثارها الطبية فسنعرض لطرف منها بعد قليل ..

واما آثارها الأدبية فمنها هذا الكتاب الذى نقدمه ، ولعل الكتاب وحده قد يكفل لورثة الدكتور « بلايبرج » من الرزق ما عجـزت ثلاثون سنة من ممارسة طب الأسنان أن تهىء منه كثيرا او قليلا ..

هي مذكرات الدكتور « بلايبرج » اذن وكيف انتصر على الموت على حين كان الموت بانتظاره على الناصية المقبلة .. نتأملها ونتأمل أعقابها فتطالعنا فى سهولة ويسر بقول الشاعر العربي القديم طرفة بن العبد :

لعَمْرُكَ ان الموتَ ما أخطأ الفتى

لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياه باليد

حرج آخر

وثمة حرج آخر طالعني به الكتاب ، بل كاد يصدني عن تقديمه .. ان الدكتور « بلايبرج » يهودى صهيوني ، والكتاب مطعم بآثار ذلك من اوله الى آخره .. ليس فى تأريخـه لجديه ووالديه وزوجته وذريته فحسب .. ولكنه حتى وهـو يتحـدث عـن النواحى الانسانية الجميلة النبيلة لا ينسى أن يذيب فيما يقدمه للقارىء دعاية صهيونية مستورة ... كيف انشأته أمه متدينا لا يأكل الا لحم الكوشير .. وكيف ثبتت زوجته عند موت ابنها الأول ثباتا جديرا ببنات اسرائيل .. وكيف تهيأت بنتـه لامتحان ليسانس الآداب لولا أن بدات حـرب الأيام الستة فى اليوم السـابق ليوم الامتحـان فتركت الامتحان وطارت الى اسرائيل لتؤدى واجبها مـع الآلاف والآلاف من شـباب يهـود العـالم .. بل انه فى أعقـاب عمليته الجراحية المثيرة يشد اليه انتباه العالم وتأتيه آلاف الخطابات من أقطار العالم تحمل عبارات التشجيع وأمنيات الشفاء ، فيجدها فرصـة سخية ليؤلف مجموعات زاخرة مـن طـوابع البريد يهديها لهواة جمع الطوابع مـن جنـود اسرائيل المصابين فى حرب الأيام الستة .

على أننا آثرنا أن نجعـل ذلك تحت أعـين قرائنا وان ننبه اليه ، عملا بالرأى « اعـرف عدوك » .. ولعلنا نتعلم منه بعض الأشياء !!

المريض .. والمرض

ونود أن نتحرر من متابعة الكتاب وفـق تسلسـله الزمنى .. فالـكاتب يكتب تاريخ حياته وقد جعل ذلك هدفه الأول ، ورغم أن القضية الطبية فيـه هى الزبدة والغـاية من وجهة نظر القارىء ، الا أنها فى نظر المؤلف أمر عارض ينبغى أن ينتظر دوره ريثما يتم المؤلف حديثه عن جده وجدته ، وأبيه وأمه ، وكيف انتقلت أصوله من بولنـدا ليصبح مواطنـا فى جنوب أفريقيا صناعته طب الأسنان .. ولقائه بزوجته ، وحياتهما من بعد .. فما نصل الى العملية الا حوالي منتصف الكتاب ...

المهم لدينا ان نذكر أن الدكتور « بلايبرج » بعد شباب رياضى وصحة وافيه ، فوجىء فى الخمسينات من عمره بهذا المرض المعـروف بالذبحة الصدرية .. أو تجلط الدم فى أحـد شرايين القلب . فما هو هذا المرض ؟

ان كل عضو بل كل جزء من أجزاء الجسم يستقبل الـدم تأتى به الشرايين آتيـا معـه

بالحاجة المطلوبة من الأكسجين والغذاء ، فاذا اخـذ حاجتـه من هـذين أودع الدم نفاياته وفضلاته ليجرى بها فى الأوردة عائدا الى القلب مرة أخرى .

امـا القلب نفسه فأشـبه شىء بمضختين ملتصقتين تعملان معا .. تتكون كل منهما من غرفة جامعة بأسفلها غرفة دافعة ..

امـا الغرفتـان الجامعتـان (الأذينـان) فتستقبل اليمنى منهما الدم الوارد من الرئتين بعد أن نقاه التنفس من الغاز العـادم (ثانى أكسيد الكربون) وذوب فيه ما يشبعه من غاز الأكسجين الضرورى للحياة ، ويمر هذا الدم النقى الغنى الى الغرفة الدافعة اليسرى ..

وكل نبضة من نبضات القلب هى انقباضة للغرفتين (البطينين) معا لتضخ كل منهما ما فيها من دم : اليمنى بدمها الى الرئتين ليتنقى ويجمع الأكسجين ويعـود للغـرفة الجامعـة اليسرى .. واليسرى بدمها الى كافة نواحى الجسم ليعطيها ما فيه من خير (وأكسجين) ويعود بنفاياتها من جديد الى الغرفة الجامعة اليمنى .. وهكذا دواليك يعمل القلب دؤوبا مجدا لا يتوقف ولا يكل منذ كان الانسان جنينا لم يدخل بعد هذه الحياة حتى يصير جثة أخرجها الموت من هذه الحياة !

وحـال القلب ككتلة من اللحـم العضلي كحال غيره من لحم الجسم وعضله ، محتاج للأكسجين والغذاء تأتى به شرايين .. منتج لعوادم ونفايات تذهب بها الأوردة .. فواهب الخير محتاج هو نفسه الى نصيبه من هذا الخير ليستمر فى وظيفته فى هبة الخير وتوزيعه ..

على أن أسبابا ــ يعلم الطب اليوم بعضها ويبحث وراء بعضها الآخر ــ قد تتجمع عـلى مدى الأيام ، وتعمل عملها فى العاجـل أو فى الآجل ، فاذا جدار أحد شرايين القلب أو طلائه الداخلى يصاب ، واذا الدم الذى ارادته الحياة أن يسرى سائلا جاريا فى أوعيته يتخثر ويجمد داخل الشريان حتى تسـد الجلطـة الشريان فتقع بذلك الواقعة !!

ذلك بأن القطعة من القلب التى كان يغذيها الشريان المسدود يمتنع عنها مددها من الدم فكأنما انخنقت صلتها بأسباب الحياة .. فاذا كان الشريان المسدود فرعا صغيرا على أطراف الشـجرة الشريانيـة وتفرعاتهـا العـديدة ، فالخسارة صغيرة لأنه لا يغذى الا مساحة من القلب صغيرة .. أما اذا أصـاب الانسـداد شريانا رئيسيا كبيرا فالمصيبة فادحة ومنهم من يموت فى الحال أو فى القريب ..

ومن بين هذين الطرفين مدى واسع ..

ولقد تتكرر الجلطة مرة بعد مرة فى شرايين أصغر أو أكبر .. وكل منهـا تدفع بآثارهـا حصتها التى كانت تغذيها من عضلة القلب .. وكل قطعة من عضلة القلب تحـل بهـا هـذه الخسـارة فانها ــ ان امتد الأجـل ــ تفقـد فتوتهـا ونضارتها كما تذبل ورقة النبـات ، وتستحيل من عضلة نابضة الى رقعة ليفيـة خامدة .. ويصبح الكل العضلى الكبـير أى القلب مثل الجيش الذى هلكت بعض وحداته .. قد يتأثر احتياطيه فلا يعجزه أن يقـوم بالجهد العادى ولكن يؤوده الجهد العنيف .. وقد يزيد درجة فينال منه الجهد العادى ، وهكذا حتى يجد فى أمور الحياة العادية ، بل الحياة المريحة ، بل الحياة حتى على الفراش : جهدا جهيدا على قلبه الكليل ! .

وعلى هذا النمط سار قلب مريضنا الدكتور «فيليب بلايبرج» .. وهذا ما آل اليه أمره.. مرت الأيام وقلبه يخسر معركة بعد معركة ، رغم ما كان يبذله اطباؤه مما استطاع الطب أن يصل اليه من اسعاف ومن علاج . واضطر الى التقاعد عن عمله وبيع عيادته والتحقت زوجته بوظيفة لتكفل لقمة العيش .. ولزم مريضنا فراشه ..

ومع ذلك أخذ قلبه يذوى .. الدم يرد من الرئة للأذين الأيسر للبطين الأيسر .. ولكن هذا

لا يحسن أن يدفع بالدم الى الجسم .. فيزدحم فى الرئتين .. ويرتشح الماء الذى فى الدم ليملأ حويصلات الهواء التى جعلت لتمتلىء بهواء التنفس،ويحس الرجل احساس الفريق ، وتتلاهث أنفاسه بزبد يخرج من فمه، ويشعر بالموت الداهم ، وتتقارب هذه النوبات تصيبه حتى وهو نائم، حتى يصبح الموت له املا ينقذه من هذا العذاب .. ولكن فى كل مرة يلقى الأطباء بثقلهم فى معركة تدور رحاها بينهم وبين الموت ، ويكادون يستطيعون ان يستنقذوه : لا صحيحا معافى، ولكن حطاما حيا ينتظر المرة التالية بقلب أفدح علة ، وأمل أكثر قلة ...

وعلى هذه الحال نبصر مريضنا على فراشه فى مستشفى « جروت شور » بمدينة الكاب .

آمال .. ورجال

فى تلك اللحظات التى انتهينا اليها كان العالم الطبي كخلية النحل نشاطا وطنينا .. وكانت المجامع الطبية دائبة على مراجعة حساباتها ازاء المشاكل التى تعترض زرع عضو من الأعضاء من جسم الى جسم .. وكانت تحس انها حققت انتصارات مستقرة فى بعض الجبهات كزرع قرنية العين وزرع البدائل الشريانية ، ونجحت زراعة الكلية بين التوائم المتشابهين ثم بين انسانين بينهما مشابه حيوية معينة .. ودأبت الابحاث ـ ولا تزال ـ على دراسة الصعوبات الباقية التى كانت تعترض الطريق .. ولا تزال .

كان أهم هذه المشاكل هو ما اودع فى جسم الانسان من وسائل دفاعية .. قصدت بها الطبيعة أن يدافع الجسم عن نفسه بها ضد كل غزو غريب .. ولولاها لأصبح الانسان فريسة سهلة لأى غزو جرثومي ..

فما تحل بالجسم مادة غريبة عنه حتى تنبرى وسائل الدفاع لمكافحتها .. وعلى راس هذه الوسائل خلايا خاصة تفرز مواد مضادة للمادة الغريبة التى اقتحمت الجسم .

يمرض الطفل بالحصبة مثلا ـ وغيرها من الامثلة كثير .. فيكون من أهم أسباب مقاومتها أن الخلايا الليمفاوية فى دمه تفرز مواد مضادة لجرثومة الحصبة .. حتى يشفى الطفل بفضل هذه المواد .. التى تبقى فى دمه فتكسبه « مناعة » تبقى معه فتعصمه من شر تلك الجراثيم ان هاجمته مرة أخرى .. ومن « المناعات » مالا يستمر الا قليلا (كالمناعة من الانفلونزا) ومنها ما يستمر طول الحياة ، ومنها ما هو بين هذا وذاك باختلاف الجرثومة السبب .

بل ان الطب قد استخدم تلك الخاصة فى الوقاية من الأمراض قبل وقوعها .. فبدلا من أن يترك الانسان ليمرض حتى يكتسب مناعته (وقد تغلبه الجراثيم فيموت)، صار الطب يأتي بتلك الجراثيم فيقتلها أو يضعفها ضعفا شديدا ثم يسعى بها الى الجسم ، فلا تحدث به مرضا ، ولكن مادتها تنبه تلك الخلايا الليمفاوية الى افراز تلك الأجسام المضادة التى تقضي على تلك الجراثيم ان وجدت سبيلها الى الجسم بالعدوى فى المستقبل ولو حية قوية ناشطة .

وما التحصين ضد الجدرى أو شلل الأطفال أو التيفود أو الكوليرا أو غيرها مما يعرفه الناس ويمارسونه الا أمثلة من ذلك .

هذه هي النعمة الكبرى .. ولكنها أحيانا تكون مشكلة كبرى كذلك ! ذلك أن هذه الوسائل الدفاعية تعمل فى اتجاه واحد ..

فاذا انت اجريت عملية نقل دم الى انسان من انسان ذى فصيلة دموية مختلفة، فالأجسام المضادة ستهلك الخلايا الدموية الوافدة لايشفع لها أن الطبيب يعطيها بنية العلاج من النزيف.

ومن حسن الحظ فى نقل الدم أن من السهل الحصول على الفصائل الدموية المتشابهة والتأكد من تآلفها قبل القيام بالعملية ..

اما فيما يختص بزرع الأعضاء فالأمر أعقد من ذلك ..

وفيما يختص بزرع القلب خاصة ظلت عقدة العقد أن وسائل الدفاع فى الجسم المضيف ستفرز من المواد المضادة ما تهلك به القلب الضيف على أنه جسم دخيل .. وان كان هذا الدخيل قد جاء ليخدم ولينقذ وليستبقى الحياة !!

ويرى العلم الطبي الا حيلة على هذه المشكلة الا بمحاولة جادة لابطال وسائل الدفاع هذه.. وهو يستنبط لذلك طرقا شتى .. منهـا وأهمها القضاء على تلك الخلايا الليمفاويـة بتعريضها للاشعاع ، أو بحقن أدوية تقضي عليها ، أو بحقن الحيونا بتلك الخلايا الليمفاوية الانسانية ، فتقوم الخلايا الليمفاوية الحيوانية بافراز مواد مضادة تهلك الخلايا الليمفاويـة الانسانية ، ثم يصفي هذه المواد ويستخلصها من دم الحيوان لتكون مستعدة لابطال مفعول الجهاز الدفاعي فى الجسـم الذى يستقبـل عضوا من جسم غيره .. حتى لا يلفظ العضو المزروع .

وظل الأمر نظريا حتى أواخر سنة ١٩٦٧ .. ولم يكن جرب بعد فى عملية زرع قلب .

أما الجراحة نفسها فكانت خطواتها واضحة المعالم من سنوات خلتنتيجة لتجارب الدكتور نورمان شامواى من جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة على الحيوانات .

لهذا لم تكن الصعوبة فى انجاز العملية ، بل فيما يكتنفها من مشاكل علمية كانت تشغل بال الجـراح الماهر « كريستيان بارنارد » وزميله اخصائي القلب النابغة « فلفا شراير » فى مستشفاهما بجنوب أفريقيا ، كما تشغل بال المئات من زملائهما فى أنحاء العالم .

بيد ان الظروف كثيرا ما تضع الطب فى موقف الاختيار بين امرين أحلاهما مر : أن يترك المريض لموت اكيد أو ان يخوض جراحة نتيجتها غير مضمونة .. وينصب الطبيب الميزان فاذا استبان أن الأمل مع الجراحـة أرجح من الأمل بدونها كان واجبه أن يقـدم ولا يحجم ، مهتديا بمن قال : « عليَّ أن أسعى وليس عليَّ ادراك النجاح » .

وكان مريضنا الدكتور بلايبرج قد اجتاز ابحاثا مستفيضة : اشعات وتخطيط القلب وقياسات عن طريق مسطرة تدخل غرف القلب المختلفة ، بل وتصوير « فلم سينمائي » عن عمل القلب ، كل ذلك اجري ثم ارسـل الى المشورة لدى الأقطاب والأساطين فى أنحـاء العالم .. وكانت نتيجة كل ذلك انه لا أمل الا بمحاولة زرع قلب جديد .. وان كان الأمل محدودا .

وكانت الأعصـاب مشـدودة والنفـوس متوترة ..

ذلك بأن العملية لن تكون الأولى ..

فمنذ مدة وجيزة أجرى نفس الجـراح بنفس المستشفى عملية زرع قلب .. كانت هي الأولى من نوعها فعلا .. لمريض أسـمه « لويس واشكانسكي » .. وكان العالم يتابع انباء العملية باهتمام ..

وكان يتابعها كذلك مريضنا الدكتور بلايبرج دون أن يدرك صلتها به .. وبعد ثمانية عشر يوما مرت سراعا انهار الأمل .. وانفض السامر .. لقد مات « لويس واشكانسكي » !!

قلوب .. وقلوب

يحسب السطحيون من الناس أن ما ننسبه الى القضاء والقدر من أحداث انما يصدر عن المصادفة العشوائية .. دون أن يدركوا أنه حتى المصادفة لها قانونها الذى يحكمها .. وأن للقضاء والقدر معادلاتهما المعقدة التى لا تتكشف للناس الا نهاياتها ....

من ذلك قصة تلك الأسرة الفقـيرة من الملونين بجنوب أفريقيا .. اب وأم واحد عشر ولدا كان « كلايف هوبت » واحدا منهم .. ولد فى اكتوبر ١٩٤٣ .. ومن بين اخوته كان الأذكى والأعقل والابرُّ بوالديه .. والاقرب الى قلب أمه . واتم تعليمه المتواضع وجمع الحب

بينه وبين « دوروثي » فخطبها وتزوجها وكان منهما بيت سعيد يرفرف عليه الحب فيعوضهما بسعادته عن سعة الرزق ووفرة المال .

ويوم عيد رأس السنة ١٩٦٨ تخرج الأسرة الصغيرة مع الأصدقاء لرحلة ممتعة « بالأتوبيس » الى أحد المنتجعات ذات المناظر الطبيعية الجميلة .. وبعيدا عن الدار والجوار يأتلف الجمع للعب الكرة يتقاذفونها واحدا لواحد . وتذهب الكرة الى يدي «كلايف هوبت» ولكنه بدلا من أن يقذف بها يسقط هو على الأرض فى حركة مسرحية رائعة !! .. أو هكذا خيّل الى الجميع ....

وطالت رقدته .. واحست دوروثي أن فى الأمر شيئا .. ويهرع الجميع اليه ليجدوه فى غيبوبة .. ويحملونه الى أقرب مستشفى فيشخص الأطباء انه مصاب بنزيف فى المخ .. وتحت الاسعافات الممكنة تحمله عربة اسعاف الى أقرب مستشفى كبير فى تلك الناحية .. فاذا هو بعينه مستشفى « جروت شور » .. حيث يرقد « الدكتور بلايبرج » ..

ويضم المستشفى ـ على غير تعارف ـ «كلايف هوبت» و «فيليب بلايبرج» كلا فى مكان .. وزوجتيهما وبعض الأهل فى ردهة الزوار ! وتفر الحياة من « كلايف هوبت » رغم نطس الأطباء وان ظل تنفسه يتردد بالوسائل الصناعية ، وقلبه يدق بالوسائل الصناعية .. أما التخطيط الكهربائي لمخه فقد كان خطاً هامدا خاليا من أى نشاط .. وباختصار فقد توافرت فيه المواصفات العلمية لما يسمى طبيا بحالة الوفاة .

ويخرج الطبيب الى العروس الشابة ليس فقط لينعى اليها حبيبها ذا الخمسة والعشرين ربيعا الذى اختطف تحت عينها فى أوج سعادتهما فى أثناء لهوهما ذات رحلة فى عيد راس السنة ..

ولكن ليسألها كذلك : « هل لديك يا سيدتي مانع أن ناخذ قلب زوجك لرجل لا أمل له فى الحياة الا بهذا القلب ؟ »

وتطرق الفتاة ثواني معدودات ثم تجيب فى رباطة جأش :« انني أوافق » . ثم تتجه الى والدة زوجها فتخبرها بما كان وتسألها رأيها فتوافق الأم فى الحال !!

وفيما قرأت عن حياة « بلاينبرج » ومماته ..

وفيما قرأت عن أطبائه وممرضاته ..

فلم يستطع موقف أن يستوقفني مثل هذا الموقف ..

ومن وراء قصة القلبين التالف والجديد .. كادت الحروف المطبوعة أن تبرز أمام ناظرىّ بقصة القلبين البطلين الحقيقيين فى هذا الكتاب .. قلب زوجة وقلب أم ، لم يمنعهما هول الفجيعة وفجاءة الكارثة أن تعطيا وأن تجزلا العطاء !!

وهما ملونتان فى جنوب افريقيا ..

ولو لم تكن الا هذه لوجب أن يكون مكان الملونين فى جنوب أفريقيا فوق الهام لا تحت الأقدام .. لو كان هناك شعور .. وانصاف .. وذوق !!

العملية .. وأعقابها

نسجت يد القدر اذن من خيوط الحوادث هذا النسيج المتشابك .. ويتخطى الجراح الدكتور «كريستيان برنارد» صعوبته النفسية الباهظة ليدخل على «بلايبرج» قائلا : «انني مثل الطيار الذى وقع على الأرض بطائرته فتحطمت .. وعلاجه الطبيعي أن يُسلم بسرعة طائرة أخرى يطير بها .. وعلاجي لديك » ..

ويستوضحه « بلايبرج » .. فيخبره أن « لويس واشكانسكي » قد مات أمس .. وأنه

هو المرشح الثاني لعملية زرع القلب .. وأن الفرصة مواتية فى الحال ..

أما عن النتيجة فالأمل موجود .. ولكنه محدود .

ويوافق « بلايبرج » دون تردد .. ويعفي طبيبه من أى لوم مهما تكن النتائج .. ويتبادل الجراح ومريضه عبارات التشجيع ..

واذا المستشفى كخلية النحل .. أعلنت الطوارىء من مدة .. وأعطيت اشارة بدء العمل .. وأخذ العشرات من الأفراد كل ضمن فريقه يؤدى دوره فى المهمة فى نظام محكم ونشاط هادىء ، فكأنهم تروس الساعة المضبوطة . وفى وقت واحد كان فريق من الجراحين ينزع قلب « هوبت » ويقطه على مواصفات موقعه الجديد .. وفريق ينزع قلب « بلايبرج » ويهيىء صدره لاستقبال القلب الضيف .. وفريق يشرف على جهاز « القلب الصناعي » الذى يضخ دم « بلايبرج » فى أوعيته الدموية فى دورة تحفظ له حرارته وتذيب فيه غاز الأكسجين وتنزع منه ثاني أكسيد الكربون وتنقيه من الفضلات وتقوم على تثبيت تركيبه الكيميائي .. وفريق المخدرين وفريق المحللين وفريق الأقيسة والتسجيلات الطبية وفريق المداواة لما ينشأ من مضاعفات ، بل وفريق التصوير وغيرهم وغيرهم داخل غرف العمليات وخارجها .

وفى مهارة ودراية .. وسرعة فى غير عجلة .. وصمت بليغ .. يأتي القلب الجديد وتعمل فيه الابرة والخيط ليحتل سكنه الجديد ..

وينبض القلب .. ويضخ الدم .. ويعزل القلب الصناعي .. ويقفل الصدر .. وينقل المريض الى جناحه الخاص .. ويبدأ الفصل الثاني من المعركة !

ولقد ذكرنا أن أخوف ما كان يخاف هو أن تفرز خلايا الدكتور « بلايبرج » مواد تهاجم القلب حتى يلفظه جسمه .. لذلك شرع الأطباء فى حقنه بالعقاقير التي تعطل جهازه الدفاعي ..

ولم يكن ذلك خلوا من الخطر .. فمعناه كذلك أنه سيفقد أسباب المقاومة ان تعرض جسمه للجراثيم .. حتى تلك الجراثيم التي قد يحملها الجسم العادى فلا تكاد تسبب له مرضا ، ستكون ولا شك وحوشاً ضارية أن تعرض لها جسم « بلايبرج » بعد تعطيل دفاعاته .

وأزاء ذلك أحاط الأطباء مريضهم بخطي دفاع .. أولهما أدوية المضادات الحيوية كالبنسلين والترميسين وغيرهما .. والثاني وهو الأهم والأجدى والأفعل هو أن يمنعوا الميكروبات من الوصول اليه .. ولهذا خصصوا له جناحا احاطوه بحراسةمشددة حتى لايدخل اليه غريب أو فضولى .. وعقموا كل شىء فى ذلك الجناح من بناء وأبواب وفراش وأدوات وطعام وشراب .. ولم يكن أحد حتى من المأذون لهم بالدخول من أطباء وممرضات يدخل الا بعد ان يجتاز عملية معقدة من تغيير الثياب ولبس ثياب خاصة والتعقيم ولبس الكمامة ..كل ذلك قبل ان يدخل الى «كوريدور» معقم الهواء ويجتاز أبوابا وأبوابا .. ولما اذنوا لزوجته أن تزوره بعد أيام عديدة مرروها بكل هذه المراحل ثم لم تره الا وبينهما حائط زجاجي ..وكان الحديث بينهما عبر ميكروفون .. معقم كذلك .

ومرت الأيام وأهل المستشفى وأهل المريض وأهل الأرض ممسكون بأنفاسهم فى انتظار ما يكون .. ومن بعد ضعف بالغ بدأ يتعلم من جديد كيف يأكل .. وكيف يتحرك .. وكيف ينهض جالسا وكيف ينزل واقفا.. كانت الخطوة الأولى بالنسبة له نصرا كبيرا وجهدا جهيدا ..

ولكنها المثابرة والمصابرة .. وقوة ارادة فيه وتفان فى العمل فيمن حوله .. وكانت حلاقة شعره لأول مرة حدثا نشرت الصحف صوره .. ولما استطاع ان يطل على العالم

الخارجي خــلال شباكــه الزجاجي حيتــه الجماهير التي أشار لها اشارة النصر التى ابتدعها تشرشل .. وتلت ذلك صورته وهو يتناول المكرونة ..

حتى جاء اليوم الموعود .. فاذا هو يغادر المستشفى .. وتلته ايام موعودة طال ارتقابها وان كان يأخذ نفسه بالحذر حتى فى اقترابه من الناس .. وقاد سيارته ، وعاشر زوجته .. وكانت سعادته بكل ذلكمئات من الأضعاف .. فقد علمته ايام لمرض حقا أن الصحة تاج على رؤوس الأصحــاء لا يراه الا المرضى ..

شيء جديد فى كل ذلك بــدا انه ضريبــة مفروضة وثمن واجب الأداء وان كاد ينغص الحيــاة فى كثير مــن الأوقات .. ذلك هــو الشهرة !

المئات من مراسليالصحف الذين يتنافسون على السبــق الصحفي .. والذين أشعــروا زوجته طيلة الوقت أنها تحت الرقابةباستمرار .. لا تملك أن تسير فى الشوارع فى حالها كما يسير الناس .. وآلاف المكالمات التليفونيــة بالليل والنهار من الداخل ومن الخــارج .. ومئات الأسئلة السخيفة احيانا .. والبريد الذى يحتاج الى فريق كامل لقراءته .. تقرأ كل ذلك فتحمد الله أن كنت مثلنا من غــير المشاهير ..

ومع ذلك كانت هناك الهدايا .. والدعوات لرحلات فى العالم كان فى النية أن تلبى لو لم ينطفىء سراج العمر .

ثم يشرع الدكتــور « بلايبرج » فى كتابــة قصته هذه التي نقدمها .. ولكنه خلال ذلك يصاب بنكسة خطيرة وينتابه اليرقان ،ويصفر لونه ويدخل المستشفى من جديد ، وتنخلع قلوب أطبائه هلعا .. خاصة وهم فى علاجه لا يستهدون بخبرات سابقة .. ويحارون ان كان الســبب عــدوى بالبكتيريا أو عــدوى بالفيروسات والفرق بينهما خطير من وجهة نظر الحفاظ على القلب الجديد . فان كــان الغزو بكتيريا استباحوا أن يعطلوا الأجهــزة الدفاعية مــرة أخرى معتمدين على أدويــة المضادات الحيوية .. اما ان كانت فيروسات فهذه لا تنفع فيها المضادات الحيويــة ، فان عطلوا الجهاز الدفاعي فقد القــوا بالرجل الى التهلكة !!

ويرجح لديهم انها البكتيريا .. ويعطلــون خلايا الدفاع .. ويصدق حدسهم فينتشلون مريضهم من الهاوية مرة اخرى .. ويتحسن ويغادر المستشفى من جديد ..

ولكنه غير بعيد يحس بالجذوة تخبــو .. ويحتويه الضعف فيسلم اليه نفسه .. لقد أوشك الزيت أن يجف،وآذن الفتيل بانطفاء .. وفى مستشفى « جروت شور » يموت الدكتور « بلايبرج » فى هدوء وسلام .. بعد أن وصل حياته بزيادة على حياته .. وأحيا بين جنبيه قلبا سبقه صاحبه الى الآخرة ..

يوم تقاعد الدكتور « بلايبرج » عن عملــه اهدى الى المتحف الطبي حفارة اسنان عتيقة ، فظن انه يضيف الى سجلات التاريخ .. ولم يعلم آنذاك أن هديتــه لتاريخ الطب ستكون أغلى واقيم .. لقد أهدى تاريخ الطب قلبين .. قلبا عجز ان يكمل مع صاحبه رحلة الحياة .. وقلبا اتم من بعد صاحبه نصيبه من الحياة .. ووثبة كبيرة لا تزيد على عظمها الا ان تكون فى السجل الطبي حلقة فى سلسلة ، ودرجة من سلم وخطوة على طريق ...

* * *





عرض وتحليل   دكتور محمد عبده محجوب

ارتبطت الانثروبولوجيا بدراسة المجتمعات البدائية أو المتوحشة ، والواقع انها عنيت بهذا النمط من المجتمعات فى بداية نشأتها ، وان كان مصطلح بدائي كما استخدمه الانثروبولوجيون لم يتضمن ذلك المحتوى القيمى فيما يتعلق بالارتباط بمرحلة معينة من مراحل التقدم أو التأخر الحضارى ، ولكنه يعني الاشارة الى بعض الخصائص البنائية المميزة ، مثل قلة عدد السكان وبساطة الموارد الاقتصادية والادوات التكنولوجية والافتقار الى التراث الثقافي المكتوب ، الا ان الانثروبولوجيا وبخاصة الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية اصبحت تهتم الآن بمختلف انماط التجمع الانساني فى المجتمعات التقليدية التى لم تدخلها الصناعة أو المجتمعات الصناعية الحديثة على السواء .

وقد قام الجيل الثاني من الانثروبولوجيين الذين تتلمذوا على الرعيل الاول من علماء الانثروبولوجيا بدراسات حقلية فى كثير من المجتمعات الاوروبية والافريقية والآسيوية الريفية والصناعية الحديثة ، كما اتبعوا فى

* Lewis, Oscar; La Vida; A Puerto Rican Family in the culture of Poverty San Juan & New York, Panther Books, London 1968. pp. 812.

دراساتهم طرقا جديدة زاوجوا فيها بين طريقة الملاحظة بالمشاركة التى تعتمد على الاقامة الطويلة والمعيشة فى المجتمع وطريقة دراسة الحالة ودراسة حياة الافراد ، كما اعتمدوا فى تحقيق فروضهم على الدراسات الكمية التى كان ينفر منها الباحثون الاوائل ، ومن هذا الفريق من الكتاب أو الباحثين أوسكار لويس « Oscar Lewis » استاذ الانثروبولجيا حاليا بجامعة الينوس بأمريكا ، وقد حاول فى هذا الكتاب أن يتعمق فى فهم المجتمع عن طريق دراسة حالة الاسرة وتتبع تاريخ حياة أفرادها كما يروونه بانفسهم .

وقد كان من التفصيل الدقيق والقيم الذى تضمنته مقدمة الكتاب وبخاصة فيما يتعلق بطرق البحث محاولة ممتازة لعرض الخطوات التى اتبعها المؤلف فىملاحظته ووصفهوتسجيله للظواهر التى توفر على دراستها فضلا عن الاشارة الى ما يمكن أن تسهم به تلك الملاحظات فى تفسير المشكلات التى يعالجها البحث ، ونظرا لأهمية تلك الطرق الحديثة فىالدراسات الانثروبولوجية سوف أركز فى هذا العرض علىبيان الكيفية التىيعدل بها الانثروبولوجيون من طرقهم ومناهجهم للوصول الى الجوانب العميقة من المجتمعات التى يدرسونها .

وقد بدأ المؤلف فى مقدمته بعرض للظروف الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليمية السيئة التي عاشها مجتمع بورتوريكو فى مرحلة ما قبل الانضمام الى الولايات المتحدة الامريكية ، ثم انتقل الى الاشارة الى مظاهر التقدم الاقتصادى والصحى والتعليمى والمهنى التى طرات على هذا المجتمع بصفة عامة مع استمرار الفقر والتأخر فى بعض الأحياء أو المناطق السكنية فيما يعرف بالSlumsاو جيوب الفقر . وتعرض بعد هذا لبيان المركز الذى تحتله الدراسة الانثروبولوجية للاسرة بين مستويات التحليل الأنثروبولوجي التي تعني بالثقافة العامة او النماذج أو الصورة البنائية أو دراسة الشخصية الفردية ، ثم عرض بعد ذلك لبيان مدى السهولة التى أحاطت تقبل مجتمع بورتوريكو للثقافة الأمريكية ، وارجع ذلك الى افتقار ذلك المجتمع الى التاريخ الثقافى او الأصول الثقافية العريقة التى يتميز بها المجتمع المكسيكى التقليدى مثلا .

والكتاب فى جوهره عبارة عن شريط تسجيلي لحياة أسرة من الأسر محدودة الدخل التى يقيم بعض أعضائها فى أحد الأحياء الفقيرة فىمدينة سان جوان فى بورتوريكو احدى الولايات المتحدة الامريكية ويقيم البعض الآخر فى مدينة نيويورك ، وقد حاول المؤلف بذلك أن ينقل صوت تلك الفئة من السكان الذين تمثلهم هذه الاسرة الى آذان الفئات السكانية والاجتماعية الاخرى فى المجتمع الامريكي من الذين يندر أن يسمعوا بوجود مثل هذه الأسر بظروفها الاجتماعية السيئة ، كما أراد من ناحية اخرى أن يسجل بقلمه صورة داخلية لنوع الحياة فى كثير من المناطق والجماعات المحرومة أو الهامشية فى ذلك المجتمع والتى يجهلها الكثير من أبناء الطبقة الوسطى .

وقد أشار المؤلف الى أن احد الأهداف التى أراد تحقيقها بدراسته لثقافة ذلك المجتمع الفقير يتمثل فى محاولة خلق نوع من الاتصال بين جماعات الفقراء فى المجتمع الامريكي وشخصيات الطبقة الوسطى من المهنيين مثل المعلمين والباحثين الاجتماعيين والأطباء ورجال الدينوغيرهم ممن يحملون المسئولية الرئيسية نحو اقامة المشروعات التى تعالج مشكلة الفقر وذلك من خلالمحاولة الوصول الى فهم افضل لطبيعة الثقافة فى المجتمع الفقير مما يؤدى فى النهاية الى تبني نظرة تتميز بمزيد منالتعاطف مع الفقراء ومشكلاتهم فضلا عما يقوم على أساس هذا من مشروعات انشائية فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والمهنيةفىتلكالمناطق.

ويعتبر كتاب « La Vida » الكتاب الأول فى سلسلة من البحوث اعتمدت على اختيار عينة

مكونة من مائة أسرة تعيش فى أربعة من الأحياء الفقيرة فى مدينة سان جوان فى بورتوريكو وهي تهدف فى النهاية الى دراسة مشكلة التكيف والتوافق بين الجماعات الأسرية والتغيرات التى تطرأ على الحياة الأسرية للمهاجرين ، كما تهدف الى تقديم دراسة مقارنة تعتمد على الوحدات الأسرية فى ثقافتين متمايزتين احداهما هي الثقافة الامريكية والاخرى هي الثقافة المكسيكية ، كما تهدف الى تطبيق طريقة جديدة للحصول على المعلومات المتعلقة بالأسرة.

ولقد كان الأساس الذى قام عليه اختيار الوحدات الأسرية (العينة) هو انخفاض الدخل ووجود الأقارب فى نيويورك والرغبة فى التعاون مع الباحث وتزويده بكل المعلومات التى تتطلبها الدراسة ، وقد حدد الباحث تلك الاسر الفقيرة بمساعدة الاخصائيين الاجتماعيين الذين يعملون فى المنطقة وان كان قد واجه مشكلة تمثلت فى اتساع المدى الذى يتوزع خلاله الدخل الفردى للمقيمين فى تلك الاحياء الفقيرة ، فقد كان البعض منهم يمتلك الوسائل التكنولوجية الحديثة مثل أجهزة التبريد والتكييف وأجهزة التلفزيون أو السيارة ، ولهذا فقد عمد الى أن تضم « العينة » المختارة أسراً تنتمي مستويات دخولها الى كل الفئات التى تضمها دفاتر الاحصاء فى المجتمع الامريكي.

ويتلخص المنهج الذى اتبعه المؤلف فى تلك الدراسة فى المزاوجة بين الطرق التقليدية المستخدمة فى البحوث السوسيولوجية والانثروبولوجية والسيكلوجية وهي تتضمن الاستبيانات والمقابلات والملاحظة بالمشاركة وتسجيل تاريخ الحياة وعدداً من الدراسات الكلية الشاملة المركزة لحالات بعض الاسر ، كما اعتمد على بعض طرق علم النفس مثل اختبار توافق رد الفعل الرجعي Thematic apperception والاختبار الاسقاطي المعروف باختبار « رورشاخ » واختبار تكملة الجمل كما اعتمد على عدد من الباحثين المساعدين من نفس سكان المجتمع موضوع الدراسة لاعطاء وجهة نظرهم الخاصة فى الثقافة المكسيكية ومظاهر الاختلاف بين تلك الثقافة والثقافة الامريكية .

كذلك فقد قام المؤلف بتطبيق تسعة عشر كشفا من كشوف البحث على كل أسرة من الأسر التى اختيرت ضمن العينة، وقد تضمنت أسئلة تدور حول ملكية الاسرة من الاشياء المادية كالملابس والحيوانات والكتب وغيرها ، وعلاقات الصداقة بين الجيران والعلاقات بين الآباء الحقيقيين والآباء عن طريق التعميد God Parents والعلاقات الأسرية واوجه الدخل والانفاق ونظام تقسيم العمل والاتجاهات الصحية والسياسية والدينية والنظرة الى العالم .

وبالاضافة الى هذا كله فقد تطلبت الدراسة المركزة لكل اسرة اقامة روابط وعلاقات شخصية قوية ، بدونها لم يكن فى الامكان الحصول على المادة أو المعلوت الضرورية فى تلك الدراسة ، وقد اشترك المؤلف ومساعدوه فى حضور كثير من المناسبات الاجتماعية كالحفلات العائلية وشعائر التعميد وغيرها ، كما كانوا يستجيبون الى الطلبات العاجلة من الاهالي لاصطحابهم الى عيادات الاطباء أو الاتصال بأقاربهم المسجونين لتقديم بعض الخدمات أو مساعدتهم على كتابة الاستمارات الخاصة بالشئون الصحية أو الالتحاق بالعمل او التعاقد على ايجاد المسكن .

ويمكن القول ان المؤلف قد التزم الى حد كبير بطريقة الملاحظة بالمشاركة التى يعتمد عليها الباحثون الانثروبولوجيون باعتبارها الطريقة المثلى للحصول على المعلومات والبيانات التى تساعد على فهم الظواهر وتحقيق الفروض التى يضعها هؤلاء لتفسير تلك الظواهر التى يتوفرون على دراستها ، وتتلخص عملية الملاحظة بالمشاركة فى محاولة الباحث الاشتراك فى الأنشطة الاجتماعية المتنوعة التى يقوم بها اعضاء الزمرة الاجتماعية او الجماعة موضوع الدراسة ، بقدر ما تسمح الظروف والتقاليد ،

فمن خلال المشاركة في مناسبات الزواج والوفاة والميلاد والذهاب الى السوق والتردد على مجلس كبار السن والزعماء المحليين وزيارة منتديات الشبان ووحدات الانتاج ، يستطيع الباحث الانثروبولوجي أن يحصل على الكثير من المعلومات الحقيقية عن العلاقات القرابية والاقتصادية والسياسية فى المجتمع موضوع الدراسة ، ولكن هذه الطريقة لا يمكن استخدامها أحيانا ، مثلا فيما يتعلق بالانشطة الاجتماعية الموسمية أو التى لا تتمتع بتواتر الوقوع مثل حفلات الحصاد والاعياد والمناسبات الدينية والمنازعات الطارئة ، يمكن فى هذه الحالة الاعتماد على المعلومات التى يدلى بها كبار السن وقصص تواريخ الحياة كمصدر هام من مصادر تلك المعلومات .

وينتقل المؤلف بصدد الاشارة الى طرق البحث وتسجيل المعلومات الى الاشارة الى صعوبة استخدام الوسائل السمعية والبصرية مثل آلات تسجيل الصوت ونقل الصورة فى الدراسات الانثروبولجية وذلك أما لارتفاع تكاليف الاستعانة بتلك الوسائل أو بسبب ما تخلفه من جو الافتعال الذى يؤثر فى استمرار الناس فى سلوكهم العادى ، والمح المؤلف الى امكان الاستعاضة عن ذلك بالباحثين المدربين على التسجيل الاثنوجرافي لدقائق السلوك والانشطة التى يشارك فيها أعضاء المجتمع أو الاسرة وبخاصة فيما يتعلق بالتحركات والمحاورات ومظاهر التفاعل التي تطرأ بينهم ، وهذا لا يمنع بالطبع من امكان استخدام تلك الوسائل فى تسجيل تواريخ حياة الاشخاص كما يدلون بها شريطة أن يعلموا بوجود مثل هذه الوسائل الخاصة بتسجيل احاديثهم وذلك حفاظا على علاقة الثقة الضرورية التى تقوم بينهم وبين الباحث والتى بدونها يستحيل الحصول على معلومات دقيقة وصادقة .

وليس من شك فى ضرورة تهيئة الاشخاص الذين سوف يدلون بالبيانات لقول كل ما لديهم فى صراحة وثقة ، فقد كان الباحث لا يبدأ فى تسجيل تاريخ حياة أعضاء الاسرة الا بعد أن يكون قد اكتسب الكثير من ثقتها وتوفرت لديه المعرفة الوثيقة بجوانب حياتها وذلك من خلال التردد بانتظام على زيارتها لعدة شهور قليلة لمعرفة الكثير من شئونها من خلال المناقشات التى تقوم بين أعضائها ثم الاستعانة بتلك المعلومات التى يحصل عليها من خلال تلك المناقشات فى استثارة ذاكرة هؤلاء الاشخاص بغية الحصول على صياغة قصصية لتلك الاحداث الأسرية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى الاشارة الى الاتجاهات المختلفة المتمايزة التى يمكن أن يتخذها البحث الانثروبولجي للحياة الأسرية والتى ترتبط فيما بينها أشد الارتباط :

والاتجاه الاول يتمثل فى استخدام معظم الفئات التصورية Conceptual Categories مثل مفهوم البناء والوظيفة المستخدمة فى دراسة الجماعة المحلية أو الزمرة الاجتماعية عند دراسة الاسرة ، أما الاتجاه الثانى فيتمثل فى تسجيل طويل ومركز لتاريخ حياة كل شخص من أشخاص الاسرة من خلال وجهة نظر الاشخاص الآخرين ، وهذه الطريقة تسمح للباحث الانثروبولجي برؤية الاسرة من خلال وجهات نظر أعضائها انفسهم ، كما تسمح بالتبصر بسيكلوجية الفرد وديناميات التفاعل الاجتماعي فى الاسرة ، وهناك طرق مختلفة للتحقق من صدق وثبات البيانات التى نحصل عليها بهذه الطريقة .

أما الاتجاه الثالث فيتمثل فى الدراسة المركزة لمشكلة معينة أو حدث معين أو أزمة معينة فى حياة الاسرة وبخاصة فيما يتعلق بالكيفية التى تواجه بها الأسرة الاحداث والمواقف الجديدة بما يسمح بمعرفة الكثير عن الجوانب الهامة للديناميات السيكلوجية للفرد والأسرة ، أما الاتجاه الرابع والاخير فينطوى على دراسة كلية للحياة الأسرية من خلال الملاحظة والتسجيل التفصيلي للاحداث

والمناقشات ومظاهر التفاعل الاجتماعي التى تحدث فى يوم معين فى حياة الاسرة ، ويقوم اختيار هذا اليوم على أساس عشوائي أو متعمد ، فربما كان يوما عاديا من أيام الاسبوع أو يوما مميزاً بحدث غير عادى مثل الميلاد أو التعميد أو القيام بشعائر الدفن أو الزواج أو الانتقال الى مسكن جديد .

وقد اتبع المؤلف فى دراسته طريقة المزاوجة بين المنهجين اللذين يتمثل احدهما فى التسجيل الواقعي لروتين الحياة اليومية الذى يقوم على أساس الاختيار العشوائي أو المتعمد ليوم معين فى حياة الاسرة وملاحظة مظاهر السلوك الذى يصدر عن أشخاصها فى مواقف التفاعل المتنوعة وما يرتبط بتلك المظاهر السلوكية من أنواع العلاقات التى تقوم بينهم وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات القرابية أو الاقتصادية ، أو تلك العلاقات القائمة على أساس السلطة كالعلاقات بين الزوج والزوجة وبينهما والابناء من الذكور والاناث ، والعلاقات التى تقوم بين الاخوة والاخوات وبين الابناء وأقارب الأسرة عن طريق الام أو الاب والاشخاص الآخرين الذين يتفاعلون مع الاسرة فى مجال العمل أو التبادل الاقتصادى أو الجيرة . بينما يقوم المنهج الآخر على أساس التسجيل الحرفي لقصص أو تواريخ حياة أشخاص الأسرة فيما يتعلق بمراحل نموهم النفسي والاجتماعي وعلاقاتهم ببقية اعضاء الاسرة ووجهة نظرهم فى أنماط السلوك التى تصدر أو كان هناك وجوب لصدورها عنهم فى مواقف التفاعل ومراحل النمو المتعاقبة وذلك بغية الخروج ببعض الافكار العامة عن الحياة الواقعية كما تحدث فى الروتين اليومي فضلا عن الحياة الصورية أو المثالية كما هي فى مجال كبار السن أو توقعات ذوى السلطة وبخاصة بناء على اختلاف نوع ومدى المعرفة لدى الاجيال المختلفة وما يرتبط بذلك من اختلاف نوع الحكم فيما يجب أن يكون وما هو واقع فعلا .

ولقد كان هذا المنهج الذى اتبعه المؤلف لا يسمح بالاعتماد على عينات كبيرة ، وان كانت الدراسة المركزة لمائة أسرة عن طريق الاستبيانات واستمارات البحث قد أتاحت الفرصة للحصول على كثير من المادة الاثنوجرافية او المعلومات التى يمكن استخدامها فى مجالات متعددة ، فالأسرة باعتبارها نسقا اجتماعيا صغيرا تعتبر مجالا ممتازا لتطبيق النظرة الكلية التى تسيطر على البحوث الانثروبولوجية وبخاصة فيما يتعلق بدراسة البناء الاجتماعي والثقافة فضلا عن انها تساعد على معرفة ما تعنيه النظم الاجتماعية بالنسبة للافراد وبالتالي تسمح لنا بتجاوز الصور والبناء الى الحياة الحقيقية ، كما ان الدراسة المركزة للوحدات الأسرية بهذه الطريقة تساعدنا على خلق قنطرة تسد الثغرة القائمة بين الثقافة من ناحية والفرد من الناحية الأخرى ، فقد كان الباحث ينظر الى الثقافة والشخصية فى المجتمع الذى كان اطاراً للدراسة ، فى ارتباطهما واعتمادهما المتبادل فى الحياة اليومية والواقعية .

ان الدراسة المركزة والشاملة لحياة أسرة معينة لتطبيق المناهج والطرق التى استخدمها الباحث يمكن أن تؤدى بنا الى فهم حياة الأفراد فى المجتمع الفقير ومن ثم الى فهم للحياة الأسرية فى هذا المجتمع الذى ينتمي اعضاؤه الى الطبقة الدنيا ، ثم الى فهم لنوع الحياة التى يعيشها أبناء تلك الطبقة ككل والدور الذى تلعبه فى تاريخ وثقافة المجتمع الكبير الذى تنتمي اليه ، فضلا عن انها قد تعكس لنا بعض الجوانب فى الطابع القومي ، وان كانت هذه النقطة الاخيرة من الامور التى يصعب الاتفاق عليها حيث قد ركزت كل الدراسات التى عنيت بالطابع القومي على الطبقة الوسطى وذلك بناء على افتراض معين مؤداه ان هذه الطبقة تعكس لنا القيم السائدة فى المجتمع . ولذلك فقد رأى المؤلف ان دراسة الوحدات الاسرية التى تنتمي الى الطبقة الدنيا تؤدى بنا الى معرفة بعض الخصائص أو

المظاهر التى يتميز بها مجتمع هذه الطبقة بالنسبة الى المجتمع الكلي الذى تنتمي اليه ، وان كان قد تشكك ايضا فى امكان تحقيق مثل هذا الافتراض .

كذلك فقد تشكك المؤلف أيضا فى امكان الاتفاق حول مفهوم ذلك المصطلح الذى ينطوى على درجة عالية من التجريد وهو مصطلح الثقافة أو الانماط الثقافية مما حدا به فى النهاية الى الهروب من دراسة الجماعات المحلية التى تعتبر المجال التقليدى للدراسات الانثروبولوجية الى الدراسة المركزة والشاملة للوحدات الأسرية ، ويبرر المؤلف هذا الاتجاه بأن الباحث السوسيولوجي والانثروبولوجي حينما يعني بالوصف المجرد لطرق الحياة فى الانماط الثقافية المتمايزة فانه يغفل قلب وروح الظاهرة التى يتوفر على دراستها ، كما أن فى دراسة ووصف الانماط الثقافية الكلية اهمالا لا يمكن تجنبه لمدى التنوع فى مظاهر السلوك والعرف مما يؤدى بالتالي الى افتراض صياغة غير مفيدة لمظاهر الاختلاف بين الثقافات تميل الى اغفال مظاهر التماثل بين الجوانب الأساسية فى الحياة الانسانية ، هذا فى حين أن البدء بدراسة الاسرة يمكن أن يؤدى بنا الى مستوى أعلى من التجريد فيما يتعلق بدراسة الثقافة مثلا ، وذلك من خلال الوصول الى بعض التعميمات حول مظاهر الاختلاف بين خصائص الحياة الأسرية فى ثقافة معينة عنها فى ثقافة اخرى مغايرة ومتمايزة .

ويتعرض المؤلف لبيان امكانيات التحليل التي يمكن أن تخضع لها المادة الاثنوجرافية فيقول انه من خلال تسجيل تاريخ حياة أشخاص الأسرة يمكن الخروج ببعض القضايا العامة حول خصائص الحياة الاسرية والثقافة والمجتمع الذى تنتمي اليه وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات التى تقوم بين اعضائها على أساس النوع كالعلاقات بين الاخوة والاخوات وبين الزوج والزوجة وبين الأب والأم من ناحية والابناء والاولاد والبنات من الناحية الاخرى وما يرتبط بتلك العلاقات من مظاهر السلوك ، كما يمكن الخروج أيضا ببعض القضايا التى تتعلق بالحياة الجنسية المشروعة وغير المشروعة مع تحديد مفهوم كلا المصطلحين كالعلاقات الجنسية بين الزوجة والزوج أو بين الرجل المتزوج والمراة المتزوجة برجل آخر أو بين المراة المتزوجة والرجل الأعزب أو بين الرجل الاعزب والفتاة غير المتزوجة ، والزواج الشرعي (الديني) والعرفي (المدني) والبغاء ومدى تأثيره على الحياة الزوجية ومدى استقرار العلاقات الزوجية وشيوع ظاهرة الطلاق ، كذلك بالمشكلات الاقتصادية والجنسية والسلوكية والنفسية والاجتماعية ، كما يمكن من خلال تطبيق هذه الطريقة فى الحصول على المعلومات ، الخروج ببعض القضايا العامة حول تأثير البغاء على استقرار الأسرة والعلاقات بالجيرة والمركز الاجتماعي للبغايا وأزواجهن وأولادهن وبناتهن .

وكذلك تعتبر الدراسات الجينولوجية مصدرا هاما للحصول على المعلومات عن الجوانب القرابية والاقتصادية والسياسية والتعليمية فى الجماعة المحلية أو المجتمع موضوع الدراسة .. فمن خلال تسجيل أسماء الأشخاص الأحياء والموتى والعلاقات القرابية التي تقوم بينهم وأعمارهم وأماكن ميلادهم وحالتهم المدنية ومحال أعمالهم والمهن التي يزاولونها وحالتهم التعليمية يمكن للباحث أن يعرف شيئا عن مدى الوحدة القرابية والوحدة الاقتصادية النواة والممتدة ، كما يستطيع أن يعرف شيئا آخر عن مدى التمركز الاقليمي للجماعات القرابية والمهنية كما يمكن أن يتأدى الى فهم نمط التوزع المهني والتعليمي وارتباطه بالتوزع القرابي ولغة التفاضل الطبقي .

كما يمكن من خلال دراسة مظاهر الثقافة المادية وبخاصة فيما يتعلق بمقتنيات الأسرة من الأشياء ذات القيمة المادية والمعنوية مثل الاثاث والأدوات المنزلية والتحف والكتب وأدوات الزينة والملابس وغيرها ، أن نصل

الى بعض الفهم لمصطلح الفقر كما يتداوله الناس فى المجتمع وأن نعرف شيئا عن طريقة توزيع الدخل على مصادر الانفاق وتعريف الناس للسلع الضرورية والكمالية والعلاقة بين مستويات الدخل وجهاز الثروة المادية ومصادر المشتريات ومدى قيام التبادل والتنقل بين المناطق السكنية المختلفة والمسافات التى يقطعها الناس لشراء احتياجاتهم ، كما نستطيع أن نعرف شيئاً عن أوقات الأزمات الاقتصادية وارتباطها بمظاهر التعاون والتكافل الاجتماعى الذى يقوم بين الوحدات القرابية والجيران ومدى توزع الثروة بين الأسر الفقيرة وارتباط المركز الاجتماعى بحيازة المتلكات المادية ،وأخيراً فان هذا كله يساعد على فهم العلاقة بين الثقافة المادية والبناء الاجتماعى الواقعى والمثالى فى المجتمع .

والى جانب هذا كله يمكن الحصول على بعض المعلومات عن ظاهرة اجتماعية معينة من الظواهر التى توجد فى المجتمع موضوع الدراسة ، فحينما تعرض المؤلف مثلا لدراسة ظاهرة البغاء حاول أن يتبين الدور الوظيفى الذى تلعبه هذه الظاهرة دون أن يبدأ بافتراض أن البغاء يشكل خروجا على النظام الأخلاقى أو شذوذا عن النسق الاجتماعى السائد ، ولم تكن تلك الظاهرة تمثل هذا الوضع فى المجتمع موضوع الدراسة الذى دلت الدراسات الخلقية على مدى شيوع البغاء فيه بحيث لا يمكن النظر الى البغى أو البغاء باعتباره أمراً شاذاً وذلك الى الحد الذى يمكن معه القول بوجود نوع من القبول الاجتماعى لهذه الظاهرة فقد دلت الاحصاءات على أن ثلث عدد الأسر يشتغل نساؤها بالبغاء أو زاولن المهنة كما اتضح أن الأهالى ينظرون الى البغاء باعتباره نشاطا اقتصادياً لا يحاط بتلك التحريمات الدينية والاجتماعية التى تعزل البغى والأسرة التى تنتمى اليها عن المجتمع الذى تعيش فيه، والبغايا فى ذلك المجتمع قد يكنّ نساء ، هن أخوات أو أمهات أو زوجات أو بنات لا يمارسن المهنة ولم يؤد الاشتغال بالبغاء الى قطع صلاتهن بأقاربهن وأصهارهن وجيرانهن ، كما أن البغاء لم يترتب عليه احتلال المراكز الاجتماعية الدنيا فى مثل ذلك المجتمع الذى تكثر فيه المشكلات السلوكية كالسرقة وامتهان المثلية الجنسية بحيث يحتل اللصوص مركزاً اجتماعيا أدنى من المركز الذى تحتله البغى أو يحتله أقاربها ، بل ان البغى قد تحتل مركزاً اجتماعياً أعلى من المركز الاجتماعى الذى تحتله المرأة المشتغلة بأعمال الخدمات الشخصية كما أن البغاء فى ذلك المجتمع كان بمثابة عملية اقتصادية مرتبطة بالظروف المالية والاجتماعية بحيث يمكن التوقف عن الاشتغال بتلك المهنة والعودة اليها بناء على تغير تلك الظروف .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى بيان كيفية الاستفادة من تلك المعلومات فى مستوى أعلى من التجريد وبخاصة فيما يتعلق بالثقافة فى المجتمع الفقير ويخرج من ذلك بأنه على الرغم من اختلاف وجهة نظر الناس نحو الفقر والفقراء حيث نجد هناك من ينظر الى الفقراء باعتبارهم أناساً طيبين يتمسكون بالفضيلة ويتسمون بالكرم والطيبة والشعور بالرضا كما نجد أيضا من ينظر الى هؤلاء باعتبارهم فى الغالب قوما أشقياء يتسمون بالعنف والبخل وتنتشر بينهم الجريمة والانحرافات السلوكية ويرجع هذا الاختلاف فى وجهة النظر الى عدم التفرقة بين الفقر من ناحية والثقافة فى المجتمع الفقير من الناحية الأخرى ، فالفقر باعتباره يرتبط بانخفاض مستوى الدخل أو قلة الموارد لا يرتبط دائما بأية سمات سلوكية أو أخلاقية ولكن الثقافة فى المجتمع الفقير هي التى تتسم ببعض الخصائص العامة ، مثلا فيما يتعلق بنمط الانفاق ومدى عمق العلاقات الأسرية وطرق استغلال الوقت ، وهكذا ينتهى المؤلف من دراسة المقارنة للأسر الفقيرة فى ثقافتين متمايزتين الى أنواع التماثلات التى توجد بين الثقافات فى تلك المجتمعات الفقيرة .

فالجماعات الفقيرة تعيش فى عزلة اجتماعية واقليمية عن بقية الفئات السكانية الأخرى

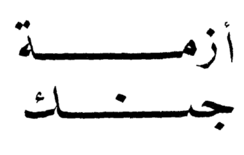
فى المجتمع الذى تنتمى اليه ، فهى تسكن فى مناطق خاصة ذات سمات عمرانية متخلفة ، مثلا فى ضيق شوارعها وافتقارها الى كثير من الشروط الصحية مع زيادة الكثافة السكانية فيها ، كذلك فتلك الجماعات لا تشارك كثيرا فى الأنشطة العامة مثل التنظيمات السياسية والنقابية ولا تستفيد كثيراً من برامج الخدمات الثقافية والصحية، كذلك تتميز تلك الجماعات بانخفاض الدخل السنوى لافرادها . . وتحديد مدى ارتفاع أو انخفاض مستوى الدخل الفردى أمر نسبى محكوم بالظروف الاقتصادية العامة فى المجتمع ، فقد توزع أفراد العينة التى أعتمد عليها المؤلف على مستويات مختلفة تتراوح بين أقل من ٥٠٠ دولار الى أكثر من ٤٠٠٠ دولار للفرد الواحد سنويا ، فقد كان الدخل الفردى لـ ٢٢٪ منهم يقل عن ٥٠٠ دولار سنويا وتراوح دخل ١٥٪ منهم بين ٥٠٠ وأقل من ٩٩٩ دولارا سنويا وكان دخل ٣٢٪ منهم بين ٢٠٠٠ وأقل من ٣٩٩٩ دولارا سنويا بينما نجد ٤٪ منهم فقط يزيد دخلهم عن ٤٠٠٠ دولار سنويا للفرد الواحد، كذلك تتميز هذه الجماعات بانخفاض المستوى التعليمى والاشتغال بقطاعات مهنية معينة فى مجال الخدمات التى تستوعب الأيدى العاملة غير الماهرة وترتفع بينهم نسبة البطالة كما تستوعب الجريمة أو الانحرافات السلوكية بعضا من القوى العاملة فى تلك المناطق، وتعتمد تلك الجماعات كثيرا على برامج الرعاية والتكامل الاجتماعى التى تقدمها الدولة فى صورة تأمينات أو مساعدات عينية .

كذلك فقد أسفرت تلك الدراسة المقارنة عن القول بأن جيوب الفقر أو التخلف لا تظهر الا فى مجتمعات وثقافات معينة يسود فيها الاقتصاد النقدى ونظام العمل بالاجر والانتاج من اجل الفائدة واستمرار ظهور البطالة بين العمال غير المهرة ، وانخفاض الأجور والافتقار الى وجود التنظيمات السياسية والاقتصادية التى تربط الافراد بالسياسة العامة للتنمية فى الدولة مع اتاحة الفرصة لاستفادتهم من الخدمات الحديثة، فضلا عن وجود نظام قرابى لا يسمح بأعمال مبادىء التكافل الاجتماعى والاقتصادى بين أعضاء الوحدة القرابية المتمايزة ، ووجود نظام طبقى يقوم على اسس اقتصادية دون اعطاء الأهمية لعوامل الانتماء القرابى أو العرقى أو القبلى كحدود طبقية .

ومهما يكن من شىء ، فانه بالاضافة الى القيمة العلمية لهذا الكتاب فهو يعطينا صورة نابضة بالحياة ، للحياة الاجتماعية فى مجتمع بورتوريكو بكل ما فيه من فقر ومرض وجنس ولذة ، وموقف الناس من هذا كله وتحديهم لواقعهم المؤلم والظروف القاسية التى تحيط بهم والطرق والوسائل التى يتحملها الناس للتغلب على شقوة الحياة .

★ ★ ★





عرض وتحليل الدكتور مكي شبيكه

مدينة صغيرة في الجانب الأسيوى على مضيق الدردنيل وتتحكم في مدخله ، هي عنوان هذا الكتاب . والوقت الذى حدثت فيه الأزمة هو سبتمبر ١٩٢٢ ، فما هي تلك الأزمة ؟

كانت بريطانيا مع حليفاتها بعد هدنة الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) تحتل جيوشها القسطنطينية ومواقع استراتيجية اخرى في تركيا ، ومن ضمنها حامية بريطانية صغيرة في مدينة جنك ، واقتربت قوات مصطفى كمال بعد أن رمت بالجيش اليوناني بازمير في البحر من المضايق وبعدها العبور الى الجانب الاوروبي من تركيا والوصول الى القسطنطينية وما حولها من الأرض التركية ، وخلافا لحلفائها رأت بريطانيا الوقوف امام مصطفى كمال وجيشه من تنفيذ خطته باستكمال تحرير أراضيه من القوات الأجنبية . وعندما فشلت المساعي السلمية وتبادل المذكرات صممت بريطانيا على استخدام القوة، وابرق الى القائد البريطاني في استانبول بأن يفتح نيرانه على القوات التركية المرابطة امام التحصينات البريطانية في جنك ، في وقت حدد له بعد انذار للترك بالانسحاب ، وجلست الوزارة البريطانية كامر روتيني تنتظر برقية من القائد بتسلمه للأوامر او لا ثم برقية اخرى او برقيات تنقل لهم ما حدث . اما استجابة للانذار فالانسحاب ، وأما فتح النيران فالحرب ، ومضى الوقت المرتقب لتسلم البرقية الأولى والبرقيات الأخرى ولم تصلهم الاخبار .

وكانت حيرة وقلق . فهم على يقين أن مثل

كتاب ازمة جنك لمؤلفه ديفيد وولدر ١٩٦٩ .

Waldek, Di The Chanak Affair, Hutchinson, London 1969

هذه البرقيات الهامة فى مثل هـذا الأمـر الخطير لا بد أن تصل روتينيا، وحسب تجاربهم مع قوادهم لا بد أن يصل اليهم الرد بالاستلام أولا ثم بالنتيجة ولم يجدوا تفسـيرا لهـذا الابطاء ، واخيرا نبين لهم مالم يكن فى حسبانهم وهو أن القائد عصى الأوامر وخاطر بمركزه ولم يبعث بالانذار للترك ، بل واصل جهوده السابقة للتفاوض والوصول الى حل سلمي ، ورمى بالأوامر جانبا ، وبذلك انقذ بلاده من حرب لا مبرر لها لايؤيدها حلفاؤها فيها ولا بعض الوزراء فى الحكومة البريطانية ولا أغلبية الأحزاب المؤيدة للحكومة ، ولا حتى الرأى العام البريطاني ، ولنا أن نتسـاءل بعد ذلك ونبحث عن تفسير . .

يوضح لنا المؤلف أن هذه السياسة التى كادت ترمي ببريطانيا فى أتون هذه الحـرب بالرغم من تلك القوى المعارضة اصر والح عليها شخصـيتان فى الوزارة : لويد جورج رئيس الوزارة الائتلافية ونستن تشرشـل وزيـر المستعمرات ، وكانت نتيجتهـا عليهمـا أن سقطت الوزارة وخرج لويد جورج نهائيا من معترك السياسة وسقط تشرشل فى الانتخابات التى تلت الأزمة .

وكأرضية وخلفية لهذه الأزمة كان لا بد للمؤلف ان يبدأ بالتاريخ العثماني من أوله ، ودخول الترك فى البلقان وشرق أوروبا ، ويتابع ادوار ما يسمى بالمسألة الشرقية وتحرر شعوب البلقان . وبعد ذلك يتابع الحوادث التى أدت الى الحرب العالمية الأولى ، وانضمام تركيـا لجانب ألمانيا ، ثم التسويات وتقسيم أسلاب الدولة العثمانية المقهورة ، ومن ضمن الورثة اليونان الذين انضموا لجانب الحلفاء فى الحرب. وقد احتلت قوات الحلفاء استانبول ومواقع اخرى ، وقادت اليونان جيشا ضخما احتلت به مدينة ازمير ، وبدأت عمليات توسعيـة داخل الأناضول ، وكادت تتم خطة التقسيم والاحتلال للأراضي التركية لولا أن ظهر عامل جديد لم يكن فى الحسبان ، فقد كانت معاملة الظافرين مع حكومة استانبول المقهورة الضعيفة بسلطانها ووزرائها لا يسـعها الا الانصياع لما يملى عليها . وهذا العامـل الجديد الذى لم يكن فى حساب الحلفاء أو الحكومة التركيـة الرسمية هو جنرال تركي عصى أوامر حكومته، فعرض نفسه لعقوبة من لم ينفذ تعليمـات رؤسائه بأشد مما عرّض القائد البريطاني فى استانبول نفسه للخطر بعصيان أوامر لندن بعد ذلك . . هذا الجنرال التركي هو مصطفى كمـال .

والمؤلف فى كتابه هـذا يعالج موضوعات عدة ، فهـو يؤرخ لحركة مصطفى كمال كمـا يراها الغرب وخاصة بريطانيا ، ويؤرخ أيضا للسياسة فى اليونان ، والصراع فيها للوصول للسلطة واحلام الشعب اليوناني فى استعادة مجده القديم واسترجاع مكانته التاريخية . ويرسم لنا صورا معبرة عن النظام البريطاني فى برلمانه وصحافته واحزابه ، ويوضح لنـا ظهور الخلاف بين دول متحالفة متضامنة فى اثناء الحرب وخرجت منه ظافرة . وفـوق ذلك فهو يقوم بدراسة تحليلية نقدية للشخصيات التي لعبت دورا فى الأحداث ، فكل من لويد جورج وتشرشل وكيرزون وبيركنهد وبونارلو واوستن شامبرلين وبولدوين وغيرهم رسم لهم المؤلف صورا قلمية توضح مفتاح شخصية كل منهم واثرها فى موقفه من القضايا المعروضـة للبحث . ومن التمعن فى تلك العصور يتضح لنا أن مـا يسـمى بالبرود الانجليزى وعـدم الخضوع للعواطف أسطورة لأن العواطف والميول الشخصية كـان لهـا دور كبـير فى المواقف والقرارات ، وفى اليونان يتناول قلمه عددا من الشخصيات السياسية والعسكرية اهمهـا فنزويلس أبرز رؤساء الوزارات والملك قسطنطين بل انه جعل شخصية فنزويلس العامل الأكبر فى الأزمة ، يتلوهـا شخصية لويـد جورج ، ولذلك فقد كانت صورة فنزويلس الفوتوغرافية فى صدر الكتاب . ومن الجانب التركي تنـال شخصية مصطفى كمال واكبر قوادة عصمت النصيب الأوفى .

والمؤلف بلغ درجة الكمال من حيث المصادر والمراجع، فمراجعه الرئيسية، الوثائق الرسمية ومن ضمنها مضابط جلسات مجلس الوزراء ، والأوراق الخاصة لبعض الشخصيات الرئيسية، وأقوال ومذكرات بعض الضباط ،بل انه تحدث الى عدد من العسكريين ممن اشتركوا في الأحداث مستفسرا ومستوضحا بعض النقاط. واطلع على كل الصحف التي نقلت خبرا أو ابدت رأيا ، كل هذا زيادة على قائمة كبيرة من الكتب التي تناولت الموضوع أو بعض اجزاء منه . وأهم هذه الكتب هي التي تناولت تاريخ حياة السياسيين والعسكريين الذين كانت لهم علاقة ما بتطور الأحداث أو رسم السياسة . ودرجة الكمال التي ذكرتها في أول الفقرة من حيث المراجع والمصادر تنطبق على الجانب البريطاني ، أما فيما يختص بجانب الخلفاء الآخرين وبجانب تركيا واليونان فالمراجع هي ما حفظ في الوثائق والمراجع البريطانية ، وما استخلصه المؤلف من تاريخ حياة الأفراد في الكتب ، ولكنه لم يتمكن من دراسة وثائق تلك الدول الأخرى ، وبعد توضيح الأزمة وملخص تاريخها ومراجع ومصادر المؤلف لم يبق لنا الا أن نتابع فصوله ونتبين تطور الازمة ومراحلها .

يستعرض المؤلف تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها مع أوروبا وما اصطلح عليه في الدوائر الدبلوماسية الأوروبية بالمسألة الشرقية . ويتابع الصراع الدولي في القرن التاسع عشر من حرب القرم الى مؤتمر برلين ، وتظهر الأسماء التي كان لها موقف في هذا الصراع **أمثال بسمارك وجلادستون ودزرائيلي وغيرهم** ويرسم لنا المؤلف صورة عن حرب التحرير التي أشعلتها شعوب البلقان ضد السيادة التركية وخاصة الشعب اليوناني ، وهنا يتابع الحوادث ببعض التفصيل ، فالسلطان العثماني يطلب نجدة واليه على مصر محمدعلي باشا ، ويحشد محمد علي امكانياته العسكرية من جند مدربين على النظام الحديث ومن اساطيل ويقودها ابنه ابراهيم باشا ، وتتعاطف الدول الأوروبية مع اليونان وتنجدها خاصة بالأساطيل التي تنتهي بتحطم اسطول محمد علي الذى بذل فيه من الجهد والمال الكثير ، وتوالت حروب تحرير الشعوب البلقانية ، وفي اثناء ذلك كان الصراع بين الدول على رجل أوروبا المريض (تركيا) مستمرا يشتد احيانا ويضعف حينا آخر لتنشأ أزمة جديدة ، وكانت الخطوط البارزة الواضحة في الصورة هي الصراع بين بريطانيا وروسيا حول المضايق التي تربط ما بين مياه البحر الأسود ومياه البحر الأبيض المتوسط ، فروسيا تود تحقيق مطامعها التاريخية في الوصول الى مياه البحر الأبيض المتوسط الدافئة ، وبريطانيا لا تود أن ترى دولة قوية تعترض طريقها الامبراطورى الى الشرق . وتابع المؤلف تطور الحوادث الداخلية في تركيا التي أدت الى ابعاد السلطان عبد الحميد واستيلاء لجنة الاتحاد والترقي على السلطة مع امتداد النفوذ الألماني حتى وقفنا على أبواب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) .

يتابع المؤلف تطورات الحرب العالمية منذ بدايتها بما لا يخرج عن المعروف عنها وعالجته كل الدراسات التي قام بها المختصون ، ولكنه يفصل بعض الشيء تطورات الحوادث التى جعلت النفوذ الألماني يمتد تدريجيا حسب خطة مرسومة الى الدولة العثمانية وبلغ أوجه عند قيام حكومة لجنة الاتحاد والترقي تحت سيطرة أنور باشا أكبر المتحمسين للحلف مع المانيا حيث كان على يقين أن النصر والمستقبل لها ، وعليه فالارتباط معها يعود على الدولة العثمانية بمغانم ومكاسب ، ومن الناحية الأخرى كان فنزويلس رئيس وزراء اليونان آنذاك يعتقد ان المستقبل والنصر في جانب دول الحلف الذى يضم انجلترا وفرنسا وروسيا . وعليه فالارتباط معهم يعود على بلاده بمكاسب ومغانم على حساب شعوب البلقان الأخرى وتركيا ، ولكن هناك فرق بين الحالتين ، ففي تركيا تسيطر لجنة الاتحاد والترقى سيطرة تامة وخاصة أبرز أعضائها أنور باشا على مقدرات

الأمور وتسيير دفة السياسة ، أما فى اليونان فالملك قسطنطين له موقف يخالف فيه رئيس وزرائه ، وهو الحياد فى هذا الصراع الدولي . وما كانت دول الحلف لترضى هذا الموقف بل تريده موقفا واضحا بجانبها ضد المانيا وامبراطورية النمسا والمجر ، وفنزويلس من جانبه يتهافت على الانحياز لجانبهم ، ويزيل كل العقبات التى تقف أمامه حتى ولو كان الملك نفسه ، ولتقوية مركز فنزويلس فى هذا الصراع بينه وبين ملك البلاد لا بد أن يقدم عرضا أو بالأحرى رشوة له يستطيع أن يلوح بها للرأى العام اليوناني ليظهر لهم المكسب الواضح من انحيازهم الى جانب دول الحلف .

ومن بين دول الحلف قدمت بريطانيا الاقتراح ، ونال موافقة حليفتيها فرنسا وروسيا ، فما هو هذا الاقتراح ، أو من قبيل تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية هذه الرشوة ؟

فى ١٠ يناير ١٩١٥ منح سير ادوارد جراى وزير خارجية بريطانيا حكومة اليونان امتيازات اقليمية هامة على ساحل آسيا الصغرى تضم أزمير وما حولها ، وهنا يقف المؤلف ليلاحظ أنه لا دليل يقودنا الى ان السير ادوارد جراى أو أعضاء وزارة الحرب الآخرين كانوا يعلمون ما يتضمنه هذا القرار . والسير ادوارد جراى خاصة يجهل تمام الجهل الشؤون العسكرية ، ويبدو أنه لم تكن هناك استشارات لخبراء عسكريين حتى تستبين لهم الصورة التى تستطيع بها اليونان الاستيلاء على المنطقة والاحتفاظ بها ، ولم يدخلوا فى حسابهم احتمالات رد الفعل التركي على هذا الغزو . وهذا العرض البريطاني كان البذرة التى أنبتت الحرب اليونانية ـ التركية فيما بعد وبالتالي الأزمة التى أصبحت عنوانا لهذا الكتاب . ويستطرد المؤلف ليقول أنه فى أوقات مختلفة قدمت مثل هذه الرشاوى الى بلغاريا ورومانيا وايطاليا ، وقد كان بعضها يناقض البعض الآخر ، مما أدخل بعض التعقيدات فى مؤتمر الصلح بعد ذلك ، ومما يدل على أن اصدار مثل هذه القرارات تحت ظروف الحرب لا يتم بعد دراسة دقيقة والاستفادة بالتجارب ، أن سير ادوارد جراى نفسه فى سنة ١٩١٨ اعترف بخطأ تلك السياسة ، فقد قال انه كان يأمل أن تتحد كل شعوب البلقان ضد تركيا ، وهو يعلم من تجاربه فى الحرب البلقانية التى سبقت الحرب العالمية أن هذا الأمل يستحيل تحقيقه ، غير أنه مر وقت طويل بعد هذا العرض البريطاني قبل أن تدخل اليونان الحرب فعلا ، ومرت تطورات داخلية فيها صراع مسلح بين فنزويلس والملك قسطنطين ، ودبر فنزويلس من موطنه فى جزيرة كريت بعد أن استقال وهرب من اثينا جيشا ، وساندته انجلترا وفرنسا بأن أنزلوا جيوشهم فى اليونان ، وتم بالتعاون مع فنزويلس انقلاب غادر بعده الملك قسطنطين البلاد ونصب ابنه جورج ملكا ، وبذلك استعاد فنزويلس سيطرته ، وتم اتحاد اليونان مع دول الحلف فى هذا الصراع . غير أن ذلك تم بمعونة خارجية وبعد أن أحدث تصدعا فى الجبهة الداخلية .

فى ٣٠ اكتوبر ١٩١٨ وعلى ظهر الباخرة البريطانية (اغاممنون) تم توقيع شروط الهدنة مع تركيا ، وبدأت فرق من جيوش بريطانيا وفرنسا وايطاليا تحتل مواقعها فى العاصمة استانبول والمضايق ولم تشترك الجيوش اليونانية الا فى حراسة سفارتها وقنصليتها ، بالرغم من أن روسيا القيصرية التى كانت تعترض على وجود جيش يوناني فى المضايق قد زالت . وبخروج روسيا البلشفية من الحرب ونشر الاتفاقيات السرية ورفضها ، لم تنفذ كل الاتفاقيات التى كانت روسيا القيصرية جانبا فيها ، وتم هذا الاحتلال فى هدوء تام والحكومة التركية التى قامت بعد انهيار سلطة لجنة الاتحاد والترقي وفرار رجالها كانت متعاونة مع المنتصرين ، والانطباعات التى دونها الذين شاهدوا تركيا فى تلك الفترة تدل على اطمئنانهم من ناحية الأمن والاستقرار فى تركيا ، بل ان تشرشل

دون فى مذكراته ان الترك سرهم كثيرا أن يكون على رأس المحتلين بريطانيا ، وعليه فلم تكن تركيا ومشاكلها تثير اهتمام الذين جلسوا على مائدة مفاوضات الصلح فى باريس بل شغلوا بما هو أهم من تركيا .

من تقاليد الحكم البريطاني أن الحزبية الضيقة تختفى فى فترة الحروب غالبا وتتألف حكومات ائتلافية لادارة دفة الأمور خلال الحرب ، وهذا ما حدث بالفعل عند اندلاع الحرب الأوروبية فى سنة ١٩١٤ ومع ذلك قد تحدث تغييرات غير جذرية مثل استبدال رئيس وزراء بآخر ، أو تعديل فى الوزارات . وما حدث فى اثناء الحرب أن لويد جورج حل محل مستر اسكويث رئيسا للوزراء فىديسمبر ١٩١٦ وكلاهما من حزب الأحرار ، ولذلك انقسم الحزب الى مؤيدين لرئيس الوزراء الجديد ومؤيدين لرئيس الوزراء السابق . وفى ديسمبر سنة ١٩١٨ واستعدادا لحل مشاكل مؤتمر الصلح رأىلويد جورجاستشارة الأمة فى انتخابات عامة جديدة . ولكنها على أساس الائتلاف لا على أساس الحزبية العادية، وطلب من الناخبين اعطاءاصواتهم للحكومة الائتلافية أو للمعارضة ، وتسلم كل مرشح للحكومة خطابا موقعا من لويد جورج وبونارلو رئيس حزب المحافظين والذى سماه خصمهما مستر اسكويث (الكبون) . ونالت الحكومة أغلبية ساحقة فى مجلس العموم ، ولكنأغلبيتها العظمى من المحافظين ، وظهرت هذه الصورة النادرة فى النظام الانجليزى ، رئيس فريق من حزب الأحرار وهو لويد جورج يصبح رئيس وزراء يعتمد على المحافظين ، والنتيجة هي أنها سياسة عملية على المدى القريب ولكن تحمل فى طياتها ضعفا واضحا فى مركز لويد جورج على المدى البعيد .. هذا هو موقف لويد جورج فى تلك الفترة الخطيرة من حيث تسويات الصلح واتخاذ قرارات يكون لها أثرها على العالم الجديد .

وهنا يوضح لنا المؤلف دور الميول الشخصية وأثرها على السياسيين عند اصدار قراراتهم الخطيرة أو تأييدهم وانحيازهم الى جانب دون الآخر،فمنذ اللحظات الأولى التي بدأ فنزويلس اتصالاته بدول الحلف وجاهد الى أن جعل اليونان تنحاز اليهم كان محل اجلال وتقدير واعجاب لويد جورج ، ومن الناحية الأخرى ورث كراهيته للترك من أحد اسلافه الكبار فى الحزب ، وهو المستر جلادستون ، وهذا امر واضح له مايبرره بل عضده ضد خصومه ومعارضيه فى اليونان نفسها ، ففي نظره صداقة فنزويلس هي صداقة الشعب اليوناني ووطنية اليونان تتجسم فى شخص فنزويلس، فالملوك والجنرالات ورجال السياسة الذين يعارضون فنزويلس هم أعداء له واعداء لبريطانيا .

تحت ظروف هذه الصداقة بين شخصيتى لويد جورج وفنزويلس عرضت مطالب اليونان الاقليمية خلال استراحة الكبار من بحث تفاصيل الشروط مع ألمانيا ، حيث اقتطعوا جزءا من وقتهم لبحث هذه المطالب الاقليمية فى تركيا،ولم يحضر الاجتماع أى خبير عسكرى ولم يحضره **اورلاندو** ممثل ايطاليا ، وكان معروفا بمعارضته لاقتطاع أىجزء منالاناضول وخاصة بعض المناطق المحيطة بازمير لليونان ، والشخص الوحيد غير لويد جورج وولسون وكليمنصو هوهارولد نكلسن عضو اللجنة البريطانية المختصة باليونان الذى وصف المشهد الأخير فى خطاب كتبه لزوجته فى يوم ١٤ مايو ١٩١٩ « عندما دخلت عليهم وجدت ولسون وكليمنصو جالسينعلى كراسي مريحة وأمامهما على البساط خارطتان ، وبقيت هناك نحو نصف ساعة اتحدث وأعترض ، وكان الرئيس ولسون لطيفا كما كان لويد جورج أيضا ، ولكن كليمنصو كان مشاكسا ، وكان شيئا مريعا أن يقوم رجال كهؤلاء عن جهل وعدم مسؤولية بتقسيم آسيا الصغرى ، كأنهم يقسمون قالبا من الكيك » وبذلكنال فنزويلس القطعة التى ارادها بتبريك من لويد جورج ، لانه لا يريد لصديق بريطانيا أن يرجع من مؤتمر الصلح خاوى الوفاض .

وفى يوم ١٥ مايو ١٩١٩ وتحت حماية مدافع الأسطول اليوناني ومدافع أساطيل الحلفاء نزلت ثلاث فرق من الجيش اليوناني فى مدينة أزمير التركية، ويصف المؤلف هنا ما ارتكب من فظائع وقتل واهانات للترك، وانتشرت أنباء هذه المأساة فى جميع أنحاء الأناضول ، وانزل السلطان الدموع غزيرة عندما سمع بها ولكنه سجين فى قصره لا حول ولا قوة له ، وثارت دماء الترك لما لقوه من شعب ظل تحت حكمهم القرون . ولاحظ البريطانيون التغيير الذى طرأ على موقف الشعب التركي ، فبعد أن كانوا مسالمين متعاونين عموما وتجمع الأسلحة منهم بكل سهولة قبل احتلال أزمير وتعرض جنودهم للاعتداءات وتوقف تدفق الأسلحة . ظهر الدافع للمقاومة ولم يبق الا ظهور الزعيم الذى يقودهم .

عين مصطفى كمال فى ابريل ١٩١٩ مفتشا عاما للأقاليم التى تقع على ساحل البحر الأسود الجنوبي فى الأناضول لاقرار النظام ، وكان هناك عندما نزل الجيش اليوناني فى أزمير ، وفى الحال بدأ ومعه بعض الزملاء فى تجميع فلول الجيش التركي ليكون نواة للمقاومة ، وجعلها مسألة قومية يلتف حولها الشعب ، فزيادة على تقوية الجيش رأى تعبئة الشعب وعقد الاجتماعات ووضع الميثاق القومي ، وفوجىء الجميع بهذه الحركة حتى حكومة استانبول المجردة من النفوذ ، ومع ذلك رأى المراقبون أن احتمال نجاحها ضئيل ، خاصة أن الجيش اليوناني وسع عملياته العسكرية من قاعدته فى أزمير واحتل برصا التى تقع قريبا من بحر مرمرة قبالة استانبول ، ورأت بريطانيا أن تقيم فى تركيا حكومة برلمانية باجراء انتخابات عامة ، ولكن المجلس الذى اجتمع نتيجة تلك الانتخابات اتخذ ميثاق مصطفى كمال الوطني دستورا له ، وعليه منذ يوم ١٦ مارس ١٩٢٠ أصبحت العاصمة التركية تدار بواسطة قوات الاحتلال البريطانية والفرنسية والايطالية ، وبذلك أسقطت حكومة استانبول من الحساب ، واصبحت هناك ثلاث قوى فى الأرض التركية ، قوة المقاومة الوطنية تحت زعامة مصطفى كمال فى تلال وسهول الأناضول ، وقوة الجيش اليوناني فى أزمير وبعض مناطق الأناضول ، وقوات الاحتلال فى استانبول والمضايق وما بقي لتركيا فى الجانب الأوروبي ، وللترك واليونان قوات مسلحة فى حرب ستستمر الى أن ينتصر فريق على الآخر .

وعلينا والحالة هذه أن نتبين مدى موقف كل قوة من هذه القوى حسب تحليل المؤلف . .

نجح مصطفى كمال فى تعبئة الجيش والشعب حول الميثاق الوطني ، وسيكون لهذا أثره فى عملياته العسكرية ضد الغزاة ، وأيدته حكومة روسيا البلشفية، وكانت طريق امداده بمعدات الحرب ودبلوماسيا أول حكومة اعترفت به ، وفى اليونان مات الملك الاسكندر من عضة قرد مسعور وخلا العرش ، وكان لا بد من اجراء انتخابات عامة لمعرفة اتجاه الرأى العام اليوناني ، ودارت الانتخابات بين قائمة الملكيين التى ترى رجوع الملك قسطنطين الى اليونان وبين فنزويلس ومؤيديه ، وكانت النتيجة مدهشة للجميع ، فقد فازت قائمة الملكيين بأغلبية ساحقة ، وفقد فنزويلس وبعض كبار مؤيديه مقاعدهم . ونتيجة لذلك غادر فنزويلس اليونان ورجع قسطنطين وقوبل مقابلة الأبطال، وزالت الدهشة عندما ظهر تفسير هذا التغيير، ففنزويلس بالرغم من وطنيته ونضاله أتى الى الحكم بمدافع وبنادق الحلفاء ، وقسطنطين غادر البلاد تحت ضغط هذه الأسلحة الأجنبية، وأجرى العهد الجديد فى اليونان تطهيرا فى

الخدمة المدنية والجيش ، وحدثت ترقيات فى الجيش لم تراع فيها الأقدمية والتجارب ، ومع ذلك لم يشمل التطهير كل ضـــباط فنزويلس ، وهذا الخلاف أظهر أثره فى قوة الجيش المعنوية ، مما ادى فى النهاية الى هزيمته ، ولم تكن ايطاليا معادية للترك ، بل انها ضد اليونان ، وكانت فرنســا تميل الى الجانب التركى ، وبقيت بريطانيا وحدها فى الميدان فى وضع غريب .. فهى لم تخفف من عدائها لتركيا ، لكنها قبضت يدها عن اليونان بعد هزيمة ورحيل صــديقها فنزويلس .. فبريطانيالاتود أن تجد نفسها فى موقف تعترف فيه بمصطفى كمال وتسليمه المضايق واستانبول وليس لها أمــل كبير فى أن يوقف الجيش اليونانى زحف الترك ، ومعنى ذلك انها سوف تجد نفسها فى مواجهة مصطفى كمال وحدها دون حلفائها ، وبالرغم من أنها كانت تتحمل العبء الأكبر عسكريا فى حراســة استانبول والمضايق فلا بد من تعزيز قواتها هناك بامدادات اخرى، كل هذا زيادة على اعبائها فى المستعمرات ومناطق الحماية والانتداب ، فهــل يتحمــل الشعب البريطانى هذه الأعباء بعد تضحياته الجسيمة خلال الحرب ؟ الاجابة من الشعب ومن أغلبية النواب وحتى من كثير من الوزراء .. كانت : لا !

استمر القتال بين الوطنيين الترك دفاعا عن ترابهم وبين الغزاة اليونان وكل يوم يمر يزداد الجيش اليونانى ضعفا ويزداد الترك قوة ، وفى حالة يأس طلب اليونان من الحلفاء السماح لهم باحتلال استانبول وكان الرفض أمرا بديهيا ..

ودون سرد للتفاصيل العسكرية ، نصــل الــى سبتمبر ١٩٢٢ حيــث دخــل التــرك مدينة ازمير ، وشاعت فيها حالة من الفوضى والتخريب والقتل مثلما حدث قبل ثلاث سنوات (مايو ١٩١٩) وهنا يصف المؤلف رد الفعــل فى بريطانيا ، حيث قال أن نزول الجيش اليونانى فى ازمير قبل ثلاث سنوات لم تبرزه الصحافة البريطانية بعناوين كبيرة ، غير أنهــا هــذه المرة ظهرت فيها العناوين الملفتة للانظـــار ، ووصفت هزيمة الجيش اليونانى وجلاء الجالية اليونانية عن ازمير وحرائقها ، وصاحب هذا نقد مركز ودقيق من صحيفة الديلى ميل لمستر لويــد جورج ، ونشر فى الديلى ميل يوم ١٥ سبتمبر ١٩٢٢ حديث لمصطفى كمال افضى به المستر دورو برايس الذى شاهد الفصل الأخير وقابل الغازى المظفر ، وقد وضح كمال مطالبه بوضوح حيث قال : « ليس لنا ما نقاتل من أجله بعد اليوم ، فحدود تركيا لا تضم سوريا والعراق ولكنها تشمل كل الاراضى التى يقطنها العنصر التركى ، فمطالبنا قبل انتصارنا الأخير وبعده واحدة لم يطرأ عليها أى تعديل ، فنحن نطالب بآسيا الصفرى وتراقيا إلى نهر ماريتزا واستانبول ، ونحن على اســتعداد لنســمح بحرية المرور فى الدردنيل ونلتزم بأن لا نقيم عليه تحصينات ، ومن العدل والانصاف أن تسمح لنا الدول باقامة الحصون على بحــر مرمرة لحماية استانبول من أى هجوم مفاجىء» وعندما سأله برايس : ماذا يكــون موقفــه لو رفض الحلفاء مطلبه فى استانبول ؟ أجاب قائلا : « نحن نصر على عاصمتنا ، ففي هذه الحالة سأجد نفسى مضـــطرا للزحــف على استانبول بجيشى وستكون مسألة أيام معدودة، ولكننى أفضل تسلمها عن طريق المفاوضــات ، مع العلم بأنه من الطبيعى ألا أظل فى انتظـار هذه المفاوضات الى أمد طويل .. » وفى مكان آخر من صحيفة الديلى ميل التى نشرت هذا الحديث ظهر خبر يقول ان الأحياء التركية فى العاصمة استانبول امتلأت بالأعلام التركية احتفالا بالنصر العظيم ، وفى أثينا استقالت الوزارة ونفيت اشاعة مغادرة الملك قسطنطين

لها ، ويوضح لنا المؤلف ان مجموعة الكبار التي قررت الصلح كانت كلها خارج الحكم في بلادها ، وفنزويلس صديق بريطانيا ولويد جورج في المنفى خارج اليونان ، وحتى في بريطانيا أصبح مركز لويد جورج ضعيفا ،حيث عارضه بعض اعضاء وزارته واعتماده البرلماني على حزب المحافظين ، والرأى العام البريطاني ممثلا في صحافته ومنظماته غالبيته ضده ، ومع ذلك ظل متمسكا برأيه يسانده ونستن تشرشل وآخرون .

وكان قرار الوزارة البريطانية منع الجيش التركي من العبور الى الجانب الأوروبي .. لذلك كان لابد من تحصين مدينة جنك وتعزيز حاميتها ، وكانت هناك جيوش حليفة في البر الآسيوي على بحر مرمرة في مواجهة العاصمة، غير انجنود ايطاليا وفرنسا بأمر منحكومتيهما رحلوا الى العاصمة ، وبذلك لم يبق في البر الآسيوي غير الحامية البريطانية في جنك في مواجهة أى هجوم محتمل من الجيش التركي، والآن وبعد رحيل جيوش ايطاليا وفرنسا ستزداد القوة التركية التي تواجه الخطوط البريطانية ، وهنا يأتي دور لورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية ومحاولاته لاشراك حلفائه في حل الأزمة وخاصة فرنسا ، ولهذا الغرض قام برحلة ومعه خبراؤه الى باريس للتفاوض مع رئيس الوزارة الفرنسية المسيو بوانكاريه الذي خلف كليمنصو ، وفي الوقت الذي كان فيه كيرزون يفاوض في باريس صاغ تشرشل برقيات موجهة الى دول الكمونولث البريطاني ووقع عليها لويد جورج طالبا منها ارسال امدادات عسكرية للشرق الأدنى،ونشرت صورة هذه البرقيات في الصحف،ولم تستجب للنداء الا نيوزيلندا .

وفي الوقت نفسه قدم بيان للصحف البريطانية وجهه رئيس الوزراء للرأى العام البريطاني وهذا من صياغة تشرشل أيضا ، وقد حشد فيه كل بيانه وعباراته المثيرة ، فخروج الحلفاء من استانبول ودخول مصطفى كمال فيها يودي بكل مكاسب الحرب وتضحياتها ، وسيكون لهذا رد فعل عنيف في العالم الاسلامي بل وفي كل الشعوب المقهورة في الحرب . وجاهر لورد كيرزون بأن هذا البيان لم يحالفه التوفيق وقابله الرأى العامالبريطاني بشعور دنو حرب اخرى ، واستمر كيرزون في مساعيه مع فرنسا وايطاليا ، وعقدت جلسات عدة في باريس مع بوانكاريه والكونت سفورزا ممثلا لايطاليا .

واحتدم النقاش مرة حيث صاح بوانكاريه في زميله البريطاني مما أثاره للدرجة التي غادر فيها قاعة الاجتماع ، وحينما خرج سفورزا شاهد اللوردكيرزون والدموع تتساقط من عينيه ، وسويت المسألة واعتذر بوانكاريه وتم التفاهم على ارسال مذكرة وقع عليها الثلاثة الى مصطفى كمال في أنقرة ، وفحواها ضرورة عقد مؤتمر لمعاهدة صلح بين الحلفاء واليونان وتركيا .. وستدعى دول اخرى لهذا المؤتمر . وفي المذكرة شروط وتحفظات بعضها غامض ، وطلبوا منه أن يرسل مندوبا عنه في الحال ، وأن لا تتحرك جيوشه من مواقعها في اثناء المؤتمر ، وفي الوقت الذي أرسلت فيه المذكرة ترأس تشرشل اجتماعا يمثل القوات البريطانية المسلحةلبحث الاستعداداتللحرب، وفي نفس اليوم الذي ارسلت فيه المذكرة دخل جنود سلاحالفرسان التركيالمنطقة المحايدةأمام جنك ، واقتربوا من التحصينات البريطانية ، ومما أثار حيرة القائد البريطاني هناك دخولهم في حالة لا تدل على أنهم ينوون الحرب بل كما يتريضون في معسكرهم .

لم يرد مصطفى كمال على مذكرة الحلفاء ، واحتشدت قوات أخرى تركية علىبحر مرمرة، وليس هناك من شخص يقدر خطورة الموقف سوى الجنرال هارنجتون القائد البريطاني في استانبول فالتعزيزات لم تصل اليه كما يريد ، والقوة التي تحت تصرفه لا تكفي لصد هجوم تركي،والمحافظةعلىالأمن والنظامفيالعاصمة . . والحامية الصغيرةفيجنك لا تقوى علىالاحتفاظ

بمواقعها ، ولذلك فقد اقترح فى برقية لرئيس أركان حرب الامبراطورية تسليم استانبول وماريتزا فى الحال لكمال وحشد الأسطول والجيش فى غالبولى ، وفى هذا الوقت قامت ثورة يقودها ضباط من الجيش فى اليونان اضطرت الملك قسطنطين لمغادرة البلاد واعتلى العرش ابنه جورج ، وذهب فنزويلس من منفاه فى باريس الى لندن رسولا من الثوار .. ولكن ماذا سيكون أثر فنزويلس الآن وجيشه مقهور وصديقه لويد جورج نفسه ينحدر الى مصيره المحتوم ؟ وواصل كيرزون محاولاته مع فرنسا وايطاليا ، ولم يستطع الوصول الى نتيجة يرغم بها الحلفاء مصطفى كمال على ارسال مندوبه للمؤتمر المزمع عقده .

ومن هنا يخلع هارنجتون رداء العسكرية ويلبس سترة السياسى والدبلوماسى وعن طريق حاكم استانبول التركى يحاول الاتصال بمصطفى كمال للتفاوض معه والوصول الى حلول سلمية . وأجبرته الظروف على سلوك هذا الطريق لأنه كان أدرى الجميع بما تجره ويلات حرب بين قوتين غير متكافئتين . وقد قام بما يجب عليه من انذارات لحكومته، غير أن الحكومة البريطانية لم ترض عن اجتماع بين كمال وهارنجتون ، وأبرقت بهذا القرار لمندوبها السامى فى استانبول ، لأن هذا يناقض مذكرة الحلفاء ، وباستشارة رؤساء القوات المسلحة علمت الوزارة أن بريطانيا ستخوض الحرب بمفردها ، وأن هارنجتون يجرى اتصالات مع مصطفى كمال ، وهزيمة الجيش اليونانى ما زالت أمام أذهانهم ، ومع ذلك كله كانت نزعة الحرب ضد تركيا دفاعا عن جنك هى السائدة فى الوزارة ، ولويد جورج يعلم أن سمعته فى هبوط مستمر ، وأن زملاءه فى الوزارة يستعدون للتخلى عنه ، ومع ذلك بعثت الوزارة الى هارنجتون بأن ينذر الترك بالانسحاب من أمام جنك ، واذا لم يستجيبوا فى وقت محدد تفتح النيران عليهم ، ومعناه اعلان الحرب ، وخالف القائد الأوامر كما قدمنا فى أول المقال، لأن اتصالاته لعقد مؤتمر فى مودينا فى البر الآسيوى قاربت مراحلها الأخيرة .

وعقد الاجتماع فعلا ، وبعث مصطفى كمال بمعاونه الأول عصمت باشا بطل موقعة اينونو، ولم يكن التفاهم سهلا ، فالجنود الترك ما زالوا فى تجمعهم واتخاذ مواقعهم ، والمفاوض التركى ما زال متمسكا بمطالبه كاملة ، وتردد هارنجتون بين مكان الاجتماع والعاصمة والبرقيات بين لندن واستانبول متصلة ليل نهار . واخيرا وهو راجع من استانبول لمودينا فاقدا أى أمل فى الوصول الى اتفاق بدأ وهو فى الباخرة كتابة خطابه النهائى وبعده ينفض الاجتماع ، وخرج من الباخرة ولم يكمل الخطاب ، وبشر بأن الاتفاق قد يتم ، وفى غرفة الاجتماع تسلم برقيتين تأمره الأولى بتحديد موعد بعده يفتح النيران وتؤكد الثانية هذا الأمر .

وضع هارنجتون البرقيتين فى جيبه وابتدأ الاجتماع ، وهذا هو المشهد الأخير حسبما دونه : « واتفقنا على تحويل المسألة الأولى والثانية لاتصالهما بالسياسة الى لوزان ، وبحث المسألتين التاليتين ، ولا أعتقد أنهما من الأهمية بمكان ، والمسألة التالية هى المنطقة المحيطة بجنك وقد طالبت بها ، أجاب عصمت بأنه لا يوافق ، وهنا توقفت المسألة ، لأن كل فريق تمسك برأيه .. قلت ان تعليمات حكومتى هى ضرورة السيطرة على هذه المنطقة، وما زال المنظر ماثلا أمامى الآن .. تلك الغرفة الكريهة ومصباح الكيروسين ومنظر رئيس أركان حرب عصمت الذى لم يرفع نظره عنى .. وكنت أتمشى من طرف الغرفة الى الطرف الآخر قائلا : يجب ان اسيطر على تلك المنطقة ولا أرضى بغيرها .. وكان عصمت يتمشى فى الجانب الآخر من الغرفة قائلا : لا أوافق وفجأة قال أوافق . وكانت مفاجأة مدهشة لم أصادف مثيلا لها فى حياتى . »

وما عقب ذلك أشياء تفصيلية ، ولكن الأزمة

مرت بسلام، وانقذت بريطانيا من خوض حرب لا مبرر لها .

وبانفراج الازمة بدات التطورات الداخلية نتيجة لها ــ خرج المستر بونارلو من عزلته ، وكان رئيسا لحزب المحافظين ، ولكنه تخلى عن الرياسة بسبب مرضه ، وانضم اليه المستر بولدوين واللورد كيرزون ، وعقدت الاجتماعات الحزبية ، وناقشوا سياسة الحكومةالائتلافية وموقف المستر لويد جورج، وتم الاتفاق على خوض انتخابات برلمانية على الأساس الحزبي التقليدى ، وفاز المحافظون باغلبية مكنتهم من تاليف حكومة حزبية برئاسة المستر بونارلو وسقط ونستن تشرشل فى دائرته الانتخابية ، لأنه كان اكبر المؤيدين لمستر لويد جورج فى موقفه من أزمة جنك ، ولم يحطم مستر لويد جورج نفسه فحسب بل حطم ما تبقى من حزب الأحرار .

والكتاب دراسة تحليلية لمسألة فيها صراع بينالقوميات والدول والأحزاب فى تلك الدول، ويفترض المؤلف فى القارئ أن يكون على معرفة بالتاريخ وخاصة بتاريخ الدولة العثمانية والمحالفات التى سبقت الحرب العالمية الأولى وتطورات الحرب وما أعقب الهدنةمن تسويات، وللقارىء ايضا أن يكون ملما بتقاليد وعرف النظام الانجليزى فى الحكم .

* * *

من الكتب الجديدة

كتب وصلت لادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

Blackwell, R.J. ; **Discovers in the Physical Sciences,** University of Notre Dane Press, London 1959.

Butler, S.T. and Messel, H. (eds) ; **Man in Inner and Outer Space,** Pergamon Press, London 1969.

Coher, R.S. and Seeger R.S. ; (eds), **Ernst Mach: Physicist and Philosopher,** Reidel, Dordrecht 1970.

Dronamraju, K.R.; (ed) : **Haldane and Modern Biology,** John Hapkins, Baltimore 1968.

Goffman, E. ; **The Presentation of self in Everyday Life,** Allen Lane, London 1969.

Goldstone, R. ; **Contexts of the Drama,** McGraw-Hill, N. Y. 1968

Gottlieb, G. ; **The Ligic of Choice,** George Allen & Unwin, London 1968.

Kain, J. F. (Ed); **Race and Poverty,** Spectrum Books, Prentice-Hall, N. J. 1969.

Knight, R. C. **Racine: Modern Judgments,** Macmillan London, 1969.

Kruse, H.D. ; Nutrition; Its Meaning, Scope and Significance, Charles **C. Thomas,** Illionois 1969.

Lincoln, J.A. ; **The Restrictive Society,** george Allen & Unwin, London 1967.

Madariaga, S. de; **Portrait of a Man Standing,** George Allen & Unwin, London 1968.

Mehden, F.R. von der; **Politics of the Developing Nations,** Prentice-Hall, N. J. 1969.

Nakayama, S.; **A History of Japanese Astronomy,** Harward U.P., Cambridge Mass. 1969.

Nordlinger, E.A. (ed); **Politics and Society,** Prentice-Hall, N. J. 1970.

Sladen, B.K. & Bang F. A. (eds): **Biology & Populations,** Elsevier, N. Y. 1969.

Schlegel, R. ; **Time and the Physical World,** Dover Publications, N. Y. 1969.

* * *

فى الأعداد التالية من المجلة



العدد الثالث ــ المجلد الأول

اكتوبر ــ نوفمبر ــ ديسمبر سنة ١٩٧٠

قسم خاص عن الانسان والكون :

١ ــ الانسان والكون فى الفكر اليوناني — للدكتور جعفر آل ياسين

٢ ــ الانسان والكون فى الفولكلور — للدكتور عبد الحميد يونس

٣ ــ الانسان والكون عند البدائيين — للدكتور احمد ابو زيد

٤ ــ الانسان والكون فى الفكر الاسلامي — للدكتور ابو الوفا التفتازاني

٥ ــ من يملك الفضاء ؟ — للدكتور علي صادق ابو هيف

غير الأبواب الثابتة

العدد الرابع ــ المجلد الاول

يناير ــ فبراير ــ مارس ١٩٧١

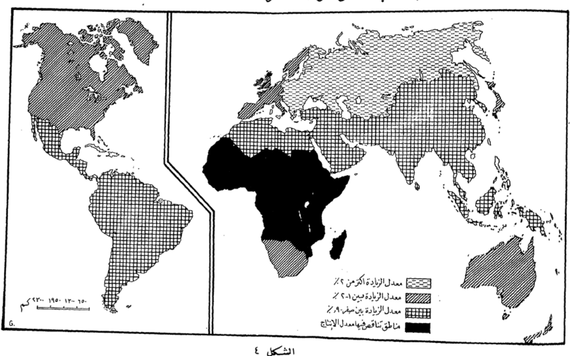
حقوق الانسان

الثمن

الخليج العربي	٤	ريالات	سوريا	٢٠٠	قرش
السعودية	٤	ريالات	ج.ع.م	٢٠	قرشا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٠	قرشا
اليمن	٧	شلنات	ليبيا	٣٠	قرشا
العراق	٢٤٠	فلسا	تونس	٤٠٠	مليم
لبنان	٢٠٠	قرش	الجزائر	٤٠٠	مليم
الاردن	٢٠٠	فلس	المغرب	٤	دراهم

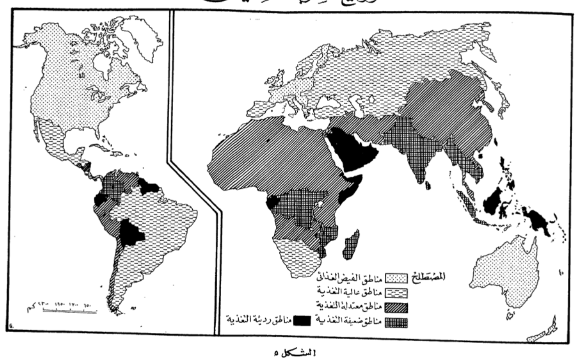
مطبعة حكومة الكويت

توزيع معدل زيادة انتاج المواد الغذائية في العالم سنويًا بالنسبة للفرد الواحد للفترة ١٩٥٧ - ١٩٦٧



الشكل ٤

توزيع المستويات الغذائية في العالم



الشكل ٥

